شرح الرسالة القشيرية

المسمى

الدلالة على فوائد الرسالة

أقدم شروح الرسالة القشيرية وأوسعها، ومعتمد شراحها

للإمام الفقيه الصوفي

أبي محمد عبد المعطي بن محمود اللخمي الإسكندري المالكي

(ت ٦٣٨هـ)

دراسة وتحقيق

د. أحمد رجب أبو سالم

مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر الشريف

مراجعة وتقديم

أ.د. عبد الرحمن محمد المراكبي

أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر الشريف

تقديم

أ.د. إبراهيم صلاح الهدهد

مدير مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر

أ.د. محمد حسين المحرصاوي

رئيس جامعة الأزهر ورئيس مجلس إدارة مركز تحقيق النصوص

الجزء الثالث

علم لإحياء التراث
والخدمات الرقمية
لندن - مصر

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت

شرح الرسالة القشيرية

المسمّى

الدلالة على فوائد الرسالة

٣

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت - حولي - شارع الحسن البصري
ص.ب ١٣٤٦ حولي
الرمز البريدي ٣٢٠١٤
تلفاكس ٠٠٩٦٥٢٢٦٥٨١٨٠
نقال ٠٠٩٦٥٥٠٤٠٩٩٢١

Dar_aldheyaa2@yahoo.com
Abdou20201@hotmail.com
www.daraldeyaa.net

دار الضياء
للنشر والتوزيع

عام
لإحياء التراث والخدمات الرقمية

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

بلد الطباعة: بيروت - لبنان
التجليد الفني: شركة فؤاد البعينو للتجليد ش.م.م. بيروت - لبنان

علم لإحياء التراث
والخدمات الرقمية
جمهورية مصر العربية - القاهرة
التجمع الخامس- الحي الثالث- ڤيلا 152
الهاتف: 00201127999511
internetional library of manuscripts(ILM)
1155726

رقم الإيداع المحلي: 2017/23123
رقم الإيداع الدولي: 3-5- 85365 -977-978
info@ilmarabia.com

الموزعون المعتمدون

دولة الكويت
دار الضياء للنشر والتوزيع - حولي — تليفاكس: ٢٢٦٥٨١٨٠ — نقال: ٥٠٤٠٩٩٢١

جمهورية مصر العربيَّة
محمول: ٠٠٢٠١٠٠٠٣٧٣٩٤٨
دار الأصالة للنشر والتوزيع - المنصورة — محمول: ٠٠٢٠١٠٩٨٣٢٥٨٣٢

المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٣٢٩٣٣٢ - ٢٠٥١٥٠٠
مكتبة الرشد - الرياض
دار التدمرية للنشر والتوزيع - الرياض — هاتف: ٤٩٢٥١٩٢ — فاكس: ٤٩٣٧١٣٠
دار المنهاج للنشر والتوزيع - جدة — هاتف: ٦٣١١٧١٠
مكتبة المتنبي - الدمام — هاتف: ٨٣٤٤٩٤٦ — فاكس: ٨٤٣٢٧٩٤

برمنكهام - بريطانيا
مكتبة سفينة النجاة — هاتف: ٠٠٤٤٧٤٧٢٠٤٢٨٢٤ — هاتف: ٠٠٤٤٧٤٩٥٠٧٤٠٢٥

المملكة المغربية
دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء — هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٢٧٤٨١٧

الجمهورية التركية
مكتبة الإرشاد - إسطنبول — هاتف: ٠٢١٢٦٣٨١٦٣٣/٣٤ فاكس: ٠٢١٢٦٣٨١٧٠٠

جمهورية داغستان
مكتبة ضياء الإسلام — هاتف: ٠٠٧٩٨٨٣٠٣١١١١ - ٠٠٧٩٨٨٧٧٣٠٣٠٦
مكتبة الشام - خاسافيورت — هاتف: ٠٠٧٩٢٨٨٧٢٩٥٠٥ - ٠٠٧٩٢٨٨٦٦١٤٧٤

الجمهورية العربية السوريَّة
دار الفجر - دمشق - حلبوني — هاتف: ٢٢٢٨٣١٦ — فاكس: ٢٤٥٣١٩٣

الجمهورية السودانية
مكتبة الروضة الندية-الخرطوم- شارع المطار — هاتف: ٠٠٢٤٩٩٩٠٠٤٣٥٧٩

المملكة الأردنية الهاشميَّة
دار محمد دنديس للنشر والتوزيع - عمان — هاتف: ٠٦٤٦٥٣٣٩٠ - ٠٧٨٨٢٩١٣٣٢

دولة ليبيا
مكتبة الوحدة - طرابلس
شارع عمرو ابن العاص — هاتف: ٠٩١٣٧٠٦٩٩٩ - ٠٢١٣٣٣٨٢٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ الصِّدْقِ»

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أَخْبَرَنَا الإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ فُورَكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ أَحْمَدَ الأَصْبَهَانِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بِشْرٍ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ[٢] قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَزَالُ العَبْدُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَلَا يَزَالُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومعنى هذا الخبرِ صحيحٌ، خرَّجَهُ (مسلمٌ)[٣]، و(البخاريُّ)[٤]، و(الموطَّأ)[٥]، باختلافِ ألفاظٍ.

والنَّظرُ فِي حقيقةِ الصِّدقِ وماهيَّتِهِ، وأقسامِهِ، واختلافِ أحكامِهِ، والأسبابِ الَّتِي تُقوِّيهُ، والثَّمَرَاتِ الَّتِي تترتَّبُ عليهِ.

أمَّا حقيقتُهُ فِي نفسِهِ: فإنَّهُ يُطلَقُ على معانٍ، ولهُ محالٌّ؛ فالصِّدقُ في اللِّسانِ وفِي القلبِ وفِي الأفعالِ، فيحتاجُ كلُّ واحدٍ منهُمْ إلى لفظٍ يخصُّهُ، فحقيقتُهُ في اللِّسانِ: الإخبارُ عنِ الشَّيءِ علَى ما هوَ عليهِ، وفِي القلبِ: العزمُ الأكيدُ، وفِي الأفعالِ:

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٣.

(٢) في مسنده ص٣٣.

(٣) في صحيحه ٤/٢٠١٣ ـ حديث رقم (٢٦٠٧).

(٤) في صحيحه ٥/٢٢٦١ ـ حديث رقم (٥٧٤٣).

(٥) أي: مالكٌ في الموطأ ٢/٩٨٩.

إيقاعُهَا علَىٰ وجْهِ النَّشاطِ والجدِّ منْ غيرِ فُتُورٍ، وجميعُ ذلكَ جاءَتْ بهِ الأدلَّةُ.

فأمَّا الصِّدقُ فِي اللِّسانِ؛ فهوَ الإخبارُ عنِ الشَّيءِ علىٰ مَا هوَ عليهِ.

قالَ الجوهريُّ فِي **(الصِّحاحِ)**[١]: «الصِّدقُ [١٢٠/٢ب]: الإخبارُ عنِ الشَّيءِ علىٰ مَا هوَ عليهِ»؛ ومنهُ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

وقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣] يعنِي: النَّبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكرٍ[٢].

وأمَّا صِدْقُ القلبِ والفِعْلِ فكثيرٌ في كتابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ فمنهُ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، قيلَ: مَوْتُهُ[٣]. وقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: ٨].. وفي آخرِهِ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾.

وقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٦].. الآيةَ.

وأمَّا أحكامُهُ: فالوجوبُ والنَّدْبُ والإباحةُ:

فأمَّا الواجبُ منهُ فكلُّ محلٍّ تعيَّنَ القولُ فيهِ أوِ الفعلُ وجبَ الصِّدقُ فيهِ حتَّىٰ يقعَ، فإنَّ حقيقةَ الصِّدقِ الجدُّ.

---

(١) الذي في الصحاح ١٥٠٥/٤: «الصِدْقُ: خلاف الكذب».

(٢) هو قول علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في: تفسير السمرقندي ١٧٨/٣، وفيه أقوال أخرىٰ؛ قال البغوي: «قال ابن عباس: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ يعني: رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بـ(لا إله إلا الله)، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ الرسول أيضا بلغه إلىٰ الخلق. وقال السدي: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ جبريل جاء بالقرآن ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلقاه بالقبول.... وقال قتادة ومقاتل: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هم المؤمنون» معالم التنزيل ٧٩/٤. وانظر: تفسير الطبري ٣/٢٤، والسمعاني ٤٧٠/٤، وزاد المسير ١٨٢/٧.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٣٧٨/٤، وزاد المسير ٣٧١/٦، وتأمل فيه بقية الأقوال.

وبيانُهُ: أنَّ مَنْ رأىٰ منكرًا وهوَ قادرٌ علىٰ تغييرِهِ بلسانِهِ وجبَ عليهِ النُّطقُ وهوَ حقٌّ، ومَنْ سُئِلَ عمَّا يعلمُهُ منَ الحقِّ وتعيَّنَ عليهِ الجوابُ وجبَ عليهِ الصِّدقُ، وكذلِكَ النُّصحُ وغيرُهُ.

وأمَّا الأفعالُ فكلُّ فعلٍ أوجبَ الشَّرعُ تحصيلَهُ ولا يتمُّ إلَّا بالنِّيَّةِ والفعلِ، ولا خلاصَ منَ الحرامِ إلَّا بإتيانِهِ، فالصِّدقُ فيهِ واجبٌ حتَّىٰ يقعَ.

وأمَّا الصِّدقُ المُباحُ فكلُّ محلٍّ لا يجبُ النُّطقُ فيهِ، وذلكَ منَ الإخبارِ عنْ أمورِ النَّاسِ وقضايَا البلدانِ، ومَا لا يتعيَّنُ منَ الكلامِ فيهِ، والإنسانُ مخيَّرٌ بينَ أنْ يتكلَّمَ وبينَ ألَّا يتكلَّمَ، فهوَ مباحٌ، وإنْ كانَ الكذبُ في مثلِهِ حرامًا، فلَا يلزمُ منْ تركِ الكذبِ والخلاصِ منهُ النُّطقُ ولا بُدَّ فإنَّهُ يسكتُ ولَا يتكلَّمُ ويسكتُ منَ الكذبِ.

وأمَّا معنَىٰ كونِهِ مباحًا: أنَّهُ استوىٰ فعلُهُ وتركُهُ بالنِّسبةِ للإخبارِ بهِ.

وأمَّا مَا يُقوِّي علَىٰ الصِّدقِ ويحبِّبُهُ للعبدِ ويؤكِّدُهُ فِي قلبِهِ: فأسبابٌ متعدِّدَةٌ؛ منهَا دُنيويٌّ، ومنهَا أُخرويٌّ:

فأمَّا الدُّنيويُّ: فإنَّ مَنْ عُرِفَ بالكذبِ لمْ يُوثَقْ بخبَرِهِ عَنْ شيءٍ منَ الأشياءِ، ونزلَ قدرُهُ عندَ النَّاسِ، ولا يُستشَارُ في مصلحةٍ، ولَا يُقْبلُ منهُ إشارةٌ إلىٰ خبرٍ، ولَوْ أخبَرَ عَنْ أُمُورٍ معروفةٍ بالعادةِ بقِيَ فِي النَّفسِ مِنْ خبَرِهِ شيءٌ.

وأمَّا فِي الآخرةِ: فكفَىٰ بالأخبارِ الصَّحيحةِ الدَّالَّةِ علَىٰ كونِهِ يُكْتَبُ عندَ اللهِ نَقْصًا، وكذلِكَ ذمُّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ فِي كتابِهِ، [بقولِه]: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤]، وقوله: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، ثمَّ قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ

رَبِّهِمْ/أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨]، [١٢١/٢أ]، وقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥]، وكلُّ دليلٍ دلَّ علَىٰ حُسْنِ الصِّدقِ فِي الخبرِ فهوَ دليلٌ علىٰ قُبْحِ الكذبِ فيهِ شرْعًا.

وأمَّا ثمراتُ الصِّدقِ: فمدحُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ الصَّادقِينَ فِي الكتابِ العزيزِ والخبَرِ الصَّحيحِ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، فأمرَ بالكينُونَةِ معَهُمْ لشرفِهِمْ عندَهُ، والخبَرُ عنِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رواهُ (مسلمٌ)(١)، و(البخاريُّ)(٢) يرفعانِهِ إلَىٰ عبدِ اللهِ ابنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا».

وفِي لفظٍ آخرَ أخرجَهُ (مسلمٌ)(٣): «إِنَّ الصِّدْقَ بِرٌّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ فُجُورٌ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَحَرَّىٰ الكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ كَذَّابًا».

وكفَىٰ بهذَينِ الخبَرَينِ دليلًا علَىٰ فوائدِ الصِّدقِ؛ وهوَ أنَّهُ يهدِي إلىٰ البرِّ، يعنِي: إلَىٰ الطَّاعةِ، وفِي الخبرِ الآخرِ: «إِنَّ الصِّدْقَ نَفْسَهُ بِرٌّ، وَأَنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الجَنَّةِ». هذَا فوائدُهُ في الآخرةِ.

وأمَّا فوائدُهُ فِي الدُّنيَا فتضمَّنَهَا آخرُ الخبَرَينِ، وهوَ قولُهُ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَصْدُقَ

---

(١) في صحيحه ٤/٢٠١٢ ـ حديث رقم (٢٦٠٧).

(٢) في صحيحه ٥/٢٢٦١ ـ حديث رقم (٥٧٤٣).

(٣) في صحيحه ٤/٢٠١٣ ـ حديث رقم (٢٦٠٧).

وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا»، فإذَا اجتهدَ فِي الدُّنيَا فِي تكلُّفِ الصِّدقِ فِي أقوالِهِ وأحوالِهِ ونيَّتِهِ وأعمالِهِ كتبَهُ اللهُ عندَهُ صِدِّيقًا مبالغةً في الصِّدقِ.

ونحنُ نذكرُ أقوالَ المشايخِ ونُجريهَا علىٰ هذِهِ الأصولِ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالَىٰ ـ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: **«الصِّدْقُ عِمَادُ الأَمْرِ، وَبِهِ تَمَامُهُ، وَفِيهِ نِظَامُهُ، وَهُوَ تَالِي دَرجَةِ النُّبُوَّةِ، قَالَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾** [النساء: ٦٩] **... الآية.**

وَالصَّادِقُ الاِسْمُ اللَّازِمُ مِنَ الصِّدْقِ[2]، وَالصِّدِّيقُ: المُبَالَغَةُ مِنْهُ؛ وَهُوَ الكَثِيرُ الصِّدْقِ الَّذِي الصِّدْقُ غَالِبُهُ؛ كَالسِّكِّيرِ وَالخِمِّيرِ وَبَابِهِ.

وَأَقَلُّ الصِّدْقِ: اِسْتِوَاءُ السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ.

وَالصَّادِقُ: مَنْ صَدَقَ فِي أَقْوَالِه.

وَالصِّدِّيقُ: مَنْ صَدَقَ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«الصِّدقُ عمادُ** [٢/١٢١ب] **الأمرِ، وتَمَامُهُ، وفيهِ نظامُهُ»**، معناهُ: أنَّ العبدَ لا يستغنِي عنهُ فِي مقامٍ منَ المقاماتِ، وإنْ تعالَتْ فِي الدَّرجاتِ، فإنَّ بالإخلاصِ يحقِّقُ المقامَ، وبالجدِّ يسلكُ فيهِ، فمتَىٰ يزنِ العبدُ حالَهُ فيمَا هوَ فيهِ بميزانِ الشَّريعةِ وكانَ فاترًا فِي سُلُوكِهِ لَمْ يَنْتَقِلْ عَنْ مَقَامِهِ، ومَنْ مُنَّ عليهِ بالصِّدقِ؛ وهوَ الجِدُّ فِي السُّلوكِ قطعَ فِي المدَّةِ القريبةِ مَا لا يقطعُهُ غيرُهُ في الأمدِ الطَّويلِ، وكلُّ شيءٍ رفيعٌ لا يُنَالُ إلَّا بالجدِّ، فمتَىٰ أعطيتَهُ بعضَكَ قلَّ نيلُكَ منهُ، وإنْ أعطيتَهُ كُلَّكَ أعطاكَ بعضَهُ، وهذَا أمرٌ مطَّردٌ في كلِّ أمرٍ رفيعٍ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٣.

(٢) أي: المشتق من فعله.

دنيويٍّ أَوْ أُخرويٍّ.

فإذا كنَّا نتكلَّمُ في الأُخرويِّ ورفيعِ المقاماتِ فهيهاتَ لنيلِ ذلكَ معَ الفُتُورِ والكَسَلِ هيهاتَ، ولذلِكَ كانَ «أكلُ الأبدالِ فاقةً، ونَومُهُمْ غَلَبَةً، وكلامُهُمْ ضَرُورَةً»[١]؛ وذلكَ لِصَرْفِ كُلِّيَّتِهِمْ لمَا همْ فيهِ، ولَا يرجعُونَ إلىٰ غيرِ اللهِ إلَّا لضرورةٍ، فيكونُ بهذا القَصْدِ رُجُوعُهُمْ طاعةً وعَوْنًا[٢].

وقولُهُ: «الصَّادقُ»: الاسمُ اللَّازمُ؛ أيْ: لمَنْ قامَ بهِ صدقٌ، والتَّصديقُ مبالغةٌ لمَنْ كثُرَ صِدقُهُ علىٰ مَا قدَّمْنَاهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ خِضْرَوَيْهِ[٤]: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ مَعَهُ فَلْيَلْزَمِ الصِّدْقَ، فَإِنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ قَالَ: ﴿وَكُونُواْ مَعَ[٥] ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ومعنَىٰ كونِهِ معَهُمْ فِي العَونِ والحفْظِ والكَلاءَةِ؛ لأَنَّهُمْ صَدَقُوا فيهِ وفِي بُلُوغِ مَطْلُوبِهِ والقيامِ بِحَقِّهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٦]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[٧]: الصَّادِقُ يَتَقَلَّبُ فِي اليَومِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً، والمُرَائِي يَثْبُتُ عَلَىٰ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٣٥.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٣.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٤٢، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٢٦.

(٥) في (أ): «إِنَّ اللهَ مَعَ»، وهو تحريف.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٣.

(٧) ورد قوله في: طبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٥، ومدارج السالكين ٢/٢٧٤، والفتوحات الربانية ٢/٢٧٤.

أَرْبَعِينَ سَنَةً».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الصَّادقَ يتقلَّبُ في أحوالِهِ ومُعَاملاتِهِ علىٰ مَا يقتضيهِ الوقتُ ويُوجبُهُ الدَّليلُ ممَّا هوَ الأفضلُ فِي حقِّهِ ويدورُ معَ الدَّليلِ حيثُ دارَ، والمُرائِي يستحسنُ حالةً يظنُّهَا مُوصِّلَةً لمقصودِهِ؛ مِنْ رفعتِهِ عندَ الخَلْقِ، ونَيْلِ مُرَادِهِ، وهوَ يعملُ علىٰ التَّحقيقِ في غضبِ ربِّهِ عليهِ وإبعادِهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ[(٢)]: لَوْ أَرَادَ الصَّادِقُ أَنْ يَصِفَ مَا فِي قَلْبِهِ مَا نَطَقَ بِهِ لِسَانُهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [١٢٢/٢أ] وهذَا جيِّدٌ؛ فإنَّ العبدَ لَا يمكنُهُ أنْ يعبِّرَ بلسانِهِ عَنْ كلِّ مَا يُدْرِكُهُ منَ المَحْسُوسَاتِ، ويفرِّقُ بينَهُ وبينَ مَا يُدَانِيهِ لِعُسْرِ العِبَادَاتِ، فكيفَ بمَواهبِ القُلُوبِ مِمَّنْ صحَّتْ مُعَاملتُهُ لعلَّامِ الغيوبِ، ولذلِكَ كانَ سيِّدُ العربِ والعجمِ والمُفضَّلُ علىٰ سائرِ الأنبياءِ والأُممِ أكثرَ مَا يجرِي علىٰ لسانِهِ[(٣)]: «لَا، وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ».

وقيلَ: القلبُ أشدُّ تقلُّبًا منْ ريشةٍ فِي الصَّحراءِ فِي الرِّيحِ العَاصِفِ، فَمَنْ تجسَّسَ لِقَلْبِهِ فِي وَقْتِ فَرَاغِهِ وجَدَ بعضَ مَا ذكرَ، واللهُ المُدبِّرُ[(٤)].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَقِيلَ[(٦)]: الصِّدْقُ: القَوْلُ بِالحَقِّ فِي مَوَاطِنِ الهَلَكَةِ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٦٣/٢.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٨٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٤٤٠/٦ ـ حديث رقم (٦٢٤٣).

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٦٣٦/٢.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٦٣/٢.

(٦) نسب للنهرجوري في: تفسير السلمي ١٤٢/٢، وشذرات الذهب ٣٢٦/٢، وورد في: مدارج السالكين ٢٧٤/٢، وسير أعلام النبلاء ٢٣٣/١٥، وتاريخ الإسلام ٢٧٩/٢٤.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا صدْقُ اللِّسانِ عندَ مَنْ يُرجَىٰ ويُخَافُ، فيقولُ الصَّادقُ فِي هذَا المَوطنِ الحقّ ولَوْ كانَ مُرًّا مُؤلمًا، كمَا فعلَ أهلُ الجدِّ منَ المتقدِّمينَ لمَّا رأَوا عمرَ بنَ الخطَّابِ معَ جلالةِ قَدْرِه، وكانَ قَدْ قسَّمَ حُلَلًا علىٰ المسلمينَ حُلَّةً حُلَّةً، فلمَّا خطبَ وعليهِ حُلَّتَانِ، فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ثمَّ قالَ[١]: «اسمعُوا وأطيعُوا، فقامَ إليهِ بعضُهُمْ: لا نسمعُ ولَا نُطيعُ، فقالَ: ولمَ يا ابنَ أخِي؟ قالَ: أعطيتَ للنَّاسِ حُلَّةً حُلَّةً وأخذتَ لنفسِكَ حلَّتَينِ، فصاحَ باسمِ ولدِهِ عبدِ اللهِ وأقسَمَ عليهِ لَهَذِهِ حُلَّتُهُ؟ فقالَ: اللَّهمَّ نَعَمْ»، فأخبَرَهُمْ أنَّهَا حُلَّةُ ولدِهِ عبدِ اللهِ، وهذَا إنَّمَا يحسنُ في زمانٍ غيرِ هذَا الزَّمانِ، فِي وقتِ غَلَبَةِ الظَّنِّ علىٰ الانتفاعِ بالكَلامِ، والسَّلامةِ مِنْ فَسَادِ الأبدانِ والأَدْيَانِ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعُونَ الكبيرِ المُتَعَالِ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[٢]: «وَقِيلَ[٣]: الصِّدْقُ: مُوافَقَةُ السِّرِّ النُّطْقَ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ ما قرَّرْنَاهُ مِنْ أنَّ حقيقةَ الصِّدقِ في القولِ الإخبارُ عنِ الشَّيءِ علَىٰ مَا هوَ بهِ، ونطقُ اللِّسانِ عبارةٌ عمَّا فِي القلبِ، فَإِنْ عبَّرَ عمَّا في القَلْبِ حقيقةً كانَ صِدْقًا، وَإِنْ عَبَّرَ عمَّا فِي القَلْبِ تَزْوِيرًا كانَ كَذِبًا.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[٤]: «وَقَالَ القَنَّادُ[٥]: الصِّدْقُ: مَنْعُ الحَرَامِ مِنَ الشِّدْقِ[٦]».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا هوَ الصِّدقُ فِي الأفعالِ، وذلكَ أنَّ مَنْ صدقَ

---

(١) ورد قوله في: كشف الأسرار ٣/٣٥٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٤.

(٣) ورد في: مدارج السالكين ٢/٢٧٤، ومعجم مقاليد العلوم ص٢٢٠، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٥٧.

(٤) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ١٣/١٥٧، ونسب للشبلي في: تهذيب الأسرار ص١٨٨.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٤.

(٦) أي: جانب الفم.

في طلبِ الحلالِ لَمْ يَقْرَبْ شُبْهَةً ولا حَرَامًا، وإنْ تيسَّرَ لهُ أكلُهُ ودُفِعَ إليهِ، ووصلَ بهِ مِنْ غَيْرِ سُؤالٍ ولا سَبَبٍ لمَنْ يقبلُهُ، ولذلِكَ عبَّرَ عنهُ بالشَّدْقِ، ومِنْ ذلكَ إذا دُعِيَ إلى طعامِ ظَالمٍ، أوْ أُتِيَ [٢/١٢٢ب] بهِ إليهِ لَمْ يَأكلْهُ إلَّا جَبْرًا، ومِنْ دَلِيلِ صِدْقِهِ أنْ يَمْنَعَهُ اللهُ ـ تعالى ـ منهُ قَهْرًا وَإِجْبَارًا، كمَا فَعَلَ بالمُحَاسِبِيِّ، وبِشْرِ بنِ الحارثِ تارةً لا يمدُّ يدَهُ إليهِ وتارةً لا يمكنُهُ ابتلاعُهُ[١]، وهذَا كلُّهُ دليلٌ على صِدْقِهِ، فلمَّا صَدَقَ اللهَ في الانكفَافِ حفظَهُ الحقُّ وجَمَّلَهُ بالعَفَافِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ عَبْدُ الوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ[٣]: الصِّدْقُ: الوَفَاءُ للهِ ـ سبحانه ـ بِالعَمَلِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ فِي الوفاءِ بالعزمِ على الأعمالِ، ومنهُ قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]، فكلُّ مَنْ عَاهدَ علَى عملٍ للهِ فإنْ كانَ نذرًا وجبَ عليهِ الوفاءُ بهِ، وإنْ كانَ عَزْمًا ونيَّةَ خيرٍ كانَ مِنْ أَهْلِ الوَفَاءِ والصَّفاءِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ نُصَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ[٥]: لَا يَشُمُّ رَائِحَةَ الصِّدْقِ عَبْدٌ دَاهَنَ نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ واللهُ أعلمُ ـ لا يشمُّ رائحةَ الصِّدقِ الرَّفيعِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٤.

(٣) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٣٣٥، ومدارج السالكين ٢/٢٧٤.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٤.

(٥) ورد قوله في: الزهد الكبير ١/٣٤٣، وشعب الإيمان ٥/٦٠، وآداب الصحبة للسلمي ص٧٤، والأذكار للنووي ص٦، ومدارج السالكين ٢/٢٧٦.

والدَّرجةِ الكاملةِ فيهِ معَ اللهِ مَنْ داهنَ نفسَهُ أوْ غيرَهُ، فإنَّ العبدَ يداري نفسَهُ أوْ غيرَهُ لصَلاحِ[١] الحالِ، وتيسيرِ الخلطةِ، وتحسينِ العِشْرةِ في الاستقبالِ.

هذَا ما لمْ تجرمْ عليهِ مداراتُهُ ذَنْبًا، أوْ تقطعْ عليهِ طريقًا، ومتىٰ وقعَ فِي شَيءٍ مِنْ ذَلِكَ انتقلَ عنِ المُدَاراةِ إلىٰ المُدَاهَنَةِ، فإنَّ الفرقَ بينَهُمَا أنَّ المداهنَ يختلُّ عليهِ بعضُ دينِهِ ويسمحُ بهِ، والمُداري يسمحُ ببعضِ دنياهُ جبرًا لوقتِهِ وحَالِهِ، فمَنْ كمُلَ صِدْقُهُ لَمْ يُدَاهِنْ نفسَهُ بأنْ يسمحَ لهَا فِي الإخلالِ بشيءٍ منَ الواجباتِ، ولا ارتكابِ شيءٍ منَ المحرَّماتِ في وقتٍ منَ الأوقاتِ، وإنْ كانَ مِنْ صَغَائِرِ السَّيِّئَاتِ، فإنَّ الإقدامَ علىٰ الصَّغائرِ معَ الاختيارِ، وعدمِ التَّوبةِ منهَا، والاستخفافِ بحقِّهَا منْ جُملةِ الإصْرَارِ، وقَدْ قالَ أبو بكرٍ الصِّديقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «لَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ، وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ اِسْتِغْفَارٍ»، فلَا يشَمُّ علَىٰ هذا التَّقريبِ مقامَ الصِّدقِ الرَّفيعِ مَنْ هوَ معَ نفسِهِ وغيرِهِ في هذا الحالِ الخَسيسِ الوَضِيْعِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ القُرَشِيُّ[٤]: الصَّادِقُ الَّذِي يَتَهَيَّأُ لَهُ أَنْ يَمُوتَ، وَلَا يَسْتَحِي مِنْ سِرِّهِ لَوْ كُشِفَ، قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾** [الجمعة: ٦]».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** [١٢٣/٢أ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّهُ لا يُبالِي مَنْ هجمَ عليهِ الموتُ وانكشفَ سرُّهُ للنَّاسِ مَنِ استوَىٰ ظاهرُهُ وباطنُهُ، وربَّمَا كانَ باطنُهُ خيرًا منْ ظَاهِرِهِ، فإنَّ مَنْ كانَ عندَهُ نقصٌ يُخفيهِ عنِ النَّاسِ فهوَ يكرَهُ أنْ يطَّلِعَ النَّاسُ عليهِ في

(١) في الأصل: ليصلح، والصواب المثبت.
(٢) أخرجه القضاعي في الشهاب ٤٤/٢ عن ابن عباس، والمناوي في الفتح السماوي ٤٨٣/٢.
(٣) الرسالة القشيرية ٣٦٤/٢.
(٤) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص٨٩، ومدارج السالكين ٢٧٦/٢، وبصائر ذوي التمييز ٤٠٤/٣، وإتحاف السادة المتقين ١٥٧/١٣.

حياتِهِ وبعدَ مماتِهِ ؛ خوفًا لنزولِ درجتِهِ عندَ النَّاسِ ، وإنْ كانَ لا يلحقُهُ منهُ ضررٌ بعدَ وفاتِهِ ، فإنْ كانَ النَّقصُ الَّذي يستُرُهُ فِي دينِهِ فهوَ يكرهُ كشفَهُ عليهِ بعدَ وفاتِهِ ؛ خَوْفًا منِ اطِّلاعِهِمْ عليهِ في دُنياهُ وآخرتِهِ ، ونَعُوذُ باللهِ منَ العَمَلِ لِغيرِ اللهِ[1].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «سَمِعْتُ الأُسْتاذَ أَبا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: كَانَ أَبُو عَلِيٍّ الثَّقَفِيُّ يَتَكَلَّمُ يَوْمًا ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَنَازِلٍ: يَا أَبَا عَلِيٍّ ، اِسْتَعِدَّ لِلْمَوْتِ فَلَا بُدَّ مِنْهُ.

فَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: وَأَنْتَ يَا عَبْدَ اللهِ ، أَمُسْتَعِدٌّ لِلْمَوْتِ؟ فَلَا بُدَّ مِنْهُ ، فَتَوَسَّدَ عَبْدُ اللهِ ذِرَاعَهُ ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: قَدْ مُتُّ ، فَانْقَطَعَ أَبُو عَلِيٍّ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يُقَابِلَهُ بِمَا فَعَلَ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ لِأَبِي عَلِيٍّ عِلَاقَاتٌ[3] ، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ مُجَرَّدًا لا شُغْلَ لَهُ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علَى الصِّدقِ فِي سُلُوكِ الطَّريقِ ، وَقَطْعِ الأسبابِ المُشْغِلَةِ عنهُ وما يمنعُ منَ الجدِّ فيهِ ، فلمَّا كلَّمَهُ أَخُوهُ وَوَعظَهُ استعدَّ للمَوتِ فَوضَعَ رأسَهُ في مَوضِعِهِ الَّذي هوَ فيهِ وتمدَّدَ ، وقالَ: «قَدْ متُّ» ، فانقطعَ الواعظُ الَّذي كانَ وعظَهُ ، فإنَّ هذَا الَّذِي تمدَّدَ لمْ يكنْ لهُ سببٌ يمنعُهُ عَنْ محبَّةِ الموتِ ، وكانَ للواعظِ أسبابٌ لَمْ يُمكنْهُ أنْ يُقابلَهُ بفعلِهِ فِي التَّهيُّؤِ للموتِ[4].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[5]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: كَانَ أَبُو العَبَّاسِ الدَّيْنُورِيُّ يَتَكَلَّمُ ، فَصَاحَتْ عَجُوزٌ فِي المَجْلِسِ صَيْحَةً ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٣٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٤.

(٣) أي: أسباب دنيوية.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٣٧.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٤.

فَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ[١]: مُوتِي، فَقَامَتْ وَخَطَتْ خُطُواتٍ، ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ: قَدْ مُتُّ، وَوَقَعَتْ مَيِّتَةً!».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ صِدْقِ الالتجاءِ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وصحَّةِ الحالِ والمعاملةِ بينَ العبدِ وبينَهُ، فلمَّا تكلَّمَ الدَّينوريُّ كلامًا فيمَا كانَ فيهِ منَ المحبَّةِ أوْ غيرِهَا، ووجدَتْ هذِهِ المرأةُ وجْدًا عظيمًا حتَّىٰ غلبَتْ علىٰ حالِهَا وظهرَ علَىٰ ظاهرِهَا فقالَ لهَا: «مُوتِي»، معناهُ: إنْ كنتِ صَادِقَةً فِي كَونِكِ مغلوبةً، فلمَّا [١٢٣/٢ب] سمِعَتْ كلامَهُ رجعَتْ إلىٰ اللهِ فِي ألَّا يفضحَهَا، فأحسَّتْ[٢] أماراتِ استجابةِ الدُّعاءِ، وأحسَّتْ أماراتِ المَوتِ، فقالَتْ: «قَدْ مُتُّ» وخرَّتْ ميِّتةً، فهذَا وجهُ موتِهَا ـ واللهُ أعلمُ ـ[٣].

ويحتملُ أنْ يكونَ أحسَّتْ بموتِهَا لمَا حملتْهُ منْ قوَّةِ الحالِ، فقالَتْ: «قَدْ مِتُّ»، وعبَّرَتْ بالشَّيءِ عمَّا يقاربُهُ ويُدَانِيه.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٤]: **«وَقَالَ الوَاسِطِيُّ[٥]: الصِّدْقُ: صِحَّةُ التَّوْحِيدِ مَعَ القَصْدِ».**

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا يشملُ صِدْقَ النِّيَّةِ، فإنَّ القَصْدَ الصَّحيحَ معَ إفرادِ المقصودِ والجدِّ في البلوغِ إليهِ والصِّدقِ، فمتَىٰ أفردَ العبدُ ربَّهُ بالقَصْدِ وجَدَّ فِي تَحْصِيلِ القُرْبِ منهُ كَانَ صَادقًا فِي قَلْبِهِ وحَالِهِ جَمِيعًا.

---

(١) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٨٤١، وطبقات الأولياء ص٧٩.

(٢) في (أ): فحست، وكذا اللفظ الذي يليه، والأصح المثبت.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٣٧.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٤.

(٥) ورد قوله في: الغنية ص٣٣٥، ومعجم مقاليد العلوم ص٢٢٠، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٤١. وورد بلا نسبة في: تهذيب الأسرار ص١٨٦ ـ ولفظه: «صحة التَّوجه».

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ: نَظَرَ عَبْدُ الوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ إِلَىٰ غُلَامٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قَدْ نَحَلَ بَدَنُهُ، فَقَالَ: يَا غُلَامُ، تُدِيمُ الصَّوْمَ؟ فَقَالَ: وَلَا أُدِيمُ الإِفْطَارَ، فَقَالَ: تُدِيمُ القِيَامَ بِاللَّيْلِ؟ فَقَالَ: وَلَا أُدِيمُ النَّوْمَ، فَقَالَ: فَمَا الَّذِي أَنْحَلَكَ؟ فَقَالَ: هَوًىٰ دَائِمٌ، وَكِتْمَانٌ دَائِمٌ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ الوَاحِدِ: اُسْكُتْ فَمَا أَجْرَأَكَ! ، فَقَامَ الغُلَامُ وَخَطَا خُطْوَتَيْنِ وَقَالَ: إِلَهِي، إِنْ كُنْتُ صَادِقًا فَخُذْنِي، فَخَرَّ مَيِّتًا**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أحدُ الوجهَينِ الَّذِي فسَّرنَا بهِ موتَ المَرأةِ بسؤالِهَا إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أنْ يقبضَهَا، وذلِكَ أنَّ عبدَ الواحدِ بنَ زيدٍ مِنْ سَادةِ العلماءِ، وأنَّهُ لمَّا رأىٰ هذا الشَّابَّ ونُحُولَ جِسْمِهِ ورأىٰ عليهِ آثارَ الخيرِ، فأرادَ أنْ يختبِرَ باطنَهُ ومِنْ أيِّ سببٍ كانَ نُحُولُهُ، فقالَ لهُ: «**تديمُ الصِّيامَ؟**»، وهوَ سببٌ فِي النُّحولِ، «**فقالَ لهُ: ولَا أديمُ الإفطارَ**»، أيْ: أصومُ وأفطرُ، فقالَ لهُ: «**تُديمُ القِيَامَ باللَّيلِ؟ فقالَ: ولَا أديمُ النَّومَ**»، أيْ: أقومُ وأنامُ، فلمَّا لمْ يرَ عبدُ الواحدِ ما ذكرَهُ كافيًا فِي النُّحولِ، فقالَ لهُ: «**ما أنحلَكَ؟ فقالَ: هوًىٰ دائمٌ، وكتمانٌ دائمٌ عليهِ**»، يعنِي: محبَّةً للهِ لَا يظهرُهَا لأحدٍ، فلذلكَ أثَّرَ فِي جسمِهِ، فكرِهَ عبدُ الواحدِ منهُ هذهِ الدَّعوىٰ؛ وهيَ[(٢)] دوامُ المحبَّةِ ودوامُ الكتمانِ، وأنَّ هذهِ حالةٌ عظيمةٌ، فإنَّ الغالبَ علىٰ المُحِبِّ النُّطقُ بمحبوبِهِ ودوامُ القلقِ حتَّىٰ يظهرَ علىٰ ظاهرِهِ، فقالَ لهُ: «**اسكُتْ، ما أجرأَكَ علَىٰ اللهِ!**»، لقدِ ادَّعَيْتَ مقامًا عظيمًا لا ينبغِي لكَ أنْ تدَّعِيَهُ، وكانَ الشَّابُّ صَادِقًا في دَعْوَاهُ، فقامَ وَمَشَىٰ خُطُواتٍ وقالَ جَهْرًا: «**اللَّهمَّ إنْ** [٢/١٢٤أ] **كنتُ صادِقًا فاقبِضْنِي إليكَ فخرَّ مَيِّتًا**».

وهذَا ممَّا ينبغِي التَّحَسُّسُ لهُ، وهوَ ما قدَّمْنَاهُ في حكايةِ الشَّابِّ الَّذِي أتىٰ ممشاذ الدَّينوريّ وسَأَلَهُ العصيدةَ فقالَ لهُ: «إرادةٌ وعصيدةٌ!»[(٣)]، وهامَ الشَّابُّ علىٰ وجهِهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٤.

(٢) في (أ): وهو، والصواب المثبت.

(٣) مر تخريجه.

ومِنْ ذلكَ قولُ بعضِهِمْ[(١)]: «إذا لقيتَ فقيرًا فالقَهُ بالرِّفقِ، ولَا تلقَهُ بالعلمِ، فإنَّكَ إذَا لقيتَهُ بالعلمِ ذابَ كمَا يَذُوبُ الثَّلجُ».

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَحُكِيَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو الزَّجَّاجِيِّ أَنَّهُ قَالَ[(٣)]: مَاتَتْ أُمِّي فَوَرِثْتُ دَارًا، فَبِعْتُهَا بِخَمْسِينَ دِينَارًا، وَخَرَجْتُ إِلَى الحَجِّ، فَلَمَّا بَلَغْتُ (بَابِلَ)[(٤)] اسْتَقْبَلَنِي وَاحِدٌ مِنَ القَنَاقِنَةِ[(٥)]، وَقَالَ: أَيْشٍ مَعَكَ؟ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: الصِّدْقُ خَيْرٌ، ثُمَّ قُلْتُ: خَمْسُونَ دِينَارًا، فَقَالَ: نَاوِلْنِيهَا، فَنَاوَلْتُهُ الصُّرَّةَ، فَعَدَّهَا، فَإِذَا هِيَ خَمْسُونَ دينارًا، فَقَالَ لِي: خُذْهَا، فَلَقَدْ أَخَذَنِي صِدْقُكَ، ثُمَّ نَزَلَ مِنَ الدَّابَّةِ فَقَالَ: ارْكَبْهَا، فَقُلْتُ: لَا أُرِيدُ، فَقَالَ: لَا بُدَّ، وَأَلَحَّ عَلَيَّ، فَرَكِبْتُهَا فَقَالَ: وَأَنَا عَلَى أَثَرِكَ، فَلَمَّا كَانَ العَامُ المُسْتَقْبَلُ لَحِقَ بِي، وَلَازَمَنِي حَتَّى مَاتَ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفقَّكَ اللهُ ـ مِنْ آثارِ الصِّدقِ وبركاتِهِ فِي الدُّنيَا قبلَ الأُخرَىٰ، وذلِكَ أنَّهُ لمَّا فكَّرَ فِي نفسِهِ بينَ الصِّدقِ والكذبِ، وعلِمَ أنَّهُ إنْ كذبَ ربَّمَا اجتمعَ عليهِ الشَّرَّانِ؛ أحدُهُمَا الكذبُ، والثَّانِي إذَا فتَّشَهُ ووجدَهَا أخذَهَا، فآثرَ الصِّدقَ دِينًا حتَّىٰ لا يتعوَّدَ الكذبَ ويستعملَهُ بحَالٍ، فجعلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لصدقِهِ تأثيرًا فِي قلبِ خَصْمِهِ، فلمَّا أخذَهَا وعدَّهَا وجدَهَا خمسِينَ، فوقَعَ فِي نفسِهِ دينُ هذَا الرَّجلِ صاحبِ الدَّنانيرِ، وأنَّهُ لَا يصدقُ فِي مثْلِ هذا الحالِ ويسلمُ ما هوَ محتاجٌ إليهِ إلَّا مَنْ دِينُهُ عظيمٌ، فردَّ إليهِ الخمسينَ الدِّينارِ، وقالَ لهُ: «**أخذَنِي صدقُكَ**»، معنَاهُ: ردَّنِي إلَى اللهِ، وأمرَهُ بركوبِ دابَّتِهِ، وألَحَّ عليهِ حتَّىٰ قبلَهَا منهُ، وأخبَرَهُ أنَّهُ عزمَ علىٰ اللُّحوقِ بهِ إلىٰ مكَّةَ، فلمَّا كانَ بعدَ ذلكَ قالَ صاحبُ الدَّنانيرِ:

(١) مر تخريجه.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٥.
(٣) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص٢٥٥، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٦١.
(٤) موضع بالعراق.
(٥) جمع: قنقن؛ وهو الدليل الهادي.

فلحقَنِي إلىٰ مكَّةَ ولمْ يزالَا متعاونَينِ علىٰ الخيرِ حتَّىٰ مَاتَ.

فهذِهِ آثارُ الصِّدقِ، جمَّلَنِي اللهُ وإيَّاكُمْ بهِ فِي الدُّنيا والآخرةِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(١): «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُٱللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ** [١٢٤/٢ب] **يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرًا الخَوَّاصَ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ الخَوَّاصَ**(٢) **يَقُولُ: الصَّادِقُ لَا تَرَاهُ إِلَّا فِي فَرْضٍ يُؤَدِّيهِ، أَوْ فَضْلٍ يَعْمَلُ فِيهِ**».

❋ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: هذَا صحيحٌ، فإنَّ جُملةَ الطاعاتِ فِي القُلُوبِ والأبدانِ لا تخلُو مِنْ هذَينِ القسمَينِ؛ إمَّا واجبٌ أو نَدْبٌ(٣)، فالصَّالحُ الصَّادقُ المعتنِي بسيرِهِ إلَىٰ ربِّهِ ليتنعَّمَ بمناجاتِهِ وقُرْبِهِ في دُنياهُ وبكرامتِهِ وبرؤيتِهِ لهُ في أُخْرَاهُ، وربَّمَا يتعاطَىٰ بعضَ الأفعالِ منَ الرَّاحاتِ وأكْلِ الطَّيِّباتِ؛ ليتقوَّىٰ بذلِكَ علىٰ العباداتِ، ويكونَ فعلُهُ لهَا بهذِهِ النِّيَّاتِ مِنْ جُملةِ القُرُباتِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٤): «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ بْنَ مُقَسِّمٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرًا الخَوَّاصَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ**(٥): **حَقِيقَةُ الصِّدْقِ: أَنْ تَصْدُقَ فِي مَوْطِنٍ لَا يُنَجِّيكَ مِنْهُ إِلَّا الكَذِبُ**(٦)».

❋ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا قَدْ تقدَّمَ تفسيرُهُ غيرَ مرَّةٍ؛ وهوَ الصدِّقُ باللِّسانِ فِي موضعٍ يخشَىٰ فيهِ الضَّررَ علىٰ نفسِهِ فينطقُ بالحقِّ فيهِ، كتَغْييرِ المُنْكَرِ وغَيْرِهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٥.

(٢) سقط من (ف) قوله: «سمعت إبراهيم الخواص».

(٣) لأن الطاعة التي هي شُغله لا يخرج عنها.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٥.

(٥) ورد قوله في: الزهد والرقائق ص١١٤، وتاريخ بغداد ٧/٢٤٥، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٧١.

(٦) أي: في ظنك.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ**[(٢)]: **ثَلَاثٌ لَا يُخْطِئْنَ الصَّادِقَ**[(٣)]: **الحَلَاوَةُ، وَالهَيْبَةُ، وَالمَلَاحَةُ**[(٤)]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ أمورٌ موهبيَّةٌ أجرَىٰ اللهُ العادةَ بإجرائِهَا علَىٰ الصَّادِقِينَ بالخيرِ، فإنَّهُ يمشِي بصدقِهِ في سائِرِ تصرُّفاتِهِ في حالِهِ ومعَ مَنْ يعاملُهُ؛ مِنْ ولدٍ وزوجةٍ وصاحبٍ وغيرِ ذلكَ، فإذَا تكرَّرَ ذلكَ عليهِ ظهَرَتِ الحَلَاوةُ فِي مَنْطِقِهِ؛ لإتيانِهِ بالحقِّ فِي رِفْقٍ وسُهُولةٍ وكذلكَ الحُرْمَةُ لدوامِ توقُّفِهِ عمَّا يكرهُ مولَاهُ؛ كإنكارِهِ المنكرَ إذَا سمِعَهُ ولوْ كانَ القائلُ أباهُ، فمِنْ هذَا يكتسبُ الهيبةَ ولَا يُعامَلُ إلَّا بمَا يرضَاهُ.

وأمَّا «**الملاحةُ**» فمِنْ ضياءِ الطَّاعةِ علَىٰ وجْهِهِ، وكثرةِ معاملتِهِ لربِّهِ في ليلِهِ ونَهارِهِ، وقَدْ جاءَ فِي الخبَرِ[(٥)]: «مَنْ كثُرَتْ صلَاتُهُ باللَّيلِ حسُنَ وجهُهُ بالنَّهارِ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «**وَقِيلَ: أَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَىٰ دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٧)]: **يَا دَاوُدُ مَنْ صَدقَنِي فِي سَرِيرَتِهِ صَدَّقْتُهُ عِنْدَ المَخْلُوقِينَ فِي عَلَانِيَتِهِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا المُرَادُ ـ واللهُ أعلَمُ ـ بقولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٨)]: «مَنْ أَسَرَّ سَرِيرَةً أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهَا»، والغالبُ علىٰ مَنْ يعمِّرُ باطنَهُ [٢/١٢٥أ] بالصِّدقِ والإخلاصِ أنْ تجرِيَ حَرَكاتُهُ وسَكَنَاتُهُ علىٰ حسبِ قلبِهِ، فيظهَرَ الصِّدقُ فِي أحوالِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٥.

(٢) نسب لأرطأة بن المنذر في: تهذيب الأسرار ص١٨٥.

(٣) اقتصر عليها؛ لظهور آثارها.

(٤) لضياء الطاعة علىٰ وجهه.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه ١/٤٢٢، والبيهقي في: شعب الإيمان ٣/١٢٩.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٥.

(٧) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٨٦، وإحياء علوم الدين ٤/٣٨٧.

(٨) أخرجه الطبراني في: المعجم الكبير ٢/١٧١، والأوسط ٨/٤٤، وأبو نعيم في الحلية ٥/٣٦.

وأفعالِهِ[(١)]، وقدْ قيلَ: لمْ يكنِ البرُّ يعرفُ فِي عمرَ وابنهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حتَّىٰ يقولَا أوْ يفعلَا، فليسَ علىٰ ظاهرِهِ تكلُّفٌ بزيِّ الصَّالحينَ، ولكنْ إذا تكلَّمَ عُرِفَ الصِّدقُ فِي كلامِهِ، وإذَا فعلَ عُرِفَ الحقُّ فِي فعلِهِ، ويُعْرَفُ منهُ منزلتُهُ هَلْ هوَ فِي أوائِلِ الدَّرجاتِ، أوْ في أعالِي المَنْدُوباتِ؟

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقِيلَ**[(٣)]: **دَخَلَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ دَوْحَةَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَتْنَبَةَ البَادِيَةَ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَتْنَبَةَ: اِطْرَحْ مَا مَعَكَ مِنَ العَلَائِقِ، قَالَ: فَطَرَحْتُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا دِينَارًا، فَقَالَ لِي: يَا إِبْرَاهِيمُ: لَا تَشْغَلْ سِرِّي، اِطْرَحْ مَا مَعَكَ مِنَ العَلَائِقِ، قَالَ: فَطَرَحْتُ الدِّينَارَ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِبْرَاهِيمُ: اِطْرَحْ مَا مَعَكَ مِنَ العَلَائِقِ، فَذَكَرْتُ أَنَّ مَعِي شُسُوعًا لِلنَّعْلِ فَطَرَحْتُهَا، فَمَا احْتَجْتُ فِي الطَّرِيقِ إِلَىٰ شِسْعٍ إِلَّا وَجَدْتُهُ بَيْنَ يَدَيَّ، فَقَالَ ابْنُ سَتْنَبَةَ: هكَذَا مَنْ عَامَلَ اللهَ بِالصِّدْقِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وموضعُ الاستشهادِ فِي هذا البابِ أنَّهُمَا عقدَا معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ألَّا يسكنَا لسببٍ، فكانَ أحدُهُمَا يجدُ في قلبِهِ أثرًا لِمَا يعرفُ معَ صَاحِبِهِ منَ الأسبابِ الَّتِي يحملُهَا وكانَ يأمرُهُ بطرحِ ما معَهُ حتَّىٰ شُسُوعَ النَّعلِ الَّذِي يحتاجُهَا لربْطِ نعلِهِ إذا انقطعَ شَسعُهُ، فلمَّا وافقَهُ لطفَ اللهُ بهِ فمَا انقطعَ لهُ شسعُ نعلِهِ إلَّا وجدَ حيثُ انقطعَ شسعُهُ شَسْعًا.

وبقِيَ في المسألةِ شيءٌ آخرُ: وهوَ طرحُ الدِّينارِ، فإنَّ فيهِ إتلافَ مالِهِ، ولكنْ شرطَ أنْ يكونَ أتلفَهُ وطرَحَهُ بالأرضِ بحيثُ لا ينتفعُ بهِ، وليسَ فِي الكلامِ ما يدلُّ عليهِ، وقدْ يكونُ دفعَهُ لإنسانٍ ينتفعُ بهِ، وهوَ معنَىٰ طرحِهِ وعدمِ سُكُونِهِ إليهِ، **فيزولُ الاعتراضُ**، وقدْ يَضَعُهُ بمكانٍ يُبصرُهُ المَارُّ علىٰ الطَّريقِ، فلَا يكونُ إتلافًا.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٣٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٥.

(٣) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص٢٥٥، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٦١.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ ذُو النُّونِ[(٢)]: الصِّدْقُ سَيْفُ اللهِ، مَا وُضِعَ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا قَطَعَهُ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، وهوَ أنَّ الرَّجلَ الصَّادقَ فِي سُلُوكِهِ معَ اللهِ لَا يقومُ بصدقِهِ شيءٌ يضادُّهُ[(٣)]، ولئِنْ دعَا اللهَ استجابَ لهُ، وإِنْ أُوذِيَ انتصرَ لهُ، وإِنْ لمْ يدعُ كمَا جاءَ[(٤)]: «مَنْ عَادَاكُمْ عاديتُهُ، ومَنْ هَجرَكُمْ قَلَيتُهُ».

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[(٦)]: أَوَّلُ خِيانَة الصِّدِّيقِينَ: حَدِيثُهُمْ مَعَ أَنْفُسِهِمْ [٢/١٢٥ب]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ، فإِنَّ الصِّدِّيقَ مَنْ توالَىٰ صدقُهُ علَىٰ قلبِهِ ولسانِهِ، وفي أعمالِهِ وأحوالِهِ، وصارَ هذَا غالبًا عليهِ حتَّىٰ نُعِتَ بهِ، فإِذَا حدَّثَ نفسَهُ بالتَّقصيرِ فِي صدقِهِ فقدْ خانَ ربَّهُ فيمَا عزمَ عليهِ لهُ هكذَا، وإِنْ كانَ حديثُ النَّفسِ بالمَعاصِي معفُوًّا عنهُ فالغالبُ أنْ يعقبَهُ العزمُ المعاقبُ عليهِ، وإذَا حدَّثَ نفسَهُ ورجعَ عنهُ لمْ يكنْ أوَّلَ الخيانةِ، وإنَّمَا يكونُ أوَّلَ الخِيَانةِ إذَا تَمادَىٰ عليهِ ودخلَ فيهِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٧)]: «وَسُئِلَ فَتْحُ المَوْصِلِيُّ عَنِ الصِّدْقِ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي كِيرِ الحَدَّادِ، وَأَخْرَجَ الحَدِيدَةَ المُحَمَّاةَ، وَوَضَعَهَا عَلَىٰ كَفِّهِ، وَقَالَ: هَذَا هُوَ الصِّدْقُ[(٨)]».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٥.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/٣٥٩، وطبقات الصوفية ص٣٢، وتهذيب الأسرار ص١٨٨، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٣٢.

(٣) في الأصل: يضادده، والصواب المثبت.

(٤) ورد في: حلية الأولياء ١/١٣، وتاريخ بغداد ٨/٣٩٥.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٦.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٨٨، ومدارج السالكين ٢/٢٧٨.

(٧) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٦.

(٨) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢٥١، وحدائق الحقائق ص٩١، ومسالك الأبصار ٨/٥٠،=

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا مِنْ بابِ صدْقِ اللُّجوءِ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فإذَا أرادَ الوليُّ للهِ أنْ يُطلِعَ أحدًا علَىٰ خَوارقِ العَاداتِ لدعاءِ حاجتِهِ إلَىٰ ذلِكَ صدق فِي التجائِهِ إلىٰ اللهِ، وفعلَ فِعْلًا خارِقًا للعادةِ وأجرَاهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لهُ، دلَّ ذلكَ علىٰ كمالِ صدقِهِ فِي توجُّهِهِ لربِّهِ.

ومِنْ ذلكَ مَا رُوِيَ أنَّ رجلًا كانَ فِي بعضِ الجهاتِ، وكانَ شديدًا فِي بدنِهِ، لَا يطيقُهُ مِنَ النَّاسِ إلَّا أجلدُهُمْ، أمسكَ امرأةً وهيَ تصيحُ فِي يدِهِ وتستغيثُ، وبيدِهِ سكِّينٌ لَا يجسرُ أحدٌ يقربُ منهُ إلَّا عقرَهُ، قالَ: فبينَا النَّاسُ كذلِكَ إذْ جاءَ بِشْرُ بنُ الحارثِ فمضَىٰ إلىٰ الرَّجُلِ، وحكَّهُ بكتِفِهِ، وكلَّمَهُ بشيءٍ فسقطَ الرَّجلُ إلىٰ الأرضِ مغشيًّا عليهِ وذهبَتِ المرأةُ، فلمَّا أفاقَ مِنْ غَشْيتِهِ سألَ عنِ الرَّجلِ الَّذِي كلَّمَهُ؛ لأنَّهُ لا يدرِي مَنْ هوَ، وإنَّمَا قالَ لهُ: اللهُ ـ تعالىٰ ـ يراكَ ومَا تصنعُ، فقيلَ لهُ: هوَ بشرُ بنُ الحارثِ، فقالَ: وا فضيحتَاهُ!، كيفَ يرانِي بعدَ اليومِ؟ وحُمَّ الرَّجلُ مِنْ يومِهِ وماتَ بعدَ أيَّامٍ قلائِلَ (١).

ومَا حُكِيَ أنَّ الشَّيخَ ربيعًا الشَّامِيَّ رَحِمَهُٱللَّهُ تكلَّمَ معَ بعضِ القدريَّةِ ونازعتْهُ في أنَّ العبدَ يفعلُ ما يشاءُ، ويقومُ ويقعدُ متَىٰ شاءَ، فقالَ لهُ ربيعٌ: قُمْ، فقامَ، ثمَّ قالَ: اجلِسْ، فصارَ خشبةً واحدةً لَمْ يقدرْ علَىٰ الجُلُوسِ، وذلكَ بحُسْنِ همَّتِهِ في أنْ يُظهرَ عجزَهُ في دَعْوَاهُ.

وحُكِيَ أنَّ رجلًا مِنَ الصَّالحِينَ كانَ يمشِي معَ رفيقٍ لهُ، فإذَا ببعضِ الجُندِ ومعَهُ غلامٌ لهُ، وقدْ مسكَ الجُنديُّ امرأةً وهيَ تضطَرِبُ في يدِهِ خَوْفًا منهُ، فقالَ لهُ هذَا الصَّالحُ: خلِّهَا، فأبَىٰ، فكرَّرَ عليهِ ذلكَ، فقالَ لغلامِهِ: خُذهُ [٢/١٢٦أ]، فقالَ

= والمحاسن الغالية ص٢٤٨.

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٤٠.

الرَّجلُ الصَّالحُ: يَا أرضُ خذِيهِ، فنزلَ الجُنديُّ فِي الأرضِ إلىٰ وسطِهِ وذهبَتِ المرأةُ، فقالَ للرَّجُلِ الصَّالحِ رفيقِهِ: لا صحبْتُكَ بعدَهَا، أخافُ أنْ يجرِيَ منِّي شَيءٌ تكرهُهُ فيصيبَنِي مثلُ ما أصابَهُ، فقالَ: مَا هذَا حالِي معَ اللهِ، وإنَّمَا اللهُ أرادَ أنْ يريَكُمْ آيةً.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ**[(٢)]: **لَأَنْ أَبِيتَ لَيْلَةً أُعَامِلُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ بِالصِّدْقِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَضْرِبَ بِسَيْفِي فِي سَبِيلِ اللهِ**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ الضَّربَ فِي سبيلِ اللهِ لا يكونُ محموداً إلَّا إذَا قَارَنَهُ الصِّدقُ والإخلاصُ، فإذَا كانَ العبدُ يعاملُ اللهَ بالصِّدقِ فِي سائِرِ أحوالِهِ؛ مِنْ قيامِهِ ومنامِهِ وشَرابِهِ وطعامِهِ فهوَ فِي الجهادِ الأكبرِ الَّذِي هوَ أكبرُ جِهاداً منَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، فإنَّهُ جهادٌ دائمٌ مُتوالٍ[(٣)].

وأيضًا فإنَّ الصِّدقَ لَا يخلُو منهُ حالٌ منَ الأحوالِ، فهوَ محتاجٌ إليهِ علىٰ كلِّ حالٍ، بخلافِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ؛ لأنَّهُ قدْ لَا ينفعُ في بعضِ الأوقاتِ، فمَا تأكَّدَ طلبُهُ وتَوالَىٰ الاتِّصافُ بهِ أعظَمُ قدراً فِي نظرِ الشَّرعِ مِنْ غَيْرِهِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**[(٥)]: **الصِّدْقُ أَنْ تَكُونَ كَمَا تَرَىٰ مِنْ نَفْسِكَ، أَوْ تَرَىٰ مِنْ نَفْسِكَ كَمَا تَكُونُ**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ لاستواءِ السِّرِّ والعَلانِيَةِ، وألَّا تُخفِيَ علَىٰ النَّاسِ ما يعلمُهُ اللهُ منكَ حذراً منْ ذمِّهِمْ، أوْ تُظْهَرَ لهُمْ مَا يعلمُ اللهُ خلافَهُ مِنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٦.

(٢) ورد قوله في: إتحاف السادة المتقين ١٣/١٣٣.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٤٠.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٦.

(٥) ورد قوله في: نشرالمحاسن الغالية ص٢٤٨.

باطِنِكَ طلبًا لحمدِهِمْ، ولذلكَ قالَ شيخُ المحاسبِيِّ لهُ لمَّا سألَهُ عنِ الصَّادقِ: مَا علامتُهُ؟ فأجابَهُ بأنْ قالَ(١): «الصَّادقُ لا يُبالِي لوْ خرجَ كلُّ قدرٍ لهُ فِي قلوبِ النَّاسِ منْ أجلِ صلاحِ قلبِهِ، ولَا يحبُّ اطِّلَاعَهَمْ علَىٰ مَثاقيلِ الذَّرِّ مِنْ حُسْنِ عَمَلِهِ، ولَا يكرهُ اطِّلَاعَهُمْ علَىٰ مَثاقيلَ مِنْ سَيِّءِ عَمَلِهِ»، فإنَّ كراهيَّتَهُ لذلكَ دليلٌ علىٰ حبِّهِ لبقاءِ المَنِّ لهُ عندَهُمْ، وليسَ هذَا منْ أخلاقِ الصَّادقينَ(٢).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣): «وَسُئِلَ الْحَارِثُ الْمُحَاسِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ عَلَامَةِ الصِّدْقِ؟ فَقَالَ(٤): الصَّادِقُ: هُوَ الَّذِي لَا يُبَالِي لَوْ خَرَجَ كُلُّ قَدْرٍ لَهُ فِي قُلُوبِ الخَلْقِ مِنْ أَجْلِ صَلَاحِ قَلْبِهِ، وَلَا يُحِبُّ اطِّلَاعَ النَّاسِ عَلَىٰ مَثَاقِيلِ الذَّرِّ مِنْ حُسْنِ عَمَلِهِ، وَلَا يَكْرَهُ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَىٰ السَّيِّءِ مِنْ عَمَلِهِ، فَإِنَّ كَرَاهَتَهُ لِذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ [٢/١٢٦ب] يُحِبُّ الزِّيَادَةَ عِنْدَهُمْ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ أَخْلَاقِ(٥) الصِّدِّيقِينَ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، وقَدْ تقدَّمَ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٦): «وَقَالَ بَعْضُهُمْ(٧): مَنْ لَمْ يُؤَدِّ الفَرْضَ الدَّائِمَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ الفَرْضُ المُؤَقَّتُ، قِيلَ: مَا الفَرْضُ الدَّائِمُ؟ قَالَ: الصِّدْقُ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ويعنِي بـ«الفرضِ الدَّائمِ»: أنَّ العبدَ مأمورٌ بهِ فِي كُلِّ

---

(١) سيرد في قوله الإمام القشيري الآتي.

(٢) لمنافاته الصدق.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٦.

(٤) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٢٧٨، والتبيان للنووي ص١٨، والأذكار له ص٦، وانظر: الرعاية للمحاسبي ص٢٢٨.

(٥) في (ف): إخلاص.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٦.

(٧) ورد قوله في: الغنية ص٣٣٥، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٣٣.

مُعَامَلةٍ يعاملُ بهَا ربَّهُ ؛ مِنْ حَرَكَتِهِ وسكونِهِ ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

وأمَّا «الفَرْضُ المؤقَّتُ» كصلاةٍ لهَا وقتٌ معيَّنٌ ، أو برُّ الوالدَينِ اللَّازمُ وقت طلبِهِمَا للفعلِ ، أوْ ما يجرِي مجرَاهُ منَ الواجباتِ الَّتِي لهَا أوقاتٌ.

فالفرضُ الدَّائمُ المتوالِي أفضلُ منَ المَخْصُوصِ بِوقْتٍ ؛ وذلكَ كالإيمانِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ الَّذِي هوَ لازمٌ فِي كلِّ وقتٍ ما دامَ العبدُ بنعتِ المكلَّفينَ ، وكأنَّهُ يشيرُ إلىٰ أنَّ الصِّدقَ فِي التَّكاليفِ مِنْ هذا القَبِيلِ ، فكأنَّ العَبْدَ إذَا تخلَّقَ بهِ تخلَّقَ بأفضلِ الطَّاعَاتِ وأَشْرَفِ القُرُبَاتِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«وَقِيلَ [(١)]: إِذَا طَلَبْتَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ بِالصِّدْقِ أَعْطَاكَ مِرْآةً [صَافِيَةً] [(٢)] تُبْصِرُ فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».**

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مَعْضُودٌ بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] ، قالَ أهلُ التَّفسيرِ [(٣)]: نورًا تفرِّقُونَ بهِ بينَ الحقِّ والباطلِ ، وكذلِكَ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ، ٣] ، فهُوَ محتاجٌ إلىٰ كمالِ التَّقوىٰ والإيمانِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ [(٤)]: **«وَقِيلَ [(٥)]: عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ حَيْثُ تَخَافُ أَنَّهُ يَضُرُّكَ ؛ فَإِنَّهُ يَنْفَعُكَ ، وَدَعِ الكَذِبَ حَيْثُ تَرَىٰ أَنَّهُ يَنْفَعُكَ ؛ فَإِنَّهُ يَضُرُّكَ.**

---

(١) نسب لمحمد بن سعيد المروزي في: تهذيب الأسرار ص١٨٩ ، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٣١.

(٢) زيادة من (ف).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/١٦٨٦ ، ومعالم التنزيل ٢/٢٤٣ ، وتأمل فيه بقية الأقوال في ذلك.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٦.

(٥) ورد في: المجالسة وجواهر العلم ص١٥١ ، ومدارج السالكين ٢/٢٧٩ ، والموافقات ٢/٢٩١.

وَقِيلَ(١): كُلُّ شَيْءٍ شَيْءٌ، وَمُصَادَقَةُ الكَذَّابِ لَا شَيْءَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ(٢): «الصِّدْقُ يَهْدِي إِلَى البرِّ، وَالبرُّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ»، وكفَى بهذِهِ المَنْقَبَةِ أنَّ مَنْ صدق نالَ الطَّاعةَ الَّتِي توصلُهُ إلى الجنَّةِ، «والكذبُ يهدِي إِلَى الفجورِ» فإنَّهُ خروجٌ عنِ الحقِّ فيهِمَا، فإنَّ مَنْ كذبَ خرجَ عنِ الحقِّ، وكذلِكَ مَنْ فجَرَ لَا جرَمَ أنَّهُ يهدِي إلى النَّارِ، وهوَ بُعْدٌ عنِ اللهِ ـ تعالى ـ وأنبيائِهِ وأوليائِهِ.

وأمَّا صُحبةُ الكذَّابِ فلَا خيرَ فيهَا دُنيَا وأُخْرَى، فإنَّكَ لا تثِقُ بخبَرِهِ، وإذَا كذبَ لكَ كذبَ عليكَ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَقِيلَ(٤): عَلَامَةُ الكَذَّابِ: جُودُهُ بِاليَمِينِ لِغَيْرِ مُسْتَحْلِفٍ [٢/١٢٧أ].

وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ(٥): الكَلَامُ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَكْذِبَ ظَرِيفٌ.

وَقِيلَ(٦): مَا أَمْلَقَ تَاجِرٌ صَدُوقٌ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا أوَّلُ الحكاياتِ فإنَّ الكذَّابَ لمَّا لمْ يثِقْ بخبَرِ

---

(١) ورد في: التمثيل والمحاضرة ص٤٣، وربيع الأبرار ٤/٣٤٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٦.

(٤) ورد في: التمثيل والمحاضرة ص٤٤٧، ومحاضرات الأدباء ١/٥٦٣، وزهر الآداب ٢/٤٧٧.

(٥) ورد قوله في: غريب الحديث للخطابي ٢/٥٤١، وتاريخ دمشق ٣٧/٤٤٢، وشعب الإيمان ٤/٢٣٢، والكامل في ضعفاء الرجال ٤/٣٢، وميزان الاعتدال ٣/٣٦٣، والنهاية لابن الأثير ٣/١٥٧، وفسره ابن الأثير بقوله: «أي: أن الظريف لا تضيق عليه معاني الكلام، فهو يكني ويعرض ولا يكذب».

(٦) ورد كجزء من حديث في: الفردوس بمأثور الخطاب ٥/٢٨٧، والبيان والتبيين ٢/١٥، والتمثيل والمحاضرة ص٢٧، وربيع الأبرار ٣/١٤٧.

نفسِهِ ، ولمْ يكنْ صادقًا فِي نفسِهِ بادرَ إلىٰ تأكيدِ كَذِبِهِ بيمينِهِ ؛ لِيُتوهَّمَ صدقُهُ ، وإلَّا لوْ وثقَ بصدقِ نفسِهِ لأخبرَ عمَّا صحَّ عندَهُ ، فإنَّهُ لا يخافُ منهُ خُلْفًا ، وإنَّما لمَّا كانَ الكاذبُ يخافُ مِنْ ظهورِ كَذِبِهِ سَتَرَهُ وأكَّدَهُ بيمينِهِ لِمَنْ لَمْ يَسْتَحْلِفْهُ.

وأمَّا اتِّساعُ الكلامِ بحيثُ يعدلُ الإنسانُ إلىٰ المعاريضِ إنِ احتاجَ إلىٰ ذلِكَ ، ففيهِ سَعَةٌ حتَّىٰ يستغنِيَ عنِ الكذبِ(١) ، فمَنْ كانَ ظريفًا فِي نفسِهِ حسُنَ التَّصرُّفِ معَ عبادِ اللهِ في أمرِهِ أوهمَهُمْ خلافَ ما فِي باطنِهِ إذَا لمْ تدعُ حاجةٌ إلىٰ إظهارِهِ.

ولقَدْ حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ(٢) أنَّهُ كانَ منَ العلماءِ وكانَ السُّلطانُ يطلبُهُ ليتكرَّرَ إليهِ ، فكانَ يغيبُ عنِ السُّلطانِ مدَّةً طويلةً فإذَا دعَتْهُ ضرورةٌ إلىٰ الحضورِ بينَ يدَيهِ وعَاتبَهُ السُّلطانُ في غيبتِهِ قالَ لهُ: «واللهِ يا مولايَ ما رفعتُ جنبِي عنِ الأرضِ مُذْ فارقتُكَ إلَّا ما شاءَ اللهُ» ، فيوهِمُ السُّلطانَ أنَّهُ كانَ مريضًا طولَ غيبتِهِ ، وأنَّ استثناءَهُ لقيامِهِ فِي حالِ ضرورتِهِ ؛ منْ صلاتِهِ وقضاءِ حاجتِهِ ، وهوَ لمْ يردْ شيئًا منْ ذلكَ ، وإنَّمَا أرادَ: ما رفعتُ جنبِي عنِ الأرضِ إلَّا ما قدَّرَهُ اللهُ ، وكذلِكَ كلُّ حَرَكةٍ وسَكَنةٍ هيَ جاريةٌ بقدرِ اللهِ ومشيئتِهِ ، وغيرُ ذلكَ منَ المعاريضِ كثيرٌ.

وقدْ ذكرَ منَ المعاريضِ لِمَنْ يريدُ أنْ يستخفِيَ عنِ النَّاسِ ولَا يكلِّمَهُمْ أنْ يأمرَ خادمَهُ أنْ يقولَ لمَنْ يطلبُهُ إنْ سألَ عنهُ: «اُطْلُبْهُ فِي المسجدِ»(٣) ، وهذَا فيهِ إتعابٌ للسَّائلِ وليسَ مخلصًا.

وكانَ بعضُهُمْ يدوِّرُ دائرةً فِي الحائطِ ويقولُ لخادمِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يدُكَ فِي هذهِ الدَّائرةِ وقُلْ: ليسَ هوَ هاهُنَا» وليسَ هذَا بالِغًا.

---

(١) يقرر ذلك ما في بدائع السلك ص٤٩٠ : «في المعاريض مندوحة عن الكذب».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) نسب لإبراهيم النخعي في: وفيات الأعيان ١/٢٥ ، والأذكار للنووي ص٣٠٤.

وخطرَ لِي وجهٌ آخرُ لمَنْ أرادَ ذلكَ أنْ يخرجَ منْ بابِ دارِهِ بكرةً، ويمشِي خطوةً واحدةً، ويرجعَ إلىٰ دارِهِ ويدخلَ فإنْ طلبَهُ طالبٌ قالَ لهُ خادمُهُ: «يا سيِّدِي، خرجَ بكرةً وهوَ حقٌّ»، ولا يلزمُهُ زيادةٌ علىٰ ذلِكَ.

وهذَا كلُّهُ بيانٌ لقولِهِ: «**إنَّ فِي سعَةِ الكلامِ ما يستغنِي بهِ الظَّريفُ عنِ الكَذِبِ**».

وأمَّا الصِّدقُ فِي التِّجارةِ فإنَّهُ يُسلمُ صاحبَهُ منَ الفقرِ؛ وهوَ الإملاقُ، وذلكَ أنَّ صدْقَهُ يحملُهُ علَىٰ إظهارِ العُيُوبِ وتغيُّرِ الأسواقِ فِي السِّلَعِ [٢/١٢٧ب]، فينصحُ فِي المعاملاتِ إذَا استُنصِحَ، وكلُّ مَنْ عُرِفَ بهذَا رغبَ النَّاسُ في معاملتِهِ، ومَالُوا إليهِ طَمَعًا فِي نُصْحِهِ وحُسنِ معاملتِهِ، وبهذَا يكثُرُ رزقُهُ، ويُعَضِّدُ هذا قولُهُ - تعالىٰ -: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾[1].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٤٢.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

باب الحيَاء

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدُوسَ الحِيرِيُّ المُزَكِّي رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو سَهْلٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ النَّحْوِيُّ بِبَغْدَادَ قَالَ: أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الهَيْثَمِ قَالَ: حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ حَيَّانٍ قَالَ: حَدَّثَنَا المقدَّميُّ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ[٢] بْنِ عُمَرَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣]: (الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ).

أَخْبَرَنَا أَبُو سَعِيدٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الإِسْمَاعِيلِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عُثْمَانَ عُمَرُ بْنُ عَبدِ اللهِ البَصْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبدِ الوَهَّابِ قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْلَىٰ بْنُ عُبَيْدٍ، قَالَ لِي إِبَانُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ الصَّبَّاحِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُرَّةَ الهَمَدَانِيِّ، عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِأَصْحَابِهِ[٤]: اِسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ، قَالُوا: إِنَّا نَسْتَحِيي يَا رَسُولَ اللهِ والحَمْدُ للهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَىٰ[٥]، وَلْيَحْفَظِ البَطْنَ وَمَا

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٧.

(٢) في (ف): عبد الله.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٢٦٨ ـ حديث رقم (٥٧٦٧)، ومسلم في صحيحه ١/٦٣ - حديث رقم (٣٦).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٦٣٧، والحاكم في المستدرك ٤/٣٥٩، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/١٥٢.

(٥) في (أ): حوىٰ، واللفظ الذي بعده: وعىٰ، والصواب المثبت.

حَوَىٰ، وَلْيَذْكُرِ المَوْتَ والبِلَىٰ، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ منَ الأخبارِ واضحٌ فِي الدَّلالةِ علىٰ المقصودِ، ونحنُ نتكلَّمُ علَىٰ حقيقةِ الحياءِ فِي نفسِهِ، وفِي الأسبابِ المحصِّلَةِ لهُ، والثَّمراتِ المترتِّبَةِ عليهِ، ونُعَضِّدُهُ بمَا تيسَّرَ منَ الأدلَّةِ وأقوالِ العلماءِ، ونُجْرِي عليهِ أقوالَ المشايخِ إنْ شاءَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علَىٰ ما تقدَّمَ الرَّسْمُ[(١)] فيهِ.

أمَّا حقيقةُ الحَيَاءِ: فليسَ يمكنُ فيهِ حَدٌّ جامعٌ مانعٌ، فإنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ وصفَ نفسَهُ بالحياءِ فقالَ[(٢)]: «مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الإِسْلَامِ اسْتَحْيَا اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُ بِالنَّارِ»، وقالَ[(٣)]: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ»، والخَلْقُ موصوفُونَ بالحياءِ، ولا يصحُّ أنْ يُحَدَّا بحدٍّ واحدٍ؛ لاختلافِهِمَا فِي الحقيقةِ.

فنحنُ نذكرُ الحياءَ بالنِّسبةِ إلىٰ العبيدِ، وهوَ علَىٰ التَّقريبِ: وجودُ تعظيمٍ في القلبِ يمنعُ منَ الانبساطِ، وذلِكَ أنَّ الحياءَ إنَّمَا يكونُ [٢/١٢٨أ] [...][(٤)] معنًىٰ، وهوَ انكسارٌ يمنعُ منَ الانبساطِ، قال شيخ الإسلام عبدُ اللهِ بنُ محمَّدٍ الأنصاريُّ في حدِّهِ[(٥)]: «الحياءُ: معنًىٰ يتولَّدُ منْ تعظيمٍ منوطٍ بودٍّ»، فلَا بُدَّ أنْ يكونَ فِي القلبِ محبَّةٌ تُلْزِمُ العبدَ الطَّلبَ، ولَا بُدَّ منْ تعظيمٍ يُوجِبُ للعبدِ الهربَ، فإذَا اجتمعَا وُلِدَ بينَهُمَا خضوعٌ وأدبٌ[(٦)]، وسيأتِي منْ أقوالِ المشايخِ ما يزيدُ هذا

---

(١) أي: المنهج المتبع في الأبواب السابقة.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٢/٧٨، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ٢/٢١١، والطبراني في المعجم الكبير ٢٢/٢٥٩.

(٤) طمس قدر سطر في (أ).

(٥) منازل السائرين ص٥٤.

(٦) قرر ذلك المؤلف في: شرح منازل السائرين ص١١٢.

المعنى بيانًا ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالَىٰ ـ.

وأمَّا أسبابُ الحياءِ المحصِّلَةُ لهُ فأعظمُهَا: استشعارُ القلبِ نظرَ الرَّبِّ إليهِ فِي سائِرِ أحوالِهِ وأعمالِهِ وقُصُودِهِ، فإذَا استشعرَ العبدُ ذلكَ بَعُدَ عنِ الوقوعِ فيمَا يُسْتَحْيَا منهُ شرْعًا.

وكذلِكَ أيضًا مِنْ أسبابِه: مُلازمَةُ أهلِ العلمِ والأدبِ، فإنَّ العبدَ يستحْيِي منْ أنْ يتعاطَىٰ بينَ أيديهِمْ مَا ينشأُ عنه [مخالفةُ الحياء][1] بصحبتِهِمْ، وكذلِكَ إذَا رأَىٰ أحوالَهُمْ وأدبَهُمْ معَ اللهِ فِي سائِرِ أعمالِهِمْ وأحوالِهِمْ اقتدَىٰ بهِمْ، فإنَّ النَّاسَ إلَىٰ الاقتداءِ بالأفعالِ أسرَعُ منهُمْ إلَىٰ الاقتداءِ بالأقوالِ.

وأمَّا ثمراتُ الحياءِ: فأجَلُّهَا السَّلامةُ منَ العذابِ فِي الأُخْرَىٰ والمقتُ للعبدِ في الدُّنيَا، وبعدَ ذلكَ خفَّةُ الحسابِ فِي الأُخْرَىٰ، وكثرةُ الجزاءِ منَ المولَىٰ، ويكفِي فِي ذلكَ دليلًا قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[2]: «الحَيَاءُ خيرٌ كلُّهُ»، وَ: «الحياءُ لَا يأتِي إلَّا بخيرٍ»[3]، وقدْ غضبَ عمرانُ بنُ الحُصَينِ لمَّا قالَ عنِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحياءُ خيرٌ كلُّهُ»، فقالَ لهُ بشيرُ بنْ كعبٍ: إنَّهُ يقالُ فِي الحِكمةِ: إنَّ منهُ ضعْفًا، فغضبَ عمرانُ بنُ الحُصَينِ وقالَ: واللهِ لَا أحدِّثُكُمُ اليومَ حديثًا، أحدِّثُكَ عنْ رسولِ اللهِ وتحدِّثُني عنِ الصُّحُفِ، فمَا كانَ عنِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهوَ أَوْلَىٰ.

وقَدْ قالَ[4]: «الحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ» وقالَ[5]: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الحَيِيَّ الحَلِيمَ».

---

(١) طمس قدر كلمتين في (أ)، ولعلها هكذا.

(٢) أخرجه مسلم في صحيح ١/٦٤ ـ حديث رقم (٣٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٢٦٧ ـ حديث رقم (٥٧٦٦)، ومسلم في صحيحه ١/٦٤ ـ حديث رقم (٣٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه ١/٢٢، والنسائي في سننه الكبرىٰ ٦/٥٣٢.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١١/١٤١، والطبراني في المعجم الكبير ١٠/١٩٦، ومسند الشاميين ٣/٣٠٧.

فحصلَ مِنْ مجموعِ ذلكَ أنَّ الحياءَ خيرٌ كلُّهُ ؛ لأنَّهُ منَ الإيمانِ ، وأنَّ اللهَ يحبُّ المتَّصِفَ بهِ ، وأنَّهُ لا يأتِي إلَّا بخيرٍ ، فهذِهِ ثمرةُ الحياءِ ، وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمَا رواهُ مالكٌ فِي (الموطَّأ)[١] : «لِكُلِّ دِيْنٍ خُلُقٌ ، وَخُلُقُ الإِسْلَامِ الحَيَاءُ» .

وجميعُ ما ذكرْنَاهُ داخلٌ تحتَ مقامِ الإحسانِ ، فمَنْ مكَّنَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فيهِ حتَّىٰ كمُلَتْ معرفتُهُ بمولَاهُ ، واستشعرَ نظرَهُ إليهِ فِي سائرِ متقلَّبِهِ ومثوَاهُ ، وعبدَهُ كأنَّهُ يرَاهُ ، فقدْ تمكَّنَ فِي مقامِ الحياءِ .

وأمَّا الحياءُ بالنِّسبةِ للهِ [٢/١٢٨ب] ـ سبحانه ـ [...][٢] إليه ممكنةٌ ولم تفعلْ بهِ شيئًا ممَّا يكرهُهُ إكرامًا وإجلالاً ومحبَّةً وتعظيمًا ، فبهذَا الاعتبارِ كانَ الشَّابُّ التَّائبُ حبيبَ اللهِ ، أيْ : يفعلُ بهِ أفعالَ المحبوبِينَ ، ولذلِكَ يستحْيِي اللهُ منهُ أنْ يعذِّبَهُ بالنَّارِ ، أيْ : بمَا تقدَّمَ لهُ منَ الخيرِ فِي الإسلامِ حتَّىٰ شابَ فيهِ ، وأكرَمَهُ اللهُ بتقدُّمِ طاعتِهِ ، وهذَا غايةٌ في كرمِهِ وإجلالِهِ لكلِّ مؤمنٍ ، وقَدْ تقدَّمَ[٣] عنِ ابنِ عبَّاسٍ لمَّا رأىٰ الكعبةَ قالَ : «مَا أشرفَكِ وأجلَّكِ وأعظمَ حرمتَكِ علَىٰ اللهِ ، والمؤمنُ أعظمُ حرمةً منكِ» .

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٤] : «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ : أَخْبَرَنَا أَبُو نَصْرٍ الوَزِيرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الغَلَابِيُّ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَخْلَدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ[٥] : أَحْيُوا الحَيَاءَ بِمُجَالَسَةِ مَنْ يُسْتَحْيَىٰ مِنْهُ» .**

---

(١) ٢/٩٠٥ .

(٢) طمس بمقدار سطر وربع تمامًا في (أ) .

(٣) الدلالة ١/٤١٦ .

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٧ .

(٥) نسب لابن الأعرابي في : شعب الإيمان ٦/٥٠٦ ، وورد بلا نسبة في : مدارج السالكين ٢/٢٦٠ .

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ ما قدَّمْناهُ من أنَّ مِنْ أسبابِ الحياءِ مجالسةُ مَنْ يُستحْيَا منهُ ؛ ليتعلَّمَ الشَّخصُ من أدبِهِ ، ويتحفَّظَ في نفسِهِ بسببِ مجالسةِ مَنْ يُسْتَحْيَا منهُ ليتعوَّدَ الخيرَ ويجتهدَ ألَّا يكونَ ذلكَ فِي أسبابِ الدُّنيَا ؛ خوفًا مِنْ أنْ يمازجَ عملَ الطَّبيعةِ رياءً ، وذلِكَ أنَّ العبدَ إذا سُئِلَ قضاءَ حاجةٍ وكانَ حسنَ الطَّبيعةِ ، شديدَ الحياءِ بادرَ إلىٰ الفِعْلِ ، فيقولُ لهُ الشَّيطانُ: أتقِنْ ، أوْ عجِّلْ ؛ لئلَّا يذمَّكَ علىٰ تقصيرِكَ ، فيكونَ الَّذِي أسَاجَهُ علَىٰ الفعلِ الحياءُ ، وهوَ خيرٌ كلُّهُ كمَا تقدَّمَتِ الشَّهادةُ بهِ .

فإنْ قيلَ: العبدُ ما أمرَهُ بهِ الشَّيطانُ وخوَّفَهُ منهُ مازجَ الحياءَ رياءً فلينفِهِ العبدُ وليحذَرْ منهُ ، وكذلِكَ إذا أرادَ العبدُ أنْ يُهدِيَ لأخِيهِ هَديَّةً تيسَّرَتْ لهُ مِنْ وجهٍ ، فأرادَ أنْ يُشَارِكَ أَخَاهُ في الخَيرِ الَّذِي وصلَ إليهِ ، ولَا سيَّمَا إذَا كانَ حاضرًا وقتَ وُصُولِ الهديَّةِ فأرادَ أنْ يدفعَ لهُ شيئًا لاستحيائِهِ وحُسْنِ خُلُقِهِ فيقولَ لهُ الشَّيطانُ: كثِّرْ لئلَّا يَذُمَّكَ بالبُخْلِ ، وكذلِكَ إذا مرَّ بأخيهِ وهوَ يحتاجُ إلىٰ مَنْ يساعدُهُ في شغْلٍ منْ أشغالِهِ فوقفَ يُسَاعدُهُ حياءً لحُسْنِ خُلُقِهِ وكريمِ سجيَّتِهِ ، فإذَا وقفَ ساعةً ثمَّ عزمَ علىٰ المُضِيِّ قالَ لهُ العدوُّ: الآنَ يذمُّكَ في كونِكَ لمْ تَثْبُتْ معَهُ حتَّىٰ يفرغَ منْ عملِهِ فيساعدَهُ رياءً بعدَ أنْ كانَ حياءً[1] ، فليحذَرْ [٢/١٢٩أ] العبدُ مُوافقةَ الشَّيطَانِ .

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عَطَاءٍ يَقُولُ[3]: العِلْمُ الأَكْبَرُ الهَيْبَةُ وَالحَيَاءُ ، فَإِذَا ذَهَبَتِ الهَيْبَةُ وَالحَيَاءُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ خَيْرٌ[4]**» .

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٤٤ .

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٧ .

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٢٠٨ ، وشذرات الذهب ٢/٢٥٧ .

(٤) أي: لا ديني ولادنيوي .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومقصودُهُ بـ«العِلْمِ الأكبرِ»: معرفةُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فإنَّ مَنْ عرَفَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أجَلَّهُ وهَابَهُ واستَحْيَا منهُ، فمتَىٰ ذهبَ مِنْ قلبِ العَبْدِ الهَيْبَةُ والحَيَاءُ دَلَّ ذلكَ علَىٰ قلَّةِ معرفتِهِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ، فإنَّ المعرفةَ بالعظيمِ تُوجِبُ التَّعظيمَ، والمعرفةَ بمَنْ يُسْتَحْيَا منهُ تُوجِبُ الحَيَاءَ، واللهُ ـ تعالىٰ ـ هوَ الملكُ الآمرُ النَّاهِي، فينبغِي للعَبْدِ أنْ يستحيِيَ مِنْ مَولاهُ أنْ يَرَاهُ حَيْثُ نَهَاهُ، أوْ يفقدَهُ مِنْ حيثُ أمرَهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الفَرَجِ الوَرَثَانِيَّ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ يَعْقُوبَ يَقُولُ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ قَالَ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ يَقُولُ(٢): الحَيَاءُ وُجُودُ الهَيْبَةِ فِي القَلْبِ مَعَ وَحْشَةِ مَا سَبَقَ مِنْكَ إِلَىٰ رَبِّكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وروحُ هذَا الكلامِ: أنَّ معرفتَكَ بمَا سبقَ لكَ مِنَ المخالفةِ لربِّكَ تُوجِبُ وحشةً، ونظرَهُ إليكَ في حالتِكَ الَّتِي كنتَ عليهَا معَ استشعارِكَ لرؤيتِهِ يُوجِبُ لكَ انقباضًا وحشمةً يُعَبَّرُ عنهُمَا بالحياءِ(٣)، ولذلِكَ عبَّرَ المُحاسبِيُّ عنِ [صفةِ] الحياءِ بأنَّهَا يستدلُّ عليهَا، ثمَّ يستدلُّ علَىٰ الطَّبيعةِ بآثارِهَا، كمَا يدركُهُ الطَّبيبُ مِنْ مَسِّهِ لنبْضِ العبدِ ورؤيتِهِ للخارجِ منهُ، فيستدلُّ بالآثارِ علَىٰ ما قامَ بالعَبْدِ.

وكذلِكَ الحياءُ معنًىٰ يقومُ بالعبدِ يُواليهِ اللهُ ـ سبحانه ـ علَىٰ مَنْ أرادَ بهِ الحُسْنَىٰ، فيبعُدُ عَنْ كُلِّ خُلُقٍ دَنِيءٍ، ويتَّصِفُ بِكُلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ سَنِيٍّ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «وَقَالَ ذُو النُّونِ(٥): الحُبُّ يُنْطِقُ، وَالحَيَاءُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٧ ـ ٣٦٨.

(٢) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٢٦٠، ومرقاة المفاتيح ٩/٢٦٥، ومعجم مقاليد العلوم ص٢١٧.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٤٤.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٧.

(٥) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٧/٤٣٠، ومدارج السالكين ٢/٢٦٠.

يُسْكِتُ، وَالخَوْفُ يُقْلِقُ[١]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ممَّا تنجَّزَ الفَراغُ منهُ؛ وهوَ الاستدلالُ علىٰ المعانِي القائمةِ بالقُلُوبِ بآثارِهَا، فمَنْ أحبَّ شيئًا أكثرَ مِنْ ذِكْرِهِ، ولذلِكَ كانَ الحبُّ ينطقُ، ومَنِ استحْيَىٰ مِنْ شيءٍ انقبضَ في نفسِهِ، فلذلِكَ كانَ الحياءُ يُسْكِتُ، ومَنْ خافَ مِنْ شيءٍ قلقَ وهَربَ، ولذلكَ كانَ الخَوفُ يقلقُ، فبهذِهِ الآثارِ يُسْتَدَلُّ علَىٰ المَعانِي القَائمةِ بالقُلُوبِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [١٢٩/٢ب][٢]: وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ[٣]: مَنْ تَكلَّمَ فِي الحَيَاءِ وَلَا يَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ - تعالىٰ - فِيمَا يَتَكلَّمُ بِهِ فَهُوَ مُسْتَدْرَجٌ.

سَمِعْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ إِشْكِيبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٤]: دَخَلَ الحَسَنُ الحَدَّادُ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَنَازِلٍ فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ تَجِيءُ؟ قَالَ: مِنْ مَجْلِسِ أَبِي القَاسِمِ المُذَكِّرِ، قَالَ: فِي مَاذَا كَانَ يَتَكلَّمُ؟ فَقَالَ: فِي الحَيَاءِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: وَا عَجَبَاهُ! مَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ اللهِ كَيْفَ يَتَكلَّمُ فِي الحَيَاءِ؟!».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا - وفَّقَكَ اللهُ - إذَا حُمِلَ علَىٰ إطلاقِهِ ولمْ ينزَّلْ علىٰ المقدَّمِ ذِكْرُهُ في الحكايةِ كانَ جيِّدًا جدًّا فإنَّهُ يقبحُ بالعبدِ أنْ يتكلَّمَ في الحياءِ منَ اللهِ وهوَ مقيمٌ علىٰ ما يُسخطُ اللهَ ولَا يستحْيِي منهُ، أوْ يستحْيِي منَ النَّاسِ فِي ذلكَ ولَا يستحيِي منَ اللهِ فيهِ، فهذَا أحقُّ وأولَىٰ أنْ يتعجَّبَ منهُ.

وأمَّا إنْ صرفَ الكلامَ وردَّ إلىٰ أبِي القاسمِ المذكورِ؛ وهوَ أنَّهُ كيفَ يتكلَّمُ في

---

(١) فكل هذه أمارات ـ أي: النطق والسكوت والقلق ـ تدل علىٰ تحقق المحبة والحياء والخوف.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٦٨/٢.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٤٦، ومجموعة رسائل الإمام الغزالي ص٤٥.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٤٦.

الحياءِ وهوَ لا يستَحْيِي، فإنْ قالَ القائلُ: ذلكَ لشيءٍ ظاهرٍ يعرفُهُ مَنْ تحدَّثَ معَهُ وقصدَ بهِ التَّحذيرَ فقدْ سلِمَ منَ الغِيبةِ وإظهارِ نفسِهِ، وإنْ كانَ لشيءٍ يعلمُهُ هوَ ولَمْ يجرِ ذلكَ علَىٰ لسانِهِ إلَّا لمَا يعرفُهُ منْ حالِ المُذكِّرِ خَاصَّةً فهوَ إظهارٌ لنقصِهِ، وتنبيهٌ عليهِ، ويُستغنَىٰ عَنْ ذكرِهِ، وفِي حكايتِهِ أيضًا عنهُ يكونُ غِيبةً، وأقربُ الوجوهِ لهُ ما قدَّمْنَا ذِكْرَهُ؛ وهوَ أنَّهُ ذكرَهُ لمَنِ استوَتْ معرفتُهُ ومعرفةُ المذكورِ لهُ، وإنَّمَا قصدَ تنبيهَهُ وتحذيرَهُ منْ أنْ يكونَ كذلِكَ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ صَالِحٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدُونَ[2] يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ المُؤَذِّنَ يَقُولُ: قَالَ سَرِيٌّ[3]: إِنَّ الحَيَاءَ وَالأُنْسَ يَطْرُقَانِ القَلْبَ، فَإِنْ وَجَدَا فِيهِ الزُّهْدَ وَالوَرَعَ حَطَّا[4]، وَإِلَّا رَحَلَا».**

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الورعَ الإعراضُ عنِ الدُّنيَا، الحرامِ فيهَا والمُشكلِ والمُتَشابِهِ، والزُّهدُ الإعراضُ عنِ الحلالِ الصَّافِي، وإذَا تفرَّغَ القلبُ منَ المُشكلاتِ والمُلْهِيَاتِ المُشغلاتِ تهيَّأَ لنزولِ الخيراتِ والبركاتِ، ومَنْ خطرَ بقلبِهِ فِي ذِكْرِهِ لربِّهِ واستشعارِهِ لنظرِهِ لهُ في سَائِرِ تقلُّبِهِ مَعَ مُجَاذبةِ الشَّهواتِ لهُ وصرفِهَا لهُ عمَّا هوَ بصددِهِ لمْ يستقرَّ معنَىٰ الحياءِ والأُنْسِ بقلبِهِ؛ لأنَّ الأُنسَ ثمرةُ دوامِ العبادةِ بالإخلاصِ، والحياءَ ثَمَرةُ دوامِ [٢/١٣٠أ] المُراقبةِ في سَائِرِ الحَرَكَاتِ والأنفاسِ[5].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٨.

(٢) في (ف): عزرون.

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان ٦/١٤٨، ومدارج السالكين ٢/٢٦٠.

(٤) أي: سكنًا فيه.

(٥) فلا يحُلان إلا في محل خال من المشغلات عن الله.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَاذَانَ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ[(٢)]: تَعَامَلَ القَرْنُ الأَوَّلُ مِنَ النَّاسِ فِيْمَا بَيْنَهُمْ بِالدِّينِ حَتَّىٰ رَقَّ الدِّينُ[(٣)]، ثُمَّ تَعَامَلَ الْقَرْنُ الثَّانِي بِالوَفَاءِ حَتَّىٰ ذَهَبَ الوَفَاءُ، ثُمَّ تَعَامَلَ القَرْنُ الثَّالِثُ بِالمُرُوءَةِ حَتَّىٰ ذَهَبَتِ المُرُوءَةُ، ثُمَّ تَعَامَلَ القَرْنُ الرَّابِعُ بِالحَيَاءِ حَتَّىٰ ذَهَبَ الحَيَاءُ، ثُمَّ صَارَ النَّاسُ يَتَعَامَلُونَ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ[(٤)]»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مقصودُ هذَا البابِ: هوَ أنَّ الحياءَ ممَّا يحفَظُ العبدَ علىٰ دينِهِ، ويحملُهُ علىٰ القيامِ بهِ لربِّهُ، ويبعدُهُ عنِ الوقوعِ في ذَنْبِهِ، فإنَّ قولَهُ: «**تعامَلَ النَّاسُ فيمَا بينَهُمْ بالدِّينِ**»، يعنِي: بأوامرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ونَوَاهيهِ، فلَا يضرُّ بعضُهُمْ بعضًا، ويُوقِعُ كلٌّ منهُمْ فعلَهُ علىٰ حسبِ مَا أُمِرَ بهِ، فصارَتِ المُعَامَلاتُ صَحِيحةً، وصحَّتِ المُناكحاتُ والأقواتُ، والصَّلاةُ والصَّومُ والزَّكواتُ، فلمَّا ضعُفَ أمْرُ الدِّينِ تعاملُوا بالوفاءِ، وهوَ ما بقِيَ معَهُم منْ عوائِدِ الدِّينِ والآثارِ المحمودةِ التِي تعوَّدُوهَا قبلَ هذَا مدَّةً منَ الزَّمانِ، فلمَّا ذهبَ الوفاءُ فصارَ مَنْ عندَهُ مروءةٌ وحُسْنُ خُلُقٍ لمْ يرْضَ لنفسِهِ أنْ يتعاطَىٰ خَسَائِسَ الأمورِ ولَا يتعاطىٰ الظُّلْمَ ومَا لا يصلحُ شرْعًا؛ لكونِهِ مخلًّا بمروءتِهِ، ومَنْ لَا عندَهُ مروءةٌ ولَا هِمَّةٌ حسنَةٌ لمْ يتحفَّظْ مِنْ ذلكَ، فلمَّا ذهبَتِ المروءةُ تعامَلَ النَّاسُ بالحياءِ فلمْ ينكفَّ عنِ الرَّذائِلِ وتعاطِي الأمورِ المكروهاتِ إلَّا مَنْ طبيعتُهُ الحياءُ وهيَ طبيعةٌ حسنةٌ، ومَنْ قلَّ حياؤُهُ لمْ يتحفَّظْ مِنْ شيءٍ منْ ذلكَ، وقَدْ قيلَ[(٥)]: «إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»، ولهُ تأويلانِ:

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٨.

(٢) ورد قوله في: آداب الصحبة للسلمي ص٧٣، وإحياء علوم الدين ٢/١٦٤.

(٣) أي: ضعف.

(٤) أي: بالنسبة للمخلوقين أمثالهم.

(٥) سبق تخريجه.

أحدُهُمَا: إذَا قلَّ حياؤُكَ صنعْتَ ما شئْتَ، وهذَا هوَ المَذمُومُ.

والوَجْهُ الثَّانِي: إذَا لمْ يكنْ في عملِكَ مَا تستحْيِي منهُ فاصنَعْ ما شئتَ، فإنَّهُ كلَّهُ جيِّدٌ(١)، وإليهِ أشارَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَنْ أوصَاهُ فقالَ لهُ(٢): «عليكَ بعملِ العلانيةِ، فقالَ: ومَا هيَ يا أميرَ المؤمنينَ؟ قالَ: إذَا لمْ يكنْ فِي عملِكَ مَا يُستَحْيَى منهُ، ولمْ تكرَهْ أنْ يُطَّلَعَ عليكَ، فَعَلَيْكَ بهذَا العملِ»، فلا تعمَلْ سِوَاهُ؛ لِسَلامتِهِ منَ الآفاتِ، فلمَّا ذهبَ الحَيَاءُ تعامَلُوا بالرَّغبةِ والرَّهبةِ، فمَنْ رجَا فِي نيلِ شيءٍ منهُ أُنصِفَ فِي المعاملةِ؛ لمَا يُرجَى مِنْ رِفْدِهِ، ومَنْ خِيفَ ضَرَرُهُ أُنصِفَ [١٣٠/٢ب] أيضًا خوفًا مِنْ شرِّهِ والسلامةَ منْ أذيَّتِهِ وحِقْدِهِ، وأمَّا اليومُ فأكثرُ معاملةِ النَّاسِ فيمَا بينَهُمْ وإنصافِهِمْ لبعضِهِمْ مِنْ بعضٍ فإنَّمَا هوَ بالرَّهبةِ خاصَّةً، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ [ص: ٢٤]، فمَنْ خِيفَ شرُّهُ وسَطوتُهُ أُنْصِفَ في المعاملةِ وقُضِيَتْ حاجتُهُ، ومَنْ كانَ بخلافِ ذلكَ استُهِينَ بهِ وبقيَتْ في نفسِهِ تتلجلَجُ حاجتُهُ(٣)، فإنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ حيثُ وصلَ أمرُ الدِّينِ إلى هذا الحدِّ الضَّعيفِ الَّذِي شُبِّهَ(٤) بمَنْ صحَّ موتُهُ أوْ خِيفَ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، قِيلَ: البُرْهَانُ أَنَّهَا أَلْقَتْ ثَوْبًا عَلَى وَجْهِ صَنَمٍ فِي زَاوِيَةِ البَيْتِ، فَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَاذَا تَفْعَلِينَ؟ فَقَالَتْ: أَسْتَحْيِي مِنْهُ، فَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَا أَوْلَى أَنْ أَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ».

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٤٥.

(٢) ورد قوله موجزا في: إحياء علوم الدين ٣/٣١٩، ومقاصد الرعاية ص١٠٦.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٤٥.

(٤) في (أ): شبيه، والأصح المثبت.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٨.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يُرجِعُ فيهِ إلىٰ نقْلِ المفسِّرِينَ فِي البُرهانِ الَّذِي راَهُ ما هوَ؟ فقيلَ هذَا[١].

وقيلَ[٢]: إنَّهُ رأَىٰ يعقوبَ عاضًا علَىٰ أصبعِهِ يحذِّرُهُ[٣].

وقيلَ غيرُ هذَا[٤].

وفِي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ[٥]؛ ووجهُهُ: «ولقَدْ همَّتْ بهِ لولَا أنْ رأَىٰ بُرْهَانَ ربِّهِ لَهَمَّ بهَا».

والهَمُّ أيضًا فِي وضعِ اللُّغةِ مُشْتَرِكَةٌ بينَ حَدِيثِ النَّفسِ والعَزْمِ، وحديثُ النَّفسِ مَعْفُوٌّ عنهُ، والعزمُ مُؤاخذٌ بهِ علىٰ الصَّحِيحِ، فيكونُ هَمُّ يوسفَ حديثَ نفسٍ وهَمُّهَا عَزْمًا[٦]، واللهُ أعلمُ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٧]: «وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ - تعالىٰ -: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥] قِيلَ: إِنَّمَا اسْتَحْيَتْ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَدْعُوهُ إِلَىٰ الضِّيَافَةِ فَاسْتَحْيَتْ أَلَّا يُجِيبَ[ـهَا] مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَصِفَةُ الْمُضِيفِ الاِسْتِحْيَاءُ، وَذَلِكَ

---

(١) انظر: التفسير البسيط ١٢/٧٣، وإحياء علوم الدين ٤/٣٩٧، والتسهيل لابن جزي ٢/١١٧.

(٢) وهو قول ابن عباس وعامة المفسرين، كما نص الواحدي في: التفسير البسيط ١٢/٧٣.

(٣) فيقول له: «يا يوسف: أَتَهُمُّ بِفِعْلِ السفَهاءِ وأنت مكتوب فِي ديوانِ الأنبياء...»، كما في: معاني الزجاج ٣/١٠١، وتفسير السمعاني ٣/٢٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١٢/١٨٥، والبغوي ٢/٤٢٠.

(٥) انظر: معاني الزجاج ٣/١٠١، وتفسير البغوي ٢/٤١٨، وزاد المسير ٤/٢٠٥، والهداية لمكي ٥/٣٥٤٣، وعقَّب عليه مكي بقوله: «ولا يجوز هذا أيضاً عند أهل العربية؛ لأنه لو كان كما قال، لكان باللام».

(٦) انظر: التفسير البسيط ١٢/٧٣ ـ ٧٤، وتفسير السمرقندي ٢/١٨٨، وتفسير القرطبي ٩/١٦٦، وزاد المسير ٤/٢٠٥.

(٧) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٨.

اِسْتِحْيَاءُ الكَرَمِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ، وهوَ أنْ يستحييَ الدَّاعِي للضَّيفِ مِنْ ضيفِهِ ألَّا يجيبَ فيفوتَهُ مقصودُهُ.

ويحتملُ وجهًا آخرَ: وهوَ أنَّهَا دعَتْهُ ليأخذَ أجرَ مَا سقَى، والدُّعاءُ لأخذِ الأجرةِ ممَّنْ شيمتُهُ الكَرمُ مؤلِمٌ لهُ، فاستحيَتْ ممَّا فِي نفسِهَا ممَّا باشرَتْهُ بهِ، وصرَّحَتْ؛ وهوَ قولُهَا: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[1] [القصص: ٢٥].

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ الحُسَينِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ البَلَاذُرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ العُمَرِيَّ [١٣١/٢أ] يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي الحَوَارِيِّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ يَقُولُ[3]: قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: عَبْدِي؛ إِنَّكَ مَا اسْتَحْيَيْتَ مِنِّي، أَنْسَيْتُ النَّاسَ عُيُوبَكَ[4]، وَأَنْسَيْتُ بِقَاعَ الأَرْضِ ذُنُوبَكَ[5]، وَمَحَوْتُ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ زَلَّاتِكَ، وَلَا أُنَاقِشُكَ فِي الحِسَابِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ ثَمَرَاتُ الحياءِ منَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وذلِكَ أنَّ مَنِ استحْيَا منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لمْ يُظْهِرْ لهُ شيئًا أمرَهُ بسترِهِ، فيقابلُ سترَهُ بالسَّترِ، فإذَا سترَ مَا أمرَهُ بسترِهِ سترَ عنِ النَّاسِ عُيُوبَهُ، وإذا تحفَّظَ مِنْ معصيةٍ فِي بعضِ أماكنَ فَلَمْ يَعْصِهِ فيهَا أَنْسَى اللهُ ـ تعالىٰ ـ الأماكنَ الَّتِي عَصَى فيهَا أنْ تشهدَ عليهِ يومَ القيامةِ، وإذَا استحْيَا منهُ لمَا تقدَّمَ لهُ منَ الزَّلَّاتِ الَّتِي كانَتْ بينَهُ وبينَهُ عفىٰ

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢٤/٢٠٦. وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٤٦.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان ٦/١٥٠، وتاريخ دمشق ٣٤/١٥٠، والبداية والنهاية ١٠/٢٥٨.

(٤) لئلا يفضحوك.

(٥) لئلا تشهد عليك يوم القيامة.

عنهُ، ولَمْ يُطْلِعْ عليهَا أحدًا مِنْ خلقِهِ، وبهذَا الاعتبارِ يكونُ حِسَابُهُ يسيرًا خفيفًا عليهِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلىٰ جنَّتِهِ بِرَحْمَتِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَقِيلَ: رُؤِيَ رَجُلٌ يُصَلِّي خَارِجَ المَسْجِدِ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ لَا تَدْخُلُ المَسْجِدَ فَتُصَلِّي [فِيهِ](٢)؟! فَقَالَ: أَسْتَحْيِي مِنْهُ أَنْ أَدْخُلَ بَيْتَهُ وَقَدْ عَصَيْتُهُ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ربَّمَا اعترَضَ بهِ مَنْ لمْ يذُقِ الحياءَ منَ اللهِ - تعالىٰ - في عُمُومِ أحوالِهِ، وإنَّمَا عرَفَ الاستحياءَ منهُ فِي بعضِ مُحرَّمَاتِهِ، وذلكَ مَنْ كَمُلَ حَيَاؤُهُ - وللهِ المثلُ الأعلَىٰ - مِنْ شخصٍ لمْ يقربْ لهُ مَوضِعًا، ولَا يخطُرُ بالجهةِ الَّتِي هوَ فيهَا؛ خوفًا منْ أنْ يقعَ بصرُهُ عليهِ فيقوىٰ ألمُ المستحْيِي، ويتجدَّدَ عليهِ الحياءُ، أوْ تقوىٰ كراهةُ مَنِ استحيَا منهُ للمستحْيِي؛ لمَا تقدَّمَ منْ نقلِهِ.

فعلَىٰ هذَا يُحملُ فعلُ هذا الشَّخصِ في كونِهِ صلَّىٰ خارجَ المسجدِ جماعةً وهوَ يرَىٰ مَنْ يصلِّي خلفَ الإمامِ، فلمْ يفعلْ مَكْرُوهًا، وإنَّمَا فاتَتْهُ فضيلةُ دخولِ المسجدِ، ولَمْ يَتْرُكْ ذلكَ لقلَّةِ رغبتِهِ فيهِ، وإنَّمَا ترَكَهُ حياءً ممَّا تقدَّمَ منهُ منَ الزَّلَلِ.

ومِنْ هذا القبيلِ كونُ العبدِ لا يرفعُ رأسَهُ إلىٰ السَّماءِ حياءً منَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فربَّمَا اعترضَ بعضُ النَّاسِ علىٰ هذِهِ الحكايةِ، وتوهَّمَ أنَّ هذَا جاهلٌ يعتقدُ أنَّ اللهَ فِي السَّماءِ حتَّىٰ لمْ يرفعْ رأسَهُ إلىٰ السَّماءِ، وهوَ غلطٌ ممَّنْ ظنَّهُ، ولكنَّهُ لوِ استشعرَ نظرَ الحقِّ إليهِ منْ حيثُ لا يشعرُ معَ تَنْزِيهِ مَولاهُ عنِ الجِهَةِ والأقطارِ انكسرَ قلبُهُ وذلَّ، فإذَا انكسَرَ قلبُهُ أطرقَ رأسَهُ تبعًا لذلِّ قلبِهِ، وهذَا جارٍ فيمَا بينَنَا لوِ استشعرَ رجلٌ وأحضرَ [١٣١/٢ب] ملك لجُرْمٍ أجرَمَهُ، وحضرَ بدارِهِ وهوَ يعلمُ أنَّ الملِكَ يراهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٦٩/٢.

(٢) زيادة من (ف).

وإنْ كانَ لا يدرِي مِنْ أينَ يراهُ، لَذَلَّ في نفسِهِ، واستحْيَا ممَّا جنَىٰ وأطرَقَ رأسَهُ ـ وللهِ المثلُ الأعلَىٰ ـ.

وكذَا ينبغِي أنْ يُحمَلَ كلامُ الصَّالحينَ ومَا ذُكِرَ منْ أحوالِهِمْ علىٰ وجهِ الحقِّ والصَّوابِ، وكيفَ يجوزُ لعبدٍ أنْ يَحمِلَ غيرَهُ علىٰ مَا لَا يتحقَّقُهُ منْ نفسِهِ منَ الخطأِ والخُروجِ عنِ الصَّوابِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقِيلَ: مِنْ عَلَامَاتِ المُسْتَحْيِي: أَلَّا يُرَىٰ بِمَوْضِعٍ يُسْتَحْيَا مِنْهُ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهوَ صحيحٌ، فإنَّ الحياءَ إنَّمَا يكونُ مِنْ تعاطِي ما يكرهُهُ مَنْ يستحيِي منهُ، ومَنِ استحيَا مِنَ اللهِ بَعُدَ عمَّا يكرهُهُ، والَّذِي يكرهُهُ تعاطِي المحرَّماتِ والمكروهاتِ، والَّذِي يذمُّ عليهِ الإخلالُ بالواجِبَاتِ، ومَا تفوتُ بتركِهِ الخَيْراتُ الإخلالُ بالمندوباتِ، فالعبدُ المُسْتَحْيِي مِنْ مولَاهُ لا يُرَىٰ إلَّا في فَرْضٍ يأتِيهِ، أو فضلٍ يَرغبُ فيهِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَرَجْنَا لَيْلَةً، فَمَرَرْنَا بِأَجَمَةٍ[٣]، فَإِذَا رَجُلٌ نَائِمٌ وَفَرَسُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ تَرْعَىٰ، فَحَرَّكْنَاهُ، وَقُلْنَا لَهُ: أَلَا تَخَافُ أَنْ تَنَامَ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْضِعِ المُخَوِّفِ وَهُوَ مُسْبِعٌ؟! فَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَنَا أَسْتَحْيِي مِنْهُ أَنْ أَخَافَ غَيْرَهُ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ وَنَامَ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ أرفعِ درجاتِ الحياءِ الَّذِي قوِيَ حتَّىٰ خالَفَ الطِّباعَ والعَاداتِ، وذلكَ أنَّ مِنْ عاداتِ البشرِ الخوفَ منَ السِّباعِ، وفِي

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٩.

(٣) أي: حزم ملتفة من قصب.

المَواضعِ الَّتِي يُخشَىٰ منهَا الأذيَّةُ منْ بنِي آدمَ وغيرِهِمْ، وربَّمَا لَا يمكنُ النَّومُ في مثلِ هذِهِ المواضعِ منْ قوَّةِ الخَوفِ، فمَنْ قَوِيَ حياؤُهُ مِنْ ربِّهِ أنْ يخامِرَ قلبَهُ خوفٌ منْ غيرِهِ حتَّىٰ ذهبَ عنهُ الخوفُ بالكليَّةِ ونامَ في المَواطِنِ المخوِّفَةِ، هذَا يدلُّ علىٰ كَمالِ حَيائِهِ وَغلَبتِهِ علَىٰ قلبِهِ حتَّىٰ اطمأنَّتْ نفسُهُ وَنامَ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَأَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَىٰ عِيْسَىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **عِظْ نَفْسَكَ، فَإِنِ اتَّعظَتْ.. وَإِلَّا فَاسْتَحْيِي مِنِّي أَنْ تَعِظَ النَّاسَ**[(٢)]».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا واضحٌ في الواجباتِ والمحرَّماتِ أنْ يعظَ العبدُ غيرَهُ في القيامِ بالواجباتِ والانكفافِ عنِ المحرَّماتِ وهوَ ملابسٌ لمَا وعَظَ غيرَهُ بهِ، غيرُ قائمٍ للهِ بواجبِهِ ولَا مزدجرٌ عنْ نهيِهِ، وأمَّا المندوباتُ [١٣٢/٢أ] فالأَوْلَىٰ والأحسنُ ألَّا يتعرَّضَ لوعظِ النَّاسِ بالمندوباتِ إلَّا المتخلِّقُ بذلِكَ والسَّالكُ سبيلَهُ، فإنَّ ذلكَ أبلغُ فِي انتفاعِهِمْ وأسلَمُ لقلوبِهِمْ منَ الاعتراضِ عليهِ، وربَّمَا يأمُرُ بهِ وهوَ بعيدٌ عنهُ، وهوَ أيضًا أنجعُ فِي قلوبِهِمْ لصدقِهِ فيمَا يقولُ، وهوَ متخلِّقٌ بهِ، وهوَ أيضًا أقدَرُ علَىٰ بيانِهِ وتخليصِهِ منْ آفاتِهِ، فيكونُ وَعْظُهُ قدِ اشتملَ علىٰ الحقِّ والصِّدقِ جَمِيعًا.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقِيلَ**[(٤)]: **الحَيَاءُ عَلَى وُجُوهٍ:**

حَيَاءُ الجِنَايَةِ: كَآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ **لَمَّا قِيلَ لَهُ: أَفِرَارًا مِنَّا؟ فَقَالَ: [لَا]**[(٥)]، **بَلْ حَيَاءً مِنْكَ.**

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٦٩/٢.

(٢) ورد قوله في: عيوب النفس للسلمي ص٢٢، ومدارج السالكين ٢/٢٦٠.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٦٩/٢ ـ ٣٧٠.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٤٠ ـ ٤٤٢.

(٥) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.

وَحَيَاءُ التَّقْصِيرِ: كَالمَلَائِكَةِ يَقُولُونَ: مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ[١].

وَحَيَاءُ الإِجْلَالِ: كَإِسْرَافِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ تَسَرْبَلَ بِجَنَاحِهِ حَيَاءً مِنَ اللهِ ـ سبحانه ـ[٢].

وَحَيَاءُ الكَرَمِ[٣]: كَالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَسْتَحْيِي مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يَقُولَ: اخْرُجُوا، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾[٤] [الأحزاب: ٥٣].

وَحَيَاءُ حِشْمَةٍ: كَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَ سَأَلَ المِقْدَادَ، حَتَّى سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حُكْمِ المَذْيِ؛ لِمَكَانِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مِنْهُ[٥].

وَحَيَاءُ الِاسْتِحْقَارِ: كَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنِّي لَتَعرِضُ لِي الحَاجَةُ مِنَ الدُّنْيَا فَأَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَكَ يَا رَبِّ، فَقَالَ اللهُ لَهُ: سَلْنِي حَتَّى مِلْحَ عَجِينِكَ، وَعَلَفَ شَاتِكَ[٦].

وَحَيَاءُ الإِنْعَامِ: هُوَ حَيَاءُ الرَّبِّ ـ سبحانه ـ يُدْفَعُ إِلَى العَبْدِ كِتَابٌ مَخْتُومٌ بَعْدَمَا عَبَرَ الصِّرَاطَ، وَإِذَا فِيهِ: فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ، وَلَقَدِ اسْتَحْيَيْتُ أَنْ أُظْهِرَهُ عَلَيْكَ، فَاذْهَبْ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكَ[٧].

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ فِي هَذَا الخَبَرِ: إِنَّ يَحْيَى بْنَ مُعَاذٍ قَالَ[٨]: سُبْحَانَ مَنْ يُذْنِبُ العَبْدُ فَيَسْتَحْيِي هُوَ مِنْهُ!».

---

(١) أورده الطبراني في المعجم الكبير ٢/١٨٤، وابن عساكر في تاريخ بغداد ٩/٢٩٦.

(٢) ورد في: مرقاة المفاتيح ٩/٢٧٠.

(٣) أي: كرم النفس ومحاسن الصفات.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٢٢/٣٨.

(٥) كما في صحيح البخاري ١/١٠٥ ـ حديث رقم (٢٦٦)، ولفظه: «عن عَلِيٍّ قال: كنت رَجُلًا مَذَّاءً، فَأَمَرْتُ رَجُلًا أَنْ يَسْأَلَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَكَانِ ابْنَتِهِ فَسَأَلَ فقال: تَوَضَّأْ وَاغْسِلْ ذَكَرَكَ».

(٦) سبق تخريجه.

(٧) ورد في: الإرشاد والتطريز ص١١٧.

(٨) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢٧٨، ومدارج السالكين ٢/٢٦١.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والحياءُ الَّذي فصَّلَهُ علىٰ سبعةِ أقسامٍ؛ منهَا ستَّةٌ فِي حياءِ المخلوقِينَ، والسَّابعُ المنسوبُ إلىٰ اللهِ - تعالىٰ -.

فأمَّا السِّتَّةُ المنسوبةُ إلىٰ الخَلْقِ فهيَ: حياءُ الجنَايةِ، وحياءُ التَّقصيرِ، وحياءُ الإجلالِ، وحياءُ الكرَمِ، وحياءُ الحِشْمةِ، وحياءُ الاستحقارِ؛ منهَا ثلاثةٌ سببُهَا التَّقصيرُ والإخلالُ بالحقِّ وعدمُ الصَّلاحيةِ؛ وذلكَ: الجنايةُ والتَّقصيرُ والاستحقارُ، فالجانِي مُخِلٌّ بالحقِّ، والمُقَصِّرُ لمْ يُوفِ بكمالِهِ، والمستحقرُ لنفسِهِ لمْ يرَ نفسَهُ أهْلًا لخدمتِهِ والقُرْبِ منهُ.

وأمَّا الثَّلاثةُ الباقيةُ فهيَ تندرجُ تحتَ التَّعظيمِ والإجلالِ وكرمِ الأخلاقِ؛ فالإجلالُ والحِشمةُ [١٣٢/٢ب] راجعةٌ إلىٰ الإجلالِ، والعبدُ إنَّمَا يحتشمُ ممَّنْ يُجِلُّهُ، والكرمُ أيضًا راجعٌ إلىٰ كمالِ الأخلاقِ وشرفِهَا، فيستحْيِي صاحبُهَا لكريمِ أخلاقِهِ أنْ يَنْطِقَ بِمَا يُؤلِمُهُ؛ خَوفًا منْ أذيَّةِ مَنْ آلَمَهُ.

وأمَّا السَّابعُ وهوَ حياءُ الإنعامِ فهوَ يرجعُ إلىٰ حياءِ الكَرمِ؛ لأنَّ مَنْ يَعْفُو عنِ الزَّلَلِ وينعمُ بعدَهُ ولا يؤاخذُ موصوفٌ بِأَكْرَمِ الصِّفاتِ؛ وذلكَ أنَّ المغفرةَ فِي الآخرةِ قَدْ تكونُ بعدَ دخولِ النَّارِ، وقَدْ تكونُ بعدَ الحِسَابِ الشَّديدِ، وقَدْ تكونُ بعدَ عرضِ الأعمالِ؛ وهوَ الحسابُ اليسيرُ، وقَدْ يغفرُ اللهُ للعبدِ إذا تكرَّمَ عليهِ ولا يُظْهِرُ لهُ شيئًا ممَّا جناهُ حتَّىٰ يلتحقَ في صُورةِ مَنْ لم يَجْنِ ويدخلَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ، ولذلكَ كانَ يحيَىٰ بنُ معاذٍ يقولُ في تَنْزيهِ اللهِ - تعالىٰ - وبُعْدِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ: «**سبحانَ مَنْ يُذْنبُ العَبْدُ فَيَسْتَحْيِي هوَ منهُ**[١]!».

---

(١) فلا يفضحه ويعفو عنه.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ جَعْفَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ زِنْجَوَيْه[٢] اللَّبَّادَ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الحُسَيْنِ الهِلَالِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الأَشْعَثِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ[٣]: خَمْسٌ مِنْ عَلَامَاتِ الشَّقَاءِ[٤]: القَسْوَةُ فِي القَلْبِ، وَجُمُودُ العَيْنِ، وَقِلَّةُ الحَيَاءِ، وَالرَّغْبَةُ فِي الدُّنْيَا، وَطُولُ الأَمَلِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ويجمعُ هذِهِ كلَّهَا علَى التَّحقيقِ طولُ الأمَلِ، فإنَّ العبدَ متَىٰ طَالَ أملُهُ اشتدَّ حِرْصُهُ علىٰ جمعِ المَالِ الَّذِي ينتفعُ بهِ في مدَّةِ حياتِهِ علىٰ زَعْمِهِ، وإذَا اشتغلَ بالدُّنيَا وغَفَلَ عَنِ الآخِرَةِ قَسَىٰ قلبُهُ، وإذَا قَسَىٰ قلبُهُ لَمْ تَعْمَلْ فيهِ المَوَاعِظُ، وَلَمْ يَحْرِدْ[٥] معَهُ إذَا ذكرَ تقصيرهُ، وإذَا صَلُبَ قَلْبُهُ ولَمْ تَنْجعْ فيهِ المواعظُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، فقلَّةُ الحيَاءِ والبُكَاءِ سَبَبُهُمَا قَسْوَةُ القَلْبِ، وقَسْوةُ القَلْبِ سَبَبُهَا التَّخبُّطُ في الدُّنيَا حتَّىٰ نُسِيَتِ الآخرةُ، وَسَبَبُ الحِرْصِ علىٰ الدُّنيَا وشدَّةِ طلبِهَا طُولُ الأملِ، واستشعَارُ البَقَاءِ فيهَا.

ولَوْ قصُرَ أملُهُ لقلَّ احتياجُهُ للدُّنيَا، واجتهدَ في تحصيلِ عملِ الأُخرَىٰ قبلَ المَوتِ، وإذا فعلَ ذلكَ رقَّ قلبُهُ وعملَتْ فيهِ المَوَاعظُ، واستحيَا منَ اللهِ ومنَ الخلقِ، وكَثُرَ بُكَاؤُهُ علىٰ تَقْصيرِهِ فِي حَقِّ ربِّهِ، فقدِ ارتبطَ الخيرُ كلُّهُ بقصرِ الأملِ في الدُّنيَا، والشَّرُّ بطولِ الأملِ والحِرْصِ علىٰ الدُّنيَا والمَحبَّةِ لهَا[٦]، ولذلكَ قالَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٠.

(٢) في (ف): ريحانة.

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان ٦/١٤٨، وتاريخ دمشق ٤٨/٤١٦، وروي نحوه في: قصر الأمل ص٧٦ عن محمد بن واسع، وعن مالك بن دينار في: الزهد الكبير ١/١٩٥.

(٤) أي: في الدنيا والآخرة.

(٥) أي: يعدل ويتنحىٰ. انظر: مقاييس اللغة ٢/٥٢، وإكمال الإعلام ٢/٧٦٦.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٤٩.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ» [١٣٣/٢أ].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَفِي بَعْضِ الكُتُبِ قَالَ اللهُ[(٣)]: مَا أَنْصَفَنِي عَبْدِي[(٤)]؛ يَدْعُونِي فَأَسْتَحْيِي أَنْ أَرُدَّهُ، وَيَعْصِينِي فَلَا يَسْتَحْيِي مِنِّي!.

وَقَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ[(٥)]: مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ مُطِيعًا اسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ وَهُوَ مُذْنِبٌ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَدْ حقَّقْنَا أنَّ الحياءَ منَ اللهِ - تعالىٰ - هوَ أنْ يفعلَ بِسَائِلِهِ أفعالَ المستحْيِينَ؛ وهوَ أنْ يعفوَ عنهُ وإنْ كانَ زلَلُهُ عظيمًا إذَا سألَ، وأنْ يتجاوزَ عنهُ، وإنْ لمْ يسألْ عَنْ كَثِيرٍ منَ الزَّللِ وهوَ حياءُ الكرمِ كمَا تقدَّمَ.

وإذَا وُفِّقَ العبدُ للحياءِ منْ ربِّهِ حتَّىٰ بعُدَ عن ذنبِهِ، وقامَ بواجبٍ عليهِ وتطوَّعَ بندبِهِ كانَ أهْلًا أنْ يستحِييَ اللهُ - تعالىٰ - منهُ بفضْلِهِ وكرمِهِ، فإنَّهُ إذا استحْيَا وعفَىٰ عمَّنْ عَصَاهُ فكيفَ كَرَمُهُ علَىٰ مَنِ اجتهدَ فِي طَاعتِهِ وَرَغِبَ فِي قُرْبِهِ وَمَوْلَاهُ؟!

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَاعْلَمْ أَنَّ الحَيَاءَ يُوجِبُ التَّذْوِيبَ[(٧)]، فَيُقَالُ: الحَيَاءُ ذَوَبَانُ الحَشَا لِاطِّلَاعِ المَوْلَىٰ.

وَيُقَالُ: الحَيَاءُ: انْقِبَاضُ[(٨)] القَلْبِ لِتَعْظِيمِ الرَّبِّ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٠.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٤٧، ومدارج السالكين ٢/٢٦٠.

(٤) أي: لم يعاملني بالإنصاف، حيث قابل الإحسان بالإساءة.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٤٧.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٠.

(٧) أي: هو سببٌ في ذوبان القلب باستشعار اطلاع الحق علىٰ علىٰ مكنون الضمائر. انظر: نتائج الأفكار ٣/٢٦٥.

(٨) في (أ): انقطاع، والأصح المثبت كما سيذكر فيما يأتي.

وَقِيلَ[١]: إِذَا جَلَسَ الرَّجُلُ لِيَعِظَ النَّاسَ نَادَاهُ مَلَكَاهُ[٢]: عِظْ نَفْسَكَ بِمَا تَعِظُ بِهِ أَخَاكَ، وَإِلَّا فَاسْتَحْيِ مِنْ سَيِّدِكَ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

وَسُئِلَ الجُنَيْدُ عَنِ الحَيَاءِ[٣]؟ فَقَالَ: رُؤْيَةُ الآلَاءِ، وَرُؤْيَةُ التَّقْصِيرِ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ بَيْنِهِمَا حَالَةٌ تُسَمَّى الحَيَاءَ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ الجُنيدُ أقربُ لمَا تقدَّمَ فِي حدِّ شيخ الإسلامِ الأنصارِيِّ، حيثُ قالَ[٤]: «الحياءُ متولِّدٌ مِنْ تعظيمِ مَنُوطٍ بودٍ»، فإنَّ الوُدَّ يكونُ منَ النِّعمِ، والتَّعظيمُ يُوجبُ رؤيةَ التَّقصيرِ في الحقِّ، فمَنْ رأَىٰ نفسَهُ مُقصِّرًا، ورأَىٰ النِّعمَ مُتواليةً عليهِ حصلَ لهُ الحَيَاءُ، وكذلِكَ مَنْ أَجَلَّ مولاهُ وأحبَّهُ حَصَلَ لهُ الحياءُ، فالنِّعمُ مُوجِبةٌ للمَحبَّةِ، ورؤيةُ العَظَمَةِ مُوجبةٌ[٥] لاستحقارِ النَّفسِ ورؤيةِ تقصيرِهَا.

وقَدْ تقدَّمَ الكلامُ علَىٰ أنَّ الواعظَ لا يعظُ النَّاسَ بمَا هوَ متسلِّحٌ عنهُ في الواجبِ، فإنَّهُ قريبٌ منَ المَقْتِ، والأَوْلَىٰ بهِ والأحسنُ ألَّا يعظَ النَّاسَ بالمندوبِ، إلَّا إذَا كانَ متخلِّقًا بهِ، وأقلُّ أحوالِهِ أنْ يكونَ وعظُهُ لنفسِهِ كوعظِهِ لغيرِهِ، فيكونَ يحرِّضُ نفسَهُ علىٰ الطَّاعاتِ، كمَا يحرِّضُ غيرَهُ منَ السَّامعينَ لوعْظِهِ، ولذلِكَ يقولُ لهُ ملكَاهُ: «**عِظْ نَفْسَكَ بِمَا تَقُولُ، وإلَّا فاستحِي**».

فإنْ كانَ متخلِّقًا بمَا يعظُهُ بهِ منَ المندوباتِ والخيراتِ، فهوَ أكملُ فِي الانتفاعِ

---

(١) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٤٨.

(٢) أي: الموكلان به.

(٣) ورد قوله في: شعب الإيمان ٦/١٤٧، وشرح صحيح مسلم للنووي ٢/٥، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٥، ومرقاة المفاتيح ٩/٢٦٨، وطرح التثريب ٨/١٤٠، ونسب لجعفر الخالدي في: تهذيب الأسرار ص٤٤٨.

(٤) منازل السائرين ص٥٤.

(٥) في (أ): موجب، والأصح المثبت.

لهُ ولِسَامعِهِ فِي عُلُوِّ الدَّرجاتِ، وإنْ لمْ يكنْ كذلِكَ فليكُنْ [٢/١٣٣ب] مُحَرِّضًا لنفسِهِ معَهُمْ إلَىٰ الاسـ[ـتِمْسَاكِ][١] بالمَنْدُوبَات، والنَّسبِ لأعالِي الدَّرجاتِ.

وأمَّا مَا تقدَّمَ منَ الحدَّينِ مِنْ «**ذَوبَانِ الحَشَا لاطِّلاعِ المولَىٰ**»، و«**انقباضِ القلبِ لاطِّلاعِ الرَّبِّ**»، فهذَا حياءُ أربابِ الأحوالِ والسَّالكينَ لكمالِ الدَّرجاتِ في المعارفِ، فإذَا استشعرَ قلبُهُ رؤيةَ الحقِّ لهُ معَ كمالِ إجلالِهِ وتعظيمِهِ ذابَ قلبُهُ في نفسِهِ، أوِ انقبضَ لِسَطْوَةِ عِزَّةِ ربِّهِ واسْتِشْعَارِ قُرْبِهِ[٢].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ الوَاسِطِيُّ[٤]: لَمْ يَذُقْ لَذَعَاتِ الحَيَاءِ مَنْ لَابَسَ خَرْقَ حَدٍّ، أَوْ نَقْضَ عَهْدٍ.**

وَقَالَ الوَاسِطِيُّ[٥]: المُسْتَحْيِي يَسِيلُ مِنْهُ العَرَقُ؛ وَهُوَ الفَضْلُ الَّذِي فِيهِ، وَمَا دَامَ فِي النَّفْسِ شَيْءٌ فَهُوَ مَصْرُوفٌ عَنِ الحَيَاءِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «**لَذَعَاتِ**» يعنِي: طَوَارِقَ الحَيَاءِ وبَوادِهَهُ وأوائِلَهُ.

وقولُهُ: «**مَنْ لابسَ خَرْقَ حَدٍّ**»، معناهُ: ارتكبَ محرَّمًا حدَّهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ ومنعَ منِ ارتكابِهِ، «**أَوْ نقضَ عهْدٍ**» يعنِي: واجبًا عاهدَ اللهَ علَىٰ القيامِ بهِ، وألزَمَهُ إيَّاهُ في تَكْلِيفِهِ، وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَحِ عندَ فِعْلِ المحرَّماتِ والإخلالِ بالواجباتِ، فليسَ عندَهُ حياءٌ، أعنِي: الحياءَ الواجبَ؛ وهوَ أوَّلُ درجاتِ الحياءِ ـ، ولذلِكَ قالَ: «لذعهُ»، يعنِي: أوائلَهُ، فإنَّ العبدَ إذا تمكَّنَ في حَيَائِهِ استحيَا منِ ارتكابِ

---

(١) تتمة لطرد الكلام؛ لمس مكانها بالأصل.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٤٩.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٠.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٥٨٥.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٥٨٥.

المكروهاتِ، ومنَ الإخلالِ بالمندوباتِ، وكذلِكَ إنِ ارتفعَتْ درجتُهُ استحيَا منَ الإخلالِ بأفضلِ المَنْدُوبينَ وإنْ تَعاطَىٰ أَدْونَهُمَا، وكذلِكَ يستحْيِي وإنْ طرقَتْهُ الغَفَلاتُ حتَّىٰ غفلَ عَنْ ذِكْرِهِ ثمَّ أيقظَهُ الحقُّ وردَّهُ إلىٰ فَضْلِهِ استحيَا ممَّا كانَ منهُ أوْ فيهِ، وإنْ لمْ يكنْ مِنْ فعلِهِ.

ومقصودُ كلامِ الواسطِيِّ وروحُهُ: أنَّ مَنِ ارتكبَ المحرَّماتِ وأخلَّ بالواجِبَاتِ فَحَيَاؤُهُ قليلٌ جدًّا، بَلْ هوَ كالمَعْدُومِ في هَذِهِ الأَوقَاتِ.

وقولُهُ: «**المُستحْيِي يسيلُ منهُ العرَقُ، وهوَ الفضلُ الَّذِي فيهِ، وما دامَ فِي النَّفسِ شيءٌ فهوَ مصروفٌ عنِ الحياءِ**» وهذَا يشيرُ إلَىٰ ما تقدَّمَ مِنْ أنَّ المستحْيِي يذوبُ قلبُهُ؛ وإنَّمَا ذابَ قلبُهُ مِنْ شدَّةِ مَا فيهِ منَ الحياءِ، وإذَا كانَ كذلِكَ ذهبَ مِنْ قلبِهِ وجسدِهِ كلُّ فُضُولٍ، وما دامَ العبدُ في نفسِهِ شَيءٌ يستحيِي منهُ ولمْ يفصلْ عنهُ ولا خرجَ منهُ، فليسَ بِمُسْتَحٍ كَمَالَ الاستحياءِ[١].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**[٣] [٢/١٣٤أ]: **الحَيَاءُ: تَرْكُ الدَّعْوَىٰ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ.**

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِي رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ بْنَ الوَلِيدِ الزُّورُونِي يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ الجَوْزَجَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الوَرَّاقَ يَقُولُ**[٤]: **رُبَّمَا أُصَلِّي للهِ ـ تعالىٰ ـ رَكْعَتَيْنِ، فَأَنْصَرِفُ عَنْهُمَا وَأَنَا بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَنْصَرِفُ عَنِ السَّرِقَةِ مِنَ الحَيَاءِ**».

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٥٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٠.

(٣) ورد قوله في: مرقاة المفاتيح ٩/٢٦٥.

(٤) ورد قوله في: الإرشاد والتطريز ص١١٧.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُ الشَّيخ أبِي علِيٍّ الدَّقَّاقِ يدلُّ علَىٰ أنَّ مَنْ كمُلَ حياؤُهُ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لمْ يَدَّعِ فيمَا لمْ ينلْهُ[١] منَ المقاماتِ، ولَمْ يَصِلْ إليهِ منَ الدَّرجاتِ، فدلَّ ذلكَ علَىٰ أنَّ تَرْكَ الدَّعْوَىٰ ثَمَرةٌ مِنْ ثمَراتِ الحيَاءِ.

وقولُ أبي بكرٍ: «**ربَّمَا أُصلِّي بالصَّلاةِ وأنصرِفُ عنهُما وكأنَّمَا انصرفْتُ منَ السَّرقةِ منَ الحيَاءِ**»، فهذَا الحياءُ أَثْمَرَهُ رؤيةُ التَّقصيرِ فِي القيامِ بحقُوقِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وهذَا معَ كمالِ اجتهادِهِ وتكلُّفِ حُضُورِهِ في صلاتِهِ وَكَمَالِ أَدَبِهِ، ثمَّ بعدَ ذلكَ لا يرىٰ نفسَهُ موقعًا لهَا علىٰ حسبِ ما يَليقُ بِجَلالِ مَولَاهُ[٢]، وكيفَ يكونُ حالُهُ في التَّعبُّدِ لهُ معَ ما عرَفَهُ بهِ مِنْ جَلالِهِ وعَظَمَتِهِ وأمرَهُ بهِ مِنْ كَمالِ تَقْوَاهُ؟!

❊ ❊ ❊

---

(١) في (أ): ينيله، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٥٠.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

بَابُ الحُرِّيَّةِ

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

قَالَ: إِنَّمَا آثَرُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لِتَحَرُّرِهِمْ عَمَّا خَرَجُوا مِنْهُ وَآثَرُوا بِهِ.

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ البَصْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي قُمَاشٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ النَّطَّاحِ[(٢)] قَالَ: حَدَّثَنَا نَعِيمُ بْنُ مُوَرِّعٍ عَنْ تَوْبَةَ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ المَكِّيِّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ طَاوُوسَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)]: «إِنَّمَا يَكْفِي أَحَدَكُمْ مَا قَنِعَتْ بِهِ نَفْسُهُ، وَإِنَّمَا يَصِيرُ إِلَىٰ أَرْبَعَةِ أَذْرُعٍ وَشِبْرٍ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ الأَمْرُ إِلَىٰ آخِرِهِ».

قَالَ الإِمَامُ: الحُرِّيَّةُ: أَلَّا يَكُونَ العَبْدُ تَحْتَ رِقِّ المَخْلُوقَاتِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ سُلْطَانُ المَكُونَاتِ، وَعَلَامَةُ صِحَّتِهِ[(٤)]: سُقُوطُ التَّمْيِيزِ عَنْ قَلْبِهِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ، فَيَتَسَاوَىٰ عِنْدَهُ أَخْطَارُ الأَعْرَاضِ.

قَالَ حَارِثَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٥)]: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا فَاسْتَوَىٰ عِنْدِي حَجَرُهَا وَذَهَبُهَا».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧١.

(٢) في (ف): النطاع.

(٣) أخرجه ابن السري في الزهد ص٢٨٧، والديلمي في الفردوس ١/٣٤٢، وأبو نعيم في الحلية ١/١٣٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٣/١٨١.

(٤) في (ف): صحة الإعراض.

(٥) سبق تخريجه.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الحدُّ في الحريَّةِ جيِّدٌ، وهوَ قولُهُ [٢/١٣٤ب]: «**ألَّا يكونَ العبدُ تحتَ رقِّ المخلوقاتِ**»، فدليلُهُ قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١): «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ القَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ»، جعلَهُ رقًّا لهذِهِ المذكوراتِ، وذلكَ لتعلُّقِ قلبِهِ بهَا واشتغالِهِ بحفظِهَا وصيانتِهَا، فمَنْ تحرَّرَ عَنْ رقِّهَا شغلًا بربِّهِ وإعراضًا عنهَا فهوَ الحُرُّ عَنْ غَيْرِ اللهِ، وهوَ العَبْدُ فِي الحقيقةِ للهِ(٢).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**(٤): **مَنْ دَخَلَ الدُّنْيَا وَهُوَ عَنْهَا حُرٌّ، ارْتَحَلَ إِلَى الآخِرَةِ وَهُوَ عَنْهَا حُرٌّ.**

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ المَرَاغِيَّ يَحْكِي عَنِ الدُّقِّيِّ عَنِ الزَّقَّاقِ يَقُولُ: مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا حُرًّا مِنْهَا، كَانَ فِي الآخِرَةِ حُرًّا مِنْهَا**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فالأوَّلُ قولُ الدَّقَّاقِ: «**مَنْ دخلَ الدُّنيَا وهوَ عنْهَا حُرٌّ ارتحلَ إلى الآخرةِ وهوَ عنهَا حُرٌّ**»، يعنِي: مَنْ دخلَ الدُّنيَا مِنْ غيرِ رغبةٍ فيهَا ولا محبَّةٍ لهَا، وإنَّمَا دخلَ فيهَا امتثالًا لأمْرِ ربِّهِ خرجَ منهَا ولَمْ تَتَعلَّقْ بقلبِهِ، كمَا دخلهَا الخلفاءُ الرَّاشدونَ: أبو بكرٍ وعمرُ وغيرُهُمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وأمَّا قولُ أبِي بكرٍ الزَّقَّاقُ: «**مَنْ كانَ فِي الدُّنيَا حُرًّا منهَا، كانَ في الآخرةِ حُرًّا منهَا**»، معناهُ: أنَّهُ إذا تعوَّدَ فِي الدُّنيَا أنَّهُ يتعاطاهَا لأمْرِ اللهِ لا لِهَوَاهُ لمْ يتعلَّقْ قلبُهُ بهَا، وكذلِكَ إذا عمِلَ أعمالَ الآخرةِ عمِلَهَا للهِ لا للجزاءِ عليهَا.

فبهذَا الاعتبارِ يكونُ حُرًّا فيهِمَا منهُمَا؛ لكونِهِ لمْ يُرِدْ بعملِهِ إلَّا وجْهَ ربِّهِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٥١.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٧١.

(٤) ورد قوله في: شرح القشيري لأسماء الله الحسنى ص٢٩.

خاصَّةً، وهذا الكلامُ أرفعُ ممَّا تقدَّمَهُ منْ كلامِ الدَّقَّاقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَاعْلَمْ أَنَّ حَقِيقَةَ الحُرِّيَّةِ فِي كَمَالِ العُبُودِيَّةِ، فَإِذَا صَدَقَتْ للهِ - تعالىٰ - عُبُودِيَّتُهُ خَلَصتْ عَنْ رِقِّ الأَغْيَارِ حُرِّيَّتُهُ.**

فَأَمَّا مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ العَبْدَ يُسَلَّمُ لَهُ أَنْ يَخْلَعَ وَقْتًا عِذَارَ العُبُودِيَّةِ، وَيَحِيدَ بِلَحْظِهِ[٢] عَنْ حَدِّ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَهُوَ مُمَيِّزٌ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ، فَذَلِكَ انْسِلَاخٌ مِنَ الدِّينِ، قَالَ اللهُ - سبحانه - لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، **يَعْنِي: الأَجَلَ، وَعَلَيْهِ أَجْمَعَ المُفَسِّرُونَ[٣].**

وَأَنَّ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ القَوْمُ مِنَ الحُرِّيَّةِ: هُوَ أَلَّا يَكُونَ العَبْدُ بِقَلْبِهِ تَحْتَ رِقِّ شَيْءٍ مِنَ المَخْلُوقَاتِ؛ لَا مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا، وَلَا مِنْ أَعْوَاضِ الآخِرَةِ، فَيَكُونَ فَرْدًا لِفَرْدٍ[٤]، لَمْ يَسْتَرِقَّهُ عَاجِلُ دُنْيَا، وَلَا حَاصِلُ هوىً، وَلَا آجِلُ مُنًى، وَلَا سُؤَالٌ، وَلَا قَصْدٌ، وَلَا أَرَبٌ، وَلَا حَظٌّ [٢/١٣٥أ]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «**الحريَّةُ فِي كمالِ العبوديَّةِ**» صحيحٌ؛ وذلكَ أنَّ كمالَ العبوديَّةِ إفراغُ الجهدِ في الطَّلبِ فِي البدنِ والقلبِ، ودوامِ المراقبةِ للرَّبِّ، والأدبِ معَهُ في كلِّ ما يرِدُ عليهِ مِنْ قَضَائِهِ منَ السَّهلِ والصَّعبِ.

فمَنْ تمكَّنَ فِي هذهِ العبوديَّةِ بقلبهِ كمُلَ شغلُهُ بربِّهِ، وإذَا كمُلَ شغلُهُ بربِّهِ لم يلتفتْ لنفسِهِ، فضْلًا عنْ أعمالِهَا وأحوالِهَا المُسْتَحْسَنَةِ، وإذَا وصلَ العبدُ إلىٰ هذَا الحدِّ منَ العبوديَّةِ كمُلَتْ فيهِ صِفَاتُ الحُريَّةِ، وبقيَّةُ كلامِهِ مِنْ قولِهِ: «**فأمَّا مَنْ أرادَ**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧١ - ٣٧٢.

(٢) أي: ملاحظته.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٤/٧٤، والبغوي ٣/٦٠، وتفسير السمعاني ٣/١٥٦، وزاد المسير ٤/٤٢٣.

(٤) أي: لله عَزَّ وَجَلَّ.

أَنْ يخلعَ وقْتًا عذارَ العبوديَّةِ»، زعمًا منهُ أنَّهُ مشتغلٌ بالرُّبوبيَّةِ فقدْ مَرقَ منَ الدِّينِ بالكلِّيَّةِ صحيحٌ، وهوَ كمَا قالَ الجُنيدُ لمَّا قِيلَ لهُ: إنَّ مِنْ أهلِ المعرفةِ قَوْمًا يقولُونَ بترْكِ الأعمالِ مِنْ بابِ البرِّ، زعمًا منهُمْ أنَّهُمْ وصلُوا، فقالَ[1]: «الَّذي يسرقُ ويزنِي أحسنُ ممَّنْ يقولُ هذَا، ولَوْ بقيْتُ ألفَ عامٍ لَمْ أنقصْ مِنْ أورادِي شيئًا!».

وقولُ غيرِهِ لمَّا سُئِلَ عمَّنْ يقولُ ذلكَ قالَ[2]: «نَعَمْ وصلَ، ولكنْ إلىٰ سَقَرَ»، وعلىٰ هذَا التَّقريرِ مَنْ أهملَ شيئًا مِنْ مقامِ العبوديَّةِ لمْ يتحقَّقْ في شيءٍ مِنْ مقامِ الرُّبوبيَّةِ، ولمْ تتخلَّصْ لهُ الحرِّيَّةُ، بلِ الحُرُّ علىٰ التَّحقيقِ مَنْ لَا يُعلِّقُ قلبَهُ في الدُّنيَا بِعَرَضٍ، ولَا في أعمالِ الآخرةِ بِعِوَضٍ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَقِيلَ لِلشِّبْلِيِّ[4]: أَلَا تَعْلَمُ أَنَّهُ رَحْمَانٌ؟ فَقَالَ: بَلَىٰ، وَلَكِنْ مُنْذُ عَرَفْتُ رَحمتَهُ مَا سَأَلْتُهُ أَنْ يَرْحَمَنِي[5]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا لهُ وجهٌ، وذلِكَ أنْ يُنزَّلَ كلامُهُ علىٰ مَا علِمَهُ مِنْ رحمةِ ربِّهِ، وتوالِي نِعَمِهِ عليهِ، وقلَّةِ شكرِهِ لمَا هوَ فيهِ منَ النِّعَمِ، فلمْ تقُمْ بقلبِهِ طلبُ الزِّيادةِ لمَا هوَ عاجزٌ عَنْ شُكْرِهِ لمَا عندَهُ منَ النِّعمِ والرَّحمةِ، وإنَّمَا مَنْ علِمَ سَعَةَ رحمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وعمومَ فضلِهِ وهوَ فِي نفسِهِ غيرُ مستقيمٍ، وهوَ محتاجٌ إلىٰ الرَّحمةِ والاستقامةِ، وقدْ علِمَ سعةَ رحمةِ ربِّهِ وسأَلَهُ رحمتَهُ فلَا استحالةَ فيهِ، وإنَّمَا يُحْمَلُ كلامُهُ علىٰ ما قدَّمْنَاهُ مِنْ حَالِهِ.

---

(١) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٣١، وحلية الأولياء ١٠/٢٧٨، وعوارف المعارف ص٥٢ ـ ط/العلمية، وروضة التعريف بالحب الشريف ص٣٠٦، ومدارج السالكين ٢/١٠٠.

(٢) قول أبي علي الروذباري في: طبقات الصوفية ص٢٧١، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/٤٩، وسير أعلام النبلاء ١٤/٥٣٦.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٢.

(٤) ورد قوله في: حل الرموز ومفتاح الكنوز ص٧١٩، وإتحاف السادة المتقين ١٣/١٤٠.

(٥) وذلك لفناء مراده في مراد مولاه.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمَقَامُ الحُرِّيَّةِ عَزِيزٌ[٢].

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٣]: كَانَ أَبُو العَبَّاسِ السَّيَّارِيُّ يَقُولُ: لَوْ صَحَّتْ صَلَاةٌ بِغَيرِ قُرْآنٍ لَصَحَّتْ بِهَذَا البَيْتِ[٤]:

أَتَمَنَّـى عَلَـى الزَّمَـانِ مُحَـالًا ✽ أَنْ تَـرَى مُقْلَتَـايَ طَلْعَـةَ حُـرِّ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، ولا سيَّمَا إذَا كانَتِ الحريَّةُ [٢/١٣٥ب] الخلاصَ مِنْ رِقِّ الأعراضِ والأعواضِ شغلًا باللهِ ـ تعالى ـ معَ كمالِ العبوديَّةِ لهُ، فلَا يذلُّ لطمعٍ في دُنيَا، ولَا يعملُ لعِوَضٍ في أُخْرَىٰ، وإنْ كانَ عملُهُ أرفعَ عملٍ، وأخلَصَهُ منَ الزَّلَلِ، وأبعَدَهُ عنِ الفتورِ والكسلِ، لا جرَمَ مَنْ كَانَ بِهَذِهِ المَثَابَةِ فهو مِنْ أَنْدَرِ مَوجُودٍ، بَلْ ربَّمَا كانَ مفقودًا، وصَدَقَ فيهِ قولُ الشَّاعرِ:

أَتَمَنَّـى عَلَـى الزَّمَـانِ مُحَـالًا[٥] ✽ أَنْ تَـرَى مُقْلَتَـايَ طَلْعَـةَ حُـرِّ

يعنِي بهذِهِ المثابةِ؛ يعنِي حُرًّا مطلقًا، وإلَّا فلَا يعدمُ مَنْ هوَ حُرٌّ مِنْ وجْهٍ ورِقٌّ مِنْ وجْهٍ، وحرٌّ مِنْ شيءٍ ورقٌّ لشيءٍ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَأَمَّا أَقَاوِيلُ المَشَايِخِ فِي الحُرِّيَّةِ فَقَالَ الحُسَينُ بْنُ مَنْصُورٍ[٧]: مَنْ أَرَادَ الحُرِّيَّةَ فَلْيَصِلِ العُبُودِيَّةَ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٢.

(٢) أي: نادر؛ لصعوبته بمخالفته لما جبلت عليه النفوس البشرية.

(٣) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص٣٣٤.

(٤) من الخفيف، وورد بلا نسبة في: يتيمة الدهر ٣/٤٠٠، والمستطرف ١/٧٢، والبرهان المؤيد ص٦٦، وتفسير القاري ٢/٢٨٧، وشذرات الذهب ٢/٣٦٥.

(٥) المراد بالمحال: البعيد.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٢.

(٧) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٧٠٠.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معناهُ: يُواليهَا ؛ ولَا يتخلَّلُهَا فتورٌ ولَا خضوعٌ ، ولا إلىٰ حظوظِ الدُّنيَا رجوعٌ ، فإذَا كمُلَتْ فيهِ العبوديَّةُ لذَّت لهُ حالةُ الحريَّةِ(١) .

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَسُئِلَ الجُنَيْدُ عَمَّنْ لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مِقْدارُ مَصِّ نَواةٍ ، فَقَالَ(٣): المُكَاتِبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيهِ دِرْهَمٌ**» .

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ، فإنَّ كمالَ الحريَّةِ عنِ الشَّهواتِ والميلِ إلىٰ الرَّاحاتِ ، ألَّا يبقَىٰ للعبدِ سكونٌ ولَا تلذُّذٌ بشيءٍ منَ المخلوقاتِ ، ومتَىٰ بقيتْ عليهِ بقيَّةٌ منعَهُ ذلكَ منْ كمالِ الحريَّةِ ، ولذلكَ قالَ: «**المكاتبُ عبدٌ ما بقِيَ عليهِ درهمٌ**» ، أيْ: شيءٌ يعجزُ بهِ ويُرَدُّ إلىٰ الرِّقِّ كنَّىٰ بالدِّرهمِ عنهُ .

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ(٥): سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو الأَنْمَاطِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَىٰ صَرِيحِ الحُرِّيَّةِ وَعَلَيْكَ مِنْ حَقِيقَةِ عُبُودِيَّتِهِ بَقِيَّةٌ**» .

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذي فسَّرْنَا بهِ كمالَ الحريَّةِ قبلُ ؛ وهوَ أنَّهَا لا تكمُلُ إلَّا إذَا كمُلَتِ العبوديَّةُ ؛ لأنَّ كلَّ مَنِ اشتغلَ بهِ عنْ غيرِهِ فإنَّمَا يشتغلُ عَنْ عبوديَّتِهِ وإيقاعِهَا علَىٰ أكملِ وجوهِهَا ، وإلَّا مَنْ زعمَ أنَّهُ اشتغلَ بهِ معَ إهمالِهِ لحقِّهُ في عبوديَّتِه فإنَّمَا اشتغلَ بِشَهْوتِهِ .

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٥٣ .
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٢ .
(٣) سبق تخريجه .
(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٢ .
(٥) طبقات الصوفية ص١٣١ ، وورد قوله أيضا في: الزهد الكبير ص٢٨٩ ، ومفتاح الفضائل والنعم للشيخ زروق ص٣٨٩ .

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ بِشْرٌ الحَافِي[(٢)]: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَذُوقَ طَعْمَ الحُرِّيَّةِ، وَيَسْتَرِيحَ مِنَ العُبُودِيَّةِ[(٣)]، فَلْيُطَهِّرِ السَّرِيرَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا في ظاهرِهِ تلبيسٌ وإشكالٌ، وإنَّمَا يتبيَّنُ المرادُ منهُ بحُسْنِ المَقَالِ، فإنَّ قولَهُ: «مَنْ أرادَ أنْ يستريحَ [١٣٦/٢أ] منَ العبوديَّةِ»، والعرفُ فِي إطلاقِ العبوديَّةِ: إنَّمَا هيَ عبوديَّةُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ معَ كمالِ القيامِ بهَا والتَّبرُّئِ منهَا اعتمادًا علَىٰ عونِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عليهَا.

وقولُهُ: «فليُطَهِّرِ السَّريرةَ» فيهِ إبهامٌ، علَىٰ أنَّ مَنْ طهُرَتْ سريرتُهُ لا يُبالِي بعبوديَّتِهِ، وليسَ هذَا مرادَهُ بالكليَّةِ، وإنَّمَا مرادُهُ هاهُنَا بالعبوديَّةِ عبوديَّةُ غيرِ اللهِ ـ سبحانه ـ فإذَا طهَّرَ سريرَتَهُ منَ التَّعلُّقِ بغيرِ اللهِ لمْ يكنْ عبدًا لهُ وسلِمَ منْ عبوديَّتِهِ، وصَارَ حُرًّا عنهَا عَبْدًا لربِّهِ، فهذَا مُرادُهُ لَا مَا يَسْبقُ للأوهامِ مِنْ أوَّلِ الإطلاقِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَقَالَ الحُسَينُ[(٥)] بْنُ مَنْصُورٍ[(٦)]: إِذَا اسْتَوْفَىٰ العَبْدُ مَقَامَاتِ العُبُودِيَّةِ كُلَّهَا يَصِيرُ حُرًّا مِنْ تَعَبِ العُبُودِيَّةِ، فَيَتَرَسَّمُ[(٧)] بِالعُبُودِيَّةِ بِلَا عَنَاءٍ وَلَا كُلْفَةٍ، وَذَلِكَ مَقَامُ الأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ.

يَعْنِي: يَصِيرُ مَحْمُولًا، لَا يَلْحَقُهُ بِقَلْبِهِ مَشَقَّةٌ، وَإِنْ كَانَ مُتَحَلِّيًا بِهَا شَرْعًا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا كلامٌ بالغٌ في تعريفِ أعلىٰ درجاتِ الحرِّيَّةِ؛

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٧٢/٢.

(٢) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٢٨٠/١، ومنارات السائرين ص١٨٠.

(٣) أي: لغير الله، كما سيذكر المؤلف.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٧٢/٢ ـ ٣٧٣.

(٥) في (أ): الحسن، والصواب المثبت.

(٦) ورد قوله في: منارات السائرين ص١٨٠، وإتحاف السادة المتقين ١٤٠/١٣.

(٧) أي: يتصف ويتحلىٰ.

وذلكَ أنَّ الحرِّيَّةَ الكاملةَ ما لَمْ يقعْ فيهِ إخلالٌ بالعبوديَّةِ، والعبدُ ما دامَ متكلِّفًا فِي التَّخلُّقِ بالمقاماتِ العليَّةِ، فعليهِ فِي الارتقاءِ مِنْ مقامٍ إلىٰ مقامٍ كُلْفَةٌ ومَشَقَّةٌ، وإذَا تمكَّنَ في المقاماتِ العليَّةِ لَمْ يبقَ عليهِ في القيامِ بالمقاماتِ كلِّهَا كُلْفَةٌ، وجرَتْ عليهِ بلَا مشقَّةٍ في تَحَمُّلِهَا لَا فِي قلبِهِ ولَا فِي بَدَنِهِ، وصارَ محمولًا فيهَا ناظرًا لِمَنْ تفضَّلَ عليهِ بهَا، وهذَا هوَ المعبَّرُ عَنهُ بالمرادِ وكانَ فيمَا تقدَّمَ منعوتًا بالمُريدِ.

فإذَا تحرَّرَ عَنْ رقِّ أعباءِ تحمُّلِ كُلفِ المقاماتِ وعنِ السُّكونِ إليهَا؛ استحسانًا لهَا واعتمادًا عليهَا، وصارَ مشغولًا بالمتفضِّلِ عليهِ بهَا ومُجرِيهَا صارَ حرًّا عنهَا.

وأوَّلُ الحرِّيَّةِ: الخلاصُ مِنْ أسبابِ الدُّنيا وأعراضِهَا.

والثَّانِي: خفَّةُ أعمالِ الآخرةِ، والحرِّيَّةُ عنِ الالتفاتِ لأعواضِهَا.

والثَّالثُ: الحرِّيَّةُ عنِ الالتفاتِ إلىٰ هذهِ المَقامَاتِ السَّنِيَّةِ، والسُّكونِ إليهَا شُغْلًا بالمتفضِّلِ بهَا ومُجرِيهَا، فهذِهِ حريَّةُ الحرِّيَّةِ[١].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[٢]: «**أَنْشَدَنِي الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ** رَحِمَهُ اللهُ **قَالَ: أَنْشَدَنَا أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ قَالَ: أَنْشَدَنِي مَنْصُورٌ الفَقِيهُ لِنَفْسِهِ**[٣]:

مَا بَقِي فِي الإِنْسِ حَرٌّ ❊ لَا، وَلَا فِي الجِنِّ حُرٌّ [٢/١٣٦ب]
قَدْ مَضَىٰ حُرُّ الفَرِيقَيْنِ[٤]**، فَحُلْوُ العَيْشِ مُرُّ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ المنشدَ لهذَينِ البيتَينِ عارفٌ بأحوالِ الإنسِ والجنِّ منَ المؤمنِينَ ومقاماتِهِمْ، وأنَّ الحرِّيَّةَ المُشَارَ إليهَا؛ وهوَ عدمُ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٥٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٣.

(٣) من الرمل، وورد بلا نسبة في: نتائج الأفكار ٣/٢٧٢.

(٤) أي: الإنس والجن.

التفاتِ القلبِ إلىٰ الأغيارِ شُغْلًا بالواحدِ القهَّارِ لمْ يبقَ عندَ أحدٍ منَ الجنِّ والإنسِ في زمانِهِ، وإنَّمَا خيارُهُمْ مَنْ عمِلَ وأتقَنَ ابتغاءَ الأجرِ، ومَنْ كمُلَ فِي التَّخلُّقِ بالمستحسناتِ منَ المقاماتِ، وبَعُدَ عنِ النَّقائصِ والآفاتِ؛ ليتخلَّقَ بأكملِ الصِّفاتِ لَا غيرَ.

ومِنْ هذَا القبيلِ ما حُكِيَ أنَّ بعضَهُمُ اجتمعَ لغيرِهِ منَ المشايخِ[(١)] فسألَهُ عَنْ حَالِهِ فِي أسفارِهِ فذكَرَ لهُ أنَّهُ عاملٌ في تصحيحِ التَّوكُّلِ، فأجابَهُ: «أنَّكَ أفنيتَ عمرَكَ في عمارةِ باطنِكَ، فأينَ الفناءُ فِي التَّوحيدِ؟».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: **«وَاعْلَمْ أَنَّ مُعْظَمَ الحُرِّيَّةِ فِي خِدْمَةِ الفُقَرَاءِ:**

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**[(٣)]: **أَوْحَىٰ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **إِلَىٰ دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إِذَا رَأَيْتَ لِي طَالِبًا**[(٤)] **كُنْ لَهُ خَادِمًا**[(٥)].

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٦)]: **«سَيِّدُ القَوْمِ خَادِمُهُم».**

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الفَضْلِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الرُّومِيِّ يَقُولُ: سَمِعْتُ يَحْيَىٰ بْنَ مُعَاذٍ يَقُولُ**[(٧)]:

---

(١) السائل هو الحسين بن منصور الحلاج للخواص، كما في: إحياء علوم الدين ٤/ ٢٤٧، والخبر فيه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/ ٣٧٣.

(٣) رُوي عنه في: حلية الأولياء ١٠/ ٨٠، وتاريخ دمشق ٣٦/ ٣٣٥، وإحياء علوم الدين ١/ ٦٠، وروي عن عبد العزيز بن عمر في: شعب الإيمان ٧/ ١٩٠.

(٤) أي: أخلص في طلبي وقصدي، فلم يخطر علىٰ باله سوي.

(٥) أي: مُعينا ناصرًا.

(٦) أخرجه: ابن المبارك في الجهاد ص١٥٩، والبغدادي في تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٣/ ٣١٣، والديلمي في الفردوس ٢/ ٣٢٤.

(٧) ورد قوله في: طبقات الصوفية ص١٠٣، ومرآة الزمان ١٥/ ٤٠٦.

أَبْنَاءُ الدُّنْيَا[١] يَخْدِمُهُمُ الإِمَاءُ وَالعَبِيدُ، وَأَبْنَاءُ الآخِرَةِ يَخْدِمُهُمُ الأَحْرَارُ وَالأَبْرَارُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**واعلَمْ أنَّ معظمَ الحرِّيَّةِ فِي خدمةِ الفقراءِ**» صحيحٌ؛ وذلكَ أنَّ العبدَ لا يمكنُهُ أنْ يخدمَ الفقراءَ كمَا ينبغِي ويجلَّهُمْ في نفسِ خدمتِهِ لهُمْ، ويرَىٰ الفضْلَ لهُمْ في استخدامِهِ إلَّا إذَا زالَتْ نفسُهُ عنهُ بالكلِّيَّةِ، ولمْ يرَ لهَا قدرًا ولا عظمةً.

وأَصْلُ الحرِّيَّةِ: الغيبةُ عَنْ رؤيةِ الأغيارِ، وآكدُهُمْ حرِّيَّةً أعظمُهُمْ غيبةً عن نَفْسِهِ، ولذلِكَ قالَ: «**معظمُ الحرِّيَّةِ**»، يعنِي: أكثرَ خصالِ الحرِّيَّةِ ينالُهَا العبدُ بخدمةِ الفقراءِ مِنْ تذلُّلِهِ، وانكسارِهِ، والأدبِ معَهُمْ، وحملِ مَا يبدُو منهُمْ، وهذَا كلُّهُ يهدمُ أساسَ النَّفسِ ويكسرُهَا حتَّىٰ تنتقلَ إلىٰ أعلَىٰ الحرِّيَّةِ، ولذلكَ أثنَىٰ الشَّرعُ والحكماءُ منَ النَّاسِ علَىٰ خدمةِ الفقراءِ بقولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**سَيِّدُ القَوْمِ خَادِمُهُمْ**»، وقالَ يحيَىٰ بنُ معاذٍ مادحًا لِمَنْ يخدمُ الصَّالحينَ: «**أبناءُ الدُّنيَا يخدمُهُمُ الإماءُ والعبيدُ** [٢/١٣٧أ]، **وأبناءُ الآخرةِ يخدمُهُمُ الأَحْرَارُ والأَبْرَارُ**»، وهذَا فيهِ شَرَفِيَّةٌ وَمَدْحٌ للخَادِمِ والمَخْدُومِ جميعًا.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «**وَسَمِعْتُهُ[٣] يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُثْمَانَ بْنِ يَحْيَىٰ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ المِصْرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ مُوسَىٰ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ خُبَيْقٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ يَقُولُ[٤]: إِنَّ الحُرَّ الكَرِيمَ يَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا[٥] قَبْلَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا.**

---

(١) أي: المنهمكون عليها، المشغولون بها، المتهافتون في تحصيلها.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٣.

(٣) أي: محمد بن الحسين.

(٤) ورد قوله في: منارات السائرين ص١٨١، والكواكب الدرية ٢/١٩٧.

(٥) أي: يتجرد من تعلق قلبه بها.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ[١]: لَا تَصْحَبْ إِلَّا حُرًّا كَرِيمًا، يَسْمَعُ وَلَا يَتَكَلَّمُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «**إِنَّ الحُرَّ الكَرِيمَ يَخرُجُ مِنَ الدُّنْيَا قَبلَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا**»، فالدُّنيَا عبارةٌ عنِ المَالِ والجاهِ، فَإِنْ زَهَدَ فيهِمَا تخلَّص مِنْ ضَرَرِهِمَا وخَرجَ عنهُمَا، وإنْ أقامَ معَهُمَا وأحبَّهُمَا أُخرِجَ كرْهًا؛ إمَّا بالزَّوالِ أوْ بالمَوتِ، والأوَّلُ أشرفُ وأجَلُّ وأقلُّ عَذابًا منَ الآخرِ، ولذلِكَ قالَ: «**لا تَصْحَبْ إلَّا حُرًّا كَرِيمًا يَسْمَعُ ولا يَتَكَلَّمُ**»، يعنِي: أنَّهُ يحملُ الأذَىٰ ولا يُكافِئُ عليهِ، ولا يحقِدُ ليُجازَىٰ وقتًا آخرَ، هذَا كلُّهُ مدحٌ لِمَنْ حسُنَتْ أخلاقُهُ، وتحرَّرَ عَنْ رقِّ الشَّهَواتِ ومحبَّةِ المكافأةِ[٢].

---

(١) ورد قوله في: الإرشاد والتطريز ص١٦٣.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٥٥.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

باب الذِّكرِ

قَالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

أَخْبَرَنَا أَبُو الحُسَينِ[٢] عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُشْرَانَ بِبَغْدَادَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الحُسَينُ بْنُ صَفْوَانَ البَرْذَعِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الدُّنْيَا قَالَ: حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِنْدٍ، عَنْ زِيَادِ بْنِ أَبِي زِيَادٍ، عَنْ أَبِي بَحرِيَّةَ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ[٣]: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُم بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ[٤]، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٍ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَأَنْ تَلْقَوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ، قَالُوا: مَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ذِكْرُ اللهِ ـ تعالى ـ».

أَخْبَرَنَا أَبُو نَعِيمٍ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ الحَسَنِ قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: حَدَّثَنَا الدَّبَرِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ ثَابِتٍ[٥]، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٦]: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللهُ اللهُ».

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ [٢/١٣٧ب] بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٤.

(٢) في (أ، ف): الحسن، وكذا اللفظ الي يليه، والصواب المثبت.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٤٥٩، ومالك في الموطأ ١/٢١١.

(٤) في (أ): أعمالكم لكم، والأصح المثبت.

(٥) في (أ): عن الزهري عن ثابت، والصواب المثبت، كما في سند مظان تخريجه.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١٣١ ـ حديث رقم (١٤٨)، وابن حبان في صحيحه ١٥/٢٦٢.

قَالَ: حَدَّثَنَا مُعاذٌ، قَالَ: حَدَّثَنا أَبِي، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١]: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الأَرْضِ: اللهُ اللهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والنَّظَرُ فِي حقيقةِ الذِّكْرِ، وهلْ هوَ ذكرُ القلبِ خاصَّةً؟ فإنَّ العبدَ إمَّا غافلٌ أو ذاكرٌ، أو يضافُ إلىٰ ذِكرِ القلبِ ذِكْرُ اللِّسانِ، ويكونُ الفضيلةُ الَّتِي وردَتْ عليهِمَا جميعًا، وهذَا هوَ الظَّاهرُ، وهوَ أنَّ الفضْلَ إنَّمَا وردَ علىٰ ذِكْرِ اللِّسانِ معَ ذِكْرِ القلبِ، ويدلُّ عليهِ الجزءُ الأوَّلُ الَّذِي أوردَهُ (الموطَّأُ)[٢] وهوَ قولُهُ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَمِنْ أَنْ تَلْقَوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ، قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ذِكْرُ اللهِ»، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فجعلَ الذِّكرَ مِنْ خيرِ أعمالِنَا، وهوَ يشملُ أعمالَ القلوبِ والجَوارحِ، ولَوْ كانَ العبدُ ذاكرًا بقلبِهِ دونَ لسانِهِ لمْ يخرجْ عنْ فضيلةِ الذِّكْرِ بالكلِّيَّةِ.

وأيضًا: فإنَّ ذِكْرَ اللِّسانِ إذَا أعانَ علىٰ حضورِ القلبِ وقتَ الذِّكْرِ لمْ تكمُلْ فضيلتُهُ وإنْ حسُنَتْ نيَّةُ العبدِ أوَّلًا، فليسَ مَنْ ذكرَ اللهَ بلسانِهِ معَ تعظيمِهِ بقلبِهِ وإجلالِهِ كمَنْ نوىٰ الخيرَ بالذِّكرِ وكرَّرَهُ بلسانِهِ خاصَّةً، ولهذَا كانَ الذِّكرُ معَ الحضورِ مِنْ صِفَاتِ المُحسنِينَ، كمَا قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لجبريلَ عنِ الإحسانِ[٣]: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ..**» الحديث.

وفضائلُ الذِّكْرِ في الكتابِ والسُّنَّةِ أكثرُ مِنْ أنْ تُحْصَىٰ، وهوَ أفضلُ مِنَ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١٣١ ـ حديث رقم (١٤٨)، والترمذي في سننه ٤/٤٩٢.

(٢) ١/٢١١.

(٣) سبق تخريجه.

الدُّعاءِ؛ وذلكَ أنَّ الباقياتِ الصَّالحاتِ ذِكْرٌ للهِ وثناءٌ وليسَتْ بدعاءٍ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ [الكهف: ٤٦]، و«إنَّ للهِ تسعةً وتسعينَ اسمًا»(١)، كلُّهَا ذِكْرٌ للهِ وثناءٌ عليهِ، وقدْ رُوِيَ(٢): «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ».

وما ذكرَهُ الإمامُ في الحديثَيْنِ؛ وهوَ قولُهُ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَىٰ أَحَدٍ يَقُولُ: اللهُ اللهُ**»، وقولُهُ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ لَا يُقَالَ فِي الأَرْضِ: اللهُ اللهُ**»، يحتملُ أنَّهُ لا يقولُهَا خالِصًا منْ قلبِهِ وإنْ جرىٰ علىٰ لسانِهِ؛ لأنَّ الخبَرَ وردَ أنَّهُ(٣): «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَىٰ شِرَارِ النَّاسِ»، وهلْ يعارِضُ هذهِ الأخبارَ قولُهُ(٤): «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ [٢/١٣٨أ] أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِّ ظَاهِرِينَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ»، وفي روايةٍ(٥): «حَتَّىٰ يَخْرُجَ الدَّجَّالُ».

وقَدْ رُوِيَ(٦) أنَّ الدَّجَّالَ يقتلُهُ عيسَىٰ بنُ مريمَ، ويخرجُ بعدَهُ يأجوجُ ومأجوجُ، ويتحصَّنُ عيسَىٰ بنُ مريمَ وأُمَّتُهُ ومَنْ معَهُ في الجبالِ، ويقتلُ يأجوجُ ومأجوجُ مَنْ في الأرضِ، فيقولُونَ: قَتَلْنَا مَنْ في الأرضِ، فلنقتُلْ مَنْ في السَّماءِ، فيرمُونَ نُشَّابَهُمْ نحوَ السَّماءِ، فيُرَدُّ عليهِمْ محمَّرًا دَمًا زيادةً فِي غرورِهِمْ، ويضيقُ عيسَىٰ ومَنْ معَهُ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٩٨١ ـ حديث رقم (٢٥٨٥)، ومسلم في صحيحه ٤/٢٠٦٣ ـ حديث رقم (٢٦٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي في نوادر الأصول ٣/٢٥٩، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٤١٣، والديلمي في الفردوس ٣/١٦٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٦٨ ـ حديث رقم (٢٩٤٩).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٢/١٩٨، وعبد الرزاق في مصنفه ١١/٣٧٧، وأبو يعلىٰ في مسنده ٦/٣٤١.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٥١٢، وحنبل بن إسحاق في الفتن ص١٣٣، وبنحوه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٥٤ ـ ٢٢٥٥.

حتَّىٰ يكونَ رأسُ الثَّورِ عندَ أحدِهِمْ أحسنَ منْ مائةِ دينارٍ عندَ أحدِكُمُ اليومَ، فيضجُّ عيسَىٰ بنُ مريمَ وأصحابُهُ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فيسلِّطُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِمْ داءً في أعناقِهِمْ يُسمَّىٰ (النَّغَفُ)[1]، فيصبحُونَ مَوْتَىٰ فرْسَىٰ[2] كموتِ رجلٍ واحدٍ، وينزلُ عيسَىٰ بنُ مريمَ ومَنْ معَهُ إلىٰ الأرضِ فلا يجدُ أحدُهُمْ موضعًا يضعُ فيهِ قدَمَهُ مِنْ نَتَنِهِمْ وجيفِهِمْ، فيلجأُ عيسَىٰ بنُ مريمَ ومَنْ معَهُ إلىٰ اللهِ ـ تعالَىٰ، فيرسلُ عليهِمْ طيرًا فتحملُهُمْ فتُلقيهِمْ في البحرِ، ثمَّ تُمْطِرُ السَّماءُ حتَّىٰ تغسلَ الأرضَ، ويجعلُ اللهُ البركةَ في الأرضِ، وتكونُ الرُّمَّانةُ الواحدةُ يأكلُ منهَا الجماعةُ، ويستظلُّونَ بِقِحْفِهَا[3]، وتكونُ الشَّاةُ الواحدةُ يأكلُ منهَا الجماعةُ يعمُّ لبنُهَا خَلْقًا كثيرًا، وكذلِكَ النَّاقةُ الواحدةُ، ثمَّ يتناقصُ الأمرُ حتَّىٰ لا يبقَىٰ في الأرضِ إلَّا شِرارُ النَّاسِ وعليهِم تقومُ السَّاعةُ، فيحملُ الخبرُ: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِّ ظَاهِرِينَ حَتَّىٰ تَظْهَرَ أَمَارَاتُ السَّاعَةِ»، ومِنْ أماراتِ السَّاعةِ: خروجُ الدَّجَّالِ، ويأجوجُ ومأجوجُ الَّذينَ يعمُّ شرُّهُمْ أكثرَ أهلِ الأرضِ، ويقلُّ أهلُ الخيرِ، وتقومُ السَّاعةُ ـ واللهُ أعلمُ ـ علىٰ بقايَا ممَّنِ اتَّبعَ الدَّجَّالَ واعتقدَهُ ربًّا، فإنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يهلكُونَ مَنِ اتَّبعَ الدَّجَّالَ الَّذِي قتلَهُ عيسَىٰ بنُ مريمَ، ويتحصَّنُ عيسَىٰ بنُ مريمَ وأصحابُهُ المؤمنونَ في رُؤوسِ الجِبالِ، فيأخذُ يأجوجُ ومأجوجُ قدرَ اللهِ، فيهلكونَ كمَا ذكرْنَاهُ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[4]: «الذِّكْرُ رُكْنٌ قَوِيٌّ فِي طَرِيقِ الحَقِّ ـ سبحانه ـ، بَلْ هُوَ العُمْدَةُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، وَلَا يَصِلُ أَحَدٌ إِلَىٰ اللهِ[5] ـ تعالىٰ ـ إِلَّا بِدَوَامِ الذِّكْرِ،

---

(١) في غريب الحديث لابن قتيبة ١/٢٨٢: «النغف: دود يكون في أنوف الغنم والإبل، واحدتها: نغفة».

(٢) فسَّرها الناسخ في حاشية (أ) بقوله: «فرسىٰ: قتلىٰ، الواحد: فريس من فرس الذئب الشاة وافترسها؛ إذا قتلها». وأفاد ذلك من النهاية لابن الأثير ٣/٤٢٨.

(٣) فسَّره الناسخ في الحاشية بقوله: «أراد: قشرها؛ تشبيهًا بقحف الرأس، وهو الذي فوق الدماغ».

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٤ ـ ٣٧٥.

(٥) أي: إلىٰ رحمته وفضله.

وَالذِّكْرُ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ: ذِكْرُ اللِّسَانِ، وَذِكْرُ القَلْبِ؛ فَذِكْرُ اللِّسَانِ بِهِ يَصِلُ العَبْدُ إِلَىٰ اسْتِدَامَةِ ذِكْرِ القَلْبِ، وَالتَّأْثِيرِ لِذِكْرِ القَلْبِ، فَإِذَا كَانَ العَبْدُ ذَاكِرًا بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ فَهُوَ الكَامِلُ فِي وَصْفِهِ فِي حَالِ سُلُوكِهِ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ [٢/١٣٨ب] **الدَّقَّاق** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يَقُولُ**[١]**: الذِّكْرُ مَنْشُورُ الوِلَايَةِ، فَمَنْ وُفِّقَ لِلذِّكْرِ فَقَدْ أُعْطِيَ المَنْشُورَ، وَمَنْ سُلِبَ الذِّكْرَ فَقَدْ عُزِلَ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يقولُ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فمَنْ أدامَ ذكرَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فقدْ أُعْطِيَ أسبابَ التَّقريبِ وأدلَّةَ الوصولِ، وهوَ منشورُ الولايةِ، وذلكَ أنَّ منشورَ الولايةِ في الشَّاهدِ مكتوبٌ يشهدُ للعبدِ بأنَّهُ وُلِّيَ وِلايةً، فمَنْ أدامَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ ليذكرَهُ فهوَ يذكرُهُ بِجرَائِهِ وحفظِهِ وإكرامِهِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾.

ومَنْ فَتَحَ لهُ بابَ الذِّكْرِ[٢] ودامَ عليهِ مدَّةً، ورُزِقَ اللَّذَّةَ فيهِ ثمَّ ابتُلِيَ بشيءٍ منَ الدُّنيَا حتَّىٰ أغفلَهُ ذلكَ عنْ ذكرِهِ وشغلَهُ عَنْ مذكورِهِ فقدْ عُزِلَ عنْ ولايتِهِ[٣]، والعياذُ باللهِ مِنْ بَلائِهِ وخذلانِهِ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٤]**: «وَقِيلَ**[٥]**: إِنَّ الشِّبْلِيَّ كَانَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ يَنْزِلُ كُلَّ يَوْمٍ سَرَبًا**[٦]**، وَيَحْمِلُ مَعَ نَفْسِهِ حِزْمَةً مِنَ القُضْبَانِ، فَكَانَ إِذَا دَخَلَ قَلْبَهُ غَفْلَةٌ**

---

(١) ورد قوله في: شرح نهج البلاغة ٦/١٢٦، وتفسير الثعالبي ٣/١٩٢، وورد بلا نسبة في: مدارج السالكين ٢/٤٢٣.

(٢) بأن وفّق للإكثار منه.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٥٨.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٥.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٦٤٨.

(٦) أي: طريقا، أو بيتًا.

ضَرَبَ نَفْسَهُ بِتِلْكَ الخُشُبِ حَتَّىٰ يَكْسِرَهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَرُبَّمَا كَانَتِ الحِزْمَةُ تَفْنَىٰ قَبْلَ أَنْ يُمْسِي، فَكَانَ يَضْرِبُ بِيَدِهِ وَرِجْلَيْهِ عَلَىٰ الحَائِطِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا عظيمٌ فِي المجاهدةِ، وإزالةِ النَّومِ والغفلةِ عنِ القلبِ، وَدوامِ الذِّكرِ بالقَلْبِ واللِّسانِ جميعًا، كلَّمَا أحسَّ مِنْ نفسِهِ نعاسًا أوْ غفلةً وفتورًا ضربَ نفسَهُ بتلكَ القضبانِ منَ الخشبِ حتَّىٰ يجدَ الألمَ، فيزولَ عنهُ بسببِهِ ما هوَ فيهِ منَ النَّومِ أوِ الغفلةِ والفُتُورِ حتَّىٰ يَصِيْرَ الخيرُ لهُ عادةً، فيستغنِي عَنْ هَذِهِ المُجَاهَدَةِ[1].

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقِيلَ[3]: ذِكْرُ اللهِ فِي القَلْبِ سَيْفُ المُرِيدِينَ، بِهِ يُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَهُم، وَبِهِ يَدْفَعُونَ الآفَاتِ الَّتِي تَقْصِدُهُمْ، وَإِنَّ البَلَاءَ إِذَا أَظَلَّ العَبْدَ؛ فَإِذَا فَزِعَ بِقَلْبِهِ إِلَىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ يَحِيدُ[4] عَنْهُ فِي الحَالِ كُلُّ مَا يَكْرَهُهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذِكْرُ اللهِ بالقلبِ ممَّا لا يستغنِي العبدُ عنهُ بحالٍ في أوَّلِ كلِّ عملٍ، وفِي أوَّلِ طُروءِ كلِّ حالٍ ونازلٍ منَ الأقدارِ، فإنَّ العبدَ إذا ذكَرَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ فِي أوَّلِ كلِّ عملٍ وأَرَادَهُ بِهِ واستعانَ بهِ علىٰ القيامِ لهُ سعدَ وأفلحَ، وكذلِكَ إذا نزلَ بهِ مَا يخشَىٰ ضَررَهُ في دُنياهُ وآخرتِهِ فزعَ إلىٰ مَوْلاهُ والتجأَ إليهِ بقلبِهِ [٢/١٣٩أ] سلَّمَهُ مِنْ كلِّ ما يخشاهُ ويتوهَّمُ أذاهُ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «وَسُئِلَ الوَاسِطِيُّ عَنِ الذِّكْرِ، فَقَالَ[6]: الخُرُوجُ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٥٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٥.

(٣) ورد قوله في: مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح في ذكر الله الكريم الفتاح ص١٩، ونشر المحاسن الغالية ص٢٤٤.

(٤) أي: يعدلُ.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٥.

(٦) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٣/١٦٤، ونشر المحاسن الغالية ص٢٤٤.

عَنْ مَيْدَانِ الغَفْلَةِ إِلَىٰ فَضَاءِ المُشَاهَدَةِ، عَلَىٰ غَلَبَةِ الخَوْفِ وَشِدَّةِ الحُبِّ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ بيانِ حالِ الذَّاكرِ، فقولُهُ: «**الخروجُ عن ميدانِ الغفلةِ**»، يعني: الغفلةَ المتطاولةَ في كثيرٍ منَ الأوقاتِ «**إلىٰ فضاءِ المشاهدةِ**»، يعني بالفضاءِ: الأرضَ المتَّسعةَ فكأنَّهُ قالَ: يخرجُ مِنْ طولِ الغفلةِ إلىٰ طولِ المشاهدةِ بالقلبِ، ويكونُ الحاملَ لهُ علىٰ ذلكَ المحبَّةُ الحاملةُ علىٰ دوامِ الذِّكْرِ، والخوفُ المانعُ لهُ منَ الفتورِ والانقطاعِ[1]، وهذهِ صفةُ الذَّاكرِ الذِّكرَ المطلوبَ المحمودَ، أيْ: تدومُ مشاهدتُهُ للمذكورِ علىٰ نعتِ المحبَّةِ لهُ وخوفِ الانقطاعِ عنهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ البَلَاذُرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ بَكْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ يَقُولُ[3]: مَنْ ذَكَرَ اللهَ - تعالىٰ - ذِكْرًا عَلَىٰ الحَقِيقَةِ نَسِيَ فِي جَنْبِ ذِكْرِهِ كُلَّ شَيْءٍ، وَحَفِظَ اللهُ - تعالىٰ - عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ، وَكَانَ لَهُ عِوَضًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الذِّكرُ الكاملُ؛ وهوَ الاستغراقُ في المذكورِ حتَّىٰ ينسَىٰ في حَالِ ذِكْرِهِ مَنْ سِواهُ[4] حتَّىٰ يغفلَ عَنْ كَونِهِ ذاكرًا؛ لأنَّهُ عمَّ كلَّ شيءٍ مذكورٍ؛ وهوَ مِنْ جملةِ الأشياءِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ المُعَلِّمَ يَقُولُ:

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٥٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٥.

(٣) ورد قوله في: الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري ص٦٧.

(٤) فمن نسي من سواه فني به، ومن فني به غاب عمن سواه.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٥.

سَمِعْتُ أَحْمَدَ المَسْجِدِيَّ يَقُولُ: سُئِلَ أَبُو عُثْمَانَ فَقِيلَ لَهُ[١]: نَذْكُرُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ وَلَا نَجِدُ فِي قُلُوبِنَا حَلَاوَةً؟!، فَقَالَ: اِحْمَدُوا اللهَ عَلَىٰ أَنْ زَيَّنَ جَارِحَةً مِنْ جَوَارِحِكُمْ بِطَاعَتِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ في تعريفِ النِّعمِ والإرشادِ إلى الانتقالِ في درجاتِ الذِّكرِ؛ وذلكَ أنَّ العبدَ إنَّمَا يجدُ اللَّذَّةَ في الذِّكرِ إذا دامَ عليهِ وزيَّنَهُ اللهُ في قلبِهِ، وعادَتْ بركتُهُ عليهِ، فحينئذٍ يلذُّ لهُ، قالُوا لهُ: «**نذكرُ اللهَ ولا نجدُ لذَّةً في قلوبِنا!**»، قالَ: اشكرُوا اللهَ علَىٰ نعمتِهِ عليكُمْ في الذِّكْرِ، فإذَا شكرتُمُوهُ عليهَا نقلَكُمْ إلىٰ مَا هوَ أعلَىٰ في درجاتِ الذِّكْرِ ووجودِ اللَّذَّةِ، ثُمَّ إلىٰ ما هوَ أرفعُ [٢/١٣٩ب] مِنْ وجُودِ اللَّذَّةِ، وهذَا إرشادٌ بالغٌ وفاءً بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢] [إبراهيم: ٧].

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «وَفِي الخَبَرِ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ[٤]: إِذَا رَأَيْتُمْ رِيَاضَ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا فِيهَا، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ؟ فَقَالَ: مَجَالِسُ الذِّكْرِ.

أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ بِشْرَانَ بِبَغْدَادَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الحُسَيْنُ بْنُ صَفْوَانَ البَرْذَعِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا قَالَ: حَدَّثَنَا الهَيْثَمُ بْنُ خَارِجَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ[٥]، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللهِ: أَنَّ خَالِدَ بْنَ

---

(١) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٢/٨٠، ونشر المحاسن الغالية ص٢٤٤، والفتوحات الربانية ١/٦٧.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٥٩.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٥٣٢، وأحمد في مسنده ٣/١٥٠، والطبراني في المعجم الكبير ١١/٩٥.

(٥) في (ف): عباس.

عَبْدِ اللهِ بْنِ صَفْوَانَ أَخْبَرَهُ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ[١]: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اِرْتَعُوا فِي رِيَاضِ الجَنَّةِ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا رِيَاضُ الجَنَّةِ؟ قَالَ: مَجَالِسُ الذِّكْرِ، قَالَ: اُغْدُوا وَرُوحُوا[٢] وَاذْكُرُوا، مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللهِ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عِنْدَهُ، فَإِنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يُنْزِلُ العَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ إذا والَىٰ علىٰ العبدِ ذِكْرَهُ دلَّ ذلكَ علىٰ ذِكرِ اللهِ لهُ؛ لخلقِهِ الذِّكْرَ في قلبِهِ ولِسَانِهِ، وإذا دامَ العبدُ علىٰ ذلكَ أحبَّهُ اللهُ وشرُفَتْ منزلتُهُ عندَهُ، فإنَّهُ ـ تعالىٰ ـ يقولُ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وهوَ مُطَابِقٌ لِقولِهِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ فِي المعنىٰ؛ لأنَّهُ الَّذِي خلقَ الذِّكْرَ والشُّكْرَ وهوَ الَّذِي يزيدُ العبدَ منْ فضْلِهِ علىٰ فضلِهِ.

وبهذَا الاعتبارِ مَنْ أرادَ أنْ يعرفَ منزلتَهُ عندَ اللهِ فليعلَمْ ما للهِ عندَهُ فإنَّهُ لا يكونُ في العبدِ منَ الخيرِ إلَّا ما سبَقَ لهُ عندَ اللهِ.

وبهذَا الاعتبارِ قالَ بعضُ التَّلامذةِ لشيخِهِ[٣]: «يا أستاذُ: هَلْ يعلمُ العبدُ أنَّ اللهَ عنهُ راضٍ؟ قالَ لهُ: كيفَ يعلمُ ذلكَ ورِضاهُ غيبٌ؟ فسكَتَ التِّلميذُ، ثمَّ قالَ بعدَ ساعةٍ: إذَا وجدْتُ نفسِي راضيًا عنِ اللهِ علِمْتُ أنَّ اللهَ عنِّي راضٍ»، يعنِي: في حالتِهِ الَّتِي هوَ عليهَا؛ لأنَّهُ خلقَ لهُ الرِّضَا الَّذِي هوَ دليلٌ علىٰ رِضَاهُ عنهُ.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/٣٩٨، والحاكم في المستدرك ١/٦٧١، وأبو يعلىٰ في مسنده ٣/٣٩٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٦/٧٩.

(٢) الغدو: الذهاب أول النهار، والرواح: الرجوع آخره، والقصد: اذكروا الله في جميع الأوقات مع المراقبة.

(٣) هو أبو علي الدقاق في: نهاية المرام في دارية الكلام ص٦١ ـ ٦٢، وورد بلا نسبة في: إتحاف السادة المتقين ١٢/٥٩٩.

وأمَّا الأخبارُ الَّتِي ذُكِرَتْ في رياضِ الجنَّةِ وأنَّهَا مجالسُ الذِّكْرِ ؛ قدْ تكونُ مجالسَ العلمِ وقدْ تكونُ مجالسَ الذِّكرِ باللِّسانِ ، وقدْ تكونُ مجالسَ التَّذكيرِ بالوعظِ والتَّنبيهِ ، فإنَّ جميعَ ذلكَ ينقلُ العبدَ منَ الغفلةِ إلى ذِكْرِ اللهِ [٢/١٤٠أ] وطاعتِهِ ، وأفضلُ الذِّكْرِ ما كانَ عندَ الأفعالِ والنُّزولِ ؛ وهوَ مُرَاقبةُ اللهِ ـ تعالى ـ ومعرفةُ أحكامِهِ وحَلالِهِ وَحَرَامِهِ[1].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ الفَرَّاءَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الشِّبْلِيَّ يَقُولُ[3]: أَلَيْسَ اللهُ ـ تعالى ـ يَقُولُ[4]: أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي ؟ مَا الَّذِي اسْتَفَدْتُمْ مِنْ مُجَالَسَةِ الحَقِّ ؟!**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا تنبيهٌ للتَّحسُّسِ لفوائدِ الذِّكْرِ وما يهبهُ اللهُ ـ تعالى ـ للذَّاكرِينَ منَ الخَيْراتِ ، ومِنْ ذلكَ وجودُ اللَّذَّاتِ في الذِّكْرِ ، وكمالُ الاستغراقِ في المَذكورِ ، ومِنْ ذلكَ سَمَاعُ الخِطَابِ[5] ، وفَهْمُ ما يَجْرِي على الألسُنِ مِنَ الجوَابِ ، كُلُّ ذلكَ يدركُهُ العبدُ في حَالِ كَمَالِ شُغْلِهِ بِمَذْكُورِهِ على اختلافِ المَفْهُومِ منَ الأذكارِ ، وما تدلُّ عليهِ مَعَانيهَا منَ الإجلالِ والتَّعظيمِ وكَمَالِ السُّلطانِ والاقتدارِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يفهمُ مِنْ مَعَانِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ على حَسبِ الفَهْمِ والاستبصارِ.

---

(١) قال العروسي: «مراده أن علم أحكام الله ـ تعالى ـ تعليما أو تعلما من قبيل الذكر» نتائج الأفكار ٢٨٣/٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٧٦/٢.

(٣) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٤٧٣/١ ، والدعاء المأثور وآدابه للطرطوشي ص٢٠٠ ، ومسالك الأبصار ١٥١/٨.

(٤) أخرجه ابن حنبل في الزهد ص٦٨ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٥٨/١ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٠/٦١.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٦٦٠/٢.

فنبَّهَ هذا الشَّيخُ هؤلاءِ التَّلامذةَ علىٰ التَّحسُّسِ لِمَا أفادَهُمُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ مِنْ فَوائدِ الذِّكرِ إنْ كَانُوا صَادِقِينَ[١].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُوسَىٰ السُّلَامِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الشِّبْلِيَّ يُنْشِدُ فِي مَجْلِسِه[٣]:

ذَكَرْتُكَ لَا أَنِّي نَسِيتُكَ لَمْحَةً ❁ وَأَيْسَرُ مَا فِي الذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِ
وَكِدْتُ بِلَا وَجْدٍ[٤] أَمُوتُ مِنَ الهَوَىٰ ❁ وَهَامَ عَلَيَّ القَلْبُ بِالخَفَقَانِ
فَلَمَّا أَرَانِي الوَجْدُ أَنَّكَ حَاضِرِي ❁ شَهِدْتُكَ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانِ
فَخَاطَبْتُ مَوْجُودًا[٥] بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ ❁ وَلَاحَظْتُ مَعْلُومًا بِغَيْرِ عِيَانِ[٦]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفي هذهِ الأبياتِ إشارةٌ إلىٰ تفاوتِ درجاتِ الذَّاكرينَ، وأنَّ أوَّلَهُ: ذِكْرُ اللِّسانِ والدَّوامُ عليهِ، وإنْ كانَ القلبُ ذاكرًا، ولذلكَ قالَ: «وأيسرُ ما في الذِّكرِ ذِكْرُ لساني»، فلمَّا فتحَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ بالأحوالِ؛ وهوَ وجودُ شدَّةِ اللُّبِّ للمذكورِ «هامَ القلبُ عليهِ بالخَفَقَانِ[٧]»، يعنِي: اشتدَّ طلبُهُ، فلمَّا انتقلَ منَ الوجْدِ إلىٰ الوجودِ، وهوَ قولُهُ:

...... أَرَانِي الوَجْدُ أَنَّكَ حَاضِرِي ❁ شَهِدْتُكَ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانِ

فالمكانُ للشَّاهدِ لا للمشهودِ، أيْ: لَمْ أغفلْ عنكَ في حالةٍ منَ الأحوالِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٦٠.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٦.
(٣) من الطويل، في ديوان أبي بكر الشبلي ص١٢٧، وتاريخ دمشق ٦٦/٧٦.
(٤) أي: بلاشوق.
(٥) يعني: وجودًا مطلقًا.
(٦) أي: بدون معاينة، برة القلب.
(٧) هو: داء يصيبُ القلب يُفضي به أحيانا إلىٰ الموت.

فَخَاطَبْـتُ مَوْجُـودًا بِغَيْـرِ تَكَلُّـمٍ ۞ وَلَاحَظْتُ [٢/١٤٠ب] مَعْلُومًا بِغَيْرِ عِيَانِ».

فقولُهُ: «بِغَيرِ تَكَلُّمٍ»، يعنِي: لمْ أتكلَّمْ معَ الغَفْلَةِ، بَلْ أتكلَّمُ معَ المُشَاهَدةِ، واستشعارِ سماعِكَ لكلامِي، ورؤيتِي لكَ بقلبِي، وهذَا هوَ المشارُ إليهِ فِي الخبرِ الصَّحيحِ في مقامِ الإحسانِ[1]: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فَإِنْ لَمْ تكُنْ تَراهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[3]: «وَمِنْ خَصَائِصِ الذِّكْرِ: أَنَّهُ غَيْرُ مُؤَقَّتٍ، بَلْ مَا مِنْ وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ إِلَّا وَالعَبْدُ مَأْمُورٌ بِذِكْرِ اللهِ؛ إِمَّا فَرْضًا، وَإِمَّا نَدْبًا، وَالصَّلَاةُ وَإِنْ كَانَتْ أَشْرَفَ العِبَادَاتِ فَقَدْ لَا تَجُوزُ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ، وَالذِّكْرُ بِالقَلْبِ مُسْتَدَامٌ فِي عُمُومِ الحَالَاتِ، قَالَ ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

سَمِعْتُ الإِمَامَ أَبَا بَكْرِ بْنِ فُورَكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ[4]: قِيَامًا بِحَقِّ الذِّكْرِ، وَقُعُودًا عَنِ الدَّعْوَىٰ فِيهِ».

۞ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي أرادَهُ مِنْ بيانِ فضيلةِ الذِّكْرِ باللِّسانِ، وأنَّهُ سائغٌ ومطلوبٌ في سائرِ الأزمانِ، وإنْ كانَتِ الصَّلاةُ منْ أفضلِ العباداتِ، كما رُوِيَ أنَّ العبدَ إنَّمَا يحاسبُ يومَ القيامةِ عنْ صلاتِهِ[5]، فإنْ قامَ بهَا نظرَ في بقيَّةِ أعمالِهِ؛ وذلكَ لكونِهَا أخفَّ الأعمالِ وأشدَّهَا طلبًا لذِي الجلالِ، ولذلكَ كتبَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٦١.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٤) رواه عنه ابن العربي في: أحكام القرآن ١/٣٩٨.

(٥) كما في سنن الترمذي ٢/٢٧٠: «أن أَوَّلَ ما يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يوم القِيَامَةِ من عَمَلِهِ صَلَاتُهُ فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ...».

عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلىٰ عُمَّالِهِ[١]: «إنَّ أهمَّ أمورِكُمْ عِندِي الصَّلاةُ، فمَنْ حفظَهَا وحافظَ عليهَا حفظَ دينَهُ، ومَنْ ضيَّعَهَا فهوُ لمَا سِوَاهَا أضيعُ».

وإذَا كانَتِ الصَّلاةُ بهذِهِ الرُّتبةِ فِي الدِّينِ، والعبدُ لا يصلِّيهَا قبلَ الغروبِ، ولا يصلِّيهَا والإمامُ علىٰ المنبرِ فِي بعضِ المذاهبِ، ولَا في صلاةِ الأعيادِ قبلَ صلاةِ العيدِ ولا بعدَهَا فِي المصلَّىٰ[٢].

والذِّكرُ باللِّسانِ جائزٌ في كلِّ حَالٍ لمْ يمنعِ الشَّرعُ منهُ بِحَالٍ، وأمَّا ذِكْرُ القلبِ فلا سبيلَ إلىٰ ترْكِهِ إلَّا بتكلُّفِ ضِدِّه، ونعوذُ باللهِ مِنْ هذهِ الأحوالِ.

واستدلالُهُ بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ [آل عمران: ١٩١] علىٰ جوازِهِ واستحبابُهُ في كلِّ حالةٍ، وتأويلُ ابنِ فُوركٍ قولَهُ[٣]: ﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا﴾، فقالَ: «**قيامًا بحقِّ الذِّكْرِ وقعوداً عنِ الدَّعْوَىٰ فيهِ**» ليسَ تفسيرًا للآيةِ؛ لأنَّهَا إنَّمَا جاءَتْ فِي بَيَانِ الصَّلاةِ وقتَ الأَعْذَارِ، والَّذِي قالَهُ منَ المَعْنَىٰ من بَابِ الاعْتبَارِ[٤]؛ لأنَّهُ جَارٍ فِي سَائِرِ الأعمالِ منَ التُّروكِ والأفعالِ والمَقَاماتِ والأَحْوالِ، فإنَّ العبدَ يقومُ بذلكَ للهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ أكملِ وجُوهِهِ المطلوبةِ، ويَتَبَرَّأَ مِنْ دَعْوَىٰ قيامِهِ بذلكَ إلَّا بعونِ ربِّهِ عليهِ [١٤١/٢أ] وتيسيرِهِ لهُ[٥].

فهذا المعنَىٰ ينبغِي للعبدِ أنْ يتخلَّقَ بهِ فِي سائِرِ أعمالِ الدِّينِ، وكثيرًا مَا يجرِي في كَلامِهِمْ هذا النَّوعُ منَ الفَهمِ وإنْ كانَ حقًّا ومطلوبًا لكنْ ليسَ مِنْ هذهِ الآيةِ

---

(١) رواه عنه مالك في الموطأ ٦/١، وورد أيضا في: المدونة الكبرىٰ ٥٦/١، والاستذكار ٤٨/١، وأحكام القرآن لابن العربي ١٧/١.

(٢) إشارة إلىٰ أن الصلاة لا تجوز في بعض الأوقات، كما ذكر.

(٣) في (أ): بقوله، والأصح المثبت.

(٤) أي: المعنىٰ المعتبر؛ لعدم ما ينافيه لعموم اللفظ. انظر: نتائج الأفكار ٢٨٧/٣.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٦٦٢/٢.

ونظائرِهَا علىٰ وجْهِ التَّفسيرِ والمُرَادِ بهَا.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ يَسْأَلُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ، فَقَالَ[٢]: الذِّكْرُ أَتَمُّ أَمِ الفِكْرُ؟ فَقَالَ الأُسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ: مَا الَّذِي يَقَعُ لِلشَّيْخِ فِيهِ؟ فَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: عِنْدِي أَنَّ الذِّكْرَ أَتَمُّ مِنَ الفِكْرِ؛ لِأَنَّ الحَقَّ ـ سبحانه ـ يُوصَفُ بِالذِّكْرِ، وَلَا يُوصَفُ بِالفِكْرِ، وَمَا وُصِفَ بِهِ الحَقُّ ـ تعالىٰ ـ أَتَمُّ مِمَّا اخْتَصَّ بِهِ الخَلْقَ، فَاسْتَحْسَنَهُ الشَّيْخُ أَبُو عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وما ذكرَهُ الشَّيخُ أبُو عبدِ الرَّحمنِ من أنَّ «**الذِّكْرَ أتمُّ منَ الفِكرِ**» لا يخلُو: إمَّا أنْ يريدَ ذكْرَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أوِ الفكرَ فيهِ، أوْ يريدَ الذِّكرَ مطلقًا والفكْرَ مطلقًا، فإنَّ الفكرَ إنَّمَا يرادُ لتحصيلِ ما لمْ يحصَّلْ، والذِّكرَ إنَّمَا هوَ لحاصلٍ، وقدْ يكونُ نسِيَ بعدَ حصولِهِ ثمَّ تذكَّرَ.

وإذَا نظرَ إلىٰ أنَّ الفكرَ وسيلةٌ لتحصيلِ ما لمْ يحصَّلْ منَ العلومِ مطلقًا منَ العلمِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وصفاتِهِ وجلالِهِ وتفصيلِ أحكامِهِ وما غابَ مِنْ أمورِ الدُّنيَا والآخرةِ كانَ الفكرُ علىٰ هذَا أتمَّ؛ مِنْ حيثُ إنَّهُ وسيلةٌ لتحصيلِ ما لَمْ يحصَّلْ منَ العلومِ مطلقًا، والذِّكرُ نظرٌ في حاصلٍ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وما فضّلَ بهِ الشَّيخُ أبُو عبدِ الرَّحمنِ: الذِّكْرَ منْ أنَّ «**الحقَ يوصَفُ بهِ ولَا يُوصَفُ بالفكرِ**» فإنَّمَا ذلكَ لأنَّ الفِكْرَ لا يوصَفُ بهِ الحقُّ ـ سبحانه ـ ولا يليقُ بهِ؛ لأنَّهُ عالمٌ كلَّ معلومٍ، والبارِئُ ـ سبحانه ـ لَا يليقُ بوصفِهِ الفكرُ؛ لأنَّهُ يدلُّ علىٰ افتقارِهِ لِعِلْمِ ما لمْ يَعْلَمْ، وهوَ محالٌ، وإذَا نظرْنَا إلَىٰ أنَّ صفاتِ الحقِّ أفضلُ منْ حيثُ كونُهَا صفاتِ الحقِّ فإنَّمَا ذلكَ بالنِّسبةِ إلىٰ علمِ الحقِّ القديمِ، وكذلكَ سائِرُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٧.

(٢) ورد قوله في: سير أعلام النبلاء ١٧/٢٥٠، وتاريخ الإسلام ٢٨/٣٠٥.

صفاتِهِ، والعبدُ ـ أيضًا ـ عالمٌ بمعلوماتِهِ الَّتي أعلَمَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهَا، فهوَ موصوفٌ بكونِهِ عالمًا بمعلوماتِهِ.

وإذَا وقعَ السُّؤالُ فِي أيِّ الوصفَينِ أفضلُ في حقِ العبيدِ؟ ترجَّحَ أنَّ الفكرَ أفضلُ؛ لكونِهِ سَبَبًا لتحصيلِ ما لمْ يحصَّلْ منَ العلومِ، والذِّكرُ إنَّمَا هوَ لحاصلٍ، هذا بالنِّسبةِ لأفعالِ العبيدِ المكتسبةِ.

وأمَّا إذَا [١٤١/٢ب] وقعَ التَّرجيحُ بينَ الذِّكْرِ والفِكْرِ مطلقًا، وكونُ العبدِ عالمًا بكلِّ ما يحتاجُ إليهِ ويخلقُهُ الحقُّ لهُ أكملُ مِنْ كَونِهِ متفكِّرًا لتحصيلِ ما لَمْ يحصَّلْ، فيكونُ علَىٰ هذَا الوجهِ الذِّكرُ أفضلَ منَ الفِكْرِ؛ لأنَّ الذِّكْرَ وصَفَ الحقُّ بهِ نفسَهُ؛ لاستحالةِ الغفلةِ عليهِ، وكونِهِ عالِمًا بكلِّ معلومٍ، وإذَا منَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبدِ بالذِّكْرِ للعلْمِ وخلقَهُ لهُ، استغنَىٰ عنِ الفكرِ الَّذِي يحصِّلُهُ بهِ(١).

❁ **قالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الكتَّانِيَّ يَقُولُ(٣): لَوْلَا أَنَّ ذِكْرَهُ فَرْضٌ عَلَيَّ لَمَا ذَكَرْتُهُ؛ إِجْلَالًا لَهُ، مِثْلِي يَذْكُرُهُ وَلَمْ يَغْسِلْ فَمَهُ بِأَلْفِ تَوْبَةٍ مُتَقَبَّلَةٍ عَنْ ذِكْرِهِ!**».

❁ **قالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ، فإنَّهُ أجَلَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ وعظَّمَهُ واستصغَرَ نفسَهُ فلمْ يرَهَا أهلًا لأنَّ تَذْكُرَ اللهَ ـ جلَّ وعلَا ـ.

وقولُهُ: «**فلولَا أنَّ ذِكْرَهُ فرضٌ عليَّ**»، يعنِي: مطلوبًا في الصَّلواتِ والواجباتِ، هذَا ذِكْرُ اللِّسانِ والقلبِ، وأمَّا ذِكْرُهُ عندَ الأفعالِ والحركاتِ والسَّكناتِ ليوقعَهَا لهُ

(١) لا عن مطلق الفكر.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/ ٣٧٧.

(٣) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٣/ ٧٥، وتاريخ دمشق ٥٤/ ٢٥٦، والأنساب ٥/ ٣٣، والدعاء المأثور وآدابه ص ٢٠٠.

علىٰ حسبِ ما أَمَرَ، فهذَا الذِّكرُ لا بُدَّ للعبدِ منهُ، وكذلِكَ طلبُهُ - تعالىٰ - وندبُهُ للذِّكْرِ؛ كقولِهِ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وكقولِهِ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، و﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١]، فكأنَّهُ يقولُ: لولَا أمْرُهُ إيَّايَ بذكْرِهِ فرضًا ونفلًا، لمَا رأيتُ نفسِي أهلًا لأنْ أذْكرَهُ؛ لإجْلالِي لَهُ وتَعْظِيمِي.

وقولُهُ: «مَنْ يذكُرُهُ ولمْ يغسلْ فَمَهُ بألفِ توبةٍ متقبَّلَةٍ» إشارةٌ إلىٰ أنَّ مَنْ عصَىٰ كيفَ يليقُ بهِ أنْ يذكرَهُ؟!

وقولُهُ: «مُتَقَبَّلَةٍ»، يعنِي: أتَىٰ بهَا بشروطِهَا الشَّرعيَّةِ الواجبَةِ والمَنْدُوبَةِ: مِنَ الإقلاعِ، والنَّدمِ، والعَزمِ علىٰ ألَّا تعودَ، وكَثْرةِ البُكَاءِ والاستغفارِ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ الأُسْتاذَ أَبا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يُنْشِدُ لِبَعْضِهِم(٢):

مَا إِنْ ذَكَرْتُكَ إِلَّا هَمَّ يَلْعَنُنِي ❁ قَلْبِي وَسِرِّي وَرُوحِي عِنْدَ ذِكْرَاكَا
حَتَّىٰ كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَهْتِفُ بِي ❁ إِيَّاكَ وَيْحَكَ وَالتَّذْكَارَ إِيَّاكَا».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والبيتَانِ يُشيرَانِ إلىٰ عَضْدِ الحكايةِ، وأنَّ العبدَ إذَا خطرَ لهُ الذِّكرُ للهِ - تعالىٰ - قامَ بقلبِهِ زجرٌ يبعدُهُ عنهُ؛ لكونِهِ ليسَ أهْلًا لذلِكَ، وكأنَّ محذِّرًا يحذِّرُهُ: إيَّاكَ أنْ تقربَ التَّذكارَ إيَّاكَا(٣).

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٧.

(٢) من البسيط، ووردا بلا نسبة في: تفسير السلمي ١/١٣٢، وتهذيب الأسرار ص٣١٧، ولطائف الإشارات ١/١٨٩، وتاريخ دمشق ٦٦/٦٦، والإرشاد والتطريز ص١٧٤، وتفسير القاري ١/٣٨٥.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٦٣.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١] [٢/١٤٢أ]: وَمِنْ خَصَائِصِ الذِّكْرِ: أَنَّهُ جُعِلَ فِي مُقَابَلَتِهِ الذِّكْرُ، قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

وَفِي خَبَرٍ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]: إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَعْطَيْتُ أُمَّتَكَ مَا لَمْ أُعْطِ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ، فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: قَوْلُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، لَمْ يَقُلْ هَذَا لِأَحَدٍ غَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «ومِنْ خصائصِ الذِّكْرِ» ـ يعنِي ذكْرَ العبدِ ـ أنَّهُ مقابَلٌ بذكرِ اللهِ؛ لقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، والذِّكْرُ من اللهِ ـ تعالىٰ ـ للعبدِ لَا يخلُو منْ أحدِ أمرينِ: إمَّا أنْ يُثنِيَ عليهِمْ وينوِّهَ بأسمائِهِم فِي سَمَائِهِ وأَرْضِهِ، كمَا جاءَ فِي الخبرِ الصَّحيحِ[٣]: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَىٰ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَتُحِبُّهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ».

والوجْهُ الثَّانِي: أنْ يذكرَهُ بالجزاءِ وكثرتِهِ؛ لأنَّ ذِكْرَ العبدِ طاعةٌ وحسنةٌ، واللهُ ـ تعالىٰ ـ يجازِي علَىٰ الحسناتِ إلىٰ سبعمائةٍ، واللهُ يضاعِفُ لمَنْ يشاءُ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وذِكْرُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ منْ أفضلِ الأعمالِ وأحسنِهَا.

وإذَا كانَ ذِكْرُ اللهِ للعبدِ بمعنَىٰ الجزاءِ أو بمعنَىٰ الثَّناءِ فهذَا لا يختصُّ بذِكْرِ العبدِ، بلْ هوَ مطَّردٌ في سائرِ أعمالِهِ، إلَّا أنَّ ثناءَهُ ـ سبحانه ـ علىٰ عبدِهِ وأمْرَ جبريلَ بالنِّداءِ بذلِكَ لا يكونُ إلَّا فِي حقِّ مَنْ أحبَّ ربَّهُ وتوالَىٰ ذِكْرُهُ علىٰ قلبِهِ حتَّىٰ أحبَّهُ اللهُ، فإنَّ الخبَرَ الصَّحيحَ[٣]: «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٧.

(٢) ورد بنحوه في: تهذيب الأسرار ص٣١٦، عن مالك بن دينار.

(٣) سبق تخريجه.

عَلَيهِمْ ، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ» ، ومَنْ أحبَّ شيئًا أكثرَ مِنْ ذِكْرِهِ.

فإذَا مَنَّ اللهُ علَىٰ العبدِ بمحبَّةِ اللهِ قلَّتْ غفلتُهُ عنهُ ، وتوالَىٰ ذِكْرُهُ علىٰ قلبهِ ولسانِهِ أحبَّهُ اللهُ ، فهذَا يحسنُ أنْ يكونَ مِنْ خصائِصِ ذِكْرِ مَنْ بلغَ إلىٰ هذهِ الرُّتبةِ العاليةِ فِي الذِّكرِ ، هوَ الَّذي يأمرُ اللهُ جبريلَ أنْ ينادِيَ باسمِهِ ـ واللهُ أعلمُ ـ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: **«وَقِيلَ: إِنَّ المَلَكَ يَسْتَأْمِرُ[٢] الذَّاكِرَ فِي قَبْضِ رُوحِهِ»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: واستِئْمَارُ المَلكِ للأنبياءِ والأولياءِ فِي قَبْضِ أرواحِهِمْ إنَّمَا يكونُ ذلكَ قبلَ بلوغِ الأجَلِ الَّذِي أجَّلَهُ لهُمْ ، فيأتيهِمُ الملكُ الموكَّلُ بقبْضِ الأرواحِ قبلَ الوقتِ ويستأذِنُهُمْ ؛ إكرامًا لهُمْ وتشريفًا ، ويُجرِي علىٰ ألسنتِهِمْ مَا يكمِّلُ بهِ منزلتَهُمْ عندَهُ ، ولا يختارُونَ إلَّا ما سبقَ [٢/١٤٢ب] لهُم.

وقَدْ تقدَّمَ مِنْ ذلكَ ما فيهِ كفايةٌ فلا نُعيدُهُ ، وقَدْ قالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لمَّا سمِعَتِ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ[٣]: «الرَّفيقَ الأَعْلَىٰ» ، قالَتْ: علِمْتُ أنَّهُ لا يختارُنا ، ورَوَتِ الحديثَ[٤]: **«أنَّ نبيًّا لمْ يُقْبَضْ حَتَّىٰ يُخَيَّرَ»**.

وقَدْ تَقَدَّمَ[٥] أنَّهُمْ كانُوا عندَ خيرٍ النَّسَّاجِ وحانَتْ وقتُ صلاةٍ فريضةٍ ، فالتفتَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٧.

(٢) أي: يستأذن.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/١٦١٣ ـ حديث رقم (٤١٧٢) ، بلفظ: «عن عَائِشَةَ قالت: لَمَّا مَرِضَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَرَضَ الذي مَاتَ فيه جَعَلَ يقول: في الرَّفِيقِ الأعلىٰ» ، ومسلم في صحيحه ٤/١٨٩٤ ـ حديث رقم (٢٤٤٤).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٦/٢٧٤ ، وأبو يعلىٰ في مسنده ٨/٦١.

(٥) الدلالة ١/٤٥٦.

إلىٰ جهةٍ وقالَ: «قِفْ ـ عافاكَ اللهُ ـ فإنَّ الَّذِي أُمِرْتَ بهِ لا يفوتُكَ، والَّذِي أُمِرْتُ بهِ يفوتُنِي، ثمَّ صلَّىٰ وتمدَّدَ فخرجَتْ روحُهُ».

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَفِي بَعْضِ الكُتُبِ أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا رَبِّ؛ أَيْنَ تَسْكُنُ؟ فَأَوْحَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إِلَيْهِ: فِي قَلْبِ عَبْدِي المُؤْمِنِ[2].

وَمَعْنَاهُ: سُكُونُ الذِّكْرِ فِي القَلْبِ؛ فَإِنَّ الحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ سُكُونٍ وَحُلُولٍ، وَإِنَّمَا هُوَ[3] إِثْبَاتُ ذِكْرٍ وَتَحْصِيلٍ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومثلُ هذَا اللَّفظِ يحاشِي أحدًا منَ الأولياءِ العارفِينَ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وينزِّهُهُ عنِ الجهاتِ والحاجةِ إلىٰ شيءٍ منَ المخلوقاتِ أنْ يسألَ عنْ سُكُونِ الذَّاتِ، وإنَّمَا ذلكَ مِنْ بَابِ حَذْفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ، ومعناهُ: «أينَ يسكنُ ذكرُكَ منْ قلوبِ النَّاسِ؟»؛ لأنَّ قُلُوبَ بَنِي آدمَ متقلِّبةٌ؛ تذكرُ وتغفلُ، فأيُّ قلبٍ يَتوالَىٰ عليهِ ذِكرُكَ وتقلُّ غَفلاتُهُ؟ فأخبرَهُ ـ تعالىٰ ـ بأنَّ ذلكَ قلبُ عبدِهِ التَّقيِّ الورعِ الخَائفِ منهُ الحَذِرِ، هذَا هوَ الَّذِي يَتوالَىٰ علىٰ قَلْبِهِ ذكرُ اللهِ وتقلُّ غفلتُهُ عنهُ حتَّىٰ يصيرَ الذِّكرُ كأنَّهُ فيهِ سَاكِنٌ؛ أيْ: متواليًا.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ فَارِسًا يَقُولُ: سَمِعْتُ النُّورِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ وَسَأَلْتُهُ عَنِ الذِّكْرِ، فَقَالَ[5]: غَيْبَةُ الذَّاكِرِ ....

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٧.

(٢) أخرجه بمعناه الطبراني في مسند الشاميين ٢/١٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/١٢٢ بلفظ: «إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين».

(٣) أي: السكون.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٧٧، والكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري ص٦٧، ومدارج السالكين ٢/٤٣٢.

عَنِ الذِّكْرِ(١)، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ(٢):

«لَا لِأَنِّي أَنْسَاكَ أُكْثِرُ ذِكْرَا ۞ كَ، وَلَكِنْ بِذَاكَ يَجْرِي لِسَانِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ كثرةَ الذِّكْرِ باللِّسانِ تُحْيِي القلبَ، وتَزُولُ بهِ الغَفْلَةُ عَنْهُ، فَدَلَّ هذا بقولِهِ:

لَا لِأَنِّي أَنْسَاكَ أُكْثِرُ ذِكْرَا ۞ كَ ... ...

يعنِي: أنَّهُ لمْ يحملْنِي علىٰ أنْ أُكْثِرَ الذِّكْرَ بِلِسَانِي لِتَزُولَ الغَفْلَةُ عَن قَلْبِي والنِّسيَانُ، بَلْ أنَا ذاكرٌ لكَ بقلبِي فِي كلِّ حَالٍ لامتلاءِ قلبِي بِكَ، جَرَىٰ ذِكْرُكَ علىٰ لِسَانِي(٣)، فهذَا [١٤٣/٢أ] يعنِي قولَهُ:

لَا لِأَنِّي أَنْسَاكَ أُكْثِرُ ذِكْرَا ۞ كَ، وَلَكِنْ بِذَاكَ يَجْرِي لِسَانِي

فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئًا أكثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، و«كلُّ إناءٍ بالَّذِي فيهِ ينضَحُ»(٤).

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ(٦): مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَالجَلِيلُ ـ سبحانه ـ يُنَادِي: عَبْدِي؛ مَا أَنْصَفْتَنِي، أَذْكُرُكَ وَتَنْسَانِي! وَأَدْعُوكَ إِلَيَّ وَتَذْهَبُ إِلَىٰ غَيْرِي! وَأُذْهِبُ عَنْكَ البَلَايَا(٧) وَأَنْتَ مُعْتَكِفٌ عَلَىٰ الخَطَايَا(٨)، يَا ابْنَ آدَمَ،

---

(١) بأن يكون العبد مستغرقا في المذكور.

(٢) من الخفيف، ونسب للحسين بن الضحاك في: الدر الفريد وبيت القصيد ٢١٨/٩، وبلا نسبة في: تفسير السلمي ٦٨/١، ٤٠٨، ومناقب الأبرار ٧٧/١، وجمع الجواهر للحصري ص١٤٦.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٦٦٤/٢.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) الرسالة القشيرية ٣٧٨/٢.

(٦) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢١٥/١، وشرح حديث لبيك لابن رجب الحنبلي ص٢٧، ومدارج السالكين ٤٣٠/٢.

(٧) أي: الامتحان في البدن وغيره.

(٨) أي: مصرٌّ علىٰ المخالفات.

مَا تَقُولُ غَدًا إِذَا جِئْتَنِي ؟!».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يُتلقَّىٰ بنصِّهِ إلَّا منَ الخبرِ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ فيهِ «**يُنادَىٰ كلَّ يومٍ: مَا أنصفْتَنِي**»، وهذَا يحتاجُ إلىٰ توقيفٍ، وأمَّا كونُهُ يذكرُهُ والعبدُ ينسَىٰ قَدْ صحَّ فِي الخبرِ[1]: «أنَّ واعظَ اللهِ في قلبِ كلِّ مسلمٍ».

وقولُهُ: «**أدعوكَ إليَّ**»، واللهُ ـ تعالىٰ ـ يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، واللهُ ـ تعالىٰ ـ هوَ الَّذِي يُذهِبُ عنَّا كلَّ بلاءٍ، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، ففيهِ الحُجَّةُ البالغةُ.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ[3]: إِنَّ فِي الجَنَّةِ قِيْعَانًا[4]، فَإِذَا أَخَذَ الذَّاكِرُ فِي الذِّكْرِ أَخَذَتِ المَلَائِكَةُ فِي غَرْسِ الأَشْجَارِ، فَرُبَّمَا يَقِفُ بَعْضُ المَلَائِكَةِ فَيُقَالُ لَهُ: لِمَ وَقَفْتَ؟، فَيَقُولُ: فَتَرَ صَاحِبِي[5]»**.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، «إنَّمَا هيَ أعمالُكُمْ تُردُّ عليكُمْ»[6]، و﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، واللهُ ـ تعالىٰ ـ يُجازِي العبادَ بأعمالِهِم في الجنَّةِ ويُجزِلُ لهُمْ، فإذَا كانَتِ الملائكةُ الموكَّلُونَ[7] بغرسِ الأشجارِ فِي الجنَّةِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤/١٨٢، والطبراني في منسد الشاميين ٣/١٧٧.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٨.
(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/٢٧٦، ومناقب الأبرار ١/٢٤٢، ونسب للحسن في: المنتظم ١/١٩٤، والتبصرة لابن الجوزي ٢/١٧٦.
(٤) أي: أمكنة مستوية من الأرض.
(٥) أي: عن العمل، فجوزي بذلك.
(٦) جزء من حديث أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/٧٦، والعراقي في المغني ٢/١٠٦٤.
(٧) في الأصل: «الموكلين»، وهو تحريف، وكذا اللفظ الذي يليه.

جزاءً للأعمالِ، وربَّمَا وقفَ بعضُهُمْ عنِ الغرسِ فيقولُ لهُ صاحبُهُ: «لِمَ وقفْتَ؟ فيقولُ: فترَ صاحبِي».

ويحتملُ أنْ يُطْلَعَ هؤلاءِ علَىٰ أعمالِ العِبَادِ.

ويحتملُ أنْ تكونَ الملائكةُ الموكَّلُونَ بالعبادِ ينقلُونَ إليهِمْ أحوالَهُم[1]، فإذَا غرسَ لهُمُ الجزاءَ تفاوَتُوا في الغرسِ علىٰ ما نقلَ إليهِم تَفَاوتهُمْ فِي العملِ، وذلكَ جائزٌ، والمتَّبَعُ فيهِ النَّقلُ الصَّحيحُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقَالَ الحَسَنُ: تَفَقَّدُوا الحَلَاوَةَ[3] فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ[4]: فِي الصَّلَاةِ، وَالذِّكْرِ، وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ، فَإِنْ وَجَدْتُمْ، وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ البَابَ مُغْلَقٌ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يعنِي: بابَ النَّشاطِ في الأعمالِ، وهؤلاءِ قدْ علِمُوا وتفقَّدُوا الحلاوةَ فلمْ يجدوهَا، فدلَّ علىٰ أنَّ فِي قلوبِهِمْ قَسْوةً، مَا أثمرَهَا[5] حبُّ الفُضُولِ منَ [٢/١٤٣ب] الدُّنيَا، فلذلِكَ كانَ البابُ مُغْلَقًا، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، ولذَّتْ لهُمُ الأعمال، وتوالَتْ عليهِمْ منْ غيرِ اختلال.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[6]: «وَقَالَ حَامِدٌ الأَسْوَدُ[7]: كُنْتُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٦٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٨.

(٣) أي: اطلبوها.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/١٤٦، ومدارج السالكين ٢/٤٢٤، وبهجة المحافل وبغية الأماثل ص٣٣٢.

(٥) أي: الذي أثمرها.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٨.

(٧) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٥٤٧، والغنية للجيلاني ص١١٣.

الخَوّاصِ فِي سَفَرٍ، فَجِئْنَا إِلَىٰ مَوْضِعٍ فِيهِ حَيَّاتٌ كَثِيرَةٌ، فَوَضَعَ رِكْوَتَهُ، وَجَلَسَ وَجَلَسْتُ، فَلَمَّا كَانَ بَرْدُ اللَّيْلِ وَبَرْدُ الهَوَاءِ، خَرَجَتِ الحَيَّاتُ، فَصِحْتُ بِالشَّيْخِ فَقَالَ: اُذْكُرِ اللهَ، فَذَكَرْتُ فَرَجَعَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فَصِحْتُ بِهِ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمْ أَزَلْ إِلَىٰ الصَّبَاحِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الحَالَةِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَامَ وَمَشَىٰ وَمَشَيْتُ مَعَهُ، فَسَقَطَ مِنْ وِطَائِهِ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ تَطَوَّقَتْ [بِهِ]، فَقُلْتُ: مَا أَحْسَسْتَ بِهَا؟، فَقَالَ: لَا، مُنْذُ زَمَانٍ مَا بِتُّ لَيْلَةً أَطْيَبَ مِنَ البَارِحَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ ذِكْرَ اللهِ منَ الصَّادقِ يدفعُ عنهُ كلَّ بلاءٍ وكلَّ أذيَّةٍ، ولذلكَ أشارَ عليهِ الشَّيخُ بذكرِ اللهِ، فإنَّهُ الَّذِي يدفعُ عنكَ، ومعناهُ: أنَّكَ إذَا ذكرْتَ أنَّهُ لا ضارَّ ولا نافعَ سِوَاهُ دفعَ عنك كلَّ شيءٍ لتوكُّلِكَ عليهِ.

وقَدْ رُوِيَ[1] أنَّ عاملَ (إفريقيَّةَ) كتبَ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ يشكُو إليهِ كثرةَ الهوامِّ عندَهُ، ـ يعنِي: الحيَّاتِ والعقَاربَ ـ، فكتبَ إليهِ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، قالَ زُرْعَةُ[2]: وهيَ تنفعُ منَ البراغيثِ، وقَدْ جُرِّبَتْ فصحَّتْ[3].

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ[5]: مَنْ لَمْ يَذُقْ وَحْشَةَ الغَفْلَةِ[6] لَمْ يَجِدْ طَعْمَ أُنْسِ [حَلَاوَةِ][7] الذِّكْرِ».

---

(١) ورد في: التوكل علىٰ الله لابن أبي الدنيا ص٦٠، وحياة الحيوان ١/١٧٩.

(٢) في حياة الحيوان ١/١٧٩: «زرعة عبد الله أحد رواته».

(٣) بشرط صدق النية وقوة العزيمة. وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٦٥.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٨.

(٥) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣٥٦، والغنية للجيلاني ص١١٣.

(٦) أي: عن الذكر.

(٧) زيادة من (ف).

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ لمْ يستأنِسْ لمْ يستوحِشْ، وكيفَ يستوحشُ مَنْ لمْ يستأنسْ بهِ؟! فمَنْ مَنَّ اللهُ عليهِ بأُنْسِهِ في الخلواتِ، ولذَّةِ مناجاتِهِ علىٰ مرورِ الأوقاتِ والسَّاعاتِ، واستمرَّ أنسُهُ بهِ وحدَهُ وفِي الجماعاتِ، فإذَا أغفلَهُ عنهُ ـ والعياذُ باللهِ ـ خالقُ الأرضِ والسَّماواتِ، وجدَ فِي قلبِهِ وحشةَ البُعدِ فلَا يجدُ هذهِ الوحشةَ إلَّا مَنْ تقدَّمَ لهُ الأُنسُ، وربَّمَا كمُلَ الأنسُ وقلَّتِ الوحشةُ، فإنَّ بعضَهُمْ قالَ[1]: «الفوتُ أشدُّ منَ الموتِ»؛ وذلكَ أنَّ الموتَ أمرٌ متوقَّعٌ، وربَّمَا استعدَّ لهُ العبدُ قبلَ أنْ يَنْزِلَ، وإلَّا مَنِ استقلَّ دَهْرَهُ بالذِّكْرِ والإقبالِ، ووصلَ ليلَهُ ونهارَهُ بكمالِ الاشتغالِ [٢/١٤٤أ]؛ رجاءَ القُربِ وحصولَ النَّوالِ ثمَّ فاتَهُ مقصودُهُ دفعَهُ والعياذُ بالكبيرِ المتعَالِ، فحسرةُ الفوتِ في قلبِهِ أشدُّ مِنَ الموتِ، وربَّمَا أدَّتْ إلىٰ الموتِ تحقيقًا؛ لضعفِ القلوبِ ولعجزِهَا عَنْ حَمْلِ مَا يَرِدُ منَ العيوبِ.

ولَقَدْ حُكِيَ عن بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ[2]: «رأيتُ شابًّا يطوفُ حولَ الكعبةِ ويُخْرِجُ رقعةً منْ جيبِهِ فينظرُ فيهَا، ثمَّ يُعيدُهَا، فنظرَ فيهَا بعضَ الأيَّامِ ثمَّ وقعَ إلَىٰ الأرضِ فإذَا هوَ ميِّتٌ».

قالَ الرَّاوِي: «فأخرجْتُهَا، فإذَا فيهَا مكتوبٌ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]».

وأحسنُ الوجوهِ في الحملِ لهذَا الحالِ أنْ يكونَ فقدَ مَا كانَ بينَهُ وبينَ مولَاهُ، وكانَ يطوفُ بجنابِهِ سائلًا لهُ وراجيًا لمَا كانَ أولَاهُ، وكلَّمَا طالَ عليهِ الأمدُ أخرجَ الرُّقعَةَ وجدَّدَ الصَّبرَ لحالِهِ علىٰ ما فقدَ، فلمَّا وردَ عليهِ فتحٌ من ربِّهِ لكثرةِ هذَا السُّؤالِ عجزَ عن حمْلِهِ، فتوفَّاهُ علىٰ أحسنِ الأحوالِ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبْدِ اللهِ الذُّبْيَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ[(٢)]: مَكْتُوبٌ فِي بَعْضِ الكُتُبِ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: إِذَا كَانَ الغَالِبُ عَلَىٰ عَبْدِي ذِكْرِي.. عَشِقَنِي وَعَشِقْتُهُ.

وَبِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ أَوْحَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إِلَىٰ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بِي فَافْرَحُوا، وَبِذِكْرِي فَتَنَعَّمُوا[(٣)]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَّا قولُهُ: «عشقَنِي، وعشقتُهُ» فيتوقَّفُ فيهِ على النَّقلِ الصَّحيحِ عنِ الأنبياءِ ـ صلواتُ اللهِ على نبيِّنَا وعليهِمْ ـ، فإنَّا لا نَصِفُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ إلَّا بمَا وَصَفَ بهِ نفسَهُ، ولوْ صحَّ هذَا النَّقلُ لحملَ علَىٰ المحبَّةِ، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ قالَ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤][(٤)].

وأمَّا قولُهُ: «بِي فافرحُوا، وبذِكْرِي فتنعَّمُوا»، فقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]، أيْ: بمَا يفتحُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ من فضلِهِ، والتَّنعُّمُ على الحقيقةِ إنَّمَا هوَ بذِكْرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والأُنسِ بهِ ومُنَاجَاتِهِ، فإنَّهُ أفضلُ نَعِيمٍ[(٥)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَقَالَ النُّورِيُّ[(٧)]: لِكُلِّ شَيْءٍ عُقُوبَةٌ، وَعُقُوبَةُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٨.

(٢) أورده أبو نعيم عن الحسن مرفوعا في: الحلية ٦/١٦٥.

(٣) ورد عن محمد بن النضر الحارثي في: حلية الأولياء ٨/٢١٧، وسير السلف الصالحين ص١٠٣٨، ومدارج السالكين ٢/٤٣٠، وجامع العلوم والحكم ص٤٤٨.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٦٥.

(٥) أي: في الدنيا والآخرة.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٩.

(٧) نسب لذي النون المصري في: تفسير السلمي ٢/٣٥٦، وحلية الأولياء ٩/٣٥٥، وتاريخ دمشق ١٧/٤١٩، ومناقب الأبرار ١/٧٨، وروضة المحبين ص٤٠٧، ونسب للثوري في: الغنية=

العَارِفِ انْقِطَاعُهُ عَنِ الذِّكْرِ».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ العارفَ محبٌّ، فإنَّ المحبَّةَ علىٰ وجهَينِ: تارةً تكونُ لتوالِي النِّعمِ، فالعبدُ يحبُّ مَنْ أنعَمَ عليهِ، وتارةً [٢/١٤٤ب] تكونُ لكمالِ المعرفةِ بالجَلالِ والجَمَالِ، وغيرِ ذلكَ مِنْ صفاتِ الكمالِ، وهذِهِ محبَّةُ العارفِينَ، ومَنْ أحبَّ شيئًا أكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، فمتَىٰ شُغِلَ العبدُ بغيرِهِ حتَّىٰ أنساهُ إيَّاهُ وفتَرَ عَنْ ذِكْرِهِ دلَّ ذلكَ علىٰ عقوبةٍ لجُرمٍ كانَ منهُ، وربَّمَا كانَ ذلكَ سببًا لعلوِّ درجتِهِ لشدَّةِ جدِّهِ، ودوامِ قلقِهِ وأدبِهِ، كمَا جاءَ فِي الأخبارِ فِي(١): «إنَّ العبدَ يذنبُ الذَّنبَ فيكونُ سَبَبَ سَعَادَتِهِ»(٢).

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): **«وَفِي الإِنْجِيلِ(٤): أُذْكُرْنِي حِينَ تَغْضَبُ، أَذْكُرْكَ حِينَ أَغْضَبُ، وَارْضَ بِنُصْرَتِي لَكَ؛ فَإِنَّ نُصْرَتِي لَكَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ نُصْرَتِكَ لِنَفْسِكَ»**.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ تنبيهٌ علىٰ العملِ في إزالةِ الغضبِ ونفْيِ العملِ بمقتضَاهُ، وأنَّهُ منَ الأخلاقِ الَّتِي تزيلُ العَقْلَ حتَّىٰ يفعلَ العبدُ عندَ غَضَبِهِ مَا لا يصلحُ ويتكلَّمُ بمَا لا يَحْسُنُ، ولذلكَ قيلَ(٥): «الغضبُ غُولُ العَقْلِ»، فإذَا مَنَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ العبدِ بالتَّثبُّتِ عندَ غضبِهِ، ولم يتعدَّ حدودَ ربِّهِ في قولِهِ وفِعْلِهِ رَحِمَهُ اللهُ ـ سبحانه ـ إذا طَرَأَتْ مِنْهُ زلَّةٌ أُخْرَىٰ إمَّا يستحقُّ الغضبَ عليهِ لوقوعِهِ فيهَا.

= للجيلاني ص٧١.

(١) أخرجه ابن حنبل في: الزهد ص٣٩٧، وابن المبارك في الزهد ص٥٢، وابن السري في الزهد ٢/٤٥٢.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٦٦.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٩.

(٤) ورد في: روضة العقلاء ص١٣٨، وتفسير البغوي ٣/١٥٧، وحلية الأولياء ٥/١٢٤، ومدارج السالكين ٢/٤٣٠.

(٥) سبق تخريجه.

وهذا معنى قوله: «اذكُرني حين تغضبُ[١]» ولا تتعدَّى الحدود «أذكرْكَ حين أغضبُ» فلا أؤاخذُكَ بجُرمِكَ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقِيلَ لِرَاهِبٍ[٣]: أَأَنْتَ صَائِمٌ؟ فَقَالَ: صَائِمٌ بِذِكْرِهِ، فَإِذَا ذَكَرْتُ غَيْرَهُ أَفْطَرْتُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الإمساكَ الَّذِي هوَ الصَّومُ عنِ الطَّعامِ استعملَهُ هذا الرَّاهبُ فِي كلِّ ما طلبَ الشَّرعُ الإمساكَ عنهُ، فلمَّا قالَ لهُ: «أنتَ صائِمٌ؟» أخبَرَهُ أنَّهُ صائمٌ عنْ ذكرِ غيرِهِ؛ أيْ: ممسكٌ عنهُ، فمتىٰ تكلَّمَ بغيرِهِ أفطرَ.

وفيهِ تنبيهٌ لهذَا السَّائلِ علَىٰ درجةٍ رفيعةٍ فِي العبادةِ ممَّا سَألَ عنهُ، فإنَّهُ سَألَهُ عنِ الإمساكِ عنِ الطَّعامِ الَّذي فيهِ فضيلةُ الصَّومِ، فأجابَهُ بالإمساكِ عَنْ ذِكرِ غيرِ اللهِ لدوامِ شُغْلِهِ باللهِ وذِكْرِهِ لهُ[٤]، فنقلَهُ إلىٰ ما هوَ أفضلُ ممَّا سألَ عنهُ، ونبَّهَهُ عليهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقِيلَ[٦]: إِذَا تَمَكَّنَ الذِّكْرُ مِنَ القَلْبِ؛ فَإِنْ دَنَا مِنْهُ الشَّيْطَانُ صُرِعَ كَمَا يُصْرَعُ الإِنْسَانُ إِذَا دَنَا مِنْهُ الشَّيْطَانُ، فَتَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ فَيَقُولُونَ: مَا لِهَذَا[٧]؟ فَيُقَالُ: قَدْ مَسَّهُ الإِنْسُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهذا دليلٌ واضحٌ علىٰ أنَّ قلبَ العبدِ إذا عَمَرَ

---

(١) أي: تذكرني بإحاطة علمي بك، وتذكر وعيدي ووعدي، تتكسر منك القوة الغضبية. انظر: نتائج الأفكار ٣/٢٩٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٩.

(٣) ورد في: آداب المريدين للسهروردي ص١٠٦.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٦٦.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٩.

(٦) ورد في: مفتاح الفلاح لابن عطاء ص١٩، والانتصار للأولياء الأخيار ص١٧٩.

(٧) أي: لهذا الشيطان صُرع.

بالتَّقوَىٰ، وتوالَىٰ عليهِ [٢/١٤٥أ] ذِكْرُ اللهِ، فإذَا نزغَتْهُ نزغةٌ منَ الشَّيطانِ يفسدُ عليهِ حالُهُ، وأحسَّهَا منْ نفسِهِ فرجعَ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فمَنْ كانَ سببَ ذلكَ منَ الأعداءِ أصابَهُ قدرُ اللهِ ـ أعنِي الشَّيطانَ الَّذِي نزغَهُ ـ فبهذَا الاعتبارِ يجتمعُ عليهِ الشَّياطينُ فيقولُونَ: ما لَهُ؟ فيقالُ: مسَّهُ الإنسُ، بخلافِ مسِّ الجنِّ للإنسِ فإنَّهُمْ يتكلَّمُونَ علىٰ لسانِهِ فيتحرَّكُونَ بأعضائِهِ، ولذلكَ قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١): «مَا سَلَكَ عُمَرُ فَجًّا إِلَّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا غَيْرَ فَجِّهِ وَصَارَعَهُ فَصَرَعَهُ»؛ وذلكَ لكمالِ قوَّتِهِ، وصحَّةِ عزمِهِ، ورجوعِهِ إلىٰ ربِّهِ، فكلُّ ذلكَ بعونِ اللهِ وتوفيقِهِ داخلٌ تحتَ قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥](٢).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣): «وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ(٤): مَا أَعْرِفُ مَعْصِيَةً أَقْبَحَ مِنْ نِسْيَانِ هَذَا الرَّبِّ ـ تعالىٰ ـ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والنِّسيانُ قدْ يُطلَقُ علىٰ التَّرْكِ، ويطلَقُ علىٰ الغفلةِ والشُّغلِ بالغَيْرِ، والأوَّلُ أشدُّ منَ الثَّانِي، فإنَّ مَنْ تركَ مَنْ لا بُدَّ لهُ منهُ ولَا غِناءَ لهُ عنهُ متعمِّدًا واشتغلَ بمَا لا ينفعُهُ فهوَ غايةُ الهلاكِ، ومَنْ أحبَّ الدُّنيا وتفنَّنَ في شهواتِهَا واشتغلَ بحفظِ مالِهَا وجاهِهَا حتَّىٰ غفلَ بذلِكَ عمَّا خُلِقَ لهُ مِنْ طاعةِ ربِّهِ والعَمَلِ لآخرتِهِ شَديدٌ وهوَ دونَ الأوَّلِ، ولذلِكَ كانَ عذابُ العَالِمِ أشدَّ منْ عذابِ الجَاهلِ، وإنْ كانَا غيرَ معذورَينِ فلا أشدَّ ولا أصعبَ ممَّنْ عرَفَ الحقَّ ـ سبحانه ـ واشتغلَ بهِ وبذِكْرِهِ ومناجاتِهِ، ثمَّ أعرضَ عنهُ ونَسِيَهُ، فهوَ أشدُّ معصيةً وأعظمُ جُرْمًا، وإنْ كانَ هذا بعيدًا فِي الاعتيادِ، فإنَّ مَنْ عَرَفَ الحقَّ ـ سبحانه ـ ودامَ ذِكْرُهُ لهُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٦٦ ـ ٦٦٧.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٩.

(٤) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٧١.

وتوالَتْ نِعَمُهُ عليهِ حتَّىٰ صارَ ذلكَ قُرَّةَ عينِهِ بعدَ رجوعِهِ عَنْ هذَا إلىٰ مَا دُونَهُ ؛ لأنَّ العبدَ مائلٌ بطبعِهِ لكلِّ لذيذٍ ، وإذَا تقابلَ لذيذَانِ مالَ إلىٰ ألذِّهِمَا وأحسنِهِمَا عندَهُ.

وإنَّمَا قالَ هذَا سهلٌ علىٰ معنَى الجَوازِ ، ولذلكَ لمَّا سُئِلَ الجُنيدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقيلَ لهُ[١]: «أيزنِي العارفُ ؟» فسكتَ طويلًا ناظرًا إلىٰ حُسْنِ حالةِ العارفِ وبُعْدِهِ عنِ الزِّنَا وإلىٰ جوازِ ذلكَ ، فقالَ: «﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقِيلَ: الذِّكْرُ الخَفِيُّ لَا يَرْفَعُهُ المَلَكُ ؛ لِأَنَّهُ لَا اطِّلَاعَ لَهُ عَلَيْهِ ، فَهُوَ سِرٌّ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ اللهِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وخفاؤُهُ يكونُ لوجهَينِ:

أحدُهُمَا: خفاؤُهُ عنِ النَّاسِ ؛ لكونِهِ عملَ القلبِ خاصَّةً.

والثَّانِي: عزَّةُ وجودِهِ ، وقلَّةُ وقوعِهِ لأكثرِ العابدِينَ ، وإنَّمَا يخصُّ بهِ بعضَ العارفِينَ [١٤٥/٢ب] ولذلِكَ قيلَ[٣]: «مَنْ لَمْ يكنْ بينَهُ وبينَ اللهِ سِرٌّ فهوَ مُصِرٌّ».

معناهُ: أنَّ العارفَ يحصلُ بينَهُ وبينَ اللهِ معاملةٌ بقلبِهِ ، وخطابٌ وجوابٌ ، يسألُ ويُجَابُ ، وهذَا أيضًا سِرٌّ عنْ كثيرٍ منَ السَّالكِينَ ، وهوَ أخصُّ منَ الأوَّلِ.

وربَّمَا كانَ فوقَهُ سِرٌّ آخرُ ينعتُ بهِ الذِّكرَ ويسمَّىٰ خَفِيًّا ؛ وهوَ أنَّ العبدَ إذا استغرقَ في ذِكْرِهِ لمذكورِهِ حتَّىٰ كمالِ اشتغالِهِ بهِ حتَّىٰ غفلَ عنْ ذِكْرِ نفسِهِ فلمْ يبقَ لهُ شعورٌ بنفسِهِ ، وإنْ كانَ ذاكِرًا لكمالِ استغراقِهِ لإجلالِ مذكورِهِ وتعظيمِهِ ، فيكونُ هذا الذِّكْرُ خَفِيًّا[٤] عنِ الذَّاكرِ باعتبارِ شُغلِهِ عنهُ ، وكمالِ شغلِهِ بمذكورِهِ.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٩.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) في (أ): خفي ، والصواب المثبت.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَقَالَ بَعْضُهُم(٢): وُصِفَ لِي ذَاكِرٌ فِي أَجَمَةٍ، فَأَتَيْتُهُ فَبَيْنَا هُوَ جَالِسٌ إِذَا سَبُعٌ عَظِيمٌ ضَرَبَهُ ضَرْبَةً، وَاسْتَلَبَ مِنْهُ قِطْعَةً، فَغُشِيَ عَلَيْهِ وَعَلَيَّ، فَلَمَّا أَفَاقَ قُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: قَيَّضَ اللهُ هَذَا السَّبُعَ عَلَيَّ، فَكُلَّمَا دَاخَلَنِي فَتْرَةٌ عَضَّنِي كَمَا رَأَيْتَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ جُملَةِ الألطافِ والاعتناءِ بمَنْ أرادَ الحقُّ دوامَ ذِكْرِهِ لهُ وشُغلِهِ بهِ، قيَّضَ لهُ مَنْ يؤذِيهِ إذَا غفلَ ويؤلمُهُ؛ ليشتدَّ حذرُهُ منَ الغفلةِ، ويدومُ على ذِكْرِهِ لهُ، ويعظمُ أجرُهُ هوَ علَى صبْرِهِ لمَا يُقَاسيهِ، فإنَّ اللهَ - سبحانه - قادرٌ على أنْ يخلقَ لهُ ذِكْرَهُ، ويزيلَ عنهُ غَفْلَتَهُ مِنْ غيرِ هذا السَّبُعِ، إلَّا أنَّ اللهَ - تعالى - أرادَ كمالَ أجرِهِ وانتفاعِهِ، ودوامَ صبْرِهِ على ألمِهِ، كمَا ابتلَى الأنبياءَ والأولياءَ بالآلامِ والأسقامِ؛ كيحْيَى وأيُّوبَ وإبراهيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وغيرِهِمْ، كلُّ ذلكَ زيادةً فِي درجتِهِمْ، وإنْ كانَ - تعالى - قادرًا على أنْ ينيلَهُمْ منَ الخيرِ مَا أنالَهُمْ منْ غيرِ مشقَّةٍ، ولكنَّ هذهِ سنَّتُهُ؛ لأنَّ «أشدَّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ ثمَّ الأولياءُ ثمَّ الأمثَلُ فالأمثَلُ(٣)»(٤).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحَسَنَ بْنَ يَحْيَى يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ نُصَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ: كَانَ بَيْنَ أَصْحَابِنَا رَجُلٌ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: اللهُ اللهُ، فَوَقَعَ يَوْمًا عَلَى رَأْسِهِ جِذْعٌ؛ انْشَجَّ رَأْسُهُ فَسَقَطَ الدَّمُ، فَاكْتَتَبَ عَلَى الأَرْضِ: اللهُ اللهُ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٩.

(٢) نسب لأبي محمد الأنباري في: تهذيب الأسرار ص٣١٤.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٦٧.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٧٩.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا يدلُّ بظاهرِهِ علَى أنَّ الذِّكرَ إذا توالَى على العبدِ خالطَ لحمَهُ ودمَهُ، فيكونُ وقوعُ دمِهِ على الأرضِ على مِثَالِ الجلالةِ دليلٌ على أنَّ الذِّكْرَ خَالطَ لَحْمَهُ وَدَمَهُ [٢/١٤٦أ]، فيكونُ دليلًا على شَرَفِهِ وَرِفْعَةِ مَقَامِهِ(١).

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٦٨.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ الفُتُوَّةِ

قَالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

قَالَ: أَصْلُ الفُتُوَّةِ: أَنْ يَكُونَ العَبْدُ سَاعِيًا أَبدًا فِي أَمْرِ غَيْرِهِ[٢].

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٣]: (لَا يَزَالُ اللهُ فِي حَاجَةِ العَبْدِ مَا دَامَ العَبْدُ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ المُسْلِمِ).

أَخْبَرَنَا بِهِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عِبْدَانَ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ الفَضْلِ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ حُمَيْدِ بْنِ كَاسِبٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ الأَسْلَمِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُرْمُزٍ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يَزَالُ اللهُ فِي حَاجَةِ العَبْدِ مَا دَامَ العَبْدُ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ المُسْلِمِ»[٤].

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ في حدِّ الفتوَّةِ: «أنْ يكونَ العبدُ ساعيًا أبدًا في أمرِ غيرِهِ» فيهِ نظرٌ؛ فإنْ أرادَ ألَّا يكونَ عاملاً في حظوظِ نفسِهِ العاجلةِ ولا مُؤْثِرَهَا علَى الغيرِ فصحيحٌ، فإنَّهُ متَى تعارضَ عندَهُ حقُّ نفسِهِ معَ حقِّ غيرِهِ آثرَ الغيرَ على نفسِهِ فيمَا لا يحرمُ عليهِ دينًا، فلَا يقطعُ عليهِمْ طَرِيقًا.

قالَ شيخُ الإسلامِ ناصرُ السُّنَّةِ أبُو إسماعيلَ عبدُ اللهِ بنُ محمَّدٍ الأنصاريُّ

---

(١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى ٤/٣٠٩، والطبراني في المعجم الكبير ٥/١١٨، والأوسط ١/٦٣.

(٢) للاستزاده انظر: معجم مقاليد العلوم ص٢٢٠.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٠.

(٤) أي: بالإعانة والنصرة والتوفيق.

الهرويُّ لمَّا تكلَّمَ علىٰ الفتوَّةِ[(١)]: «نكتةُ: الفتوَّةِ ألَّا تشهدَ لكَ فضْلًا، ولا ترَىٰ لكَ حَقًّا».

فقولُهُ: «**ألَّا تشهدَ لكَ فَضْلًا**» وإنْ كانَ خيرُكَ مسبولًا ولَا تَرَىٰ لكَ علَىٰ أحدٍ حقًّا، وإنْ قصَّرَ فيهِ لمْ تُطَالبْهُ بهِ، وإنْ أتَىٰ معتذِرًا استحيَيْتَ منِ اعتذارِهِ، وبادَرْتَ بإعلامِهِ بالعفوِ عنهُ قبلَ كَمالِ الاعتذارِ.

قَالَ الإِمَامُ الهرويُّ[(٢)]: «والفتوَّةُ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ:

* **أوَّلُهَا**: تركُ الخصومةِ، والتَّغافلُ عنِ الزَّلَّةِ، ونسيانُ الأذيَّةِ[(٣)].

* **الثَّانيةُ**: أنْ تقرِّبَ مَنْ يُقْصِيكَ، وتكرمَ مَنْ يؤذِيكَ، وتعتذرَ إلىٰ مَنْ جنَىٰ عليكَ، سَمَاحًا لا كَظْمًا، وبرَاحًا لا مصابرةً[(٤)].

* **والثَّالثةُ**: ألَّا تتعلَّقَ فِي المَسِيرِ بِدَليلٍ، ولَا تشوبَ إجابتكَ بعِوضٍ، ولا تقفَ في شُهُودِكَ علَىٰ رسمٍ».

وقالَ الهَرَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٥)]: «واعلَمْ أنَّ مَنْ أحوجَ عدوَّهُ إلىٰ شَفَاعةٍ، ولَمْ يَخْجَلْ مِنَ المَعْذِرةِ إليهِ لَمْ يَشِمَّ رائحةَ الفتوَّةِ».

فقولُهُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الدَّرجةِ الثَّالثةِ: «ألَّا يتعلَّقَ [٢/١٤٦ب] في المسيرِ بدليلٍ»،

---

(١) منازل السائرين ص٦١.

(٢) منازل السائرين ص٦١ - ٦٢.

(٣) وهذا لا يتم إلا بالزهد المتمكن في حظوظ النفس، وإلا فلا مطمع فيه مع حب الدنيا.

(٤) قال المؤلف: «وهذه الدرجة أتم مما قبلها؛ فإن الأولىٰ ترك الخصومة مع الخلق والانتصار للنفس... وهذه الدرجة إحسان لمن أساء إليك من الخلق، وتقريب لمن أقصىٰ، واعتذار لمن جنىٰ» شرح منازل السائرين ص١٢٦.

(٥) منازل السائرين ص٦٢.

معناهُ: ألَّا تسكنَ للدَّليلِ، وإنَّمَا يكونُ مقصودُكَ حصولَ المدلولِ بهِ، فإذَا دلَّكَ اشتغلتَ بالمدلولِ ولمْ تتعلَّقْ بالدَّليلِ، فإنَّهُ يشغلُكَ عنْ كمالِ النَّظرِ في المَدلُولِ، وهوَ نقصٌ في كمالِ الفتوَّةِ، فإنَّ الفتىٰ مَنِ اشتغلَ بالأهمِّ عنِ المُهمِّ.

وقولُهُ: «ولا تشوبَ إجابتكَ بعِوَضٍ»، أيْ: يكونُ سعيُكَ فِي تحصيلِ المطلوبِ لحصولِ المطلوبِ خاصَّةً لا لعِوَضٍ علىٰ سَعْيِكَ، فالأوَّلُ إعراضٌ عنِ السَّببِ، والثَّانِي إعراضٌ عنِ الثَّمرةِ وإنْ كانَ لا بُدَّ منهُمَا.

وقولُهُ: «ولَا تقفَ في شُهُودِكَ علىٰ رَسْمٍ»، أيْ: يكونُ كمالُ مشاهدتِكَ وشغلِكَ بهِ يُغْفِلكَ عنْ رَسْمِكَ، وعنْ كونِكَ مشاهدًا، فحصلَ فِي هذِهِ الرُّتبةِ ثلاثُ درجاتٍ متضافرةٌ علىٰ الشُّغلِ بالمقصودِ، والإعراضِ عنِ الأسبابِ والثَّمراتِ، فإنَّ الدَّليلَ سببٌ في حصولِ المقصودِ، وأنتَ المستدلُّ الطَّالبُ للمَقْصُودِ، فكَمَالُ فُتوَّتِكَ شغلُكَ عن نفسِكَ بهِ، ولَا تريدُ علىٰ كَمَالِ شغلِكَ عِوَضًا من غيرِهِ[1].

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: **«سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: هَذَا الخُلُقُ**[3] **لَا يَكُونُ كَمَالُهُ إِلَّا لِرَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ فِي القِيَامَةِ يَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي، وَهُوَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **يَقُولُ**[4]**: أُمَّتِي أُمَّتِي».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، وبهِ جاءَتِ الأخبارُ الصَّحيحةُ فِي حَالِهِ حينَ خروجِ روحِهِ في الدُّنيَا، وسؤالِهِ لجبريلَ عنْ حالِ أمَّتِهِ بعدَهُ حتَّىٰ أخبَرَهُ

(١) انظر: شرح منازل السائرين للمؤلف ص١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/ ٣٨٠.

(٣) أي: الفتوة. قال العروسي: «التخصيص لمراعاة المقام، وإلا فكمال كل خُلُق لا يكون إلا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» نتائج الأفكار ٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/ ٢٧٢٧ ـ حديث رقم (٧٠٧٢)، ومسلم في صحيحه ١/ ١٨٣ ـ حديث رقم (١٩٣).

فيهَا بمَا يسرُّهُ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وأمَّا في القيامةِ فإنَّ كلَّ نبيٍّ أتاهُ النَّاسُ للشَّفاعةِ في الفَصْلِ بينَهُمْ يقولُ: «نَفْسِي نَفْسِي»، ويعتذرُ، سِوَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّهُ يخرُّ للهِ ـ تعالىٰ ـ ساجدًا فيدعُو بدعاءٍ يلهمُهُ اللهُ إيَّاهُ، ويقالُ لهُ: «ارفَعْ رأسَكَ، وسَلْ تُعْطَهْ»، فيشفعَ في الخلْقِ كلِّهِمْ أجمعِينَ، أمَّتِه وغيرِهِمْ.

وكذلِكَ يشفعُ علىٰ الصِّراطِ ويقولُ[١]: «ربِّ سلِّمْ، ربِّ سلِّمْ»، وكذلِكَ يشفعُ بعدَ دخولِ النَّارِ حتَّىٰ لا يبقَىٰ فيهَا إلَّا مَنْ غلبَ علىٰ ظنِّهِ أنَّهُ منَ المُخَلَّدِينَ.

وهذَا غايةُ الفتوَّةِ والشُّغلِ بالغيرِ عنِ النَّفسِ، وسُلُوكِ الأخطارِ طمَعًا فِي خلاصِهِمْ[٢].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[٤]: الفُتُوَّةُ بِالشَّامِ، وَاللِّسَانُ[٥] بِالعِرَاقِ،** [٢/١٤٧أ] **وَالصِّدْقُ بِخُرَاسَانَ».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا إنَّمَا خرجَ مخرجَ الغالبِ علىٰ أهلِ كلِّ إقليمٍ، وذلكَ أنَّ المريدَ لا يستغنِي عنِ الصِّدقِ فِي سُلُوكِهِ والفُتُوَّةِ الَّتِي هيَ راجعةٌ إلىٰ الأعمالِ؛ لأنَّ الفتَىٰ ـ كمَا تقدَّمَ ـ: هوَ الَّذِي يبذلُ مَا يملكُ، وإذَا سلكَ العبدُ وصدقَ فِي سُلُوكِهِ أجرَىٰ اللهُ الحِكمةَ علىٰ لِسَانِهِ فِي كلِّ قطرٍ، إلَّا أنَّ الجُنيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تكلَّمَ علىٰ غالبِ حَالِ كلِّ إقليمٍ، فوجدَ الغَالبَ علىٰ أهلِ الشَّامِ الفُتُوَّةَ، وإنْ لمْ يخلُوا عنِ الصِّدقِ والنُّطقِ بالحكمةِ، ووجدَ الغالبَ علىٰ أهلِ العراقِ حُسْنَ العبارةِ

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده ص١٥١.

(٢) والسبب في ذلك: فناء العبد عن نفسه طلبًا لمرضاة ربه.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٠.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٥٣، وتهذيب الأسرار ص١٨٨.

(٥) أي: حسن النطق به.

عنِ المعانِي الَّتِي وجدُوهَا، وخصَّهُمُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بها مِنْ بركاتِ سُلُوكِهَا وإنْ لمْ يعدمُوا الفتوَّةَ والصِّدقَ، وكذلِكَ وجدَ الغالبَ علىٰ أهلِ خراسانَ الصِّدقَ فِي السُّلوكِ والجدَّ في الأعمالِ، والتَّجرُّدَ عنِ الدُّنيَا والمُشغلاتِ وإنْ لَمْ يعدمُوا الفتوَّةَ والكلامَ علىٰ المعانِي.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ[٢]: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ نَصْرِ بْنِ مَنْصُورٍ الصَّائِغَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَرْدَوَيْهِ الصَّائِغَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الفُضَيْلَ يَقُولُ: الفُتُوَّةُ: الصَّفْحُ عَنْ عَثَرَاتِ الإِخْوَانِ».**

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وإنَّمَا قالَ ذلكَ؛ لأنَّهُ مُعْظَمُ أركانِ الفتوَّةِ؛ فإنَّ الفتوَّةَ: إحسانٌ، وحملٌ، وعفوٌ، والنُّفوسُ يسهلُ عليهَا الإحسانُ؛ لأنَّهُ منوطٌ بالثَّناءِ والجزاءِ، ويشقُّ عليهَا الأذيَّةُ والاستنقاصُ، ولا يحلمُ ويعفُو عَنْ عَثَراتِ الإخوانِ إلَّا كُلُّ مَنْ عمِلَ في الفتوَّةِ، فكأنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عبَّرَ عنْ أهمِّ أركانِ الفتوَّةِ؛ وهوَ الصَّفحُ عَنْ عَثَراتِ الإخوانِ[٣]، وعدمُ المُؤاخَذَةِ والمُطَالبةِ بالحُقُوقِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: **«وَقِيلَ[٥]: الفُتُوَّةُ: أَلَّا تَرَىٰ لِنَفْسِكَ فَضْلًا عَلَىٰ غَيْرِكَ».**

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد تكرَّرَ غيرَ مرَّةٍ أنَّهُمْ لا يريدُونَ[٦] بهذِهِ الرُّؤيةِ رؤيةَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٠.

(٢) أي: أبو عبد الرحمن السلمي، والقول في تفسيره ١/٤٠٤، وآداب الصحبة ص٤٦. وورد أيضا في: تاريخ دمشق ٤٨/٤٣٠، ومدارج السالكين ٢/٣٤١.

(٣) أي: زلاتهم.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٠.

(٥) ورد في: مدارج السالكين ٢/٣٤٢، وبصائر ذوي التمييز ٤/١٧١.

(٦) في (أ): يريدوا، والصواب المثبت.

العِلْمِ ؛ فإنَّ كلَّ عاقلٍ عالمٍ يفرِّقُ بينَ الفاضلِ والمفضولِ ، والتَّقيِّ والمخلِّطِ ، فمتَىٰ كانَ الإنسانُ في نفسِهِ تقيًّا ورأَىٰ غيرَهُ مخلِّطًا ولمْ يفرِّقْ بينَ الحقِّ والباطلِ كانَ جاهلًا .

وإنَّمَا مُرَادُهُ: ألَّا يرَىٰ لنفسِهِ فضْلًا مطلقًا ما دامَ فِي الحياةِ ، ولخفاءِ باطنِ غيرِهِ عليهِ وعلمِهِ بباطنِ نفسِهِ ، فقدْ يعلمُ العبدُ منْ نفسِهِ منَ السِّرِّ ما لا يعلمُهُ مِنْ غيرِهِ ، وإذَا اختلفَا في الظَّاهرِ فقدْ يكونُ عندَ غيرِهِ [٢/١٤٧ب] منَ الخيرِ فِي باطنِهِ ما لَهُ عندَ اللهِ قدرٌ يُوازِي حالَ ظاهرِ هذا الشَّخصِ أوْ يزيدُ عليهِ .

هذَا وجهٌ يحملُ العبدَ علىٰ أنْ لا يجزمَ بفضْلِهِ علىٰ غيرِهِ مطلقًا ؛ لخفاءِ باطنِ غيرِهِ عليهِ ، وعِلْمِهِ بما عندَهُ منَ الأخلاقِ الذَّميمةِ .

الوَجْهُ الثَّانِي: أنَّ العبدَ ما دامَ في الحياةِ هوَ معرَّضٌ لجوازِ التَّبديلِ والتَّغييرِ ـ والعياذُ باللهِ ـ ، فلَا يبنِي علَىٰ ما ظهَرَ في الحالِ ويحكمُ مطلقًا بأنَّهُ أفضلُ مِنْ غيرِهِ ؛ لخفاءِ أمرِ العاقبةِ عليهِ منهُ ومنْ غيرِهِ .

فهذَانِ الوجهَانِ يُوقفَانِ العبدَ عنِ الجزمِ لنفسِهِ بالأفضليَّةِ علىٰ غيرِهِ مطلقًا ، وإنْ عرَفَ الفضلَ ظاهِرًا .

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «**وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الوَرَّاقُ**(٢): **الفَتَىٰ مَنْ لَا خَصْمَ لَهُ**» .

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا جيِّدٌ ، فإنَّ أوَّلَ الفتوَّةِ الإعراضُ عنِ الدُّنيَا ، فإذَا أعرضَ عنهَا تفرَّغَ لأعمالِ الأُخرَىٰ ، وجدَّ في تحصيلِ مراتبِهَا ومقاماتِهَا ، ومَنْ زهدَ فِي الدُّنيَا فلَا يخاصِمُ مَنْ ضَامَهُ أوْ زَاحَمَهُ في مَالٍ أَوْ جَاهٍ ؛ لِقِلَّةِ رَغبتِهِ فيمَا

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٠ .
(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٧٥ .

زُوحِمَ عليهِ، لَا في تحصيلِ ما لمْ يحصِّلْ منَ المالِ والجاهِ، ولَا في حفظِ الحاصلِ، ولَا يخاصِمْ أحدًا فيمَا يتعلَّقُ بأعمالِ الآخرةِ، فإنَّ الأمْرَ واسعٌ، فلهذَا قالَ: «**الفتىٰ: مَنْ لَا خصمَ لهُ**[(١)]».

ويبقَىٰ وجهٌ آخرُ: وهوَ أنَّهُ هَلْ يخاصِمُ نفسَهُ أوْ لَا يخاصِمُ؟ فإنْ كانَ ممَّنْ يخاصِمُ نفسَهُ فلهُ خصمٌ، ولكنْ لا تكملُ فتوَّتُهُ إلَّا إذَا سهُلَتْ عليهِ الأعمالُ، واستقامَتْ أحوالُهُ في سُلُوكِهِ مِنْ غَيْرِ اختلالٍ، فاستغنَىٰ عَنْ مُخَاصَمةِ نفسِهِ في الحَملِ علىٰ الأعمالِ، فلذلِكَ تقدَّمَ في الحدِّ فيمَا قَالَ الإِمَامُ الهرويُّ[(٢)]: «سمَاحًا لا كظْمًا، وبرَاحًا لا مصابرةً»، فعلَىٰ هذَا لا خصمَ لهُ مطلقًا؛ لكمالِ أخلاقِهِ المَحْمُودةِ، وبُعدِهِ عَنْ أخلاقِهِ المذمومةِ، وإنِ اتَّصَفَ بذلكَ في أوَّلِ سُلُوكِهِ فلا يُسَمُّونَهُ: فَتًى، إلَّا إذَا كمُلَ فِي الأخلاقِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التِّرمِذِيُّ**[(٤)]: **الفُتُوَّةُ: أَنْ تَكُونَ خَصْمًا لِرَبِّكَ**[(٥)] **عَلَىٰ نَفْسِكَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ما دامَتْ نفسُهُ مُنازعةً للشَّهواتِ، ومائلةً إلىٰ الكسلِ والبطالاتِ، فيقيمُ عليهَا الحُجَجَ للهِ ـ تعالىٰ ـ بتوجُّهِ المطالباتِ؛ في الواجباتِ والمندوباتِ، وإنْ تعالَتْ في الدَّرجاتِ.

---

(١) لقوة فنائه عن حظوظ نفسه.

(٢) منازل السائرين ص٦٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٠.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٦٦، وتمامه فيه: «وأن يستوي عندك المقيم والطارئ»، ومدارج السالكين ٢/٣٤٢، وبصائر ذوي التمييز ٤/١٧١. ونسب لذي النون المصري في: حلية الأولياء ٩/٣٨٢.

(٥) أي: لأجله.

ومتَىٰ استقامَتْ نفسُهُ علىٰ الطَّاعاتِ، واستمرَّتْ نفسُهُ في الأعمالِ من غيرِ تكلُّفٍ ولا حملٍ بسياطِ الخوفِ والرَّجاءِ، بلْ لكمالِ المحبَّةِ والتَّلذُّذِ [٢/١٤٨ا] بالمناجاتِ[١]، والمبادرةِ لِفعْلِ ما عسَاهُ يخطرُ لها منَ الخيراتِ، فقدِ استغنَتْ عنِ المخاصماتِ، كما أشرْنَا إليهِ قبلَ هذَا في بعضِ الكلماتِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَيُقَالُ**[٣]: **الفَتَىٰ: مَنْ لَا يَكُونُ خَصْمًا لِأَحَدٍ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كَمَالِ العَفْوِ عنِ الحقوقِ وإسقاطِ المطالبةِ بها؛ وذلكَ للزُّهدِ في الدُّنيَا وسخاوةِ النَّفسِ، وذلكَ منْ أخلاقِ الفتيانِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصْرَاباذِيَّ يَقُولُ**[٥]: **سُمِّيَ أَصْحَابُ الكَهْفِ فِتْيَةً؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ بِلَا وَاسِطَةٍ**[٦]».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قدِ اختُلِفَ في إسلامِهِم، هَلْ كانَ بواسطةٍ أوْ لَا؟ ويحسنُ أنْ يكونَ تسميتُهُمْ فتيةً؛ لِكَونِهِمْ فتيانًا فِي عُنْفُوانِ شَبَابِهِمْ، فارقُوا أهلَهُم وعَوائدَهُمْ، وخرجُوا إلىٰ ربِّهِمْ فارِّينَ إليهِ منقطِعِينَ معرِضِينَ عَنْ حُظُوظِهِم بالكلِّيَّةِ، وهذَا شأنُ الفتَىٰ بالمعنَىٰ الَّذِي أرادُوهُ، ويتأكَّدُ ذلكَ بكونِهِمْ فتيانًا، أيْ: شبَّانًا فِي حدَّةِ شَهْواتِهِمْ وغلبتِهَا علىٰ قلوبِهِمْ، فمُدِحُوا بكونِهِمْ تركُوا ذلكَ للهِ، ولذلكَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٧٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٠.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.

(٤) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٤٢، وأتبعه بقوله: «يعني: في حفظ نفسك، وأما في حق الله فالفتوة أن تكون خصمًا لكل أحد، ولو كان الحبيب المصافيا».

(٥) ور د قوله في: مناقب الأبرار ٢/٨٥٥.

(٦) أي: بلا واسطة رسول أو ملك، بل كان إيمانهم بالفطرة؛ لسابق عناية الله بهم.

خُرِقَتْ لهُمُ العادةُ، ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، ولمْ يتغيَّرْ لهُمْ حالٌ[١]، فلمَّا بُعِثُوا سألَ بعضُهُمْ بعضًا: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، وذلكَ أنَّهُمْ ـ واللهُ أعلمُ ـ دخلُوا الكهفَ غُدْوةً، وبعثُوا في اليومِ الَّذي بُعِثُوا فيهِ آخرَ النَّهارِ، فظنُّوا أنَّ مُكْثَهُمْ يومًا واحدًا أوْ بعضَ يومٍ؛ لِمَا رَأَوهُ مِنْ بقيَّةِ النَّهارِ[٢].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٣]: **«وَقِيلَ: الفَتَى مَنْ كَسَّرَ الصَّنَمَ، قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾** [الأنبياء: ٦٠]، **وَقَالَ: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾** [الأنبياء: ٥٨]، **وَصَنَمُ كُلِّ إِنْسَانٍ نَفْسُهُ، فَمَنْ خَالَفَ هَوَاهُ فَهُوَ فَتًى عَلَىٰ الحَقِيقَةِ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا من بابِ الاعتبارِ كمَا قدَّمْناهُ، وليسَ تفسيرًا للآيةِ، فإنَّ إبراهيمَ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ إنَّمَا كسَّرَ الأصنامَ الَّتي كانُوا يعبدُونَهَا، ولكنْ لمَّا كانَ العبدُ كثيرَ الاشتغالِ بشهواتِهِ، مُضَيِّعًا عمرَهُ في سائرِ أوقاتِهِ، لمآربِهِ العاجلةِ ولذَّاتِهِ، سُمِّيَتْ نفسُهُ صنمَهُ؛ لكونِهِ مسخَّرًا لهَا معبَّدًا، كمَا قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[٤]: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ [٢/١٤٨ب]، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ وَالقَطِيفَةِ»، فسمَّاهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عبدًا لهذِهِ المذكوراتِ[٥]؛ لكونِهِ مسخَّرًا لهَا، ومشغولًا في حفظِهَا وتحصيلِهَا، وكذلِكَ مَنْ كانَ مشغولًا بنفسِهِ يَحْسُنُ أنْ يُسَمَّىٰ عَبْدًا لهَا.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٧٠.

(٢) نصَّ علىٰ ذلك الطبري في: مفاتيح الغيب ٢١/٨٧.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٧٠.

۞ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ الحَارِثُ المُحَاسِبِيُّ[٢]: الفُتُوَّةُ: أَنْ تُنْصِفَ[٣] وَلَا تُنْصَفَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهوَ أنْ يعطِيَ الحقَّ مِنْ نفسِهِ، ولا يطالِبَ بحقِّهِ غَيْرَهُ؛ وذلكَ لزُهدِهِ فِي الدُّنيَا وكمالِ عدلِهِ وإنصافِهِ، وهذَا بعضُ خِصَالِ الفتىٰ، وقَدْ تقدَّمَ مِنْ خِصَالِهِ أكثرُ مِنْ هذَا، وإنَّمَا يجيبُونَ علىٰ قدرِ حَالِ السَّائلِ إذَا كانَ يدَّعِي الفُتوَّةَ ويكونُ مخلًّا ببعضِ صفاتِهَا يدلُّونَهُ عليهَا[٤].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عُثْمَانَ المَكِّيُّ[٦]: الفُتُوَّةُ حُسْنُ الخُلُقِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا كلامٌ جامعٌ عامٌّ للبُعْدِ من كلِّ رذيلةٍ وخُلُقٍ سيِّئٍ، وللاحتواءِ علىٰ جميعِ الصِّفاتِ المحمودةِ في الأعمالِ والأخلاقِ والمقاماتِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٧]: «وَسُئِلَ الجُنَيْدُ عَنِ الفُتُوَّةِ فَقَالَ[٨]: أَلَّا تُنَافِرَ فَقِيرًا وَلَا تُعَارِضَ غَنِيًّا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الفتوَّةَ تجمعُ شتَاتُ صفاتِهَا الزُّهدَ في الدُّنيَا؛ مالًا وجاهًا، فإنَّ مَنْ لَمْ تعظُمْ عندَهُ الدُّنيَا لَمْ يُعَارِضْ أبناءَهَا، ولَمْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.

(٢) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٤٢، وشرح نهج البلاغة ٦/١٢٧.

(٣) أي: غيرك.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٧٠.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.

(٦) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٣٦.

(٧) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.

(٨) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٤٢، وبصائر ذوي التمييز ٤/١٧١، ومعجم مقاليد العلوم ص٢٢٠.

يخالِطُهُمْ لحُسْنِ أحوالِهِمْ عندَهُ، ولَمْ ينافِرِ الفقراءَ ولَمْ يُبَاعِدْهُمْ لنزولِ قدرِهِمْ، وَرَثَاثَةِ أحوالِهِمْ استقذَارًا لهُمْ واستنقاصًا[١]، ولمَّا قالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ[٢]: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»، كانَ رفضُهَا والزُّهدُ فيهَا سَبَبَ كُلِّ حسنةٍ ورأسَهَا.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ[٣]: «وَقَالَ النَّصرَاباذِيُّ: **المُرُوءَةُ شُعْبَةٌ مِنَ الفُتُوَّةِ؛ وَهُوَ الإِعْرَاضُ عَنِ الكَوْنَيْنِ، وَالأَنَفَةُ مِنْهُمَا**».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: وقولُهُ: «**الإعراضُ عنِ الكونينِ**» يعنِي: الدُّنيَا والآخرةَ «**والأنفَة منهُمَا**»[٤]، وإنْ لَمْ يَرْضَ أنْ يعملَ لهُمَا، ولَا لأنْ يجازَىٰ بهِمَا، بَلْ عَمِلَ للهِ وحدَهُ، وتفرَّغَ لهُ خاصَّةً، وبَذَلَ فيهِ جَهْدَهُ وجعلَهُ حظَّهُ كلَّهُ.

وبهذَا الاعتبارِ كانَتِ المُرُوءَةُ ـ «**وهو الإعراضُ**» ـ شعبةً منَ الفتوَّةِ، أيْ: كاملُ الفتوَّةِ مَنْ أعرضَ عنِ المشغلاتِ والحظوظِ العاجلةِ والآجلةِ، فلمْ يكنْ لهُ حظٌّ سِوَىٰ مُوَافقةِ مولَاهُ، والعملِ بما يرضَاهُ، والتنعُّمِ برؤيتِهِ [٢/١٤٩أ] بقلبِهِ في دنيَاهُ، وبعينِ رأسِهِ في أُخْرَاهُ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ[٥]: «وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التِّرْمِذِيُّ[٦]: **الفُتُوَّةُ أَنْ يَسْتَوِيَ عِنْدَكَ المُقِيمُ وَالطَّارِئُ**[٧]».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: وقولُهُ: «**يستوِي عندَكَ المُقيمُ والطَّارئُ**»، يَعْنِي: في

---

(١) في (أ): ولا استنقاصًا.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.

(٤) يعني: الاستنكاف.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.

(٦) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٦٦، وهو تمام قوله السابق في هذا الباب، كما سبق.

(٧) أي: المقيم عندك، والطارئ عليك.

عدمِ التَّكلُّفِ والاستثقالِ، وسرعةِ الإكرامِ، وكمالِ المبادرةِ بالبِشْرِ والسَّلام، وهذَا قَدْ يَخِفُّ في حقِّ الطَّارئِ عندَ أكثرِ النَّاسِ، فإذا طالَتْ إقامتُهُ عندَهُمْ وتكلَّفُوا لهُ، ربَّمَا استُثْقِلَ وكُرِهَ؛ ولذلِكَ كانَتِ الضِّيافةُ ثلاثًا[١]، فمَنْ كمُلَتْ فُتُوَّتُهُ استوَىٰ إكرامُهُ وبشاشتُهُ، وحُسْنُ معاملتِهِ لِمَنْ نَزَلَ عِنْدَهُ وطَرأَ عليهِ، ومَنْ طالَتْ إقامتُهُ لديهِ، وذلكَ لكمالِ خُلقِهِ وهوانِ الدُّنيَا عليهِ[٢].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ عُمَرَ الحَافِظَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سَهْلِ بْنَ زِيَادٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ يَقُولُ**[٤]**: سُئِلَ أَبِي عَنِ الفُتُوَّةِ، فَقَالَ: تَرْكُ مَا تَهْوَىٰ لِمَا تَخْشَىٰ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أمرٌ جُمليٌّ في ترْكِ كلِّ ما يُشْتَهَىٰ إذَا خُشِيَتْ عواقبُهُ، وهوَ منْ أركانِ الفُتُوَّةِ؛ لأنَّ الفُتوَّةَ: تركٌ وفعلٌ، وتخليةٌ وتحليةٌ، وتخلُّقٌ وتعلُّقٌ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقِيلَ لِبَعْضِهِم**[٦]**: مَا الفُتُوَّةُ؟ فَقَالَ: أَلَّا يُمَيِّزَ أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَهُ وَلِيٌّ أَوْ كَافِرٌ**.

وَسَمِعْتُ بَعْضَ العُلَمَاءِ يَقُولُ[٧]**: اِسْتَضَافَ**[٨] **مَجُوسِيٌّ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلَ**

---

(١) ففي الأدب المفرد ص٢٥٩: «عن أبي هريرة قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الضيافة ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة».

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٧١.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.

(٤) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٤١، وعدة الصابرين ص٢٧، والآداب الشرعية ٢/٢٣١.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.

(٦) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٤٢.

(٧) سبق تخريج نحوه في (باب الرجاء)، وإنما أعاد هذه القصة لمناسبة المقام.

(٨) أي: طلب الضيافة من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الألف والسين والتاء تزاد للطَّلَب.

ـ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَسَلَّم ـ فَقَالَ: بِشَرْطِ أَنْ تُسْلِمَ، فَمَرَّ المَجُوسِيُّ، فَأَوْحَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إِلَيْهِ: مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً نُطْعِمُهُ عَلَىٰ كُفْرِهِ، فَلَوْ نَاوَلْتَهُ لُقْمَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ تُطَالِبَهُ بِتَغْيِيرِ دِيْنِهِ، فَمَضَىٰ إِبْرَاهِيمُ ـ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ ـ عَلَىٰ أَثَرِهِ حَتَّىٰ أَدْرَكَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ، فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَأَسْلَمَ المَجُوسِيُّ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ قلَّةِ قدْرِ الدُّنيا عندَ الفتىٰ وهوانِها عليهِ، حتَّىٰ لا يبالِي مَنْ أخذهَا موافقةً لربِّهِ ـ تعالىٰ ـ، فإنَّ الخبَرَ الصَّحيحَ[1]: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَىٰ كَافِرًا شَرْبَةً»، ولذلِكَ لَا يُبالِي مَنْ أكلَ طعامَهُ، وإنْ كانَ إطعامُ الصَّالِحِ وإكرامُهُ أنفعَ فِي الآخرةِ، فلَمْ يستوِ عندَ الفتىٰ مِنْ جهةِ الفضيلةِ عندَ اللهِ، وإنَّمَا استوَىٰ عندَهُ لعَدمِ القَدرِ والوزنِ [١٤٩/٢ب] لعرَضِ الدُّنيَا.

وأمَّا الحكايةُ عن إبراهيمَ لما استَضَافَ المَجُوسِيَّ، فشرطَ عليهِ أنْ يُغيِّرَ دينَهُ ويُسْلِمَ، فكانَ ذلكَ مِنْ إبراهيمَ ـ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ ليكملَ إحسانُهُ إليهِ في الدُّنيَا والآخرةِ، فلمَّا لَمْ يَفْعَلْ وذهبَ، جعلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ ذِهَابَهُ بعدَ السُّؤالِ سَبَبًا لِعَودِهِ ودُخُولِهِ في الإسلامِ وإقبالِهِ أحسنَ إقبالٍ، فلمَّا أوحَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إليه «**إنِّي أطعمُهُ وأرزُقُهُ علَىٰ كفرِهِ كذَا وكذَا سنةً فلَوْ ناولتَهُ لقمةً منْ غيرِ أنْ تطالبَهُ بتغييرِ دِيْنِهِ**»، وفِي هذا تنبيهٌ لحقارةِ الدُّنيَا علىٰ اللهِ، وسببِ إسلامِ هذَا المجوسيِّ، فلمَّا تبعَهُ إبراهيمُ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ ودعَاهُ للضِّيافةِ، فقالَ المجوسيُّ: «**وما السَّببُ؟**»، فأعلَمَهُ بمَا أوحىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إليهِ في أمْرِهِ، فانشرحَ لذلكَ صَدرُهُ، وكانَ ذلكَ سببَ إسلامِهِ، وحصلَ بذلكَ لإبراهيمَ الخليلِ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ ما طلبَهُ منهُ أوَّلًا، وإجراءُ الحقِّ علىٰ يَدَيهِ.

(١) سبق تخريجه.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ الجُنَيْدُ: الفُتُوَّةُ[(٢)]: **كَفُّ الأَذَىٰ، وَبَذْلُ النَّدَىٰ**».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا بعضُ أوصافِ الفتوَّةِ، وذلكَ أنَّ بذْلَ النَّدَىٰ إِعْطَاءُ ما يملكُهُ الإنسانُ بسهولةٍ، ويحتملُ أنْ يريدَ الدُّنيَا، ويحتملَ أنْ يعمَّ أعمالَ الدُّنيَا والآخرةِ يعطِيهَا بسهولةٍ.

وأمَّا «**كَفُّ الأذَىٰ**»: فهوَ أنْ يكفَّ أذاهُ عنِ النَّاسِ فلا يُؤْذِيهِمْ أَذِيَّةً، ولَا يُحمِّلُهُمْ شيئًا مِنْ أمْرِهِ، ويكونُ ثقلُ أُمُورِهِ علىٰ نَفْسِهِ، ويبقَىٰ عليهِ منَ الأخلاقِ حملُ ما يَرِدُ مِنْهُمْ منَ الأذَىٰ، والإحسان أنَّ من أَسَاءَ، وغير ذلكَ مِنْ أخلاقِ الفتَىٰ؛ ولذلِكَ قلنَا: ما ذكرَهُ بعضُ صِفَاتِ الفتوَّةِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٣)]: «وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[(٤)]: **الفُتُوَّةُ: اتِّبَاعُ السُّنَّةِ**».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا كلامٌ جامعٌ للتَّخلُّقِ بسائِرِ الأخلاقِ الشَّريفةِ؛ لأنَّ السُّنَّةَ هيَ ما كانَ عليهِ النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقدْ سُئِلَتْ عائشةُ عنْ خُلقِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقالَتْ[(٥)]: «قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]»[(٦)]، وقدْ قَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وكَفَىٰ بِمَا عَظَّمَهُ اللهُ فَضْلًا.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٥٣، وتفسير الثعلبي ٦/١٥٨، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٥، ومدارج السالكين ٢/٣٤٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢١٥، ومفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ص٧٣.

(٥) المروي عنها والمشهور كما في مسند أحمد ٦/٩١: «.. أَتَيْتُ عَائِشَةَ فقلت: يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ أخبريني بِخُلُقِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالت: كان خُلُقُهُ القُرْآنَ...».

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٧٢.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ[٢]: الفُتُوَّةُ: الوَفَاءُ وَالحِفَاظُ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فالوفاءُ بمَا عليكَ للهِ ـ تعالىٰ ـ ولخَلْقِهِ منَ الحقوقِ، والحفاظُ: حفظُ الحدودِ ألَّا تتعدَّىٰ، وهوَ يعمُّ المحرَّمَ والمكروهَ [٢/١٥٠أ]، وسَائِرَ الآدابِ الَّتِي أدَّبَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهَا عبادَهُ وإنْ تعالَتْ رُتبتُهُمْ، ولكنَّ رتبةَ أدبٍ يلزمُ العَبْدَ لا يتعدَّاهُ، وقدْ قالَ جبريلُ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنا وعليهِ ـ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، لمَّا فارقَ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلةَ الإسراءِ[٣]، وإنْ كانَ أجَلَّ الملائكةِ، والسَّفيرَ بينَ الحقِّ وبينَ أنبيائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٤]: «وَقِيلَ[٥]: الفُتُوَّةُ: فَضِيلَةٌ تَأْتِيهَا وَلَا تَرَىٰ نَفْسَكَ فِيْهَا».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: واسمُ الفضيلةِ تعمُّ كلَّ عملٍ صالحٍ وحالٍ شريفٍ ومقامٍ مُنيفٍ، فإذَا قامَ العبدُ للهِ ـ تعالىٰ ـ بصحَّةِ الأعمالِ والأحوالِ، والتَّمكُّنِ فِي المقاماتِ، وكانَ متبرِّئًا فِي نفسِ قِيامِهِ مِنْ حَوْلِهِ وقوَّتِهِ، رائيًا فضلَ ربِّهِ عليهِ في سائرِ تصرُّفاتِهِ، شاكرًا نعمَهُ عليهِ في سائرِ انتقالاتِهِ، فهوَ الفَتَىٰ الكَامِلُ فِي فُتُوَّتِهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٦]: «وَقِيلَ[٧]: الفُتُوَّةُ: أَلَّا تَهْرَبَ إِذَا أَقْبَلَ السَّائِلُ.

وَقِيلَ[٨]: أَلَّا تَحْتَجِبَ مِنَ القَاصِدِينَ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.
(٢) ورد في: مدارج السالكين ٢/٣٤٢.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١.
(٥) ورد في: مدارج السالكين ٢/٣٤٢، وبصائر ذوي التمييز ٤/١٧٢.
(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٨١ ـ ٣٨٢.
(٧) ورد في: مدارج السالكين ٢/٣٤٢.
(٨) ورد في: مدارج السالكين ٢/٣٤٢، وبصائر ذوي التمييز ٤/١٧٢.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يختلفُ باختلافِ حالِ المقصودِ المَسْئولِ، فقدْ يحتاجُ إليه في مالِهِ أوْ جاهِهِ، أوْ قوَّتِهِ ومساعدتِهِ، أوْ عِلْمِهِ وحُسْنِ سِيَاسَتِهِ، وإذَا كانَتِ الفتوَّةُ بذْلَ ما يملكُهُ العبدُ بسهولةٍ؛ طوْعًا لا إكرَاهًا، وسَمَاحًا لا تَكَلُّفًا، فكيفَ يَتأتَّىٰ أنْ يَحْتَجِبَ عنِ السَّائِلِينَ أوْ يَتألَّمَ برؤيتِهِمْ؟! بَلْ حَقُّهُ أنْ يفرحَ بِقُدُومِهِمْ، فإنَّ كَمَالَ أخلاقِهِ وحُسْنَ أحوالِهِ تَزِيدُ بمباشرتِهِمْ ومعاطاتِهِم.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقِيلَ**[٢]: **أَلَّا تَدَّخِرَ، وَلَا تَعْتَذِرَ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمَّا قولُهُ: «**لَا تدَّخِرْ**» فواضحٌ؛ لأنَّ الادِّخارَ إنَّما يكونُ الحاصلَ.

وأمَّا قولُهُ: «**لَا تعتذِرْ**»، فإنْ كانَ اعتذارُهُ معَ الإمكانِ علىٰ المساعدةِ بأيِّ وجْهٍ كانَ؛ فإنِ اعتذرَ معَ إمكانِهِ فقدْ نقصتْ فتوَّتُهُ؛ لأنَّ الفتىٰ لا يدَّخِرُ مُمْكِنًا، وأمَّا اعتذارُهُ إذا تعذَّرَ إمكانُهُ فزيادةُ فضْلٍ وإحسانٍ لسائلِهِ وتَطْيِيبًا لقلبِهِ، كمَا قيلَ[٣]:

وَلَابُدَّ مِنْ شَكْوَىٰ إِلَىٰ ذِي مُرُوءَةٍ ❊ يُوَاسِيكَ، أَوْ يُسْلِيكَ، أَوْ يَتَوَجَّعُ[٤]

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقِيلَ**[٦]: **إِظْهَارُ النِّعْمَةِ، وَإِسْرَارُ المِحْنَةِ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمَّا «**إظهارُ النِّعمةِ**»: فكونُهُ منْ أحسنِ الأخلاقِ؛ دِينًا ودُنْيَا: أمَّا في الدُّنيَا فترفعُ عن أحبابِكَ أَلَمَهُمْ باحتياجِكَ، فإذَا ظنُّوا استغناءَكَ طَابَتْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٢.

(٢) ورد في: مدارج السالكين ٢/٣٤٢.

(٣) من الطويل، لبشار بن برد في ديوانه ٤/١٠٠، ونهاية الأرب ٣/٨٠، والدر الفريد وبيت القصيد ١٠/٤٤٦.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٧٢.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٢.

(٦) ورد في: مدارج السالكين ٢/٣٤٢.

نُفُوسُهُمْ، وقصدُوا إعانَتَكَ علىٰ بعضِ حَوَائِجِهِمْ.

وأمَّا فِي الدِّينِ فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ إذَا [١٥٠/٢ب] أنعمَ علىٰ عبدٍ نعمةً أَحَبَّ أنْ تظهرَ نعمتُهُ عليهِمْ؛ فإنَّ إظهارَهَا سببٌ لشُكرِهَا في غالبِ الحالِ، إذا ذكرَ أنَّهَا نعمةٌ وأظهرَهَا لِتُعْرَفَ، وكذلك إنْ أظهرَهَا لمِعَنْىٰ الشُّكرَ وقصدَ ذلكَ، فإنَّ حقيقةَ الشُّكرِ الثَّناءُ علىٰ المُنعِم بإنعامِهِ، كمَا قالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا قامَ حتَّىٰ تورَّمَتْ قدمَاهُ قيلَ لهُ: أتفعلُ هذَا وقدْ غُفِرَ لكَ ما تقدَّمَ منْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ؟! فقالَ[١]: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»، فأظهرَ أعمالَهُ شكرًا للهِ ـ تعالىٰ ـ، فلذلكَ قالَ: «شكورًا»؛ شكرَ بقلبِهِ ولسانِهِ وجوارحِهِ وأفعالِهِ، فالشَّكورُ مبالغةٌ في الشَّاكرِ.

وأمَّا إخفاءُ المِحَنِ فهوَ ـ أيضًا ـ ينفعُ في الدِّينِ والدُّنيَا؛ فإخفاءُ المحنِ دليلٌ علىٰ الصَّبرِ واحتمالِ الأذىٰ الواقعِ منَ اللهِ أوْ من عبيدِهِ، فكلَّمَا كانَ العبدُ كَاتِمًا لمَا يُصِيبُهُ منَ البَلاءِ كانَ أقوىٰ فِي الصَّبرِ، وأَرْضَىٰ بالقَدَرِ، وسَلِمَ منِ اطِّلاعِ الخَلْقِ علىٰ نقْصِهِ وما نَزَلَ بهِ، فحصلَ منهُ فائدةُ الدُّنيَا والدِّينِ؛ ففيهِ كمالُ المُرُوءةِ في كَتْمِ المَصَائِبِ وإِظْهَارِ النِّعَمِ، وكلاهُمَا منْ أخلاقِ الفتوَّةِ، فإنَّ هؤلاءِ الأئمَّةِ لمْ يتعرَّضُوا للتَّحديدِ، وإنَّمَا قصدُوا نُصْحَ السَّائلِ أوِ المُدَّعِي للمَقَامِ، فربَّمَا ادَّعَىٰ شَخْصٌ الفتوَّةَ وهوَ يُظْهِرُ مَصَائبَهُ النَّازلةَ، ويكتمُ نعمَ اللهِ عليهِ، فَيُنَبَّهُ علىٰ ذلكَ لِتَكْمُلَ فُتُوَّتُهُ.

هكذَا ينبغِي أنْ يُفْهَمَ كلامُ أهلِ الخَيْرِ، فإنَّهُمْ لمْ يتعرَّضُوا لتحديدِ المعنَىٰ، وإنَّمَا تكلَّمُوا نُصْحًا؛ لأنَّهُمْ أطبَّاءُ، واللهُ المُستعَانُ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ: أَنْ تَدْعُو عَشْرَةَ أَنْفُسٍ، فَلَا تَتَغَيَّرُ إِنْ جَاءَ تِسْعَةٌ، أَوْ أَحَدَ عَشْرَ».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٢.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا جارٍ على ما قرَّرْنَاهُ من أنَّ كلامَهُمْ خرجَ مخرجَ المُدَاواةِ، وذلكَ أنَّ الفتى إذا صنعَ طعامًا لمَنْ يأكلُهُ ودعَا جماعةً، فلا يتألَّمُ إذا تأخَّرَ بعضُهُمْ؛ لأنَّ تألُّمَهُ دليلٌ على أنَّهُ اعتنَى بطعامٍ ممَّا لهُ فِي نفسِهِ وقعٌ ولمْ يأتِ مَنْ دعاهُ، وكذلِكَ إذَا زادتِ الجماعةُ عمَّنْ دعاهُ لا يتألَّمُ؛ لكونِهِ يتكلَّفُ زيادةَ تُمْكِنُهُ لمَنْ أتَى.

فمَنْ كمُلَتْ فتوَّتُهُ وصنعَ منَ الطَّعامِ ما يمكنُهُ، حقُّهُ ألَّا يُبَالِي، تأخَّرَ بعضُ مَنْ عمِلَهُ لهُ أوْ زادَ، فإنَّ تألُّمَهُ لذلكَ يدلُّ على عِظَمِ ما فعلَهُ في نفسِهِ، وكيفَ تكلَّفَ وتُؤُخِّرَ عنهُ؟، أوْ كيفَ يتكلَّفُ لمَنْ زادَ؟ وهذا دليلٌ على محبَّةِ الدُّنيَا، وأصلُ الفُتُوَّةِ: الإعراضُ عنهَا [١٥١/٢أ] محبَّةً، والفتَى لا يَدَّخِرُ شيئًا [وردَ][1] ذكَرَهُ منَ التِّسعةِ والأحدَ عشرَ لِمَنْ يَذْكُرُ[2].

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَقِيلَ[4]: الْفُتُوَّةُ: تَرْكُ التَّمْيِيزِ.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: قَالَ أَحْمَدُ بْنُ خِضْرَوَيْهِ لِامْرَأَتِهِ أُمِّ عَلِيٍّ: أُرِيدُ أَنْ أَتَّخِذَ دَعْوَةً أَدْعُو فِيهَا عَيَّارًا[5] شَاطِرًا ـ كَانَ فِي بَلَدِهِمْ رَأْسَ الفِتْيَانِ ـ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: إِنَّكَ لَا تَهْتَدِي لِدَعْوَةِ الفِتْيَانِ، فَقَالَ: لَا بُدَّ، فَقَالَتْ: إِنْ فَعَلْتَ فَاذْبَحِ الأَغْنَامَ وَالأَبْقَارَ وَالحُمُرَ وَأَلْقِهَا مِنْ بَابِ دَارِ الرَّجُلِ إِلَى بَابِ دَارِكَ، فَقَالَ: أَمَّا الأَغْنَامُ وَالأَبْقَارُ فَأَعْلَمُ، فَمَا بَالُ الحُمُرِ؟! فَقَالَتْ: تَدْعُو فَتًى إِلَى بَابِ دَارِكَ، فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِكِلَابِ المَحلَّةِ خَيْرٌ»[6].

---

(١) تتمة لطرد الكلام، وقد طمس موضعها بالأصل.
(٢) طمست كلمتان بعد هذه الكلمة في (أ).
(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٢.
(٤) ورد في: الفتوة للسلمي ص٨٦.
(٥) اسم للأسد، أي: شجاعًا.
(٦) إذا كانت هذه فُتُوة نساء الزمن الماضي، فما بالك بفُتوة رجاله؟ وتأمل فتوة رجالنا ونسائنا في زماننا!.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: فَمُرَادُهُ بـ«تَرْكِ التَّمييزِ»: أنَّكَ لا تميِّزُ في طعامِكَ بينَ مَنْ يأكلُهُ؛ مِنْ حَبيبٍ أوْ بَغِيضٍ، أوْ مُسْتَحِقٍّ أوْ غيرِهِ، وهوَ راجعٌ إلىٰ ما تقدَّمَ منْ قلَّةِ وزنِ الدُّنيَا فِي القلبِ، وكمالِ الزُّهدِ فيهَا، وبذْلِ مَا يُمَكِّنُ الإنسانَ منَ الإكرامِ لكلِّ حيوانٍ، وهذَا لا يعارِضُهُ قولُهُ[١]: «لَا تَأْكُلْ إِلَّا طَعَامَ تَقِيٍّ، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»؛ لأنَّهُ هاهُنَا قصدَ أكلَ الحلالِ وعودَ الصَّالحينَ، والحكايةُ موضوعةٌ لدلالةِ المعنىٰ، وهذَا بَذَلَ كلَّ مُمْكِنٍ لِكُلِّ مُحْتَاجٍ، وإذا كانَ طَعَامُهُ كلُّهُ حَلالًا وبذَلَهُ لكلِّ محتاجٍ دخلَ فيهِ الأتقياءُ، ووُصِفَ بكمالِ الكرَمِ، وتخلَّقَ بأخلاقِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في بَذْلِهِ الدُّنيَا للمؤمنِ والكافرِ، وقَدْ تقدَّمَتِ الحكايةُ في قصَّةِ إبراهيمَ الخليلِ معَ المَجُوسيِّ[٢].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[٣]: «وَقِيلَ: اِتَّخَذَ بَعْضُهُمْ دَعْوَةً وَفِيهَا شَيْخٌ شِيْرَازِيٌّ، فَلَمَّا أَكَلُوا وَقَعَ عَلَيْهِمُ النَّوْمُ فِي حَالِ السَّمَاعِ، فَقَالَ الشَّيْخُ الشِّيْرَازِيُّ لِصَاحِبِ الدَّعْوَةِ: أَيش السَّبَبُ فِي نَوْمِنَا؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي، اِجْتَهَدْتُ فِي جَمِيعِ مَا أَطْعَمْتُكُمْ إِلَّا البَاذِنْجَانَ، فَلَمْ أَسْأَلْ عَنْهُ.

فَلَمَّا أَصْبَحُوا سَأَلُوا بَائِعَ البَاذِنْجَانِ، فَقَالَ: لَمْ يَكُنْ لِي شَيْءٌ، فَسَرَقْتُ البَاذِنْجَانَ مِنَ المَوْضِعِ الفُلَانِيِّ وَبِعْتُهُ، فَحَمَلُوهُ إِلَىٰ صَاحِبِ الأَرْضِ لِيَجْعَلَهُ فِي حِلٍّ، فَقَالَ الرَّجُلُ: تَسْأَلُونَ مِنِّي أَلْفَ بَاذِنْجَانٍ؟! قَدْ وَهَبْتُهُ تِلْكَ الأَرْضَ، وَوَهَبْتُهُ ثَوْرَيْنِ، وَحِمَارًا، وَآلَةَ الحَرْثِ لِئَلَّا يَعُودَ إِلَىٰ مِثْلِ مَا فَعَلَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كَمَالِ الفتوَّةِ، فإنَّهُمْ سأَلُوهُ الاستحلالَ

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٦٠٠، وأبو داود في سننه ٤/٢٥٩.
(٢) أي: قريبا في هذا الباب.
(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٢.

منَ الباذنجَانِ، فأعطاهُمْ أرْضًا [٢/١٥١ب] وبقَرًا وخدَمًا، بسائِرِ ما فيهَا مَزْرُوعًا منَ الباذِنجانِ وغيرِهِ، وهذَا دليلٌ علىٰ كمالِ الفتوَّةِ.

وَفِي الحِكَايةِ وَجْهٌ آخرُ منَ الوَرَعِ: هوَ أنَّ الطَّعامَ الَّذِي أُخِذَ بغيرِ وجهِهِ إذَا أُكِلَ أثَّرَ في الأبدانِ والقلوبِ ما يشوِّش الدِّينَ والفهمَ للحكمةِ، ومنْ هذا القبيلِ حفظُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ للمُحاسبيِّ[١]، إذا كانَ في الطَّعامِ شيءٌ ضربَ علىٰ إصبَعِهِ عرقٌ ولمْ يُمْكِنْهُ ابتلاعُهُ، وكذلِكَ بشرُ بنُ الحارثِ، فهؤلاءِ حُفِظُوا قبلَ الوقوعِ، ومَنْ ذُكِرُوا فِي الحِكَايةِ نُبِّهُوا للتَّوبةِ بعدَ الوقوعِ، وكانَ مِنْ بَرَكةِ اسْتِحْلالِهِمْ مَا ظَهَرَ مِنْ فِعْلِ هَذَا الفتَىٰ المَسْئولِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقِيلَ[٣]: تَزَوَّجَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، فَقَبْلَ الدُّخُولِ ظَهَرَ بِالمَرْأَةِ الجُدَرِيُّ، فَقَالَ الرَّجُلُ: اِشْتَكَتْ عَيْنِي، ثُمَّ قَالَ: عَمِيتُ، فَزُفَّتْ إِلَيْهِ المَرْأَةُ، ثُمَّ مَاتَتْ بَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً، فَفَتَحَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: لَمْ أَعْمَ، وَلَكِنْ تَعَامَيْتُ[٤]؛ حَذَرًا أَنْ تَحْزَنَ، فَقِيلَ لَهُ: سَبَقْتَ الفِتْيَانَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **وروحُ هذهِ الحكايةِ**: لطفُهُ بهذِهِ المرأةِ، وتسبُّبُهُ لنفْيِ الحزنِ عنهَا لظهورِ الزَّوجِ علىٰ ما بهَا منَ الجُدَرِيِّ، فغمَّضَ عينَهُ وأوهمَهَا أنَّهُ أعمَىٰ؛ لئلَّا تحزَنَ، وصبرَ هذهِ المدَّةَ العظيمةَ، ثمَّ بعدَ ذلكَ فتحَ عينَهُ بعدَ موتِهَا، وأخبرَ أنَّهُ فعلَ ذلكَ شفقةً عليهَا.

وهذَا يُشبِهُ ما جرَىٰ لحاتِمٍ الأصمِّ لمَّا جاءَتْهُ المرأةُ تستفتِيهِ، فخرجَ منها ريحٌ

---

(١) مر تخريج قوله في الدلالة ١/٢٣٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٢.

(٣) ورد في: نكت الهميان في نكت العميان ص٣١.

(٤) أي: تكلفت العمى.

في حالِ كلامِهَا معهُ، فاستحيَتْ وتداركَهَا وجبَرَ حالَهَا بأنْ قالَ[١]: «ارفعِي صَوتَكِ حتَّىٰ أسمعَ ما تقولِينَ»، ففرحَتْ لكونِهِ لمْ يسمعْهَا، فتصامَمَ كمَا تعامَىٰ الآخرُ، ولذلكَ سُمِّيَ الأصمَّ[٢].

هذا كلُّهُ كمَالٌ في المُرُوءةِ والشَّفَقةِ علىٰ الخَلْقِ والإحسَانِ إليهِمْ، ولذلكَ قيلَ لهُ: «**سَبقْتَ الفِتْيانَ**».

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ[٤]: مَنْ أَرَادَ الظُّرْفَ فَعلَيْهِ بِسُقَاةِ المَاءِ بِبَغْدَادَ، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ هُوَ؟ فَقَالَ: لَمَّا حُمِلْتُ إِلَىٰ الخَلِيفَةِ فِيمَا نُسِبَ إِلَيَّ مِنَ الزَّنْدَقَةِ، رَأَيْتُ سَقَّاءً عَلَيْهِ عِمَامَةٌ، وَهُوَ مُتَرَدٍّ بِمِنْدِيلٍ مِصْرِيٍّ، وَبِيَدِهِ كِيْزَانُ خَزَفٍ رِقَاقٍ، فَقُلْتُ: هَذَا سَاقِي السُّلْطَانِ؟ فَقَالُوا: لَا، هَذَا سَاقِي العَامَّةِ، فَأَخَذْتُ الكُوزَ وَشَرِبْتُ، وَقُلْتُ لِمَنْ مَعِي: أَعْطِهِ دِينَارًا، فَلَمْ يَأْخُذْهُ وَقَالَ: أَنْتَ أَسِيرٌ، وَلَيْسَ مِنَ الفُتُوَّةِ أَنْ نَأْخُذَ مِنْكَ شَيْئًا** [٢/١٥٢أ]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **وهَذِهِ الحِكَايَةُ مقصودُهَا**: أنَّ مَنْ أرادَ كمالَ الظُّرفِ والفتوَّةِ فليتعلَّمْهُ مِنْ سُقَاةِ الماءِ ببغدادَ، قيلَ لهُ: كيفَ ذلكَ؟، فأخبَرَ أنَّهُ لمَّا حُمِلَ إلىٰ الخليفةِ بمَا نُسِبَ إليهِ ورأىٰ ظُرفَ السَّقَّا في لباسِهِ وكيزانِهِ حتَّىٰ ظنَّهُ أنَّهُ ساقِي السُّلطانِ، فلمَّا سألَ عنهُ قيلَ لهُ: «**بَلْ هو سَاقِي العامَّةِ**»، فتقدَّمَ إليهِ ذو النُّونِ رَحِمَهُ اللهُ واستسقَاهُ وأخذَ منهُ كوزًا فشرِبَ منهُ، وقالَ لخادِمِهِ: «**أعطِهِ دينارًا**»، فأبىٰ السَّقَّا أنْ يقبلَهُ وقالَ: «**أنتَ أسيرٌ**» قدِ استُدعِيتَ إلىٰ الخليفةِ ومعَكَ مَنْ يحفظُكَ مِنْ قِبَلِ الخليفةِ لتوصلَ إليهِ؛ فليسَ منَ المروءةِ أنْ يُضيَّقَ عليكَ ويُؤخَذَ منكَ شيءٌ، فرأىٰ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٧٤.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٢ ـ ٣٨٣.

(٤) ورد قوله في: تاريخ بغداد ١/٥٠، وأخبار الظراف والمتماجنين ص٦٨.

ذو النُّونِ كمالَ أخلاقِهِ وكمالَ مروءتِهِ في باطنِهِ معَ ظُرفِ ظاهرِهِ، فلذلِكَ قالَ: «مَنْ أرادَ أنْ يتعلَّمَ الكمالَ في الباطنِ والظَّاهرِ فليتعلَّمْهُ مِنْ سقاةِ الماءِ ببغدادَ»، وبهذا كانَ فتىً ردَّ دينارًا فتوَّةً، وهوَ يأخذُ في إسقاءِ الماءِ قطعةً.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقِيلَ: لَيسَ مِنَ الفُتُوَّةِ أَنْ تَرْبَحَ عَلَىٰ صَدِيقِكَ، قَالَهُ بَعْضُ أَصْدِقَائِنَا**[٢].

وَكَانَ فَتًى يُسَمَّىٰ أَحْمَدَ بنَ سَهْلٍ التَّاجِرَ، وَقَدِ اشْتَرَيْتُ مِنْهُ خِرْقَةً[٣] **بَيَاضٍ، فَأَخَذَ الثَّمَنَ رَأْسَ مَالِهِ، فَقُلْتُ: أَلَا تَأْخُذُ رِبْحًا؟ فَقَالَ: أَمَّا الثَّمَنُ فَآخُذُ، وَلَا أَحْمِلُكَ مِنْهُ**[٤]**؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنَ الخَطَرِ مَا أَتَخَلَّقُ بِهِ مَعَكَ، وَلَكِنْ لَا آخُذُ الرِّبْحَ؛ إِذْ لَيْسَ مِنَ الفُتُوَّةِ أَنْ تَرْبَحَ عَلَىٰ صَدِيقِكَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفي هذهِ الحكايةِ وجهانِ منَ الفُتُوَّةِ:

أحدهُمَا: استقلالُ رأسِ المَالِ حتَّىٰ لمْ يهنْ عليهِ أنْ يَهبَهُ لأخيهِ لنذارَتِهِ عندَهُ، يدلُّ عليهِ قولُهُ: «**إذْ ليسَ فيهِ ما أتخلَّقُ بهِ معَكَ**».

والثَّانِي: كونُهُ لَمْ يَرْبَحْ، وأنزلَ أخاهُ منزلتَهُ، وكأنَّهُ اشتراهُ لهُ ولمْ يأخُذْ عليهِ رِبْحًا.

هذانِ وجهانِ منْ أخلاقِ الفُتُوَّةِ، ولهُمَا سِيقَتِ الحكايةُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقِيلَ**[٦]: **خَرَجَ إِنْسَانٌ يَدَّعِي الفُتُوَّةَ مِنْ (نَيْسَابُورَ)**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٣.
(٢) في (ف): وقال بعض أصدقائنا رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٣) في (ف): حزمة.
(٤) في (ف): ولا أقللك منَّة.
(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٣.
(٦) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٣٤٣.

إلَىٰ (نسا)[١] ، فَاسْتَضَافَهُ رَجُلٌ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الفِتْيَانِ ، فَلَمَّا فَرَغُوا مِنَ الطَّعَامِ خَرَجَتْ جَارِيَةٌ تَصُبُّ المَاءَ عَلَىٰ أَيْدِيهِم ، فَانْقَبَضَ النَّيْسَابُورِيُّ عَنْ غَسْلِ اليَدِ ، وَقَالَ: لَيْسَ مِنَ الفُتُوَّةِ أَنْ تَصُبَّ النِّسْوَانُ المَاءَ عَلَىٰ أَيْدِي الرِّجَالِ ، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: أَنَا مُنْذُ سِنِينَ أَدْخُلُ هَذِهِ الدَّارَ لَمْ أَعْلَمْ أَنَّ امْرَأَةً تَصُبُّ المَاءَ عَلَىٰ أَيْدِينَا أَمْ رَجُلًا[٢]!».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [١٥٢/٢ب] وهذَا بالغٌ في الفتوَّةِ ، وكمَا أنَّ الفتَىٰ لا يقصِّرُ عنْ خيرٍ ممَّا يفعلُ أو يقول ، كذلِكَ يُعْرِضُ عمَّا لا حاجةَ لهُ إليهِ منْ سائِرِ أنواعِ الفُضُول ، فإذا دخلَ دارًا فمِنْ جُملةِ الفضولِ الَّذِي لا يحتاجُ إليهِ تمييزُ ما في الدَّارِ منَ الأثاثِ والمَتاعِ والخدَّامِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا لاحاجةَ إليهِ ، ولا دَخْلَ بسببِهِ.

فكذلِكَ هذا الرَّجلُ الَّذِي دخلَ معَ الجماعةِ إلىٰ هذِهِ الدَّارِ يأكلُ الطَّعامَ فلَا يخلُو أنْ تكونَ رؤيتُهُ للجاريةِ فجأةً مِنْ غيرِ قصْدٍ ، أوْ قصدَ النَّظرَ إليهَا عندمَا أرادَتْ أنْ تسكبَ الماءَ ؛ فإنْ كانَ فجأةً في حالِ مجيئِهَا ثمَّ قالَ: «**ليسَ منَ الفُتُوَّةِ أنْ تَسْكُبَ النِّساءُ علىٰ الرِّجالِ**» فكلامٌ جيِّدٌ ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَ بالمباعَدةِ بينَ أنفاسِ الرِّجالِ والنِّساءِ[٣] ، ولا سيَّمَا المتجرِّدِينَ منَ الشُّبَّانِ ، فربَّمَا يشوِّشُ عليهِمْ حالَهُمْ كلامُ النِّساءِ ، فضْلًا عنْ رؤيتِهِمْ ، فإبعادُهُمْ عنهُمْ في وقتِ قضاءِ الحوائِجِ مِنْ جُملَةِ إكرامِ الضُّيوفِ ، وأحقُّ مَنْ كمُلَ إكرامُهُ لهُمْ أنْ يصبَّ الماءَ عليهِمْ صاحبُ المنزلِ ، وأمَّا مَنْ قالَ لهُ علىٰ وجهِ المعارضةِ: «**إنِّي أدخلُ هذا المنزلَ كذا وكذا كرَّةً ، ولا أدرِي مَنْ يصبُّ الماءَ علىٰ يدَيَّ ، رجلٌ أمِ امرأةٌ؟**» فهذَا كاملٌ في تَرْكِ فضولِ النَّظرِ.

---

(١) اسم مدينة. انظر: معجم البلدان ٢٨٢/٥.

(٢) في (أ): رجل ، والصواب المثبت.

(٣) قال النووي: «فقد أمرنا بالمباعدة من أنفاس الرجال والنساء وكانت عادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباعدتهن ؛ ليقتدي به أمته» شرح صحيح مسلم ١٦٦/١٤ ، وانظر: كشف الخفاء ٣٢٩/١.

وقدْ حُكِيَ عَنْ بعضِهِم أنَّهُمْ رأَىٰ شابًّا منَ المريدِينَ يكرِّرُ النَّظرَ لوجْهِهِ، قالَ لهُ[١]: «يا ولدِي، أمَا علِمْتَ أنَّهُمْ كانُوا يكرهُونَ فضولَ النَّظرِ، كمَا يكرهُونَ فضولَ الكَلامِ؟» وكلاهُمَا داخلٌ في بابِ الفتوَّةِ؛ إذا كانَ نظرُ الأوَّلِ فجأةً منْ غيرِ اختيارٍ، فأحدُهُمَا نَصحَ، والثَّاني تركَ فضولَ النَّظرِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ مَنْصُورًا المَغْرِبِيَّ[٣] يَقُولُ: أَرَادَ وَاحِدٌ أَنْ يَمْتَحِنَ نُوحًا النَّيْسَابُورِيَّ العَيَّارَ[٤]، فَبَاعَ مِنْهُ جَارِيَةً فِي زِيِّ غُلَامٍ، وَشَرَطَ أَنَّهُ غُلَامٌ، وَكَانَتْ وَضِيئَةَ الوَجْهِ، فَاشْتَرَاهَا نُوحٌ عَلَىٰ أَنَّهَا غُلَامٌ، وَلَبِثَتْ عِنْدَهُ شُهُورًا كَثِيرَةً، فَقِيلَ لِلجَارِيَةِ: هَلْ عَلِمَ أَنَّكِ جَارِيَةٌ؟ فَقَالَتْ: لَا، إِنَّهُ مَا مَسَّنِي، وَيَتَوَهَّمُ أَنِّي غُلَامٌ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذهِ الحكايةُ ممَّا أكرَهُ ذكْرَهَا وإدراجَهَا في نعوتِ الفتيانِ، فإنَّ مَنِ اشترَىٰ شخصًا علىٰ أنَّهُ ذكَرٌ، وأقامَ عندَهُ ألفَ عامٍ لا يُمْدَحُ علىٰ كونِهِ لمْ يطَّلِعْ علىٰ عورتِهِ، وإنَّمَا لمَّا غلبَ الفسادُ في تلكَ البلادِ، ومُدِحَ النَّاسُ بانكفافِهِمْ عنِ الذُّكورِ، وإلَّا هذَا فلَا فضيلةَ فيهِ، وهوَ ممَّا لوْ أمكنَ طرحُهُ منَ الكتابِ لفعلْتُ، فكيفَ [٢/١٥٣أ] يُمدَحُ الصَّالحُونَ بانكفافِهِمْ عنِ اللِّواطِ الَّذِي هوَ أشدُّ منَ الزِّنَا؟ فإنَّ العلماءَ اختلفُوا في اللُّوطِيِّ[٥]: هَلْ حَدُّهُ القتلُ مطلقًا سواءٌ كانَ ثيِّبًا أوْ بِكرًا؟ بخلافِ الزِّنَا؛ فإنَّ البِكْرَ لَا يُقْتَلُ، والثَّيِّبُ يُقْتَلُ[٦]، **وعلَىٰ الجُملةِ**

(١) ورد في: حلية الأولياء ٣/٣١٥، وصفة الصفوة ٢/٢١٣، وإحياء علوم الدين ٤/٤٠٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٣.

(٣) في (ف): منصور بن خلف.

(٤) أي: الشجاع.

(٥) قال الماوردي: «.. حد اللواط، فيه قولان؛ أحدهما: كحد الزنا جلد مائة وتغريب عام إن كان بكرًا، أو الرجم إن كان ثيبًا. والقول الثاني: القتل بكراً كان أو ثيبًا» الحاوي الكبير ٩/٣٢٢. وانظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/٥١٦، والتنبيه للشيرازي ص٢٤١ وفتاوي السعدي ٢/٦٤٠.

(٦) أي: فإن المحصَن يرجم، وغير المحصن يحدُّ، ففي التنبيه للشيرازي ص٢٤١: «إذا زنىٰ البالغ=

فتَرْكُ هذهِ الحكايةِ أولَىٰ، واللهُ المُستعانُ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ: إِنَّ بَعْضَ الشُّطَّارِ طُلِبَ مِنْهُ تَسْلِيمُ غُلَامٍ كَانَ يَخْدُمُهُ إِلَىٰ السُّلْطَانِ فَأَبَىٰ، فَضُرِبَ أَلْفَ سَوْطٍ فَلَمْ يُسَلِّمْهُ، فَاتَّفَقَ أَنَّهُ احْتَلَمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَكَانَ بَرْدًا شَدِيدًا، فَلَمَّا أَصْبَحَ اغْتَسَلَ بِالمَاءِ البَارِدِ، فَقِيلَ لَهُ: خَاطَرْتَ بِرُوحِكَ! ، فَقَالَ: اِسْتَحْيَيْتُ مِنَ اللهِ - تعالىٰ - أَنْ أَصْبِرَ عَلَىٰ ضَرْبِ أَلْفِ سَوْطٍ لِأَجْلِ مَخْلُوقٍ، وَلَا أَصْبِرَ عَلَىٰ مُقَاسَاةِ بَرْدِ الاِغْتِسَالِ لِأَجْلِهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا قريبٌ، فإنَّهُ صبرَ علَىٰ الألمِ لِفواتِ حَظِّهِ مِنْ خِدْمةِ هذا الخَادمِ الَّذي كانَ يخدمُهُ لوْ أخذَهُ السُّلطانُ، فلمَّا احتلمَ هذَا المضروبُ وكانَتْ ليلةً باردةً، فكسلَتْ نفسُهُ خوْفًا منْ مقاساةِ الماءِ الباردِ، فاستحْيَا منَ اللهِ أنْ يصبرَ علىٰ ألمِ الضَّربِ خوْفًا مِنْ فواتِ مَنْفَعةٍ تحصلُ لهُ مِنْ مخلوقٍ بخدمتِهِ، ولَا يستحْيِي منَ اللهِ أنْ يصبرَ علىٰ ألمِ الماءِ الباردِ للقيامِ بطاعةِ اللهِ - تعالىٰ - رجاءَ فضْلِهِ ورحمتِهِ[(٢)].

فبهذَا الاعتبارِ دخلَ في بابِ الفتوَّةِ؛ لكونِهِ آثرَ مَا ينبغِي إيثارُهُ، وترَكَ حظَّ نفسِهِ وغرَّرَ بهَا معَ ما هوَ فيهِ منْ ألمِ الضَّربِ المتقدِّمِ، والغسلِ بالماءِ الباردِ بعدَهُ، فلذلكَ قيلَ لهُ: «غرَّرْتَ بنفسِكَ»، فأجابَ: «إنِّي استحييْتُ منَ اللهِ».

= العاقل المختار وهو مسلم أو ذمي أو مرتد وجب عليه الحد فإن كان محصنا فحده الرجم... وإن كان غير محصن نظر؛ فإن كان حرا فحده جلد مائة وتغريب عام إلىٰ مسافة تقصر فيها الصلاة، وإن كان عبدا فحده جلد خمسين، وفي تغريبه ثلاثة أقوال: أحدها لا يجب، والثاني يجب تغريب عام، والثالث يجب تغريب نصف عام». وانظر: تحفة الفقهاء ٣/١٣٧، وبداية المجتهد ٢/٣٢٤.

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٣.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٧٥ - ٦٧٦.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ: قَدِمَ جَمَاعَةٌ مِنَ الفِتْيَانِ لِزِيَارَةِ وَاحِدٍ يَدَّعِي الْفُتُوَّةَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا غُلَامُ، قَدِّمِ السُّفْرَةَ، فَلَمْ يُقَدِّمْ، فَقَالَ الرَّجُلُ ثَانِيًا وَثَالِثًا، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ فَقَالُوا: لَيْسَ مِنَ الفُتُوَّةِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ مَنْ يَتَعَاصَىٰ عَلَيْهِ فِي تَقْدِيمِ السُّفْرَةِ كُلَّ هَذَا! فَقَالَ الغُلَامُ[(٢)]: كَانَ عَلَيْهَا نَمْلٌ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الأَدَبِ تَقْدِيمُ السُّفْرَةِ إِلَىٰ الفِتْيَانِ مَعَ النَّمْلِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الفُتُوَّةِ إِلْقَاءُ النَّمْلِ مِنَ السُّفْرَةِ، فَلَبِثْتُ حَتَّىٰ دَبَّ النَّمْلُ، فَقَالُوا: دَقَّقْتَ يَا غُلَامُ، مِثْلُكَ مَنْ يَخْدِمُ الفِتْيَانَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: في هذِهِ الحكايةِ منَ الفتوَّةِ أطرافٌ؛ وهوَ أنَّ الخادمَ لا ينبغِي أنْ يتعاصَىٰ أوْ يتخلَّفَ عمَّا أُمِرَ بهِ في حقِّ المكرَّمينَ، فإنَّ ذلكَ يشوِّشُ عليهِم قلوبَهُمْ، وهوَ الَّذي نظرَ إليهِ المشايخُ:

أوَّلًا: لمَّا أمرَهُ [٢/١٥٣ب] سيِّدُهُ بتقديمِ السُّفرةِ مرَّةً بعدَ أُخرَىٰ، فلمْ يفعلْ، قالُوا: «ما ينبغِي أنْ يَصْلُحَ هذَا لخدمةِ الفِتْيَانِ»، قالَ: هذَا ليسَ مِن أخلاقِهِمْ، فإنَّ أخلاقَهُمُ المبادرةُ لمَا لمْ يُؤمَرُوا بهِ منَ الخيرِ فكيفَ لمَا أُمِرُوا بهِ؟!

والثَّانِي: اعتذارُ الخادمِ بالنَّملِ الَّذِي كانَ علىٰ السُّفرةِ؛ وهوَ أنَّ إحضارَهَا والنَّملُ عليهَا يدبُّ ويُؤْتَىٰ عليها بالطَّعامِ ليسَ بحَسَنٍ، فإزعاجُهُ النَّملَ وقتْلُهُمْ ورمْيُهُمْ بسرعةٍ أذيَّةٌ لهُمْ، و«البرُّ لا يُؤذِي الذَّرَّ[(٣)]»، فكانَ توقُّفُهُ لهذَينِ الوجهَينِ منَ الأدبِ، ولذلكَ لمَّا اطَّلَعُوا علىٰ باطنِ أمْرِهِ قالُوا: «**دقَّقْتَ يا غلامُ**»، يعنُونَ: في الفتوَّةِ والأدبِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَقِيلَ[(٥)]: إِنَّ رَجُلًا نَامَ بِالمَدِينَةِ مِنَ الحَاجِّ،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٤.

(٢) في (ف): «فقال الرجل لما أبطأت بالسفر».

(٣) يعني النمل الصغير. انظر: تفسير السمعاني ١/٣٨٩.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٤.

(٥) ورد في: مدارج السالكين ٢/٣٤٣، وورد نحوه في: تاريخ بغداد ٥/٣١٣، وتاريخ دمشق ٥٣/١٦٢.

فَتوَهَّمَ أَنَّ هِمْيَانَهُ[(١)] سُرِقَ، فَخَرَجَ فَرَأَىٰ جَعْفَرًا الصَّادِقَ فَتعَلَّقَ بِهِ وَقَالَ: أَخَذْتَ هِمْيَانِي، فَقَالَ: أيشٍ كَانَ فِيهِ، فَقَالَ: أَلْفُ دِيْنَارٍ، فَأَدْخَلَهُ دَارَهُ وَوَزَنَ لَهُ أَلْفَ دِيْنَارٍ، فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ وَدَخَلَ بَيْتَهُ، فَرَأَىٰ هِمْيَانَهُ فِي بَيْتِهِ، وَكَانَ قَدْ تَوَهَّمَ أَنَّهُ سُرِقَ، فَخَرَجَ إِلَىٰ جَعْفَرٍ مُعْتَذِرًا، وَرَدَّ عَلَيْهِ الدَّنَانِيرَ، فَأَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَ، وَقَالَ: شَيْءٌ أَخْرَجْتُهُ مِنْ يَدِي لَا أَسْتَرِدُّهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: مَنْ هَذَا؟ فَقِيلَ: جَعْفَرٌ الصَّادِقُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ فيهَا ما يدلُّ علىٰ كَرَمِ جعفرٍ الصَّادقِ، وحِفْظِهِ لمروءتِهِ، وصيانتِهِ لِعِرْضِهِ، وإغاثةِ المَلْهُوفِ وتسكينِ قَلْبِهِ ما يُنَبِّهُ عليهِ؛ وذلكَ أنَّ هذا الرَّجلَ الَّذِي كانَ ساكنًا بالمدينةِ ربَّمَا كانَ يحملُ كيسَهُ معَهُ في تصرُّفِهِ؛ خشيةَ أنْ يسرقَ منْ منزلِهِ لمَا فيهِ منَ المبلغِ، فنسيَهُ ذاتَ يوم وخرجَ وهوَ يظنُّ أنَّهُ مَعَهُ علىٰ حسبِ عادتِهِ، فلمَّا تفقَّدَهُ ولمْ يجدْهُ ظنَّ أنَّهُ سُرِقَ وقُطِعَ، فخرجَ علَىٰ فورِهِ يلتمسُ مَنْ قطعَهُ فصادفَ جعفرًا الصَّادقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهوَ لا يعرفُهُ، فتعلَّقَ بهِ وقالَ: «إنَّهُ أخذَ مالِي»، فرحِمَهُ ورأَىٰ ما بهِ منَ القلقِ، فسكَّنَ قلبَهُ بشيءٍ يسيرٍ عليهِ منَ الدُّنيَا، وحفظَ أيضًا عِرْضَهُ حتَّىٰ لا يسمعَ بمَا قالَهُ غيرُهُ، وأدخلَهُ منزلَهُ ووزنَ لهُ الألفَ الدِّينارِ الَّتِي هيَ عظيمةٌ عندَ صاحبِهَا وسهلةٌ عندَ جعفرٍ زُهْدًا، وحفظًا لمروءتِهِ، وشفقةً علىٰ عبادِ اللهِ، فلمَّا أخذَهَا هذَا الرَّجلُ ورجعَ إلىٰ منزلِهِ فوجدَ كِيسَهُ بِذَهبِهِ علىٰ مَا هوَ عليهِ، فعلِمَ خطأَ نفسِهِ، وأتَىٰ بالمالِ إلىٰ جعفرٍ الصَّادقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معتذِرًا مستغفِرًا ممَّا جرَىٰ منهُ، وردَّ إليهِ الذَّهبَ الَّذِي أخذَهُ منهُ، فثبتَ [١٥٤/٢أ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كونِهِ أخرجَهُ للهِ كرَمًا وسترًا لعرضِهِ، وشفقةً علَىٰ المسلمِ، وتسكينًا لقلوبِهِمْ، فامتنعَ مِنْ أخذِهِ؛ لئلَّا يرجعَ فيمَا أخرجَهُ للهِ[(٢)].

وهذا شأنُ أهلِ بيتِ النُّبوَّةِ وزهدِهِمْ في الدُّنيَا، وعدمِ رجوعِهِمْ فيمَا فعلُوهُ للهِ.

---

(١) أي: كيسه.

(٢) كيف لا يكون كذلك!، وهو ممن أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

حُكِيَ[١] أنَّ بعضَهُمْ كانَتْ لهُ إبلٌ معَ راعٍ لهُ غارَ عليهَا بعضُ النَّاسِ فاستاقَهَا وراعِيهَا، فهربَ الرَّاعِي منهُمْ، وأتَىٰ إليهِ وأخبَرَهُ الخبَرَ، فقالَ: في سبيلِ اللهِ، ثمَّ قالَ لهُ: ما حملَكَ علَىٰ أنْ تركتَهُمْ وجئْتَنِي؟ قالَ: أنتَ أحبُّ إليَّ منهُمْ، وأظنُّهُ استحلَفَهُ علىٰ ذلكَ، فلمَّا حلفَ لهُ أنَّهُ مَا أتَىٰ إليهِ إلَّا محبَّةً، قالَ لهُ: أنتَ حرٌّ لوجْهِ اللهِ، ثمَّ بعدَ ذلكَ بمدَّةٍ أُخْبِرَ أنَّ ناقتَهُ الفلانيَّةَ الَّتِي أُخِذَتْ في إبلِهِ تُباعُ في السُّوقِ، فقامَ وأخذَ رداءَهُ لينظرَهَا، ثمَّ جلسَ وتركَ ذلكَ، فقيلَ لهُ في ذلكَ، فقالَ: كنتُ قلتُ لمَّا أُخْبِرْتُ: في سبيلِ اللهِ[٢].

وهكذَا حالُهُمْ وكرمُهُمْ، رضِيَ اللهُ عنْ أهلِ بيتِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِهِ والتَّابعينَ لهُمْ بإحسانٍ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَقِيلَ[٤]: سَأَلَ شَقِيقٌ البَلْخِيُّ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عَنِ الفُتُوَّةِ فَقَالَ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟ فَقَالَ شَقِيقٌ: إِنْ أُعْطِينَا شَكَرْنَا وَإِنْ مُنِعْنَا صَبَرْنَا، فَقَالَ جَعْفَرٌ: الكِلَابُ عِنْدَنَا بِالمَدِينَةِ كَذَلِكَ تَفْعَلُ، فَقَالَ شَقِيقٌ: يَا ابْنَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا الفُتُوَّةُ عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَ: إِنْ أُعْطِينَا آثَرْنَا، وَإِنْ مُنِعْنَا شَكَرْنَا»**.

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذهِ الحكايةِ إشارةٌ إلىٰ تفاوتِ منازلِ السَّالكِينَ، فإنَّ بينَ قولِهِ: «**إنْ مُنِعْنَا صبَرْنَا**» وبينَ قولِهِ: «**إنْ مُنِعْنَا شكَرْنَا**» تبايُنٌ، فإنَّ المَنْعَ مُؤلِمٌ، فمَنْ نظرَ إلىٰ إيلامِهِ قيلَ لهُ: اصبِرْ، ومَنْ عدَّ البلاءَ نعمةً قيلَ لهُ: اشكُرْ، وكذلِكَ مَا يقابلُ كلمتَيْهَا، وهوَ قولُ الأوَّلِ: «**إنْ أُعطِينَا شَكَرْنَا**»، وقولُ

---

(١) وردت هذه الحكاية في: حلية الأولياء ١/٣٠١، وتاريخ دمشق ٣١/١٣٤.

(٢) أي: كنت احتسبتها فلم أطلبها.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٤.

(٤) ورد في: حلية الأولياء ٨/٣٧ ـ بين شفيق وإبراهيم بن أدهم، ومدارج السالكين ٢/٣٤١، كما ذكر المؤلف.

الآخرِ: «إنْ أُعْطِينا آثَرْنَا»، فكلٌّ إذا أُعْطِيَ شكرَ لإزالةِ ما هوَ فيهِ منَ الحَاجَةِ، وأمَّا مَنْ كانَ محتاجًا فإذَا أُعْطِي آثرَ غيرَهُ ممَّا يُعطِي حملًا علىٰ نفسِهِ، وإيثارًا لغيرِهِ فدرجتُهُ أكْمَلُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ**[٢]: **دَعَانَا أَبُو العَبَّاسِ بْنُ مَسْرُوقٍ لَيْلَةً إِلَىٰ بَيْتِهِ، فَاسْتَقْبَلَنَا صَدِيقٌ لَنا فقُلْنَا: ارْجِعْ مَعَنَا فَنَحْنُ**[٣] **فِي ضِيَافَةِ الشَّيْخِ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَمْ يَدْعُنِي، فَقُلْنَا: نَحْنُ نَسْتَثْنِي كَمَا اسْتَثْنَىٰ رَسُولُ** [٢/١٥٤ب] **اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لِعَائِشَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **فَأَخَذْنَاهُ مَعَنا، فَلَمَّا بلَغَ بَابَ الشَّيْخِ أَخْبَرْنَاهُ بِمَا قَالَ وَقُلْنَا لَهُ، فَقَالَ: جَعَلْتَ مَوْضِعِي مِنْ قَلْبِكَ أَنْ تَجِيءَ إِلَىٰ مَنْزِلِي**[٤] **مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ!، عَلَيَّ كَذَا وَكَذَا، أَنْ مَشَيْتَ إِلَىٰ المَوْضِعِ الَّذِي تَقْعُدُ فِيهِ إِلَّا عَلَىٰ خَدِّي، وَأَلَحَّ، وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَىٰ الأَرْضِ، وَحُمِلَ الرَّجُلُ، فَوَضَعَ قَدَمَهُ عَلَىٰ خَدِّهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُوجِعَهُ، وَسَحَبَ الشَّيْخُ وَجْهَهُ عَلَىٰ الأَرْضِ إِلَىٰ أَنْ بَلَغَ مَوْضِعَ جُلُوسِهِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفي هذِهِ الحكايةِ منَ الفتوَّةِ لصاحبِ الدَّارِ ما حملَهُ لسرورِهِ بقدومِ هذَا الزَّائرِ، وإنْ لمْ يدعُهُ إنْ وضعَ خدَّهُ بالأرضِ وأقسمَ أنَّهُ لا يصلُ إلىٰ الموضعِ الَّذِي يجلسُ فيهِ فِي بيتِي إلَّا علىٰ خدِّي، وذلكَ أنَّ هذَا الرَّجلَ ـ الَّذِي هوَ أبُو العبَّاسِ ـ دعَا جماعةً منْ أصحابِهِ إلىٰ بيتِهِ ليطعمَهُمْ، ففِي مَسِيرِهِمْ إليهِ لقُوا رجلًا مِنْ إخوانِهِمْ فِي وجوهِهِمْ، فرغبُوا أنْ يردُّوهُ معَهُمْ إلىٰ موضعِ الضِّيافةِ، فأخبرَهُمْ أنَّهُ لمْ يدعُهُ، قالُوا لهُ: «**نَسْتَثْنِيكَ كمَا استثْنَىٰ النَّبيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عائشةَ**».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٤ ـ ٣٨٥.

(٢) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٥/١٠١.

(٣) في (ف): ارجع معنا إلىٰ بيت الشيخ فنخرج.

(٤) أي: لأجل أنك جئت إلىٰ منزلي.

والفرقُ بينَ هذهِ الصُّورةِ وصورةِ عائشةَ واضحٌ؛ وذلكَ أنَّ رجُلًا منَ الصَّحابةِ صنعَ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طعامًا وأتىٰ إليهِ ليدعُوَهُ بالإشارةِ، فأشارَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهِ، «وهذهِ ـ يَعْنِي عَائشةَ ـ فسكتَ الرَّجلُ، ثمَّ أشارَ إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّةً أُخرَىٰ، فأشارَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَىٰ عائشةَ، أيْ: وهذِهِ، فقالَ: نعَمْ»(١)، وهذَا الاستثناءُ بعدَ دعاءِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبلَ إجابتِهِ، ولمْ يُجِبْ حتَّىٰ استثنَىٰ عائشةَ.

وهذِهِ الحكايةُ قدْ أجابُوا بجملتِهِمْ، وإنَّمَا أرادُوا أنْ يستثنُوا قبلَ دخولِ الدَّارِ بعدَ أنْ تقدَّمَتْ إجابتُهُمْ لهُ، ومرادُهُمْ يستثنُوكَ، أيْ: نذكرُكَ عندَ الدُّخولِ، فلمَّا وصلَ الجماعةُ إلىٰ المنزلِ أَعلَمُوا صاحبَ الدَّارِ بالقصَّةِ، وأنَّ أخَاهُمْ هذَا امتنعَ منَ المجيءِ معَهُمْ؛ لكونِكَ لمْ تدعُهُ، وأخبرُوهُ بمَا قالُوا لهُ، ففرحَ صاحبُ المنزلِ بكونِهِ أتاهُ منْ غيرِ دعْوَةٍ أوَّلًا لحسنِ ظنِّهِ بهِ، فقالَ: «**واللهِ لا جلسَ في بيتِي منْ بابِ البيتِ إلىٰ الموضعِ الَّذِي يجلسُ فيهِ إلَّا علىٰ خدِّي**»، ووضعَ صاحبُ الدَّارِ خدَّهُ علىٰ الحصيرِ، وحملَ الرَّجلَ حتَّىٰ صارَتْ رِجلُهُ علىٰ خَدِّهِ، بحيثُ لا يضرُّهُ ثقلُهُ ويمكنُهُ سحبُ وجهِهِ، ولمْ يزَلْ يسحبُ وجهَهُ ورِجْلُ هذا الدَّاخلِ علىٰ خدِّهِ إلىٰ الموضعِ الَّذِي جلسَ فيهِ، ووجهُ [٢/١٥٥أ] فُتُوَّتِهِ كَمَالُ سُرُورِهِ، وتَواضُعِهِ لِفَرحِهِ بإقدامِهِ عليهِ منْ غيرِ دعوةٍ، ولذَا لمَّا سمعَ بعضُهُمْ مَنْ يتكلَّمُ في الأخوَّةِ فقالَ(٢): «هَلْ فيكُمْ مَنْ تطيبُ نفسُهُ أنْ يُدْخِلَ يدَهُ في كُمِّ أخيهِ فيأخذَ مِنْ دَرَاهِمِهِ مَا شاءَ مِنْ غيرِ استئذانٍ؟، قالُوا: لَا، قالَ: فلمْ تكمُلْ أخوَّتُكُم ولا فتوَّتُكُم»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/١٦٠٩ ـ حديث رقم (٢٠٣٧)، بلفظ: «عن ثَابِتٍ عن أَنَسٍ أَنَّ جَارًا لِرَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَارِسِيًّا كان طَيِّبَ المَرَقِ، فَصَنَعَ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ جاءَ يَدْعُوهُ، فقال: وَهَذِهِ لِعَائِشَةَ، فقال: لَا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا، فَعَادَ يَدْعُوهُ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَهَذِهِ، قال: لَا، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا، ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَهَذِهِ، قال: نعم في الثَّالِثَةِ، فَقَامَا يَتَدَافَعَانِ حتى أَتَيَا مَنْزِلَهُ».

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٨٥٥.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٧٧ ـ ٦٧٨.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَاعْلَمْ أَنَّ الفُتُوَّةَ السَّتْرُ عَلَىٰ عُيُوبِ الأَصْدِقَاءِ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ لَهُمْ فِيهِ[٢] شَمَاتَةُ الأَعْدَاءِ.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٣]: كَانَ يُقَالُ لِلنَّصْرَابَاذِيِّ كَثِيرًا: إِنَّ عَلِيًّا القَوَّالَ يَشْرَبُ بِاللَّيْلِ وَيَحْضُرُ مَجْلِسَكَ بِالنَّهَارِ، وَكَانَ لَا يَسْمَعُ فِيهِ مَا يُقَالُ، فَاتَّفَقَ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي يَوْمًا وَمَعَهُ وَاحِدٌ مِمَّنْ كَانَ يَذْكُرُ عَلِيًّا بِذَلِكَ، فَوَجَدَ عَلِيًّا مَطْرُوحًا فِي مَوْضِعٍ وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ السُّكْرِ، وَصَارَ بِحَيْثُ يَغْسِلُ فَمَهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِلَىٰ كَمْ نَقُولُ لِلشَّيْخِ وَلَا يَسْمَعُ؟! هَذَا عَلِيٌّ عَلَى الوَصْفِ الَّذِي نَقُولُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ النَّصْرَابَاذِيُّ وَقَالَ لِلْعَذُولِ: احْمِلْهُ عَلَىٰ رَقَبَتِكَ، وَانْقُلْهُ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ، فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ طَاعَتِهِ فِيهِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وروحُ هذهِ الحكايةِ ما صدَّرَهَا بهِ؛ وهوَ قولُهُ: «ومِنَ الفتوَّةِ سترُ عيوبِ الإخوانِ، ولا سيَّمَا إذَا كانَ فيهِ شماتةُ الشَّيطانِ»، وذلكَ أنَّ عليًّا هذَا كانَ قوَّالًا، وكانَ صوتُهُ حسَنًا، وكانَ يجلسُ عندَ النَّصراباذِيِّ وينشدُ الأبياتَ المتضمِّنَةَ للمحبَّةِ والشَّوقِ، ومَا يجرِي مجراهُ ممَّا تطيبُ بهِ قلوبُ المُريدِينَ، وتنتعشُ أحوالُهُمْ، ومَنْ هذهِ صفتُهُ إنَّمَا ينتفعُ بقولِهِ إذَا كانَ صادقًا متخلِّقًا في نفسِهِ ببعضِ ما يقولُ، فكانَ بعضُ أصحابِ الشَّيخِ مطَّلعًا مِنْ عَلِيٍّ القوَّالِ أنَّهُ يحضرُ في مجالسِ الشَّرابِ باللَّيلِ، ويقولُ لهُمْ وينشدُ عندَهُمْ، ومَا يصلحُ مَنْ هذهِ صفتُهُ أنْ يكونَ عندَنَا ولَا في مجلسِنَا.

وإنَّمَا ذكرَ ذلكَ علَىٰ وجْهِ النُّصحِ لا غِيبةً[٤]، فإنَّ في إبعادِهِ كفَّ ألسنةِ النَّاسِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٥.

(٢) أي: في عدم الستر.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٥.

(٤) قال العروسي: «ذكر ذلك نظرا لظاهر الحال من العدالة، وإلا فلا غيبة في فاسق تجاهر بفسقه=

علىٰ الكلامِ في أهلِ الخيرِ، وأنَّ بواطنَهُمْ تخالفُ ظواهِرَهُمْ، وكانَ الشَّيخُ لا يصدِّقُ ذلكَ فيهِ، ويزجرُ القائلَ حسنَ ظنٍّ منهُ بعليٍّ؛ لمَا يرَىٰ منْ حُسْنِ ظاهرِ حالِهِ، فبينَمَا الشَّيخُ يمشِي يومًا معَ بعضِ تلامذتِهِ ممَّنْ كانَ يذكرُ لهُ عليًّا إذْ رأَىٰ عليًّا مطرُوحًا فِي الطَّرِيقِ، قَدْ غلبَهُ السُّكْرُ، وخرجَ علىٰ فِيهِ بعضُ ما في باطِنِهِ، فقالَ في نفسِهِ [٢/١٥٥ب]: «**كمْ نقولُ للشَّيخِ فِي عليٍّ ولا يسمعُ منَّا ما نقولُ؟**»، ثمَّ قالَ يا سَيِّدِي: «**هذا عليٌّ الَّذِي نقولُ لكَ فيهِ كيتَ وكيتَ**» وأطلَعَهُ علىٰ حالِهِ، فكرِهَ الشَّيخُ ذلكَ، وأرادَ أنْ يبقَىٰ حالُهُ مستورًا عندَهُ، ولا يصلُ إلىٰ هذِهِ المكاشفةِ الَّتِي تسقطُهُ منْ عَينِهِ بالكلِّيَّةِ، وأدَّبَ القائلَ لهُ ذلكَ بأنْ قالَ لهُ: «**احمِلْهُ علىٰ عنقِكَ وأدِّهِ إلىٰ منزِلِهِ**»، معناهُ: أنَّ سَتْرَهُ أفضلُ منْ إظهارِكَ لِي نَقْصَهُ، فإذَا كشفتَهُ لِي فلا تَتْرُكْهُ مَكْشُوفًا لكلِّ النَّاسِ واحملْهُ إلىٰ منزِلِهِ.

فوجْهُ الفتوَّةِ ما أشارَ إليهِ الشَّيخُ النَّصراباذِيُّ مِنْ كونِهِ لمْ يصدِّقْ أوَّلًا، ولمْ يحبَّ أنْ يطَّلِعَ علىٰ ذلكَ آخرًا، ولا سيَّمَا إذا كانَ نقصُهُ دينًا يشمتُ بهِ الشَّيطانُ وأعداؤُهُ منَ الإنسِ منَ الإخوانِ(١).

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ المُرْتَعِشَ يَقُولُ(٣): دَخَلْنَا مَعَ أَبِي حَفْصٍ عَلَىٰ مَرِيضٍ نَعُودُهُ وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ، فَقَالَ لِلْمَرِيضِ: أَتُحِبُّ أَنْ تَبرَأَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: تَحَمَّلُوا عَنْهُ، فَقَامَ العَلِيلُ وَخَرَجَ مَعَنَا، وَأَصْبَحْنَا كُلُّنَا أَصْحَابَ فُرُشٍ نُعَادُ**».

= في ذكر ما فسق به» نتائج الأفكار ٣/٣٠٨.

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٧٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٥.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٠٤، والمختار من مناقب الأبرار ٢/٤٨٥، وطبقات الأولياء ص٢٥١.

❊ **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذهِ الحكايةُ ينبغِي أنْ يُتفطَّنَ لهَا، وذلكَ أنَّ الأولياءَ إذا دَعَوا اللهَ ـ تعالىٰ ـ استجابَ دعاءَهُمْ، ويدلُّ على ذلكَ الخبرُ الصَّحيحُ، وقولُهُ[(١)]: «مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»، وفِي آخرِهِ: «لَئِنْ دَعَانِي لَأُجِيبَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ».. الحديث، فلمَّا دخلَ هؤلاءِ علىٰ هذَا العليلِ منْ أصحابِهِمْ، ورأَوا مَا بِهِ منَ الألمِ، فسألُوهُ: «**هَلْ تحبُّ أنْ تُعافَىٰ؟**»، أوْ يبقَىٰ ممَّا هوَ فيهِ منَ الألمِ الَّذِي اختارَهُ لهُ الحقُّ، فاختارَ العافيةَ، فقالَ لأصحابِهِ: «**تحمَّلُوا عنهُ**»؛ ادعُوا اللهَ أنْ يعافيَهُ، وإنَّمَا يبقَىٰ فيهِ كونُهُمْ تحمَّلُوا عنهُ، أي: اقتسمُوا ما هوَ منَ الألمِ، ودعَوُا اللهَ فيهِ ففعلَ، فخرجَ الرَّجلُ معَهُمْ يمشِي، وأصبحُوا كلُّهُمْ مرضَىٰ، فعادُوا علىٰ فُرُشِهِمْ ووظيفتُهُمُ الدُّعاءُ لا غيرَ، واللهُ يفعلُ ما يشاءُ.

وقدْ أتىٰ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلٌ أَعْمَىٰ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أنْ يردَّ عليَّ بصرِي، قالَ[(٢)]: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، فاختارَ الدُّعاءَ، فأمرَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يصلِّي ويدعوَ ويتشفَّعَ بالنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فردَّ اللهُ بصرَهُ.

ففِي هذَا استنادٌ إلىٰ جَوازِ تخييرِهِمْ فِي المرضِ في الصَّبْرِ علىٰ ما هوَ عليهِ [١٥٦/٢أ]، أوِ الدُّعاءِ للمَرْءِ، وقَدْ ذكرَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بعضِ الأيَّامِ ما فِي الحُمَّىٰ منَ الأجرِ عندَ اللهِ[(٣)]، فدعَا بعضُ الصَّحابةِ اللهَ أنْ يرزقَهُ حتَّىٰ لا يمنعَهُ مِنْ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في مسند ١٣٨/٤ بلفظ: «عن عُثْمَانَ بن حُنَيْفٍ ان رَجُلاً ضَرِيرَ الْبَصَرِ أتىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ادْعُ اللهَ أن يعافيني، قال: إن شِئْتَ دَعَوْتُ لك، وإن شِئْتَ أَخَّرْتُ ذَاكَ فَهُوَ خَيْرٌ، فقال: ادْعُهُ، فَأَمَرَهُ أن يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ، فيصلي رَكْعَتَيْنِ، وَيَدْعُوَ بهذا الدُّعَاءِ: اللهم اني أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نبي الرَّحْمَةِ، يا محمد إني تَوَجَّهْتُ بِكَ إلىٰ ربي في حاجتي هذه فَتُقْضَىٰ لي اللهم شَفِّعْهُ فِيَّ»، والطبراني في الدعوات الكبير ١٥١/١.

(٣) ففي صحيح مسلم ١٩٩٣/٤ ـ حديث رقم (٢٥٧٥): «حدثنا جَابِرُ بن عبد اللهِ أَنَّ=

طاعتِهِ، فاستُجِيبَ لهُ في ذلكَ.

= رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل على أُمِّ السَّائِبِ، أو أُمِّ المُسَيَّبِ فقال مالك يا أُمَّ السَّائِبِ، أو يا أُمَّ الْمُسَيَّبِ: تُزَفْزِفِينَ، قالت: الحُمَّى لَا بَارَكَ الله فيها، فقال: لَا تسبي الحُمَّى؛ فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خطَايَا بَنِي آدَمَ، كما يُذْهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«بَابُ الفِرَاسَةِ

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، قِيلَ: لِلْمُتَفَرِّسِينَ[(٢)].

أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الحَسَنِ الرَّازِي قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ السَّكَنِ قَالَ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ دَاوُدَ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ الكُوفِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ قَيْسٍ، عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)]: اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ[(٤)]، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وإذا كانَ التَّفرُّسُ هوَ التَّوسُّمَ[(٥)]، فالوَسْمُ هوَ[(٦)] العَلامةُ، والعلامةُ قدْ تكونُ عاديَّةً يعرفُها كثيرٌ منَ النَّاسِ[(٧)]، كمَا يتوسَّمُ أصحابُ أرباعٍ وغيرُهُمْ منْ أربابِ السُّلطانِ أهلَ الجنايةِ بقرائنِ أحوالٍ تظهرُ عليهِمْ.

وقدْ تكونُ العلامةُ قضيَّةً موهبيَّةً[(٨)]، يخلقُهَا اللهُ في قلبِ العبدِ يدلُّهُ على حالِ غيرِهِ، قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٩)]: «إنَّهُ قدْ كانَ في الأُممِ قبلَكُمْ محدَّثُونَ، وإنْ يكُنْ فِي

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٦.
(٢) قول مجاهد في: تفسيره ١/٣٤٢، وتفسير الطبري ١٤/٤٥، ومعاني النحاس ٤/٣٥.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٢٩٨، والطبراني في المعجم الكبير ٨/١٠٢.
(٤) أي: احذروها.
(٥) من السِّمَة.
(٦) أي: تعرف بقرائن الأحوال، كما سيذكر.
(٧) من السِّمَة.
(٨) أي: موهبة إلهامية.
(٩) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٨٦٤ ـ حديث رقم (٢٣٩٨).

أمَّتِي منهُمْ: فعمرُ بنْ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»؛ ولذلِكَ قالَ: (يا ساريةُ، الجبلَ)(١)، ووافقَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ في حجبِ أزواجِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢)، وقتلِ أسارىٰ بدرٍ(٣)، وتركِ الصَّلاةِ علىٰ المنافِقِينَ(٤)، كلُّ ذلكَ منَ الإلهامِ الصَّحيحِ(٥).

وقدْ قالَ شيخُ الإسلامِ عبدُ اللهِ بنُ محمَّدٍ الأنصاريُّ الهرويُّ(٦): «التَّوسُّمُ: التَّفرُّسُ، وهوَ استئناسُ حُكمِ غيبٍ منْ غيرِ استدلالٍ بشاهدٍ ولَا إخبارٍ بتجربةٍ».

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّهُ إلهامٌ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لمْ يستندْ إلىٰ أمارةٍ علىٰ مَنْ تفرَّسَ فيهِ، ولا غارةٍ جاريةٍ، بَلْ إلهامٌ يقعُ في قلبِ العَبْدِ يصدقُ مدلولهُ مُقَارنًا لمَا يلحظُهُ العبدُ علىٰ مَنْ تفرَّسَ فيهِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٧): **«الفِرَاسَةُ: خَاطِرٌ يَهْجِمُ عَلَىٰ القَلْبِ فَيَنْفِي مَا يُضَادُّهُ(٨)، وَلَهُ عَلَىٰ القَلْبِ حُكْمٌ، اِشْتِقَاقًا(٩) مِنْ فَرِيسَةِ السَّبُعِ(١٠)، وَلَيْسَ فِي مُقَابَلَةِ**

---

(١) عندما نادىٰ وهو علىٰ منبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة سارية بن زنيم بن عمرو الأسدي وكان أميرًا في بعض حروب الفرس، والقصد: الزم الجبل. انظر: تاريخ دمشق ٢٠/٢٠، وأسد الغابة ٣٦٤/٢، والإصابة في تمييز الصحابة ٦/٣.

(٢) حيث أنزل المولىٰ عَزَّ وَجَلَّ قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

(٣) حيث أنزل المولىٰ عَزَّ وَجَلَّ قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

(٤) أي: في الصلاة علىٰ عبد الله بن أُبي، حيث أنزل المولىٰ عَزَّ وَجَلَّ قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

(٥) تأمل تفصيل ذلك في: شرح قطف الثمر في موافقات عمر للسيوطي، ونظم اللآلي والدرر في موافقات سيدنا عمر للكتاني.

(٦) منازل السائرين ص٨٠.

(٧) الرسالة القشيرية ٣٨٦/٢.

(٨) من شك وظن ووهم.

(٩) في (ف): اشتقاقه.

(١٠) يقال: فرس الأسد فريسته؛ إذا دق عنقها.

الفِرَاسَةِ مُجَوِّزَاتٌ لِلنَّفْسِ.

وَهِيَ عَلَىٰ حَسَبِ قُوَّةِ الإِيمَانِ[(١)]، فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَقْوَىٰ إِيْمَانًا كَانَ أَحَدَّ فِرَاسَةً».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: و«قوَّةُ الإيمانِ» لا تخلُو: إمَّا أنْ ترجعَ إلىٰ صحَّتِهِ في نفسِهِ؛ وهوَ أنْ يؤمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ والقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ، فمتىٰ [١٥٦/٢ب] اختلَّ علىٰ العبدِ ركنٌ منْ هذهِ الأركانِ كانَ مِمَّا..[(٢)] أو يُمْلَكُ، مَتَىٰ اختلَّ شيءٌ منهَا لا يكونُ إيمانًا، والصَّحيحُ إنِ اختلَّ عليهِ ما اختلفَ في تكفيرِ الصَّائرِ إليهِ كانَ إيمانُهُ ناقصًا وضعيفًا، وما لمْ يختلفْ في تكفيرِ قائلِهِ ذهبَ إيمانُهُ كلُّهُ؛ لأنَّ بعضَهُ مشروطٌ بالبعضِ.

والوجْهُ الثَّانِي: أنْ يُرْجعَ قوَّةَ الإيمانِ معَ صحَّتِهِ إلىٰ تواليهِ علىٰ القلبِ، وكثرةِ ذِكْرِهِ لهُ، وغلبتِهِ علىٰ القلبِ حتَّىٰ يصيرَ حالُهُ كمَا قالَ حارثةُ لمَّا سألَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيفَ أصبحَ؟ فقالَ: أصبحتُ مؤمنًا حقًّا، فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)]: «إنَّ لكلِّ حقٍّ حقيقةً، فمَا حقيقةُ إيمانِكَ؟» فذكرَ لهُ صغرَ الدُّنيَا في عينِهِ، وغلبةَ ذِكْرِ الجنَّةِ والنَّارِ والحسابِ والعرشِ علىٰ قلبِهِ، فصدَّقَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسمَّاهُ عارِفًا.

فإذا وصلَ العبدُ المؤمنُ إلىٰ هذهِ الأحوالِ كانَ إيمانُهُ قويًّا، وهذا القلبُ الَّذِي غلبَ عليهِ ذِكْرُ الحقِّ وأَمْرُهُ ونَهْيُهُ ووعدُهُ ووعيدُهُ هوَ القلبُ الَّذِي تسنحُ فيهِ الخواطرُ الصَّحيحةُ، المعبَّرُ عنهَا بالفِراسةِ تارةً، وبالإلهامِ، وبالمُكَاشفةِ[(٤)].

---

(١) قال العروسي: «قوة الإيمان بسبب كثرة طوارق علوم الأدلة العقلية والنقلية علىٰ القلب والتأمل فيها» نتائج الأفكار ٣/٣١٠.

(٢) موضع كلمة طمست في (أ)، ولعلها: يُوهبُ، أو: يُكسبُ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أي: تارة أخرىٰ، وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٨٠.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخَرَّازُ[٢]: مَنْ نَظَرَ بِنُورِ الفِرَاسَةِ نَظَرَ بِنُورِ الحَقِّ، وَتَكُونُ مَوَادُّ عِلْمِهِ مِنَ الحَقِّ بِلَا سَهْوٍ وَلَا غَفْلَةٍ، بَلْ بِحُكْمِ حَقٍّ جَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ عَبْدٍ.

وَقَوْلُهُ: نَظَرَ بِنُورِ الحَقِّ، يَعْنِي: بِنُورٍ خَصَّهُ بِهِ الحَقُّ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «مَنْ نظرَ بنورِ الفراسةِ نظرَ بنورِ الحقِّ»، يعني: أنَّ الحقَّ ـ وهوَ اللهُ تعالَىٰ ـ خصَّهُ بهذا النُّورِ بغيرِ واسطةٍ، بَلْ أنشأَهُ في قلبِهِ بغيرِ كَسْبٍ منهُ، وإلَّا فنورُ العقلِ هوَ نورُ اللهِ، وكذلِكَ نورُ الشَّرعِ هوَ نورُ الحقِّ، وهوَ اللهُ[٣].

وإنَّمَا أضافَهُ للحقِّ لكونِهِ خصَّ بهِ هذَا العبدَ وخلَقَهُ لهُ بلا واسطةٍ، وهذَا النُّورُ الَّذِي هوَ الفِرَاسَةُ الصَّحيحةُ حقُّهُ أَلَّا يَرِدَ فيمَا يدلُّ الشَّرعُ علىٰ خلافِهِ، ولا يكشفَ ما أمرَ الشَّرعُ بِسَتْرِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ الوَاسِطِيُّ[٥]: إِنَّ الفِرَاسَةَ سَوَاطِعُ أَنْوَارٍ[٦] لَمعَتْ[٧] فِي القُلُوبِ، وَتَمْكِينُ مَعْرِفَةٍ[٨] حَمَلَتِ السَّرَائِرَ فِي الغُيُوبِ؛ مِنْ غَيْبٍ إِلَىٰ غَيْبٍ، حَتَّىٰ يَشْهَدَ الأَشْيَاءَ مِنْ حَيْثُ أَشْهَدَهُ الحَقُّ إِيَّاهَا، فَيَتَكَلَّمَ عَنْ ضَمِيرِ الخَلْقِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الأنوارُ كُلُّهَا مَعَارِفُ، فَمَتَىٰ أُطلقَتِ الأَنْوارُ دلَّ علىٰ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٦.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٨١، ومدارج السالكين ٢/٤٨٤.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٨٠.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٦.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٥٨٦.

(٦) أي: أنوار ساطعة، فهو من إضافة الصفة إلىٰ الموصوف.

(٧) أي: أضاءت تلك الأنوار بواسطة زيادة التمكين في العلم.

(٨) أي: معرفة متمكنة.

العلومِ، والمَعَارفُ [٢/١٥٧أ] منهَا مكتسبٌ، ومنها بَدِيهِيٌّ، ومنهَا موهبةٌ، ومتَى استقامَ العبدُ في قلبِهِ وسرائِرِهِ بأنوارِ الشَّريعةِ، ووهبَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عِلْمَ ما لَمْ يعلَمْ غيرُهُ، وأطلَعَهُ علَىٰ المُغَيَّبَاتِ ممَّا في سَرَائرِ الخَلْقِ بأماراتٍ يخصُّهُ بهَا يسمَّىٰ فِرَاسَةً، ولذلِكَ يَعْسُرُ التَّعبيرُ عَنْ عينِهَا بغيرِ الأنْوارِ تقريبًا.

❁ **قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَيُحكَىٰ عَنْ أَبِي الحَسَنِ الدَّيْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ[٢]: دَخَلْتُ (أَنْطَاكِيَّةَ) لِأَجلِ أَسْوَدَ قِيلَ لِي: إِنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَلَىٰ الأَسْرَارِ، فَأَقَمْتُ إِلَىٰ أَنْ خَرَجَ مِنْ (جَبَلِ لُكَامٍ)[٣] وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنَ المُبَاحِ يَبِيعُهُ، وَكُنْتُ جَائِعًا مُنْذُ يَوْمَيْنِ لَمْ آكُلْ شَيْئًا، فَقُلْتُ لَهُ: بِكَمْ هَذَا؟ وَأوهمْتُ أَنِّي أَشْتَرِي مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اُقْعُدْ ثَمَّ، حَتَّىٰ إِذَا بِعْنَاهُ نُعْطِيكَ مَا تَشْتَرِي بِهِ شَيْئًا، فَتَرَكْتُهُ وَسِرْتُ إِلَىٰ غَيْرِهِ أُوهِمُهُ أَنِّي أُسَاوِمُهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَيْهِ، وَقُلْتُ: إِنْ كُنْتَ تَبِيعُ هَذَا فَقُلْ لِي بِكَمْ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا جُعْتَ يَوْمَينِ، اُقْعُدْ حَتَّىٰ إِذَا بِعْنَاهُ نُعْطِيكَ مَا تَشْتَرِي بِهِ شَيْئًا، فَقَعَدْتُ، فَلَمَّا بَاعَهُ أَعْطَانِي شَيْئًا وَمَشَىٰ، فَتبِعْتُهُ فَالْتَفتَ إِلَيَّ وَقَالَ: إِذَا عَرَضَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَأَنْزِلْهَا بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِكَ فِيهَا حَظٌّ فَتُحْجَبَ عَنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ دالَّةٌ علىٰ وقُوعِ الفِراسةِ؛ وهيَ الاطِّلاعُ علىٰ ما فِي ضَمَائرِ النَّاسِ، وذلكَ أنَّ أبَا الحسَنِ الدَّيلَمِيَّ كانَ لهُ مقصودٌ في الاطِّلاعِ علىٰ أربابِ الفِرَاسةِ ومعرفةِ ذلكَ بنفسِهِ، فبلغَهُ أنَّ بعضَ الصَّالحِينَ بـ(أنطاكيةَ) حازَ الفِرَاسةَ، فسافرَ إلىٰ تلكَ الجهةِ وانتظرَهُ أيَّامًا إلىٰ أنْ خرجَ من (جبلِ لُكَام) ومعَهُ شيءٌ منَ المُباحِ يبيعُهُ، فتركَهُ حتَّىٰ جلسَ بهِ في موضعٍ يبيعُهُ فيهِ، قالَ: «**وكنتُ جائعًا لِي يومَانِ لمْ آكلْ شيئًا**»، فأتيتُهُ بأنْ أمتحنَهُ في صورةِ مَنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٢) ورد قوله في: بغية الطلب ١٠/٤٤٠٨.

(٣) جبل بالشام، كما سبق.

يشترِي منهُ ما بينَ يدَيهِ، فقلتُ: «**بكَمْ تبيعُ هذَا؟ فقالَ لِي: إذا بعنَاهُ نُعطيكَ منهُ شيئًا**»، فدلَّنِي ذلكَ علىٰ فِرَاستِهِ علَىٰ ما في نفسِي، فمضيتُ إلىٰ شخصٍ آخرَ نساومُهُ كأنِّي ما فهمْتُ ما قالَ، ودرتُ ساعةً ثمَّ عدتُ إليهِ، وقلتُ: «**إنْ كنتَ تبيعُهُ فبكَمْ؟**»، **فقالَ لي: إنَّمَا جُعْتَ يومينِ مُرْ اجلسْ ثَمَّ**»، وأشارَ إلىٰ موضعٍ، «**فإذَا بعنَاهُ أعطيناكَ منهُ شيئًا**» فزادَنِي ذلكَ بيانًا لصحَّةِ [١٥٧/٢ب] فِرَاستِهِ، فجلستُ حيثُ أشارَ، «**فلمَّا باعَهُ أعطانِي منهُ شيئًا**» ومشَىٰ، فَمَشَيْتُ خَلْفَهُ لأنتفعَ بكلامِهِ ومَوعظتِهِ، «**فالتفتَ إليَّ، وقالَ لِي: إذَا نزلتْ بكَ نَازِلَةٌ فَأوقِعْهَا باللهِ وحدَهُ**»، فكانَتْ أبلغَ موعظةٍ، وأحسنَ إرشادٍ.

وقولُهُ: «**إلَّا أنْ يكونَ لنفسِكَ فيهَا حظٌّ فيحجبُكَ عنْ مَا سألتَ التفاتُكَ لِحَظِ نفسِكَ**»، ويعنِي بالحظِّ: التفاتَهُ لنفسِهِ، والتَّسبُّبَ فيمَا طلبَهُ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فيكونُ هذا القدرُ شَوبًا في صحَّةِ إنزالِهِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ، ولَو كانَ الشَّخصُ محتاجًا لحاجةٍ في نفسِهِ ممَّا يكونُ بهَا صلاحُهُ في دُنياهُ وأنزلَهَا باللهِ ـ تعالىٰ ـ صادقًا لمْ يضرَّهُ ذلكَ في صحَّةِ قَصْدِهِ؛ لأنَّهُ أفردَ الحقَّ وحدَهُ، وإنَّمَا يضرُّهُ التفاتُهُ إلىٰ آثارِ نفسِهِ وسُكُونُهُ لِكَسْبِهَا.

وقدْ رُوِيَ أنَّ موسىٰ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ قالَ في مناجاتِهِ للهِ ـ تعالىٰ ـ[١]: «يا ربِّ، تكونُ لي الحاجةُ اليسيرةُ فأستحْيِي أنْ أطلبَهَا منكَ، فأوحَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إليهِ: سلْنِي حتَّىٰ ملحَ عجينِكَ، وعلفَ دابَّتِكَ».

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الكتَّانِيَّ يَقُولُ**[٣]: **الفِرَاسَةُ: مُكَاشَفَةُ اليَقِينِ**،

---

(١) الرسالة القشيرية ٣٨٧/٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ورد قوله بلا نسبة في: التعريفات ص٢١٢، ومعجم مقاليد العلوم ص٢٢١.

وَمُعَايَنَةُ الغَيْبِ، وَهُوَ مِنْ مَقَامَاتِ الإِيمَانِ[١]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «مِنْ مكاشفةِ اليقينِ»، يعنِي: أنَّهَا ليسَتْ بِظَنٍّ ولا تَخْمِينٍ، وإنَّمَا هوَ عِلْمٌ موهبِيٌّ، وقَدْ قَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]: «اتَّقُوا فَرَاسَةَ المُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»، فخصَّهَا بالمؤمنينَ، فلذلِكَ كانَتْ مِنْ ثَمَرَاتِ الإيمانِ الصَّحيحِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ[٤]: كَانَ الشَّافِعِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ: أَتَفَرَّسُ أَنَّهُ نَجَّارٌ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَفَرَّسُ أَنَّهُ حَدَّادٌ، فَسَأَلَاهُ، فَقَالَ: كُنْتُ قَبلَ هَذَا حَدَّادًا، وَأَنَا السَّاعَةَ أُنجِّرُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الفراسةُ ليسَتْ ممَّا ذكرْنَاهُ، ويظهرُ أنَّهَا مرتبطةٌ بالعاداتِ وقرائِنِ الأَحْوالِ المعهودةِ منْ أربابِ الصَّنائعِ وحركَاتِهِمْ وتَصرُّفاتِهِمْ، فتكونُ فائدةُ إدخالِهَا في الفِراسةِ صِحَّةَ ما وقعَ لهُمَا جميعًا؛ رأى أحدُهُمَا عليهِ أمارةً تدلُّ على كونِهِ حدَّادًا، وهذا لا يتمحَّضُ بالعاداتِ، ولابدَّ فيهِ منْ إشراقٍ ونورٍ، وعوائدُ النَّاسِ مختلفةٌ، وإنْ كانُوا حَدَّادينَ، وكلاهُمَا [١٥٨/٢أ] إلهامٌ صحيحٌ أخبرَ بهِ عن نَفْسِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخَرَّازُ: المُسْتَنْبِطُ: مَنْ يُلَاحِظُ الغَيْبَ أَبدًا، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

---

(١) لأنها تنشأ عن قوته كما سبق.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٧.

(٤) ورد نحوه في: مناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٣٠.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٧.

يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وَالمُتَوَسِّمُ: هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ الوَسْمَ، وَهُوَ العَارِفُ بِمَا فِي سُوَيْدَاءِ القُلُوبِ بِالاسْتِدْلَالِ وَالعَلَامَاتِ، قَالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]؛ أَيْ: لِلْعَارِفِينَ بِالعَلَامَاتِ الَّتِي يُبْدِيهَا(١) عَلَىٰ الفَرِيقَيْنِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ.

وَالمُتَفَرِّسُ: يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وَذَلِكَ سَوَاطِعُ أَنْوَارٍ لَمعَتْ فِي قَلْبِهِ، فَأَدْرَكَ بِهَا المَعَانِي، وَهُوَ مِنْ خَوَاصِّ الإِيمَانِ.

وَالَّذِينَ هُمْ أَكْبَرُ مِنْهُ(٢) حَظًّا: الرَّبَّانِيُّونَ؛ الَّذِين قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِيهِمْ: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، يَعْنِي: عُلَمَاءَ حُكَمَاءَ، مُتَخَلِّقِينَ بِأَخْلَاقِ الحَقِّ نَظَرًا وَخُلُقًا، وَهُمْ فَارِغُونَ عَنِ الأَخْبَارِ عَنِ الخَلْقِ وَالنَّظَرِ إِلَيْهِم وَالاشْتِغَالِ بِهِم».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قدْ تكرَّرَ مِرارًا أنَّ التَّفرُّسَ: هوَ التَّوسُّمُ، والسِّمَةُ: هيَ العلامةُ الَّتِي يعرفُ المُتوسِّمُ بهَا ما غابَ عن غيرِهِ، وقدْ يخلُقُهَا اللهُ ـ سبحانه ـ قائمةً بالعبدِ، وقدْ يطلعُهُ عليهَا في غيرِهِ، كتعلُّقِ العلمِ بالمَعْلُومِ، وهيَ من بابِ الخواطِرِ الصَّائبةِ، والإلهامِ الصَّحيحِ الَّذِي لا يصحُّ كَذِبُهُ.

وقولُهُ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ ليسَ هذَا تفسيرًا للآيةِ، وإنَّما ذكرَهُ علىٰ وجْهِ الاستئناسِ بأنَّهُ ممَّا يختصُّ بعلمِهِ.

و(الرَّبَّانِيُّ): منسوبٌ إلىٰ الاشتغالِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وجلالِهِ وجَمَالِهِ، والعبوديَّةِ لهُ، والتَّبرِّي منْ كلِّ إضافةٍ لغيرِهِ(٣)، فهذَا هوَ المنعوتُ بالرَّبَّانِيِّ، وهوَ أجلُّ

---

(١) أي: يظهرها الله.

(٢) في (ف): والدين هم أكثر منه.

(٣) وهم الذين قال المولىٰ عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

المُتَفَرِّسينَ ؛ لأنَّ الفِرَاسةَ إذا كانَتْ للمؤمِنينَ خاصَّةً ومَنْ هوَ في أعلَىٰ مقاماتِ الإيمانِ، وهوَ مقامُ التَّوحيدِ تكونُ فِرَاسَتُهُ أحدَّ وأثبتَ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقِيلَ[2]: كَانَ أَبُو القَاسِمِ المُنَادِي مَرِيضًا، وَكَانَ كَبِيرَ الشَّأْنِ مِنْ مَشَايِخِ (نَيْسَابُورَ)، فَعَادَهُ أَبُو الحَسَنِ البُوشَنْجِيُّ وَالحَسَنُ الحَدَّادُ، وَاشْتَرَيَا بِنِصْفِ دِرْهَمٍ تُفَّاحًا فِي الطَّرِيقِ بِنَسِيئَةٍ، وَحَمَلَاهُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا قَعَدَا قَالَ أَبُو القَاسِمِ: مَا هَذِهِ الظُّلْمَةُ؟ فَخَرَجَا وَقَالَا: أيش فَعَلْنَا؟! فَتَفَكَّرَا وَقَالَا: لَعَلَّنَا لَمْ نُؤَدِّ ثَمَنَ التُّفَّاحِ، فَأَعْطَيَاهُ الثَّمَنَ وَعَادَا إِلَيْهِ، فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْهِمَا فَقَالَ: يُمْكِنُ الإِنْسَانُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الظُّلْمَةِ** [١٥٨/٢ب] **بِهَذِهِ السُّرْعَةِ؟! أَخْبِرَانِي عَنْ شَأْنِكُمَا؟ فَذَكَرَا لَهُ القِصَّةَ، فَقَالَ: نَعَمْ، وَاعْتَمَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا عَلَىٰ صَاحِبِهِ فِي إِعْطَاءِ الثَّمَنِ، وَالرَّجُلُ يَسْتَحْيِي مِنكُمَا فِي التَّقَاضِي، فَكَانَتْ تَبْقَىٰ التَّبِعَةُ، وَأَنَا السَّبَبُ، فَرَأَيْتُ ذَلِكَ فِيكُمَا**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ تدلُّ علىٰ فِراسةِ أبي القَاسِمِ المُنَادِي ومُكَاشَفتِهِ، فإنَّ البوشنجيَّ والحدَّادَ لمَّا زاراهُ وهوَ مريضٌ أحبَّا أنْ يدخلَا عليهِ بشيءٍ يجدُ المريضُ لهُ راحةً، فاشترَيَا تفَّاحًا بنسيئةٍ، فلمَّا دخلَا علىٰ المريضِ وأظهرَا لهُ ما جاءَا بهِ وجدَ عليهِمَا ظُلْمَةً، فقالَ: «**ما هذهِ الظُّلمةُ الَّتِي أرىٰ؟**»، فلمَّا خرجَا مِن عندهِ فكَّرَا في القصَّةِ فوجدَا ذلكَ بسببِ التُّفَّاحِ الَّذِي أخذَاهُ نسيئةً، فقضيَا الثَّمنَ لربِّهِ[3]، ثمَّ رجعَا إليهِ عن قريبٍ، فلمَّا رآهُمَا لم يَرَ عليهِمَا تلكَ الظُّلمةَ فقالَ: «**هذا عَجَبٌ، يخرجُ الإنسانُ منَ الظُّلمةِ بهذهِ السُّرعةِ، أخبِرَاني عن شأنِكُمَا**»، فأخبَرَاهُ بكيفيَّةِ شراءِ التُّفَّاحِ بالنَّسيئةِ وكيفيَّةِ القضاءِ، فقالَ نعَمْ: «**كانَ كلُّ واحدٍ منكُمَا يتَّكِلُ**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٧ ـ ٣٨٨.

(٢) ورد في: الروح لابن القيم ص٢٣٩.

(٣) أي: لصاحبه.

في القضاءِ علىٰ صاحِبِهِ، فيتأخَّرُ قضاءُ ربِّ الحقِّ فيتضرَّرُ، وكنتُ أنا السَّببَ في شرائِكُمَا منهُ»، فأَرَانِي اللهُ ذلكَ عليكُمَا.

وفي هذهِ الحكايةِ فضيلةُ الجميعِ، فإنَّهُ كوشِفَ بهِمَا، وهمَا أيضًا تفطَّنَا لوجهِ الظُّلمةِ ثمَّ تخلَّصَا منهَا، ولا يكونُ ذلكَ إلَّا لقلَّةِ خطئِهِمَا وكمالِ تثبُّتِهِمَا، وأنَّهُمَا لم يعرفَا شيئًا يحتملُ ذلكَ سِوَىٰ ما فَعَلاهُ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «وَكَانَ أَبُو القَاسِمِ المُنَادِي: هَذَا يَدْخُلُ السُّوقَ كُلَّ يَوْمٍ يُنَادِي[2]، فَإِذَا وَقَعَ بِيَدِهِ مَا فِيهِ كِفَايَتُهُ مِنْ دَانِقٍ إِلَىٰ نِصْفِ دِرْهَمٍ، خَرَجَ وَعَادَ إِلَىٰ رَأْسِ وَقْتِهِ وَمُرَاعَاةِ قَلْبِهِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وفي هذهِ الحكايةِ تنبيهٌ علىٰ أنَّ هذهِ الأحوالَ الشَّريفةَ والمُكاشَفَاتِ لا يَنالُهَا إلَّا الزُّهَّادُ المُعرِضُونَ عنِ الدُّنيا، المُشْتَغِلُونَ بِقُلُوبِهِمْ ومُراعَاتِهَا معَ اللهِ، ولذلكَ كانَ هذَا أبو القاسمِ يدخلُ السُّوقَ لينادِي علَىٰ ما يسَّرَهُ اللهُ لهُ، فمتَىٰ حصلَ بيدِهِ دانقٌ ذهبًا أَوْ نصفُ درهمٍ فضَّةً اكتفَىٰ بذلكَ ورجعَ إلىٰ مذهبِهِ، وابتدَأَهُ بمراعاةِ وقتِهِ وقلبِهِ.

فدلَّ علىٰ أنَّ مُراعَاةَ قَلْبِهِ وحفظَ وقتِهِ أهمُّ أمورِهِ إنَّمَا كانَ [١٥٩/٢أ] يرجعُ إلىٰ كَسْبٍ لدفعِ ضَرُورَتِهِ ويأخذُهُ منْ أَحَلِّ مَا يقدرُ عليهِ، فإنَّ أحلَّ ما أكلَ المرءُ مِن كَسْبِهِ[3].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٨.

(٢) أي: يدلل علىٰ الأمتعة.

(٣) كما في المعجم الكبير ٢٠/٢٦٨: «سمعت رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ما أَكَلَ أَحَدٌ من بني آدمَ طَعَامًا هو خَيْرٌ له من أَنْ يَأْكُلَ من عَمَلِ يَدَيْهِ، قال نَبِيُّ اللهِ: وكان دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَأْكُلُ من عَمَلِ يَدَيْهِ». وقد أفاد الشيخ زكريا ذلك في: إحكام الدلالة ٢/٦٨٣.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ الحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورٍ[(٢)]: الحَقُّ إِذَا اسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ سِرٍّ[(٣)] مَلَّكَهُ الأَسْرَارَ، فَيُعَايِنُهَا وَيُخْبِرُ عَنْهَا».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا راجعٌ إلىٰ ما قرَّرْنَاهُ مِنْ أنَّ العبدَ لا ينالُ هذهِ الأحوالَ الشَّريفةَ إلَّا إذا تفرَّغَ مِنْ كلِّ مُشْكلٍ، واشتغلَ باللهِ كمالَ الاشتغالِ، حتَّىٰ صارَ ذلكَ هوَ الغالبَ علىٰ قلبِهِ، وملكَ قلبَهُ فملَّكَهُ اللهُ الاطِّلاعَ علىٰ ما في قلوبِ النَّاسِ، فيصيرُ مملوكًا مالِكًا[(٤)]، وهوَ المُتَفرِّسُ والمُكَاشِفُ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: «وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنِ الفِرَاسَةِ فَقَالَ[(٦)]: أَرْوَاحٌ تَتَقَلَّبُ فِي المَلَكُوتِ[(٧)]، وَتُشْرِفُ عَلَىٰ مَعَانِي الغُيُوبِ، وَتَنْطِقُ عَنْ أَسْرَارِ الخَلْقِ نُطْقَ مُشَاهَدَةٍ، لَا نُطْقَ ظَنٍّ وَحُسْبَانٍ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «أرواحٌ تتقلَّبُ في الملكوتِ»، يعني: أرواح بنِي آدمَ، أيْ: لا شغلَ لأربابِهَا إلَّا النَّظرُ فِي كمالِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وجلالِهِ، والنَّظرُ فيمَا أمرَ بهِ ومراقبتُهُ في سائِرِ أحوالِهِمْ، فإذَا كانَتِ الأرواحُ كذلكَ ـ وقدْ تُطْلَقُ الأرواحُ ويُرادُ بهَا القلوبُ ـ أطلعَهَا الحقُّ مِنْ غيبِهِ علىٰ ما لمْ يُطْلِعْ عليهِ غيرَهَا من خَلْقِهِ.

خصَّهَا ـ تعالىٰ ـ بذلكَ؛ لكمالِ شُغْلِهَا بهِ، وانقطاعِ هِمَمِهَا عَنْ غَيْرِهِ[(٨)]، ففسَّرَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٨.

(٢) أي: الحلاج، وورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٧٠٠، والمحاسن الغالية ص٢٨١.

(٣) أي: قلب.

(٤) أما كونه مملوكًا فلتحقق عبوديته، وأما كونه مالكا فللأسرار.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٨.

(٦) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٤٨٤، والمحاسن الغالية ص٥٥.

(٧) الذي هو عالم الغيب.

(٨) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٨٣.

الفِرَاسَةَ بأنَّهَا مَواهِبُ مِنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لِمَنْ هذهِ صِفَتُهُ مِنَ العِبَادِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ: كَانَ بَيْنَ زَكَرِيَّا الشَّخْتَنِيِّ وَبَيْنَ امْرَأَةٍ سَبَبٌ قَبْلَ تَوْبَتِهِ، فَكَانَ يَوْمًا وَاقِفًا عَلَىٰ رَأْسِ أَبِي عُثْمَانَ الحِيرِيِّ بَعْدَ مَا صَارَ مِنْ خَوَاصِّ تَلَامِذَتِهِ، فَتَفَكَّرَ فِي شَأْنِهَا، فَرَفَعَ أَبُو عُثْمَانَ رَأْسَهُ إِلَيهِ، وَقَالَ: أَمَا تَسْتَحِي ؟!».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ أبَا عثمانَ اطَّلَعَ علىٰ ما كانَ فيهِ تلميذُهُ منَ الفِكرةِ فيمَا كانَ تابَ عنهُ، وقدِ استقامَتْ أحوالُهُ، فلَا يليقُ بهِ أنْ يذكرَ ما كانَ فيهِ مستحسِنًا لهُ أوْ متلذِّذًا بهِ، بلْ كمالُ تَوبتِهِ إذا خطرَ لهُ ما كانَ فيهِ استحْيَا مِنْ ربِّهِ، وتألَّمَ لمَا كانَ مِنْ ذَنْبِهِ، ولذلِكَ قالَ لهُ الشَّيخُ: «أَمَا تَسْتَحِي ؟!».

وقَدْ يبلغُ ببعضِهِم إذا ذكَرَ شيئًا مِنْ ذلكَ الحَيَاءِ والخَجَلِ حتَّىٰ يسقطَ إلىٰ الأرضِ ولَا تحملَهُ [١٥٩/٢ب] قوائِمُهُ، كمَا حُكِيَ عَنْ بعضِهِمْ[٢] أَنَّهُ كانَ يطرأُ لهُ مثلُ ذلكَ في بعضِ الأماكنِ، فيُسْئَلُ عنْ ذلكَ فيقولُ: «هذَا موضعٌ كنتُ عَصَيْتُ اللهَ فيهِ».

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللهُ[٤]: كُنْتُ فِي ابْتِدَاءِ وُصْلَتِي بِالأُسْتَاذِ أَبِي عَلِيٍّ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ عقدَ لِي المَجْلِس فِي (مَسْجِدِ المُطَرِّزِ)[٥]، فَاسْتَأْذَنْتُهُ وَقْتًا فِي الخُرُوجِ إِلَىٰ (نَسَا)، فَأَذِنَ لِي، فَكُنْتُ أَمْشِي مَعَهُ يَوْمًا فِي طَرِيقِ مَجْلِسِهِ، فَخَطَرَ بِبَالِي: لَيْتَهُ يَنُوبُ عَنِّي فِي مَجَالِسِي أَيَّامَ غَيْبَتِي، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: أَنُوبُ عَنكَ أَيَّامَ غَيْبَتِكَ فِي عَقْدِ المَجْلِسِ! ، فَمَشَيْتُ قَلِيلًا، فَخَطَرَ بِبَالِي أَنَّهُ عَلِيلٌ يَشُقُّ عَلَيْهِ أَنْ يَنُوبَ عَنِّي فِي الأُسْبُوعِ يَوْمَيْنِ، فَلَيْتَهُ يَقْتَصِرُ عَلَىٰ يَوْمٍ وَاحِدٍ فِي

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٨.

(٢) هو عتبة الغلام كما في: الرسالة القشيرية ١/٢٣٠، وقد تقدم قوله.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٨.

(٤) ورد قوله في: تبيين كذب المفتري ص٢٢٧.

(٥) أحد مساجد نيسابور الشهيرة.

الأُسْبُوعِ ، فَالْتَفتَ إِلَيَّ وَقَالَ: إِنْ لَم يُمْكِنِّي فِي الأُسْبُوعِ يَوْمَيْنِ[١] أَنُوبُ عَنْكَ فِي الأُسْبُوعِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَمَشَيْتُ قَلِيْلًا ، فَخَطَرَ بِبَالِي شَيْءٌ ثَالِثٌ ، فَالْتَفتَ إِلَيَّ وَصَرَّحَ بِالإِخْبَارِ عَنْهُ عَلَىٰ القَطْعِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي ذكرَهُ الإمامُ القُشيرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ كَوْنِهِ يخبِرُهُ عمَّا يُحَدِّثُ بهِ نفسَهُ قَدْ يكونُ مِنْ بابِ المُكَاشَفَةِ ، وقَدْ يكونُ مُوافقةً ومُصَادقةً ؛ وذلكَ أنَّ الإمامَ كانَ لهُ مجالسُ أَذِنَ لهُ الشَّيخُ فيهَا ، فلمَّا خطرَ لهُ الخروجُ إلَىٰ (نَسَا) وأذِنَ لهُ الشَّيخُ في ذلكَ تفكَّرَ الإمامُ فيمَنْ ينوبُ عنهُ في مجالِسِهِ أيامَ غيبتِهِ ، وكانَ الشَّيخُ مُلتفتًا لتضييعِ مَجَالِسِهِ ، فصرَّحَ لهُ بأنِّي أنوبُ عنكَ يومَينِ ، فوافقَ ما قَالَهُ الشَّيخُ ما كانَ في قلبِ الإمامِ ، ثمَّ خَطَرَ بِبَالِ الإمامِ أنَّ يومَينِ ربَّمَا يشقُّ علىٰ الشَّيخِ ، فلَوْ نابَ عنِّي يومًا واحدًا ، فقالَ لهُ الشَّيخُ: «**وإنْ لمْ أستطِعْ يومَينِ نُبْتُ عنكَ يومًا واحدًا**».

وهذَا قَدْ يكونُ مُوافقةً يخطرُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في قلبِ كلِّ واحدٍ منهُمَا شيئًا يُوافقُ الآخرَ مِنْ غيرِ اطِّلاعٍ علىٰ مَا فِي قلبِهِ ، وقَدْ يكونُ مُكَاشفةً واطِّلاعًا ، ولذلِكَ قَالَ الإِمَامُ: «**ثمَّ مشيتُ قليلًا فأخبَرَنِي عنْ شيءٍ وقعَ في نفسِي علىٰ القَطْعِ**» ، فجزمَ الإمامُ بهذَا الأخيرِ أنَّهُ مُكَاشفةٌ ، ولمْ يَجْزِمْ في الأوَّلِ ؛ لمَا ذكرْنَاهُ مِنَ الاحتمالِ.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولقدْ جرَىٰ لمَنْ أعرفُهُ بعضُ هذَا ، وذلِكَ إنَّمَا كانَا بظاهرِ الثَّغرِ في بعضِ [٢/١٦٠أ] الكرُومِ ، فصلَّيَا في آخرِ اللَّيلِ ما شاءَ اللهُ ، ثمَّ جلسَا قُرَيبَ الصُّبحِ يذكرانِ اللهَ ، فخطرَ ببالِ أحدِهِمَا دعاءٌ نسِيَ منهُ كلمةً ، فسألَ الثَّانِي عَنْ تحقيقِهَا ، وكانَ المسئولُ في ذلكَ الوقتِ متفكِّرًا في غيرِ ما كانَ صاحبُهُ مُتفكِّرًا فيهِ ، ووقفَ حيثُ وقفَ صاحبُهُ ، فسألَ أحدُهُمَا الثَّانِي أنْ يُذكِّرَهُ مَا نَسِيَهُ ، فاعتقدَ

---

(١) بالنصب علىٰ الظرفية ، وإن كان الأصح: يومان ، كما في: إحكام الدلالة ٢/٦٨٤.

المَسئولُ أنَّ ذلكَ مُكاشَفةٌ عَنْ حَالِهِ ومَا هوَ فيهِ، وكثيرًا ما يجرِي هذا، يتكلَّمُ الشَّيخُ في المجلسِ بكلامٍ يكونُ بعضَ أصحابِهِ في شيءٍ فيقعُ كلامُ الشَّيخِ جوابًا لهُ، فيظنُّهَا مكاشفةً، وهيَ ألطافٌ منَ اللهِ - تعالىٰ - وتنبيهاتٌ يُجرِيهَا الحقُّ علىٰ لسانِ الشَّيخِ؛ لينتفعَ بهَا مَنْ أرادَ سعادَتَهُ، ويقوِّي اللهُ - تعالىٰ - بذلكَ نيَّتَهُ فِي الاقتداءِ بشيخِهِ، والانتفاعِ بمَا يَرِدُ [عَلَيهِ] مِنْهُ[1].

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ جَدِّي أَبَا عَمْرٍو بْنَ نُجَيْدٍ يَقُولُ**[3]: **كَانَ شَاهُ الكِرْمَانِيُّ حَادَّ الفِرَاسَةِ، لَا تُخْطِئُ فِرَاسَتُهُ، وَيَقُولُ: مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنِ المَحَارِمِ، وَأَمْسَكَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَعَمَّرَ بَاطِنَهُ بِدَوَامِ المُرَاقَبَةِ، وَظَاهِرَهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَتَعَوَّدَ أَكْلَ الحَلَالِ لَمْ تُخْطِئْ فِرَاسَتُهُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي ذكرَهُ شاهٌ مِنْ شروطِ صحَّةِ الفِراسةِ إنَّمَا أخبَرَ بهِ عنْ نفسِهِ، وأنَّهُ موصوفٌ بأنَّ فِراستَهُ لا تخطِئُ، عرفَ ذلكَ مِنْ حالِهِ أصحابُهُ، فلمَّا أخبَرَ عَنْ أسبابِ حُصُولِ الفِراسةِ، وإنَّمَا كانَ إخبارُهُ عمَّا وجدَهُ بنفسِهِ، وعمَّا كانَ سببَ صحَّةِ فِراستِهِ؛ وهوَ غضُّ البَصَرِ عنِ المَحَارِمِ، ومَسْكِ النَّفسِ عنِ الشَّهواتِ؛ يعنِي الحلالَ وغيرَهَا، حتَّىٰ يصيرَ أكلُهُ للعونِ علىٰ الطَّاعةِ لا بحكمِ الشَّهوةِ.

وقولُهُ: «**وعَمَّرَ بَاطِنَهُ بِدَوامِ المُرَاقَبَةِ**»، يعنِي: مُراقبةَ اللهِ - تعالىٰ -، واستشعارَ نظرِهِ إليهِ فِي سَائِرِ أحوالِهِ، ومُرَاقبةَ أحكامِ اللهِ - تعالىٰ - عندَ أفعالِهِ؛ ليوقعَهَا علىٰ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٨٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٨ - ٣٨٩.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٣٧، وصفة الصفوة ٤/٦٧، ومدارج السالكين ٢/٤٨٤، ومفتاح السنة للسيوطي ص٧٢.

أفضلِ وُجُوهِهَا وأكملِهَا.

وقولُهُ: «وَظَاهِرَهُ باتِّباعِ السُّنَّةِ»، أيْ: لا يكونُ مُلابِسًا في عبادتِهِ لبدعةٍ لمْ تُعْهَدْ فِي صَدْرِ الإسلامِ.

والخامسُ: «أكلُ الحلالِ»، فيكونُ أكلُهُ حلالًا بغيرِ شهوةٍ، بَلْ لِيقوىٰ علىٰ الطَّاعةِ، وتكونَ أفعالُهُ في باطنِهِ وظاهرِهِ جاريةً علىٰ السُّنَّةِ، وإنَّما يصحُّ لهُ ذلكَ بتَرْكِ الفُضُولِ ودَوامِ المُرَاقَبَةِ.

ومَنْ [٢/١٦٠ب] جمَّلَهُ اللهُ بهذِهِ الصِّفَاتِ فِي عِبادتِهِ، تفضَّلَ عليهِ بأنوارِ مُكاشفتِهِ وصحَّةِ فِراستِهِ؛ لأنَّهُ قَدْ كمُلَ في درجاتِ الإيمانِ للهِ، وقالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١]: «اتَّقُوا فِراسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «وَسُئِلَ الحَسَنُ النُّورِيُّ: مِنْ أَيْنَ تَوَلَّدَتْ فِراسَةُ المُتَفَرِّسِينَ؟ فَقَالَ: مِنْ قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، فَمَنْ كَانَ حَظُّهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ أَتَمَّ كَانَتْ مُشاهَدَتُهُ أَحْكَمَ، وَحُكْمُهُ بِالفِراسَةِ أَصْدَقَ، أَلَا تَرَىٰ كَيْفَ أَوْجَبَ بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ السُّجُودَ لَهُ؛ لِقَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

وَهَذَا الكَلَامُ مِنْ أَبِي الحُسَيْنِ النُّورِيِّ فِيهِ أَدْنَىٰ غُمُوضٍ وَإِيهَامٍ بِذِكْرِ نَفْخِ الرُّوحِ لِتَصْوِيبِ مَنْ يَقُولُ بِقِدَمِ الأَرْوَاحِ، وَلَا كَمَا يَلُوحُ لِقُلُوبِ المُسْتَضْعَفِينَ[٣]، فَإِنَّ الَّذِي يَصِحُّ عَلَيْهِ النَّفْخُ وَالاتِّصَالُ وَالانْفِصَالُ فَهُوَ قَابِلٌ لِلتَّأْثِيرِ وَالتَّغْيِيرِ، وَذَلِكَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٩.

(٣) من القول بأنها قديمة كما ذهب بعض المعتزلة، والقول إنها حادثة، وقد رد المؤلف ذلك في مقدمته.

مِنْ سِمَاتِ الحُدُوثِ، وَأَنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ خَصَّ المُؤْمِنِينَ بِبَصَائِرَ وَأَنْوَارٍ بِهَا يَتَفَرَّسُونَ، وَهِيَ فِي الحَقِيقَةِ مَعَارِفُ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١]: «فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ»، أَيْ: بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ يَخُصُّهُ اللهُ بِهِ، وَيُفْرِدُهُ بِهِ مِنْ دُونِ أَشْكَالِهِ، وَتَسْمِيَةُ العُلُومِ وَالبَصَائِرِ أَنْوَارًا غَيْرُ مُسْتَبْدَعٍ[٢]، وَلَا يَبْعُدُ وَصْفُ ذَلِكَ بِالنَّفْخِ، وَالمُرَادُ مِنْهُ الخَلْقُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قولُ النُّوريِّ: «**إِنَّ الفراسةَ تولَّدَتْ مِنْ قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾**»، هذا سؤالٌ عنِ الدَّليلِ علىٰ ثبوتِهَا في القلبِ، فقولُهُ: «**تولَّدَتْ**»، أيْ: كانَتْ وظهرَتْ، والنَّفخُ هاهُنَا إنَّمَا هوَ الخَلْقُ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، أيْ: خلقْنَا، وبذلِكَ سُمِّيَ عيسَىٰ روحَ اللهِ، أيْ: خَلْقُهُ بغيرِ سببٍ[٣] مِنْ غيرِ ذَكَرٍ، ولمَّا كانَتِ الفراسةُ يُنْشِئُهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ في قُلُوبِ مَنِ اصطفَاهُ منَ المؤمنينَ سُمِّيَتْ روحًا، وسمِّيَ الخلقُ نفخًا، وكمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ في حقِّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، أيْ: خلقتُ فيهِ الرُّوحَ[٤].

وأمَّا قولُهُ: «**أَلَا ترىٰ كيفَ أوجبَ بنفخِ الرُّوحِ فيهِ السُّجودَ لهُ**»، كلامٌ غيرُ بيِّنٍ، فإنَّ الَّذي أوجبَ لهُ السُّجودَ أمرُهُ ـ تعالىٰ ـ بالسُّجودِ لهُ، ولكنْ لَمْ يأمرْهُمْ بالسُّجودِ لهُ حتَّىٰ خلقَ فيهِ الرُّوحَ وخصَّهُ بعدَ ذلكَ بمعرفةِ الأسماءِ [٢/١٦١أ] كلِّهَا، فمُيِّزَ عنهُمْ بخَلْقِ المَعْرِفَةِ بِمَا لَمْ يَخلقْ لهُمُ المعرفةَ بهِ؛ ليعلَمُوا كمالَ اقتدارِهِ، يفعلُ ما يشاءُ، وأنَّهُ خلقَ مِنَ الطِّينِ بَشَرًا فكمَّلَهُ هذا الكمالَ، وأمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ف): مستبعد.

(٣) أي: بدون أبٍ.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٨٤.

لهُ، فامتثلُوا أمْرَ ربِّهِمْ إلَّا مَنْ سبقَتْ لهُ الشَّقاوةُ، فنظرَ إلى ظاهِرِ الخَلْقِ وغفلَ عَنْ بَاطِنِ الأمرِ، فلَوْ عرَفَ حقَّ الأمرِ المُوجبِ للسُّجودِ والامتثالِ لمْ يقلْ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وروحُ هذهِ الحكايةِ والتَّمثيلِ: أنَّ سُنَّةَ اللهِ الجاريةَ في آدمَ وبَنِيهِ واحدةٌ؛ إذْ كمَّلَهُمْ ونقلَهُمْ في أطوارِ كَمَالِهِمْ ومَنَّ عليهِمْ بِعُلُومٍ يخصُّ مَنِ اصطفاهُ بهَا منَ المؤمنِينَ بهِ العَارفِينَ بِجَلالِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ الحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورٍ: المُتَفَرِّسُ هُوَ المُصِيبُ بِأَوَّلِ مَرْمَاهُ إِلَى مَقْصِدِهِ، وَلَا يُعَرِّجُ عَلَى تَأْوِيلٍ وَظَنٍّ وَحِسْبَانٍ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الفِرَاسةَ إذا رجعَتْ إلى ما يخلقُهُ اللهُ - تعالى - فِي القلبِ ضرورةً مِنْ غيرِ كسْبِهِ؛ وهوَ ثمرةُ الإيمانِ الصَّحيحِ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ متعلِّقُهُ مَعْلُومًا؛ لأنَّهُ بَدِيهِيٌّ يدركُهُ العبدُ قَطْعًا، فأينَ هوَ مِنَ الظَّنِّ والحسبانِ الَّذي هوَ مِنْ آثارِ التَّقديرِ والتَّخْمِينِ[(٢)].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقِيلَ: فِرَاسَةُ المُرِيدِينَ تَكُونُ ظَنًّا[(٤)] يُوجِبُ تَحْقِيقًا[(٥)]، وَفِرَاسَةُ العَارِفِينَ تَحْقِيقٌ يُوجِبُ حَقِيقَةً**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وإنَّمَا كانَتْ «**فِراسةُ المُريدِينَ ظنًّا**» معناهُ: أنَّهَا لا تثبتُ، وقَدْ تصادفُ وقتًا، وقدْ لا تصادفُ الحقَّ، فإذَا تكرَّرَتْ وصارَتْ حالًا

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٩.
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٨٤.
(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٩.
(٤) لأنها لا تثبت.
(٥) أي: يقينا.

لصاحبِهَا أفادَتْهُ يقينًا، فهذا هوَ التَّحقيقُ الَّذِي تقدَّمَهُ الظَّنُّ، معنَىٰ كونِهِ إفادةً: أنَّهُ حملَ علىٰ طلبِهِ والدَّوام عليهِ حتَّىٰ حصلَ حالًا لهُ؛ وذلكَ أنَّ العبدَ إذَا وقعَ لهُ خاطرٌ دلَّ علىٰ أمرٍ فلمْ يَصْدُقْ ووقعَ لهُ مرَّةً أُخرَىٰ فَصَدَقَ حملَهُ صِدْقُهُ علَىٰ تعاطِي الأسبابِ الَّتِي تفيدُهُ حالةَ الصَّدقِ، وهيَ كمَا تقدَّمَ الدَّوامُ علىٰ العلمِ والعملِ والإعراضُ عنِ المُشغلاتِ، والتَّوجُّهُ بقلبِهِ لفضلِ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، فإذَا دامَ علىٰ هذَا صدقَتْ خَواطرُهُ وصارَتْ تحقيقًا.

وأمَّا العارفُ: فإنَّهُ عبارةٌ عمَّنْ أعرضَ عنِ المُشغلاتِ، ودامَ ذِكْرُهُ ومناجاتُهُ لخالِقِ الأرضِ والسَّماواتِ، ومراقبتُهُ لقلبِهِ فيمَا يحدثُهُ فيهِ علىٰ مرورِ السَّاعاتِ، فخواطرُهُ عندَهُ صحيحةٌ، وفراستُهُ متمكِّنَةٌ.

وقد [٢/١٦١ب] تقدَّمَ أنَّ (الحقيقةَ): حالٌ غالبةٌ علىٰ كلِّ متحقِّقٍ، ومَنْ تحقَّقَ في أنواعِ الفِرَاسةِ الصَّادقةِ وتوالَىٰ ذلكَ علىٰ قلبِهِ نقلَهُ ذلكَ إلىٰ المكاشفةِ والمعاينةِ، كمَا دلَّ عليهِ كلامُهُم في غيرِ هذا المَوضِعِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «**وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عَاصِمٍ الأَنْطَاكِيُّ(٢): إِذَا جَالَسْتُمْ أَهْلَ الصِّدْقِ فَجَالِسُوهُمْ بِالصِّدْقِ(٣)؛ فَإِنَّهُمْ جَوَاسِيسُ القُلُوبِ، يَدْخُلُونَ فِي قُلُوبِكُمْ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا مِنْ حَيْثُ لَا تُحِسُّونَ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ في النُّصحِ، فإنَّ الصَّادقَ ومَنْ عاملَ اللهَ ـ سبحانه ـ بالصِّدقِ في سَائِرِ أعمالِهِ بقلبِهِ وجوارِحِهِ، وكذلِكَ في سائِرِ أخلاقِهِ المحمودةِ والمذمومةِ، وكذلِكَ أدبُهُ معَهُ في سائِرِ ما يطرقُ قلبَهُ منِ اختلافِ أحوالِهِ،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٩.

(٢) ورد قوله في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٤، ومدارج السالكين ٢/٤٨٥.

(٣) أي: بالصدق في التسليم لما يبدو منهم.

وكمالُ مراقبتِهِ في جميعِ ذلكَ، ودوامُ ذِكْرِهِ لهُ وإعراضِهِ عمَّا يشغلُهُ عَنْ ذلكَ.

فإذَا كانَ هذا حالَ الصَّادقِ فالحقُّ ـ سبحانه ـ يحمِي قلبَهُ وأحوالَهُ ممَّا يَشُوِّشُهَا ويعكِّرُهَا، كمَا دلَّ عليهِ الخبَرُ الصَّحيحُ وهوَ قولُهُ[١]: «مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»، ومَنْ أحبَّهُ اللهُ صرفَ عنهُ المُشوِّشَاتِ، ووالَىٰ علىٰ قلبِهِ الخيراتِ والبَرَكاتِ، وغارَ علىٰ قلبِهِ أنْ يشغلَهُ بغيرِهِ أوْ يشوِّشَ عليهِ حالَهُ معَهُ، كمَا جاءَ في الخبَرِ[٢]: «أنَّ المؤمنَ يغارُ، والحقُّ يغارُ، ومِنْ غَيْرتِهِ حرَّمَ الفواحشَ»، فإنَّهُ لمْ يرضَهَا لخواصِّهِ وأبعدَهَا عنهُمْ.

فمَنْ عاملَ مَنْ هذِهِ حالُهُ معَ اللهِ بغيرِ الصِّدقِ خُشِيَ عليهِ أحدُ أمرينِ: إمَّا أنْ يهلكَهُ اللهُ في قلبِهِ ويفسدَ عليهِ حالَهُ ووقتَهُ؛ جزاءً لخبثِ نيَّتِهِ، وفسادِ حالتِهِ الَّتِي يعاملُ الصَّادقَ بهَا، أوْ يخلقَ للصَّادقِينَ خواطرَ[٣] صائبةً بالحالةِ الَّتِي أتىٰ عليهَا مَنْ كذَّبَهُ فيبغضَهُ ويمقتَهُ، كمَا قيلَ: «حَذِرَ امرؤٌ أنْ تمقتَهُ قلوبُ الصَّالحينَ منْ حيثُ لا يشعرُ».

وبهذَا الاعتبارِ كانُوا جواسيسَ القلوبِ، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يطلعُهُمْ علىٰ ما لمْ يطلعْ عليهِ غيرَهُمْ؛ لتسلمَ قلوبُهُمْ منَ المشوِّشَاتِ، وليبعدُوا عن مُخَالطةِ أهلِ الآفاتِ، وأمَّا مَنْ أتاهُمْ بالصِّدقِ رجاءَ الانتفاعِ ولوْ كانَ صدقُهُ يسيرًا، فالحقُّ ـ سبحانه ـ يجازِيهِ علىٰ صِدْقِهِ وحُسْنِ نيَّتِهِ، وينصرفُ عنهُمْ وقَدْ نَالَ خيرًا كثيرًا. [٢/١٦٢أ].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٠٠٢ ـ حديث رقم (٤٩٢٥) بلفظ: «إِنَّ اللهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ المُؤْمِنُ ما حَرَّمَ اللهُ»، وكذا مسلم في صحيحه ٤/٢١١٤ ـ حديث رقم (٢٧٦١).

(٣) في (أ): خواطرا، والصواب المثبت.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الخُلْدِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الحَدَّادَ يَقُولُ[(٢)]: الفِرَاسَةُ أَوَّلُ خَاطِرٍ بِلَا مُعَارِضٍ، فَإِنْ عَارَضَ مُعَارِضٌ مِنْ جِنْسِهِ فَهُوَ خَاطِرٌ وَحَدِيثُ نَفْسٍ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ أنَّ الخواطرَ الَّتِي تَرِدُ على القلوبِ تارةً يُنشِئُهَا اللهُ ـ تعالى ـ بواسطةٍ، وتارةً ينشئُهَا بغيرِ واسطةٍ؛ وما يُنشئُهُ بواسطةٍ فقدْ يكونُ بواسطةِ الملكِ أوِ الشَّيطانِ أوِ النَّفسِ، وما ينشئُهُ بغيرِ واسطةٍ فهوَ الَّذِي يسمِّيهِ: الرَّبَّانِيَّ، يعنِي: أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ هوَ الَّذِي وهبَهُ لهُ فلَا يكونُ إلَّا حقًّا وصِدْقًا؛ لأنَّهُ كرامةٌ.

ومَا خطرَ مِنْ خَواطِرِ الخيرِ بواسطةِ الملكِ وحصلَ لهُ منازعةٌ وفِي النَّفسِ منهُ تردُّدٌ فالمنازعةُ منَ الشَّيطانِ، أوْ مِنْ هوَى النَّفسِ ممَّا دعَى إليكَ الملكُ منْ خيرٍ، فأرادَ هذَا القائلُ أنْ يبيِّنَ الفرقَ بينَ الفراسةِ والإلهامِ منَ الملكِ فقالَ: مَا أحدَثَهُ الحقُّ فِي قلبِ العبدِ منَ الخواطرِ الصَّادقةِ القويَّةِ ولمْ يُعارَضْ، فهوَ المعبَّرُ عنهُ بالفراسةِ، فإنَّهُ موهبةٌ منَ الحقِّ ـ سبحانه ـ واختصاصٌ للعبدِ.

ومَا وجدَ مِنْ نفسِهِ معارضةً فيهِ دلَّ على كونِهِ منَ الملكِ الَّذِي جعلَ الحقُّ ـ سبحانه ـ للشَّيطانِ معارضتَهُ، فإنَّ القلبَ عليهِ ملَكٌ وشيطانٌ، كلَّمَا أمرَ الملَكُ بخيرٍ عارَضَهُ الشَّيطانُ، وكلَّمَا أمرَ الشَّيطانُ بشَرٍّ قابلَهُ الملكُ بخيرٍ، إلى أنْ يقوِّي اللهُ ـ تعالى ـ العبدَ ويزيِّنَ لهُ ما يدعُو إليهِ الملكُ، فيضعفَ قبولُهُ لمَا دعاهُ إليهِ الشَّيطانُ، كمَا قالَ ـ تعالى ـ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/٣٥٩، وتاريخ دمشق ٦٦/١١٣، ومدارج السالكين ٢/٤٨٤.

مُمْتَنًّا علىٰ عبادِهِ بذلكَ[١].

قالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[٢]: «وَيُحكَىٰ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الرَّازِيِّ نَزِيلِ (نَيسَابُورَ) قالَ[٣]: كَسَانِي ابْنُ الأَنْبَارِيِّ صُوفًا، وَرَأَيْتُ عَلَىٰ رَأْسِ الشِّبْلِيِّ قَلَنْسُوَةً ظَرِيفَةً تَلِيقُ بِذلِكَ الصُّوفِ، فَتَمَنَّيْتُ فِي نَفْسِي أَنْ يَكُونا جَمِيعًا لِي، فَلَمَّا قَامَ الشِّبْلِيُّ مِنْ مَجْلِسِهِ التَفَتَ إِلَيَّ، فَتَبِعْتُهُ وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ إِذا أَرَادَ أَنْ أَتْبَعَهُ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيَّ، فَلَمَّا دَخَلَ دَارَهُ دَخَلْتُ، فَقَالَ: اِنْزَعِ الصُّوفَ، فَنَزَعْتُهُ، فَلَفَّهُ وَطَرَحَ القَلَنْسُوَةَ عَلَيْهِ، وَدَعَا بِنَارٍ فَأَحْرَقَهُمَا[٤]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: ووجْهُ هذهِ الحكايةِ ودخولُهَا في بابِ الفِراسةِ: هوَ اطِّلاعُ الشِّبْلِيِّ علىٰ [٢/١٦٣ب] ما وقعَ فِي نفسِ الرَّازِي منْ محبَّةِ القلنسوَةِ؛ لموافقتِهَا للجبَّةِ الَّتي عليهِ، فلمَّا قَوِيَتْ شَهْوَتُهُ ومحبَّتُهُ للجُبَّةِ الَّتِي عليهِ حتَّىٰ بلغَتْ بهِ الشَّهوةُ إلىٰ أنْ تمنَّىٰ قلنسوةَ شيخِهِ لتكونَ لهُ؛ ليكملَ حالُهُ بهِمَا، كُوشِفَ الشِّبلِيُّ بهذِهِ الشَّهوةِ القويَّةِ الَّتِي ضرَّتْ تلميذَهُ، «**فلمَّا قامَ مِنْ مجلسِهِ التفتَ إليهِ**»، أي: اتبَعْنِي، «**فلمَّا وَصَلَ إلىٰ مَنْزِلِهِ أمرَهُ بِنَزْعِ الجُبَّةِ فلفَّهَا وجعلَ عليهَا القلنسوةَ الَّتِي كانَتْ علىٰ رأسِهِ ودعَا بنارٍ فأحرقَهُمَا**»؛ اقتداءً بموسىٰ عَلَيهِ السَّلَامُ في تحريقِهِ لمَا كانَ فتنةً لبنِي إسرائيلَ في دينِهِمْ[٥]، وكذلِكَ فعلَ سليمانُ بالخَيلِ لمَّا شغلَتْهُ عن عبادتِهِ ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، فقالَ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٨٦.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٠.

(٣) ورد قوله في: البهجة الأنسية في الفراسة الإنسانية للمرصفي ص١٨٤.

(٤) فعل ذلك للتداوي من أمراض دينية ـ كما سيذكر المؤلف ـ؛ لأن ذلك شغل قلبه عن مولاه، ولا يحمل ذلك على إضاعة المال وإتلافه.

(٥) فأنزل المولىٰ عَزَّ وَجَلَّ قوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣][(١)]، وكثيرًا مَا يجرِي هذا الفعلُ منَ الصَّالحينَ.

وقَدْ رُوِيَ أنَّ أحمدَ بنَ أبِي الحَوارِيِّ غرَّقَ كتبَهُ في البَحْرِ، وقالَ[(٢)]: «إنَّمَا أردْتُكِ لمعرفةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وإذْ عرَفتُهُ فلا حاجةَ لي بكِ».

ورُوِيَ عن بعضِهِمْ: أنَّهُ ألقَىٰ مالَهُ في البحرِ حتَّىٰ لا يَبْنِي مسجدًا ولَا رباطًا.

ورُوِيَ أنَّ أحمدَ بنَ حنبلٍ دَفَنَ كتُبَهُ[(٣)].

وكذلِكَ النُّورِيُّ لمَّا ماتَ ولدُهُ وكرِهَ أنْ يعزِّيَهُ النَّاسُ فيهِ حلقَ لحيَتَهُ حتَّىٰ اشتغلَ بذلكَ عَنْ عَزَائِهِ.

وهذِهِ الأفعالُ روحُهَا أنَّهَا فُعِلَتْ للتَّداوِي منْ أمراضٍ دينيَّةٍ، وقطعِ النَّفسِ عنْ شهواتٍ مضرَّةٍ، وأدَبِهَا عمَّا اشتغلَتْ بهِ عن عبادةِ ربِّهَا، وهذَا إنَّمَا يحسنُ علىٰ القولِ بأنَّ «شَرْعَ مَنْ قبلنَا شَرْعٌ لنَا ما لمْ يُنْسَخْ»، ففِي هذَا يحسنُ أنْ يُتَّبَعَ موسىٰ وسليمَانَ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِمَا ـ، وإذَا ثبَتَ في شرعِنَا في الخبَرِ الصَّحيحِ[(٤)]: «إنَّهُ نَهَىٰ عنِ القِيْلِ والقَالِ، وإِضَاعةِ المَالِ» يكونُ هذهِ إضاعةً.

ويحتملُ أنْ يُجابَ عنْ هذا بأنَّهَا إنَّمَا تكونُ إضاعةً إذَا كانَتْ لغيرِ التَّداوِي،

---

(١) انظر: اللمع للطوسي ص٤٨٣ ـ ٤٨٤.

(٢) ورد قوله في: البهجة الأنسية في الفراسة الإنسانية للمرصفي ص١٨٥.

(٣) في تقييد العلم ص٦٣: «سمعت المروزي يقول: سمعت أحمد بن جنبل يقول: لا أعلم لدفن الكتب معنىٰ، قلت: لا معنىٰ فيه إلا ما ذكرته»، ورُوي عنه في: النكت علىٰ مقدمة ابن الصلاح ٥٦٢/٣. وانظر: الآداب الشرعية ١١٤/٢.
وقد أفاد الشيخ زكريا ذلك في: إحكام الدلالة ٦٨٦/٢ ـ ٦٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٥٣٧/٢ ـ حديث رقم (١٤٠٧)، بلفظ: «سمعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وقال، وَإِضَاعَةَ المَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»، وكذا مسلم في صحيحه ١٣٤١/٣ ـ حديث رقم (٥٩٣).

ولا سيَّمَا الأمراضَ الدِّينيَّةَ ، وإذَا جازَ أنْ يتلفَ الإنسانُ علىٰ نفسِهِ مالًا كثيرًا في إزالةِ الأمراضِ البدنيَّةِ وقَدْ تزولُ وقدْ لا تزولُ فكيفَ إذا كانَتِ الأمراضُ دينيَّةً ؟! وحصلَ أدبُ النَّفسِ وزجرُهَا حتَّىٰ لا تعودَ ولوِ اتَّفقَ أنْ يجرِيَ الأمرُ علىٰ ما فعلَهُ أبو طلحةَ لمَّا شُغِلَ عنْ صَلاتهِ فِي حَائِطِهِ بِالدُّبْسِي (١) ، فجعلَهُ صدقةً في سبيلِ اللهِ ، وقالَ(٢) : «أصابَتْنِي في مالِي هذَا فتنةٌ» .

وكذلِكَ الأنصارِيُّ لمَّا سَمِعَ [١٦٤/٢أ] قولَهُ ـ تعالىٰ ـ : ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] ، فأتَى النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقالَ(٣) : «إنَّ أحبَّ أموالِي إليَّ (بَيْرُحَاءُ)(٤) ، فأجعلُهَا صدقةً في سبيلِ اللهِ ، فضَعْهَا حيثُ شئتَ ، فأمرَهُ أنْ يقسمَهَا بينَ بنِي عمِّهِ» ، فكانَ أصوبَ ، وهذهِ المسألةُ فيهَا نظرٌ للعلماءِ ، واللهُ المُسلِّمُ .

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥) : «وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ النَّيْسَابُورِيُّ(٦) : لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدَّعِيَ الفِرَاسَةَ ، وَلَكِنْ يَتَّقِي الفِرَاسَةَ مِنَ الغَيْرِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ(٧) : (اتَّقُوا

---

(١) اسم طائر ، ففي حياة الحيوان ٤٥٧/١ : «الدبسي ـ بفتح الدال المهملة وكسر السين المهملة ، ويقال له أيضا الدبسي ، بضم الدال ـ: طائر صغير منسوب إلىٰ دبس الرطب» .

ووضح الباجي سبب إعجابه في المنتقىٰ شرح الموطأ ١٨٠/١ ـ ١٨١ بقوله: «.. فَطَارَ دُبْسِيٌّ فَطَفِقَ يَتَرَدَّدُ يَلْتَمِسُ مَخْرَجًا... يعني أنَّ اتِّسَاقَ النَّخْلِ وَاتِّصَالَ جَرَائِدِهَا لِتَنَسُّقِهَا كَانَتْ تَمْنَعُ الدُّبْسِيَّ مِنَ الخُرُوجِ ، فَجَعَلَ يَتَرَدَّدُ بِطَلَبِ المَخْرَجِ ، فَرَأَىٰ ذَلِكَ أَبُو طَلْحَةَ فَأَتْبَعَهُ بَصَرَهُ اتِّبَاعَ المَسْرُورِ بِصَلَاحِ مَالِهِ ، وَحُسْنِ إِقْبَالِهِ وَتَنَعُّمِهِ ، فَشَغَلَهُ ذَلِكَ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ صَلَاتِهِ» .

(٢) رواه مالك منقطعا في الموطأ ٩٨/١ ، وابن عبد البر في التمهيد ٣٨٩/١٧ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٥٣٠/٢ ـ حديث رقم (١٣٩٢) .

(٤) في النهاية لابن الأثير ١١٤/١ : «هذه اللفظة كثيرا ما تختلف ألفاظ المحدثين فيها فيقولون: بيرحاء ـ بفتح الباء وكسرها ، وبفتح الراء وضمها والمد فيهما ، وبفتحهما والقصر ـ ؛ وهي اسم مال وموضع بالمدينة . وقال الزمخشري في الفائق: إنها (فيعلىٰ) ؛ من البراح وهي الأرض الظاهرة» .

(٥) الرسالة القشيرية ٣٩٠/٢ .

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٢٤ ، ومدارج السالكين ٤٨٥/٢ .

(٧) سبق تخريجه .

فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ)، وَلَمْ يَقُلْ: تَفَرَّسُوا، فَكَيْفَ تَصِحُّ دَعْوَىٰ الفِرَاسَةِ لِمَنْ هُوَ فِي مَحَلِّ اتِّقَاءِ الفِرَاسَةِ؟!».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي ذكرَهُ فيهِ نظرٌ وتقسيمٌ، فأمَّا قولُهُ: «**يَدَّعِي الفِرَاسَةَ**» فإنْ أرادَ دعوىٰ الباطلِ قبلَ أنْ يمنَّ عليهِ بهَا فهذَا صحيحٌ، وأمَّا بعدَ أنْ قرَّرْنَا أنَّ الفِراسَةَ: موهبةٌ منَ الحقِّ ونورٌ يخلقُهُ فيهِ، يطلعُهُ بهِ علىٰ ما لمْ يُطْلِعْ عليهِ غيرَهُ، فيجوزُ لمَنْ مَنَّ اللهُ عليهِ بهذِهِ الحالةِ الخارقةِ للعادةِ أنْ يذكرَهَا لمَنْ ينتفعُ بهَا، وإنْ ادَّعَاهَا كانَ محقًّا، وإذَا ذكرَهَا علىٰ هذا الوجْهِ، وقدْ نُقِلَ أنَّ الجُنيدَ[١] وغيرَهُ بلغَهُم عمَّنِ اشتهرَ بالفِرَاسةِ فقصدُوهُ وامتحنُوهُ ووجدُوهُ كمَا قِيلَ، وقد تقدَّمَ قريبًا[٢] قضيَّةُ الأنطاكِيِّ الَّذِي أتَىٰ منَ الجبلِ ومعَهُ شيءٌ يبيعُهُ فتقدَّمَ إليهِ مَنْ أرادَ اختبارَهُ، فأخذَ يسومُ ما معَهُ للبيعِ، فأخبَرَهُ أنَّ بهِ جوعَ يومَينِ، وأمرَهُ أنْ يجلسَ حتَّىٰ يبيعَ ما معَهُ ويعطيَهُ.

وقولُ هذَا الشَّخصِ[٣]: «**فإنَّ النَّبيَّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قالَ: (اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ)، ولمْ يقُلْ: تفرَّسُوا**»؛ فقدْ بيَّنَّا أنَّ الفِراسةَ غيرُ مكتسبةٍ[٤]، ويجوزُ أنْ يكونَ الإنسانُ قَدْ مُنَّ عليهِ بالفِرَاسةِ ويكونَ مُتفرِّسًا.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٥]: **«وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ بْنُ مَسْرُوقٍ[٦]: دَخَلْتُ عَلَىٰ شَيْخٍ مِنْ أَصْحَابِنَا أَعُودُهُ[٧]، فَوَجَدْتُهُ عَلَىٰ حَالٍ رَثَّةٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مِنْ أَيْنَ يَرْتَفِقُ هَذَا الشَّيْخُ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا العَبَّاسِ، دَعْ عَنْكَ هَذِهِ الخَوَاطِرَ الدَّنِيَّةَ، فَإِنَّ للهِ**

---

(١) انظر: تهذيب الأسرار ص٣٢٧، ٣٣٠.

(٢) أي: في هذا الباب.

(٣) يعني: أبا حفص النيسابوري.

(٤) فلا تطلبها، لكونه من غير مقدورات العبد، إذ هي خواطر ربانية.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٠.

(٦) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٥٠١، وتهذيب الأسرار ص٣٢٦.

(٧) في (ف): أدعوه.

ـ تعالىٰ ـ أَلْطَافًا خَفِيَّةً» .

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ووجهُ هذهِ الفِراسةِ: اطِّلاعُهُ علىٰ ما وقَعَ فِي نفسِ الدَّاخلِ مِنْ رثاثةِ حالِهِ ، وفِي بقيَّةِ كلامِهِ موعظةٌ للدَّاخلِ ؛ وهوَ أنَّكَ لَا تنظرُ لظاهرِ الحَالِ ، فقدْ تكونُ نِعَمُ اللهِ علىٰ بعضِ العبيدِ في قلوبِهِم ـ وإنْ كانَتْ خافيةً عنِ الخَلْقِ ـ أعظمَ ممَّا [٢/١٦٤ب] يُنعمُ عليهِمْ بمَا يَظهرُ للخَلْقِ ؛ وهوَ قولُهُ: «إنَّ للهِ ألطافًا خفيَّةً» .

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَيُحكَىٰ عَنِ الزَّبِيدِيِّ قَالَ: كُنْتُ فِي مَسْجِدٍ بِبَغْدَادَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الفُقَرَاءِ ، فَلَمْ يُفْتَحْ عَلَيْنَا بِشَيْءٍ أَيَّامًا ، فَأَتَيْتُ الخَوَّاصَ لِأَسْأَلَهُ شَيْئًا ، فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيَّ قَالَ: الحَاجَةُ الَّتِي جِئْتَ لِأَجْلِهَا يَعْلَمُهَا اللهُ أَمْ لَا ؟ فَقُلْتُ: بَلَىٰ ، فَقَالَ: اُسْكُتْ وَلَا تُبْدِهَا لِمَخْلُوقٍ ، فَرَجَعْتُ ، فَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّىٰ فُتِحَ عَلَيْنَا بِمَا فَوْقَ الكِفَايَةِ» .

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ فراسةٌ صادقةٌ ، قَدْ حملَهَا الخَلْقُ بالوصيَّةِ بالأدبِ إلىٰ أنْ يأتِيَ اللهُ للعبدِ ما طلبَ وفيهِ سعْيٌ وتسبُّبٌ ، فيُقوِّي اللهُ ـ تعالىٰ ـ منهُ بهذِهِ الفِراسةِ اليقينَ ، ويرجُو رحمةَ اللهِ لهُ وبهِ كمَا فعلَهَا بالمتَّقينَ .

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقِيلَ(٣): كَانَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ يَوْمًا فِي الجَامِعِ ، فَوَقَعَ حَمَامٌ فِي المَسْجِدِ مِنْ شِدَّةِ مَا لَحِقَهُ مِنَ الحَرِّ وَالمَشَقَّةِ ، فَقَالَ سَهْلٌ: إِنَّ شَاهًا الكِرْمَانِيَّ مَاتَ السَّاعَةَ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ ، فَكَتَبُوا فَكَانَ كَمَا قَالَ» .

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مِنْ بابِ التَّنبيهِ والاعتبارِ ، واللهُ أعلَمُ ، لأنَّ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٠.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢١٥.

وقوعَ هذَا الطَّائرِ في هذَا المسجدِ مِنْ شدَّةِ الحرِّ خلافُ عَادتِهِ في كلِّ زمنٍ وإنْ كانَ الحرُّ شديدًا، فلمَّا رآهُ سهلٌ وقعَ في نفسِهِ أنَّ شاهًا الكرمانِيَّ الَّذِي هوَ حمامُ مسجدِ بلدِهِ؛ لكثرَةِ ملازمتِهِ المسجدَ وذِكْرِهِ غلَبَ علَىٰ قلبِهِ حالٌ شديدٌ فسقطَ بهِ ميِّتًا[١]، فلَمَّا وقعَ في قلبِهِ هذا الخاطرُ قالَ لأصحابِهِ: أَرِّخُوا واكتُبُوا هذِهِ القصَّةَ في وقتِ وقوعِهَا، فكتبُوهَا فوجدُوا شاهًا الكرمانِيَّ تُوفِّيَ في ذلكَ الوَقْتِ.

ومثلُ هذَا ما حُكِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانَ يخطبُ علىٰ المِنْبَرِ وهوَ بمدينةِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجرَىٰ علىٰ لسانِهِ[٢]: «**يا سَاريةُ، الجبلَ**»، وكانَ ساريةُ أميرًا علىٰ بعضِ عساكرِ المسلمِينَ، فذكَرَ أنَّهُ كانَ بمصرَ، وقيلَ بغيرِهَا منَ البلادِ، وكانَ العدوُّ قَدْ حَصَرَهُ وحصرَ المسلمِينَ، فكشفَ اللهُ حالَهُمْ لعُمرَ، فأمَرَ ساريةَ بأنْ يتحصَّنَ بالجبلِ، وأوقعَ اللهُ صوتَ عمرَ في أُذُنِ ساريةَ، فتحصَّنَ بالجبلِ، فسُئِلَ عمرُ عن ذلكَ، وأنَّهُ جرىٰ علىٰ لسانِهِ كيتٌ وكيتٌ، فأمرَ بأنْ يؤرَّخَ ذلكَ ويُكتَبَ فكُتِبَ، ثمَّ تبيَّنَ الأمْرُ كمَا وقعَ لهُ، وأخبرَ ساريةُ بسماعِهِ لِصَوتِ عُمَرَ وتَحَصُّنِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَقِيلَ[٤]: خَرجَ أَبُو عَبْدِ اللهِ التُّرُوغَبْذِيُّ[٥] وَكَانَ كَبِيرَ الوَقْتِ** [٢/١٦٥أ] **إِلَىٰ (طُوسَ)، فَلَمَّا بَلَغَ (خَرْوَ)[٦] قَالَ لِصَاحِبِهِ: اِشْتَرِ الخُبْزَ، فَاشْتَرَىٰ مَا يَكْفِيهِمَا، فَقَالَ: اِشْتَرِ أَكْثَرَ، فَاشْتَرَىٰ صَاحِبُهُ مَا يَكْفِي عَشْرَةَ أَنْفُسٍ تَعمُّدًا، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ لِقَوْلِ ذَلِكَ الشَّيْخِ تَحْقِيقًا، قَالَ: فَلَمَّا**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٨٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٠.

(٤) ورد قوله بنحوه في: تهذيب الأسرار ص٣٣٠ ـ ٣٣١.

(٥) في (ف): التروغندي.

(٦) في (أ): خرق، والصواب المثبت. وهي: قرية كبيرة بين خابران وطوس. انظر: التحبير في المعجم الكبير ٢/٢١٩، ومعجم البلدان ٢/٣٦٢.

صَعَدْنَا إِلَىٰ الجَبَلِ إِذَا بِجَمَاعَةٍ قَيَّدَتْهُمُ اللُّصُوصُ، لَمْ يَأْكُلُوا مُنْذُ مُدَّةٍ، فَسَأَلُونَا الطَّعَامَ، فَقَالَ: قَدِّمْ إِلَيْهِمُ السُّفْرَةَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ روحُ الفِراسةِ، فيهَا الاطِّلاعُ على أحوالِ هؤلاءِ المقيَّدِينَ وكونِهِمْ جيَاعًا لمْ يأكلُوا طعامًا، ولذلِكَ أمرَ تلميذَهُ بتكثيرِ شراءِ الخُبْزِ، فهذِهِ الفراسةُ الصَّادقةُ وأمثالُهَا[١].

۞ قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «كُنْتُ بَيْنَ يَدَيِ الأُسْتَاذِ الإِمَامِ أَبِي عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَوْمًا، فَجَرَىٰ حَدِيثُ الشَّيْخِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَأَنَّهُ يَقُومُ فِي السَّمَاعِ مُوَافَقَةً لِلْفُقَرَاءِ، فَقَالَ الأُسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ مِثْلُهُ فِي حَالِهِ، لَعَلَّ السُّكُونَ أَوْلَىٰ بِهِ، ثُمَّ قَالَ فِي ذَلِكَ المَجْلِسِ: اِمْضِ إِلَيْهِ وَهُوَ قَاعِدٌ فِي بَيْتِ كُتُبِهِ، وَعَلَىٰ وَجْهِ الكُتُبِ مُجَلَّدَةٌ حَمْرَاءُ مُرَبَّعَةٌ صَغِيرَةٌ فِيهَا أَشْعَارُ الحُسَيْنِ بْنِ مَنْصُورٍ، فَاحْمِلْ تِلْكَ المُجَلَّدَةَ وَلَا تَقُلْ لَهُ شَيْئًا وَجِئْنِي بِهَا، وَكَانَ وَقْتَ هَاجِرَةٍ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَإِذَا هُوَ فِي بَيْتِ كُتُبِهِ وَالمُجَلَّدَةُ مَوْضُوعَةٌ بِحَيْثُ ذَكَرَ، فَلَمَّا قَعَدْتُ أَخَذَ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي الحَدِيثِ وَقَالَ: كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يُنْكِرُ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنَ العُلَمَاءِ حَرَكَتَهُ فِي السَّمَاعِ، فَرُؤِيَ ذَلِكَ الإِنْسَانُ يومًا خَالِيًا فِي بَيْتٍ وَهُوَ يَدُورُ كَالْمُتَوَاجِدِ، فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ، فَقَالَ: كَانَتْ مَسْأَلَةٌ مُشْكِلَةٌ عَلَيَّ، فَتبَيَّنَ لِي مَعْنَاهَا، فَلَمْ أَتَمَالَكْ مِنَ السُّرُورِ حَتَّىٰ قُمْتُ أَدُورُ، فَقِيلَ لَهُ: مِثْلُ هَذَا يَكُونُ حَالُهُمْ.

فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا أَمَرَنِي [بِهِ] الأُسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَوَصَفَ لِي عَلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي قَالَ، وَجَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ الشَّيْخِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا كَانَ قَدْ ذَكَرَهُ بِهِ تَحَيَّرْتُ، وَقُلْتُ: كَيْفَ أَفْعَلُ بَيْنَهُمَا؟!، ثُمَّ أَفْكَرْتُ فِي نَفْسِي، وَقُلْتُ: لَا وَجْهَ إِلَّا الصِّدْقُ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٨٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩١.

فَقُلْتُ: إِنَّ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ وَصَفَ لِي هَذِهِ المُجَلَّدَةَ وَقَالَ لِي: اِحْمِلْهَا إِلَيَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْتَأْذِنَ الشَّيْخَ، وَأَنَا هُوَ ذَا أَخَافُكَ، وَلَيْسَ يُمْكِنُنِي مُخَالَفَتُهُ، فَأَيْشٍ تَأْمُرُ؟ فَأَخْرَجَ مُجَلَّدًا مُسَرَّسًا[١] مِنْ كَلَامِ الحُسَيْنِ وَفِيهِ تَصْنِيفٌ لَهُ وَسَمَّاهُ [٢/١٦٥ب] كِتَابُ: (الصَّيهورِ فِي نَقْصِ الدُّهُورِ)، وَقَالَ: احْمِلْ هَذَا إِلَيْهِ، وَقُلْ لَهُ: إِنِّي أُطَالِعُ تِلْكَ المُجَلَّدَةَ، فَأَنْقُلُ مِنْهَا أَبْيَاتًا إِلَىٰ مُصَنَّفَاتِي، فَخَرَجْتُ»[٢].

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ الَّتِي نقلَهَا الإمامُ القُشَيرِيُّ جرَتْ بينَ شيخَينِ؛ أحدُهُمَا: الأستاذُ أبو علِيٍّ الدَّقَّاقُ، والثَّانِي: أبُو عبدِ الرَّحمنِ السُّلمِيُّ، وذلكَ أنَّ كلَّ واحدٍ منهُمَا كُوشِفَ بحالِ الآخرِ وما هوَ عليهِ؛ فأمَّا أبو علِيٍّ فإنَّهُ جرَىٰ في مجلسِهِ ذِكْرٌ لأبِي عبدِ الرَّحمنِ السُّلمِيِّ، وأنَّهُ يقومُ في السَّماعِ، فقالَ الدَّقَّاقُ: كانَ الأليقُ بالشَّيخِ وحالِ القوَّةِ ألَّا يتحرَّكَ في السَّماعِ، ثمَّ قالَ للإمامِ القُشَيرِيِّ تلميذِهِ: اذهَبْ إلىٰ أبي عبدِ الرَّحمنِ السُّلمِيِّ فِي منزِلِهِ، فإذَا دخلْتَ عليهِ فإنَّكَ ستجدُهُ في بيتِ كُتُبِهِ، وتجدُ كتابًا مربَّعًا أحمرَ الجلدِ، فاحمِلْ إليَّ ذلكَ الكتابَ ولا تخبِرْهُ بمَا جرَىٰ، فلمَّا ذهبَ الإمامُ القُشيرِيُّ ودخلَ علىٰ أبِي عبدِ الرَّحمنِ السُّلمِيِّ وجدَهُ في بيتِ كُتُبِهِ كمَا وصفَ لهُ الشَّيخُ أبو علِيٍّ، ووجدَ المربعةَ الحمراءَ موضوعةً علىٰ كتبِهِ كمَا وصفَ لهُ، فهذَا يدلُّ علىٰ مكاشفةِ أبِي علِيٍّ بحالِ أبي عبدِ الرَّحمنِ السُّلمِيِّ في مَنْزِلِهِ، والمجلَّدةَ كمَا وصفَ.

قَالَ الإِمَامُ القُشيرِيُّ: فلمَّا دخلَتُ علىٰ الشَّيخِ أبي عبدِ الرَّحمنِ السُّلمِيِّ وجدْتُ الأمرَ علىٰ ما هوَ عليهِ، وجلسْتُ ساعةً ننظرُ في أمْرِ المربعَةِ كمَا أمَرَنِي الشَّيخُ أبُو عليٍّ، فجرَىٰ علىٰ لسانِ الشَّيخِ أبِي عبدِ الرَّحمنِ السُّلميِّ حكايةٌ قالَ فيهَا: «**كانَ بعضُ**

---

(١) في (ف): مشرسا.

(٢) وردت في: تاريخ بغداد ٢/٢٤٨، وسيرأعلام النبلاء ١٧/٢٥٤، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٤/١٤٦.

الفقهاءِ ينكرُ بعضَ المشايخِ الحركةَ في السَّماعِ»، فرُئِيَ ذلكَ الفقيهُ في بعضِ الأوقاتِ في منزلِهِ وقدْ قامَ تواجدَ فِي بيتِهِ فسُئِلَ عنْ ذلكَ وما سببُهُ؟ قالَ: «**كانَتْ عليَّ مسألةٌ مُنْغَلِقةٌ ففتحَ اللهُ عليَّ فيهَا الآنَ، فمَا تَمالكتُ أنْ قُمْتُ من شدَّةِ الطَّربِ**»، فقيلَ للفقيهِ: لا تُنْكِرْ علىٰ غيرِكَ، فإنَّ أحوالَهُمْ مِنْ هذا القبيلِ غلبةٌ.

وفيمَا جرَىٰ علىٰ لسانِ أبي عبدِ الرَّحمنِ السُّلميِّ مُكاشفةٌ وتنبيهٌ علىٰ ما أنكرَهُ الشَّيخُ أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ فِي مجلسِهِ، حيثُ قالَ: كانَ اللَّائقُ بهِ الجلوسَ، فإنَّهُ أثبتُ لحالِهِ، ففهمَهَا الشَّيخُ القُشيرِيُّ، وفهمَ أنَّهُ اطَّلعَ علَىٰ ما جرَىٰ علىٰ لسانِ أبي علِيٍّ، ولهذَا بقِيَ متحيِّرًا؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهُمَا اطَّلَعَ علىٰ ما جرَىٰ فِي مجلسِ الثَّانِي، فلَمْ يمكنِ القُشيرِيُّ [٢/١٦٦أ] إلَّا الصِّدقَ، وقالَ: «**يا سيِّدِي، أمرَنِي الشَّيخُ أبو عليٍّ أنْ أحملَ هذهِ المجلَّدَةَ إليهِ بحيثُ لا تعلمُ**»، فمَا وجدتُ لذلكَ سبيلًا لمَا جرَىٰ علىٰ لسانِكَ؛ ممَّا يدلُّ علَىٰ ما كانَ منهُ في مجلسِهِ، ولَا أدرِي ما أصنعُ؟ فأخرجَ لِي مجلَّدَةً أخرَىٰ فيهَا بعضُ تواليفِهِ، أعنِي تواليفَ السُّلمِيِّ، وسمَّاهُ كتابَ: (**الصّيهورُ فِي نَقْضِ الدّهُورِ**)، وهذَا الكتابُ ـ واللهُ أعلمُ ـ فِي الرَّدِّ علىٰ الدَّهرةِ القائلِينَ بقِدَمِ العالمِ، وسمَّاهُ: «الصَّيهورَ» مشتَقٌّ منَ الصَّهْرِ[1]، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠].

وجاءَ في الخبرِ[2] «أنَّ أهلَ النَّارِ يشتكُونَ العطشَ فيُرْفَعُ إليهِمُ الحميمُ بكلالِيبِ الحديدِ، فإذَا أدناهُ إلىٰ وجْهِهِ سقطَتْ فروةُ وجهِهِ عليهِ، فإذَا شربَ منهُ شربةً نفذَ إلىٰ تحتِ قدَميهِ وأُسْقِطَ اللَّحمُ والجلدُ وسائرُ ما عليهِ»، ويكونُ هذا التَّأليفُ يبطلُ مذاهبَ الدَّهريَّةِ ويبطلُهَا حتَّىٰ لا يبقَىٰ لهُمْ شبهةٌ ـ واللهُ أعلمُ ـ.

---

(١) وفي التهذيب «ط هـ ر»: «قال الليث: الصَّيْهُور ما يُوضَع عليه متاعُ البيت من صُفْر أو شَبَهٍ أو نحوِه». وانظر: التلخيص في معرفة الأشياء ص١٩١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٧٠٧، وابن أبي الدنيا في صفة النار ص٦٥.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَيُحْكَىٰ عَنِ الحَسَنِ الحَدَّادِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي القَاسِمِ المُنَادِي وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الفُقَرَاءِ، فَقَالَ لِي: اُخْرُجْ وَائْتِهِمْ بِشَيْءٍ، فَسُرِرْتُ حِيْنَ أَذِنَ لِي فِي التَّكَلُّفِ لِلْفُقَرَاءِ وَأَنْ آتِيَهُمْ بِشَيْءٍ بَعْدَ مَا عَلِمَ فَقْرِي، قَالَ: فَحَمَلْتُ مِكْتَلًا وَخَرَجْتُ، فَلَمَّا أَتَيْتُ (سِكَّةَ سَيَّارٍ)[٢] رَأَيْتُ شَيْخًا بَهِيًّا، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ: جَمَاعَةٌ مِنَ الفُقَرَاءِ فِي مَوْضِعٍ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَتَخَلَّقَ مَعَهُمْ بِشَيْءٍ!؟ فَأَمَرَ حَتَّىٰ أَخْرَجَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ مِنَ الخُبْزِ وَاللَّحْمِ وَالعِنَبِ، فَلَمَّا بَلَغْتُ البَابَ نَادَانِي أَبُو القَاسِمِ المُنَادِي مِنْ وَرَاءِ البَابِ: رُدَّهُ إِلَىٰ المَوْضِعِ الَّذِي أَخَذْتَهُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ وَاعْتَذَرْتُ إِلَىٰ الشَّيْخِ، وَقُلْتُ: لَمْ أَجِدْهُمْ، وَعَرَّضْتُ بِأَنَّهُمْ تَفَرَّقُوا، وَرَدَدْتُ السَّبَبَ[٣] عَلَيْهِ، ثُمَّ جِئْتُ السُّوقَ فَفُتِحَ عَلَيَّ بِشَيْءٍ فَحَمَلْتُهُ، فَقَالَ: اُدْخُلْ، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ القِصَّةَ، فَقَالَ: نَعَمْ، ذَلِكَ ابْنُ سَيَّارٍ رَجُلٌ سُلْطَانِيٌّ، إِذَا جِئْتَ لِلْفُقَرَاءِ بِشَيْءٍ فَائْتِهِمْ بِمِثْلِ، هَذَا لَا بِمِثْلِ ذَلِكَ».

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وموضعُ الاستشهادِ بالفِرَاسةِ أمرُهُ لهُ بردِّ طعامِ ذلكَ الشَّيخِ لكونهِ مِنْ خُدَّامِ السُّلطانِ، وإذنُهُ لهُ بالدُّخولِ كمَا أتَىٰ بغيرِ ذلكَ الطَّعامِ، ولَمْ يَكُنْ رآهُ في الحالتَينِ، ولَا عِلمَ مَا معَهُ إلَّا بالفِرَاسةِ [٢/١٦٦ب]، فهذَا روحُ هذهِ الحكايةِ[٤].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ أَبُو الحُسَيْنِ القَرَافِيُّ[٦]: زُرْتُ أَبَا الخَيْرِ التِّينَاتِي، فَلَمَّا وَدَّعْتُهُ خَرَجَ مَعِي إِلَىٰ بَابِ المَسْجِدِ وَقَالَ: يَا أَبَا الحُسَيْنِ، أَنَا أَعْلَمُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٢) موضع بنسابور.

(٣) أي: الطعام.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٩٠.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٢.

(٦) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦٦/١٦٢، وفيه: «القيرواني»، وطبقات الأولياء ص١٩٢.

أَنَّكَ لَا تَحْمِلُ مَعَكَ مَعْلُومًا وَلَكِنِ احْمِلْ هَاتَيْنِ التُّفَّاحَتَيْنِ ، فَأَخَذْتُهُمَا وَوَضَعْتُهُمَا فِي جَيْبِي ، وَسِرْتُ ، فَلَمْ يُفْتَحْ لِي بِشَيْءٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَأَخْرَجْتُ وَاحِدَةً مِنْهُمَا فَأَكَلْتُهَا ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أُخْرِجَ الثَّانِيَةَ ، فَإِذَا هُمَا جَمِيعًا فِي جَيْبِي ، فَكُنْتُ آكُلُ مِنْهُمَا وَتَعُودَانِ ، إِلَىٰ بَابِ (المَوْصِلِ).

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّهُمَا يُفْسِدَانِ عَلَيَّ حَالَ تَوَكُّلِي ؛ إِذَا صَارَتَا مَعْلُومًا لِي ، فَأَخْرَجْتُهُمَا مِنْ جَيْبِي بِمَرَّةٍ[١] ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فَقِيرٌ مَلْفُوفٌ فِي عَبَاءَةٍ يَقُولُ: أَشْتَهِي تُفَّاحَةً ، فَنَاوَلْتُهُمَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا عَبَرْتُ وَقَعَ لِي أَنَّ الشَّيْخَ إِنَّمَا بَعَثَهُمَا إِلَيْهِ ، وَكُنْتُ فِي رِفْقَةٍ فِي الطَّرِيقِ ، فَانْصَرَفْتُ إِلَى الْفَقِيرِ فَلَمْ أَجِدْهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذهِ الحكايةُ تدلُّ علىٰ أنَّ أبَا الخيرِ كُوشِفَ بحالِ ذلكَ المريضِ الفقيرِ ، وأنَّهُ كانَ يتمنَّىٰ التُّفَّاحَ وليسَ ببلدِهِ ، فلمَّا وجدَ أبَا الحسينِ مسافرًا لتلكَ الجِهةِ حمَّلَهُ التُّفَّاحتَينِ علىٰ وجْهِ الأَمَانةِ ، ويدلُّ عليهِ قولُهُ: «**أنا أعلَمُ أنَّكَ لا تحملُ معلومًا ، ولكنِ احملْ هاتَينِ التُّفَّاحتَينِ معكَ**» ، ولمْ يبيِّنْ لهُ المقصودَ منهُمَا حتَّىٰ يتبيَّنَ هوَ ذلكَ بنفسِهِ ، ويعرفَ صِدْقَ همَّةِ أبِي الخيرِ في الإرسالِ ، وأنَّهُ كانَ إذا أدخلَ يدَهُ في جيبِهِ ليأكلَ منهُمَا أكلَ غيرَهُمَا ، وبقِيَتَا معَهُ علىٰ وجهِ الأمانةِ ، وكانَ ذلكَ في حالِ سفرِهِ مناقضًا لمَا عزَمَ عليهِ مِنْ ترْكِ حملِ المعلومِ الَّذي دُفِعَ لهُ علىٰ وجْهِ الأمانةِ ، فلمَّا أجاعَهُ اللهُ ثلاثةَ أيَّامٍ ولمْ يُفتحْ عليهِ بشيءٍ دعَتْهُ الحاجةُ إلىٰ أكْلِ ذلكَ ؛ لأنَّ الشَّيخَ لمْ يصرِّحْ لهُ بأنَّهُمَا أمانةٌ ، وإنَّمَا قالَ لهُ: «**احمِلْهُمَا معكَ ، فلمَّا أدخلَ يدَهُ وأكلَ واحدةً ، ثمَّ أدخلَ يدَهُ ليأكلَ الأُخرَىٰ فوجدَهُمَا تفَّاحتَينِ**» تنبَّهَ لخَرْقِ العادةِ ، ولمْ يزَلْ ينتفعُ بهِمَا في وقتِ حاجتِهِ إلىٰ الأكْلِ في سَفرِهِ فيأكلُ ويجدُهُمَا علىٰ مَا همَا عليهِ ، فلمَّا سكنَتْ نفسُهُ إلىٰ هذَا الخارِقِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ

---

(١) أي: بالكلية.

وهوَ بسببِ الشَّيخِ المرسلِ لهُمَا خشِيَ أنْ لا يتمَّ توكُّلُهُ من اعتمادِ قلبِهِ على اللهِ لا علَى الأسبابِ، وكانَ ذلكَ عندَ انتهاءِ سفرِهِ إلى (الموصلِ)، فأخرجَهُمَا [٢/١٦٧أ] بمرَّةَ ليستريحَ منهُمَا، فلَا يسكنُ بقلبِهِ لغيرِ اللهِ، فلمَّا أخرجَهُمَا رأى هذَا الفقيرَ ملفوفًا على الطَّريقِ مطروحًا وهوَ يقولُ: «**أشتَهِي تفَّاحًا**»، فسلَّمَهُمَا إليهِ ثمَّ تعدَّاهُ معَ أصحابِهِ، ثمَّ خطرَ ببالِهِ أنَّ التُّفَّاحتَينِ إنَّمَا كانَتَا معَهُ رسالةً لهذَا الفقيرِ مِنْ أبِي الخيرِ؛ ولذلِكَ لمْ يقدرْ على أكلِهِمَا، فرجعَ إليهِ ليسألَهُ أوْ لينتفعَ بهِ فلمْ يجدْهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرِو بْنَ عُلْوَانٍ يَقُولُ**[(٢)]**: كَانَ شَابٌّ يَصْحَبُ الجُنَيْدَ، وَكَانَ يَتَكَلَّمُ عَلَى خَوَاطِرِ النَّاسِ، فَذُكِرَ لِلْجُنَيْدِ، فَقَالَ لَهُ الْجُنَيْدُ: أيش هَذَا الَّذِي ذُكِرَ عَنْكَ؟! فَقَالَ لِلْجُنَيْدِ: اِعْتَقِدْ شَيْئًا، فَقَالَ: اِعْتَقَدْتُ، فَقَالَ الشَّابُّ: اِعْتَقَدْتَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ الجُنَيْدُ: لَا، فَقَالَ الشَّابُّ: اِعْتَقِدْ ثَانِيًا، فَفَعَلَ، فَقَالَ: اِعْتَقَدْتَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: لَا، فَقَالَ ثَالِثًا: فَقَالَ مِثْلَهُ، فَقَالَ الشَّابُّ: هَذَا عَجَبٌ! أَنْتَ صَدُوقٌ، وَأَنَا أَعْرِفُ قَلْبِي، فَقَالَ الجُنَيْدُ: صَدَقْتَ فِي الأَوَّلِ وَالثَّانِي وَالثَّالِثِ، لَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَمْتَحِنَكَ هَلْ يَتَغَيَّرُ قَلْبُكَ؟**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقدْ تقدَّمَتْ هذِهِ الحكايةُ فِي غيرِ هذَا الموضعِ، وموضعُ الاستشهادِ على الفِراسةِ اطِّلاعُ الشَّابِّ على مَا أضمَرَهُ الجُنيدُ ثلاثَ مرَّاتٍ، وتصديقُ الجُنيدِ لهُ علم ما قالَ، وبيَّنَّا أنَّ قولَ الجُنيدِ فِي كلِّ مرَّةٍ: (لَا) ليسَ بكذبٍ، إنَّمَا هوَ عدولٌ إلى المعاريضِ، ومعناهُ: لا يكفِينِي في الامتحانِ[(٣)].

ولقدْ باشرْنَا أربابَ هذا الحالِ؛ منهُمْ: (سيِّدُهُمُ الإسكندرانِيُّ) رَحِمَهُ اللَّهُ، كانَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٢.

(٢) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٠٧.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٩١.

كثيرًا ما يتكلَّمُ على خواطِرِ النَّاسِ، ذكرَ لِي مَنْ أثِقُ بِهِ أَنَّهُ اشترَىٰ يومًا عِنَبًا وكانَ في أوَّلِ السَّنةِ لَمْ تكملْ حلاوتُهُ فمضَىٰ إلى أهلِهِ ولَمْ يأكلْ منهُ، ولَمْ يحصلْ لَهُمْ منهُ المقصودُ، قالَ لِي: «فبينَمَا أنَا جالسٌ في السُّوقِ أفكِّرُ في قضيَّةِ العنبِ، وهَلْ يكتفُوا بهِ أوْ أشترِي غيرَهُ؟، وإذا بهذَا الرَّجلِ يسمَّىٰ (سيِّدَهُمْ) قدْ أقبلَ مِنْ طرفِ السُّوقِ وسلَّمَ علَيَّ وقالَ: ما العنبُ الحامضُ إلَّا ليسَ بشيءٍ.

ولقدْ أخبرَنِي مَنْ أثقُ بهِ أيضًا أنَّ زوجتَهُ كانَتْ شابَّةً تزيَّنَتْ بعملِ النَّقشِ علىٰ يدَيهَا ورِجْلَيْهَا كمَا عادةُ النِّسوانِ والعادةُ جاريةٌ بأنَّهُ يُغشُّ بشيءٍ يكونُ سببَ سَوادِهِ، ويبقَىٰ ذلكَ علىٰ أيديهِمْ وأرجُلِهِمْ ساعةً طويلةً، فاتَّفَقَ أنَّهَا غشَّتْهُ قبلَ [٢/١٦٧ب] صلاةِ الفجرِ وأخَّرَتْ قلعَهُ قبلَ طلوعِ الشَّمسِ لتصلِّي، فلَمْ يتَّفِقْ لهَا ذلكَ الأمرُ، فأتَىٰ زوجُهَا المخبَرَ المذكورَ، وتغيَّظَ عليهَا ونكَّدَهَا، وجهلَ سرورَهَا ترحًا، ثمَّ حلفَ أنَّها لا فعلَتْ مثلَ هذَا النَّقشِ ما دامَتْ زوجةً لهُ، وهذَا مؤلِمٌ جدًّا، قالَ: فلمَّا اجتمعَ هذا المخبرُ بالشَّيخِ سيِّدِهِمُ المذكورِ قالَ لهُ: يا فلانُ ـ باسمِهِ ـ: تُطْلَبُ النِّساءُ بالكلِّيَّاتِ؟! أيْ: عامِلْهُنَّ بالرِّفقِ حتَّىٰ يتعوَّدْنَ الخيرَ.

❊ **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَلَقَدْ جرَىٰ لِي معَهُ مثلُ هذَا غيرَ مرَّةٍ؛ وذلكَ أنَّهُ كانَ يصعدُ إلَيَّ في موضعٍ كنتُ ساكِنًا بهِ، وحضرَ إليَّ قبلَ صعودِهِ ذاتَ يومٍ الشَّيخُ الفقيرُ الزَّاهدُ محمَّدُ بنُ القاسمِ الدَّكالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ورأَىٰ عندِي مبطَّنَةً علىٰ وتدٍ في بيتِي، فقالَ لِي: نأخذُ هذهِ المبطَّنَةَ نسافرُ بهَا علىٰ وجْهِ البسْطِ معِي فقلتُ لهُ: لَا، وجلسَ عندِي ساعةً ونزلَ، فدخلَ علَيَّ بعدَهُ سيِّدُهُمُ المذكورُ ونظرَ إلى المبطَّنَةِ وقالَ: لَا تُعطِهَا لأحدٍ، فقلتُ: ما السَّببُ؟ اجتمعَ بكَ محمَّدٌ الدَّكالِيُّ؟ فقالَ لِي: لَا، ولكنِّي رأيتُ فيهَا سِرًّا، واتَّفَقَ أنِّي حملتُ المبطَّنَةَ إلىٰ دارِي وبقيتْ عندِي أيَّامًا، فلمَّا كانَ في بعضِ الأيَّامِ جاءَنِي محمَّدٌ المذكورُ إلىٰ منزلِي قبلَ الفجرِ، وتحدَّثَ معِي، وأعلَمَنِي أنَّهُ مسافرٌ، وطلبَ منِّي المبطَّنَةَ فلمْ يُمكنِّي حبسُهَا عنهُ، وسلَّمْتُهَا إليهِ

وسافرَ بهَا، وتُوفِّيَ بـ(قَرافة مصرَ)، فأخبَرَنِي مَنْ أثقُ بهِ أنَّ المبطَّنَةَ بيعَتْ بمالٍ كثيرٍ.

وهذَا المعنَىٰ هوَ الَّذِي لحظَهُ سيِّدُهُمْ أوَّلًا، وعزمْتُ علىٰ سفرِي إلىٰ الحجِّ، ومَنْ كانَ معِي مِنْ أصحابِي علىٰ أنَّا نسافرُ علىٰ (عَيْذاب)(١) وصمَّمْنَا عليهِ منَ الثَّغرِ، فبينَا نحنُ في السِّباخِ سلَّمَ عليَّ الشَّيخُ أبو الفتحِ المعينُ العدلُ، وقالَ الشَّيخُ: سيِّدُهُمْ يسلِّمُ عليكَ ويقولُ: كيفَ تخلِّي الطريقَ الَّتِي عرفتَهَا أوَّلًا؟!، وكنتُ سافرتُ قبلَ ذلكَ بمدَّةٍ علىٰ طريقِ (القُصيْرِ)، فلمَّا وصلْنَا إلىٰ (قوصٍ)(٢) ونحنُ علىٰ عزمِ (عَيْذاب) يسَّرَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ منَ الأسبابِ ما أوجَبَ الرجوعَ عنْ (عَيْذَاب) إلىٰ (القُصيرِ)، ففهمْتُ إشارةَ الشَّيخِ سيِّدِهِمْ، أيْ: أنَّكُمْ لا تسافرُونَ إلَّا لهذهِ الجهةِ، وربَّمَا صلَّىٰ ورائِي العصرَ فِي مسجدِي، ثمَّ أفاضَ إليَّ وقالَ: ما لكَ بُنيَّةٌ ـ واسمُهَا السَّعديَّةُ ـ، ويكونُ عندَ أهلِي جملٌ، فيقعُ الأمرُ كما ذكرَ، ولقدْ جرَتْ لِي قضيَّةٌ بمكَّةَ، فلمَّا جئتُ إلىٰ الإسكندريَّةِ [١٦٨/٢أ] أخبَرَنِي بهَا كمَا جرَتْ، وهذَا كثيرٌ ممَّا يقعُ للصَّالحِينَ.

قَالَ الإِمَامُ رضي الله عنه(٣): **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الرَّازِي يَقُولُ(٤): اِعْتَلَّ ابْنُ البَرْقِيِّ(٥)، فَحُمِلَ إِلَيْهِ دَوَاءٌ فِي قَدَحٍ، فَأَخَذَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَقَعَ اليَومَ فِي المَمْلَكَةِ حَدَثٌ، لَا آكُلُ وَلَا أَشْرَبُ حَتَّىٰ أَعْلَمَ مَا هُوَ، فَوَرَدَ الخَبَرُ بَعْدَ أَيَّامٍ أَنَّ القَرْمَطِيَّ دَخَلَ مَكَّةَ(٦) فِي ذَلِكَ اليَومِ، وَقَتَلَ بِهَا تِلْكَ المَقْتَلَةَ العَظِيمَةَ.**

---

(١) في معجم البلدان ٤/١٧١: «عيذاب ـ بالفتح، ثم السكون، وذال معجمة، وآخره باء موحدة ـ بليدة علىٰ ضفة بحر القلزم، هي مرسىٰ المراكب التي تقدم من عدن إلىٰ الصعيد».

(٢) مدينة مشهورة بصعيد مصر. انظر: معجم البلدان ٤/٤١٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٣.

(٤) ورد قوله في: روض الرياحين في حكايات الصالحين ص١٣٨.

(٥) أي: مرض.

(٦) سبع عشرة وثلاثمائة في يوم التروية، فنهب الحاج بها وقتلهم حتىٰ في المسجد الحرام،=

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ المَغْرِبِيَّ يَقُولُ: ذُكِرَ لِابْنِ الكَاتِبِ هَذِهِ الحِكَايَةُ، فَقَالَ: هَذَا عَجَبٌ!، فَقُلْتُ: لَيْسَ هَذَا بِعَجَبٍ، فَقَالَ لِي أَبُو عَلِيٍّ بْنُ الكَاتِبِ: أَيش خَبَرُ مَكَّةَ اليَوْمَ؟ فَقُلْتُ: هُوَ ذَا، يَتَحَارَبُ الطَّلْحِيُّون[1] وَبَنُو الحُسَيْنِ وَمقدَّمُ الطَّلْحِيِّينَ أَسْوَدُ عَلَيْهِ عِمَامَةٌ حَمْرَاءُ، وَعَلَىٰ مَكَّةَ اليَوْمَ غَيْمٌ عَلَىٰ مِقْدَارِ الحَرَمِ، فَكَتَبَ أَبُو عَلِيٍّ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَكَانَ كَمَا ذَكَرْتُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأوَّلُ الحكايةِ أنَّهُ كُوشِفَ بأمْرٍ عظيمٍ، ولمْ يدْرِ ما هوَ، فأقسمَ أنَّهُ لا يَشْرَبُ القَدحَ الَّذِي أتَىٰ، ولا يطْعَمُ حتَّىٰ ينكشفَ لهُ الأمرُ ويعلمَ ما هوَ.

ومِنْ هذا القبيلِ ما حُكِيَ أنَّ بعضَهُمْ كانَ يقولُ لأصحابِهِ: هلْ فيكُمْ مَنْ إذا أرادَ اللهُ أنْ يحدِثَ حدَثًا أطلَعَهُ عليهِ قبلَ أنْ يُحدِثَهُ؟ فمَا كانَ إلَّا يسيرًا حتَّىٰ بلغَهُ الخبَرُ أنَّ مكَّةَ دخلَهَا القرمطِيُّ، وقتَلَ فيهَا تلكَ المقتلَةَ العظيمةَ، قالَ: «**فلمَّا ذُكِرَ هذَا لابنِ الكاتِبِ تعجَّبَ منهُ**»، وكانَ عندَهُ حاضِرًا أبو عثمانَ المغربِيُّ فقالَ: ليسَ هذا بعجيبٍ، فأخبَرَهُ عنْ نفسِهِ أنَّ مكَّةَ يقتتلُ بهَا بنُو طلحةَ وبنُو الحُسينِ، وأنَّ مقدَّمَ بنِي طلحةَ رجلٌ أسودُ عليهِ عمامةٌ حمراءُ، وعلَىٰ مكَّةَ غيمٌ علىٰ مقدارِ الحرَمِ.

ففِي هذهِ القصَّةِ مكاشفتَانِ: إحداهُمَا لابنِ برقِيٍّ الَّذِي أخبَرَ عنِ الواقعةِ العظيمةِ الَّتِي كانَتْ بمكَّةَ، والثَّانِي مكاشفةُ أبِي عثمانَ المغربيِّ عنِ الحربِ الَّذِي كانَ بمكَّةَ وأنَّ مقدِّمةَ الطَّلحِيِّينَ رجلٌ أسودُ عليهِ عمامةٌ حمراءُ، وهذَا إنَّمَا يكونُ

= وداخل الكعبة، وأخذ الحجر الأسود من الركن ونقله إلىٰ هجر، وقتل أمير مكة ابن محلب وأصحابه، وقلع باب البيت، وأصعد رجلا ليقلع الميزاب فسقط فمات.

انظر: تاريخ بغداد ٢/٢٣٦، وتاريخ ابن الوردي ١/٢٥١.

(١) أي: بنو طلحة.

مكاشفةً وليسَ هوَ ممَّا بينَ النَّومِ واليقظةِ، وإنَّمَا هوَ مكاشفةُ عينٍ، كمَا قالَ عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(١)]: «يا سَاريةُ، الجبلَ».

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٢)]: «وَيُرْوَىٰ عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ[(٣)]: دَخَلْتُ عَلَىٰ عُثْمَانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَكُنْتُ رَأَيْتُ فِي الطَّرِيقِ [٢/١٦٨ب] اِمْرَأَةً، تَأَمَّلْتُ مَحَاسِنَهَا، فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يَدْخُلُ عَلَيَّ أَحَدُكُمْ وَآثَارُ الزِّنَا ظَاهِرَةٌ عَلَىٰ عَيْنَيْهِ؟!، فَقُلْتُ: أَوَحْيٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟! فَقَالَ: لَا، وَلَكِنْ تَبْصِرَةٌ وَبُرْهَانٌ وَفِرَاسَةٌ صَادِقَةٌ».

۞ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ فراسةِ عثمانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ واطِّلاعِهِ علىٰ النَّظرةِ الَّتِي نظرَهَا الدَّاخلُ عليهِ بشهوةٍ، وسمَّاهُ زنًا؛ لأنَّ «زنَا العينينِ النَّظرُ، والعينُ تزنِي، فيصدِّقُ الفرجُ ذلكَ ويكذِّبُهُ[(٤)]»[(٥)].

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٦)]: «وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخَرَّازُ[(٧)]: دَخَلْتُ المَسْجِدَ الحَرَامَ، فَرَأَيْتُ فَقِيرًا عَلَيْهِ خِرقَتَانِ يَسْأَلُ شَيْئًا، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مِثْلُ هَذَا كَلٌّ عَلَىٰ النَّاسِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ وَقَالَ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٣.

(٣) ورد في: تهذيب الأسرار ص٣٢٥، ومفاتيح الغيب ٢١/٧٥.

(٤) أي: بالفعل أو عدمه.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٣٠٤ ـ حديث رقم (٥٨٨٩): «.... فزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تتمنىٰ وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك كُلَّهُ أو يكذبه». وكذا مسلم في صحيحه ٤/٢٠٤٦ ـ حديث رقم (٢٦٥٧).

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٣.

(٧) ورد في قوله: تهذيب الأسرار ص٣٢٥، وإحياء علوم الدين ٣/٢٥، ومحاضرات الأدباء ٢/٤١٥.

قَالَ: فَاسْتَغْفَرْتُ فِي سِرِّي، فَنَادَانِي وَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الطَّلبَ عندَ الحاجةِ يجوزُ للأكابرِ وأربابِ الأحوالِ معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ إذَا كانَ ذلكَ بإشارةٍ منَ الوقتِ يَفْهَمُونَ منهَا إذَا تأخَّرَ عنهُمُ الرِّزقُ وخَشَوْا علىٰ أنفسِهِمِ الإخلالَ بالواجباتِ أنَّ اللهَ أرادَ منهُمُ التَّسبُّبَ والطَّلبَ، ويكونُونَ في تسبُّبِهِمْ ناظرِينَ إليهِ، وإلىٰ ما يُجريهِ لَا لغيرِهِ، فلمَّا نظرَ أبو سعيدٍ إلىٰ هذَا الفقيرِ وهوَ يسألُ بناءً علىٰ ظاهرِ أمرِهِ، وهوَ أنَّهُ إنَّمَا سألَ لعجْزِهِ وكرِهَ منهُ أنْ يكونَ كَلًّا علَىٰ النَّاسِ، فأطلَعَ اللهُ الفقيرَ علىٰ ما وقعَ في نفسِ أبِي سعيدٍ متعلِّقًا بهِ، فرفعَ رأسَهُ إلىٰ أبي سعيدٍ وتلَا قولَهُ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾، أيْ: لَا تُسِئِ الظَّنَّ بمَنْ لمْ تطَّلِعْ علىٰ حالِهِ بالكلِّيَّةِ، فلمَّا سمعَ أبو سعيدٍ ذلكَ علِمَ منْ نفسِهِ أنَّهُ استعجلَ في الحكمِ عليهِ بالأولويَّةِ، ونَدِمَ علىٰ ما كانَ منهُ، فرفعَ رأسَهُ إليهِ الفقيرُ أيضًا، وأعلَمَهُ أنَّهُ اطَّلعَ علىٰ ما في نفسِهِ من ندمِهِ وتوبتِهِ وتلَا قولَهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾.

ومنْ هذا القبيلِ ما تقدَّمَ منْ أنَّ بعضَهُمْ[١] رأىٰ رجلًا يأكلُ ما تساقطَ مِنْ أوراقِ البقْلِ في موضعِ غسْلِهِ، فوقعَ في نفسِهِ أنَّهُ لوِ اكتسبَ استغنَىٰ عنْ هذَا، فلمَّا كانَ بالَّليلِ رأىٰ فيمَا يرىٰ النَّائمُ كأنَّهُ أُتِيَ بذلكَ الشَّخصِ الَّذِي [١٦٩/٢أ] رآهُ يأكلُ الورقَ في صورةِ ميِّتٍ علىٰ خوانٍ فقيلَ لهُ: «كُلْ لحمَهُ؛ لأنَّكَ اغتبتَهُ، فقالَ: ما اغتبتُ، وإنَّمَا هوَ شيءٌ وقعَ في نفسِي، قيلَ لهُ: مثلُكَ مَا يُرْضَىٰ منهُ بهذَا»، ولهذَا أسرَّ، وذلكَ أنَّ الغيبةَ إنَّمَا حُرِّمَتْ لأذيَّةِ قلبِ المغتابِ علىٰ تقديرِ البلوغِ إليهِ، ومَا فِي قلبِ الإنسانِ منْ سوءِ الظَّنِّ لا يبلغُ، فبذلِكَ لمْ يكنْ غِيبةً، ولكنْ لمَّا كانَ

(١) ورد في: طبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٦٣، عن الجنيد.

الخوَّاصُّ يُطْلِعُ اللهُ بعضَهُمْ علىٰ ما فِي قلبِ البعضِ حصلَتِ الأذيَّةُ للمطَّلِعِ علىٰ ما في نفسِ الآخرِ، ولذلِكَ قيلَ لهُ: «لا يقنعُ مَنْ مثلُكَ بهذا»، قالَ الرَّائِي: «فلمَّا استيقظْتُ مضيْتُ إلىٰ موضعِ غسلِ البقلِ أتفقَّدُ الرَّجلَ لأستحلَّهُ فلمَّا رآنِي قالَ لِي: تُبْتَ؟ فقلتُ: نعَمْ، فقالَ: غفرَ اللهُ لكَ».

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَيُحْكَىٰ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الخَوَّاصِ قَالَ[٢]: كُنْتُ بِـ(بَغْدَادَ) فِي جَامِعِ المَدِينَةِ، وَهُنَاكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الفُقَرَاءِ، فَأَقْبَلَ شَابٌّ ظَرِيفٌ، طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، حَسَنُ الحُرْمَةِ[٣]، حَسَنُ الوَجْهِ، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِنَا: يَقَعُ لِي أَنَّهُ يَهُودِيٌّ، فَكُلُّهُم كَرِهُوا ذَلِكَ، فَخَرَجْتُ، وَخَرَجَ الشَّابُّ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: أيش قَالَ الشَّيْخُ فِيَّ؟ فَاحْتَشَمُوهُ فَأَلَحَّ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: قَالَ: إِنَّكَ يَهُودِيٌّ، قَالَ: فَجَاءَ وَأَكَبَّ عَلَىٰ يَدَيَّ وَأَسْلَمَ.

فَقِيلَ لَهُ: مَا السَّبَبُ؟ فَقَالَ: نَجِدُ فِي كُتُبِنَا أَنَّ الصِّدِّيقَ لَا تُخْطِئُ فِرَاسَتُهُ، فَقُلْتُ: أَمْتَحِنُ المُسْلِمِينَ، فَتَأَمَّلْتُهُمْ وَقُلْتُ: إِنْ كَانَ فِيهِمْ صِدِّيقٌ فَفِي هَذِهِ الطَّائِفَةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ حَدِيثَهُ[٤] ـ سبحانه ـ وَيَقْرَؤُونَ كِتَابَهُ ـ سبحانه ـ فَلَبَّسْتُ عَلَيْكُمْ، فَلَمَّا اطَّلَعَ هَذَا الشَّيْخُ عَلَيَّ وَتَفَرَّسَ فِيَّ عَلِمْتُ أَنَّهُ صِدِّيقٌ، وَصَارَ الشَّابُّ مِنْ كِبَارِ الصُّوفِيَّةِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنِ اشتغلَ بكتابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وسُنَّةِ نبيِّهِ وعمِلَ علىٰ ذلِكَ بلَّغَهُ اللهُ درجةَ الصِّدِّيقيَّةِ؛ لأنَّ هذَا الشَّابَّ اليهوديَّ قالَ: «إنَّا نجدُ في كتبِنَا أنَّ الصِّدِّيقَ لا تخطِئُ فِراستُهُ»، ثمَّ فتَّشَ علىٰ الصِّدِّيقيَّةِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٢٥، وإحياء علوم الدين ٢/٢٩٤.

(٣) في (ف): الخدمة. والقصد: حسن الاحترام.

(٤) أي: يتلون كلامه.

فوجدَهَا فيمَنْ يقرأُ القرآنَ، وحديثَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعملُ بذلِكَ[١].

وموضعُ الاستشهادِ للفراسةِ في الحكايةِ قولُ الشَّيخِ: «إنَّهُ يهودِيٌّ»؛ فصحَّتْ فِرَاسَتُهُ في ذلِكَ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ العَلَاءِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ دَاوُدَ يَقُولُ**[٣]: **كُنَّا عِنْدَ الجُرَيْرِيِّ فَقَالَ: [هَلْ] فِيكُمْ مَنْ إِذَا** [١٦٩/٢ب] **أَرَادَ الحَقُّ - سبحانه - أَنْ يُحْدِثَ فِي المَمْلَكَةِ حَدَثًا أَعْلَمَهُ قَبْلَ أَنْ يُبْدِيَهُ؟، قُلْنَا: لَا، فَقَالَ: اِبْكُوا عَلَىٰ قُلُوبٍ لَمْ تَجِدْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الفِرَاسةَ ثمرةُ الاستقامةِ والجدِّ في الطَّلبِ؛ للإعراضِ عنِ الخَلْقِ وكمالِ الشُّغلِ باللهِ - تعالىٰ -، فإذَا كانَتِ القلوبُ كذلِكَ، فقدْ عاشَتْ مِنْ موتِ الغَفْلَةِ والشُّغلِ بمَا لا يعنِي، وهيَ الَّتِي يكونُ فيهَا الإلهامُ الصَّحيحُ والخواطرُ الصَّائبةُ، ولذلِكَ قالَ: «**ابكُوا علىٰ قلوبٍ لَمْ تجدْ منَ اللهِ شيئًا**».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقَالَ أَبُو مُوسَىٰ الدَّيْبُلِيُّ**[٥]: **سَأَلْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يَحْيَىٰ عَنِ التَّوَكُّلِ، فَقَالَ: لَوْ أَدْخَلْتَ يَدَكَ فِي فَمِ التِّنِّينِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الرُّسْغَ لَا تَخَافُ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ، قَالَ: فَخَرَجْتُ إِلَىٰ أَبِي يَزِيدَ لِأَسْأَلَهُ عَنِ التَّوَكُّلِ فَدَقَقْتُ البَابَ، فَقَالَ: أَلَيْسَ لَكَ فِي قَوْلِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ كِفَايَةٌ؟ فَقُلْتُ: اِفْتَحِ البَابَ، فَقَالَ: مَا زُرْتَنِي، أَتَاكَ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٦٩٣/٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٩٤/٢.

(٣) ورد قوله في: روض الرياحين ص١٣٨.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٩٤/٢.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٢٦.

الجَوابُ مِنْ وَرَاءِ البَابِ، وَلَمْ يَفْتَحْ لِي البَابَ.

قَالَ: فَمَضَيْتُ وَلَبِثْتُ سَنَةً، ثُمَّ قَصَدْتُهُ، فَقَالَ: مَرْحَبًا، جِئْتَنِي زَائِرًا، فَكُنْتُ عِنْدَهُ شَهْرًا، فَكَانَ لَا يَخْطُرُ بِقَلْبِي شَيْءٌ إِلَّا حَدَّثَنِي عَنْهُ، فَعِنْدَ وَدَاعِهِ قُلْتُ: أَفِدْنِي فَائِدَةً، فَقَالَ: حَدَّثَتْنِي أُمِّي أَنَّهَا كَانَتْ حَامِلًا بِي؛ فَكَانَتْ إِذَا قُدِّمَ لَهَا طَعَامٌ مِنْ حَلَالٍ اِمْتَدَّتْ يَدُهَا إِلَيْهِ، وَإِذَا كَانَتْ فِيهِ شُبْهَةٌ اِنْقَبَضَتْ يَدُهَا عَنْهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ ـ وفَّقكَ اللهُ ـ تضمَّنَتِ الفِراسةَ في مواضِعَ، وفيهَا حثٌّ على طلبِ الحلالِ، وذلكَ أنَّ أبا موسَى لمَّا سألَ عبدَ الرَّحمنِ عنِ التَّوكُّلِ فأجابَهُ بالحالِ، واستغنَى بهِ عنِ المقالِ، فقالَ لهُ: «**التَّوكُّلُ: أنْ تُدْخِلَ يدَكَ في فمِ التِّنِّينِ حتَّى تبلغَ الرُّسغَ**»، معناهُ: حتَّى تستوفِي الكفَّ؛ وهوَ حدُّ القطْعِ، ولمْ تخَفِ اعتماداً على اللهِ ـ تعالى ـ دونَ الأسبابِ، قالَ: «**فتركْتُهُ بعدَ أنْ حفظْتُ كلامَهُ، وقصدْتُ أبا يزيدَ لأسألَهُ عنِ التَّوكُّلِ وأسمعَ ما يقولُ: قالَ: فدققْتُ البابَ، فقالَ: مَنْ؟ فقلتُ: فلانٌ، افتحِ البابَ، فقالَ: ما جئْتَنِي زائرًا**»، وهذِهِ مكاشفةٌ؛ فإنَّ مجيئَهُ ما كانَ إلَّا للسُّؤالِ، لا للزِّيارةِ، ثمَّ قالَ لهُ: «**ما التَّوكُّلُ؟ قالَ: أمَا لكَ في جوابِ عبدِ الرَّحمنِ كفايةٌ؟**»، فهذَا منْ بَابِ المُكَاشَفةِ والفِراسةِ، أخبَرَهُ بمَا جرَى لهُ معَ عبدِ الرَّحمنِ، وحقَّقَ لهُ أنَّ التَّوكُّلَ حالٌ واعتمادٌ على اللهِ دونَ الأسبابِ، قالَ: «**فمضَيْتُ عنهُ وقعدْتُ سنةً** [٢/١٧٠أ] **فخطرَتْ لِي زيارتُهُ، فأتيتُهُ، ففتحَ البابَ وقالَ: أهْلًا، جئْتَنِي زائرًا**»، وهذهِ مكاشفةٌ أخرَى بمَا جاءَ عليهِ منَ النِّيَّةِ، وبقِيَ عندَهُ مدَّةً ينتفعُ بهِ، ويشاهدُ فِراستَهُ الصَّائبةَ بمَا يخبرُهُ بهِ أنَّهُ فِي نفسِهِ، فلمَّا أرادَ الارتحالَ «**قالَ لهُ: أفِدْنِي**»، وهذِهِ الفائدةُ الَّتِي سألَهَا منهُ يحتملُ أنْ يكونَ تترتَّبُ عليهَا هذِهِ الأحوالُ الشَّريفةُ منَ المكاشفاتِ الصَّحيحةِ، وفِي جوابِهِ وجهانِ:

أحدُهُمَا: الحضُّ على طلبِ الحَلالِ؛ فإنَّهُ منْ جُملةِ الاستقامةِ، وأسبابِ تطهيرِ القلبِ؛ ليطلِعَهُ اللهُ على المغيَّباتِ.

والوجهُ الثَّاني: فِي إخبارِهِ لهُ اعتمادكَ على اللهِ ـ تعالىٰ ـ في كلِّ حالٍ، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ حفظَنِي صغيرًا فِي بطنِ أمِّي مِنْ قبلِ أنْ أكتسبَ ولا أعملَ، وذلكَ أنَّهُ أخبَرَهُ أنَّ أمَّهُ كانَتْ إذا مدَّتْ يدَهَا إلىٰ طعامٍ فيهِ شبهةٌ لَمْ تمتدَّ إليهِ، وذلِكَ لمَّا كانَتْ بهِ حامِلًا، والمولودُ يتغذَّىٰ مِنْ غذاءِ أمِّهِ في البطنِ، فحفظَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ وهوَ فِي البَطْنِ[1].

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ[3]: دَخَلْتُ البَادِيَةَ، فَأَصَابَتْنِي شِدَّةٌ، فَلَمَّا بَلَغْتُ مَكَّةَ دَاخَلَنِي شَيْءٌ مِنَ الإِعْجَابِ، فَنَادَتْنِي عَجُوزٌ: يَا إِبْرَاهِيمُ: كُنْتُ مَعَكَ فِي البَادِيَةِ فَلَمْ أُكَلِّمْكَ؛ لِأَنِّي لَمْ أُرِدْ أَنْ أَشْغَلَ سِرَّكَ، أَخْرِجْ عَنْكَ هَذَا الوَسْوَاسَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والفِرَاسَةُ مِنْ هذهِ العَجُوزِ لمَا وقعَ في سرِّ إبراهيمَ منَ السُّرورِ بحالِهِ، وكونِهِ قدرَ علىٰ ما قاسَاهُ منَ الشِّدَّةِ في الباديةِ في اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فنادَتْهُ العَجُوزُ أنَّهَا كانَتْ معَهُ في الباديَةِ وقاسَتْ كمَا قاسَىٰ، ووصلَتْ إلىٰ مكَّةَ كمَا وصلَ، ومَا وجدَتْ منَ الزَّهْوِ في نفسِهَا مَا وجدَ؛ ولذلِكَ قالَتْ لهُ: «**ارفعْ عنكَ هذهِ الوسوسةَ**»، أيْ: حديثَكَ معَ نفسِكَ بمَا كنتَ فيهِ ومَا قاسَيْتَهُ في الصَّحراءِ، فقولُهَا لهُ: «**وإنَّمَا لمْ أكلِّمْكَ؛ لأنِّي لمْ أرِدْ أنْ أشغلَ سرَّكَ**»؛ لأنَّهَا كانَتْ مَحْجُوبةً عنهُ، فلَوْ كلَّمَتْهُ لكانَ يسمعُ صَوتَهَا ولا يرَىٰ شَخْصَهَا، فيتشوَّشُ مِنْ ذلِكَ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «**وَحُكِيَ أَنَّ الفرغَانِيَّ[5] كَانَ يَخْرُجُ كُلَّ سَنَةٍ إِلَىٰ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٩٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٤.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٢٧، وتمامه فيه: «فاستغفرت الله عَزَّوَجَلَّ».

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٥) ورد الحكاية في: تهذيب الأسرار ص٣٢٨.

الحجِّ، وَيمُرُّ بـ(نَيْسابُور) وَلا يَدْخُلُ علَىٰ أَبِي عُثْمَانَ الحِيرِيِّ، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ مَرَّةً، وَسَلَّمْتُ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مُسْلِمٌ يَدْخُلُ عَلَيْهِ وَيُسَلِّمُ فَلا يَرُدَّ سَلامَهُ؟! فَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ: [١٧٠/٢ب] مِثْلُ هَذَا يَحجُّ وَيَدَعُ أُمَّهُ فَلَا يَبَرُّهَا، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَىٰ (فَرْغَانَةَ)[١]، وَلزِمْتُهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ، ثُمَّ قَصَدْتُ أَبَا عُثْمَانَ، فَلَمَّا دَخَلْتُ اِسْتَقْبَلَنِي وَأَجْلَسَنِي، ثُمَّ إِنَّ الفَرغَانِيَّ لَازَمَهُ وَسَأَلَهُ سِيَاسَةَ دَابَّتِهِ، فَوَلَّاهُ ذَلِكَ حَتَّىٰ مَاتَ أَبُو عُثْمَانَ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أوردَهُ الإمامُ عليٌّ أنَّهُ مِنْ بابِ الفِراسةِ وهوَ قولُ أبِي عثمانَ: «**هذَا يدعُ بِرَّهُ بأمِّهِ ويمضِي إلىٰ الحجِّ**»؛ ولذلِكَ تركَ السَّلامَ عليهِ؛ لأنَّهُ عَاصٍ بعقوقِ الوالِدَينِ، وأرادَ زجرَهُ بذلِكَ حتَّىٰ ينفكَّ، وهذَا يحتملُ أنْ يكونَ مكاشفةً، ويحتملُ أنْ يكونَ خبَرًا بلغَ أبا عثمانَ مِنْ صَنيعِهِ؛ وهوَ أنَّهُ يحجُّ كلَّ سنةٍ نافلةً ويعقُّ أمَّهُ في ذلكَ.

والدَّليلُ علىٰ أنَّهُ مكاشفةٌ: كونُهُ أثَّرَ في الفرغانِيِّ هذَا الأثَرَ العظيمَ حتَّىٰ تَرَكَ الحجَّ ورجعَ وخدمَ والدتَهُ إلىٰ أنْ تُوُفِّيَتْ، ثمَّ رجعَ إلىٰ أبِي عثمانَ، وخَدَمَ دابَّتَهُ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ خَيْرٌ النَّسَّاجُ[٣]: كُنْتُ جَالِسًا فِي بَيْتِي، فَوَقَعَ لِي أَنَّ الجُنَيْدَ بِالبَابِ، فَنَفَيْتُ عَنْ قَلْبِي، فَوَقَعَ ثَانِيًا وَثَالِثًا، فَخَرَجْتُ فَإِذَا بِالجُنَيْدِ، فَقَالَ: لِمَ لَمْ تَخْرُجْ مَعَ الخَاطِرِ الأَوَّلِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذهِ الحكايةُ مكاشفةٌ منَ الجهَتَينِ؛ مِنْ خيرٍ النَّسَّاجِ

---

(١) أي: بلده، وهي في خرسان، وانظر فيها: معجم البلدان ٢٥٣/٤، والروض المعطار ٤٤٠/١.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٩٥/٢.

(٣) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٢٤٧/٧، وتهذيب الأسرار ص٣٢٩، وصفة الصفوة ٤١٩/٢، طبقات الشافعية الكبرىٰ ٢٦١/٢.

والجُنيدِ؛ وذلِكَ أنَّ خيرًا النَّسَّاجَ وقعَ لهُ أنَّ الجُنيدَ بالبابِ وهذَا إلهامٌ صحيحٌ، وتكرَّرَ عليهِ ثلاثَ مرَّاتٍ، ثمَّ قامَ إلى البابِ فوجدَ الجُنيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالَ لهُ الجُنيدُ: «**لِمَ لَمْ تخرُجْ معَ الخَاطِرِ الأوَّلِ؟**».

وهذَا يدلُّ على أنَّ الجُنيدَ كُوشِفَ لهُ بمَا وقعَ في نفسِ خيرٍ، فيدلُّ ذلكَ على كَمَالِ هِمَّةِ الجُنيدِ؛ وهوَ أنَّهُ لمْ يطرقِ البابَ، وإنَّمَا علَّقَ همَّتَهُ بأنْ يحرِّكَ اللهُ لهُ قلبَهُ ففعلَ.

ومِنْ ذلِكَ ما حُكِيَ أنَّ الجُنيدَ قالَ[(١)]: «قمتُ ليلةً لوِرْدِي، فلَمْ أجدْ ما كنتُ أجدُهُ مِنَ النَّهضةِ في الصَّلاةِ، فأردْتُ قراءةَ القرآنِ فلَمْ أطقْ، وأردتُ أنْ أذكُرَ فلمْ أستطِعْ، ففتحتُ البابَ وخرجتُ، فإذَا أنَا برجُلٍ مطروحٍ ملفوفٍ على الطَّريقِ، فلمَّا حسَّ بِي رفعَ رأسَهُ وقالَ: إليَّ السَّاعةَ يا أبَا القاسمِ؟ قلتُ: يا سيِّدِي، مِنْ غيرِ موعدٍ، قالَ: بلَى: سألتُ محرِّكَ القلوبِ أنْ يحرِّكَ لِي قلبَكَ، قالَ: قلتُ: قدْ فعلَ، فمَا حاجتُكَ؟ قالَ: متَى يصيرُ داءُ النَّفسِ دواءَهَا؟ قالَ الجُنيدُ: إذا خالفَتِ النَّفسُ هواهَا صارَ داؤُهَا دواءَهَا [١٧١/٢أ]، فرجعَ المطروحُ على نفسِهِ وقالَ: قدْ أجبتُكِ بهذَا الجوابِ سبعَ مَرَّاتٍ، فأبيتِ إلَّا أنْ تسمعِيهِ منَ الجُنيدِ، فقد سمِعْتِ، ثمَّ قامَ فذهبَ ولَمْ أعرفْهُ».

وهذَا يدلُّ على أنَّ أهلَ التَّحقيقِ إذا علَّقُوا هِمَمَهُمْ بشيءٍ فعلَهُ اللهُ لهُمْ بقولِهِمْ خاصَّةً؛ لأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يَغَارُ على قلوبِهِم أنْ تشتغِلَ بغيرِهِ[(٢)].

❁ قالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ البِسْطَامِيُّ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عُثْمَانَ المَغْرِبِيِّ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَعَلَّهُ يَشْتَهِي عَلَيَّ شَيْئًا، فَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ: لَا**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٩٥.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٥.

يَكْفِي النَّاسُ أَنْ آخُذَ مِنْهُمْ حَتَّىٰ يُرِيدُوا مَسْأَلَتِي إِيَّاهُمْ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ النَّاسَ في الأَخْذِ ممَّا أُتِيَ بهِ منْ غيرِ مسألةٍ مختلفُونَ، فمِنْهُمْ مَنْ يرَىٰ الأخذَ، ومنهُمْ مَنْ لا يراهُ، ويأكلُ مِنْ كسْبِ يدِهِ كإبراهيمَ بنِ أدهمَ وغيرِهِ، وهذَا أبو عثمانَ كانَ ممَّنْ يراهُ، فلمَّا دخلَ عليهِ هذا الرَّجلُ بشيءٍ وقبِلَهُ منهُ كانَتْ لهُ نيَّةٌ حسنةٌ بأنْ يقضِيَ لهُ شهوةً وتَمنَّىٰ فِي نفسِهِ لوْ طلبَهَا منهُ، فقالَ أبو عثمانَ عندَ ذلكَ: «**ما يكفِي النَّاسُ أنَّا نقبلُ منهُمْ حتَّىٰ يتمنَّوا أنْ نسألَهُمُ الحوائجَ؟**» إشارةً إلىٰ أنَّ السُّؤالَ شَدِيدُ الكَرَاهَةِ، والقبُولَ منْ غيرِ مسألةٍ جائزٌ، وتركَ القبولِ منْ يدِ النَّاسِ أفضلُ لمَنْ تيسَّرَ لهُ[1].

ووجهُ الفِرَاسةِ اطِّلاعُ أبِي عثمانَ علىٰ ما وقعَ في نفسِ هذا الدَّاخلِ؛ وهوَ تمنِّي أنْ يشتهِيَ عليهِ شهوةً ليفوزَ بقضائِهَا.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقَالَ بَعْضُ الفُقَرَاءِ[3]: كُنْتُ بِبَغْدَادَ، فَوَقَعَ لِي أَنَّ المُرْتَعِشَ يَأْتِينِي بِخَمْسَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا لِأَشْتَرِيَ بِهَا: الرِّكْوَةَ، وَالحَبْلَ، وَالنَّعْلَ، وَأَدْخُلَ البَادِيَةَ. قَالَ: فَدُقَّ عَلَيَّ البَابُ، فَفَتَحْتُ، فَإِذَا أَنَا بِالمُرْتَعِشِ مَعَهُ خُرَيْقَةٌ[4]، فَقَالَ: خُذْهَا، فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي، لَا أُرِيدُهَا، فَقَالَ: فَلِمَ تُؤْذِينَا[5]؟ كَمْ أَرَدْتَ؟ فَقُلْتُ: خَمْسَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا، فقال: هِيَ خَمْسَةَ عَشرَ دِرْهَمًا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ تدلُّ علىٰ جوازِ تمنِّي بعضِ الفقراءِ أنْ يأتيَهُ المرتعشُ بخمسةَ عشَرَ درهمًا؛ ليشترِيَ بهَا آلةَ سفرِهِ إلىٰ الحجِّ، فلمَّا استقرَّ

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٩٥.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٥.

(٣) ورد في: مناقب الأبرار ٢/٦٧٣.

(٤) تصغير: خرقة.

(٥) في (ف): «فقال لا تردها».

هذا المعنَىٰ في نفسِهِ دُقَّ عليهِ بابهُ، فخرجَ فإذَا بالمرتعشِ، ومعَهُ خريقةٌ فيهَا دراهمُ، فقالَ للفقيرِ: «**خُذْهَا، فامتنعَ**»، وقالَ: يا سيِّدِي، لا أحبُّ، «**فقالَ لهُ: فلِمَ تؤذِينَا؟**»، يعنِي: بتمنيكَ لمَا أطلَعَنِي اللهُ عليهِ وأتيتكَ بهِ، ثمَّ قالَ لهُ: «**كَمْ أردْتَ؟ فقالَ: خمسةَ عشرَ درهمًا، قالَ: فخذْهَا فهيَ خمسةَ عشرَ درهمًا**»، وهذَا يدلُّ علىٰ أمرَينِ:

أحدُهُمَا: صِحَّةُ فِرَاسَةِ [١٧١/٢ب] المُرْتَعِشِ ومُكَاشَفتُهُ لِمَا وقعَ في نفسِ الفقيرِ.

والثَّانِي: صِدقُ الفقيرِ فيمَا أحبَّ المُرْتَعِشُ أنْ يأتيَهُ بهِ، فحَرَّكَ لهُ اللهُ قلبَ المُرتَعِشِ وأتَىٰ بهِ إلىٰ بَابِهِ؛ ولذلِكَ قالَ لهُ المرتعشُ: «**لِمَ تؤذِينَا؟**» لمَّا امتنعَ، يعنِي بالتَّمنِّي حتَّىٰ حرَّكَ اللهُ قلوبَنَا لكَ، وأطْلَعَنَا علىٰ ما فِي ضَمِيرِكَ[١].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾** [الأنعام: ١٢٢]، **أَيْ: مَيِّتُ الذِّهْنِ**[٣]، **فَأَحْيَاهُ اللهُ بِنُورِ الفِرَاسَةِ، وَجَعَلَ لَهُ نُورَ التَّجَلِّي وَالمُشَاهَدَةِ، لَا يَكُونُ كَمَنْ يَمْشِي بَيْنَ أَهْلِ الغَفْلَةِ غَافِلًا**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الغفلةَ موتٌ واليقظةَ حياةٌ، والجهلَ موتٌ والنُّورَ حياةٌ، ونورُ المكاشفةِ أفضلُ الأنوارِ؛ لأنَّ اللهَ إنَّمَا يخصُّ بهِ أولياءَهُ.

ولقدْ أخبرَنِي الشَّيخُ الفقيهُ الزَّاهدُ أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ القاسمِ الدَّكالِي رَحِمَهُ اللَّهُ قالَ: خرجْنَا منْ (طَرَابْلسَ) ومعنَا جماعةٌ منَ الفقراءِ، وكانَ فيهِمْ صبيانٌ صغارٌ قاصدِينَ نحوَ (الإسكندريَّةِ)، فكنتُ أتأخَّرُ أمشِي معَ الصِّبيانِ أُنْسًا لهُمْ ورِفْقًا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٦٩٦/٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٩٥/٢.

(٣) في (ف): الذكر، والأصح المثبت.

لهُمْ؛ لئلَّا ينقطعُوا عنِ الجماعةِ، فلحقْنَا يومًا الجماعةَ الَّذِينَ تقدَّمُوا وهُمْ جلوسٌ يتحدَّثُونَ وفيهِمْ شيخٌ كبيرٌ يُعْرَفُ بأبِي وكيل ميمون، متقدِّمًا في السِّنِّ والخيرِ، فسألنَاهُمْ عنْ حديثِهِمْ فقالُوا: قلنَا لأبِي وكيل ميمون: ادعُ اللهَ أنْ يفتحَ لنَا في هذِهِ الصَّحراءِ بشاةٍ نأكلُهَا، قالَ: فسكتَ ساعةً ثمَّ رفعَ رأسَهُ وقالَ: نعَمْ، تأتيكُمْ نعجةٌ وصفتُهَا كيتٌ وكيتٌ، قالَ: وَسِرْنَا بقيَّةَ يومِنَا حتَّىٰ أتيْنَا بعضَ المياهِ، نزلْنَا عليهَا نتوضَّأُ ونشربُ منَ الماءِ، وإذا بعضُ العربِ أتَىٰ علَىٰ راحلتِهِ يأخذُ منْ ذلكَ الماءِ، فقالَ: يَا حُجَّاجُ، عندِي حقُّ اللهِ نعجةٌ، عسَىٰ مَنْ يجيءُ يأخذُهَا منكُمْ، قالَ: فمضَىٰ بعضُنَا معَهُ وأتَىٰ بهَا علَىٰ الصِّفةِ الَّتِي ذكرَهَا أبُو وكيلٍ، ولمْ يكنْ معَنَا سكِّينٌ ولا دقيقٌ، فأتَىٰ بعدَ ذلكَ رجلٌ آخرُ معَهُ سِكِّينٌ ودقيقٌ، فذبحْنَاهَا وأقمْنَا علَىٰ الماءِ ليلَتَنَا تلكَ، وأخبَرَنِي الَّذِي مضَىٰ وأتَىٰ بالشَّاةِ بصحَّةِ ذلكَ، وغيرُ ذلكَ مِنْ أقوالِ الصَّالحِينَ ممَّا يكثُرُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: **«وَقِيلَ[(٢)]: إِذَا صَحَّتِ الفِرَاسَةُ اِرْتَقَىٰ صَاحِبُهَا إِلَىٰ المُشَاهَدَةِ»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكأنَّ الفِراسةَ فيهَا توسُّمٌ واستدلالٌ بعلامةٍ وأَمارةٍ، والمكاشفةُ كشفٌ وإيضاحٌ [١٧٢/٢أ] بغيرِ سببٍ ولا استئناسٍ بشيءٍ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **«سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ [الرَّحْمَنِ][(٤)] السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ نُصَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ بْنَ مَسْرُوقٍ يَقُولُ[(٥)]: قَدِمَ عَلَيْنَا شَيْخٌ،**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٥.

(٢) ورد قوله في: شرح نهج البلاغة ٦/١٢٨.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٤) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع، وسقط من المطبوع لفظ: السلمي.

(٥) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٥/١٠٢، وصفة الصفوة ٤/١٢٨. وقريب من هذه الحكاية حكاية=

فَكَانَ يَتَكَلَّمُ عَلَيْنَا فِي هَذَا الشَّأْنِ بِكَلَامٍ حَسَنٍ، وَكَانَ عَذْبَ اللِّسَانِ جَيِّدَ الخَاطِرِ، فَقَالَ لَنَا فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: كُلُّ مَا وَقَعَ لَكُمْ فِي خَاطِرِكُمْ فَقُولُوهُ لِي، فَوَقَعَ فِي قَلْبِي أَنَّهُ يَهُودِيٌّ، وَكَانَ الخَاطِرُ يَقْوَىٰ وَلَا يَزُولُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلْجُرَيْرِيِّ، فَكَبُرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ[١]، فَقُلْتُ: لَا بُدَّ أَنْ أُخْبِرَ الرَّجُلَ بِذَلِكَ، فَقُلْتُ لَهُ: تَقُولُ لَنَا مَا وَقَعَ فِي خَاطِرِكُمْ، فَقُولُوا لِي: إِنَّهُ يَقَعُ لِي أَنَّكَ يَهُودِيٌّ، فَأَطْرَقَ سَاعَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: صَدَقْتَ، أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَقَالَ: قَدْ مَارَسْتُ جَمِيعَ المَذَاهِبِ[٢]، وَكُنْتُ أَقُولُ: إِنْ كَانَ مَعَ أَحَدٍ شَيْءٌ فَمَعَ هَؤُلَاءِ، فَدَاخَلْتُكُمْ لِأَخْتَبِرَكُمْ، فَأَنْتُمْ عَلَى الحَقِّ، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِمَّا يَقْرُبُ مِنَ الفَرَاسةِ المتقدِّمَةِ في أنَّ ذلكَ الشَّخصَ الشَّابَّ الظَّرِيفَ وقعَتِ الفِرَاسَةُ فيهِ أنَّهُ يهودِيٌّ، ولَكِنْ مِنْ غيرِ أنْ يقولَ ذلكَ ولَا يُوصِي عليهِ، ولَا طالَتْ مخالطتُهُ، بخلافِ هذَا الشَّيخِ فإنَّهُ كانَ يتكلَّمُ بكلامٍ حسَنٍ في الطَّرِيقِ ودامَتْ خلطتُهُ لهُ، فسهُلَ إدراكُ حالِهِ للمكاشفةِ والفِرَاسةِ لدوامِ خلطتِهِ، ولا سيَّمَا بعدَ أنْ قالَ: «مَنْ وقعَ لهُ شيءٌ فليذكُرْهُ لِي»، فلمَّا وقعَ لبعضِهِمْ أنَّهُ يهودِيٌّ فرِحَ بذلِكَ وأسلَمَ، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ قدْ أَطْلَعَ هذَا المكاشفَ علىٰ حالِهِ ومَا تَدَيَّنَ بهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَيُحْكَىٰ عَنِ الجُنَيْدِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُ السَّرِيُّ: تَكَلَّمْ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ الجُنَيْدُ، وَكَانَ فِي قَلْبِي حِشْمَةٌ[٤] مِنَ الكَلَامِ عَلَى النَّاسِ،

= الشاب الظريف التي مرت قريبًا.

(١) أي: عظم عليه ذلك.

(٢) أي: عالجت جميع الطرق.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٦.

(٤) أي: مهابة.

فَإِنِّي كُنْتُ أَتَّهِمُ نَفْسِي فِي اِسْتِحْقَاقِ ذَلِكَ، فَرَأَيْتُ لَيْلَةَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المَنَامِ، وَكَانَ لَيْلَةَ جُمْعَةٍ، فَقَالَ لِي: تَكَلَّمْ عَلَىٰ النَّاسِ، فَانْتَبَهْتُ وَأَتَيْتُ بَابَ السَّرِيِّ قَبْلَ أَنْ أُصْبِحَ، فَدَقَقْتُ عَلَيْهِ البَابَ، فَقَالَ: لَنْ تُصَدِّقَنَا[1] حَتَّىٰ قِيلَ لَكَ.

فَقَعَدَ لِلنَّاسِ فِي الجَامِعِ بِالغَدِ، فَانْتَشَرَ فِي النَّاسِ أَنَّ الجُنَيْدَ قَعَدَ يَتَكَلَّمُ عَلَىٰ النَّاسِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ غُلَامٌ نَصْرَانِيٌّ مُتَنَكِّرًا وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، مَا مَعْنَىٰ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اِتَّقُوا فِرَاسَةَ [٢/١٧٢ب] المُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ - تعالىٰ -؟)، قَالَ: فَأَطْرَقَ الجُنَيْدُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَسْلِمْ؛ فَقَدْ حَانَ وَقْتُ إِسْلَامِكَ، فَأَسْلَمَ الغُلَامُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذِهِ المكاشفةِ الاطِّلاعُ علىٰ أمرينِ:

أحدُهُما: كونُهُ نصرانِيًّا.

والثَّانِي: قولُهُ: «**قَدْ حَانَ وقتُ إِسْلامِكَ**».

وفِي أوَّلِ الحكايةِ مكاشفةٌ أُخرَىٰ لشيخِهِ وهوَ السَّرِيُّ؛ وذلكَ أنَّ السَّرِيَّ لمَّا رأىٰ استحقاقَ الجُنيدِ لكلامِهِ علىٰ النَّاسِ وتذكيرِهِم؛ لكمالِ علْمِهِ، وقوَّةِ يقينِهِ، وبُعْدِهِ عَنْ آفاتِ الدُّنيَا، وكانَ الجُنيدُ يؤخِّرُ ذلكَ، فلمَّا كانَ في بعضِ اللَّيالِي رأىٰ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النَّومِ، وأمرَهُ أنْ يجلسَ للنَّاسِ، فأتَىٰ الجُنيدُ لشيخِهِ يُعْلِمهُ بمَا رأىٰ، فدقَّ عليهِ البابَ، فقالَ لهُ السَّرِيُّ: «**لَنْ تُصدِّقَنَا حتَّىٰ قيلَ لكَ**»، يعنِي: رؤيتَهُ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورؤيتَهُ لذلكَ ـ رضِيَ اللهُ عنهُمْ أجمعِينَ ـ.

❊ ❊ ❊

---

(١) في (ف): لم تصدقني.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ الخُلُقِ

قَالَ اللهُ - تعالى -: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ الصَّفَّارُ البَصْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا تمتامٌ: مُحَمَّدُ بْنُ غَالِبٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ مَهْدِيٍّ قَالَ: حَدَّثَنَا بَشَّارُ[٢] بْنُ إِبْرَاهِيمَ النُّمَيْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا غَيْلَانُ بْنُ جَرِيرٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ[٣]: أَيُّ المُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ إِيمَانًا؟ قَالَ: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وسُئِلتْ عائشةُ عنْ خلُقِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَتْ للسَّائلِ[٤]: أمَا تقرأُ القرآنَ؟ فقالَ: نعَمْ، فقالَتْ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فمعنَىٰ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: خذِ الصَّافِي البيِّنَ الَّذِي لا إشكالَ فيهِ، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ يعنِي: بالمعروفِ، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أيْ: لا تكافِئْهُمْ بجهلِهِمْ واعْفُ عمَّا يبدُو منهُمْ.

وقدْ قالَ شيخُ الإسلامِ عبدُ اللهِ بنُ محمَّدٍ الأنصارِيُّ الهروِيُّ[٥] في حدِّ الخُلُقِ: «الخُلُقُ: مَا يرجعُ إليهِ المُتكلِّفُ منْ نعتِهِ» وهذَا جدٌّ جيِّدٌ، وفرَّقَ فيهِ بينَ التَّخلُّقِ والخُلُقِ؛ فالتَّخلُّقُ: هوَ التَّكلُّفُ فِي نفْيِ الأخلاقِ المذمومةِ وتحصيلِ الأخلاقِ المحمودةِ، فإذَا أفرغَ العبدُ جهْدَهُ في ذلكَ وتخلَّصَ منَ الأخلاقِ الذَّميمةِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٧.

(٢) في (أ): سيار، والصواب المثبت.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٢٢٠، وابن ماجه في سننه ٢/١٤٢٣.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) منازل السائرين ص٥٨.

وتحلَّىٰ [١٧٣/٢أ] بالأخلاقِ الحميدةِ، وصارَ ذلكَ نعتًا لهُ ووصْفًا عبَّرَ عنهُ بالخُلُقِ، ولذلِكَ قالَ: «ما يرجعُ إليهِ المتكلِّفُ منْ نعتِهِ»، فإذَا رجعَ إلىٰ أنْ صارَ هذَا وصفَهُ عبَّرَ عنهُ بالخُلُقِ، والأخلاقُ المحمودةُ؛ كالقناعةِ والورَعِ والزُّهدِ والتَّوكُّلِ والرِّضَا والتَّسليمِ، وغيرِ ذلكَ منَ الخوفِ والصَّبرِ والصِّدقِ وغيرِهِ، والمذمومةُ؛ كالشَّرَهِ والرِّيَاءِ والعُجْبِ والكِبْرِ والحسدِ والعِزَّةِ وغيرِ ذلكَ منَ الغِيبةِ والنَّميمةِ والشَّماتةِ وسوءِ الظَّنِّ، وغيرِ ذلكَ منَ الأخلاقِ المذمومةِ.

فمَنْ سلِمَ منْ هذهِ المذموماتِ واتَّصَفَ بهذهِ الأخلاقِ المحمودةِ كانَ علىٰ التَّحقيقِ علىٰ خلقٍ عظيمٍ، ولقدْ ظهرَ ذلكَ علىٰ سيِّدِ العربِ والعجمِ حيثُ جذبَهُ الأعرابِيُّ بردائِهِ حتَّىٰ أثَّرَ فِي صفحةِ عنقِهِ وقالَ لهُ[1]: «أعطِنِي منْ مالِ اللهِ الَّذِي عندَكَ، فإنَّكَ لَا تعطِينِي مِنْ مالِكَ ولَا مِنْ مالِ أبيكَ، فقالَ لهُ: صدَقْتَ يا أعرابِيُّ، ولكنَّهُ يقادُ منكَ، فقالَ لهُ الأعرابيُّ: لَا، فقالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِمَ؟ فقالَ: لأنَّكَ لَا تجازِي بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ».

وهذَا كمالٌ فِي العفوِ والصَّفحِ بعدَ الأذَىٰ وقبولِ الحقِّ مِنْ كلِّ قائلٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلَىٰ آلِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «الخُلُقُ الحَسَنُ أَفْضَلُ مَنَاقِبِ العَبْدِ، وَبِهِ تَظْهَرُ جَوَاهِرُ الرِّجَالِ، وَالإِنْسَانُ مَسْتُورٌ بِخَلْقِهِ مَشْهُورٌ بِخُلُقِهِ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[3]: إِنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ خَصَّ نَبِيَّهُ وَرَسُولَهُ بِمَا خَصَّهُ بِهِ، ثُمَّ لَمْ يُثْنِ عَلَيهِ بِشَيءٍ مِنْ خِصَالِهِ بِمِثْلِ مَا أَثْنَىٰ عَلَيهِ بِخُلُقِهِ، فَقَالَ عَزَّ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٢٤٧، والنسائي في سننه الكبرىٰ ٤/٢٢٧، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/٣٥٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٧.

(٣) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٣٢١، وبدائع السلك ٢/٣٩٤.

مَنْ قَائِلٍ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وَقَالَ الوَاسِطِيُّ[(١)]: وَصَفَهُ بِالخُلُقِ العَظِيمِ؛ لِأَنَّهُ جَادَ بِالكَوْنَيْنِ، وَاكْتَفَىٰ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُ الواسطِيِّ: «جَادَ بالكَوْنَينِ[(٢)]»، يعنِي: أَنَّهُ لمْ يقِفْ معَ حظوظِ الدُّنيَا وحظوظِ الآخرةِ اشتغالًا بربِّهِ ـ تعالىٰ ـ، فقيلَ لهُ في جبالِ الدُّنيَا تسيرُ معكَ ذهبًا وفضَّةً فأباهَا، وقالَ[(٣)]: «أجوعُ يومًا وأشبعُ يومًا، فإذَا شبعْتُ شكرْتُ، وإذَا جُعْتُ تضرَّعْتُ».

وأمَّا حظوظُ الآخرةِ فقولُهُ[(٤)]: «لِي وَقْتٌ لَا يَسَعُنِي فِيهِ غَيْرُ رَبِّي»، وقولُهُ[(٥)]: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»، وقالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [٢/١٧٣ب][(٦)]: «كانَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفكهَ النَّاسِ معَ نسائِهِ، فإذَا حضرَتِ الصَّلاةُ كأنَّهُ لا يعرفُنَا ولَا نعرفُهُ».

وهذَا لكمالِ إيثارِهِ لمولَاهُ علىٰ مَنْ سِوَاهُ، وهوَ الخُلُقُ العظيمُ الَّذِي انفردَ بهِ فِي الدُّنيَا ويومِ القيامةِ، وصرَّحَ بهِ علىٰ لسانِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ[(٦)]: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ، وَآدَمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي وَلَا فَخْرَ».

---

(١) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣٤٣، والثعلبي ١٠/٩، وحدائق الحقائق ص١٠٣.

(٢) أي: حظ الدنيا وحظ الآخرة.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/٤٢٠، والصغير ٢/٣٩، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٢/٣٧١.

(٦) سبق تخريجه.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[(١)]: «وَقَالَ الوَاسِطِيُّ أَيْضًا[(٢)]: **الخُلُقُ العَظِيمُ: أَلَّا يُخَاصِمَ[(٣)] ، وَلَا يُخَاصَمَ[(٤)] ، مِنْ شِدَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ**».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وقدْ رُوِيَ أنَّهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أعطَى أعرابيًّا مالًا ، ثمَّ قالَ لهُ[(٥)]: «أحسنتُ إليكَ يا أَخَ العربِ؟ فقالَ: ما أحسنْتَ ولا أجملْتَ ، فثارَ النَّاسُ إليهِ فنهاهُمْ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ، ونزلَ فدخلَ بيتَهُ وزادَهُ حتَّى رضِيَ ، قالَ لهُ: أرَضِيتَ يا أخَ العربِ؟ فقالَ: نعَمْ ، جزاكَ اللهُ عَنْ أهلٍ وعشيرةٍ خيرًا ، فقالَ لهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: في نفوسِ أصحابِي منكَ شيءٌ لِمَا قلْتَ ، فقلْ مَا قلتَهُ لِي علانيةً ليزولَ مَا في نفوسِهِمْ ، ثمَّ خرجَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأخبرَ النَّاسَ أنَّهُ أعطاهُ حتَّى رضِيَ ، ثمَّ قالَ: هكذَا يا أخَ العربِ؟ فقالَ: نعَمْ ، جزاكَ اللهُ منْ أهلٍ وعشيرةٍ خيرًا ، فقالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ هذَا الأَعْرَابِيِّ كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ ، فَشَردَتْ مِنْهُ ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ ، قَالَ لَهُمْ: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي ، فَأَنَا أَعْلَمُ بِهَا مِنْكُمْ ، فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قِمَامِ الأَرْضِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَلْطُفُ بِهَا حَتَّى اسْتَنَاخَتْ ، وَحَمَلَ عَلَيْهَا رَحْلَهُ وَاسْتَوَتْ بِهِ ، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ وَالرَّجُلَ حِينَ قَالَ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوهُ ، دَخَلَ النَّارَ».

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[(٦)]: «وَقَالَ الحُسَيْنُ بْنُ مَنْصُورٍ[(٧)]: **مَعْنَاهُ: لَمْ يُؤَثِّرْ فِيكَ جَفَاءُ الخُلُقِ بَعْدَ مُطَالَعَتِكَ لِلْحَقِّ**[(٨)]».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٧.

(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣٤٣ ، وتهذيب الأسرار ص٢٢٢.

(٣) أي: غيره.

(٤) بأن يعفو عمن يخاصمه.

(٥) أخرجه البزار في مسنده ١٥/٢٩٤ ، وأبو الشيخ في: أخلاق النبي وآدابه ص٤٧٢ ، والهيثمي في مجمع الزوائد ٩/١٥.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٧.

(٧) ورد قوله في: تفسير السلمي ٢/٣٤٤ ، وإحياء علوم الدين ٣/٥٣ ، وعرائس البيان ٣/٤٤٤.

(٨) أي: أنه لا تأخذه في الله لومة لائم ، بل يصدع بالحق. انظر: نتائج الأفكار ٣/٣٣٠.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ على رؤيتِهِ مَا يردُ عليهِ منَ الحقِّ، فهوَ مُعْرِضٌ عنِ الأسبابِ ناظرٌ إلى المُسبِّبِ[١].

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخَرَّازُ[٣]: لَمْ تَكُنْ لَهُ هِمَّةٌ غير اللهِ - تعالى -».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهوَ إفرادُهُ - تعالى - في كلِّ حالٍ بأعمالِ القلبِ والجوارحِ والأحوالِ والمقاماتِ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ أَحْمَدَ [٢/١٧٤أ] بْنِ جَعْفَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الكِتَّانِيَّ يَقُولُ[٥]: التَّصَوُّفُ خُلُقٌ[٦]، مَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الخُلُقِ فَقَدْ زَادَ عَلَيْكَ فِي التَّصَوُّفِ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ لمَا قدَّمْنَاهُ منَ الخَلاصِ منَ الأخلاقِ الذَّميمةِ، والاتِّصافِ بالأخلاقِ الحميدةِ، فإنَّ مَنْ سلكَ هذَا الطَّريقَ وقصدَ تحصيلَهُ بكمالِهِ كانَ صُوفيًّا، وهوَ فيهِ على حسبِ ما يقدَّرُ لهُ مِنْ نَيْلِهِ لتفاوتِ أحوالِ السَّالكِينَ بالمتخلِّقِينَ بهِ، فمَنْ زادَ تخلُّقُهُ زادَ وصفُهُ بالتَّصوُّفِ؛ لأنَّ التَّصوُّفَ خُلُقٌ مأخوذٌ مِنَ الصَّفَا منَ الكَدَرِ، والاتِّصافِ بأفضلِ ما بهِ أَمَرَ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٩٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٧.

(٣) ورد قوله في: الغنية للجيلاني ص٣٢١.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٧.

(٥) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٤/٢٥٦، والأنساب ٥/٣٣، وإحياء علوم الدين ٣/٥٢، وسير أعلام النبلاء ١٤/٥٣٤.

(٦) أي: خلق حسن.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَيُرْوَىٰ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: إِذَا سَمِعْتُمُونِي أَقُولُ لِمَمْلُوكٍ: أَخْزَاهُ اللهُ، فَاشْهَدُوا أَنَّـهُ حُرٌّ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الدَّواءُ بالغٌ في الخَلاصِ مِنْ كلِّ نقيصةٍ؛ سواءٌ كانَتْ في اللِّسانِ، أوْ في النِّيَّاتِ، أوْ فِي الأفعالِ، وذلكَ أنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كرِهَ أنْ يجرِيَ علىٰ لسانِهِ «خزاهُ اللهُ»، فإنَّ الخزيَ هوَ الدُّخولُ فِي النَّارِ، والبُعدُ مِنْ لطفِهِ ورحمتِهِ في الدُّنيَا كمَا قالَ: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

فإذَا أرادَ العبدُ أنْ يُدَاوِيَ نفسَهُ لكثرةِ سهوِهِ فِي الصَّلاةِ المفروضةِ، فليعزِمْ معَ نفسِهِ أنَّهُ متىٰ وقعَ لهُ سهوٌ عاقبَ نفسَهُ بمَا يُؤلِمُهَا؛ مِنْ فراقِ المَحْبُوبَاتِ[٢]، وتكلُّفِ المَشقَّاتِ، فإنْ كانَ مُحِبًّا للدَّراهمِ ألزمَ نفسَهُ عندَ كلِّ سهوٍ كذَا وكذَا درهمًا ويشهدُ عليهِ بذلكَ، وإنْ كانَ لا دراهمَ عندَهُ أدَّبَ نفسَهُ بمَا أدَّبَهَا بهِ الصَّالحونَ؛ مِنْ تَرْكِ الطَّعامِ، وترْكِ المنامِ، وتكليفِ الصِّيامِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يشقُّ علَىٰ أكثرِ الأنامِ، فإنَّهَا تَتُوبُ وتنصلحُ إنْ شاءَ اللهُ ذُو الجلالِ والإكرامِ.

وهذَا مثالٌ لمَا يطرأُ علىٰ العبدِ مِنْ محبَّةِ نفسِهِ تركُ ما هِيَ عليهِ منَ الأورادِ، وما يتوالَىٰ عليهَا منَ الغفلاتِ فِي أوقاتِ الذِّكرِ والمُنَاجَاتِ؛ لتعلُّقِهَا ببعضِ المحبوباتِ المُشغلاتِ، واللهُ الموفِّقُ للصَّالحاتِ، ولمْ يأمرْهُ بأنْ يكونَ الحاملُ لهُ علَىٰ صلاتِهِ وعباداتِهِ حذرَ ما يخرجُهُ منَ الدُّنيَا، فيفوتُهُ الإخلاصُ، وإنَّمَا كلَّفْنَاهُ أدبَ نفسِهِ لمَا فاتَهَا منَ الإخلاصِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٨.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٦٩٩.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقَالَ الفُضَيْلُ[2]: لَوْ أَنَّ العَبْدَ أَحْسَنَ [٢/١٧٤ب] الإِحْسَانَ كُلَّهُ، وَكَانَتْ لَهُ دَجَاجَةٌ فَأَسَاءَ إِلَيْهَا لَمْ يَكُنْ مِنَ المُحْسِنِين».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ على أنَّهُ لمْ ينَلْ كمالَ درجاتِ الإحسانِ؛ لأنَّ كمالَ الإحسانِ ألَّا يكونَ منهُ إساءةٌ لأحدٍ، فيبدأُ بنفسِهِ فيمَا بينَهُ وبينَ ربِّهِ[3]، ثمَّ فيمَا بينَهُ وبينَ خَلْقِهِ، كمَا قيلَ[4]: «البرُّ لا يُؤذِي الذَّرَّ»، وقيلَ للجُنيدِ[5]: «ما تقولُ فيمَنْ لمْ يبقَ عليهِ مِنْ شَهواتِ الدُّنيا إلَّا مَصَّ نَواةٍ، قالَ: المُكاتبُ عبدٌ ما بَقِيَ عليهِ درهمٌ»، إشارةً إلى أنَّ حريَّتَهُ لمْ تكملْ عنِ الأغيارِ، إذْ بقِيَ لهُ سُكونٌ إلى هذا المِقْدَارِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[6]: «وَقِيلَ[7]: كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِذَا رَأَى وَاحِدًا مِنْ عَبِيدِهِ يُحْسِنُ الصَّلَاةَ يُعْتِقُهُ، فَعَرَفُوا ذَلِكَ مِنْ خُلُقِهِ، فَكَانُوا يُحْسِنُونَ الصَّلَاةَ مُرَاءَاةً لَهُ، فَكَانَ يُعْتِقُهُمْ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: مَنْ خَدَعَنَا فِي اللهِ انْخَدَعْنَا لَهُ[8]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا راجعٌ إلى قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٨.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/١٣، وربيع الأبرار ٢/١١٥، وورد بلا نسبة في: الكشاف ٢/٤٩٥، ومفاتيح الغيب ١٩/٣٤.

(٣) ليتهيأ بعد ذلك لمعاملة الخلق.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه أيضا.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٨.

(٧) ورد في: تاريخ دمشق ٣١/١٣٣، وأسد الغابة ٣/٣٥٠، وصفة الصفوة ١/٥٦٩، والمستطرف ١/٢٦١، والبداية والنهاية ٩/٤.

(٨) أي: إيثارا للخيرات.

تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فكانَ ابنُ عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يحبُّ مِنْ عبيدِهِ كلَّ مَنْ رآهُ صالِحًا مُشتغِلًا بالدِّينِ، فإذا رآهُ كذلِكَ أعتقَهُ للهِ؛ لتكملَ عبادتُهُ لربِّهِ، ويتفرَّغَ لمَا هوَ بصددِهِ، فرجعَ عبيدُهُ يتكلَّفُونَ العبادةَ بينَ يدَيهِ ليحصلَ لهُمُ العتقُ، فقيلَ لهُ ذلكَ، فلَمْ يلتفِتْ لذلكَ، ولَا لمَا نُقِلَ إليهِ مِنْ أنَّ فعلَهُم رياءٌ، وبقِيَ علىٰ حُسْنِ ظنِّهِ، وقالَ: «مَنْ خدعَنَا باللهِ انخدَعْنَا لهُ»، أيْ: ظاهِرُ علمِهِمْ أنَّهُمْ أرادُوا اللهَ بأعمالِهِمْ، فلَمْ يُعتِقْهُمْ إلَّا لمَا هُمْ عليهِ منَ الخيرِ في ظُنُونِنا، وفِي هذَا مِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ(١)، وحُسْنِ ظنِّهِ بالنَّاسِ، وقلَّةِ قدرِ الدُّنيَا في عينِهِ، وسهولةِ إخراجِهَا عليهِ حتَّىٰ لا يصدَّهُ عنْ فعْلِ الخيرِ بهَا بعضُ الاحتمالاتِ، ولا شيءٌ منَ الشُّبُهَاتِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٢): **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحَارِثَ المُحَاسِبِيَّ يَقُولُ(٣): فَقَدْنَا ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ: حُسْنَ الوَجْهِ مَعَ الصِّيَانَةِ(٤)، وَحُسْنَ القَوْلِ مَعَ الأَمَانَةِ، وَحُسْنَ الإِخَاءِ مَعَ الوَفَاءِ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ جُملَةٍ منَ الأخلاقِ، فقولُهُ: «**فَقَدْنَا حُسنَ الوجهِ معَ الصِّيانةِ**»، يحتملُ الوجهُ: الصُّورةَ الظَّاهرةَ [٢/١٧٥أ]، والصِّيانَةُ: العَفَافَ.

ويحتملُ حسنُ الوجهِ: حسنَ الهيئةِ والحالةِ، والصِّيانةُ: السَّلامةَ مِنَ العُجْبِ والكِبْرِ.

---

(١) أي: وفيه مع ذلك دلالة علىٰ حسن خلقه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٨.

(٣) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٨/٢١٢، وإحياء علوم الدين ٢/٢٦٩، وتهذيب الكمال ٥/٢١١، والمنتظم ١١/٣٠٨، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٢٨١.

(٤) أي: جمال الذات مع كمال الخلق.

وقولُهُ: «حُسْنَ القولِ معَ الأمانةِ» يدلُّ علىٰ الوفاءِ بالوَعْدِ، فإنَّ مَنْ وعدَكَ وعدًا حسنًا حتَّىٰ سكَنْتَ لهُ ثمَّ لمْ يَفِ لكَ بمَا وعدَ فقدَ الأمانةَ، وقَدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]، كلُّ ذلكَ راجعٌ إلىٰ الوفاءِ بالقَولِ.

وقولُهُ: «حُسْنَ الإخاءِ معَ الوفاءِ»، وذلِكَ أنَّ الإخاءَ في اللهِ حُسْنٌ محثوثٌ عليهِ، وجمالُهُ الوفاءُ بشروطِ الأخوَّةِ؛ وهوَ أنْ تخلفَهُ في غَيبتِهِ، وتقومَ بحقِّهِ في حضرتِهِ، وإنْ رأيتَ زللًا نصحْتَ واستغفَرْتَ، وإنْ رأيتَ خيرًا أعَنْتَ وحرَّضْتَ، ولمْ تَضِنَّ عليهِ بشيءٍ منْ مالِكَ وجاهِكَ، وحملْتَ ما يبدُو منهُ منَ الثَّقيلِ في بعضِ الأوقاتِ والإساءةِ، وقلَّةِ القيامِ بحقوقِكَ، وهذَا كلُّهُ داخلٌ تحتَ قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ورُوِيَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عن معنَىٰ هذِهِ الآيةِ، فسألَ جبريلَ، قالَ: حتَّىٰ أسألَ العالِمَ، ثمَّ جاءَهُ فقالَ: «إنَّ اللهَ يأمرُكَ أنْ تَصِلَ مَنْ قطعَكَ، وتُعْطِيَ مَنْ حرَمَكَ، وتعفُوَ عمَّنْ ظلمَكَ»(١).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ(٣): سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدٍ الرَّازِي يَقُولُ: الخُلُقُ اِسْتِصْغَارُ مَا مِنْكَ، وَاسْتِعْظَامُ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّكَ متَىٰ استصغرْتَ مَا منكَ منَ الطَّاعاتِ رأيتَهَا حقيرةً بالإضافةِ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ حملْتَ نفسَكَ في إجادَتِهَا،

---

(١) انظر: مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص٢٤، وتفسير الطبري ٩/١٥٥، والسمرقندي ١/٥٨٨، والثعلبي ٤/٣١٨، ومفاتيح الغيب ١٥/٧٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٨.

(٣) ورد قوله في: الفتوة ص٨٧، وتهذيب الأسرار ص٢٢٢، والغنية للجيلاني ص٣٢٢، وقناطر الخيرات ٣/١٤٠، والفتوحات الربانية ٤/٢٤٠.

وكمالِ صدْقِهَا وإخلاصِهَا، وتبرَّأتَ مِنْ حولِكَ وقوَّتِكَ في إيقاعِهَا.

وأمَّا قولُهُ: «**استعظامُ ما إليكَ**» ممَّا يرِدُ عليكَ منَ اللهِ - تعالىٰ - ويتفضَّلُ بهِ عليكَ، إذا رأيتَهُ عظيمًا بالغتَ في شكرِهِ، ورأيتَ نفسَكَ عاجزًا عنِ القيامِ بهِ[١].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقِيلَ لِلأَحْنَفِ[٣]: مِمَّنْ تَعَلَّمْتَ الخُلُقَ؟ فَقَالَ: مِنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ المِنْقَرِيِّ، فَقِيلَ: وَمَا بَلَغَ مِنْ خُلُقِهِ؟ قَالَ: بَيْنَا هُوَ جَالِسٌ فِي دَارِهِ إِذْ جَاءَتْ خَادِمٌ لَهُ بِسُفُّودٍ[٤] عَلَيْهِ شِوَاءٌ، فَسَقَطَ مِنْ يَدِهَا[٥]، فَوَقَعَ عَلَىٰ ابْنٍ لَهُ فَمَاتَ، فَدُهِشَتِ الجَارِيَةُ فَقَالَ: لَا رَوْعَةَ عَلَيْكِ، أَنْتِ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ - تعالىٰ -**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٢/١٧٥ب]: وهَذَا فيهِ منَ الإجلالِ للهِ - تعالىٰ - كمالُ العفوِ عنِ الزَّللِ فِي أكملِ الأذيَّةِ والمصيبةِ، والإحسانِ بعدَ العفوِ، فإنَّ هذِهِ الجاريَةَ لمَّا أتَتْ بهذَا السُّفُّودِ إلىٰ سيِّدِهَا وهوَ محميٌّ بالنَّارِ، وربَّمَا كانَ منهَا بعضُ التَّفريطِ فِي كونِهَا لمْ تَحِدْ عنِ الصَّغيرِ إلىٰ جهةٍ أُخرىٰ، فإنَّمَا حملَهَا الاستعجالُ لقضاءِ الحاجةِ، فسقطَ مِنْ يدِهَا وهوَ حارٌّ علَىٰ الصَّغيرِ فكانَ سببَ وفاتِهِ، فأخذَتْهَا رَجْفَةٌ لمَّا كانَ الموتُ بسببِهَا، فأدركَ ذلكَ منهَا سيِّدُهَا، وعلِمَ أنَّهَا كانَتْ مغلوبةً، فعفَا عنهَا بقولِهِ: «**لا روعةَ[٦] عليكِ**»، ثمَّ كمَّلَ لهَا التَّطمينَ بالإحسانِ بقولِهِ: «**أنتِ حرَّةٌ لوجْهِ اللهِ**».

وهذَا يدلُّ علىٰ كَمَالِ عِلْمِهِ باللهِ - تعالىٰ - ونظرِهِ لقدرِهِ ومَا يُجريهِ، وأنَّ الآجالَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٨.

(٣) ورد في: إحياء علوم الدين ٢/٢٢٠، والمستطرف ١/٢٦١.

(٤) ما يشوىٰ عليه اللحم.

(٥) في (ف): يده.

(٦) أي: فزعة.

لا تقديمُ لهَا ولا تأخيرٌ، وأنَّ ولدَهُ لا بُدَّ مِنْ مَوتِهِ بهذَا السَّببِ، وهذَا جميعُهُ منَ الأخلاقِ المحمودةِ(١).

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَقَالَ شَاهُ الكِرْمَانِيُّ**(٣): **عَلَامَةُ حُسْنِ الخُلُقِ: كَفُّ الأَذَىٰ، وَاحْتِمَالُ المُؤَنِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ فإنَّ احتمالَ المؤنِ يدلُّ على الصَّبرِ والشَّجاعةِ، وكفَّ الأذىٰ يدلُّ علىٰ الكرَمِ والجودِ والسَّماحةِ، وهذِهِ كلُّهَا منْ أشرفِ الأخلاقِ(٤).

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «**وَقَالَ النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٦): **(إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَسَعُوهُمْ بِبَسْطِ الوَجْهِ، وَحُسْنِ الخُلُقِ)**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا يدلُّ علىٰ أنَّ العبدَ لا يمكنُهُ في كلِّ وقتٍ أنْ يُرْضِيَ سائِلَهُ بمَا رغبَ فيهِ منَ المالِ؛ لعسرِ ذلكَ عليهِ في كثيرٍ منَ الأوقاتِ، ولكنَّهُ إذا كانَ حسنَ الخُلُقِ ردَّهُ بإحسانٍ، وبوجهٍ منْ وجوهِ الاعتذارِ فينصرفُ عنهُ، وقدْ نالَ بعضَ مقصودِهِ، بخلافِ مَنْ يكونُ سيِّئَ الخُلُقِ فإنَّهُ إنْ ضاقَتْ ذاتُ يدِهِ ثمَّ سُئِلَ ضَجرَ وتنمَّرَ(٧)، وقابلَ سائلَهُ بقبضِ الوجْهِ وكثرةِ القلقِ والضَّجرِ حتَّىٰ ينصرفَ عنهُ سائلُهُ متألِّمًا، فيجتمعَ عليهِ عدمُ قضاءِ الحاجةِ، وسوءُ الخُلُقِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٨.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢١٨، وإحياء علوم الدين ٣/٥٣.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠١.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٨.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/٢١٢، وأبو يعلىٰ في مسنده ١١/٤٢٨، والحاكم في المستدرك ١/٢١٢، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/٢٥٤.

(٧) يقال: تنمر فلان، أي: تنكر وتغير.

في وجهِهِ منَ الغضبِ والتَّنمرِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ لِذِي النُّونِ المصْرِيِّ[(٢)]: مَنْ أَكْثَرُ النَّاسِ هَمًّا؟ قَالَ: أَسْوَأُهُمْ خُلُقًا».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ ساءَ خلقُهُ عَدِمَ الصَّبْرَ علىٰ مَا ابْتُلِيَ بهِ منَ الأقدارِ، أوْ كُلِّفَهُ مِنْ عبادةِ الواحدِ القهَّارِ، وكذلِكَ ساءَتْ معاملتُهُ لمَنْ يعاملُهُ منَ الخلقِ باختلافِ الأحوالِ، فلا [١٧٦/٢أ] يزالُ في همٍّ وكَرْبٍ فيمَا يخالِفُ غرضَهُ منَ الأقدارِ، أوْ فيمَا يلقَاهُ مِنْ معاملةِ الأخيارِ والأشرارِ، ولَوْ كانَ خُلُقُهُ حَسَنًا لَقلَّتْ آلامُهُ، وانشرحَ صدرُهُ، وخفَّتْ عليهِ أعمالُهُ وتكاليفُ ربِّهِ عليهِ وما يتجدَّدُ منَ اختلافِ الأحوالِ في معاملةِ الخَلْقِ لربِّهِ؛ لرؤيتِهِ جميعَ ذلكَ مِنْ مُجْريهِ ومُقمَدِّرِهِ ومُنشئِهِ، وأنَّ مَا سبقَ بهِ القدرُ لا بُدَّ مِنْ كونِهِ، رضِيَ العبدُ بذلِكَ أوْ كرِهَ وضجرَ.

فدلَّ جميعُ ذلكَ علىٰ أنَّ سوءَ الخُلُقِ يرجعُ ضَرَرُهُ علىٰ صَاحبِهِ في دينِهِ ودُنياهُ، وفي معاملتِهِ للخَلْقِ ومولَاهُ، وبعكسِ ذلكَ يكونُ تنعُّمُهُ وراحتُهُ في دُنياهُ وأُخْرَاهُ[(٣)].

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَقَالَ وَهْبٌ[(٥)]: مَا تَخَلَّقَ عَبْدٌ بِخُلُقٍ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا إِلَّا جَعَلَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ طَبِيْعَةً فِيهِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومرادُهُم هاهُنَا بـ«الطَّبيعةِ»: العادةُ؛ لأنَّ العبدَ تتغيَّرُ

(١) الرسالة القشيرية ٣٩٨/٢.

(٢) ورد بلا نسبة في: تهذيب الأسرار ص٢٢٠.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٠١/٢.

(٤) الرسالة القشيرية ٣٩٨/٢.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٢٠.

أحوالُهُ بالمشاهدةِ، وينتقلُ حالُهُ منَ البخلِ إلىٰ السَّخاءِ، ومنَ الجَزَعِ إلىٰ الصَّبرِ، ومنَ السُّخطِ إلىٰ الرِّضَا، فإذَا جاهدَ نفسَهُ لينقلَهَا منْ خلُقٍ مذمومٍ إلىٰ خلُقٍ محمودٍ وصبَرَ علىٰ ذلِكَ أربعينَ يومًا صارَتْ لهُ عادةٌ حسنةٌ، وحبَّبهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ إليهِ، ووجدَ بركةَ ذلِكَ الخلُقَ في الدُّنيَا والآخرةِ، فبعُدَ رجوعُهُ عنهُ إلىٰ ما كانَ عليهِ.

فبهذَا الاعتبارِ سمَّاهُ طبيعةً؛ أيْ: لا يتغيَّرُ لمَا وجدَ منَ اللَّذَّةِ فيهِ والاستحسانِ لهُ دُنيَا وأُخْرَىٰ، فإنَّ طبعَ بنِي آدمَ مائلٌ لكلِّ لذيذٍ، ونافِرٌ عنْ كلِّ كريهٍ، وإذَا تقابلَ عندَهُ لذيذانِ كانَ إلىٰ ألذِّهِمَا أميلَ، وإذَا دعَتْهُ ضرورةٌ إلىٰ تحمُّلِ أحدِ المَكْرُوهَينِ كانَ إلىٰ أخفِّهِمَا ألينَ وأميلَ، ويعضِّدُ هذَا قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(١)]: «مَنْ أَخْلَصَ للهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَىٰ لِسَانِهِ».

فإنَّهُ إذَا تثبَّتَ قبلَ عُزُومِ قلبِهِ وأفعالِ جوارحِهِ؛ ومنهَا لسانُهُ فلَمْ يتكلَّمْ بكلمةٍ حتَّىٰ وزنَهَا بالشَّريعةِ وأوقعَهَا خالصةً للهِ ـ تعالىٰ ـ وكذلِكَ عُزُومُ قلبِهِ، ودامَ علىٰ ذلكَ أربعينَ يومًا مخلصًا صادِقًا اعتدلَ قلبُهُ وتخلَّقَ بالصِّدقِ والإخلاصِ وعبَّرَ لسانُهُ عمَّا في قلبِهِ، والحكمةُ: وضعُ الشَّيءِ موضعَهُ، وبهذَا ظهرَتْ ينابيعُ الحِكمةِ مِنْ قلبِهِ علىٰ لِسَانِهِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ**[(٣)] **فِي قَوْلِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾** [المدثر: ٤]، **أَيْ: وَخُلُقَكَ فَحَسِّنْ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولذلِكَ لمْ [١٧٦/٢ب] يزَلْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستعمِلًا لهذَا الخُلُقِ الشَّريفِ كمَا رواهُ مالكُ بنُ أنسٍ يرفعُهُ إلىٰ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ[(٤)]: «مَا خُيِّرَ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٨٠/٧، وابن المبارك في الزهد ص٣٥٩، والديلمي في الفردوس ٥٦٤/٣، والقضاعي في مسند الشهاب ٢٨٥/١.

(٢) الرسالة القشيرية ٣٩٨/٢.

(٣) ورد قوله في: معالم التنزيل ٤١٣/٤، وتفسير الثعلبي ٦٩/١٠، ومفاتيح الغيب ١٧٠/٣٠.

(٤) سبق تخريجه.

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرَينِ قطُّ إِلَّا اِخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ قَطُّ ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا».

ورُوِيَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُسِرَتْ رباعيَّتُهُ ، وشُجَّ وجهُهُ يومَ (أُحُدٍ) ، شقَّ ذلكَ على أصحابِهِ شديدًا ، وقالُوا: لَوْ دَعَوْتَ عَلَيْهِمْ ؟ فقالَ[١]: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا ، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ دَاعِيًا وَرَحْمَةً ، اللَّهُمَّ اِهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

ورُوِيَ عَنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ قالَ فِي بعضِ كلامِهِ[٢]: بأبِي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ ، فقدْ دعَا نوحٌ على قومِهِ فقالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [نوح: ٢٦].. الآية ، ولَوْ دعوتَ علينَا مثلَهَا لَهلَكْنَا مِنْ عندِ آخرِنَا ، فلقدْ وُطِئَ ظهرُكَ ، وأُدْمِيَ وجهُكَ ، وكُسِرَتْ رباعيَّتُكَ ، فأبيتَ أنْ تقولَ إلَّا خيرًا ، فقلتَ: «اللَّهمَّ اِغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

❁ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ[٤]: كَانَ لِبَعْضِ النُسَّاكِ شَاةٌ ، فَرَآهَا عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمَ ، فَقَالَ: مَنْ فَعَلَ هَذا بِهَا ؟ فَقَالَ غُلَامٌ لَهُ: أَنَا ، فَقَالَ: لِمَ ؟ قَالَ: لِأَغُمَّكَ بِهَا ، فَقَالَ: لَا ، بَلْ لأَغُمَّنَّ مَنْ أَمَرَكَ بِذَلِكَ ، اذْهَبْ فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ ـ تعالى ـ».**

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا غايةٌ في احتمالِ الأذىٰ والعفوِ عنِ الأجرامِ العظيمةِ ، فإنَّهُ رأىٰ شاةً مِنْ شِيَاهِهِ وقدْ قُطِعَتْ بعضُ قوائِمِهَا وبقِيَتْ على ثلاثِ قوائمَ ، وقطعَهَا مَنْ لهُ عليهِ الحكمُ والملكُ ، ثمَّ سألَهُ: «**لمَ فعلْتَ هذا ؟ فأجابَهُ أنَّهُ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٠٦/٤ ـ حديث رقم (٢٥٩٩).

(٢) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٣١٠/١ وتفسير القرطبي ٢٠٠/٤ ، والسيرة الحلبية ٥٤٨/٢ ، وبدائع السلك ٤٧٥/٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٣٩٩/٢.

(٤) ورد في: البيان والتبيين ٩٧/٣ ، ومعترك الأقران ٣٨٠/٣.

فعلَهُ قصْداً ليغمَّهُ بذلكَ»، ومعَ هذَا كلِّهِ ما التفتَ إليهِ، ولا لِمَا جرَىٰ بسببِهِ، فقالَ: «واللهِ لأغيظنَّ مَنْ أمرَكَ بذلِكَ»، يعنِي: الشَّيطانَ الرَّجيمَ، فإنَّهُ هوَ الَّذِي يأمُرُ بالفَحْشَاءِ[١].

وأينَ هذَا مِنْ حلمِ سيِّدِ العربِ والعجمِ، ومَنْ شرَّفَهُ اللهُ في الدُّنيَا والآخرةِ علىٰ سائرِ الأنبياءِ والأممِ!، وأرادَتْ يهوديَّةٌ لا قدْرَ لهَا عندَ اللهِ أنْ تقتلَهُ، وسمَّتِ الشَّاةَ الَّتِي قُدِّمَتْ إليهِ في بعضِ الأعضاءِ المحبوبةِ إليهِ، وسألَهَا عنْ ذلكَ، فأقرَّتْ أنَّهَا فعلَتْ ذلكَ قصْداً، فقالَتْ: «إنْ كنتَ نبيًّا علِمْتَ ذلكَ، وإنْ كنتَ ملكًا أرحْتَ النَّاسَ منكَ»[٢].

وقدِ اختلفَتِ الرِّواياتُ عنهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَلْ [٢/١٧٧أ] قتلَهَا أمْ لَا؟

قالَ القاضِي أبو الفضلِ عياضُ بنُ موسَىٰ[٣]: «الصَّحيحُ أنَّهُ عفَا عنهَا، وقالَ لهَا: (ما كانَ اللهُ ليسلِّطَكِ علَىٰ ذلكَ)».

وحالُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معَ غَوْرَثِ بنِ الحارثِ حيثُ أتَىٰ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاصداً قتلَهُ، فوجدَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منتبذاً قائمًا تحتَ شجرةٍ وحدَهُ، فلمْ يستيقظِ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا وهوَ قائمٌ علىٰ رأسِهِ والسَّيفُ في يدِهِ صَلْتًا[٤]، فقالَ لهُ: مَنْ يمنعُكَ منِّي يا محمَّدُ؟ فقالَ: «اللهُ»، فسقطَ السَّيفُ مِنْ يدِهِ، فأخذَهُ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالَ:

---

(١) وهذا غاية في احتمال الأذىٰ والعفو.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٧٢١ ـ حديث رقم (٢١٩٠) بلفظ: «عن أَنَسٍ أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ منها، فَجِيءَ بها إلىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهَا عن ذلك، فقالت: أَرَدْتُ لِأَقْتُلَكَ، قال: ما كان الله لِيُسَلِّطَكِ على ذَاكِ، قال أو قال عَلَيَّ قال: قالوا ألا نَقْتُلُهَا، قال لَا قال فما زِلْتُ أَعْرِفُهَا في لَهَوَاتِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٧/٩٣.

(٤) في النهاية لابن الأثير ٣/٤٥: «أي: مجردًا، يقال: أصلت السيف؛ إذا جرده من غمده».

«مَنْ يمنعُكَ منِّي؟»[١]، قالَ: كُنْ خيرَ آخذٍ، قالَ: فعفَا عنهُ ورجعَ إلى قومِهِ، وقالَ: جئتُكُمْ مِنْ عندِ خيرِ النَّاسِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَم[٣]: هَلْ فَرِحْتَ فِي الدُّنْيَا قطُّ؟ قَالَ: نَعَمْ، مَرَّتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا: كُنْتُ قَاعِدًا ذَاتَ يَومٍ فَجَاءَ إِنْسَانٌ وَبَالَ عَلَيَّ، وَالثَّانِيَةُ: كُنْتُ قَاعِدًا فَجَاءَ إِنْسَانٌ وَصَفَعَنِي».**

❋ **قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:** وهذَا يدلُّ على فرحِهِ بصُنْعِ مَولَاهُ، وذِكْرِهِ لحالِهِ فِي سلطنتِهِ لوْ سلَّمَ عليهِ مسلمٌ بغيرِ الإمرةِ لنالَ منهُ ما يخشَاهُ، وبلغَتْ بهِ المعرفةُ لربِّهِ ورِضاهُ بمَا يُجريهِ عليهِ وتمكُّنِهِ في قُرْبِهِ بحيثُ يرضَى بما يجرِي عليهِ مِنْ ربِّهِ، ولمْ يكنْ سُرُورُهُ بمعصيةِ هذَينِ الفاعلَينِ: الَّذِي بالَ عليهِ والَّذِي صفعَهُ، بلْ همَا عاصيانِ ينبغِي زجرُهُمَا إنْ أمكنَ عنْ أفعالِهِمَا، وربَّمَا كانَ إبراهيمُ وقتَ جَريانِ ذلكَ عليهِ ممَّنْ لا يمكنُهُ التَّعبيرُ، وغلبَ على قلبِهِ نظرُهُ لاختيارِ المَلِكِ الخَبيرِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقِيلَ: كَانَ أُوَيْسُ القُرَنِيُّ إِذَا رَآهُ الصِّبْيَانُ يَرْمُونَهُ بِالحِجَارَةِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ فَارْمُونِي بِالصِّغَارِ؛ كَيْلَا تَدُقُّوا سَاقِي، فَتَمْنَعُونِي عَنِ الصَّلَاةِ».**

❋ **قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:** وهذَا يدلُّ على أنَّهُ كانَ يعتقدونَهُ مجنونًا، ويزجرُهُمْ فلَا يَنْزَجِرُونَ[٥]، وهانَ عليهِ احتمالُ الأذَى في اللهِ، ولكنَّهُ خشِيَ أنْ يكونَ رميُهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/١٥١٥ ـ حديث رقم (٣٩٠٥)، ومسلم في صحيحه ٤/١٧٨٦ ـ حديث رقم (٨٤٣)، وعبد بن حميد في مسنده ص٣٣٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٩.

(٣) ورد قوله في: المستطرف ١/٢٦١، وحدائق الحقائق ص١٠٥، والغنية ص٣٢٢.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٩.

(٥) في (أ): ينزجروا، والصواب المثبت.

لهُ بحجرٍ كبيرٍ فيكسرَ ساقهُ فتتعذَّرَ عليهِ الصَّلاةُ قائمًا.

ولَقَدْ وجدَ النَّبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أوَّلِ الإسلامِ قريبًا مِنْ هذا[1] لمَّا خرجَ إلى الطَّائفِ يعرضُ نفسَهُ عليهِمْ ليؤمنُوا بِهِ ويصدِّقُوهُ وينصرُوهُ، فأتى لابنَي عمروٍ فقالَ لهُ أحدُهُمَا: مَا وجدَ اللهُ مَنْ يرسلُهُ غيرَكَ، وقالَ لهُ الثَّاني: لئِنْ كنتَ رسولًا فأنتَ أجلُّ [١٧٧/٢ب] مِنْ أنْ أكلِّمَكَ، وإنْ لمْ تكنْ رسولًا فأنتَ أحقرُ في عينِي أنْ أكلِّمَكَ، فانصرفَ عن ثقيفٍ وقدْ أيسَ منْ خيرِهِمْ، وسلَّطُوا عليهِ الصِّبيانَ يرمونَهُ بالحجارةِ فلمَّا بعُدَ منهُمْ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ استندَ إلى حائطٍ فيهِ كَرْمٌ، فرآهُ أخوَانِ رقَّ لهُ رحِمُهُمَا، فقالَ أحدُهُمَا لغلامٍ اسمُهُ عدَّاسٌ: خُذْ هذَا الطَّبَقَ واجعلْ فيهِ عنقودًا مِنْ عنبٍ وامضِ بهِ إلى ذلكَ الشَّخصِ، قالَ: فأتى بهِ للنَّبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلمَّا أتى إليهِ أخذَ النَّبيُّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنْ ذلكَ العنبِ وقالَ: «بِسمِ اللهِ، وأكَلَ»، فقالَ الغلامُ: إنَّ هذا كلامٌ ما سمِعْتُهُ بهذِهِ البلادِ، فقالَ لهُ: مِنْ أيِّ بلادٍ أنتَ؟ قالَ لهُ: منْ بلادِ يونسَ بنِ متَّى، قالَ: ذلكَ أخِي، أنا نبيٌّ وهوَ نبيٌّ، فأكبَّ عدَّاسٌ على رأسِ النَّبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقالَ أحدُهُمَا لصاحبِهِ: أمَّا غلامُكَ فقدْ أفسدَهُ، فلمَّا رجعَ الغُلامُ إليهِمَا، فقالَ لهُمَا: ما علَى وجهِ الأرضِ شيءٌ أحسنُ مِنْ هذَا!.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[2]: «**وَشَتَمَ رَجُلٌ الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ وَكَانَ يَتْبَعُهُ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ الحَيِّ وَقَفَ، فَقَالَ: يَا فَتَى، إِنْ كَانَ بَقِيَ فِي قَلْبِكَ شَيْءٌ فَقُلْهُ؛ كَيْ لَا يَسْمَعَكَ بَعْضُ سُفَهَاءِ الحَيِّ فَيُجِيبُوكَ[3]**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا يدلُّ على حُسْنِ الخُلُقِ واحتمالِ الأذى، والشَّفقةِ على الخَلْقِ؛ وذلكَ أنَّهُ كانَ يسمعُ سبَّهُ بأُذُنِهِ فلَا يكافئُهُ عليهِ، وهذَا هوَ

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٦٧، والكامل في التاريخ ١/٦٠٧، والمنتظم ٣/١٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٩.

(٣) في (أ، ف): فيجيبونك، والصواب المثبت.

احتمالُ الأذَىٰ، ولمَّا قَرُبَ منَ الحيِّ قالَ لهُ: «**يَا فتىٰ، إنْ كانَ بقِيَ عندَكَ شيءٌ تقولُهُ فقُلْهُ، فإنِّي أخشَىٰ عليكَ سفهاءَ الحيِّ**»، يعنِي: الشُّبَّانَ والأوغادَ[(١)]، فإنَّهُ إذا سمعُوكَ تَسُبُّ فَيجيبُونكَ ويؤذُونكَ[(٢)]، وهذَا غايةُ الشَّفقةِ عليهِ، وعدمُ مكافأتِهِ بمَا يقولُ، لمْ يفعلْ ذلكَ بنفسِهِ وأشفقَ عليهِ مِنْ فِعْلِ غيرِهِ بهِ، ولمْ يأمرْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأنْ يشتمَهُ ولَا استحسَنَهُ منهُ؛ ولذلكَ قالَ: «**إنْ كانَ**» فجعلَ الخيرةَ إليهِ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقِيلَ لِحَاتِمٍ الأَصَمِّ: أَيَحْتَمِلُ الرَّجُلُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، إِلَّا مِنْ نَفْسِهِ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ فقهٌ عظيمٌ، وذلكَ أنَّ الخطأَ إذا وردَ عليهِ منْ غيرِهِ وحلُمَ ولمْ يكافِئْهُ كانَ لهُ فِي ذلكَ الأجرُ العظيمُ، وإذَا وردَ الخطأُ مِنْ نفسِهِ ولَمْ يؤدِّبْهَا ولمْ يزجرْهَا علَىٰ ذلكَ قادَهُ ذلكَ إلىٰ العذابِ الأليمِ[(٤)].

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٥)]: «**وَرُوِيَ[(٦)] أَنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [٢/١٧٨أ] **دَعَا غُلَامًا فَلَمْ يُجِبْهُ، فَدَعَاهُ ثَانِيًا وَثَالِثًا، فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ فَرَآهُ مُضْطَجِعًا، فَقَالَ: أَمَا تَسْمَعُ يَا غُلَامُ؟! فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ تَرْكِ جَوَابِي؟ فَقَالَ: أَمِنْتُ عُقُوبَتَكَ، فَتَكَاسَلْتُ، فَقَالَ: اِمْضِ فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وحُرِّيَّتُهُ لهُ بعدَمَا صنعَ ما صنعَ يحتملُ أمرَينِ:

---

(١) هم أرذال الناس. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة ٢/٥٣١.

(٢) في (أ): فيجيبوك ويؤذوك، والصواب المثبت.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٩.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٢.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٩.

(٦) ورد في: إحياء علوم الدين ٣/٧١، والمستطرف ١/٢٦١، وسراج الملوك ص١٤٦، وتصفية القلوب ص٣٠.

أحدُهُمَا: المكافأةُ على الإساءةِ بالإحسانِ، وهذَا معنَى أنْ يحسنَ الإنسانُ إلىٰ مَنْ يسيئُ إليهِ.

والثَّانِي: أنَّ العبدَ إذَا وصلَ معَ سيِّدِهِ إلىٰ هذَا الحدِّ بحيثُ لا يأتمرُ بأوامِرِهِ خُشِيَ عليهِ أحدُ أمرينِ: إمَّا أنْ يُفْسِدَ علىٰ سيِّدِهِ حالَهُ، فيتعوَّدَ الحِلمَ فيثورَ مِنْ نفسِهِ مَا تكلَّفَ أدبهُ فيهِ، أوْ يُقَاسِي هوَ ما يشوِّشُهُ مِنْ تكرارِ هذهِ الأفعالِ مِنْ هذا العبدِ فلا ينتفعُ بهِ في دُنياهُ، فأرادَ أنْ ينتفعَ بهِ في أُخْرَاهُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقِيلَ: نَزَلَ مَعْرُوفٌ الكَرْخِيُّ (دِجْلَةَ) لِيَتَوَضَّأَ، وَوَضَعَ مُصْحَفَهُ وَمِلْحَفَتَهُ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ وَحَمَلَتْهُمَا، فَتَبِعَهَا مَعْرُوفٌ وَقَالَ: يَا أُخْتِي، أَنَا مَعْرُوفٌ، وَلَا بَأْسَ عَلَيْكِ، أَلَكِ ابْنٌ يَقْرَأُ؟ قَالَتْ: لَا، قَالَ: فَزَوْجٌ؟ قَالَتْ: لَا، قَالَ: فَهَاتِ المُصْحَفَ وَخُذِي الثَّوْبَ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ حُسْنِ الظَّنِّ[٢] بالمُسلمينَ أَنَّهم لا يأخذُونَ مِنْ أموالِ النَّاسِ إلَّا ما دعَتْ حاجتُهُمْ وضَرُورتُهُمْ إليهِ، فلمَّا نزلَ البحرَ وتركَ مِلحفتَهُ ومُصْحفَهُ، فجاءَتْ هذهِ المرأةُ واستغفلَتْهُ وأخذتْهُمَا تحتَهَا ومضَتْ، فطلعَ منَ البحرِ وأدركَهَا برفقٍ، وسألَهَا: «**هَلْ عندَهَا ولدٌ، أو زوجٌ يقرأُ القرآنَ؟ قالَتْ: لَا، فقالَ لهَا: هَاتِ المُصْحَفَ وَخُذِي المِلْحَفَةَ**»؛ لغلبةِ ظَنِّهِ أَنَّهَا مَا أخذتْهُمَا إلَّا للحَاجةِ[٣].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَدَخَلَ اللُّصُوصُ مَرَّةً دَارَ الشَّيْخِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **بِالمُكَابَرَةِ، وَحَمَلُوا مَا وَجَدُوا، فَسَمِعْتُ بَعْضَ أَصْحَابِنَا يَقُولُ:**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٩.

(٢) قال العروسي: «.. كيف تحسين الظن مع السرقة التي هي من الكبائر، ولو مع الحاجة، والأولىٰ أن ذلك من الرأفة منه بها من إثم السرقة، لأجل أن تأخذ حلالا طيبًا» نتائج الأفكار ٣/٣٣٦.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٣.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٩.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: اِجْتَزْتُ(١) [يَوْمًا](٢) بِالسُّوقِ، فَرَأَيْتُ جُبَّتِي عَلَىٰ مَنْ يَزِيدُ(٣)، فَأَعْرَضْتُ وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أحدِ أمرينِ: إمَّا أنْ يكونَ كرِهَ كشفَ سترِ المسلمِ الَّذِي سرَقَ الجُبَّةَ، وإمَّا أنْ يكونَ احتسبَهَا للهِ لمَّا سُرِقَتْ، فكرِهَ أنْ يرجعَ فيمَا تركَهُ للهِ.

وهذانِ الوجهانِ يدلَّانِ علىٰ كمالِ الزُّهْدِ في الدُّنيَا، والشَّفَقَةِ [٢/١٧٨ب] علىٰ الخَلْقِ، ومحبَّةِ السَّترِ عليهِم، وحملِ أذاهُم، وهوَ غايةٌ فِي الأخلاقِ الحَمِيْدَةِ(٤).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ الطُّوسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الوَجِيهِيَّ يَقُولُ: قَالَ الجُرَيْرِيُّ(٦): قَدِمْتُ مِنْ مَكَّةَ، فَبَدَأْتُ بِالجُنَيْدِ لِكَيْلَا يَتَعَنَّىٰ إِلَيَّ(٧)، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ مَضَيْتُ إِلَىٰ المَنْزِلِ، فَلَمَّا صَلَّيْتُ الصُّبْحَ فِي المَسْجِدِ إِذَا أَنَا بِهِ خَلْفِي فِي الصَّفِّ! فَقُلْتُ: إِنَّمَا جِئْتُكَ أَمْسِ لِئَلَّا تَتَعَنَّىٰ، فَقَالَ: ذَاكَ فَضْلُكَ، وَهَذَا حَقُّكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ أحسنِ الأدبِ؛ وذاكَ أنَّ المسافرَ إذَا قدِمَ مِنْ سفرِهِ فحقُّ المستقرِّ أنْ يَزُورَهُ فيسلِّمَ عليهِ؛ لأنَّهُ معذورٌ بوعثاءِ السَّفرِ، فلمَّا جاءَ الجُريريُّ سلَّمَ على الجُنيدِ؛ لئلَّا يَتَعَنَّىٰ إليهِ، فأصبحَ الجُنيدُ ثانِي يومٍ علىٰ بَابِهِ،

---

(١) أي: مررتُ.

(٢) زيادة من (ف).

(٣) أي: في المزاد العلني.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٣.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(٦) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٤٤٤، وتاريخ الإسلام ٢٣/٤٤٦.

(٧) أي: يتعب بمجيئة إليّ.

فقالَ لهُ الجُريريُّ: «إنَّمَا جئتُكَ بالأمسِ لئلَّا تَتَعَنَّى»، فسكَتَ عنهُ، ثمَّ قالَ لهُ: «هذَا حقُّكَ، وذاكَ فضلُكَ».

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَسُئِلَ أَبُو حَفْصٍ عَنِ الخُلُقِ؟ فَقَالَ: مَا اخْتَارَ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]... الآيَة».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قدْ تقدَّمَ[2] تفسيرُهُ لمَّا سأَلَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريلَ فقالَ لهُ: «حتَّى أسألَ العالِمَ»، يعنِي: اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، فسألَهُ جبريلُ عنِ المرادِ بالآيةِ، فقالَتْ عائشةُ[3]: «فقالَ لهُ: صِلْ مَنْ قطعَكَ، وأعطِ مَنْ حرمَكَ، واعفُ عمَّنْ ظلمَكَ».

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[4]: «وَقِيلَ[5]: الخُلُقُ: أَنْ يَكُونَ مِنَ النَّاسِ قَرِيبًا، وَفِيمَا بَيْنَهُمْ غرِيْبًا».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أيضًا يدلُّ على انفرادِهِ بحالِهِ ويسترُ ذلكَ عَنْ غيرِهِ؛ وذلكَ أنَّ مَنْ كانَ منَ النَّاسِ قريبًا أكلَ ممَّا يأكلُونَ وخالطَهُمْ فيمَا يحبُّونَ ولمْ يكنْ بقلبِهِ معَهُمْ، بَلْ ببدنِهِ خاصَّةً وكلِّيَّتُهُ مشغولةٌ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهذَا حَالُ العَارفِ.

وقدْ بيَّنَّا أنَّ العبدَ لَا يصلُ إلىٰ هذِهِ المنزلةِ إلَّا بكمالِ الجدِّ والصِّدقِ والإخلاصِ، وكمالِ الاشتغالِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ حتَّىٰ يشتغلَ عن نفسِهِ، فضْلًا عنْ غيرِهَا منَ المخلوقاتِ، وهذَا معنىٰ كونِهِ بينَهُمْ غريبًا؛ لأنَّ الغريبَ مَنْ لا شَبيهَ لهُ ولا

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

(٢) الدلالة ٣/١٨٥.

(٣) ورد في: تهذيب الأسرار ص٢١٧.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

قَريبَ ولا مُوافقَ[١].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ[٣]: الخُلُقُ: قَبُولُ مَا يَرِدُ عَلَيكَ مِنْ جَفَاءِ الخَلْقِ، وَقَضاءُ الحَقِّ بِلَا ضَجَرٍ وَلَا قَلَقٍ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا مقامُ الرِّضا، وإذا تمكَّنَ العبدُ فيهِ رضِيَ كلَّ ما [١٧٩/٢أ] يردُ عليهِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وكلَّ ما يردُ عليهِ منَ العبادِ؛ سواءٌ[٤] خالفَ ذلكَ غرضهُ أوْ وافقَهُ إذا كانَ مطلوبًا للحقِّ، أوْ مأذُونًا فيهِ علىٰ وَجْهِ الحقِّ والسَّدادِ، فيقبلُ كلَّ ما يرِدُ عليهِ مِنْ أخلاقِ العبادِ، ويحملُونَ ممَّا لا صبْرَ لهُ عليهِ إلَّا بعونِ الحافظِ لهُ والميسِّرِ لهُ علىٰ وجْهِ التَّوفيقِ والسَّدادِ، فيقبلُ ما يردُ عليهِ مِنَ الخَلْقِ والخَالقِ بسهولةٍ، فَضْلًا عَنْ تألُّمِ النَّفسِ والكَراهَةِ والقَلَقِ، وهذا معنىٰ قولِهِ: «**ما يرِدُ عليكَ مِنْ جَفَاءِ الخلقِ، وقضاءِ الحقِّ مِنْ غيرِ ضَجَرٍ ولا قَلَقٍ**».

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقِيلَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَىٰ حَوْضٍ يَسْقِي إِبِلًا لَهُ، فَأَسْرَعَ بَعْضُ النَّاسِ عَلَيْهِ، فَانْكَسَرَ الحَوْضُ، فَجَلَسَ، ثُمَّ اضْطَّجَعَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ[٦]: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَنا إِذا غَضِبَ الرَّجُلُ أَنْ يَجْلِسَ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ، وَإِلَّا فَلْيَضْطَّجِعَ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ آدابِ كسْرِ الغضبِ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ[٧]: «الغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

(٣) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص١٠٣، وقناطر الخيرات ٣/١٤٠.

(٤) في (أ): سرا، والصواب المثبت.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٢٤٩، وأحمد في مسنده ٥/١٥٢، وابن حبان في صحيحه ١٢/٥٠١.

(٧) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٢٤٩، وأحمد في مسنده ٤/٢٢٦، والطبراني في المعجم=

فَلْيُبَرِّدْهُ بِالمَاءِ».

وكذلكَ قيلَ لمعاويةَ بنِ أبِي سفيانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي العطاءِ حينَ أخذَهُ، قالَ لهُ بعضُ النَّاسِ: «أنفقْ في النَّاسِ عطايَاهُمْ؛ فإنَّكَ لَا تعطيهِمْ مِنْ مالِكَ ولا مِنْ مالِ أبيكَ، فنزلَ عنِ المِنبرِ وتوضَّأَ ثمَّ صعدَ، فقالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: .. الحديثَ المتقدِّمَ، وقالَ للنَّاسِ: اصبحُوا علىٰ عطاياكُمْ علىٰ بركةِ اللهِ».

فتارةً يكسرُ غضبَهُ بالماءِ، وتارةً إذا كانَ قائمًا فليجلِسْ، وإذَا كانَ جالِسًا فليضطَّجِعْ، كلُّ ذلكَ نزولٌ إلىٰ الأرضِ، وتنبيهٌ إلىٰ أنَّهُ منهَا خُلِقَ وإليهَا مآلُهُ، وأنَّ الغضبَ إنَّمَا ينشأُ عنْ كِبْرٍ وأنفَةٍ، إذَا خُولِفَ هوَاهُ فيقابَلُ بالتَّواضعِ ونُزُولِ القَدرِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: **«وَقِيلَ[2]: مَكْتُوبٌ فِي الإِنجِيلِ: عَبْدِي؛ اذكُرنِي حِيْنَ تَغْضَبُ، أَذْكُرْكَ حِينَ أَغْضَبُ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ العبدَ إذَا غضبَ زالَ عقلُهُ وتعدَّىٰ حدودَ اللهِ، فإذَا تثبَّتَ وذكَرَ حقَّ اللهِ حينَ يغضبُ فكسرَ غضبَهُ ولمْ يعملْ علىٰ مقتضَاهُ، وتوقَّفَ عندَ أمْرِ اللهِ ونَهْيِهِ رحمَهُ اللهُ يومَ القيامةِ فِي اليومِ الَّذِي يغضبُ فيهِ علىٰ مَنْ كفرَ بهِ وخالَفَهُ وعصَاهُ، كمَا جاءَ فِي [١٧٩/٢ب] الخبرِ الصَّحيحِ فِي المحشرِ أنَّ كلَّ نبيٍّ منَ الأنبياءِ إذَا أتَاهُ النَّاسُ يسألونَهُ فِي الشَّفاعةِ بينَهُمْ حتَّىٰ يريحَهُمُ اللهُ فيهِ منَ المحشرِ فيقولُ كلُّ نبيٍّ: «إنَّ ربِّي غضبَ اليومَ غضبًا لمْ يغضبْهُ قبلَهُ مثلَهُ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ»، حتَّىٰ يأتُوا رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمَّدًا، فيخرَّ ساجدًا للهِ ـ تعالىٰ ـ، فيؤذَنَ لهُ بالشَّفاعةِ[3]، فهذَا هوَ يومُ الغضبِ، فيقولَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لعبدِهِ:

= الكبير ١٧/١٦٧.

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

(٢) ورد في: تفسير الثعلبي ٦/١٦٤، ومعالم التنزيل ٣/١٥٧، وحلية الأولياء ٣/٦٥.

(٣) فيُقال له: «.. يا محمد، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ»، والحديث أخرجه مطولا البخاري=

«اذْكُرْنِي يومَ تغضبُ، أذكرْكَ يومَ أغضبُ»، أَعْنِي: يومَ القيامةِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَتِ امْرَأَةٌ لِمَالِكِ بْنِ دِينَارٍ[٢]: يَا مُرَائِي، فَقَالَ: يَا هَذِهِ، وَجَدْتِ[٣] اِسْمِي الَّذِي أَضَلَّهُ أَهْلُ (الْبَصْرَةِ)».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَى أَنَّهُ يعرفُ مِنْ نفسِهِ منَ النَّقصِ والتفاتِهِ إلى الخَلْقِ أَوْ إلَى أعمالِهِ والسُّكونِ إليهَا ممَّا عدَّهُ العارفُونَ رياءً مَا لَا يعرفُهُ غيرُهُ منَ النَّاسِ، فلمَّا أجرَى اللهُ علَى لسانِ هذِهِ المرأةِ قولَهَا لهُ: «يَا مُرَائِي»، صدَّقَهَا فقالَ لهَا: «هذهِ الَّتِي عرفَتْ اسْمِي الَّذِي أضلَّهُ أهلُ البَصْرَةِ»، أيْ: ضاعَ منهُم، فلَمْ يَعْرِفُوهُ[٤].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ[٦]: لَا تَعْرِفُ ثَلَاثَةً إِلَّا عِنْدَ ثَلَاثَةٍ: الحَلِيمَ عِنْدَ الغَضَبِ، وَالشُّجَاعَ فِي الحَرْبِ[٧]، وَالأَخَ عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الغالبَ علَى النُّفوسِ الدَّعاوَى، فإذَا جاءَ وقتُ التَّحقيقِ ظهرَ صدقُهَا وكذبُهَا، وهلعُهَا وجزعُهَا[٨]، فإن ادَّعَتْ أنَّها

= في صحيحه ٤/١٧٤٦ ـ حديث رقم (٤٤٣٥)، ومسلم في صحيحه ١/١٨٥ ـ حديث رقم (١٩٤).

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٣٣٩، وشعب الإيمان ٦/٣٤٨، وتاريخ دمشق ٥٦/٤٢٠، والزهد والرقائق للخطيب البغدادي ص٩٣.

(٣) أي: عرفت.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٥.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

(٦) ورد قوله في: البيان والتبيين ٢/٥٠، وحلية الأولياء ٧/٣٨٩، وإحياء علوم الدين ٣/١٧٩، والمجالسة وجواهر العلم ص٨٨، والمستطرف ١/٤١٩.

(٧) في (ف): لا يُعرَف ثلاث إلا عند ثلاث: «الحِلمُ عند الغضب، والشجاعة عند الحرب...».

(٨) فالعبرة بالتحقيق لا بالدَّعاوى.

تحلمُ وقتَ غضبِهَا فالدَّعوَىٰ عليهَا سَهْلَةٌ لا كُلفةَ فيهَا، والامتحانُ وقتَ هيجَانِ الغَضَبِ ومُخَالفةِ الهَوَىٰ يُظْهِرُ كذبَهَا، وكذلِكَ الشَّجاعةُ يدَّعِيهَا الجبانُ إذا لمْ يحضرْ حَرْبًا، وتَزْعُمُ نفسُهُ أنَّهُ إنْ حضرَ قِتَالًا كانَ أوَّلَ النَّاسِ، فإذَا رأَىٰ الرُّؤوسَ تطيرُ، والسُّيوفَ تقصِفُ، والرِّماحَ تنكسرُ وتتحطَّمُ تبيَّنَ لهُ مِنْ نفسِهِ صِدْقُهَا أو كذِبُهَا في دعوَاهَا.

وكلُّ أحدٍ منَ النَّاسِ يزعمُ أنَّهُ أخوكَ، ومالَهُ مالُكَ، فإنْ نزلَتْ نازلةٌ كانَ معكَ ويحبُّ لكَ ما يحبُّ لنفسِهِ، وكلُّ ذلكَ في حَالِ العوافِي، فإنْ نزلَتْ بكَ نازلةٌ شديدةٌ تحتاجُ فيهَا إليهِ، ويعودُ ما نزلَ بكَ منَ الضَّررِ عليهِ، تبيَّنَ لكَ صدقُهُ مِنْ كَذِبِهِ، وظهرَ لكَ مِنْ حَالِهِ العَدَاوةُ، فضْلًا عنِ الصُّحْبَةِ والأُخُوَّةِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقَالَ مُوسَىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ[2]: **إِلَهِي؛ أَسْأَلُكَ أَلَّا يُقَالَ فِيَّ مَا لَيْسَ فِيَّ** [٢/١٨٠أ]، **فَأَوْحَىٰ اللهُ** - سبحانه - **إِلَيْهِ: مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِنَفْسِي، فَكَيْفَ أَفْعَلُهُ لَكَ؟**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومعنَاهُ: أنَّهُ سبقَ فِي علمِ اللهِ وإرادتِهِ أنَّهُ لا بُدَّ مِنْ كَونِ ما يسبقُ أنَّهُ يكونُ، وعليهِ يحملُ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فلَوْ أرادَ الحقُّ - سبحانه - ألَّا يكفرَ بهِ أحدٌ لصحَّ ولمْ يقعْ كفرٌ أبدًا، ولكنْ لمَّا سبقَ في علمِهِ أنَّهُ لا بُدَّ منَ الكَلامِ في اللهِ - تعالىٰ - ورسولِهِ والجَحْدِ لهُمَا والكفرِ بِهِمَا استحالَ أنْ يقعَ خلافُهُ؛ لأدائِهِ إلىٰ المحالِ، وهذَا معنَىٰ قولِهِ: «**مَا فعلتُهُ لنفسِي**»، أيْ: ما سبقَ فِي قدرِي كَونُهُ لَا بدَّ مِنْ كَونِهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ٣/٩٨، وسراج الملوك ص١١٣.

وإنَّمَا أرادَ الإمامُ بإدخالِهِ في بابِ الخلقِ أنَّ موسَىٰ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ سألَ مِنْ ربِّهِ أنْ يكونَ كاملَ الأخلاقِ جميلَهَا حتَّىٰ لا يتكلَّمَ فيهِ متكلِّمٌ، فأعلَمَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ أنَّهُ سبَقَ فِي علمِهِ أنَّهُ لا بُدَّ أنْ يتكلَّمَ فيهِ متكلِّمٌ، سواءٌ كمُلَتْ أخلاقُكَ أوْ لمْ تكمُلْ، فأعرِضْ عنِ الخَلْقِ واشتغِلْ بِي[١]، فهوَ أكرمُ أخلاقِكَ[٢].

وفِي قولِهِ: «ما فعلتُهُ لنفسِي» قَلَقٌ يُوهِمُ مَنْ ضعفَ عِلْمُهُ مَا لا يليقُ وصفُ الإلهِ بهِ؛ وهوَ قصورُ قُدْرَتِهِ عَنْ بعضِ الجَائزَاتِ، وهوَ محالٌ، فإنَّهُ ـ تعالىٰ ـ قادرٌ علَىٰ كُلِّ مُمْكِنٍ، وإنَّمَا أخبَرَهُ عمَّا سبقَ فِي عِلْمِهِ لَا غَيْرَ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ لِيَحْيَىٰ بْنِ زِيَادٍ الحَارِثِيِّ ـ وَكَانَ لَهُ غُلَامُ سُوءٍ ـ[٤]: لِمَ تُمْسِكُ هَذَا الغُلَامَ؟ فَقَالَ: لِأَتَعَلَّمَ عَلَيْهِ الحِلْمَ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قَدْ يكونُ مصلحةً فِي حقِّ مَنْ يتضرَّرُ العبيدُ بمفارقتِهِ فِي احتياجِهِ إليهِ؛ كزوجةٍ وولدٍ وخادمٍ ومَا يجرِي مجرَاهُ، وقَدْ تدعُوهُ حاجتُهُ إليهِ وتكونُ أخلاقُهُ سيِّئةً، فيتعوَّدُ الرَّجُلُ الصَّبْرَ علَىٰ أخلاقِهِ والعفوَ عنْ زلَلِهِ ومَا يجرِي مجرَاهُ، وإلَّا فمَنْ لمْ يَدَعْ حَاجتَهُ إلَىٰ صحبتِهِ فالبُعدُ منْ خلْطتِهِ أَوْلَىٰ، فإنَّهُ يعرضُ لمواطِنَ يكثُرُ فيهَا الغررُ، وتَتَحرَّكُ الشَّهوةُ والغضبُ، وربَّمَا جرَّ ذلكَ إلىٰ الوقوعِ في العَطَبِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ[٦]: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ

---

(١) فالكامل المطلق هو من لا ينظر إلىٰ ما يصدر من الخلق؛ لاستغراقه دائما في شهود الملك الحق.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٥ ـ ٧٠٦.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦٤/٢٢٢، وإحياء علوم الدين ٣/٧٢.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

(٦) انظر: تفسير مقاتل ٣/٢٢، ومعالم التنزيل ٣/٢٥.

ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان: ٢٠]؛ الظَّاهِرَةُ: تَسْوِيَةُ الخَلْقِ، وَالبَاطِنَةُ: تَصْفِيَةُ الخُلُقِ».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مدحٌ لمَنْ أرادَ اللهُ - تعالى - أنْ يكملَ عليهِ نعمَهُ ويعرِّفَهُ منَّتَهُ عليهِ بإصلاحِ قَلْبِهِ وجَوارِحِهِ واستقامتِهِ على الدِّينِ، فهذِهِ هيَ النِّعمةُ البالغةُ، ويدلُّ عليهِ قولُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: [٢/١٨٠ب][1]: «إِنَّ فِي البَدَنِ بِضْعَةً، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ سَائِرُ الجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ الجَسَدِ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ».

وصلاحُ القلبِ: عِمَارتُهُ بمعرفةِ اللهِ - تعالى -، ومَعْرِفةِ أحكامِهِ، ودوامِ مراقبتِهِ في سائرِ حركاتِهِ وسُكُونِهِ، فإذَا دامَ على ذلكَ وكانَ قلبُهُ أوَّلَ عاملٍ منهُ، وعنهُ تكونُ أعمالُ الجوارحِ صلُحَ ظاهرُهُ وباطنُهُ، فكانَ ذلكَ مِنْ أعظمِ النِّعمِ المُسدَاةِ إليهِ.

ومِنَ النِّعَمِ عليهِ: تحسينُ صورتِهِ الظَّاهرةِ منْ كمالِ خلقِهِ، وسلامةُ أعضائِهِ منَ المفسداتِ والمُنقصَاتِ، واعتدالُ خلقِهِ، والبعدُ عَنْ رَذَائِلِ الأَخْلَاقِ وَسَفَاسِفِهَا، والاتِّصافُ بأَجْمَلِهَا وأكملِهَا، وأينَ هذِهِ النِّعمُ ممَّا قدَّمْنَا ذِكْرَهُ؟! فإنَّ ما قدَّمْنَا ذِكْرَهُ نعمٌ أخرويَّةٌ، ويكونُ عنهُ النِّعمُ الدُّنيويَّةُ، وهذِهِ الأخيرةُ قدْ يكونُ أكثرُهَا فِي الدُّنيَا، ويكونُ فيهَا مَا أحبَّتْهُ الشَّريعةُ منَ الأخلاقِ فِي المعاملاتِ معَ الخلقِ ومعاشرتِهِم، وإنَّمَا كانَتْ هذِهِ باطنةً والصُّورةُ ظاهرةً؛ لكونِ هذِهِ لا يعرفُ النِّعمةَ فيهَا كلُّ النَّاسِ، والظَّاهرةُ نِعَمٌ مكشوفةٌ يشاهدُهَا كلُّ راءٍ[2] ببَصَرِهِ، ومَا ذكرْنَاهُ مِنْ نِعَمِ الدِّينِ فِي القَلْبِ والجَوارحِ لا يَعْرِفُهَا ويُحقِّقُهَا ويتَّصفُ بهَا إلَّا العلماءُ الرَّاسخونَ، واللهُ المُوفِّقُ.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَقَالَ الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ[4]: لَأَنْ يَصْحَبَنِي فَاجِرٌ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (أ): رائي، والأصح المثبت.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

(٤) ورد قوله في: روضة العقلاء ص٦٤، وإحياء علوم الدين ٣/٥٢، والمستطرف ١/٢٥٨.

حَسَنُ الخُلُقِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَصْحَبَنِي عَابِدٌ سَيِّءُ الخُلُقِ».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ وذلكَ أنَّ الفاجرَ الحسنَ الخُلُقِ هوَ العَاصِي، فإذَا أمرْتُهُ بالطَّاعةِ وزجرْتُهُ عنِ المعصيةِ كانَ في حُسنِ خلقِهِ ما يحملُ ما يَرِدُ عليهِ منِّي، ويرجعُ إلى الحقِّ إذا عرفَهُ.

وأمَّا العابدُ الَّذِي حظُّهُ منْ عبادتِهِ الذِّكْرُ والتَّسبيحُ وكثرةُ الصَّومِ والصَّلاةِ لَا غيرُ، وحرصُهُ علَى الدُّنيَا شديدٌ، وغضبُهُ علَى ما يخالفُ هوَاهُ أكيدٌ، وطلبُهُ للدُّنيَا لا يُوقفُهُ عن محظورٍ، ويحملُهُ علَى تعاطِي أضرِّ الأمورِ، وإنْ نُهِيَ عمَّا هوَ عليهِ من هذهِ الأخلاقِ والشُّرورِ اغترَّ بظاهرِ عبادتِهِ ولا يقبلُ ما نُدِبَ إليهِ ممَّا ينفعُهُ في أعمالِ قلبِهِ وينشرحُ بهِ الصُّدورُ، وربَّمَا قَبِلَ فِي بعضِ الأوقاتِ، ورجعَ إلَى ما أُمِرَ بهِ وحسُنَتْ منهُ النِّيَّاتُ، فإذَا خولِفَ في بعضِ أغراضِهِ ثَارَ لقَضَاءِ شَهْوتِهِ وشِدَّةِ غضبِهِ ثَورانَ الأسدِ[1]، ولَا يبالِي بأحدٍ منَ النَّاسِ، قرُبَ أو بعُدَ، فهذَا العابدُ [٢/١٨١أ] يطولُ عذابُهُ معَهُ؛ لكونِهِ مغرورًا ببعضِ عبادتِهِ، ومحمولًا علَى سُوءِ خُلُقِهِ بما لهُ مِنْ سُوءِ عَادتِهِ أوْ نُسُكِهِ.

ومَا قدَّمْنَاهُ منَ المُخَلِّطِ الحسنِ الخُلُقِ سَهْلُ الانقيادِ والرُّجُوعِ عنِ الفَسَادِ، وأقلُّ أحوالِهِ وأيسرُهُ رجوعُهُ إلَى الحقِّ وتركُهُ للمخالفةِ والعنادِ، والسَّلامةُ معَهُ أيسرُ، ممَّنْ ذكرْنَاهُ ممَّنْ ساءَ خلقُهُ وإنْ أكثَرَ التَّسبيحَ لربِّهِ وكبَّرَ.

❊ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وقيل[3]: الخُلُقُ: الحَسَن احتمَالُ المَكْرُوه بِحُسْنِ المُدَارَاة**».

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٦ ـ ٧٠٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٠.

(٣) ورد قوله في: سراج الملوك ص١٤٦، وحدائق الدقائق ص١٠٣، وقناطر الخيرات ٣/١٤٠.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا فيهِ إشارةٌ إلى الفَرْقِ بينَ المُداهنةِ والمُداراةِ؛ وذلكَ أنَّ مَنِ احتمَلَ المَكْرُوهَ الَّذِي ينزلُ بهِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بحُسْنِ المُداراةِ لنفسِهِ وتَصْبِيرِهَا عليهِ وسِيَاسَتِهَا حتَّىٰ تقومَ بهِ لربِّهَا فلَا يتسخَّطُ، وكذلِكَ ما نزلَ بهَا بواسطةِ العبادِ منَ المَكْرُوهِ فتُدَارِيهِ بتَرْكِ حظِّهَا لهُمْ وحملِ بعضِ أذاهُمْ مِنْ غيرِ إفراطٍ ولا تفريطٍ، وذلكَ أنَّ العبدَ متىٰ فرَّطَ في المُداراةِ وقعَ في الضَّررِ الدُّنيويِّ، ومتىٰ أفرطَ فيهَا حتَّىٰ وقعَ فِي المُداهَنَةِ حصلَ لهُ الضَّررُ الأُخروِيُّ، والمُداهنةُ تُشبهُ المُدَاراةَ مِنْ حيثُ كونُهَا سِياسَةً، إلَّا أنَّ المُداهنَةَ تكونُ معَ التَّفريطِ فِي الدِّينِ، والمُدَارَاةَ معَ الإهمَالِ لبعضِ الدُّنيا[1].

۞ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَحُكِيَ**[3] **أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ خَرَجَ إِلَىٰ بَعْضِ البَرَارِي، فَاسْتَقْبَلَهُ جُنْدِيٌّ، فَقَالَ: أَيْنَ العُمْرَانُ؟ فَأَشَارَ إِلَىٰ المَقْبَرَةِ، فَضَرَبَ رَأْسَهُ وَأَوْضَحَهُ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ قِيلَ لَهُ: إِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ زَاهِدُ خرَاسَانَ، فَجَاءَهُ يَعْتَذِرُ إِلَيْه، فَقَالَ: إِنَّكَ لَمَّا ضَرَبْتَنِي سَأَلْتُ اللهَ لَكَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: لِمَ؟ فَقَالَ: عَلِمْتُ أَنِّي أُؤْجَرُ عَلَيْهِ، فَلَمْ أُرِدْ أَنْ يَكُونَ نَصِيبِي مِنْكَ الخَيْرَ، وَنَصِيبُكَ مِنِّي الشَّرَّ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فِفي هذِهِ الحكايةِ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ منْ حُسْنِ الأخلاقِ ما ننبِّهُكَ عليهِ؛ وذلكَ أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ خرجَ إلَىٰ سفرٍ ومعَهُ ناسٌ، فلقِيَهُ هذَا الجُنديُّ فسألَهُ «**عنِ العمرانِ، فأشارَ إلىٰ مقبرةٍ**» قريبةٍ منهُ وهوَ حقٌّ، فإنَّ القبورَ أوَّلُ منزلٍ من مَنَازِلِ الآخرةِ، وهيَ الَّتِي تعمرُ بالأعمالِ الصَّالحةِ، فظنَّ الجنديُّ أنَّهُ استهزأَ بهِ فضربَهُ فشجَّهُ؛ أيْ: فتحَ رأسَهُ، ومضىٰ إبراهيمُ ولمْ يكلِّمْهُ، فهذَا هوَ احتمالُ الأذىٰ، والصَّفحُ عمَّنْ جنىٰ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠١.

(٣) وردت حكايته في: تهذيب الأسرار ص٢١٨.

ثُمَّ رآهُ مَنْ كانَ معَ إبراهيمَ فِي الطَّريقِ وقَدْ ضربَهُ الجنديُّ [٢/١٨١ب]، فعاتَبَهُ علىٰ ذلِكَ، وأخبَرَهُ أنَّهُ إبراهيمُ بنُ أدهمَ زاهدٌ خراسانِيٌّ، فلحقَهُ الجنديُّ معتذرًا ممَّا جرَىٰ؛ لكونِهِ لَمْ يَعْرِفْهُ، فأخبَرَهُ إبراهيمُ أنَّهُ في وقتِ ضَرْبِهِ لهُ سأَلَ اللهَ لهُ الجنَّةَ، وهذَا هوَ الإحسانُ إلىٰ مَنْ أساءَ، فضْلًا عنِ العفوِ عنهُ.

وكمَا نُقلَ عنْ بعضِهِمْ[١] أنَّهُ قيلَ لهُ: فلانٌ اغتابَكَ! ، فأخذَ طبقًا وجعلَ فيهِ فاكهةً وأهداهُ إليهِ، ثمَّ قالَ لهُ: «انقلبْتُ منكَ بخيرٍ، فكرهْتُ أنْ تنقلبَ منِّي بشرٍّ»، وهذَا هوَ الَّذِي قصدَهُ إبراهيمُ، علِمَ أنَّهُ حصلَ لهُ أجرٌ منَ الجنديِّ، وحصلَ للجنديِّ إثمٌ، فسأَلَ اللهَ أنْ يغفرَ لهُ ذنبَهُ، وأنْ يدخلَهُ الجنَّةَ، ولذلِكَ قالَ: «**لَمْ أُرِدْ أنْ يكونَ نَصِيْبِي مِنْكَ الخيرَ، وَنَصِيبُكَ مِنِّي الشَّرَّ**»، وشتَّانَ بينَهُمَا، هذَا لَمْ يُؤاخِذْهُ بحقِّهِ، وسأَلَ اللهَ أنْ يغفرَ لهُ حقَّهُ، ومَنْ تقدَّمَ نبَّهَهُ علىٰ خطَئِهِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ غفرَ لهُ، ويحتملُ غيرَ ذلكَ، ويقرُبُ ممَّا فعلَهُ إبراهيمُ ما جرَىٰ لبعضِهِمْ لمَّا بلغَهُ أنَّ فلانًا تكلَّمَ فيهِ بسوءٍ، قالَ[٢]: «واللهِ لأغيظَنَّ مَنْ أمَرَهُ بذلِكَ، فقالَ: اللَّهمَّ اغفرْ لهُ».

فبهذَا تركَ حقَّهُ، وسألَ ربَّهُ أنْ يغفرَ لهُ ذنبَهُ، وأغاظَ عدوَّهُ؛ وهوَ الشَّيطانُ الَّذِي أمرَهُ وزيَّنَ لهُ الغِيبةَ حتَّىٰ يُبلِّغَ صاحبُهُ ويتكلَّمَ فيهِ أيضًا فيحصلَ السُّوءُ، فقابلَ الشَّيطانَ بنقيضِ قَصْدِهِ، ورجعَ خائبًا علىٰ عَقِبِهِ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٣]: **«وَحُكِيَ[٤] أَنَّ أَبَا عُثْمَانَ الحِيرِيَّ دَعَاهُ إِنْسَانٌ إِلَىٰ**

---

(١) نقله عنه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٧.

(٢) مر قريبًا في هذا الباب.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٠١.

(٤) وردت حكايته في: تهذيب الأسرار ص٢١٩، وإحياء علوم الدين ٣/٧١، والمستطرف ١/٢٦٢.

ضِيافَةٍ، فَلَمَّا وافَىٰ بَابَ الدَّارِ قَالَ: يا أُسْتَاذُ؛ ليسَ الآنَ وَقْتُ دُخُولِكَ[١]، وَقَدْ نَدِمْتُ، فَانْصَرِفْ، فَرَجَعَ أَبُو عُثْمَانَ، فَلَمَّا وافَىٰ مَنْزِلَهُ عادَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ، وَقالَ: يا أُسْتَاذُ، نَدِمْتُ وَجَعَلَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ، وَقَالَ: احضُرِ السَّاعَةَ، فَقَامَ أَبُو عُثْمانَ وَمَضَىٰ، فَلَمَّا وافَىٰ بَابَ الدَّارِ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ فِي الأُولَىٰ، وَكَذَلِكَ فِي الثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ، وَأَبُو عُثْمانَ يَنْصَرِفُ وَيَحْضُرُ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ مَرَّاتٍ قَالَ: يا أُسْتَاذُ، أَرَدْتُ اخْتِبَارَكَ، وَأَخَذَ يَعْتَذِرُ وَيَمْدَحُهُ، فَقَالَ أَبُو عُثْمانَ: لَا تَمْدَحْنِي عَلَىٰ خُلُقٍ تَجِدُ مِثْلَهُ مَعَ الكِلابِ؛ فَالكَلْبُ إِذَا دُعِيَ حَضَرَ، وَإِذَا زُجِرَ انْزَجَرَ».

❊ **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ كَمالِ حُضُورِهِ ورُؤيتِهِ الأفعالَ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ[٢]؛ فإنَّهُ لمَّا دعاهُ داعٍ لم يتأخَّرْ عَنْ إجابةِ الدَّعوةِ؛ لمَا فيها منَ الفضْلِ، وإدخالِ المَسَرَّةِ علىٰ قلبِ الدَّاعِي، فلمَّا خرجَ معَهُ وصلَ إلىٰ دارِهِ [١٨٢/٢أ]، دخلَ الدَّارَ في صورةِ مَنْ يهيِّئُ للشَّيخِ الدُّخولَ، ثمَّ خرجَ واعتذَرَ لهُ بأنَّهُ لمْ يتَّفقْ فِي الوقتِ، فرأىٰ الشَّيخُ ذلكَ عُذْرًا، فخرجَ الشَّيخُ إلىٰ منزلِهِ، فرجعَ إليهِ الدَّاعِي وطلبَ مرَّةً أخرىٰ، وفعلَ بهِ كذلكَ وردَّهُ، فلمَّا تكرَّرَ ذلكَ منَ الطَّالبِ تفطَّنَ الشَّيخُ ـ واللهُ أعلمُ ـ أنَّهُ يمتحنُهُ، فقالَ لهُ السَّائلُ: يا سيِّدِي، ما هذا إلَّا خلقٌ حسنٌ، وما كرَّرْتُ ذلكَ إلَّا لأعرفَ فضلَكَ ومنزلَتَكَ، وأنَّ قلبَكَ لا يتغيَّرُ، فحينئذٍ صرَّحَ لهُ أبو عثمانَ بقولِهِ: «**لا تَمْدَحْنِي، وهَلْ رأيتَ مِنِّي إلَّا خُلُقَ كلبٍ؛ فإنَّ الكلبَ إذا دُعِيَ إلىٰ طعامٍ أجابَ، وإذا زُجِرَ انزجَرَ**».

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ[٤]: إِنَّ أَبَا عُثْمانَ اجْتَازَ بِسِكَّةٍ وَقْتَ

---

(١) في (ف): «ليس لي وجه إلىٰ دخولك».

(٢) قال العروسي: «علىٰ معنىٰ أن الخلق محل لجريان الأحكام الإلٓهية» نتائج الأفكار ٢٤٢/٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٤٠١/٢.

(٤) ورد في: تهذيب الأسرار ص٢١٩، والمختار من مناقب الأخيار ٧٨/٢، والمستطرف ٢٦١/١، وسراج الملوك ص١٤٦، وطبقات الأولياء ص٢٤٢.

الهَاجِرَةِ، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ مِنْ سَطْحِ طَسْتُ رَمَادٍ، فَتَغَيَّرَ أَصْحَابُهُ، وَبَسَطُوا أَلْسِنَتَهُمْ فِي المُلْقِي، فَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ: لَا تَقُولُوا شَيْئًا، مَنِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُصَبَّ عَلَيهِ النَّارُ فَصُولِحَ عَلَىٰ الرَّمَادِ لَمْ يَجُزْ لَهُ أَنْ يَغْضَبَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ أَبِي عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالغٌ في الاحتمالِ[(١)] قبلَ المكافأةِ في الحالِ والمَآلِ، واعتبَرَ بمَا جرَىٰ حصولَ العفوِ من ذِي الجلالِ، وذلكَ أنَّهُ لمَّا كانَ يمشِي معَ أصحابِهِ فأخرجَ خارجٌ يدَهُ مِنْ دارِهِ وصبَّ إناءً كانَ فيهِ رمادٌ، فوقعَ علىٰ رأسِ الشَّيخِ، فأخذَ أصحابُهُ يصيحُونَ، ويطلقُونَ ألسنتَهُمْ فِي الفَاعِلِ، فقالَ لهُمْ: لَا تفعلُوا، أنَا عبدُ نَفْسِي أستحقُّ النَّارَ، فإذَا صُولِحْتُ بالرَّمادِ كانَ للهِ الفضلُ عَلَيَّ[(٢)].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَقِيلَ[(٤)]: نَزَلَ بَعْضُ الْفُقَرَاءِ عَلَىٰ جَعْفَرِ بْنِ حَنْظَلَةَ، فَكَانَ جَعْفَرٌ يَخْدِمُهُ جِدًّا، وَالفَقِيرُ يَقُولُ: نِعْمَ الرَّجُلُ أَنْتَ لَوْ لَمْ تَكُنْ يَهُودِيًّا، فَقَالَ جَعْفَرٌ: عَقِيدَتِي لَا تَقْدَحُ فِيمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الخِدْمَةِ، فَسَلْ لِنَفْسِكَ الشِّفَاءَ وَلِي الهِدَايَةَ[(٥)]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الخادمُ ـ وهوَ ابنُ حنظلةَ ـ الَّذِي خدمَ الفقيرَ لمَّا نزلَ بهِ، وبالغَ فِي خدمتِهِ، فصارَ الفقيرُ يشكرُ صنيعَهُ بهِ وحُسْنَ أخلاقِهِ معَهُ، إلَّا أنَّهُ يقولُ لهُ في أثناءِ كلامِهِ: «لولَا أنَّكَ يهوديٌّ!»، وكانَ ابنُ حنظلةَ يحتملُ منهُ هذا الكلامَ ويعذرُهُ لجهلِهِ.

---

(١) أي: في احتمال الأذىٰ.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٨.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٠١.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢١٩.

(٥) أي: الدلالة علىٰ الخير.

وهذا عظيمٌ في التَّخلُّقِ والدَّوامِ على الخِدمَةِ لِمَنْ يؤلِمُهُ، وإنَّمَا كانَ الحاملَ لهُ على ذلكَ حسنُ ظنِّهِ بالفقيرِ؛ لمَا رأى مِنْ شَمَائلِ الخيرِ عليهِ، وكانَ شديدَ الرَّغبةِ في خدمتِهِ، ويحملُ ما نزلَ بهِ مِنْ كلامِهِ على جهلِهِ [٢/١٨٢ب] في قولِهِ لهُ: «**عقيدَتِي لا تقدَحُ في خدمتِكَ**»، معناهُ: ما تزعمُ أنِّي عليهِ منَ اليهوديَّةِ ومَا منعنِي منَ استفراغِ الجهدِ في خِدْمتِكَ، فإنْ أردتَ مكافأتِي «**فسَلْ لي الهدايةَ، ولكَ الشِّفاءَ**».

وفِي قَولِهِ: «**لكَ الشِّفاءَ**» يريدُ مِنْ جهلِهِ وعجلتِهِ بالحُكمِ على ما لا يتحقَّقُهُ، وأمَّا الهدايةُ ففيهَا سترٌ لمَا هوَ عليهِ أيضًا؛ لأنَّهَا صالحةٌ لكلِّ أحدٍ كبيرٍ أوْ صغيرٍ، فهدايتُهُ تكونُ على حسبِ حالِهِ ومقامِهِ، وعونِ ربِّهِ لهُ، فدلَّ ذلكَ على كمالِ خُلُقِهِ وتخلُّقِهِ(١).

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَقِيلَ(٣): كَانَ لِعَبْدِ اللهِ الخَيَّاطِ حَرِيفٌ(٤) مَجُوسِيٌّ، يَخِيطُ لَهُ ثِيَابًا، وَيَدْفَعُ إِلَيْهِ دَرَاهِمَ زُيُوفًا، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ يَأْخُذُهَا، فَاتَّفَقَ لَهُ أَنَّهُ قَامَ يَوْمًا مِنْ حَانُوتِهِ لِشُغْلٍ، فَجَاءَ المَجُوسِيُّ بِالدَّرَاهِمِ الزُّيُوفِ، فَدَفَعَهَا إِلَى تِلْمِيذِهِ فَلَمْ يَقْبَلْـ[ـهَا]، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الصِّحَاحَ، فَلَمَّا رَجَعَ عَبْدُ اللهِ قَالَ لِتِلْمِيذِهِ: أَيْنَ قَمِيصُ المَجُوسِيِّ؟ فَذَكَرَ لَهُ القِصَّةَ، فَقَالَ: بِئْسَ مَا عَمِلْتَ؛ إِنَّهُ مُنْذُ مُدَّةٍ يُعَامِلُنِي بِمِثْلِهَا وَأَنَا أَصْبِرُ عَلَيْهِ وَأُلْقِيهَا فِي [قَعْرِ](٥) بِئْرٍ؛ لِئَلَّا يَغُرَّ بِهَا غَيْرِي**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ نظرٌ، وذلكَ أنَّ أخْذَهُ للدَّراهمِ معَ معرفتِهِ بأنَّهَا زيوفٌ يحملُ هذَا المجوسيَّ على دفعِهَا للنَّاسِ، وأنَّهُمْ يجهلُونَ كونَهَا زُيُوفًا،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٠٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠١.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢١٩.

(٤) أي: مُعَامِل، أو زبون بلغة العصر.

(٥) زيادة من (ف).

وإنْ قصدَ هذَا الخيَّاطُ أخْذَهَا ؛ لئلَّا يضرَّ بهَا غيرَهُ ، فقبولُهَا منهُ يحملُهُ علىٰ أنْ يَضُرَّ بهَا غيرَهُ ؛ وذلكَ أنَّ الدَّراهمَ الزُّيوفَ منقسمةٌ إلىٰ مَا يظهرُ فسادُهُ وإلىٰ مَا لا يظهرُ ، والغالِبُ أنَّهَا تخفَىٰ إلَّا علىٰ البَصِيرِ ، ولولَا ذلكَ لمْ تكنْ زيوفًا ، فإنَّ الزَّائفَ: هوَ الَّذِي يقعُ بهِ التَّلبيسُ .

وفِي هذا أيضًا وجهٌ آخرُ: وهوَ أنَّهُ يخدمُ هذا المجوسيَّ ويخيطُ لهُ زمانًا بغيرِ أُجرةٍ صحيحةٍ ينتفعُ بهَا ، وغايةُ هذهِ المسألةِ الَّتِي سبقَتْ لهُ حسنُ خلقِ هذا الخيَّاطِ ، ودوامُهُ علىٰ الخياطةِ لهذا المجوسيِّ ، وإنْ كانَ لا يأخذُ منهُ أجرةً ينتفعُ بهَا عاجلًا ، ولكنَّهُ يظنُّ أنَّهُ ينتفعُ بهَا آجِلًا ؛ لنيَّتِهِ بأنْ يدفعَ ضررَهَا عنِ المسلمِينَ ، وقَدْ بيَّنَّا ما فيهِ منَ التَّأويلِ .

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقِيلَ: الخُلُقُ السَّيِّءُ يُضَيِّقُ قَلْبَ صَاحِبِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسَعُ فِيهِ غَيْرَ مُرَادِهِ ؛ كَالمَكَانِ الضَّيِّقِ لَا يَسَعُ فِيهِ غَيْرَ صَاحِبِهِ**» .

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قريبٌ ممَّا قِيلَ في الحَسَدِ أنَّ ضَررَهُ علىٰ صَاحِبِهِ ، فمَنْ كانَ سيِّئَ الخُلُقِ فقلَّمَا ينشرحُ صدرُهُ لشيءٍ ممَّا يعاملُ بهِ ؛ لأنَّ [٢/١٨٣أ] الأمورَ كلَّهَا لَا تجرِي علىٰ مرادِهِ ، سواءٌ أجراهَا الحقُّ ـ تعالىٰ ـ بواسطةٍ أو بغيرِ واسطةٍ ، فهوَ لا يعدمُ ضيقًا وحرَجًا وسُوءَ خُلُقٍ ، فأشبهَ الحاسدَ مِن هذا الوجْهِ ، فإنَّ نعمَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ جاريةٌ علىٰ عِبَادِهِ ، وهوَ يتألَّمُ بجريانِهَا لحسدِهِ ، ولذلكَ قيلَ[2]: «لِلَّهِ دَرُّ الحَسَدِ مَا أَعْدَلَهْ ، بَدَأَ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهْ» .

فالغُمُومُ والأحزانُ علىٰ قلبِ الحاسدِ متواليَةٌ ، والنِّعمُ والأرزاقُ علىٰ عبادِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وسطَىٰ وعاليةٌ ، فهذَا ذمٌّ لسوءِ الخلُقِ ، والبابُ معقودٌ لحُسنِ الأخلاقِ ، فتارةً

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٢ .

(٢) نسب للإمام علي بن أبي طالب في: محاضرات الأدباء ١/٣١٣ ، والمستطرف ١/٤٥٩ .

يعرفُ حسنَ الشَّيءِ بمَا يترتَّبُ عليهِ منَ الفوائدِ، وتارةً يعرفُ حسنَهُ بمَا يحدثُ بسببِ فقدانِهِ منَ الضَّررِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **«وَقِيلَ: حُسْنُ الْخُلُقِ: أَلَّا تَتَغَيَّرَ مِمَّنْ يَقِفُ فِي الصَّفِّ بِجَنْبِكَ».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا يحسُنُ أنْ يكونَ ميزانًا يمتحِنُ بهِ العبدُ خُلُقَهُ، وهَلْ هُوَ سالمٌ منَ الكِبْرِ والأَنَفَةِ والرِّياسةِ؟ حتَّىٰ إنَّهُ لا يبالِي وقفَ بجنبِهِ في الصَّفِّ ملاصِقًا لهُ عبدٌ أو حُرٌّ، فقيرٌ أو غنيٌّ، عالمٌ أوْ جاهلٌ، معَ كمالِ فضْلِهِ وعلوِّ درجتِهِ في نفسِهِ، فمتَىٰ أحسَّ مِنْ نفسِهِ أَنَفَةً أوْ تغيُّرًا لحصولِ شيءٍ منْ ذلكَ فلمْ يكمُلْ خلقُهُ فِي الخيرِ، ولا سلِمَ مِنْ سوءِ الأخلاقِ الرَّديئةِ؛ مِنَ الكِبْرِ والعُجْبِ والرِّئاسةِ وغيرِ ذلكَ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: **«وَقِيلَ: مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ: وُقُوعُ بَصَرِكَ عَلَىٰ سُوءِ خُلُقِ غَيْرِكَ».**

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ومُرادُهُ ـ واللهُ أعلَمُ ـ: أنَّكَ لوْ حسُنَ ظنُّكَ بالخَلْقِ لحملْتَ أفعالَهُمْ علىٰ جهةٍ حسنةٍ تقبلُهَا، ولمْ تطَّلِعْ منْ أفعالِهِمْ علىٰ شيءٍ تَكْرَهُهُ، وهذَا هوَ المُشارُ إليهِ فِي قولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]: «إِذَا ظَنَنْتَ فَلا تُحَقِّقْ»، معناهُ: طرقَ التَّأويلِ للأفعالِ حتَّىٰ تحملَهَا علىٰ أحسنِ الوجوهِ.

الوجهُ الثَّاني لبيانِ كلامِهِ: أنَّ العبدَ لوْ كمُلَ اشتغالُهُ بنفسِهِ اهتمَّ بعمارةِ أوقاتِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٢.

(٢) جزء من حديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/٢٢٨، وتمامه فيه: «إذا حَسَدْتَ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ، وإذا ظَنَنْتَ فَلا تُحَقِّقْ، وإذا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ». والقصد: فلا تحقق الظن وتعمل بمقتضاه بل توقف عن القطع والعمل به.

كانَ لهُ فِي ذلكَ شغلُ شاغلٍ عَنْ غيرِهِ، فلَا يطَّلِعُ مِنْ غيرِهِ علىٰ نقصٍ ولا كَمَالٍ، ويكونُ هَمُّهُ نظرَهُ في إصلاحِ نفسِهِ بمَا هيَ مطلوبةٌ بهِ فِي الحَالِ والمَآلِ(١).

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الشُّؤْمِ، فَقَالَ: سُوءُ الخُلُقِ(٣)».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا منهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنبيهٌ علىٰ أنَّ أكثرَ ما يضرُّ الإنسانَ في حياتِهِ ومعيشتِهِ سُوءُ خُلُقِهِ، كمَا قالَ(٤): «إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ؛ فَفِي المَرْأَةِ وَالدَّارِ وَالفَرَسِ»، وذلكَ أنَّ [٢/١٨٣ب] كلَّ مَا يلازمُهُ الشَّخصُ ولا بُدَّ منهُ إذَا كانَ مخالِفًا لهوَاهُ ومَصْلَحَتِهِ كانَ عليهِ شُؤمٌ، فالزَّوجةُ المخالفةُ لغرضِ الزَّوجِ، والدَّابَّةُ الصَّعبةُ الانقيادِ، والدَّارُ الضَّيِّقةُ السَّيِّئةُ الجوارِ فيهَا الشُّؤمُ، فأعظمُ الشُّؤمِ وآكدُهُ خُلُقُ الإنسانِ الَّذِي يلازمُهُ، وهوَ محتاجٌ إلىٰ إصلاحِهِ؛ لتستقيمَ لهُ دنياهُ وآخرتُهُ(٥).

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): «أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ الصَّفَّارُ البَصْرِيُّ، حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ مُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ مَعِينٍ، حَدَّثَنَا مَرْوَانُ الفَزَارِيُّ(٧)، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ كَيْسَانَ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ(٨): قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ؛ اُدْعُ اللهَ عَلَى المُشْرِكِينَ، قَالَ: إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧١٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٢.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٦/٨٥، والطبراني في المعجم الأوسط ٤/٣٣٤، ومسند الشاميين ٢/٣٤٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/٢٤٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/١٩٥٩ ـ حديث رقم (٤٨٠٦)، ومسلم في صحيحه ٤/١٧٤٨ ـ حديث رقم (٢٢٢٥).

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧١٠.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٢.

(٧) في (أ، ف): الفريابي، والصواب المثبت.

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٠٠٦ ـ حديث رقم (٢٥٩٩)، والبيهقي في شعب الإيمان=

وَلَمْ أُبْعَثْ عَذَابًا».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا دليلٌ على كمالِ خُلُقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّ دعاءَهُ عليهِمْ زيادةٌ فِي هلاكِهِمْ لسُوءِ أحوالِهِمْ، وإنَّمَا بُعِثَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليرُدَّ الخَلْقَ إلى اللهِ، ويعرِّفَهُمْ فضْلَهُ عليهِمْ وإحسانَهُ إليهِم؛ لتنشطَ قلوبُهُمْ لطاعتِهِ، فينتفعُوا دُنْيَا وأُخْرَى، فلَوْ دعَا عليهِمْ لهلكُوا عنْ آخرِهِمْ، وعلَى ما هُمْ عليهِ منَ الضَّلالِ فتفوتُهُمُ الدُّنيَا والآخرةُ، ولذلِكَ قالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمدحُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «بأبِي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ، لوْ دعوْتَ علينَا كمَا دعَا نوحٌ على أمَّتِهِ لهلكْنَا منْ آخرِنَا، لقدْ كُسِرَتْ رُباعِيَّتُكَ، ودخلَتْ حلقتَا المغفرِ في وجنَتَيْكَ، فقلْتَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لقومِي فإنَّهُمْ لا يعلمُونَ».

ومِنْ ذلِكَ ما اقتدَى بهِ الصَّالحُونَ، حُكِيَ[(٢)] أنَّ معروفًا الكرخِيَّ كانَ على (دجلَةَ) جالسًا، وفيهَا قومٌ مِنْ أبناءِ الدُّنيَا فِي زورَقٍ يعصُونَ اللهَ ـ تعالى ـ جهارًا، قيلَ لهُ: «أمَا ترَى هؤلاءِ يعصُونَ اللهَ ـ تعالى ـ جهارًا؟ فادعُ اللهَ عليهِم، فرفعَ يدَيهِ وقالَ: اللَّهُمَّ كمَا فرَّحتَهُمْ فِي الدُّنيَا ففرِّحْهُمْ فِي الآخرةِ، قيلَ لهُ: أردناكَ أنْ تدعوَ عليهِمْ دعوتَ لهُمْ، قالَ: إذَا فرَّحَهُمْ في الآخرةِ تابَ عليهِمْ في الدُّنيَا».

وهذَا هوَ غايةُ قدرتِهِ على تغييرِ المنكرِ، وذلِكَ أنَّ الإنسانَ إذا لمْ تكُنْ لهُ قدرةٌ علَى التَّغييرِ بيدِهِ ولَا بلسانِهِ فيكفيهِ التَّغييرُ بقلبِهِ، وكراهةُ ذلكَ وهوَ يمكنُهُ الدُّعاءُ لهُمْ بالتَّغييرِ، وهوَ مِنْ بابِ التَّغييرِ على حسبِ الإمكانِ، فإنَّ المقصودَ زوالُ المَعْصِيةِ على أيِّ وجهٍ كانَ.

= ٢/١٤٤، بلفظ المؤلف.

(١) سبق تخريجه في هذا الباب.

(٢) وردت حكايته في: إتحاف السادة المتقين ١١/٣٧٥، وسراج الطالبين ٢/٢١٢.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١) [٢/١٨٤أ]:

«بَابُ الجُودِ وَالسَّخَاءِ

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]... الآية.

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ العَبَّاسِ قَالَ: حَدَّثَنَا سَهْلٌ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَسْلَمَةَ(٢)، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣): السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ؛ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، [قَرِيبٌ مِنَ الجَنَّةِ](٤)، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَالبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ الجَنَّةِ، [قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ](٥)، وَالجَاهِلُ السَّخِيُّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ ـ تعالى ـ مِنَ العَابِدِ البَخِيلِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ الإِمَامُ العالِمُ القاضِي أَبُو الفضلِ عياضُ بْنُ موسَى(٦): «السَّخاءُ والجودُ والكرمُ والسَّماحةُ معانِيها متقاربةٌ. وقَدْ فَرَّقَ بعضُهُمْ بينَهَا بفروقٍ(٧)؛ فجعلُوا الكرَمَ: الإنفاقَ بطِيبِ النَّفسِ فيمَا يعظُمُ خطرُهُ ونفعُهُ وسمَّوهُ أيضًا حُرِّيَّة، وهوَ ضدُّ النَّذالةِ، والسَّماحةُ: التَّجافِي عمَّا يستحقُّهُ المرءُ عندَ غيرِهِ بطِيبِ نفسٍ، وهوَ ضدُّ الشَّحَاحَةِ، والسَّخاءُ: سُهُولَةُ الإنفاقِ، ويجبُ اكتسابُ

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٣.
(٢) في (ف): سلمه.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣/٢٧، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٤٢٨.
(٤) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع، ومظان تخريج الحديث.
(٥) زيادة من (ف).
(٦) ورد قوله في: الشفا بتعريف حقوق المصطفى مذيلا بحاشية الشمني ١/١١١.
(٧) انظر: الفروق اللغوية ص١٧٣ ـ ١٧٥.

ما لا يُحمَدُ وهوَ الجودُ، وهوَ ضدُّ التَّقتيرِ».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والحقُّ ـ سبحانه ـ موصوفٌ مِنْ هذهِ المعانِي بالجُودِ والكرَمِ، وإنْ لمْ يوصَفْ بالسَّخاءِ والسَّماحةِ، وأمَّا النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهوَ موصوفٌ بجميعِ هذهِ المعانِي، وأفعالُهُ المنقولةُ عنهُ دالَّةٌ علىٰ ذلكَ، والأخبارُ عنهُ، روَىٰ البخاريُّ[١] عَنْ جابرٍ، وعنْ أنسٍ، وسهْلِ بنِ سعدٍ قالُوا: «مَا سُئِلَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنْ شيءٍ فقالَ: لَا»، وهذَا يدلُّ علىٰ الكرمِ، فإنَّهُمْ لمْ يفرِّقُوا بينَ قليلٍ ولا كثيرٍ، وقدْ تقدَّمَ حدُّهُ بأنَّ الإنفاقَ بطيبِ النَّفسِ ممَّا يعظُمُ قدرُهُ وخطرُهُ، يعنِي فِي قدرِهِ وصفتِهِ.

وروَىٰ أنسٌ[٢] أنَّ رجلًا سألَ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطَاهُ غنمًا بينَ جبلَينِ، فرجعَ إلىٰ بلدِهِ وقالَ: «أسلمُوا؛ فإنَّ محمَّدًا يُعطِي عطاءَ مَنْ لا يخشَىٰ الفقرَ»، وهكذَا كانَ خُلُقُهُ قبلَ النُّبوَّةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتَّىٰ قالَ لهُ ورقَةُ بنُ نوْفلٍ حينَ رأىٰ جبريلَ وخشِيَ علىٰ نفسِهِ أنْ يكونَ داخَلَهُ شيءٌ، قالَ لهُ ورقةُ بنُ نوفلٍ ـ وكانَ قدْ قرأَ الكُتُبَ الأُوَلَ ـ[٣]: «كلَّا، واللهِ لَا يُخزِيكَ اللهُ، إنَّكَ لَتَحمِلُ الكَلَّ[٤]، وتَكسِبُ المعدومَ[٥]».

وأعطَىٰ العباسَ بعدَ [٢/١٨٤ب] النُّبوَّةِ منَ الذَّهبِ ما لمْ يطقْ حملَهُ لمَّا قالَ لهُ: «فاديتُ نفسِي، وفاديتُ عقيلًا، فأذِنَ لهُ أنْ يأخذَ، فملأَ ثوبَهُ وجاءَ يُقلُّهُ فعجزَ عنهُ،

---

(١) في صحيحه ٥/٢٢٤٤ ـ حديث رقم (٥٦٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٨٠٦ ـ حديث رقم (٢٣١٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/١٨٩٤ ـ حديث رقم (٤٦٧٠) من حديث طويل، ومسلم في صحيحه ١/١٤١ ـ حديث رقم (١٦٠).

(٤) في النهاية لابن الأثير ٤/١٩٨: «الكَلُّ ـ هو بالفتح ـ: الثقل من كل ما يتكلف، والكَلُّ: العيال».

(٥) في الديباج علىٰ مسلم ١/١٨٨: «و (تكسب المعدوم) ـ بفتح التاء في الأشهر، وروي بضمها، وعليه فالمعنىٰ: تكسب غيرك المال المعدوم، أي: تعطيه إياه تبرعًا».

فلم يزَلْ ينقصُ منهُ حتَّىٰ قدرَ علىٰ حمْلِهِ فحملَهُ»، والخبَرُ صحيحٌ(١).

وأمَّا الخبَرُ الَّذِي رواهُ الإمامُ القُشَيرِيُّ فمعنَاهُ ظاهرٌ معروفٌ منَ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ وذلكَ أنَّ مَنْ شحَّ وبخلَ علىٰ نفسِهِ ولمْ يُخْرِجْ حقوقَ اللهِ الواجبةَ عليهِ ولمْ يجِدِ النَّاسُ معَهُ راحةً في مالِهِ فهوَ بعيدٌ منَ اللهِ بعيدٌ من النَّاسِ، ومَنْ كانَ سخِيَّ النَّفسِ قامَ بمَا وجبَ عليهِ ومَا ندبَ إليهِ بسهولةٍ، ووجدَ النَّاسُ معَهُ راحةً إنِ احتاجُوا إليهِ في قرضٍ أو مواساةٍ، وهوَ قريبٌ منَ اللهِ قريبٌ منَ النَّاسِ.

وقولُهُ: «**الجاهلُ السَّخِيُّ أحبُّ إلىٰ اللهِ منَ العابدِ البخيلِ**»، وذلكَ أنَّ الجاهلَ السَّخيَّ سريعُ الانقيادِ إلىٰ مَا يؤمَرُ بهِ ويعلمُ، وهوَ قريبٌ منْ رحمةِ اللهِ، والإقلاعِ عمَّا هوَ عليهِ، والعالم بما يضرُّهُ وينفعُهُ في دينِهِ معَ بُخْلِهِ بمَا يَمْلكُهُ يَمنَعُ حقوقَ اللهِ الواجبةَ عليه، ولا ترَاهُ يبذلُ في شيءٍ منَ الطَّاعاتِ، فهوَ بعيدٌ منْ رحمةِ اللهِ، فإنَّهُ عصَىٰ اللهَ علىٰ عِلْمٍ ومعرفةٍ بمَا يضرُّهُ في آخرتِهِ، فالَّذِي حملَهُ علىٰ ذلكَ بخلُهُ وشحُّهُ، فنعوذُ باللهِ مِن ذلكَ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَلَا فَرْقَ عَلَىٰ لِسَانِ القَوْمِ(٣) بَيْنَ الجُودِ وَالسَّخَاءِ، وَلَا يُوصَفُ الحَقُّ ـ سبحانه ـ بِالسَّخَاءِ؛ لِعَدَمِ التَّوقِيفِ(٤)».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٦٢/١ ـ حديث رقم (٤١١)، بلفظ: «.. فَجَلَسَ إليه فما كان يَرَىٰ أَحَدًا إلا أَعْطَاهُ إِذْ جَاءَهُ العَبَّاسُ فقال يا رَسُولَ اللهِ: أَعْطِنِي فَإِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي، وَفَادَيْتُ عَقِيلًا، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُذْ فَحَثَا في ثَوْبِهِ ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فلم يَسْتَطِعْ، فقال يا رَسُولَ اللهِ مر بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ إلي قال: لَا، قال: فَارْفَعْهُ أنت عَلَيَّ، قال: لَا، فَنَثَرَ منه ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فقال: يا رَسُولَ اللهِ مر بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ عَلَيَّ قال: لَا، قال فَارْفَعْهُ أنت عَلَيَّ، قال: لَا فَنَثَرَ منه ثُمَّ احْتَمَلَهُ، فَأَلْقَاهُ علىٰ كَاهِلِهِ ثُمَّ انْطَلَقَ فما زَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ حتىٰ خَفِيَ عَلَيْنَا عَجَبًا من حِرْصِهِ، فما قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَثَمَّ منها دِرْهَمٌ».

(٢) الرسالة القشيرية ٤٠٣/٢.

(٣) في (ف): العلم.

(٤) تأمل تفصيل ذلك في: الإنباء في شرح حقائق الصفات والأسماء ٩٨٢/٢، والأسنىٰ للقرطبي ص١٨.

وَحَقِيقَةُ الجُودِ: أَلَّا يَصْعُبَ عَلَيهِ البَذْلُ.

وَعِنْدَ القَومِ: السَّخَاءُ هُوَ الرُّتْبَةُ الأُولَى، ثُمَّ الجُودُ بَعْدَهُ، ثُمَّ الإِيثَارُ.

فَمَنْ أَعْطَى البَعْضَ وَأَبْقَى البَعْضَ فَهُوَ صَاحِبُ سَخَاءٍ.

وَمَنْ بَذَلَ الأَكْثَرَ وَأَبْقَى لِنَفْسِهِ شَيْئًا فَهُوَ صَاحِبُ جُودٍ.

وَالَّذِي قَاسَى الضُّرَّ وَآثَرَ غَيْرَهُ بِالبُلْغَةِ فَهُوَ صَاحِبُ إِيثَارٍ.

كَذَلِكَ سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(١)]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ السَّخاءَ إذا رجعَتْ حقيقتُهُ إلى البَذْلِ بسهولةٍ، فمَنْ أعطَى بعضَ مَا يملكُ بسهولةٍ فهوَ سخيٌّ.

فأمَّا لفظُ الجُودِ فهوَ يُشعِرُ بزيادةِ بذلٍ وسرعةٍ في الكثرةِ؛ ومنهُ: جوادُ الخيلِ السَّابقُ إلى الغايةِ.

وأمَّا الإيثارُ فشرطُهُ الاستواءُ في الحاجةِ، فمَنْ أخرجَ مَا هوَ محتاجٌ إليهِ وآثرَ غيرَهُ بهِ فهوَ مؤثِرٌ، فلذلِكَ قالَ ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، يعنِي: حاجةً لمَا آثرُوا بهِ.

فحقيقةُ الإيثارِ: تقديمُكَ غيرَكَ علَى نفسِكَ، ومنهُ قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ / الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦]: [٢/١٨٥أ]، أيْ: يقدِّمُونَ العملَ لهَا على العملِ للآخرةِ، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «قَالَ أَسْمَاءُ بْنُ خَارِجَةَ[(٣)]: مَا أُحِبُّ أَنْ أَرُدَّ أَحَدًا

(١) ورد قوله في: نهاية المرام في دراية الكلام ص٢٠٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٣.

(٣) ورد قوله في: المستطرف ١/٣٤٥، وسراج الملوك ص٩٠، وبمعناه في: اصطناع المعرف لابن=

عَنْ حَاجَةٍ طَلَبَهَا؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ كَرِيمًا أَصُونُ عِرْضَهُ، وَإِنْ كَانَ لَئِيمًا أَصُونُ عَنْهُ عِرْضِي».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ هانَ عليهِ البذلُ تفقَّهَ فيهِ، ونظرَ إلىٰ عواقبِ المنعِ والعطاءِ، فهوَ ينتفعُ تارةً ببذلِهِ وتارةً بمَنْعِهِ، وتارةً في دُنياهُ وتارةً في آخرتِهِ، فقولُ ابنِ خارجةَ: «**لَا أحبُّ أنْ أردَّ سائِلًا**»، فإنَّهُ لا يخلُو مِنْ أحدِ قسمَينِ: إمَّا أنْ يكونَ كريمًا، فلَا أحبُّ أنْ أضيِّعَ عرضَهُ، ولَا بذلَ ماءِ وجهِهِ، فإنَّهُ قَدْ أبدَىٰ إليَّ فقرَهُ وحاجتَهُ، وبذلَ ماءَ وجهِهِ، فلَا أضيِّعُ ذلكَ منهُ وأرُدُّهُ خائبًا، وإنْ كانَ لئيمًا فأصُونُ عِرْضِي مِنْهُ.

ويحتملُ صيانتُهُ عرضَهُ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: أنْ يتكلَّمَ فِيَّ وينسبَنِي إلىٰ الشُّحِّ والبخلِ، فأتألَّمَ لذلِكَ، وربَّمَا كافأتُهُ بمَا بلغنِي عنهُ فأقعَ في إثْمٍ.

ويحتملُ وجهًا آخرَ وإنْ كانَ اللَّفظُ فيهِ بُعْدٌ فِي احتمالِهِ؛ وهوَ أنْ أصونَ عِرْضِي ممَّا قالَ، فلَا يكونَ إثمُهُ بسببِ ردِّي لهُ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: **«وَقِيلَ[٢]: كَانَ مُوَرِّقٌ العِجْلِيُّ يَتَلَطَّفُ فِي إِدْخَالِ الرِّفْقِ عَلَىٰ إِخْوَانِهِ[٣]؛ يَضَعُ عِنْدَهُمْ أَلْفَ دِرْهَمٍ[٤]، فَيَقُولُ: أَمْسِكُوهَا حَتَّىٰ أَعُودَ إِلَيْكُمْ، ثُمَّ يُرْسِلُ إِلَيْهِم: أَنْتُمْ مِنْهَا فِي حِلٍّ»**.

= أبي الدنيا ص٩٨.

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٣.

(٢) أي: يستعمل طريق الرفق في حالة مواساة الخلق بالمال.

(٣) ورد قوله في: سراج الملوك ص٩٠، والمستطرف ١/٣٤٥.

(٤) علىٰ صورة الأمانة.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ فيهِ صيانةٌ لماءِ وجهِ الفقيرِ ورفعةُ لقدْرِهِ وأمانتِهِ، وكانَ بهذَا مُورِّقٌ إذَا عرَفَ مِنْ بعضِ إخوانِهِ فاقةً وضائقةً فلا يأتيهِ بشيءٍ علىٰ وجهِ الصَّدَقَةِ ولَا علىٰ وجْهِ الصِّلَةِ، خوفًا مِنِ انكسارِ قلبِهِ وقتَ ذِكْرِهِ لهُ، بلْ يأتيهِ بصورةِ الأمانةِ، ويقولُ: ارفَعْ هذَا عندَكُمْ، ثمَّ يُغْفلُهُ مدَّةً، ثمَّ يرسلُ إليهِ غيرَهُ فيقولُ: أنفقِ الَّذِي عندَكَ، فلمْ يباشِرْهُ بأنَّهُ صِلَةٌ لا أوَّلًا ولَا آخِرًا، كلُّ ذلكَ شفقةً علىٰ قلبِهِ(١).

❊ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقِيلَ(٣): لَقِيَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ (مَنْبِجَ)(٤) رَجُلًا مِنْ أَهْلِ (المَدِينَةِ)، فَقَالَ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ، فَقَالَ: لَقَدْ أَتَانَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: الحَكَمُ بْنُ [عَبْدِ](٥) المُطَّلِبِ فَأَغْنَانَا، فَقَالَ المَدَنِيُّ: وَكَيْفَ وَمَا أَتَاكُمْ إِلَّا فِي جُبَّةِ صُوفٍ(٦)؟! فَقَالَ: مَا أَغْنَانَا بِمَالٍ، وَلَكِنَّهُ عَلَّمَنَا الكَرَمَ، فَعَادَ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ حَتَّىٰ اسْتَغْنَيْنَا [٢/١٨٥ب]».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا جيِّدٌ بالغٌ، وذلِكَ أنَّ الغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفسِ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «لَيْسَ الغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، إِنَّمَا الْغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ»، وذلكَ أنَّ مَنِ استغنَتْ نفسُهُ باللهِ ووثقَ بهِ هانَ عليهِ بذلُ ما في يدَيهِ في جهةِ البِرِّ، ومَنْ كثُرَ مالُهُ ولمْ يهُنْ عليهِ بذلُهُ ورُبَّمَا اشتدَّ حِرْصُهُ علىٰ الزِّيادةِ فيهِ فهوَ فقيرٌ، وكانَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧١٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٤.

(٣) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص٢٢٩.

(٤) في معجم البلدان ٥/٢٠٥: «منبج ـ بالفتح ثم السكون وباء موحدة مكسورة وجيم ـ وهو بلد قديم، وما أظنه إلا روميا».

(٥) زيادة من (ف).

(٦) في المجالسة وجواهر العلم ص ٣٢٧: «قال العتبي: وأعطىٰ الحكم بن المطلب كل شيء يملكه حتىٰ إذا نفذ ما عنده ركب فرسه، وأخذ رمحه يريد الغزو، فمات بمنبج».

حالُهُمْ ـ كمَا قيلَ ـ[١]:

خُلِقُــوا وَمَــا خُلِقُــوا لِمَكْرُمَــةٍ ❁ فَكَــأَنَّهُمْ خُلِقُــوا وَمَــا خُلِقُــوا

رُزِقُــوا وَمَــا رُزِقُــوا سَــمَاحَ يَــدٍ ❁ فَكَــأَنَّهُمْ رُزِقُــوا وَمَــا رُزِقُــوا

فهذَا الرَّجلُ المدَنيُّ لمَّا أتَىٰ لأهلِ (منبجَ) فوجدَ فيهَا الفقيرَ والغنِيَّ، فدلَّهُمْ علىٰ غِنَىٰ النَّفسِ، فزهدَ ذُو المالَ وهانَ عليهِ بذلُهُ، وقنعَ الفقيرُ، فاستغنَىٰ بمَا تيسَّرَ لهُ، فاستغنَوا أجمعُونَ[٢].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ يَقُولُ[٤]: لَمَّا سَعَىٰ[٥] غُلَامُ الخَلِيلِ بِالصُّوفِيَّةِ إِلَىٰ الخَلِيفَةِ أَمَرَ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ؛ فَأَمَّا الجُنَيْدُ فَإِنَّهُ تَسَتَّرَ بِالفِقْهِ[٦]، وَكَانَ يُفْتِي عَلَىٰ مَذْهَبِ أَبِي ثَوْرٍ.**

وَأَمَّا الشَّحَّامُ وَالرَّقَّامُ وَالنُّورِيُّ وَجَمَاعَةٌ فَقُبِضَ عَلَيْهِم، فَبُسِطَ النِّطْعُ لِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ، فَتَقَدَّمَ النُّورِيُّ، [وَقَالَ لِلسَّيَّافِ: ابْدَأْ بِي،][٧] فَقَالَ السَّيَّافُ: تَدْرِي لِمَاذَا تُبَادِرُ؟! فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَمَا تَعَجُّلُكَ؟ فَقَالَ: أُوثِرُ عَلَيَّ أَصْحَابِي بِحَيَاةِ سَاعَةٍ، فَتَحَيَّرَ السَّيَّافُ، فَأَنْهَىٰ الخَبَرَ إِلَىٰ الخَلِيفَةِ، فَرَدَّهُمْ إِلَىٰ القَاضِي لِيَتَعَرَّفَ حَالَهُمْ،

---

(١) من الكامل، لأبي الحسن الصقلي في: معجم السفر ص٢٧٨، وبلا نسبة في: خزانة الأدب للحموي ١/١٥٩، وأنوار الربيع ١/٩١، ٤١٩، ومرقاة المفاتيح ٧/٧٧، والدر الفريد وبيت القصيد ٦/١٦٧، ٣٢٦.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/٧١٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٤.

(٤) ويعرف هذا الخبر بمحنة الصوفية، وورد في: تاريخ بغداد ٥/١٣٤، وحلية الأولياء ١٠/٢٥٠، واللمع للطوسي ص٤٩٨.

(٥) أي: وشىٰ.

(٦) فخلىٰ سبيله.

(٧) زيادة من (ف).

فَأَلقَىٰ القَاضِي عَلَىٰ أَبِي الحُسَيْنِ النُّورِيِّ مَسَائِلَ فِقْهِيَّةً، فَأَجَابَ عَنِ الكُلِّ، ثُمَّ أَخَذَ يَقُولُ: وَبَعْدُ، فَإِنَّ(١) للهِ عِبَاداً إِذَا قَامُوا قَامُوا بِاللهِ، وَإِذَا نَطَقُوا نَطَقُوا بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ وَسَرَدَ أَلْفَاظاً أَبْكَىٰ القَاضِي، فَأَرْسَلَ القَاضِي إِلَىٰ الخَلِيفَةِ وَقَالَ: إِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ زَنَادِقَةً فَمَا عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ مُسْلِمٌ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ أنَّ الخليفةَ سُعِيَ إليهِ فيهِمْ مَنْ سَكَنَتْ نَفْسهُ إلىٰ خبَرِهِ أنَّهُمْ يستحقُّونَ القتلَ فيمَا هُم عليهِ، واعتمدَ علىٰ مَا نُقِلَ إليهِ، فلمَّا أُحضِرُوا للقتلِ، تقدَّمَ النُّوريُّ إلىٰ أنْ يُقتَلَ قبلَ أصحابِهِ، فقالَ لهُ السَّيَّافُ: «**تدرِي لِمَ تبادرُ؟**» فقالَ لهُ: نعَمْ، للقتْلِ، فقالَ: ولمَ ذلكَ؟ فقالَ: «**أُوثِرُ أصحابِي بحياةِ ساعةٍ**»، وهذا شديدُ الإيثارِ، فإنَّ الإيثارَ قَدْ يكونُ بالمالِ وإنِ اختلفَتْ أنواعُهُ، ويكونُ بالطَّعامِ والنِّكاحِ [١٨٦/٢أ] وغيرِهِ مِنْ أنواعِ المُشْتهيَاتِ الحَلالِ، وقدْ قالَ سعدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لعبدِ الرَّحمنِ بنِ عوفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لمَّا آخىٰ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَهُمَا(٢): «خُذْ نصفَ مالِي، ولِي زوجتَانِ، أنزلُ لكَ عن إحداهُمَا، فقالَ لهُ: باركَ اللهُ لكَ في أهلِكَ ومالِكَ، دُلَّنِي علىٰ السُّوقِ».

وأعظمُ الإيثارِ الإيثارُ بالنَّفسِ للهِ، فمَنْ بذلَ نفسَهُ للهِ في الجهادِ فهوَ أعظمُ المؤثِرِينَ، آثرَ طاعةَ اللهِ علىٰ حياةِ نفسِهِ، وكذلكَ هذا آثرَ إخوانَهُ بحياةِ ساعةٍ؛ إمَّا لوجودِ راحةٍ دنيويَّةٍ أوْ أخرويَّةٍ، فلمَّا علِمَ اللهُ صدقَهُ، ألقَىٰ الرُّعبَ والحيرةَ في قلبِ السَّيَّافِ حتَّىٰ استأذنَ الخليفةَ في القتْلِ كرَّةً أُخْرَىٰ، وأعلَمَهُ بمَا جرَىٰ مِنْ كلامِ النُّوريِّ، فوقفَ الخليفةُ عنِ القتْلِ وردَّ أمرَهُمْ إلىٰ القاضِي؛ ليتحقَّقَ ما هُمْ عليهِ، ويرجعَ عمَّا نقلَ إليهِ، فسألَ القاضِي النُّوريَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنْ مسائلَ فقهيَّةٍ لينظُرَ أجاهلٌ

---

(١) في (ف): ويَعُد بأنَّ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٤٣٢/٣ ـ حديث رقم (٣٧٢٢)، والطبراني في المعجم الكبير ٢٥٢/١.

هوَ أمْ عالِمٌ؟ فأجابَهُ عنْ جميعِ ما سألَهُ عنهُ، ثمَّ زادَهُ زيادةً فيمَا سألَهُ عنهُ منَ الأعمالِ والعلومِ، وقالَ لهُ: «**إنَّ للهِ عباداً إنْ قامُوا قامُوا باللهِ**(١) **لا بأنفسِهِمْ، وإنْ تكلَّمُوا تكلَّمُوا باللهِ**»، أيْ: باستعانتِهِ لا بأنفسِهِمْ، وسردَ أقوالاً مِنْ هذَا القبيلِ، فعرفَ القاضِي فضلَهُ فِي الأصولِ والفروعِ جميعاً، فأرسلَ إلىٰ الخليفةِ يقولُ لهُ: «**إنْ كانَ هؤلاءِ زنادقةً فمَا علىٰ وجْهِ الأرضِ مسلمٌ**»، أيِ: الَّذِي هُم عليهِ هوَ الحقُّ، وهوَ الإسلامُ، وهوَ المعروفُ مِن دِينِ الأمَّةِ، فخلَّىٰ سبيلَهُمْ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَقِيلَ: كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْفُضَيْلِ يَشْتَرِي مِنْ بَاعَةِ الْمَحَلَّةِ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ دَخَلْتَ السُّوقَ فَاسْتَرْخَصْتَ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ نَزَلُوا بِقُرْبِنَا رَجَاءَ مَنْفَعَتِنَا**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا نظرٌ مستقيمٌ، وذلكَ أنَّ الشَّرعَ التفتَ إلىٰ هذا المعنَىٰ، ومنعَ مِنْ تلقِّي الرُّكبانِ وجعلَ لأهلِ الأسواقِ الشَّركةَ فيمَا يلقُوهُ، ونهَىٰ أنْ يبيعَ حاضرٌ لبادٍ(٣)، وقالَ(٤): «دعِ النَّاسَ يُرزَقُ بعضُهُمْ مِن بعضٍ»، كلُّ ذلكَ للتَّوسعَةِ علىٰ الخَلْقِ، وانتفاعِ بعضِهِمْ ببعضٍ، والمحلَّةُ قرياتٌ بظاهرِ المُدُنِ، والعادةُ أنَّ الباعةَ يشترُونَ منَ المُدنِ ويبيعُونَ أهلَ القُرَىٰ، وهذَا موجودٌ بـ(ثغرِ الإسكندريَّةِ) وبغيرِهَا منَ البلدانِ، يكونُ بالبلدِ السُّوقُ الأعظمُ ويكونُ [٢/١٨٦ب] بهِ السُّويقاتُ فِي كلِّ جهةٍ مِنْ جهةِ البلدِ، ويكونُ فِي السِّلعِ الَّتِي عندَ أهلِ السُّويقاتِ زيادةٌ يسيرةٌ وفِي السُّوقِ أرخص، فهذَا الرَّجلُ كانَ يشتَرِي مِنْ هذهِ المحلَّةِ أوِ

---

(١) أي: بإعانته.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٤.

(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢/٩٤، والمحرر الوجيز ٢/٤١، وشرح النووي لصحيح مسلم ١٠/١٦٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/١١٥٧ ـ حديث رقم (١٥٢٢)، بلفظ: «عن جَابِرٍ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ، دَعُوا الناس يَرْزُقْ الله بَعْضَهُم من بَعْضٍ».

السُّويقةِ القريبةِ من منزلِهِ، فقيلَ لهُ: «لوِ اشتريتَ منَ السُّوقِ لكانَ أرخصَ، فقالَ: ما نزَلَ هؤلاءِ بنا إلَّا ليطلبُوا فَضْلَنَا»، فإذَا مضىٰ النَّاسُ إلىٰ الأسواقِ وتركوهم فاتَهُمْ مرادُهُمْ ومقصودُهُم، فلمْ يفعلْ ذلكَ لنفسِهِ وحرَّضَ غيرَهُ عليهِ، وهذا وإنْ كانَ يسيرًا ففيهِ كرمُ النَّفسِ، وقلَّةُ الحرصِ علىٰ طلبِ الزِّيادةِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقِيلَ**[2]: **بَعَثَ رَجُلٌ إِلَىٰ جَبلَةَ بِجَارِيَةٍ**[3] **وَكَانَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: قَبِيحٌ أَنْ أَتَّخِذَهَا لِنَفْسِي وَأَنْتُمْ حُضُورٌ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَخُصَّ بِهَا وَاحِدًا، وَكُلُّكُمْ لَهُ حَقٌّ وَحُرْمَةٌ، وَهَذِهِ لَا تَحْتَمِلُ القِسْمَةَ - وَكَانُوا ثَمَانِينَ -، فَأَمَرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِجَارِيَةٍ أَوْ وَصِيفٍ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ الهَدِيَّةَ لمَنْ حضَرَ أمرٌ معروفٌ، وذلكَ أنَّ الشَّخصَ إذا أُهدِيَ إليهِ شيءٌ بغيرِ ثمنٍ في وسطِ جماعةٍ وكانَ ممَّا يُؤْكَلُ ولَا يُطعمُ أحدٌ منهُ شيئًا منَ الحاضرِينَ كانَ ذلكَ منْ أقبحِ العوائدِ بينَ النَّاسِ، ولَا سيَّمَا العربُ، فلمَّا أُهديَتْ لجَبَلَةَ هذهِ الجاريةُ، وربَّمَا كانَتْ جميلةً دُفعَتْ لهُ في وسطِ أصحابِهِ وبَنِي عمِّهِ تحيَّرَ في أمرِهِ، فقالَ: قبولُهَا واختصاصِي بهَا دونَكُمْ مؤلِمٌ، واختصاصِي واحدًا منكُمْ دونَ بقيَّتِكُمْ مؤلِمٌ لكُمْ ولَا أرضَاهُ، ولَا يمكنُ قسمتُهَا حتَّىٰ ينالَ كلُّ واحدٍ منكُمْ منهَا نصِيبًا، ثمَّ دلَّهُ الكرَمُ وجميلُ الحالِ علىٰ أنْ أمَرَ بأنْ يُشتَرَىٰ لكلِّ واحدٍ منَ الحاضرِينَ وصيفةٌ أو وصيفٌ[4]؛ ليشاركُوهُ فِي مِثْلِ مَا أُهدِيَ لهُ، وكانُوا ثمانينَ نفْسًا.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٤.

(٢) ورد في: منارات السائرين ص١٢٩.

(٣) أي: إلىٰ جبلة بن سحيم الكوفي بجارية هدية. وانظر في ترجمته: الوافي بالوفيات ١١/٤٣، وسير أعلام النبلاء ٥/٣١٥.

(٤) أي: بجارية أو غلام.

وهذَا يدلُّ علىٰ كرمِ نفسِهِ وسُهُولةِ إخراجِ الدُّنيَا عليهِ ودفعِ الكثيرِ منهَا، وهوَ يدلُّ علىٰ الكَرَمِ والجُودِ والسَّخَاءِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقِيلَ[2]: عَطش عُبَيْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرَةَ يَوْمًا فِي طَرِيقِهِ، فَاسْتَسْقَىٰ مِنْ مَنْزِلِ امْرَأَةٍ، فَأَخْرَجَتْ كُوزَ مَاءٍ وَقَامَتْ خَلْفَ البَابِ وَقَالَتْ: تَنَحَّوا عَنِ البَابِ، وَلْيَأْخُذْهُ بَعْضُ غِلْمَانِكُمْ؛ فَإِنِّي امْرَأَةٌ مِنَ العَرَبِ مَاتَ[3] خَادِمِي مُنْذُ أَيَّامٍ، فَشَرِبَ عُبَيْدُ اللهِ المَاءَ وَقَالَ لِغُلَامِهِ: احمِلْ إِلَيْهَا عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ تَسْخَرُ بِي!؟ فَقَالَ: احْمِلْ إِلَيْهَا عِشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَقَالَتْ: أَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ، فَقَالَ: يَا غُلَامُ: احْمِلْ إِلَيْهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَرَدَّتِ البَابَ وَقَالَتْ [٢/١٨٧أ]: أُفٍّ لَكَ، فَحَمَلَ إِلَيْهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَمَا أَمْسَتْ حَتَّىٰ كَثُرَ خُطَّابُهَا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ غايةِ كرَمِهِ لمَّا سمعَ أنَّهَا امرأةٌ عربيَّةٌ ماتَ خادِمُهَا، فأرادَ أنْ يُعينَهَا ببعضِ مالِهِ، فلمَّا قالَ: «**يا غلامُ، احملْ إليهَا عشرةَ آلافِ درهمٍ**»، سبقَ إليهَا أنَّ هذَا ليسَ بصحيحٍ، وأنَّهُ مِنْ وجهِ الاستهزاءِ بهَا، قالَتْ: «**سبحانَ اللهِ! تسخرُ بي؟**»، وفهِمَ عبدُ اللهِ أنَّهَا مَا رضيَتْ بما قالَ، وأنَّهَا منَ العربِ ما تُواجَهُ بمثلِ هذَا، فقالَ لهُ: «**احملْ إليهَا عشرينَ ألفًا**»، فزادَ تعجُّبُهَا فقالَتْ: «**أسألُ اللهَ العافيةَ ممَّا ابتُلِيت بهِ، فقالَ: يا غلامُ، احمِلْ إليهَا ثلاثينَ ألفًا، فغلَّقَتِ البابَ وقالَتْ: أفٍّ لكَ**»، فقولُهَا: «**أُفٍّ لكَ**» دليلٌ علىٰ أنَّهَا فهمَتِ الاستسخارَ، فلمَّا شاعَ أنَّ عُبيدَ اللهِ أرسلَ إليهَا ثلاثينَ ألفَ درهمٍ، وكانَتْ ذاتَ شرَفٍ في نفسِهَا وبيتِهَا، فزادَ شرفُهَا بالمالِ، فما أمسَتْ حتَّىٰ كثُرَ خُطَّابُهَا، ورغبَ النَّاسُ في تزويجِهَا.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٤ ـ ٤٠٥.

(٢) ورد في: تاريخ دمشق ٣٨/١٤١، والمستطرف ١/٣٤٧.

(٣) في (أ): مات.

وهذِهِ الحكايةُ دليلٌ على كرَمِ الدَّافعِ، وحُسنِ نِيَّتِهِ، وعَدمُ تأثُّرِهِ بمَا قابلَتْهُ بهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقِيلَ: الجُودُ إِجَابَةُ الخَاطِرِ الأَوَّلِ.

سَمِعْتُ بَعْضَ أَصْحَابِ أَبِي الحَسَنِ البُوشَنْجِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[2]: كَانَ أَبُو الحَسَنِ البُوشَنْجِيُّ فِي الخَلَاءِ، فَدَعَا تِلْمِيذًا لَهُ، وَقَالَ: انْزَعْ عَنِّي هَذَا القَمِيصَ وَادْفَعْهُ إِلَى فُلَانٍ، فَقِيلَ لَهُ: هَلَّا صَبَرْتَ![3]، فَقَالَ: لَمْ آمَنْ عَلَى نَفْسِي أَنْ تَتَغَيَّرَ عَلَى مَا وَقَعَ لِي مِنَ التَّخَلُّقِ مَعَهُ بِذَلِكَ القَمِيصِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا إنَّمَا يخشَى على مَنْ تكونُ أعمالُهُ بأوَّلِ الباعثِ ولَا يتثبَّتُ، وإلَّا مَنْ وقعَ لهُ خاطرٌ تثبَّتَ في أثرِهِ حتَّى اتَّضحَ لهُ حكمُهُ وفعلَ على حسبِ ذلكَ، فيقلَّ خوفُهُ على نفسِهِ أنْ تتغيَّرَ فيمَا عزمَتْ عليهِ أوْ تخلَّقَتْ بهِ.

وقدْ يكونُ ما خطرَ للإنسانِ واضحَ الحُكمِ في الخبرِ فلَا يحتاجُ إلى تَثبُّتٍ، فيعملُ على مُقتضَاهُ بسرعةٍ؛ خوفًا من حُظُورِ مَنْ يقابلُهُ منَ التَّرجيحِ، وهذَا هوَ الَّذِي خافَهُ، واللهُ أعلَمُ؛ وهوَ علَى المُسْتَرفقِ على قضاءِ الحاجةِ، وبادرَ إلى خلعِ القميصِ وأمرَ بإرسالِهِ إلى فلانٍ، وذلكَ أنَّهُ ـ واللهُ أعلمُ ـ كانَ محتاجًا إليهِ في نفسِهِ، وهوَ الظَّاهرُ مِنْ حالِهِ، وعرَفَ مِنْ أخيهِ حاجتَهُ[4] إلى القميصِ، وعزمَ على إيثارِهِ على نفسِهِ، وأنْ يتحمَّلَ مشقَّةَ البردِ إلى أنْ ييسِّرَ اللهُ بغيرِهِ، وهذا محلُّ ضيقٍ، وهوَ الإيثارُ [٢/١٨٧ب] علَى النَّفسِ بالمُحْتَاجِ إليهِ، فخشِيَ أنْ تَرجعَ نفسُهُ فيمَا آثرتْ بهِ، فاستعجلَ في الإخراجِ؛ ليتعذَّرَ رُجُوعهَا، ولذلكَ قالَ: «**الجُودُ العملُ على أوَّلِ**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٥.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤١/٢١٦.

(٣) أي: إلى فراغك من قضاء حاجتك.

(٤) في (أ): حاجة، والصواب المثبت.

خاطرٍ»، وهذا غايةُ الجُودِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ لِقَيْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ[(٢)]: هَلْ رَأَيْتَ أَسْخَىٰ مِنْكَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ؛ نَزَلْنَا بِالبَادِيَةِ عَلَىٰ امْرَأَةٍ فَحَضَرَ زَوْجُهَا، فَقَالَتْ: إِنَّهُ نَزَلَ بِكَ ضِيفَانٌ، فَجَاءَ بِنَاقَةٍ وَنَحَرَهَا، وَقَالَ: شَأْنُكُمْ، فَلَمَّا كَانَ بِالغَدِ جَاءَ بِأُخْرَىٰ وَنَحَرَهَا، وَقَالَ: شَأْنُكُمْ، فَقُلْنَا: مَا أَكَلْنَا مِنَ الَّتِي نَحَرْتَ البَارِحَةَ إِلَّا اليَسِيرَ! فَقَالَ: لَا أُطْعِمُ أَضْيَافِي الغَابَّ[(٣)]، فَبَقِينَا عِنْدَهُ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً وَالسَّمَاءُ تُمْطِرُ، وَهُوَ يَفْعَلُ كَذَلِكَ.

فَلَمَّا أَرَدْنَا الرَّحِيلَ وَضَعْنَا مِائَةَ دِينَارٍ فِي بَيْتِهِ، وَقُلْنَا لِلْمَرْأَةِ: اعْتَذِرِي لَنَا إِلَيْهِ وَمَضَيْنَا، فَلَمَّا مَتَعَ النَّهَارُ إِذَا نَحْنُ بِرَجُلٍ يَصِيحُ خَلْفَنَا: قِفُوا أَيُّهَا الرَّكْبُ اللِّئَامُ، أَعْطَيْتُمُونِي ثَمَنَ قِرَايَ!، ثُمَّ إِنَّهُ لَحِقَنَا وَقَالَ: لَتَأْخُذُنَّهُ، أَوْ لَأَطْعَنَنَّكُمْ بِرُمْحِي هَذَا، فَأَخَذْنَاهُ وَانْصَرَفَ[(٤)]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ تدلُّ علىٰ الكرمِ منَ الجانبَينِ؛ فلمَّا نزلَ قيسٌ بهذَا البيتِ منَ العربِ فِي الصَّحراءِ، وجاءَ صاحبُهُ فنحرَ لهُ ولأصحابِهِ ناقةً وقالَ[(٥)]: «**شأنُكُمْ بهَا**»، فهذَا مِنْ جُملةِ الكرمِ أنْ يقولَ: شأنُكُمْ بهَا؛ خَيَّرَهُمْ فِيهَا، فلمَّا باتُوا ليلةً أُخرَىٰ وأصبحُوا نحرَ لهُمْ أُخرَىٰ وقالَ: «**شأنُكُمْ بهَا، فقالُوا:**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٥.

(٢) ورد نحوه في: قرىٰ الضيف لابن أبي الدنيا ص٢٧، وسراج الملوك ص٩٠، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للآلوسي ص٩١.

(٣) أي: اللحم البائت.

(٤) زيد بعده في الرسالة القشيرية: «فَأَنْشَأَ يَقُولُ: [من الكامل]

وَإِذَا أَخَذْتُ ثَوَابَ مَا أَعْطَيْتُهُ: ❁ فَكَفَىٰ بِذَاكَ لِنَائِلٍ تَكْدِيرَا».

(٥) أي: بعد طبخها.

ما أكلنَا منَ الأُولَى إلَّا أيسرَ اليسيرِ ، فقالَ: معاذَ اللهِ أنْ نُطعمَ أضيافِي الغابَّ» ، يعنِي: البائتَ ، وكانَ الشِّتاءُ قدْ نزَلَ ، فأقمْنَا علىٰ ذلكَ ليالِيَ ، ثمَّ ارتحلْنَا قبلَ مجيءِ صاحبِ البيتِ وأردْنَا أنْ نكرمَهُمْ ، فجعلْنَا عندَ زوجتِهِ مائةَ دينارٍ ، وقلنَا: استعينُوا بهذِهِ علىٰ شأنِكُمْ ، «**فلمَّا متعَ النَّهارُ**» ، يعنِي: تعالَىٰ[1] وسِرْنَا زمانًا ، فإذَا بفارسٍ خلفَنَا يصرخُ ، فلمَّا وصلَ إلينَا ، قالَ: «**قفُوا أيُّهَا اللِّئامُ ، خذُو مالَكُمْ ، تحبُّونَ أنْ تعطُونِي ثمنَ قِرَايَ**» ، فامتنعُوا مِنْ أخذِهَا فقالَ: «**واللهِ لئِنْ لمْ تأخذُوهَا لَأطعننَّكُمْ برُمحِي هذَا**» .

فكرَمُ هذا الأعرابيِّ ظاهرٌ ، وكرمُ قيسٍ في كونِهِ وضعَ عندَهُ مائةَ دينارٍ جَزَاءً لإحسانِهِم ، ولمَّا آلَ الأمرُ إلىٰ ما هوَ أشرُّ منَ المكافأةِ قَبِلَ المالَ وأعطاهُ دينًا وقَبِلَهُ دُنْيا .

وقَولُ قيسٍ: إنَّ العربيَّ أسخىٰ منهُ ؛ لِمَا رأَىٰ مِنْ تكرُّرِ نَحْرِهِ لِلنِّياقِ ، وَشِدَّةِ كَرَاهتِهِ لقَبُولِ ما جُوزِيَ بهِ حتَّىٰ هَانَ عليهِ القِتَالُ .

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ [٢/١٨٨أ] السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ**[3]: **دَخَلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الرُّوذبَارِيُّ دَارَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ فَوَجَدَهُ غَائِبًا ، وَبَابُ بَيْتٍ لَهُ مُقْفَلٌ ، فَقَالَ: صُوفِيٌّ وَلَهُ بَابُ بَيْتٍ مُقْفَلٌ ؟! اِكْسَرُوا القُفْلَ ، فَكَسَرُوا [القُفْلَ] ، وَأَمَرَ بِجَمِيعِ مَا وَجَدُوا فِي الدَّارِ وَالبَيْتِ وَأَنْفَذَهُ إِلَى السُّوقِ ، وَبَاعُوهُ ، وَأَصْلَحُوا وقتًا**[4] **مِنَ الثَّمنِ**[5] ، **وَقَعَدُوا فِي الدَّارِ** .

---

(١) أي: ارتفع .

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥/١٨ ، وسراج الملوك ص٩٢ .

(٤) أشير في حاشية (أ) أنه في نسخة «قوتًا» .

(٥) الذي باعوا به .

فَدَخَلَ صَاحِبُ الدَّارِ وَلَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا، فَدَخَلَتْ امْرَأَتُهُ بَعْدَهُمُ الدَّارَ وَعَلَيْهَا كِسَاءٌ، فَدَخَلَتْ بَيْتًا وَرَمَتْ بِالكِسَاءِ(١)، وَقَالَتْ: يَا أَصْحَابَنَا؛ هَذِهِ أَيْضًا مِنْ جُمْلَةِ المَتَاعِ، فَبِيعُوهَا، فَقَالَ الزَّوْجُ لَهَا: لِمَ تَكَلَّفْتِ هَذَا بِاخْتِيَارِكِ؟ فَقَالَتْ: اُسْكُتْ، مِثْلُ هَذَا الشَّيخِ يُبَاسِطُنَا وَيَحْكُمُ عَلَيْنَا، وَيَبْقَى لَنَا شَيْءٌ نَدَّخِرُهُ عَنْهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذهِ الحكايةُ تدلُّ على أنَّ الشَّخصَ متى حصلَتْ لهُ منزلةُ [الفُضَلاء](٢) المتورِّعينَ والعارفينَ باللهِ - تعالى - والمُعرِضِينَ عنِ الدُّنيا وأحبُّوه، [وَجَبَ](٣) عليهم التَّصرُّف فِي مالِهِ في غيبتِهِ وحضورِهِ، فليشكرِ اللهَ علَى [حُضُورِهِ وَغَيْبَتِهِ](٤)، فإنَّهُمْ لا يُقْدِمُونَ كلَّ هذا الإقدامِ ولا يتصرَّفونَ في مالِ شخصٍ هَذَا التَّصرُّف إلَّا إذا وثقُوا برضَاهُ بذلكَ ومحبَّتِهِ لهُ وفرحِهِ بهِ؛ وذلكَ لكمالِ [زُهْدِهِ وعَدَمِ](٥) رغبتِهِ فِي الدُّنيا، وإلَّا لوِ استشعرُوا منهُ أدْنَى كراهةٍ لمْ يقدمُوا على شيءٍ ممَّا فعلوهُ، ولَا سيَّمَا إذَا كانَ هذا الدَّاخلُ مِنْ أحبابِهِمْ وطالَتْ غيبتُهُ عنهُمْ وقدمَ عليهِمْ بعدَ مدَّةٍ، وهوَ يعلمُ مِنْ أحوالِهِمْ أنَّهُمْ لَا يُمْسِكُونَ(٦) عنهُ مُمْكِنًا.

فلمَّا وردَ الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ الرُّوزباريُّ على زوجِ هذهِ المرأةِ وكانَ عندَهُ في هذهِ المنزلةِ الَّتِي أشرْنَا إليهَا دخلَ دارَهُ ووجدَ بيتَهُ مغلقًا بضبَّةٍ، فقالَ: «**صوفِيٌّ يكونُ لهُ بيتٌ مغلقٌ؟!**»، معناهُ: أنَّ الصُّوفِيَّ لَا يكونُ عندَهُ حِرصٌ ودلَّ عليهِ وكسرَ الغلقَ وقالَ لمَنْ كانَ معَهُ: «**خذُوا ما فِي الدَّارِ والبيتِ وبيعُوهُ في السُّوقِ وأصلِحُوا لنَا بهِ وقتًا**»، فلمَّا أتى صاحبُ الدَّارِ ووجدَ الأمرَ كذلِكَ سُرَّ بهِ، ولكنَّهُ لمْ يتكلَّمْ بشيءٍ،

---

(١) التي كانت ملتحفة به.

(٢) طمس موضعها في (أ).

(٣) طمس بمقدار كلمة في (أ)، فلعلها كذلك.

(٤) طمس بمقدار كلمتين في (أ)، فلعلهما هكذا.

(٥) طمس بمقدار كلمتين في (أ)، وأفدتهما من إحكام الدلالة ٢/٧١٦، ومن استعمال المؤلف لذلك.

(٦) في (أ): يمسكوا، والصواب المثبت.

فبعدَ ساعةٍ جاءَتْ زوجتُهُ ورأَتِ الحالَ وأعلَمَهَا بمَا جَرَىٰ، ومَنِ الدَّاخل عليهِمْ، فدَخَلَتْ في بعضِ بيوتِ الدَّارِ ونزعَتِ الكساءَ الَّتِي كانَتْ مُلَتحِفَةً بهِ[1]، وقالَتْ: يا إخوَتَاهُ، هذَا مِنْ بقيَّةِ قُمَاشِ الدَّارِ، بيعُوهُ وكمِّلُوا بهِ وقتَكُمْ، وأرادَ زوجُهَا أنْ يعرِّفَهُمْ فضْلَهَا فقالَ لهَا: «**ولِمَ فعلتِ هذَا؟ قالتْ: مثلُ الشَّيخِ** [٢/١٨٨ب] **يَا عبدَ اللهِ يدلُّ علينَا، ويتصرَّفُ في بيتِنَا هذَا التَّصرُّفَ، وندَّخِرُ عنهُ شيئًا**».

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الحَارِثِ[3]: النَّظَرُ إِلَى البَخِيلِ يُقَسِّي القَلْبَ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّكَ لا ترَىٰ الإنفاقَ عليهِ واجبًا، ولا يتحرَّكُ قلبُهُ للقيامِ بهِ، ويرَىٰ أخاهُ المسلمَ جائعًا مريضًا عريانًا ولا يتحرَّكُ نفسُهُ بأنْ يعطِيَهُ درهمًا، وربَّمَا يرَاهُ في نفسِهِ رديءَ الحالِ سيِّئَ الهيئةِ جائعًا شَعِثًا وعندَهُ المالُ، فلا يهونُ عليهِ أنْ ينفقَ علىٰ نفسِهِ منهُ شيئًا، وإذَا رأَىٰ العبدُ مَنْ يبخلُ علىٰ نفسِهِ بمالِهِ ويبخلُ في صَرْفِهِ بواجبٍ عليهِ في حقِّهِ لمستحقِّهِ؛ مِنْ أبٍ أوْ ولدٍ أو ضعيفٍ منقطعٍ بهِ، فالدَّوامُ علىٰ رؤيةِ هذا تقسِّي القلبَ، ولا يكونُ منهُ انشراحٌ لعدمِ الأسبابِ الَّتِي ينشرحُ بهَا، وربَّمَا أثَّرَ مَا لِهَذَا البخيلِ في قلبِهِ، فيستفيدُ مِنْ بُخْلِهِ، فيصيرُ مِنْ حِزْبِهِ، فهذانِ وَجْهَانِ: [تَقْسِيَةُ قَلْبِهِ][4] قَسَاوَةٌ، ومشاهدةُ البُخَلاءِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: «**[وَقِيلَ][6]: مَرِضَ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ،**

---

(١) إيثارا لهم علىٰ نفسها.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٦.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٣٥٠، وشعب الإيمان ٧/٤٤٢، وطبقات الصوفية ص٤٦، وإحياء علوم الدين ٣/٢٥٦.

(٤) طمس بمقدار كلمتين في (أ)، وأفدتهما من إحكام الدلالة ٢/٧١٦.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٦.

(٦) زيادة من (ف).

فَاسْتَبْطَأَ إِخْوَانَهُ فِي العِيَادَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُمْ فَقِيلَ: إِنَّهُمْ يَسْتَحْيُونَ مِمَّا لَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الدَّيْنِ، فَقَالَ: أَخْزَىٰ اللهُ مَالًا يَمْنَعُ الإِخْوَانَ مِنَ الزِّيَارَةِ، ثُمَّ أَمَرَ مَنْ يُنَادِي: مَنْ كَانَ لِقَيْسٍ عَلَيْهِ مَالٌ فَهُوَ مِنْهُ فِي حِلٍّ، فَكُسِرَتْ عَتَبَتُهُ بِالعَشِيِّ؛ لِكَثْرَةِ مَنْ عَادَهُ»(١).

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلكَ أَنَّ كرمَ نفسِ قيسٍ بمالِهِ لَمْ يقمْ لهُ مقامَ انقطاعِ إخوانِهِ عنهُ، وتركِ زيارتِهِ، وكانَ لهُ علىٰ النَّاسِ ديونٌ يقرضُهُمْ لادِّعاءِ حاجتِهِمْ إليهَا، فلمَّا مرضَ المَرضَةَ الَّتِي ماتَ فيهَا وتأخَّرَ عنهُ إخوانُهُ بالزِّيارةِ، فسألَ عنِ السَّببِ فقيلَ لهُ: «**يستحيونَ منكَ لمَا لكَ عليهِمْ منَ الدَّينِ**»، فقالَ: «**قبَّحَ اللهُ مالًا يفرِّقُ بينَ أحبَّتِهِ وإخوانِهِ**»، فأمَرَ مناديَهُ أنْ يُنادِيَ: «**أنَّ كلَّ مَنْ كانَ عليهِ دَينٌ لقيسٍ فهوَ منهُ في حِلٍّ**».

فهذَا دليلٌ علىٰ زُهدِ قيسٍ في الدُّنيَا وهوانِهَا عليهِ في حالِ الحياةِ والمَوتِ، وكانَ لا يطالبُهُمْ بهَا في طُولِ حَيَاتِهِ، وهانَ عليهِ بذْلُهَا لهُمْ، وإبراءُ ذِمَمِهِمْ منهَا عندَ وفاتِهِ.

ولقد أعرفُ فِي زمانِنَا رَجُلًا كانَ لهُ علىٰ بعضِ محبِّيهِ مَالٌ، مبلغُهُ أربعونَ دينارًا مصريَّةً، وكانَ كلَّمَا أرادَ أنْ يقضِيَهُ بعضَهَا في حالِ حياتِهِ تألَّمَ منْ ذلكَ وتنكَّدَ، وقالَ: مَا لِي إليهَا حاجةٌ، وكلَّمَا أرادَ أنْ يقضيَهُ بعضَهَا زادَ غيظُهُ وَأَلَمُهُ [٢/١٨٩أ]، وقالَ لهُ: «إنْ متُّ وهيَ عليكَ فأنتَ منهَا في حِلٍّ»، ولم يزَلْ حالُهُ كذلِكَ إلىٰ أنْ ماتَ ربُّ الدَّينُ، فوجدَهُ الغريمُ قدْ أوصَىٰ أهلَهُ وجميعَ ورثتِهِ ـ وكانُوا عقلاءَ رشدًا بالغِينَ ـ أنَّهُ ليسَ لهُ عندَ فلانٍ شيءٌ(٢)، وأنَّ ذمَّتَهُ بَرِيئةٌ.

فهذَا يُشْبِهُ هذا الفعلَ الَّذِي جرَىٰ مِن قيسٍ، وربَّمَا فيهِ زيادةٌ عليهِ؛ لتألُّمِهِ لهُ،

---

(١) ورد في: المستطرف ١/٣٤٧، ومدارج السالكين ٢/٢٩٢.

(٢) في (أ): شيئا، والصواب المثبت.

وردِّهِ لهُ ما أتاهُ بهِ مِنْ بعضِ دَينِهِ الَّذِي كانَ لهُ عليهِ وتركَ جميعَ دَيْنِهِ بغيرِ سببٍ مِنِ انقطاعِ زيارةٍ ولا غيرِهَا، أعرفُ الرَّجُلَ وغريمَهُ، واللهُ ـ تعالىٰ ـ يوفِّقُنَا للصَّالحاتِ، ولا يخلِي الأرضَ مِنْ أهلِ الخيرِ والكَرَامَاتِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ[٢]: خَرَجَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَىٰ ضَيْعَةٍ لَهُ، فَنَزَلَ عَلَىٰ نَخِيلِ قَوْمٍ وَفِيهَا غُلَامٌ أَسْوَدُ يَعْمَلُ فِيهَا، إِذْ أُوتِيَ الغلامُ بِقُوتِهِ، وَدَخَلَ كَلْبُ الحَائِطَ، فَدَنَا مِنَ الغُلَامِ، فَرَمَىٰ إِلَيْهِ الغُلَامُ بِقُرْصٍ فَأَكَلَهُ، ثُمَّ رَمَىٰ إِلَيْهِ بِالثَّانِي وَالثَّالِثِ فَأَكَلَهُ، وَعَبْدُ اللهِ يَنْظُرُ، فَقَالَ: يَا غُلَامُ؛ كَمْ قُوتُكَ كُلَّ يَوْمٍ؟ قَالَ: مَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: فَلِمَ آثَرْتَ هَذَا الكَلْبَ؟ قَالَ: مَا هِيَ بِأَرْضِ كِلَابٍ؛ إِنَّهُ جَاءَ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ جَائِعًا وَكَرِهْتُ[٣] رَدَّهُ، قَالَ: فَمَا أَنْتَ صَانِعٌ اليَوْمَ؟ فَقَالَ: أَطْوِي يَوْمِي هَذَا.

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ: أَأُلَامُ عَلَىٰ السَّخَاءِ؟! إِنَّ هَذَا لَأَسْخَىٰ مِنِّي، فَاشْتَرَىٰ الحَائِطَ وَالغُلَامَ وَمَا فِيهَا مِنَ الآلَاتِ، فَأَعْتَقَ الغُلَامَ وَوَهَبَ لَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كمالِ كرمِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ؛ وذلكَ أنَّهُ لمَّا مرَّ بهذَا الحائطِ، يعنِي: النَّخلَ، وفيهِ غلامٌ أسودُ، فجلسَ فيهِ ليستظلَّ أوْ لأمرٍ عرضَ لهُ، فأتىٰ هذَا الغلامُ الأسودُ بقُوتِهِ ثلاثةَ أرغفةٍ، وإذَا بكلبٍ قدْ أقبلَ لمَّا رأىٰ الخبزَ، فرأىٰ الغلامُ فيهِ أثرَ الجوعِ، فرمَىٰ إليهِ ممَّا معَهُ رغيفًا، فأكلَهُ الكلبُ وبقِيَ متشوِّقًا جائعًا، فرمَىٰ إليهِ رغيفًا ثانيًا فأكلَهُ ورآهُ جائعًا، فرمَىٰ إليهِ الثَّالثَ، فتعجَّبَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ مِنْ فِعْلِ هذا الغلامِ، وكونِهِ أطعمَ الكلبَ الثَّلاثةَ أرغفةٍ الَّتِي أتىٰ بهَا، فدعَاهُ وسألَ عنْ قُوتِهِ كلَّ يومٍ، فقالَ: «يا سيِّدِي، ما رأيتَ، قالَ:

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٦.

(٢) ورد في: المستجاد من فعلات الأجواد ص١٤، وإحياء علوم الدين ٣/٢٥٨.

(٣) في (ف): فكرهت.

ولِمَ أطعمْتَهُمْ هذَا الكلبَ؟ قالَ: هذهِ الأرضُ الَّتِي نحنُ بهَا ليسَتْ بلادَ كلابٍ»، وهذَا الكلبُ تبعَ النَّاسَ وأتىٰ مِن بلادٍ بعيدةٍ ورأيتُ فيهِ أثرَ الجوعِ، فأطعمتُهُ، فقالَ: «وأنتَ ما تصنعُ؟ قالَ: أطوِي ليلَتِي هذهِ إلىٰ غدٍ» [١٨٩/٢ب] إنْ شاءَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ، فتعجَّبَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ مِنْ فعلِهِ، وقالَ في نفسِهِ: «أَأُلَامُ علىٰ السَّخاءِ وهذَا أسخىٰ منِّي؟!».

والسَّخاءُ كمَا تقدَّمَ(١): إخراجُ بعضِ ما يملكُهُ العبدُ بسهولةٍ، والجودُ: إخراجُ أكثرِ مَا يملكُ بسهولةٍ، والإيثارُ: إخراجُ جميعِ ما يملكُهُ العبدُ بسهولةٍ معَ الحاجةِ إليهِ، وهذا حالُ العبدِ الإيثارُ، قالَ: فسألَ عبدُ اللهِ عمَّنْ يملكُ الحائطَ والغلامَ، «فاشترَىٰ الحائطَ والغلامَ وجميعَ ما فيهِ منَ الآلاتِ»، وأعتقَ العبدَ أوَّلًا للهِ ـ تعالىٰ ـ حتَّىٰ كَمُلَتْ حِرِّيَّتُهُ، ووهبَ لهُ جميعَ الحائطِ وما فيهِ منَ الآلاتِ، فلمَّا آثرَ العبدُ اللهَ بالكلِّ حرَّكَ لهُ قلبَ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ حتَّىٰ حصلَ لهُ بعدَ حرِّيَّتِهِ كلُّ هذا الخَيْرِ، فمَا عامَلَ الحقَّ ـ سبحانه ـ أحدٌ بصدْقٍ فخابَ.

❁ قالَ الإمامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقِيلَ(٣): أَتَىٰ رَجُلٌ صَدِيقًا، وَدَقَّ عَلَيْهِ البَابَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: لِمَاذَا جِئْتَنِي؟ فَقَالَ: لِأَرْبَعِمَائَةِ دِرْهَمٍ دَيْنًا رَكِبَتْنِي، فَدَخَلَ الدَّارَ وَوَزَنَ أَرْبَعِمَائَةِ دِرْهَمٍ وَأَخْرَجَهَا إِلَيْهِ، وَدَخَلَ الدَّارَ بَاكِيًا، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: هَلَّا تَعَلَّلْتَ حِينَ شَقَّ عَلَيْكَ الإِجَابَةُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا أَبْكِي؛ لِأَنِّي لَمْ أَتَفَقَّدْ حَالَهُ حَتَّىٰ احْتَاجَ إِلَىٰ مُفَاتَحَتِي بِهِ(٤)».

---

(١) أي: في أول هذا الباب.

(٢) أي: ليصير حرًّا فيملك.

(٣) ورد في: المستطرف ٣٤٦/١، وسراج الملوك ص٩٣.

(٤) أي: بحاله.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كمالِ الكرمِ والخجلِ منَ المتكرِّمِ عليهِ والألمِ منْ تقصيرِهِ في حقِّهِ؛ وذلكَ أنَّ هذا الَّذِي أتاهُ أخٌ فقيرٌ، وهوَ يعرفُ حالَهُ، وصاحبُ المنزلِ غنيٌّ، فاشتغلَ عنْ أخيهِ، ولمْ يتفقَّدْهُ بشيءٍ مِنْ مالِهِ حتَّىٰ ادَّانَ في ضرورتِهِ، وكمُلَتْ عليهِ أربعمائةُ درهمٍ، فخشِيَ منَ الغُرماءِ، واحتاجَ أنْ يفاتِحَ أخاهُ بما عليهِ، فأتاهُ ودقَّ عليهِ البابَ، فخرجَ إليهِ فسلَّمَ عليهِ وقالَ: «**ما جاءَ بكَ؟ قالَ: أربعمائةُ درهمٍ ركبتْنِي دَيْنًا، فدخلَ إلىٰ منزلِهِ، ووزنَ مِنْ مالِهِ أربعمائةَ درهمٍ أوْ عدَّهَا وأخرَجَهَا إليهِ، ثمَّ دخلَ بيتَهُ وهوَ يبكِي**»، فلمَّا أنْ رأَتْ زوجتُهُ بكاءَهُ ظنَّتْ أنَّ بكاءَهُ علىٰ كثرةِ الدراهِمِ الَّتِي أخرجَهَا وهيَ أربعمائةُ درهمٍ، فقالَتْ لهُ: هلَّا اعتذرْتَ لهُ، وكنتَ تمسكُ دراهمَكَ ولَا تدفعُهَا إليهِ، فقالَ لهَا: ما هذَا الَّذِي أبكانِي، وإنَّمَا أبكانِي كَونِي لمْ أتفقَّدْ أخِي حتَّىٰ ركبَهُ هذَا الدَّينُ كلُّهُ، فاحتاجَ إلىٰ أنْ يشافهَنِي بهِ، ويسألَنِي إيَّاهُ، فبكائِي علىٰ تقصيرِي في حَقِّهِ.

فهذَا غايةُ الكرَمِ والجُودِ، دَفَعَ الكثيرَ، وتألَّمَ مِنَ التَّقْصِيرِ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ مُطَرِّفِ بْنِ الشِّخِّيرِ**[(٢)]: **إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ مِنِّي حَاجَةً فَلْيَرْفَعْهَا فِي رُقْعَةٍ؛ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرَىٰ فِي وَجْهِهِ ذُلَّ الحَاجَةِ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٢/١٩٠أ]: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ غايةٌ في كرمِ النَّفسِ والاستحياءِ منَ السَّائلِ وقتَ سُؤَالِهِ، فطلبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ إخوانِهِ أنَّهُ متَىٰ وقعَتْ لأحدِهِمْ حاجةٌ عندَهُ فلا يباشرْهُ بطلبِهَا، فإنَّهُ يكرهُ مِنْ أحدِهِمْ ما يكونُ علىٰ وجهِ السَّائلِ وقتَ سُؤالِهِ منَ الانكسارِ، وعبَّرَ عنْ هذهِ الحالةِ بالذِّلَّةِ، وكرهَتْ نفسُهُ وتألَّمَتْ مِنْ رؤيةِ أحدٍ يسألُهُ في حاجةٍ، فإذَا كتبَهَا لهُ في رقعةٍ قضاهَا وسلِمَ في

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٧.

(٢) ورد قوله في: شعب الإيمان ٣/٢٧٦، وسراج الملوك ص٩٣.

نفسِهِ منَ الألمِ، وسلِمَ الآخرُ منَ الانكسارِ والحِشْمَةِ في الطَّلَبِ، وهذا لَوْ أَمْكَنَهُ أَنْ يطَّلِعَ علىٰ حَوَائِجِ أصحابِهِ بِوجْهٍ منَ الوجُوهِ لقَضَاهَا قبلَ أنْ يَسْأَلُوهُ، ولَمْ يُحْوِجْهُمْ إلىٰ كَتْبِ رُقْعَةٍ(١).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): «وَقِيلَ(٣): أَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يُضَارَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ، فَأَتَىٰ وُجُوهَ البَلَدِ(٤) وَقَالَ: يَقُولُ لَكُمُ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَغَدَّوا عِنْدِي اليَوْمَ، فَأَتَوْهُ فَمَلَأُوا الدَّارَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَأُخْبِرَ الخَبَرَ، فَأَمَرَ بِشِرَاءِ الفَوَاكِهِ فِي الوَقْتِ وَأَمَرَ بِالخُبْزِ وَالطَّبِيخِ وَأَصْلَحَ أَمْرًا، فَلَمَّا فَرَغُوا قَالَ لِوُكَلَائِهِ: أَمَوْجُودٌ لَنَا كُلَّ يَوْمٍ هَذَا؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَلْيَتَغَدَّ هَؤُلَاءِ عِنْدَنَا كُلَّ يَوْمٍ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ ـ واللهُ أعلَمُ ـ علَىٰ أنَّهُ فعلَ ذلكَ حسَدًا؛ لمَّا شاعَ كرمُ ابنِ عبَّاسٍ وسخاؤُهُ، فأرادَ أنْ يعجزَهُ وتزُولَ عنهُ هذهِ السِّمةُ الرَّفيعةُ، فمضَىٰ في غفلةٍ منهُ إلىٰ أعيانِ بلدِهِ، وقالَ لهُمْ: «**إنَّ ابنَ عبَّاسٍ يدعوكُمْ للغذاءِ عندَهُ اليومَ**»، ومشَىٰ علىٰ النَّاسِ، وما تركَ ممكنًا، فلَمْ يشعرِ ابنُ عبَّاسٍ حتَّىٰ أتاهُ النَّاسُ مِنْ كلِّ وجهٍ، وملأُوا عليهِ منزلَهُ والحجرةَ، فسألَ مَنْ يثقُ بهِ عنْ ذلكَ فأخبَرَهُ بالقضيَّةِ، وأنَّهُمْ دُعُوا إلىٰ الغذاءِ علىٰ لِسَانِ فلانٍ، فلمَّا فهِمَ القضيَّةَ دعَا وكلاءَهُ وأمرَهُمْ أنْ يحضِرُوا فواكهَ السُّوقِ الياسرةَ(٥)، وأمرَ عبيدَهُ وخدمَهُ بالطَّبخِ والخبزِ، وهيَّأَ لهُمُ الطَّعامَ، فمَا فرغَ النَّاسُ منَ الفاكهةِ حتَّىٰ تهيَّأَ الطَّعامُ فقدَّمهُ إليهِمْ، فلمَّا أكلُوا وقرُبَ انصرافُهُمْ سألَ وكلاءَهُ: هَلْ يتأتَّىٰ في دخلِنَا كلَّ يومٍ مثلُ ما أنفقَ اليومَ؟

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧١٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٧.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٧٢، وتاريخ دمشق ٣٧/٤٨٢.

(٤) أي: أعيانه.

(٥) أي: المتاحة في ذلك الوقت.

قالُوا لهُ: نعَمْ، فقالَ: «**مُرُوا هؤلاءِ فليتغدُّوا عندَنَا كلَّ يومٍ**»، فقابلَ الحاسدَ بنقيضِ قَصْدِهِ، فأرادَ أنْ ينقصَ درجتهُ، فرفعَهَا اللهُ[(١)].

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ [٢/١٩٠ب] **يَقُولُ**[(٣)]: **كَانَ الأُسْتَاذُ أَبُو سَهْلٍ الصُّعْلُوكِيُّ يَتَوَضَّأُ يَوْمًا فِي صَحْنِ دَارِهِ، فَدَخَلَ إِنْسَانٌ وَسَأَلَهُ شَيْئًا، فَلَمْ يَحْضُرْهُ شَيْءٌ، فَقَالَ: اِصْبِرْ حَتَّى أَفْرُغَ، فَصَبَرَ، فَلَمَّا فَرَغَ، وَقَالَ: خُذِ القُمْقُمَةَ**[(٤)] **وَاخْرُجْ، ثُمَّ صَبَرَ حَتَّى عَلِمَ أَنَّهُ بَعُدَ فَصَاحَ وَقَالَ: دَخَلَ إِنْسَانٌ وَأَخَذَ القُمْقُمَةَ! فَمَشَوا خَلْفَهُ وَلَمْ يُدْرِكُوهُ.**

وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ أَهْلَ المَنْزِلِ كَانُوا يَلُومُونَهُ عَلَى البَذْلِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ في الكرَمِ وسترِ المتكرَّمِ عليهِ، والدَّليلُ علَى رفعتِهِ في الكرمِ: أنَّهُ لمَّا لمْ يجِدْ سوَى قمقمتِهِ الَّتِي يتطهَّرُ فيهَا وهوَ محتاجٌ إليهَا أذِنَ لهُ في أخذِهَا، ثمَّ أمرَهُ بالخروجِ، فلمَّا خرجَ الَّذِي أخذَهَا وبعُدَ وأيِسَ أنْ يلحقَهُ أحدٌ، صاحَ وقالَ: «**دخلَ رجلٌ وأخذَ القُمقَمَةَ**»، معنَاهُ: أنَّهَا سُرِقَتْ، وعرَّضَ بهَذَا القولِ ليظنُّوا أنَّهَا أُخِذَتْ سرقةً، وهوَ إنَّمَا أخذَهَا رجلٌ علَى التَّحقيقِ ولكنْ بإذْنِهِ، ولو غلبَ علَى ظنِّهِ أوْ خشِيَ أنَّهُمْ يدركونَهُ لمَا قالَ هذَا القولَ؛ لأنَّهُ كانَ يتضرَّرُ بنسبتِهِ إلَى السَّرقةِ.

وكانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُلامُ علَى كثرةِ بَذْلِهِ، فلذلكَ أظهرَ لهُمْ وأوهمَهُمْ أنَّهَا إنَّمَا أُخذَتْ خِلْسَةً.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧١٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٧.

(٣) ورد قوله في: سراج الملوك ص٩٣.

(٤) هي: وعاء من نحاس له عروتان. انظر: المصباح المنير ٢/٥١٧.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ(٢): وُهِبَ الأُسْتَاذُ أَبُو سَهْلٍ جُبَّتَهُ مِنْ إِنْسَانٍ فِي الشِّتَاءِ، وَكَانَ يَلْبَسُ جُبَّةَ النِّسَاءِ حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَىٰ التَّدْرِيسِ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ جُبَّةٌ أُخْرَىٰ، فَقَدِمَ الوَفْدُ المَعْرُوفُونَ مِنْ فَارِسٍ، فِيْهِمْ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ إِمَامٌ؛ مِنَ الفُقَهَاءِ وَالمُتَكَلِّمِينَ وَالنَّحْوِيِّينَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ صَاحِبُ الْجَيْشِ أَبُو الحَسَنِ وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَرْكَبَ لِلاستِقبَالِ، فَلَبِسَ دُرَّاعَةً(٣) فَوْقَ تِلْكَ الجُبَّةِ الَّتِي لِلنِّسَاءِ وَرَكِبَ، فَقَالَ صَاحِبُ الجَيْشِ: إِنَّهُ يَسْتَخِفُّ بِي، إِمَامُ البَلَدِ يَرْكَبُ فِي جُبَّةِ النِّسْوَانِ!، ثُمَّ إِنَّهُ نَاظَرَهُمْ أَجْمَعِينَ، فَظَهَرَ كَلَامُهُ عَلَىٰ كَلَامِ جَمِيعِهِم فِي كُلِّ فَنٍّ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والَّذي يتعلَّقُ بالحكايةِ مِنْ بابِ الكرمِ والسَّخاءِ أَنَّهُ يسخَىٰ بجبَّتِهِ الَّتي هوَ محتاجٌ إليهَا فِي الشِّتاءِ، وهانَ عليهِ أَنْ يلبسَ جبَّةَ النِّساءِ الَّتي تُزْرِي بقدرِهِ، ولَا سيَّمَا خُرُوجُهُ وهيَ عليهِ للقاءِ العلماءِ وأربابِ الحرمِ والمناصبِ مِنْ كلِّ قطرٍ، حتَّىٰ قالَ والِي بلدِهِ: «**استخفَّ بأمري**» ولمْ يجعلْ لنفسِهِ حرمةً يلقَىٰ بهَا مَنْ أقبلَ علينَا منَ العلماءِ [٢/١٩١أ]، فلمَّا ناظرَهُمْ في كلِّ فنٍّ وارتفعَ عليهِمْ فيهِ تبيَّنَتْ حُرْمتُهُ أنَّهَا دينيةٌ لا دنيويَّةٌ، ودرجتُهُ أنَّهَا علميَّةٌ وقلبيَّةٌ لا قَالَبِيَّةٌ(٤).

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٥): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ(٦): لَمْ يُنَاوِلِ الأُسْتَاذُ أَبُو سَهْلٍ شَيْئًا بِيَدِهِ، وَكَانَ يَطْرَحُهُ عَلَىٰ الأَرْضِ لِيَأْخُذَهُ الآخِذُ مِنَ الأَرْضِ، وَكَانَ يَقُولُ:

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٧.

(٢) ورد قوله في: تبيين كذب المفتري ص١٨٦، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/١٧٠، والفلاكة والمفلوكون ص١٠٥.

(٣) في المعجم الوسيط ١/٢٨٠: «الدراعة: ثوب من صوف، وجبة مشقوقة المقدم».

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧١٩.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٧.

(٦) ورد قوله في: شرح القشيري لأسماء الله الحسنىٰ ص١٦٢.

الدُّنْيَا أَقَلُّ خطرًا مِنْ أَنْ أَرَىٰ لِأَجْلِهَا يَدِي فَوْقَ يَدِ أَحَدٍ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: **اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَىٰ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ تدلُّ علىٰ فضيلةِ الإمامِ أبي سهلٍ الصُّعلوكيِّ وكمالِ زُهدِهِ في الدُّنيَا، وقلَّةِ قدرِهَا في عينِهِ؛ مالًا وجاهًا، حتَّىٰ كانَ إذا أرادَ أنْ يناولَ أحدًا شيئًا علىٰ وجْهِ الصِّلةِ أوِ الصَّدقةِ طرَحَهُ بالأرضِ، ويأمرُهُ أنْ يأخذَهُ منهَا حتَّىٰ لا يكونَ يدُ الآخذِ سُفْلَىٰ، فإنَّهُ صحَّ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولُهُ: «**اليَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَىٰ**»، ثُمَّ بيَّنَ في الخبرِ أنَّ السُّفلَىٰ هيَ الآخذةُ، والعُليَا هيَ المُنْفِقَةُ، فلَمْ يرَ لنفسِهِ قدرًا فِي كونِهِ مُنْفِقًا؛ وذلكَ لحقارةِ الدُّنيَا في عينِهِ، ولمْ يهُنْ عليهِ أنْ تكونَ يدُهُ فوقَ يدِ مَنْ يتصدَّقُ عليهِ حِسًّا، فَلَمَّا قلَّ قَدْرُ الدُّنيَا في عينِهِ لم يرَ لنفسِهِ فِي الإنفاقِ فضلًا، ولمْ يهُنْ عليهِ أنْ تكونَ يَدُ غيرِهِ تحتَ يدِهِ سُفْلَىٰ حِسًّا[(٢)].

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقِيلَ**[(٤)]: **كَانَ أَبُو مَرْثَدٍ** رَحِمَهُ اللهُ **أَحَدَ الكِرَامِ، فَمَدَحَهُ بَعضُ الشُّعَرَاءِ، فَقَالَ: مَا عِنْدِي مَا أُعْطِيكَ، وَلَكِنْ قَدِّمْنِي إِلَىٰ القَاضِي وَادَّعِ عَلَيَّ بِعَشْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ حَتَّىٰ أُقِرَّ لَكَ بِهَا، ثُمَّ احْبِسْنِي، فَإِنَّ أَهْلِي لَا يَتْرُكُونِي مَسْجُونًا**[(٥)]**، فَفَعَلَ ذَلِكَ فَلَمْ يُمْسِ حَتَّىٰ دُفِعَ إِلَيهِ عَشْرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ وَخَرَجَ مِنَ السِّجْنِ**».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥١٨/٢ ـ حديث رقم (١٣٦١)، ومسلم في صحيحه ٧١٧/٢ ـ حديث رقم (١٠٣٣).

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧١٩/٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٤٠٧/٢.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٧٦.

(٥) في (ف): محبوسًا.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ غايةِ كرمِهِ، فإنَّ المنقولَ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ كانَ لا يَرُدُّ سَائِلًا فيعطيهِ مَا عندَهُ، وربَّمَا أتاهُ سائلٌ فلمْ يكنْ عندَهُ شيءٌ فيقترضَ لهُ، ويكونَ ذلكَ قرضًا عندَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ يقضيَهُ في وقتٍ آخرَ؛ حتَّىٰ إنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ لِلنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «لَمْ يكلِّفْكَ اللهُ شيئًا مِنْ هذَا»، فلَمْ يُعجبِ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلامُ عمرَ، فقالَ لهُ رجلٌ منَ الأنصارِ[(٢)]: «أنفِقْ يا رسولَ اللهِ ولا تخْشَ منْ ذي العرشِ إقلالًا»، فسُرَّ بذلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأبُو مرثدٍ هذَا لمَّا مدحَهُ هذَا [١٩١/٢ب] الشَّاعرُ وكانَ منَ الكرماءِ، ولمْ يكنْ عندَهُ ما يكافِئُهُ بهِ علَىٰ مدحتِهِ، وخشِيَ أنْ يلحقَهُ النَّقيصةُ في كونِهِ لمْ يُجزْ مادحَهُ، فعرَّفَهُ أنَّهُ لا مالَ عندَهُ، ولكنْ لكَ عليَّ عشرةُ آلافِ دِرْهمٍ ألتزمُهَا لكَ، فاطلُبْنِي بها متَىٰ شئْتَ.

فهذَا موضعُ كرمِهِ والتزامِهِ لهُ هذَا المال الكثيرَ حفظًا لمروءتِهِ وحرمتِهِ، ثمَّ دلَّهُ علىٰ الطَّريقِ الَّتي بهَا يسرعُ وصولُهَا إليهِ، فقالَ لهُ: «**احمِلْني للحاكمِ وادَّعِ بهَا عليَّ وأُحبسُ لكَ فيهَا، فإنَّ أهلِي لا يهونُ عليهِمْ أنْ يرونِي محبوسًا**» فيأتونِي بهَا، فأدفعُهَا إليكَ، ففعلَ ذلكَ بهِ وتخلَّصَ مِنْ سجنِهِ بقيَّةَ يومِهِ.

وموضعُ كرمِهِ: التزامُهُ لهذَا المالِ العظيمِ مكافأةً للشَّاعرِ علىٰ مدحتِهِ، كمَا جرَتْ بهِ عادةُ العربِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَقِيلَ[(٤)]: سَأَلَ رَجُلٌ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي**

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في: أخلاق النبي وآدابه ص٣٠٤، والترمذي في نوادر الأصول ٧٥/٢، والسيوطي في الشمائل المحمدية ص٢٩٤.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ص١١٨.

(٣) الرسالة القشيرية ٤٠٧/٢ ـ ٤٠٨.

(٤) ورد قوله في: سراج الملوك ص٩٣، والإرشاد والتطريز ص٧٧.

طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا شَيْئًا، فَأَعْطَاهُ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَخَمْسِمَائَةَ دِينَارٍ، وَقَالَ: ائْتِ بِحَمَّالٍ يَحْمِلُ المَالَ، فَأَتَىٰ بِحَمَّالٍ، فَأَعْطَاهُ طَيْلَسَانَهُ وَقَالَ: يَكُونُ كِرَاءُ الحَمَّالِ مِنْ قِبَلِي».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الحسنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دفعَ لهذا السَّائلِ جميعَ ما كانَ يملكُهُ ويحضرُهُ منَ الذَّهبِ والفضَّةِ، ويدلُّ عليهِ أنَّهُ دفعَ طيلسانَهُ إلىٰ الحمَّالِ في أجرةِ الحملِ، فلَو كانَ عندَهُ منَ الدَّراهمِ ما يُعطيهِ في أجرةِ الحملِ لَمْ يعطِهِ طيلسانَهُ[1].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«وَسَأَلَتِ امْرَأَةٌ اللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ سُكُرُّجَةَ عَسَلٍ فَأَمَرَ لَهَا بِزِقٍّ مِنْ عَسَلٍ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّهَا سَأَلَتْ عَلَىٰ قَدْرِ حَاجَتِهَا، وَنَحْنُ نُعْطِي عَلَىٰ قَدْرِ نِعَمِنَا»**[3].

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا التَّخلُّقُ بخُلقِ اللهِ ـ سبحانه ـ، وهوَ أكرمُ الأكرمينَ، فإنَّهُ يعطِي للحسنةِ إذَا همَّ بهَا العبدُ أجْرًا، فإنْ عمِلَهَا أعطاهُ عشرةَ أمثالِهَا إلىٰ سبعمائةِ ضِعْفٍ، واللهُ يُضاعِفُ لمَنْ يشاءُ، واللَّيثُ بنُ سعدٍ كانَ منَ العلماءِ والكرمَاءِ، أَتَتْهُ امرأةٌ فقيرةٌ بزبديَّةٍ تسألُهُ عسَلًا دعتْهَا حاجتُهَا إليهِ، فقالَ: **«يا غلامُ، أعطِهَا زِقًّا مِنْ عَسَلٍ»**؛ وهوَ الظَّرفُ، فقيلَ لهُ: طلبَتْ شيئًا قليلًا، فأعطيتَهَا هذَا كلَّهُ، فقالَ: **«طلبَتْ علىٰ قَدرِ حاجتِهَا وهمَّتِهَا فأعطيناهَا علىٰ قدرِ نعمةِ اللهِ علينَا وسعَتِنَا»**.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: **«وَقَالَ بَعْضُهُمْ[5]: صَلَّيْتُ فِي مَسْجِدِ الأَشْعَثِ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٢٠. والطيلسان: فارسي معرب، لباس من لباس العجم. انظر: المصباح المنير ٢/٣٧٥.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٨.

(٣) ورد هذا الخبر في: تاريخ بغداد ١٣/٨، وحلية الأولياء ٧/٣٢٠، وتاريخ دمشق ٥٠/٣٧٠.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٨.

(٥) ورد قوله في: تاريخ واسط ص١٤٤، وتهذيب الأسرار ص٢٨١، وإحياء علوم الدين ٣/٢٥٠.

بِالكُوفَةِ الصُّبْحَ أَطْلُبُ غَرِيمًا لِي، فَلَمَّا [٢/١٩٢أ] سَلَّمْتُ وُضِعَ بَيْنَ يَدَي كُلِّ وَاحِدٍ حُلَّةٌ وَنَعْلانِ[١]، وَكَذَلِكَ وُضِعَ بَيْنَ يَدَيَّ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: إِنَّ الأَشْعَثَ قَدِمَ مِنْ مَكَّةَ فَهَذَا لِأَهْلِ[٢] جَمَاعَةِ مَسْجِدِهِ، فَقُلْتُ: إِنَّمَا جِئْتُ أَطْلُبُ غَرِيمًا لِي وَلَسْتُ مِمَّنْ يأتيه، فَقَالُوا: هُوَ لِكُلِّ مَنْ حَضَرَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا شأنُ الكُرَماءِ إذَا كانَ الشَّيءُ يدفعُ علىٰ وجهِ المعروفِ يعمُّ بهِ كلَّ حاضرٍ، فلمَّا صلَّىٰ هذَا في هذا المسجدِ المنسوبِ للأشعثِ، فلمَّا فرغَ مِنْ صلاتِهِ وإذا بينَ يدَيهِ «حلةٌ ونعلَانِ»، والحلَّةُ: اسمٌ لثوبَينِ يؤتزرُ بأحدِهِمَا ويُرْتَدَىٰ بالثَّاني، وكذلكَ وضعَ بينَ يدَي كلِّ مَنْ فِي المسجدِ، فقلتُ: ما هذَا؟ فقالُوا: «**قدِمَ الأشعثُ مِن مكَّةَ فأمرَ بأنْ يدفعَ لكلِّ واحدٍ مِنْ أهلِ مسجدِهِ حلَّةً ونعلَينِ، قالَ: فقلتُ: مَا أنَا مِنْ أهلِ المسجدِ، وأنَا أتيتُ لحاجةٍ أطلبُهَا، فقيلَ لِي: أنتَ الآنَ مِنْ أهلِ المسجدِ**»، وهذَا يدلُّ علىٰ كرمِ الأشعثِ؛ لكونِهِ أمرَ أنْ يدفعَ لكلِّ مَنْ في المسجدِ مِن غيرِ أنْ يَعُدَّهُمْ ولا يحصُرَهُمْ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ[٤]: لَمَّا قَرُبَتْ وَفَاةُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: مُرُوا فُلَانًا يُغَسِّلْنِي، وَكَانَ الرَّجُلُ غَائِبًا، فَلَمَّا قَدِمَ أُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَدَعَا بِتَذْكِرَتِهِ، فَوَجَدَ عَلَيْهِ سَبْعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ دَيْنًا، فَقَضَاهَا، وَقَالَ: هَذَا غُسْلِي إِيَّاهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كرمِ هذا الرَّجلِ وسرعةِ تيقُّظِهِ، وذلكَ أنَّ الشَّافعيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منَ الأئمَّةِ، ولا يتركُ مَنْ يغسِّلُهُ إلَّا مَنْ يكونُ معروفًا بالفضلِ

---

(١) في (أ): ونعلين، والأصح المثبت.

(٢) في (أ): لأجل، والصواب المثبت.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٨.

(٤) ورد قوله في: المستجاد من فعلات الأجواد ص٩٨، وإحياء علوم الدين ٣/٢٥١، وسراج الملوك ص٩٦.

والدِّينِ، يعنِي غسلَ الميِّتِ، ولمَّا عدلَ عنْ ذلكَ ومالَ إلىٰ أهلِ الكرمِ والفضلِ المتَّسعِينَ في الدُّنيَا والَّذِي أمرَ أنْ يغسِّلَهُ منهُمْ، فلمَّا بلغتْهُ الوصيَّةُ تثبَّتَ في نفسِهِ وظهرَ لهُ أنَّ مرادَ الشَّافعيِّ طهارتُهُ منَ المطالبةِ بدَينِهِ، وأنَّهُ أهلٌ لذلكَ، واختارَهُ لهُ، فنظرَ في دفترِهِ فإذَا عليهِ سبعونَ ألفَ درهمٍ فقضاهَا عنهُ(١).

وهذَا غايةُ الكرمِ وإدخالِ المسرَّةِ علىٰ قلوبِ أهلِ الخيرِ، وهوانِ الدُّنيا علىٰ القلبِ، حتَّىٰ قامَ عنهُ بهذَا المالِ العظيمِ.

ويدلُّ أيضًا علىٰ فِراسةِ الشَّافعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصحَّةِ اختيارِهِ لهذا الشَّخصِ دونَ غيرِهِ، وأنَّهُ ممَّنْ يقومُ بهذا الأمرِ العظيمِ للهِ ـ رضيَ اللهُ عنهُمْ أجمعِينَ ـ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَقِيلَ**(٣): **لَمَّا قَدِمَ الشَّافِعِيُّ مِنْ (صَنْعَاءَ) إِلَىٰ (مَكَّةَ) كَانَ مَعَهُ عَشْرَةُ آلافِ دِينَارٍ، فَقِيلَ لَهُ: تَشْتَرِي بِهَا قُنْيَةً**(٤)، **فَضَرَبَ خَيْمَتَهُ خَارِجَ (مَكَّةَ) وَصَبَّ الدَّنَانِيرَ [علىٰ ثَوْبٍ]**(٥)، **فَكُلُّ مَنْ دَخَلَ عَلَيهِ كَانَ** [١٩٢/٢ب] **يُعْطِيهِ قَبْضَةً قَبْضَةً، فَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ قَامَ وَنَفَضَ الثَّوْبَ وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الشَّافعيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ فعلَ ما أُمِرَ بهِ واشترَىٰ بها قُنْيَةً(٦)؛ لأنَّ [مِـ]ـرْبَاعَ القُنْيَةِ عبارةٌ عمَّا يقتنَىٰ ليُنْتَفَعَ بهِ لا ليُبَاعَ فيهِ ويُشتَرَىٰ؛ مِنَ العقارِ والثِّيابِ والخدمِ والحُلِيِّ وغيرِ ذلكَ، وشتَّانَ بينَ قصورِ الجنَّةِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٢١/٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٤٠٨/٢.

(٣) ورد في: المستجاد من فعلات الأجواد ص٩٨، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢٢٠/٢، وحلية الأولياء ١٣٠/٩، وإحياء علوم الدين ٢٥١/٣.

(٤) في (ف): قرية.

(٥) زيادة من (ف).

(٦) أي: شيئا تقتنيه لأجل الانتفاع به من نحو بستان أو عقار أو نحوه. انظر: نتائج الأفكار ٣٥٨/٣.

والدُّنيَا، وكذلِكَ خدمُهَا وحورُ عينِهَا ونباتُهَا وأشجارُهَا وأنهارُهَا، وجميعُ ما وصفَهَا اللهُ - تعالىٰ - في كتابِهِ؛ ترغيبًا لخلقِهِ فيهَا.

ويدُلُّ أيضًا مِنْ فِعْلِ الشَّافعيِّ علىٰ زُهدِهِ في الدُّنيَا؛ جاهِهَا ومالِهَا، فإنَّهُ دفعهَا لكلِّ مَنْ سلَّمَ عليهِ قبضةً قبضةً[1].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «وَقِيلَ: خَرَجَ السَّرِيُّ يَوْمَ عِيدٍ، فَاسْتَقْبَلَهُ رَجُلٌ كَبِيرُ الشَّأْنِ فَسَلَّمَ السَّرِيُّ عَلَيهِ سَلامًا نَاقِصًا، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا رَجُلٌ كَبِيرُ الشَّأْنِ، فَقَالَ: قَدْ عَرَفْتُهُ، وَلَكِنْ رُوِيَ مُسْنَدًا[3]: أَنَّهُ إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ قُسِمَتْ بَيْنَهُمَا مِائَةُ رَحْمَةٍ، تِسْعُونَ لِأَبَشِّهِمَا[4]، فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ الأَكْثَرُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إيثارٌ بمَا يعظمُ نفعُهُ، وأينَ منفعةُ الدُّنيَا مِنْ منفعةِ الآخرةِ؟!

وفيهِ نظرٌ فإنَّ النَّاسَ اختلفُوا فِي الإيثارِ بالطَّاعاتِ: هلْ يصحُّ أوْ لا يصحُّ؟ فإنَّ اللهَ - سبحانه - أمرَ فيهَا بالمسارعةِ والمسابقةِ، فقالَ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، و﴿سَابِقُوٓاْ﴾ [الحديد: ٢١]، ومدحَ مَنْ يسارعُ فقالَ: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ولكنَّ موضعَ النَّظرِ هلْ آثرَهُ هنا بطاعةٍ أوْ لمْ يؤثِرْهُ بطاعةٍ، فإنَّ كثرةَ الأجرِ وقلَّتَهُ راجعٌ إلىٰ فضلِ اللهِ - تعالىٰ -.

والَّذي فعلَهُ هذَا قبضَ نفسَهُ عنِ البِشْرِ لصاحبِهِ حتَّىٰ يكونَ هوَ الَّذي يصنعُهُ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٢١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٨.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ٧/٣٤٢، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥/٤٤٠.

(٤) قال المنذري: «لأبشهما، أي: لأكثرهما بشاشة، وهي طلاقة الوجه مع الفرح والتبسم وحسن الإقبال واللطف في المسألة» الترغيب والترهيب ٣/٢٩١.

فهلْ إمساكُهُ عنِ البِشْرِ لصاحبِهِ يلزمُ أنْ يستبشرَ صاحبُهُ، فإنْ حُمِلَتِ الواقعةُ على أنَّهُ ظهرَ لهُ منهُ البِشْرُ فقصَّرَ هوَ ليكونَ لهُ الأجرُ معَ إمكانِ أنْ يبشِّرَ السَّرِيُّ بهِ أعظمَ ممَّا ظهرَ منهُ منَ البِشْرِ، فعلَى هذَا يكونُ أثرُهُ والبِشْرُ طاعةً؛ لأنَّ الخبَرَ إنَّمَا رتَّبَ كثرةَ الأجرِ على كثرةِ البِشْرِ لكونِهِ طاعةً محبوبةً للهِ - تعالى - رغَّبَ فيهَا عبادَهُ؛ ليعظمَ أجرهُمْ عندَهُ، وقدْ روِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا طُعِنَ أرسلَ ولدَهُ عبدَ اللهِ لعائشةَ أمِّ المؤمنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأمرَهُ أنْ يسلِّمَ عليهَا ويقولَ لهَا: عمرُ - ولا يَقُلْ: أميرُ المؤمنِينَ [٢/١٩٣أ]، فإنِّي اليومَ لستُ بأميرِ المؤمنِينَ - يستأذنُكِ فِي أنْ يُدفَنَ مَعَ صاحِبَيْهِ [فَإِنْ أَذِنَتْ](١)، وإلَّا فادفنِّي في مقابرِ المسلمِينَ، فقالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما تركتُهُ إلَّا لنفسِي ولأوثرنَّهُ اليومَ على نفسِي»(٢)، وإنَّمَا آثرتْهُ بقُربِهَا منَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَدْفنِهِ، ويحتملُ أنْ تكونَ آثرتْهُ بالموضعِ؛ لأنَّهُ بيتُهَا وهوَ حقُّهَا، والأوَّلُ أظهرُ، فهذَا إيثارٌ بالطَّاعةِ؛ لأنَّ قُرْبَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحسِّ والمعنَى مِنْ جُملةِ الطَّاعاتِ(٣)، فإنَّهُ يدلُّ على كمالِ المحبَّةِ والاتِّباعِ مطلقًا.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «وَقِيلَ(٥): بَكَى أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: لَمْ يَأْتِنِي ضَيْفٌ مُنْذُ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، أَخَافُ أَنْ يَكُونَ اللهُ - تعالى - قَدْ أَهَانَنِي».

۞ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا معَ كمالِ زهدِهِ في الدُّنيَا وإنفاقِهِ جميعَ ما في بيتِ المالِ حتَّى كانَ يكنسُهُ ويصلِّي فيهِ ركعتَينِ ويقولُ: أردتُ أنْ تشهدَ لِي يومَ

---

(١) موضعها مطموس في (أ)، والتتمة من: الطبقات الكبرى ٣/٣٣٨.

(٢) أورده البخاري في صحيحه ٣/١٣٥٥ - حديث رقم (٣٤٩٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه ٧/٤٣٦.

(٣) انظر: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص٦٩، والقواعد لابن رجب الحنبلي ص٢٢٦، وفتح الباري ١١/٦٤.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٨.

(٥) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٣/٢٥٢، وأسنى المطالب في صلة الأقارب ص٦٨.

القيامةِ، ومَا نُقِلَ عنهُ مِنْ ضيقِهِ وقلَّةِ سعتِهِ وهوَ بالعراقِ معَ اتِّساعِ الأموالِ فِي أيدِي المسلمِينَ، حتَّىٰ رُؤِيَ يرعدُ تحتَ سَمَلٍ[(١)] قطيفةٍ، فقيلَ لهُ في ذلِكَ، فقالَ[(٢)]: «واللهِ ما أرزأكُمْ مِنْ مالِكُمْ شيئًا، وإنَّهَا لقطيفَتِي الَّتِي خرجْتُ بهَا منَ المَدِينةِ».

وأتاهُ بعضُ النَّاسِ ضيفًا، فأخرجَ قمطرةً مختومةً قالَ: فقلتُ في نفسِي: واللهِ إنَّ أميرَ المؤمنِينَ لَيَأْمَنُنِي، ولِي عندَهُ منزلةٌ حتَّىٰ يطلعَنِي علىٰ ذخائِرِهِ، ففتحهَا فإذَا فيهَا سويقٌ، فجعلَ منهُ فِي آنيةٍ وصبَّ عليهِ الماءَ وأكلَ وأطعمَنِي، وقالَ: إنَّهُ ليأتيِنِي منَ المدينةِ[(٣)].

ومعَ هذا كلِّهِ لمَّا تأخَّرَ عنهُ الضَّيفُ سبعةَ أيَّامٍ خشِيَ أنْ يكونَ ذلكَ نقصًا فِي درجتِهِ عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ولذلِكَ بكَىٰ كمَا بكَىٰ البكَّاؤُونَ الَّذينَ لمْ يجدُوا[(٤)] ما يحملُهُمُ النَّبيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ للجهادِ[(٥)]، فكانَ بكاؤُهُمْ لعدمِ ما يتوصَّلُونَ بهِ إلىٰ الخَيْراتِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٦)]: **«وَرُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَنَّهُ قَالَ[(٧)]: زَكَاةُ الدَّارِ أَنْ يُتَّخَذَ فِيهَا بَيْتٌ لِلضِّيَافَةِ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الزَّكاةُ: هيَ الزِّيادةُ والبركةُ والنُّموُّ، وإنَّمَا تنمُو البركاتُ والخيراتُ في الدَّارِ إذَا تكرَّرَ عليهَا الضُّيوفُ، وإنَّمَا ذكرَ البيتَ وأفردَهُ

---

(١) السَّمل: الخَلِق من الثياب.

(٢) ورد قوله في: الأموال ص٣٤٤، وحلية الأولياء ١/٨٢، وتاريخ دمشق ٤٢/٤٧٧.

(٣) ورد قوله في: الورع لابن أبي الدنيا ص٨٩، وحلية الأولياء ١/٨٢، وتاريخ دمشق ٤٢/٤٨٨، وصفة الصفوة ١/٣١٩.

(٤) في (أ): يجدون، والصواب المثبت.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب ١٦/١٢٩، والدر المنثور ٤/٢٦٣.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٩.

(٧) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٩٢.

للضِّيافةِ؛ لأنَّ أهلَ الدَّارِ لا بُدَّ أنْ يحتجبُوا عنِ الضُّيوفِ غالبًا، ويكونَ للضِّيافةِ موضعٌ خاصٌّ، وكذلِكَ كلُّ مائدةٍ إنَّمَا تكملُ بركتُهَا وخيرُهَا إذَا [٢/١٩٣ب] كانَ عليهَا يتيمٌ(١).

فمقصودُ هذهِ الحكايةِ: إخراجُ الطَّعامِ بسهولةٍ للمحتاجِ منْ ضيفٍ ويتيمٍ ومسكينٍ وغيرِهِ.

❁ قالَ الإمامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ ـ تعالى ـ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]، قِيلَ(٣): قِيَامُهُ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ. وَقِيلَ(٤): لِأَنَّ ضَيْفَ الكَرِيمِ كَرِيمٌ».

❁ قالَ الشَّارحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففِي الآيةِ ما يشيرُ إلىٰ قيامِهِ عليهِمْ بنفسِهِ ـ صلَّىٰ اللهُ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ وسلَّمَ ـ: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٥، ٢٦] فذهبَ بنفسِهِ وجاءَ بعجلٍ سمينٍ، فخدمَهُمْ بنفسِهِ، ولمْ يأمرْ بذلِكَ ولدًا ولَا خادمًا، وهذَا مِنْ إكرامِ الضَّيفِ، ولذلِكَ قيلَ: «ضيفُ الكريمِ كريمٌ».

❁ قالَ الإمامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الجُنَيْدِ(٦): كَانَ يُقَالُ: أَرْبَعٌ لَا يَنْبَغِي لِلشَّرِيفِ أَنْ يَأْنَفَ مِنْهُنَّ وَإِنْ كَانَ أَمِيرًا: قِيَامُهُ مِنْ مَجْلِسِهِ لِأَبِيهِ، وَخِدْمَتُهُ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٢٢.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٩.
(٣) انظر: قرىٰ الضيف ص١٨، والتفسير البسيط ٢٠/٤٤٨.
(٤) انظر: تفسير السلمي ٢/٢٧٥، وزاد المسير ٨/٣٥.
(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٩.
(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٩٣. وورد بلا نسبة في: البيان والتبيين ٢/٤٩، وجامع بيان العلم وفضله ص١٣٥.

لِضَيْفِهِ، وَخِدْمَتُهُ لِلعَالِمِ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُ، وَالسُّؤَالُ عَمَّا لَا يَعْلَمُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الشَّريفَ مِنْ شريفِ الهمَّةِ طالبٌ لمعالِي الأمورِ لا مَنْ كثُرَ مالُهُ وجاهُهُ خاصَّةً، فإذَا كانَ الشَّخصُ شريفًا وخدمَ والدَيهِ زادَهُ ذلكَ شرفًا عندَ اللهِ وعندَ مَنْ رآهُ.

وكذلِكَ إذَا كانَ عندَهُ ضيفٌ وقامَ عليهِ بنفسِهِ دلَّ ذلكَ على كمالِ شرفِهِ، وشدَّةِ رغبتِهِ في الخيرِ، وقدْ حُكِيَ(١) أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانَ عندَهُ رجلٌ، وكانَ يقضِي حوائجَهُ ويكتبُ لهُ ما يحتاجُ إليهِ، فتغيَّرَ السِّراجُ لقلَّةِ الزَّيتِ، فقامَ الضَّيفُ ليصلحَهُ، فقالَ لهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: ليسَ منَ المروءةِ استخدامُ الضَّيفِ، فقالَ لهُ: نوقِظُ الغلامَ؟ فقالَ: لَا، هيَ أوَّلُ نومةٍ نامهَا، فقامَ بنفسِهِ وأخذَ البطَّةَ وألقَى الدُّهنَ في السِّراجِ، وقالَ لهُ: فعلتَ هذا بنفسِكَ يَا أميرَ المؤمنينَ؟ قالَ لهُ: ومَا الَّذِي صنعتُ؟ قمتُ وأنَا عمرُ وجلستُ وأنَا عمرُ.

وأمَّا الخدمةُ للعلماءِ والصَّالحينَ فهوَ كمالٌ في درجةِ مَنْ يخدمُهُم، فإنَّ في خدمتِهِم الرَّحمةَ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: أنَّ العالمَ والعابدَ محبوبانِ للهِ ـ تعالى ـ، ومَنْ أحبَّ مَنْ أحبَّهُ اللهُ ازدادَ محبَّةً منَ اللهِ.

والوجهُ الثَّانِي: أنَّهُمْ إذَا عرَفُوا مَنْ يحبُّهُمْ ويكرمُهُمْ للهِ خصُّوهُ بفوائدِهِمْ ودعوَاتِهِمْ، فينالُونَ بذلكَ الفضْلَ عندَ ربِّهِمْ.

وأيضًا فإنَّهُم إذَا كانُوا معَ كمالِ شرفِهِمْ ورفعتِهِم في دنياهُمْ يخدمُونَ العلماءَ

---

(١) وردت حكايته في: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص٤٤، وحلية الأولياء ٥/٣٣٢، والبداية والنهاية ٩/٢٠٣.

[١٩٤/٢أ] والصَّالحينَ اقتدَىٰ بِهِمْ مَنْ دونَهُمْ مِنْ تُبَّاعِهِمْ ورعيَّتِهِمْ، فحصلَ لهُمْ أجرُ مَنِ اقتدَىٰ وتعلَّمَ منهُمْ.

وأمَّا سؤالُ العبدِ عمَّا لا يعلمُ فواجبٌ عليهِ إذَا تبيَّنَ عليهِ العملُ وفضيلةٌ ورفعةٌ ليعلمَ مَا لم يعلَمْ، فإنَّهُ إنْ عمِلَ بغيرِ علمٍ عصَىٰ ربَّهُ؛ لأنَّهُ لا يدرِي هَلْ عمل طاعةً أوْ معصيةً، فهذَا ضدُّ الشَّرفِ والرِّفعةِ عندَ اللهِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: **«وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **فِي قَوْلِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾** [النور: ٦١]: **كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَأْكُلَ أَحَدُهُمْ وَحْدَهُ، فَرُخِّصَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ»**[٢].

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي ذكرَهُ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدلُّ علىٰ كرمِهِمْ وحُسْنِ ما كانُوا عليهِ؛ مِنْ أنَّ الإنسانَ يتحرَّجُ ـ يعنِي: يتأثَّمُ ـ ويراهُ نقصًا أنْ يأكلَ وحدَهُ، فأنزلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ هذهِ الآيَةَ توسعةً لهُمْ ونفَىٰ عنهُمُ الحرجَ والجناحَ في أكلِهِمْ مجتمعِينَ ومتفرِّقينَ.

وقد حُكِيَ[٣] أنَّ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كانَ لا يأكلُ إلَّا معَ جماعةٍ، حتَّىٰ كانَ الفقراءُ يجلسونَ لهُ علىٰ طريقِ المسجدِ وقتَ انصرافِهِ إلىٰ العشاءِ فيقيمُهُمْ معَهُ ليتعشُّوا[٤]، وكانَ شيخًا كبيرًا، فربَّمَا أضرَّ ذلكَ بهِ لقلَّةِ ما يلحقُهُ منَ الطَّعامِ، فكُلِّمَتْ زوجتُهُ في حقِّهِ لمَا رُؤِيَ بهِ منَ الضَّعفِ لكِبَرِ سنِّهِ، فقيلَ لهَا: ألَا تلطفِي بهذَا الشَّيخِ تصنعين له طعامًا تخصينَهُ بهِ؟ قالَتْ: إنِّي لأفعلُ ذلكَ، ولكنَّهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٨/١٧٢، وتهذيب الأسرار ص٢٩٣، وتنوير المقباس ص٢٩٩.

(٣) وردت حكايته بإيجاز في: شعب الإيمان ٧/٣٧٣، وتاريخ دمشق ٣١/١٤٩، وصفة الصفوة ١/٥٧٤.

(٤) في (أ): ليتعشون، والصواب المثبت.

يأتِي بمَنْ يأكلُهُ معَهُ، قالَ: فصنعَتْ لهُ ذاتَ يومٍ طعامًا ونهتْهُمْ عنِ الجلوسِ وأنَّهُ إذا أرسلَ إليهِمْ لا يأتُونَهُ(١)، فخرجَ منَ المسجدِ علىٰ حسبِ عادتِهِ فلمْ يجدْ منهُمْ أحدًا، فلمَّا قُدِّمَ لهُ الطَّعامُ ولمْ يرَ أحدًا، فقالَ لخادمِهِ وأرسَلَهُ إلىٰ فلانٍ وفلانٍ، فلَمْ يأتِ أحدٌ منهُمْ، علِمَ أنَّهُمْ فعلُوا ذلكَ بهِ، فقالَ: أردْتُمْ ألَّا أتعشَّىٰ هذهِ اللَّيلةَ.

وهذَا مِنْ كمالِ الكرمِ والإيثارِ بمَا هوَ مُحْتَاجٌ إليهِ، والرَّغبةِ فيمَا حرَّضَ الشَّرعُ عليهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَقِيلَ**(٣): **أَضَافَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَامِرِ بْنِ كرِيزٍ رَجُلًا، فَأَحْسَنَ قِرَاهُ، فَلَمَّا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَرْتَحِلَ لَمْ يُعِنْهُ غِلْمَانُهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: إِنَّهُمْ لَا يُعِينُونَ مَنْ يَرْتَحِلُ عَنَّا**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا - وفَّقَكَ اللهُ - مِنْ كمالِ إكرامِ الضَّيفِ، وذلكَ أنَّ الضَّيفَ إذا قدمَ عليهِمْ بَادرُوا إليهِ بحُسْنِ القولِ والاستبشارِ وأنزلُوهُ، وأنزلَ عبيدُهُمْ ما معَهُ مِنَ الرَّحلِ [٢/١٩٤ب]، وربطُوا دوابَّهُ، وأصلحُوا شأنَهُ، وهذَا غايةٌ في الإكرامِ، فلمَّا أقامَ عندَهُمْ ما أقامَ وأرادَ الرَّحيلَ لمْ يساعدْهُ أحدٌ منْ عبيدِهِ، ولا أصلَحُوا لهُ دابَّةً، ولا أعانُوهُ علىٰ شيْلِ شيءٍ مِنْ متاعِهِ علىٰ دوابِّهِمْ، فاستنكرَ ذلكَ منهُمْ، ورآهُ مباينًا لمَا كانَ أوَّلًا وقتَ القدومِ، فسألَ صاحبَ المنزلِ عنْ ذلكَ، فقالَ: «**إنَّهُمْ لا يُعينونَ مَنِ ارتحلَ**»؛ لمحبَّتِهِمْ لدوامِ مقامِهِ عندَهُمْ، وكراهةِ رحيلِهِ عنهُمْ، وهذَا غايةٌ فِي الكرمِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «**وَأَنْشَدَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ بَاكَوَيْهِ الصُّوفِيُّ قَالَ:**

---

(١) في (أ): يأتوه، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٩.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٩٤.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٩.

أَنْشَدَنَا المُتَنَبِّي فِي مَعْنَاهُ[١]:

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا ❊ أَلَّا تُفَارِقَهُم فَالرَّاحِلُونَ هُمُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا البيتُ يعضِّدُ ما تقدَّمَ مِنَ الحكايةِ، وفيهِ تحريضٌ علىٰ أنَّ مِنَ الكرمِ أَلَّا تدعَ مَنْ نزلَ بكَ يرتحلُ عنكَ، وأنتَ متمكِّنٌ مِنْ بقائِهِ عندَكَ[٢].

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ[٤]: سَخَاءُ النَّفْسِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ أَفْضَلُ مِنْ سَخَاءِ النَّفْسِ بِالبَذْلِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلكَ صحيحٌ؛ فإنَّ الزُّهدَ فِي الدُّنيَا عبارةٌ عنِ استصغارِهَا بالقلبِ وقلَّةِ الرغبةِ فيهَا، وإذَا تمكَّنَ هذا المعنىٰ في القلبِ لمْ يأخذْهَا العبدُ مِنْ غيرِ وجهِهَا، وزهدَ في الحلالِ الصَّافِي منهَا، وهانَ عليهِ بذلُ ما عندَهُ منهَا؛ وهوَ السَّخاءُ، فصارَ السَّخاءُ علىٰ هذَا التَّقريرِ ثمرةً مِنْ ثمراتِ الزُّهدِ، فالزَّاهدُ لا أَرَبَ لهُ فيمَا في أيدِي النَّاسِ، ولا فيمَا يفتحُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ منْ فضْلِهِ منْ حلالِ الدُّنيَا ولا فيمَا هوَ عندَهُ منهَا؛ لقلَّةِ رغبتِهِ فيهَا، حتَّىٰ أفرطَ بعضُهُمْ ولمْ يرَ إخراجَهَا للجزاءِ؛ لقلَّةِ قدرِهَا عندَهُ وإنْ تصلحْ جزاءً لثوابِ ربِّهِ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ: الزُّهدُ أَلَّا تقولَ[٥]: «أَبْنِي رباطًا، ولا أعمُرُ مسجدًا»، خشِيَ علىٰ نفسِهِ أنَّهُ لمْ يكملْ زهدهُ فيهَا، وإنَّمَا هانَ عليهِ أنْ يخرجَ شيئًا بشيءٍ، وأفرطَ بعضُهُمْ حتَّىٰ رماهَا في البحرِ.

---

(١) من البسيط، في: اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي ص١١٦٨، وشرح معاني شعر المتنبي ٢/٥٤. ومعناه: أن الرجل إذا فارق أناسًا وقد ظنوا أنه غير مفارقٍ لهم أَسِفُوا له، فكأنهم راحلون.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٢٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٩.

(٤) ورد قوله في: المروءة لابن المرزبان ص٨٢، وتاريخ دمشق ٣٢/٤٦٣، ومدارج السالكين ٢/٢٩١.

(٥) سبق تخريجه.

ففائدةُ هذهِ **الحكايةِ** أنَّ تحصيلَ الزُّهدِ فِي الدُّنيَا للقلبِ أنفعُ وأفضلُ مِنْ بذلِ ما في اليدِ، ولذلِكَ قالَ: «**سخاءُ النَّفسِ ممَّا في أيدِي النَّاسِ**»، معناهُ: لا يطلبُهُ ولا يرغبُ فيهِ، وهوَ الزُّهدُ «**أفضلُ من سخاءِ النَّفسِ**» بمَا في يدِهَا.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ[(٢)]: دَخَلْتُ عَلَىٰ بِشْرِ بْنِ الحَارِثِ** [٢/١٩٥أ] **فِي يَوْمٍ شَدِيدِ البَرْدِ وَقَدْ تَعَرَّىٰ مِنَ الثِّيَابِ وَهُوَ يَنْتَفِضُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا نَصْرٍ، يَزِيدُونَ فِي الثِّيَابِ فِي مِثْلِ هَذَا اليَوْمِ، وَأَنْتَ قَدْ نَقَصْتَ؟! فَقَالَ: ذَكَرْتُ الفقراءَ وَمَا هُمْ فِيهِ وَلَمْ يَكُنْ لِي مَا أُوَاسِيهِمْ بِهِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُوَافِقَهُمْ بِنَفْسِي فِي مُقَاسَاةِ البَرْدِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ كمالِ الإيثارِ بالمحتاجِ إليهِ منَ اللِّباسِ، وظاهرُ هذهِ الحكايةِ أنَّهُ قلعَ الثَّوبَ الَّذِي تدفَّىَٔ بهِ وحطَّهُ عندَهُ، وهذا بعيدٌ؛ فإنَّهُ لا يناسبُ الإيثارَ ولا يحتملُ اللَّفظ الَّذِي ذكرَهُ، فإنَّهُ لمَّا سُئِلَ عنْ ذلكَ، «**ولِمَ خفَّفْتَ مِنْ ثيابِكَ حتَّىٰ وجدْتَ ألمَ البردِ؟ فإنَّ النَّاسَ فِي هذهِ الأيَّامِ يزيدونَ وأنتَ نقصتَ، فقالَ: ذكرتُ الفقراءَ**»، واسمُ الفقراءِ اسمٌ عامٌّ شاملٌ لكلِّ فقيرٍ؛ لمَا يقاسونَهُ منَ البردِ، ولمْ يكنْ لي قدرةٌ علىٰ أنْ أدفعَ عنهُمْ مَا هم فيهِ منَ البردِ، فوافقتُهُمْ بأنْ أخرجتُ ما كانَ يدفعُ عنِّي ألمَ البردِ لبعضِ الفقراءِ، ولمْ أقدرْ أنْ أعمَّهُمْ، فوافقتُهُمْ بأنْ قاسيتُ ألمَ البردِ مثلَهُمْ، فآثرهُمْ بمَا كانَ تدفَّىٰ بهِ لاحتياجِهِمْ إلىٰ ذلكَ، وربَّمَا كانَ أحوجَ منهُ لمَا دفعَهُ إليهِمْ.

ولَا يحملُ عليهِ أنَّهُ نزعَ ما عليهِ منَ القماشِ الَّذِي تدفَّىٰ بهِ ووافقَهُم علىٰ البَرْدِ؛ لأنَّهُ بعيدٌ عنِ الفضيلةِ؛ لأنَّ التَّقلُّلَ منَ الدُّنيَا وإنْ كانَ محمودًا والإيثارَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٩.

(٢) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٢٨٠، وسراج الملوك ص٩٢.

بالفُضُولِ محثوثٌ عليهِ فاضلًا، فتكملُ فضيلةُ العبدِ بأنْ يتقلَّلَ ويُؤثِرَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[2]: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الدَّقَّاقَ يَقُولُ: لَيْسَ السَّخَاءُ أَنْ يُعْطِيَ الوَاجِدُ المُعْدَمَ، إِنَّمَا السَّخَاءُ أَنْ يُعْطِيَ المُعْدِمُ الوَاجِدَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ فإنَّ حقيقةَ السَّخاءِ: إخراجُ بعضِ ما يملكُهُ بسهولةٍ، وإذَا كنتَ هكذَا فأنتَ واجدٌ أعطيتَ معدمًا بعضَ ما تملكُهُ، وإنْ كنتَ زاهدًا مُقِلًّا منَ الدُّنيَا وآتاكَ شيءٌ منْ وجهٍ طيِّبٍ فلمْ تقبلْهُ فتركتَهُ للَّذِي أتىٰ بهِ، فقدْ تسخَّيتَ وأنتَ معدمٌ علىٰ واجدٍ؛ يعنِي: معدمًا للدُّنيَا علىٰ واجدٍ لهَا.

ولقدْ حُكِيَ[3] أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كنتُ معَ جماعةٍ منْ أهلِ الخيرِ جلُوسًا بمكَّةَ أوْ بغيرِهَا، إذْ أتَىٰ شخصٌ[4] فقالَ: أفيكُمْ إبراهيمُ بنُ أدهمَ؟ قالَ: فأشرْنَا إليهِ، فسلَّمَ عليهِ وقالَ لهُ [٢/١٩٥ب]: جئتُكَ منْ عندِ إخوتِكَ، فلمَّا سمعَ ذِكْرَ إخوتِهِ أخذَ بيدِهِ ومضَىٰ بهِ إلىٰ ناحيةٍ وسألَهُ عن حالِهِ، فقالَ: أنا مملوكٌ لكَ وجئتُكَ مِن عندِ إخوتكَ ببلدِكَ، وأرسلُوا لكَ معِي كذَا وكذَا دينارًا، قالَ: فسكتَ إبراهيمُ ساعةً وقالَ لهُ: إنْ كنتَ صادقًا فأنتَ حرٌّ لوجهِ اللهِ، وما معكَ لكَ، اذهَبْ ولا تخبِرْ أحدًا.

فانظُرْ ـ وفَّقكَ اللهُ ـ ما فِي هذهِ الحكايةِ منَ الفقهِ وسترِ الحالِ، والحذرِ منَ القبولِ منَ النَّاسِ والزُّهدِ فِي الدُّنيَا، فأمَّا أخذُهُ بيدِهِ إلىٰ ناحيةٍ فسترُ الحالِ والحذرُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٠٩.

(٢) طبقات الصوفية ص٢٢٨، عن أبي حمزة البزار. وورد أيضا في: طريق الهجرتين ص٨٩، وسراج الملوك ص٩٣.

(٣) وردت في: حلية الأولياء ٧/٣٨٣، ومناقب الأبرار ١/٣١، وصفة الصفوة ٤/١٥٦.

(٤) في (أ): بشخص، والصواب المثبت.

منَ القبولِ منَ النَّاسِ والزُّهدُ في الدُّنيا ، فأمَّا أخذُهُ بيدِهِ إلىٰ ناحيةٍ فسترٌ لحالِهِ حتَّىٰ لا يعلمَ الَّذِينَ كانُوا معَهُ ما جرَىٰ .

وقولُهُ: «إنْ كنتَ صَادِقًا» فهوَ منَ الفقهِ ألَّا يعتقَ ما لا يَمْلكُ ، وأنْ يكونَ بعضُ إخوانِهِ منَ المحبِّينَ سيَّرَ لهُ هذا المالَ وورَّىٰ بذِكْرِ إخوتِهِ ليقبلَهُ ، فإنَّ المؤمنِينَ إخوةٌ ، فقالَ لهذَا: إنْ كنتَ صادقًا بأنَّكَ عبدِي وأنَّ هذَا المالَ مالِي فأنتَ حرٌّ وهوَ لكَ .

ففيهِ الورعُ والزُّهدُ واستمرارُهُ علىٰ ما عزمَ عليهِ مِنْ تركِ القبولِ من أيدِي النَّاسِ ، فإنَّهُ كانَ يأكلُ مِنْ عملِ يدِهِ ؛ مِنْ حِرَاسَةِ البساتِينِ[1] ، وغيرُ ذلكَ ممَّا عُرِفَ مِن حالِهِ ، فاللهُ ـ تعالىٰ ـ يوفِّقُنَا لمَا وفَّقَهُمْ ، ويعينُنَا علىٰ ما أعانَهُم بمحمَّدٍ وآلِهِ .

---

(١) انظر: مناقب الأبرار ١/٢٦.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«بَابُ الغَيْرَةِ»

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدُوسٍ المُزَكِّي رَحِمَهُ اللَّهُ أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ حَمْزَةُ بْنُ العَبَّاسِ البَزَّارُ بِبَغْدَادَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ غَالِبِ بْنِ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الفِرَاتِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ الهجرِيِّ، عَنْ أَبِي الأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٢)]: «مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، وَمِنْ غَيْرَتِهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ».

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الحَسَنِ بْنِ بُنَانٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَجَاءٍ، أَخْبَرَنَا حَرْبُ بْنُ شَدَّادٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي كُثَيِّرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ[(٣)]: «إِنَّ اللهَ ـ تعالى ـ يَغَارُ، وَإِنَّ المُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللهِ ـ تعالى ـ أَنْ يَأْتِيَ العَبْدُ المُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والخبرُ صحيحٌ [٢/١٩٦أ] وحدُّ الغيرةِ فيمَا بيَّنَّا، كما قالَ الشَّيخُ أبُو محمَّدٍ عبدُ اللهِ الهرويُّ الأنصاريُّ[(٤)]: «الغَيْرَة: سقوطُ الاحتمالِ ضنًّا، والضِّيقُ عنِ الصَّبرِ نَفاسَةً».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/١٦٩٩ ـ حديث رقم (٤٣٦١)، ومسلم في صحيحه ٤/٢١١٤ ـ حديث رقم (٢٧٦٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) منازل السائرين ص٩٠.

قولُهُ: «سقوطُ الاحتمالِ ضنًّا»، أيْ: لَا يبقىٰ لهُ قدرةٌ علىٰ احتمالِ ما يشوِّشُ وقتَهُ ضنًّا بهِ، وكذلِكَ يضيقُ صدرُهُ عنْ صبرِهِ في طلبِ ما يغارُ عليهِ نفاسةً، ويرجعُ حاصلُهُ إلىٰ سقوطِ الاحتمالِ وضيقِ الصَّبرِ، فقولُهُ: «ضنًّا» إشارةٌ إلىٰ حفظِ الحاصلِ، و«نفاسةً» إشارةٌ إلىٰ طلبِ ما لَمْ يَحْصُلْ[١].

قَالَ الإِمَامُ الهرويُّ[٢]: «وهو[٣] علىٰ ثلاثِ درجاتٍ:

«**الدَّرجةُ الأُولَىٰ**: غيرةُ العابدِ علىٰ ضائعٍ يستردُّ ضياعَهُ ويستدركُ فواتَهُ ويتداركُ قواهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: وهذَا راجعٌ إلىٰ الضِّيقِ نفاسةً، فإنَّهُ طلبَ لإصلاحِ ما فسدَ.

«**والدَّرجةُ الثَّانيةُ**: غيرةُ المريدِ علىٰ وقتٍ فاتَ؛ وهيَ غيرةٌ قاتلةٌ، فإنَّ الوقتَ وحيُ العصبِ، أبيُّ الجانبِ، بطيءُ الرُّجوعِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والمقصودُ هاهُنا بالوقتِ: حالُ العبدِ الَّذِي هوَ فيهِ فِي وقتِهِ، فيغارُ عليهِ أنْ يضيعَ، وهذَا راجعٌ إلىٰ سقوطِ الاحتمالِ ضنًّا، فإنَّهُ لا يحتملُ أنْ يضيعَ شيءٌ مِنْ وقتِهِ، فإنَّ وقتَهُ وحيُ العصبِ، يعنِي: سريعَ الذَّهابِ، بطيءُ الرُّجوعِ: يمتنعُ رجوعُهُ[٥].

«**والدَّرجةُ الثَّالثةُ**: غيرةُ العارفِ علىٰ عينٍ غطَّاهَا غَيْنٌ، وسِرٍّ غَشِيَهُ رَيْنٌ، ونفسٍ علقَ برجاءٍ لهُ، والتفتَ إلىٰ عطاءٍ».

---

(١) انظر: شرح منازل السائرين للمؤلف ص١٨٨.

(٢) منازل السائرين ص٩٠ ـ ٩١.

(٣) أي: لفظ الغيرة، وفي منازل السائرين: وهي.

(٤) انظر: شرح منازل السائرين للمؤلف ص١٨٨ ـ ١٨٩.

(٥) يعني: حاله في وقته، لا نفس الوقت الذي هو الزمان، كما نص المؤلف في شرح منازل السائرين.

※ **قَالَ الشَّارِحُ**: وهذَا أولَى بدخولِهِ تحتَ الأوَّلِ ؛ لأنَّ العينَ الَّتِي انفتحَتْ في معرفةِ اللهِ ـ تعالى ـ وجلالِهِ وكمالِهِ إذَا غطَّاهَا غينٌ فأسفُ العبدِ وخوفُهُ على وقوعِ ذلكَ أشدُّ مِنْ خوفِهِ على وقتِهِ أنْ يضيعَ ، ولذلِكَ قالَ: «عينٌ غطَّاهَا غينٌ» ، والغينُ: هوَ السَّحابُ السَّائرُ الخفيفُ ، أوْ «سرٌّ غشيَهُ رينٌ» ، والرَّينُ: هيَ الغفلةُ الخفيفةُ على القلبِ ، أو «نفسٍ علقَ برجاءٍ[1] ، والتفتَ إلَى عطاءٍ» ، أيْ: نفسٌ في التَّوحيدِ التفتَ إلى غيرِ اللهِ ، سواءٌ كانَ رجاءً عليهِ أو عطاءً ، وقَدْ قالَ فِي قولِهِ ـ تعالى ـ في قصَّةِ سليمانَ ـ صلواتُ اللهِ على نبيِّنَا وعليهِ ـ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] ، وذلكَ إشارةٌ إلى ضياعِ وقتِهِ الَّذِي شُغِلَ عنهُ بالخَيْلِ.

وَقُرِئَ بينَ يدي السَّرِيِّ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] ، فقالَ لأصحابِهِ[2]: هَلْ تَدْرُونَ ما هذا الحجابُ ؟ هذَا حجابُ [٢/١٩٦ب] الغيرةِ.

فالحقُّ ـ سبحانه ـ يغارُ على كلامِهِ أنْ يفهمَهُ مَنْ ليسَ أهلًا لهُ ، ولهذَا أشارَ الحديثُ الصَّحيحُ بقولِهِ: «**الحقُّ يغارُ ، والمُؤمنُ يغارُ ، ومِنْ غَيْرَتِهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ**» ، أيْ: أبعدَهَا عنِ المؤمنِينَ ولمْ يرضَهَا لهُمْ ، أيْ: أبعدَهَا عنهُم.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**الغَيْرَةُ: كَرَاهِيَةُ مُشَارَكَةِ الغَيْرِ ، وَأَمَّا وَصْفُ الحَقِّ ـ سبحانه ـ بِالغَيْرَةِ ، فَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَا يَرْضَى بِمُشَارَكَةِ الغَيْرِ مَعَهُ فِيمَا هُوَ حَقٌّ لَهُ مِنْ طَاعَةِ عَبْدِهِ**».

※ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**والغَيْرةُ: كَرَاهِيَّةُ مشاركةِ الغَيرِ**» ، وإذَا أُطلقَتِ

---

(١) أي: عِوض.

(٢) ورد قوله في: مدارج السالكين ٣/٤٣ ، والاستقامة ٢/٤٥ ، وروضة المحبين ١/٣٠٥.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤١٠.

الغيرةُ في حقِّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فمعناهُ: كراهةُ مشاركةِ الغيرِ في حقِّهِ الَّذي جعلَهُ علىٰ عبادِهِ لهُ، فهوَ سبحانَهُ يصرفُهُ عنهُم ويَحْميهِم عَنِ الوقُوعِ فيهِ[١].

قالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «حُكِيَ عَنِ السَّرِيِّ أَنَّهُ قُرِئَ بَيْنَ يَدَيهِ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، فَقَالَ السَّرِيُّ لِأَصْحَابِهِ: أَتَدْرُونَ مَا هَذَا الحِجَابُ؟ هَذَا حِجَابُ الغَيْرَةِ، وَلَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ.

وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ: (هَذَا حِجَابُ الغَيْرَةِ)، يَعْنِي: أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ الكَافِرِينَ أَهْلًا لِمَعْرِفَةِ صِدْقِ الدِّينِ.

وَكَانَ الأُسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِنَّ أَصْحَابَ الكَسَلِ عَنْ عِبَادَتِهِ هُمُ الَّذِينَ رَبَطَ الحَقُّ بِأَقْدَامِهِم مُثَقَّلَةَ الخِذْلَانِ، فَاخْتَارَ لَهُمُ البُعْدَ، فَأَخْرَجَهُمْ عَنْ مَحَلِّ القُرْبِ، وَلِذَلِكَ تَأَخَّرُوا.

وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا[٣]:

أَنَـا صَـبٌّ بِمَـنْ هَوِيـتُ وَلَكِـنْ ❊ مَـا احْتِيَـالِي لِسُـوءِ رَأْيِ المَـوَالِي!

وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا[٤]:

[و]سَـقِيمٌ لَـيْسَ يُعَـادُ[٥] ❊ وَمُرِيـدٌ لَـيْسَ[٦] يُـرَادُ».

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٢٥.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤١٠ ـ ٤١١.

(٣) من الخفيف، وورد بلا نسبة في: لطائف الإشارات ٢/١٧٠، والاستقامة ٢/٤٧.

(٤) من المتدارك، وورد بلا نسبة في: شرح نهج البلاغة ١١/١٣٢، والرسائل الكبرىٰ، المسماة: نزهة الناظر المتأمل وقيد السائل المستعجل لابن عباد ص٦٤.

(٥) أي: لا يُقصد بالعيادة.

(٦) في (أ): لا، وبها ينكسر وزن البيت، لا سيما وأن الشارح نص علىٰ أنه بيت شعر، فاستبدلتها=

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**المحبوسُونَ عنِ العبادةِ: همُ الَّذينَ رُبِطَتْ أقدامُهُمْ بمُثقَّلَةِ الخذلانِ**»، معناهُ: أنَّهُمْ يتمنّونَ[(١)] الطَّاعاتِ ولَا يجدونَ[(٢)] عليها عَوْنًا، ولا إليهَا سبيلًا، ولذلِكَ قالَ فِي الشِّعرِ:

أَنـا صَـبٌّ بِمَـنْ هَوِيـتُ وَلَكِـنْ ❊ مَـا احْتِيَـالِي لِسُـوءِ رَأْيِ المَـوَالِي!

فهذَا لا يَحسُنُ نسبتُهُ إلى اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ويتأوَّلُ لهُ: بأنَّ مواليهِ الَّذينَ حكمُوا عليهِ هيَ أهواؤُهُ وشهواتُهُ، ونفسُهُ وشيطانُهُ، فهؤلاءِ همُ الَّذينَ عاقُوهُ وثقَّلوهُ عن خِدمَةِ اللهِ ـ تعالَىٰ ـ، وبهذَا يحسنُ أنْ يقالَ: كيفَ احتيالِي بسوءِ رأيِ الموالِي ؟!، فإنَّ هؤلاءِ همُ الَّذينَ حكمُوا عليهِ وتولَّوا أمرَهُ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]: [١٩٧/٢أ]، ولذلِكَ قالَ في البيتِ الأخير:

[و]سَـقِيمٍ لَـيْسَ يُعَـادُ ❊ وَمُرِيـدٍ لَـيْسَ يُـرَادُ

أيْ: هوَ مريضٌ على تخلُّفِهِ عن طَاعةِ ربِّهِ، ولا يجدُ لهُ عونًا، وهوَ يريدُ المَنازِلَ الرَّفيعةَ ولا يُرادُ لهَا، فهذَا ذمٌّ لنفسِهِ، وتمنٍّ لعَافيتِهِ من مَرَضِهِ وزوالِ كَسَلِهِ[(٣)].

❊ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ العَبَّاسَ الزَّوْزَنِيَّ يَقُولُ: كَانَ لِي بِدَايَةٌ حَسَنَةٌ، وَكُنْتُ أَعْرِفُ كَمْ بَقِيَ بَيْنِي وَبَيْنَ الوُصُولِ إِلَىٰ مَقْصُودِي مِنَ الظَّفَرِ بِمُرَادِي، فَرَأَيْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فِي المَنَامِ كَأَنِّي أَتَدَهْدَهُ[(٥)] مِنْ حَالِقِ جَبَلٍ[(٦)] قَارَبْتُ الوُصُولَ إِلَىٰ ذُرْوَتِهِ، قَالَ: فَحَزِنْتُ، فَأَخَذَنِي**

= بـ(ليس) كما في الشطر الأول؛ ليستقيم وزن البيت، ولعدم تخطئة الشارح.

(١) في الأصل: يتمنوا، والصواب المثبت.

(٢) في الأصل: يجدوا، والصواب المثبت.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٢٥/٢.

(٤) الرسالة القشيرية ٤١١/٢.

(٥) أي: أتدحرج.

(٦) في الصحاح ١٤٦٣/٤: «الحالِقُ: الجبل المرتفع».

النَّومُ، فَرَأَيْتُ قَائِلًا يَقُولُ: يَا عَبَّاسُ؛ الحَقُّ لَمْ يُرِدْ مِنكَ أَنْ تَصِلَ إِلَىٰ مَا كُنْتَ تَطْلُبُ، وَلَكِنَّهُ فَتَحَ عَلَىٰ لِسَانِكَ الحِكْمَةَ، قَالَ: فَأَصْبَحْتُ وَقَدْ أُلْهِمْتُ كَلِمَاتِ الحِكْمَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ فيهَا تَنْبِيهٌ وحَضٌّ علىٰ الرِّضَا بالمقامِ الَّذِي يُقِيمُ اللهُ العبدَ فيهِ، وإنْ كانَ يعلمُ أنَّ فوقَهُ ما هوَ أرفعُ منهُ منَ المقاماتِ؛ وذلكَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ عالِمٌ بمَا يُصلِحُ عبيدَهُ، وبمَا أهَّلَهُمْ لحملِهِ والقيامِ بِهِ منْ طاعتِهِ، فلوْ فتحَ اللهُ علىٰ بعضِ العبيدِ منَ الخوفِ لتعذَّرَتْ عليهِمْ دنياهُمْ، ومَا انتفعُوا بطعامٍ ولا شرابٍ، وربَّمَا كانَ ذلكَ سببَ موتِهِمْ قبلَ بلوغِهِمْ إلىٰ مُرادِهِمْ، وكذلِكَ الرَّجاءُ والمحبَّةُ وغيرُ ذلكَ منَ المقاماتِ العاليةِ.

فعلىٰ العبدِ الرِّضَا بمَا قَسَمَ لهُ الحقُّ منَ الخيرِ في درجاتِ الدِّينِ، ولا يمنعُهُ ذلكَ مِنْ سؤالِ المقاماتِ العاليةِ، ولا يضادُّ رضاهُ بالحاصلِ، فإنَّ الرِّضَا متعلِّقٌ بما حصلَ والَّذي يضادُّهُ كراهةُ وقوعِهِ والتَّسخُّطُ بهِ، فالسُّؤالُ إنَّمَا متعلَّقُهُ المُمكنُ، ولمْ يزلِ العلماءُ السَّادةُ يسألُونَ ربَّهُمْ المقاماتِ العاليةَ، وهمْ أرضَىٰ النَّاسِ بمَا يُجريهِ عليهِمْ فِي الدُّنيَا والآخرةِ ما لمْ يكنْ إثمًا، فإنَّ الرِّضَا المحمودَ إنَّمَا يكونُ بمَا يرضَاهُ اللهُ.

فهذَا الرَّائِي كانَتْ نفسُهُ متعلِّقةً بذروةِ الجبَلِ الَّذِي رَآهُ، وهيَ حالةٌ رفيعةٌ فِي الدِّينِ، والقدرُ يمنعُهُ مِن ذلكَ، فحزنَ علىٰ تقصيرِهِ عَنْ مَطْلُوبِهِ، فرأَىٰ في النَّومِ ما يدلُّهُ علَىٰ ما اختارَهُ اللهُ لهُ، وأنَّهُ قَدْ فتحَ الحكمةَ علىٰ لسانِهِ؛ لينتفعَ بهِ مَنْ يعظُهُ ويكلِّمُهُ، فيتزايدُ فضلُهُ [٢/١٩٧ب] وأجرُهُ مِنْ جهةٍ أخرَىٰ غيرِ الَّتِي طلبَ[١]، ومِنْ ذلكَ ما أخبرتُ عن رجلٍ أعرفُهُ أنَّهُ رأَىٰ في منامِهِ كأنَّهُ رأَىٰ رجالًا يطيرونَ في

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٢٧.

الهَوَاءِ فأحبَّ أنْ يكونَ مِنْ جملتِهِمْ ، فلمْ يجدْ إلىٰ ذلِكَ سبيلًا ، وسَمِعَ هاتِفًا يقولُ لهُ: أنتَ منَ الوسطِ ، ثمَّ سمعَ قولَهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: كَانَ شَيْخٌ مِنَ الشُّيُوخِ لَهُ حَالٌ وَوَقْتٌ ، فَخَفِيَ مُدَّةً لَمْ يُرَ بَيْنَ الفُقَرَاءِ ، ثُمَّ إِنَّهُ ظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ لَا عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الوَقْتِ ، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: آهٍ وَقَعَ حِجَابٌ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويحتملُ ما انتقلَ إليهِ هذَا الشَّيخُ فِي خلْوتِهِ أنْ يكونَ دونَ مِمَّا كانَ فِي جَلْوَتِهِ[٢].

ويحتملُ أنْ يكونَ أرفعَ منهُ ، فإنَّهُ قدْ يكونُ معَ أصحابِهِ منبسطًا معلمًا مفهمًا مُعِيْنًا لهُمْ علىٰ مَآربِهِمْ ومقاصِدِهِم الدِّينيَّةِ ، فلمَّا خلَىٰ معَ مولاهُ تلكَ المدَّةَ رزقَهُ منَ الأُنسِ بهِ والتَّلذُّذِ بمناجاتِهِ ما شَغَلَهُ عن غيرِهِ ، فلمَّا خرجَ إليهِم بعدَ ذلكَ فوجدُوا حالَهُ قد تغيَّرَ عمَّا كانَ معهُمْ عليهِ تأوَّهَ وقالَ: «**وقعَ حجابٌ**».

ويحتملُ تأوُّهُهُ علَىٰ ما مضَىٰ مِنْ أيَّامِهِ معهُمْ ، ويكونُ الحجابُ الَّذِي وقعَ حجابَ كمالٍ وَشُغِلَ عنهُمْ بربِّهِ ، ويحتملُ عكسهُ ، والعياذُ باللهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَكَانَ الأُسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **إِذَا وَقَعَ شَيْءٌ فِي خِلَالِ المَجْلِسِ يُشَوِّشُ قُلُوبَ الحَاضِرِينَ يَقُولُ: هَذَا مِنْ غَيْرَةِ الحَقِّ ، يُرِيدُ أَلَّا يَجْرِيَ مَا يَجْرِي مِنْ صَفَاءِ هَذَا الوَقْتِ**.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١١.

(٢) في التعريفات ص١٠٤: «الجلوة: خروج العبد من الخلوة بالنعوت الإلٰهية ، إذ عين العبد وأعضاؤه ممحوة عن الأنانية والأعضاء مضافة إلىٰ الحق بلا عبد». وانظر: معجم مصطلحات الصوفية ص٦٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤١١.

وَأَنْشَدُوا فِي مَعْنَاهُ[١]:

هَمَّتْ بِإِتْيَانِنَا حَتَّى إِذَا نَظَرَتْ ✤ إِلَى المِرَاةِ نَهَاهَا وَجْهُهَا الحَسَنُ
مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي مِنْ مَحَاسِنِهَا ✤ عُذِّبْتِ بِالهَجْرِ حَتَّى شَفَّنِي الحَزَنُ»[٢].

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُ الإمامِ: «كانَ الشَّيخُ أبو عليٍّ إذا طرأَ في المجلسِ تشويشٌ يكدِّرُ صفاءَ الوقتِ يقولُ: هذَا مِنْ غيرةِ الحقِّ»، فمقصودُهُ: أنَّهُ لولَا التَّشويشُ لجرَىٰ مِنَ الكلامِ شيءٌ ينتفعُ بهِ أهلُهُ، فلمَّا لمْ يردِ الحقُّ جريانَهُ لعدمِ أهليَّةِ مَنْ يسمعُهُ أجرَىٰ التَّشويشَ حتَّىٰ يمتنعَ النُّطقُ بهِ، ولذلِكَ أنشدُوا:

هَمَّتْ بِإِتْيَانِنَا حَتَّى إِذَا نَظَرَتْ ✤ إِلَى المِرَاةِ نَهَاهَا وَجْهُهَا الحَسَنُ [٢/١٩٨أ]

فهوَ إشارةٌ إلىٰ الفوائدِ الَّتِي كانَتْ تجرِي، فلمَّا عرَفَ الحقُّ أنَّهُمْ ليسُوا أهلًا لهَا حجبَهَا عنهُمْ، وقدْ يكونُ ذلكَ رحمةً، وقدْ يكونُ عقابًا وإبعادًا.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ: تُرِيدُ أَنْ تَرَاهُ؟ فَقَالَ: لَا، قِيلَ: لِمَ؟ فَقَالَ: أُنَزِّهُ ذَلِكَ الجَمَالَ عَنْ نَظَرِ مِثْلِي.

وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا[٤]:

إِنِّي لَأَحْسُدُ نَاظِرِيَّ عَلَيْكَا ✤ حَتَّى أَغُضَّ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَا
وَأَرَاكَ تَخْطُرُ فِي شَمَائِلِكَ الَّتِي ✤ هِيَ فِتْنَتِي، فَأَغَارُ مِنْكَ عَلَيْكَا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «قيلَ لبعضِهِمْ: أتحبُّ أنْ تَراهُ؟ قالَ: لَا، فقيلَ: لِمَ؟ فقالَ: أنزِّهُ ذلكَ الجمَالَ عن نظرِ مِثْلِي»، يحتملُ أمرينِ:

---

(١) من البسيط، للعباس بن الأحنف في ديوانه ص٢٨٠.
(٢) خلت الرسالة القشيرية المطبوع من هذا البيت.
(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤١١.
(٤) من الكامل، لأبي بكر الشبلي في ديوانه ص١١٥، وللخبز أرزي في: محاضرات الأدباء ٢/٢٥٧.

أحدهُمَا: استصغارُ نفسِهِ، وعدمُ صلاحيَّتِهِ لأنْ تكونَ هذِهِ منزلتهُ في القُربِ، ورفعةُ درجتِهِ في الرُّؤيةِ.

والثَّانِي: أنَّهُ لا يطيقُ رؤيتَهُ؛ لضعْفِ قوَّتِهِ عنْ حملِ بَغْتَةِ رُؤيتِهِ، كمَا جرَىٰ لصَواحبَاتِ يوسفَ لمَّا أخرجَتْهُ امرأةُ العزيزِ عليهنَّ، فلمْ يطقْنَ رؤيتَهُ بالجملةِ لكمالِ جمالِهِ، فقطَّعْنَ أيديهُنَّ[١] وهنَّ لا يشعرْنَ، وامرأةُ العزيزِ تنظرُ إليهِ معهُنَّ فلَمْ تتأثَّرْ برؤيتِهِ لتمكُّنِهَا في ذلِكَ[٢]، والشِّعرُ يدلُّ علىٰ ما أشرْنَا إليهِ وهوَ قولُهُ:

إِنِّـي لَأَحْسُـدُ نَـاظِرِيَّ عَلَيْكَـا ✿ حَتَّـىٰ أَغُـضَّ إِذَا نَظَـرْتُ إِلَيكَـا

فهذَا إشارةٌ لعدمِ صلاحيَّةِ نظرِهِ لنعمةِ الرُّؤيةِ حتَّىٰ غضَّ أجفانَهُ محبَّةً لزوالِهَا، ولهذَا سمَّاهُ حسدًا، وقالَ فِي البيتِ الثَّانِي:

وَأَرَاكَ تَخْطُـرُ فِـي شَـمَائِلِكَ الَّتِـي ✿ هِـيَ فِتْنَتِـي فَأَغَـارُ مِنْـكَ عَلَيْكَـا

يعنِي: أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يخطرُ بقلبِهِ أوائلَ معرفتِهِ وكمال جلالِهِ وعظمتهِ، فلَا يحتملُ حملَهُ فيغشَىٰ عليهِ، ولهذَا قالَ: «**فتنتِي فأغارُ منكَ عليكَا**»، فلَا أحبُّ أنْ تظهرَ لِي مِنْ جلالِكَ وعظمتِكَ ما لا أحتملُهُ.

واستعارَ لفظةَ «الشَّمائلِ» لأفعالِهِ الدَّالَّةِ علىٰ كمالِهِ ـ تعالىٰ ـ وجَمَالِهِ، و«تخطرُ»، أيْ: الخاطرُ والإلهامُ الَّذِي يكشفُهُ لِي؛ إذِ الحقُّ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عنِ الجِسْميَّةِ والشَّمائلِ والانتقالِ والجسمِ.

✿ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَسُئِلَ الشِّبْلِيُّ[٤]: ....

---

(١) كما أشار إليه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١].

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٢٨.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤١٢.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٦٤٩، والفتوحات المكية ٩/٣٦٩، وروضة المحبين ١/٣٠٨،=

مَتىٰ تَسْتَرِيحُ[١]؟ فَقَالَ: إِذَا لَمْ أَرَ لَهُ ذَاكِرًا».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [٢/١٩٨ب] **وهذَا يحتملُ أمرينِ:**

أحدُهُمَا: أنَّهُ إذَا لمْ يَرَ لهُ ذاكِرًا معَ الغفلةِ، فإنَّهُ لا يحتملُ مَنْ يذكرُهُ علىٰ وجهِ الغفلةِ كمَا يفعلُهُ العتَّالُونَ، والَّذينَ ينادُونَ علىٰ معاشِهِمْ كالفقاعِيِّ وغيرِهِ[٢].

والوجهُ الثَّانِي: أنَّهُ معَ حالِهِ الَّذِي لطفَ الحقُّ بهِ فيهِ علىٰ قدرِ ما أجرَاهُ عليهِ منَ الحالِ اللَّائقِ بهِ فِي ذِكْرِهِ ومراقبتِهِ، فإذَا رأىٰ ذاكِرًا للهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ الحقيقةِ وقَدْ أثَّرَ ذكرُهُ علىٰ ظاهرِهِ جدَّدَ عليهِ منَ الأحوالِ العظيمةِ الَّتِي لَا يطيقُ حملَهَا، وكانَ في المجلسِ مِنْ أربابِ الأحوالِ مَنْ يسرعُ إليهِ الحالُ، لسماعِ بعضِ المقالِ، فيؤثِّرُ حالُهُ في أكثرِ مَنْ في المجلسِ ويتجدَّدُ عليهِمْ أحوالٌ، ويظهرُ علىٰ جَوَارِحِهِمْ غلبةٌ وهُمْ يريدُونَ سترَهَا، ومَا ذاكَ إلَّا لمشاهدتِهِمْ أربابَ الأحوالِ الشَّديدةِ، فيؤثِّرُ صدقُهُمْ في غيرِهِم[٣].

فعلىٰ أحدِ هذَينِ الوجهَينِ يُحملُ قولُ الشِّبليِّ فِي جوابِهِ لمَنْ سألَهُ: «**متىٰ تستريحُ؟ فقالَ: إذَا لم أرَ لهُ ذاكِرًا**»؛ يعنِي: صادقًا ولَا غافلًا.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**[٥] **فِي قَوْلِ**

= والاستقامة ٢/٢٦، والميزان الخضرية للشعراني ص١٠١.

(١) أي: من الغيرة.

(٢) قرر ذلك المناوي بقوله: «.. فعذره أنه لا يرىٰ ذاكرا إلا والغفلة مستولية علىٰ قلبه، فيغار الله أن يذكر بهذا الذكر لغلبة المحبة علىٰ قلبه، ومع ذلك فهو من شطحاته التي تغفر له لصدق محبته، فلا يقتدىٰ به فيها» فيض القدير ١/٤٥٦.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٢٩.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤١٢.

(٥) ورد قوله في: شرح نهج البلاغة ١١/١٣٢، وبهجة المحافل وبغية الأماثل ص٣١٣.

النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مُبايَعتِه فَرسًا مِنْ أَعْرابِيٍّ، وَأَنَّهُ اِسْتَقالَهُ فَأَقالَهُ، فَقالَ الأَعْرابِيُّ: عَمَّرَكَ اللهُ؛ مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقالَ لَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اِمْرُؤٌ مِنْ قُرَيشٍ)[1].

فَقالَ بَعْضُ أَصْحابِهِ مِنَ الحاضِرِينَ لِلأَعْرابِيِّ: كَفاكَ جَفاءً، أَلَّا تَعرِفَ نَبِيَّكَ؟.

وَكانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِنَّما قالَ: (اِمْرُؤٌ مِنْ قُرَيْشٍ) غَيْرَةً، وَإِلَّا كانَ واجِبًا عَلَيْهِ التَّعرُّفُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ مَنْ هُوَ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ - سبحانه - أَجْرَى عَلَى لِسانِ ذَلِكَ الصَّحابِيِّ التَّعْرِيفَ لِلْأَعْرابِيِّ بِقَوْلِهِ: كَفاكَ جَفاءً أَلَّا تَعرِفَ نَبِيَّكَ».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والجوابُ عنْ هذَا مِن وجهَينِ:

❊ أَحَدُهُما: أنْ يكونَ هذَا بعدَ استقرارِ الشَّرعِ، وشيوعِ خبرِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سائِرِ البلادِ، وأنَّ اللهَ - سبحانه - قدْ أرسلَ رسولًا اسمُهُ أحمدُ، وإنَّما خفِيَ على هذَا الأعرابيِّ شخصُهُ، وقدْ قالَ الأنصارُ بعدَ أنْ أسلمُوا وأرسلَ لهُمُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ علَّمهُمْ وفقَّهَهُمْ في الدِّينِ، فلمَّا هاجرَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هوَ وأبُو بكرٍ وجلسَا فِي ظلٍّ وخرجَ إليهِمَا الأنصارُ فقالَ بعضُهُمْ: [١٩٩/٢أ] نعرفُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أبِي بكرٍ حتَّى جاءَتِ الشَّمسُ على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقامَ أبو بكرٍ يُظلِّلُ عليهِ[2].

فهذِهِ الجهالةُ لا تقدحُ فِي الدِّينِ ولا تضرُّهُ، ولَا يجبُ على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يقولَ لكلِّ رجلٍ منَ النَّاسِ: أنَا رسولُ اللهِ لكلِّ رجلٍ منَ النَّاسِ، وإنَّما قالَ لهُ القائلُ: «كفَى بكَ جفاءً أَلَّا تَعْرِفَ نبيَّكَ»؛ تنبيهًا لهُ علَى أنَّكَ مِنْ سكَّانِ الباديةِ، والغالبُ عليهِمُ الجفاءُ، وقدْ عرَّفَهُ في أثناءِ كلامِهِ أنَّهُ نبيُّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❊ الوجْهُ الثَّاني: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجابَهُ على مقتضَى سؤالِهِ، فإنَّهُ قالَ:

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ٥/٢٧٠، وشعب الإيمان ٥/١٧٢.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/٥٠٣، ورواه ابن حجر بأكثر من رواية في: فتح الباري ٧/٢٤٤.

«ممَّنْ أنتَ؟» وهذَا سؤالٌ عنِ القبيلةِ والنَّفرِ، فأجابَهُ عمَّا سألَ عنهُ بقولِ: «**امروٌ من قريشٍ**»، ولوْ قالَ: مَنْ أنتَ؟ لأجابَهُ بقولِهِ: رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأمَّا قولُ الأستاذِ: «**إنَّهُ إنَّما قالَ: امروٌ مِنْ قريشٍ غيرةً**»، وجهُهُ أنَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمْ يَرَ إعلامَ هذَا البدويِّ بأنَّهُ رسولُ اللهِ أهلًا لذلِكَ، هذَا وجهُهُ واللهُ أعلمُ، وفيمَا بيَّنَّاهُ كفايةٌ وغنيةٌ عنهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الغَيْرَةَ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ البِدَايَةِ[٢]، وَأَنَّ المُوَحِّدَ[٣] لَا يَشْهَدُ الغَيْرَةَ وَلَا يَتَّصِفُ بِالاخْتِيَارِ، وَلَيْسَ لَهُ فِيمَا يَجْرِي فِي المَمْلَكَةِ تَحَكُّمٌ، بَلِ الحَقُّ أَوْلَىٰ بِالأَشْيَاءِ فِيمَا يُقْضَى عَلَىٰ مَا يَقْضِي.**

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ المَغْرِبِيَّ[٤] يَقُولُ[٥]: الغَيْرَةُ مِنْ عَمَلِ المُرِيدِينَ[٦]، فَأَمَّا أَهْلُ الحَقَائِقِ فَلَا**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**الغيرةُ مِنْ عملِ المريدِينَ**»، يعنِي: المريدينَ لمقامِ الجمعِ، ولمْ يردْ بالمريدِينَ المبتدِئينَ فِي الطَّريقِ، فإنَّ الغيرةَ مِن ثمراتِ المحبَّةِ علىٰ المحبوبِ، والمحبَّةُ منَ المقاماتِ العاليةِ، فإذَا كانَتِ الغيرةُ مِن ثَمَراتِهَا فكيفَ يكونُ ذلكَ مِن أوائلِ سلوكِ المريدِينَ؟!

فَيُحْمَلُ كلامُ هذا الشَّيخِ القائلِ علىٰ أنَّهُمُ المريدونَ للجمعِ، ومقامِ التَّوحيدِ، ولمْ يتمكَّنُوا فيهِ بعدُ؛ لأنَّ الموحِّدَ لا يرىٰ غيرَ الواحدِ، وربَّمَا اشتغلَ بِهِ عنْ نفسِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٢.

(٢) أي: السائرين إلىٰ طلب الحق عَزَّ وَجَلَّ.

(٣) أي: المحقق العارف.

(٤) في (أ): المقرئ، والتصويب من الرسالة القشيرية.

(٥) ورد قوله في: الاستقامة ٢/٢٩.

(٦) الذين لم يتمكنوا في التوحيد.

حتَّىٰ لَا يذكرَ نفسَه؛ لكمالِ شغلِهِ بمَنْ هوَ مشغولٌ بهِ، وسيأتِي الكلامُ فِي مقامِ التَّوحيدِ ما يزيدُ هذَا بيانًا، وصاحبَ الغيرةِ عندَهُ تفرقةٌ؛ إذْ هوَ يرىٰ المُغارَ والمُغارَ عليهِ[١]، ولهذَا كانَ مِنْ عملِ [٢/١٩٩ب] المريدِينَ بهذَا الاعتبارِ، ولذلكَ أجملَ الشَّيخُ في الاستدلالِ، وحكَىٰ قولَ أبِي عثمانَ لَا غيرَةَ ولمْ يبيِّنْهُ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الشِّبْلِيَّ يَقُولُ**[٣]: **الغَيْرَةُ غَيْرَتَانِ؛ فَغَيْرَةُ البَشَرِيَّةِ عَلَىٰ النُّفُوسِ**[٤]، **وَغَيْرَةُ الإِلَٰهِيَّةِ عَلَىٰ القُلُوبِ.**

وَقَالَ الشِّبْلِيُّ أَيْضًا[٥]: **غَيْرَةُ الإِلَٰهِيَّةِ عَلَىٰ الأَنْفَاسِ أَنْ تُضَيَّعَ فِيمَا سِوَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ**[٦]».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «**الغيرةُ غيرتَانِ: غيرةُ البشريَّةِ علَىٰ النُّفوسِ**»، ويعنِي بالبشريَّةِ: الحظوظَ العاجلةَ، فيغارُ العبدُ علىٰ حظوظِ نفسِهِ أنْ يُشَاركَ فيهَا.

وأمَّا «**غيرةُ الإلَٰهيَّةِ علَىٰ القلوبِ**»، فتحتملُ أمرَينِ:

أحدهُمَا: أنَّ ذَا القلبِ المُعْتَنِي بدينِهِ ومَطَالِبِ الحقِّ منهُ يغارُ علىٰ قلبِهِ أنْ يراهُ متفكِّرًا في غيرِ ما ينفعُهُ في دينِهِ، وكلَّمَا رأىٰ قلبه مالَ إلىٰ بعضِ الحظوظِ، أوْ غفلَ عمَّا خُلِقَ لهُ ثارَتْ مِنْ قلبِهِ الغيرةُ الإلَٰهيَّةُ؛ يعنِي الدِّينيَّةَ، فتكفُّهُ عمَّا مالَ إليهِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٣٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤١٢.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٣٧١، ومناقب الأبرار ٢/٦٤٩، والاستقامة ٢/٤٠.

(٤) أي: منشؤها كما تقدم؛ إما الحسد، وإما حب الرئاسة.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٦٤٩.

(٦) أي: بألا يكون له ميل إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ.

الوَجْهُ الثَّانِي: منَ الغيرةِ الإلَهيَّةِ أنْ تضافَ الغيرةُ إلىٰ الحقِّ ـ سبحانه ـ، كمَا قالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «المُؤْمِنُ يَغَارُ وَالحقُّ يَغَارُ، وَمِنْ غَيْرَتِهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ»، فإذَا أضيفَتِ الغيرةُ إلىٰ الحقِّ علَىٰ القلبِ فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يحفظُ قلبَ مَنِ اختصَّهُ عنْ أنْ يشتغلَ بغيرِهِ، ولا يدعُهُ أنْ يكونَ خادمًا لغيرِهِ ولَا محبًّا لهُ[(٢)].

وقولُهُ: «**غيرةُ الإلَهيَّةِ علَىٰ الأنفاسِ ألَّا تضيَّعَ في غيرِ اللهِ**»، يعنِي: غيرةَ العبدِ الدِّينيَّةَ ألَّا يكونَ لهُ نفسٌ في غيرِ الحقِّ ـ سبحانه ـ، وهوَ راجعٌ إلىٰ أحدِ القسمَينِ الَّذِي فسَّرْنَا بهِ الغيرةَ الإلَهيَّةَ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَالوَاجِبُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الغَيْرَةَ غَيْرَتَانِ:**

غَيْرَةُ الحَقِّ عَلَىٰ العَبْدِ؛ وَهُوَ أَلَّا يَجْعَلَهُ لِلْخَلْقِ، فَيَضِنَّ[(٤)] بِهِ عَلَيْهِم.

وَغَيْرَةُ العَبْدِ لِلْحَقِّ؛ وَهُوَ أَلَّا يَجْعَلَ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِهِ وَأَنْفَاسِهِ لِغَيْرِ الحَقِّ، وَأَلَّا يُقَالَ: أَنَا أَغَارُ عَلَىٰ اللهِ، وَلَكِنْ يُقَالُ: أَنَا أَغَارُ للهِ ـ تعالىٰ ـ؛ فَإِذَا الغَيْرَةُ عَلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ جَهْلٌ، وَرُبَّمَا تُؤَدِّي إِلَىٰ تَرْكِ الدِّيْنِ، وَالغَيْرَةُ للهِ ـ تعالىٰ ـ تُوجِبُ تَعْظِيمَ حُقُوقِهِ وَتَصْفِيَةَ الأَعْمَالِ لَهُ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ مِنْ سُنَّةِ الحَقِّ مَعَ أَوْلِيَائِهِ أَنَّهُمْ إِذَا سَاكَنُوا غَيْرًا، أَوْ لَاحَظُوا شَيْئًا، أَوْ ضَاجَعُوا بِقُلُوبِهِمْ شَيْئًا يُشَوِّشَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، فَيَغَارُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ بِأَنْ يُعِيدَهَا خَالِصَةً لِنَفْسِهِ فَارِغَةً عَمَّا سَاكَنُوهُ؛ كَآدَمَ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَمَّا وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَىٰ الخُلُودِ فِي الجَنَّةِ [٢/٢٠٠أ] فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا، وَإِبْرَاهِيمُ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٣٠.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤١٢ ـ ٤١٣.

(٤) أي: يبخل.

نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ ـ لَمَّا أَعْجَبَهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ بِذَبْحِهِ ، حَتَّىٰ أَخْرَجَهُ مِنْ قَلْبِهِ ، ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] وَصَفَا سِرُّهُ للهِ أَمْرَهُ ـ سبحانه ـ بِالفِدَاءِ عَنْهُ[١]» .

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «الغيرةُ غيرتَانِ: غيرةُ العبدِ للهِ، وغيرةُ الحقِّ علىٰ العبدِ» صحيحٌ، وقَدْ تضمَّنَهُ الخبرُ الصَّحيحُ كمَا نقلناهُ مِنْ أنَّ «الحقَّ يغارُ والمؤمنَ يغارُ»[٢]؛ فالعبدُ يغارُ علىٰ أعمالِهِ وأحوالِهِ وأنفاسِهِ أنْ يقعَ منهَا شيءٌ لغيرِ اللهِ، والحقُّ ـ سبحانه ـ يغارُ علىٰ عبدِهِ أنْ يدعَ قلبَهُ لسِوَاهُ؛ الَّذِي هوَ أصلُ أعمالِهِ كلِّهَا وأحوالِهِ، فلَا يدعهُ ـ تعالىٰ ـ يُسَاكِنُ غيرَهُ، ولَا يميلُ إلىٰ سِوَاهُ، وهذَا ليسَ عامًّا فِي كلِّ العبيدِ، وإنَّمَا هوَ فيمَنِ اختصَّهُ واصطفاهُ، وحفظَهُ وتولَّاهُ، ولذلكَ أتَىٰ الشَّيخُ بالحكايتَينِ عن آدمَ وإبراهيمَ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِمْ ـ، فإنَّ المحبَّةَ منَ اللهِ للعبدِ إنَّمَا ترجعُ إلىٰ أنْ يفعلَ بمَنِ اختصَّهُ وأحبَّهُ ما هوَ أفضلُ لهُ عندَهُ، وأجلُّ صفاتِ العبيدِ دوامُ ملاحظتِهِمْ لأوامرِ السَّاداتِ، وقلَّةُ الالتفاتِ إلىٰ غيرِهِم والغَفَلاتِ.

ولقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ الملوكِ كانَ لهُ مماليكُ وكانَ فيهِمْ مملوكٌ ليسَ بأجملِهِمْ صورةً ولا بأعظمِهِمْ خِلقةً وأشدِّهِمْ قوَّةً، وكانَ يفضِّلُهُ عليهِمْ، فوجدُوا فِي أنفسِهِمْ شيئًا منْ تقديمِهِ لهُ، فأرادَ أنْ يعرِّفَهُمْ ذلكَ، فركبَ يومًا وركبَ معَهُ جميعُ مماليكِهِ وخرجُوا مسافرِينَ في الصَّحراءِ، فالتفتَ الملكُ إلىٰ جهةٍ منَ الجهاتِ، ونظرَ ساعةً ثمَّ ردَّ بصرَهُ عنهَا، قالَ: فركضَ هذا المملوكُ فرسَهُ إلىٰ تلكَ الجهةِ وغابَ ساعةً ثمَّ أتاهُ وفِي يدِهِ قطعةُ ثلجٍ، وأحضرَهَا بينَ يدَي سيِّدِهِ، فقالَ لهُ: مِنْ أينَ علِمتَ أنِّي أريدُهُ؟ قالَ: يا سيِّدِي، رأيتُكَ نظرتَ إلىٰ هذهِ الجهةِ طويلًا وأنتَ لا تنظرُ عبثًا، ومَا رأيتُ شيئًا فِي هذهِ الجهةِ يصلحُ أنْ يكونَ مرادًا لكَ سوىٰ هذا الثَّلجِ، قالَ:

---

(١) ففداه بذبح عظيم.

(٢) سبق تخريجه.

فقالَ الأميرُ لبقيَّةِ مماليكِهِ: لهذَا أقدِّمُهُ عليكُمْ، كلٌّ منكُمْ ربَّمَا اشتغلَ بحوائجِهِ ونفسِهِ، وهذَا لا شُغلَ لهُ إلَّا مراعاةُ أنفاسِي ولحظاتِي.

فمَنْ أرادَ الحقُّ كمالَ رفعتِهِ وحِفْظَهُ عنْ يسيرِ زلَّتِهِ جعلَ همَّتَهُ فيمَا يُرْضِيهِ، [وأذْهَبَ][1] [٢/٢٠٠ب] يسيرَ غَفْلَتِهِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا زَيْدٍ الفَقِيهَ المَرْوزِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ شَيْبَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ حَسَّانٍ يَقُولُ**[3]: **بَيْنَا أَنَا أَدُورُ فِي (جَبَلِ لِبْنَانَ) إِذْ خَرَجَ رَجُلٌ شَابٌّ قَدْ أَحْرَقَتْهُ السَّمُومُ**[4] **وَالرِّيَاحُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ وَلَّىٰ هَارِبًا فَتَبِعْتُهُ وَقُلْتُ: تَعِظُنِي بِكَلِمَةٍ؟ فَقَالَ: اِحْذَرْ؛ فَإِنَّهُ غَيُورٌ؛ لَا يُحِبُّ أَنْ يَرَىٰ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ سِوَاهُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **وروحُ هذِهِ الحكايةِ**: احذَرْ مِنْ تعلُّقِكَ بِي لئلَّا يبعدَكَ عنهُ[5]، ولوْ قالَ هكذَا وبيَّنَهُ لكانَتْ وصيَّةً ظاهرةً، وإنَّمَا هوَ أجملَ في الجوابِ فقالَ لهُ: «**احذَرْ؛ فإنَّهُ غيورٌ، لا يحبُّ أنْ يساكنَ غيرَهُ**».

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[6]: «**وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: قَالَ النَّصْرَابَاذِيُّ**[7]: **الحَقُّ غَيُورٌ، وَمِنْ غَيْرَتِهِ لَمْ يَجْعَلْ إِلَيْهِ طَرِيقًا سِوَاهُ**».

---

(١) طمس في الأصل بمقدر كلمة، فلعلها كذلك.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤١٣.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٢/٢٩٠، وصفة الصفوة ٤/٣٤٧، وذم الهوىٰ ص٨٠، ومدارج السالكين ٣/٣٢٩.

(٤) أي: الريح الحارة، وعطف الرياح عليه مع أن المراد بها المحرقة؛ لاختلاف اللفظ، ومراعاة التفخيم. انظر: إحكام الدلالة ٢/٧٣١.

(٥) أي: يبعدك المولىٰ عَزَّ وَجَلَّ عنه لتعلقك بغيره من سائر خلقه.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤١٣.

(٧) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/١٧٠، ومرآة الزمان في تواريخ الأعيان ١٧/٥٠٦.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا صحيحٌ ؛ لأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ لا فعلَ لغيرِهِ(١)، ولا حركةَ ولَا سكنةَ ولا همَّةَ ولا نفسَ، فكلُّ سببٍ يوصلُ إليهِ مِنْ طاعتِهِ إنَّمَا ينالُهُ العبدُ بعونِهِ وفضْلِهِ ورعايتِهِ، فقولُهُ: «**الحقُّ يغارُ؛ ومِنْ غيرتِهِ أنَّهُ لمْ يجعلْ طريقًا إليهِ سواهُ**» بالغٌ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ(٢): «**وَقِيلَ: أَوْحَى اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَى بَعْضِ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ: إِنَّ لِفُلَانٍ إِلَيَّ حَاجَةً، وَلِي أَيْضًا إِلَيْهِ حَاجَةٌ، إِنْ قَضَى حَاجَتِي قَضَيْتُ حَاجَتَهُ، فَقَالَ ذَلِكَ النَّبِيُّ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فِي مُنَاجَاتِهِ: إِلَهِي، كَيْفَ يَكُونُ لَكَ حَاجَةٌ؟! فَقَالَ: إِنَّهُ سَاكِنٌ بِقَلبِهِ غَيْرِي، فَلْيَرْفَعْ قَلْبَهُ عَنْهُ أَقْضِ حَاجَتَهُ**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا منْ بابِ الشَّرطِ والمشروطِ، فكأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ سبقَ في عِلْمِهِ أنَّ حاجةَ هذَا العبدِ إنَّمَا تنقضِي إذَا تغيَّرَ قلبُهُ عمَّا هوَ عليهِ، وإنَّمَا تغييرُهُ بيدِ اللهِ، وللعبدِ فيهِ كَسْبٌ، فلذلِكَ قالَ: «إذا فعلَ فعلتُ»، وهذهِ العبارةُ «وهوَ أنَّ لِي إليهِ حاجةً» إنْ صحَّ الخبَرُ أطلقَتْ على حسبِ ما جاءَ في الخبَرِ، وإلَّا لمْ يطلقْهَا علَى الحقِّ، فإنَّهُ ـ تعالى ـ غنيٌّ عنِ العالمِينَ(٣)، وإنَّمَا المرادُ بهَا: أنِّي إنَّمَا أقضِي حاجتَهُ إذَا غيَّرَ حالتَهُ؛ كمَا قالَ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

ووجهُ دخولِ هذهِ الحكايةِ فِي بابِ الغيرةِ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يغارُ على هذهِ النِّعمةِ الرَّفيعةِ؛ وهيَ حاجةُ العبدِ أنْ يخصَّ [٢٠١/٢أ] بها قلبًا غافلًا، مُبَدَّدًا عنهُ فِي جِهَاتٍ.

---

(١) أي: على الحقيقة.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤١٣.

(٣) فلا يحتاج إلى أحد، فإطلاق الحاجة عليه عَزَّوَجَلَّ من باب التوسع، وسهّله المشاكلة. انظر: إحكام الدلالة ٢/٧٣٢، ونتائج الأفكار ٣/٣٦٨.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: **«وَقِيلَ: إِنَّ أَبَا يَزِيدَ البِسْطَامِيَّ رَأَىٰ جَمَاعَةً مِنَ الحُورِ العِينِ فِي مَنَامِهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِنَّ، فَسُلِبَ وقتَهُ أَيَّامًا، ثُمَّ إِنَّهُ رَأَىٰ فِي مَنَامِهِ جُمْعَةً[٢] مِنْهُنَّ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِنَّ وَقَالَ: إِنَّكُنَّ شَوَاغِلُ[٣]»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ حالَ المنامِ إنَّمَا يجرِي في الغالبِ علىٰ حالِ اليقظةِ، ولذلِكَ تكونُ مناماتُ الشَّخصِ علىٰ غالبِ حالِهِ في الدُّنيَا، فلمَّا كانَ في قلبِهِ التفاتٌ إلىٰ الذَّواتِ المستحسناتِ مِنْ جميعِ المخلوقاتِ[٤]، فلمَّا رأَىٰ الحوريَّاتِ فِي النَّومِ مالَ إليهنَّ لغالبِ حالِهِ، فعُوتِبَ علَىٰ ذلكَ معاتبةً أحسَّهَا مِنْ نفسِهِ.

وهذَا هوَ مقامُ الغَيرةِ، فالحقُّ ـ سبحانه ـ لمْ يدَعْ قلبَهُ يلتفتْ لغيرِهِ، فأدَّبَهُ ليكونَ ذلكَ زاجرًا لهُ عنِ العَوْدِ لمثلِهِ، وكذلِكَ فعلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَقَدْ بَلَغَنِي عمَّنْ أَعْرِفُهُ وكَانَ رَجُلًا صَالحًا، قالَ لِي: لقدْ أتعجَّبُ مِنْ حالِي معَ اللهِ، ما أحببتُ قطُّ أحدًا مِنْ أولادِي إلَّا قبضَهُ اللهُ، حتَّىٰ إنَّ والدَتَهُمْ إذَا أتانِي ولدٌ تُقْسِمُ عليَّ باللهِ لا تقبِّلْهُ ولا تمسَّهُ؛ خوفًا مِنْ أنْ ينزلَ القدرُ موافقةً لمحبَّتِي، قالَ: فلربَّمَا رأيتُ الصَّغيرَ فِي بعضِ الأيَّامِ يلعقُ شيئًا منَ الشَّرابِ، فأعجبَنِي صغرُ فمِهِ وكياستُهُ فِي لَعْقِهِ الشَّرابَ فقبَّلْتُهُ فماتَ بقربِ ذلكَ.

فقلتُ لهُ: هذَا زيادةُ اعتناءٍ للحقِّ بكَ حتَّىٰ لا تساكنَ بقلبِكَ غيرَهُ؛ لَا ولدًا، ولا زوجةً، ولهذَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا﴾ [التغابن: ١٤]،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٣.

(٢) في (ف): جماعة.

(٣) أي: عن الشغل بالله.

(٤) لأجل مشاهدة صنع الخالق سبحانه، فيترقي إلىٰ شهود صفاته، فهو ميل حق للقرب. انظر: نتائج الأفكار ٣/٣٦٩.

وغايةُ العدوِّ أنْ يُؤذِي، والأذيَّةُ تختلفُ باختلافِ المقاماتِ والأحوالِ، فرُبَّ زوجةٍ وولدٍ يوقعانِ في النَّارِ؛ للميلِ معَهُمْ فِي المشتهياتِ المحرَّماتِ، وربَّ زوجةٍ وولدٍ يشغلانِ عنْ أفاضلِ الطَّاعاتِ، ورُبَّ زوجةٍ وولدٍ يكونانِ سببًا للغفلةِ عَنْ لَذيذِ المُنَاجَاتِ ورفيعِ الدَّرجاتِ، وذلكَ علىٰ حسبِ ما يفعلُ الحقُّ ـ سبحانه ـ وينقلُ فيهِ أولياءَهُ منَ المقاماتِ ورفيعِ الحالاتِ، فيقدحُ في منازلِهِم الرَّفيعةِ أيسرُ الالتفاتِ إلىٰ غيرِهِ منَ المخلوقاتِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقِيلَ: مَرِضَتْ رَابِعَةُ، فَقِيلَ لَهَا:** [٢/٢٠١ب] **مَا سَبَبُ عِلَّتِكِ؟ فَقَالَتْ: نَظَرْتُ بِعَيْنَيَّ إِلَىٰ الجَنَّةِ، فَأَدَّبَنِي، فَلَهُ العُتْبَىٰ**[2]**، لَا أَعُودُ**[3]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ شَريفِ حَالِ رابعةَ، فإنَّهَا كانَتْ تقولُ للزُّهَّادِ الَّذينَ يقبِّحُونَ الدُّنيَا ويكثرُونَ ذمَّهَا: «مَنْ أحبَّ شيئًا أكثرَ مِنْ ذكْرِهِ، ما ذكرتُمُوهَا إلَّا ولهَا فِي قلوبِكُمْ قدرٌ ووزنٌ»، فلمَّا ارتفعَتْ همَّتُهَا عنِ الدُّنيَا اشتغلَتْ بالآخرةِ، فلمَّا أحبَّتِ اللهَ ـ سبحانه ـ شغلَتْهَا معرفتُهَا بهِ وحبُّهَا لهُ عنْ كلِّ محبوبٍ، فأعرضَتْ عمَّنْ سواهُ شُغْلًا بهِ، فلمَّا تمكَّنَتْ معَ الحقِّ ـ سبحانه ـ فِي هذَا المقامِ أعرضَتْ بقلبِهَا إلىٰ الجنَّةِ ومَا فيهَا فِي بعضِ الأوقاتِ، فأدَّبَهَا الحقُّ ـ سبحانه ـ بمَا شاءَ منَ الأدبِ، فعرفَتْ ذلكَ منهُ فتابَتْ ورجعَتْ إليهِ[4].

وفِي هذَا مِن الغَيْرَةِ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ لمْ يَرْضَ لقلبِهَا الشَّريفِ بعدَ أنْ خصَّهُ بمعرفتِهِ أنْ يلتفتَ إلىٰ شيءٍ مِن مَخْلُوقَاتِهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٣.

(٢) أي: عليَّ؛ لكونه لا يرضىٰ ذلك.

(٣) أي: إلىٰ مثله.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٣٢.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَيُحْكَىٰ عَنِ السَّرِيِّ أَنَّهُ قَالَ[٢]: كُنْتُ أَطْلُبُ رَجُلًا صِدِّيقًا مُدَّةً مِنَ الأَوْقَاتِ، فَمَرَرْتُ فِي بَعْضِ الجِبَالِ، فَإِذَا أَنَا بِجَمَاعَةٍ زَمْنَىٰ وَعُمْيَانٍ وَمَرْضَىٰ، فَسَأَلْتُ عَنْ حَالِهِمْ، فَقَالُوا: هَاهُنَا رَجُلٌ يَخْرُجُ فِي السَّنَةِ مَرَّةً يَدْعُو لَهُمْ فَيَجِدُونَ الشِّفَاءَ، فَصَبَرْتُ حَتَّىٰ خَرَجَ فَدَعَا لَهُمْ، فَوَجَدُوا الشِّفَاءَ، فَقَفَوْتُ أَثَرَهُ وَتَعَلَّقْتُ بِهِ وَقُلْتُ: بِي عِلَّةٌ بَاطِنَةٌ، فَمَا دَوَاؤُهَا؟ فَقَالَ: يَا سَرِيُّ، خَلِّ عَنِّي، فَإِنَّهُ غَيُورٌ، لَا يَرَاكَ تَسْأَلُ غَيْرَهُ فَتَسْقُطَ مِنْ عَيْنِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا قَدْ تقدَّمَ ذِكْرُهُ في الحكايةِ الأُولَىٰ، وروحُهُ: أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يغارُ علىٰ قلوبِ أوليائِهِ أنْ تسكنَ أوْ تتعلَّقَ بشيءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «وَمِنْهُمْ مَنْ [تَكُونُ][٤] غَيْرَتُه حِينَ يَرَىٰ النَّاسَ يَذْكُرُونَهُ بِالغَفْلَةِ فَلَا يُمْكِنُهُ رُؤْيَةُ ذَلِكَ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وقدْ تقدَّمَ هذَا وشرحْنَاهُ[٥]؛ حيثُ قيلَ لهُ: «**متىٰ تكونُ مستريحًا؟ فقالَ: إذَا لمْ أرَ لهُ ذاكِرًا**»، وبيَّنَّا أنَّ أحدَ وجهَيهِ إذَا لمْ يرَ لهُ ذاكِرًا علَىٰ الغفلةِ، فإنَّهُ إذا رأىٰ مَنْ يذكرُهُ علىٰ الغفلةِ تألَّمَ في نفسِهِ، ورأيْنَا أربابَ هذهِ الأحوالِ وخالطْنَاهُمْ، لَا يحتملُ أحدُهُمْ رؤيةَ مَنْ يذكرُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ بغيرِ إجلالٍ ولا تعظيمٍ، ويجدُ الألمَ التَّامَّ [٢/٢٠٢أ] فِي ذلكَ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٣.

(٢) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٢/٦٩، والمحاسن الغالية ص٣٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤١٣.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) أي: في قول الشبلي السابق.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[١]: «سَمِعْتُ الأُسْتاذَ أَبا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: لَمَّا دَخَلَ الأَعْرابِيُّ مَسْجِدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبالَ فِي المَسْجِدِ، وَتَبادَرَ إِلَيْهِ الصَّحابَةُ لِإِخْراجِهِ قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّمَا أَساءَ الأَعْرابِيُّ الأَدَبَ، وَلَكِنِ الخَجَلُ وَقَعَ عَلَىٰ أَصْحابِهِ، والمَشَقَّةُ حَصَلَتْ لَهُمْ حِيْنَ رَأَوا مِنْ وَضْعِ حِشْمَتِهِ، وكَذَلِكَ العَبْدُ إِذا عَرَفَ جَلالَ قَدْرِهِ ـ سبحانه ـ يَشُقُّ عَلَيْهِ سَماعُ ذِكْرِ مَنْ يَذْكُرُهُ بِالغَفْلَةِ، وَطَاعَةُ مَنْ لا يَعْبُدُهُ بِالحُرْمَةِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وهذِهِ الحكايةُ تعضدُ ما تقدَّمَ مِنْ أنَّ العارفَ باللهِ المعظِّمَ لهُ لا يحتملُ قلبُهُ سماعَ مَنْ يذكرُهُ على الغفلةِ، وذلكَ أنَّ البدوِيَّ لمَّا كانَ جاهلًا بحرمةِ المسجدِ وساءَ أدبُهُ فيهِ، ولَا سيَّمَا بحضرةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّمَا تبادَرَ الصَّحابةُ إلىٰ الإنكارِ عليهِ لِمَا امتلَأَتْ قلوبُهُمْ بهِ مِنْ حُرْمَةِ المسجدِ ورفعةِ مَنْ نسبَهُ وأضافَهُ إليهِ، وهوَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]، فلمَّا عظُمَتْ حُرْمَةُ البيتِ؛ لعظمةِ الحقِّ فِي قلوبِهِمْ بادرُوا إلىٰ الإنكارِ غيرةً علىٰ شرفِ المكانِ لا ينالُهُ نقصٌ أوْ خبثٌ، والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا كانَ أثبتَ وأمكنَ وأشفقَ وأرحمَ، وعلِمَ أنَّهُ لمْ يفعلْ ذلكَ مستهينًا، وإنَّمَا فعلَهُ جَهْلًا، فأمرَهُمْ بأنْ لَا يزرِمُوهُ، أيْ: لَا يمسكُوا بولتَهُ[٢]؛ فيتضرَّرَ في بَقِيَّتِهِ، أوْ ينجِّسَ غيرَهُ مِنَ الأماكنِ غلبةً، ثمَّ أمرَ بأنْ يصبَّ عليهِ ذَنُوبًا من مَاءٍ، فإنَّهُ طهورٌ مِنْ كلِّ أذىً؛ معنويٍّ أوْ حسِّيٍّ[٣].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٤.

(٢) في تصحيفات المحدثين ص٢٧٨: «والإزرام: القطع، يقال: أزرم الرجل بوله: إذا قطعه، وزرم البول نفسه: إذا انقطع وأزرمه غيره: قطعه».
وفي النهاية لابن الأثير ٢/٣٠١: «أنه بال عليه الحسن بن علي فأخذ من حجره، فقال: لا تزرموا ابني، أي: لا تقطعوا عليه بوله».

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٣٣.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «حُكِيَ[(٢)] أَنَّ الشِّبْلِيَّ مَاتَ لَهُ ابْنٌ كَانَ اسْمُهُ أَبَا الحُسَيْنِ، فَجَزَعَتْ أُمُّهُ عَلَيْهِ، وَقَطَّعَتْ شَعْرَ رَأْسِهَا، فَدَخَلَ الشِّبْلِيُّ الحَمَّامَ وَتَنَوَّرَ بِلِحْيَتِهِ، فَكُلُّ مَنْ أَتَاهُ مُعَزِّيًا قَالَ: أَيشٍ هَذَا يَا أَبَا بَكْرٍ، فَكَانَ يَقُولُ: مُوَافَقَةً لِأَهْلِي[(٣)].

فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ: أَخْبِرْنِي يَا أَبَا بَكْرٍ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: عَلِمْتُ أَنَّهُمْ يُعَزُّونَنِي عَلَى الغَفْلَةِ، وَيَقُولُونَ: آجَرَكَ اللهُ، فَفَدَيْتُ ذِكْرَهُمْ للهِ - تعالى - بِالغَفْلَةِ بِلِحْيَتِي».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذهِ الحكايةُ قد ينكرُهَا منكرٌ؛ يقولُ: أَمَرَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقصِّ الشَّاربِ وإكرامِ اللِّحيةِ[(٤)]، فكيفَ يَحْلِقُهَا ويُشَوِّهُ صُورَتَهُ وهوَ إمامٌ مُعظَّمٌ[(٥)] [٢/٢٠٢ب]؟!

وحلقُ اللِّحيةِ لا يخلُو: إمَّا أنْ يكونَ جائزًا أوْ مكروهًا، وأعظمُ أحوالِهِ أنْ يكونَ مكروهًا، وإذا كانَ مكروهًا فَهَلْ هوَ مكروهٌ عندَ كلِّ العلماءِ أوْ فيهِ خلافٌ، قَدْ لا يكونُ مكروهًا عندَ هذَا الشِّبليِّ، وإنْ قدرَ مكروهًا فهلْ يجوزُ التَّداوِي منَ الأمراضِ والعللِ بمَا ليسَ بمحرَّمٍ؟! كمَا أنَّ الإسرافَ فِي الشَّهواتِ وأنواعِ الطَّيِّباتِ وكثرةَ بذلِ المَالِ مكروهٌ للإنسانِ علىٰ نفسِهِ، وإذَا كانَ ذلكَ للمداواةِ خرجَ عنْ كونِهِ مكروهًا.

والَّذي صرَّحَ بهِ الشِّبليُّ وسيقَتْ لهُ الحكايةُ: أنَّهُ كانَ يدخلُ علىٰ قلبِهِ منَ الألمِ إذا عزَّاهُ غافلونَ في موتِ ولدِهِ، كمَا يجرِي منْ أحوالِ النَّاسِ اليومَ، يقولُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٤.

(٢) وردت حكايته في: مدارج السالكين ٣/٤٥، وروضة المحبين ص٣٠٨.

(٣) وتطييبًا لقلبها.

(٤) ففي صحيح مسلم ١/٢٢٢: «عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أَمَرَ بِإِحْفَاءِ الشَّوَارِبِ، وَإِعْفَاءِ اللِّحْيَةِ» - حديث رقم (٢٥٧).

(٥) غير واضحة بالأصل، فلعلها هكذا.

الرَّجلُ لمَنْ أصابَهُ مثلُ هذَا في ولدِهِ: «واللهِ لقدْ عزَّ عليَّ ما جرَىٰ عليكَ، واللهُ ـ تعالىٰ ـ يحملُ عنْ قلبِكَ، ومَا تستاهلُ مثلَ هذَا»، فهذَا النَّوعُ كثيرًا مَا يجرِي في تعزيةِ الغافِلينَ، وأحسنُ التَّعزيةِ منَ العقلاءِ أنْ يقولَ الرَّجلُ: «أعظَمَ اللهُ أجرَكَ فِي مصيبتِكَ، ورزقَكَ اللهُ الصَّبْرَ علَىٰ ما ابتلاكَ بهِ».

وقلبُ العارفِ لا يحتملُ شيئًا ممَّا ذكرْنَاهُ لا مِنْ تعزيةِ الصَّالحينَ أوِ الغافلينَ، فإنَّهُ مسرورُ القلبِ بفعلِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، راضٍ بهِ فرِحٌ مسرورٌ بكلِّ مَا يختارُهُ ويجريهِ، فهوَ يتألَّمُ بسماعِ خلافِ ما هوَ فيهِ، فحلقَ لحيَتَهُ ليشتغلُوا عنْ تعزيَتِهِ بمَا يرونَهُ مِن تغييرِ صورتِهِ وهيئتِهِ، هذَا وجهُ التَّأويلِ لهُ؛ لأنَّهُ فعلَهُ مداواةً، ويبعدُ أنْ يفعلَهُ موافقةً لزوجتِهِ وطيبًا لقلبِهَا؛ ليساويهَا بمَا قطَّعَتْهُ مِنْ شَعْرِهَا ألمًا علىٰ فواتِ ولدِهَا، فإنَّ الموافقةَ إنَّمَا تكونُ في غيرِ هذَا، وكانَ حقُّهُ أنْ يزجرَهَا قبلَ أنْ تفعلَ، وعلَىٰ الجُملةِ فالَّذِي يجوزُ أنْ يحملَ عليهِ فعلهُ أنَّهُ لمْ يرتكِبْ مُحَرَّمًا ولا نقيصةً في دينِهِ بسببِ مَوتِ وَلَدِهِ، يُحَاشَىٰ عَنْ ذلكَ.

ولَقَدْ حُكِيَ أنَّ بعضَهُمْ كانَ عندَهُ أولادٌ لهُمْ جَمالٌ وهيئةٌ، فدخلَ عليهِم داخلُونَ وتعجَّبُوا مِنْ حسنِهِمْ وهيئتِهِمْ كأنَّهُمُ الدَّنانيرُ، فلمَّا أدركَ ذلكَ منهُمْ رفعَ رأسَهُ إلىٰ سقفِ بيتِهِ وإذَا خُطَّافٌ فِي وكرِهَا، وأقسَمَ لهُمْ باللهِ لَسقوطُ بيضِ تلكَ الخطَّافِ وكسرِهَا أعزُّ عليَّ مِنْ مَوتِ هؤلاءِ، وذلكَ أنَّ موتَ هؤلاءِ إذَا قابلَهُ بالصَّبْرِ والرِّضَا كانَ لهُ فيهَا أعظمُ الجزاءِ، بخلافِ [٢٠٣/٢أ] بيضِ الخطَّافِ فإنَّهَا يتضرَّرُ بكسرِ بيضِهَا فيشقُّ عليهَا لمَا أصابَهَا، هوَ يحبُّ السَّلامَةَ والعافيةَ لكلِّ الخلْقِ، ويرضَىٰ بمَا يجريهِ اللهُ عليهِ مِنْ قدرِهِ ولَا يتألَّمُ بهِ علَىٰ حالٍ، فأخبَرَ أنَّهُ يتألَّمُ علَىٰ كسرِ بيضِ الخطَّافِ أكثرَ ممَّا يتألَّمُ علَىٰ موتِ ولدِهِ لمعرفتِهِ باختيارِ اللهِ لهُ في ذلكَ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَسمعَ النُّورِيُّ رَجُلًا يُؤَذِّنُ، فَقَالَ[(٢)]: طَعْنَةً وَسُمَّ المَوْتِ، وَسَمِعَ كَلْبًا يَنْبَحُ فَقَالَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَقِيلَ: إِنَّ هَذَا تَرْكُ الدِّينِ! يَقُولُ لِلْمُؤَذِّنِ فِي تَشَهُّدِهِ: طَعْنَةً[(٣)] وَسُمَّ المَوْتِ، وَيُلَبِّي عِنْدَ نُبَاحِ الكِلَابِ؟! فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَمَّا ذَلِكَ فَكَانَ ذِكْرُهُ عَلَىٰ رَأْسِ الغَفْلَةِ، وَأَمَّا الكَلْبُ، فَقَالَ ـ تعالىٰ ـ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾** [الإسراء: ٤٤]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَوضعُ الاستشهادِ بالحكايةِ ودخولِهَا في الغَيْرةِ: كونُهُ لَمْ يَحْتَمِلْ ذِكرَ المؤذِّنِ اللهَ علىٰ الغفلةِ[(٤)]، فإنَّهُ قدْ يؤذِّنُ الإنسانُ علىٰ حكمِ العادةِ مِنْ غيرِ تعظيمٍ ويظهرُ ذلكَ مِنْ شَمائلِهِ وفِي أثناءِ كلماتِهِ، فتأذَّىٰ النُّوريُّ بسماعِ ذلكَ، فقالَ لَهُ: جزاؤُكَ علىٰ هذَا الذِّكْرِ معَ الغفلةِ أنْ جازاكَ بلعنِهِ وسمِّ الموتِ، ولمَّا سمعَ الكلبَ ينبحُ فيجوزُ أنْ يُفهمَ اللهُ النُّوريَّ مَا يكلِّمُ بهِ الكلبَ، وأنَّهُ دُعِيَ إلىٰ خيرٍ وطاعةٍ للهِ ـ تعالىٰ ـ، فأجابَهُ بـ«**لبَّيكَ وسعديكَ**»، **وقولُهُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾**»، أرادَ بهِ: أنَّ نباحَ الكلابِ منهُ طاعةٌ وخيرٌ؛ فإنَّهُ كلامُهُمْ، وبهِ يكلِّمُ بعضُهُمْ بعضًا ويدعُو بعضُهُمْ بعضًا، وقَدْ علَّمَ اللهُ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كلامَ الطَّيرِ وإنْ كانَتْ لغتُهُ مختلفةً وهوَ أنواعٌ[(٥)]، وعلَّمَهُ كلامَ النَّملِ لمَّا سمعَهَا تقولُ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨]، وهذَا دليلٌ علىٰ فَهْمِهِ كلامَ غيرِ الطَّيرِ داخلٌ تحتَ قولِهِ: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

ويجوزُ أنْ يُفهِّمَ اللهُ الوليَّ ما أفهمَهُ للنَّبيِّ مِنْ هذا القبيلِ؛ لأنَّهُ مِنْ خَرْقِ العَادةِ، ولا استحالةَ فيهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٤.

(٢) أي: عند تشهده. وورد قوله في: مدارج السالكين ٣/٤٦، وروضة المحبين ص٣٠٨.

(٣) نصب علىٰ المفعول المطلق، أي: طعنك الله طعنة.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٣٤.

(٥) فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): **«وَأَذَّنَ الشِّبْلِيُّ مَرَّةً، فَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَىٰ الشَّهَادَتَيْنِ قَالَ: لَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَنِي مَا ذَكَرْتُ مَعَكَ غَيْرَكَ»**(٢).

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا في ظاهرِهِ شديدٌ، وفهمُهُ علىٰ مَنْ لمْ يمارِسْ أحوالَهُمْ ويتأنَّسْ بمقاصدِهِ بعيدٌ.

فأمَّا وجهُ شدَّتِهِ: فإنَّ أصلَ الإيمانِ لا يتمُّ إلَّا بالشَّهادتَينِ؛ وهوَ (أشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ)، فإذَا [٢/٢٠٣ب] كانَا في الدِّينِ بهذِهِ المنزلةِ، فكيفَ يتأتَّىٰ أنْ يسكتَ عنهُ ولَا يعظِّمَانِ ويشرِّفَانِ، أعنِي الشَّهادةَ بأنَّهُ رسولُ اللهِ في الأذانِ مرَّتينِ، وإنَّمَا لمَّا غلبَ علىٰ الشِّبليِّ دوامُ ذكرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بقلبِهِ ولسانِهِ، حتَّىٰ شغلَهُ ذلكَ عنِ الشُّغلِ بغيرِهِ، فلمْ يحتمِلْ قلبُهُ ذكْرَ غيرِهِ معَهُ، فلذلِكَ قالَ: **«لولَا أنَّكَ أمرْتَنِي ما ذكرتُ معكَ غيرَكَ»**، فلمْ يخلُ لشيءٍ ممَّا أمرَهُ لهُ ولَا تركَهُ ولا أهملَ جلالَهُ وعظمتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنَّهُ اعترفَ بأنِّي أجلُّ مَنْ أجللْتَ وأعظِّمُ مَنْ عظَّمْتَ وأمتثلُ ما أمرْتَ، ثمَّ أذَّنَ وقالَ: (أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ) وكرَّرَهَا، ثمَّ جرَتْ علىٰ لِسَانِهِ بعدَ أنْ قالَهَا وقبلَ الحَيْعَلَتَينِ(٣): **«لولَا أنكَ أمرْتَنِي مَا ذكرتُ غيرَكَ»** معَ نفسِهِ ولمْ يذكرْهُ لغيرِهِ.

ووجهُ الاستدلالِ بالغيرةِ لمَا تقدَّمَتِ الإشارةُ إليهِ أنَّ مَنْ كمُلَتْ محبَّتُهُ وغيرتُهُ للحقِّ ـ سبحانه ـ لا يحتملُ ذكرَ غيرِهِ في حَالِ غَلَبَةِ ذكرِهِ علىٰ قلبِهِ(٤).

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٤.

(٢) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٤٧٣، وشرح نهج البلاغة ١١/١٣٢.

(٣) هي قولك: «حي علىٰ الصلاة، حي علىٰ الفلاح»، انظر: تحرير ألفاظ التنبيه ص٥٢، والقاموس المحيط ص١٢٨٠.

(٤) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٣٥.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(١): «وَسَمِعَ رَجُلٌ رَجُلًا يَقُولُ(٢): جَلَّ اللهُ، فَقَالَ لَهُ: أُحِبُّ أَنْ تُجِلَّهُ عَنْ هَذَا».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أرادَ منهُ أنْ يذكرَ اللهَ ـ سبحانه ـ وهوَ مُجِلٌّ لهُ مُعَظِّمٌ بقلبِهِ ولِسَانِهِ حتَّىٰ يظهرَ ذلكَ علىٰ جَوَارِحِهِ، وإنَّمَا قالَ لهُ ذلكَ لمَّا سمِعَهُ مِنْ لِسَانِهِ، ولَمْ يَرَ أمارةً تدلُّ علىٰ تَعْظِيمِهِ للحَقِّ تعالَىٰ وإجْلَالِهِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٣): «سَمِعْتُ بَعْضَ الْفُقَرَاءِ يَقُولُ(٤): سَمِعْتُ أَبَا الحَسَنِ الخَرْقَانِيَّ يَقُولُ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) مِنْ دَاخِلِ القَلْبِ، (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) مِنَ القُرْطِ(٥).

وَمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ ظَاهِرِ هَذَا اللَّفْظِ تَوَهَّمَ أَنَّهُ اِسْتَصْغَرَ الشَّرْعَ، وَلَا كَمَا يَخْطُرُ بِالبَالِ، إِذِ الإِخْطَارُ لِلأَغْيَارِ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ قَدْرِ الحَقِّ مُتَصَاغِرَةٌ فِي التَّحْقِيقِ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ ممَّا لَوْ أمكنَ طرحُهَا طرحتُهَا مِنْ هذِهِ الرِّسالةِ، فإنَّهَا في ظاهِرِهَا في غايةِ البَشَاعةِ، وقلَّةِ القيامِ بحرمةِ الرِّسالةِ، وأينَ كلامُ هذَا الفقيرِ علىٰ التَّحقيقِ مِنْ كلامِ الشِّبليِّ الَّذي أشارَ إلىٰ المعنَىٰ الَّذِي أرادَهُ هذَا الفقيرُ معَ كمالِ حرمةِ الشَّريعةِ وملازمةِ الأمرِ والنَّهيِ في تعظيمِ حقِّهَا؟ وكيفَ يعظِّمُ الحقُّ سبحانَهُ مَنْ لمْ يعظِّمْ ما عظَّمَهُ الحقُّ؟!

وغايةُ مرادِ [٢/٢٠٤أ] هذَا الفقيرِ وشرحِ كلامِ هذا الإمامِ لمقالتِهِ الشَّنيعةِ أنَّ قدرَ الحقِّ ـ سبحانه ـ وجلالَهُ وعظمتَهُ لا يُوازِي مخلوقًا، ومَنْ يخالِفُ في هذَا!، وإنَّمَا

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٥.

(٢) ورد قوله في: مدارج السالكين ٣/٤٦.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤١٥.

(٤) ورد قوله في: الاستقامة ٢/٢٢.

(٥) في (ف): الفرط.

عظُمَ قدرُ الأنبياءِ والرُّسلِ ـ صلواتُ اللهِ عليهِمْ ـ لتعظيمِ الحقِّ لهُمْ؛ حتَّىٰ جعلَ طاعتَهُمْ طاعةً فقالَ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ووجهُ بشاعةِ الحكايةِ علىٰ استثقالِ مَذَالهَا: أنَّهُ إذَا قالَ: (لَا إلهَ إلَّا اللهُ) قالَهَا مِنْ داخلِ قلبهِ عارفًا بهِ محبًا لهُ، وإذَا قالَ: (محمَّدٌ رسولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قالها مجبورًا كارهًا، ولذلكَ قالَ: «مِنْ خلفِ القُرْطِ[1]»، يعنِي: مِنَ القفا مجبورًا بغيرِ اختيارِهِ، وهذَا لوْ كانَ قالَهُ علىٰ التَّحقيقِ لكانَ كافرًا، فإنَّ اليهودَ والنَّصارىٰ كلَّهُمْ يقولُونَ: (لا إلهَ إلَّا اللهُ)، وإنَّمَا كفرُوا بتركِهِمْ (محمَّدًا رسولُ اللهِ)، ولمَّا قالَهَا المنافقونَ نقايةً وحفظًا لأموالِهِمْ ودِمَائِهِمْ، وكانُوا يقولونَهَا[2] مكرَهينَ كانُوا في الدَّركِ الأسفلِ منَ النَّارِ، وأشدَّ عذابًا منَ الكفَّارِ.

وإنَّمَا تجرِي هذهِ الألفاظُ علىٰ ألسنةِ مَنْ لَمْ يتأدَّبْ بآدابِ الشَّريعةِ، ويُطْلَقُ في حقِّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ورسولِهِ ألفاظًا ظَاهِرُهَا لَا يحسنُ وإنْ أرادَ معانِي صحيحةً فهوَ مخطئٌ علَىٰ كلِّ حالٍ، وَلَهُ فِي غَيْرِهَا منَ الألفاظِ غُنْيَةٌ ولَوْ قُدِّرَ أَنَّهَا جَرَتْ علىٰ لسانِ هذا الفقيرِ في وَقْتِ غلبةِ حالٍ وشَطْحٍ وكانَ معذورًا، فذكرهَا عنهُ علىٰ وجهِ المدحِ لهُ وحُسْنِ حَالِهِ ليسَ بحسَنٍ، فإنَّ مِنْ كمالِ الأحوالِ أنْ يحفظَ اللهُ العَبْدَ فِي وقتِ غَيْبَتِهِ وحُضُورِهِ[3].

---

(١) هو: ما يعلق بشحمة الأذن.

(٢) في (أ): يقولها، والصواب المثبت.

(٣) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٣٥.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

باب الولاية

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

أَخْبَرَنَا حَمْزَةُ بْنُ يُوسُفَ السُّهَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَدِيٍّ [الجُرْجَانِيّ][(٢)] الحَافِظُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ بْنِ حُمَيْدٍ[(٣)]، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ المُقْرِئُ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ الخَيَّاطُ، عَنْ عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ مَيْمُونٍ مَوْلَى عُرْوَةَ، [عَنْ عُرْوَةَ][(٤)]، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ[(٥)]: «يَقُولُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: مَنْ آذَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ اسْتَحَلَّ مُحَارَبَتِي[(٦)]، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ العَبْدُ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ، وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ [٢/٢٠٤ب] بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي فِي قَبْضِ رُوحِهِ، [فإنهُ][(٧)] يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والحديثُ صحيحٌ، وطرقُهُ مختلفةٌ بالزِّيادةِ والنَّقصِ، روىٰ أبو هُريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ[(٨)]: «مَنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٦.

(٢) زيادة من (ف)، ثم سقط بقية السند فيها إلىٰ عبد الواحد بن ميمون.

(٣) في (أ): حمود.

(٤) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية المطبوع.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٦/٢٥٦، والطبراني في المعجم الأوسط ٩/١٣٩، والبيهقي في الزهد الكبير ص٢٧٠.

(٦) أي: قد تعرض لذلك.

(٧) تتمة من الرسالة القشيرية.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٣٨٤ ـ حديث رقم (٦١٣٧).

عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ عَبْدِي المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ».

وروىٰ أنسٌ عنِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جبريل عنْ ربِّهِ عَزَّوَجَلَّ قالَ[(١)]: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالمُحَارَبَةِ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ مَا تَرَدَّدْتُ فِي قَبْضِ نَفْسِ مُؤْمِنٍ، أَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، وَمِنْ عِبَادِي المُؤْمِنِينَ مَنْ يُرِيدُ بَابًا مِنَ العِبَادَةِ فَأَكُفُّهُ عَنْهُ، لَا يَدْخُلُهُ عُجْبٌ فَيُفْسِدُهُ ذَلِكَ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَنْتَفِلُ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، وَمَنْ أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَمُؤَيِّدًا، دَعَانِي فَأَجَبْتُهُ، وَسَأَلَنِي فَأَعْطَيْتُهُ، وَنَصَحَ لِي فَنَصَحْتُ لَهُ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي المُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الفَقْرُ، فَإِنْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الغِنَىٰ وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي المُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الصِّحَّةُ، وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي المُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا السَّقَمُ، وَلَوْ صَحَّحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، إِنِّي أُدَبِّرُ عِبَادِي بِعِلْمِي بِقُلُوبِهِمْ، إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ»، رواهُ عبدُ الكريمِ[(٢)] عنْ أنسٍ مختصرًا، وقالَ فيهِ: «وَإِنِّي لَأَسْرَعُ شَيْءٍ إِلَىٰ نُصْرَةِ أَوْلِيَائِي، إِنِّي لَأَغْضَبُ لَهُمْ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِ اللَّيْثِ الحَرْبِ».

وَمَا تضمَّنَتْهُ هذهِ الأحاديثُ مِن شرفِ الأولياءِ عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ورفعةِ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٨/٣١٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/٩٦.

(٢) أي: عبد الكريم الجزري، كما في: صفة الصفوة ١/٤٠، ورواه أيضا الترمذي في نوادر الأصول ٢/٢٣٢، والديلمي في الفردوس ٣/١٦٧.

منزلتِهِمْ لا يخفَىٰ، حتَّىٰ لوْ أمكنَ أنَّهُ ـ تعالىٰ ـ لا يذيقُهُمُ المَوتَ [٢/٢٠٥أ] الَّذِي حتَّمَهُ علىٰ عبادِهِ لفعلَ، وبهذَا المعنَىٰ وردَ لفظُ التَّردُّدِ، كما أنَّ العبدَ إذَا كان لهُ أمرٌ لا بُدَّ لهُ أنْ يفعلَهُ بمَنْ يحبُّهُ، وذلكَ الأمرُ يؤلِمُ حبيبَهُ، فإنْ نظرَ إلىٰ ألمِ حبيبِهِ انكفَّ عنِ الفعلِ، وإذَا نظرَ إلىٰ أنَّهُ لا بُدَّ لهُ منهُ لمنفعتِهِ أقدمَ عليهِ، فعبَّرَ بهذِهِ الحالةِ في قلبِ العبدِ عنِ التَّردُّدِ، فخاطبَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ الخلقَ بهَا علىٰ حسبِ ما يعرفونَ، ودلَّهُمْ بذلِكَ علىٰ شرفِ الوليِّ عندَهُ ورفعةِ درجتِهِ(١)، وأنَّهُ إنْ دعَا استجابَ لهُ، وإنْ سألَ أعطاهُ، وأعلمَهُمْ أنَّ أوَّلَ درجةٍ مِن درجاتِ الولايةِ الإيمانُ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ثمَّ التَّقرُّبُ بالواجباتِ والانكفافُ عنِ المحرَّماتِ، بقولِ: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»، ثمَّ التَّقرُّبُ بفعلِ المندوباتِ والانكفافِ عنِ المكروهاتِ وإنْ لمْ تكنْ محرَّماتٍ، ثمَّ التَّقرُّبُ بأرفعِ المندوباتِ وأفضلِهَا في الدَّرجاتِ، والانكفافُ عنْ أيسرِ الشُّبُهاتِ، فإذَا توالَىٰ ذلكَ علىٰ العبدِ أحبَّهُ اللهُ وحفظَهُ في سَائِرِ جَوَارِحِهِ؛ مِنْ عَيْنِهِ وسَمْعِهِ وَيَدِهِ وَرِجْلِهِ.

هذا معنَىٰ كونِ الوليِّ محفوظًا أنَّهُ يجرِي في سائِرِ تصرُّفاتِهِ بقلبِهِ وجَوَارِحِهِ علَىٰ أفضلِ الحَالاتِ، وكفَىٰ بهذِهِ الأحاديثِ فضيلةً للأولياءِ عندَ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ.

ثمَّ الولايةُ علىٰ درجاتٍ، وهيَ تُطلَقُ فِي لسانِ العربِ علىٰ جهاتٍ(٢):

يطلقُ الوليُّ بمعنَىٰ: النَّاصرِ، ومنهُ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٣٦ ـ ٧٣٧.

(٢) تأملها في: الأضداد لقطرب ص١٣٤، ولأبي الطيب اللغوي ص٤١٤.

والوليُّ بمعنى: الحافظِ، والهادِي، والمُبيِّنِ للحقِّ، ومنهُ قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

والوليُّ في النِّكاحِ، وكذلِكَ وليُّ اليتيمِ.

والمقصودُ هاهُنَا الولايةُ تكونُ خاصَّةً وعامَّةً، والمدحةُ الَّتِي ذكرَهَا اللهُ ـ تعالى ـ في هذَينِ الحديثَينِ إنَّمَا هيَ للولايةِ الخاصَّةِ، فإنَّهُ ذكرَ الولايةَ العامَّةَ؛ وهيَ ولايةُ الإيمانِ، ثمَّ ولايةُ القيامِ بالواجباتِ، وكذلِكَ القيامُ بالمندوباتِ، وأرفعِهَا فِي الدَّرجاتِ، ثمَّ ذكرَ محبَّتَهُ للعبدِ، وهيَ الولايةُ الخاصَّةُ في حفظِهِ في قلبِهِ وسَائِرِ جَوارِحِهِ، واستجابةِ دعائِهِ، وعَدَاوةِ مَنْ عَادَاهُ، وسُرْعَةِ إجابتهِ فيمَا دَعَاهُ، ودفْعِ مَا يُؤلِمُهُ عنهُ إلَّا ما حتَّمَهُ عليهِ وقضَاهُ [٢/٢٠٥ب].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «الوليُّ لهُ معْنيَانِ:

أَحَدُهُمَا: فَاعِلٌ[٢] بِمعْنَى مَفْعُولٍ؛ وَهُوَ مَنْ يَتَوَلَّى اللهُ ـ سبحانه ـ أَمْرَهُ، قَالَ اللهُ ـ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، فَلَا يَكِلُهُ إِلَى نَفْسِهِ لَحْظَةً، بَلْ يَتولَّى الحَقُّ ـ سبحانه ـ رِعَايَتَهُ.

وَالثَّانِي: فَعِيلٌ مُبَالَغَةٌ مِنَ الفَاعِلِ؛ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى عِبَادَةَ اللهِ وَطَاعَاتِهُ، فَعِبَادَاتُهُ تَجْرِي عَلَى التَّوَالِي[٣] مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَخَلَّلَهَا عِصْيَانٌ.

وَكِلَا الوَصْفَينِ وَاجِبٌ حَتَّى يَكُونَ الوَلِيُّ وَلِيًّا، يُجِبُ قِيَامَهُ بِحُقُوقِ اللهِ ـ تعالى ـ عَلَى الاِسْتِقْصَاءِ وَالاِسْتِيفَاءِ، وَدَوَامِ حِفْظِ اللهِ ـ تعالى ـ إِيَّاهُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ.

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٦ ـ ٤١٧.

(٢) في الرسالة القشيرية المطبوع، وإحكام الدلالة ٢/٧٣٧: فعيل.

(٣) أي: من غير كلفة فيها؛ لصيرورتها مألوفة له.

وَمِنْ شَرْطِ الوَلِيِّ: أَنْ يَكُونَ مَحْفُوظًا، كَمَا أَنَّ مِنْ شَرْطِ النَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا، فَكُلُّ مَنْ كَانَ لِلشَّرْعِ عَلَيْهِ اعْتِرَاضٌ فَهُوَ مَغْرُورٌ مَخْدُوعٌ(١).

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ(٢): قَصَدَ أَبُو يَزِيدَ البِسْطَامِيُّ بَعْضَ مَنْ وُصِفَ بِالوِلَايَةِ، فَلَمَّا وَافَى مَسْجِدَهُ قَعَدَ يَنْتَظِرُ خُرُوجَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ وَتَنَخَّمَ(٣) فِي المَسْجِدِ، فَانْصَرَفَ أَبُو يَزِيدَ وَلَمْ يُسلِّمْ عَلَيْهِ، وَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ غَيْرُ مَأْمُونٍ عَلَىٰ أَدَبٍ مِنْ آدَابِ الشَّرِيعَةِ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَمِينًا عَلَىٰ أَسْرَارِ الحَقِّ؟!».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وما ذكرَهُ الإمامُ مِنْ تصريفِ الولِيِّ في المبالغةِ بمعنَىٰ (الفَاعِلِ) و(المَفْعُولِ) هُوَ مَا تضمَّنَهُ الخَبَرُ الصَّحِيحُ الَّذِي أوردْنَاهُ؛ وهوَ قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكايةً عن ربِّهِ ـ تعالىٰ ـ: «مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِم، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»، وهذَا هوَ الوليُّ بمعنَىٰ الفَاعلِ؛ وهوَ الَّذِي توالَتْ طاعاتُهُ لربِّهِ، وارتفعَتْ في درجاتِ قربِهِ، فإذَا أحبَّهُ ـ تعالىٰ ـ حفظَهُ في قلبِهِ وسَائِرِ أعضائِهِ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدِهِ ورجلِهِ، وهذَا بمعنَىٰ مفعولٍ؛ وهوَ أنَّ العبدَ تَوالَتْ عليهِ النِّعمُ مِنْ ربِّهِ والحفظُ لهُ في جَوارِحِهِ وقَلْبِهِ.

فعلَىٰ هذَا التَّقريرِ يصحُّ وصفُ العبدِ بالولِيِّ علَىٰ هذَينِ الوجهَينِ؛ فيكونُ وليًّا بمعنَىٰ: توالِي طاعاتِهِ لربِّهِ، ووليًّا بمعنَىٰ: توالِي فضْلِ ربِّهِ عليهِ.

وقولُ الإمامِ: «**ومِنْ شرطِ الوليِّ أنْ يكونَ محفوظًا، كمَا أنَّ مِن شَرْطِ النَّبيِّ أنْ يَكُونَ مَعْصُومًا**»، فالنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا كانَ معصومًا؛ لأنَّهُ يُبَلِّغُ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ما

(١) في (ف): مخادع.

(٢) سبق تخريجه بصدد ترجمة المؤلف لأبي يزيد البسطامي.

(٣) أي: رمىٰ بنخامته؛ وهو ما يخرج من الخيشوم عند التنخع. انظر: المغرب للمطرزي ٢/٢٩٤.

أرسلَهُ بهِ، ودلَّتِ المعجزةُ علىٰ استحالهِ خطئِهِ في قَوْلِهِ وفعْلِهِ، بالنَّظرِ إلىٰ أحكامِ ربِّهِ.

وأمَّا الوَلِيُّ [٢٠٦/٢أ] فالشَّاهدُ لهُ علىٰ صِحَّةِ وِلايتِهِ الخاصَّةِ أنْ يكونَ محفوظًا، وإلَّا فالزَّللُ والخطأُ والمعصيةُ لا يقدحُ في وِلايتِهِ، وربَّمَا كانَ خطؤُهُ في بعضِ عباداتِهِ سببًا لزيادةِ قُربِهِ ورِفْعَةِ دَرجَتِهِ، وكمالِ جدِّهِ وحرقَتِهِ، كمَا قالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١]: «إنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُدْخِلُهُ ذَنْبُهُ الجَنَّةَ»، وبيَّنَ ذلكَ بقولِهِ: «لَا يَزَالُ تَائِبًا مِنْهُ هَارِبًا»، فَلَمْ تكنِ السَّلامةُ منَ الزَّللِ شرطًا فِي الولايةِ، كمَا أنَّ نفيَهُ شرطٌ فِي العصمةِ، نعَمْ، مَنْ أرادَ الحقُّ حِفْظَهُ بالكلِّيَّةِ حَفِظَهُ في سائرِ حَرَكَاتِهِ وسَكَنَاتِهِ.

وأمَّا الحكايةُ الَّتِي أوردَهَا عَنْ أبِي يزيدَ فمقصودُ الإمامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنْ يحذِّرَ النَّاسَ منَ الاغترارِ بجَمَالِ الأفعالِ، وحُسنِ المَقَالِ، وجَريانِ خَوارقِ العَادَاتِ عَنْ وزنِ المُتحَلِّي بهذِهِ الأمورِ بالشَّريعةِ، والاتِّصافِ بهَا في سائرِ الحركاتِ والسَّكناتِ، فإنَّ الدَّليلَ علىٰ صحَّةِ دَعْوَاهُ استقامتُهُ علىٰ ما جاءَ بهِ الأنبياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وثبتَ بِوَاضِحِ الأَدِلَّةِ والمُعْجِزَاتِ.

ولا يدلُّ جريانُ الخارقِ للعادةِ علىٰ أنَّ العبدَ وليٌّ لربِّهِ، ولا بُدَّ وَقَدْ يكونُ[٢] مَمْكورًا بهِ، وكذَّابًا عليهِ، ويُجْرِي اللهُ ـ تعالىٰ ـ ذلكَ عليهِ، ويكفِي في ذلكَ دليلًا خروجُ الدَّجَّالِ في آخرِ الزَّمانِ ومعَهُ جنَّةٌ ونارٌ، ويُحْيِي ويُميتُ، وهوَ عدوُّ الرَّحمنِ[٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أي: لا انفكاك، قال النووي في المجموع ١/٣٢٤: «قال أهل اللغة: يقال: لا بد من كذا، أي: لا فراق منه ولا انفكاك عنه، أي: هو لازم». وانظر: الصحاح ٢/٤٤٥. والقصد: بل قد يكون.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٣٨.

وربَّمَا كانَ بعضُ الأولياءِ متقنًا لعبادتِه، خائِفًا منْ تقصيرِهِ في حقِّ ربِّهِ وخلاصهِ فِي سائِرِ حالاتِهِ، فيُجرِي علَىٰ يدَيهِ خارقًا بخلافِ عادتِهِ، فيعجبُ في نفسِهِ ويزهُو ويدِلُّ بعملِهِ علىٰ ربِّهِ ويلهُو، فيَا ليتَ شعرِي هلْ أكرمَهُ مولَاهُ أوْ خذلَهُ؟!.

فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ الكرامةَ ما أعانَ العبدَ علَىٰ الصِّراطِ المستقيمِ، وقوَّىٰ منهُ اليقينَ، فالحكايةُ عن أبِي يزيدَ تشيرُ إلىٰ نحوِ هذَا، وهوَ أنَّهُ يُعلمُ أصحابَهُ ويُحذِّرُهُمُ الاغترارَ بانتشارِ الثَّناءِ، وشيوعِ الذِّكرِ في الخلْقِ منْ غيرِ استقامةٍ، فلا يراعِي في الولِيِّ إلَّا الاستقامةَ خاصَّةً.

وقدْ يُقَوِّي اللهُ ـ تعالىٰ ـ يَقِينَهُ ويكملُ اشتغالَهُ بهِ منْ غيرِ خَارقٍ، ينشِئُ اللهُ ذلكَ فِي قلبهِ تفضُّلًا منهُ، وقدْ يقوَىٰ يقينُهُ بإظهارِ الكراماتِ وخوارقِ العاداتِ، ويفعلُ اللهُ ما يشاءُ، فلمَّا سمعَ أبو يزيدَ بهذَا الرَّجلِ الَّذِي شهرَ نفسَهُ بالولايةِ فقالَ لأصحابِهِ: «قومُوا بنَا إليهِ»، أيْ: لنستفيدَ منْ أحوالِهِ، وننتفعَ برؤيتِهِ [٢/٢٠٦ب] ومقالِهِ، فلمَّا وصلَ إلىٰ مسجدِهِ جلسَ ينتظِرُهُ، فلمَّا خرجَ إليهِمْ «**تنخَّمَ في المسجدِ**» ورمَىٰ ببصاقِهِ تجاهَ القبلةِ، فقالَ أبو يزيدَ لأصحابِهِ: قومُوا بنَا، فإذَا كانَ هذا لمْ يحفظْهُ اللهُ في هذا الأدبِ اليسيرِ منِ احترامِ المسجدِ وجهةِ التَّعبُّدِ، فكيفَ بأسرارِ الأولياءِ وأحوالِ المُقرَّبينَ؟! هذَا روحُ الحكايةِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الوَلِيَّ هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ وَلِيٌّ أَمْ لَا؟

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا يَجُوزُ ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنَّ الوَلِيَّ يُلَاحِظُ نَفْسَهُ بِعَيْنِ التَّصْغِيرِ، وَإِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الكَرَامَاتِ خَافَ أَنْ يَكُونَ مَكْرًا، وَهُوَ يَسْتَشْعِرُ الخَوْفَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٧ ـ ٤١٨.

دَائِمًا؛ لِخَوْفِ سُقُوطِهِ عَمَّا هُوَ فِيهِ، وَأَنْ تَكُونَ عَاقِبَتُهُ بِخِلَافِ حَالِهِ، وَهَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ مِنْ شَرْطِ الوِلَايَةِ وَفَاءَ المَآلِ(١).

وَقَدْ وَرَدَتْ فِي هَذَا البَابِ حِكَايَاتٌ كَثِيرَةٌ عَنِ الشُّيُوخِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مِنْ شُيُوخِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ جَمَاعَةٌ لَا يُحْصَوْنَ، وَلَوِ اشْتَغَلْنَا بِذِكْرِ مَا قَالُوا لَخَرَجْنَا عَنْ حَدِّ الاِخْتِصَارِ، وَإِلَى هَذَا كَانَ يَذْهَبُ مِنْ شُيُوخِنَا الَّذِينَ لَقِينَاهُمُ الإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ [محمدُ بن الحسنِ](٢) بْنُ فُورَكٍ ـ رَحِمَهُ اللهِ عَلَيْهِ ـ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَ الوَلِيُّ أَنَّهُ وَلِيٌّ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ تَحْقِيقِ الوِلَايَةِ فِي الحَالِ الوَفَاءُ فِي المَآلِ.

ثُمَّ إِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ شَرْطِهِ أَيْضًا فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الوَلِيُّ خُصَّ بِكَرَامَةٍ هِيَ تَعْرِيفُ الحَقِّ ـ سبحانه ـ إِيَّاهُ أَنَّهُ مَأْمُونُ العَاقِبَةِ؛ إِذِ القَوْلُ بِجَوَازِ كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ وَاجِبٌ، وَهُوَ وَإِنْ قَارَفَهُ(٣) خَوْفُ العَاقِبَةِ فَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الهَيْبَةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالإِجْلَالِ فِي الحَالِ أَشَدُّ وَأَتَمُّ، فَإِنَّ اليَسِيرَ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالهَيْبَةِ أَهَدُّ(٤) لِلْقُلُوبِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الخَوْفِ.

وَلَمَّا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٥): «عَشَرَةٌ فِي الجَنَّةِ مِنْ أَصْحَابِهِ»، فَالعَشَرَةُ لَا مَحَالَةَ

---

(١) قال العروسي: «أي: آنى له بعلم ذلك؛ لأنه من المغيب الذي استأثر اله بعلمه» نتائج الأفكار ٣/٣٧٨.

(٢) في (ف): الفرط.

(٣) أي: خالَطَهُ وجَامَعَهُ، وفي (ف): فارقه.

(٤) في حاشية (أ): «في نسخة: أهدى».

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٢١١ بلفظ: «.. عَشَرَةٌ في الجَنَّةِ: النبي في الجَنَّةِ، وأبو بَكْرٍ في الجَنَّةِ، وَعُمَرُ في الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ في الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ في الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ في الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ بن العَوَّامِ في الجَنَّةِ، وَسَعْدُ بن مَالِكٍ في الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرحمن بن عَوْفٍ في الجَنَّةِ، وَلَوْ شِئْتُ لَسَمَّيْتُ العَاشِرَ=

صَدَّقُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَرَفُوا سَلَامَةَ عَاقِبَتِهِمْ، ثُمَّ لَمْ يَقْدَحْ ذَلِكَ(١) فِي حَالِهِمْ.

وَلِأَنَّ مِنْ شَرْطِ صِحَّةِ المَعْرِفَةِ بِالنُّبُوَّةِ الوُقُوفَ عَلَى حَدِّ المُعْجِزَةِ، وَيَدْخُلُ فِي جُمْلَتِهِ العِلْمُ بِحَقِيقَةِ الكَرَامَاتِ(٢)، فَإِذَا رَأَى الكَرَامَاتِ ظَاهِرَةً عَلَيْهِ لَا يُمْكِنُهُ أَلَّا يُمَيِّزَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا؛ فَإِذَا رَأَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ فِي الحَالِ عَلَى الحَقِّ، ثُمَّ يَجُوزُ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ فِي المَآلِ يَبْقَى عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ، فَيَكُونُ هَذَا التَّعْرِيفُ لَهُ كَرَامَةً.

وَالقَوْلُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ صَحِيحٌ [٢/٢٠٧أ] وَكَثِيرٌ مِنْ حِكَايَاتِ القَوْمِ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا نَذْكُرُ طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ فِي (بَابِ كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ)(٣) ـ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ـ.

وَإِلَى هَذَا القَوْلِ كَانَ يَذْهَبُ مِنْ شُيُوخِنَا الَّذِينَ لَقِينَاهُمُ الأُسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَّاقُ رَحِمَهُ اللَّهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذِهِ المسألةُ وهي: «**هَلْ يعلمُ الوليُّ للهِ كونَهُ وليًّا أمْ لا؟**»(٤)، وما نقلَهُ منَ الخِلافِ فيهِ عنِ العلماءِ لَا يخلُو: إمَّا أنْ يريدَ أنْ يعلمَ أنَّهُ وليٌّ في الحالِ أوْ يعلمَ المآلَ، فإنْ وقعَ الكلامُ فيمَا هوَ عليهِ في الحالِ فقدْ بيَّنَّا أنَّ الوليَّ يكونُ وليًّا باعتبارِ أمرَينِ: أنْ تتوالَى منهُ الطَّاعاتُ، أوْ يتوالَى لهُ حفظُ خالقِ

= قال فَقَالُوا: من هو؟ فَسَكَتَ قال فَقَالُوا: من هو؟ فقال: هو سَعِيدُ بن زَيْدٍ»، والترمذي في سننه ٥/٦٤٨.

(١) أي: احتمال التبديل.

(٢) لأن كلا من المعجزة والكرامة أمر خارق للعادة، والفرق بينهما إنما هو التحدي وعدمه. انظر: نتائج الأفكار ٣/٣٧٩.

(٣) الدلالة ٤/٣٠٦.

(٤) تأمل تفضيل ذلك في: مفاتيح العيب ٢١/٨٢، ومفاتيح الكنوز ص١٦٧، والقول العلي في ترادف المعجزة بكرامة الولي ص٥٣.

الأرضِ والسَّمَاواتِ، وهذَا القدرُ يدركُهُ العبدُ منْ نفسِهِ، ولوْ لمْ يعلمْ أنَّ ما عندَهُ إيمانٌ يُجريهِ عندَ ربِّهِ لوجبَ عليهِ تحصيلُهُ ليتخلَّصَ منَ الكفرِ، وكذلكَ وجبَ عليهِ علمُهُ منَ الانكفافِ عنهُ منَ المحرَّمِ إمَّا بنفسهِ أوْ بتقليدِ غيرِهِ، فإذَا علِمَهُ وأوقعَ عملَهُ علىٰ حسبِ ما علِمَ كانَ وليًّا لربِّهِ، وكذلِكَ المندوباتُ وإنْ تعالَتْ في الدَّرجَاتِ إذَا علِمَهَا العبدُ حكمًا وأوقعَهَا فعلًا علِمَ توالِي طاعاتِهِ لربِّهِ، فهوَ ولِيٌّ بهذَا الاعتبارِ.

وإذَا رأىٰ تَوَالِي نِعَمِ ربِّهِ عليهِ في حفظِهِ مِنْ خَواطِرِ الكفرِ والبدعِ والضَّلالِ، وسلامتِهِ منَ الإخلالِ بواجبِهِ أوِ ارتكابِ مُحَرَّمِهِ بقلبِهِ وجارحتِهِ في حالٍ منَ الأحوالِ، فذلِكَ في حفظِهِ لهُ منَ الغفلةِ عنهُ وخلقِهِ لهُ الذِّكْرَ في عمومِ أحوالِهِ بقلبِهِ ولسانِهِ علىٰ كلِّ حَالٍ علمَ توالِي نعمِ ربِّهِ عليهِ وحفظَهُ لهُ وولايتَهُ لهُ مِنْ غيرِ اختلالٍ، فمتىٰ قدَّرَ مقدِّرٌ أنَّ العبدَ لا يعرفُ هذَا منْ نفسِهِ وأنَّهُ شاكٌّ فِي إيمانِهِ والقيامِ بواجبِهِ أوْ ندبِهِ كانَ معتوهًا جاهلًا بأحكامِ ربِّهِ، ولَوْ قدَّرْنَا غيبوبةَ العاقبةِ عنهُ لم يشكَّ فِي شيءٍ ممَّا هوَ فيهِ، ولوْ قدحَ ذلكَ في حالِهِ لَمْ يُعَظِّمِ الولِيَّ والعالِمَ والصَّالحَ؛ لاحتمالِ التَّبديلِ والتَّغييرِ، ولمْ يُهِنِ الكافرَ والعاصِي والمبتدعَ ويقصيهِ؛ لاحتمالِ أنْ يكونَ عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ في الاستقبالِ بخلافِ ما هوَ عليهِ الآنَ، ولوْ قالَ بهِ قائلٌ لتوقَّفَ عن تعظيمِ المسلمِ وإهانةِ الكافرِ، واختلطتِ الشَّرائعُ المعروفةُ بأوضحِ الدَّلائلِ، فإنَّ مَنْ شهدَ الشَّرعُ بأنَّهُ مؤمنٌ مطيعٌ قطعْنَا بإيمانِهِ بشهادتِهِ، ومَنْ أخبرَ أنَّهُ كافرٌ أو عاصٍ علِمْنَا ذلكَ بأدلَّتِهِ.

فعلَىٰ [٢/٢٠٧ب] هذا التَّقريرِ يعلمُ الوليُّ كونَهُ وليًّا، ولا يحتاجُ إلىٰ خوارقِ العاداتِ، لا فِي الحالِ ولا فِي المآلِ، وقدْ يُطلِعُ اللهُ العبدَ علىٰ مَآلِ أَمْرِهِ، فيعلمُ خَاتِمَةَ حَالِهِ؛ مِنْ كفرِهِ أو إيمانِهِ ـ ونعوذُ باللهِ مِنْ سوءِ المآلِ ـ، وهذَا كلُّهُ لا يُخرجُهُ عنْ كونِهِ وليًّا للهِ في حالِهِ، فإنَّ هذَا لا يغيِّرُ الإرادةَ والعلمَ القديمَينِ الأزَلِيَّيْنِ، فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يخصِّصُ بإرادتِهِ مَنْ أرادَ إيمانَهُ بالإيمانِ وموتهُ عليهِ، وخصَّصَ

بالكفرِ مَنْ أرادَ كفرَهُ ووفاتَهُ عليهِ، وكلاهُمَا مُرادَانِ للهِ ـ تعالىٰ ـ بإرادةِ الواحدِ القديمةِ، وكذلِكَ علمُهُ تعلَّقَ بهِمَا.

وكذلِكَ إذَا علِمَ مِنْ عبدٍ واحدٍ أنَّهُ يكفرُ مدَّةً منَ الزَّمانِ، ويؤمنُ بعدَ ذلكَ مدَّةً أُخرَىٰ ويختمُ لهُ بالإيمانِ، فحالتَاهُ معلومتانِ، فلا فرقَ بينَ كافرٍ علىٰ الإطلاقِ ومؤمنٍ علىٰ الإطلاقِ، وبينَ حالَتَي هذَا الرَّجلِ الواحدِ بالإضافةِ إلىٰ إرادةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وعِلْمِهِ، وَقَدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وليتَ شعرِي! لوْ لمْ يكنْ ثَمَّ عملٌ صحيحٌ ما الَّذِي كانَ يَحبطُ، وقد قالَ ﷺ[١]: «الإِيمَانُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ»، فلوْ لَمْ يكنْ ثَمَّ كُفْرٌ صحيحٌ ما الَّذِي كانَ يُجَبُّ؟

فخرجَ منْ ذلِكَ أنَّ الشَّكَّ في العاقبةِ لا يقدحُ فيمَا العبدُ فيهِ الآنَ، سواءٌ كانَتِ الولايةُ خاصَّةً أوْ عامَّةً، وكونُ الوليِّ لا يزالُ خائفًا من ربِّهِ منَ التَّغييرِ، فهوَ زيادةٌ في فضلِهِ لا شكًّا في حالتِهِ، وخوفُهُ من تغييرِ الحاصلِ المحمولِ شرعًا هوَ الموجبُ لهُ حفظهُ عليهِ علىٰ حسبِ مَا وعدَ.

فخرجَ مِن مجموعِ ذلكَ أنَّ الوليَّ يصحُّ أنْ يعرفَ كونَهُ وليًّا ويعرفَهُ غيرُهُ، إذَا كانَ عالِمًا بمَا يدبِّرُهُ، أوْ هوَ عالمٌ بمَا يزنُ بهِ نفسه منْ غيرِ خدعةٍ، وجوازُ الغلطِ وتزكيةُ النَّفسِ وجريانُ الخدعِ لا يمنعُ مِنْ تحقيقِ وقوعِ العلمِ بالمَطْلُوبِ.

فإذَا تقرَّرَ ذلكَ، فالَّذِي ذكرْنَاهُ مِن تحقيقِ الإيمانِ والولايةِ شَرْعًا أوِ الكُفْرِ والعَدَاوةِ لا شَكَّ فِي تحقيقِهِ لمَنِ اتَّصفَ بهِ، وإنَّمَا يرجعُ خلافُ العلماءِ فِي أنَّ مَنْ جُهِلَتْ عَاقِبَتُهُ منَ المؤمنينَ، وهَلْ هُوَ ممَّنْ ينالُ الولايةَ الخاصَّةَ ويموتُ عليهَا أمْ لَا؟

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤/١٩٨، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ٩/١٢٣.

فيكونُ الخِلافُ راجعًا[١] إلى أنَّ المُؤمنَ: هَلْ يعرفُ كَونَهُ ينالُ الولايَةَ الخاصَّةَ ويُخْتَمُ لهُ بهَا أمْ لَا؟ فمَنْ جَوَّزَ أنْ يخرقَ العادَةَ للوليِّ في عِلْمِ ذلكَ قالَ بهِ، ومَنْ لم يُجَوِّزْ ذلكَ ورآهُ منَ الغيبِ الَّذِي يختصُّ بهِ الإلهُ مَنَعَهُ[٢]، واللهُ أعلمُ.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣] [٢/٢٠٨أ]: «**وَقِيلَ**[٤]: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ قَالَ لِرَجُلٍ: أَتُحِبُّ أَنْ تَكُونَ للهِ عَزَّوَجَلَّ وَلِيًّا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: لَا تَرْغَبْ فِي شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَفَرِّغْ نَفْسَكَ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَقْبِلْ بِوَجْهِكَ عَلَيْهِ لِيُقْبِلَ عَلَيْكَ وَيُوَالِيكَ**».

۞ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ بالغٌ، ومقصودُهُ بهذَا أنْ يكونَ الحاملَ لكَ على طاعتِكَ للهِ ـ تعالى ـ امتثالُ أمرِهِ واجتنابُ نَهْيِهِ وابتغاءُ وَجْهِهِ، خاصَّةً كمَا قالَ ـ تعالى ـ: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢، الكهف: ٢٨]، ولا يكونُ عملُكَ لحظِّ غيرِ اللهِ، لَا عاجلًا ولا آجلًا[٥]، ولَمْ يأمُرْهُ بترْكِ الأعمالِ الأُخْرَوِيَّةِ الَّتِي جزَاؤُهَا الجنَّةُ، وإنَّمَا أمرَهُ بإيقاعِهَا على أحسنِ وجُوهِهَا؛ امتثالًا لأمْرِ اللهِ خاصَّةً، وهذهِ أرفعُ أحوالِ العابدِينَ العارفِينَ.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «**وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ فِي صِفَةِ الأَوْلِيَاءِ**[٧]: **هُمْ عِبَادٌ تَسَرْبَلُوا بِالأُنْسِ بَعْدَ المُكَابَدَةِ**[٨]، **وَاعْتَنَقُوا الرَّوْحَ بَعْدَ المُجَاهَدَةِ بِوُصُولِهِمْ إِلَى مَقَامِ الوِلَايَةِ**».

---

(١) في (أ): راجع، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٤٠.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤١٨.

(٤) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٨٢، والإرشاد والتطريز ص١٦٤.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٤٠.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤١٨.

(٧) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢٧٩.

(٨) أي: مكابدتهم في فناء حظوظهم.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ؛ فإنَّ السِّربالَ هوَ المَلْبُوسُ ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ [إبراهيم: ٥٠] ، أيْ: لباسُهُمْ ، فهؤلاءِ صارَ لباسُهُمُ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُمُ الأُنسَ بهِ ـ تعالىٰ ـ بعدَ مُكَابَدَتِهِمْ أنفسَهُمْ وأهواءَهُمْ حتَّىٰ استراحُوا منهَا واعتنقُوا الرَّوحَ ، يعنِي: النَّعيمَ بعدَ المُجَاهَدَةِ ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩] ، فإذَا وصلُوا إلىٰ الأُنسِ بهِ ـ تعالىٰ ـ والتَّنعُّمِ بقُربِهِ وصلُوا إلىٰ مقاماتِ الولاياتِ(١).

فالوليُّ علىٰ هذَا: مَنْ تَنَعَّمَ بقُربِهِ وأنسَ بهِ عَنْ غَيْرِهِ ، فهذهِ الولايةُ الخاصَّةُ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**(٣): **[سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ]**(٤): **سَمِعْتُ عَمِّي البِسْطَامِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا يَزِيدَ يَقُولُ: أَوْلِيَاءُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عَرَائِسُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وَلَا يَرَىٰ العَرَائِسَ إِلَّا المَحْرُومُونَ ، وَهُمْ مُخَدَّرُونَ عِنْدَهُ فِي حِجَابِ الأُنْسِ ، لَا يَرَاهُمْ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**أولياءُ اللهِ عرائسُ اللهِ**» قَدْ فسَّرَهُ بقولِهِ: «**هُم المحجوبونَ عندَهُ المخدَّرُونَ**» ؛ وذلكَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ حجبَهُمْ عنْ غيرِهِ لكمالِ شغلِهِمْ بهِ ، فلا يراهُمْ إلَّا مَنْ أحرمَ وتجرَّدَ للِّحاقِ بهِمْ ، فربَّمَا رأىٰ آثارَهُمْ في تجرُّدِهِ ، وإنْ منَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ بكمالِ البُعدِ عنِ المُشغِلاتِ ، والتَّجرُّدِ عَنْ جميعِ الحُظُوظِ والآفاتِ ؛ منَ السُّكونِ إلىٰ النَّفسِ وبغضِ الملذوذاتِ ، صارَ مِنْ [٢/٢٠٨ب] جُملتِهِمْ مشغولًا عنْ نفسِهِ بكمالِ أُنسِهِ بخالقِ الأرضِ والسَّماواتِ ، وكمَا أنَّ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٤١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤١٨.

(٣) تفسيره ١/٣٠٧ ، وورد أيضًا في: مرآة الجنان ٥/١٤٥ ، والوافي بالوفيات ١٩/٢٨.

(٤) زيادة من (ف) ، ومن الرسالة القشيرية المطبوع.

المُحْرِمين لِقُرْبِه فِي الدُّنيَا مُتَجَرِّدونَ من كُلِّ مُشغِلٍ ومَحْبُوبٍ، فكذلكَ المتجرِّدُ للسُّلوكِ إلىٰ درجةِ الأولياءِ هوَ المُحْرِمُ؛ تشبيهًا لهُ بالمُتَجَرِّدِ عَنْ ثِيَابِهِ ورِضَاهُ في طلبِهِ بشَعثِهِ، وشدَّةِ ذكْرِهِ للحقِّ وإكبابِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصَّيْدَلَانِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ - وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا -، قَالَ[2]: كُنْتُ أُصْلِحُ اللَّوْحَ فِي قَبْرِ أَبِي بَكْرٍ الطَّمَسْتَانِيِّ أَنْقُرُ فِيهِ اسْمَهُ فِي مَقْبَرَةِ الحِيرَةِ كَثِيرًا، وَكَانَ يُقْلَعُ ذَلِكَ اللَّوْحُ وَيُسْرَقُ، وَلَمْ يُقْلَعْ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ القُبُورِ، وَكُنْتُ أَتَعجَّبُ مِنْهُ! ، فَسَأَلْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاق يَوْمًا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّ ذَلِكَ الشَّيْخَ آثَرَ الخَفَاءَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُشْهِرَ قَبْرَهُ بِاللَّوْحِ الَّذِي تُصْلِحُهُ فِيهِ، وَإِنَّ الحَقَّ - سبحانه - يَأْبَىٰ إِلَّا إِخْفَاءَ قَبْرِهِ، كَمَا آثَرَ هُوَ سَتْرَ نَفْسِهِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا هوَ شأنُ الحقِّ - سبحانه - معَ أوليائِهِ أنْ يُجرِي المقاديرَ علَىٰ ما يحبُّهُ لهُمْ فِي الدُّنيَا، ويفعلُ ذلكَ بهِمْ بعدَ موتِهِم، ومِنْ ذلِكَ ما جرَىٰ للصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منهُمْ: عاصِمُ بنُ أَبِي الأقلحِ، كانَ عاهدَ اللهَ ألَّا يمسَّ مشركًا ولا يمسَّهُ مُشرِكٌ، فلمَّا قُتِلَ بالرَّجيعِ أرادُوا أنْ يأخذُوا رأسَهُ لامرأةٍ منْ قريشٍ نذرَتْ إنْ قدرَتْ عليهِ أنْ تشربَ في قحفِهِ خمرًا، وكانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راميًا، قتلَ لهَا أولادًا، فلمَّا أرادُوا أخذَ رأسِهِ، فحفظَهُ اللهُ - تعالىٰ - عنهُمْ بالدَّبرِ؛ وهمُ الزَّنابيرُ اجتمعُوا عليهِ، فلمْ يقدِرُوا أنْ يصلُوا إليهِ، فقالُوا: «اتركُوهُ حتَّىٰ يُمسِي ويذهبَ عنهُ الدَّبرُ ونأخذَ رأسَهُ، فلمَّا جنَّ اللَّيلُ أرسلَ اللهُ الوادِي بسيلٍ حملَهُ وذهبَ بهِ، فلمْ يقدرُوا عليهِ»[3].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٨.

(٢) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٢٩٨، وسراج الطالبين ١/١٦.

(٣) قال أبو نعيم: «وفي لله تعالىٰ في حياته، فحماه الله تعالىٰ من المشركين بعد وفاته» حلية الأولياء ١/١١٠. وانظر قصته وترجمته: الاستيعاب ٢/٧٧٩، وأسد الغابة ٣/١٠٦، والأصابة ٣/٥٦٩.

ومنهُمْ مَنْ قالَ[١]: «أسألكَ يا ربِّ إذَا لقيتُ العدوَّ غدًا أنْ يَلْقَانِي رجلٌ شديدٌ غيظُهُ وحردُهُ، يقاتلُنِي فيكَ وأقاتلُهُ ويقتلُنِي، ويجدَعُ أنفِي وأُذُنِي، فإذَا لقيتُكَ غدًا فسألتَنِي ففيمَ ذلِكَ؟ فأقولُ: فيكَ وفِي رسولِكَ».

قالَ الرَّاوِي[٢]: «فلقدْ رأيتُهُ قتيلًا، وإنَّ أذنَهُ وأنفَهُ لمعلَّقانِ في خيطٍ، وأرجُو أنْ يبرَّ اللهُ قسمَهُ في الآخرةِ كمَا أبرَّهُ في الدُّنيَا».

وكمَا روِيَ عنْ أويسٍ أوْ هَرِمِ بنِ حيَّان[٣] منَ المنقطعِينَ في الصَّحارِي أنَّهُمْ حضرُوا عندَ الموتِ، فوجدُوا لهُمْ كفنًا مهيَّئًا وغُسْلًا، فغسَّلُوهُ وصلُّوا عليهِ ودَفَنُوهُ، ثمَّ انصرفُوا عنهُ [٢/٢٠٩أ] فقالَ بعضُهُمْ لبعضٍ: نَرْجِعُ فَنُعَلِّمُ قبرَهُ حتَّى نترَّحمَ عليهِ، [فَرَجَعُوا][٤] فَلَمْ يَبْقَ لَهُ قَبْرٌ ولَا أثَرٌ.

فكلُّ مَنْ أحبَّ الخمولَ في الدُّنيَا وجعلَهُ اللهُ قرَّةَ عينِهِ كمُلَ بذلِكَ لهُ بعدَ مَوْتِهِ[٥].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ المَغْرِبِيُّ[٧]: الوَلِيُّ قَدْ يَكُونُ مَشْهُورًا[٨]، وَلَكِنْ لَا يَكُونُ مَفْتُونًا».

---

(١) جاء في حاشية (أ): «القائل هذا عبد الله بن جحش وكان ذلك في يوم أحد». وقد رواه الحاكم في المستدرك ٢/٨٦، والبيهقي في سننه الكبرى ٦/٣٠٧.

(٢) وهو سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: حلية الأولياء ١/١٠٩، وأسد الغابة ٣/١٩٥، وصفة الصفوة ١/٣٨٦.

(٣) هو: هرم بن حيان الأزدي، كان من العباد الخشن المتجردين للعبادة، من أصدقاء أويس القرني. انظر في ترجمته: حلية الأولياء ٢/١١٩، والثقات ٧/٥٨٨، وتاريخ الإسلام ٥/٥٣٣.

(٤) تتمة يقتضيها المقام؛ لطمس مكانها في (أ).

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٤١.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤١٨.

(٧) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٢/٣٩، والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ٤/٢١٠.

(٨) أي: لحكمة الإرشاد والنفع له. انظر: نتائج الأفكار ٣/٣٨١.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ كانتْ شُهْرَتُهُ مشغلةً لهُ عن ربِّهِ فقدْ فُتِنَ بهَا، ومَنْ كَانَتْ شُهْرَتُهُ بَرَكةً عليهِ وعلىٰ غيرِهِ فقدْ سَعِدَ بهَا، وتضاعَفَتْ أعمالُهُ لكثرةِ مَنِ اقتدَىٰ بهِ[١].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّصْرَابَاذِيَّ يَقُولُ**[٣]: **لَيْسَ لِلأَوْلِيَاءِ سُؤَالٌ، إِنَّمَا هُوَ الذُّبُولُ وَالخُمُولُ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذَا في أغلبِ الأحوالِ عليهِم وإنْ دعوا في بعضِ الأوقاتِ بألسنتِهِم، وسألُوا الله ـ تعالىٰ ـ أنْ يعطيَهُمْ ويُعْطِيَ غيرَهُمْ علىٰ حسبِ ما تَقْتَضِيهِ الأَدِلَّةُ في بعضِ الأوقاتِ مِنْهُمْ، وأكثرُ سُؤَالِهِمْ بقلوبِهِمْ، فإنَّ أعمالَ قُلُوبِهِمْ أشدُّ مِنْ أعمالِ جَوَارِحِهِمْ، وإنَّمَا يظهرُ علىٰ ظَوَاهِرِهِمْ آثارُ بَوَاطِنِهِمْ، وسُؤالُهُم فِي بَوَاطِنِهِمْ الذُّبولَ والتَّذلُّلَ والخُمُودَ تحتَ جريانِ المقاديرِ[٤]، والرِّضَا بمَا يُجريهِ الحقُّ وإنْ خالفَ هوَىٰ غيرِهِمْ، فإنَّهُمْ لا يبقَىٰ لهُمْ هوًىٰ إلَّا فيمَا يُجريهِ وإنْ أَلِمَ ظَواهِرَهَم فهوَ مَحْبُوبٌ في بَواطِنِهِم، فأكثرُ أعمالِهِمْ بالقُلُوبِ؛ لأنَّهَا مَوضعُ نَظَرِ عَلَّامِ الغُيُوبِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٥]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ**[٦]: **نِهَايَاتُ الأَوْلِيَاءِ**[٧] **بِدَايَاتُ الأَنْبِيَاءِ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ مخصوصٌ بالكَرَامَاتِ وخَوَارِقِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٤١.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤١٨.
(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٧/١٠٦، والمقفىٰ الكبير ١/١٧٣.
(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٤١.
(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤١٨.
(٦) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٧/١٠٦، والمقفىٰ الكبير ١/١٧٣، وتاريخ الإسلام ٢٦/٣٧٠.
(٧) لأنهم أتباع، ولا قوة للتابع علىٰ غير مبادئ المتبوع. انظر: نتائج الأفكار ٣/٣٨٢.

العَاداتِ لا بالنُّبوَّاتِ، فإنَّهُ لَا مُشَاركةَ بينَ النَّبيِّ والوليِّ فيهَا، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتلقَّىٰ الأحكامَ مِنْ ربِّهِ، والوليَّ إنَّمَا يعملُ بمَا ثبتَ عن رسولِهِ، ولَوْ تناهَتْ درجتُهُ.

ومرادُهُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بكلامِهِ: أنَّ العَبْدَ إذا استقامَ في أَحْوَالِهِ وتمَّتْ ولايتُهُ ظهَرَتْ علىٰ يديهِ خَوَارِقُ العَادَاتِ، وَجَرَتْ لهُ الكراماتُ، وهذَا أوَّلُ ما يَجْرِي للأنبياءِ عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، كمَا جرَىٰ لنبيِّنَا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أوَّلِ أمرِهِ أنَّهُ بقِيَ زمانًا سَلَّمَ عليهِ الشَّجرُ والحجرُ[١]، ويلتفت فلَا يرَىٰ شيئًا؛ سلَّمَ عليهِ بالرِّسالةِ، وبعدَ ذلكَ رأىٰ جبريلَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كمَا نُقِلَ.

فَبِهَذَا الاعتبارِ [٢٠٩/٢ب] كانَتْ نِهايَةُ الأولياء خَوَارق العَاداتِ والكَرَامَاتِ وَصِحَّة المقاماتِ، ولذلكَ كانَ النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُوحَىٰ إليهِ في النَّومِ ستَّةَ أشهرٍ، ثمَّ رأىٰ جبريلَ جهارًا، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ فِي تفسيرِ قولِهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[٢]: «الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»، قالَ[٣]: معناهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نُبِّئَ وهوَ ابنُ أربعينَ سنةً، وتوفِّيَ وهوَ ابنُ ثلاثٍ وستِّينَ سنةً، فكانَتْ مدَّةُ الوحْيِ إليهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثلاثةً وعشرينَ سنةً؛ منهَا في المنامِ ستَّةُ أشهرٍ، فعلَىٰ هذهِ التَّجربةِ يكونُ مدَّةُ زمانِ الرُّؤيا جزءًا مِنْ ستَّةٍ وأربعينَ جزءًا مِنْ زمانِ النُّبوَّةِ.

❁ **قالَ الإمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٤]: **«وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[٥]: الوَلِيُّ: الَّذِي تَوَالَتْ أَفْعَالُهُ عَلَىٰ المُوَافَقَةِ»**.

---

(١) انظر: مواهب المجيب في نظم خصائص الحبيب للمنيني ـ بتحقيقي ص٦٢ ـ ٦٣.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٧٤/٦.

(٣) ورد في: مدارج السالكين ٥٠/١، والسلوك في طبقات العلماء والملوك ص٧٣.

(٤) الرسالة القشيرية ٤١٨/٢.

(٥) ورد قوله في: تفسير السلمي ٣٠٦/١، ومعجم مقاليد العلوم ص٢٢١.

* **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وقَدْ تقدَّمَ(١) أنَّ الوليَّ يُسَمَّىٰ وليًّا باعتبارَينِ: باعتبارِ كونِهِ فاعلًا، وباعتبارِ كونِهِ مفعولًا بهِ؛ فإذَا كانَ باعتبارِ كونِهِ فاعلًا كانَ الوليُّ عبارةً عمَّنْ توالَتْ منهُ الطَّاعاتُ، وقامَ بالواجباتِ والمندوباتِ، وإنْ تعالَتْ في الدَّرجاتِ وزالَتْ عنْ قلبِهِ الغفلاتُ؛ لتوالِي ذكْرِهِ والمناجات، فبهذَا الاعتبارِ سمَّاهُ الشَّيخُ وليًّا.

والوجهُ الثَّانِي: وهوَ كونُهُ مفعولًا بهِ؛ وهوَ أنْ يتوالَىٰ حفظُ اللهِ ونعمُهُ عليهِ؛ لِسَلامتِهِ منَ المحرَّماتِ والمكروهاتِ، وحفظِهِ منَ الزَّلَّاتِ والمُشْغِلاتِ، ودوامِ استقامتِهِ لهُ علىٰ ما يُرْضِيهِ عنهُ إلىٰ وقتِ المَمَاتِ.

* **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): «**وَقَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ(٣): الوَلِيُّ لَا يُرَائِي، وَلَا يُنَافِقُ، وَمَا أَقَلَّ صَدِيقَ مَنْ كَانَ هَذَا خُلُقُهُ!**».

* **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**الوليُّ: لا يُرَائِي**» الخَلْقَ بعملِ الحقِّ «**ولا يُنَافِقُ**»، ويكونُ في باطنِهِ خَلافُ ظاهرِهِ، فإنْ رأَىٰ مِنْ أخيهِ نقصًا نبَّهَهُ عليهِ، وإنْ رأىٰ منهُ فتورًا عنِ الخيرِ حرَّضَهُ وأعانَهُ عليهِ.

وقولُهُ: «**مَا أَقلَّ صَدِيقَ مَنْ هذهِ صِفَتُهُ!**» صحيحٌ، فإنَّهُ لا يحملُ التَّنبيهَ علىٰ النَّقائصِ إلَّا مَنْ قويَتْ رغبتُهُ في الخَلاصِ منهَا، فيُسَرُّ بِمَنْ يَدُلُّهُ عليهَا، ولا يحتملُ مَنْ يعرِّفُهُ كسلَهُ وقلَّةَ نشاطِهِ في الخيراتِ إلَّا مَنْ لهُ رغبةٌ وجدٌّ في تحصيلِ الباقياتِ الصَّالحاتِ، والمُتَّصفُ بهذهِ الصِّفاتِ قليلٌ فِي الوجودِ، بَلْ ربَّمَا كانَ في زمانِنَا [٢/٢١٠أ] مفقودًا فَلَوْ خالَفْتَ أحدًا فِي هَوَاهُ ولَمْ تُوافِقْهُ فيما يختارُهُ ويرضاهُ، خِفْتَ

---

(١) الدلالة ٣/٢٨٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤١٩.

(٣) ورد قوله: تفسير السلمي ١/٣٠٦، ومناقب الأبرار ١/٢٧٩، ونظم الدرر ٩/١٥٤.

علىٰ نفسِكَ منهُ ما تخشَاهُ، هذَا في عدمِ المُوافقةِ فيمَا يَهْوَاهُ، فكيفَ لوْ أظهرتَ لهُ نقصَهُ ونبَّهْتَهُ علىٰ نقصِهِ في أُخراهُ؟! ولَقَدْ صَدَقَ مَنْ خَبرَ النَّاسَ وامتحنَهُمْ، ورأىٰ أنَّ سَلامةَ نفسِهِ في بُعْدِهِ منهُمْ، واشتغالِهِ بعلمِهِ وعَمَلِهِ، وإنَّمَا يصحبُهُمْ بقدرِ الضَّرُورةِ والحَاجَةِ بمَا لا بدَّ لهُ منهُ، فقالَ[(١)]:

عَـدُوُّكَ مِـنْ صَـدِيقِكَ مُسْـتَفَادٌ ❁ فَـلَا تَسْـتَكْثِرَنَّ مِـنَ الصِّـحَابِ
فَـإِنَّ الـدَّاءَ أَكْثَـرُ مَـا تَـرَاهُ ❁ يَكُـونُ مِـنَ الطَّعَـامِ أَوِ الشَّـرَابِ

وَقَالَ غَيْرُهُ[(٢)]:

احْـذَرْ عَـدُوَّكَ مَـرَّةً ❁ وَاحْـذَرْ صَـدِيقَكَ أَلْـفَ مَـرَّهْ
فَلَرُبَّمَـا انْقَلَـبَ الصَّدِيـ ❁ ـقُ، فَكَـانَ أَعْلَـمَ بِالمَضَـرَّهْ

وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ مَنْ جهلَ زمانَهُ وأطلعَ علىٰ أسرارِهِ مَنْ يزعمُ أنَّهُ مِنْ إخوانِهِ وأصدقائِهِ، فإذَا طرأَ بينهُمَا أيسرُ كلامٍ صارَ مَنْ يزعمُ أنَّهُ صديقُهُ أضرَّ عليهِ مِنْ أعدىٰ عدوٍّ لهُ، ولهذَا كانَ الوليُّ الَّذِي يخالطُ النَّاسَ يُدارِي ولا يُرائِي، ويُخَالِقُ ولا يُنَافِقُ[(٣)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الجَوْزَجَانِيُّ[(٥)]: الوَلِيُّ: هُوَ الفَانِي فِي حَالِهِ، البَاقِي فِي مُشَاهَدَةِ الحَقِّ، تَوَلَّىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ سِيَاسَتَهُ، فَتَوَالَتْ عَلَيْهِ أَنْوَارُ التَّوَلِّي، لَمْ يَكُنْ لَهُ عَنْ نَفْسِهِ إِخْبَارٌ، وَلَا مَعَ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَرَارٌ**».

---

(١) من الوافر، لابن الرومي في ديوانه ١/١٤٩.

(٢) من الكامل، لمنصور بن إسماعيل الفقيه في: منصور بن إسماعيل الفقيه ـ حياته وشعره ص١٦٥، ونسب لعلي بن عيسىٰ في: محاضرات الأدباء ٢/٢٣.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٤٢ ـ ٧٤٣.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤١٩.

(٥) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/٣٠٧، وعرائس البيان ٢/٩٤، ودستور العلماء ٤/١٢٩.

※ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهذا هوَ حالُ الوليِّ المنقطعِ إلى اللهِ، ومرَّ تقدُّمُ حالِ الوليِّ الواسطةِ[(١)] بينَ عبادِ اللهِ واللهِ[(٢)].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَقَالَ أَبُو يَزِيدَ[(٤)]: حُظُوظُ الأَوْلِيَاءِ مَعَ تَبَايُنِهَا مِنْ أَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ، وَقِيَامُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ بِاسْمٍ مِنْهَا؛ وَهُوَ [قَوْلُهُ: ﴿هُوَ[كَانَ](٥) ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فَمَنْ فَنِيَ عَنْهَا بَعْدَ مُلَابَسَتِهَا، فَهُوَ الكَامِلُ التَّامُّ.

فَمَنْ كَانَ حَظُّهُ مِنِ اسْمِهِ (الظَّاهِرِ) لَاحَظَ عَجَائِبَ قُدْرَتِهِ.

وَمَنْ كَانَ حَظُّهُ مِنِ اسْمِهِ (البَاطِنِ) لَاحَظَ مَا جَرَىٰ فِي السَّرَائِرِ مِنْ أَنْوَارِهِ.

وَمَنْ كَانَ حَظُّهُ مِنِ اسْمِهِ (الأَوَّلِ) كَانَ شُغْلُهُ بِمَا سَبَقَ.

وَمَنْ كَانَ حَظُّهُ مِنِ اسْمِهِ (الآخِرِ) كَانَ مُرْتَبِطًا بِمَا يَسْتَقْبِلُهُ.

وَكُلٌّ كُوشِفَ عَلَىٰ قَدْرِ طَاقَتِهِ، إِلَّا مَنْ تَوَلَّاهُ الحَقُّ ـ سبحانه ـ بِبِرِّهِ [٢/٢١٠ب]، وَقَامَ عَنْهُ بِنَفْسِهِ».

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَذَا الَّذِي قَالَهُ أَبُو يَزِيدَ يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ الخَوَاصَّ مِنْ عِبَادِهِ ارْتَقُوا عَنْ هَذِهِ الأَقْسَامِ، فَلَا العَوَاقِبُ هُمْ فِي ذِكْرِهَا، وَلَا السَّوَابِقُ هُمْ فِي فِكْرِهَا، وَلَا الطَّوَارِقُ هُمْ فِي أَسْرِهَا، وَكَذَا أَصْحَابُ الحَقَائِقِ يَكُونُونَ مَحْوًا عَنْ نُعُوتِ الخَلَائِقِ، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]».

※ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُ أبي يزيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الأولياءُ في أربعةِ

---

(١) أي: المتوسط.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٤٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤١٩.

(٤) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/٣٠٥، ومناقب الأبرار ١/٢٠٠، وسراج الطالبين ١/١٦.

(٥) زيادة من (ف).

أسماءٍ[(١)]»، وإنِ اختلفَتْ رتبُهُم، فسَّرَهَا بأنَّهَا أسماءُ الحقِّ ـ سبحانه ـ؛ «**وهوَ الأوَّلُ والآخرُ والظَّاهرُ والباطنُ**»، فدلَّ ذلكَ على أنَّ الأولياءَ جميعَهُمْ مشغولُونَ باللهِ عَنْ غَيْرِ اللهِ.

فمنهُمْ مَنْ تعلَّقَتْ همَّتُهُ بمَا يسبقُ لهُ عندَ مَولَاهُ واختصَّهُ بهِ واصطفَاهُ، في أزلِهِ منْ غيرِ عملٍ سبقَ منهُ بَلْ فَضْلُ مِمَّنِ اختصَّهُ واصطفاهُ.

ومنهُمْ مَنْ يكونُ همَّتُهُ متعلِّقةً بحالِهِ في أخرَاهُ، ووقتِ مثولِهِ بينَ يدَيهِ: مَا الَّذِي يقولُ ويقالُ لهُ ممَّا يسُرُّهُ أوْ يخشَاهُ؟!

ومنهُمْ مَنْ هوَ مشغُولٌ بمَا أَجْرَاهُ عليهِ مِنْ نِعَمِهِ في دُنْيَاهُ، ومَا وفَّقَهُ لهُ مِن عَمَلِ أُخرَاهُ، فهوَ موقوفٌ معَ ما أجرَاهُ الحقُّ عليهِ في ظاهرِهِ منِ استقامتِهِ فِي سُلُوكِهِ إليهِ وحفظِهِ لهُ عنْ زلَلِهِ وحُسنِ تَقْوَاهُ.

ومنهُمْ مَنْ شغلَهُ بباطنِ أَمْرِهِ، ومَا أسرَّهُ الحقُّ عنْ غيرِهِ، ممَّا يُحدثُهُ فِي قلبِهِ منْ خواطرِ نفسِهِ وشيطانِهِ، أوْ بواسطةِ ملكٍ، أوْ بمَا يُنشئُهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ بغيرِ واسطةٍ.

وهذهِ هيَ الطَّوارقُ الَّتِي تطرقُ قلبَهُ، ويكونُ عنهَا أعمالُ قلبِهِ وجوارِحِهِ، فهذَا هوَ الباطنُ، وما تقدَّمَهُ فهوَ الظَّاهرُ، وما ذكرْنَاهُ أوَّلًا فهوَ الأوَّلُ، ومَا ذكرْنَاهُ آخرًا فهوَ الآخرُ، وهذَا كلُّهُ شُغْلًا باللهِ وبأفعالِهِ بعبدِهِ أوَّلًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

وكلُّ مَنِ اشتغلَ بقسمٍ مِنْ هذهِ الأقسامِ فهوَ مشغولٌ باللهِ وبعبادتِهِ وطاعتِهِ، فأكملُ هؤلاءِ مَنْ أجرَىٰ الحقُّ عليهِ الأقسامَ الأربعةَ مدَّةً حتَّىٰ استقامَتْ أحوالُهُ، وكمُلَتْ صفاتُهُ، ثمَّ قبضَ قلبَهُ عنهَا وشغلَهُ بهِ، ولمْ يلتفتْ لغيرِهِ، هذَا هوَ أجلُّ

(١) أي: من الاشتغال بمعانيها ومظاهرها. انظر: نتائج الأفكار ٣/٣٨٤.

الأولياءِ ممَّا نالَهُ مِنْ تَقَدُّمِ ذِكْرِهِ وقتَ حاجتِهِ إليهِ، ولمَّا كمُلَتْ أحوالُهُ جذبَهُ الحقُّ إليهِ، وشَغَلَهُ عَنْ سَائِرِ مخلوقاتِهِ [٢١١/٢أ] بلْ عَنْ نفسِهِ؛ لكمالِ شُغلِهِ بذكْرِهِ [عن غَيْرِه](١)، فهذَا الَّذِي صدَّرَ أبو يزيدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامَهُ بهِ، حيثُ [كَمُلَتْ صِفَاتُهُ](٢) بعد مُلابستِهَا، فهوَ الكاملُ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٣): «**وَقَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ**(٤): **الوَلِيُّ رَيْحَانُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي الأَرْضِ، يَشُمُّهُ الصِّدِّيقُونَ، فَتَصِلُ رَائِحَتُهُ إِلَىٰ قُلُوبِهِم، فَيَشْتَاقُونَ إِلَىٰ مَوْلَاهُم، وَيَزْدَادُونَ عِبَادَةً عَلَىٰ تَفَاوُتِ أَخْلَاقِهِم**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الصِّدِّيقَ مبالغةٌ فيمَنْ توالَىٰ منهُ الصِّدقُ، وصدقَ فِي نيَّاتِهِ وأعمالِهِ وأحوالِهِ، وجدَّ فِي سُلُوكِهِ منْ غيرِ فتورٍ.

فهذَا الجنسُ منَ الخَلْقِ همُ الَّذينَ قَوِيَتْ رغبتُهُمْ فيمَنْ يصلُونَ بأحوالِهِ إلَىٰ مطلوبِهِم وتزيدُهُم رؤيتُهُ في رَغْبَتِهِم، فإذَا رأَوا وَلِيًّا مِنْ أولياءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وشاهدُوا عليهِ آثارَ القُرْبِ وعلامَاتِ الحُبِّ اشتدَّ شوقُهُمْ، وتنعَّمُوا بأنفاسِهِ الدَّالَّةِ علَىٰ قُربِهِ مِنْ ربِّهِ، وبهذَا الاعتبارِ كانَ كريحانةٍ تحيَىٰ بهَا أرواحُ الصِّدِّيقينَ(٥) الَّذِينَ كمُلَ صدقُهُمْ فِي السُّلوكِ ولمْ يصلُوا بعدُ إلىٰ مقاماتِ الولايةِ الخاصَّةِ.

ولقدْ أخبَرَنِي مَنْ أثِقُ بخيرِهِ ودينِهِ بأنَّهُ كانَ ليلةً بـ(قرافةِ مصرَ) يزورُ قبورَ

---

(١) تتمة من إحكام الدلالة ٧٤٣/٢، لطمسها في (أ).

(٢) تتمة يقتضيها المقام، لطمسها في (أ)، وهي مستفادة من إفادة الشيخ زكريا منه في إحكام الدلالة: ٧٤٣/٢، ونصه: «فمن فني عنها كلها بحيث لم يلتفت إليها، ولا إلىٰ غيرها لشغله بربه بعد ملابستها وجريانها عليه بحث كملت بها صفاته، فهو الكامل».

(٣) الرسالة القشيرية ٤١٩/٢.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢٧٩/٢.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٤٤/٢.

الصَّالحينَ، قالَ: فكنتُ أجدُ شخصًا يزورُ معِي، فإذَا رأيتُهُ يصلِّي ظهرَ لِي مِنْ خشوعِهِ وذُبُولِهِ وتذلُّلِهِ ما دلَّني علَىٰ ولايتِهِ، فإذَا صادفْتُهُ وقتًا خارجًا منْ بعضِ المشاهدِ الَّتِي زارَ مَوتاهَا تكلَّمَ بكلامٍ يُوهِمُنِي أنَّهُ مهبولٌ، فقلتُ في نفسِي: هذَا وليٌّ منْ أولياءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ يُخفِي نفسَهُ عنِّي، قالَ: فمسكتُهُ وقلتُ: قدْ عرفْتُ أنَّكَ وليٌّ للهِ، فبأيِّ شيءٍ وصلَ الأولياءُ إلىٰ اللهِ؟ فقالَ: دعْنِي يا غَافِلُ، قلتُ: ولَا بدَّ، قالَ: بأربعٍ، قالَ: قلتُ: ومَا هيَ؟ قالَ: معرفةُ المَعْبُودِ، قلتُ: وماذا؟ قالَ: معرفةُ كيفَ تعبدُهُ؟ قلتُ: نعَمْ، قالَ: وتعبدُهُ؟ قلتُ: نعَمْ، قالَ: وتخلِصُ، قالَ: فوجدتُهُ قدْ جمعَ فِي هذهِ الكلماتِ الأربعِ الشَّريعةَ بجُملتِهَا، معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ عبادتِهِ، وعبادتُهُ، والإخلاصُ في جميعِ ذلكَ، قالَ: فتعلَّقتُ بهِ وجعلتُ أُحادِثُهُ إلىٰ أنْ أصبحَ فصلَّيتُ أنا وهوَ الصُّبحَ جماعةً، فبينَمَا نحنُ نَمْشِي ونذكرُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ وإذَا بقومٍ مِنْ أعوانِ السُّلطانِ أرادُوا يُمْسِكُونَا، ولا أدرِي لمَ ذاكَ!، فلمْ يقربُوا منَّا، حتَّىٰ قالَ لِي وهمَا جنيَّانِ، ثمَّ قالَ: اللهُ، وارتفعَ [٢/٢١١ب] عنِ الأرضِ، [قالَ][(١)] السَّائلِ: إنَّهُ لم يَزَلْ يَرَاهُ مصْعَدًا حتَّىٰ تعَدَّىٰ مَا [...][(٢)]، فسألتُهُ فقلتُ: يا أبَا بكرٍ، كيفَ كانَ حالُهُ فِي صُعُودِهِ؟ قالَ إنَّهُ ارتفعَتْ رِجْلاهُ إلىٰ مقاعدِهِ منْ غيرِ حركةٍ وهوَ مصعدٌ شبهُ المحمولِ!.

فرؤيةُ هذَا الجنسِ منْ بني آدمَ يقوِّي اليقين، ويحملُ علىٰ الجدِّ وبذلِ النَّفسِ في طاعةِ ربِّ العالمين، والإعراضِ عمَّن سِوَاهُ إعراضَ يَقِين، واللهُ الموفِّقُ والمُعِين.

۞ **قَالَ الإمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٣)]: «وَسُئِلَ الوَاسِطِيُّ[(٤)]: كَيْفَ يُغَذَّىٰ الوَلِيُّ فِي**

---

(١) تتمة يقتضيها المقام؛ لطمسها في (أ).

(٢) طمس في (أ) بقدركلمتين، ولعلهما: تراه عيني.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤١٩.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٥٨٦، وسراج الطالبين ١/١٧.

وِلَايَتِهِ؟ قَالَ: فِي بِدَايَتِهِ بِعِبَادَتِهِ، وَفِي كُهُولَتِهِ بِسَتْرِهِ بِلَطَائِفِهِ، ثُمَّ يَجْذِبُهُ[١] إِلَىٰ مَا سَبَقَ لَهُ مِنْ نُعُوتِهِ وَصِفَاتِهِ، ثُمَّ يُذِيقُهُ طَعْمَ قِيَامِهِ بِهِ فِي أَوْقَاتِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ سؤالٌ عنِ التَّرقِّي فِي درجاتِ الولايةِ، وأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يرزقُ العبدَ نوعًا مِنْ عبادتِهِ في أوَّلِ أمرِهِ، فيحصلُ لهُ بهِ النِّشاطُ والرَّغبةُ فِي الطَّاعاتِ، ثمَّ ينقلُهُ إِلَىٰ وجودِ اللَّذَّاتِ والتَّنعُّمِ بالمُنَاجَاتِ، ثمَّ ينقلُهُ إلىٰ رؤيةِ لطفِهِ وإسباغِ نعمِهِ عليهِ والكَرَامَاتِ، ثمَّ يشغلُهُ بهِ عنْ غيرِهِ ثمَّ عنْ نفسِهِ لكمالِ مراقبتِهِ وتنعُّمِهِ بجمالِهِ وتذلُّلِه بكمالِهِ وجلالِهِ فِي عمومِ الأوقاتِ.

فهذا نوعٌ ممَّا يُغَذِّي اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ بعضَ أوليائِهِ وينقلُهُمْ بهِ فِي الدَّرجاتِ، وأنواعُ ذلكَ لا تنحصرُ لاختلافِ القلوبِ والنِّيَّاتِ، والسُّرعةِ والإبطاءِ فِي المجاهداتِ والرِّياضَاتِ[٢]، وحالِ المجذوبِ المُعَان والمَتْرُوك معَ نفسِهِ لينالَ ذلكَ بأنواعِ المجاهداتِ والرِّياضاتِ، واللهُ الموفِّقُ للخيراتِ، والمُعينُ علىٰ الباقياتِ الصَّالحاتِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ: عَلَامَةُ الوَلِيِّ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: شُغْلُهُ بِاللهِ، وَفِرَارُهُ إِلَىٰ اللهِ، وَهَمُّهُ اللهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «شُغْلُهُ باللهِ»، يعنِي: ترتيبَ الأورادِ والعباداتِ، «وَفِرَارُهُ إلىٰ اللهِ»، يعنِي: منَ الشَّهواتِ والرَّاحاتِ والمُشغلاتِ، وقولُهُ: «وَهَمُّهُ اللهُ»، أيْ: يكونُ الغالبُ علَىٰ قلبِهِ قُرْبَهُ مِنْ ربِّهِ، ودوامَ ذِكْرِهِ لهُ وخوفَ حَجْبِهِ، واستغراقَهُ فيهِ وغيبتَهُ عَنْ غَيْرِهِ[٤]، وهذَا المرادُ بكونِهِ يجعلُ همَّهُ همًّا واحدًا، أيْ:

---

(١) أي: ينقله.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٤٤/٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٤١٩/٢.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٤٤/٢ ـ ٧٤٥.

متعلِّقٌ همُّهُ للهِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِوَٱللَّهُعَنهُ[(١)]: «وَقَالَ الخَرَّازُ[(٢)]: إِذَا أَرَادَ اللهُ - تعالىٰ - أَنْ يُوَالِي عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ[(٣)] فتحَ عَلَيْهِ [٢/٢١٢أ] بَابَ ذِكْرِهِ، فَإِذَا اسْتَلَذَّ الذِّكْرَ[(٤)] فتحَ عَلَيْهِ بَابَ القُرْبِ، ثُمَّ إِذَا دَاوَمَ رَفَعَهُ إِلَىٰ مَجَالِسِ الأُنْسِ وَأَجْلَسَهُ عَلَىٰ كُرْسِيِّ التَّوْحِيدِ، ثُمَّ رَفَعَ عَنْهُ الحُجُبَ، وَأَدْخَلَهُ دَارَ الفَرْدَانِيَّةِ، وَكَشَفَ لَهُ عَنِ الجَلَالِ وَالعَظَمَةِ، فَإِذَا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَىٰ الجَلَالِ وَالعَظَمَةِ بَقِيَ بِلَا هُوَ[(٥)]، فَحِينَئِذٍ صَارَ العَبْدُ زَمِنًا فَانِيًا، فَوَقَعَ فِي حِفْظِهِ - سبحانه -، وَبَرِئَ[(٦)] مِنْ دَعَاوِي نَفْسِهِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِوَٱللَّهُعَنهُ: وهذَا - وفَّقكَ اللهُ - ألطفُ في التَّدريجِ، وأرقُّ في الإشارةِ إلىٰ المقاماتِ ممَّا تقدَّمَهُ، واستعارَ لكلِّ مقامٍ اسمًا يدلُّ علىٰ رفعتِهِ؛ وذلكَ أنَّ العبدَ إذا أرادَ اللهُ بهِ خيرًا منَّ عليهِ بذكرِ اللِّسانِ معَ النِّيَّةِ، فإذَا تكرَّرَ ذلكَ عليهِ حَيِيَ قلبُهُ وقَلَّتْ غفلتُهُ، وهذَا معنىٰ «**فتحِ بابِ قُرْبِ قلبِهِ منْ ربِّهِ**».

فإذَا دامَ علىٰ ذِكْرِ القلبِ واللِّسانِ حصلَ لهُ الأُنسُ بمذكورِهِ، ووجدَ اللَّذَّةَ في خُلْوتِهِ بهِ عنِ الخلقِ وحُضُورِهِ، فإذَا تمكَّنَ أُنسُهُ لمْ يرَ قلبُهُ إلَّا واحدًا، وهذَا معنىٰ «**جُلُوسِهِ علىٰ كُرْسِيِّ التَّوحيدِ**»؛ لشُغلِهِ بالواحدِ، فإذا توالَىٰ علىٰ قلبِهِ شغلُهُ بهِ قطعَ عن قلبِهِ سائرَ المشغلاتِ والالتفاتاتِ إلىٰ حظوظِ نفسِهِ، وهذِهِ هيَ الحُجُبُ.

فإذَا تمكَّنَ في ذلكَ صارَ فردًا لفردٍ، أيْ: لم يرَ غيرَ اللهِ، وكونُهُ ذاكرًا بقلبِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤١٩.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٨٢.

(٣) أي: بأن يجعله وليًا له.

(٤) أي: وجد لذته وذاق حلاوته.

(٥) أي: بدون ما يشار إليه بهو، لنسيانه نفسه في ذكره.

(٦) أي: تجرد وتخلى.

غافلًا عنْ غيرِهِ، وسمَّاهَا «**الفردانيَّةَ**»(١)، فإذَا توالَىٰ عليهِ النَّظرُ إلى الفردِ وصفاتِهِ أجلَّهُ وعظَّمَهُ، فإذا تمكَّنَ في ذلكَ بقِيَ معَ الحقِّ ناسيًا نفسَهُ فِي ذكْرِهِ، وهذَا معنَىٰ: «**بقِيَ بلا هوَ، وصَارَ زمنًا فانيًا**»، أيْ: لمْ يشعرْ من نفسِهِ بحركةٍ وفنِيَ عن نفسِهِ بالكلِّيَّةِ؛ لكمالِ شغلِهِ بما يرَاهُ منْ كمالِ الجلالِ والعظمةِ للهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ، وبهذَا الاعتبارِ يكونُ في حفظِهِ، ويسلمُ مِنْ دعاوَىٰ نفسِهِ؛ لغيبتِهِ عنهَا وفنائِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الرُّوذبَارِيَّ يَقُولُ: قَالَ أَبُو تُرَابٍ النَّخْشَبِيُّ(٣): إِذَا أَلِفَ القَلْبُ الإِعْرَاضَ عَنِ اللهِ صَحِبَتْهُ الوَقِيعَةُ فِي أَوْلِيَاءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّهُ لا يعظِّمُ أولياءَ اللهِ إلَّا مَنْ عظُمَ في قلبِهِ جلالُ اللهِ وعظمَتُهُ، وإنَّمَا يَعْظُمُ الحقُّ ـ سبحانه ـ في قلبِ مَنْ دامَتْ مراقبتُهُ لهُ، ولاحظَ كمالَ ذاتِهِ وصِفَاتِهِ، وتنزُّهَهُ عنْ خلْقِهِ وجميلَ إحسانِهِ، وفَضْله عليهِ وعلىٰ سائرِ مخلوقاتِهِ.

ومَنْ أعرَضَ عنِ اللهِ فاتَهُ هذَا المقصودُ، وإذَا لمْ يَعْظُمِ الحقُّ في قلبِهِ لمْ يُعَظِّمْ مَنْ عظَّمَهُ [٢/٢١٢ب]، ونسبَ إليهِ [مَا يُفَوِّتُ](٤) تعظمَهُم لو يَتْلُوه، فوقعَ فيهِمْ وساءَ ظنُّهُ بهِمْ، وحملَ ما يبدُو منهُمْ علَىٰ غيرِ وجهِهِ المطلوب المحمودِ، ونعوذُ باللهِ منْ مَكْرِهِ والصُّدودِ.

---

(١) لأنه لم ير إلا الفرد.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤١٩ ـ ٤٢٠.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤٠/٣٤٧، وشذرات الذهب ٢/١٠٩.

(٤) تتمة يقتضيها المقام؛ لطمسها في (أ)، وهي مستفادة مما أفاده منه الشيخ زكريا منه بقوله: «ومن أعرض عن الله فاته تعظيمه، وإذا فاته تعظيمه فاته تعظيم من عظمهم، ووقع فيهم بما ذكر» إحكام الدلالة ٢/٧٤٥.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَيُقَالُ: مِنْ صِفَةِ الوَلِيِّ أَلَّا يَكُونَ لَهُ خَوْفٌ ؛ لِأَنَّ الخَوْفَ تَرَقُّبُ مَكْرُوهٍ يَحلُّ فِي المُسْتَقْبَلِ ، أَوِ انْتِظَارُ مَحْبُوبٍ يَفُوتُ فِي المُسْتَأْنَفِ ، وَالوَلِيُّ ابْنُ وَقْتِهِ ، لَيْسَ لَهُ مُسْتَقْبَلٌ فَيَخَافُ شَيْئًا .

وَكَمَا لَا خَوْفَ لَهُ لَا رَجَاءَ لَهُ ؛ لِأَنَّ الرَّجَاءَ انْتِظَارُ مَحْبُوبٍ يَحْصُلُ ، أَوْ مَكْرُوهٍ يُكْشَفُ ، وَذَلِكَ فِي الثَّانِي مِنَ الوَقْتِ ، وَكَذَلِكَ لَا حُزْنَ لَهُ ؛ لِأَنَّ الحُزْنَ مِنْ حُزُونَةِ[(٢)] الوَقْتِ ، وَمَنْ كَانَ فِي ضِيَاءِ الرِّضَا وَبَرْدِ المُوَافَقَةِ ، فَأَنَّى يَكُونُ لَهُ حُزْنٌ ؟! قَالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]» .

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**الوليُّ لا خوفَ لهُ ولا رجاءَ ؛ لأنَّ الخوفَ والرَّجاءَ متعلِّقانِ بالاستقبالِ ، والوليُّ ابنُ وقتِهِ**» ، وكيفَ لا يكونُ عندَهُ خوفٌ ، والهيبةُ لا تفارقُهُ والخشيةُ تلازمُهُ ؟! لأنَّها تبعٌ لرؤيةِ الجلالِ ، والعظمةُ والخشيةُ والهيبةُ نوعٌ منْ أنواعِ الخَوْفِ ، وإنَّما الخوفُ والرَّجاءُ المتعلِّقانِ بالأفعالِ المُنْتَسِبَانِ للماضِي والمستقبلِ .

وأمَّا خَوْفُ العَظَمَةِ والجَلالُ الكَائِنُ عَنْ مُلاحظةِ ذلكَ ، والرَّجاءُ الكائنُ عنِ الجَمَالِ ، والإفضالُ الكائنُ المتوالِي علَى العبدِ فِي الحالِ لا يخلُو العبدُ منهُ إلَّا التَّكلُّفَ لأضدادِهِ ، والعياذُ باللهِ منَ الإعراضِ والإهمالِ .

وأمَّا الحزنُ الَّذِي ذكرَ أنَّهُ مشتقٌّ منَ الحُزُونَةِ والضِّيقِ والوليُّ في سعَةِ الرِّضَا لسائِرِ أنواعِ الرِّضَا فأينَ هوَ والحزنُ ؟ ففيهِ نظرٌ ؛ وذلِكَ أنَّ الوليَّ لا يثبتُ حالُهُ معَ مَولاهُ ، وإنْ رضِيَ بمَا يُجريهِ عليهِ وإنْ خالفَ ذلكَ مرادَهُ وهوَاهُ ، فإنَّ الَّذِي يردُ علَى الحقِّ منهُ تختلفُ أنواعُهُ ، وقدْ يبسطُهُ الحقُّ وقتًا ، وقدْ يقبضُهُ وقتًا ، فهوَ محلٌّ لمَا

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٠ .

(٢) أي: صعوبته .

يوضعُ فيهِ، والقبضُ والبسطُ منَ الأحوالِ، وإنْ كانَ القبضُ أرفعَ منَ الحُزْنِ، فإنَّ الحزنَ إنَّمَا يكونُ علىٰ فائتٍ أوْ تأخُّرِ مُمْكِنٍ مَطْلُوبٍ.

فهذَا النَّوعُ منَ الحُزْنِ متعلِّقٌ بالأفعالِ، وللعبدِ فيهِ اختيارٌ، كمَا تعلَّقَ الخوفُ والرَّجاءُ فيمَا تقدَّمَ، والقبضُ ضيقٌ كمَا أنَّ الحزنَ ضيقٌ، إلَّا أنَّهُ لمَّا لمْ يكنْ عندَ الوليِّ خوفُ العَذَابِ والحِجَابِ، كانَتْ عندَهُ هيبةُ التَّعظيمِ والإجلالِ [٢/٢١٣أ]، وكذلِكَ كانَ عندَ الوليِّ القبضُ والبسطُ الواردانِ(١) عليهِ من الكَبِير المُتَعَالِ(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) في (أ): الواردين، والصواب المثبت.

(٢) تتمة يقتضيها المقام؛ لطمس موضعها في (أ). وانظر: التعريفات ص٢٢٠.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

« بَابُ الدُّعَاء

قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]... الآية.

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ الصَّفَّارُ البَصْرِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ العُودِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا كَامِلٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَة، قَالَ: حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ[(٢)]: الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»[(٣)].

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والأدلَّةُ على أنَّ الدُّعاءَ مخُّ العبادةِ وروحُهَا: أنَّ سرَّ العبادةِ والتَّعبُّدِ الانقيادُ والتَّذلُّلُ بالقلبِ واللِّسانِ، وتبعُهُ الأركانُ، وفِي كتابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وسنَّةِ رسولِهِ ودعاءِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ربَّهُمْ بهِ ما يدلُّ علىٰ أنَّهُ أصلٌ فِي الطَّاعاتِ، ويعيشُ القلبُ بهِ عنِ الغفلاتِ، ويكفِي فِي فضيلةِ الدُّعاءِ كونُهُ شرطًا فِي صحَّةِ الطَّاعاتِ.

والصَّلاةُ فِي اللُّغةِ: هيَ الدُّعاءُ، وفاتحةُ الكتابِ واجبةٌ في الصَّلواتِ، وروحُهَا بعدَ الثَّناءِ على اللهِ ـ سبحانه ـ الدُّعاءُ فيهَا؛ وهوَ قولُهُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٢١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٤٥٦، والطبراني في المعجم الأوسط ٣/٢٩٣، وفي الدعاء ص٢٤.

(٣) قال القاري: «أي: خالصها، وقال الراغب: لعبودية إظهار التذلل، ولا عبادة أفضل منه؛ لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الأفضال وهو الله تعالىٰ. وقال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: يمكن أن تحمل العبادة علىٰ المعنىٰ اللغوي، وهو غاية التذلل والافتقار والاستكانة، وما شرعت العبادة إلا للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه» مرقاة المفاتيح ٥/١١٩.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، بَلْ قالَ القاضِي أبُو بكرٍ[(١)]: «إنَّ المرادَ بالصَّلاةِ هذَا الدُّعاءُ إلَّا أنَّ الشَّرعَ أضافَ إليهِ الرُّكوعَ والسُّجودَ»، وغيرُهُ منَ العلماءِ جعلَ الصَّلاةَ اسمًا لجملةِ هذهِ العبارةِ، والدُّعاءُ منْ أركانِهَا وأبعاضِهَا، دلَّ جميعُ هذَا علىٰ فضيلةِ الدُّعاءِ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وأثنىٰ علىٰ المتَّصفِ بهِ، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وغيرُ ذلكَ منَ الآياتِ يطولُ ذكرُهَا.

وقدْ روىٰ (مسلمٌ)[(٢)] عنْ زيدِ بنِ أرقمَ قالَ: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ وَالهَرَمِ وَعَذَابِ القَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا [أنتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا][(٣)]، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا».

[وقَدْ رَوىٰ] (مسلمٌ)[(٤)] عنْ ابنِ عمرَ قالَ: كانَ مِنْ دعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ [٢/٢١٣ب]، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»، والأدلَّةُ علىٰ فضيلةِ الدُّعاءِ ممَّا تكثُرُ فِي الكتابِ والسُّنَّةِ[(٥)].

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «الدُّعَاءُ مِفْتَاحُ الحَاجَةِ، وَهُوَ مُسْتَرْوَحُ أَصْحَابِ

---

(١) بنحوه في: المسالك شرح موطأ مالك ١/٣٥٨.

(٢) في صحيحه ٤/٢٠٨٨ ـ حديث رقم (٢٧٢٢).

(٣) تتمة يقتضيها المقام من صحيح مسلم.

(٤) في صحيحه ٤/٢٠٩٧ ـ حديث رقم (٢٧٣٩).

(٥) تأمل ذلك في: سلاح المؤمن في الدعاء ص٣١، والترغيب في الدعاء ص٣١، والدعاء المأثور وآدابه ص١٢، ونزل الأبرار لصديق حسن خان ص٣٠.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤٢١.

الفَاقَاتِ، وَمَلْجَأُ المُضطَّرِينَ، وَمُتَنَفَّسُ ذَوِي المَآرِبِ(١).

وَقَدْ ذَمَّ اللهُ ـ سبحانه ـ قَوْمًا [تَرَكُوا الدُّعَاءَ](٢) فَقَالَ: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، قِيلَ(٣): لَا يَمُدُّونَهَا [إلينا](٤) فِي السُّؤَالِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وللدُّعاءِ آدابٌ(٥)؛ وهوَ التَّذلُّلُ، وصدقُ النِّيَّةِ، وكمالُ الابتهالِ والتَّضرُّعُ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: ٤٣]، ووصفَ مَنْ تأدَّبَ في الدُّعاءِ فقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فإذا دعَا العبدُ ربَّهُ بهذهِ الآداب، كانَ أقربَ لحُصُولِ مَقْصُودِهِ في الدُّنيَا والمَآب.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٦): «وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ(٧): خَلَقَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ الخَلْقَ وَقَالَ: نَاجُونِي [بِثَنَائِي](٨)، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَانْظُرُوا إِلَيَّ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَاسْمَعُوا مِنِّي، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَكُونُوا بِبَابِي، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأَنْزِلُوا حَاجَاتِكُمْ بِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**خلقَ اللهُ الخلقَ فقالَ: ناجُونِي**»، يعنِي: بقلوبِهِمْ وألسنتِهِمْ، فإنَّ المناجاةَ ترجعُ إلىٰ الكلامِ، «**فإنْ لمْ تفعلُوا فانظرُوا إليَّ**»، أيْ: راقبُونِي بقلوبِكُمْ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]،

---

(١) أي: الحاجات.

(٢) تتمة من الرسالة القشيرية.

(٣) ورد في: تفسير السلمي/٢٨٠، والنكت والعيون ٢/٣٧٩، وتفسير السمعاني ٢/٣٢٥، ونسبه لبعض المتأخرين، وزاد المسير ٣/٤٦٧، وتفسير العز بن عبد السلام ٢/٣٢.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) للمزيد من آدابه تأمل: الأزهية في أحكام الأدعية ص٧٠، وتلخيص الأزهية ص٣٦.

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٠٠.

(٧) الرسالة القشيرية ٢/٤٢١.

(٨) زيادة من (ف).

«**فَإِنْ لَمْ تفعلُوا فَاسْمَعُوا مِنِّي**»، أيِ: الوعدَ والوعيدَ، «**فإنْ لَمْ تفعلُوا فكونُوا بِبَابِي**» فقراءَ منتظرِينَ لِمَا أُنعِمُ بهِ عليكُمْ، فَإِنْ لَمْ تفعلُوا وكانَتْ لكمْ حاجةٌ فلَا تُنْزِلُوهَا بِغَيرِي وأَنْزِلُوهَا بِي.

فالمناجاةُ تدلُّ علىٰ كمالِ المعرفةِ والقُربِ والمُسَامَرةِ، وهذهِ درجةٌ رفيعةٌ، فمَنْ لَمْ يرزقْهُ اللهُ إيَّاهَا فلَا تَفُوتُهُ مراقبةُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عندَ حَرَكاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، فيسلمُ مِنْ مُحرَّماتِهِ ويقومُ بواجباتِهِ، فإنْ ضعُفَ عَنْ ذلكَ فليسمَعْ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وعدَهُ للمُطيعينَ، ووعيدَهُ للعاصِينَ، فإنَّ بهِ يقوىٰ تثبُّتُهُ عندَ أفعالِهِ، فإنْ فاتَتْهُ هذهِ المقاماتُ الشَّريفةُ فليعترِفْ بعجزِهِ وقصورِهِ، ويلازمْ بابَهُ علىٰ وجهِ الفقرِ والاحتياجِ لمَا لا بُدَّ لهُ ممَّا تقدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ هذهِ الخيراتِ، فإنْ عجزَ عنِ الفقرِ والافتقارِ، والتَّذلُّلِ بينَ يدَيِ الواحدِ القهَّارِ، فإيَّاهُ أنْ يُنْزِلَ [٢/٢١٤أ] حاجتَهُ بغيرِهِ فتزلَّ بهِ الأقدامُ[١]، وينزلَ عنْ درجاتِ [...][٢] مِنَ الكِرَامِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[٤]: أَقْرَبُ الدُّعَاءِ إِلَىٰ الإِجَابَةِ: دُعَاءُ الحَالِ؛ وَدُعَاءُ الحَالِ: أَنْ يَكُونَ صَاحِبُهُ مُضْطَرًّا، لَا بُدَّ لَهُ مِمَّا[٥] يَدْعُو لِأَجْلِهِ.**

أَخْبَرَنَا حَمْزَةُ بْنُ يُوسُفَ السَّهْمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ المكانِسِيَّ يَقُولُ[٦]: كُنْتُ عِنْدَ الجُنَيْدِ فَأَتَتْ اِمْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: اُدْعُ اللهَ فَإِنَّ ابْنًا لِي ضَاعَ، فَقَالَ:**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٤٨.

(٢) طمس بمقدار كلمة في (أ). ولعلها: المقربين، أو وصف نحوها.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢١٦، والمختار من مناقب الأخيار ٢/١٥٢.

(٥) في (ف): أن.

(٦) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٣٣٦، ولوامع البينات للرازي ص٦٣.

اِذْهَبِي وَاصْبِرِي، فَمَضَتْ ثُمَّ عَادَتْ، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ الجُنَيْدُ: اِذْهَبِي وَاصْبِرِي، فَمَضَتْ ثُمَّ عَادَتْ، فَفَعَلَتْ مِثْلَ ذَلِكَ مَرَّاتٍ وَالجُنَيْدُ يَقُولُ: اِصْبِرِي، فَقَالَتْ: عِيلَ صَبْرِي، وَلَمْ يَبْقَ لِي طَاقَةٌ، فَادْعُ لِي، فَقَالَ الجُنَيْدُ: إِنْ كَانَ كَمَا قُلْتِ فَاذْهَبِي فَقَدْ رَجَعَ ابْنُكِ، فَمَضَتْ ثُمَّ عَادَتْ تَشْكُرُ لَهُ، فَقِيلَ لِلجُنَيْدِ: بِمَ عَرَفْتَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ مِنْ آدابِ السُّؤالِ فِي الدُّعاءِ مَا فعلَهُ الجنيدُ وجاءَتْ بهِ السُّنَّةُ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا جاءَهُ رجلٌ مكفوفُ البصرِ قالَ: يَا رسولَ اللهِ: ادعُ اللهَ أنْ يردَّ عليَّ بصرِي، فقالَ(١): «إنْ شئتَ دعوتُ لكَ، وإنْ شئتَ صبرْتَ فهوَ خيرٌ لكَ».

فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ الصَّبرَ علىٰ ما ينزلُ بالعبدِ فِي دنياهُ أفضلُ منَ الدُّعاءِ فيهِ؛ لقولِهِ: «فهوَ خيرٌ لكَ»، والعبدُ أيضًا لَا يعلمُ أنَّ الخِيرةَ فيمَا دعَا بهِ، ولذلكَ لمَّا جاءَ ثعلبةُ بنُ حاطبٍ وكانَ فقيرًا فقالَ: يا رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ لِي، لئِنْ آتانِي اللهُ مالًا لأفعلنَّ فيهِ ولأصنعَنَّ، وعدَّدَ جهاتٍ منَ الخيرِ، فقالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢): «أَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ»، وفيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ رضَا العبدِ بمَا اختارَهُ الحقُّ لهُ أفضلُ ممَّا اختارَهُ لنفسِهِ، فلمَّا ألحَّ على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّعاءِ لهُ، ودعَا لهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتَّخذَ غنمًا فكثُرَتْ ونمَتْ حتَّىٰ بعُدَ عنِ المدينةِ، فلمْ يُصلِّ معَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لاشتغالِهِ بهِ جُمُعةً ولَا جماعةً، وكانَ منْ أمرِهِ أنْ ماتَ منافقًا والعياذُ باللهِ.

فلمَّا نزلَتْ بهذِهِ المرأةِ قضيَّةُ ضياعِ ولدِهَا جاءَتْ إلىٰ الجُنيدِ تسألُهُ الدُّعاءَ أنْ يردَّهُ اللهُ عليهَا، كرَّرَ عليهَا الأمرَ بالصَّبرِ لمَا نزلَ بها؛ وهوَ الأفضلُ لهَا، فلمَّا جاءَتْ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وقالَتْ: «عِيلَ صَبْرِي» ؛ أيْ: عجزتُ عنِ الصَّبرِ ، قالَ لهَا [٢/٢١٤ب]: «إنْ صَدَقْتِ فِي قَولِكِ: عِيلَ صَبْرِي ، فقدْ جاءَ ابنُكِ ، فذهبَتْ فوجدَتْهُ وعادَتْ تشكرُهُ ، فقيلَ لهُ: مِنْ أينَ علِمتَ مجيئَهُ؟ قالَ: قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾».

وكأنَّ الجنيدَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لمَّا تحقَّقَ اضطرارُهَا[١] ، وكمُلَتْ شفقتُهُ عليهَا ، دعَا لهَا فغلَبَ علىٰ ظنِّهِ استجابةُ الدُّعاءِ ؛ اعتمادًا علىٰ ربِّهِ ـ تعالىٰ ـ ومدحِهِ نفسَهُ بقولِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[٢].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَنَّ الأَفْضَلَ الدُّعَاءُ أَمِ السُّكُوتُ وَالرِّضَا[٤]؟

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الدُّعَاءُ فِي نَفْسِهِ عِبَادَةٌ ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٥]: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ» ، وَالإِتْيَانُ بِمَا هُوَ عِبَادَةٌ [أَفْضَل وَ][٦] أَوْلَىٰ مِنْ تَرْكِهَا ، ثُمَّ هُوَ حَقُّ الحَقِّ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِلعَبْدِ وَلَمْ يَصِلْ إِلَىٰ حَظِّ نَفْسِهِ فَلَقَدْ قَامَ بِحَقِّ رَبِّهِ ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ إِظْهَارُ فَاقَةِ العُبُودِيَّةِ ، وَقَدْ قَالَ أَبُو حَازِمٍ الأَعْرَجُ: لَأَنْ أُحْرَمَ الدُّعَاءَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ أَنْ أُحْرَمَ الإِجَابَةَ[٧].

---

(١) أي: ظهر له اضطرارها.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٤٨.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٤) تأمل تفصيل ذلك في: الأذكار للنووي ص٣١٦ ، والدعاء المأثور وآدابه ص٧٥ ، والأزهية للزركشي ص٤٥ ، وتلخيص الأزهية ص٢٥ ، والفتوحات الربانية ٧/١٥٤.

(٥) سبق تخريجه في صدر الباب.

(٦) زيادة من (ف).

(٧) ورد قوله في: غيث المواهب العلية ص٢١٠ ، والفتوحات الربانية ٧/١٥٤ ، وروي عن بعض السلف في: تحفة المخلصين بشرح عدة الحصن الحصين لابن زكري ص٢٠٠ ، وإتحاف السادة المتقين ٥/٢٥٤ ، وروي نحوه عن أبي هريرة في: التمهيد لابن عبد البر ١٠/٢٩٨.

وَطَائِفَةٌ قَالُوا: السُّكُوتُ وَالخُمُودُ تَحْتَ جَرَيَانِ الْحُكْمِ أَتَمُّ، وَالرِّضا بِمَا سَبَقَ مِنِ اخْتِيَارِ الحَقِّ أَوْلَىٰ، وَلِهَذا قَالَ الوَاسِطِيُّ(١): اِخْتِيَارُ مَا جَرَىٰ لَكَ فِي الأَزَلِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ مُعَارَضَةِ الوَقْتِ.

وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرًا عَنِ الله ـ تعالىٰ ـ(٢): «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ».

وَقَالَ قَوْمٌ: يَجِبُ أَنْ يَكُونَ العَبْدُ صَاحِبَ دُعَاءٍ بِلِسَانِهِ، وَصَاحِبَ رِضًا بِقَلْبِهِ؛ لِيَأْتِيَ بِالأَمْرَيْنِ جَمِيعًا.

وَالأَوْلَىٰ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الأَوْقَاتَ مُخْتَلِفَةٌ، فَفِي بَعْضِ الأَحْوَالِ الدُّعَاءُ أَفْضَلُ مِنَ السُّكُوتِ وَهُوَ الأَدَبُ، وَفِي بَعْضِ الأَحْوَالِ السُّكُوتُ أَفْضَلُ مِنَ الدُّعَاءِ وَهُوَ الأَدَبُ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ ذَلِكَ فِي الوَقْتِ؛ لِأَنَّ عِلْمَ الوَقْتِ يَحْصُلُ فِي الوَقْتِ، فَإِذَا وَجَدَ بِقَلْبِهِ إِشَارَةً إِلَىٰ الدُّعَاءِ فَالدُّعَاءُ بِهِ أَوْلَىٰ، وَإِذَا وَجَدَ إِشَارَةً إِلَىٰ السُّكُوتِ اِعْتِمَادًا عَلَىٰ الرِّضَا بِمَا يُجْرِيهِ الحَقُّ عَلَيْهِ فَالسُّكُوتُ أَتَمُّ.

وَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: يَنْبَغِي لِلعَبْدِ أَلَّا يَكُونَ سَاهِيًا عَنْ شُهُودِ رَبِّهِ ـ تعالىٰ ـ فِي حَالِ دُعَائِهِ، ثُمَّ يَجِبُ أَنْ يُرَاعِيَ حَالَهُ؛ فَإِنْ وَجَدَ مِنَ الدُّعَاءِ زِيَادَةَ بَسْطٍ فِي وَقْتِهِ، فَالدُّعَاءُ لَهُ أَوْلَىٰ، وَإِنْ عَادَ إِلَىٰ قَلْبِهِ فِي وَقْتِ الدُّعَاءِ شِبْهُ زَجْرٍ وَمِثْلُ قَبْضٍ فَالأَوْلَىٰ تَرْكُ الدُّعَاءِ فِي هَذَا الوَقْتِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِي قَلْبِهِ زِيَادَةَ [٢/٢١٥أ] بَسْطٍ وَلَا حُصُولَ زَجْرٍ؛ فَالدُّعَاءُ وَتَرْكُهُ هَاهُنَا سِيَّانِ.

وَإِنْ كَانَ الغَالِبُ عَلَيْهِ فِي هَذَ الوَقْتِ العِلْمُ فَالدُّعَاءُ أَوْلَىٰ؛ لِكَوْنِهِ عِبَادَةً، وَإِنْ

---

(١) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٣/١٦٥، وشرح نهج البلاغة ١١/١٣٦، وغيث المواهب العلية ص٢١٠، والفتوحات الربانية ٧/١٥٤.

(٢) سبق تخريجه.

كَانَ الغَالِبَ عَلِيهِ فِي هَذَا الوَقْتِ المَعْرِفَةُ وَالحَالُ فالسُّكُونُ[١] والسُّكُونُ أَوْلَى.

وَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: مَا كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ نَصِيبٌ، أَوْ لِلْحَقِّ ـ سبحانه ـ فِيهِ حَقٌّ فَالدُّعَاءُ أَوْلَى، وَمَا كَانَ لِنَفسك فِيهِ حَظٌّ فَالسُّكُونُ أَتَمُّ[٢]، وَفِي الخَبَرِ المَرْوِيِّ[٣]: «إِنَّ العَبْدَ يَدْعُو وَاللهُ ـ سبحانه ـ يُحِبُّهُ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ، أَخِّرْ حَاجَةَ عَبْدِي؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمعَ صَوْتَهُ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَدْعُو [اللهَ][٤] وَهُوَ يُبْغِضُهُ، فَيَقُولُ: يَا جِبْرِيلُ: اِقْضِ لِعَبْدِي حَاجَتَهُ؛ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَسْمعَ صَوْتَهُ».

وَيُحْكَى أَنَّ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ القَطَّانِ[٥] رَحِمَهُ ٱللَّهُ رَأَى الحَقَّ ـ سبحانه ـ فِي المَنَامِ فَقَالَ: إِلَهِي، كَمْ أَدْعُوكَ فَلَا تُجِيبُنِي!، فَقَالَ: يَا يَحْيَى، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمعَ صَوْتَكَ.

وَقَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٦]: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ العَبْدَ لَيَدْعُو اللهَ ـ تعالى ـ وَهُوَ عَلَيهِ غَضْبَانُ فَيُعْرِضُ عَنْهُ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُعْرِضُ عَنْهُ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُعْرِضُ عَنْهُ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَقُولُ اللهُ ـ تعالى ـ لِمَلَائِكَتِهِ: أَبَى عَبْدِي أَنْ يَدْعُوَ غَيْرِي، فَقَد اسْتَجَبْتُ لَهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «اختلف النَّاسُ، أَيُّهُمَا[٧] أفضلُ: الدُّعاءُ أوِ

---

(١) في (ف): فالسكوت.

(٢) دفعًا للرياء والعُجْب.

(٣) أخرجه الطبراني في الدعاء ص٤٥، والمعجم الأوسط ٨/٢١٦، والديلمي في الفردوس ١/١٩٧، والمقدسي في الترغيب في الدعاء ص٩١.
وفيه دلالة على أن تأخير الإجابة قد يكون محبة؛ لتكرير الطلب، وسرعة الإجابة قد تكون بقضاء، فلا يغتر إن أجيب بسرعة، ولا ييأس من التأخر.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) ورد قوله في: تفسير الثعلبي ٢/٧٦، والزهر الفائح لابن الجزري ص٣٥، وتفسير البدليسي ١/٣٨٠، وتحفة المخلصين بشرح عدة الحصن الحصين ص٢٦٣.

(٦) أخرجه الطبراني في الدعاء ص٢٨، وأبو نعيم في الحلية ٦/٢٠٨، والديلمي في الفردوس ٤/٣٧٥.

(٧) في (أ): أيما، والصواب المثبت.

السُّكوتُ؟» وهذَا الاختلافُ لا يكونُ إلَّا في الدُّعاءِ باللِّسانِ، وأمَّا الدُّعاءُ بالقلبِ والتَّرْكُ فهذَا ليسَ موضعَ خلافٍ؛ فإنَّ ترْكَ الدُّعاءِ بالقلبِ ليسَ بطاعةٍ، وأمَّا الدُّعاءُ باللِّسانِ فإنَّهُ ترجمانٌ عمَّا قامَ بالقلبِ منَ الدُّعاءِ، فدعاءُ القلوبِ سِرٌّ، ودعاءُ اللِّسانِ علانيةٌ، فيحسنُ الاختلافُ في إظهارِ الدُّعاءِ بلسانِهِ وتركِهِ معَ كونِهِ داعيًا بقلبِهِ.

فمَنْ يُرَجِّحُ تركَهُ فهوَ ميلٌ إلىٰ الاكتفاءِ بدعاءِ القلبِ، وهوَ سِرٌّ، وعملُ السِّرِّ أفضلُ منْ عَمَلِ العَلانِيَةِ.

ومَنْ نظرَ إلىٰ أنَّ الدُّعاءَ باللِّسانِ أفضلُ، فهوَ زيادةُ عَمَلٍ خارجةٌ؛ وهيَ طاعةٌ مضافةٌ إلىٰ عملِ القلبِ.

وقَدْ يحسنُ أنْ يرجعَ الاختلافُ إلىٰ ترْكِ الدُّعاءِ باللِّسانِ والقلبِ جميعًا؛ اكتفاءً بعلمِ الحقِّ بحالِ العبدِ، كمَا قالَ بعضُهُم [(١)]: «عِلْمُهُ بِحَالِي مُغْنٍ عَنْ دُعَائِي»، وهذَا مرجوحٌ؛ لأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ عالمٌ بكلِّ معلومٍ، ومعَ هذَا أمرَ بالدُّعاءِ وحضَّ عليهِ.

فالدُّعاءُ بالقلبِ [٢/٢١٥ب] [دُونَ اللسَانِ] [(٢)] لَمْ يُحضّ العبدُ بإظهارِهِ باللِّسانِ لدخولِ آفةِ الرِّياءِ، أوْ ما يَجْرِي مَجْرَاهُ، فإمساكه عنِ اللِّسانِ اكتفاءً بما فِي القلبِ أسلمُ لهُ وأحسنُ، ولهذَا قالَ: **«وهذَا مختلفٌ باختلافِ الأوقاتِ والأحوالِ»**، فرُبَّ شخصٍ في خلوةٍ غلبَ عليهِ الدُّعاءُ والابتهالُ وكمالُ التَّضرُّعِ والبكاءِ والسُّؤالِ، فملازمتُهُ لحالِهِ أقربُ لنيلِ مقصودِهِ وبلوغِهِ، وربَّمَا غلبَ علىٰ قلبِهِ في بعضِ الأوقاتِ توالِي نِعَمِ ربِّهِ عليهِ وعجزُهُ عن شكرِهَا بجهةٍ منَ الجهاتِ، فهوَ مُسْتَحْيٍ لعجزِهِ عنْ شكرِ مَا يُوالِي عليهِ منَ النِّعمِ أنْ يطلبَ زيادةً علىٰ مَا هوَ فيهِ منْ قلبٍ

(١) ورد عن سيدنا إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في: نوادر الأصول ٣٣٥/١، وتفسير الثعلبي ٢٨١/٦.
(٢) طمس في الأصل بمقدار كلمتين، فلعلهما كذلك.

يُراعِي حالَهُ باختلافِ أوقاتِهِ[١]؛ فإنْ أحسَّ مِنْ قلبِهِ إشارةً إلى السُّكونِ اعتمادًا على الرِّضَا بمَا يُجريهِ الحقُّ فلا يدعُو، وإنْ أحسَّ مِنْ نفسِهِ الحركةَ والانزعاجَ إلى الإتيانِ بهذهِ العبادةِ فعلَ.

وهذا لا يدلُّ على الأفضليَّةِ شرعًا إلَّا منْ حيثُ إنَّ العملَ بالنَّشاطِ وكمالَ الجدِّ أفضلُ منَ العملِ بالفُتُورِ؛ لأنَّ العملَ بفُتُورِ القلبِ وقلَّةِ الاهتمامِ صاحبُهُ معرَّضٌ للنَّزعاتِ وطُرُوقِ الآفاتِ، بخلافِ مَنْ كمُلَ جدُّهُ واجتمعَ همُّهُ وصَارَتْ كُلِّيَّتُهُ مشغولةً لمَا مَالَ إليهِ.

وقولُهُ أيضًا: «**ويمكنُ أنْ يقالَ: متَى كانَ الدُّعاءُ فيهِ صلاحٌ للمسلمِينَ وإظهارٌ للعبوديَّةِ كانَ أفضلَ**»، فإنَّ الشَّريعةَ دلَّتْ على أنَّ الفعلَ[٢] المتعدِّي أفضلُ منَ القاصِرِ على العبدِ، هذِهِ كلُّهَا أقوالٌ تدلُّ على ترجيحِ الدُّعاءِ بالقلبِ واللِّسانِ أوِ التَّركِ؛ اكتفاءً بمَا يُجْرِيهِ اللهُ ـ تعالى ـ.

وفِي حضِّ اللهِ ـ تعالى ـ على الدُّعاءِ والأمرِ بالرِّضَا مَا يصحُّ بِهِ الأمرانِ؛ وذلِكَ أنَّ الرِّضَا إنَّمَا هوَ بواقعٍ كائنٍ، والَّذِي يناقضُ الرِّضَا كراهةُ مَا وقعَ لا سُؤالُ مَا يمكنُ منَ الدَّرجاتِ العاليةِ، والعبدُ يسألُ ويتضرَّعُ، ومَا أجراهُ الحقُّ عليهِ ممَّا سألَ فيهِ أو خِلافِهِ رضِيَ باختيارِ اللهِ ـ تعالى ـ، والدُّعاءُ على هذَا لا مزاحمةَ بينَهُ وبينَ الرِّضَا بالقَدَرِ، ولا يعلمُ عِلْمَ اللهِ بمَا العبدُ عليهِ، فالدُّعاءُ محثوثٌ عليهِ مطلوبٌ، وقَدْ قَالَ ـ تعالى ـ لنبيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقالَ ـ تعالى ـ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ / سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]: [٢/٢١٦أ]، وقالَ لنوحٍ ـ صلواتُ اللهِ على نبيِّنَا وعليهِ ـ:

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٤٩.

(٢) أي: الخير.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩](١)، ودعاءُ الأنبياءِ ربَّهمْ في كتابه؛ من دعاءِ: إبراهيمُ وموسَىٰ وعيسَىٰ وهودٌ وصالحٌ وغيرُهُمْ ممَّا يكثُرُ، ولوْ نقلْنَاهُ في هذا الموضعِ لأكثرْنَا.

وبالجُملةِ: فالدُّعاءُ بالقلبِ واللِّسانِ أفضلُ منَ السُّكوتِ، ولا يمنعُ ذلكَ منَ الرِّضَا بمَا يُجريهِ الحقُّ عليهِ ولا عِلْمِ الحقِّ بحالِهِ، والخبَرُ الَّذِي أوردَهُ «**منْ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يدعوهُ العبدُ وهوَ غضبانُ عليهِ فلا يجيبُهُ، ثمَّ يدعوهُ فلَا يجيبُهُ، ثمَّ يقولُ لملائكتِهِ: أبَىٰ عبدِي أنْ يَدْعُوَ غَيْرِي فقدِ استجبتُ لهُ**»، وذلكَ يدلُّ أنَّ معصيتَهُ وزلَّتَهُ إنَّمَا يُكفِّرُهَا تكريرُ الحسنات، وهيَ هذهِ الدَّعوات، فيحبُّ الحقُّ منهُ أنْ تَتوالَىٰ منهُ الطَّاعات؛ ليمحوَ مَا تقدَّمَ لهُ منَ السَّيِّئات، «إنَّمَا هيَ أعمالُكُمْ تردُّ عليكُمْ»(٢)، واللهُ غنيٌّ عنِ العالمينَ، وقَدْ يَدْعُو العَبْدُ فيعلمُ الحقُّ ـ سبحانه ـ أنَّ مصلحتَهُ في ضدِّ مَا دعَا بهِ، فلَا يخلقُهُ لهُ رحمةً منهُ بهِ، فيظنُّ لجهلِهِ أنَّ تأخيرَ استجابةِ دعائِهِ مضرٌّ في حقِّهِ وهوَ نافعٌ لهُ، وربَّمَا جرَىٰ علَىٰ لسانِهِ(٢): «دعوتُ فلمْ يُسْتَجَبْ لِي»، فيكونُ ذلكَ سببًا لمنعِهِ الإجابةَ ووصولِ الرحمةِ إليهِ، كمَا رُوِيَ فِي (الموطَّأ)(٣) عنِ النَّبيِّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»(٤).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٥): «وَأَخْبَرَنَا أَبُو الحُسَيْنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ بِشْرَانَ بِبَغْدَادَ رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرٍو عُثْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ المَعْرُوفُ بِابْنِ السَّمَّاكِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الحُضْرِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا بِشْرُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ

---

(١) انظر: الدر المنثور ٦/٩٧.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ١/٢١٣.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٥١.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٣ ـ ٤٢٤.

قَالَ: أَخْبَرَنَا مُوسَى بْنُ الحَجَّاجِ قَالَ: قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ أَخْبَرَنَا الحَسَنُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ[1]: كَانَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَّجِرُ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ إِلَى المَدِينَةِ، وَمِنَ المَدِينَةِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، وَلَا يَصْحَبُ القَوَافِلَ تَوَكُّلًا مِنْهُ عَلَى اللهِ ـ تعالى ـ.

قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ جَاءٍ مِنَ الشَّامِ يُرِيدُ المَدِينَةَ إِذْ عَرَضَ لَهُ لِصٌّ عَلَى فَرَسٍ، فَصَاحَ بِالتَّاجِرِ: قِفْ، قَالَ: فَوَقَفَ لَهُ التَّاجِرُ، وَقَالَ لَهُ: شَأْنُكَ بِمَالِي، وَخَلِّ سَبِيلِي، قَالَ: فَقَالَ لَهُ اللِّصُّ: المَالُ مَالِي، وَإِنَّمَا أُرِيدُ نَفْسَكَ، فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ: مَا تَرْجُو بِنَفْسِي؟! شَأْنُكَ [٢/٢١٦ب] وَالمَالُ وَخَلِّ سَبِيلِي، قَالَ: فَرَدَّ عَلَيْهِ اللِّصُّ مِثْلَ المَقَالَةِ الأُولَى، فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ: أَنْظِرْنِي حَتَّى أَتَوَضَّأَ وَأُصَلِّي وَأَدْعُو رَبِّي عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: اِفْعَلْ مَا بَدَا لَكَ.

قَالَ: فَقَامَ التَّاجِرُ وَتَوَضَّأَ، وَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ أَنْ قَالَ: «يَا وَدُودُ، يَا وَدُودُ، يَا ذَا العَرْشِ المَجِيدِ، يَا مُبْدِئُ يَا مُعِيدُ، يَا فَعَّالًا لِمَا تُرِيدُ؛ أَسْأَلُكَ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي مَلَأَ أَرْكَانَ عَرْشِكَ، وَأَسْأَلُكَ بِقُدْرَتِكَ الَّتِي قَدَرْتَ بِهَا عَلَى خَلْقِكَ، وَبِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، يَا مُغِيثُ أَغِثْنِي، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ دُعَائِهِ إِذَا بِفَارِسٍ عَلَى فَرَسٍ أَشْهَبَ، عَلَيْهِ ثِيَابٌ خُضْرٌ، بِيَدِهِ حَرْبَةٌ مِنْ نُورٍ، فَلَمَّا نَظَرَ اللِّصُّ إِلَى الفَارِسِ تَرَكَ التَّاجِرَ وَمَرَّ نَحْوَ الفارس؛ فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ شَدَّ الفَارِسُ عَلَى اللِّصِّ، فَطَعَنَهُ طَعْنَةً أَرْدَاهُ عَنْ فَرَسِهِ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى التَّاجِرِ فَقَالَ لَهُ: قُمْ فَاقْتُلْهُ، فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَمَا قَتَلْتُ أَحَدًا قَطُّ، فَلَا تَطِيبُ نَفْسِي بِقَتْلِهِ.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في: مجابو الدعوة ص٢٣، وهبة الله الطبري في كرامات الأولياء ص١٥٥، والمقدسي في الترغيب في الدعاء ص١٠٤.

قَالَ: فَرَجَعَ الفَارِسُ إِلَىٰ اللِّصِّ وَقَتَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ إِلَىٰ التَّاجِرِ، وَقَالَ: اِعْلَمْ أَنَّنِي مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، حِينَ دَعَوْتَ الأُولَىٰ سَمِعْنَا لِأَبْوَابِ السَّمَاءِ قَعْقَعَةً، فَقُلْنَا: أَمْرٌ حَدَثَ، ثُمَّ دَعَوْتَ الثَّانِيَةَ فَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَها شَرَرٌ كَشَرَرِ النَّارِ، ثُمَّ دَعَوْتَ الثَّالِثَةَ فَهَبَطَ جِبْرِيلُ عَلَيْنَا مِنْ قِبَلِ السَّمَاءِ وَهُوَ يُنَادِي: مَنْ لِهَذا المَكْرُوبِ؟ فَدَعَوْتُ رَبِّي أَنْ يُولِيَنِي قَتْلَهُ.

وَاعْلَمْ يَا عَبْدَ اللهِ أَنَّهُ مَنْ دَعَا بِدُعَائِكَ هَذَا فِي كُلِّ كُرْبَةٍ، وَكُلِّ شِدَّةٍ، وَكُلِّ نَازِلَةٍ فَرَّجَ اللهُ - تعالىٰ - عَنْهُ وَأَعَانَهُ.

قَالَ: وَجَاءَ التَّاجِرُ سَالِمًا غَانِمًا حَتَّىٰ دَخَلَ المَدِينَةَ، وَجَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِالقِصَّةِ وَأَخْبَرَهُ بِالدُّعَاءِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ لَقَّنَكَ اللهُ - تعالىٰ - أَسْمَاءَهُ الحُسْنَىٰ الَّتِي إِذَا دُعِيَ بِهَا أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهَا أَعْطَىٰ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الالتجاءَ والاضطِّرارَ فِي الدُّعاءِ مِنْ أسبابِ الاستجابةِ، وأعظمُهَا أنْ تكونَ بالأسماءِ الرَّاجعةِ إلىٰ الذَّاتِ والصِّفاتِ المختصَّةِ بهِ - تعالىٰ -، وإنْ كانَ العبدُ إنَّمَا يدعُو اللهَ - تعالىٰ - بصفاتِهِ وأسمائِهِ الدَّالَّةِ علىٰ أفعالِهِ.

وَرُوحُ هذِهِ الحِكَايَةِ: أنَّ صدْقَ الاضطِّرارِ أنْ يكونَ معَهُ [٢/٢١٧أ] الإجابةُ، كمَا تمدَّحَ بهِ - سبحانه - علىٰ لِسَانٍ مَنْ اختصَّهُ واصْطَفَاهُ، فقالَ - تعالىٰ -: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «آدَابُ الدُّعَاءِ[٢]: حُضُورُ القَلْبِ، وَأَلَّا يَكُونَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٤.

(٢) لاستزاده في آدابه تأمل: الدعاء المأثور وآدابه ص١٧، وآداب الدعاء للمقدسي ص٦٧، والأزهية للزركشي ص٧٠، وسلاح المؤمن في الدعاء ص٩٥.

سَاهِيًا(١)، فَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ(٢): «إِنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ عَبْدٍ مِنْ قَلْبٍ لَاهٍ».

وَمِنْ شَرَائِطِهِ: أَنْ يَكُونَ مَطْعَمُهُ حَلَالًا، فَلَقَدْ قَالَ [عَلَيْهِ السَّلَامُ](٣) لِسَعْدٍ(٤): «أَطِبْ مَكْسَبَكَ، تُسْتَجَبْ دَعْوَتُكَ».

وَقَدْ قِيلَ: الدُّعَاءُ مِفْتَاحُ الحَاجَةِ، وَأَسْنَانُهَا لُقَمُ الحَلَالِ.

وَكَانَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ يَقُولُ(٥): كَيْفَ أَدْعُوكَ وَأَنَا عَاصٍ؟! وَكَيْفَ لَا أَدْعُوكَ وَأَنْتَ كَرِيمٌ؟!».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَمَّا قولُهُ: «الدُّعاءُ مِفتاحُ الحَاجَةِ» فدليلُهُ قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]، ولا يدعوهُ على التَّحقيقِ إلَّا مَنْ صحَّ بوجهِهِ لهُ، وأقبلَ عليهِ بكُلِّيَّتِهِ، ولهذَا الاعتبارِ لا يُقبَلُ الدُّعاءُ «مِنْ قلبٍ لاهٍ»، أيْ: مشغولٍ بغيرِ مَنْ يدعوهُ ويَسْألُهُ.

وأمَّا شرطُ أكلِ الحلالِ، فمرادُهُ: أنْ يكونَ العبدُ مطيعًا لربِّهِ في سائرِ أفعالِهِ، المتكرِّرةِ عليهِ في ليلِهِ ونهارِهِ، وأكثرُ ما يتكرَّرُ عليهِ مَا تدعُوهُ إليهِ حاجتُهُ وَضَرُورَةُ خلقتِهِ؛ منْ طعامِهِ وشرابِهِ، فإذَا كانَ مطيعًا للهِ ـ تعالى ـ واكتسبَ ذلكَ مِنْ حِلِّهِ كانَ فيمَا يندرُ وقوعهُ لهُ أقوى على الطَّاعةِ وأسهلَ، وقدْ تقدَّمَ الخبرُ الصَّحيحُ في

(١) أي: غافلا.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٥١٧، ونوادر الأصول ٤/١٢٦، والطبراني في المعجم الأوسط ٥/٢١١، والدعاء ص٣٩، والبيهقي في الدعوات الكبير ٢/٩٣.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) أخرجه بلفظه الديلمي في مسند الفردوس ٥/٣٦٣ عن أنس، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٦/٣١١ بلفظ: «يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة».

(٥) ورد قوله في: الأذكار للنووي ص٣١٦.

(مسلم)[١]: «أنَّهُ ما تقرَّبَ المتقرِّبونَ إلىٰ اللهِ بمثلِ أداءِ ما افترضَ عليهِمْ، وأنَّ العبدَ لا يزالُ يتقرَّبُ إليهِ بالنَّوافلِ حتَّىٰ يحبَّهُ»، فإذَا أحبَّهُ حفظَهُ في سائرِ تصرُّفاتِهِ، واستجابَ دعاءَهُ، وأعطاهُ ما سألَهُ فهذَا كلُّهُ تضمَّنَهُ الخبَرُ الصَّحيحُ.

فَدَلَّ ذلكَ علَىٰ أنَّ استجابَةَ الدُّعاءِ مَشْرُوطَةٌ بتقدُّمِ الطَّاعَاتِ الوَاجِبَاتِ والمَنْدُوباتِ، وأكلُ الحَلالِ منْ أهمِّ الأمورِ في صَفَاءِ القلبِ وَصَلاحِهِ، وإذَا صلُحَ صَلُحَتْ سَائِرُ الجَوَارحِ؛ لأنَّهُ مُثِّلَ بالزَّيتِ في المصباحِ، كلَّمَا صَفَا ورقَّ قوِيَ ضياؤُهُ في البيتِ، وانكشفَتْ بهِ الأمورُ الخفيَّةُ، ولهذَا المعنَىٰ حفظَ اللهُ الصَّالحينَ في أطعمِهِمْ عَنْ أيسرِ الشُّبَهِ الَّتِي يعلمُهَا هوَ ولَا يعلمونَهَا.

كانَ المحاسبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا مدَّ يدَهُ إلىٰ طعامٍ فيهِ شُبهةٌ لمْ تمتدَّ، فإنِ امتدَّتْ لخفَّةِ الشُّبْهَةِ وأتَىٰ [٢/٢١٧ب] بها إلىٰ فِيهِ استعف عنه لَمْ يَبْتلعهُ[٢]، كذلِكَ بشرُ بنُ الحارثِ[٣] وغيرُهُمْ ممَّنْ حَفِظَهُم اللهُ - تعالىٰ - مِنْ ذلِكَ بأماراتٍ تجعلُهَا لهُمْ علىٰ الطَّعامِ الَّذِي فيهِ شُبهةٌ.

قالَ لِيَ الفقيهُ مالكُ بنُ يَدُّوا[٤] رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنتُ إذَا كانَ في الطَّعامِ شيءٌ أرَىٰ عليهِ ظُلمةً، فأتركُهُ»، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يراهُ يغلِي دُوْدًا فَيَدَعُهُ، وذلِكَ مِنْ حفظِ اللهِ لهُمْ[٥].

وزعمَ بعضُ النَّاسِ أنَّ ذلكَ تابعٌ للظُّنونِ، وأنَّ ضررَ الطَّعامِ تابعٌ لإقدامِ العبدِ معَ معرفتِهِ بالشُّبهةِ أوْ ظنِّهِ لهَا، فلذلِكَ يجدُ ظلمةً في قلبِهِ بخلافِ مَنْ لمْ يعلمْ ذلكَ منَ الطَّعامِ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٤.

(٣) مر تخريجه في الدلالة ١/٢٣٩.

(٤) أحد معاصريه، ولم أقف له علىٰ ترجمة.

(٥) ذكره الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٤.

ومَا حكيناهُ عنِ المُحاسبيِّ وغيرِهِ يدلُّ على خلافِ ذلكَ، وأنَّ سنَّةَ اللهِ في الطَّعامِ الَّذي مُلِكَ بغيرِ وجهٍ شرعيٍّ أنْ يكونَ لهُ تأثيرٌ في القُلُوبِ رديءٌ، وكذلِكَ الحلالُ تأثيرُهُ جيِّدٌ، سَواءٌ علِمَ العبدُ بذلكَ أو لمْ يعلمْ، وكذلِكَ حفظهُمُ اللهُ ممَّا لا يعلمونَ سَلامةً لِقُلُوبِهِمْ وأَحْوَالِهِمْ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ**[(٢)]: **مَرَّ مُوسَىٰ ـ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِرَجُلٍ يَدْعُو وَيَتَضَرَّعُ، فَقَالَ مُوسَىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إِلَهِي؛ لَوْ كَانَتْ حَاجَتُهُ بِيَدَيَّ قَضَيْتُهَا، فَأَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَيْهِ: أَنَا أَرْحَمُ بِهِ مِنْكَ، وَلَكِنَّهُ يَدْعُونِي وَلَهُ غَنَمٌ وَقَلْبُهُ عِنْدَ غَنَمِهِ، وَإِنَّنِي لَا أَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ يَدْعُونِي وَقَلْبُهُ عِنْدَ غَيْرِي، فَذَكَرَ مُوسَىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **لِلرَّجُلِ ذَلِكَ، فَانْقَطَعَ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بِقَلْبِهِ، فَقُضِيَتْ حَاجَتُهُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ممَّا يدلُّ على أنَّ الدُّعاءَ شرطُهُ: حضورُ العقلِ، وصحَّةُ النِّيَّةِ، وكمالُ الاضطِّرارِ.

وَهذَا جارٍ فيمَا بينَنَا؛ لوْ أتىٰ أحدٌ منَ النَّاسِ لرجلٍ يسألُهُ حاجةً لأقبلَ عليهِ بوجهِهِ وصرَّحَ بافتقارِهِ إليهِ وحاجتِهِ، وشرحَ لهُ ما هوَ عليهِ مِنْ فقْرِهِ وضَرُورتِهِ، ولمْ يَخْطُرْ بقلبِهِ فِي وقتِ مُكَالمتِهِ سِوَىٰ ما قَصَدَهُ مِنْ حَاجتِهِ، فإذَا كانَ هذَا فِي حَقِّ مخلوقٍ لمخلوقٍ معَ العِلْمِ بأنَّ المَسْئولَ لَا قُدْرَةَ لهُ على قَضاءِ حَاجةِ السَّائلِ نفسِهِ إلَّا أنْ يُجْرِيهَا الحقُّ ـ سبحانه ـ لهُ، ويسخِّرُهُ لقضائِهَا، فكيفَ بمَنْ يملكُ سائرَ الحاجاتِ، ويعلمُ الخفيَّاتِ، ومَا في القلبِ منَ الالتفاتاتِ إلىٰ غيرِهِ والغفلاتِ؟!

وأقبحُ ذلكَ وأشنعُهُ مَا يفعلُهُ فِي الصَّلواتِ المفترضَاتِ، يأتيهَا أحدُنَا على حكمِ العاداتِ، فيستقبلُ القبلةَ [٢/٢١٨أ] ويُكبِّرُ، ويُثني على اللهِ ـ تعالىٰ ـ بأنَّهُ ﴿رَبِّ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٤.

(٢) ورد في: حياة الحيوان ٢/٢٥٩، ونزهة المجالس ومنتخب النفائس ١/٨٥.

ﵟٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِﵞ [الفاتحة: ٢ ـ ٣] وهوَ غافلُ القلبِ عمَّا يتكلَّمُ بهِ بلسانِهِ غيرُ عالمٍ بمعناهُ، ثمَّ يقولُ: ﵟإِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُﵞ [الفاتحة: ٥] كلُّ ذلكَ معَ الغفلةِ والاشتغالِ بأيسرِ الأسبابِ وأيسرِ المخلوقِين.

وإنَّمَا كانَ ذلكَ منْ أقبحِ القَبائحِ؛ لشدَّةِ طلبِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للصَّلواتِ المفترَضَاتِ، وإيجابِهِ لهَا الطَّهارةَ والنِّيَّاتِ، واستقبالَهُ لجهةِ الكعبةِ الَّتِي أضافَهَا لنفسِهِ دونَ سائرِ الجهاتِ(١)، وإيجابِهِ التَّكبيرَ ليعظُمَ في القلبِ مَنْ يخاطبُهُ العبدُ ويسألُهُ في الحاجاتِ، وقدَّمَ الثَّناءَ والمدحَ لربِّهِ وانفرادَهُ بالمُلكِ ليومِ الحسابِ بالحسناتِ والسَّيِّئاتِ، وحينئذٍ أمرَهُ بالدُّعاءِ والالتجاءِ والاستعانةِ بهِ في هدايتِهِ الصِّراطَ المستقيمَ المُبيَّنَ فِي الأخبارِ والآياتِ.

وإذَا كانَ العبدُ غافلًا عن ربِّهِ فيمَا أكَّدَهُ هذا التَّأكيدَ، وعضَّدَهُ بهذِهِ الأسبابِ في الحضورِ، فكيفَ بغيرِهَا منَ الأمورِ؟! وهوَ في غيرِهَا أغفلُ، ولذلكَ كانَ «أوَّلُ ما يُحاسَبُ بِهِ العبدُ الصَّلاةَ، فإنْ سلِمَ منهَا نُظرَ في بقيَّةِ عملِهِ»(٢)، وإلَّا كانَ منَ الهالِكِينَ، والسِّرُّ فيهِ أنَّ الصَّلاةَ أخفُّ الأعمالِ وآكدُهَا، طلبًا لذِي الجلالِ، وثانيةُ الإيمانِ(٣)، وليسَتْ علىٰ النَّفسِ فِي المشقَّةِ كغيرِهَا منَ العباداتِ؛ فإنَّ الزَّكاةَ إخراجُ المالِ المحبوبِ، والصَّومَ مفارقةُ المطعومِ والمَشْرُوبِ، والحجَّ تعبُ البدنِ والمالِ، ومفارقةُ الولدِ والأهلِ، ومقاساةُ كثيرٍ منَ الأهوالِ(٤)، وأمَّا الجهادُ فالتَّعزيرُ بالنَّفسِ فضلًا عنْ غيرِهَا منَ الأهلِ والأولادِ، فإذَا فرَّطَ العبدُ فِي العملِ الخفيفِ

(١) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﵟجَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِﵞ [المائدة: ٩٧].

(٢) سبق تخريجه.

(٣) بعد كلمة الشهادة؛ لقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ على خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ» صحيح البخاري ١/١٢.

(٤) وقد قلّت المقاساة في هذا الزمان؛ لتطور وسائل النقل.

الأكيدِ كانَ فيمَا دونَهُ منَ الصَّعبِ الشَّديدِ أعظمَ تفريطًا، ولذلِكَ كتبَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ عمَّالِهِ(١): «إنَّ أهمَّ أمرِكُمْ عندِي الصَّلاةُ، فمَنْ حَفِظَهَا وحافظَ عليهَا فَقَدْ حفظَ دينَهُ، ومَنْ ضيَّعَهَا فهوَ لمَا سوَاهَا أضيعُ».

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«وَقِيلَ لِجَعْفَرٍ الصَّادِقِ(٣): مَا بَالُنَا نَدْعُو فَلَا يُسْتَجَابُ لَنَا؟ فَقَالَ: لِأَنَّكُمْ تَدْعُونَ مَنْ لَا تَعْرِفُونَهُ».**

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقدْ تُطلَقُ المعرفةُ علىٰ الذِّكْرِ، فإذَا كانَ العبدُ عارفًا بشيءٍ ثمَّ نسيَهُ صحَّ أنْ يقالَ: لَا يعرفُهُ، يعنِي: فِي وقتِهِ [٢/٢١٨ب]؛ لأنَّ النِّسيانَ ضِدُّ العِلْمِ.

ويحتملُ أنْ يريدَ: لا يعرفونَهُ حقَّ معرفتِهِ الَّتِي تُفِيدُ قُلُوبُكُم التَّعظِيمَ لَهُ والإجلال، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، يعنِي: العلماءُ بهِ والذَّاكرُونَ لعظمتِهِ.

فإذَا كانَ العبدُ ذاكرًا لربِّهِ، ومعظِّمًا لهُ بقلبِهِ، وقاصدًا إليهِ بحاجتِهِ، مضطَّرًا إلىٰ نيلِهَا منهُ دونَ غيرِهِ، استجابَ لهُ الصَّادقُ وعدُهُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

فهذَا معنَىٰ قولِهِ: «**يَدْعُونَ مَنْ لا يعرفونَهُ**»، يَعْنِي: معَ الغفلةِ وقلَّةِ التَّعظِيمِ، فلَوْ كانُوا لا يعرفونَهُ بالكُلِّيَّةِ لكانُوا كفَّارًا.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٤ ـ ٤٢٥.

(٣) ورد قوله في: الدعاء المأثور وآدابه ص٦٩.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[2]: ظَهَرَ بِيَعْقُوبَ بْنِ اللَّيْثِ عِلَّةٌ أَعْيَتِ الأَطِبَّاءَ[3]، فَقَالُوا لَهُ: فِي وِلَايَتِكَ رَجُلٌ صَالِحٌ يُسَمَّىٰ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، لَوْ دَعَا لَكَ؛ لَعَلَّ اللهَ يَسْتَجِيبُ لَهُ، فَاسْتَحْضَرَ سَهْلًا، فَقَالَ: اُدْعُ اللهَ - تعالىٰ - لِي، فَقَالَ سَهْلٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَيْفَ يُسْتَجَابُ دُعَائِي فِيكَ وَفِي مَحْبَسِكَ مَظْلُومُونَ، فَأَطْلَقَ كُلَّ مَنْ كَانَ فِي حَبْسِهِ، فَقَالَ سَهْلٌ: اللَّهُمَّ كَمَا أَرَيْتَهُ ذُلَّ المَعْصِيَةِ فَأَرِهِ عِزَّ الطَّاعَةِ، وَفَرِّجْ عَنْهُ، فَعُوفِيَ.

فَعَرَضَ مَالًا عَلَىٰ سَهْلٍ، فَأَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ قَبِلْتَهُ وَدَفَعْتَهُ إِلَى الفُقَرَاءِ، فَنَظَرَ إِلَى الحَصَىٰ فِي الصَّحْرَاءِ فَإِذَا هِيَ جَوَاهِرُ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَنْ يُعْطَىٰ مِثْلَ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَالِ يَعْقُوبَ بْنِ اللَّيْثِ؟!».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ الكُرَبَ العظيمةَ لا يفرِّجُهَا مالٌ ولا جاهٌ ولا سلطنةٌ ولا اقتدارٌ ولا طِبٌّ، وإنَّمَا يُفَرِّجُهَا صحيحُ الافتقارِ[4]، فلمَّا مرضَ هذَا السُّلطانُ مرضًا أَعْيَىٰ الأطبَّاءَ بُرْؤُهُ، وعرَفَ جميعُ الأطبَّاءِ عجزَ أنفسِهِمْ وعجزَهُ، رجعُوا إلىٰ مَنْ يملكُ ضرَّهُ ونفعَهُ؛ وهوَ اللهُ، وفتَّشُوا علىٰ أقربِ الأسبابِ في نيلِ المطلوبِ، فوجدوهُ سهلَ بنَ عبدِ اللهِ المحبوبَ، فأخبَرُوهُ بخبَرِهِ، فاستحضَرَهُ وكانَ حقُّهُ لو عقلَ أنْ يَحْضُرَهُ[5]، فامتثلَ سهلٌ ما أمرَهُ الحقُّ بهِ؛ وهوَ قولُهُ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، فلمَّا حضرَ بينَ يدَيهِ سألَهُ أنْ يدعُو لهُ، فتلطَّفَ معَهُ في الدَّواءِ اللَّائقِ بالصَّالحينَ، وقالَ لهُ: «**كيفَ أدعُو**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٥.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢١٠، ومرآة الجنان ٢/٢٠١.

(٣) فيه إشارة إلىٰ أن البلايا بالأمراض وغيرها سببها المعاصي.

(٤) إلىٰ من بيده النفع والضر. وقد أفاده الشيخ زكريا بلفظه في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٥.

(٥) أي: يذهب إليه هو.

لكَ وفِي حبسِكَ مظلومُونَ ؟!» فلمَّا فهِمَ السُّلطانُ وجْدَ العلاجِ ، أمرَ بمَنْ فِي سجنِهِ [٢١٩/٢أ] بالإخراجِ ، فقالَ سهلٌ حينئذٍ: «اللَّهُمَّ إنَّكَ أريتَهُ ذُلَّ المَعْصِيَةِ» بمَا ابتليتَهُ بهِ ، وعجزَ عنْ إزالتِهِ ، «فأرِهِ عزَّ الطَّاعةِ» الَّتِي طلبَ الخَلاصَ ممَّا هوَ فيهِ بأهلِهَا ، ودعَا لهُ بالفَرَجِ فعُوفِي منْ ساعتِهِ ، «ثمَّ أمرَ لهُ بمالٍ ، فأبَىٰ أنْ يَقْبَلَهُ» ، ثمَّ نبَّهَ أصحابَهُ علىٰ كونِ الحقِّ يُريهُم استغناءَهُ عن سائرِ الملوكِ بأنْ رأَوا الحصباءَ[١] جوهرًا[٢].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ: كَانَ صَالِحٌ المِرِّيُّ يَقُولُ كَثِيرًا: مَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ بَابٍ يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ ، فَقَالَتْ رَابِعَةُ: إِلَىٰ مَتَىٰ يَقُولُ هَذَا؟ مَتَىٰ أُغْلِقَ هَذَا البَابُ حَتَّىٰ يُسْتَفْتَحَ ؟! فَقَالَ صَالِحٌ: شَيْخٌ جَهِلَ[٤] وَامْرَأَةٌ عَلِمَتْ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ مِنْ صالحٍ إشارةٌ إلىٰ طلبِ الدُّعاءِ والابتهالِ والسُّؤالِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ، فإنَّهُ يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ، وإشارةُ رابعةَ إلىٰ أنَّ رحمةَ اللهِ مَبْسُوطةٌ ، وعَفْوَهُ لَمْ يزَلْ ، كمَا جاءَ الخبَرُ الصَّحيحُ[٥]: «إنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يبسُطُ يدَهُ باللَّيلِ ليتوبَ مُسِيءُ النَّهارِ ، ويدَهُ بالنَّهارِ ليتوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ» ، يعنِي: يبسطُ رحمتَهُ وفضلَهُ علىٰ عبادِهِ.

فتكلَّمَتْ رابعةُ مِنْ مَقَامِ التَّوحيدِ ، وتكلَّمَ صالحٌ منْ مقامِ الكسبِ والعبوديَّةِ ، وكلاهُمَا علىٰ حقٍّ ، إلَّا أنَّ صالحًا عرَفَ علوَّ درجتِهَا ومَا أشارَتْ إليهِ ، فأقرَّ لهُ بذلِكَ[٦] ـ رضِيَ اللهُ عنهُمْ أجمعِينَ ـ.

---

(١) الحصباء بالمد: صغار الحصىٰ. انظر: المصباح المنير ١/١٣٨.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٥.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٥.

(٤) أي: غفل عن مقام التوحيد.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢١١٣ ـ حديث رقم (٢٧٥٩).

(٦) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٥.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الحَرْبِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرِيَّ يَقُولُ[٢]: حَضَرْتُ مَجْلِسَ مَعْرُوفٍ الكَرْخِيِّ، فَقَامَ إِلَيهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا مَحْفُوظٍ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ كِيسِي؛ فَإِنَّهُ سُرِقَ وَفِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ، فَسَكَتَ فَأَعَادَ، ثُمَّ سَكَتَ فَأَعَادَ، فَقَالَ مَعْرُوفٌ: مَاذَا أَقُولُ؟ أَقُولُ: مَا زَوَيْتَهُ عَنْ أَنْبِيَائِكَ وَأَصْفِيَائِكَ فَرُدَّهُ عَلَيْهِ؟! فَقَالَ الرَّجُلُ: فَادْعُ اللهَ لِي، فَقَالَ: اللَّهُمَّ خِرْ لَهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ على كَمَالِ مُرَاقَبَةِ معروفٍ لِمَولَاهُ وأحكامِهِ ومَا يدعوهُ بهِ، فإنَّهُ لمْ يلتفِتْ لحُرقةِ هذا السَّائلِ، ولَا لكثرةِ ما ضاعَ منهُ منَ المالِ ـ وهوَ ألفُ دينارٍ ـ كمَا يجرِي لبعضِ النَّاسِ منْ مُحِبِّي الدُّنيا إذَا أخبَرَهُمْ إنسانٌ بمصيبةٍ نزلَتْ بهِ منْ مصائبِ الدُّنيَا، فأسفُوا وتألَّمُوا وتحسَّرُوا وزادُوهُ ألمًا إلى ألمِهِ، وهذَا خلافُ [٢/٢١٩ب] المَعْهُودِ من الشَّريعةِ، بلِ المعهودِ أنَّ أربابَ البلاءِ يُصَبَّرُونَ ويُعَزَّونَ[٣] ويُهَوَّنُ عليهِم ما نزلَ بهِم، ويعرفونَ[٤] أنَّ فِي اللهِ خَلَفًا مِنْ كلِّ مصيبةٍ، كمَا جاءَ في الخبرِ[٥]: «إنَّ مَنِ ابْتُلِيَ بشيءٍ أوْ أُصيبَ بمصيبةٍ، فقالَ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] إلَّا آجرَهُ اللهُ في مصيبتِهِ، وأبدلَهُ ما هوَ خيرٌ منهَا»، فتثبَّتَ معروفٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذَا السَّائلُ يكرِّرُ عليهِ السُّؤالَ بالدُّعاءِ لهُ أنْ يجمعَ اللهُ عليهِ كِيْسَهُ، فلمَّا كرَّرَ عليهِ رفعَ رأسَهُ لهُ وقالَ: «**يا أخِي، شيءٌ زَوَاهُ اللهُ عن أنبيائِهِ وأوليائِهِ، أدعُو لكَ أنْ يأتيَكَ بهِ؟!**»[٦].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٥.

(٢) ورد قوله في: مناقب معروف الكرخي وأخباره لابن الجوزي ص١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣) في (أ): يصبروا ويعزوا، والصواب المثبت.

(٤) في (أ): ويعرفوا، والصواب المثبت.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/٦٣٢ ـ حديث رقم (٩١٨).

(٦) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٦.

وفِي هذا الكلامِ تعزيةٌ لهُ وأُسْوةٌ بالصَّالحينَ الَّذينَ صَرَفَ اللهُ عنهُمُ الدُّنيَا، بَلْ هُمْ صَرَفُوهَا عَنْ أنفسِهِمْ اختيارًا وزُهْدًا، وَصَرَفَهَا اللهُ عنكَ جَبْرًا وَكُرْهًا، وادَّخَرَهَا لكَ في يومِ فقرِكَ وحاجتِكَ، فلمَّا سمعَ منهُ هذَا الكلامَ قالَ: «**أُدْعُ اللهَ لِي**»؛ أيْ: بمَا تَراهُ لِي صَلاحًا، فقالَ: «**اللهُمَّ خِرْ لَهُ**[(١)]».

وفي هذِهِ الحكايةِ أدبُ الدَّاعِي لغيرِهِ، كمَا تقدَّمَ منَ الحكاياتِ في أدبِ الدَّاعِي لِنَفْسِهِ، فمَنْ دعَا لنفسِهِ، فأدبُهُ حُسْنُ النِّيَّةِ وكمالُ التَّضرُّعِ فِي الاضطِّرارِ، ومَنْ دعَىٰ لغيرِهِ فلا يدعُو لهُ إلَّا بمَا يتَّضحُ لهُ نَفْعُهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، وبمَا يُجريهِ الواحدُ الغفَّارُ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَحُكِيَ عَنِ اللَّيْثِ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ نَافِعٍ[(٣)] ضَرِيرًا، ثُمَّ رَأَيْتُهُ بَصِيرًا، فَقُلْتُ لَهُ: بِمَ رُدَّ عَلَيْكَ بَصَرُكَ؟ فَقَالَ: أُتِيتُ فِي مَنَامِي فَقِيلَ لِي: قُلْ: يَا قَرِيبُ يَا مُجِيبُ، يَا سَمِيعَ الدُّعَاءِ، يَا لَطِيفًا لِمَا يَشَاءُ؛ رُدَّ عَلَيَّ بَصَرِي.**

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: كَانَ بِي وَجَعُ العَيْنِ اِبْتِدَاءَ مَا رَجَعْتُ إِلَىٰ (نَيْسَابُورَ) مِنْ (مَرْوٍ)، وَكُنْتُ مُدَّةَ أَيَّامٍ لَمْ أَجِدِ النَّوْمَ، فَتَنَاعَسْتُ صَبَاحًا، فَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ لِي: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾** [الزمر: ٣٦]**، فَانْتَبَهْتُ وَقَدْ فَارَقَنِي الرَّمَدُ، وَزَالَ فِي الوَقْتِ الوَجَعُ، وَلَمْ يُصِبْنِي بَعْدَ ذَلِكَ وَجَعُ العَيْنِ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الحكايةُ الأُولَىٰ في قضيَّةِ عُقْبَةَ فَضِيلَةُ الدُّعاءِ الَّذِي أُعْلِمَهُ وَدَعا بهِ؛ وهوَ كونُهُ قريبًا مجيبًا سميعَ الدُّعاءِ، لطيفًا لمَا يشاءُ.

---

(١) أي: افعل له خير الأمرين عندك. انظر: نتائج الأفكار ٣/٤٠١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٥ ـ ٤٢٦.

(٣) في (أ): بن عامر، والتصويب من الرسالة القشيرية، وإحكام الدلالة ٢/٧٥٦:

وفي قضيَّةِ الشَّيخِ أبِي عليٍّ صبْرُهُ علىٰ ما ابتُلِيَ بهِ، وربَّمَا كانَ فِي هذا الوقتِ الَّذِي فُرِّجَ عنهُ في ضَرُورةٍ احتاجَ فيهَا إلىٰ بَصَرِهِ ورضِيَ بقدرِ ربِّهِ، فسمِعَ الهاتفَ بلطفِ اللهِ بهِ وفرجِهِ لهُ ممَّا علِمَهُ منْ قلبِهِ، فسمِعَهُ يقولُ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] [٢/٢٢٠أ]، فكَفَاهُ مِمَّا كانَ يخشاهُ لضعفِ بصرِهِ، ولمْ يعُدْ ذلكَ إليهِ فِي وَقْتِ [سُؤالِهِ](١).

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَحُكِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خُزَيْمَةَ أَنَّهُ قَالَ**(٣): **لَمَّا مَاتَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ كُنْتُ بِالإِسْكَنْدرِيَّةِ، فَاغْتَمَمْتُ، فَرَأَيْتُ فِي المَنَامِ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ وَهُوَ يَتَبَخْتَرُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، أيُّ مِشْيَةٍ هَذِهِ؟ فَقَالَ: مِشْيَةُ الخُدَّامِ فِي دَارِ السَّلَامِ**(٤)، **قُلْتُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي وَتَوَّجَنِي، وَأَلْبَسَنِي نَعْلَينِ مِنْ ذَهَبٍ، وَقَالَ: يَا أَحْمَدُ: هَذَا لِقَوْلِكَ: القُرْآنُ كَلَامِي**(٥)، **ثُمَّ قَالَ: يَا أَحْمَدُ، اُدْعُنِي بِتِلْكَ الدَّعَوَاتِ الَّتِي بَلَغَتْنِي عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَكُنْتَ تَدْعُو بِهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَقُلْتُ: يَا رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، بِقُدْرَتِكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ؛ اِغْفِرْ لِي كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَ: يَا أَحْمَدُ؛ هَذِهِ الجَنَّةُ فَادْخُلْهَا، فَدَخَلْتُهَا**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ ما يدلُّ علىٰ فضيلةِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ،

---

(١) طمست هذه الكلمة في (أ)، فلعلها كذلك.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٦.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ٩/١٩٠، وتاريخ دمشق ٥/٣٣٥، ١٠/٢٢٨، وصفة الصفوة ٢/٣٣٥، والبداية والنهاية ١٠/٣٤٣.

(٤) في نتائج الأفكار ٣/٤٠٢: «المراد بذلك: مشية من يشبه الخدم لأهل الجنة، بالنسبة للأفرع منه فيها درجة».

(٥) أي: غير مخلوق، خلافا للمعتزلة. انظر في ذلك: الرد علىٰ من يقول القرآن مخلوق، والإبانة للأشعري ص٨٨، ومقالات الإسلاميين ص١٩٢، والمغني للقاضي عبد الجبار ٧/٨٤، وشرح الأصول الخمسة ص٥٢٨، والحجة في بيان المحجة ١/٤٢٩، ومفاتيح الغيب ٣/٢١١.

وأنَّهُ يُحاشَىٰ عنْ أنْ يصفَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ بمَا لا يليقُ مِنْ أنَّهُ يقولُ بالحرفِ والصَّوتِ المخلوقَينِ، ولذلِكَ لمَّا سألَهُ الرَّائِي بِمَ نالَ هذهِ المنزلةَ والتَّبختُرَ في الجنَّةِ؟ أخبَرَهُ بالسَّببِ الَّذِي بهِ نالَ هذهِ المنزلةَ، بقولِك: «**القُرآنُ كَلَامِي**»، وكلامُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ صِفتُهُ، واللهُ ـ سبحانه ـ بصفاتِهِ قديمٌ، تعالَىٰ عن قيامِ الحَوادِثِ بِذَاتِهِ.

وأمَّا قولُهُ: «**وقالَ لِي: يا أحمدُ، ادعُنِي بتلكَ الدَّعواتِ الَّتِي كنتَ تدعونِي بهَا فِي الدُّنيَا**، وهوَ قولُهُ: **يا ربَّ كلِّ شيءٍ، بقدرتِكَ علىٰ كلِّ شيءٍ، اغفرْ لِي كلَّ شيءٍ، ولَا تسألْنِي عنْ شيءٍ**»، فهذهِ[(١)] فائدةٌ ترجعُ إلىٰ الرَّائِي للمنامِ، وأنَّهُ نُبِّهَ علىٰ أنْ يدعوَ بهذَا الدُّعاءِ، فإنَّ الآخرةَ ليسَتْ دارَ عملٍ، وإنَّمَا أجرَاهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ علىٰ لسانِ أحمدَ فِي المنامِ؛ ليعرفَ الرَّائِي منزلةَ هذا الدُّعاءِ عندَ اللهِ ويدعُو بهِ فِي الحياةِ[(٢)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقِيلَ: تَعلَّقَ شَابٌّ بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ وَقَالَ: إِلَهِي، لَا شَرِيكَ لَكَ فَيُؤْتَىٰ، وَلَا وَزِيرَ فَيُرْشَىٰ، إِنْ أَطَعْتُكَ فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ الْحَمْدُ، وَإِنْ عَصَيْتُكَ [فَبِجَهْلِي][(٤)] فَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ، فَبِإِثْبَاتِ حُجَّتِكَ عَلَيَّ، وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي لَدَيْكَ إِلَّا غَفَرْتَ لِي، فَسَمِعَ هَاتِفًا يَقُولُ: الفَتَىٰ عَتِيقٌ مِنَ النَّارِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ مِنْ أحسنِ الأسبابِ في استدعاءِ الرَّحمةِ بالفعلِ والقَولِ؛ فأمَّا الفعلُ فالتَّعلُّقُ بالجَنَانِ[(٥)]، وأمَّا القولُ فحُسنُ الخِطابِ، وذلكَ قولُهُ: «**فبإثباتِ حجَّتِكَ عليَّ**» [٢/٢٢٠ب] إقرارٌ للهِ ـ تعالىٰ ـ بلزومِ

---

(١) في (أ): فهذا، والصواب المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٧.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٦.

(٤) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية المطبوع.

(٥) في (أ): بالجناب، والتصويب من نقل الشيخ زكريا عنه في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٨.

الحقِّ على العبدِ، كمَا قالَ ـ تعالى ـ: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقولُهُ: «**وانقطاعِ حجَّتِي لديكَ**» إقرارٌ بالمعصيةِ والمخالفةِ، ومَنْ تكونُ هذهِ حالَتَهُ فهوَ فقيرٌ إلى الرَّحمةِ، ومَنْ تكونُ لهُ الحُجَّةُ البالغةُ فهوَ المقتدرُ على ما يشاءُ، وهوَ الَّذي يُرْغَبُ إليهِ في العفوِ عنِ الزَّللِ والخطأِ[١].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: **«وَقِيلَ: فَائِدَةُ الدُّعَاءِ: إِظْهَارُ الفَاقَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَإِلَّا فَالرَّبُّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ، فإنَّ إظهارَ الفاقةِ سببٌ منْ أسبابِ الرَّحمةِ، وإلَّا فالحقُّ ـ سبحانه ـ لهُ أنْ يرحمَ مَنْ يشاءُ بلا سببٍ، وكذلِكَ يُهلكُ مَنْ يشاءُ؛ لأنَّهُ مالكُ الكلِّ، ويتصرَّفُ في ملكِهِ كيفَ يشاءُ من جائزاتِهِ.

والظُّلمُ في حقِّهِ محالٌ؛ لأنَّ الظُّلمَ: إمَّا أنْ يرجعَ إلى مخالفةِ الأمرِ؛ وهوَ ارتكابُ النَّهيِ، واللهُ ـ تعالى ـ لا آمِرَ لهُ ولا نَاهِيَ، أوْ يرجعَ إلى التَّصرُّفِ فِي ملكِ الغيرِ بغيرِ إذنِهِ، ولَا ملكَ لغيرِ اللهِ حتَّى يكونَ تصرُّفُهُ فيهِ ظلمًا، كمَا قالَ ـ تعالى ـ: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٧][٣].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٤]: **«وَقِيلَ: دُعَاءُ العَامَّةِ بِالأَقْوَالِ، وَدُعَاءُ الزَّاهِدِ بِالأَفْعَالِ، وَدُعَاءُ العَارِفِ بِالأَحْوَالِ».**

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام ٢/٧٥٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٦.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام ٢/٧٥٨.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٦.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ العامِّيَّ يدعُو فِي حاجتِهِ بلسانِهِ خاصَّةً، وغايتُهُ حُضُورُ النِّيَّةِ[١].

والزَّاهدُ يتبرَّأُ منَ الدُّنيا[٢]، ثمَّ يدعُو فيكونُ قَدْ أضافَ إلىٰ الأقوالِ الأفعال؛ وهوَ إخلاءُ اليدِ منَ الدُّنيَا امتثالًا لأمرِ اللهِ.

والعارفُ يضيفُ إلىٰ الأقوالِ والأفعالِ الأحوالَ؛ وهوَ التَّضرُّعُ والتَّذلُّلُ بالقلبِ، وهوَ المُعَبَّرُ عنهُ بـ«الحالِ».

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقِيلَ: خَيْرُ الدُّعَاءِ: مَا هَيَّجَتْهُ[٤] الأَحْزَانُ[٥]**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا إشارةٌ إلىٰ الحزنِ علىٰ التَّقصيرِ في حقِّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فبهذَا الاعتبارِ يكونُ خيرَ الدُّعاءِ.

وأمَّا الحُزْنُ علىٰ ما فاتَ منَ الدُّنيَا وإنْ كانَ ممَّا هوَ محتاجٌ إليهِ يستعينُ بهِ علىٰ طاعةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وإنْ كانَ محمودًا فلا يبلغُ مبلغَ مَنِ اجتهدَ في الطَّاعةِ، وأفرغَ جهدَهُ فيهَا، ورأىٰ نفسَهُ مقصِّرًا في حقِّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ [٢/٢٢١أ] فحزنَ علىٰ تقصيرِهِ، بَلْ حَزِنَ علىٰ كونِهِ لمْ يَحْزَنْ كَمَالَ الحُزْنِ

وكانَ يُحْكَىٰ عن الحَسَنِ بن أَبِي الحسنِ البصرِيِّ «أنَّهُ كانَ منَ المَحْزُونِينَ»، حتَّىٰ قيلَ[٦]: «إنَّك لا تَرَاهُ إلَّا كأنَّهُ حديثُ عهدٍ بمصيبةٍ»، يعنِي: تجدَّدَ لهُ همٌّ لمْ

---

(١) أي: غاية همتهم في الدعاء حضور النية.

(٢) أي: زهدًا فيها.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٦.

(٤) في (أ): هيجه، والمثبت من الرسالة القشيرية.

(٥) لأنه في هذه الحالة أقرب إلىٰ الإجابة.

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ٢/١٣٤، وسير أعلام النبلاء ٤/٥٨٥.

يكنْ ، ومعَ كمالِ حزنِهِ قالَ لأصحابِهِ يومًا[(١)]: «قومُوا بنَا نزورُ العلاءَ بنَ زيادٍ ، وكانَ العلاءُ بنُ زيادٍ منَ المحزونينَ الَّذينَ سلَّهُمُ الحزنُ ، حتَّىٰ لمْ يبقَ علىٰ أبدانِهِمْ لحمٌ ، حتَّىٰ كانَتْ أختُهُ تَنْدفُ تحتَهُ القطنَ ليمكنَهُ الاضطِّجاعُ ، قالَ: فلمَّا دخلَ عليهِ الحسنُ وسلَّمَ عليهِ ، قالَ لهُ: كيفَ أنتَ يَا علاءُ؟ فقالَ: واحزنَاهُ علىٰ الحزنِ ، فحزنَ علىٰ كونِهِ لمْ يحزنْ كمالَ الحُزْنِ ، فقالَ الحسنُ لأصحابِهِ: قُومُوا بنَا ، إلىٰ هذَا انتهَىٰ استقلالُ الحزنِ» ، أيْ: إذَا كانَ هذَا معَ كمالِ حُزْنِهِ وحالِهِ في الحزنِ يستقلُّ حزنَهُ ، فَحُزْنُنَا بالإضافةِ إليهِ كلَا حُزْنٍ .

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: **«وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا سَأَلْتَ اللهَ حَاجَةً فَتَسَهَّلَتْ[(٣)] فَسَلِ اللهَ ـ تعالىٰ ـ الجَنَّةَ فَلَعَلَّ ذَلِكَ يَوْمُ إِجَابَتِكَ»** .

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ إشارةٌ إلىٰ التَّنبُّهِ إِلَىٰ أوقاتِ الرَّحمةِ ، وأنَّ الإجابةَ قدْ تعجَّلُ وتؤجَّلُ ، فإذَا دعَا الإنسانُ اللهَ فِي شيءٍ ورآهُ قدْ عجَّلَهُ لهُ ، فإنْ كانَ في أُخراهُ فقدْ بلغَ مُنَاهُ ، وإنْ كانَ فِي دُنيَاهُ فلْيُلْحِقْهُ بالدُّعاءِ فِي أُخراهُ ، فلعلَّهُ يومُ إجابتِهِ ، ولذلِكَ قالَ: فسلْهُ الجنَّةَ .

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: **«وَقِيلَ: أَلْسِنَةُ المُبْتَدِئِينَ مُنْطَلِقَةٌ بِالدُّعَاءِ ، وَأَلْسِنَةُ المُتَحَقِّقِينَ[(٥)] خَرِسَتْ عَنْ ذَلِكَ»** .

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومعنَاهُ: أنَّ المبتدِئَ أيُّ شيءٍ خطرَ لهُ في مصلحتِهِ دعَا ربَّهُ فيهِ ، فلا يفرِّقُ بينَ ما هوَ وقتُهُ ومَا ليسَ وقتَهُ ، والعارفُ لسانُهُ محزونٌ عنِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٦.

(٣) أي: عُجِّل قضاؤها.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٦.

(٥) أي: العارفين.

الدُّعاءِ إلَّا فيمَا يدعوهُ العلمُ إليهِ، ويكونُ هوَ الأحبَّ عندَ ربِّهِ والأولَىٰ، وربَّمَا كانَ سكونُهُ في وقتٍ أولَىٰ مِنْ دعائِهِ لتُعْرَضَ الأمورُ الدِّينيَّةُ عليهِ، فيدعَ الخِيَرةَ للهِ - تعالىٰ - وهوَ يعلمُ ما فِي قلبِهِ، فلَا ينطلقُ لسانُهُ، ولهذَا تخرسُ ألسنةُ العارفِينَ لا قلوبُهُمْ[1].

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَسُئِلَ الْواسِطِيُّ أَنْ يَدْعُوَ، فَقَالَ[3]: أَخْشَىٰ إِنْ دَعَوْتُ أَنْ يُقَالَ لِي: إِنْ سَأَلْتَنا مَا لَكَ عِنْدَنَا فَقَدِ اتَّهَمْتَنا[4]، وَإِنْ سَأَلْتَنا مَا لَيْسَ لَكَ عِنْدَنَا فَقَدْ أَسَأْتَ الثَّنَاءَ** [٢/٢٢١ب] **عَلَيْنَا، وَإِنْ رَضِيتَ بِمَا أَجْرَيْنَا لَكَ مِنَ الأُمُورِ مَا قَضَيْنَا لَكَ فِي الدُّهُورِ**».

❋ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذَا إشارةٌ إلىٰ ما تقدَّمَ[5] ممَّا يُوجِبُ السُّكوتَ والإمساكَ عنِ الدُّعاءِ، فإنَّهُ لا يجرِي علىٰ العبدِ إلَّا ما سبقَ لهُ دَعَا أوْ لمْ يدعُ، لكنْ إذا أرادَ بهِ خيرًا خلقَ لهُ الدُّعاءَ مُوافقًا لمَا سبقَ جريانُهُ، وتفضلَ عليهِ بالعبادةِ والثَّمرةِ، وقدْ يدعُو ويقعُ لهُ خلافُ ما دعَا بهِ، فقدْ حصلَتْ لهُ العبادةُ؛ وهيَ الدُّعاءُ، ونُدبَ إلىٰ الرِّضَا بمَا أجرَاهُ عليهِ لتكمُلَ عِبادتُهُ.

وأمَّا قولُهُ في صدرِ كلامِهِ: «**إنْ سألْتَنَا مَا لكَ عندَنَا**»، أيْ: ما سبَقَ لكَ عندنَا «**فقدِ اتَّهَمْتَنَا**» في تأخيرِهِ، «**وإنْ سألْتَنَا مَا ليسَ لكَ عندَنَا فقدْ أسأْتَ إلينَا**»، أوْ طلبتَ مَا لا تستحقُّهُ، وإنْ كانَ المرادَ: أسأتَ الثَّناءَ علينَا، فإنَّ العبدَ الدَّاعِي يُثْنِي

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٦.

(٣) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٣/١٦٥، والوافي بالوفيات ٥/٥٨، وغيث المواهب العلية ص٢١١.

(٤) أي: في تأخيره.

(٥) أي: في صدر هذا الباب.

علىٰ ربِّهِ قبلَ دعائِهِ، فإذَا أثنَىٰ علىٰ اللهِ - تعالىٰ - وطلبَ منهُ فِي إِثْرِ ذلكَ ما لا يستحقُّهُ، فمَا أوقعَ ثناءَهُ عليهِ موقعَهُ؛ إذْ أردفَهُ بمَا لَا يُوافقُ الثَّناءَ منَ النِّسبةِ إلىٰ خلافِ ما جرَىٰ بهِ القضاءُ[(١)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَنَازِلَ أَنَّهُ قَالَ[(٣)]: مَا دَعَوْتُ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً[(٤)]، وَلَا أُرِيدُ أَنْ يَدْعُوَ لِي أَحَدٌ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الدُّعاءَ إنَّمَا يكونُ فيمَا اختارَهُ العبدُ لنفسِهِ ممَّا ينتفعُ بهِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، وكلُّ مَنْ كملَ رضَاهُ بمَا يُجريهِ عليهِ مولَاهُ، فِي دنياهُ وأخرَاهُ، استغنَىٰ عنِ الدُّعاءِ بحُسنِ اختيارِ مولاهُ لَهُ فيمَا قدَّرَهُ وقضَاهُ وأمضَاهُ[(٥)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَقِيلَ[(٧)]: الدُّعَاءُ سُلَّمُ المُذْنِبِينَ[(٨)]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والسُّلَّمُ: هوَ الوسيلةُ لبلوغِ مَا لا يقدرُ الإنسانُ أنْ يبلغَ إليهِ بنفسِهِ، ولا يبلغُ إلَىٰ عَفْوِ اللهِ عنهُ إلَّا بتضرُّعِهِ ودُعَائِهِ، كمَا قَالَ - سبحانَهُ وتعالَىٰ -: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠][(٩)].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٦.

(٣) ورد في: الدعاء المأثور وآدابه ص٧٥، وإتحاف السادة المتقين ٥/٣٩٣، عن عبد الله بن المبارك.

(٤) في نتائج الأفكار ٣/٤٠٤: «أي: ما دعوت دعاء بدون شاهد من العلم».

(٥) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٩.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٧.

(٧) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص١٢٠.

(٨) فهو من الأسباب الظاهرة في العفو عن الذنب.

(٩) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٥٩.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَقِيلَ**[(٢)]: **الدُّعَاءُ: المُرَاسَلَةُ**[(٣)]، **وَمَا دَامَتِ المُرَاسَلَةُ بَاقِيَةً فَالأَمْرُ جَمِيلٌ بَعْدُ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ العبدَ المذنبَ المخلطَ ما دامَ الحقُّ يخلقُ لهُ في قلبِهِ الدُّعاءَ والتَّضرُّعَ والبكاءَ علىٰ نفسِهِ، فالأمرُ [٢/٢٢٢أ] قريبٌ منَ التَّوبةِ والرُّجوعِ إلىٰ اللهِ، بخلافِ مَنِ استرسلَ في غفلتِهِ والتَّنعُّم بشهوتِهِ حتَّىٰ لمْ يذكرْ بقلبِهِ أمرَ آخرتِهِ، فضْلًا عنِ العملِ لهَا، هذا بعيدٌ منه والعياذُ باللهِ مِنْ مَقْتِهِ وسَخَطِهِ، ولذلِكَ قالَ: «**وما دامَتِ المراسلةُ باقيةً فالأمرُ جميلٌ بعدُ**».

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقِيلَ**[(٥)]: **لِسَانُ المُذْنِبِينَ دُمُوعُهُمْ**[(٦)]».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ومعنَاهُ: أنَّ بكاءَ المُذْنبِ علىٰ تَقْصِيرِهِ في حَقِّ ربِّهِ أنفعُ لهُ مِنْ دُعَائِهِ بِلِسَانِهِ معَ قَسَاوةِ قلبِهِ، فهوَ إذا بكَىٰ معَ سُكُوتِهِ كانَ أنفعَ لهُ مِنْ دعائِهِ علَىٰ وجهِ غَفْلَتِهِ وقلَّةِ خُضُوعِهِ[(٧)].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٨)]: «**وَسَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يَقُولُ: إِذَا بَكَىٰ المُذْنِبُ فَقَدْ رَاسَلَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ**[(٩)]».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٧.

(٢) ورد قوله في: شرح نهج البلاغة ١١/١٣٦، وتحفة المخلصين بشرح عدة الحصن الحصين ص٣٠٩.

(٣) أي: بينك وبين الله عَزَّوَجَلَّ، فهو من أسباب الوصول إلىٰ فضل الله وإحسانه.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٧.

(٥) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص١٢٠، وتحفة المخلصين بشرح عدة الحصن الحصين ص٣٠٩.

(٦) لأن القصد من الدعاء إظهار الفاقة والتذلل لله عَزَّوَجَلَّ، والدموع غاية في ذلك.

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٠.

(٨) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٧.

(٩) أي: حصَّل أسباب القرب من رحمته.

وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا(١):

دُمُوعُ الفَتَىٰ عَمَّا يُجِنُّ تُتَرْجِمُ ❊ وَأَنْفَاسُهُ يُبْدِينَ مَا القَلْبُ يَكْتُمُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّهُ قَدْ جاءَ أفضلُ ما تشفَّعَ العبدُ بهِ دموعٌ جرَتْ منْ خشيةِ اللهِ، كمَا جاءَ فِي الخبرِ(٢): «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»، ذَكَرَ فيهِمْ: «مَنْ بكَىٰ مِنْ خشيةِ اللهِ»، فإذَا كانَ بكاؤُهُ هوَ الشفيعَ لهُ، فهوَ الرَّسولُ؛ أيْ: هوَ الواسطةُ بينَ ذنبِهِ وعفوِ ربِّهِ، وكذلِكَ استغنَىٰ بهِ عنِ النُّطقِ بلسانِهِ، كمَا قيلَ:

دُمُوعُ الفَتَىٰ عَمَّا يُجِنُّ تُتَرْجِمُ ❊ وَأَنْفَاسُهُ يُبْدِينَ مَا القَلْبُ يَكْتُمُ

فاستغنَىٰ بالنَّفسِ والبكاءِ عنِ التَّصريحِ بالدُّعاءِ(٣).

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الدُّعَاءُ: تَرْكُ الذُّنُوبِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا جيِّدٌ بالغٌ، فإنَّ الدُّعاءَ معَ الاستمرارِ علىٰ المعصيةِ سدَّ بابَ الإجابةِ، فإنَّ اللهَ - تعالىٰ - قالَ في كتابِهِ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقالَ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فإذا تركَ الإنسانُ المعصيةَ وكفَّ عنهَا فقدْ فازَ بمَا أوجبَهُ اللهُ عليهِ كانَ قريبًا بأنْ يجابَ وأهلًا للإجابةِ.

وقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَهُمْ أتَىٰ ليخلِّصَ مظلومًا مِنْ خدَّامِ السُّلطانِ المَكَّاسينَ(٥)، فسألَهُمْ فيهِ فتركُوهُ، ثمَّ قالُوا [٢/٢٢٢ب] لهُ: ادعُ اللهَ لنَا، فقالَ: «قولُوا لذلِكَ الكُوزِ

---

(١) من الطويل، وورد بلا نسبة في: شرح نهج البلاغة ١١/١٣٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٠.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٧.

(٥) أي: السماسرة. انظر: مرقاة المفاتيح ٦/٣٤.

يدعُو لكُمْ»، يعنِي: الكوزَ الَّذِي تجمعُونَ فيهِ الدَّراهمَ منَ الظُّلم، أشارَ لهُمْ إلىٰ أنَّكُمْ إنْ تُبْتُمْ غُفِرَ لَكُمْ وما يفيدُ دعائِي معَ استمرارِكُمْ علىٰ الظُّلمِ[١].

وقَدْ تقدَّمَ كلامُ بعضِهِم لبعضِ الخلفاءِ[٢] لمَّا قالَ لهُ: «ادعُ لِي، لمَّا أعيا مَرضَهُ الأطبَّاءُ» قالَ لهُ: فِي سجنِكَ محبوسونَ ظلمًا أَطْلِقْهُمْ يُطْلِقْكَ، ففعلَ وفعلَ اللهُ لهُ وَعَافاهُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقِيلَ: الدُّعَاءُ: لِسَانُ الاِشْتِيَاقِ إِلَىٰ الحَبِيبِ.**

وَقِيلَ: الإِذْنُ فِي الدُّعَاءِ خَيْرٌ[٤] مِنَ العَطَاءِ[٥]».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ صحيحٌ، فإنَّ العبدَ لولَا اشتياقُهُ للمدعوِّ فيهِ لمْ ينطلقْ بلسانِهِ، ولولَا أنَّ الحقَّ تفضَّلَ علىٰ العبدِ بالدُّعاءِ الَّذِي سبقَ فِي علمِهِ أنَّهُ سببُ العطاءِ لمْ ينلِ العطاءَ، فهوَ إذًا منْ جملةِ العطاءِ، فإذا عجَّلَ اللهُ للعبدِ الدُّعاءَ فقدْ تفضَّلَ عليهِ بالعبادةِ، وإنْ رتَّبَ عليهَا ما دعَا بهِ فقدْ عجَّلَ لهُ مرادَهُ، وإنْ لمْ يعجِّلْهُ لهُ فقدْ حصَّلَ لهُ بعضَ العطاءِ؛ وهوَ الدُّعاءُ، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨][٦].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٧]: «**وَقَالَ الكَتَّانِيُّ[٨]: لَمْ يَفْتَحِ اللهُ لِسَانَ المُؤْمِنِ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٦٠/٢.

(٢) قول أبي الدقاق المتقدم قريبًا في هذا الباب.

(٣) الرسالة القشيرية ٤٢٧/٢.

(٤) أي: للعبد.

(٥) في نتائج الأفكار ٤٠٦/٣: «المراد: أنه خير من بعض العطاء لا عينه ومطلقه...».

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٦١/٢.

(٧) الرسالة القشيرية ٤٢٧/٢.

(٨) ورد قوله في: إيقاظ الهمم في شرح الحكم ص٢١١.

بِالمَعْذِرَةِ إِلَّا لِفَتْحِ أَبْوَابِ المَغْفِرَةِ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، ويشهدُ لهُ ما تقدَّمَ، فإنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ، فإنْ ترتَّبَ عليهَا المدعوُّ بهِ وأجرَاهُ الحقُّ كان زيادةً، وإلَّا فالحقُّ يدَّخرُ لهُ جزاءَ دعائِهِ، فإنَّهُ لا يضيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملًا، أوْ يؤتيهِ مَا هوَ خيرٌ لهُ ممَّا يعلمُ أنَّ فيهِ مصلحتَهُ(١).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقِيلَ: الدُّعَاءُ يُوجِبُ الحُضُورَ، وَالعَطَاءُ يُوجِبُ الصَّرْفَ(٣)، وَالمُقَامُ عَلَى البَابِ أَتَمُّ مِنَ الانْصِرَافِ بِالمبارِّ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معنَاهُ: أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ إذَا أرادَ أنْ يحضرَ العبدُ ببابِهِ خلقَ لهُ الدُّعاءَ، وإذَا أرادَ صرْفَهُ عنْ بابِهِ عجَّلَ لهُ ما دعَا بهِ، ودوامُ المُثُولِ على البابِ وكثرةُ التَّضرُّعِ، والبكاءِ في الخطابِ أقربُ إلى الصَّوابِ، وأحسنُ في صِفَاتِ الأَحْبَابِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «وَقِيلَ: الدُّعَاءُ: مُوَاجَهَةُ الحَقِّ بِلِسَانِ الحَيَاءِ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معنى ذلكَ [٢/٢٢٣أ]: أنَّ الدُّعاءَ المحمودَ ما قارنَهُ الحياءُ، فإنَّ الحياءَ إنَّمَا يكونُ معَ استشعارِ نظرِ الحقِّ إليكَ في حالِ دُعَائِكَ وسُؤالِكَ، فإنْ سألتَ، وقَدْ تقدَّمَتْ أجرامَكَ(٥) غلبَ على قلبِكَ الحياءُ منَ اللهِ ـ سبحانه ـ؛ لكونِكَ تسألُهُ رحمتَهُ وقَدْ عصيتَهُ(٦)، وإذَا كنتَ كذلكَ كنتَ قريبًا منَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٧.

(٣) وذلك باعتبار المألوف من عادة البشر، وإلا فلا صرف لطالب الحق أصلا. انظر: نتائج الأفكار ٣/٤٠٦. وفي (ف): الصدق، والصواب المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٧.

(٥) جمع: جرم؛ وهو الذنب العظيم.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦١.

الرَّحمةِ، فإنَّهُ ـ تعالىٰ ـ يقولُ: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وفسَّرَ النَّبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مقامَ الإحسانِ بقولِهِ[١]: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ[٢]: **«وَقِيلَ: شَرْطُ الدُّعَاءِ: الوُقُوفُ مَعَ القَضَاءِ بِوَصْفِ الرِّضَا».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: وهذَا أيضًا مِنْ أكملِ الدُّعاءِ أنْ يكونَ العبدُ أيّ شيءٍ وردَ عليهِ منَ الحقِّ فِي إِثْرِ دُعَائِهِ رَضِيَ بِهِ؛ لعلمِهِ باختيارِ مولاهُ لهُ في أنواعِ قضائِهِ، سَواء خالفَ ذلكَ أوْ وافقَ هَواهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ[٣]: **«وَقِيلَ: كَيْفَ تَنْتَظِرُ إِجَابَةَ الدَّعْوَةِ وَقَدْ سَدَدْتَ طَرِيقَهَا بِالهَفْوَةِ؟!».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: وهذَا راجعٌ إلىٰ ما قرَّرْنَاهُ منْ أنَّ أقوىٰ الأسبابِ في العَفْوِ والشَّفاعةِ ملازمةُ الطَّاعةِ[٤].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ[٥]: **«وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ: أُدْعُ لِي، فَقَالَ: كَفَاكَ مِنَ الأَجْنَبِيَّةِ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ وَاسِطَةً».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ بالغٌ جدًّا، وهوَ أفضلُ ممَّا أتَاهُ لهُ وسألَهُ الدُّعاءَ فيهِ؛ وذلكَ أنَّهُ سألَهُ أنْ يدعوَ لهُ ونبَّهَهُ علىٰ طريقٍ أقربَ للإجابةِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٧.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٧.

(٤) واللازم لها ترك الهفوة.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٧.

ممَّا سلكَهُ؛ وهوَ أنَّكَ لوْ دعوتَهُ بنفسِكَ وتضرَّعْتَ إليهِ لاستغنيتَ عنِّي وعنْ غَيْرِي.

وعبَّرَ بهذا الحالِ بالأجنبيَّةِ؛ وهوَ البعدُ؛ أيْ: جعلَ اللهَ منهُ جانبًا وقصدَ غيرَهُ وتركَهُ، وجعلَ بينَهُ وبينَهُ واسطةً.

وأوردَهُ بصيغةِ الذَّمِّ لهُ، وهوَ قولُهُ: «**كفاكَ منَ الأجنبيَّةِ**»، وهوَ أنَّ رواحَكَ إلىٰ غيرِهِ دليلٌ علىٰ بُعدِكَ منهُ وأجنبيَّتِكَ لهُ، وضمَّنَ هذا تحريضَهُ علىٰ الدُّعاءِ بنفسِهِ، والتَّضرُّعَ إليهِ في سائرِ مآربِهِ ومقاصدِهِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣][١].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ حَمْزَةَ بْنَ يُوسُفَ السَّهمِيَّ يَقُولُ**: [٢/٢٢٣ب] **سَمِعْتُ أَبَا الفَتْحِ نَصْرَ بنَ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَحْمَدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ**[٣]**: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَىٰ بَقِيِّ بْنِ مَخْلَدٍ، فَقَالَتْ: إِنَّ ابْنِي أَسَرَهُ الرُّومُ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَىٰ مَالٍ أَكْثَرَ مِنْ دُوَيْرَةٍ**[٤]**، وَلَا أَقْدِرُ عَلَىٰ بَيْعِهَا**[٥]**، فَلَوْ أَشَرْتَ إِلَىٰ مَنْ يَفْدِيهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لِي لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، وَلَا نَوْمٌ وَلَا قَرَارٌ**[٦].

فَقَالَ: نَعَمْ، انْصَرِفِي[٧] **حَتَّىٰ أَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ ـ، قَالَ: فَأَطْرَقَ الشَّيْخُ وَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ**[٨]**، قَالَ: فَلَبِثْنَا مُدَّةً، فَجَاءَتِ المَرْأَةُ وَمَعَهَا ابْنُهَا، وَأَخَذَتْ تَدْعُو لَهُ وَتَقُولُ: قَدْ رَجَعَ سَالِمًا وَلَهُ حَدِيثٌ يُحَدِّثُكَ بِهِ.**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٠/٣٥٦، ومعجم الأدباء، ٢/٣٣٤ وتاريخ الإسلام ٢٠/٣١٦.

(٤) أي: دار صغيرة.

(٥) أي: لشدة احتياجي لها.

(٦) أي: أقر فيه من أجله.

(٧) ليدوم توجه قلبها إلىٰ الله، ويستمر اعتمادها عليه.

(٨) أي: بالدعاء لها.

فَقَالَ الشَّابُّ: كُنْتُ بَيْنَ يَدَي بَعْضِ مُلُوكِ الرُّومِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الأَسَارَىٰ، وَكَانَ لَهُ إِنْسَانٌ يَسْتَخْدِمُنَا كُلَّ يَوْمٍ، يُخْرِجُنَا إِلَىٰ الصَّحْرَاءِ لِلْخِدْمَةِ، ثُمَّ يَرُدُّنَا وَعَلَيْنَا[(١)] قُيُودُنَا، فَبَيْنَا نَحْنُ نَجِيءُ مِنَ العَمَلِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ مَعَ صَاحِبِهِ الَّذِي كَانَ يَحْفَظُنَا فَانْفَتَحَ القَيْدُ مِنْ رِجْلِي وَوَقَعَ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَوَصَفَ اليَوْمَ وَالسَّاعَةَ، فَوَافَقَ الْوَقْتَ الَّذِي جَاءَتِ الْمَرْأَةُ وَدُعَاءَ الشَّيْخِ.

قَالَ: فَنَهَضَ إِلَيَّ الَّذِي كَانَ يَحْفَظُنِي وَصَاحَ عَلَيَّ، وَقَالَ: كَسَرْتَ الْقَيْدَ؟! قُلْتُ: لَا، إِنَّهُ سَقَطَ مِنْ رِجْلِي، قَالَ: فَتَحَيَّرَ، وَأَخْبَرَ صَاحِبَهُ، وَأُحْضِرَ الحَدَّادُ وَقَيَّدُونِي، فَلَمَّا مَشَيْتُ خُطُوَاتٍ سَقَطَ القَيْدُ مِنْ رِجْلِي، فَتَحَيَّرُوا فِي أَمْرِي، فَدَعَوا رُهْبَانَهُمْ، فَقَالُوا لِي: أَلَكَ وَالِدَةٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالُوا: وَافَقَ دُعَاؤُهَا الإِجَابَةَ، وَقَدْ أَطْلَقَكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فَلَا يُمْكِنُنَا تَقْيِيدُكَ، فَزَوَّدُونِي وَأَصْحَبُونِي إِلَىٰ نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِينَ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علىٰ أنَّ دعاءَ الوالدَينِ معلومُ الإجابةِ في سائرِ الشَّرائعِ، أوِ الدُّعاءُ مِنْ غيرِهِمْ فيمَا سألُوهُ عندَ اضطِّرارِهِمْ، كمَا تقدَّمَتِ الحكايةُ[(٢)] عنِ الجُنيدِ في المرأةِ الَّتي جاءَ ولدُهَا بدعائِهِ عندَ اضطِّرارِهَا.

وفِي هذهِ الحكايةِ خوارقُ عاداتٍ مُناسِبةٍ لمَا سَأَلَتِ المَرأةُ فيهِ الشَّيخَ تقيَّ بنَ مخلدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنَّمَا جاءتْ تسألُهُ فِي شيءٍ يعينُهَا بهِ فِي فكاكِ ولدِهَا من يدِ العدوِّ، وذكَرَتْ أنَّهُ لا مالَ لهَا سِوَىٰ بيعِهَا الدُّويرةَ، فقالَ لهَا الشَّيخُ: «**أنظرُ في ذلكَ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالَىٰ ـ، ودعَا اللهَ لهَا أنْ يخلِّصَهُ لهَا**» بلَا كلفةٍ ولا غرامةٍ، وكانَ [٢/٢٢٤أ] ذلكَ سرًّا بينَهُ وبينَ ربِّهِ، فورَّخَ[(٣)] أصحابُهُ وقتَ الدُّعاءِ؛ ليعرفُوا بذلِكَ مَا يُجريهِ

---

(١) أي: علىٰ أرجلنا.

(٢) الدلالة ٢/٢٧٧.

(٣) أي: أرَّخُوا. ففي الجمهرة ١/٥٩٤: «وورخت الكتاب، وأرخته». وفي المحكم «ورخ»: «وورّخ

الحقُّ منَ القَضَاءِ، فلمَّا جاءَتْ بهِ والدتُهُ بعدَ مدَّةٍ وقالَتْ: «**جاءَ ولدُهَا منْ غيرِ غرامةٍ، وعندَهُ حديثٌ يعلمُكَ**»، فأعلَمَهُ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ خرقَ العادةَ في قيدِهِ الَّذي كانَ في رِجْلِهِ في سائِرِ أيَّامِهِ، وسقطَ مِنْ رجلِهِ كرَّةً بعدَ كرَّةٍ، فعلمُوا أنَّ ذلكَ مرادُ الحقِّ، وأنَّهُ ليسَ مِنْ فعلِهِ هوَ، فجمعَ الملكُ أقسَّتَهُ وسألَهُمْ عنْ هذا الخارقِ، فسألُوهُ: «**هَلْ لهُ والدةٌ تدعُو لهُ؟ فقالَ: نعَمْ، فقالُوا: هذَا مِنْ دعاءِ والدتِكَ**».

وهذَا يدلُّ ـ كمَا قلنَا ـ أنَّ دعاءَ الوالدَينِ معلومُ الإجابةِ فِي كلِّ شريعةٍ؛ لشرفِ الوالدَينِ وحرمتِهِمَا عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، فقرَنَ شكرَهُمَا بشكرِهِ؛ لكمالِ إحسانِهِمَا إليهِ وبرِّهِمَا بهِ، كمَا أشارَ ـ تعالىٰ ـ بقولِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، فحقُّ الوالدَينِ علَىٰ الولدِ عظيمٌ، وشفقتُهُمَا عليهِ ورحمتُهُمَا بهِ أكيدٌ مقيمٌ، ولذلكَ يُستجابُ دعاؤُهُمَا؛ لصحَّةِ اضطرارِهِمَا في الدُّعاءِ لهُ بخلافِ غيرِهِمَا[١].

* * *

الكتابَ لغة في أرَّخه، حكاه يعقوب».

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٢ ـ ٧٦٣.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

باب الفقر

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] . . الآية.

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الحُسَيْنُ بْنُ شُجَاعِ بْنِ الحَسَنِ بْنِ مُوسَى البَزَّارُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِبَغْدَادَ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الهَيْثَمِ الأَنْبَارِيُّ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّائِغُ، حَدَّثَنَا قُبَيْصَةُ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَلْقَمَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ[٢]: «يَدْخُلُ الفُقَرَاءُ الجَنَّةَ[٣] قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمَائَةِ عَامٍ، [وَهُوَ][٤] نِصْفُ يَوْمٍ».

وَأَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدُوسٍ الحِيرِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ حَمْزَةُ بْنُ العَبَّاسِ البَزَّازُ بِبَغْدَادَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ غَالِبِ بْنِ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الفُرَاتِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ الهَجْرِيِّ، عَنْ أَبِي الأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٥]: إِنَّ المِسْكِينَ لَيْسَ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ [٢/٢٢٤ب] وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، قَالَ: فَمَنِ المِسْكِينُ يَا

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٢٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٥٧٨، وأحمد في مسنده ٢/٥١٢.

(٣) في نتائج الأفكار ٣/٤١١: «لعل المراد بالفقراء في الحديث المتجردون عن الدنيا رغبة في فيما لهم عند ربهم، لا مطلق الخلي عن المال والكسب الذي لم يكن كذلك».

(٤) زيادة من (ف).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٥٣٨ ـ حديث رقم (١٤٠٩)، ومسلم في صحيحه ٢/٧١٩ ـ حديث رقم (١٠٣٩).

رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الَّذي لَا يَجِدُ مَا يُغْنِيهِ[(١)]، وَيَسْتَحْيِي أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيهِ».

قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ القُشَيْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ-: مَعْنَى قَوْلِهِ: (يَسْتَحْيِي أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ)، أَيْ: يَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، لَا أَنَّهُ يَسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا استدلَّ بهِ الإمامُ منَ الخبرِ صحيحٌ[(٢)]، فقولُهُ فِي تأويلِ الاستحياءِ: «إنَّهُ منَ اللهِ دونَ النَّاسِ حسنٌ جميلٌ»، ولكنَّ هذَا مقامُ العارفينَ الَّذينَ يستحيونَ منَ اللهِ أنْ يسألُوا غيرَهُ معَ علمِهِمْ بأنَّ غيرَهُ لَا يقدرُ علىٰ شيءٍ البتَّةَ، وإلَّا مَنْ سألَ عندَ الحاجةِ النَّاسَ فجائزٌ سُؤالُهُ، بلْ ربَّمَا وجبَ عليهِ السُّؤالُ فِي بعضِ الأحيانِ، ولوِ استحيَا مِنْ كَسْرِ وَجْهِهِ لِمَنْ يسألُهُ مِنَ النَّاسِ وحملَهُ حياؤُهُ علىٰ تحمُّلِ ما يُقاسيهِ منَ الألمِ لمْ يكنِ استحياؤُهُ مَذْمُومًا، وهوَ منَ الصِّفاتِ المحمودةِ.

و«**الحَيَاءُ خيرٌ كلُّهُ**» للخبرِ الصَّحيحِ، فإنَّهُ عنْ خُلُقٍ كريمٍ، فمتَىٰ استحْيَا العبدُ مِنْ سُؤالِهِ وبَذْلِ مَاءِ وجهِهِ لبعضِ المخلوقِينَ حتَّىٰ حملَهُ حياؤُهُ عنِ الإمساكِ عنِ السُّؤالِ، وتحمَّلَ أعباءَ الحاجةِ كانَ حياؤُهُ محمودًا ما لمْ يؤدِّهِ حياؤُهُ إلىٰ الإخلالِ بشيءٍ مِنْ دينِهِ، فحياؤُهُ منَ اللهِ حينئذٍ أولَىٰ منْ خلقِهِ.

وأمَّا مَا تأوَّلَهُ الإمامُ فهوَ حسنٌ في حقِّ الفقيرِ الَّذِي فقرُهُ اختيارٌ لا عَنْ حَاجةٍ واضطِّرارٍ، بَلْ كلَّمَا رأَىٰ الفقرَ عَضَّ عليهِ بالنَّواجِذِ، فكلَّمَا طَرَقَتْهُ أسبابُ الغِنَىٰ هَربَ منهَا، كمَا يَهربُ غيرُهُ مِنْ أسبابِ الفَقْرِ، كَمَا قِيلَ[(٣)]:

---

(١) أي: ما يقوم بكفايته.

(٢) كما في صحيح مسلم ٦٤/١ ـ حديث رقم (٣٧).

(٣) من الطويل، وورد بلا نسبة في: عيون الأخبار ٣٥٤/١، ولطائف الإشارات ٤٠/١، وأدب الدنيا والدين ص١٩٣، والمجالسة وجواهر العلم ص٢٧٤، والدر الفريد وبيت القصيد ٢٩٥/٢.

إِذَا افْتَقَرُوا عَضُّوا عَلَىٰ الفَقْرِ ضِنَّةً ❁ وَإِنْ أَيْسَرُوا عَادُوا سَرِيعًا إِلَىٰ الفَقْرِ

وقَدْ تكلَّمَ النَّاسُ فِي حدِّ الفقرِ المحمودِ، فقالَ الهرويُّ عبدُ اللهِ بنْ محمَّدٍ الأنصارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الفقرُ: اسمٌ للبراءةِ من رؤيةِ المِلْكَةِ، وهوَ علَىٰ ثَلاثِ درجاتٍ:

الدَّرجةُ الأُولَىٰ: فقرُ الزُّهَّادِ؛ وهوَ نفضُ اليدَينِ منَ الدُّنيَا، قبضًا أَوْ طلبًا، وإسكاتُ اللِّسَانِ عنها ذمًّا أَوْ مدحًا، والسَّلامةُ منهَا طلبًا أَوْ تركًا، وهذَا هوَ الفقرُ الَّذِي تكلَّمُوا علىٰ شَرَفِهِ.

والدَّرجةُ الثَّانيةُ: الرُّجوعُ إلىٰ السَّبقِ بمطالعةِ الفَضْلِ، وهوَ [٢/٢٢٥أ] يُورثُ الخَلاصَ مِنْ رُؤيةِ الأعمالِ، ويقطعُ شهودَ الأحوالِ، ويمحِّصُ(٢) منْ أدناسِ مطالعةِ المقاماتِ(٣).

والدَّرجةُ الثَّالثةُ: صحَّةُ الاضطِّرارِ والوقوعُ فِي يدِ التَّقطيعِ الوَحْدَانِيِّ، والاحتباسُ فِي قيدِ التَّجريدِ(٤)، وهذَا فقرُ الصُّوفيَّةِ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وحقيقةُ الفقرِ المحمودِ ما صَدَّرَهُ البابَ؛ وهوَ البراءةُ مِنْ رؤيةِ الملكةِ، وإنَّمَا كانَ الانقسامُ بالنَّظرِ إلىٰ ما يتبرَّأُ منْ رؤيةِ ملكتِهِ، فأوَّلُ درجةٍ براءةٌ منْ رؤيةِ الفقرِ منَ الأموالِ، والثَّانِي: براءةٌ منْ رؤيةِ الأعمالِ والأحوالِ

---

(١) منازل السائرين ص٧١ ـ ٧٢.

(٢) أي: ينظف.

(٣) قال المؤلف: «سمّىٰ الشيخ النظر إلىٰ المقامات في هذا الوطن أدناسا؛ لعلو المقام ورفعة المحل الذي بلغوه، فلا يحتمل لكماله أن يكون فيه التفات لغيرٍ، ولا رؤية لسوىٰ الحق سبحانه، فأصحاب المقامات هم المتمكنون...» شرح منازل السائرين ص١٤٨.

(٤) قال المؤلف: «... قد غلب علىٰ قلبه رؤية الاضطرار إلىٰ فعل الخيرات، والتقطع في يد التوحيد جبرًا لا بالاختيار، بالتجرد عن الاختيار، ورؤية نفسه مقيدا بقيد التجريد عن الأغيار، شغلا بالواحد القهار» شرح منازل السائرين ص١٤٨.

والمقاماتِ، والثَّالثُ: بَراءةٌ مِنْ رُؤيةِ كَوْنِهِ مُتبَرِّئًا، وبهذا الاعتبارِ كانَ حالُهُ اضطِرارًا وتَقطُّعًا وحَبْسًا فِي قَيْدِ التَّجْرِيدِ(١).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَالفَقْرُ شِعَارُ الأَوْلِيَاءِ، وَحِلْيَةُ الأَصْفِيَاءِ، وَاخْتِيَارُ الحَقِّ - سبحانه - لِخَوَاصِّهِ مِنَ الأَتْقِيَاءِ وَالأَنْبِيَاءِ.

وَالفُقَرَاءُ صَفْوَةُ اللهِ - تعالىٰ - مِنْ عِبَادِهِ، وَمَوَاضِعُ أَسْرَارِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ، بِهِمْ يَصُونُ الخَلْقَ، وَبِبَرَكَاتِهِمْ يَبْسُطُ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ.

وَالفُقَرَاءُ الصُّبَّرُ جُلَسَاءُ اللهِ - تعالىٰ - يَوْمَ القِيَامَةِ، فِي ذَلِكَ وَرَدَ الخَبَرُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ رَجَاءٍ البُزَارِيُّ(٣) قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ خُشَيْشٍ البَغْدَادِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَعْبَدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ رَاشِدٍ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٤): لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحٌ، وَمِفْتَاحُ الجَنَّةِ حُبُّ المَسَاكِينِ، وَالفُقَرَاءُ الصُّبَّرُ(٥) هُمْ جُلَسَاءُ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ».

---

(١) نص المؤلف علىٰ ذلك أيضا في: شرح منازل السائرين ص١٤٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٠.

(٣) في (أ): الفزاري، وكذا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٥، والصواب المثبت، ففي الأنساب ١/٣٣٧: «البزاري: بضم الباء الموحدة وبعدها الزاي المنقوطة بثلاث، وقيل الزاي وفي آخرها الراء هذه النسبة إلىٰ أبزار؛ وهي قرية علىٰ فرسخين من نيسابور، ويقول لها العامة: بزارة، والمشهور بالنسبة إليها أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد بن رجاء الوراق الأبزاري، الذي يقال له: البُزاري، من هذه القرية، كان شيخا صالحًا سديدَ السِّيرة، مكثرًا من الحديث، له رحلة إلىٰ الشام والعراق»، وانظر: توضيح المشتبه ٩/٦٨.

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس ٣/٣٣٠، والغزالي في الإحياء ٤/١٩٩، وابن عدي في الضعفاء ٦/٣٧٧.

(٥) أي: علىٰ كثرة الابتلاء والامتحان.

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ على كثرةِ كرمِ اللهِ - تعالى - لهُم، ورفعةِ درجتِهِمْ عندَهُ، فإنَّ الحقَّ - سبحانه - يستحيلُ أنْ يجلسَ أوْ يُجالسَ، وإنَّمَا لمَّا كانَ المعهودُ فيمَا بينَنَا أنَّ مَنْ جالسَ الملوكَ كانَتْ رفعتُهُ عظيمةً وجاهُهُمْ عندَهُ متمكِّنٌ، أطلقَ على هؤلاءِ الفقراءِ الزُّهَّادِ فِي غيرِ اللهِ الفقراءِ إلى اللهِ أنَّهُمْ جلساؤُهُ[1]؛ وذلكَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمَا تقدَّمَ قالَ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَإِنَّمَا المِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ مَا يَكْفِيهِ، وَيَسْتَحْيِي أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، وَلَا يُعْرَفُ بِهِ فَيُتَصَدَّقَ [٢/٢٢٥ب] عَلَيْهِ».

وفسَّرَهُ الإمامُ القُشَيرِيُّ بأنَّهُ يستحْيِي منَ اللهِ - تعالى - أنْ يسألَ غيرَ اللهِ، والخبَرُ الصَّحيحُ أيضًا «فِي كونِهِمْ يدخلُونَ الجنَّةَ قبلَ الأغنياءِ بسبعِينَ عامًا».

كلُّ ذلكَ يدلُّ على شَرَفِهِمْ وخُصُوصيَّتِهِمْ ومحبَّةِ اللهِ لهُمْ، ومَنْ أحبَّ مَنْ أحبَّ اللهَ كانَ متسبِّبًا فِي اللِّحاقِ بهِمْ وَشَرِيكًا لهُمْ، كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَنْ قالَ لهُ[2]: «إنِّي أحبُّكَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»، أيْ: شريكًا لهُمْ في بعضِ ما همْ فيهِ.

وبهذَا الاعتبارِ كانَ حبُّ الفقراءِ مفتاحَ الجنَّةِ؛ لأنَّهُمْ فيهَا، وحبُّهُمْ سببُ لدخولِهَا معَهُمْ[3].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «وَقِيلَ[5]: إِنَّ رَجُلًا أَتَى إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ بِعَشْرَةِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٣٤٩ - حديث رقم (٣٤٨٥)، ومسلم في صحيحه ٤/٢٠٣٢ - حديث رقم (٢٦٣٩).

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٥.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٠.

(٥) ورد قوله في: قوت القلوب ١/٤٤٢، ٢/٣٢٨، وإحياء علوم الدين ٤/١٩٩، والتبصرة لابن الجوزي ٢/١٦٥.

آلافِ دِرْهَمٍ ، فَأَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَهَا وَقَالَ : تُرِيدُ أَنْ تَمْحُوَ اسْمِي عَنْ[١] دِيْوَانِ الفُقَرَاءِ بِعَشْرَةِ آلافِ دِرْهَمٍ ؟! لا أَفْعَلُ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ شدَّةِ حبِّ[٢] الفقرِ عندَهُمْ ، وأنَّهُمْ يعضُّونَ[٣] عليهِ بالنَّواجذِ ويبعُدونَ[٤] عَنْ كلِّ مَا يُبعدُهُمْ عنهُ ، وكيفَ لا يكونُ كذلكَ وهوَ حالُ المصطفىٰ[٥] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذي كانَ يختارُهُ لنفسِهِ ويدعُو بهِ لأهْلِهِ ، ويصفُ بالفلاحِ منِ اتَّصفَ بهِ ؟! ، وفِي الخبَرِ الصَّحيحِ[٦] : «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا» ، وفي روايةٍ[٧] : «كَفَافًا» ، وفِي الصَّحيحِ أيضًا[٨] : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَكَانَ قُوتُهُ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللهُ» .

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٩] : «**وَقَالَ مُعَاذٌ النَّسَفِيُّ : مَا أَهْلَكَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ قَوْمًا وَإِنْ عَمِلُوا مَا عَمِلُوا حَتَّىٰ أَهَانُوا الفُقَرَاءَ وَأَذَلُّوهُمْ**» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قد نُقلَ في ملَّتِنَا وملَّةِ مَنْ كانَ قبلَنَا ، وقَدْ قالُوا لنوحٍ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنا وعليهِ ـ : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] ، وفي قصَّةِ صالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟

---

(١) في (ف): من.

(٢) في الأصل: حال، والأصح المثبت كما في إحكام الدلالة ٢/٧٦٥.

(٣) في الأصل: يعضوا، والصواب المثبت.

(٤) في الأصل: ويبعدوا، والصواب المثبت.

(٥) ومع هذا فلا يقال: كان النبي فقيرا؛ لما فيه من إيهام التنقيص. انظر: نتائج الأفكار ٣/٤١٦.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٣٧٢ ـ حديث رقم (٦٠٩٥)، ومسلم في صحيحه ٢/٧٣٠ ـ حديث رقم (١٠٥٥).

(٧) كما في صحيح ابن حبان ١٤/٢٥٤، وأخلاق النبي وآدابه ٤/١٧٠.

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/٧٣٠ ـ حديث رقم (١٠٥٤). وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٦.

(٩) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٠.

لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥] . . . الآية.

وأمَّا ما قاساهُ بلالٌ وصهيبٌ وعمَّارٌ في أوَّلِ الإسلامِ فمسطورٌ معروفٌ[1]، وهذَ الإطلاقُ في كلِّ أمَّةٍ يُرْجَعُ فيهِ إلى النَّقلِ، ومعلومٌ أنَّ الضُّعفاءَ ممَّنْ أرادَ اللهُ سَعادتَهُ أوَّلُ تابعٍ للأنبياءِ، ومتى تبعَهُ الضُّعفاءُ استهانَهُمْ ذوُو الثَّروةِ وحقَّرُوهُمْ وازدرَوْهُمْ ولَمْ يُجالِسُوهُمْ، ولَوْ قَدرُوا على عَذابِهِمْ عَذَّبُوهُمْ [٢/٢٢٦أ]، ومَنْ أهانَ أولياءَ اللهِ كانَ مستحِقًّا لعذابِ اللهِ، إلَّا أنْ يعفوَ اللهُ عنهُمْ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[2]: «**وَقِيلَ: لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْفَقِيرِ فَضِيلَةٌ غَيْرَ إِرَادَتِهِ وَتَمَنِّيهِ سَعَةَ أَرْزَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَرُخْصَ أَسْعَارِهِمْ لَكَفَاهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى شِرَائِهَا، وَالغَنِيُّ مُحْتَاجٌ إِلَى بَيْعِهَا، هَذَا لِعَوَامِّ الْفُقَرَاءِ، فَكَيْفَ حَالُ خَوَاصِّهِمْ؟!**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ومقصودُهُ: بيانُ أنَّ أيسرَ حالِ الفقراءِ فيمَا يُثابُونَ فيهِ تمنِّيهِمُ الرَّخاءَ في أسعارِ المسلمِينَ، وأنَّ حاجتَهُمْ تدعوهُمْ إلى ذلِكَ؛ ليتوصَّلُوا إليهَا بأيسرِ الأَثْمانِ، وشتَّانَ بينَ مَنْ يتمنَّى الرَّخاءَ للمسلمِينَ لفقرِهِ وإنْ كانَ ذلكَ تبعًا لحاجتِهِ وبينَ مَنْ يتمنَّى غلاءَ الأسعارِ لكثرةِ فائدتِهِ، وهذَا لازمٌ لكلِّ فقيرٍ.

وأمَّا خصائصُ الفقراءِ الزُّهَّادِ وإيثارُهُمْ على أنفسِهِمْ بمَا هُمْ محتاجُونَ إليهِ منَ الطَّعامِ وحُسنُ معاملتِهِمْ وقلَّةُ مُشَاحنتِهِمْ بينَ الأنامِ، وفراغُ قلوبِهِمْ منْ كثرةِ الأشغالِ ومحبَّةِ الحطامِ، وكمالُ تنعُّمِهِمْ بالذِّكْرِ والمناجاةِ لمولاهُمْ والنَّاسُ نيامٌ[3]، كمَا لا يخفَى حصولُهُ للفقراءِ وبُعْدُ غيرِهِمْ عنهُ لكمالِ اشتغالِهِمْ بمحبَّةِ

(١) انظر: تفسير البغوي ٢/٩٩، والإصابة ٧/٧١٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٠.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٦.

الدُّنيَا فضْلًا عنْ وقوعِهِمْ بسببِ ذلكَ فِي كثيرٍ منَ الآثامِ، وقدْ قالَ ﷺ[١]: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»، ولمْ يفصلْ بينَ حلالٍ وحرامٍ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الوَاحِدِ بْنِ بَكْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ [أَبَا][٣] بَكْرَ بْنَ سَمْعَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرِ بْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ: سُئِلَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ عَنِ الفَقْرِ، فَقَالَ[٤]: حَقِيقَتُهُ أَلَّا يَسْتَغْنِيَ[٥] إِلَّا بِاللهِ - تعالى -، وَرَسْمُهُ عُدْمُ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الفقرَ والغِنَى ضدَّانِ، فإنِ افتقرَ إلى المخلوقِينَ دلَّ ذلكَ على عدمِ غنائِهِ باللهِ وقلَّةِ معرفتِهِ بهِ، ومَنْ صحَّتْ معرفتُهُ باللهِ وأنَّهُ لا ملكَ لغيرِهِ ولا قُدرةَ على إيجادِ ذرَّةٍ سواهُ لمْ يفتقرْ لغيرِهِ إنْ كانَ عاقلًا؛ لأنَّ فقرَهُ لمَنْ لا قُدْرةَ لهُ على شَيءٍ جهلٌ، ومَنْ كمُلَ فقرُهُ للهِ وهوَ المستغنِي بهِ عَنْ غيرِهِ.

والفقرُ إلى اللهِ على هذَا: هوَ الاستغناءُ باللهِ، وهوَ أيضًا باعتبارٍ آخرَ: استغناءٌ عن غيرِ اللهِ باللهِ، وهوَ إذَا صحَّ فقرُهُ استغنَى عنِ الخلقِ واستغنَى باللهِ، وقدِ ارتبطَ بالفقرِ الصَّحيحِ كمالُ الاستغناءِ، فإنَّ العبدَ إذَا [٢/٢٢٦ب] استغنَى عنْ غيرِ اللهِ، واستغنَى باللهِ كان كاملًا في غِنَاهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٠.
(٣) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية المطبوع.
(٤) ورد قوله في: مدارج السالكين ٢/٤٣٩، وطريق الهجرتين ١/٨٤.
(٥) أي: العبد.
(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٠ - ٤٣١.

يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ القَصَّارَ يَقُولُ: الفَقْرُ لِبَاسٌ يُورِثُ الرِّضَا إِذَا تَحَقَّقَ العَبْدُ فِيهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومقصودُهُ: أنَّ أصلَ الفقرِ القناعةُ، فمتىٰ قنعَ العبدُ بحالِهِ، وبمَا رزقَهُ اللهُ - تعالىٰ - مِنْ يُسْرِ الدُّنيا، وقلَّ تشوُّفُهُ لفضولِهَا تعوَّدَ الرِّضَا بمَا وقعَ، وإذَا تعوَّدَ الرِّضَا بمَا وافقَ طبعَهُ انتقلَ من ذلكَ إلىٰ الرِّضَا بكلِّ ما وردَ عليهِ وافقَ طبعَهُ أوْ خالفَهُ، فرضِيَ بكلِّ ما يُجريهِ الحقُّ عليهِ ممَّا سبقَ بهِ تقديرُهُ وقضاؤُهُ، فيصيرُ محبوبًا لربِّهِ[1]، كمَا قالَ - تعالىٰ -: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وأصلُ هذا الخيرِ العظيمِ القناعةُ باليسيرِ منَ الدُّنيَا والرِّضَا بِمَا فُتِحَ عليهِ منهَا.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقَدِمَ عَلَىٰ الأُسْتَاذِ أَبِي عَلِيٍّ الدَّقَّاقِ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقِيرٌ فِي سَنَةِ خَمْسٍ أَوْ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمَائَةٍ مِنْ (زَوْزَنَ)[3] وَعَلَيْهِ مِسْحٌ وَقَلَنْسُوَةُ مِسْحٍ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِنَا: بِكَمِ اشْتَرَيْتَ هَذَا المِسْحَ؟ عَلَىٰ وَجْهِ المُطَايَبَةِ، فَقَالَ: اِشْتَرَيْتُهُ بِالدُّنْيَا، فَطُلِبَ [مِنِّي][4] بِالآخِرَةِ، فَلَمْ أَبِعْهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الفقيرُ - وفَّقَكَ اللهُ - حيُّ القلبِ كاملُ الاعتبارِ، فلمَّا وردَ علىٰ هذهِ الهيئةِ ومزحَ معَهُ هذا الفقيرُ وأشارَ إلىٰ لباسِهِ، واللِّباسُ الصَّحيحُ هوَ لباسُ التَّقوىٰ، كمَا قالَ - تعالىٰ -: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ففهِمَ أنَّهُ سألَهُ عَنْ حَالتِهِ الَّتِي هُوَ عليهَا بكَمْ نلتَهَا؟ فقالَ: بإعراضِي عنِ الدُّنيَا، أيْ: تركتُ الدُّنيَا حتَّىٰ نلتُهَا، ثمَّ طلبَتْ نفسِي أنْ أجدَ الآخرةَ عوضًا عنِ الدُّنيَا وتسكنَ إليهَا فلم أفعلْ، فإنَّ حالتِي هذهِ شُغْلِي باللهِ وحدَهُ، وسُكُونِي إليهِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣١.

(٣) هي بلدة كبيرة بين هراة ونيسابور. انظر: اللباب في تهذيب الأنساب ٢/٨٠.

(٤) تتمة من الرسالة القشيرية، وفي (ف): به.

لا إلىٰ غيرِهِ، فلَوْ ملتُ إلىٰ حظٍ آخرَ لكنتُ بعتُ حظًّا بحظٍّ، وكلاهُمَا حوادثُ، وإنَّمَا حَظِّي الَّذِي أنَا مشغولٌ بهِ هوَ اللهُ الَّذِي لم يَزَلْ ولا يتغيَّر.

وهذَا فقرُ العارِفِينَ لمولاهُمْ خاصَّةً، ومَنْ عداهُمْ منَ الفقراءِ قَدْ يفتقرُ ويتمسَّكُ بالفقرِ ليكونَ منَ السَّابقينَ إلىٰ الجنَّةِ، كمَا صحَّتْ بهِ الأخبارُ، وإنْ كانَ الكلُّ في الجنَّةِ، وإنَّمَا اختلفُوا في الحَوامِلِ والبَواعثِ علىٰ الأعمالِ، ففرقٌ بينَ مَنْ عمِلَ لوجهِهِ [٢/٢٢٧أ] وَقُرْبِهِ، وبينَ مَنْ عمِلَ لثوابِهِ في جنَّتِه، وإنْ كانَ لا بُدَّ منَ الثَّوابِ!(١).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ**(٣): **قَامَ فَقِيرٌ فِي مَجْلِسٍ يَطْلُبُ شَيْئًا، فَقَالَ: إِنِّي جَائِعٌ مُنْذُ ثَلَاثٍ، وَكَانَ هُنَاكَ بَعْضُ المَشَايِخِ، فَصَاحَ عَلَيْهِ وَقَالَ: كَذَبْتَ؛ إِنَّ لِلفَقْرِ سِرًّا، وَهُوَ لَا يَضَعُ سِرَّهُ عِنْدَ مَنْ يَحْمِلُهُ إِلَىٰ مَنْ يَزِيْدُ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ كلامٌ بالغٌ في أدبِ هذا الفقيرِ الَّذِي قَامَ ونادَىٰ في المجلسِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ: «**إنِّي جائعٌ ثلاثةَ أيَّامٍ**»، فقولُ الشَّيخ لهُ: «**كذبتَ**»، أيْ: لستَ منَ الفقراءِ المخصوصينَ بالفقرِ المرادِينَ، فإنَّ الفقرَ درجةٌ عاليةٌ يُسِرُّهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ لمَنْ يختصُّهُ بهِ(٤)؛ وهوَ افتقارُهُ إليهِ لا إلىٰ غيرِهِ.

وقولُهُ: «**إلَىٰ مَنْ يزيدُ**»، يعنِي: مَنْ ينادِي بهِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ، وهذا معنىٰ قولِهِ: «**يزيدُ**»؛ معناهُ: يصيرُ بهِ سمسارًا ينادِي بهِ علىٰ رؤوسِ النَّاسِ، وهذا شغلُ السَّماسرةِ يؤتِي فِي السِّلعةِ ثمنًا فيقولُ السِّمسارُ: «فمَنْ يزيدُ»، معناهُ: ينادِي

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣١.

(٣) ورد في: اللمع في التصوف ص٧٠.

(٤) أي: سر من أسراره عَزَّوَجَلَّ.

بمَا معَهُ على رؤوسِ النَّاسِ، فكأنَّ الشَّيخَ قالَ لهُ: لستَ صادقًا فِي فقرِكَ، ولوْ كنتَ صادقًا لمْ تُنَادِ[١] فيهِ على رؤوسِ النَّاسِ في هذَا الجمعِ، وإنْ أصابَتْكَ فاقةٌ أتيتَ بعضَ إخوانِكَ أوْ مُحِبِّيكَ فعرَّضْتَ بوجهٍ مَا ليحصلَ لكَ مقصودُكَ، وأمَّا نِدَاؤُكَ بهِ على رؤوسِ الأشهادِ لا يخلُو منْ أحدِ قسمَينِ مذمومَينِ؛ إمَّا أنْ تكونَ مرائيًا، أو شَاكِيًا.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدًا الفَرَّاءَ يَقُولُ: سَمِعْتُ زَكَرِيَّا الشَّخْتَنِيّ يَقُولُ: سَمِعْتُ حَمْدُونَ القَصَّارَ يَقُولُ[٣]: [إِذَا][٤] اِجْتَمَعَ إِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ لَمْ يَفْرَحُوا بِشَيْءٍ كَفَرَحِهِمْ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: رَجُلٍ مُؤْمِنٍ قَتَلَ مُؤْمِنًا، وَرَجُلٍ يَمُوتُ عَلَى الكُفْرِ، وَقَلْبٍ فِيهِ خَوْفُ الفَقْرِ»**.

❋ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقَرَنَ هؤلاءِ خوفَ الفقرِ معَ كبيرَتَينِ؛ وهمَا[٥]: قتلُ النَّفسِ والموتُ على الكفرِ، وذلكَ أنَّ العبدَ إذا خافَ الفقرَ اكتسبَ المالَ بكلِّ وجهٍ منَ المحرَّماتِ، وربَّمَا قتلَ عليهِ مَنْ يجدُهُ معَهُ، وربَّمَا كفرَ لنيلِهِ إذا احتاجَ إليهِ ـ والعياذُ باللهِ ـ.

فخوفُ الفقرِ آفةٌ عظيمةٌ يحملُ على شُرُورٍ هَائلةٍ مِنْ نقائصِ الدُّنيَا والآخرةِ، وقدِ استعاذَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَ الفقرِ المُنْسِي والمُشْغِلِ عنِ اللهِ[٦]، والَّذِي استعاذَ منهُ ليسَ هوَ الَّذِي تَمَنَّاهُ وسَأَلَ فيهِ لنفسِهِ [٢/٢٢٧ب] وآلِهِ[٧].

---

(١) في (أ): تنادي، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣١.

(٣) ورد قوله في: مصائد الإنسان من مكائد الشيطان ص١٣٨، وطريق الهجرتين ص٦٠.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) في (أ): وهو، والصواب المثبت.

(٦) ففي سنن أبي داود ٤/٣٢٤، وسنن النسائي الكبرى ٦/٩: «اللهم إني أَعُوذُ بِكَ من الكُفْرِ وَالفَقْرِ..».

(٧) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٨.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَطَاءٍ، سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[(٢)]: يَا مَعْشَرَ الفُقَرَاءِ، إِنَّكُمْ تُعْرَفُونَ بِاللهِ، وَتُكْرَمُونَ للهِ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَكُونُونَ مَعَ اللهِ إِذَا خَلَوْتُمْ بِهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ تحريضٌ علىٰ أدبِ الفقراءِ معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي خُلُوَاتِهِم، وإفْرَاغِ جهدِهِم لهُ في عباداتِهِم، والحياءِ منهُ وكمالِ مراقبتِهِ في خلواتِهِم، وذلِكَ أنَّهُمْ نُسِبُوا إلىٰ اللهِ وجُعِلُوا من أهلِ اللهِ، فأرادَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يحضَّهُمْ علىٰ القيامِ بحقوقِ اللهِ الَّذِينَ أُكرِمُوا من أجلِهِ؛ ومِنْ جُملةِ إكرامِهِ كمالُ الأدبِ معَهُ والجدُّ في تحصيلِ ما يُرضيهِ، ويبرِّئُهُمْ منَ القُدْرَةِ علىٰ شيءٍ مِنْ طاعتِهِمْ إلَّا بإذنِهِ وَتأييدِهِ[(٣)].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحَسَنِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ[(٥)]: [سَمِعْتُ الجُنَيدَ][(٦)] وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الافْتِقَارِ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أَهُوَ أَتَمُّ أَمِ الاسْتِغْنَاءُ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ؟ فَقَالَ: إِذَا صَحَّ الافْتِقَارُ إِلَىٰ اللهِ فَقَدْ صَحَّ الاسْتِغْنَاءُ بِاللهِ، وَإِذَا صَحَّ الاسْتِغْنَاءُ بِاللهِ كَمُلَ الغِنَىٰ بِهِ فَلَا يُقَالُ: أَيُّهُمَا أَتَمُّ: الافْتِقَارُ أَمِ الغِنَىٰ؟ لِأَنَّهُمَا حَالَتَانِ لَا تَتِمُّ إِحْدَاهُمَا إِلَّا بِالأُخْرَىٰ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي قدَّمْنَاهُ قبلَ هذَا؛ وهوَ أنَّ مَنْ كَمُلَ افتقارُهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣١.

(٢) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص١٥٩، والروض الفائق في المواعظ والرقائق ص١١٧.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٨.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٣١.

(٥) ورد قوله في: منارات السائرين ص١٩٣، ومدارج السالكين ٢/٤٤٢.

(٦) تتمة من الرسالة القشيرية.

إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ كَمُلَ استغناؤُهُ عَنْ غيرِ اللهِ، بلْ كَمُلَ اسْتغناؤُهُ باللهِ، فهذَا كمالُ الاستغناءِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ(٢): سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفرًا يَقُولُ: سَمِعْتُ رُوَيْمًا يَقُولُ ـ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ نَعْتِ الفَقِيرِ ـ فَقَالَ: إِرْسَالُ النَّفْسِ فِي أَحْكَامِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وَقِيلَ: نَعْتُ الفَقْرِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: حِفْظُ سِرِّهِ، وَأَدَاءُ فَرْضِهِ، وَصِيَانَةُ فَقْرِهِ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فقولُ الأوَّلِ: «**استرسالُ النَّفسِ في أحكامِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ**»، أيْ: مَنْ كمُلَ افتقارُهُ إلىٰ اللهِ في جميعِ ما يُجريهِ عليهِ معَ كمالِ معرفتِهِ بلطفِهِ بهِ وجريانِ فضْلِهِ عليهِ أرسلَ نفسَهُ تحتَ الأحكامِ، ورضِيَ بجميعِ ما يُجريهِ الحقُّ عليهِ لعلمِهِ بحُسنِ اختيارِهِ لهُ، وقلَّ منهُ الاختيارُ والاهتمامُ.

وقولُهُ: «**نعتُ الفقيرِ ثلاثةُ أشياءَ: حفظُ سرِّهِ**»، يعنِي: بينَهُ وبينَ مولاهُ، و«**قيامُهُ بفرْضِهِ**» الَّذِي هوَ أُسُّ تقواهُ، و«**صيانةُ فقرِهِ**» عَنْ سَائرِ المخلوقِينَ؛ إظهارًا لكمالِ استغنائِهِ بمولاهُ [٢/٢٢٨أ]، وهذَا معنىٰ قولِهِ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] كَمَالُ الحَاجَةِ والفقرِ للهِ معَ الاستغناءِ عَنْ غيرِ اللهِ باللهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣): **«وَقِيلَ لِأَبِي سَعِيدٍ الخَرَّازِ(٤): لِمَ تَأَخَّرَ عَنِ الفُقَرَاءِ رِفقُ الأَغْنِيَاءِ؟ فَقَالَ: لِثَلَاثِ خِصَالٍ: لِأَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ غَيْرُ طَيِّبٍ، وَلِأَنَّهُمْ غَيْرُ**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣١ ـ ٤٣٢.

(٢) طبقات الصوفية ص١٦٨، عن سهل التستري، وورد أيضًا عن سهل في: اللمع للطوسي ص٢٣١، وصفة الصفوة ٤/٦٤، وعن رويم في: طريق الهجرتين ص٨٥.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٢.

(٤) ورد قوله في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٩٦، والمختار من مناقب الأخيار ١/١٩٢.

مُوَفَّقِينَ، وَلِأَنَّ الفُقَرَاءَ مُرَادُونَ بِالبَلَاءِ[(١)]».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذا الكلامِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ رفقَ الفقراءِ فِي الغالبِ إنَّمَا يكونُ بعضهُمْ منْ بعضٍ، وإيثارُ بعضِهِمْ لبعضٍ، وإنْ أتاهُمْ شيءٌ في بعضِ الأوقاتِ منْ أبناءِ الدُّنيَا فنادرٌ، فربَّمَا كانَ علىٰ وجهِ الصَّدقةِ وتطهيرِ المالِ، فلمَّا سُئِلَ هذَا الشَّيخُ عنِ السَّببِ فِي «**تأخُّرِ رفقِ الأغنياءِ عنِ الفقراءِ، فقالَ: لثلاثةِ أوجُهٍ**»، وذكَرَ أُسَّهَا؛ وهوَ أنَّهُمْ «**مرادُونَ بالفقرِ**»، فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ اختارَهُ لهُمْ، فلمْ يحرِّكْ قلوبَ الأغنياءِ للإتيانِ بالأموالِ إليهِمْ، هذَا وجهٌ.

الوجهُ الثَّانِي: أنَّ الفقراءَ الخواصَّ إنَّمَا افتقرُوا منَ الدُّنيَا اختيارًا وزُهدًا، لا اضطِّرارًا وقهرًا، فلا يريدُ الحقُّ أنْ يطعمَهُمْ أوساخَ النَّاسِ، بَلْ بإيثارِ بعضِهِمْ لبعضٍ في وقتٍ، وكسبِهِمْ منْ وجهٍ صافٍ في وقتٍ، وخرقِ العادةِ لهُمْ في وقتٍ[(٢)].

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ الأغنياءَ لَوْ أرادَ اللهُ بهِمْ خيرًا ووفَّقَهُمْ للصَّالحاتِ بذلُوا أموالَهُمْ لمَنْ يستعينُ بهَا علىٰ التَّفرُّغِ للباقياتِ الصَّالحاتِ.

فهذِهِ ثلاثةُ أوجهٍ، وقَدْ تختلفُ ويكونُ واحدٌ منهَا كافيًا، وقَدْ تجتمعُ في بعضِ الأشخاصِ مِنَ الدَّافعينَ والآخذِينَ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **«وَقِيلَ[(٤)]: أَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَىٰ مُوسَىٰ ـ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: إِذَا رَأَيْتَ الفُقَرَاءَ فَسَائِلْهُمْ كَمَا تُسَائِلُ الأَغْنِيَاءَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَاجْعَلْ كُلَّ شَيْءٍ عَلَّمتُكَ تَحْتَ التُّرَابِ»**.

---

(١) أي: بالبلاء المطلق؛ فقرًا أو غيره.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٦٩.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٢.

(٤) ورد في: حلية الأولياء ٦/٣٢، وتاريخ دمشق ٦١/١٥٠.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا إرشادٌ إلىٰ نفْيِ الكِبْرِ والعظمةِ علىٰ الفقراء، وأَنْ يكونُوا معَ الأغنياءِ في القلبِ مِنْ حيثُ جودُ الدُّنيَا وعدمُهَا سواء، فإنَّ الغالبَ مِنَ النَّاسِ إِذَا حدَّثَ الفقيرَ حدَّثَهُ بقلَّةِ اهتمام، وربَّمَا كانَ معَ حديثِهِ بعضُ الأَنَفَةِ عليهِ وقلَّةُ الاحترام، بخلافِ ما إِذَا حدَّثَ أبناءَ جنسِهِ منْ أهلِ الجاهِ والتَّعزُّزِ [٢/٢٢٨ب] بالحُطَامِ، فأوحَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إِلَىٰ موسَىٰ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ بأنْ يُعَلِّم بنِي إسرائيلَ أنْ يكونُوا كذلِكَ، فإنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ قَدْ فضَّلَهُمْ بالتَّوراةِ، وعلَّمَهُمُ الأحكامَ منَ الحلالِ والحرامِ، فخاطبَ نبيَّهُ بذلكَ؛ لأنَّهُ المبلِّغُ إلىٰ أمَّتِهِ سائرَ ما يحتاجُونَ إليهِ، وهوَ واحدٌ منهُمْ، وتحاشَىٰ الأنبياءُ عنِ الكِبْرِ علَىٰ الفقراءِ، وإنَّمَا جرَىٰ هذَا مجرَىٰ التَّعليمِ للأمَّةِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ لنبيِّهِ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]... الآية، ولَمْ يَطْرُدْهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّمَا لمَّا قالَ لهُ أغنياءُ قريشٍ وعظماؤُهُمْ: أَبْعِدْ عنَّا هؤلاءِ الفقراءَ، فإنَّا نتأذَّىٰ بروائِحِهِمْ؛ كبلالٍ وعمَّارٍ وصهيبٍ، اجعلْ لنَا يومًا ولهُمْ يومًا، فأنزلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ ذلكَ ردًّا عليهِمْ، وأمرَهُ ـ تعالىٰ ـ أنْ إِذَا أتوهُ فليسلِّمْ عليهِمْ، فقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤](١)، فكانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ(٢): «مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»، ويُدْنِيهِمْ إليهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلَىٰ سَائرِ الأنبياءِ(٣).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «**وَرُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ(٥): لِأَنْ**

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي ص٢٢١، وتفسير البغوي ٢/٩٩، والقرطبي ٢/٩٩.

(٢) هذا القول وارد في ابن ام مكتوم، وأخرجه الثعلبي في تفسيره ١٠/١٣١، والديلمي في مسند الفردوس ٤/١٦٤، والزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار ٤/١٥٥.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٧٠.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٢.

(٥) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٢/٢٠٧.

أَقَعَ مِنْ فَوْقِ قَصْرٍ فأنحطم أحب إليّ من مُجَالَسَةِ الغَنِيّ ؛ لأني سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ[1]: إِيَّاكُم وَمُجَالَسَةَ المَوْتَى ، قِيلَ: وَمَا المَوْتَى ؟ قَالَ: الأَغْنِيَاء» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يعني: مَوْتَى القلوبِ بمحبَّةِ الدُّنيا ، حتَّى اشتغلَتْ قلوبُهُمْ عنِ الآخرةِ ، كمَا قالَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١] ، وقالَ ـ تعالى ـ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] .. الآية ؛ وذلكَ أنَّ مجالسَتَهُمْ لَا يسمعُ الإنسانُ فيهَا إلَّا مدحَ الدُّنيَا وكثرةَ فوائدِهَا ، والتَّمكُّنَ منَ الجاهِ والمالِ فيهَا وسائرِ الأعراضِ المُشْتَهيَاتِ ، والنَّفسُ مائلةٌ لكلِّ لذيذٍ ، فَيَنْغَرِسُ فِي القلبِ محبَّتُهَا ، فيحفظُهَا الإنسانُ حتَّى عنِ الواجبَاتِ ، ويطلبُهَا لكلِّ الجهاتِ ، وكفى بذلِكَ مَوْتًا .

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقِيلَ لِلرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ[3]: قَدْ غَلَا السِّعْرُ[4]! فَقَالَ: نَحْنُ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ أَنْ يُجِيعَنَا ، إِنَّمَا يُجِيعُ أَوْلِيَاءَهُ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّهُ عرَفَ حقريَّةَ الدُّنيَا [٢/٢٢٩أ] ، وأنَّها ليسَ لهَا عندَ اللهِ قدرًا ، ولوْ كانَ لهَا قدرٌ مَا سقَى كافرًا شَرْبةً ، ومَا لا قدرَ لهُ عندَ اللهِ فهوَ يَزويهِ عَنْ أنبيائِهِ وأوليائِهِ ، وأولياؤُهُ لا يحبُّونَ إلَّا ما يحبُّهُ مولَاهُمْ ، ولا يرضونَ إلَّا بما يرضَاهُ ، ولذلِكَ قالَ الرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ معَ جلالةِ قدرِهِ وكمالِ معرفتِهِ بربِّهِ: «**نحنُ أهونُ على اللهِ منْ أنْ يجيعَنَا**» جبْرًا ، أوْ يرزقنَا ذلكَ اختيارًا ويحبِّبُهُ لنَا ، فإنَّ هذا مِن صفاتِ أنبيائِهِ وأوليائِهِ ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «شدَّ على بطنِهِ

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٢٤٥ بلفظ: «إذا أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ من الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ، ولا تستخلعي ثَوْبًا حتى تُرَقِّعِيه» .

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٢ .

(٣) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص٥١ ، وشرح نهج البلاغة ١١/١٣٧ .

(٤) فنخشى الجوع .

الحجرَ منَ الجوعِ»[١]، وخرجَ يومًا منْ شدَّةِ الجوعِ يطلبُ شيئًا يأكلُهُ فلقيَهُ أبو بكرٍ فأخبَرَهُ أنَّ الجوعَ أخرجَهُ، وكذلِكَ لقيَهُمَا عمرُ بنُ الخطَّابِ فأخبَرَهُمَا بذلِكَ، فمضَوا إلىٰ ابنِ التَّيهانِ فأعذبَ لهُمَا ماءً وذبحَ لهُمَا شاةً، فقالَ لهُ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]: «نكِّبْ عَنْ ذَاتِ الدَّرِّ وَأَحْضِرْ لَهُمْ تَمْرًا، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا مِنْ ذَلِكَ الماءِ، فقالَ لهُمْ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَتُسْأَلُنَّ عَنْ نَعِيمِ هَذَا اليَوْمِ»، وقدْ خرجُوا جياعًا وأكلُوا لدفعِ ضَرُورتِهِمْ وضيافًا بغيرِ شهوةٍ منهُمْ، فكيفَ بالغافِلِينَ أربابِ الشَّهواتِ المتنعِّمِينَ بأنواعِهَا في اللَّيلِ والنَّهارِ منْ غيرِ التفات، وغلبَتْ علىٰ قلوبِهِمُ الغفلَات، حتَّىٰ نسوا الأعمالَ الصَّالحاتِ؟!.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ[٤]: طَلَبْنَا الفَقْرَ فَاسْتَقْبَلَنَا الغِنَىٰ، وَطَلَبَ النَّاسُ الغِنَىٰ فَاسْتَقْبَلَهُمُ الفَقْرَ».**

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ أعرضَ عنِ الدُّنيَا إعراضَ زهدٍ وتفرَّغَ للأعمالِ الصَّالحاتِ صارَ أقلُّ القليلِ منهَا يُجزئُهُ ويكفيهِ في إقامةِ بنيتِهِ في القيامِ بمَا كُلِّفَهُ منَ الطَّاعاتِ، وهذَا القدرُ هوَ المحتاجُ إليهِ منَ الدُّنيَا علىٰ الحقيقةِ، فإنَّ المحتاجَ منَ الدُّنيَا ما كانَ عونًا علىٰ أعمالِ الأُخرَىٰ، وبهذَا قالَ:

---

(١) سبق تخريجه، وانظر: فضائل الصحابة لابن حنبل ١/٥٣٩، ونوادر الأصول ٤/١٣، والخصائص الكبرىٰ ٢/٤١٨، وفتح الباري ٤/٢٠٨.

وقال ابن حبان: «وَإِنَّمَا مَعْنَاهَا: الحُجَزُ لا الحَجَرُ، وَالحُجَزُ: طَرَفُ الإِزَارِ، إِذِ اللهُ جَلَّ وَعَلا كَانَ يُطْعِمُ رَسُولَ الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَسْقِيهِ إِذَا وَاصَلَ، فَكَيْفَ يَتْرُكُهُ جَائِعًا مَعَ عَدَمِ الوِصَالِ حَتَّىٰ يَحْتَاجَ إِلَىٰ شَدِّ حَجَرٍ عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمَا يُغْنِي الحَجَرُ عَنِ الجُوعِ؟» صحيحه ٨/٣٤٥.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢/٩٣٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٢.

(٤) ورد قوله في: طريق الهجرتين ١/٨٥، ومنارات السائرين ص١٩٣، ونور الاقتباس فيما يعرض من ظلم الوسواس ص٤٤.

طلبْنَا الفقرَ فاستقبلَنَا الغنَىٰ بمَا هوَ فيهِ عنْ غيرِ اللهِ وعنْ سائرِ الدُّنيَا، وطلبَ النَّاسُ الدُّنيَا فاستقبلَهُمُ الفقرُ، وذلكَ أنَّ كلَّ مَنْ نالَ منهَا شيئًا وعرَفَ سعتَهُ ورفعةَ درجتِهِ بهِ فِي الدُّنيَا طلبَ الازديادَ منهُ، وكلَّمَا نالَ منَ الدُّنيَا رتبةً منَ المالِ أوِ الجاهِ رأَىٰ فضيلةَ نفسِهِ ومزيَّتَهُ علَىٰ غيرِهِ، ودرجاتُ الدُّنيَا متفاوتةٌ، فلَا يزالُ يطلبُ درجةً [٢٢٩/٢ب] فوقَ درجتِهِ وسعةً أعلىٰ مِنْ سعتِهِ، ومِنْ هاهُنَا استقبلَهُ الفقرُ؛ لأَنَّهُ صارَ فقيرَ النَّفسِ إلىٰ الازديادِ والاستكثارِ منَ الجَاهِ والمَالِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحَسَنَ بْنَ عَلَوِيَّةَ يَقُولُ: قِيلَ لِيَحْيَىٰ بْنِ مُعَاذٍ**[(٢)]: **مَا الفَقْرُ؟ قَالَ: خَوْفُ الفَقْرِ، قِيلَ: فَمَا الغِنَىٰ؟ قَالَ: الأَمْنُ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ممَّا تقدَّمَتِ الإشارةُ إليهِ، وذلكَ أنَّ محبَّةَ الغِنَىٰ تُورِثُ فقرَ النَّفسِ، فكلَّمَا خافَ الإنسانُ منْ أنْ يفتقرَ جدَّ في التَّحصيلِ، ومحبَّةُ الفقرِ والقناعةُ باليسيرِ منَ الدُّنيَا تُورِثُ الأمنَ والسُّكونَ إلىٰ وعدِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فإِنَّهُ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، ورزقُ الإنسانِ مضمونٌ لا بُدَّ لهُ أنْ يأتيَهُ ما دام حيًّا[(٣)]، وإنِ اختلفَتْ أنواعُهُ، فإنَّ الرِّزقَ عندَ أهلِ الحقِّ[(٤)] ما ينتفعُ بهِ المَرْزُوقُ، ولا يختصُّ ذلكَ بالطَّعامِ والشَّرابِ فقطْ، بلْ يكونُ الرِّزقُ طعامًا وشرابًا، وقَدْ يكونُ قُوَّةً، وقَدْ يكونُ صَبْرًا، وقَدْ يرزقُ اللهُ الشَّبعَ خرقَ عادةٍ منْ غَيْرِ طعامٍ ولا شَرَابٍ، يقيمُ العبدُ الأَيَّامَ الكثيرةَ والشُّهورَ بأيسرِ طعامٍ، وسيأتِي مِنْ ذلكَ فِي كراماتِ الأولياءِ ما يبيِّنُ ذلكَ ويزيدُهُ بسْطًا إنْ شاءَ اللهُ تعالَىٰ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٣٢/٢.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٥٥، ١٦٤، ومناقب الأبرار ٢٧٩/١.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٧١/٢.

(٤) أي: عند أهل السنة، وسبق التعليق على ذلك.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُرَيْرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الكُرِّينِيَّ(٢) يَقُولُ(٣): إِنَّ الفَقِيرَ الصَّادِقَ لَيَتَحَرَّزُ مِنَ الغِنَىٰ حَذَرًا أَنْ يَدْخُلَهُ(٤) الغِنَىٰ فَيُفْسِدَ عَلَيهِ فَقْرَهُ، كَمَا أَنَّ الغَنِيَّ يَحْتَرِزُ مِنَ الفَقْرِ حَذَرًا أَنْ يَدْخُلَ عَلَيهِ الفَقْرُ فَيُفْسِدَ غِنَاهُ عَلَيهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الفقيرَ الصَّادقَ هوَ الفقيرُ إلىٰ اللهِ خاصَّةً دونَ غيرِهِ، وإذَا كانَ كذلِكَ كانَ فقرُهُ قرَّةَ عينِهِ، وبهِ استغنَىٰ عن غيرِ ربِّهِ، فكلَّمَا توهَّمَ أمرًا يشوِّشُ عليهِ فقرَهُ منْ أسبابِ دنياهُ أعرضَ عنهُ وأباهُ، وكمَا أنَّ المحبَّ للدُّنيَا والمنعكفَ عليهَا الَّتِي صارَتْ قرَّةَ عينِهِ كلَّمَا توهَّمَ أمرًا يشوِّشُ عليهِ غِناه، أو يتلفُ ما هوَ فيهِ منْ دنياهُ هربَ منهُ وَأَبَاه، وتقلَّقَ ممَّا يزيلُهَا مِنْ يدِهِ واعتذرَ، وربَّمَا لوْ أتاهُ فقيرٌ ينالُ منهُ شيئًا أوْ يطلبُ منهُ شيئًا قطَّبَ وجهَهُ [٢/٢٣٠أ] عليهِ وتنمَّرَ، ولذلِكَ قيلَ فِي مَدْحِ الفقراءِ الصَّادِقينَ وجَمِيلِ صِفَاتِهِم(٥):

إِذَا افْتَقَرُوا عَضُّوا عَلَىٰ الفَقْرِ ضِنَّةً ❊ وَإِنْ أَيْسَرُوا عَادُوا سَرِيعًا إِلَىٰ الفَقْرِ(٦)

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٧): «وَسُئِلَ أَبُو حَفْصٍ بِمَاذَا يقدمُ الفَقِيرُ عَلَىٰ رَبِّهِ؟ فَقَالَ(٨):

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٢.

(٢) في (أ): الكندي، والصواب المثبت، ففي الأنساب ٥/٦٣: «الكريني ـ بضم الكاف وكسر الراء المشددة أو المخففة بعدها الياء آخر الحروف وفي آخرها النون ـ هذه النسبة إلىٰ كرين؛ وهي قرية من قرىٰ طبس». وانظر: معجم البلدان ٤/٤٥٨.

(٣) ورد قوله في: عوارف المعارف ص٣٧، والمختار من مناقب الأخيار ٢/٣٥٢، وطريق الهجرتين ١/٨٦.

(٤) في (ف): أن لا يدخله.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٧١ ـ ٧٧٢.

(٧) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٣.

(٨) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/٢٠٩، وتهذيب الاسرار ص١٥٦، ومدارج السالكين ٢/٤٤٠،=

وَمَا لِلْفَقِيرِ أَنْ يَقْدَمَ بِهِ عَلَىٰ رَبِّهِ سِوَىٰ فَقْرِهِ؟!».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ العبدَ إنَّمَا يُقدمُ علىٰ ربِّهِ بأحبِّ الأعمالِ إليهِ وأشرفِهَا عندَهُ، وإذا كانَ الفقرُ أفضلَ الصِّفاتِ وأكرمَ ما خُصَّ بهِ الأنبياءُ والأولياءُ فِي هذهِ الحياةِ؛ وهوَ الفقرُ إليهِ والاستغناءُ عنْ غيرِهِ والزُّهدُ فيمَا مآلُهُ إلىٰ الذِّهابِ والرُّفاتِ[(١)]، كانَ ذلكَ أحسنَ ما يُقْدمُ العبدُ بهِ علىٰ ربِّهِ، ولذلكَ قيلَ لبعضِهِمْ في هذا القبيلِ، فأنشدَ[(٢)]:

قَالُوا: غَدَا العِيدُ، مَاذَا أَنْتَ لَابِسُهُ؟ ❊ فَقُلْتُ: خِلْعَةَ سَاقٍ حُبَّهُ جَرَعَا
فَقْرٌ وَصَبْرٌ هُمَا ثَوْبَايَ تَحْتَهُمَا ❊ قَلْبٌ يَرَىٰ أُلْفَةَ الأَعْيَادِ وَالجُمُعَا
العِيدُ لِي مَأْتَمٌ إِنْ غِبْتَ يَا أَمَلِي ❊ والعِيدُ مَا كُنْتَ لِي مَرْأًىٰ وَمُسْتَمَعَا

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **«وَقِيلَ[(٤)]: أَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَىٰ مُوسَىٰ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: تُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَكَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِثْلُ حَسَنَاتِ الخَلْقِ أَجْمَعَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: عُدِ المَرِيضَ، وَكُنْ لِثِيَابِ الفُقَرَاءِ فَالِيًا[(٥)]، فَجَعَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي كُلِّ شَهْرٍ سَبْعَةَ أَيَّامٍ يَطُوفُ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ يَفْلِي ثِيَابَهُمْ، وَيَعُودُ المَرْضَىٰ».**

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفي هذِهِ الحكايةِ ـ وفَّقكَ اللهُ ـ سِرٌّ إنْ تفطَّنْتَ لهُ، وذلكَ أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ إذَا أوصَىٰ نبيَّهُ وكلِيمَهُ بأنْ يعودَ المَرْضَىٰ، ويزيلَ عنهُمْ

= وطريق الهجرتين ١/٨٦.

(١) في (أ): والزمان، والتصويب من الناسخ.

(٢) من البسيط، وقد سبق تخريجها.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٣.

(٤) ورد في: حلية الأولياء ٦/٣٣، والدر النظيم في أخبار موسىٰ الكليم ص٢٢١.

(٥) في التهذيب «ف ل ا»: «يُقال: فَلَّت فلانةُ رَأْسَه تَفْليه فِلايةً؛ إذا بَحثت عن القَمْل».

أذاهُمْ، ويلطفَهُمْ فِي أمراضِهِمْ فخُذْ منْ هذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ شدَّةَ كرامةِ الفقراءِ على اللهِ، وشرفَ منزلتِهِمْ عندَهُ، وأنَّهُ لكمالِ رحمتِهِ بهِمْ أمرَ أنبياءَهُ وأحبَّاءَهُ وأصفياءَهُ بأنْ يكرِمُوهُمْ ويلطفُوهُمْ، وذلكَ لكرمِهِمْ عندَهُ، وهذهِ فائدةُ الحكايةِ بيانُ فضيلةِ الفقراءِ الصَّالحينَ عندَ اللهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: **وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[(٢)]: خَمْسَةُ أَشْيَاءَ مِنْ جَوْهَرِ النَّفْسِ: فَقِيرٌ يُظْهِرُ الغِنَى، وَجَائِعٌ يُظْهِرُ الشَّبَعَ، وَمَحْزُونٌ يُظْهِرُ الفَرَحَ، وَرَجُلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ عَدَاوَةٌ فَيُظْهِرُ لَهُ المَحَبَّةَ، وَرَجُلٌ يَصُومُ بِالنَّهَارِ وَيَقُومُ بِاللَّيْلِ وَلَا يُظْهِرُ ضَعْفًا** [٢/٢٣٠ب]».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وإنَّمَا كانتْ هذهِ الأمورُ منْ جوهرِ النَّفسِ، فإنَّ الجوهرَ شيءٌ نفيسٌ، و«**النَّفسُ**» هاهُنَا اسمُ جنسٍ، ولمْ يرِدْ نفسًا معيَّنَةً، فمَنْ كانَتْ نفسُهُ شريفةً اجتمعَتْ فيهَا هذهِ الخصالُ جميعُهَا، أو بعْضُها على حَسَبِ شَرَفيَّةِ نفسِهِ ونزَاهتِهَا.

فأمَّا «**الفقيرُ الَّذِي يُظْهِرُ الغنَى**» فشرفُ نفسِهِ سَتْرُهُ؛ لاحتياجِهِ لغيرِ ربِّهِ، فإنَّ النَّاسَ إنَّمَا يصِلُونَ مَنْ كانَ ظاهرُهُ الفقرَ، ومَنْ كانَ ظاهرُهُ الغنَى معَ فقرِهِ دلَّ ذلكَ على تنزُّهِهِ عنهُمْ وقوَّةِ صَبْرِهِ وزهدِهِ وتوكُّلِهِ إلى أنْ يأتيَهُ الفتحُ مِنْ ربِّهِ.

ومِنْ هذَا القبيلِ «**جائعٌ يُظْهِرُ الشَّبعَ**»، وإنَّمَا يفعلُ ذلكَ مَنِ اختارَ الجُوعَ صَومًا كانَ، أوْ لكسرِ شهوةٍ، أوْ رقَّةِ قلبٍ، ويشعرُ حالهُ أنْ يكونَ بينَهُ وبينَ ربِّهِ سرٌّ، ولذلِكَ كانَ الصَّومُ أضافهُ الحقُّ إلى نفسِهِ؛ قالَ[(٣)]: «عَمَلُ ابْنِ آدَمَ كُلُّهُ لَهُ إِلَّا الصَّوْمُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٣.

(٢) ورد قوله في: الفتوة للسلمي ص٦١، ومناقب الأبرار ١/٢١٦، ومنارات السائرين ص١٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٢١٥ ـ حديث رقم (٥٥٨٣)، ومسلم في صحيحه ٢/٨٠٧ ـ حديث رقم (١١٥١).

فَإِنَّهُ لِي»، وهذهِ إضافةُ تشريفٍ وتخصيصٍ للصَّومِ دونَ الأعمالِ الَّتِي هيَ للهِ كلُّهَا، وإنْ لمْ تكنْ أعمالًا صالحةً.

ورجلٌ «مَحْزُونٌ يُظْهِرُ الفَرَحَ»، ولا يخلُو حزنُهُ؛ إمَّا أنْ يكونَ علىٰ ما نزلَ بهِ منَ القضاءِ والبلاءِ، وعلَىٰ ما زالَ عنهُ منَ النَّعماءِ، وإظهارُهُ الفرحَ يدلُّ علىٰ كمالِ صبْرِهِ ورؤيةِ الفعلِ منْ ربِّهِ، ورضاهُ بمَا أجرَاهُ عليهِ منْ قدرِهِ، وإظهارُهُ الفرحَ شكرًا لمَا خصَّهُ بهِ منْ نِعَمِهِ الَّتِي لم يُعطِهَا غيرهُ، ولذلِكَ لمَّا ماتَ لبعضِهِمْ[(١)] ولدٌ تزيَّنَ وتطيَّبَ ولبسَ فخرَ ثيابِهِ وخرجَ للنَّاسِ، قيلَ لهُ: أيرضَىٰ منكَ بهذَا؟ فقالَ: تحبُّونَ أنْ أستكينَ للمصيبةِ! واللهِ لوْ كانَتِ الدُّنيَا كلُّهَا لِي وأخذَهَا منِّي وأعطانِي شَرْبَةَ ماءٍ لمَا رأيتُهَا جزاءً للشَّربةِ، فكيفَ بالصَّلواتِ والرَّحمةِ والهُدَىٰ؟! وهذَا إشارةٌ إلىٰ قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

وأمَّا «رجلٌ يُعَادِيهِ شَخْصٌ وهوَ لا يُعَادِيهِ»، ولكنَّهُ يُدَارِيهِ، فإنْ لقيَهُ بشَّ فِي وجهِهِ، وإنْ أتاهُ أكرمَهُ بالدُّنيَا؛ كلُّ ذلكَ لتَقِلَّ الشُّرورُ، ويندفعَ ما يَخْشَىٰ وُقُوعهُ ممَّا هوَ أكثرُ منَ العداوةِ منَ المحظورِ، ويزولَ ما فِي نفسِ أخيهِ منَ الشُّرورِ، ولذلِكَ قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]:

إِنِّـي أُحَيِّـي عَـدُوِّي عِنْـدَ رُؤْيَتِـهِ ❊ لِأَدْفَعَ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ [٢/٢٣١أ]
وَأُظْهِـرُ البِشْـرَ لِلإِنْسَـانِ أُبْغِضُـهُ ❊ كَأَنَّـهُ قَـدْ مَـلَأَ قَلْبِـي مَسَـرَّاتِ
وَلَسْـتُ أَسْـلَمُ مِمَّـنْ لَسْـتُ أَعْرِفُـهُ ❊ فَكَيْفَ أَسْـلَمُ مِـنْ أَهْـلِ المَـوَدَّاتِ؟!

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) من البسيط، ونسبها المؤلف خطأً للإمام علي، وليست في ديوانه، وإنما هي للإمام الشافعي في ديوانه ص٣٦.

و«**الرَّجلُ الَّذِي يصومُ بالنَّهارِ ويقومُ باللَّيلِ، ولا يُظْهِرُ ضعْفًا**»، فذلِكَ دليلُ القوَّةِ وسترِ الأعمالِ، والسَّلامةِ منَ الشُّهرةِ بينَ النَّاسِ منَ الانحلالِ والنُّعاسِ؛ اللَّذانِ همَا دليلَا القيامِ والصِّيامِ[١]، فيسلمُ بذلكَ منَ التَّعرُّضِ لحمدِ النَّاسِ، وخطورِ المُرَاءاةِ لهُمْ مِنْ قِبَلِ الخنَّاسِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الحَارِثِ[٣]: أَفْضَلُ المَقَامَاتِ: اِعْتِقَادُ الصَّبْرِ عَلَى الفقرِ إِلَى القَبْرِ[٤]**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا المرادُ بهِ: الفقرُ الرَّفيعُ؛ وهوَ الافتقارُ إلى اللهِ ـ تعالى ـ دونَ غيرِهِ معَ شرطِ الإعراضِ عنِ المالِ والعملِ والحالِ، وإنْ كانَ متَّصفًا بهِ رائيًا لهُ فضلًا جاريًا عليهِ مِنَ الكبيرِ المُتَعَالِ، فاعتقادُ الصَّبرِ على الدَّوامِ على هذا الفقرِ إلى المَماتِ مِنْ أفضلِ الأَحْوالِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**وَقَالَ ذُو النُّونِ[٦]: عَلامَةُ سَخَطِ اللهِ ـ تعالى ـ عَلَى العَبْدِ: خَوْفُهُ مِنَ الفَقْرِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يحتملُ أمرَينِ:

[أَحَدُهُمَا]: خَوفُهُ منَ الفقرِ ممَّا ضَمِنَهُ اللهُ لهُ وجعلَهُ حقَّهُ، كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٧]:

---

(١) أي: بانحلال بدن ونعاس، ونحوهما مما يدل على الصيام والقيام.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٣.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٦٥، ومنارات السائرين ص١٩٣، وطريق الهجرتين ١/٨٦، ونور الاقتباس فيما يعرض من ظلم الوسواس ص٤٤.

(٤) يعني: الموتَ.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٣.

(٦) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٥٠٢، والانتصار للأولياء الأخيار ص٣٨٤.

(٧) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٥٧١.

«لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: بَيْتٍ يُكِنُّهُ، وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفِ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ[(١)]»، فخوفُ الفَقرِ من هذا وما يجري مجرَاهُ ممَّا تقومُ بهِ البنيةُ شكٌّ في الضَّمانِ، وهذا علامةٌ علىٰ سخطِ اللهِ علىٰ التَّحقيقِ فإنَّهُ عاصٍ.

الوجهُ الثَّانِي: أنْ يكونَ شديدَ الحبِّ للدُّنيَا والحرصِ علىٰ تحصيلِهَا، خائفًا منَ الفقرِ من المالِ والجاهِ، فهذا ربَّمَا جرَّهُ هذا الحبُّ إلىٰ أنْ يأخذَهَا منْ غيرِ وجهِهَا ويمنعَهَا منْ حقِّهَا، فهذِهِ علامةٌ تدلُّ علىٰ أنَّهُ يقعُ غالبًا لخوفِ فقرِهِ فِي المُحرَّماتِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: **«وَقَالَ الشِّبْلِيُّ[(٣)]: أَدْنَىٰ عَلَامَاتِ الْفَقْرِ: أَنْ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لِأَحَدٍ فَأَنْفَقَهَا فِي يَوْمٍ، ثُمَّ خَطَرَ بِبَالِهِ أَنَّهُ لَوْ أَمْسَكَ مِنْهَا قُوتَ يَوْمٍ مَا صَدَقَ فِي فَقْرِهِ»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ، فإنَّ الفقرَ ضدُّ الغنَىٰ، ومتَىٰ كانَ العبدُ فقيرًا إلىٰ اللهِ خاصَّةً لمْ يكنْ غنيًّا بغيرِهِ، فمتَىٰ زعمَ عبدٌ أنَّهُ ليسَ لهُ حاجةٌ لغيرِ اللهِ ثمَّ [٢/٢٣١ب] حبسَ شيئًا لنفسِهِ وإنْ كانَ يسيرًا منَ الدُّنيَا بعدَ أنْ أنفقَ أكثرَهُ، فهو فقيرٌ إلىٰ ما استَبْقَاهُ[(٤)]، فلَمْ يكمُلْ فقرُهُ إلىٰ اللهِ؛ لأنَّهُ إنَّمَا حبسَ هذَا اليسيرَ لاحتياجِهِ إليهِ، ولوِ استغنَىٰ عنْ غيرِ اللهِ مطلقًا لمْ يحبسْهُ لحاجتِهِ إليهِ.

وهذَا إذا لمْ يدعُ الشَّرعُ إلىٰ الحَبْسِ والإِمْسَاكِ، وإنَّمَا أمسكَهُ خوفًا منْ فقرِهِ منهُ، وإلَّا قَدْ يمسكُ الفقيرُ إلىٰ اللهِ بعضَ الأسبابِ لأمرِ اللهِ علىٰ ما تقتضِيهِ الأدلَّةُ الشَّرعيَّةُ في المشيِ علىٰ الصَّوابِ.

---

(١) أي: كسرة خبز وشربة ماء.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٣.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٥٧.

(٤) أي: إلىٰ ما حبسه.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٢]: تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الفَقْرِ وَالغِنَىٰ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟، وَعِنْدِي أَنَّ الأَفْضَلَ: أَنْ يُعْطَىٰ الرَّجُلُ كِفَايَتَهُ، ثُمَّ يُصَانَ فِيهِ[٣]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ المسألةُ[٤] منَ النَّاسِ مَنْ يقولُ: إنَّمَا فُضِّلَ الفقيرُ للصَّبْرِ، وفُضِّلَ الغنيُّ للشُّكْرِ، ويجعلُ الشُّكرَ أفضلَ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يقولُ: الأفضلُ الكفافُ أنْ يُعطَىٰ العبدُ ذلكَ فيكونَ مستقيمًا ليسَ عِنْدَهُ كمالُ الصَّبرِ علىٰ المُؤلمَاتِ، ويكونَ شاكرًا علىٰ مَا منَّ بهِ عليهِ منَ الكفاياتِ.

وهذهِ الأقوالُ عندِي خارجةٌ عنْ محلِّ الخلافِ، وإنَّمَا الخلافُ فِي أيِّ الحالَينِ أفضلُ عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للعبدِ؛ حتَّىٰ يكتسبَ ذلكَ ويتخلَّقَ بهِ؟ هلِ الفقرُ منَ المالِ ليتفرَّغَ قلبُهُ منَ المشغلاتِ وينالَ لذَّةَ المناجاةِ ويبعدَ منْ كثرةِ الأسبابِ في الاكتسابِ؛ طلبًا لخفَّةِ الحسابِ؟ أوِ الأفضلُ اكتسابُ المالِ ليفعلَ بهِ الصَّالحاتِ، وينالَ بهِ الأفعالَ المتعدِّياتِ، معَ أنَّ كسبَ المالِ وكثرةَ المبايعاتِ والتَّصرُّفاتِ مشغلٌ للقلوبِ ومشوِّشٌ للألبابِ، وربَّمَا جرَّهُ كسبُ الحلالِ إلىٰ وقوعِهِ في شَيءٍ منَ الإخلالِ.

فهذا محلُّ الاختلافِ أيُّ الحالينِ أفضلُ؟.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٣.

(٢) ورد قوله في: فتاوىٰ ابن الصلاح ص١٨٠، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٤/٣٣١، ونور الاقتباس فيما يعرض من ظلم الوسواس ص٤٦.

(٣) أي: فيما أُعطيه، وهي حالة متوسطة بين الفقر والغنىٰ.

(٤) تأمل تفصيل ذلك في: إحياء علوم الدين ٣/٢٦٤، وفتاوىٰ ابن الصلاح ص١٧٦، وطريق الهجرتين ١/٣٩٩، والآداب الشرعية ٣/٤٦٨، وعمدة القاري ٦/١٣١.

وقَدْ نقلْنَا فِي غيرِ هذا الكتابِ أنَّ الأفضلَ ما اختارَهُ سيِّدُ العربِ والعجمِ لنفسِهِ، وتبعَهُ فيهِ سادةُ الأعلامِ والأصحابِ؛ منَ التَّقلُّلِ في الدُّنيَا، والبُعْدِ عَنْ زهرتِهَا بمَا يطولُ بِنقْلِهِ الكِتَابُ.

وأمَّا مَنْ أصابَتْهُ الفَاقَةُ اضطِّرارًا فَوَظِيفَتُهُ الصَّبْرُ، ومَنْ فُتحَ عليهِ بمالٍ بميراثٍ أوْ غيرِهِ فوظيفتُهُ الشُّكرُ، ومَنْ لُطفَ به فِي حالِهِ وسلكَ الحقُّ بهَ مسلكَ العَوافِي؛ فلمْ يُعرِّضْهُ لكثرةِ المالِ للحسابِ، ولمْ يبتلِهِ بشديدِ الفقرِ الَّذِي يشغلُ [٢/٢٣٢أ] قلبَهُ عن الفِكْرَةِ والعَمَلِ ليومِ المآبِ، هذا ملطوفٌ بهِ، وقدْ بيَّنَّا محلَّ الخلافِ قبلَ هذا؛ وهوَ فيمَا يكتسبُ، وفيهِ يرغبُ، واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الرَّازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدِ بْنَ يَاسِينَ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ الجَلَّا يَقُولُ**[(٢)] **ـ وَقَدْ سَأَلْتُهُ عَنِ الفَقْرِ، فَسَكَتَ حَتَّى خَلَا**[(٣)]**، ثُمَّ ذَهَبَ وَرَجَعَ عَنْ قَرِيبٍ، ثُمَّ قَالَ ـ: كَانَ عِنْدِي أَرْبَعَةُ دَوَانِيقَ**[(٤)]**، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنَ اللهِ أَنْ أَتَكَلَّمَ فِي الفَقْرِ، فَذَهَبْتُ وَأَخْرَجْتُهَا، ثُمَّ قَعَدَ وَتَكَلَّمَ**[(٥)] **فِي الفَقْرِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا خوفٌ منهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يتكلَّمَ في مقامٍ يزعمُ أنَّهُ حالُهُ وليسَ فيهِ، فكَرِهَ أنْ يتكلَّمَ فيهِ وعندَهُ شيءٌ حبسَهُ لنفسِهِ ليستغنِيَ بهِ، وإلَّا مَنْ تكلَّمَ في الفقرِ الفاضلِ عندَ اللهِ، وبيانِ درجاتِهِ وتعريفِهِ لِمَنْ طلبَهُ علىٰ وجهِ العلمِ، ولمْ يدعهُ لنفسِهِ يعلمُ اللهُ ذلكَ منهُ ولَا فهمَهُ منهُ مِنْ مُحدِّثِهِ فإنَّهُ يدَّعيهِ ولا يضرُّهُ ما

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٣.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٥٨، والمختار من مناقب الأخيار ١/٢٣٤.

(٣) أي: عن الناس.

(٤) في (ف): دوانق.

(٥) في (ف): قعدت وتكلمت.

كانَ عندَهُ، ولا سيَّمَا إذا كانَ ممَّا تَدْعُوهُ إليهِ ضَرُورتُهُ وحَاجَتُهُ فِي حَالَتِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدٍ الدِّمَشْقِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ المُوَلِّدِ يَقُولُ: سَأَلْتُ ابْنَ الجَلَّا[٢]: مَتَى يَسْتَحِقُّ الْفَقِيرُ اسْمَ الفَقْرِ؟ فَقَالَ: إِذَا لَمْ يَبْقَ عَلَيهِ بَقِيَّةٌ مِنْهُ، فَقُلْتُ: كَيْفَ ذَلِكَ؟! فَقَالَ: إِذَا كَانَ لَهُ فَلَيسَ لَهُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فَهُوَ لَهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ اسمَ الفقيرِ المطلقِ هوَ المستغنِي باللهِ عَنْ جميعِ مخلوقاتِهِ وليسَ فقيرًا إلى أحدٍ منَ المخلوقِينَ ونفسُهُ منْ جملةِ المخلوقِينَ، فمَنْ كانَ عندَهُ بقيَّةُ التفاتٍ إلى حاجةٍ إلى نفسِهِ فضلًا عَنْ غيرِهَا في شيءٍ، فَلَمْ يكملْ فَقْرُهُ إلى اللهِ، وهَذِهِ هيَ البقيَّةُ الَّتِي بقيتْ عليهِ في فَقْرِهِ؛ وهوَ التفاتُهُ إلى نفسِهِ وعزيهَا في شيءٍ منَ الأشياءِ، فلذلِكَ قالَ لهُ: «متَى ادَّعَى أنَّهُ كَمُلَ لهُ فقرُهُ فليسَ هُوَ لَهُ؛ لأنَّ دَعْوَاهُ في فَقْرِهِ التفَاتٌ لنفسِهِ، ومتَى لمْ يَرَ نفسَهُ ولَا حسنَ حَالتِهِ في فَقْرِهِ فَهُوَ لَهُ»، أيْ: كمُلَ فقرُهُ.

وخلاصتُهُ: أنَّ مَنِ التفتَ إلى فقرِهِ في مقاماتِهِ الغاليةِ فلمْ يَكْمُلْ فقرُهُ لالتفاتِهِ إلى فَقْرِهِ، ومَنْ رأَى فَقْرَهُ فضلًا منْ [٢/٢٣٢ب] ربِّهِ وتبرَّأَ مِنْ إضافتِهِ إلى نَفْسِهِ، فهوَ لهُ، أيْ: كَمُلَ مَقامهُ وتَمَكَّنَ فيهِ[٣].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقِيلَ[٥]: صِحَّةُ الفَقْرِ: أَلَّا يَسْتَغْنِيَ الفَقِيرُ فِي فَقْرِهِ

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٣ - ٤٣٤.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٣٢/٣٩٢، ومدارج السالكين ٢/٤٤٠، وطريق الهجرتين ١/٨٦، وبغية الطلب ٣/١٢٣٨.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٧٤ - ٧٧٥.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٤.

(٥) هذا القول قريب مما قبله، وورد في طريق الهجرتين ١/٨٧.

بِشَيْءٍ إِلَّا بِمَنْ إِلَيهِ فَقْرُهُ[(١)]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الفقرَ الصَّحيحَ هوَ الافتقارُ إلى مَنْ يملكُ قضاءَ الحوائجِ، ولَا يملكُهَا علَى الحقيقةِ إلَّا اللهُ، ومتَى افتقرَ العبدُ إلى اللهِ فقدِ استغنَى عمَّنْ سِواهُ واستغنَى بهِ، فالفقيرُ إلى اللهِ هوَ الغنيُّ باللهِ، وهُوَ الاستغناءُ عَنْ غَيْرِ اللهِ[(٢)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ[(٤)]: إِظْهَارُ الغِنَى فِي الفَقْرِ أَحْسَنُ مِنَ الفَقْرِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ الفقرَ المحمودَ المُثْنَى عليهِ هوَ التَّقَلُّلُ من الدُّنيا اختيارًا، والبُعدُ عَنْ زَهْرتِهَا تفرُّغًا للعبادةِ وإيثارًا، وإذَا صحَّتْ هذِهِ الحالةُ للعبدِ فهيَ حَسَنَةٌ، وسترُهَا بإظهارِ الغِنَى عنِ الخلقِ أحسنُ منهَا، كمَا قَالَ ـ تعالَى ـ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].. الآية[(٥)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ هِلَالَ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّقَّاشَ يَقُولُ: سَمِعْتُ بُنَانًا المِصْرِيَّ يَقُولُ[(٧)]: كُنْتُ بِمَكَّةَ قَاعِدًا وَشَابٌّ بَيْنَ يَدَيَّ، فَجَاءَهُ إِنْسَانٌ وَحَمَلَ إِلَيهِ كِيْسًا فِيهِ دَرَاهِمُ وَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيهِ، فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، فَقَالَ: فَرِّقْهُ عَلَى المَسَاكِينَ، فَلَمَّا

---

(١) ليندرج تحت قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٧٥.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٤.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٥٧، وحدائق الحقائق ص٣٨.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٧٥.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٤.

(٧) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٣/٤٢٠، وصفة الصفوة ٢/٢٧٣.

كَانَ العِشَاءُ رَأَيْتُهُ فِي الوَادِي يَطْلُبُ شَيْئًا لِنَفْسِهِ، فَقُلْتُ: لَوْ تَرَكْتَ لِنَفْسِكَ مِمَّا كَانَ مَعَكَ شَيْئًا؟! ، قَالَ: لَمْ أَعْلَمْ أَنِّي أَعِيشُ إِلَىٰ هَذَا الوَقْتِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ قَدْ جمعَ حالهُ الفقرَ والزُّهدَ وقِصَرَ الأَمَلِ، فإنَّ حالَهُ دليلٌ علىٰ فَقْرِهِ.

وقولُهُ: «لا حاجةَ لي بهِ» بعدَ أنْ جاءَ مِنْ وَجْهٍ حِلٍّ دَلِيْلٌ عَلَىٰ زُهْدِهِ.

وقولُهُ: «وقتَ حاجتِهِ لوْ علمتُ أنِّي أعيشُ إلىٰ هذا الوقتِ» دليلٌ علىٰ قِصَرِ أَمَلِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ الشَّيخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ بُنْدَارٍ الصَّيْرَفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَحْفُوظًا يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا حَفْصٍ يَقُولُ(٢): أَحْسَنُ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ العَبْدُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ: دَوَامُ الفَقْرِ إِلَىٰ رَبِّهِ عَلَىٰ جَمِيعِ الأَحْوَال، وَمُلَازَمَةُ السُّنَّةِ فِي جَمِيعِ [٢/٢٣٣أ] الأَفْعَال، وَطَلَبُ القُوتِ مِنْ وَجْهٍ حَلَال».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا بَالِغٌ لَا إقلالَ فيهِ ولا إخلالَ، فإنَّ الفقرَ إلىٰ ربِّهِ يصحُّ في سائرِ ما يحتاجُ إليهِ، والسُّنَّةُ فِي سائرِ الأفعالِ إقامتهَا علىٰ وجوهِهَا وعلىٰ أفضلِ حالاتِهَا، وإمَّا أَخْذُ القُوتِ مِنْ وَجْهٍ حَلَالٍ فهوَ المشارُ إليهِ بقولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣): «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَكَانَ قُوتُهُ حَلَالًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ»، ومدحَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ إذا أمْسَىٰ سألَ مِنْ أينَ قُرصيهُ؟، فقالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُمْ كُلِّفُوا ذلِكَ لتكلَّفُوهُ»، قالَ لهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ(٤): «لَقَدْ عَلِمُوا ذلكَ ولكنَّهُمْ غَشَمُوا

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٤.

(٢) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٠٩، ومدارج السالكين ٢/٤٤١، وطريق الهجرتين ١/٧٨.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) ورد في: الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ للقيرواني ص١٨١، والذخيرة ١٣/٣٢٣، وعقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة ٣/١٣١٠، وجامع الأمهات ص٥٧٣، وفيه:=

المعيشةَ غَشْمًا[1]» ، أيْ: أنَّهُمْ أخذُوهَا منْ غيرِ ثبتٍ ولا تمييزٍ للحلالِ مِنْ غيرِهِ.

❁ قَالَ الإِمَــامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ أَحْمَدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ المُرْتَعِشَ يَقُولُ[3]: يَنْبَغِي لِلْفَقِيرِ أَلَّا تَسْبِقَ هِمَّتُهُ خُطْوَتَهُ».

❁ قَالَ الشَّــارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يحتملُ أمرينِ:

أحدُهُمَا: أنَّهُ لا يعلِّقُ قلبَهُ منَ الدُّنيَا بغيرِ ما هوَ محتاجٌ إليهِ في الوقتِ، فتكونُ خطوتُهُ عبارةً عَنْ حالِهِ الَّذِي هوَ فيهِ، فلا يطلبُ منَ الدُّنيَا غيرَ ما دعَتْهُ إليهِ حاجةٌ في الوقتِ.

الوَجْهُ الثَّانِي: أنَّ مَنْ كمُلَ فقرُهُ إلىٰ اللهِ، ورضِيَ بمَا يُجرِيهِ عليهِ منْ أقدارِهِ واختياراتِهِ لهُ لا يتمنَّىٰ زوالَ ما أجرَاهُ عليهِ، فيكونُ حالُهُ الرِّضَا بكلِّ ما يُجريهِ عليهِ ويختارُهُ، وهذَا فِي الفقرِ أبلغُ ممَّا ذكرْنَاهُ أوَّلًا.

❁ قَالَ الإِمَــامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الفَرَجِ الوَرْثَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ فَاطِمَةَ ـ أُخْتَ أَبِي عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيِّ ـ تَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيَّ يَقُولُ[5]: كَانَ أَرْبَعَةٌ فِي زَمَانِهِمْ:

وَاحِدٌ لَا يَقْبَلُ مِنَ الإِخْوَانِ وَلَا مِنَ السُّلْطَانِ؛ [وَهُوَ] يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ، وَرِثَ سَبْعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ لَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا شَيْئًا، وَكَانَ يَعْمَلُ الخُوصَ بِيَدِهِ.

= «من أين قرصاه؟» ، ولم أقف عليه في دواوين السنة التي بين يدي.

(١) يعني: تعسفوا تعسفًا.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٤.

(٣) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص٣٨، وطريق الهجرتين ١/٨٧، ومدارج السالكين ٢/٤٤١.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٤ ـ ٤٣٥.

(٥) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٧/١٢٩، ومعجم الأدباء ١/١٣٥.

وَآخَرُ: كَانَ يَقْبَلُ مِنَ الْإِخْوَانِ وَالسُّلْطَانِ جَمِيعًا؛ وَهُوَ أَبُو إِسْحَاقَ الْفَزَارِيُّ، فَكَانَ مَا يَأْخُذُهُ مِنَ الْإِخْوَانِ يُنْفِقُهُ فِي الْمَسْتُورِينَ الَّذِينَ لَا يَتَحَرَّكُونَ، وَالَّذِي يَأْخُذُهُ مِنَ السُّلْطَانِ كَانَ يُخْرِجُهُ إِلَىٰ أَهْلِ (طَرَسُوسَ)(١).

وَالثَّالِثُ: كَانَ يَأْخُذُ مِنَ الْإِخْوَانِ وَلَا يَأْخُذُ [٢/٢٣٣ب] مِنَ السُّلْطَانِ؛ وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ يَأْخُذُ مِنَ الْإِخْوَانِ وَيُكَافِئُ عَلَيْهِ.

وَالرَّابِعُ: كَانَ يَأْخُذُ مِنَ السُّلْطَانِ وَلَا يَأْخُذُ مِنَ الْإِخْوَانِ؛ وَهُوَ مَخْلَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، كَانَ يَقُولُ: السُّلْطَانُ لَا يَمُنُّ، وَالْإِخْوَانُ يَمُنُّونَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ كمالِ النَّظرِ حتَّىٰ في الأخْذِ والصَّرفِ جميعًا، وكذلِكَ التَّركُ والقبولُ، والمسألةُ مفروضةٌ في الأخذِ بغيرِ سؤالٍ، فمنهُمْ مَنْ رأىٰ كمالَ السَّلامةِ منْ غررِ الأخذِ والدَّفعِ، إمَّا لتشويشِ قلبهِ أو لخبثٍ فيمَا يقبلُهُ، أو لغررٍ في نيَّةِ الدَّافعِ، وهوَ يوسفُ بنُ أسباطٍ؛ رأىٰ الأكلَ مِنْ كَسْبِهِ، ولمْ يقبلْ لا مِنَ السُّلطانِ ولَا مِنَ الإخوانِ.

ومقابلُهُ في الطَّرفِ الآخرِ مَنْ كانَ يقبلُ منَ السُّلطانِ والإخوانِ بنيَّةٍ حسنةٍ في مساعدةِ خلقِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وإيصالِ الحقوقِ إلىٰ مَنْ يعجزُ عن أخذِهَا مِنْ ذَوِي الثَّروةِ، أوْ مِنْ بيتِ المالِ، فكانَ يقبلُ جميعَ ما أتاهُ منْ غيرِ سؤالٍ اعتمادًا علىٰ قولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمرَ بنِ الخطَّابِ(٢): «مَا أَتَاكَ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَخُذْهُ»، فكيفَ إذا أخذَهُ لا لنفسِهِ كانَ أخذُهُ أَوْلَىٰ، وهوَ أبو إسحاقَ الفَزارِيُّ، فكانَ يصرفُ ما أخذَهُ منَ الإخوانِ أهلِ النِّيَّةِ الحسنةِ والمالِ الحَلالِ في المنقطِعِينَ للعبادةِ المتفرِّغينَ لهَا؛ عَوْنًا لهُمْ علىٰ ما هُمْ بصددِهِ منَ الاشتغالِ، وما أخذَهُ مِنْ بيتِ المَالِ صَرَفَهُ في

---

(١) انظر: معجم البلدان ٤/٢٨.

(٢) ورد في: المقنع في علوم الحديث ٢/٥٢٢، والمنهل الروي ص٧٤.

المُسْتَحقِّينَ لهُ منْ أهلِ (طرسوسَ)؛ ليوصلَ إليهِمْ حقوقَهُمْ منْ بيتِ المالِ بلَا كُلفةٍ، فهوَ سَاعٍ في تحصيلِ أجرِ إدخالِ المَسَرَّةِ عليهِمْ فيمَا يوصِلُهُ إليهِم.

ومنهُمْ مَنْ ميَّزَ بينَ أموالِ السُّلطانِ، والغالبُ علىٰ أخذِهَا عدمُ الجريانِ علىٰ أحكامِ القرآنِ، وكانَ يقبلُ منَ الإخوانِ الَّذينَ يعلمُ حِلَّ أموالِهِمْ ويكافئُ عليهَا، فيحفظُ قلوبَهُمْ عنْ أنْ تتألَّمَ بالرَّدِّ، ولِمَا جاءَ منْ غيرِ سؤالٍ معَ صفائِهِ منْ كلِّ إشكالٍ، ويكافأُ عليهِ امتثالاً لأمرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقولِهِ[1]: «مَنْ أَسْدَىٰ إِلَيكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا فَادْعُوا لَهُ»... الحديث.

وكانَ يقابلُهُ مخلدٌ، كانَ يقبلُ منَ السُّلطانِ، ويرَىٰ أنَّهُ لا حقَّ للسُّلطانِ في المالِ، ولا مِنَّةَ لهُ عليهِ، وأنَّهُ حقُّهُ الَّذِي جعلَهُ اللهُ لهُ، فلَا يحتاجُ فيهِ إلىٰ مكافأةٍ [٢/٢٣٤أ] تكلفةِ ذلكَ، فكانَ يقبلُ منَ السُّلطانِ ولا يقبلُ منَ الإخوانِ.

فانظُرْ كيفَ [تَفَاوتَ][2] نَظَرُ هؤلاءِ الأربعةِ، ومَنْ هوَ أسلمُ وأغنَمُ، ومَنْ عملُهُ قاصرٌ علىٰ نفسِهِ أوْ متعدِّي، فيتبيَّنُ لكَ أنَّ مَنِ اقتصرَ علىٰ كَسْبِهِ عملُهُ مختصٌّ بهِ، وينبِّهُ فِي الاقتصارِ علىٰ نفسِهِ مَنْ قَبِلَ وكافَئَ إلَّا أنَّهُ زادَ إدخالَ السُّرورِ علىٰ الإخوةِ بالقَبُولِ.

وأمَّا مَنْ قَبلَ منَ السُّلطانِ بناءً علىٰ أنَّهُ حقُّهُ في بيتِ المَالِ، واعتلَّ بأنَّ الإخوانَ يَمُنُّونَ، فحالُهُ دونَ مَنْ سَبَقَ.

وأمَّا مَنْ قبلَ لا لنفسِهِ، وإنَّمَا كانَ واسطةً بينَ عبادِ اللهِ وخَلْقِهِ، ومَا قبلَهُ منْ أهلِ الخيرِ صرفَهُ في السَّاكنِينَ منْ أهلِ العبادةِ غيرِ المكتسبِينَ، وما أخذَهُ منَ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/٣٢٨، والنسائي في سننه الكبرىٰ ٢/٤٣.

(٢) تتمة يقتضيها المقام؛ لطمسها في (أ) من إحكام الدلالة ٢/٧٧٧، وقد أفاد الشيخ زكريا من المؤلف ذلك.

السُّلطانِ صرفَهُ في المستحقِّينَ مِنْ فقراءِ المسلمِينَ معَ تَبْرِيهِ في نفسِهِ مِنْ أنْ ينالَ منهُ شيئًا يرجعُ إليهِ يظهرُ أنَّ حالَهُ أكملُ؛ لأنَّ مَنْ أتاهُ من غيرِ سُؤال، ولمْ ينلْ منهُ ولا حبَّةً مِنْ مثقالٍ، فحالُهُ أكملُ وأقوىٰ؛ لأنَّ مَنْ قَبِلَ من السُّلطانِ أخذَ لحظِّ نفسِهِ، ومَنْ قبلَ وكافئَ هوَ معَ حظِّ نفسِهِ وزوالِ المنَّةِ عنهُ، ومَنْ لمْ يقبَلْ واقتصرَ علىٰ كسبِهِ اقتصرَ علىٰ كسبِهِ، وخافَ منْ دخولِ الآفاتِ عليهِ، وقَدْ تحقَّقَ أنَّ الدُّخولَ في الأعمالِ العامَّةِ لا يدخلُ فيهَا إلَّا الأقوياءُ الَّذينَ صغرَتِ الدُّنيَا في قلوبِهِمْ، ولمْ تستَمِلْهُمْ عندَ وجودِهَا، وجَرَتْ علىٰ أيديهِمْ لِمُسْتَحِقِّيهَا، وهذَا مقياسُ الأنبياءِ والخلفاءِ الرَّاشدينَ وأئمَّةِ الهُدَىٰ المرضيِّينَ - رضِيَ اللهُ عنهُمْ أجمعَينَ -.

وهذَا كلُّهُ علىٰ تقديرِ السَّلامةِ فيمَا يُؤخذُ من بيتِ المَالِ، ولا يكونُ أخذُهُ معينًا بصرفِ مالِ الغيرِ المظلومِ إلىٰ مَنْ لا حقَّ لهُ فيهِ، فيكونَ من أعوانِ الظَّالمينَ.

ولقدْ حُكِيَ أنَّ سفيانَ الثَّوريَّ أتاهُ رجلٌ فقالَ لهُ: يا أبَا عبدِ اللهِ، إنِّي بصيرٌ بهذَا البناءِ، وهاهُنَا حصنٌ يُبْنَىٰ، تعودُ منفعتُهُ علىٰ المسلمينَ، أترَىٰ لِي بنظرِكَ أنْ أدلَّهُمْ علىٰ بنيانِهِ ليعودَ منفعتُهُ علىٰ المُسلمينَ أبلغَ؟ قالَ: فأطرقَ سفيانُ ساعةً، ثمَّ رفعَ رأسَهُ وقالَ لهُ: لَا، فقالَ: ولِمَ يا أبَا عبدِ اللهِ؟ قالَ: إنِّي أخشَىٰ أنْ يُنادَىٰ يومَ القيامةِ بالظَّلمةِ وأعوانِهِمْ، فتقومَ مِنْ أعوانِهِمْ، إنِّي أخافُ أنْ يكونَ الجصُّ أخذَ منْ غيرِ حلِّهِ، واللَّبِنُ وغيرُ ذلكَ أُخذَ منْ غيرِ حلِّهِ. [٢/٢٣٤ب]

❁ **قالَ الإمامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**سمعْتُ الأُستاذَ أبَا عليٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يقُولُ**[٢] **في الخبرِ**[٣]: **(مَنْ تواضعَ لِغنيٍّ لأجلِ غِناهُ ذهبَ ثُلُثَا دِينِه)**: **إنَّمَا ذلكَ لأنَّ المرءَ**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٥.

(٢) ورد قوله في: نور الاقتباس فيما يعرض من ظلم الوسواس ص٤٦، وإتحاف السادة المتقين ١١/٦١٩.

(٣) أخرجه الديلمي في: الزهد لابن حنبل ص٨٥، والبيهقي في الشعب ٧/٢١٣، والديلمي=

بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَنَفْسِهِ، فَإِذَا تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ بِنَفْسِهِ وَلِسَانِهِ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ، فَلَوِ اعْتَقَدَ فَضْلَهُ بِقَلْبِهِ كَمَا تَوَاضَعَ لَهُ بِلِسَانِهِ وَنَفْسِهِ ذَهَبَ دِينُهُ كُلُّهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الدِّينُ إنَّمَا هوَ العلمُ بحقريَّةِ الدُّنيَا وصغرِ قدرِهَا عندَ اللهِ، فإنَّ الدِّينَ اسمٌ لعلومٍ وأعمالٍ، فالدُّنيَا عندَ اللهِ حقيرةٌ بالأخبارِ الصَّحيحةِ، فيجبُ اعتقادُ حقريَّةِ ما حقَّرَ اللهُ، ولَا ينبغِي للعبدِ أنْ يَتَذَلَّلَ في نفسِهِ ببَدَنِهِ ولِسَانِهِ في طلبِهَا؛ لعزَّتِهِ وشرفِ نفسِهِ زهدًا فيهَا؛ لمعرفتِهِ بقلَّةِ قدرِهَا عندَ اللهِ دِيْن، فهذَا القدرُ منَ الدِّينِ هوَ الَّذِي جزَّأَهُ في كلامِهِ؛ وذلكَ أنَّ الدِّينَ يعمُّ أعمالَ القلوبِ والجَوَارحِ؛ منَ التَّوبةِ والصَّبرِ والصِّدقِ والرِّضَا ومقاماتِ الدِّينِ، وتعمُّ الخلاصَ منَ الرِّياءِ والعُجْبِ والكِبْرِ والحسدِ منَ الصِّفاتِ المَذْمُومَةِ، وتَعُمُّ الصَّلاةَ والصَّومَ والذِّكرَ وقِرَاءَةَ القُرْآنِ، وغيرَ ذلكَ مِن أَعْمَالِ الجَوَارحِ.

فَلَمْ يُرِدْ هذَا[١] القائلُ أنَّهُ إذَا تواضعَ ذهبَ دِينُهُ كلُّهُ والعياذُ باللهِ، وإنَّمَا أرادَ مِنَ الدِّينِ العلمَ بحقريَّةِ الدُّنيَا وصغرِ قَدْرِهَا، فمَنْ عظَّمَهَا بلسانِهِ وبدنِهِ، وتواضعَ لأربابِهَا خاصَّةً ذهبَ ثلثَا هذَا الدِّينِ الخاصِّ، فإنْ عظَّمَهَا بقلبِهِ ذهبَ دِينُهُ كلُّهُ الَّذِي أردناهُ منْ حقريَّتِهَا وصغرِهَا عندَ اللهِ، ولمْ يتَّصفْ بذلِكَ ولا عملَ بمقتضَاهُ، والخبرُ الصَّحيحُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخلَ مِنْ أعلَىٰ المدينةِ والمسلمُونَ معَهُ، فمرَّ بجدْيٍ ميِّتٍ أسكَّ، فجلسَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخذَ بأُذُنِ الجدْيِ الأسكِّ الميِّتِ، وقالَ لأصحابِهِ[٢]: «مَنْ يَأْخُذُ هَذَا بِدِرْهَمٍ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ عَيْبًا فِيهِ كَوْنُهُ أَسَكَّ»؛ أَيْ: صغيرَ الأذنينِ، فكيفَ بهِ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا عَلَىٰ اللهِ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»، فقدْ سَمِعْتَ ـ وفَّقكَ

= في الفردوس ٣/٤٦٧.

(١) كرر هذا اللفظ في: (أ).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٧٢ ـ حديث رقم (٢٩٥٧)، وقد مر حديثه عنه.

اللهُ ـ هذَا الفعلَ مِنْ سيِّدِ البشرِ وأخذَهُ بأذُنِ الجدْيِ الأسكِّ [٢/١٢٣٥] المَيِّت ؛ تحقيرًا لِقَدْرِ الدُّنيَا عندَ اللهِ ليعتبِرَ مَنْ يعتبرُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «**وَقِيلَ**(٢): **أَقَلُّ مَا يَلْزَمُ الفَقِيرَ فِي فَقْرِهِ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: عِلْمٌ يَسُوسُهُ، وَوَرَعٌ يَحْجِزُهُ، وَيَقِينٌ يَحْمِلُهُ، وَذِكْرٌ يُؤْنِسُهُ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ الفقيرَ مسافرٌ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، عاملٌ في الوصولِ إلىٰ قُربِهِ والتَّنعُّمِ بِمُناجَاتِهِ والإعراضِ عَنْ غيرِهِ، فهوَ محتاجٌ في سُلُوكِهِ إلىٰ «**علمٍ يَسُوسُهُ**» ؛ لئلَّا يزلَّ عنِ الطَّريقِ، «**وورعٍ يحجزُهُ**» عنْ أنْ يقعَ فيمَا يكرهُهُ مَوْلَاهُ، «**ويقينٍ يحملُهُ**» حتَّىٰ لا يصدَّهُ عَنْ سَفرِهِ شيءٌ يَخْشَاهُ، والذِّكرُ هوَ الَّذِي يوصلُهُ إلىٰ مطلوبِهِ ومَرْغُوبِهِ مِنْ مَولاهُ(٣) ؛ وذلِكَ أنَّهُ إذا دامَ ذكرُهُ بلسانِهِ معَ نيَّتِهِ، وَتَوَالِي ذلكَ علىٰ قلبِهِ عاشَ قلبُهُ عَنْ موتِ غفلتِهِ، ورُزِقَ في سَائِرِ أحوالِهِ لذَّةَ مناجاتِهِ وطاعتِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٤): «**وَقِيلَ**(٥): **مَنْ أَرَادَ الفَقْرَ لِشَرَفِ الفَقْرِ مَاتَ فَقِيرًا، وَمَنْ أَرَادَ الفَقْرَ لِئَلَّا يَشْتَغِلَ عَنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ مَاتَ غَنِيًّا**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ كمالَ الفقرِ ألَّا يفتقرَ لغيرِ اللهِ، وفقرُهُ مِنْ جُمْلَةِ الأغيارِ، فمتَىٰ طلبَ ليشرفَ بالفقرِ ويعلو درجتُهُ بهِ كانَ واقفًا معَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٥.

(٢) نسب لأبي سعيد الخزاز في: تاريخ دمشق ٥/١٣٧، ولمحمد بن منصور الطوسي في: تهذيب الأسرار ص١٥٩، وبلا نسبة في: مدارك السالكين ٢/٤٤١، وطريق الهجرتين ١/٨٧.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٧٨.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٥.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٥٩، ومدارج السالكين ٢/٤٤١، وإتحاف السادة المتقين ١١/٦١٩.

الفقرِ، فقدِ افتقرَ إلىٰ غيرِ اللهِ، وبهذَا الاعتبارِ ماتَ فقيرًا، ومَنْ طلبَ الفقرَ ليدومَ فقرُهُ للهِ ويستغنِي بهِ عمَّنْ سِواهُ مَاتَ غنيًّا.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَقَالَ المُزَيِّنُ: كَانَتِ الطُّرُقُ إِلَىٰ اللهِ أَكْثَرَ مِنْ نُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَا بَقِيَ مِنْهَا طَرِيقٌ إِلَّا طَرِيقَ الفَقْرِ؛ وَهُوَ أَصَحُّ الطُّرُقِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ فيهِ تنبيهٌ علىٰ أنَّ الطَّاعاتِ المَنْدُوباتِ والأَخْلاقَ الشَّريفةَ والمَقَاماتِ العاليةَ كلَّهَا طرُقٌ موصلةٌ إلىٰ اللهِ، والفقرُ إلىٰ اللهِ منْ جُملتِهَا، فكأنَ هذَا الشَّيخَ نظرَ إلىٰ أنَّ أكثرَ الأعمالِ والقُرُباتِ والمقاماتِ الَّتِي يكتسبُهَا العبدُ دخلَتْهَا الآفاتُ وقلَّ فيهَا الإخلاصُ والصِّدقُ، ولَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ سَالمٌ مِنَ الآفاتِ إلَّا طَرِيقُ الافتقارِ إلىٰ اللهِ في سَائِرِ الحَرَكَاتِ والسَّكنَاتِ، فإنَّهُ تَبَرّيٌّ منَ الاقتدارِ علىٰ الأعمالِ، وافتقَارٌ إلىٰ الكبيرِ المتعَالِ، فهوَ بعيدٌ منَ الآفاتِ [٢/٢٣٥ب]، علىٰ ما أشرْنَا إليهِ في التَّنْبِيهَاتِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَينِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ يُوسُفَ القَزْوِينِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ المُوَلِّدِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ النُّورِيَّ يَقُولُ[3]: نَعْتُ الفَقِيرِ: السُّكُونُ عِنْدَ العَدَمِ، وَالإِيْثَارُ عِنْدَ الوُجُودِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ صَحَّ فَقْرُهُ إلىٰ اللهِ خَاصَّةً لعلمِهِ بأنَّهُ لا ملكَ لغيرِهِ وهوَ أرحمُ الرَّاحمينَ بهِ وبغيرِهِ، فإنْ منعَهُ الأرزاقَ في

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٥.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٥.

(٣) ورد قوله في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٩٦، وشعب الإيمان ٢/١١٠، وتهذيب الأسرار ص١٥٧، ومرقاة المفاتيح ١٠/٤٤٤، والتدوين في أخبار قزوين ٢/٤٦٤، وورد قوله منسوبًا إلى الخواص في: تفسير السلمي ١/٢٧٩.

بعضِ الأوقاتِ علِمَ أنَّ ذلكَ رحمةً به، فحالُهُ الرِّضَا والشُّكرُ بمَا أجرَاهُ وإنْ أولَاهُ مِنْ نعمِهِ شيئًا آثرَهُ بِهِ مَنْ رَآهُ محتاجًا إليهِ؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ ذلِكَ ممَّا يحبُّهُ مَولَاهُ، فلا يزالُ مُتَرَدِّدًا بينَ الإيثارِ والرِّضَا بالاختيارِ[1]؛ وذلِكَ إذَا كمُلَ فقرُهُ للهِ، لا لأحدٍ سِواهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سُئِلَ الشِّبْلِيُّ عَنْ حَقِيقَةِ الفَقْرِ، فَقَالَ[3]: أَلَّا يَسْتَغْنِيَ بِشَيْءٍ دُونَ اللهِ ـ تعالى ـ**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا جدٌّ صحيحٌ، فإنَّ الفقيرَ مَنِ افتقرَ إلى اللهِ خاصَّةً دونَ غيرِهِ، ومَنْ كانَتْ هذهِ صِفَتُهُ فَغِنَاؤُهُ يكونُ باللهِ دونَ غَيْرِهِ، فإنَّ مَنِ افتقرَ إلى اللهِ على الحقيقةِ استغنَى باللهِ، ولا يكونُ ذلكَ إلَّا ممَّنْ كمُلَتْ مَعرفتُهُ بِمَولَاهُ، وأعرضَ بقلبِهِ عمَّنْ سِواهُ، وَتَوالَتْ نِعَمُ ربِّهِ عليهِ فِي أعمالِ دنيَاهُ وأُخْرَاهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «**سَمِعْتُ مَنْصُورًا المَغْرِبِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: قَالَ لِي أَبُو سَهْلٍ الخَشَّابُ الكَبِيرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَقْرٌ وَذُلٌّ؟ فَقُلْتُ لَهُ: بَلْ فَقْرٌ وَعِزٌّ، فَقَالَ: فَقْرٌ وَثَرًى، فَقُلْتُ: لَا، بَلْ فَقْرٌ وَعَرْشٌ**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَانِ الرَّجلانِ يتكلَّمانِ في شرفِ حالِ الفقيرِ، فقالَ بعضُهُمْ: فقرٌ إلى اللهِ يصحبُهُ ذلٌّ لهُ، فأجابَهُ الثَّانِي: بلْ فقرٌ إلى اللهِ يصحبُهُ عزٌّ بهِ، فأجابَهُ الثَّانِي: فقرٌ وثرًى، أيْ: وتواضعٌ ونُزُولٌ إلى الأرضِ، فأجابَهُ: لَا، بَلْ فقرٌ وارتفاعٌ إلى العرشِ باللهِ وبكرامتِهِ، ومَا وصلَ العَبْدُ إليهِ مِنْ تقريبِهِ إليهِ ودرجتِهِ، وكلاهُمَا على حقٍّ، إلَّا أنَّ أحدَهُمَا أكملُ همَّةً منَ الثَّانِي[5]؛ وهوَ الَّذِي تمسَّكَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٧٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٥.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٦٤، ومدارج السالكين ٢/٤٤١.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٥.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٧٨.

بالعزِّ وعُلُوِّ الهمَّةِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ [٢/٢٣٦أ]، ويَعْضُدُهُ قَوْلُهُ ـ تعالَىٰ ـ: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨].

* **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: وَسُئِلَ عَنْ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(كَادَ الفقرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا)[٢]، فَقُلْتُ: آفَةُ الشَّيْءِ وَضِدِّهِ[٣] عَلَىٰ حَسَبِ فَضِيلَتِهِ وَقَدْرِهِ، فَكُلَّمَا كَانَ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلَ فَضِدُّهُ وَآفَتُهُ أَنْقَصُ؛ كَالإِيمَانِ، لَمَّا كَانَ أَشْرَفَ الخِصَالِ كَانَ ضِدُّهُ الكُفْرَ، فَلَمَّا كَانَ الخَطَرُ عَلَىٰ الفَقْرِ الكُفْرَ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ أَشْرَفُ الأَوْصَافِ**».

* **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلتُ: ومقصودُهُ بهذَا القولِ والتَّفسيرِ بيانُ فضيلةِ الفقرِ في نفسِهِ ودرجتِهِ ودرجةِ المتَّصفِ بهِ، وذلكَ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**كادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا**»، و(كادَ) بمعنَىٰ: (قَرُبَ)، فلمَّا سُئِلَ عنهُ هذَا الإمامُ أجابَ بأنْ قالَ: «**تُعرَفُ فضيلةُ الشَّيءِ وعلوُّ درجتِهِ بِنُزُولِ قَدْرِ ضِدِّهِ**»، واستدلَّ علىٰ ذلكَ بأنَّ الإيمانَ لمَّا كانَ أصلًا في جملةِ الطَّاعاتِ، وأفضلِهَا عندَ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ كانَ ضدُّهُ الكفرَ، وأخذَ يتلقَّىٰ مِنْ قولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا**» أنَّ ضدَّ الفقرِ قَرُبَ أنْ يكونَ كفرًا، وهذَا ضدُّ الفقرِ إلىٰ اللهِ أنْ يكونَ كفرًا باللهِ، أيْ: تغطيةً للحقِّ؛ إذْ لا فاعلَ سواهُ، دلَّ ذلكَ علىٰ شرفِ الفقرِ إلىٰ اللهِ.

والصَّحيحُ أنَّ الفقرَ يطلقُ على الفقرِ إلىٰ اللهِ، والفقرِ لغيرِ اللهِ؛ فالفقرُ لغيرِ اللهِ هوَ الَّذِي كادَ أنْ يكونَ كفرًا؛ لأنَّهُ افتقرَ لمَنْ لَا يملكُ شيئًا معَ إيمانِهِ بأنَّهُ لا فاعلَ إلَّا اللهُ، وبهذَا الاعتبارِ كادَ فقرُهُ إلىٰ غيرِ اللهِ أنْ يكونَ كفرًا للهِ، ومِنْ هذا

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٥ ـ ٤٣٦.

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء ص٣٢٠، وأبو نعيم في الحلية ٥٣/٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٦٧/٥.

(٣) في (ف): ضده.

الفقرِ استعاذَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]، وكيفَ يستعيذُ ممَّا يسألُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ «أنْ يُحيِيَهُ مسكينًا، ويُميتَهُ مسكينًا، ويحشرَهُ في زُمرةِ المساكينِ»[(٢)]؟! وهذَا هوَ الفقرُ المحمودُ الَّذِي يسبقُ أهلهُ إلَىٰ الجنَّةِ قبلَ الأغنياءِ، والفقرُ المذمومُ هوَ الَّذِي استعاذَ منهُ؛ وهوَ الفقرُ المنشِئُ المُشغلُ عنِ العملِ للهِ والدَّارِ الآخرةِ، فعلَىٰ هذَا إنَّمَا اشتركَ الفقرانِ في اسمِ الفقرِ خاصَّةً، والَّذِي كادَ أنْ يكونَ كفرًا ليسَ هوَ المحمودَ المُثنَىٰ عليهِ شَرْعًا.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ الهَرَوِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ المُرْتَعِشَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[(٤)]: إِذَا لَقِيتَ الفَقِيرَ فَالْقَهُ بِرِفْقٍ، وَلَا تَلْقَهُ بِالعِلْمِ، فَإِنَّ الرِّفْقَ يُؤْنِسُهُ، وَالعِلْمَ يُوحِشُهُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا القَاسِمِ، وَهَلْ يَكُونُ فَقِيرٌ يُوحِشُهُ العِلْمُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ [٢/٢٣٦ب] الفَقِيرُ إِذَا كَانَ صَادِقًا فِي فَقْرِهِ، فَطَرَحْتَ عَلَيْهِ عِلْمَكَ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ عَلَىٰ النَّارِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا كلامٌ بالغٌ فِي النُّصْحِ؛ وذلكَ أي الفقراء الغَالِبُ عليهِمُ الأحوالُ الَّتِي تُثْمِرُهَا العلومُ والأعمالُ، فربَّمَا دَلَّ ظاهرُ الفقيرِ علىٰ ما يستنكرُ، فإنْ رفقَ بهِ مَنْ يَرَاهُ، وتلطَّفَ في سُؤالِهِ عنهُ أظهرَ لكَ ما هوَ فيهِ وأبدَاهُ، وزالَ عن قلبِهِ وعنهُ ما يخشَاهُ، وإنْ سبقَ لهُ السُّؤالُ والاعتراضُ بالعلمِ لمْ يحملْهُ قلبُهُ؛ لِغَلَبَةِ حَالِهِ عَلَىٰ وَقْتِهِ[(٥)]، وربَّمَا زادَ تغيُّرُهُ وقلَّ الانتفاعُ بهِ، وكلُّ ذلكَ منْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٥٧٧، وابن ماجه في سننه ٢/١٣٨١.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٦.

(٤) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٢٣٣، وطريق الهجرتين ص٨٧، وإتحاف السادة المتقين ١١/٦١٩.

(٥) أي: علىٰ وظيفة الوقت في العبادة وطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ. انظر: نتائج الأفكار ٣/٤٣٥.

شُؤْمِ عجلةِ الاعتراضِ عليهِ(١)، ولذلكَ قالَ للفقيرِ الصَّادقِ: «**إذَا ألقيتَ عليهِ علمَهُ ـ يعنِي علمَ حالِهِ ـ ذابَ كمَا يذوبُ الرُّصاصُ**».

ومِنْ هذا القبيلِ تركُ مُمَازَحةِ الفقيرِ؛ لأنَّ الغالبَ عليهِ الصِّدقُ، فهوَ يحملُ كلَّ ما يسألُهُ علىٰ الجدِّ، ومِنْ ذلكَ أنَّ بعضَهُمْ قالَ(٢): «لا أمازحُ فقيرًا أبدًا»؛ وذلكَ أنَّهُ دخلَ علىٰ فقيرٍ ذاتَ يومٍ، فقالَ: «يا أستاذُ، عصيدةٌ، فقلتُ: إرادةٌ وعصيدةٌ؟! أيْ: إرادةٌ وشهوةٌ، قالَ: فولَّىٰ عنِّي وهوَ يقولُ: إرادةٌ وعصيدةٌ، ودخلَ الصَّحراءَ، فما زالَ يقولُهَا حتَّىٰ ماتَ».

وهذَا الفقيرُ ـ واللهُ أعلمُ ـ كانَ قدْ تقدَّمَ لهُ جوعٌ شديدٌ، حتَّىٰ لوْ وجدَ خبزًا أوْ شيئًا خشنًا تعذَّرَ عليهِ أكْلُهُ، فمالَ إلىٰ بعضِ المشايخِ ممَّنْ يرجُو عونَهُ علىٰ حَالِهِ، وعرضَ لهُ بذِكْرِ العصيدةِ ليتداوَىٰ بهَا، فكلَّمَهُ الشَّيخُ بمقامِ المُريدِينَ، أيْ: إرادةٌ وشهوةٌ لا يناسِبُ، فسمعَ الفقيرُ، وأخذَهَا عبرةً ومضَىٰ علىٰ وَجْهِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُظَفَّرًا القِرْمِيْسِنِيَّ يَقُولُ(٤): الفَقِيرُ: هُوَ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ حَاجَةٌ.**

قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ ـ رَحِمَهُ اللهِ عَلَيْهِ ـ: وَهَذَا اللَّفْظُ فِيهِ أَدْنَىٰ غُمُوضٍ لِمَنْ سَمِعَهُ عَلَىٰ وَجْهِ الغَفْلَةِ عَنْ مَرمَىٰ القَوْمِ، وَإِنَّمَا أَشَارَ قَائِلُهُ إِلَىٰ سُقُوطِ المُطَالَبَاتِ(٥)، وَانْتِفَاءِ الاخْتِيَارِ، وَالرِّضَا بِمَا يُجْرِيهِ الحَقُّ ـ سبحانه ـ».

---

(١) أي: العجلة بالعلم من شؤم الاعتراض.

(٢) قول ممشاذ الدينوري، وقد سبق تخريجه.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٦.

(٤) ورد قوله في: عوارف المعارف ص٩٧.

(٥) أي: التي تخلو عن شاهد العلم. انظر: نتائج الأفكار ٣/٤٣٥.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذهِ الألفاظُ هيَ الَّتي يعبَّرُ عنهَا بـ«الشَّطْحِ»(١)، وإنَّمَا تجرِي منَ القومِ في وقتِ غلبةِ الأحوالِ، والحفظُ عنهَا أكملُ، فإنَّ حقيقةَ الفقرِ هوَ الاحتياجُ إلىٰ اللهِ لا إلَىٰ غيرِهِ، وإذَا أطلقَ المطلقُ [٢/١٢٣٧أ] الَّذِي ليسَ لهُ إلىٰ اللهِ حاجةٌ فلا يخلُو: إمَّا أنْ يكونَ مستغنيًا الغنَاء المطلَق عنِ الاحتياجِ، وذلكَ وصفُ الإلهِ عَزَّوَجَلَّ، وفي نسبتِهِ إلىٰ العبدِ ما فيهِ. وقَدْ يكونُ محتاجًا لغيرِ اللهِ، ففِي نُزُولِ هذهِ الدَّرجةِ والنَّقصِ ما يَكْفِيهِ.

وإنَّمَا أرادَ الأستاذُ الإمامُ أنْ يبيِّنَ مرادَ المطلقِ حتَّىٰ لا يردَ عليهِ هذهِ الشُّرورُ، ونبَّهَ علىٰ مرادِهِ لمَا فيهِ منَ الغموضِ؛ وذلكَ أنَّ الفقيرَ الصَّادقَ هوَ مَنْ علِمَ أنَّ احتياجَهُ كلَّهُ في سائرِ ما هوَ فيهِ مِنْ قَلْبِهِ وَجَوارِحِهِ وأعمالِ دنياهُ وآخرتِه إنَّمَا هوَ بيدِ الحقِّ ـ سبحانه ـ، فإذَا تحقَّقَ عِلْمُهُ بذلِكَ وافتقرَ إليهِ، ثمَّ رأىٰ تَوالِي نعمِهِ عليهِ، وحفظَهُ لهُ في سَائِرِ ما هوَ فيهِ، فالَّذِي يمنعُهُ منَ الاحتياجِ تَوالِي نِعَمِ مَولاهُ عليهِ، وكِفَايتُهُ لهُ عنِ السُّؤالِ واللِّجَاجِ.

فَبِهَذَا الاعتبارِ تَقِلُّ حَاجَاتُهُ، أيْ: سُؤالُهُ فيهَا، لا افتقارُهُ إليهَا، فهوَ لا يسألُ بقلبِهِ ولا يتكلَّمُ؛ لِتَوالِي ما يمدُّهُ الحقُّ بِهِ ويُجريهِ عليهِ منَ الكفايةِ والسَّلامةِ والنِّعمِ، وهذَا الَّذِي يسكنُهُ عنِ الطَّلبِ، لَا لاستغنائِهِ عَنْ ربِّهِ بِوَجْهٍ ولا سَبَبٍ.

❊ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَقَالَ ابْنُ خَفِيفٍ**(٣): **الفَقْرُ: عَدَمُ الإِمْلَاكِ، وَالخُرُوجُ مِنْ أَحْكَامِ الصِّفَاتِ**».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «**عَدَمُ الإِمْلَاكِ**»، يعنِي: عدمَ إضافتِهَا إلىٰ

---

(١) انظر في تفسير هذا المصطلح: اللمع للطوسي ص٤٥٣، ومعجم مصطلحات الصوفية ص١٤٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٦.

(٣) ورد قوله في: بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار ص٨٦، ونفحات الأنس من حضرات القدس ١/١٨، ونور الاقتباس ص٤٤، وإتحاف السادة المتقين ١١/٦١٩.

نفسِهِ، وإنْ كانَتْ جاريةً عليهِ فضْلًا منْ ربِّهِ، وكذلكَ تركُ دعواهُ لمَا هوَ فيهِ منَ الأحوالِ والمقاماتِ الشَّريفةِ، وإضافةِ ذلكَ إلىٰ المتفضِّلِ عليهِ بهَا، فالفقيرُ لا يدَّعِي لنفسِهِ مُلْكًا عَيْنًا، ولا عرَضًا، ولا عملًا، ولا حالًا، ولا مقامًا، إذْ كلُّ ذلكَ ملكٌ لربِّهِ، وهوَ محلٌّ لجَريانِ قَدْرِهِ وَفَضْلِهِ(١).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ**(٣): **لَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ الفَقْرُ حَتَّىٰ يَكُونَ العَطَاءُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الأَخْذِ، وَلَيْسَ السَّخَاءُ أَنْ يُعْطِيَ الوَاجِدُ المُعْدَمَ، إِنَّمَا السَّخَاءُ أَنْ يُعْطِيَ المُعْدَمُ الوَاجِدَ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ مَنْ كَمُلَ فَقْرُهُ كَانَ فَرَحُهُ بِمَا يبذلُهُ إذا ملكَهُ أكثرَ منْ فرحِهِ بمَا يُؤْتَاهُ وإنْ لمْ يسألْهُ، وذلكَ أنَّ صرفَهُ لمَا يملكُهُ فيهِ الكَرَمُ والإيثار، والاتِّصافُ بأخلاقِ المقرَّبينَ والأبرار، وقبولُهُ لمَا يأخذُهُ وإنْ كانَ منْ غيرِ سُؤالٍ يحتاجُ إلىٰ شروطٍ في نفسِهِ وفيمَنْ يصلُهُ هوَ محتاجٌ إلىٰ معرفتِهَا خَوْفًا [٢/٢٣٧ب] مِنْ تَلْبيسِ نَفْسِهِ والاغترارِ، وربَّمَا أعطىٰ الدَّافعَ لوصفٍ يظنُّهُ بهِ وهوَ عارٍ عنهُ دلَّ عليهِ بعضُ كلامِهِ أو إشاراتِهِ كانَ لغيرِهِ بهِ الانخداعُ والاغترارُ، فخوفُهُ عندَ الأخذِ أولَىٰ بهِ لمَا ذكرْنَاهُ، وفرحُهُ وانشراحُهُ عندَ البَذْلِ أَحْسَنُ لمَا بيَّنَّاهُ.

وأمَّا قولُهُ: «**وليسَ السَّخاءُ أنْ يعطِيَ الواجدُ المعدمَ وعكسُهُ**»، فَمُرَادُهُ: أنَّ مَنْ أعطَىٰ بعضَ ما يملكُهُ لمَنْ يراهُ مِنْ إخوانِهِ المؤمنِينَ مُحتاجًا إليهِ فليسَ بكمالِ السَّخاءِ، وكمالُ السَّخاءِ أنَّ مَنْ كانَ بيدِهِ شيءٌ منَ الدُّنيا وهوَ محتاجٌ إليهِ، ورأىٰ بعضَ النَّاسِ محتاجًا إليهِ، وإنْ كانَ غنيًّا آثرَهُ بهِ لهوانِهِ عليهِ، والإيثارُ علىٰ هذا أتمُّ منَ السَّخاءِ؛ لأنَّ السَّخاءَ أنْ يعطِيَ العبدُ بعضَ ما يملكُ، والإيثارُ أنْ يعطِيَ العبدُ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨٠ ـ ٧٨١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٦.

(٣) نسب لأبي بكر الدقاق في: سراج الملوك ص٩٣.

جميعَ ما يملكُ.

وفِي هذَا المُوثِرِ زيادةُ وصفٍ فِي كَمَالِ السَّخَاءِ؛ وذلكَ أنَّهُ يعطِي الواجدَ وغيرَ الواجدِ، فإنَّ العبدَ إذَا رأىٰ غيرَهُ محتاجًا إلىٰ شيءٍ وهُوَ محتاجٌ إليهِ أيضًا حملَ علىٰ نفسِهِ مشقَّةَ الإخراجِ، وآثرَ المحتاجَ لحصولِ كمالِ أجرِهِ وإزالةِ الضَّررِ عَنْ أخيهِ، بخلافِ مَنْ يعطِي مَا هوَ محتاجٌ إليهِ للغنيِّ والفقيرِ ولَا يُبالِي، دَلَّ ذلكَ علىٰ كَمالِ سَخَائِهِ، وإيثارِهِ وَصَبْرِهِ وتوكُّلِهِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الوَاحِدِ بْنَ بَكْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الدُّقِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ الجَلّا يَقُولُ**[(٢)]**: لَوْلَا شَرَفُ التَّوَاضُعِ لِكَانَ حُكْمُ الفَقِيرِ إِذَا مَشَىٰ أَنْ يَتَبَخْتَرَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الشَّرعَ حبَّبَ للعبيدِ أنْ يكونَ عليهِم عَلامةُ العبوديَّةِ، والتَّذلُّلِ للهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ كلِّ حَالٍ، ولولَا ذلكَ لكانَ اللَّائقُ بهِمْ وبعزَّةِ نفوسِهِم واستغنائِهِم عَنْ غيرِ اللهِ أنْ يتبختَرُوا فِي مشيتِهِمْ تعزُّزًا بمَولاهُم، وتيهًا علىٰ عَدوِّهِمُ الشَّيطانِ غيظًا لهُ وإرغامًا واستهزاءً[(٣)]، كمَا قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَقِّ أبِي دجانةَ يومَ أُحُدٍ لمَّا أخرجَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيفَهُ وقالَ[(٤)]: «مَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ، فَتَقَدَّمَ إليهِ الزُّبيرُ بنُ العوَّامِ، فمنعَهُ إيَّاهُ، فتقدَّمَ إليهِ أبو دُجَانَةَ الأنصارِيُّ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ، ما حقُّهُ؟ قالَ: أنْ تضربَ بهِ حتَّىٰ ينْثَنِي، قالَ: فأخذَهُ أبو دجانةَ منَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخرجَ عصابةً لهُ حَمْراءَ كانَ يُخْرجُهَا يومَ البَأْسِ، فتعصَّبَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٦.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦/٩٠، وتهذيب الأسرار ص٤٦٢، والمختار من مناقب الأخيار ١/٢٣٥.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨١.

(٤) أخرجه ابن أبي إسحاق في سيرته ٣/٣٠٥، والبيهقي في دلائل النبوة ٣/٢٣٣، وأخرجه مسلم مختصرا في صحيحه ٤/١٩١٧ ـ حديث رقم (٢٤٧٠).

بهَا [٢/٢٣٨أ] ، ووقفَ كالسَّيفِ ، وتبختَرَ بينَ الصَّفَّينِ ، فقالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **إنَّها مِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ أَوْ يَكْرَهُهَا إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الوَقْتِ**[١]» .

فكذلِكَ حقيقٌ لمن أملكَهُ سِترًا له في هَواهُ ، وأعرَضَ بقلبِهِ عمَّنْ سِوَاهُ ، وافتقرَ إليهِ مُطْلقًا واستغنَىٰ بهِ لا إلهَ سِوَاهُ ؛ أنْ يتبختَرَ في نفسِهِ ليغيظَ عدوَّهُ المَرصِدَ لعداوتِهِ في دنيَاهُ ، لولَا ما أحيهُ مَوْلاهُ مِنْ تَواضعِهِ وتذلُّلِهِ لهُ في دُنياهُ .

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ[٢]: «**وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ**[٣]: **مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا مَلَكْتُ قَمِيصَيْنِ**» .

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: وهذا إشارةٌ إلىٰ التَّقلُّلِ منَ الدُّنيَا والبُعدِ عنْ زهرتِهَا ورِيَاشِهَا ، والظَّاهرُ مِنْ حالِهِ كثرةُ الخلوةِ وقلَّةُ مخالطةِ النَّاسِ ، وإلَّا فقدْ حضَّ الشَّرعُ علىٰ التَّجمُّلِ ، ولمْ يزلِ السَّادةُ والفضلاءُ يفعلُونَ ذلكَ في الأعيادِ والجُمعِ ومجامعِ المسلمِينَ وإقامةِ أبَّهةِ العلمِ .

ويدلُّ أيضًا علىٰ الصِّحَّةِ فِي جسدِهِ ، واستواءِ حالِهِ في الصَّيفِ والشِّتاءِ ، وقَدْ يكونُ ممَّنْ يقتدَىٰ بهِ ويقتصُّ آثارُهُ فيفعلُ ذلكَ المقتدِي بهِ النَّاسُ ، كمَا حُكِيَ[٤] أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ خطبَ وعليهِ مُرَقَّعَةٌ فيهَا أحدَ عشرَ رقعةً بعضُهَا مِنْ أدمٍ ، وكذلِكَ غيرُهُ منَ العلماءِ بلغَهُ أنَّ بعضَ النَّاسِ يتخلَّفُ عنِ الجمعةِ لعدمِ الثِّيابِ ، فاشتملَ بشملةٍ وأتَىٰ إلىٰ الجمعةِ وصلَّىٰ بالنَّاسِ .

وعلَىٰ الجملةِ ، فالتَّقلُّلُ منَ الدُّنيَا معَ الإمكانِ والسَّلامةُ منَ الإخلالِ بشيءٍ

---

(١) لأن فيها دليل على عدم الاكتراث بالعدو . انظر : السيرة الحلبية ٢/٤٩٧ .

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٦ .

(٣) ورد قوله في : صفة الصفوة ٤/٢٦٣ ، ونور الاقتباس ص٤٥ .

(٤) وردت حكايته في : ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ٢/٢١ .

منَ الدِّينِ أَوْلَىٰ وأفضلُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَقَالَ بَعْضُهُمْ(٢): رَأَيْتُ كَأَنَّ القِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ، فيقالُ: أَدْخِلُوا مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ وَمُحَمَّدَ بْنَ وَاسِعٍ الجَنَّةَ، فَنَظَرْتُ أَيُّهُمَا يَتَقَدَّمُ؟ فَتَقَدَّمَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ، فَسَأَلْتُ عَنْ سَبَبِ تَقَدُّمِهِ، فَقِيلَ لِي: إِنَّهُ كَانَ لَهُ قَمِيصٌ وَاحِدٌ، وَلِمَالِكٍ قَمِيصَانِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ المناماتُ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ إِنَّمَا تكونُ للبُشْرَىٰ والإنذارِ، والتَّحريضِ علىٰ الخيراتِ، والزَّجرِ عنِ المنقصاتِ، فمتَىٰ رأَىٰ الإنسانُ في منامِهِ بعضَ المتورِّعينَ الفضلاءَ في زمانِهِ ممَّنْ ماتَ إلىٰ رحمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فسألَهُ ما الَّذي وجدَ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؟ فقالَ لهُ: السَّاعةَ كمَا تخلَّصتُ منَ الحسابِ، ففِي هذَا زجرٌ وتنبيهٌ لهذَا الرَّأيِ ليسلكَ طريقَ الورعِ والاجتهادِ؛ ليتخلَّصَ ممَّا هوَ فيهِ، ويتخلَّصَ ممَّا عليهِ منْ حقوقِ ربِّهِ وحقوقِ العبادِ، وكذلِكَ إذَا كانَ كثيرَ الاجتهادِ [٢/٢٣٨ب]، وعاملًا فِي الطَّاعاتِ المندوباتِ، قدْ قوِيَ خوفُهُ علىٰ رجائِهِ مِمَّا وقعَ فيه مِنَ الإجرامِ، واكتسبَهُ منَ الآثامِ، فيري الملكُ فِي منامِهِ رجلًا كانَ مما جَرَىٰ منهُ بعضِ الزَّللِ والتَّخليطِ والمسامحةِ فيمَا للهِ عليهِ والتَّفريط وقَدْ ماتَ، فيقول لهُ: ماذَا لقيتَ منَ اللهِ؟ فيقولُ: غفَرَ لِي ورحمَنِي وعفَا عنِّي [بذلك](٣).

فهذِهِ الرُّؤيَا تنبيهٌ لهذَا الرَّائي ليسكنَ خوفُهُ، ويعتدلَ رجاؤُهُ؛ لئلَّا يصلَ إلىٰ القنوطِ منْ رحمةِ اللهِ، فعلَىٰ هذَا ونحوِهِ تكونُ المرائِي فِي أغلبِ الحالِ.

وقَدْ تكونُ المَرائِي تكاشِفُهُ صَريحًا منْ غيرِ مثالٍ، فيرَىٰ الإنسانُ فِي ليلةٍ شيئًا

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٧.

(٢) ورد في: الزهد والرقائق ص١٠٣، والإرشاد والتطريز ص٦٦، وإتحاف السادة المتقين ٦١٩/١١.

(٣) طمس موضعها بالأصل، فلعلها كذلك.

يخرجُ في يقظتِهِ، كمَا رآهُ منْ غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ، ولا يحتاجُ إلىٰ تغييرٍ، وكانَ محمَّدُ بنُ واسعٍ منْ أشدِّ النَّاسِ فِي الورعِ والاجتهادِ، وكانَ لا يقبلُ مِنْ أحدٍ شيئًا؛ لكمالِ ورعِهِ وحذرِهِ علىٰ نفسِهِ.

وحُكِيَ(١) أنَّ بعضَ الأمراءِ أجازَ طوائفَ منَ الصَّالحينَ بجوائِزَ، فلمْ يقبلْهَا محمَّدُ بنُ واسعٍ، وقبلَ ما أجازَهُ بهِ مالكُ بنُ دينارٍ إلَّا أنَّهُ فرَّقَهُ علىٰ الفقراءِ والمساكينِ، ولمْ يأخذْ لنفسِهِ منهُ شيئًا، فأتاهُ محمَّدُ بنُ واسعٍ فقالَ لهُ: أقَبِلْتَ جائزتَهُ يا أبَا بكرٍ؟ قالَ لهُ: اسأَلْ جلسائِي ما صنعتُ بهَا؟ فلمَّا أُخْبِرَ بمَا صَنَعَ، قالَ محمَّدُ بنُ واسعٍ لمالكِ بنْ دينارٍ، أنشدُكَ اللهَ أقلبُكَ لهُ الآنَ مثلَ ما كانَ قبلَ أنْ يُجيزَكَ؟ فقالَ لهُ مالكٌ: لَا، قالَ لهُ محمَّدُ بنُ واسعٍ: انظُرْ ممَّا الَّذِي دخلَ عليكَ فِي محبَّةِ مَنْ لا تصلُحُ محبَّتُهُ، فقالَ مالكٌ عندَ ذلكَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنَّمَا مَالكٌ حمارٌ، إنَّمَا يعبدُ اللهَ مثلُ محمَّدِ بنِ واسعٍ».

فتكونُ فائدةُ الرُّؤيَا تقديمَ حالةِ محمَّدِ بنِ واسعٍ عندَ الرَّائِي علىٰ غيرِهِ حتَّىٰ يقتدِيَ بهِ مطلقًا، ومِنْ شرَفِ أحوالِهِ تقلُّلُهُ مِنَ الدُّنيَا حتَّىٰ لمْ يكنْ عندَهُ إلَّا قميصٌ واحدٌ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): **«وَقَالَ مُحَمَّدُ المُسُوحِيُّ(٣): الفَقِيرُ: الَّذِي لَا يَرَىٰ لِنَفْسِهِ حَاجَةً إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ الأَسْبَابِ»**.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا يمكنُ أنْ يكونَ أوردَهُ أدبًا لبعضِ الأصحابِ ممَّنْ يدَّعِي الفقرَ الكاملَ، وينطلقُ بلسانِهِ أنَّهُ محتاجٌ إلىٰ كذَا وكذَا منَ الأسبابِ،

---

(١) وردت الحكاية في: تاريخ دمشق ٥٦/١٥٦، وصفة الصفوة ٣/٢٦٩، والمنتظم ٧/٢٠٥، وسير أعلام النبلاء ٦/١٢٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٧.

(٣) ورد قوله في: نور الاقتباس ص٤٥، وإتحاف السادة المتقين ١١/٦١٩.

فيكونَ جَوَابُهُ منزَّلًا علىٰ ما نسمعُهُ، وإلَّا فالفقيرُ الصَّادقُ هوَ[1] المستغنِي عنْ غيرِ اللهِ مطلقًا حتَّىٰ عنْ نفسِهِ وأعمالِهِ وأحوالِهِ، بَلْ يكونُ فقيرًا لفضلِ [٢/٢٣٩أ] ربِّهِ في الدُّنيَا والآخرة.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَسُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[3]: مَتَىٰ يَسْتَرِيحُ الفَقِيرُ؟ فَقَالَ: إِذَا لَمْ يَرَ لِنَفْسِهِ غَيْرَ الوَقْتِ الَّذِي هُوَ فِيهِ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا كلامٌ بالغٌ جدًّا، فإنَّ الفقيرَ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ مطلقًا لا إلىٰ غيرِهِ قَدْ تتعلَّقُ آمالُهُ بأمورٍ في المستقبلِ ويرجُو حصولَهَا، وهذَا عندَهُ في فقرِهِ طولُ أملٍ، ومتَىٰ اجتمعَ فقرُهُ إلىٰ اللهِ معَ قصرِ أملِهِ أعمرَ وقتَهُ بأكملِ الحَالِ، وسلِمَ وقتُهُ منْ خَواطرِ الالتفاتِ إلىٰ ماضِي حالِهِ والاستقبالِ، ولهذَا كانَ الفقيرُ والصُّوفِيُّ ابنَ وقتِهِ لا لَهُ التفاتٌ إلىٰ ماضِي وقتِهِ ولا استقبال.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «**وَتَذَاكَرُوا عِنْدَ يَحْيَىٰ بْنِ مُعَاذٍ الفَقْرَ وَالغِنَىٰ، فَقَالَ[5]: لَا يُوزَنُ غَدًا لَا الفَقْرُ وَلَا الغِنَىٰ، وَإِنَّمَا يُوزَنُ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ، فَيُقَالُ: تصبر وتشكر[6]**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ نظرٌ؛ فإنَّ الصَّبْرَ إنَّمَا يكونُ علىٰ ما ينزلُ منَ البلاءِ والفقرِ الجَبْرِيِّ، وكذلِكَ الشُّكرُ يكونُ علىٰ ما يردُ منَ النَّعماءِ والغِنَىٰ

---

(١) في (أ): وهو، والأصح المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٧.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/١٩٣، والفتوة للسلمي ص٥١، ومدارج السالكين ٢/٤٤١.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٧.

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢٧٩، ولفظه: «فتعالوا نشكر ونصبر»، وكذا في: تهذيب الأسرار ص١٦٥.

(٦) أي: تصبر علىٰ البلايا، وتشكر علىٰ النعم.

الغَريزيِّ بِميرَاثٍ أوْ غيرِهِ، وإنَّمَا إذا فُرِضَ الكلامُ فِي أيِّ الحالَينِ أفضلُ للعبيدِ أنْ يتخلَّقُوا بِهِ ويكتسبوهُ طلبًا لرِضَى الملكِ المجيدِ، هلْ ملازمتُهُمْ للفقرِ وتركُ اكتسابِ الأموالِ للتَّفرُّغِ للمناجاةِ ووجودِ الرَّاحاتِ والسَّلامةِ من آفاتِ الأعمالِ وأسبابِ العَذَابِ، والتَّخَلُّص من السُّؤالِ والحِسَاب فِي المآبِ، أوْ كسبُ الأموالِ بالجهاتِ المشروعةِ الجائزةِ، وصرفُ ما يحصلُ في جهةِ البرِّ والطَّاعاتِ وأنواعِ القُربِ والمُواسَاةِ، ونيلِ الأعمالِ المتعدِّياتِ؟ هذَا ترجيحٌ في الأعمالِ أنَّهَا أفضلُ عندَ الكبيرِ المتعالِ، وإذَا كانَ كذلِكَ والأعمالُ هيَ الَّتِي تُوزَنُ، يعنِي هذِهِ المكتسبات، وأمَّا ما ذكرَهُ منَ الفقرِ والغنَى الخَنْدَمَى[١]، فالعبدُ مأمورٌ بالصَّبرِ علَى المؤلِمِ والشُّكرِ علَى الموافقِ، وقَدْ ينتقلُ العبدُ في المؤلِمِ حتَّى يَرَاهُ نعمةً باعتبارِ ما يترتَّبُ عليهِ، فيشكرُ علَى البلاءِ، وقدْ يغفلُ العبدُ عنْ تَوَالِي النِّعمِ عليهِ عنِ الشُّكرِ، فَيُعْجَبُ بمَا هُوَ فيهِ ويذلُّ علَى ربِّهِ، فتكونُ نعمُهُ سببًا للهلاكِ والبلاءِ، واللهُ المسئولُ فِي الحفظِ منَ الزَّلَلِ فِي [٢/٢٣٩ب] القولِ والعملِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَقِيلَ[٣]: أَوْحَى اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَى بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ** عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: **إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تعرِفَ رِضَايَ عَنْكَ فانظرْ كَيْفَ رِضَا الفُقَرَاءِ عَنْكَ»**.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَى أنَّهُ شديدُ التَّواضعِ في نفسِهِ، كثيرُ الخدمةِ للفقراءِ، عديمُ التَّكبُّرِ عليهِمْ، والأَنَفَةِ مِنْ وصلِهِمْ، واللهُ ـ تعالَى ـ يحبُّ هذِهِ الصِّفةَ منَ العبيدِ، فإنَّ أحبَّ الخلقِ إلَى اللهِ ـ تعالَى ـ أنفعُهُمْ لعبيدِهِ[٤]، فإذَا

---

(١) من الخندمة، وهو كناية عن العظيم، ففي المجموع المغيث ١/٦٢٢: «إنَّه لأعظَمُ في عينَيَّ من الخَنْدَمة». قال ابن منظور: «قَالَ أَبو مُوسَى: أَظنه جبَلًا، قَالَ ابْنُ الأَثير: هُوَ جبَلٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَ مَكَّةَ؛ قَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ: كَانَتْ بِهِ وَقْعَةٌ يَوْمَ فَتحِ مَكَّةَ، وَمِنْهُ يَوْمُ الخَنْدَمَةِ» اللسان (خ ن د م).

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٧.

(٣) ورد في: إتحاف السادة المتقين ١١/٦١٩.

(٤) كما في المعجم الأوسط للطبراني ٦/١٣٩: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أحب الناس إلى الله=

كانَ العبدُ كذلِكَ دلَّ على أنَّ أحوالَهُ مرضيَّةٌ للهِ ـ تعالى ـ، وهوَ عنهُ راضٍ.

وجهٌ آخرُ منَ الأدلَّةِ؛ وذلكَ أنَّ العبدَ إذْ خلقَ اللهُ لهُ هذِهِ الأفعالَ وحبَّبَ إليهِ خدمةَ المحتاجِينَ والفقراءِ وصِلَتَهُمْ والكينونةَ بينَهُمْ دلَّ علَى أنَّهُ رضِيَ عنهُ، يدلُّ على ذلِكَ خلقُهُ لهُ ما يُرضيهِ عنهُ، ولذلِكَ قالَ بعضُ الفقراءِ لشيخِهِ: «يَا أستاذُ، هَلْ أعلمُ[١] أنَّ اللهَ راضٍ عنِّي؟ قالَ لهُ: وكيفَ ذلكَ، ورضاهُ غيبٌ؟ فقالَ لهُ التِّلميذُ: نعَمْ يعلمُ ذلكَ، قالَ لهُ: كيفَ؟ قالَ: إذَا وجدْتُ نفسِي راضِيًا عنِ اللهِ علِمْتُ أنَّ اللهَ راضٍ عنِّي».

استدلَّ بالواقعِ الَّذِي خلقَهُ لهُ منَ الرِّضَا بأنَّهُ راضٍ عنهُ؛ إذْ لَوْ لَمْ يكنْ راضيًا عنهُ لخلقَ لهُ ضدَّهُ، وشرطُ هذا الدَّليلِ أنْ يكونَ رضاهُ بمَا يَرْضَاهُ اللهُ، ممَّا أمرَ بهِ أوْ ندبَ إليهِ أوْ أباحَهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَقَالَ الزَّقَّاقُ[٣]: مَنْ لَمْ يَصْحَبْهُ التُّقَى فِي فَقْرِهِ أَكَلَ الحَرَامَ المَحْضَ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، وقَدْ غلبَ هذَا على زمانِكَ، يقولُ بعضُهُمْ[٤]: «الفَقْرُ بَحْرٌ لَا يُكَدِّرُهُ شَيْءٌ»، ويقولُ بعضُهُمْ[٥]: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا دَمًا عَبِيطًا لَكَانَ قُوتُ المُؤْمِنِ مِنْهَا حَلَالًا»، ويقبلُونَ الأموالَ منَ الظَّلمةِ والغصَبَةِ

= أنفعهم للناس...».

(١) أي: كيف أعلم؟

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٧.

(٣) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٢٣٢، وطبقات الأولياء ص٩١، وحسن المحاضرة ١/٥١٢.

(٤) ورد عن الشبلي نحوه في: تفسير السلمي ٢/١٥٩.

(٥) نسب لسهل التستري في: إحياء علوم الدين ٣/٩٠. وفي كشف الخفاء ٢/٢٠٨: «معناه صحيح، فإن الله لم يحرم على المؤمن ما يضطر إليه من غير معصية».

والمُرائِينَ، ومَنْ يفعلُ الأفعالَ المحرَّمةَ؛ كتلبيسِهِ فِي المعاملاتِ، والعقودِ الفاسدةِ، والعيوبِ المستورةِ، ممَّا يُعْلَمُ حالُ مُتَعاطِيهَا، وإذَا أُتيَ بمالٍ يَقبلُ منه يَبْنِي علىٰ أنَّهُ يأخذُ قوتَهُ ولا يلتفتُ، وهذَا يصحُّ بشرطَينِ:

أحدُهُمَا: ـ والعياذُ باللهِ ـ أنْ يُطبقَ الحرامُ الأرضَ ولَا يجدُ الإنسانُ للحلالِ سبيلًا، وعلَىٰ هذَا يُحملُ: لَوْ كانَتِ الدُّنيَا دمًا عبيطًا، ومَا كانَتْ.

الوجهُ الثَّانِي: أنْ يكونَ العبدُ جاهلًا بأحوالِ النَّاسِ، قليلَ الخُلطةِ لهُمْ، لا يعرفُ شيئًا منْ تصرُّفاتِهِمْ [٢/٢٤٠أ]، [فكذَا الثَّانِي بَنَىٰ][(١)] علىٰ يدِ مسلمٍ حَسُنَ ظنُّهُ بهِ، وقَبِلَ مِنْهُ وإلَّا بعدَ العلمِ [لبَّس الأمر فَيَرَىٰ][(٢)] تصرُّفَ النَّاسِ فِي الرِّبويَّاتِ وفسادَ المعاملاتِ وبيعَ غلاقِ الكروم قبلَ أوانِهَا، وكثرةَ الظُّلمِ والمكوسِ الملبَّسةِ باسمِ الزَّكوات وغيرَ ذلك من الآفاتِ، فلا يصحُّ لهُ دعوَاهُ، وعليهِ التَّثبُّتُ فيمَا يأخُذُهُ ووجوبُ ذلكَ عليهِ فِي تَقْوَاهُ.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **«وَقِيلَ[(٤)]: كَانَ الفُقَرَاءُ فِي مَجْلِسِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ كَأَنَّهُمُ الأُمَرَاءُ»**.

※ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولَمْ يكنْ ذلكَ عَنْ عزَّةٍ وكِبْرٍ، وإنَّمَا كانَ ذلكَ لمَا هُمْ عليهِ منَ الزُّهدِ والإعراضِ عنِ الدُّنيَا، وعدمِ القدرِ والوزنِ في قلوبِهِمْ لهَا، فكانَ سفيانُ الثَّوريُّ منَ العلماءِ العارفِينَ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وأحكامِهِ وصفاتِ مَنْ شرُفَ

---

(١) طمس في الأصل بمقدار ثلاث كلمات، فلعلها كذلك.

(٢) طمس في الأصل بمقدار ثلاث كلمات، فلعلها كذلك.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٧.

(٤) نسب لحفص بن غياث في: حلية الأولياء ٨/٣٤٩، وليحيىٰ بن اليمان في: تاريخ دمشق ٣٧/٩٣، والمجالسة وجواهر العلم ص٤٩٦، وتبيين كذب المفتري ١/٢٣٤، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٥/٢٢٣.

عندَهُ وتعظيمِ قدرِهِ لديهِ، مَنْ أتاهُ منْ هذا القبيلِ زائرًا أوْ لحاجةٍ أنزلَهُ منزلتَهُ، وعرَفَ فضلَهُ ودرجتَهُ بخلافِ بعضِ العلماءِ ممَّنْ لَمْ يَصِلْ إلىٰ هذَا الحدِّ مِنَ المعرفةِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وحقارةِ الدُّنيَا، وشرفِ الزُّهَّادِ فيهَا عندَ اللهِ إنَّمَا يشرفُ فِي مجلسِهِ مَنْ لهُ حرمةٌ وهيئةٌ وجاهٌ، وذلكَ لأحدِ أمرَينِ: إمَّا لغلبةِ حالِ الدُّنيَا علىٰ قلبِهِ وحالِ أهلِهَا، حتَّىٰ عظَّمَهُمْ لعظمتِهِ عندَهُ. أوْ لضعفِ نفسِهِ وعجزِهِ عَنْ أَنْ يُنَبِّهَهُمْ علَىٰ ما هوَ أرفعُ لهُمْ عندَ اللهِ، وهوَ أحسنُ ممَّا عليهِ؛ ليحقِّرُوا أنفسَهُمْ ويعرفُوا الفضْلَ لغيرِهِمْ عليهِمْ ممَّنْ زهدَ في الدُّنيَا وتقلَّلَ منهَا، ومِنْ ذلكَ ما جرَىٰ لكفَّارِ قريشٍ لمَّا أحبُّوا أنْ يكونَ لهُمْ يومٌ وللفقراءِ يومٌ، وأرادَ النَّبيُّ ﷺ أنْ يتألَّفَهُمْ لذلِكَ ليسلمُوا ومَنْ وراءَهُمْ، فأبَىٰ اللهُ ذلكَ وأمرَهُ بتقريبِ الفقراءِ وإكرامِهِمْ، وأنْ يَدَعَ مَنْ أغفلَ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١) [الكهف: ٢٩].

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ(٣): سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ الفَرَّاءَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ طَاهِرٍ يَقُولُ: مِنْ حُكْمِ الفَقِيرِ أَلَّا يَكُونَ لَهُ رَغْبَةٌ، فَإِنْ كَانَ [لَهُ رَغْبَةٌ](٤) وَلا بُدَّ فَلَا تُجَاوِزُ رَغْبَتُهُ كِفَايَتَهُ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ كانَ فقرُهُ اختيارًا [٢/١٤٠ب] وزُهْدًا، لا قهرًا وعجزًا، لَمْ يَكُنْ لهُ رغبةٌ في الدُّنيَا بالكلِّيَّةِ لازمَ تركهَا اختيارًا، وأعرضَ عنهَا زهدًا وقلَّةَ رغبةٍ معَ تَمَكُّنِهِ مِنْ تحصيلِهَا بأسبابِهَا، فإنْ كانَتْ لهُ رغبةٌ

---

(١) انظر: الدر المنثور ٥/٣٨٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٧.

(٣) طبقات الصوفية ص٢٩٧، وورد أيضا في: شعب الإيمان ٣/٢٧٥، والتدوين في أخبار قزوين ٣/٢٢٩، ومدارج السالكين ٢/٤٤١، وطبقات الأولياء ص٢١٧.

(٤) زيادة من (ف).

ولا بُدَّ، فلَا تجاوزُ رغبتُه كفايتَهُ؛ لا يطلبُ فُضولا، فإنَّ الزُّهدَ هوَ الإعراضُ عَنِ الفُضُولِ وقلَّةُ الرَّغبةِ فيهِ(١)، وأمَّا مَا جَعلَهُ الشَّرْع حَقَّهُ؛ منْ بيتٍ يكنُّهُ، وثَوْبٍ يُوارِي عَوْرَتَهُ وقُوتٍ يَكْفِيه(٢)، فَرَغْبَتُهُ لا تَضُرُّهُ فيهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَأَنْشَدَنِي الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَنْشَدَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ العَلَاءِ قَالَ: أَنْشَدَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَطَاءٍ لِبَعْضِهِمْ(٤):

قَالُوا غَدًا العِيدُ مَاذَا أَنْتَ لَابِسُهُ؟ ❊ فَقُلْتُ: خِلْعَةُ سَاقٍ حُبَّهُ جُرَعَا
فَقْرٌ وَصَبْرٌ هُمَا ثَوْبَايَ تَحْتَهُمَا ❊ قَلْبٌ يَرَىٰ إِلْفَهُ الأَعْيَادَ وَالجُمُعَا
أَحْرَىٰ المَلَابِسِ أَنْ تَلْقَىٰ الحَبِيبَ بِهِ ❊ يَوْمَ التَّزَاوُرِ فِي الثَّوبِ الَّذِي خَلَعَا
فَالدَّهْرُ لِي مَأْتَمٌ إِنْ غِبْتَ يَا أَمَلِي ❊ وَالعِيدُ مَا كُنْتَ لِي مَرْأَىٰ وَمُسْتَمَعَا

وَقِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الأَبْيَاتَ لِأَبِي عَلِيٍّ الرّوذبارِيِّ.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ المِصْرِيُّ(٥): وَقَدْ سُئِلَ مَنِ الفَقِيرُ الصَّادِقُ؟ فَقَالَ: الَّذِي لَا يَمْلِكُ وَلَا يُمْلَكُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معناهُ: كونُهُ «لا يَمْلِكُ» شيئًا منَ العروضِ، ولا يدَّعِي شيئًا منَ الأحوالِ والمقاماتِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨٣.

(٢) كما أشار إليه المؤلف قبل ذلك، كما في سنن الترمذي ٤/٥٧١: «ليس لابن آدمَ حَقٌّ في سِوَىٰ هذه الخِصَالِ: بَيْتٌ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٌ يُوارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفُ الخُبْزِ وَالمَاءِ».

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٧ ـ ٤٣٨.

(٤) من البسيط، وسبق تخريجها.

(٥) ورد قوله في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٢، ومدارج السالكين ٢/٤٤١، وطريق الهجرتين ص٩٠، ونور الاقتباس ص٤٥.

فأما كَوْنُهُ «لَا يُمْلكُ» مرادَهُ: ألَّا يملكَ قلبَهُ شيءٌ منَ الشَّهواتِ، ولَا يصيرَ رقًّا لشيءٍ منَ المخلوقاتِ، ولمْ يردْ أنَّهُ لا يكونُ مملوكًا للهِ ـ تعالىٰ ـ، ولذلِكَ لمَّا سُئلَ الجُنيدُ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عمَّنْ لمْ يبقَ عليهِ منَ الدُّنيَا إلَّا مصُّ نواةٍ، قالَ[١]: «المكاتبُ عبدٌ ما بقِيَ عليهِ درهمٌ»، فجعلَهُ عبدًا لشهواتِهِ، رقًّا لأعراضِهِ، وسُكُونِهِ لحسنِ حالاتِهِ، وحقيقةُ الفقرِ أنْ يفتقرَ للهِ خاصَّةً لا لغيرِهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ[٣]: دَوَامُ الفَقْرِ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ مَعَ التَّخْلِيطِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دَوَامِ الصَّفَاءِ مَعَ العُجْبِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ المخلِّطَ إذَا كان فقيرًا إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي العفوِ والمراجعةِ عمَّا هوَ عليهِ كانَ مُتعَرِّضًا للتَّوبةِ، وأمَّا مَنِ استحسنَ أحوالَهُ ومقاماتِهِ، وأضافَ ذلكَ إلىٰ نفسِهِ وحَمِدَهَا عليهِ، فقدْ وقعَ فِي [٢/٢٤١أ] العُجْبِ المُحَرَّمِ عليهِ، ورُبَّمَا جَرَّهُ ذلكَ إِلَىٰ الإدلالِ علَىٰ اللهِ، والتَّألِّي عليهِ، وشتانَ بينَ فقيرٍ متعرضٍ للنقلةِ عمَّا هوَ عليهِ، وبينَ عاصٍ مقيمٍ علَىٰ معصيتِهِ، بعيدٍ مُصِرٍّ عنهُ عمَّا هوَ عليهِ[٤].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «**سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الشِّيرَازِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الوَاحِدَ بْنَ أَحْمَدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الجَوَّالَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الحُصْرِيَّ يَقُولُ[٦]: مَكَثَ أَبُو جَعْفَرٍ الحَدَّادُ عِشْرِينَ سَنَةً يَعْمَلُ كُلَّ يَوْم بِدِينَارٍ وَيُنْفِقُهُ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ، وَيَصُومُ وَيَخْرُجُ بَيْنَ العِشَاءَيْنِ[٧] فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ مِنَ الأَبْوَابِ**».

---

(١) سبق تخريجه في «باب الرضا».

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٨.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص١٦٥، وصفة الصفوة ٤/٣١٩، وطريق الهجرتين ص٩٠.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨٤.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٨.

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٣٤٠، وتاريخ دمشق ٦٦/١١٤.

(٧) أي: بين المغرب والعشاء، فهو من باب التغليب.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يحتملُ أمرَينِ:

أحدُهُمَا: أنَّ نيّتَهُ فِي الكَسْبِ سدُّ خُلَّةِ الفقراءِ ومُسَاعَدَتُهُمْ، فأيُّ شَيءٍ اكتسبَهُ أخرجَهُ.

والثَّانِي: أنَّهُ قصيرُ الأملِ، لا يغلبُ على ظنِّهِ حياتُهُ إلى آخرِ النَّهارِ، حتَّى يؤخِّرَ بعضَ كسبِهِ لنفسِهِ، فإذَا أمسَى والغالبُ علَى مَنْ يكتسبُ ألَّا يُوصَلَ شَيءٌ لظنِّ الناس استغنَاؤهُ بكسبِهِ، فإذَا جاعَ ولمْ يفتحْ عليهِ بشيءٍ، وربَّمَا أخَّرَ ذلكَ لوقتٍ حتَّى تدعوهُ الحاجةُ إلَى الطَّعامِ فيتسبَّبَ فِي تحصيلِهِ[1]، وَهَلْ مُدِحَ بكونِهِ يَتَصَدَّقُ كُلَّ يومٍ بالدِّينارِ ولَا يَدَّخرُ لنفسِهِ منهُ شيئًا أوْ بكونه يسألُ عندَ الحَاجَةِ؟ والظَّاهرُ إنَّمَا مُدِحَ بالأوَّلِ، وسُؤالُهُ عندَ الحَاجَةِ جَائزٌ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الحُسَيْنَ بْنَ يُوسُفَ القَزْوِينِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ المُوَلِّدِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ النُّورِيَّ يَقُولُ[3]: نَعْتُ الفَقِيرِ: السُّكُونُ عِنْدَ العَدَمِ، وَالبَذْلُ وَالإِيثَارُ عِنْدَ الوُجُودِ**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الموجبَ لسكونِهِ عندَ العدمِ ثقتُهُ بالضَّمانِ، والمُوجبُ لإيثارِهِ عندَ الوجودِ تحصيلُ رِضَا الرَّحمنِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٨.

(٣) سبق تخريجه قريبا في هذا الباب.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٨.

يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الكِتَّانِيَّ يَقُولُ[١]: كَانَ عِنْدَنَا بِمَكَّةَ فَتًى عَلَيهِ أَطْمَارٌ رَثَّةٌ، وَكَانَ لَا يُدَاخِلُنَا وَلَا يُجَالِسُنَا، فَوَقَعَتْ مَحَبَّتُهُ فِي قَلْبِي، فَفُتِحَ لِي بِمِائَتَي دِرْهَمٍ مِنْ وَجْهٍ حَلَالٍ، فَحَمَلْتُهَا إِلَيْهِ، وَوَضَعْتُهَا [بَيْنَ يَدَيْهِ][٢] عَلَى طَرَفِ سَجَّادَتِهِ، وَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ فُتِحَ لِي ذَلِكَ مِنْ وَجْهٍ حَلَالٍ، تَصْرِفُهُ فِي بَعْضِ [٢/٢٤١ب] أُمُورِكَ، فَنَظَرَ إِلَيَّ شَزَرًا[٣]، ثُمَّ قَالَ: اِشْتَرَيْتُ هَذِهِ الجَلْسَةَ مَعَ اللهِ ـ سبحانه ـ عَلَى الفَرَاغِ بِسَبْعِينَ أَلْفِ دِيْنَارٍ غَيْرَ الضِّيَاعِ وَالمُسْتَغَلَّاتِ مِنْهَا، تُرِيدُ أَنْ تَخْدَعَنِي عَنْهَا بِهَذِهِ؟! وَقَامَ وَبَدَّدَهَا[٤]، وَقَعَدْتُ أَلْتَقِطُ، فَمَا رَأَيْتُ كَعِزِّهِ وَرِفْعَتِهِ حِينَ مَرَّ، وَلَا كَذُلِّي[٥] حِينَ كُنْتُ أَلْتَقِطُهَا».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا أقلُّ ثمراتِ الفقرِ، والزُّهدُ فِي الدُّنيَا ألَّا يلتفتَ لمَا خرجَ عنهُ رضًا بمَا اشتغلَ بهِ فضْلًا عنْ درجاتِ قُرْبِهِ وأُنْسِهِ وكمالِ مُراقبتِهِ لربِّهِ في سائرِ حَرَكتِهِ وسُكُونِهِ، كلُّ ذلكَ مِنْ ثَمَرَاتِ فقرِهِ وفَرَاغِهِ، وكلِّ مَا يشغلُهُ عنْ ربِّهِ ـ تعالىٰ ـ؛ وذلكَ أنَّ هذَا القائلَ رأىٰ فقيرًا مجموعَ الهمَّةِ دائمَ الشُّغلِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وعليهِ أطمارٌ رَثَّةٌ، غلبَ علىٰ ظنِّهِ فقرُهُ منَ العُرُوضِ الدُّنيويَّةِ واحتياجُهُ إلىٰ بعضِهَا، وحسُنَتْ نيَّتُهُ في مُسَاعَدَتِهِ علىٰ مَا هوَ عليهِ بِصَدَدِهِ، فأتَاهُ بِهَذِهِ الدَّرَاهمِ الَّتِي هيَ عندَهُ مِنْ وَجْهٍ طَيِّبٍ، «**فوضعَهَا علىٰ طَرفِ سجَّادةِ**» هذا الفقيرِ، وهكذَا حسنُ الأدبِ معَ الفقراءِ ألَّا يكلَّفُوا أنْ يَتَنَاوَلُوا ما يُؤتونَ بهِ بأيديهِم، بَلْ يوضعُ عندَهُم،

---

(١) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص١٥٩، ونور الاقتباس ص٤٩، وإتحاف السادة المتقين ٦١٩/١١.

(٢) زيادة من (ف).

(٣) في الجمهرة ٧٠٤/٢: «شَزَرَه ببصره يشزِره ويشزُره شَزْرًا؛ إذا نظر إليه بمُؤْخِرِ عَيْنِه».
وفي المغرب ٤٤٢/١ أيضًا: «نظر إليه شزرا؛ وهو نظر في إعراض كنظر المبغض».

(٤) أي: فرّقها ونشرها على الأرض.

(٥) المراد به انكسار نفسه بسبب ردّه. انظر: نتائج الأفكار ٤٤٠/٣.

فإنْ أحبُّوهُ أخذوهُ، أوْ تركُوهُ[١].

ثمَّ قالَ لهُ: «يا أَخِي، استعِنْ بهذِهِ علَىٰ ما أنتَ بصددِهِ، فأخذَتْهُ عزَّةُ الفقرِ وعمارةُ الوقتِ إلىٰ أنْ نظرَ إليهِ شَزَرًا»، وكشفَ لهُ ما هوَ مستورٌ عنهُ، فقالَ لهُ: «جلسةٌ نلتُهَا معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بعدَ أنْ أخرجتُ سبعينَ ألفَ دينارٍ غيرَ الضِّياعِ ومُستغلَّاتِهَا، تريدُ أنْ تفسدَهَا عليَّ بهذِهِ الدُّريهماتِ، ثمَّ قامَ وأخذَ بطرفِ سجَّادتِهِ فانتثَرَتِ الدَّراهمُ وبقِيَ الَّذِي أتَىٰ بهَا يلتقطُهَا» وكانَ رجلًا ذكيًّا فطنًا، عرَفَ عزَّةَ حالِ هذا الفقيرِ ورفعةَ ما وجدَهُ منَ الحالِ معَ مولَاهُ، حتَّىٰ لمْ يلتفِتْ لسوَاهُ، قالَ: «ما رأيتُ كعزِّهِ» في الإعراضِ، و«ذُلِّي» في الالتقاطِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ خَفِيفٍ[٣]: مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ زَكَاةُ الفِطْرِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلِي قَبُولٌ عَظِيمٌ بَيْنَ الخَاصِّ وَالعَامِّ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ أحدِ وجهَينِ:

إمَّا أنْ يكونَ لمْ يقبلْ مِنْ أحدٍ مَا شيئًا، ويكونَ اقتصارُهُ علىٰ مَا لا بُدَّ لهُ منهُ، ولمْ يفضلْ عندَهُ زيادةٌ يجبُ عليهِ [٢/٢٤٢أ] إخراجُ زكاةِ الفِطْرِ منهَا.

والوجهُ الثَّانِي: أنْ يكونَ يقبلُ ما أتاهُ من [المَالِ][٤] ويصرفهُ فِي يومِهِ، فلَا يبقَىٰ عندَهُ منهُ شيءٌ، ويدلُّ جميعُ ذلكَ علَىٰ اخْتِيارِهِ الفقرَ علَىٰ السَّعةِ، وطلبِ السَّلامةِ، وطِيبِ القلبِ معَ اللهِ ـ تعالَىٰ ـ، وفراغِهِ للتَّلذُّذِ بمناجاتِهِ، ومراقبته فِي

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٨.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٢/٤١٦، وتبيين كذب المفتري ص١٩٢، والمختار من مناقب الأخيار ٣/١١١.

(٤) تتمة يقضيها المقام لطمس موضعها في (أ).

سائرِ سكونِهِ وحركتِهِ(١)، ورجَّحَهُ علىٰ الدُّخولِ بينَ النَّاسِ والاشتغالِ بقبضِ الأموالِ وصرفِهَا إليهِمْ في جهاتِ البرِّ، وكلاهُمَا خيرٌ إنْ شاءَ اللهُ، إلَّا أنَّهُ رجَّحَ الفقرَ علىٰ الغِنَىٰ فِي غالبِ أمرِهِ؛ لأنَّهُ أشارَ إلىٰ غايةِ التَّقلُّلِ حتَّىٰ لمْ تجبْ عليهِ زكاةُ الفطْرِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ بَاكَوَيهِ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ خَفِيفٍ يَقُولُ ذَلِكَ(٣).

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا أَحْمَدَ الصَّغِيرَ يَقُولُ(٤): سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ خَفِيفٍ عَنْ فَقِيرٍ يَجُوعُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَبَعْدَ ثَلَاثَةٍ يَخْرُجُ وَيَسْأَلُ مِقْدَارَ كِفَايَتِهِ أيشٍ يُقَالُ فِيهِ؟ فَقَالَ: مُكْدٍ، كُلُوا وَاسْكُتُوا، فَلَوْ دَخَلَ فَقِيرٌ مِنْ هَذَا البَابِ لَفَضَحَكُمْ كُلَّكُمْ!».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلكَ أنَّ الفقيرَ الصَّادقَ مَنِ افتقرَ إلىٰ اللهِ خاصَّةً، وتبرَّأَ مِنَ الأموالِ والأعمالِ والأحوالِ والمقاماتِ، ورأىٰ نفسَهُ محلًّا لجريانِ فضْلِ مولَاهُ عليهِ في سائرِ الأوقاتِ.

ومَنْ هذهِ حالتُهُ فقدِ استغنىٰ باللهِ عمَّنْ سِوَاهُ، وكانَ لهُ فِي شغلِهِ بهِ شغلٌ(٥) عمَّنْ سِوَاهُ، وتوالَتْ كفايتُهُ عليهِ ولطفُهُ بهِ، فلَا يُحوجُهُ إلىٰ السُّؤالِ إلىٰ المخلوقِينَ، بَلْ لا يجدُ ألَمَ الجوعِ لكمالِ شُغْلِهِ وتلذُّذِهِ بِمُنَاجَاتِهِ، فضلًا عنِ الاستغراقِ بهِ، وفيهِ عِزَّةُ نفسِهِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨٥.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٨ ـ ٤٣٩.

(٣) أي: القول السابق.

(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٣/٣٧١، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٣/١٥١، وطبقات الأولياء ص٢٩٢.

(٥) في (أ): شغلا، والصواب المثبت.

وإنَّمَا أرادَ هذَا الشَّيخُ ابنُ خفيفٍ أنْ يعرِّفَهُمُ الفقيرَ الكاملَ الفقرِ إلىٰ اللهِ، وأنَّهُ المُستغنِي باللهِ، فلمَّا سألُوهُ عمَّنْ «**يجوعُ ثلاثةَ أيَّام، ثمَّ يرجعُ إلىٰ السُّؤالِ منَ المخلوقِينَ**»، فنبَّهَهُمْ علىٰ ضعفِهِ، وأنَّهُ ليسَ منَ المتحقِّقِينَ فِي مقامِ الفقرِ، وأشارَ إلىٰ حالتِهِ الَّتِي هوَ فيهَا؛ وهوَ طلبُهُ منَ المخلوقِينَ، فقالَ: «**مُكْدٍ**»[(١)]، ثمَّ قالَ للسَّائلِ وللجَّماعةِ: «**كُلُوا واسكتُوا**»، نهاهُم عنِ الدَّعوَىٰ في أحوالٍ لمْ يَبْلُغُوهَا، لَوْ دخلَ فقيرٌ صَادقٌ كمَا ذَكَرْنَاهُ لَفَضحَنا، وهذَا مِنْ حسنِ تأديبِهِ لأصحابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ [٢/٢٤٢ب] بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يقولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ الصُّوفِيَّ يقولُ: سَمِعْتُ الدُّقِّيَّ يَقُولُ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ [سُوءِ أَدَبِ]**[(٣)] **الفُقَرَاءِ مَعَ اللهِ فِي أَحْوَالِهِمْ، فَقَالَ**[(٤)]**: انْحِطَاطُهُمْ مِنَ الحَقِيقَةِ إِلَىٰ العِلْمِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قدْ يقالُ: إنَّ مرادَ القومِ بلفظِ «الحقيقةِ»: غلبةُ الأحوالِ علىٰ القلبِ، كمَا قالَ حارثةُ لمَّا سألَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيفَ أصبحَ قالَ: مُؤمنٌ حقًّا، فقالَ لهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٥)]: «**إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيْمَانِكَ؟ فَقَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَاسْتَوَىٰ عِنْدِي ذَهَبُهَا وَمُدَرُهَا**، وكأنِّي أنظرُ عرشَ ربِّي بارزًا، وإلَىٰ أهلِ الجنَّةِ فِي الجنَّةِ يتنعَّمونَ، وإلَىٰ أهلِ النَّارِ في النَّارِ يتعاوُونَ»، وقبلَ منهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلكَ.

وَبَيَانُ ذلكَ: أنَّ حقَّ الإيمانِ هو أن يؤمنَ العبدُ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٩.

(٢) أي: سائل.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٢/٤٤٠.

(٥) سبق تخريجه.

واليوم الآخرِ، ويُضمِّنَ إيمانَهُ حَقَارَةَ الدُّنيَا وكمَالَ الأُخرَىٰ، والجنَّة والنَّار علَىٰ التَّفضيلِ، وبُرُوز العَرْشِ بعدَ انحلالِ السَّماواتِ السَّبعِ علىٰ ما جاءَتْ بهِ الأنبياءُ.

وإذَا كانَ هذَا هوَ الإيمانَ الصَّحيحَ والحقَّ، فحقيقتُهُ غلبةُ هذهِ الأمورِ علىٰ القلبِ وهوَ أنْ يغلبَ علىٰ قلبهِ حقارةُ الدُّنيَا ورؤيةُ الجنَّةِ والنَّارِ والحسابِ، حتَّىٰ كأنَّهُ يشاهدُ ببصرِهِ، فهذِهِ هيَ «الحقيقةُ»، فإذَا أطلقَ القومُ «الحقيقةَ» أرادوا هذا المعنَىٰ في كلِّ محقِّقٍ، فمتَىٰ تحقَّقَ الفقرُ في مقامِ الفقرِ؛ وهوَ افتقارُهُ إلىٰ اللهِ خاصَّةً، ودوامُ نظرِهِ إليهِ لا إلىٰ غيرِهِ، واستشعارُهُ نظرَ الحقِّ إليهِ، كمُلَ أدبُهُ، وكانَ فِي حقيقةِ الفقرِ.

فإذَا نزلَ عَنْ هذهِ الرُّتبةِ إلىٰ درجةِ العلمِ بهَا، ولمْ تكنْ غالبةً علىٰ قَلْبِهِ، غلبَتْ عليهِ بالعوائِدِ، وفرَّقَتْ همَّهُ الأسبابُ، ووقعَ في سوءِ الأدبِ معَ مَنْ عرَفَهُ، وعلِمَ أنَّ كلَّ خيرٍ منهُ، فلمَّا غفلَ عَنْ مقامِ الحقيقةِ واشتغلَ بالأسبابِ وقعَ فِي سُوءِ الأدبِ[١].

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الطَّبَرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ خَيرًا النَّسَّاجَ يَقُولُ[٣]: دَخَلْتُ بَعْضَ المَسَاجِدِ، وَإِذَا فِيهِ فَقِيرٌ، فَلَمَّا رَآنِي تَعَلَّقَ بِي وَقَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ؛ تَعَطَّفْ عَلَيَّ، فَإِنَّ مِحْنَتِي عَظِيمَةٌ، فَقُلْتُ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: فَقَدْتُ البَلَاءَ وَقُرِنْتُ بِالعَافِيَةِ** [٢/٢٤٣أ]**، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا قَدْ فُتِحَ عَلَيهِ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا»**.

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ أنَّهُم يَرَوْنَ[٤] وجودَ

---

(١) أي: بالنظر لما انحط عنه من غلبة الحقيقة. وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨٥ ـ ٧٨٦.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٩.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٦٢٢ ـ ٦٢٣، والمختار من مناقب الأخيار ١/٤٤٧.

(٤) في (أ): يروا، والصواب ما أثبته.

الدُّنيَا وسعَتَهَا بلاءً، وصرْفَهَا عنهُمْ منْ جملةِ النِّعم والعَوافِي، وهذَا صحيحٌ، فإنَّ القويَّ إذا هربَ مِنْ شيءٍ خوفًا مِنْ ضَرَرِهِ فالضَّعيفُ أحقُّ أنْ يَهْرَبَ منهُ خَوْفًا مِنْ هَلاكِهِ، وقَدْ قالَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهُمْ أَقْوَىٰ النَّاسِ إيمانًا ومعرفةً ونورُ النُّبوَّةِ بين أظهُرِهِمْ: «ابتُلِينَا بالضَّرَّاءِ فصبَرْنَا، وابتُلِينَا بالسَّرَّاءِ فلمْ نصبِرْ»[(١)].

وأيضًا فإنَّ العبدَ في حالِ الفقرِ دائمُ الرُّجوعِ إلىٰ اللهِ، سائلًا حوائجَهُ منهُ، راجعٌ إليهِ؛ لاعتقادِهِ انفرَادَهُ بالأفعالِ، هذا شأنُ عامَّةِ الفقراءِ، كما نبَّهَ عليهِ جلَّ وعلَا في كتابِهِ الكريمِ فقالَ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ﴾ [الإسراء: ٦٧]، فالغالبُ علىٰ الفقيرِ وإنْ لمْ يكنْ مِنْ خواصِّ الفقراءِ الرُّجوعُ إلىٰ اللهِ عندَ مهمَّاتِهِ، والغالبُ منْ حالِ الغنِيِّ الرُّجوعُ عندَ ما يطرقُهُ منَ الأمورِ إلىٰ ما يملكُهُ ويقدرُ علىٰ اكتسابِهِ، وكفَىٰ بذلِكَ غفلةً عن ربِّهِ[(٢)]، والنَّادرُ منَ الأغنياءِ مَنْ لا تشغلُهُ دُنْيَاهُ عَنْ مَولاهُ.

فهذَا الفقيرُ الَّذِي كانَ فِي المسجدِ دائمَ الشُّغلِ باللهِ - تعالىٰ -، والتَّنعُّم بذكْرِهِ ومناجاتِهِ، فَرَآهُ بعضُ المحبِّينَ وأهلُ الخيرِ ومَا هوَ عليهِ منَ الاجتهادِ، فأرادَ أنْ يصلَهُ بمَا يستعينُ بهِ علَىٰ ما هوَ بصددِهِ وأجرُهُ علىٰ حسبِ نيَّتِهِ، فوضعَ عندَهُ شيئًا وخرجَ عنهُ هاربًا فَتَشَوَّشَ حالُ هذَا الفقيرِ، مَا الَّذِي يصنعُهُ بهذَا المالِ؟ ومَا الحيلةُ في خلاصِهِ منهُ[(٣)]؟ فلمَّا دخلَ المسجدَ هذَا الشَّيخُ رأَىٰ عليهِ آثارَ المعرفةِ، وسلوكَ طريقِ الجدِّ والاجتهادِ، قامَ وتعلَّقَ بهِ مستغيثًا باللهِ - تعالىٰ -، ومستعينًا بهِ فِي الخلاصِ ممَّا ابتُلِيَ بهِ، فبحثَ عن سببِهِ فرآهُ يشيرُ إلىٰ المالِ الَّذِي فُتحَ عليهِ بهِ،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٦٤٢/٤، ولفظه: «عن عبد الرحمن بن عَوْفٍ قال: ابْتُلِينَا مع رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنَا، ثُمَّ ابْتُلِينا بِالسَّرَّاءِ بَعْدَهُ فلم نَصْبِرْ».

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٨٦/٢.

(٣) لأنه يُسأل عن ذلك يوم القيامة. انظر: نتائج الأفكار ٤٤٢/٣.

فهذَا كمَا قالَ قائلُهُمْ: «عَضُّوا علىٰ الفقرِ بالنَّواجذِ»(١).

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْيَدَ(٣) يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الوَرَّاقَ يَقُولُ(٤): طُوبَىٰ لِلْفَقِيرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ، فَقَالَ: لَا يَطْلُبُ السُّلْطَانُ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا الخَرَاجَ، وَلَا الجَبَّارُ فِي الآخِرَةِ الحِسَابَ [٢/٢٤٣ب]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ إشارةٌ إلىٰ أقلِّ فَوَائدِ الفَقْرِ، فضلًا عنْ أكملِهَا وأفضلِهَا، وأقلُّ فوائدِ الفقيرِ فِي الدُّنيَا الرَّاحَة مِن المُطَالَبَة والمُزَاحمَة فِي الأسواقِ علىٰ الأرزاقِ، فيتعلَّقُ بهذِهِ الرَّاحَةِ مِنَ السَّلامَةِ مِنَ المعاصِي الَّتِي تُلازمُ المتبايعَينِ؛ منَ الجَهلِ بالأحكامِ، وتصريفِ الحلالِ والحرامِ.

فإنْ قوِيَ حَقُّهُ للحُطَامِ، أخذَهُ مِنْ غَيرِ تَثَبُّتٍ ولا احتِشَامٍ، وكذلكَ يَسْتَرِيحُ الفَقِيرِ مِنْ مطالبةِ أربابِ الزَّكَوَاتِ، ووجوب الصَّرفِ لمَنْ يعلمُهُ مِنْ ذوِي الحاجاتِ، وغيرِ ذلكَ منَ الواجباتِ منَ الزَّكاةِ والمُواسَاةِ.

وأمَّا فِي الآخرةِ فالرَّاحةُ مِنْ شَدِيدِ الحِسَابِ، ومِنْ أينَ اكتسبَ المالَ وفيمَا صرَفَهُ؟ أمِنْ حقٍّ أخذَهُ أوْ باطلٍ؟ وماذا صنعَهُ فيمَا وجبَ عليهِ الصَّرفُ فيهِ؟

وَقَدْ جاءَ أنَّ العبدَ مسئولٌ عنْ مالِهِ، وعنْ عمرِهِ، وعنْ علمِهِ(٥)، وإنْ كانَ لا

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨٦.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٣٩.

(٣) في (أ): أحمد، والصواب المثبت، أبو بكر البلخي، انظر: الزهد الكبير ص٧١. وقد روي له خبر بصدد ترجمة: «أبو بكر الوراق».

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٧٥، ونور الاقتباس ص٥٠.

(٥) كما في سنن الترمذي ٤/٦١٢: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يوم القِيَامَةِ=

بدَّ منَ السُّؤالِ فليسَ هوَ سُؤالَ عذابٍ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ[١]: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ ـ وفِي روايةٍ[٢]: «هَلَكَ» ـ فقالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٨، ٩]، فقالَ لهَا ﷺ: ذلِكَ العَرْضُ»، معناهُ: تعرضُ عليهِ أعمالُهُ ولمْ يُنَاقَشْ، وقدْ قالَ ـ سبحانه ـ في آيةٍ أُخرَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٨]، فمَنْ لهُ سوءُ الحِسَابِ فهوَ الَّذِي يُنَاقشُ ولَا يُسَامَحُ، وأمَّا الَّذِي عُرِضَتْ عليهِ أعمالُهُ ثمَّ عُفِيَ عنهُ فقدْ حُوسِبَ حسابًا يسيرًا.

وأرادَ هذَا الشَّيخُ أنْ يعرفَ أقلَّ فوائدِ الفقرِ فِي الدُّنيَا: الرَّاحةُ منَ السُّلطانِ في طلبِ الخَرَاجِ والحُقُوقِ، والرَّاحةُ منَ الحسابِ يومَ القيامةِ؛ خوفًا منَ الزَّللِ والزُّهوقِ، وإذَا كانتْ هذِهِ هيَ أقلَّ فوائدِ الفقرِ فكيفَ براحةِ القلبِ منَ المُشْغِلاتِ، وَوجُودِ الرَّاحةِ فِي المناجاةِ، والتَّنعُّمِ بذكْرِهِ ـ سبحانه ـ وتلاوةِ كتابِهِ في الخَلَوَاتِ، وتقريبِهِ لهُ وإكرامِهِ لهُ يومَ القيامةِ فِي أعالِي الدَّرجاتِ، وَسُرْعَةِ مُضِيِّهِ إلىٰ الجنَّةِ كمَا جاءَتْ بِهِ الأخبارُ الوَاضِحَاتُ؟!.

❊ ❊ ❊

= حتىٰ يُسْأَلَ عن عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ من أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٣٩٤ ـ حديث رقم (٦١٧١)، ومسلم في صحيحه ٤/٢٢٠٤ ـ حديث رقم (٢٨٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٠٥ ـ حديث رقم (٢٨٧٦).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ التَّصوُّف

الصَّفَاءُ مَحْمُودٌ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَضِدُّهُ الكُدُورَةُ، وَهِيَ مَذْمُومَةٌ.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ [٢/٢٤٤أ] يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى الطَّلْحِيُّ، حَدَّثَنَا الحُسَينُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ نَوْفَلٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي زِيَادٍ، عَنْ أَبِي حُجَيْفَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ فَقَالَ[٢]: ذَهَبَ صَفْوُ الدُّنْيَا وَبَقِيَ الكَدَرُ، فَالمَوْتُ اليَوْمَ تُحْفَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويحتملُ هذَا الخبَرُ أنْ يريدَ بالصَّفوِ: صفوَ الدُّنيَا نفسِهَا، وتوالِي خيراتِهَا ونِعَمِهَا وضيقَ ذلكَ وقلَّتِه.

ويحتملُ أنْ يريدَ: صفاءَ قلوبِ أهلِهَا، وانشراحَ صدورِهِمْ ورضاهُمْ بمَا يجرِي عليهِمْ فيهَا، وعكسَ ذلكَ.

والظَّاهرُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنْ صحَّ الخبَرُ عنهُ أنَّهُ قالَهُ قربَ وفاتِهِ؛ لعلمِهِ بمَا يكونُ بعدَهُ منَ الاختلافِ، وارتدادِ طائفةٍ إلى الكفرِ، وتنبُّؤِ مسيلمةَ وغيرِهِ منْ أهلِ الضَّلالِ، وما جرَى منْ تغيُّرِ الأحوالِ، ويكونُ ذلكَ جرَى مجرَى الغالبِ فِي ذلكَ الزَّمانِ، فِي وقتٍ منَ الأوقاتِ، ولا يلزمُ دوامُهُ إلى وقتِ المَماتِ، وقيامِ السَّاعةِ بالأدلَّةِ الواضِحَاتِ، بَلْ «لا تزالُ طائفةٌ منْ أمَّةِ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَى

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٠.

(٢) أخرجه الطبراني موقوفا عن ابن مسعود في: المعجم الكبير ٩/١٥٥، وابن حنبل في الزهد ص١٥٨، وابن أبي شيبة في مصنفه ٧/١٠٢.

الحقِّ ظاهرِينَ حتَّىٰ يأتِيَ أمرُ اللهِ، ويخرجَ الدَّجَّالُ وتظهرَ أشراطُ السَّاعةِ وعلاماتُهَا، وينزلَ عيسَىٰ بنُ مريمَ ويقتلَ الدَّجَّالَ»[١]، ويؤمَّ بهِ بعضُ هذهِ الأمَّةِ ـ صلَّىٰ اللهُ علَىٰ نبيِّنَا وعليه ـ.

ومقصودُ هذَا الخبَرِ: التَّحريضُ علىٰ التَّمسُّكِ بأوقاتِ الصَّفاءِ معَ اللهِ وإزالةِ المُشْغلاتِ، والمُجاهَدَةِ بأنواعِ الرِّياضةِ فِي الانتقالِ عنِ الصِّفاتِ المذموماتِ، والتَّخلُّقِ بالصِّفاتِ المحموداتِ، فإذَا كمُلَ العبدُ في ذلكَ فهوَ المعبَّرُ عنهُ بـ«الصُّوفِيِّ»، فإنَّهُ قدْ صفَا منَ الكَدَرِ، صافاهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ بمَا يُطلِعُهُ عليهِ[٢] وينبِّهُهُ عليهِ ممَّا خصَّ بهِ بعضَ البشرِ[٣].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «هَذِهِ التَّسْمِيَةُ غَلَبَتْ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، يُقَالُ: رَجُلٌ صُوفِيٌّ، وَلِلجَمَاعَةِ: صُوفِيَّةٌ، وَمَنْ يَتَوَصَّلُ إِلَىٰ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ: مُتَصَوِّفٌ، وَلِلْجَمَاعَةِ: المُتَصَوِّفَةُ[٥].

وَلَيْسَ يَشْهَدُ لِهَذَا الاِسْمِ مِنْ حَيْثُ العَرَبِيَّةُ قِيَاسٌ بَيِّنٌ وَلَا اشْتِقَاقٌ، وَالأَظْهَرُ فِيهِ أَنَّهُ كَاللَّقَبِ.

فَأَمَّا قَولُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مِنَ الصُّوفِ[٦]، وَتَصَوَّفَ إِذَا لَبِسَ الصُّوفَ [٢/٢٤٤ب]، **كَمَا يُقَالُ: تَقَمَّصَ إِذَا لَبِسَ القَمِيصَ، فَذَلِكَ وَجْهٌ[٧]، وَلَكِنَّ القَوْمَ لَمْ يَخْتَصُّوا**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) من أنوار قربه ولذة مناجاته.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/٧٨٧.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٠.

(٥) فلقّبُوا بذلك من القرن الأول، انظر: اللمع للطوسي ص٤٢.

(٦) رجحه السراج الطوسي بقوله: «... لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وشعار الأولياء والأصفياء» اللمع ص٤٠.

(٧) قال الشيخ زكريا: «وجه سائغ، بل قيل: إنه حسن؛ لأنه أبعد من الدعوىٰ، بخلاف غيره مما=

بِلُبْسِ الصُّوفِ[١].

وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُمْ مَنْسُوبُونَ إِلَىٰ صُفَّةِ مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَالنِّسْبَةُ إِلَى الصُّفَّةِ لَا تَجِيءُ عَلَىٰ نَحْوِ الصُّوفِيِّ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الصَّفَا، فَاشْتِقَاقُ الصُّوفِيِّ مِنَ الصَّفَاءِ بَعِيدٌ فِي مُقْتَضَى اللُّغَةِ.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الصَّفِّ؛ فَكَأَنَّهُمْ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ بِقَوْلِهِم مِنْ حَيْثُ المُحَاضَرَةُ مَعَ[٢] اللهِ، فَالمَعْنَىٰ صَحِيحٌ، وَلَكِنَّ اللُّغَةَ لَا تَقْتَضِي هَذِهِ النِّسْبَةَ مِنَ الصَّفِّ.

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُحْتَاجَ فِي تَعْيِينِهِمْ إِلَىٰ قِيَاسِ لَفْظٍ، وَاسْتِحْقَاقِ اشْتِقَاقٍ[٣]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومقصودُ الإمامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذَا الموضعِ على الجملةِ: أنَّ هذَا الاسمَ لهذِهِ الطَّائفةِ جرَىٰ مجرَى اللَّقَبِ[٤]، والاصطلاحُ عليهِ، والظَّاهرُ

= قيل فيه» إحكام الدلالة ٢/٧٨٨.

(١) في تهذيب الأسرار ص١١: «عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من سمع صوت أهل الصوف يدعون فلم يؤمِّن على دعائهم كتب من الغافلين».

(٢) في (ف): من.

(٣) لشهرتهم بذلك كما نص الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/٧٨٨.
وقال الطوسي: «لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم؛ وذلك لأنهم معدن جميع العلوم، ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة» اللمع ص٤٠، فشهرتهم بذلك تغني عن الاشتقاق.

(٤) قال الشيخ زكريا: «الأظهر فيه أنه غير مشتق، بل هو جامد كاللقب» إحكام الدلالة ٢/٧٨٨.
وفي تهذيب الأسرار ص٢٦: «وقال ذو النون وقد سئل عن التصوف، أهو مشتق أو لقب؟ فقال: قيل في صفويةٍ، فستروا ذلك الصفاء بالصوفية على ستر العمل، وكتمانه عما يُوجب الرياء».

إنَّمَا تَلَقَّبُوا بِهِ؛ لِكَونِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ صافاهُمْ، فإنَّهُ لا فاعلَ عندَهُمْ سِوَاهُ، وهوَ الَّذِي خصَّهُمْ بأفضلِ الصِّفاتِ، وميَّزَهُم عن غيرِهِم بمَا مَنَّ بهِ عليهِم منَ المعرفةِ والكَرَامَاتِ؛ فالواحدُ منهُمْ: صوفِيٌّ؛ إذِ الحقُّ صَافَاهُ، والجماعةُ: صوفيَّةٌ؛ لكونِهِمْ مُصَافُونَ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ.

ومَا ذكرَهُ الشَّيخُ مِنْ أنَّهُ لا يصلحُ اشتقاقُهُمْ منْ لبسِ الصُّوفِ؛ لأنَّ كلَّهُمْ لمْ يلبسْهُ صحيحٌ، ولكنْ قدْ يُطْلَقُ الاسمُ لغالبِ الحالِ؛ وهوَ أنَّ الغالبَ عليهِم الاجتزاءُ بمَا تيسَّرَ ممَّا يردُّ الحرَّ والبردَ، وقَدْ يُوجَدُ ذلكَ فِي «الصُّوفِ» دونَ غيرِهِ.

وأمَّا «**اشتقاقُهُمْ منْ صُفَّةِ النَّبيِّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وإضافتُهُمْ إلىٰ الصُّفَّةِ**»، فإنَّما يقالُ: «صُفِّيٌّ» لَا «صُوفِيٌّ»[1].

وكذلكَ «**إضافتُهُمْ إلىٰ الصَّفِّ الأوَّلِ**»؛ لأنَّهُمْ بقلوبِهِمْ أقربُ النَّاسِ إلىٰ اللهِ، هذَا وإنْ كانَ المعنىٰ جيِّدًا فاللَّفظُ لا يصلحُ للصُّوفِيِّ[2]، وكذلِكَ الصَّفاءُ إنَّمَا يشتقُّ منهُ: صافِي[3].

❁ **قالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4]: **«وتكلَّمَ النَّاسُ فِي التَّصوُّفِ مَا معْنَاهُ؟ وَفِي الصُّوفِيِّ مَنْ هُوَ[5]؟**

فَكُلٌّ عَبَّرَ بِمَا وَقَعَ لَهُ وَاسْتِقْصَاءُ جَمِيعِهِ يُخْرِجُنَا عَنِ المَقْصُودِ مِنَ الإِيجَازِ،

---

(١) أي في النسبة إليه.

(٢) قال الشيخ زكريا: «إذ لا يقال في النسبة إلىٰ (الصف): الأصفي!» إحكام الدلالة ٢/٧٨٨.

(٣) أي: اشتقاق (الصوفي) من (الصفاء) بعيد في مقتضىٰ اللغة، بل مقتضاها أنه يشتق من (الصافي). انظر: إحكام الدلالة ٢/٧٨٨.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٠ ـ ٤٤١.

(٥) تأمل ذلك في: تهذيب الأسرار ص٢٥، واللمع للطوسي ص٤٥، وعوارف المعارف ص٣٧، وإيقاظ الهمم ص١٥ ـ ١٦.

وَسَنَذْكُرُ بَعْضَ مَقَالَاتِهِمْ فِيهِ عَلَىٰ حَدِّ التَّلْوِيحِ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ـ.

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَىٰ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ التَّمِيمِيَّ يَقُولُ: سُئِلَ أَبُو مُحَمَّدٍ الجُرَيْرِيُّ عَنِ التَّصَوُّفِ فَقَالَ[1]: الدُّخُولُ فِي كُلِّ خُلُقٍ سَنِيٍّ[2]، وَالخُرُوجُ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ دَنِيٍّ».

※ قَالَ الشَّارِحُ [٢/٢٤٥أ] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ومقصودُهُ أنَّ التصوف: اسمٌ لجميعِ الأخلاقِ المحمودةِ، والبَرَاءَة من الأخلاقِ المَذْمُومَةِ؛ كالرياء والعُجْب والكِبْر والحسَد والشَّمَاتَة وسُوء الظَّنِّ، وغير ذلك منَ الأخلاقِ المذمومةِ، مَا يطولُ شرحُهَا، وَيَتَخَلَّقُ بالورَعِ والزُّهدِ والتَّوكُّلِ والرِّضَا والتَّفويض والتَّسليم والمَحبَّة وغير ذلِكَ منَ الأخلاقِ المحمودةِ، فهوَ الصُّوفِيُّ، وبمقدارِ كمالِهِ يكملُ.

ومادامَ مكتسبًا لهذهِ الأخلاقِ المحمودةِ، ومشتغلًا بالخَلاصِ منَ الأخلاقِ المَذْمُومَةِ يسمَّىٰ: متصوِّفًا، أيْ: عاملًا في نيلِ مقامِ التَّصوُّفِ، كالمُتَبَاكِي والبَاكي، والمتفقِّهِ والفَقِيهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[3]: «سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَمَّارٍ الهَمَدَانِيَّ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ المَرْعَشِيَّ يَقُولُ: سُئِلَ شَيْخِي عَنِ التَّصَوُّفِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ[4]: هُوَ أَنْ يُمِيتَكَ الحَقُّ عَنْكَ، وَيُحْيِيكَ بِهِ».

---

(١) ورد قوله في: حلية الأولياء ١/٢٢، واللمع للطوسي ص٤٥، ونسب إلى الجنيد في: الزهد والرقائق ص٧٧، وشعب الإيمان ٥/٣٤٥، وتاريخ دمشق ٥٦/١١٩. وروي عن سمنون في: تهذيب الأسرار ص٣١.

(٢) أي: رفيع.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٤١.

(٤) ورد قوله في: بغية الطلب ١٠/٤٦١٧.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أكملُ درجاتِ التَّصوُّفِ، فإنَّ بعضَ المشايخِ اجتمعَ بتلامذةِ بعضِهِمْ(١)، فقالَ لهُ: «بِمَ كانَ يأمرُكُمْ شيخُكُمْ؟ قالَ: بإتقانِ الأعمالِ، والإخلاصِ فيهَا، ورؤيةِ التَّقصيرِ، فقالَ: أمرَكُمْ بالمجوسيَّةِ المحضَةِ، فأينَ الفناءُ في التَّوحيدِ؟!».

وكذَا ما نحنُ فيهِ، فإنَّا قدْ قرَّرْنَا أنَّ الصُّوفِيَّ: اسمٌ لمَنْ تخلَّصَ منَ الصِّفاتِ المذمومةِ وتحلَّىٰ بالصِّفاتِ المحمودةِ، فهوَ عاملٌ في إصلاحِ نفسِهِ وأحوالِهِ، وناظرٌ إلىٰ كمالِ نفسِهِ وجمالِهِ، والَّذي أشارَ إليهِ هذَا الشَّيخُ ـ وهوَ الجُنيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مِنْ قولِهِ: «**أماتَكَ الحقُّ عنكَ**»، أيْ: عنِ النَّظرِ لنفسِكَ وإصلاحِهَا(٢)، وأحياكَ بذِكْرِهِ ومناجاتِهِ، والاشتغالِ بمَا يَرِدُ مِنْهُ عليكَ، واستِغْرَاقِكَ فيهِ(٣).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الوَاحِدِ(٥) بْنَ مُحَمَّدٍ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الفَاتِكِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ مَنْصُورٍ ـ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الصُّوفِيِّ ـ فَقَالَ(٦): وَحْدَانِيُّ الذَّاتِ، لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، وَلَا يَقْبَلُ أَحَدًا**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فِي ظاهرِهِ تشعيبٌ، والأمرُ فيهِ قريبٌ؛ وذلِكَ أنَّ مرادَهُ أنَّهُ بكلِّيَّتِهِ مشغولٌ بالحقِّ ـ سبحانه ـ، ولمْ يبقَ فيهِ وسعٌ لخلطةِ غيرِهِ، ولا لكلامِهِ، وهذهِ أعلَىٰ أحوالِ الصُّوفِيِّ وإنْ لمْ يَذُمَّ لهُ ذلكَ، وإنَّمَا هيَ علىٰ حسبِ

---

(١) أي: لما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان المغربي، كما في: مدارج السالكين ٢/٤٤٧، وقد سبق تحريج هذا القول.

(٢) فيه إشارة إلىٰ أنه متىٰ بقي لنفس العبد بقية إحساس لا يقال له: صوفي كامل. انظر: نتائج الأفكار ٤/٦.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨٩.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٤١.

(٥) في (أ): عبد الرحمن، والتصويب من الرسالة القشيرية.

(٦) ورد في: الطبقات الصغرىٰ للمناوي ص٩٩.

مَنْ يسألُهُمْ ويجيبُونَهُ[١]، فإذَا كانَ السَّائلُ لهُ ممَّنْ يدَّعِي التَّصوُّفَ نبَّهَهُ علىٰ المقامِ [٢/٢٤٥ب] الرَّفيعِ فيهِ؛ ليستصغرَ نفسَهُ وتذهبَ عنهُ دعَاوِيهِ[٢].

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ نُصَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الوَرَّاقَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا حَمْزَةَ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ[٤]: عَلامَةُ الصُّوفِيِّ الصَّادِقِ: أَنْ يَفْتَقِرَ بَعْدَ الغِنَىٰ، ويذلَّ بَعْدَ العِزِّ، وَيَخْفَىٰ بَعْدَ الشُّهْرَةِ.

وَعَلامَةُ الصُّوفِيِّ الكَاذِبِ: أَنْ يَسْتَغْنِيَ بَعْدَ الفَقْرِ، وَيَعِزَّ بَعْدَ الذُّلِّ، وَيَشْتَهِرَ بَعْدَ الخَفَاءِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ إنَّمَا هوَ العزُّ بالدُّنيَا والاستغناءُ بهَا والرِّفعةُ فيهَا، وذلِكَ أنَّ الفقيرَ الصَّادقَ أوَّلُ درجاتِهِ الزُّهدُ فِي الدُّنيَا، فيبعدُ منهَا جهدهُ مِنْ مَالِهَا وجَاهِهَا، والرِّفعةِ فيهَا، فيصيرُ فِي صورةِ الفقيرِ وإنْ كانَ غنيًّا باللهِ، وفِي صورةِ الذَّليلِ وإنْ كانَ عزيزًا بمولَاهُ، وخفيًّا بينَ النَّاسِ وإنْ كانَ مشتهرًا عندَ ملائكةِ مولَاهُ[٥]، كمَا جاءَ فِي الخبرِ الصَّحيحِ[٦]: «إِنَّ العَبْدَ لَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ حَتَّىٰ يُحِبَّهُ، وَيُحِبَّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعَ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ»، فهذَا فضلٌ منَ اللهِ عليهِ، لَا يكتسبُهُ ولا يُريدُهُ.

وأمَّا الفقيرُ «**الصُّوفيُّ الكذَّابُ**»: فهوَ عبارةٌ عمَّنْ تزيَّا بزيِّ الصُّوفِيِّ؛ لينالَ

---

(١) في (أ): ويجيبوه، والصواب المثبت.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨٩.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٤١.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٥، وسير أعلام النبلاء ١٣/١٦٦، وبهجة الأسرار ومعدن الأنوار ص٣٠٥، وإيقاظ الهمم ص١٥.

(٥) في إحكام الدلالة ٢/٧٨٩: «عند الملائكة ومن والاه»، وقد أفاد الشيخ زكريا منه ذلك.

(٦) سبق تخريجه.

بعضَ الدُّنيَا، فيستغنِي بالدُّنيَا وإنْ كانَ فقيرًا أوَّلًا، ويظهرُ لهُ شهرةٌ بينَ النَّاسِ وإنْ كانَ خاملًا قبلَ ذلكَ؛ لِمَحَبَّتِهِ للشُّهرةِ والتَّعرُّضِ لأسبابِهَا، وكذلِكَ يعزُّ عندَ أهلِهَا لِمَنْ لا يعرفُ حقيقةَ أمرِهِ، ويتوهَّمُ صِدْقَهُ في حالِهِ[١].

وأمَّا «**الصُّوفِيُّ الصَّادقُ**» فعلَىٰ الحقيقةِ هوَ العزيزُ بعدَ الذُّلِّ، والغنِيُّ بعدَ الفقرِ، والمشهورُ عندَ اللهِ وملائكتِهِ بعدَ الخمولِ، وذلكَ مِنْ بَرَكَاتِ صِدْقِهِ في سُلُوكِهِ، وجدِّهِ بِمَا يُرضِي مولَاهُ عنهُ في دنيَاهُ وآخرتِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَسُئِلَ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ المَكِيُّ عَنِ التَّصوُّفِ، فَقَالَ[٣]: أَنْ يَكُونَ العَبْدُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِمَا هُوَ أَوْلَىٰ فِي الوَقْتِ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أُجْرِيَ علَىٰ التَّحقيقِ وكمالِ الأحوالِ، فإنَّ قولَهُ: «**أولَىٰ في الوقتِ**»، يعنِي: الأفضلَ عندَ اللهِ بالنِّسبةِ إلىٰ حالِهِ ومقامِهِ، فالصُّوفِيُّ علىٰ هذَا مَنْ لا يقصِّرُ في جدِّهِ عنْ مُمْكِنٍ، ولا يتعدَّىٰ في حالِهِ حدًّا رُسِمَ لهُ، وبهذَا كانَ مُلازمًا لمَا هوَ أولَىٰ بهِ في وقتِهِ، وهذَا اللَّفظُ يشملُ أعمالَهُ، وأخلاقَهُ، وأحوالَهُ، وآدابَهُ، وسائرَ [٢/٢٤٦أ] ما يتقرَّبُ بهِ إلىٰ ربِّهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: **«وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ القَصَّابُ[٥]: التَّصوُّفُ: أَخْلَاقٌ كَرِيمَةٌ[٦]، ظَهَرَتْ فِي زَمَانٍ كَرِيمٍ، مِنْ رَجُلٍ كَرِيمٍ[٧]، مَعَ قَوْمٍ كِرَامٍ»**.

---

(١) أفاده أيضا الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٨٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٤١.

(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٥، وتهذيب الأسرار ص٣٠، وعوارف المعارف ص٣٩.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٤١.

(٥) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٥، ومدارج السالكين ٣/١٨١، وإيقاظ الهمم ص١٦.

(٦) من حيث إنها طريق الوصول إلىٰ الحق عَزَّوَجَلَّ.

(٧) أي: من إنسان سبقت له العناية من الحق تعالىٰ بالكرامة حيث اختاره لها مع قوم كرام؛ لحفظهم إياها من الضياع. انظر: نتائج الأفكار ٤/٨.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ أوَّلِ وقوعٍ لهذَا الاسمِ لهذِهِ الطَّائفةِ، فإنَّ رجُلًا قدْ كَمَّلَ اللهُ أخلاقَهُ المحمودةَ، وخلَّصَهُ مِنْ جَمِيعِ أخلاقِهِ المَذْمُومَةِ، وسَاعَدَهُ الوَقْتُ، واقتدَىٰ بهِ طائفةٌ، فسَمَّوا الحالةَ الَّتِي هُمْ عليهَا «تصوُّفًا»، وَهُمُ «الصُّوفيَّةُ»، فخرجَ منْ مجموعِ هذَا القولِ ما أشارَ إليهِ الإمامُ القُشَيرِيُّ مِنْ أنَّ التَّصوُّفَ: لقبٌ لَقَّبَ بهِ جماعةٌ منْ أهلِ الخيرِ أنفسَهُمْ، فسارَ ذلكَ فِي النَّاسِ بعدَهُمْ[(١)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَسُئِلَ سمْنُون عَنِ التَّصوُّفِ، فَقَالَ[(٣)]: أَلَّا تَمْلِكَ شَيْئًا[(٤)]، وَلَا يَمْلِكَكَ شَيْءٌ**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا إشارةٌ إلىٰ التَّبرُّؤِ منَ الأملاكِ والدَّعوَىٰ فِي عملٍ أوْ خلوِّ حالٍ، وألَّا يملكَهُ شيءٌ منَ الشَّهواتِ أوِ المُشْغِلاتِ الَّتِي تُوقِفُكَ عَنْ شُغْلِكَ بِمَولاكَ، فتكونُ عاملًا مُتبَرِّئًا[(٥)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «**وَسُئِلَ رُوَيْمٌ عَنِ التَّصوُّفِ فَقَالَ[(٧)]: اِسْتِرْسَالُ النَّفْسِ[(٨)] مَعَ اللهِ ـ سبحانه ـ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا محمولٌ علىٰ أنَّ أكملَ التَّصوُّفِ التَّمكُّنُ فِي مقامِ الرِّضَا، وألَّا يحصلَ منَ العبدِ ولا يقومَ بقلبهِ اعتراضٌ أو كَرَاهةُ شَيءٍ ممَّا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٩٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٤١.

(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٥.

(٤) أي: اعترافا بحقيقة المالكية له عَزَّوَجَلَّ.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٩٠.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤٤١.

(٧) ورد قوله في: عوارف المعارف ص٣٩.

(٨) وذلك بالفناء عن سائر مراداتها في مراداته سبحانه.

قضَىٰ، وهذَا إنَّمَا يكونُ الرِّضَا فيهِ بمَا يرضَاهُ اللهُ ـ سبحانه ـ منَ الأفعالِ لا بمَا نهَىٰ عنهُ وأمرَ بالبعدِ منهُ وكراهتِهِ والتَّألُّمِ لجريانِهِ علَىٰ كلِّ حالٍ، فيكونُ العبدُ راضيًا بمَا يجوزُ الرِّضَا بهِ لَا غيرَ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَسُئِلَ الجُنَيْدُ عَنِ التَّصوُّفِ فَقَالَ[٢]: أَنْ تَكُونَ مَعَ اللهِ بِلَا علاقَةٍ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أرفعُ ممَّا تقدَّمَ؛ وذلكَ أنَّ العبدَ الصُّوفِيَّ يكونُ كاملًا فِي سائرِ أعمالِهِ وأخلاقِهِ وأحوالِهِ وآدابِهِ، ولَا يكونُ واقفًا معَ حظٍّ مِنْ حُظُوظِهِ، ولا جَزاءٍ علَىٰ عملِهِ، بَلْ يكونُ رائيًا جميعَ ما هوَ فيهِ فضْلًا منْ ربِّهِ عليهِ، وهذَا معنَىٰ قولِهِ: «أنْ يكونَ معَهُ بلَا علاقةٍ»، يعنِي: محبَّتَكَ لِشَيءٍ، أَوْ سُكُونَكَ لغيرِهِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ يُوسُفَ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصرٍ السَّرَّاجَ الطُّوسِيَّ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الفَضلِ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ عَبْدِ الرَّحِيمِ الوَاسِطِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ رُوَيْمًا بْنَ أَحْمَدَ البَغْدَادِيَّ [٢/٢٤٦ب] يَقُولُ[٤]: التَّصوُّفُ مَبنِيٌّ عَلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ: التَّمسُّكِ بِالفَقْرِ وَالافْتِقَارِ، وَالتَّحقُّقِ بِالبَذْلِ وَالإِيْثَارِ، وَتَرْكِ التَّعرُّضِ وَالاخْتِيَارِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا بالغٌ في أحوالِ الصُّوفِيِّ؛ فإنَّ كَمَالَهُ عِنْدَ [فَقْرِهِ][٥] إلىٰ مولاهُ، في جميعِ ما هوَ فيهِ ممَّا خصَّهُ بهِ وأولَاهُ، وإيثارُه بما يملكُهُ علىٰ مَنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٤١.

(٢) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٥، وعوارف المعارف ص٣٧.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٤١.

(٤) ورد قوله في: عوارف المعارف ص٣٧،

(٥) طمس في الأصل بمقدار كلمة، فلعلها كذلك.

فقدَ ذلكَ ممَّنْ يرجُو نفعَهُ عندَ مولَاهُ، وتسليمُهُ وَتَفْويضُهِ للهِ ـ سبحانه ـ فِي كلِّ ما أجرَاهُ عليهِ وإنْ خالفَ هَوَاهُ، فيكونُ فقيرًا مُؤْثِرًا مُسلِّمًا كَامِلًا في أخلاقِهِ المرضِيَّةِ عندَ مولَاهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ مَعْرُوفُ الكَرْخِيُّ[(٢)]: التَّصَوُّفُ: الأَخْذُ بِالحَقَائِقِ، وَاليَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي الخَلَائِقِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ عرَفَ اللهَ حقَّ معرفتِهِ، وعلِمَ أنَّهُ لا ضَارَّ ولا نافعَ ولا مُعْطِي ولَا مانعَ غيرُهُ، وإنْ أمرَهُ ونهَاهُ ووعدَهُ وتوعَّدَهُ، فهوَ يشتغلُ بهذِهِ الحقائقِ، وهوَ ينظرُ إلَىٰ اللهِ ومُرَاقَبَته لهُ، وَمُرَاقبتِهِ لأفعالِهِ بالنِّسبةِ إلىٰ أحكامِ مَوْلاهُ، وكذلِكَ يُراعِي مَا خوَّفَهُ منهُ وتوعَّدَهُ عليهِ، فتَبَاعَدُهُ وإنْ كَانَ فيهِ هَواهُ، ويتحمَّلُ ما أمرهُ بهِ ورجَّاهُ عليهِ الثَّواب؛ وإنْ ثقلَ عليهِ فعلُهُ في دنياهُ.

فإذَا اشتغلَ بهذِهِ الحقائقِ لزمَ عَنْ ذلكَ إعراضُهُ عمَّا بأيدِي الخلائقِ، ولا سيَّمَا إذا تحقَّقَ علمُهُ بأنَّهُمْ لا يضرُّونَهُ ولا ينفعونَهُ، فيتمكَّنُ في قلبِهِ إعراضُهُ بحبِّهِمْ، وانقطاعُ طَمَعِهِ عمَّا بأيديهِم.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٣)]: «وَقَالَ حَمْدُونُ القَصَّارُ[(٤)]: اِصْحَبِ الصُّوفِيَّةَ؛ فَإِنَّ لِلْقَبِيحِ عِنْدَهُمْ وُجُوهًا مِنَ المَعَاذِيرِ، وَلَيْسَ لِلْحَسَنِ عِنْدَهُمْ كَبِيرُ مَوْقِعٍ يُعَظِّمُونَكَ بِهِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ مَنْ كانَ كاملًا فِي درجاتِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٤١.

(٢) نسب للمسُوحي في: تهذيب الأسرار ص٣٢، وورد بلا نسبة في: التعريفات ص٨٤.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٢.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٦، وورد بلا نسبة في: اللمع للطوسي ص٤٦.

الخيراتِ، متَّصِفًا بأكملِ الصِّفاتِ، إذَا رأَىٰ مَنْ تخلَّقَ ببعضِ أخلاقِهِ لَا يمدحُهُ كلَّ المدحِ علَىٰ مَا هوَ منهُ لقلَّةِ عظمةِ مَا نالَهُ بالنِّسبةِ إليهِ، بلْ إنْ كلَّمَهُ وذكَرَ لهُ بعضَ محاسنِهِ فلإعانتِهِ علَىٰ ما هوَ بصددِهِ ويُقوِّيه.

وأمَّا متَىٰ ظهرَتْ مِنْ أحدِهِمْ زلَّةٌ، أوْ ظهرَتْ علَىٰ ألسنةِ بعضِهِمْ غلطةٌ، فلكمالِ فهمِهِمْ وسعةِ تأويلِهِمْ، وحُسْنِ ظنِّهِمْ يُخرِّجُونَ لأفعالِهِ وُجُوهًا محمودةً، ويطرقُونَ لهَا طرقًا فِي المعاذيرِ حسنةً جميلةً، فلذلِكَ [٢/٢٤٧أ] قالَ له حمدون القَصَّارُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: إنْ أردتَ أنْ تصحبَ أحدًا فاصحبْ مَنْ هذه صفتُهُ؛ وهمُ الصُّوفيَّةُ، فَإِنَّكَ إنْ زللتَ وأَخْطَأْتَ قَدَّرُوا لكَ المَعاذِيرَ، وذكروا لكلامِكَ التَّأويلاتِ الحَسَنَةَ [بِمَا يقتضيها أمركَ][(١)] عِنْدَهُم، وإنْ رَأَوْا مِنْكَ فِعْلًا حسنًا مَا يَمْدَحُونَكَ علىٰ ذلِكَ، ولَا يُطْرُوا عليكَ[(٢)]، فتَسْلَمَ مِنْ وُقُوعِكَ فِي العُجْبِ بِنَفْسِكَ، وذلكَ بسببِهِمْ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ[(٣)]: «**وَسُئِلَ الخَرَّازُ عَنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ فَقَالَ[(٤)]: أَقْوَامٌ أُعْطُوا حَتَّىٰ بُسِطُوا، وَمُنِعُوا حَتَّىٰ فَقَدُوا، ثُمَّ نُودُوا مِنْ أَسْرَارٍ قَرِيبَةٍ: أَلَا فَابْكُوا عَلَيْنَا**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: سُئِلَ عنِ الصُّوفيَّةِ فقالَ: «**قومٌ أُعْطُوا حتَّىٰ بُسِطُوا**»، أيْ: وَالَىٰ عليهِمُ الحقُّ نعمَهُ وفوائدَهُ وخوارقَ عاداتِهِ حتَّىٰ سكنُوا إليهِ، وانشرحَتْ صدورُهُمْ لديهِ، **وَمُنِعُوا** منَ الالتفاتِ إلىٰ غيرِهِ من المخلوقِينَ حتَّىٰ عَنْ أنفسِهِمْ **ففَقَدُوا**[(٥)]، فَلَمَّا كَمُلَ شُغْلُهُمْ بِهِ وَلَمْ يَجِدُوا غَايَةَ مَطْلوبِهِمْ فيهِ نُودُوا في أَسْرَارِهِمْ

(١) طمس في الأصل بمقدار ثلاث كلمات، فلعلها كذلك.

(٢) الإطراء: المبالغة في الثناء.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٢.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٦، ومناقب الأبرار ١/٤٨٢.

(٥) أي: فنوا.

بإشاراتٍ لطيفةٍ معناهَا: «أَلَا فَابكُوا علينا[(١)]»[(٢)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «**وَقَالَ الجُنَيْدُ**[(٤)]: **التَّصَوُّفُ عُنْوَةٌ**[(٥)] **لَا صُلْحَ فِيْهَا.**

وَقَالَ أَيْضًا[(٦)]: **هُمْ أَهْلُ**[(٧)] **بَيْتٍ وَاحِدٍ، لَا يَدْخُلُ فِيهِمْ غَيْرُهُمْ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقولُهُ: «**عُنْوَةٌ لا صُلحَ فيهَا**»، يعنِي: لا صلحَ لهُمْ معَ أنفسِهِمْ، فلَا تَزَالُ مُلاحظتُهُمْ لدسائِسِ أنفسِهِمْ الخَبِيثَة أكيدةً، ولا تزالُ خواطرُ الشَّيطانِ الواردةُ علىٰ نفوسِهِمْ مِنْ قبولِهِمْ لها بعيدةً.

فهذَا معنَىٰ كونِهِ «**عنوةً لا صلحَ فيهَا**»، أيْ: لكمالِ مجاهدتِهِمْ فِي التَّخلِّي والتَّحلِّي فلَا يرونَ خلقًا ذميمًا إلَّا بعدُوا منهُ وتَخَلَّوا عنهُ، ولا يَرَونَ خُلُقًا جَمِيلًا إلا اتَّصَفُوا بهِ وتَحَلَّوا.

وأمَّا كونُهُمْ «**أهلَ بيتٍ واحدٍ**»؛ فلاتِّحادِ مَقْصُودِهِمْ، ورِفْعَةِ مَرَامِهِمْ فيمَا اتَّسمُوا بهِ مِنْ صِفَاتِهِمْ وأَخْلاقِهِمْ[(٨)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٩)]: «**وَقَالَ أَيْضًا**[(١٠)]: **التَّصَوُّفُ: ذِكْرٌ مَعَ اجْتِمَاعٍ،**

---

(١) وذلك لعدم وصولنا إلىٰ مقصودنا؛ لأننا كلما وصلنا إلىٰ مقام، قيل لنا بلسان الحال: مطلوبكم أمامكم؛ إذ لا نهاية لكمالاته تعالىٰ. انظر: نتائج الأفكار ٤/١٠.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٩١ ـ ٧٩٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٢.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٦.

(٥) لأن الصوفي قائم علىٰ نفسه دائما بالمجاهدة لا يغفل عنه.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٦.

(٧) أي: أهل التصوف، فهم أهل بيت واحد؛ لأن التعارف قد سبق في الظهور قبل الظهور.

(٨) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٩٢.

(٩) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٢.

(١٠) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٦.

وَوَجْدٌ مَعَ اسْتِمَاعٍ، وَعَمَلٌ مَعَ اتِّبَاعٍ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا كَلامٌ بالغٌ مُحقَّقٌ صا درٌ علىٰ مقتضَى العلمِ، وذلِكَ أنَّ الذِّكرَ معَ الغفلةِ ليسَ بمحمودٍ، فإنَّ العملَ كلَّهُ بالقلوبِ، وإنَّمَا تصحُّ أعمالُ الجوارحِ إذَا قارنَهَا عملُ القلبِ، فالصُّوفِيُّ ذِكْرُهُ معَ جمعِ همَّتِهِ علَى **اللهِ**، لا يحدِّثُ نفسَهُ بغيرِ مَا هوَ فيهِ، فهذَا «**ذِكْرٌ معَ اجتمَاعٍ**»، وأمَّا «**وجدٌ معَ** [٢/٢٤٧ب] **استمَاعٍ**»، فإنَّ المواجيدَ الصَّحِيحَة ما كانَتْ عنِ السَّماعِ الصَّحِيحِ وكتابِ **اللهِ** - تعالىٰ -، وسُنَّةِ رَسُولِهِ، أو المَواعِظِ الحِسِّيَّة، والحِكَمُ المُهْلِبة[١] المحقَّقَة التي تُحَرِّكُ القُلوبَ، فالوجدُ الصَّحيحُ مَا كانَ مستندًا لبعضِ هذهِ المسموعَاتِ، هذا معنَى قولِهِ: «**وَجْدٌ معَ استماعٍ**».

وأمَّا قولُهُ: «**عملٌ مع اتِّبَاعٍ**»، فهذَا واضحٌ؛ لأنَّ كلَّ عَملٍ[٢]، أوْ حالٍ، أوْ مقامٍ إذَا خلَا عنِ اتِّباعِ السُّنَّةِ فهوَ معرَّضٌ للابتداعِ، وإذَا مالَ إلىٰ الابتداعِ، ذهبَ منه الانتفاعُ.

فالصُّوفِيُّ الحقيقيُّ مَنِ اجتمعَتْ فيهِ هذهِ الثَّلاثُ الخِصَالِ: «**ذِكْرٌ معَ اجتماعٍ، ووجدٌ معَ استماعٍ، وعملٌ معَ اتِّباعٍ**»[٣].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقَالَ أَيْضًا[٥]: الصُّوفِيُّ كَالأَرْضِ، يُطْرَحُ عَلَيْهَا كُلُّ قَبِيحٍ[٦]، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا كُلُّ مَلِيحٍ**».

---

(١) أي: المؤثرة.

(٢) في إحكام الدلالة ٢/٧٩٢: علم.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٩٢.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٢.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٦، وحدائق الحقائق ص١٠٢.

(٦) أي: غير الملائم للنفس.

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ومرادُهُ بـ«**القبيحِ**»: أنَّهُ يتحمَّلُ كلَّ أذىً يطرقُهُ فِي نفسِهِ ومالِهِ وولدِهِ، وغيرِ ذلِكَ منَ المُؤلمَاتِ فيمَا يتعلَّقُ بينَهُ وبينَ ربِّهِ، وينزلُ بهِ منَ القضاءِ، ومَا يكونُ بينَهُ وبينَ العبادِ، ولَا يظهرُ منهُ إلَّا الاحتمالُ والصَّفحُ والعَفْوِ والرِّضَا بالقضَاءِ، وبهذَا الاعتبارِ «**طُرِحَ عليهِ كلُّ قبيحٍ**»، أيْ: مؤلمٍ وخرجَ منهُ «**كلُّ مليحٍ**»، أيْ: حَسَنٍ شَرْعًا.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقَالَ أَيْضًا**[2]**: إِنَّهُ كَالأَرْضِ يَطَؤُهَا البَرُّ وَالفَاجِرُ، وَكَالسَّحَابِ يُظِلُّ كُلَّ شَيْءٍ، وَكَالقَطْرِ يَسْقِي كُلَّ شَيْءٍ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كثرةِ احتمالِهِ وحملِ الأذىٰ، ونفعِ الورَىٰ، وهذِهِ هيَ بعضُ الصِّفاتِ المحمودةِ، وقدْ حقَّقْنَا أنَّ الصُّوفِيَّ: مَنْ تخلَّصَ منَ الصِّفاتِ المذمومةِ، وتخلَّقَ بالصِّفاتِ المحمودةِ، وهذِهِ بعضُهَا، ومَنْ نالَ الكلَّ اندرجَ تحتَهُ البعضُ[3].

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[4]: «**وَقَالَ**[5]**: إِذَا رَأَيْتَ الصُّوفِيَّ يَعْتَنِي بِظَاهِرِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ بَاطِنَهُ خَرَابٌ**».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ ظاهرَهُ للخلقِ وباطنَهُ للحقِّ، ومتىٰ كانَ أكثرُ اعتنائِهِ بِمَا يُظهِرُهُ للخَلْقِ ويُثْنُونَ عليهِ بهِ دلَّ علَىٰ خَرَابِ بَاطِنِهِ؛ مِنْ مُرَاقبةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وكَمَالِ هوَاهُ، وقدْ يطلبُ الشَّرعُ فِي بَعْضِ الأوقاتِ جمالَ الظَّاهرِ فِي الأعيادِ والجمعِ وإقامةَ أُبَّهةِ الدِّينِ، فلا يلزمُ منَ الاعتناءِ بظاهرِهِ علىٰ هذَا الوجهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٢.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٦، وحدائق الحقائق ص١٠٢.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٧٩٢.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٢.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٧، وحدائق الحقائق ص١٠٢.

خرابُ باطنِهِ؛ لأنَّهُ إنَّمَا اعتنىٰ بظاهرِهِ لمولَاهُ لا لهوَاهُ[(١)] [٢٤٨/٢أ].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ[(٣)]: الصُّوفِيُّ: مَنْ يَرَىٰ دَمَهُ هَدرًا، وَمُلْكَهُ مُباحًا**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا هو حدّه ومعناهُ في وصْفِ الفقيرِ أنَّهُ لا يملكُ شيئًا ولَا يضيفُهُ إلَىٰ نفسِهِ إضافةَ مِلْكٍ؛ لا من مالٍ، ولا عَمَلٍ، ولا حَالٍ، ولذلِكَ وصفَهُ بأنَّهُ «**يرَىٰ مالَهُ مُباحًا، وَدمَهُ هَدرًا**»، أي: لو قُتِلَ فِي سَبيلِ اللهِ، وفيما هو فيه من الجِدِّ في الخيرِ، وَلَمْ يُطَالبْ الجدّ بدمِهِ؛ لأنَّهُ يثري الفِتْنَة منَ اللهِ، ولَا يلزمُ مِنْ هذَا إقدامُهُ بنفسِهِ علَىٰ مَا يهلكُهَا، فذا منهيٌّ عنهُ شرعًا، وإنَّمَا يفهمُ علَىٰ ما يمكنُهُ ويتحمَّلُ فيهِ المشاقَّ، فإنْ أُجْرِيَ عليهِ القَدَرُ فَهُوَ راضٍ بهِ مِنْ غَيْرِ كَرَاهَةٍ ولا ضَجَرٍ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقَالَ النُّورِيُّ[(٥)]: نَعْتُ الصُّوفِيِّ السُّكُونُ عِنْدَ العَدَمِ، وَالإِيْثَارُ عِنْدَ الوُجُودِ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قَدْ تقدَّمَ شرحُهُ[(٦)]؛ وهُوَ أنَّهُ لَا يدَّخِرُ شيئًا فضلَ عَنْ حَاجَتِهِ، بَلْ يُؤْثِرُ بالمحتاجِ إليه، ولَا يُمَكَّنُ فِي حالِ الوجودِ مِنْ هذا الإيثارِ إلَّا كُلُّ مَنْ قوِيَ تَوكُّلُهُ، وتَمَكَّنَ فِي سُكُونِهِ وثِقَتِهِ عندَ العَدَمِ[(٧)].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٩٢/٢ ـ ٧٩٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٤٤٢/٢.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٨، وعوارف المعارف ص١٤٩، وحدائق الحقائق ص١٠١.

(٤) الرسالة القشيرية ٤٤٢/٢.

(٥) سبق تخريجه في هذا الباب.

(٦) الدلالة ٣٩٨/٣.

(٧) يوضحه شرحه له فيما مضىٰ بقوله: «فإنَّ الموجبَ لسكونِهِ عندَ العدمِ ثقتُهُ بالضَّمانِ، والمُوجبُ لإيثارِهِ عندَ الوجودِ تحصيلُ رِضَا الرَّحمنِ».

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ الكِتَّانِيُّ[٢]: التَّصَوُّفُ: خُلُقٌ[٣]، وَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الخُلُقِ، فَقَدْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الصَّفَاءِ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا يحسنُ أنْ يقولَ فيهِ: التَّصوُّف مأْخذُهُ مِن الصَّفاءِ، فَمَنْ زادَ عليكَ فِي اكتِسَابِ الأخلاقِ الحميدةِ زادَ عليكَ فِي الصَّفاءِ، وإلا متىٰ أجرىٰ التَّصوُّف لقبًا علىٰ مَنْ تخلَّىٰ عنِ الأخلاقِ الذَّميمةِ وتَحلَّىٰ بالأخلاقِ الحَمِيدَة، وتتفاوتُ النَّاسُ فِي هذا التَّخلِّي والتَّحلِّي علىٰ حَسَبِ مجاهداتِهِمْ، [وَوَعدِ][٤] الحَقّ لهُمْ.

والصَّوابُ أنْ يقالَ: «التَّصوُّفُ خُلُقٌ، مَنْ زادَ عليكَ فِي الخُلُقِ زادَ عليكَ فِي التَّصوُّفِ».

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الرُّوزبارِيُّ[٦]: التَّصَوُّفُ: الإِنَاخَةُ عَلَىٰ بَابِ الحَبِيبِ[٧]، وَإِنْ طُرِدَ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا صحيحٌ، فإنَّ الصُّوفِيَّ مَنْ كمُلَتْ أخلاقُهُ، وحسُنَتْ مُراقبتُهُ لِمولاهُ، فِي سَائِرِ مُتقلَّبِهِ ومَثْواهُ؛ قَلَّتْ غفلتُهُ عنهُ، فَعَبَدُهُ كأنَّهُ يَراهُ، وربَّمَا وردَ عليهِ علىٰ مَا هوَ فيهِ حِجَاب، فأَدَّبَهُ العُكُوف علىٰ البَاب، فإنَّ حِجَابَ بُعْدِهُ وغَفْلَتَهُ عَنْ مَقَامِهِ الشَّرِيف، وَتَوفِيقِهُ سُرْعَةُ إِنَابَتِهِ إلىٰ البَرِّ اللَّطِيف [٢/٢٤٨ب].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أي: تخلق بالأخلاق الجميلة.

(٤) طمس في الأصل بمقدار كلمة، فلعلها كذلك.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٢.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٩، ومناقب الأبرار ٢/٦٨١، وحل الرموز وكشف الكنوز ص١١٧.

(٧) أي: بروك العبد علىٰ باب الحبيب.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ أَيْضًا[٢]: صَفْوَةُ القُرْبِ بَعْدَ كُدُورَةِ البُعْدِ.

وَقَالَ أَيْضًا[٣]: أَقْبَحُ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ صُوفِيٌّ شَحِيحٌ[٤].

وَقِيلَ[٥]: التَّصوُّفُ: كَفٌّ فَارِغٌ، وَقَلْبٌ طَيِّبٌ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الأقوالُ كلُّهَا مِنْ علاماتِ التَّصوُّفِ وأَمَاراتِه.

وأمَّا قولُهُ: «صَفْوَةُ القُرْبِ بَعْدَ كُدُورَةِ البُعْدِ» والشَّكّ إِلَىٰ زمنِ المجاهدةِ وزمنِ القُربِ ووجودِ الرَّاحةِ، فالصُّوفيُّ زمان[٦] معالجة أخلاقِهِ الذَّميمةِ ليتخلَّصَ منهَا، وأخلاقِهِ الحميدةِ ليتصفَ بهَا، فهوَ موقوفٌ معَ أخلاقِهِ وأحوالِهِ، فهيَ كدورة هي بعينِ مشاهدتِهِ ودوام نَظَرِهِ بقلبِهِ لِمَولَاهُ.

فإذَا تخلَّصَ مِنْ ذلكَ ولذَّتْ لهُ الطَّاعات، ودامَتْ مراقبتُهُ لمولَاهُ في حالِ الحركاتِ والسَّكنات، وتحسَّسَ لمَا يُجرِيهِ عليهِ منَ الألطافِ والبَرَكَات، والخلعِ والكرَامَاتِ، فَقَدْ وجدَ صفوةَ القُرْبِ.

وأمَّا قولُهُ: «أقبحُ مِنْ كلِّ قبيحٍ صوفِيٌّ شحيحٌ» فصحيحٌ، وذلِكَ أنَّ شُحَّهُ في الدُّنيَا دليلٌ علىٰ حبِّهِ لهَا، وشحَّهُ بأعمالِ الآخرةِ دليلٌ علىٰ قلَّةِ رغبتِهِ فيهَا، وإيثارِ الرَّاحةِ عليهَا.

وحُكِيَ[٧] أنَّ ذا النُّونِ لِقَيَ امرأةً فِي سِيَاحَتِهِ، فسألَتْهُ عنِ السَّخاءِ، فقالَ:

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٢.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٩، ومناقب الأبرار ٢/٦٨١.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٩، وطبقات الصوفية ص٣٧١، وتاريخ دمشق ٥/٢٠، وشذرات الذهب ٣/٦٨.

(٤) أي: شحيح بكسبه.

(٥) نسب للخواص في: قوت القلوب ٢/٣٤٦، وورد بلا نسبة في: حدائق الحقائق ص١٠١.

(٦) هكذا في الأصل.

(٧) وردت عنه في: حلية الأولياء ٩/٣٤٠، ووردت عن إسماعيل بن عبد الرحمن الكوفي في:=

البذْلُ والعطاءُ بسهولةٍ، فقالَتْ: هذَا السَّخاءُ فِي الدُّنيَا فمَا السَّخاءُ فِي الدِّينِ؟ قالَ لهَا: المسارعةُ إلىٰ طاعةِ المولَىٰ، قالَتْ: فإذَا سارَعتَ إلَىٰ طاعةِ المولَىٰ تطلبُ علىٰ ذلِكَ أجْرًا؟، قالَ لهَا: نعم، للواحدِ عَشْرًا، واللهُ يضاعِفُ لمَنْ يشاءُ، قالَتْ: مرْ بإبطالِ هذَا، [هَذَا][1] فِي الدِّينِ قبيحٌ، إذَا أعطيتَ واحدةً وأعطاكَ عشرًا، فبأيِّ شيءٍ تَسَخَّيتَ؟! إنَّ فِي نفسِي حاجةً منذُ كذَا، وكذا استحيَيْتُ أنْ أسألَ اللهَ فيهَا؛ خوفًا مِنْ أنْ أكونَ كالأجيرِ السُّوءِ إذَا عمِلَ لطلبِ الأُجرةِ.

وأمَّا قولُهُ: «**كفٌّ فَارِغٌ وقَلْبٌ طَيِّبٌ**» يدلُّ علىٰ كمالِ الزُّهدِ في الحاصلِ، والتَّوكُّلِ فِي المُمْكِنِ، والرِّضَا بالواقِعِ، وهذَا كمالُ أحوالِ الصُّوفِيِّ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ الشِّبْلِيُّ[3]: التَّصوُّفُ: الجُلُوسُ مَعَ اللهِ[4] بِلَا هَمٍّ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذَا قريبٌ ممَّا تَنَجَّزَ الفراغُ منهُ؛ وهوَ أنَّ مَنْ قوِيَ زهدُهُ وتوكُّلُهُ ورِضَاهُ وتفويضُهُ عندَ اللهِ بلا هَمٍّ فِي أمْرِ دنيَاهُ وآخرتِهِ؛ لعِلْمِهِ بحُسْنِ اختيارِ اللهِ لهُ، وكمالِ لُطْفِهِ بهِ وبرِّهِ[5].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[6] [٢/٢٤٩أ]: «**وَقَالَ ابْنُ مَنْصُورٍ[7]: الصُّوفِيُّ: المُشِيرُ**

= شعب الإيمان ٣٧٣/١، وإتحاف السادة المتقين ٥٨٩/١٢، وعن حبان بن هلال في: إحياء علوم الدين ٢٦١/٣.

(١) تتمة يقتضيها المقام من حلية الأولياء.

(٢) الرسالة القشيرية ٤٤٢/٢.

(٣) ورد قوله في: حل الرموز وكشف الكنوز ص١١٥.

(٤) المراد: ملازمة الطاعة ابتغاء وجهه عَزَّ وَجَلَّ محبة وإجلالا. انظر: نتائج الأفكار ١٣/٤.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٧٩٣/٢.

(٦) الرسالة القشيرية ٤٤٢/٢.

(٧) أي: الحلاج، وورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٩، ومناقب الأبرار ٧٠١/٢.

عَنِ اللهِ[١] ، فَإِنَّ الخَلْقَ أَشَارُوا إِلَى اللهِ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ ، فإنَّ كلَّ قلبٍ تكونُ إشارتُهُ علىٰ ما غلبَ عليهِ ، وعنهُ يعبِّرُ لسانُهُ ، فمَنْ كانَ دائمَ النَّظرِ إلى اللهِ للشُّغلِ بهِ ، وجميلِ مراقبتِهِ لمَا يبدُو منهُ في قلبِهِ ،

وكـلُّ إنـاءٍ بالَّـذِي فيـهِ ينضَـحُ[٢] ... ...

ومَنْ كانَ معَ الحقِّ[٣] وتدبيرِ نفسِهِ ونَقْلِهَا عنْ عوائدِهَا الذَّميمةِ ، ونَدَمِهِ علىٰ ما كانَ منهَا منَ التَّقصيرِ فِي سَالفِ زَمَنِهَا ، وهوَ يكابدُ نفسَهُ ويُجَاهِدُهَا ، ويشيرُ إلىٰ ربِّهِ ويسألُهُ العَوْنَ عليهَا ، وتقويتَهُ علىٰ حملِهَا علَىٰ استقامتِهَا ، وهذَا حالُ أكثرِ الخلقِ المستقيمِينَ ، إشارتُهُمْ إلىٰ اللهِ تعالىٰ ، وطلبُهُمُ العونَ منهُ علىٰ ما هُمْ بصددِهِ.

وأمَّا الصُّوفِيُّ الذِي تخلصَّ مِنْ نفسِهِ ودامَ شغلُهُ بربِّهِ ؛ فإنَّمَا ينطقُ لسانُهُ ، ويشيرُ إلىٰ ألطافِ ربِّهِ ، وما تفضَّلَ عليهِ بخلْقِهِ لهُ في جارحتِهِ وقلبِهِ ، ولذلِكَ قِيلَ[٤] : «العارفُ يُشِمُّكَ المِسْكَ والعَنْبَرَ ، والزَّاهدُ يسعطكَ[٥] الخلَّ والخَرْدَلَ» ؛ وذلِكَ أنَّ الزَّاهدَ أكثرُ كلامِهِ فِي عيوبِ النَّفسِ وآفاتِهَا وطرقِ مجاهدَتِهَا فِي نقلِهَا عنْ سوءِ عادتِهَا ، وهذَا مؤلِمٌ للنُّفوسِ.

والعارفُ أكثرُ كلامِهِ وإشاراتِهِ لمَا نالَهُ منَ الفوائدِ والألطَافِ ، ومَا يواليهِ عليهِ بالجودِ والإسعافِ ، وبكلامِهِ توجدُ الرَّاحاتُ ، وبسماعِ أحوالِهِ مَعَ الحقِّ تعيشُ

---

(١) أي: بواسطة زيادة أنوار قلبه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في (أ): الخلق ، والتصويب من: إحكام الدلالة ٢/٧٩٤ ، وقد أفاد الشيخ زكريا من المؤلف ذلك.

(٤) نسب ليحيىٰ بن معاذ في: إحياء علوم الدين ٤/٢٤٢ ، ومدارج السالكين ٢/١١.

(٥) في القاموس ص٨٦٥: «سعطه الدواء كمنعه ونصره ، وأسعطه إياه سعطة واحدة وإسعاطة واحدة: أدخله في أنفه».

القلوبُ ويكمُلَ لَهَا الرَّاحاتُ، ولذلِكَ شبَّهَهُ بـ«شمِّ المسكِ والعنبرِ»(١).

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقَالَ الشِّبْلِيُّ(٣): **الصُّوفِيُّ مُنْقَطِعٌ عَنِ الخَلْقِ(٤)، مُتَّصِلٌ بِالحَقِّ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١]، قَطَعَهُ عَنْ كُلِّ غَيْرٍ، ثُمَّ قَالَ ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾(٥) [الأعراف: ١٤٣]**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الصُّوفِيَّ مَنْ كمُلَ انشغالُهُ بربِّهِ حتَّىٰ أغفلَهُ ذلكَ عنْ نفسِهِ، وتوالَتْ عليهِ ألطافُهُ حتَّىٰ لمْ يخطرْ ببالِهِ غيرُهُ، وكمُلَ حُبُّهُ لهُ ـ جلَّ وعزَّ ـ واستغراقُهُ.

وهذَا معنَىٰ «اتِّصالِهِ»؛ لأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ منزَّهٌ عنِ الاتِّصالِ والانفصالِ المعهودِ، وإنَّمَا اتِّصالُ العبدِ بربِّهِ غلبةُ ذِكْرِهِ علَىٰ قلبِهِ حتَّىٰ يُنسِيَهُ شغْلُهُ بهِ نفسَهُ، فضْلًا عَنْ غيرِهِ، وهذَا معنَىٰ «اصطفائِهِ» ـ سبحانه ـ لعبدِهِ، أيِ: اختصَّهُ بخصائصِ قُرْبِهِ [٢/٢٤٩ب]، وشَغَلَهُ(٦) [بِهِ عَنْ كُلِّ غَيْرٍ].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/٧٩٣ ـ ٧٩٤.

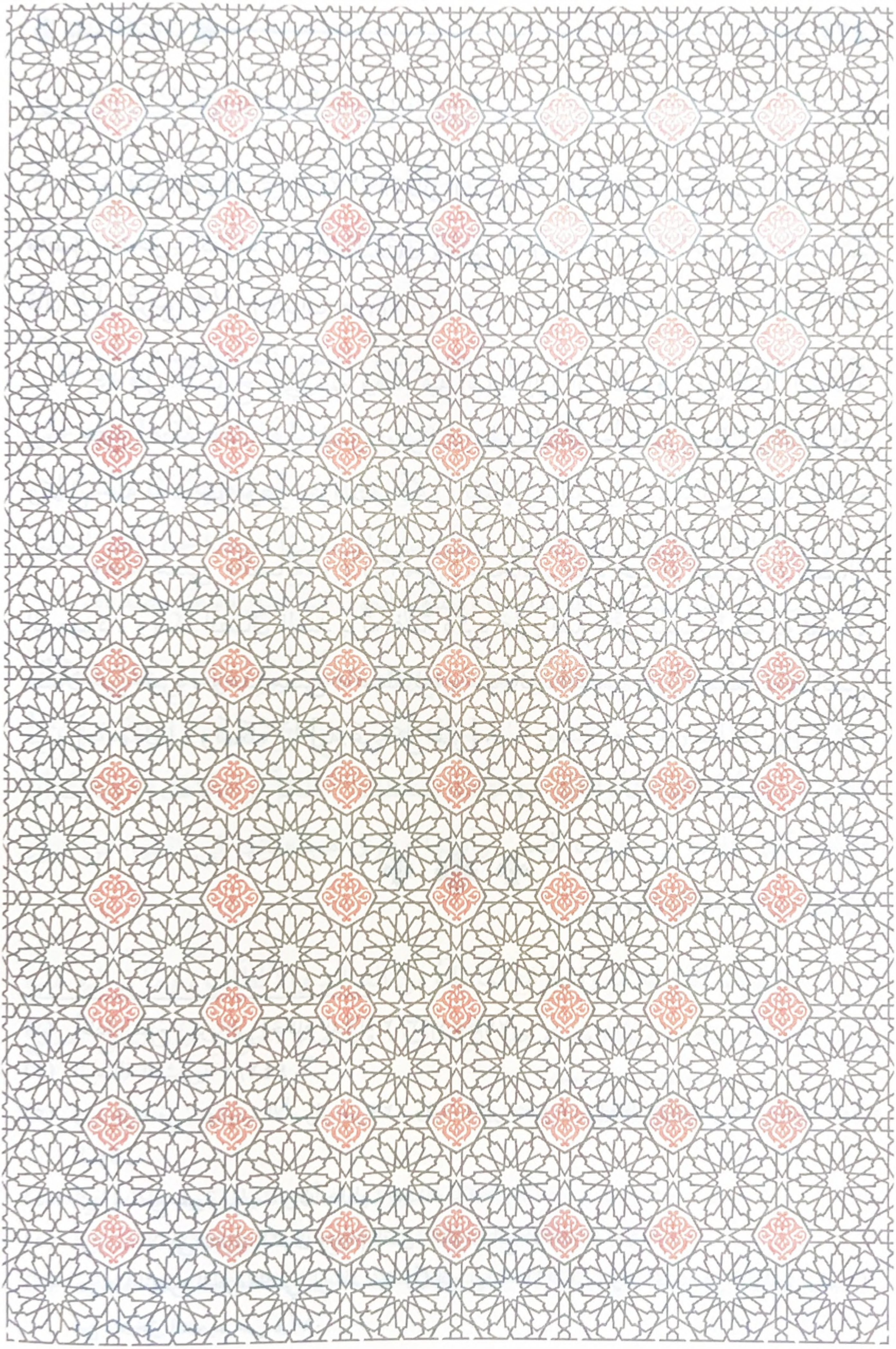
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٢.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٢٩، وفيه: «غير متصل»، وإيقاظ الهمم ص١٦، ولفظه كلفظ المؤلف.

(٤) أي: منقطع عنهم بقلبه، وإن خالطهم بجسده.

(٥) أي: كمالا في تحرك الشوق ودوام القلق. انظر: نتائج الأفكار ٤/٧٩٤.

(٦) **من هنا انخرم الجزء الثاني من النسخة (أ) إلىٰ نهاية هذا الباب، وقد أكملته في (الملحق رقم ١) من ملاحق التتميم ص ٤/٧.**



[٣/١أ] الجُزْءُ الثَّالِثُ مِنْ كِتَابِ

«الدِّلَالَةِ عَلَى فَوَائِدِ الرِّسَالَةِ»

المَنْسُوبِ إِلَى الإِمَامِ القُشَيْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

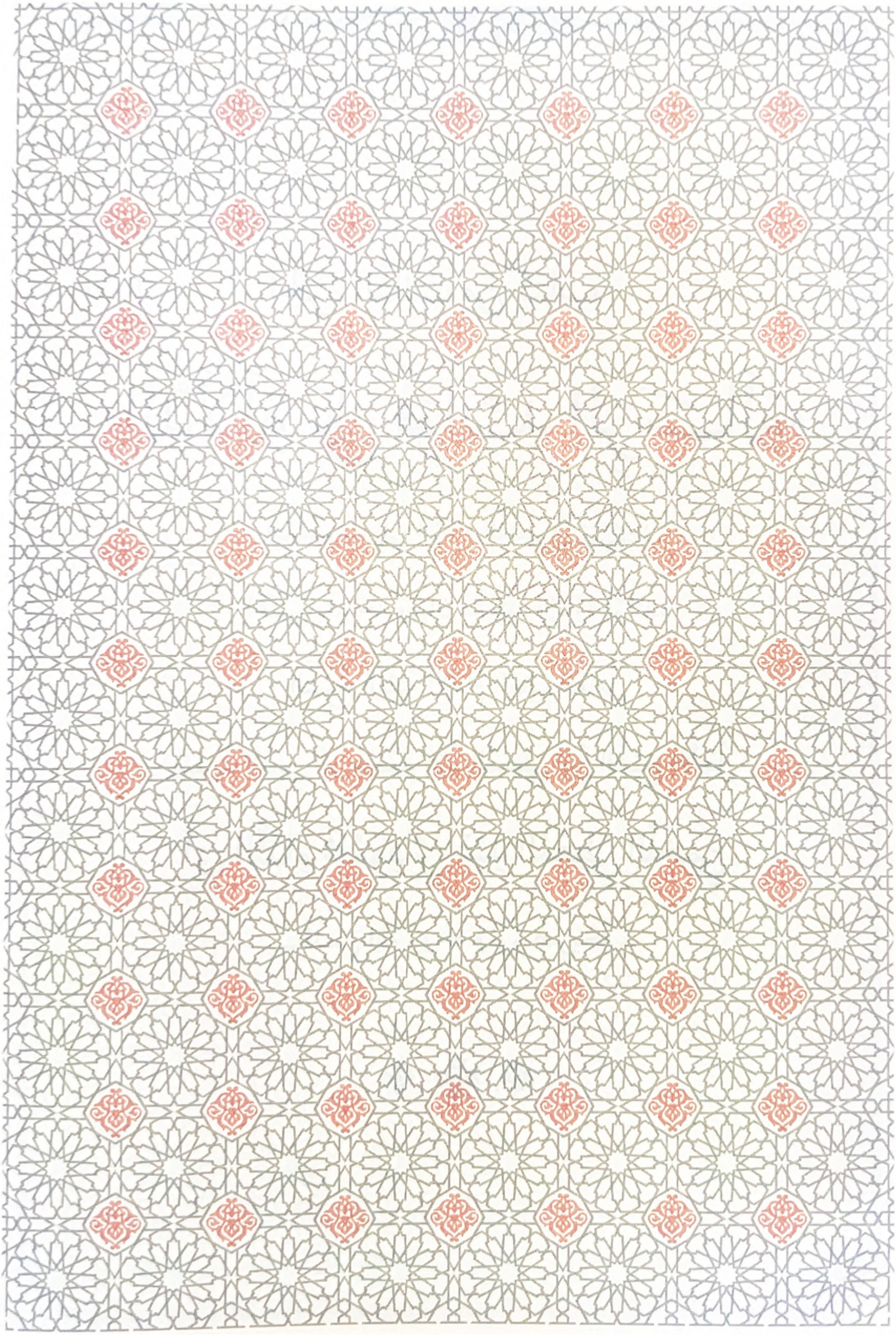
اعْتَنَى بِشَرْحِهِ وَبَيَانِ مُشْكِلِهِ وَإِثَارَةِ فَوَائِدِهِ

الشَّيْخُ الفَقِيهُ الإِمَامُ العَالِمُ العَامِلُ

سَدِيدُ الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ المُعْطِي ابْنُ الشَّيْخِ الأَجَلِّ

أَبِي الثَّنَاءِ مَحْمُودِ بْنِ عَبْدِ المُعْطِي اللَّخْمِيِّ

ـ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ ـ



[٣/٢أ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«بَابُ الأَدَبِ(٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]؛ قِيلَ: حَفِظَ آدابَ الحَضْرَةِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اتَّفَقَ أكثرُ أهلِ التَّفسيرِ علىٰ أنَّ المرادَ: بصَرُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَّهُ فيمَا رأىٰ مِنْ آياتِ ربِّهِ الكُبْرَىٰ لمْ يلتفِتْ يميناً ولا شمالاً، ولا ﴿طَغَىٰ﴾؛ أيْ: تعدَّىٰ إلىٰ رؤيةِ ما لَمْ يُؤذَنْ لهُ فيهِ(٣).

فبهذا الاعتبارِ قَالَ الإمَامُ: «**كَانَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حفظاً لآدابِ الحَضْرَةِ**».

ومِنْ جُملةِ الآدابِ الواضحةِ فِي الكتابِ العزيزِ: جوابُ عيسَىٰ بنِ مريمَ لمَّا سألَهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، فلَمْ يسرعْ فِي الجوابِ ـ صلَّىٰ اللهُ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ بقولِهِ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧] حتَّىٰ صَدَّرَ الكلامَ بتنزيهِهِ ـ تعالىٰ ـ عنْ أنْ يكونَ معَهُ شريكٌ أوْ شبيهٌ أو عديلٌ فِي الإلَهيَّةِ، برَّأَ نفسَهُ

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٥.

(٢) قال العروسي: «الأدب اسم جامع لحقائق الخيرات، وأنواع المبرات، وأصناف المحسنات، ومع ذلك فهو مختلف باختلاف همم المتأدبين...» نتائج الأفكار ٤/٢٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢٧/٥٧، والبغوي ٤/٢٤٩.

أَنْ يضيفَ لهَا ما لا تستحقُّهُ، فقالَ: ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]، ثمَّ قالَ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ تبرئةً مِنْ قولِهِ بإضافةِ عِلمِ ذلكَ إلىٰ مَنْ لا تخفَىٰ عنهُ خافيةٌ، وشرحَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، وهذَا كلُّهُ أدبٌ لحفظِ الحرمةِ، وتركَ السُّرعةَ فِي الجوابِ؛ حفظًا لشريفِ الآدابِ[١]، ثُمَّ قالَ بعدَ ذلكَ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾[٢] [آية: ١١٧]، فهذَا صَرِيحٌ فِي الكتاب، دليلٌ علىٰ كَمالِ الآدابِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾** [التحريم: ٦]، **جَاءَ فِي التَّفْسِيرِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ**[٤]: **فَقِّهُوهُمْ وَأَدِّبُوهُمْ**».

أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الأَهْوَازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، **أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ الصَّفَّارُ البَصْرِيُّ، حَدَّثَنَا تَمْتَامٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ النُّعْمَانِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ المَلِكِ بْنُ الحُسَيْنِ، عن**[٥] **عَبْدِ المَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ**[٦]، **عَنْ مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ، عَنْ عَائِشَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، **عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ** [٢/٣ب]: **[حَقُّ الوَلَدِ عَلَىٰ وَالِدِهِ أَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ، وَيُحْسِنَ**

---

(١) هذا نوع أدبٍ من خمسة أنواع، نص عليها العروسي بقوله: «وهو منحصر في خمسة؛ أولها: حفظ الحرمة مع الله تعالىٰ، ومع من له نسبة في جانب الله... الثاني: علوم الهمة في الدين والدنيا بحيث لا يكون له تعلق بشيء من النقائض... الثالث: حسن الخدمة بلزوم الاتباع، وترك الابتداع... الرابع: نفوذ العزيمة بحيث لا يسمح لنفسه في حل عزيمة، ولا يتراخىٰ في محل التشمير، ولا يركن لموطن التقصير. الخامس: شكر النعمة، وأصله شهود المنة لله تعالىٰ، وهو مبني علىٰ خالص التوحيد وخالص الإيمان...» نتائج الأفكار ٤/٢٢.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٠١.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٤٥.

(٤) روي عنه في: معالم التنزيل ٤/٣٦٧، وروي عن علي بن أبي طالب في: البر والصلة للمروزي ص٩٩، وزاد المسير ٨/٣١٢. وانظر: تفسير الطبري ٢٨/١٦٦، والسمرقندي ٣/٥٧٣.

(٥) في (الأصل): بن، والصواب المثبت.

(٦) في (ف): عمر.

مَرْضَعهُ[١] ، وَيُحْسِنَ أَدَبَهُ»[٢]][٣] . [.............................][٤] .

وقدَّر ما لمْ يقعْ ولا يكونُ أبدًا منْ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ لَوْ بعثَ رسولًا فِي زمانِهِ لمْ يزِدْ تعظيمُهُ لهُ علىٰ تعظيمِهِ لشيخِهِ، وهذَا بعدَ علْمِهِ بأنَّهُ يستحيلُ أنْ يكونَ نبيٌّ في زمانِهِ ولَا رسولٌ.

وإنَّمَا بالغَ فِي التَّقديرِ وتعريفِ التَّعظيمِ لشيخِهِ والاحترامِ، وإلَّا فهوَ مُحاشَىٰ منزَّهٌ عَنْ أنْ يُساوِيَ احترامَهُ وتعظيمَهُ لأحدٍ منَ الأنبياءِ بغيرِهِمْ، فإنَّ الأنبياءَ والرُّسُلَ لهُمْ منَ المزيَّةِ والرُّتبةِ عندَ الحقِّ ـ سبحانه ـ ما ينبغِي أنْ لَا يقرنُوا بغيرِهِمْ منَ الأولياءِ، ولوْ بلغَ الوليُّ مَا عسَاهُ أنْ يبلغَ لمْ يصِلْ إلىٰ درجةِ الأنبياءِ؛ فضْلًا عنِ الرُّسُلِ إلَىٰ خلقِهِ، وإنَّمَا شبَّهَ ومثَّلَ مَا في نفسِهِ بمَا لا يقعُ أبدًا تقريبًا للأذهانِ، واللهُ المستعَانُ[٥].

❁ **قالَ الإمامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «**أَخْبَرنَا حَمْزَةُ بْنُ يُوسُفَ السُّهمِيُّ الجُرْجَانِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **قَالَ: أَخْبَرنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ العَبْدِيُّ قَالَ: أَخْبَرنَا أَبُو عَوانَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ تَمِيمٍ أَبُو الأَحْوَصِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ النَّضْرِ الحَارِثِيِّ قَالَ[٧]: أَوْحَىٰ اللهُ ـ سبحانه ـ إِلَىٰ مُوسَىٰ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيهِ ـ: كُنْ يَقْظَانًا،**

---

(١) أي: رضاعته.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤٠١/٦، وقال: «فيه ضعف»، والصيداوي في معجم الشيوخ ص٣٢٠.

(٣) تتمة يقتضيها المقام.

(٤) **وقع من هنا خرم في الأصل، شمل بقية باب الأدب، وباب أحكام الصوفية في السفر، وبعض باب الصحبة في الله تعالىٰ، فاستدركته في (ملحق رقم ٢) من ملاحق التتميم ١٩/٢.**

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٨٣٥/٢.

(٦) الرسالة القشيرية ٤٦١/٢.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر ص٥٦، وابن حنبل في الزهد ص٨٥، وأبو نعيم في الحلية ٢٢٢/٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٥٣/٦١.

مُرْتَادًا لِنَفْسِكَ أَخْدَانًا، وُكلُّ خِدْنٍ لا يُوَاتِيكَ عَلَىٰ مَسَرَّتِي فَأَقْصِهِ، وَلا تَصْحَبْهُ، فَإِنَّهُ يُقَسِّي قَلْبَكَ، وَهُوَ لَكَ عَدُوٌّ، وَأَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِي تَسْتَوْجِبْ شُكْرِي، وَالمَزِيدَ مِنْ فَضْلِي.

سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ المُعَلِّمِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الطَّمَسْتَانِيَّ، يَقُولُ[١]: اِصْحَبُوا مَعَ اللهِ، فَإِنْ لَمْ تُطِيقُوا فَاصْحَبُوا مَعَ مَنْ يَصْحَبُ مَعَ اللهِ؛ لِتُوصِلَكُمْ بَرَكَاتُ صُحْبَتِهِمْ إِلَىٰ صُحْبَةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فَفِيمَا نقلَ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أوحَاهُ إلىٰ موسَىٰ ـ صلَّى اللهُ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ مِنَ الخيرِ مَا نُنَبِّهُ عليهِ.

فقولُهُ: «كُنْ يَقْظَانًا»، أيْ: بعيدًا منَ الغفلاتِ، وهذَا فيهِ إشارةٌ لمراقبةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عندَ الحَرَكاتِ والسَّكناتِ، وسائرِ أفعالِ القلوبِ والجَوارحِ، ومُرَاقبةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي استشعارِ نَظَرِهِ إليكَ.

وقولُهُ: «مُرْتَادًا لِنَفْسِكَ أَخْدَانًا»، يعنِي: إخوانًا وأصحابًا يُعِينُونَكَ علىٰ ما أنتَ بصدَدِهِ ممَّا أمرَهُ باليقظةِ لهُ، «فكلُّ خَدْنٍ وصَاحبٍ لا يُعينُكَ علىٰ مسرَّتِي»؛ يعنِي: مَا أحبُّهُ ممَّا أمرْتُكَ بهِ ونَدَبْتُكَ إليهِ ـ، «فأقصِهِ» عنكَ، أيْ: فأَبْعِدْهُ وعرِّفْهُ أنَّهُ ليسَ بخِدْنٍ ولا صاحبٍ، وإنَّمَا هوَ [٣/١٣أ] عدوٌّ، فإنْ لمْ يُعِنْكَ علىٰ مقصودِكَ، فهوَ يصدُّكَ عَنْ مُرَادِكَ بحَالَتِهِ وإِشَارَتِهِ[٢].

وأمَّا الحكايةُ فِي وصيَّتِهِ[٣] فسمَّىٰ الجزاءَ علىٰ الذِّكْرِ شُكْرًا.

---

(١) ورد قوله في: عوارف المعارف ص٢٥١ ـ ط/العلمية، ومنارات السائرين ص٢٠٤، ومرقاة المفاتيح ٩/٤١٧.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٣٥.

(٣) أي: في قوله: «وَأَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِي تَسْتَوْجِبْ شُكْرِي».

وأمَّا وصيَّةُ أبِي بكرٍ الطَّمستَانِيِّ وقولُهُ لأصحابِهِ: «**اصحبُوا معَ اللهِ، فإنْ لمْ تطيقُوا هذَا فاصحبُوا معَ مَنْ يصحبُ معَ اللهِ**»، ومرادُهُ: اشتغلُوا باللهِ لَا بغيرِهِ، وإنْ لمْ تطيقُوا هذَا فاصحبُوا مَنْ يشتغلُ باللهِ لا بغيرِهِ؛ لتتعلَّمُوا منهُ كيفَ تشتغلونَ باللهِ[١]، وقَدْ تقدَّمَ جَوَازُ إطلاقِ الصُّحبةِ معَ اللهِ، وقولُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]: «أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ».

(١) قال العروسي: «أفاد به أن العبد إذا قصرت همته بنفسه ينبغي له أن يتعرض للمدد والنفحات بالاجتماع علىٰ أصحاب الأسرار والبركات» نتائج الأفكار ٤/٦٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢/٩٧٨ ـ حديث رقم (١٣٤٢).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«بَابُ التَّوْحِيدِ

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣].

أَخْبَرَنَا الإِمَامُ أَبو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ بْنِ فُورَكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَحْمُودِ بْنِ خُرَّزَاذَ قَالَ: حَدَّثَنَا مَسِيحُ بْنُ حَاتِمٍ العُكْلِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا الحَجَبِيُّ؛ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ شُعَيْب بن أَبِي صَدَقَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٢]: «بَيْنَا رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُم لَمْ يَعمَلْ خَيْرًا قَطُّ إِلا التَّوْحِيدَ، فَقَالَ لأَهْلِهِ: إِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُّوا نِصْفِي فِي البَرِّ وَنِصْفِي فِي البَحْرِ فِي يَوْمٍ رائِحٍ، فَفَعلُوا، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلرِّيحِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ - تعالىٰ -، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: اسْتِحْيَاءً مِنْكَ؛ فَغَفَرَ لَهُ».

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وروَىٰ هذَا الحديثَ (مسلمٌ[٣] والبخاريُّ)[٤] يرفعانِهِ إلىٰ أَبِي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لِأَهْلِهِ: إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي البَرِّ وَنِصْفَهُ فِي البَحْرِ، فَوَ اللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُ بِهِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ، فَأَمَرَ اللهُ البَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ البَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ اللهُ لَهُ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٢٨٢ ـ حديث رقم (٣٢٩١)، ومسلم في صحيحه ٤/٢١١٠ ـ حديث رقم (٢٧٥٦).

(٣) في صحيحه ٤/٢١٠٩ ـ حديث رقم (٢٧٥٦).

(٤) في صحيحة ٦/٢٧٢٥ ـ حديث رقم (٧٠٦٧).

وفي لفظٍ آخرَ[١]: «أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ أَوْصَىٰ..»، فَدلَّ هذَا الخبَرُ الصَّحيحُ علىٰ أنَّهُ موحِّدٌ عارفٌ باللهِ ـ تعالىٰ ـ، يدلُّ علىٰ ذلِكَ جوابُهُ لمَّا سألَهُ اللهُ عمَّا فعلَ بنفسِهِ فقالَ: «مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ [٣/٣ب] وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فصدَّقَهُ وغفرَ لهُ»، وإنَّمَا يخشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ بِهِ.

وقولُهُ: «لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ» يعنِي: زيادةً علَىٰ المعرفةِ، ويدلُّ عليهِ الخبَرُ الثَّانِي قولُهُ: «أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ»، فدلَّ جميعُ ذلكَ علَىٰ أنَّ التَّوحيدَ سببٌ فِي النَّجاةِ منَ النَّارِ، وهوَ أفضلُ الطَّاعاتِ وأشرفُهَا[٢]، وشرطٌ في صحَّةِ جميعِهَا.

وقولُهُ: «لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيَّ» معناهُ: لئِنْ ضيَّقَ عليَّ فِي المُؤاخذةِ والحِسَابِ لَيُعَذِّبَنِّي عذابًا أليمًا، ويدلُّ عليهِ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، أيْ: مَنْ ضَيَّقَ عليهِ، وقَدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ في حقِّ يونسَ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ أيْ: نُضَيِّقَ، قالَهُ أهلُ التَّفسيرِ[٣].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «التَّوحِيدُ: الحُكْمُ بِأَنَّ الشَّيْءَ وَاحِدٌ، وَالعِلْمُ بِأَنَّ الشَّيْءَ وَاحِدٌ تَوْحِيدٌ؛ يُقَالُ: وَحَّدْتُهُ؛ إِذَا وَصَفْتُهُ بِالوَحْدَانِيَّةِ، كَمَا يُقَالُ: شَجَّعْتُ فُلَانًا؛ إِذَا وَصَفْتَهُ بِالشَّجَاعَةِ.

وَيُقَالُ فِي اللُّغَةِ[٥]: وَحِدَ يَحِدُ فَهُوَ وَاحِدٌ وَوَحدٌ وَوَحِيدٌ[٦]، كَمَا يُقَالُ: فَرِدَ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢١١٠ ـ حديث رقم (٢٧٥٦).

(٢) لأن الشيء يشرف بشرف موضوعه، وموضوع هذا العلم ذاته عَزَّوَجَلَّ السَّنية، وصفاته العلية.

(٣) انظر: تفسير مقاتل ٣/٣٧٣، والسمعاني ٣/٤٠٣، والبغوي ٣/٢٦٦.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٢.

(٥) انظر: الصحاح ٢/٥٤٨، والمحكم، واللسان «وح د».

(٦) أي: منفرد.

فَهُوَ فَارِدٌ وَفَرْدٌ وَفَرِيدٌ.

وَأَصْلُ أَحَدٍ: وَحَدٌ؛ فَقُلِبَتِ الوَاوُ هَمْزَةً، وَالوَاوُ المَفْتُوحَةُ قَدْ تُقْلَبُ هَمْزَةً(١)، كَمَا تُقْلَبُ المَكْسُورَةُ وَالمَضْمُومَةُ، وَمِنْهُ امْرَأَةٌ أَسْمَاءُ، بِمَعْنَى: وَسْمَاءَ مِنَ الوَسَامَةِ.

وَمَعْنَى كَوْنِهِ ـ سبحانه ـ وَاحِدًا عَلَى لِسَانِ العِلْمِ:

قِيلَ: هُوَ الَّذِي لَا يَصِحُّ فِي وَصْفِهِ الوَضْعُ وَالرَّفْعُ، بِخِلَافِ قَوْلِكَ: إِنْسَانٌ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّكَ تَقُولُ: إِنْسَانٌ بِلَا يَدٍ وَلَا رِجْلٍ، فَيَصِحُّ رَفْعُ شَيْءٍ مِنْهُ، وَالحَقُّ ـ سبحانه ـ أَحَدِيُّ الذَّاتِ(٢)، بِخِلَافِ اسْمِ الجُمْلَةِ الحَامِلَةِ(٣).

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ: مَعْنَى أَنَّهُ وَاحِدٌ: نَفْيُ القَسِيمِ لِذَاتِهِ، وَنَفْيُ التَّشْبِيهِ عَنْ حَقِّهِ وَصِفَاتِهِ(٤)، وَنَفْيُ الشَّرِيكِ مَعَهُ فِي أَفْعَالِهِ وَمَصْنُوعَاتِهِ».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمَّا ما ذكرَهُ الواحدُ مِنْ جهةِ الاشتقاقِ والتَّصريفِ؛ هوَ أنَّ أصلَ أَحَدٍ: وَحَدٌ، ثُمَّ قلبَتِ الواوُ همزةً، كمَا قالُوا فِي أسماءَ مِنَ السِّمَةِ والحُسْنِ، وهيَ وَسْمَاءُ(٥)، فقلبُوا الواوَ همزةً فقريبٌ(٦).

وقولُهُ: «فأمَّا الواحدُ» فهوَ ما يصحُّ فيهِ الخفضُ والرَّفعُ، فإنَّ الخفضَ والرَّفعَ تابعٌ للأجرامِ والأجسامِ، فالبارِئُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ واحدٌ ليسَ بمعنَى جزءٍ كأجزاءِ

---

(١) انظر: تفسير الأسماء والصفات للبغدادي ١/٤٩٣ ـ بتحقيقي، ومظان حاشيته.

(٢) أي: واحدها لا يقبل التركيب فيها.

(٣) قال العروسي: «أي: الاسم الموضوع للدلالة على جملة مركبة؛ من حيوانية وناطقية، وحاملة لأجزاء تركبت منها الشخصية التي هي تحت النوعية» نتائج الأفكار ٤/٧١.

(٤) أي: عن مثل ذاته وصفاته.

(٥) من الوسامة؛ وهي الحُسْن.

(٦) انظر: سر الصناعة ١/٩٢، واللباب للعكبري ٢/٢٩٣، والممتع الكبير ص٢٢٣، وسفير السعادة ١/٦٢.

الجواهرِ الَّتِي لا تقبلُ القِسْمةَ، فهوَ [٣/١٤أ] ـ سبحانه ـ يستحيلُ عليهِ القِسْمَةُ والتَّركيبُ، فإنَّهُ ليسَ بِجِرْمٍ ولا جُزْءٍ، وهوَ واحدٌ في ذَاتِهِ، وواحدٌ في صِفَاتِهِ، وواحدٌ في أفعالِهِ، فذاتُهُ لا تُشْبِهُ الذَّواتِ، وصفاتُهُ لا تُشبهُ الصِّفاتِ، ولَا فِعْلَ لغيرِهِ حتَّىٰ يكونَ شَرِيكًا لَهُ فِي فعلِهِ، أوْ شَبِيهًا أو عَدِيلًا، فالحقُّ ـ سبحانه ـ مُخَالِفٌ لمخلُوقاتِهِ كلِّهَا مُخَالَفَةً مُطْلَقَةً.

وأمَّا التَّوحيدُ فإذَا أطلقَ بالنِّسبةِ للعبدِ: فمَنِ اعتقدَ أنَّ الحقَّ واحدٌ فهوَ مُوحِّدٌ، ومَنْ علِمَ بالدَّليلِ أنَّ الحقَّ واحدٌ فهوَ مُوحِّدٌ، ومَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ رؤيةَ الحقِّ حتَّىٰ غفلَ عنِ الخَلْقِ فهوَ مُوحِّدٌ، وهذَا التَّوحيدُ هوَ الَّذِي يشيرُ إليهِ الصُّوفيَّةُ.

والتَّوحيدُ الكائنُ عندَ الاستدلالِ هوَ توحيدُ العلماءِ، والتَّوحيدُ الكائنُ عنِ الاعتقادِ الصَّحيحِ هوَ توحيدُ الكافَّةِ للخلقِ، فمَنْ حصلَ لهُ التَّوحيدُ الأوَّلُ فهوَ منَ المُؤمنينَ، ومَنْ حصلَ لهُ الثَّانِي فهوَ مِنَ العَالِمِينَ، ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١]، ومَنْ حصلَ لهُ التَّوحيدُ الثَّالثُ فهو توحيدُ العارِفِينَ؛ الَّذينَ غلبَ علىٰ قُلُوبِهِمْ رؤيةُ الواحِدِ وكَمَالُهُ وجَلالُهُ حتَّىٰ اشتَغَلُوا بِهِ عَنْ أنفسِهِمْ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِم(١).

وأمَّا التَّوحيدُ بالنِّسبةِ إلىٰ الحقِّ جلَّ اسمُهُ، فالبارِئُ ـ سبحانه ـ عالمٌ بأنَّهُ واحدٌ فِي نفسِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، الثَّانِي: أنَّهُ ناصبُ الأدِلَّةَ للخلقِ علَىٰ معرفةِ وحدانيَّتِهِ وجلالِهِ وعظمَتِهِ، فهوُ موحِّدٌ بمعنَىٰ نصبِهِ الدَّليلَ للخَلْقِ علَىٰ وحدانيَّتِهِ، وكذلِكَ إلهامُهُ الاعتقادَ الصَّحيحَ المعلومَ بالأدلَّةِ للمؤمِنينَ، السَّالِمَ منَ البِدَعِ والشُّبَهِ، توحيدٌ فهوَ مُوحِّدٌ بمعنَىٰ: أنَّهُ خلقَ لهُمْ هذَا التَّوحيدَ، فتوحيدُ العبادِ المكتَسَبِ لهُمْ علَىٰ ثلاثِ درجاتٍ، كلُّ درجةٍ فيهَا أقسامٌ متفاوتَاتٌ، وأصلُهَا مَا ينجُو العبدُ بِهِ منَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٣٧.

الكفرِ وينسلكُ بهِ في جُمْلَةِ المؤمِنينَ، وأعلاهَا لَا ينحصرُ ولا يَنْضَبِطُ؛ لِصَلاحيَّةِ القُدْرَةِ لِكُلِّ مُمْكِنٍ، والإمكانُ لا حَصْرَ لهُ، وقَدْ قَالَ ـ تعالىٰ ـ لِنَبيِّهِ عَلَيهِ السَّلَامُ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَالتَّوْحِيدُ ثَلَاثَةٌ: تَوْحِيدُ الحَقِّ لِلْحَقِّ؛ وَهُوَ عِلْمُهُ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ، وَخَبَرُهُ عَنْهُ[٢] بِأَنَّهُ وَاحِدٌ.

وَالثَّانِي: تَوْحِيدُ الحَقِّ لِلْخَلْقِ؛ وَهُوَ حُكْمُهُ ـ سبحانه ـ [٣/٤ب] بِأَنَّ العَبْدَ مُوَحِّدٌ، وَخَلْقُهُ تَوْحِيدَ العَبْدِ.

وَالثَّالِثُ: تَوْحِيدُ الخَلْقِ لِلْحَقِّ، وَهُوَ عِلْمُ العَبْدِ بِأَنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ وَاحِدٌ، وَحُكْمُهُ وَإِخْبَارُهُ عَنْهُ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ.

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ فِي مَعْنَىٰ التَّوْحِيدِ، عَلَىٰ شَرْطِ الإِيجَازِ وَالتَّحْدِيدِ[٣]».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ عالِمٌ بأنَّهُ واحدٌ، ومتكلِّمٌ بكونهِ واحِدًا بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، فهذَا أحَدُ الأقسامِ الثَّلاثةِ.

القِسْمُ الثَّانِي: أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ حكمَ لمَنْ عرفَهُ بالتَّوحيدِ، وشهِدَ لهُ بهِ، وَأَثْنَىٰ عليهِ بأنَّهُ مِنَ المُوحِّدينَ.

والقِسْمُ الثَّالِثُ: توحيدُ العبدِ ربَّهُ، وقَدْ تقدَّمَ تقسيمُنَا لهُ بأنَّ مَنِ اعتقدَ أنَّ اللهَ واحدٌ اعتقادًا صحيحًا موافقًا لمَا عِلمَ بالدَّليلِ فهوَ مُوحِّدٌ، وكذلِكَ مَنْ عِلمَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٣.

(٢) إي: إخباره عنه.

(٣) في (أ): والتجويد، والأصح المثبت، قال الشيخ زكريا: «والتحديد ـ بدالين ـ: التعريف» إحكام الدلالة ٢/٨٣٩.

وحدانيَّتَهُ، وكذلِكَ مَنْ غلبَ علَىٰ قلبِهِ كمالُ انفرادِهِ بالأفعالِ وخروجُ غيرِهِ عَنْ إيجادِ ذرَّةٍ مِنْ مثقالٍ وصَارَ ذلِكَ حالًا لهُ وغالبًا علىٰ قَلْبِهِ فهوَ مُوحِّدٌ.

فالأوَّلُ: توحيدُ أكثرِ المؤمنِينَ.

والثَّانِي: توحيدُ العلماءِ المُوفَّقِينَ.

والثَّالثُ: توحيدُ العارِفِينَ والمستغرِقِينَ فِي جلالِهِ وعظمتِهِ، الفانِينَ عن أنفسِهِم الباقِينَ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «**وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الشُّيوخِ عَنْ[2] مَعْنَىٰ التَّوحِيدِ.**

سَمِعْتُ الشَّيخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَاذَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ يَقُولُ: وَقَدْ سُئِلَ عَنِ التَّوحِيدِ؟ فَقَالَ[3]: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ قُدْرَةَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي الأَشْيَاءِ بِلَا مِزَاجٍ، وَصُنْعَهُ لِلْأَشْيَاءِ بِلَا عِلَاجٍ، وَعِلَّةُ كُلِّ شَيْءٍ صُنْعُهُ، وَلَا عِلَّةَ لِصُنْعِهِ، وَمَهْمَا تَصَوَّرَ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ، فَاللهُ بِخِلَافِهِ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أشارَ ذُو النُّونِ فِي التَّوحيدِ إلىٰ انفرادِ الحقِّ ـ سبحانه ـ عن خلقِهِ بذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ؛ فذاتُهُ وَصِفَاتُهُ وأفعالُهُ مُخَالِفَةٌ لمخلوقاتِهِ مُخَالَفَةً مطلقةً.

فبهذَا الاعتبارُ كانَ واحدًا فِي ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ؛ وهوَ الَّذِي تضمَّنَتْهُ سورةُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٢.

(٢) في (ف): في.

(٣) ورد قوله في: الإبانة لابن فورك ص٤٢، واللمع للطوسي ص٤٩، وإتحاف السادة المتقين ١/٣٧٨.

(الإخلاصِ)؛ مِنْ كونِهِ واحدًا[١] صمدًا ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤]، وقد تقدَّمَ تفسيرُهُ في أوَّلِ العقيدةِ[٢].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣] [٣/١٥أ]: **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ زَكَرِيَّا يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَطَاءٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ صَالِحٍ يَقُولُ: قَالَ الجُرَيْرِيُّ[٤]: لَيْسَ لِعِلْمِ التَّوْحِيدِ إِلَّا لِسَانُ التَّوْحِيدِ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا فيهِ إشارةٌ إلى الفَرْقِ بينَ علمِ التَّوحيدِ وحالِ التَّوحيدِ؛ وذلِكَ أنَّ مَنْ عَلِمَ وحدانيَّةَ الحقِّ ـ سبحانه ـ بالدَّليلِ فغايةُ وُسْعِهِ أنْ يعبِّرَ عمَّا علِمَ بعبارةٍ سديدةٍ مخلصةٍ منَ الشُّبَهِ والإشكالاتِ.

وأمَّا مَنْ عرَفَ الحقَّ ووحدانيَّتَهُ ولمْ يرَ في الوجودِ غيرَهُ وغلبَ ذلكَ على قلبِهِ شَغَلَتْهُ عنْ غيرِهِ، فأحوالُهُ دالَّةٌ عليهِ ناطقةٌ عنْ حالِهِ وإنْ كانَ ساكنًا[٥]، وإشارتُهُ إلى ما وجدَهُ منْ حقيقةِ التَّوحيدِ تكونُ عندَ أكثرِ النَّاسِ خافيةٌ غامضةٌ، ولذلِكَ أشارَ سيِّدُ هذهِ الطَّائفةِ الجُنَيْدُ لمَّا سُئِلَ عنِ التَّوحيدِ فقالَ[٦]: «عِلْمُ التَّوحيدِ مُبَاينٌ لوجودِهِ، ووجودُهُ مباينٌ لعلمِهِ»، يعنِي: أنَّ حالَ العارفِ بالتَّوحيدِ مُبَاينٌ لمَنْ غلبَ عليهِ حالُ التَّوحيدِ، ولذلِكَ قالَ[٧]: «سمِعْتُ أنَّ العبدَ يصِلُ إلى حالةٍ لوْ ضُرِبَ فيهَا بالسَّيفِ

---

(١) الأصح: أحدًا، كما هو في لفظ الآية، ولأن أحدًا لا يُبني عليه العدد ابتداء، فلا يقال: أحد واثنان، كما يقال: واحد واثنان، كما قال أبو العباس ثعلب. انظر: تفسير أبو السعود ٢١٢/٩. وانظر: الصحاح ٤٤٠/٢.

(٢) الدلالة ١٣٧/١.

(٣) الرسالة القشيرية ٤٦٢/٢.

(٤) ورد قوله في: منارات السائرين ص٢٩.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٨٣٩/٢.

(٦) ورد قوله في: التعريفات ص٣٢٤، ومدارج السالكين ٦٨/٣، وشرح منازل السائرين للفركاوي ص١٣٥.

(٧) رواه الجنيد عن السري، كما في: الرسالة القشيرية ١٥٩/١.

لمْ يَشْعُرْ» ، وكانَ فِي نفسِي مِنْ ذلكَ شيءٌ حتَّىٰ وَجَدْتُهُ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[١] : **«وَسُئِلَ الجُنَيْدُ عَنِ التَّوْحِيدِ ؛ فَقَالَ[٢]: إِفْرَادُ المُوَحَّدِ بِتَحْقِيقِ وَحْدَانِيَّتِه بِكَمَالِ أَحَدِيَّتِهِ ؛ أَنَّهُ الوَاحِدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ؛ بِنَفْيِ[٣] الأَضْدَادِ وَالأَنْدَادِ وَالأَشْبَاهِ ، بِلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَكْيِيفٍ ، وَلَا تَصْوِيرٍ وَلَا تَمْثِيلٍ ، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾** [الشورى: ١١]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هذَا هوَ الَّذِي قدَّمْنَا ذِكْرَهُ مِنْ أنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُشبِهُ شيئًا مِنْ مخلوقاتِهِ ولا يُشبِهُهُ[٤] ، وأنَّهُ مُنزَّهٌ عنِ المكانِ والزَّمانِ والحُلُولِ والانتقالِ ، ولَا يحُلُّ فِي شيءٍ ولَا يحلُّ فيهِ شيءٌ ، وهوَ معنَىٰ نفْيِ الولَدِ والوالِدِ.

ومعنَىٰ كلامِهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: تَنْزِيهُهُ عَنْ خَلْقِهِ مطلقًا ، ولهذَا قالَ شيخُ السُّنَّةِ أبُو عبدِ اللهِ الأنصارِيُّ الهرويُّ[٥]: «حقيقةُ التَّوحيدِ: إفرادُ القدمِ منَ الحدَثِ» ، والحدثُ عبارةٌ عنِ الخَلْقِ الكائنِ بعدَ أنْ لَمْ يكُنْ ، والخالقُ ـ سبحانه ـ واحدٌ لمْ يزَلْ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٦]: **«وَقَالَ الجُنَيْدُ[٧]: إِذَا تَنَاهَتْ عُقُولُ العُقَلَاءِ فِي التَّوحِيدِ تَنَاهَتْ إِلَىٰ الحَيرَةِ.**

سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ** [٣/٥ب] **أَبَا الحَسَنِ بْنَ مِقْسَمٍ**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٢.

(٢) مر تخريجه في الدلالة ١/١٣٢ ، وانظر: اللمع للطوسي ص٤٩.

(٣) أي: مع نفي سائر الأضداد.

(٤) أي: لا يُشبهه شيء.

(٥) منازل السائرين ص١٣٥ ، ولفظه: «التوحيد: تنزيه الله تعالىٰ عن الحدث». وسبق هذا القول للجنيد في: الرسالة القشيرية ١/١٩.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٢.

(٧) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص١٢٤.

يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ ذَلِكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحَيرةُ الَّتِي إذَا تناهَتْ عقولُ العقلاءِ فِي التَّوحيدِ وصلَتْ إليهَا ليسَتْ حيرةَ شكٍّ ونفيٍ حتَّىٰ يصلُوا إلىٰ التَّعطيلِ، ولَا إثباتَ جهةٍ وجِرْمٍ حتَّىٰ يصِلُوا إلَىٰ التَّجسيمِ، بَلْ علِمُوا واحدًا فردًا قديمًا منزَّهًا عنِ القُربِ والبُعدِ المعهودِ(١)، ليسَ داخلَ العالمِ فيكونَ محصورًا ولا خارجًا عنهُ فيكونَ مُسَامِتًا(٢) محيطًا، وآثارُ قدرتِهِ تدلُّ علىٰ وجودِهِ، وبدائِعُ حِكمتِهِ تَدُلُّ علىٰ كمالِ عِلْمِهِ وإرادتِهِ، فقد وصلُوا إلىٰ معلومٍ ثابتَ الوجودِ، منزَّهًا عنِ الأقطارِ والحدودِ، مطهَّرًا مِنْ أنْ يحملَهُ والدٌ أوْ يكونَ عنهُ مولودٌ.

فمَنْ ثبَّتَهُ اللهُ هذَا التَّثبيتَ، وعرَّفَهُ بقلبِهِ هذهِ المعرفةَ، ونَزَّهَ وجودَهُ عنِ الجِسْمِيَّةِ والجِهَةِ، فهوُ الَّذِي يراهُ في آخرتِهِ بإدراكٍ يخلقُهُ لهُ فِي بصرِهِ، يرىٰ مَنْ عرَفَهُ كمَا عرَفَهُ، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَسُئِلَ الجُنَيْدُ عَنِ التَّوحِيدِ، فَقَالَ(٤): مَعْنًىٰ تَضْمَحِلُّ فِيهِ الرُّسُومُ، وَتَنْدَرِجُ فِيهِ العُلُومُ، وَيَكُونُ اللهُ كَمَا لَمْ يَزَلْ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا إشارةٌ إلىٰ أنَّ التَّوحيدَ معنًىٰ يخلُقُهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي قلبِ المُوحِّدِ العَارفِ بهِ، ويغلبُ ذلكَ علَىٰ قلبِهِ حتَّىٰ لا يَرَىٰ غيرَهُ ولَا يذكُر ولَا يَشْعُر؛ لغلبةِ ذلكَ علَىٰ قلبِهِ(٥).

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٣٩.

(٢) سامت الشَّيءَ: واجهه ووازاه. انظر: معجم اللغة المعاصرة ٢/١١٠٤.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٢.

(٤) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٩، ولوامع البينات للرازي ص٢٣٣، ونفحات الأنس من حضرات القدس ص٢٥.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٠.

ومَنْ ثبَّتَهُ اللهُ فِي هذَا المَقَامِ وعلِمَ أنَّ هذَا المَعْنَىٰ فضلٌ تفضَّلَ بهِ عليهِ مَولَاهُ فِي دُنْيَاهُ وخَصَّهُ بهِ؛ إذْ لَا فاعلَ عندَهُ سِوَاهُ، ومَنْ زلَّ ونظرَ إلىٰ شَريفِ هذِهِ الحالةِ الَّذِي اشتغلَ بالحقِّ فيهَا عمَّنْ سِوَاهُ؛ إمَّا أنْ يقعَ فِي الحُلُولِ، أوْ يقولَ: لا يُعرَفُ القَدِيمُ إلَّا بالقديمِ، وربَّمَا جرَىٰ علىٰ لسانِهِ وقتَ الطَّيشِ مَا لا يليقُ جريانُهُ، فإنْ كانَ معلومًا كانَ معذورًا، وغيرُهُ أكمَلُ وأثبَتُ.

قالَ بعضُهُمْ[1]: «مَا رأيتُ شيئًا حتَّىٰ رأيتُ اللهَ قبلَهُ»، فهذَا الشَّيءُ الَّذِي رآهُ عامٌّ فِي كلِّ مَا يخلقُهُ لهُ ويُوحِّدُهُ، فنظرُهُ سابقٌ إلىٰ الفاعلِ قبلَ الفِعْلِ.

وبعضُهُمْ قالَ: «ما رأيتُ شيئًا حتَّىٰ رأيتُ اللهَ معَهُ»، وهذَا وقوعُ الفعلِ بذِكْرِهِ فاعلَهُ [٣/١٦أ]، وكلاهُمَا محفوظٌ، فالأوَّلُ فُضِّلَ علىٰ الثَّانِي.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ الحُصَرِيُّ**[3]: **أُصُولُنَا فِي التَّوحِيدِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ: رَفْعُ الحدثِ، وَإِفْرَادُ القدمِ، وَهَجْرُ الإِخْوَانِ، وَمُفَارَقَةُ الأَوْطَانِ، وَنِسْيَانُ مَا عُلِمَ وَجُهِلَ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا كلامٌ رفيعٌ خفِيٌّ يحتاجُ إلىٰ إظهارِهِ لتَبْيينِ مَنْزلتِهِ، وذلِكَ أنَّ قولَهُ: «**رَفْعُ الحَدَثِ**»[4] إشارةٌ إلىٰ الإعراضِ عنْ غيرِ اللهِ، و«**إثباتُ القدَمِ**» كمالُ شغلٍ باللهِ، ولا يلزمُ مِنْ إعراضِهِ عنْ غيرِ اللهِ منَ المخلوقاتِ إخلالُهُ بمَا أمرَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ منَ الطَّاعاتِ، وإحلالُهُ لمَنْ أمرَهُ بإحلالِهِ ممَّنْ شركَهُ

---

(١) مر تخريجه والذي يليه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٤.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٨٦١، ومنارات السائرين ص٢٩، ومشرب الأرواح ص٨١، وسراج الغيوب في أعمال القلوب ص٣١٠.

(٤) في نتائج الأفكار ٤/٧٦: «يشير بذلك إلىٰ من به تعرف ذات الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ قاعدة أصول السادة الصوفية».

وفضَّلَهُ منَ الأنبياءِ والملائكةِ وغيرِ ذلكَ، فإنَّ شُغْلَهُ بذلِكَ شغلٌ باللهِ وبمَا أمرَهُ بهِ اللهُ، وإنَّمَا يُعرضُ عنِ الخَلْقِ لعلمِهِ بأنَّهُمْ لا يضرُّونَهُ ولا ينفعُونَهُ، ونفسُهُ مِنْ جُملتِهِمْ، ومَنِ اشتغلَ بهِ منهُمْ فلَا مرضَ يضرُّهُ وينفعُهُ وهوَ اللهُ ـ سبحانه ـ، فقالَ هذَا الشَّيخُ: أُصولُنَا ألَّا نسكنَ لغيرِ اللهِ، ولا نشتغلَ إلَّا باللهِ وبمَا أَمَرنَا أَنْ نفعلَهُ لهُ.

وأمَّا «**هجرُ الإخوانِ**» إنَّمَا يكونُ للتَّفرُّغِ لكمالِ الشُّغلِ بهِ، والتَّلذُّذِ بمناجاتِهِ، ومَنْ أمرَهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ بخلطتِهِ والرُّجوعِ إليهِ فِي دينِهِ أوْ مؤاخاتِهِ فيهِ لا يهجرُهُ؛ لأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أمرَهُ بمواصلتِهِ، وإنَّمَا مُرادُهُ الخُرُوجُ عَنْ عَاداتِ الإخوانِ مِنْ أبناءِ الزَّمانِ، ومُفَارَقَةُ المُعْتَادِ ودوامُ الشُّغلِ بربِّ العبادِ.

و«**مفارقةُ الأوطانِ**» يحتملُ أمرَينِ:

أحدُهُمَا: الوطنُ المعتادُ والمعهودُ بينَ الأهلِ.

و[**الثَّانِي**]: يحتملُ أنْ يجِدَّ فِي السُّلوكِ ولَا يسكنَ إلىٰ مقامٍ سُكُونًا يمنعُهُ منَ الارتقاءِ إلىٰ غيرِهِ، وإنَّمَا يَدُومُ في المَقَامِ بمقدارِ ما يحكمُهُ علىٰ حسبِ ما يحبُّ مَولَاه، فإذَا أراهُ مَا سِواهُ، انتقلَ إليهِ بجدِّهِ وكَمالِ تَقْوَاه.

وأمَّا نسيانُ ما علِمَ وجهِلَ فيحتملُ نسيانُهُ لمَا كانَ يسكنُ إليهِ مِنْ مصالِحِهِ الَّتِي يستحسنُهَا، ومفاسدِهِ الَّتِي يُتقِنُهَا ويكرهُهَا، ويُعرِضُ عَنْ ذلكَ ولا يلتفتُ إليهِ رضًىٰ بمَا يختارُهُ الحقُّ لهُ ويُجريهِ عليهِ[(١)].

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**سَمِعْتُ مَنْصُورَ [بن خَلفٍ]**[(٣)] **المَغْرِبِيَّ يَقُولُ**[(٤)]:

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٤.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٨٦٢، ولوامع البينات ص٢٣٣.

كُنْتُ فِي صَحْنِ الجَامِعِ بِبَغْدَادَ ـ يَعْنِي: جَامِعَ المَنْصُورِ ـ وَالحُصَرِيُّ يَتَكَلَّمُ فِي التَّوحِيدِ، فَرَأَيْتُ مَلَكَينِ يَعْرُجَانِ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا [٣/٦ب] لِصَاحِبِهِ: الَّذِي يَقُولُ هَذَا الرَّجُلُ عِلْمٌ وَالتَّوْحِيدُ غَيْرُهُ، يَعْنِي: كُنْتُ بَيْنَ اليَقْظَةِ وَالنَّوْمِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ صريحةٌ فِي الفَرْقِ بينَ علمِ التَّوحيدِ وحالِ التَّوحيدِ(١)؛ وذلكَ أنَّ هذَا المتكلِّمَ كانَ يكلِّمُ النَّاسَ بالأدلَّةِ الدَّالَّةِ علَى وحدانيَّتِهِ؛ لينقلَهُمْ عنِ الاعتقادِ إلى درجةِ العلمِ؛ لِتَرْتَفِعَ درجتُهُمْ عندَ ربِّهِم، كمَا قالَ ـ تعالى ـ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فكانَ هذَا الرَّائِي جالسًا في سطحِ الجامعِ يستمعُ لكلامِ الحُصَرِيِّ، فإمَّا طرأَ عليهِ نَومٌ خفيفٌ رأى الملَكَينِ، وإمَّا اشتغلَ حسُّهُ فكُوشِفَ برُؤيةِ الملَكَينِ صَاعِدَينِ وأحدُهُمَا يقولُ لِصَاحِبِهِ: «**هَذَا الَّذِي يتكلَّمُ فيهِ عِلْمُ التَّوحيدِ لَا حقيقةُ التَّوحيدِ**».

وفائدةُ هذِهِ المكاشفةِ: تحريكُ هذَا الرَّائِي إلى الانتقالِ عَنْ علمِ التَّوحيدِ إلى حَالِ التَّوحيدِ؛ ليكونَ فِي أعلَى درجاتِ المُوحِّدينَ، فإنَّ مَنْ كانَ في حَالِ التَّوحيدِ فعِلمُ التَّوحيدِ حاصلٌ عندَهُ، ومَنْ كانَ فِي عِلمِ التَّوحيدِ فاعتقادُ التَّوحيدِ الصَّحيحِ حاصلٌ عندَهُ، فمتَى بلغَ إلى الذُّروةِ العُليَا فِي مقامِ التَّوحيدِ كانَ مُحْتَوِيًا على مقَاماتِهِ(٢) وكَاشِفًا لهَا، ومُتَمَكِّنًا لبيانِهَا لمَنْ أرادَهَا(٣)، واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) والفرق بينهما أن علم التوحيد إنما ينشأ من النظر في الأدلة العقلية والسمعية الموصلة إلى الاعتقاد الجازم بأنه سبحانه وتعالى واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، وحال التوحيد إنما نشأ من غلبة التوحيد على قلب الموحد بواسطة تكرر الأدلة على قلبه المثمر لليقين، الذي أشار إليه بعض العارفين بقوله: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا»، فعلم التوحيد مبادئ، وحال التوحيد من النهايات. انظر: نتائج الأفكار ٤/٧٩.

(٢) أي: مشتملا عليها متصفًا بها.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٠.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقَالَ فَارِسٌ: التَّوْحِيدُ هُوَ إِسْقَاطُ الوَسَائِطِ عِنْدَ غَلَبَةِ الحَالِ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهَا[(٢)] عِنْدَ الأَحْكَامِ، وَإِنَّ الحَسَنَاتِ لَا تُغَيِّرُ الأَقْسَامَ[(٣)]؛ مِنَ الشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا كلامُ محقِّقٍ جامعٍ بينَ العلومِ والأحوالِ[(٤)]، وكمالِ مقامِ التَّوحيدِ والورعِ، والنَّظرِ إلى السَّابقِ واللَّاحقِ.

فأمَّا قولُهُ: «التَّوْحِيدُ هُوَ إِسْقَاطُ الوَسَائِطِ عِنْدَ غَلَبَةِ الحَالِ»[(٥)] والوسائطُ هُمُ الأَدِلَّاءُ علَى الحقِّ، فمتَى وجدَ الإنسانُ المدلولَ واستغرقَ فيهِ، فكمالُ استغراقِهِ فيهِ إسقاطُ الوسائطِ عَنْ قلبِهِ ذِكْرًا[(٦)]، وَمَتَى سُرِّيَ عنهُ مِن حَالِهِ ورجعَ إلى ذِكْرِهِمْ أجَلَّهُمْ تعظيمًا وعرَفَ لهُمْ قدرًا؛ وهوَ الرُّجوعُ إليهَا عندَ الأحكامِ.

وقولُهُ: «وَإِنَّ الحَسَنَاتِ لَا تُغَيِّرُ الأَقْسَامَ» فيهِ إشارةٌ إلى عدمِ السُّكونِ إلى الأعمالِ الصَّحيحةِ [٣/١٧أ] الَّتِي رتَّبَ عليهَا الشَّرعُ الثَّوابَ؛ خوفًا مِنْ أنْ يكونَ سبقَ والعياذُ باللهِ فِي قدرِ اللهِ وسابِقِ عِلْمِهِ مَا يُحبطُهَا، فلَا يسكنُ العبدُ لعملٍ وإنْ جلَّ وإنْ علَتْ رُتْبَتُهُ فيهِ[(٧)]، وحقُّهُ أنْ يكونَ فِي نفسِ اشتغالِهِ بهِ خائفًا مِمَّا سبقَ لهُ، فإنَّهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٤.

(٢) أي: إلى الوسائط؛ وذلك لضرورة قيامه بأعباء التكاليف الشرعية.

(٣) أي: الأزلية.

(٤) أي: بين حال الصحو وحال السكر والغيبة. انظر: نتائج الأفكار ٤/٨٠.

(٥) قال العروسي: «الحاصل أن ذلك معناه الإشارة إلى ثمرة الإشارة بعد تحقيقه للعبد، فتارة تغلبه أحواله فتسقط عنده الوسائط، وتارة يعود إلى الصحو فيرجع إليها عند الأحكام، واعلم أن الكمال في الكمال» نتائج الأفكار ٤/٧٩ ـ ٨٠.

(٦) بضم فسكون، أو بكسر وسكون، وأرادتهما معًا أظهر. انظر: نتائج الأفكار ٤/٨٠.

(٧) ولذلك ورد في الحكم العطائية: «سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار». انظر: كشف الغطاء عن حكم ابن عطاء ص٥٤ ـ بتحقيقي.

لا ﴿ يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩][(١)]، وكذلِكَ يكونُ في حالِ اشتغالِهِ بربِّهِ وكَمالِ مُناجَاتِهِ لهُ مُرَاعِيًا لأدبِهِ؛ لئلَّا يتكرَّمَ الحقُّ عليهِ بفضْلِهِ فينبسطَ ويدلَّ إِدْلالًا، ويكونَ سَبَبَ حَجْبِهِ وَبُعْدِهِ، فحقُّ العبدِ فِي عملِهِ وإتقانِهِ لطاعاتِهِ أنْ يكونَ خَائفًا رَاجِيًا، وفِي كَمَالِ شُغْلِهِ بربِّهِ أَنْ يَكُونَ مُجِلًّا مُنَادِيًا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٢)]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ شَاذَانَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الشِّبْلِيَّ يَقُولُ**[(٣)]: **التَّوْحِيدُ: صِفَةُ المُوَحِّدِ حَقِيقَةً**[(٤)]، **وَحِلْيَةُ المَوَحِّدِ رَسْمًا**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ فإنَّ كَوْنَ الحقِّ - سبحانه - مَوصُوفًا بالوحدانيَّةِ أمرٌ ثابتٌ لهُ لمْ يزَلْ، وإذَا مَنَّ علىٰ العبدِ بمعرفةِ وحدانيَّتِهِ علمًا أَوْ حالًا فهيَ خِلْعَةٌ مخلوقةٌ خَلَعَهَا علىٰ العبدِ، وحليةٌ حسنةٌ حلَّاهُ بهَا فِي دنياهُ، ويُكَمِّلُهَا لهُ في أُخْرَاهُ[(٥)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٦)]: «**وَسُئِلَ الجُنَيْدُ عَنْ تَوحِيدِ الخَاصِّ، فَقَالَ**[(٧)]: **أَنْ يَكُونَ العَبْدُ شَبَحًا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ - تعالىٰ -، يُجْرِي عَلَيْهِ تَصَارِيفَ تَدْبِيرِهِ، فِي مَجَارِي أَحْكَامِ قُدْرَتِهِ فِي لُجَجِ بِحَارِ تَوْحِيدِهِ**[(٨)]؛ **بِالفَنَاءِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ دَعْوَةِ الخَلْقِ لَهُ وَعَنِ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٤.

(٣) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٤٧٣.

(٤) لأنه هو الفاعل المختار.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٢.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٤.

(٧) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٩، وإتحاف السادة المتقين ١/٣٧٨.

(٨) أي: حالة كونه مستغرقا في لجج بحار توحيده.

اسْتِجَابَتِهِ [الحَقِّ][١] بِحَقَائِقِ وُجُودِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ فِي حَقِيقَةِ قُرْبِهِ بِذَهَابِ حِسِّهِ[٢] وَحَرَكَتِهِ، لِقِيَامِ الحَقِّ لَهُ فِيمَا أَرَادَ مِنْهُ[٣]؛ وَهُوَ أَنْ يَرْجِعَ آخِرُ العَبْدِ إِلَىٰ أَوَّلِهِ[٤]، فَيَكُونَ كَمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي ذكرَهُ الجُنيدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلامٌ رفيعٌ يحتاجُ إلىٰ تقييدٍ، وذلِكَ أنَّ العبدَ المُوحِّدَ علَىٰ التَّحقيقِ مَنْ كانَ شبحًا[٥] ملقًىٰ بينَ يدَيِ الحقِّ، خارِجًا عَنْ نَظَرِهِ لنفسِهِ فيمَا يُصْلِحُهَا بالكلِّيَّةِ، دُنيَا أَوْ أُخْرَىٰ، راضيًا بتدبيرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ ومَا سبقَ لهُ في حُكْمِهِ وقَدَرِهِ، وبهذَا كانَ عبدَ نفسِهِ كأنَّهُ لمْ يكنْ، فمَا علِمَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ منهُ قبلَ أنْ يكونَ فهوَ الَّذِي يُجريهِ عليهِ بعدَ كونِهِ شَبَحًا رفعته فِي درجاتِهِ [٣/٧ب]، وسنيّ مَا أدركَهُ منَ التَّوحيدِ ومقاماتِهِ.

وإذَا وصلَ العبدُ إلىٰ هذِهِ الأحوالِ ورأىٰ جميعَ مَا يُجرِي عليهِ الحقُّ في قلبِهِ وجَوارحِهِ جاريًا علىٰ الصِّراطِ المستقيمِ، الَّذِي شهِدَتِ الشَّريعةُ بصحَّتِهِ منْ غيرِ اختلالٍ فهوَ راضٍ بكلِّ ما يُجريهِ عليهِ، فإنَّهُ ـ تعالىٰ ـ لكمالِ حفظِهِ بهِ ورحمتِهِ لهُ ومحبَّتِهِ لا يخلقُ لهُ ما يضرُّهُ عندَهُ ويشينُهُ فِي دنياهُ وآخرتِهِ، فكونُهُ شبحًا بينَ يدَيِ الحقِّ، راضيًا بكلِّ ما يُجريهِ عليهِ ممَّا سبقَ فِي أَزَلِهِ، لابُدَّ أنْ يكونَ عالمًا بجريانِهِ بلطفٍ بهِ، وتفضُّلِهِ عليهِ علَىٰ مَا يُرضِي ربَّهُ وشهِدَتِ الشَّريعةُ بصحَّتِهِ[٦].

فهذَا معنَىٰ التَّقييدِ الَّذِي أشرْنَا إليهِ خَوْفًا مِنْ أنْ يَزِلَّ زَالٌّ فيعتقدَ أنَّ رِضَىٰ

---

(١) زيادة من (ف).

(٢) أي: بواسطة الفناء في مرادات الحق تعالىٰ.

(٣) في (ف): به.

(٤) محصل ذلك التبري من الحول والقوة مع الرضا بما يجريه الحق تعالىٰ من تصاريف أحكامه. انظر: نتائج الأفكار ٤/٨١.

(٥) أي: شخصًا.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٢.

العَبْدِ بمَا يُجريهِ عليهِ الحقُّ منَ الكُفْرِ والمَعَاصِي والبِدَعِ وغَيْرِ ذلكَ منَ الشُّرُور، ويعتقدَ أنَّ [في] ذلكَ مقامًا شَريفًا، ورضًىٰ بمَا يُجريهِ الحقُّ بَلْ هوَ منْ أسبابِ الغُرُور.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «**وَسُئِلَ البُوشنَجِيُّ عَنِ التَّوحِيدِ فَقَالَ(٢): غَيْرُ مُشبهِ الذَّاتِ، وَلَا مَنْفِيُّ الصِّفَاتِ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا قد تقدَّمَ الكلامُ عليهِ(٣)، وفيهِ الرَّدُّ علىٰ الحشويَّةِ المجسِّمَةِ، وعلَىٰ المعتزلةِ القائِلينَ بالصِّفاتِ الحادثةِ، وكلاهُمَا ضالٌّ ومخطِئٌ، وقدْ تقدَّمَ الكلامُ علىٰ هذَا فِي أوَّلِ هذَا الكتابِ(٤).

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحَسَنِ العَنْبَرِيَّ يَقُولُ(٦): سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ ذَاتِ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ **فَقَالَ: ذَاتُ اللهِ مَوْصُوفَةٌ بِالعِلْمِ، غَيْرُ مُدْرَكَةٍ بِالإِحَاطَةِ(٧)، وَلَا مَرْئِيَّةٍ بِالأَبْصَارِ(٨) فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ مِنْ غَيْرِ حَدٍّ، وَلَا إِحَاطَةٍ، وَلَا حُلُولٍ، وَتَرَاهُ العُيُونُ فِي العُقْبَىٰ ظَاهِرًا فِي مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَقَدْ حَجَبَ الخَلْقَ عَنْ مَعْرِفَةِ كُنْهِ ذَاتِهِ، وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٤.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤١/٢١٥، والوافي بالوفيات ٢٠/٨٦.

(٣) الدلالة ١/١٣٣.

(٤) الدلالة ١/١٣٤.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٤ ـ ٤٦٥.

(٦) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢١٧، وشرح عقيدة الغزالي للشيخ زروق ص٨٢، وورد بلا نسبة في: الحجة في بيان المحجة ١/١٨٥.

(٧) أي: بالكنه والحقيقة. انظر: نتائج الأفكار ٤/٨٢.

(٨) أي: معاشر الخلق ما عدا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بِآيَاتِهِ، فَالقُلُوبُ تَعرِفُهُ، وَالعُقُولُ لَا تُدْرِكُهُ، يَنْظُرُ إِلَيْهِ المُؤْمِنُونَ بِالأَبْصَارِ مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا إِدْرَاكِ نِهَايَةٍ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**القُلُوبُ تَعْرِفُهُ، وَالعُقُولُ لَا تُدْرِكُهُ**» فيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ العقلَ معنًىٰ بهِ يدركُ العاقلُ الرَّبَّ، وإدراكُهُ لهُ ليسَ إدراكَ إحاطةٍ، بلْ يستدلُّ [١٨/٣أ] بأوامرِهِ علىٰ وجودِهِ مُنَزَّهًا عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ، أَوْ مُمَاثَلَةِ شيءٍ مِنْ مَوجُودَاتِهِ.

وكمَا أنَّهُ ـ سبحانه ـ يخصُّ بعضَ المقرَّبينَ فِي الدُّنيَا بهذِهِ المعرفةِ الَّتِي أدركُوهَا بواسطةِ عُقُولِهِم، أوْ تفضَّلَ عليهِمْ بهَا بغيرِ واسطةٍ حتَّىٰ عرَفُوا مَنْ ليسَ فِي جهَةٍ، وتنزَّهُوا عنْ مماثلةِ خلقِهِ بوجهٍ، فكذلِكَ يخلقُ لهُمْ إدراكًا فِي أبصارِهِم، يُدْرِكُونَ بهِ مَنْ لَيْسَ فِي جهةٍ، فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ لا يُدْرَكُ فِي الدُّنيَا ولَا فِي الآخرةِ إدراكًا صحيحًا إلَّا علَىٰ ما هوَ عليهِ مِنْ جَلالِهِ وعظمتِهِ[(١)]، وتَنزُّهِهِ عنِ المُشَابَهَةِ لِشَيءٍ مِنْ مَخلُوقَاتِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقَالَ الجُنَيْدُ: أَشْرَفُ كَلِمَةٍ فِي التَّوْحِيدِ مَا قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلْ لِخَلْقِهِ سَبِيلًا إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِالعَجْزِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ.**

قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ ـ رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ ـ: **لَيْسَ يُرِيدُ الصِّدِّيقُ أَنَّهُ لَا يُعْرَفُ؛ لِأَنَّ عِنْدَ المُحَقِّقِينَ العَجْزَ عَجْزٌ عَنِ المَوْجُودِ دُونَ المَعْدُومِ، كَالمُقْعَدِ عَاجِزٌ عَنْ قُعُودِهِ؛ إِذْ لَيْسَ بِكَسْبٍ لَهُ وَلَا فِعْلٍ، وَالقُعُودُ مَوْجُودٌ فِيهِ، كَذَلِكَ العَارِفُ عَاجِزٌ عَنْ مَعْرِفَتِهِ،**

---

(١) بأن يخلق لهم فيها إدراكًا يدركونه به من غير إحاطة. انظر: إحكام الدلالة ٢/٨٤٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٥.

(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٥٧، ولوامع البينات ص٢٣٣، وسراج الطالبين ١/٤٧. وورد كنص من خطبة أبي بكر الصديق في: قوت القلوب ٢/١٤٣.

وَالمَعْرِفَةُ مَوْجُودَةٌ فِيهِ ؛ لِأَنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ.

وعِنْدَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ: المَعْرِفَةُ بِهِ ـ سبحانه ـ فِي الانْتِهَاءِ ضَرُورَةٌ ، فَالمَعْرِفَةُ الكَسْبِيَّةُ فِي الابْتِدَاءِ وَإِنْ كَانَتْ مَعْرِفَةً عَلَى التَّحْقِيقِ فَلَمْ يَعُدَّهَا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَيْئًا[١] بِالإِضَافَةِ إِلَى المَعْرِفَةِ الضَّرُورِيَّةِ ؛ كَالسِّرَاجِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَانْبِسَاطِ شُعَاعِهَا عَلَيْهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ الجُنيدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستحسَنَهُ وفضَّلَهُ فِي مقامِ التَّوحيدِ مَا قالَهُ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهوَ: «**سبحانَ مَنْ لمْ يجعلْ لخلقِهِ سبيلًا إلى معرفتِهِ إلَّا بالعجزِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ**» ، وتأوَّلَه الإمامُ القُشيرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنَّهُ جارٍ على ما يقولُهُ أهلُ الحقِّ مِنْ أنَّ العجزَ إنَّمَا يكونُ عن موجودٍ ، كالمُقْعَدِ عاجزًا عنِ القعودِ ؛ لأنَّهُ مجبورٌ عليهِ ومخلوقٌ لهُ[٢] ، فكذلِكَ المعرفةُ إذا حازَتْ معهُ ضروريَّةً عندَ أهلِ هذَا الشَّأنِ ، حتَّى استغنَوا عن تأمُّلِ البرهانِ فِي هذَا الحالِ كانُوا عاجزينَ عن معرفتِهِ الَّتِي عَرَّفَهُمْ إيَّاهَا بنفسِهِ وأوجدَهَا لهُم ، فهُمْ عاجزُونَ [٣/٨ب] عنِ الموجودِ المفعولِ ، فإنَّ المفعولَ لا يفعَلُ.

وهذَا عندِي فِي التَّأويلِ بعيدٌ ، وإنَّمَا أرادَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ العبدَ إنَّمَا يعرفُ مِنْ جلالِ اللهِ وعظمتِهِ مَا خلقَ لهُ المعرفةَ به ، وأمَّا حقيقةُ ذاتِهِ وصفاتِهِ وجهةُ تعلُّقِهَا بمتعلَّقاتِهَا ممَّا عَجَّزَ العقولَ عَنْ إدراكِ ذلِكَ ولمْ يخلقْهُ لخلقِهِ ، فكلُّ مَنْ أفرَغَ جهدَهُ وبلغَ غايةَ وُسْعِهِ فِي طلبِ الحقِّ ومعرفتِهِ فلَا بدَّ أنْ يقومَ بهِ عجزٌ عمَّا لم يخلقْ لهُ قدرةً عليهِ ولا معرفةً بهِ ، فكمالُ معرفةِ الشَّخصِ منَّا بعدَ إفراغِ غايةِ وسعِهِ في الجهدِ والتَّوفيقِ ، فالتَّسديدُ أنْ يدركَ ما أدركَهُ الأنبياءُ فِي الدُّنيا وعرفُوهُ مِنْ جلالِهِ

---

(١) في الأصل: سببًا ، والمثبت من الرسالة القشيرية.

(٢) أي: كذلك العارف بالله عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه ؛ لأنها ضرورية حينئذ. انظر: إحكام الدلالة ٢/٨٤٣ ، ونتائج الأفكار ٤/٨٣.

وعظمتِهِ، وبقيَتْ عليهم أمورٌ أخرُ مِنْ عظمةِ اللهِ وجلالِهِ إنَّمَا تنكشفُ لهُمْ فِي الدَّارِ الآخرةِ، معَ أنَّهُ إنَّمَا يَرونَهُ مُنَزَّهًا عمَّا لا يليقُ بِجَلالِهِ وعَظَمَتِهِ، فيرجعُ العجزُ بالإضافةِ إلىٰ مَا لا يخلقُ للعبدِ قدرةً علىٰ معرفتِهِ منْ كمالِهِ وعظمتِهِ.

فقولُهُ: «سبحانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلْ لِخَلْقِهِ سَبيلًا إلىٰ مَعْرِفَتِهِ»، أيْ: إلَىٰ كمالِ معرفتِهِ فِي الدُّنيَا إلَّا لعلمِهِ بعجزِهِمْ عَنْ غايةِ معرفتِهِ، وإلَّا فمَا ذَكَرَهُ الإمامُ جَارٍ فِي كلِّ معتقدٍ اعتقادَ الحقِّ، فإنَّ مَنْ خلقَ لهُ الحقُّ اعتقادًا صحيحًا، وتفضَّلَ عليهِ بهِ عاجزٌ عنْ تحصيلِهِ لهُ بنفسِهِ، وكذلِكَ مَنْ عرَفَ الحقَّ بالنَّظرِ فِي الدَّليلِ، فلمَّا صحَّتْ لهُ معرفتُهُ وصارَ عِلْمُهُ حاصلًا، وعبَّرَ عنهُ بالضَّروريِّ فهوَ عاجزٌ عنْ دفعِهِ عنْ نفسِهِ وإزالتِهِ[(١)].

وكذلِكَ مَا ذكرَهُ الإمامُ القُشَيرِيُّ مِنْ أنَّ العلومَ النَّظريَّةَ المكتسبةَ علومٌ علىٰ التَّحقيقِ، وعلومُ هؤلاءِ القومِ عندَ الانتهاءِ تصيرُ ضروريَّةً يُحدِثُهَا الحقُّ لهُم، ويُنشِئُهَا في قلوبِهِمْ بغيرِ واسطةٍ، فمَنْ وصلَ إلىٰ هذَا الحدِّ كمُلَتْ معرفتُهُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ لكونِ الحقِّ ـ سبحانه ـ يُوَالِي علىٰ قلبِهِ المعرفةَ من غيرِ أنْ تُقارِنَهَا القدرةُ الحادثةُ فقدْ قارنَهُ العجزُ، بمعنَىٰ قَوْلِهِ: «العبدُ لا يَصِلُ إلىٰ كمالِ المعرفةِ بربِّهِ إلَّا لمعرفتِهِ بعجزِهِ عمَّا خلقَ لهُ منَ المعرفةِ».

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(٢)]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُٱللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ سَعِيدٍ البَصْرِيَّ بِالكُوفَةِ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ الأَعْرَابِيِّ يَقُولُ: قَالَ الجُنَيْدُ** رَحِمَهُٱللَّهُ[(٣)]: **التَّوْحِيدُ الَّذِي انْفَرَدَ بِهِ الصُّوفِيَّةُ: هُوَ إِفْرَادُ القِدَمِ** [١٩/٣أ] **عَنِ الحَدَثِ**[(٤)]،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/٨٤٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٥.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٣٥٧، وسير أعلام النبلاء ١٤/٦٩، والكواكب الدرية ١/٥٧٥.

(٤) أي: الحدوث، والقصد: إفراده بالقصد والعبادة. وفي التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٣٤:=

وَالخُرُوجُ عَنِ الأَوْطَانِ[١]، وَقَطْعُ المَحابِّ[٢]، وَتَرْكُ ما عُلِمَ وَجُهِلَ، وَأَنْ يَكُونَ الحَقُّ مَكَانَ الجَمِيعِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ تَفْرِيغِ القَلْبِ مِنْ كُلِّ غَيْرٍ ومِنْ نَفْسِهِ، والنَّظرِ فِي مصالِحِهَا وتعميرِهِ بالشُّغلِ بمَنْ لمْ يزَلْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلامُ عليهِ علىٰ التَّفْصِيلِ[٣].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٤]: «وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ الحُسَيْنِ: مَنْ وَقَعَ فِي بِحَارِ التَّوْحِيدِ[٥] لا يَزْدَادُ عَلَىٰ مَرِّ الأَوْقَاتِ إِلَّا عَطَشًا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا الَّذِي فَسَّرْنَا بهِ كلامَ الصِّدِّيقِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بكونِ العبدِ وإنْ بلغَ منَ المعرفةِ مَا عسَاهُ أنْ يبلغَهُ فهُوَ متعطِّشٌ إلىٰ مَا لمْ يُخْلَقْ لهُ قدرةٌ عليهِ ولا سبيلَ إليهِ[٦]، وقدْ قالَ لنبيِّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأفضلِ المحبوبِينَ لدَيهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٧]: «وَقَالَ الجُنَيْدُ[٨]: عِلْمُ التَّوْحِيدِ مُبَايِنٌ لِوُجُودِهِ، وَوُجُودُهُ مُفَارِقٌ لِعَمَلِهِ».

= «أركان التوحيد سبعة: إفراد القدم عن الحدث، وتنزيه القديم عن إدراك المحدث له...».

(١) أي: الانفصال عنها، سواء كانت حسية كالمساكن، أو معنوية كالمقامات والأحوال التي ينازلها العبد المقرب.

(٢) أي: محبوبات النفس.

(٣) أي: بصدد كلام الحصري المتقدم في هذا الباب.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٥.

(٥) أي: في مقاماته وأحواله الشبيهة بالبحر.

(٦) أي: إلىٰ ما لم يبلغه.

(٧) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٥.

(٨) سبق تخريجه في الدلالة ١/١٤١.

وَقَالَ الجُنَيْدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: **«عِلْمُ التَّوْحِيدِ طُوِيَ بِسَاطُهُ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي حَوَاشِيهِ».**

❋ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا قولُهُ: «**عِلْمُ التَّوْحِيدِ مُبَايِنٌ لِوُجُودِهِ وَوُجُودُهُ مُبَايِنٌ لِعِلْمِهِ**» فهوَ إشارةٌ إلىٰ الفَرْقِ بينَ علمِ التَّوحيدِ وحالِ التَّوحيدِ؛ فمَنْ علِمَ الوحدانيَّةَ بالدَّليلِ أوِ بالمَوهِبَةِ فهوَ عَالِمٌ بالتَّوحيدِ، وممَّنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ النَّظرُ إلىٰ الحقِّ ـ سبحانه ـ ومَا يُجريهِ عليهِ وعلىٰ غيرِهِ حتَّىٰ لمْ يشتغلْ بسوَاهُ، ولا رأىٰ فعلًا لغيرِهِ فِي سَائِرِ متقلَّبِهِ ومَثْوَاهُ، فهوَ في حالِ التَّوحيدِ وحقيقتِهِ.

وقولُهُ: «**عِلْمُ التَّوْحِيدِ[(٢)] طُوِيَ بِسَاطُهُ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي حَوَاشِيهِ**»، يُرِيدُ ـ واللهُ أعلَمُ ـ: علمَ أربابِ أحوالِ التَّوحيدِ ومَا يفتحُ اللهُ عليهِمْ بهِ فِي معاملتِهِمْ لهُ وأدبِهِمْ معَهُ، «**طُوِيَ بساطُهُ منذُ عشرينَ سنةً**»، يعنِي: أنَّ أربابَ ذلِكَ الفنِّ كالمحاسِبِيِّ وذِي[(٣)] النُّونِ المِصريِّ وغيرِهِمْ مِنْ مشايِخِهِ الَّذِينَ لقِيَهُمْ، وكانَ كلامُهُمْ مِنْ أحوالِهِمْ ومَا وجدُوهُ فِي معاملتِهِمْ لمولاهُمْ، وبقِيَ النَّاسُ يتحدَّثُونَ فِي أقوالِهِمْ، ويبيِّنُونَ بعضَ مقاصدِهِمْ، وهوَ ـ واللهُ أعلمُ ـ الَّذِي أرادَ بـ«**حَوَاشِيهِ**»، أيْ: أطرافِهِ[(٤)]، وإلَّا مَنْ سلَكَ مسلَكَهُمْ ووجدَ مَا وجدُوهُ، وتكلَّمَ عَنْ حقيقةِ ما وجدَهُ وما نالَهُ مِنْ ربِّهِ فقليلٌ.

وإنَّمَا أرادَ الجُنيدُ [٣/٩ب] ـ واللهُ أعلمُ ـ أَنْ يُحرِّكَ النَّاسَ ومَنْ صحبَهُ مِنَ المريدينَ إلَىٰ الجدِّ في السُّلوكِ؛ لينالُوا مَا نالَهُ غيرُهُمْ مِنْ أهلِ التَّحقيقِ[(٥)]، واللهُ أعلمُ.

---

(١) ورد قوله في: قوت القلوب ١/٢٧٧، ومناقب الأبرار ١/٣٥٧.

(٢) أي: علم دقائقه.

(٣) في الأصل: وذا، والصواب المثبت.

(٤) أي: ظواهره.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٥.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ الأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: وَقَفَ رَجُلٌ عَلَىٰ الحُسَيْنِ بْنِ مَنْصُورٍ فَقَالَ[٢]: مَنِ الحَقُّ الَّذِي تُشِيرُونَ إِلَيهِ؟ فَقَالَ: مُعِلُّ الأَنَامِ[٣] وَلَا يَعْتَلُّ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الكلامُ منَ السَّائلِ يدلُّ علَىٰ أنَّهُ أرادَ التَّعنيتَ فِي السُّؤالِ، وربَّمَا كانَ ممَّنْ يقولُ بقولِ الأوائِلِ، فأجابَهُ الشَّيخُ علىٰ حسبِ ما فَهِمَ منهُ، فإنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ لا يُسمَّىٰ علَّةً، فقولُهُ: «مُعِلُّ الأنامِ»، يعنِي: مُحْدِثُهُ ولَا مُحْدِثَ لهُ، فأجابَهُ بالعلَّةِ الَّتِي هيَ معهودُ كَلامِهِمْ، فإنَّهُ سألَهُ عنِ الحقِّ ـ سبحانه ـ فأجابَهُ بأنَّهُ المُحدِثُ للأنامِ ولا مُحْدِثَ لَهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الشِّبْلِيَّ يَقُولُ[٥]: مَنِ اطَّلَعَ عَلَىٰ ذَرَّةٍ مِنْ عِلْمِ التَّوحِيدِ ضَعُفَ عَنْ حَمْلِ بَقَّةٍ لِثِقَلِ مَا حَمَلَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلِكَ أنَّ مَنِ اطَّلَعَ بعلمِ اليقينِ ومُكاشفةِ المحقِّقينَ عَلِمَ[٦] أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ واحدٌ قيُّومُ السَّماواتِ والأرضِ، وما فيهَا ومَا بينَهُمَا، وأنَّ مَا سِوَاهُ لا فعلَ لهُ علىٰ الحقيقةِ ولا قدرةَ علىٰ شيءٍ إلَّا بعونِ ربِّهِ وخَلْقِ القدرةِ لهُ، والمقدورُ لَمْ يطِقْ إضافةَ شيءٍ إلىٰ نفسِهِ ولَوْ أيسرَ مَا يُمكِنُ، وبهذَا لَوْ كلِّفَ حملَ بقَّةٍ بنفسِهِ[٧] لم يطِقْ ولا ذرَّةٍ، فإنَّهُ هوَ ومَنْ فِي السَّماواتِ ومَنْ فِي الأرضِ

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٥.
(٢) ورد قوله في: تفسير السلمي ١/٣٠٢.
(٣) أي: الذي وجوده علة كل موجود، ولا علة لوجوده تعالىٰ. انظر: نتائج الأفكار ٤/٨٥.
(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٦.
(٥) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٥٤، وحلية الأولياء ١٠/٣٧٠، والمختار من مناقب الأخيار ٢/٤٧٣.
(٦) في الأصل: علىٰ، والأصح المثبت.
(٧) أي: باعتبار ذاته بدون معونةٍ من ربه.

قائمُونَ بقدرتِهِ، مُعَانُونَ بلُطفِهِ وإرادتِهِ، فلَا قدرةَ لأحدٍ بالقيامِ لشيءٍ إلَّا بعونِهِ وإرادتِهِ، فمَنْ صارَ هذَا المعنَىٰ لهُ حالًا ذَلَّ فِي نفسِهِ، وخضعَ لجلالِ ربِّهِ، وتَبَرَّأَ منَ الحولِ والطَّاقةِ علىٰ شيءٍ إلَّا بلطفِهِ وكَرَمِهِ وعَونِهِ، فهذَا مُرَادُهُ، واللهُ أعلمُ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ يَقُولُ[2]: سُئِلَ الشِّبْلِيُّ فَقِيلَ: أَخْبِرْنَا عَنْ تَوْحِيدٍ مُجَرَّدٍ بِلِسَانِ حَقٍّ مُفْرَدٍ.

فَقَالَ: وَيْحَكَ! مَنْ أَجَابَ عَنِ التَّوحِيدِ بِالعِبَارَةِ فَهُوَ مُلْحِدٌ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَهُوَ ثَنَوِيٌّ، وَمَنْ أَوْمَأَ إِلَيْهِ فَهُوَ عَابِدُ وَثَنٍ، وَمَنْ نَطَقَ فِيهِ فَهُوَ غَافِلٌ، وَمَنْ سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ جَاهِلٌ، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّهُ وَاصِلٌ فَلَيْسَ [١٠/٣أ] لَهُ حَاصِلٌ، وَمَنْ أَوْمَأَ أَنَّهُ قَرِيبٌ فَهُوَ بَعِيدٌ، وَمَنْ تَوَاجَدَ فَهُوَ فَاقِدٌ، وَكُلُّ مَا مَيَّزْتُمُوهُ بِأَوْهَامِكُمْ وَأَدْرَكْتُمُوهُ بِعُقُولِكُمْ فِي أَتَمِّ مَعَانِيكُمْ فَهُوَ مَصْرُوفٌ مَرْدُودٌ إِلَيْكُمْ، مُحْدَثٌ مَصْنُوعٌ مِثْلَكُمْ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَضَابِطُ هَذِهِ الجُمْلَةِ فِي التَّوحِيدِ المفردِ باللِّسانِ الحقِّ المجرَّدِ عِلْمُ الأبدِ يستغرقُ فيهِ - تعالىٰ - فِي كمالِهِ وجلالِهِ وعظمتِهِ وكبريائِهِ وتنزُّهِهِ استغراقًا حتَّىٰ لَا يحسَّ بنفسِهِ ولَا بغيرِهِ، وهوَ معَ ذلكَ لا يتوهَّمُ جهةً ولَا شجًّا ولا ضياءً ولا نورًا ولا شيئًا ممَّا تَتَخَيَّلُهُ الأوهامُ وتحيطُ بهِ العُقُولُ، فمتَىٰ وصلَ العبدُ إلىٰ هذِهِ الحالةِ ونسِيَ نفسَهُ فِي الشُّغلِ بوحدانيَّتِهِ، فقدْ نالَ التَّوحيدَ المُشَارِ إليهِ، فإنْ ذكرَ بلسانِهِ كونَهُ مُوحِّدًا فهوَ ملحدٌ، أيْ: مائلٌ عنِ الحقِّ إلىٰ غَيْرِهِ.

ومَنْ أشارَ بنفسِهِ إلىٰ التَّوحيدِ الَّذِي عرَفَهُ فهوَ ثَنَوِيٌّ[3]، أيْ: أدركَ نفسَهُ وربَّهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٦.

(٢) اللمع له ص٥٠، وورد أيضا في: حلية الأولياء ١٠/٣٧٤، وتاريخ دمشق ٦٦/٥٩.

(٣) نسبة إلىٰ اثنين. في الانتصار في الرد علىٰ المعتزلة ص١٨٤: «إنما سمي ثنويًّا؛ لأنه أثبت لله ثانيا=

ولمْ يكملْ استغراقهُ. ومَنْ أَوْمَأَ[١] إليهِ بعبادتِهِ فقد جعلَ جهةً أو شَبَحًا فأشبَهَ عابدَ وثَنٍ[٢]؛ لتفرقتِهِ بينَ العابدِ والمعبودِ ولمْ يكملْ استغراقهُ فيهِ.

ومَنْ نطقَ فيهِ بنفسِهِ فهوَ غافلٌ عنهُ مشغولٌ بنفسِهِ، لمْ يكملْ استغراقهُ فيهِ. ومَنْ سَكَتَ عنهُ فهوَ جاهلٌ يعنِي سَاكتًا عَنْ ذِكْرِهِ وكَمَالِ مُنَاجَاتِهِ. ومَنْ تَوَهَّمَ أَنَّهُ وَاصِلٌ بنفسِهِ فليسَ لهُ حاصلٌ، ومَنْ أَوْمَأَ أَنَّهُ قريبٌ فهوَ بعيدٌ؛ لأنَّ القُرْبَ والبُعدَ بالذَّواتِ مُحَالٌ، ومَنْ تَوَاجَدَ فَرَحًا بهِ فهوَ فاقدٌ للاستفراغِ فيهِ[٣].

فَدَلَّ جميعُ هذِهِ الأقوالِ علَىٰ أنَّ التَّوحيدَ الكاملَ ما كمُلَ الشُّغلُ بهِ وفيهِ، حتَّىٰ ينسَىٰ العبدُ نفسَهُ وسائِرَ ما هو فيهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: **«وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ الحُسَيْنِ[٥]: تَوْحِيدُ الخَاصَّةِ: أَنْ يَكُونَ بِسِرِّهِ وَوَجْدِهِ وَقَلْبِهِ كَأَنَّهُ قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيهِ ـ سبحانه ـ، تجْرِي عَلَيْهِ تَصَارِيفُ تَدْبِيرِهِ، مَعَ أَحْكَامِ قُدْرَتِهِ فِي بِحَارِ تَوْحِيدِهِ، بِالفَنَاءِ عَنْ نَفْسِهِ، وَذَهَابِ حِسِّهِ؛ لِقِيَامِ الحَقِّ لَهُ فِي مُرَادِهِ مِنْهُ، فَيَكُونَ كَمَا هُوَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي جَرَيَانِ حُكْمِهِ عَلَيْهِ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقدَّمَ أَنَّ التَّوحيدَ يكونُ باللِّسانِ معَ اعتقادِ القلبِ الصَّحيحِ، ويكونُ بالعِلْمِ الكائِنِ عنِ البُرْهَانِ، ويكونُ بالتَّبَرِّيءِ منَ الحولِ والقوَّةِ وإِضَافَةِ ذلكَ إلىٰ الوَاحدِ المنَّانِ، فكمالُ التَّوحيدِ [١٠/٣ب] أنْ يَرَىٰ العبدُ نفسَهُ مَحلًّا

= يشاركه في الإلٰهية».

وقال العروسي: «لأن الإشارة تقتضي وجود المشير، والحق وحده الوجود» نتائج الأفكار ٨٥/٤.

(١) أي: أجاب بالإشارة إليه.

(٢) لأنه هو الذي له جهة يشار إليه باعتبارها.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٨٤٦/٢.

(٤) الرسالة القشيرية ٤٦٦/٢.

(٥) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٥١.

لجريانِ فِعْلِ الواحدِ فيهِ فِي التَّسكينِ، والتَّصريفِ والتَّجميلِ والتَّعريفِ، فيكونُ توحيدُهُ بالحالِ لكمالِ شُغلِهِ بالواحدِ، وربَّمَا كمُلَ شُغْلُهُ بهِ حتَّىٰ غفلَ عن نفسِهِ، وزالَ ذِكْرُهُ لنفسِهِ عنْ ذِكْرِهِ، ولهذَا عبَّرَ عنهُ بـ«**أَنْ يكونَ كمَا كانَ قبلَ أنْ يكونَ**»، وإنَّمَا كانَ قبلَ أنْ يكونَ في عِلْمِ الواحدِ وإرادَتِهِ معلومًا مُرَادًا، وإنْ لمْ يكنْ موجودًا، وكذلِكَ يصيرُ لكمالِ شُغْلِهِ بمَا سبقَ كأنَّهُ لَمْ يكنْ وإنْ كانَ غَيْرَ عَاقِلٍ عَنِ الوَاحِدِ حتَّىٰ يكونَ وجُودُهُ بالإضافةِ إلىٰ ذِكْرِهِ كالعَدَمِ، بَلْ هُوَ كَامِلُ الشُّغْلِ بهِ حتَّىٰ شغلَهُ ما هَوَ فيهِ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ[(١)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقِيلَ[(٣)]: التَّوْحِيدُ[(٤)] لِلْحَقِّ، وَالخَلْقُ طُفَيْلِيٌّ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ التَّوحيدَ صفةُ الحقِّ القديمةُ الَّتِي لمْ تزَلْ، وكلُّ مَا يقومُ بالعبدِ مِنَ التَّوحيدِ موجودٌ حادثٌ بعدَ أنْ لمْ يكُنْ، فالحقيقةُ لمَنْ لمْ يزَلْ، واسمُ الوحدانيَّةِ أوِ التَّوحيدُ طفيليٌّ للكائنِ بعدَ أنْ لمْ يكُنْ[(٥)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «**وَقِيلَ[(٧)]: التَّوْحِيدُ: إِسْقَاطُ اليَاءَاتِ؛ لَا تَقُولُ: لِي، وَ: بِي، وَ: مِنِّي، [و: إليَّ][(٨)]**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «**إسقاطُ الياءاتِ**»، أيْ: ياءاتِ الإضافةِ، أيْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٦.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٦.

(٣) نسب للشبلي في: شرح القشيري لأسماء الله الحسنىٰ ص٢١٨، وورد بلا نسبة في: الإبانة لابن فورك ص٤١، واللمع للطوسي ص٥١.

(٤) أي: حقيقة، وإذا أضيف لغيره فهو علىٰ وجه التطفل والمجاز.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٦.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٦.

(٧) ورد في: اللمع للطوسي ص٥٤، وحدائق الحقائق ص١٢٤.

(٨) تتمة من الرسالة القشيرية.

يسقطُ عنْ قلبِ العبدِ إضافةُ شيءٍ إليهِ؛ لَا ملكًا، ولا عملًا، ولا حالًا، وإضافةُ كلِّ شيءٍ إلىٰ فاعلِهِ تحقيقًا، وغلبةُ ذلِكَ علَىٰ قلبِ الموحِّدِ حتَّىٰ ينسىٰ الأغيارَ، ونفسُهُ مِنْ جُملتِهِمْ.

ويحتملُ وجهًا آخرَ لمْ يُشِرْ إليهِ الإمامُ: وهيَ ياءاتُ النِّداءِ، فإنَّ العبدَ لكمالِ غلبةِ التَّوحيدِ علىٰ قلبِهِ، ودوامِ حضورِهِ معَ ربِّهِ، سقطَ عنْ قلبِهِ ياءاتُ النِّداءِ، فإنَّ النِّداءَ يفتقرُ إلىٰ مُنادٍ ومُنادًىٰ، وإنَّمَا يكونُ النِّداءُ لِغائبٍ، فلكمالِ دوامِ حضورِ قلبِهِ معَ ربِّهِ، وقلَّةِ إحساسِهِ بغيرِهِ، تسقطُ عنْ قلبِهِ وذِكْرِهِ ياءاتُ النِّداءِ وياءاتُ الإضافةِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**وَقِيلَ لِأَبِي بَكْرٍ الطَّمَسْتَانِيِّ[2]: مَا التَّوْحِيدُ؟ فَقَالَ: تَوْحِيدٌ، وَمُوَحَّدٌ، وَمُوَحِّدٌ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةٌ[3]**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي كلامِهِ هذَا إشارةٌ إلىٰ الفَرْقِ بينَ العبدِ الحادثِ وسائرِ صفاتِهِ الحادِثَةِ، وبينَ الحقِّ [١١/٣أ] - سبحانه - القديمِ وصفاتِهِ القديمةِ، فلمَّا سُئِلَ عنِ التَّوحيدِ فكأنَّهُ سُئِلَ عنْ أمرٍ جمليٍّ، ففصَّلَ لهُ حتَّىٰ يقعَ الجوابُ علىٰ حسبِ السُّؤالِ؛ وهوَ أنَّ التَّوحيدَ إنَّمَا يرجعُ إلىٰ صفاتِ القديمِ؛ وهوَ وحدانيَّتُهُ المنزَّهَةُ عنْ كلِّ ثانٍ وشبهٍ، وتوحيدُ العبدِ المخلوقِ الَّذِي هوَ صفتُهُ الَّذِي ينالُهُ مِنْ فضلِ ربِّهِ غيرُهُ مِنَ النَّاسِ، ولهُ أمثالٌ.

فقولُهُ: «**توحيدٌ وموحَّدٌ**» يعنِي القديمَ، و«**مُوحِّدٌ**» يعنِي: حادِثًا، فَعَنْ أَيِّهِمَا تسألُ؟! والفرقُ بينَهُمَا واضحٌ، واللهُ أعلَمُ بمَا أرادَ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٦.

(٢) ورد قوله في: مشروع الخصوص إلىٰ معاني النصوص ص٢٣، وسراج الغيوب في أعمال القلوب ص٣٠٩.

(٣) أي: لا يحصل التوحيد إلا بها.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «قَالَ رُوَيْمٌ[٢]: التَّوْحِيدُ: مَحْوُ آثَارِ البَشَرِيَّةِ، وَتَجَرُّدُ الأُلُوهِيَّةِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويعني بـ«المَحْوِ والتَّجْرِيدِ»: محوَ ذِكْرِ البشرِ عنِ القلبِ مطلقًا، والعبدُ مِنْ جُملتِهم، وتجرُّدَ القلبِ لكمالِ شُغلِهِ بالوحدانيَّةِ حتَّىٰ لمْ يبقَ فِي القلبِ غيرُهُ[٣]، هذَا هوَ التَّوحيدُ، أعنِي: توحيدَ العارِفِينَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ فِي آخِرِ عُمرِهِ، وَكَانَ قَدِ اشْتَدَّتْ بِهِ العِلَّةُ فَقَالَ[٥]: مِنْ أَمَارَاتِ التَّأْيِيدِ حِفْظُ التَّوْحِيدِ فِي أَوْقَاتِ الحُكْمِ، ثُمَّ قَالَ كَالمُفَسِّرِ لِقَوْلِهِ مُشِيرًا إِلَىٰ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ حَالِهِ: هُوَ أَنْ يَقْرِضَكَ بِمَقَارِيضِ القُدْرَةِ فِي إِمْضَاءِ الأَحْكَامِ قِطْعَةً قِطْعَةً وَأَنْتَ شَاكِرٌ حَامِدٌ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُ الإمامِ عنْ شيخِهِ أبِي عليٍّ وهوَ فِي آخرِ مرضِهِ: «مِنْ علاماتِ التَّأييدِ حِفْظُ التَّوحِيْدِ»، أيْ: مِنْ عَلامَاتِ التَّأييدِ للوليِّ حِفْظُ اللهِ لَهُ، أيْ: يحفظُ عليهِ توحيدَهُ الخاصَّ، ثمَّ فسَّرَهُ بأنْ قالَ: «وذلِكَ بِأَنْ يَقْرِضَهُ بِمَقَارِيضِ قُدْرَتِهِ، قطعةً قطعةً»، وهوَ فِي ذلِكَ ناظرٌ إلَىٰ توحيدِهِ، شاكِرٌ لنِعَمِهِ عليهِ حَامِدٌ؛ وذلِكَ أنَّ الحمدَ: هوَ الثَّناءُ علَىٰ المَحْمُودِ بصِفَاتِهِ، والشُّكْرَ: هوَ الثَّناءُ عليهِ بإِنْعَامِهِ وإِحْسَانِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَالَ الشِّبْلِيُّ[٧]: مَا شَمَّ رَوَائِحَ التَّوْحِيدِ مَنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٦.

(٢) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٥١.

(٣) انظر: عبارات الصوفية ومعانيها للقشيري ص٤٩، ٥١، وقد أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٧.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٦.

(٥) ورد قوله في: غيث المواهب العلية ص١٤٠، وروح البيان ٤/٣٠٥، وسراج الطالبين ٢/١٣٦.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٧.

(٧) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٥٢، وله تتمة فيه، وحدائق الحقائق ص١٢٤.

تَصَوَّرَ عِنْدَهُ التَّوحِيدُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا بالغٌ فِي مَقَامِ التَّوحيدِ؛ وذلِكَ أنَّ كَمَالَ التَّوحيدِ أنْ يشتغلَ العبدُ باللهِ شُغْلًا يُنْسِيهِ نفسَهُ وجميعَ أحوالِهِ وصفاتِهِ، ومِنْ جُمْلَتِهَا توحيدُهُ، فمتىٰ [٣/١١ب] تصوَّرَ العبدُ توحيدَ نفسِهِ لمْ يستغرِقْ فِي كَمَالِ تَوحِيْدِهِ[١].

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخَرَّازُ[٣]: أَوَّلُ مَقَامٍ لِمَنْ وَجَدَ عِلْمَ التَّوْحِيدِ، وَتَحقَّقَ بِذَلِكَ فَنَاءُ ذِكْرِ الأَشْيَاءِ عَنْ قَلْبِهِ، وَانْفِرَادُهُ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا إنَّمَا كانَ أَوَّلُهُ مقامَ التَّوحيدِ الخَاصِّ أنَّ العبدَ متىٰ كانَ ذاكرًا لربِّهِ، مشغولًا بكمالِهِ وجلالِهِ ووحدانيَّتِهِ وتنزُّهِهِ عنِ الخَلْقِ قدْ نالَ أوَّلَ مقامٍ منَ التَّوحيدِ الخاصِّ، فلَوْ كَمُلَ شغلُهُ بذلِكَ نسِيَ نفسَهُ معَ غيرِهِ[٤]، فلذلِكَ جعلَ مَا قبلَهُ أوَّلَ مَقَامٍ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقَالَ الشِّبْلِيُّ لِرَجُلٍ[٦]: تَدْرِي لِمَ لَا يَصِحُّ تَوْحِيدُكَ؟ فَقَالَ: لَا، قَالَ: لِأَنَّكَ تَطْلُبُهُ بِكَ[٧]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ أصلُ كلِّ خيرٍ، وأساسُ كلِّ مقامٍ رفيعٍ أنْ يدخلَ العبدُ فيهِ مُخْلِصًا لربِّهِ، مُتَبَرِّئًا مِنْ حولِهِ وقوَّتِهِ، مُعْتَمِدًا عليهِ في

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٧.

(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٥٣، وإتحاف السادة المتقين ١/٣٧٨.

(٤) ما عدا الله عَزَّوَجَلَّ.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٧.

(٦) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٥٣، والمختار من مناقب الأخيار ١/٤٧٣، وشرح القشيري لأسماء الله الحسنىٰ ص٢١٨.

(٧) أي: بك لا بالله، فإن طلبته به صحَّ توحيدك.

تيسيرِهِ توحيدًا كانَ أوْ غيرَهُ، وفرَّقَ بينَ مَنْ يعبُدُهُ ملتفتًا لنفسِهِ وكسْبِهِ، وبينَ مَنْ يعبدُهُ متبرِّئًا مِنْ حولِهِ وقوَّتِهِ معتمِدًا على عَوْنِهِ، ولهذَا قالَ ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣](١).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ(٣): **عَلَامَةُ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ: نِسْيَانُ التَّوْحِيدِ؛ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ القَائِمُ بِهِ وَاحِدًا(٤)**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا راجعٌ إلى مَا فسَّرْنَاهُ قبلُ؛ مِنْ أنَّ كمالَ التَّوحيدِ أنْ ينسَى العبدُ نفسَهُ وتوحيدَهُ، ويكونَ القائمُ فِي قلبِهِ المذكورِ واحدًا، لا يخطُرُ بقلبِهِ غيرُهُ، وهوَ الحقُّ ـ سبحانه ـ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «وَيُقَالُ(٦): **مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ فِي تَوْحِيدِهِ مُكَاشَفًا بِالأَفْعَالِ، يَرَى الحَادِثَاتِ بِاللهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُكَاشَفٌ بِالحَقِيقَةِ، فَيَضْمَحِلُّ إِحْسَاسُهُ بِمَا سِوَاهُ، فَهُوَ يُشَاهِدُ الجَمْعَ سِرًّا بِسِرٍّ(٧)، وَظَاهِرُهُ بِوَصْفِ التَّفْرِقَةِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلى اختلافِ مقاماتِ الموحِّدينَ؛ منهُمْ مَنْ يرَى الأفعالَ لواحدٍ وقلبُهُ موقوفٌ معَ الحادثاتِ، فأيُّ شيءٍ حدثَ ذكَرَ مُحْدِثَهُ.

ومنهُم مَنْ يكونُ توحيدُهُ معَ الصِّفاتِ، وهوَ أرفعُ درجةً ممَّنْ تقدَّمَ(٨)؛ وهوَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٧ ـ ٨٤٨.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٧.
(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٥٥.
(٤) أي: في القصد والعادة.
(٥) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٧.
(٦) أي: يشاهد باطنه شيئا فشيئا بوصف الجمع.
(٧) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٥٣.
(٨) لأن نظر صاحب هذا المقام إنما هو إلى منشأ الأشياء ومصدرها بخلاف من قبله، الذي ينظر ابتداء=

أنْ يعلمَ انفرادَ الحقِّ بالقدرةِ والإرادةِ [١١٢/٣] والعِلْمِ والحياةِ القَديمَاتِ، المُتَعلِّقَاتِ بِسَائِرِ المُتَعَلَّقَاتِ، ولَا تكونُ لغيرِهِ ـ تعالىٰ ـ فقدِ انفردَ وتوحَّدَ فِي قلبِهِ الحقُّ بهذِهِ الصِّفاتِ الكَامِلاتِ.

ومنهُم مَنْ يغلبُ علَىٰ قلبِهِ توحُّدُ الذَّاتِ المطهَّرَةِ المنزَّهَةِ عنِ الأقطارِ والجهاتِ، وعنِ الحُلُولِ والانتقالاتِ، والقُرْبِ والبُعْدِ بالمَسَافَاتِ، فيكمُلُ عندَهُ انفرادُ الحَقِّ ـ سبحانه ـ فِي ذاتِهِ وأفعالِهِ وصفاتِهِ.

هذَا هوَ الكاملُ فِي التَّوحيدِ إذَا استغرقَ قلبهُ فِي كَمَالِهِ وَجَلالِهِ، وغفَلَ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ أفعالِهِ، بَلْ عَنْ نفسِهِ وصِفَاتِهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ القَزْوِينِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ القَنَّادَ يَقُولُ: سُئِلَ الجُنَيْدُ عَنِ التَّوْحِيدِ فَقَالَ: سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ**(٢):

وَغَنَّىٰ لِي مُنَىٰ قَلْبِي ❊ وَغَنَّيْتُ كَمَا غَنَّىٰ
وَكُنَّا حَيْثُمَا كَانُوا ❊ وَكَانُوا حَيْثُمَا كُنَّا

فَقَالَ السَّائِلُ: هَلَكَ القُرْآنُ وَالأَخْبَارُ؟! فَقَالَ: لَا؛ وَلَكِنَّ المُوَحِّدَ يَأْخُذُ أَعْلَىٰ التَّوْحِيدِ مِنْ أَدْنَىٰ الخِطَابِ».

❋ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والَّذِي ذكرَهُ الجُنيدُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الشِّعرِ إنَّمَا أخبَرَ بهِ عَنْ سماعِهِ مَنْ قالَ: القائلُ المُنشِدُ لهذِهِ الأبياتِ، وأنَّ الجُنيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا سمِعَهَا

= إلىٰ الآثار ثم ينتقل منها إلىٰ مصدرها. انظر: نتائج الأفكار ٤/٨٨.

(١) الرسالة القشيرية ٢/٤٦٧.

(٢) من الهزج، وورد في: المناظر الإلٓهية للجيلاني ص٨١، وتسلية الأحزان وتصلية الأشجان ص١٤٦.

مِنْ قائلِهَا اعتبَرَ بهَا نفسهُ وحالهُ معَ اللهِ، وكونُ الحقِّ ـ سبحانه ـ يخلُقُ لهُ السَّمَاعَ فِي قلبِهِ، وعبَّرَ عنهُ بالغَنَاءِ، فإذَا خلقَهُ في قلبِهِ هاجَتْ عليه أحوالُهُ المُوافقةُ لمَا سمِعَهُ وأخذهَا مِنْ قولِهِ: «**وغنَّيتُ كمَا غنَّى**»، وأخبَرَ أنَّهُ لمَّا تَوالَى عليهِ هذَا الحَالُ لَمْ يَبْقَ فيهِ وُسْعٌ ولَا ذِكْرٌ لغيرِ الحَقِّ، شُغْلًا بهِ عَنْ نفسِهِ وغَيْرِهِ أخْذًا مِنْ قولِهِ:

وَكُنَّــا حَيْثُمَــا كَــانُوا ❁ وَكَــانُوا حَيْثُمَــا كُنَّــا

وفيهِ إشارةٌ إلى استغراقِهِ بالكلِّيَّةِ حتَّى عَنْ نفسِهِ، فلَمْ يَرَ إلَّا واحِدًا، فلمَّا لمْ يفهَمِ السَّائلُ الجوابَ مِنْ هذهِ الأبياتِ كمَا كانَ الجُنيدُ فهِمَهَا مِنْ مُنشِدِهَا فقالَ: «**هلكَ القُرآنُ والأخبارُ؟**» يَعْنِي: الكتابَ والسُّنَّةَ، فأجابَهُ الجُنيدُ فقالَ: «**إنَّ المُوحِّدَ يأخذُ أعلَى التَّوحيدِ مِنْ أيسرِ خطابٍ**»، يَعْنِي: أنَّ مَنْ غلبَ التَّوحيدُ على قلبِهِ صَارَ لهُ مِنْ كلِّ شَيءٍ حَالٌ ووجْدٌ وسماعٌ، ومعناهُ: أنِّي ظَنَنْتُ أنَّكَ تأخذُ الفائدةَ وتفهمُ مَقَامَ التَّوحيدِ مِنْ كُلِّ خِطَابٍ [..](١)

[١٢/٣ب]. الرِّسالةِ أوِ النُّبوَّةِ، والنَّبيُّ ﷺ إنَّمَا يجري للنَّاسِ بالقرآنِ فهوَ المعجزةُ، وأمَّا ما عداهُ مِنْ نبعِ المَاءِ مِنْ بينِ أصابِعِهِ عندَ الحَاجَةِ وتكثيرِ الطَّعامِ وحَلبِ الشَّاةِ العجفاءِ للحاجةِ إلى اللَّبنِ وغيرِ ذلِكَ منْ خوارِقِ العاداتِ، فقدْ يُقالُ: إنَّهُ كرامةٌ، فكراماتُ الأولياءِ جميعُهَا إنَّمَا تجرِي مِنْ هذَا القبيلِ فإنَّهَا تجرِي مجرَى العونِ لهُمْ علَى مطالِبِهِم الدِّينيَّةِ وقوَّةِ يقينِهِمْ، وقَدْ يُجرِيهَا اللهُ ـ تعالى ـ أداةً لغيرِهِمْ علَى منزلتِهِمْ عندَهُ وكرامتِهِمْ لديهِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٨٤٩، وبه ينتهي شرح (باب التوحيد).

وقد وقع من هنا خرم كبير في نسخة الأصل شمل أبواب: (أحوالهم عند الخروج من الدنيا، وباب المعرفة بالله، وباب المحبة، وباب الشوق، وباب حفظ قلوب المشايخ وترك الخلاف عليهم، وباب السماع)، وجزء من (باب كرامات الأولياء)، فاستدركته في (ملحق رقم ٣) ضمن ملاحق التتميم ٤/٨٩.

فقد حَصَلَ الفَرْقُ بينَ المعجزاتِ والكراماتِ بالنَّظرِ إلىٰ حقيقةِ المعجزةِ كونهَا فِعْلُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ خارقٌ للعادةِ جارٍ علىٰ وفقِ دعْوَىٰ مدَّعِي الرِّسالةِ، والوليُّ لا يمكنُهُ دعوَىٰ الرِّسالةِ، فحصلَ الفرقُ فيمَا أجرَاهُ اللهُ علىٰ أيدِي الأولياءِ مِنَ الكراماتِ، وكذلِكَ مَا أجرَاهُ علىٰ أيدِي الأنبياءِ مِنَ الكراماتِ لأُمَمِهِمْ كنبعِ الماءِ، وتكثيرِ الطَّعامِ والتَّمرِ، ومَا يجرِي مجرَاهُ ممَّا يطولُ ذِكْرُهُ لَوْ تعرَّضْنَا لهُ وما أجرَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علَىٰ يدِ نبيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ منْ خوارقِ العاداتِ ما يجرِي مجرَىٰ المعجزةِ، وذلِكَ كدعاءِ الشَّجرةِ للأعرابيِّ الَّذِي أسلَمَ لمَّا دعاهَا النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجاءَتْ تخدُّ الأرضَ ثمَّ رجعتْ إلىٰ منبتِهَا، وكمصارعتِهِ لرُكانةَ وهوَ أشدُّ الرِّجالِ وصرَعَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّتَينِ وأسلَمَ، فهذَا قدْ تحدَّىٰ بهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووقعَ الإسلامُ بسببِهِ إلَّا أنَّهُ خاصٌّ، ودعوةُ نبيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ ورسالتُهُ عامَّةٌ، والمعجزةُ الدَّالةُ علَىٰ رسالتِهِ هيَ القرآنُ للنَّاسِ كافَّةً، وقدْ يتجوَّزُ بإطلاقِ المعجزةِ علَىٰ كلِّ خارقٍ جرَىٰ علَىٰ يدَيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّهُ فِي كلِّ وقتٍ داعٍ للنَّاسِ إلىٰ ربِّهِمْ ومحرِّضٌ لهُمْ علىٰ طاعتِهِ واتِّبَاعِ أمْرِهِ ونَهْيِهِ، فتكونُ جميعُ الخوارقِ الجاريةِ علَىٰ يدَيهِ حاملةً لهُمْ علىٰ ذلِكَ ودالَّةً لهُمْ عليهِ، وبهذَا الاعتبارِ عدَّهَا بعضُ العلماءِ كلَّهَا منَ المعجزاتِ، والتَّفصيلُ الَّذِي ذكرْنَاهُ أبيَنُ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

« فَصْـلٌ

ثُمَّ هَذِهِ الكَرَامَاتُ قَدْ تَكُونُ إجَابَةَ دَعْوَةٍ، وَقَدْ تَكُونُ إظْهَارَ طَعَامٍ فِي أَوَانِ فَاقَةٍ[٢] مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ ظَاهِرٍ، أَوْ حُصُولَ مَاءٍ فِي [٣/١٣٣أ] زَمَانِ عَطَشٍ، أَوْ تَسْهِيلَ قَطْعِ مَسَافَةٍ فِي مُدَّةٍ قَرِيبَةٍ، أَوْ تَخْلِيصًا مِنْ عَدُوٍّ، أَوْ سَمَاعَ خِطَابٍ مِنْ هَاتِفٍ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ فُنُونِ الأَفْعَالِ النَّاقِضَةِ[٣] لِلعَادَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ المَقْدُورَاتِ نَعْلَمُ اليَوْمَ قَطْعًا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُظْهِرَ كَرَامَةً لِلأَوْلِيَاءِ، بِضَرُورَةٍ أَوْ شِبْهِ ضَرُورَةٍ نَعْلَمُ ذَلِكَ.

فَمِنْهَا: حُصُولُ إِنْسَانٍ لَا مِنْ أَبَوينِ، وَقَلْبُ إِنْسَانٍ جَمَادًا[٤]، وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا ذكرَهُ الإمامُ منِ اختلافِ أنواعِ الكراماتِ فِي استجابةِ الدُّعاءِ، وتكثيرِ الطَّعامِ، ونبعِ الماءِ بينَ أصابعِهِ، وغيرِ ذلِكَ منَ الخوارقِ صحيحٌ، وإنَّمَا يبقَى أمورٌ ذكرَ الإمامُ أنَّهَا لا تقعُ في هذَا الزَّمانِ، هذَا عندِي محلُّ بحثٍ، وذلِكَ أنَّ خرقَ العادةِ جائزٌ مطلقًا فِي كلِّ زمانٍ، وهيَ قضيَّةٌ عقليَّةٌ لا تختَصُّ ببعضِ المُعْتَادَاتِ، وإنَّمَا يبقَى: هَلْ هذَا الجنسُ منَ الخَرْقِ ممَّا يُكْتَفَى فِي بقائِهِ بالآحادِ، أوْ ممَّا لا بُدَّ أنْ يكونَ متواتِرًا ؟!، وتسييرُ جبلٍ بينَ النَّاسِ وصيرورةُ بحرٍ ملحٍ عذبًا، وقلبُ ابنِ آدمَ بهيمةً، ومَا يجرِي مجرَاهُ منْ هذهِ الأمورِ الَّتِي لوِ انخرقَتْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٣.

(٢) أي: حاجة.

(٣) أي: الخارقة.

(٤) في (ف): وقلب جماد بهيمة أو حيوانًا.

فيهَا العادةُ لنُقِلَتْ إلينَا متواترةً، فمتَى نقلَ هذَا النَّوعُ منَ الخَوارقِ الآحاد معَ الاشتراكِ فِي السَّببِ دلَّ علىٰ كذبِ النَّاقلِ أوْ خَبَلِ[1] عقلِهِ وجنونِهِ فإنَّ العادةَ تكذِّبُهُ[2].

وأمَّا مَا يصحُّ أنْ ينفردَ بهِ الآحادُ؛ منْ رؤيةِ وليٍّ، أوْ قطعِ مسافةٍ فِي أمَدٍ قريبٍ، أوْ مجيءِ طعامٍ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ، أوْ نبعِ ماءٍ بركْضِ رِجْلٍ، أوْ ما يجرِي مجرَاهُ مِنْ هذهِ الأمورِ الَّتِي يصحُّ أنْ ينقلَهَا الآحادُ، ولا عادةَ تكونُ بكذبِ النَّاقلِ فمِمَّنْ ذكرَهَا عن نفسِهِ وشهِدَتِ الشَّريعةُ باستقامتِهِ، دلَّ علَىٰ أنَّهَا كرامةٌ لهُ منَ اللهِ ولَا يحلُّ تكذيبُهُ، ومتَىٰ نقلَهَا عن غيرِهِ وهوَ عدلٌ موثوقٌ بنقلِهِ ممَّنْ إذَا نقلَ الشَّريعةَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أجمعَتِ الأمَّةُ علىٰ قبولِ خبَرِهِ لعدالتِهِ فلَا يحلُّ تكذيبُهُ؛ لأنَّ الكذبَ لهُ لا مستندَ لهُ فِي التَّكذيبِ عقلًا ولَا شرعًا ولا عَادَةً.

❊ ❊ ❊

---

(١) أي: فساده.

(٢) وقد عقب الشيخ زكريا بعد نقله هذا الكلام عن المؤلف في إحكام الدلالة ٩٦٨/٢ ـ ٩٦٩ بقوله: «قال الزركشي: ما قاله القشيري ضعيف، والجمهور علىٰ خلافه، وقد أنكروه عليه حتىٰ ولده أبو نصر في كتابه (المرشد)، وإمام الحرمين في (الإرشاد)، والنووي في (شرح مسلم)؛ فقال: إنه غَلَطٌ من قائله، وإنكار للحس، بل الصواب جريانها بقلب الأعيان ونحوه». وانظر: الإرشاد للجويني ص٣١٦، وما بعدها.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

« فَصْلٌ

فَإِنْ قِيلَ [٣/١٣ب]: فَمَا مَعْنَى الوَلِيِّ ؟

قِيلَ: يَحْتَمِلُ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ (فَعِيلًا)، مُبَالَغَةً[(٢)] مِنَ الفَاعِلِ؛ كَالعَلِيمِ وَالقَدِيرِ[(٣)] وَغَيْرِهِ، فَيَكُونَ مَعْنَاهُ: مَنْ تَوَالَتْ طَاعَاتُهُ مِنْ غَيرِ تَخَلُّلِ مَعْصِيَةٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (فَعِيلًا) بِمَعْنَى (مَفْعُولٍ)؛ كَقَتِيلٍ بِمَعْنَى مَقْتُولٍ، وَجَرِيحٍ بِمَعْنَى مَجْرُوحٍ؛ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى الحَقُّ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ حِفْظَهُ وَحِرَاسَتَهُ عَلَى الإِدَامَةِ وَالتَّوَالِي، فَلَا يَخْلُقُ لَهُ الخِذْلَانَ الَّذِي هُوَ قُدْرَةُ العِصْيَانِ، وَيُدِيمُ تَوْفِيقَهُ الَّذِي هُوَ قُدْرَةُ الطَّاعَةِ، قَالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

فَصْلٌ[(٤)]

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ يَكُونُ الوَلِيُّ مَعْصُومًا؟

قِيلَ: أَمَّا وُجُوبًا كَمَا يُقَالُ فِي الأَنْبِيَاءِ فَلَا.

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ مَحْفُوظًا حَتَّى لَا يُصِرَّ عَلَى الذُّنُوبِ وَإِنْ حَصَلَتْ هَنَاتٌ أَوْ آفَاتٌ أَوْ زَلَّاتٌ، فَلَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ فِي وَصْفِهِمْ.

وَلَقَدْ قِيلَ لِلْجُنَيْدِ رَحِمَهُ اللَّهُ[(٥)]: العَارِفُ يَزْنِي يَا أَبَا القَاسِمِ؟ فَأَطْرَقَ مَلِيًّا ثُمَّ رَفَعَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٣.

(٢) أي: باعتبار صيغته، إذ هي من صيغ المبالغة.

(٣) بمعنى العالم أو القادر.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٤.

(٥) سبق تخريجه.

رَأْسَهُ وَقَالَ: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨]».

※ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَمَّا ما ذكرَهُ فِي الفصلِ الأَوَّلِ مِنِ اشتقاقِ الولِيِّ منَ الفاعلِ والمفعولِ فصحيحٌ، وهوَ قريبٌ، فإنَّ الوليَّ قدْ يُطلَقُ على أقسامٍ[١]؛ علَى النَّاصرِ، وولِيِّ النِّكاحِ، ووليِّ اليتيمِ، ووليِّ العتقِ وغيرِ ذلِكَ.

فالمقصودُ هاهُنَا منَ الولايةِ: الحفظُ والكَلاءةُ، فمَنْ أرادَ اللهُ - تعالىٰ - توفيقَهُ فقامَ بمَا عليهِ منَ الواجباتِ، واشتغلَ بالمندوباتِ، وتوالَىٰ فِعْلُهُ لهَا وإنْ تعالَتْ فِي الدَّرجاتِ، فهوَ وليٌّ بمعنَىٰ: توالِي الطَّاعاتِ منهُ.

وقدْ يسمَّىٰ وليًّا باعتبارِ توالِي نِعَمِ اللهِ عليهِ وتوفيقِهِ لهُ وحفظِهِ وكلاءتِهِ، فهوَ (فعيلٌ) بمعنَىٰ (مفعولٍ).

وأمَّا الفصلُ الثَّانِي وهوَ هَلْ يكونُ الوليُّ معصومًا أمْ لَا؟ فهذَا يرجعُ منهُ إلىٰ الاصطلاحِ في العصمةِ، وقدِ اختلفَ النَّاسُ فِي عصمةِ الأنبياءِ منَ الصَّغائرِ، وأمَّا الكبائرُ فمجمعٌ عليهِ أَنَّهُمْ لا يقعُونَ فيهَا[٢]، وقَدْ سَلَكَ الإمامُ القاضِي الفقيهُ العَالِمُ عياضُ بنُ موسَىٰ[٣] طريقًا في عصمتِهِم منَ الصَّغائرِ والكبائرِ، وأَنَّهَا لمْ تقعْ لهُم، وتأوَّلَ جميعَ مَا فِي الكتابِ العزيزِ مسندًا إلَىٰ الأنبياءِ حتَّىٰ قولَهُ - تعالىٰ -: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] تأوَّلَ [١٤/٣أ] «عصَىٰ» بمعنَىٰ: خالفَ[٤]، و«غوَىٰ»: تغيَّرَ حالُهُ عمَّا كانَ عليهِ.

فإذَا تقرَّرَ أنَّ العِصمَةَ إنَّمَا تكونُ بمعنَىٰ الحِفْظِ منَ الوقوعِ فِي المعاصِي

---

(١) انظر: اشتقاق أسماء الله الحسنىٰ ص١١٣، وشأن الدعاء ص٧٨.

(٢) انظر: المنتقىٰ من عصمة الأنبياء للصابوني ص٢٩.

(٣) في الشفا مع حاشية الشمني ٢/١٥٦ - (فصل فِي الرد عَلَىٰ من أجاز عَلَيْهِم الصغائر).

(٤) وخِلافُهُ كان خطأً لا عمدًا.

كبيرِهَا، أو كبيرِهَا وصغيرِهَا، فالولِيُّ يجوزُ أنْ يُحْفَظَ مِنْ بعضِ المعاصِي ويقعَ فِي بعضِهَا، ولَا يُخرجُهُ ذلِكَ عنْ كونِهِ وليًّا للهِ ـ تعالىٰ ـ، وإنْ وقعَ فِي شيءٍ تابَ عنهُ بسرعةٍ، ومُجِيَ أثرُهُ عنهُ، بخلافِ الأنبياءِ فإنَّهُمْ لَا يقعُونَ فِي الكبيرةِ أصلًا، فخرجَ مِنْ ذلِكَ أنَّ النَّبيَّ لَا يقعُ فِي كبيرةٍ أصلًا إجماعًا، ولَا فِي صغيرةٍ علىٰ الخلافِ، والولِيُّ يجوزُ أنْ يقعَ فِي الكبيرةِ والصَّغيرةِ، ويجوزُ ألَّا يقعَ.

فقدْ حصلَ الفرقُ بينَ العِصمةِ والحِفظِ؛ فالوليُّ يُحْفَظُ ممَّا يجوزُ وقوعُهُ، والنَّبيُّ امتنعَ أنْ يقعَ لهُ مَا يجوزُ وقوعُهُ بعضُهُ عقلًا وبعضُهُ شَرْعًا، وحفظُ الوليِّ ممَّا يجوزُ وقوعُهُ أوَّلًا جائزٌ وإنْ وقعَ وتابَ[(١)] منهُ كانَ ذلِكَ مِنْ جملةِ الحفظِ لهُ أيضًا[(٢)].

وقدْ سُئِلَ سيِّدُ هذهِ الطَّائفةِ الجُنيدُ عنِ العارفِ ـ وهوَ أرفعُ الأولياءِ مقامًا ـ، وقيلَ لهُ: هلْ يزنِي العارفُ؟ وسُئِلَ عنْ أقبحِ المعاصِي وأشنعِهَا فسكَتَ مليًّا، فإنْ نظَرَ إلىٰ الحرامِ العقلِيِّ صحَّ الوقوعُ، وإنْ نظَرَ إلَىٰ الحفظِ الشَّرعيِّ امتنعَ ذلِكَ، فأجابَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقولِهِ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨][(٣)].

---

(١) في الأصل: ومات، والتصويب من: إحكام الدلالة ٢/٩٧٠.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٧٠.

(٣) أشار إلىٰ أن وقوع الذنب من الولي لا ينافي ولايته؛ بأن يحفظه الله بالتوبة منها سريعًا. انظر: إحكام الدلالة ٢/٩٧٠.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

« فَصْلٌ

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ يَسْقُطُ الخَوْفُ عَنِ الأَوْلِيَاءِ؟

قِيلَ: أَمَّا الغَالِبُ عَلَى الأَكَابِرِ فَكَانَ الخَوْفَ، وَذَلِكَ الَّذِي قُلْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ عَلَى جِهَةِ النُّدْرَةِ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ.

وَهَذَا السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ يَقُولُ[٢]: لَوْ أَنَّ وَاحِدًا دَخَلَ بُسْتَانًا فِيهِ أَشْجَارٌ كَثِيرَةٌ، وَعَلَى كُلِّ شَجَرَةٍ طَيْرٌ يَقُولُ لَهُ بِلِسَانٍ فَصِيحٍ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا وَلِيَّ اللهِ، فَلَوْ لَمْ يَخَفْ أَنَّهُ مَكْرٌ لَكَانَ مَمْكُورًا، وَأَمْثَالُ هَذَا مِنْ حِكَايَاتِهِمْ كَثِيرٌ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الفَصْلُ فيهِ إشارةٌ إلىٰ ما تقدَّمَ الخلافُ فيهِ؛ وهوَ أنَّ الوليَّ هلْ يعلمُ كونَهُ وليًّا أمْ لَا؟ وهَلْ يعلمُ كونَهُ وليًّا فِي وقتِهِ؟ هلْ يجوزُ أنْ يعلمَ ما يختمُ لهُ بهِ أوْ لَا؟

قَدْ بيَّنَّا جوازَ ذلِكَ، وأنَّهُ إذَا وقعَ ذلِكَ فهوَ مِنْ بابِ خَرْقِ العادةِ، بخلافِ العلمِ بكونِهِ وليًّا فِي وقتِهِ، فإنَّ ذلِكَ مستندٌ إلىٰ ما شهدَتْ بهِ الشَّريعةُ [٣/١٤ب]، وهَلْ إذَا خُرِقَتْ للوليِّ العادةُ في العِلْمِ بمآلِ حالِهِ هلْ يلزمُ مِنْ ذلك عدمُ خوفِهِ مِنْ ربِّهِ وأَمْنِهِ مِنْ مَكْرِهِ، أَوْ لَا يلزمُ؟

قَدْ بيَّنَّا أنَّ ذلِكَ غيرُ لازمٍ، وغايةُ خرْقِ العادةِ أنْ يعلمَ منهُ أنَّهُ يموتُ مُؤمنًا، ومَا تقدَّمَ لهُ في حالِ حياتِهِ، ومَا يجري عليهِ بعدَ وقتِهِ الَّذِي هوَ فيهِ مِنَ المخالفاتِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٤.

(٢) ورد قوله في: تفسير القرطبي ١١/٢٩، وبستان العارفين للنووي ص٦٦، والمدخل لابن الحاج ٤/٢٩٤.

والمعاصِي الَّتِي يجوزُ جريانُهَا عليهِ لَا يأمنُ بذلِكَ، فهوَ لَا يأمنُ مِنْ تغيُّرِ حالِهِ عَنْ مقامِهِ الَّذِي هوَ فيهِ، وإنْ أمِنَ مِنْ موتِهِ علَىٰ غيرِ الإيمانِ فخوفُهُ مِنْ ربِّهِ ومِمَّا يجوزُ طَرَئانُهُ عليهِ فِي دنياهُ وآخرتِهِ لازمٌ، وكذلِكَ إجلالُهُ وتعظيمُهُ لربِّهِ لا يفارقُ قلبَهُ وهوَ حقيرٌ فِي نفسِهِ صغيرٌ.

فبهذَا الاعتبارِ كانَ الخَوْفُ هُوَ الغَالِبَ علَىٰ الكبارِ منَ الأولياءِ، وإنْ صحَّ أنْ يغترَّ مغترٌّ بخرْقِ العادةِ لهُ بأنَّهُ يموتُ وليًّا حتَّىٰ يأمنَ مكرَ اللهِ فِي غيرِ هذا فهوَ مخدوعٌ ممكورٌ بهِ، ولذلِكَ أتَىٰ بالمَثَلِ عنِ السَّرِيِّ السَّقَطِيِّ: «لَوْ دخلَ بستانًا فخرقَ اللهُ لهُ العادةَ حتَّىٰ كلَّمَتْهُ سائِرُ الأشجارِ وسائِرُ الغصونِ والأنهارِ منَ الجماداتِ بالسَّلامِ عليكَ[1] يا وليَّ اللهِ، ولَمْ يخَفْ أنْ يكونَ ذلِكَ مكْرًا ليقفَ ويسكُنَ إلىٰ غيرِ اللهِ لكانَ مخدوعًا»، فالوليُّ علىٰ هذَا التَّقديرِ لَا يعدمُ الخوفَ مِنْ ربِّهِ أبدًا، ولَوْ زالَ عنهُ الخوفُ بالكلِّيَّةِ والعياذُ باللهِ لزالَتْ عَنْ قلبِهِ مَعْرِفَتُهُ بهِ؛ لأنَّهُ ـ تعالىٰ ـ قالَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فكلُّ عالمٍ بهِ لا بُدَّ أنْ يخشَاهُ؛ لمعرفتِهِ بجلالِهِ وعظَمتِه، وكمالِ أَخْذِهِ وقُدْرَتِه[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) في الأصل: عليه، والأصح المثبت، كما في نصه السابق.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٧١.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«فَصْـلٌ»[٢]

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ تَجُوزُ رُؤْيَةُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بِالأَبْصَارِ اليَوْمَ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ جِهَةِ الكَرَامَةِ؟

فَالجَوَابُ عَنْهُ: أَنَّ الأَقْوَىٰ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ؛ لِحُصُولِ الإِجْمَاعِ عَلَيْهِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا بَكْرِ بْنَ فُورَكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَحْكِي عَنْ أَبِي الحَسَنِ[٣] الأَشْعَرِيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي ذَلِكَ قَوْلَيْنِ[٤] فِي كِتَابِ (الرُّؤْيَةِ الكَبِيرِ)[٥]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والنَّظرُ فِي هذِهِ المسألةِ لا يخلُو أنْ يكونَ فِي الجَوَازِ العقليِّ أَوْ فِي الوقُوعِ.

أمَّا فِي الجوازِ العقليِّ فلَوْ لم تكنْ رؤيتُهُ ـ تعالىٰ ـ جائزةً كانَتْ مستحيلةً [١٥/٣أ] لَمْ يُرَ فِي الدُّنيَا ولا فِي الآخرةِ، وقَدْ صَحَّتِ الأخبارُ برؤيتِهِ في الآخرةِ[٦]، وقَدْ سَأَلَ موسَىٰ الكليمُ ـ صلواتُ اللهِ علَىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ ربَّهُ الرُّؤيةَ[٧]، ولَا يسألُهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٥٢٤/٢.

(٢) أي: في رؤيته عَزَّوَجَلَّ.

(٣) في (الأصل): أبي سعيد، والصواب المثبت، كما سيذكر فيما بعد.

(٤) أي: الجواز، وهو المعتمد، والمنع. انظر: إحكام الدلالة ٩٧٢/٢، ونتائج الأفكار ٢٦٥/٤.

(٥) ذُكر في: تفسير الأسماء والصفات للبغدادي ٣٣٣/١، وتبيين كذب المفتري ص١٢٨، وفهرسة اللبلي ص١٠٩. وانظر الكلام عن «الرؤية» في كتبه في: اللمع ص٦١، والإبانة ص٣٥، ومقالات الإسلاميين ص٢١٣.

(٦) قال النووي: «اعلم أن مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالىٰ ممكنة غير مستحيلة عقلا، وأجمعوا أيضا علىٰ وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يرون الله تعالىٰ دون الكافرين..» شرح صحيح مسلم ١٥/٣. وانظر: الإرشاد للجويني ص١٧٦، ولمع الأدلة ص١١٥، وتمهيد الأوائل ص٣٠١، والاقتصاد في الاعتقاد ص١٣٠. وانظر في الأخبار الواردة في ذلك: رؤية الله للدارقطني ص٢١، وما بعدها.

(٧) انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٨٦/١٤.

النَّبيُّ إلَّا ما يجوزُ ، ولكِنْ أخبَرَهُ الحقُّ أنَّ وقوعَهُ ممتنعٌ فِي الدُّنيا ؛ لضَعْفِ بنِي آدمَ وكونِهِم لَا يطيقُونَ ذلِكَ ، ولذلِكَ مثَّلَهُ بالجبَلِ ، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقدْ سُئِلَ مَالكٌ عن رُؤيةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي الدُّنيا فقالَ[١]: «أمَّا فِي الدُّنيَا وهُمْ علَىٰ مَا هُمْ عليهِ من هذَا الضَّعفِ والفناءِ، فإذَا أُنْشِئُوا فِي الدُّنيَا نشأةً أُخرَىٰ باقيةً وخُلِقَ لهُمْ إدراكٌ باقٍ ـ أيْ: يتوالَىٰ عليهِمْ فِي أعينِهِمْ ـ أدركُوا بهِ ما ليسَ فِي جهةٍ».

وهذَا الَّذِي أشارَ إليهِ مالكٌ يدلُّ علَىٰ جوازِ الرُّؤيةِ ووقوعِهَا فِي الآخرةِ، وامتناعِ وقوعِهَا فِي الدُّنيَا ؛ لضَعْفِ بنِي آدمَ عن ذلِكَ.

والَّذِي حكَاهُ عن أبِي الحسنِ فِي الرُّؤيةِ قولَينِ راجعٌ إلَىٰ الاختلافِ: هلْ رأَىٰ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللهَ فِي ليلةِ المعراجِ أوْ لمْ يرَهُ؟[٢] معَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَىٰ نيَّتِهِ وخِلْقَتِهِ الَّتِي هوَ عليهَا فِي الدُّنيَا، فقَدْ وقعَتْ رؤيتُهُ ليلةَ المعراجِ، فإنْ صحَّ عنهُ كمَا رواهُ ابنُ عبَّاسٍ أنَّهُ رأَىٰ اللهَ وهوَ علَىٰ خلقتِهِ الَّتِي هوَ عليهَا فِي الدُّنيَا فقدْ وقعَتْ رؤيتُهُ، وإليهِ يشيرُ عنِ ابنِ عبَّاسٍ مِنْ أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ خصَّ موسَىٰ بالكلامِ وخصَّ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرُّؤيةِ، وإنْ لمْ يصحَّ النَّقلُ أنَّهُ رآهُ فِي تلكَ اللَّيلةِ، فهوَ سببُ اختلافِ قولِ أبِي الحسنِ[٣]، واللهُ أعلَمُ.

وأمَّا الجوازُ العقلِيُّ فلا إشكالَ فيهِ، ومَا نقلَهُ الإمامُ القشيرِيُّ مِنِ امتناعِ رؤيتِهِ فِي الدُّنيَا إجماعًا فهوَ إشارةٌ إلىٰ مَنْ يدَّعِي رؤيةَ غيرِ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيكونُ خلافُ قولِ أبِي الحسنِ مخصوصًا بليلةِ المعراجِ، ويكونُ ما نقلَ منَ الإجماعِ مخصوصًا بغيرِ ذلِكَ.

---

(١) انظر: اعتقاد أهل السنة ٤٦٨/٣، وحاوي الأرواح ص٢٣٥، ومعارج القبول ٣٣٩/١.
(٢) تأمل تفصيل ذلك في: الغنية في مسألة الرؤية لابن حجر العسقلاني.
(٣) انظر: مجرد مقالات الأشعري لابن فُورك ص٨١، ٨٣، وما بعدها.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«فَصْلٌ(٢)

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا فِي الحَالِ، ثُمَّ تَتَغَيَّرَ عَاقِبَتُهُ(٣)؟!

قِيلَ: مَنْ جَعَلَ مِنْ شَرْطِ الوِلَايَةِ حُسْنَ المُوافَقَةِ لَا يُجِيزُ ذَلِكَ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ فِي الحَالِ مُؤْمِنٌ عَلَى الحَقِيقَةِ، وَإِنْ جَازَ أَنْ يَتَغَيَّرَ حَالُهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا [٣/١٥ب] فِي الحَالِ صِدِّيقًا، ثُمَّ يَتَغَيَّرَ! وَهُوَ الَّذِي نَخْتَارُهُ(٤).

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ كَرَامَاتِ الوَلِيِّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مَأْمُونُ العَاقِبَةِ، وَأَنَّهُ لَا تَتَغَيَّرُ عَاقِبَتُهُ؛ فَتَلْتَحِقُ هَذِهِ المَسْأَلَةُ بِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الوَلِيَّ يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ وَلِيٌّ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا الفصلُ قد يكونُ قدْ تكرَّرَ الكلامُ فيهِ مرارًا، وتحقَّقَ أنَّ المؤمنَ يعلمُ كونَهُ مُؤمِنًا؛ لأنَّ حقيقةَ الإيمانِ أنْ تشهدَ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، يعلمُ ذلكَ مِنْ نفسِهِ ضرورةً، فالكفرُ والإيمانُ قضيَّتانِ شرعيَّتانِ يعرفُهَا العبدُ مِنْ نفسِهِ، ويعرفُهَا غيرُهُ منهُ، ولَوْ لزمَ منِ احتمالِ التَّغيُّرِ في العاقبةِ شكُّنَا فِي كونِهِ مؤمنًا أوِ احتمالِ إسلامِهِ شكُّنَا فِي كونِهِ كافرًا لمْ يُعْلَمِ المؤمنُ منَ الكافرِ، وبقِيَ الأمرُ مُلْتبِسًا علينَا حتَّى لا تنكشفَ العاقبةُ(٥)، وهذَا هَوَسٌ لا صائِرَ إليهِ.

وأمَّا مَا يَحسنُ أنْ يقعَ الخلافُ فيهِ فهيَ الولايةُ الخاصَّةُ لا ولايةُ الإيمانِ(٦)،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٥.

(٢) أي: في تغيّر الولي.

(٣) أي: بأن يخرج عن ولايته.

(٤) أي: علمه بأنه ولي في الحال هذا مذهب الماتريدية، والأول للأشاعرة.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٧٣.

(٦) الولاية العامة: هي ولاية المؤمنين بمجرد الإيمان، فيمكن العلم بها في الحال، وأما الخاصة=

فإذَا كانَ الاصطلاحُ عندَ قومٍ أنَّهُمْ لَا يسمُّونَ وليًّا ولايةً خاصَّةً حتَّىٰ يتوالَىٰ منهُ فِعْلُ الطَّاعاتِ والقُرُبَاتِ إلىٰ المَمَاتِ، ومتَىٰ لمْ يتوالَ ذلكَ عليهِ إلَىٰ المماتِ لمْ يستحقَّ عندَهُمْ اسمَ الولايةِ الخاصَّةِ.

وبعضُهُمْ يقولُ: إذَا توالَتْ منهُ الطَّاعاتُ المندوباتُ، وحسُنَتْ منهُ الحالاتُ، ودوامُ ذِكْرِ ربِّهِ والمُناجاةُ، وقلَّتْ منهُ الغفَلاتُ، سمَّيْنَاهُ وليًّا، ولَا يشترطُ فِي ولايتِهِ دوامُ ذلِكَ إلىٰ المماتِ، فهذَا يحسنُ فيهِ الخلافُ، ويرجعُ ذلِكَ إلىٰ الاصطلاحِ في اسمِ الولايةِ الخاصَّةِ علىٰ مَنْ يُطلقُ؟ فمَنْ ذهبَ إلَىٰ مذهبٍ مِنْ هذَينِ المذهبَينِ عُلِمَ مقصودُهُ، فإنْ خرقَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لبعضِ الأولياءِ العادةَ بِأَنَّ حالَهُ الكاملَ الَّذِي هوَ عليهِ يتوالَىٰ عليهِ إلىٰ المَوتِ قَدْ علِمَ كونَهُ وليًّا علَىٰ هذَا الاصطلاحِ، وإنْ لمْ تُخْرَقْ لهُ العادةُ بمآلِ أمْرِهِ لَا يعرفُ كونَهُ وليًّا، وهذَا قريبٌ.

= فهي موقوفة علىٰ شروط زائدة علىٰ الإيمان؛ من جريانهم علىٰ أشرف الأحوال، واشتغالهم بأفضل الأعمال. انظر: نتائج الأفكار ٤/٢٦٧.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

« فَصْـلٌ [(٢)]

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ يُزَايِلُ الوَلِيَّ خَوْفُ المَكْرِ[(٣)]؟

قِيلَ: إِذَا كَانَ مُصْطَلِمًا عَنْ شَاهِدِهِ[(٤)]، مُخْتَطَفًا عَنْ إِحْسَاسِهِ بِحَالِهِ، فَهُوَ مُسْتَهْلِكٌ عَنْهُ[(٥)] فِيمَا اسْتَوْلَىٰ عَلَيهِ، وَالخَوْفُ مِنْ صِفَاتِ الحَاضِرِينَ[(٦)] مِنْهُمْ[(٧)] [٣/١٦أ] ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ؛ فإنَّ العبدَ متىٰ كانَ مفرقًا حتَّىٰ يكونَ ذاكِرًا لنفسِهِ وربِّهِ، عارفًا بجلالِهِ وعظمتِهِ، فلَا بُدَّ أنْ يقومَ بقلبِهِ خوفٌ منهُ وهيبةٌ لهُ.

وأمَّا إذَا كمُلَ اشتغالُهُ بمولَاهُ؛ شُغْلًا غفلَ بهِ عن نفسِهِ فَضْلًا عمَّنْ سِوَاهُ، فهوَ مستهلكٌ مصطَلِمٌ بالكلِّيَّةِ، لَا شُعُورَ لهُ بنفسِهِ، فأينَ هوَ مِنْ خَوْفِهِ؟ فإذَا زالَ الخائفُ عنِ الذِّكرِ وهوَ الذَّاتُ الموصُوفةُ بالخَوفِ زالَتِ الصِّفَةُ بزَوَالِ المَوصُوفِ، فلَا يخطرُ بِبَالِ العَبْدِ خَوْفًا ولَا خائفًا؛ لكمالِ شُغْلِهِ عَنْ نفسِهِ واستغراقِهِ في ذِكْرِ ربِّهِ.

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٥.
(٢) أي: في أمن المكر.
(٣) أي: مكر الله به.
(٤) أي: مستغرقا عن مشهوده.
(٥) أي: عن إحساسة.
(٦) في الأصل: الخاصرين، وهو تصحيف.
(٧) أو: الأولياء أو الخلق. انظر: إحكام الدلالة ٢/٩٧٣.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«فَصْلٌ[٢]

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الغَالِبُ عَلَى الوَلِيِّ فِي أَوَانِ صَحْوِهِ؟

قِيلَ: صِدْقُهُ فِي أَدَاءِ حُقُوقِهِ ـ سبحانه ـ، ثُمَّ رِفْقُهُ وَشَفَقَتُهُ عَلَى الخَلْقِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ،

ثُمَّ انْبِسَاطُ رَحْمَتِهِ لِكَافَّةِ الخَلْقِ، ثُمَّ دَوَامُ تَحَمُّلِهِ عَنْهُم بِجَمِيلِ[٣] الخُلُقِ، وَابْتِدَائِهِ[٤] لِطَلَبِ الإِحْسَانِ مِنَ اللهِ ـ سبحانه ـ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ التِمَاسٍ مِنْهُمْ، وَتَعْلِيقُ الهِمَّةِ بِنَجَاةِ الخَلْقِ، وَتَرْكُ الانْتِقَامِ مِنْهُم، وَالتَّوَقِّي عَنِ اسْتِشْعَارِ حِقْدٍ عَلَيْهِمْ مَعَ قَصْرِ اليَدِ عَنْ أَمْوَالِهِم، وَتَرْكِ الطَّمَعِ بِكُلِّ وَجْهٍ فِيهِم[٥]، وَقَبْضِ اللِّسَانِ عَنْ بَسْطِهِ بِالسُّوءِ فِيهِم، وَالتَّصَاوُنِ[٦] عَنْ شُهُودِ مَسَاوِئِهِم، وَلَا يَكُونُ خَصْمًا لِأَحَدٍ[٧] فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَجَلِّ الكَرَامَاتِ الَّتِي تَكُونُ لِلأَوْلِيَاءِ دَوَامَ التَّوْفِيقِ لِلطَّاعَاتِ، وَالعِصْمَةَ مِنَ المَعَاصِي وَالمُخَالَفَاتِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي ذكرَهُ الإمامُ كلُّهُ مِنْ علاماتِ الولايات، وذلِكَ الانكفافُ عنِ النَّقائصِ والآفات، والاشتغالُ بالواجباتِ والمندوبات، ونفعُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٥ ـ ٤٢٦.

(٢) أي: في ترتيب أحوال الولي.

(٣) في الأصل: ثم بجميل، والأصح المثبت.

(٤) أي: ودوام ابتدائه، وفي (ف): انتدابه.

(٥) أي: اكتفاءً به سبحانه عما سِوَاه.

(٦) أي: صون نفسه.

(٧) لهوانها عليه.

الخلقِ بمَا أمكنَهُ في سائرِ الحالات، وحملُ أذاهُمْ وإنْ أكسبَهُ ذلكَ غايةَ المشقَّات.

وقولُهُ: «لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ خَصْمًا لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ» يدلُّ علىٰ هَوانِ الدُّنيَا فِي عَيْنِهِ لا يخاصمُ عليهَا، ورحمةِ الخَلْقِ وشفقتِهِ عليهِم، فلَا يطالبُهُمْ بحقٍّ لهُ عليهِم عندَ اللهِ فِي الدَّارِ الآخرةِ، كمَا قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٣/١٦ب][(١)]: (اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَتْلِي عَلَىٰ يَدِ مُؤْمِنٍ سَجَدَ لَكَ سَجْدَةً يُحَاجِجُنِي بِهَا يومَ القِيَامَةِ)، فلَمْ يرضَ أنْ يتضرَّرَ أحدٌ منَ المسلمِينَ بسببِهِ يومَ القيامةِ لهُ عندَ اللهِ قدرٌ، واستجابَ اللهُ دُعَاءَهُ فكانَ قتلُهُ علىٰ يدِ كَافِرٍ[(٢)]؛ قَتَلَهُ وهوَ يصلِّي بالمَدِينَةِ.

وجميعُ ما ذكرَهُ داخلٌ تحتَ الخبرِ الصَّحيحِ، وهوَ قولُهُ[(٣)]: «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِم»، هذَا يشملُ البُعْدَ عنِ المحرَّمَاتِ، والقيامَ بالواجباتِ، «ولا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّىٰ أُحبَّهُ» يشملُ المندوباتِ وإنْ تعالَتْ فِي الدَّرجاتِ، والمكروهاتِ وإنْ بعُدَتْ عنِ الشُّبهَاتِ، فإذَا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ وبصرَهُ.. الحديث، فهذَا هوَ الحفظُ لمَنْ خَصَّهُ الحقُّ بدرجةِ الولاياتِ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: **«وَمِمَّا شَهِدَ مِنَ القُرْآنِ عَلَىٰ إِظْهَارِ الكَرَامَاتِ عَلَىٰ الأَوْلِيَاءِ قَوْلُهُ - تعالىٰ - فِي صِفَةِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَلَمْ تَكُنْ نَبِيًّا وَلَا رَسُولًا أَنَّ زَكَرِيَّا - صَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيهِ وَسَلَّمَ - ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾** [آل عمران: ٣٧]، **وَكَانَ يَقُولُ: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ فَتَقُولُ مَرْيَمُ: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.**

---

(١) روي عنه في: الموطأ ٢/٤٦١، والاستذكار ٥/٩٩، والمطالب العالية ١٥/٧٦٢، وتنوير الحوالك ١/٣٠٦.

(٢) علىٰ يد لؤلؤة بن فيروز المجوسي، غلام المغيرة بن شعبة سنة (٢٣هـ).
انظر: الاستيعاب ٣/١١٥٢، والكامل في التاريخ ٢/٤٤٦.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٦ - ٤٢٧.

وَقَوْلُهُ ـ سبحانه ـ لِمَرْيَمَ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، وَكَانَ فِي غَيْرِ أَوَانِ الرُّطَبِ.

وَكَذَلِكَ قِصَّةُ أَصْحَابِ (الكَهْفِ)، وَالأَعَاجِيبُ الَّتِي ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ كَلَامِ الكَلْبِ مَعَهُمْ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَمِنْ ذَلِكَ: قِصَّةُ ذِي القَرْنَيْنِ وَتَمْكِينُهُ ـ سبحانه ـ [لَهُ فِي الأَرْضِ][1] مَا لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: مَا أُظْهِرَ[2] عَلَىٰ يَدِ الخَضِرِ مِنْ إِقَامَةِ الجِدَارِ، وَغَيْرِهِ مِنَ الأَعَاجِيبِ، وَمَا كَانَ يَعْرِفُهُ مِمَّا خَفِيَ عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كُلُّ ذَلِكَ أُمُورٌ نَاقِضَةٌ لِلْعَادَةِ، اخْتَصَّ الخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَا، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَإِنَّمَا كَانَ وَلِيًّا[3].

وَمِمَّا رُوِيَ مِنَ الأَخْبَارِ فِي هَذَا البَابِ حَدِيثُ جُرَيْجٍ الرَّاهِبِ، أَخْبَرَنَا أَبُو نعيمٍ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ الحَسَنِ الإِسْفَرَايِينِي رَحِمَهُ اللَّهُ أَخْبَرَنَا أَبُو عَوَانَةَ يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا عَمَّارُ بْنُ رَجَاءٍ، حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ، حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ يَحْكِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ أَبُو عَوَانَةَ، وَحَدَّثَنَا الصَّنْعَانِيُّ وَأَبُو أُمَيَّةَ قَالَ: حَدَّثَنَا الحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ [١٧/٣أ] المَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَصَبِيٌّ فِي زَمَانِ جُرَيْجٍ، وَصَبِيٌّ آخَرُ.

---

(١) زيادة من (ف).

(٢) في (ف): ظهر.

(٣) تأمل تفصيل ذلك في: الزهر النضر في حال الخضر ص٢٤، والحذر في أمر الخضر ص٨١، والقول المقبول في الخضر هل هو نبي أم ملك أم رسول؟ لشهاب الدين الغنيمي، مخطوط مكتبة (أسعد أفندي ـ بتركيا) برقم (١٤٤٦).

أَمَّا عِيسَىٰ . . فَقَدْ عَرَفْتُمُوهُ .

وَأَمَّا جُرَيْجٌ . . فَكَانَ رَجُلًا عَابِدًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَكَانَتْ لَهُ أُمٌّ ، فَكَانَ يَوْمًا يُصَلِّي إِذْ اشْتَاقَتْ إِلَيهِ أُمُّهُ ، فَقَالَتْ : يَا جُرَيْجُ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ؛ الصَّلَاةُ خَيْرٌ أَمْ آتِيهَا(١) ؟ ثُمَّ صَلَّىٰ وَدَعَتْهُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ صَلَّىٰ وَدَعَتْهُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ صَلَّىٰ فَاشْتَدَّ عَلَىٰ أُمِّهِ فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّىٰ تُرِيَهُ المُومِسَاتِ(٢) ، وَكَانَتْ زَانِيَةٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَتْ لَهُم : أَنَا أَفْتِنُ جُرَيْجًا حَتَّىٰ يَزْنِي ، فَأَتَتْهُ فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَىٰ شَيْءٍ ، وَكَانَ رَاعٍ يَأْوِي بِاللَّيْلِ إِلَىٰ أَصْلِ صَوْمَعَتِهِ ، فَلَمَّا أَعْيَاهَا رَاوَدَتِ الرَّاعِي عَلَىٰ نَفْسِهَا فَأَتَاهَا [فَحملَتْ منهُ](٣) ، فَوَلَدَتْ ، ثُمَّ إِنَّهَا قَالَتْ : وَلَدِي هَذَا مِنْ جُرَيْجٍ ، فَأَتَاهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ ، وَشَتَمُوهُ ، ثُمَّ صَلَّىٰ وَدَعَا ، ثُمَّ نَخَسَ الغُلَامَ .

قَالَ مُحَمَّدٌ : قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ بِيَدِهِ : يَا غُلَامُ ، مَنْ أَبُوكَ ؟ فَقَالَ : الرَّاعِي ، فَنَدِمُوا عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُمْ وَاعْتَذَرُوا ، وَقَالُوا : نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ ، ـ أَوْ قَالُوا : مِنْ فِضَّةٍ ـ ، فَأَبَىٰ عَلَيْهِم ، وَبَنَاهَا كَمَا كَانَتْ .

وَأَمَّا الصَّبِيُّ الآخَرُ . . فَإِنَّ امْرَأَةً كَانَتْ مَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا تُرْضِعُهُ إِذْ مَرَّ بِهَا شَابٌّ جَمِيلٌ ذُو شَارَةٍ ، فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا ، فَقَالَ الصَّبِيُّ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ .

قَالَ : قَالَ مُحَمَّدٌ : قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ كَانَ يَحْكِي الغُلَامَ وَهُوَ يَرْضَعُ ، ثُمَّ مَرَّتْ(٤) بِهَا أَيْضًا امْرَأَةٌ ذَكَرُوا أَنَّهَا سَرَقَتْ وَزَنَتْ وَعُوقِبَتْ ، فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا ،

---

(١) في (ف) : إجابتها .

(٢) أي : الزواني البغايا المتجاهرات بذلك .

(٣) زيادة من (ف) .

(٤) في (ف) : مَرَّ .

فَقَالَتْ أُمُّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَمَّا الرَّاكِبُ فَجَبَّارٌ مِنَ الجَبَابِرَةِ، وَإِنَّ هَذِهِ قِيلَ لَهَا: زَنَتْ وَلَمْ تَزْنِ، وَقِيلَ: سَرَقَتْ وَلَمْ تَسْرِقْ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللهُ.

وَهَذَا الخَبَرُ فِي (الصَّحِيحِ)(١)».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا ذكرَهُ الإمامُ فِي الكتابِ العزيزِ من الخوارقِ إنَّمَا قدَّمَهُ لكونِ القرآنِ متواترًا عن رَبِّ العالمِينَ، وأمَّا مريمُ فالصَّحيحُ [٣/١٧ب] أنَّهَا ليسَتْ منَ الأنبياءِ، وقولُ اللهِ ـ تعالى ـ: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢]، والاصطفاءُ: هوَ الاختصاصُ، اختصَّهَا اللهُ بالولايةِ(٢)، وقد ذكرَ اللهُ امرأةَ فرعونَ(٣)، وذكَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فاطمةَ ابنةَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّهَا سيِّدةُ عالَمِهَا(٤).

فمِنْ كراماتِهَا(٥) الَّتِي أكرَمَهَا اللهُ بهَا(٦): أنَّ زكريَّا ـ صلواتُ اللهِ على نبيِّنَا وعليهِ ـ كانَ إذَا دخلَ عليهَا ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾، فتُجيبُهُ بأنَّهُ ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وفِي هذَا دلالةٌ على أنَّ الحسابَ إنَّمَا يكونُ على الرِّزقِ المكتسَبِ، كمَا جاءَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٢٦٨ ـ حديث رقم (٣٢٥٣)، ومسلم في صحيحه ٤/١٩٧٦ ـ حديث رقم (٢٥٥٠).

(٢) انظر: معاني النحاس ١/٣٩٨، وتفسير السمرقندي ١/٢٣٧، والبغوي ١/٣٠٠، والقرطبي ٤/٨٢.

(٣) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

(٤) ففي مصنف ابن أبي شيبة ٦/٣٨٨: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاطمة سيدة نساء العالمين بعد مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة ابنة خويلد».

(٥) أي: مريم بنت عمران.

(٦) في الأصل: به، والصواب المثبت.

أنَّ العبدَ يُسأَلُ يومَ القيامةِ «عَنْ مالِهِ مِنْ أينَ اكتسبَهُ، وفِي مَاذَا أنفقَهُ؟»[١].

وَالخَارِقُ الثَّانِي: لمَّا ولدَتْ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِيلَ لهَا: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]، ولَمْ يكُنْ زمانَ رطبٍ فِي النَّخلِ، فهذَا خارقٌ ثانٍ، وهوَ تحريكُهَا بجذعٍ يابسٍ أحياهُ اللهُ لهَا، وجعلَ فيهِ خوصًا وتمرًا رُطَبًا يسقطُ عليهَا فتستغنِي عن أَنْ تجنيهِ بيدِهَا، وأجرَىٰ تحتَهَا سَرِيًّا تشربُ منهُ[٢]، قالَ أهلُ التَّفسيرِ[٣]: «نَهْرٌ مِنَ الأردنِ ساقَهُ اللهُ إليهَا».

فِفِي قصَّةِ مريمَ ثلاثُ خوارقَ: الطَّعامُ منْ حيثُ لا تحتسِبُ، وجريانُ النَّهرِ مِنْ تحتِهَا ولَمْ يكُنْ، وكذلِكَ سقوطُ الرُّطبِ منَ الجِذْعِ اليابسِ.

وأمَّا قصَّةُ أصحابِ الكهفِ فإنَّ ذكرَهُم فِي كتابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وأنَّهُم ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥] نيامًا، ويُقَلَّبُونَ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ وكلبُهُمْ معَهُمْ باسطٌ ذراعَيهِ بالوصيدِ[٤]، والشَّمسُ تَزاورُ عن كهفِهِم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمَالِ[٥]، وهذهِ كلُّهَا خَوارِقُ.

وأمَّا قصَّةُ الخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فالصَّحيحُ أنَّهُ ليسَ بنبِيٍّ فِي خرقِ السَّفينةِ ولَمْ تَغْرَقْ، وإقامةِ الجدارِ الَّذِي كانَ مائلًا فمسحَ بيدِهِ فاعتدلَ ولَمْ يهدِمْهُ، قالَهُ بعضُ أهلِ التَّفسيرِ، وقولُهُ: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ [الكهف: ٨٢]، يعنِي: بإلهامِ اللهِ لهُ[٦]،

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي في سننه ٤/٦١٢.

(٢) ويسمَّىٰ سريًّا؛ لأنه يسري فيه الماء.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١١/٨٩، والقرطبي ١١/٩٤، وابن كثير ٣/١١٨.

(٤) أي: فناء الكهف، أو بالباب، أو بالصعيد. انظر: تفسير البغوي ٣/١٥٤، وابن كثير ٣/٧٧.

(٥) في التسهيل لابن جزي ٢/١٨٤: «ومعنىٰ (تزاور): تميل وتزوغ، ومعنىٰ (تقرضهم): تقطعهم؛ أي: تبعد عنهم، وهو بمعنىٰ القطع، و(ذات اليمين والشمال)، أي: جهته، ومعنىٰ الآية: أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها؛ لئلا يحترقوا بحرها، فقيل: إن ذلك كرامة لهم وخرق عادة».

(٦) انظر: تفسير البغوي ٣/١٧٧.

وقد [١٨/٣أ] تمسَّكَ بهذَا مَنْ زعمَ أنَّهُ نبيٌّ(١).

فهذهِ كلُّهَا خوارقُ فِي كتابِ اللهِ ـ تعالى ـ منصوصةٌ جرَتْ علَى يدَي مَنْ لمْ يتحقَّقْ كونُهُ نبيًّا.

وأمَّا مَنْ تكلَّمَ في المهدِ وهوَ صغيرٌ(٢) فكلامُهُ خرقٌ للعادةِ؛ فمنهُمْ عيسَى بنُ مريمَ ـ صلواتُ اللهِ علَى نبيِّنَا وعليهِ ـ فقالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، ومنهُمْ ما نُقِلَ فِي الصَّحيحِ منَ الأخبارِ فِي قضيَّةِ صاحبِ جُريجٍ الرَّاهبِ، وولدِ المرأةِ الَّتِي كانَ فِي حجرِهَا فمرَّ عليهَا رجلٌ صاحبُ شارةٍ وهيئةٍ حسنةٍ فقالَتْ أمُّهُ: «اللَّهُمَّ اجعلْ ابنِي مثلَ هذَا»، فقالَ: «اللَّهُمَّ لا تجعلْنِي مثلَ هذَا»، ثمَّ مُرَّ عليهَا بجاريةٍ تُضرَبُ وتُهانُ فقالَتْ: «اللَّهُمَّ لَا تجعلْ ابنِي مثلَ هذِهِ»، فقالَ: «اللَّهُمَّ اجعلْنِي مثلَ هذهِ»، ثمَّ تراجعَ هوَ وأمُّهُ الكلامَ فأخبرَهَا بحالِ الرَّاكبِ ذِي الشَّارةِ الحسنةِ، وأنَّ حالَهُ لا يُرضِي، وأخبرَهَا بحالِ المضروبةِ المظلومةِ، فقالَ: «سَرقَتْ ومَا سَرقَتْ، وزنَتْ ومَا زنَتْ».

فهؤلاءِ الثَّلاثةُ تكلَّمُوا في المهدِ، وكلامُهُمْ خرقُ عَادةٍ؛ إحدَاهَا: كرامةٌ لمريمَ وبَرَاءةٌ لهَا، والثَّانِي: كرامةٌ لجُريجٍ وبراءةٌ لهُ ممَّا نُسِبَ إليهِ، والثَّالثُ: آيةٌ لوالدتِهِ وبراءةٌ لمَنْ ظُلِمَتْ.

وما ذُكِرَ منْ قصَّةِ يوسفَ والشَّهادةِ لهُ فِي شَقِّ القميصِ(٣)، قالَ ابنُ عبَّاسٍ(٤)

---

(١) انظر: المحرر الوجيز ٥٣٧/٣، والزهر النضر في أخبار الخضر ص٦٦.

(٢) للاستزادة انظر: الميثاق والعهد فيمن تكلم في المهد لشهاب الدين البرماوي.

(٣) حيث قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ....﴾ [يوسف: ٢٦].

(٤) ورد قوله في: تفسير الطبري ١٩٣/١٢، والبغوي ٤٢١/٢، ومفاتيح الغيب ٩٩/١٨، والكامل في التاريخ ١٠٨/١.

وغيرُهُ: «تكلَّمَ فِي المهدِ ثلاثةٌ، عيسَىٰ بنُ مريمَ، وصاحبُ جُريجٍ الرَّاهِبِ، وصاحبُ يوسفَ الصِّدِّيقِ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ الغَارِ، وَهُوَ مَشْهُورٌ مَذْكُورٌ فِي (الصِّحَاحِ).

أَخْبَرَنَا أَبُو نَعِيمٍ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ الحَسَنِ الإِسْفَرَايِينِي رَحِمَهُ اللَّهُ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَوَانَةَ يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ وَزَيْدُ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ الدِّمَشْقِيُّ، وَعَبْدُ الكَرِيمِ بْنُ الهَيْثَمِ الدَّيْرَعَاقُولِيُّ، وَأَبُو الخَصِيبِ بْنُ المُسْتَنِيرِ المِصِّيصِيُّ، قَالُوا: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أخبرنا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كانَ قَبلَكُمْ، فَآوَاهُمُ المَبيتُ إِلَىٰ غارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحدرت صَخرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا: [إِنَّهُ واللهِ][(٢)] لا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ [٣/١٨ب] الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: إِنَّهُ كَانَ لِي أَبَوانِ شَيْخَانِ كبِيرَانِ، وَكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فباتَا فِي ظِلِّ الشَّجرَةِ[(٣)] يَوْمًا، فَلَمْ أَرُحْ عَلَيْهِمَا[(٤)] حَتَّىٰ نَامَا، فَحلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا[(٥)]، فَجِئْتُهُمَا بِهِ، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَتحَرَّجْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَقُمْتُ وَالقَدَحُ عَلَىٰ يَدِي أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّىٰ بَرَقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتِ انْفِرَاجًا لا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهُ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٧ ـ ٥٢٨.

(٢) زيادة من (ف).

(٣) في الرسالة القشيرية: «فنَأَىٰ بِي طَلَبُ الشَّجَرَةِ».

(٤) أي: لم أصل إليهما.

(٥) أي: مشروبهما.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّىٰ أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ علىٰ أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ، حَتَّىٰ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلا بِحَقِّهِ[١]، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ إِلَّا أَنَّهُ لا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ثُمَّ قَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أُجُورَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ مِنْهُمْ تركَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّىٰ كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ؛ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَىٰ مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ لا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لا أَسْتَهْزِئُ، فَأَخَذَ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ وَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا مِنَ الغَارِ يَمْشُونَ.

وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٢]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رضي الله عنه: وَوَجْهُ الخَارِقِ للعَادَةِ فِي هذا الخبَرِ والكَرَامَةِ لَهُمْ [١١٩/٣أ] وليسُوا بأنبياءَ زَوالُ الصَّخرةِ الَّتِي انحدَرَتْ منَ الجبلِ علىٰ فَمِ الغارِ الَّتِي لَا قدرةَ لهُمْ علىٰ إزالتِهَا، ولكنَّهُمْ لمَّا صدقُوا اللهَ - تعالىٰ - ودَعَوهُ بطاعاتٍ كانَتْ منهُمْ خالصةً خرقَ لهُمُ العادةَ فِي إزالتِهَا، ودحاهَا عنهُمْ علَىٰ التَّدريجِ بدعائِهِم شيئًا شيئًا.

---

(١) وهو عقد النكاح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٧٩٣ - حديث رقم (٢١٥٢)، ومسلم في صحيحه ٤/٢١٠٠ - حديث رقم (٢٧٤٣).

وفِي هذَا الخبرِ مَنْ أطاعَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ مُخْلِصًا استجابَ دعاءَهُ؛ فالأوَّلُ: أكرَمَ والدَيهِ وبرَّهُمَا، وقدَّمَهُمَا علَىٰ أولادِهِ لوجْهِ اللهِ، وبقِيَ ينتظرُهُمَا وإناءُ اللَّبنِ علَىٰ يدِهِ، لم يهُنْ عليهِ أنْ يوقظَهُمَا، فيشوِّشَ عليهِمَا نومَهُمَا قيامًا بحقِّ الوالدَينِ، ولم يهُنْ عليهِ أنْ يُقدِّمَ أولادَهُ عليهِمَا، فعَلِمَ اللهُ ـ سبحانه ـ صِدْقَهُ فِي ذلِكَ، فدَحَا عنهُمْ ثلثَهَا.

والآخرُ: كانَتْ لهُ ابنةُ عمٍّ أحبَّهَا حبًّا شديدًا، وبذلَ لهَا مالًا جزيلًا حتَّىٰ مكَّنَتْهُ مِنْ نفسِهَا، فلمَّا قالَتْ لهُ: «لا تفضَّ الخاتمَ إلَّا بحقِّهِ»، يعنِي: عقدَ نكاحٍ صحيحٍ، فترَكهَا وترَكَ لهَا المالَ، فعلِمَ اللهُ صدقَهُ، فدحَا عنهُمَا الثُّلُثَ الثَّانِي.

والثَّالثُ: استأجَرَ أجيرًا بأجرةٍ معلومةٍ، فلمَّا كانَ عندَ فَراغِهِ من عملِهِ أعطَاهُ أجرَهُ فسخطَهُ، ومضَىٰ وتركَهُ، فثمَّرَهُ لهُ حتَّىٰ صارَ منهُ بقرًا ورُعَاتِهَا وغيرَ ذلِكَ، فلمَّا جاءَهُ قالَ لهُ: «خذْ جميعَ ذلِكَ، فقالَ لهُ: اتَّقِ اللهَ ولا تَهْزَأْ بِي»، فأعلَمَهُ أنَّهُ ثمَّرَ لهُ أَجْرَهُ، وأنَّ جميعَهُ لهُ، فأخذَهُ فدعَا اللهَ ـ تعالىٰ ـ صَادقًا فدَحَا اللهُ عنهُم ما بقِيَ منَ الصَّخرةِ، وخرجُوا يتماشونَ.

ففِي هذِهِ الكراماتِ استجابَةُ الدُّعاءِ عندَ الشِّدَّةِ، وإزالةُ الشِّدَّةِ بخوارقِ العَادَاتِ، وقد يَدْعُو[1] الإنسانُ فِي مَرَضٍ يُزيلُهُ اللهُ، وطعامٍ يأتِيهِ بهِ، ومَا يجرِي هذَا المجرَىٰ منَ المعتادِ، فتكونُ الكرامةُ في استجابةِ الدُّعاءِ خاصَّةً.

أمَّا قصَّةُ أصحابِ الصَّخرةِ ففيهَا[2] الكرامةُ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: استجابةُ دعائِهِم.

والثَّانِي: إزالةُ الصَّخرةِ عنهُمْ بقدرةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ خَرْقًا للعادةِ؛ فالأوَّلُ: بَرَّ

---

(١) في الأصل: يدع، والصواب المثبت.

(٢) في الأصل: ففيه، والصواب المثبت.

والدَيهِ، والثَّانِي: تركَ مَا قدرَ عليهِ منَ المعصيةِ، معَ كمالِ محبَّتِهِ وتيسُّرِ شهوتِه، ثمَّ تركَ لهَا ما بذَلَهُ لهَا منَ المالِ زيادةً فِي درجتِه، والثَّالثُ: ثمَّرَ لهُ أُجرتَهُ، وفعلَ فيهَا منَ الخيرِ ما لا يلزمُهُ، بلْ طاعةً للهِ ـ تعالىٰ ـ.

والَّذِي يظهرُ أنَّ أَقْوىٰ هؤلاءِ الثَّلاثة [٣/١٩ب] هوَ المذكورُ وسطًا؛ الَّذِي تركَ شَهْوتَهُ معَ تيسُّرِهَا وكمالِ محبَّتِهِ لهَا، ثمَّ بَذَلَ لابنةِ عمِّهِ ما تركَهُ لهَا؛ وهوَ مائةُ دينارٍ وعشرونَ[١] دينارًا.

فهؤلاءِ ـ وفَّقكَ اللهُ ـ ظهَرَتْ لهُمْ كراماتٌ وخوارقُ عاداتٍ منْ ربِّهِمْ، وليسُوا بأنبياءَ؛ منهَا ما تضمَّنَهُ الكتابُ العزيزُ، ومنهَا مَا تضمَّنَهُ الخبرُ الصَّحيحُ، وهذَا القدرُ كافٍ فِي الدَّلالةِ علىٰ وقوعِ الكراماتِ للأولياءِ؛ لصحَّةِ النَّقلِ تواترًا بالكتابِ العزيزِ، وثبوتًا بالخبرِ الصَّحيحِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَمِنْ ذَلِكَ الحَدِيثُ الَّذِي قَالَ النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ البَقَرَةَ كَلَّمَتْهُمْ»**.

أَخْبَرَنَا أَبُو نُعَيمٍ الإِسْفَرَايِينِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَوَانَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَىٰ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ [قَالَ][٣]: أَخْبَرَنِي يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ، عَنِ ابْنِ شَهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ[٤]: بَيْنَما رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا، التَفَتَتِ البَقَرَةُ وَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أُخلَقْ لِهَذا، إِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ، فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ!، فَقَالَ النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **آمَنْتُ بِهَذا**

---

(١) في الأصل: وعشرين، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٨.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٣٣٩ ـ حديث رقم (٣٤٦٣)، ومسلم في صحيحه ٤/١٨٥٧ ـ حديث رقم (٢٣٨٨).

وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ علىٰ كلامِ البقرةِ بلسانِ النَّاسِ، وهوَ خلافُ العادةِ وهوَ خارقٌ.

ووجهُ دخولِهَا في بابِ الكراماتِ نصحُهَا لصاحبِهَا حتَّىٰ لا يُحَمِّلَهَا ما لا تطيقُ وقوعَهُ، فإنَّهَا لمْ تُخْلَقْ للحملِ، وإنَّمَا خُلِقَتْ للحرثِ، فلمَّا قالَ النَّاسُ: سبحانَ اللهِ! لمَّا سمِعُوا الحكايةَ أنَّ بقرةً تكلَّمَتْ بكلامِ النَّاسِ، فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا مُؤمنٌ بِهَذَا وأَبُو بكرٍ وعُمَرُ»، أيْ: بأنَّ اللهَ قادرٌ علىٰ ذلكَ، وأنَّهُ يفعلُ ما يشاءُ[(١)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَمِنْ ذَلِكَ: حَدِيثُ أُوَيْسٍ القَرَنِيِّ، وَمَا شَهِدَ بِهِ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ حَالَتِهِ وَقِصَّتِهِ، ثُمَّ التِقَاؤُهُ مَعَ هَرِمِ بْنِ حَيَّانٍ، وَتَسْلِيمُ أَحَدِهِمَا عَلَىٰ صَاحِبِهِ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ تَقَدَّمَتْ بَيْنَهُمَا، وَكُلُّ ذَلِكَ أَحْوَالٌ نَاقِضَةٌ لِلْعَادَةِ، وَتَرَكْنَا شَرْحَ حَدِيثِ أُوَيْسٍ لِشُهْرَتِهِ.

وَلَقَدْ ظَهَرَ عَلَىٰ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ عَلَىٰ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الكَرَامَاتِ مَا بَلَغَ حَدَّ الاِسْتِفَاضَةِ، وَقَدْ صُنِّفَ فِي ذِكْرِ ذَلِكَ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ، وَسَنُشِيرُ إِلَىٰ طَرَفٍ مِنْهُ عَلَىٰ وَجْهِ الإِيْجَازِ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ ـ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأمَّا أويسٌ القَرَنِيُّ فمِنْ كَرَامَتِهِ [٣/٢٠أ] ما رواهُ ابنُ عيَّاش[(٣)] قالَ: ماتَ أُويسٌ القرنيُّ بـ(سجستانَ)، فَوُجِدَ معَهُ أكفانٌ لَمْ تكُنْ معَهُ.

وفِي بعضِ الرِّواياتِ[(٤)]: «فإذَا قبْرٌ محفورٌ، وماءٌ مَسْكُوبٌ، وكَفَنٌ وحنوطٌ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٨٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٨ ـ ٥٢٩.

(٣) في الأصل: عباس، والتصويب من مصدر تخريج قوله: تاريخ دمشق ٩/٤٥٣.

(٤) وردت في: حلية الأولياء ٢/٨٣، وتاريخ دمشق ٩/٤٥٥.

فغسَّلْنَاهُ وكفَّنَّاهُ وصلَّينَا عليهِ ودفنَّاهُ، فقالَ بعضُنَا لبعضٍ: لَوْ رجعْنَا فعلَّمْنَا قبْرَهُ لنستغفرَ لهُ، فرجعْنَا فإذَا لا قبْرَ ولَا أثرَ».

وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ فيهِ منَ الخوارقِ وجودُ القبْرِ محفورًا والأكفانِ مِنْ غيرِ سببٍ يعرفونَهُ، وفيهِ أنَّ أُوَيسًا لمَّا كانَ يحبُّ الانقطاعَ وأخفَىٰ عملَهُ في حياتِهِ أخفَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عنهُمْ قبْرَهُ بعدَ وفاتِهِ.

وقَدْ سَألَهُ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا اجتمعَ بهِ فِي عرفاتٍ وعرَّفَهُ بصفةِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي وصفَهَا لهُ أنْ يثبتَ لهُ حتَّىٰ يرجعَ إليهِ، فقالَ لهُ: «لَا تَرَانِي ولَا أراكَ بعدَ اليومِ» وكانَ يرعَىٰ الإبلَ فِي صورةِ العبيدِ، فبقِيَ عمرُ ينادِي عليهِ فِي كلِّ موسمٍ فلَا يجدُ مَنْ يدلُّهُ عليهِ لخفاءِ أمْرِهِ، وقلَّةِ شهرتِهِ، حتَّىٰ دلَّهُ عليهِ رجلٌ منْ أهلِهِ منْ (قرنٍ)، فقالَ لهُ: أَقرنِيٌّ أنتَ؟ فقالَ لهُ: نعَمْ، فقالَ: أتعرِفُ أُوَيسًا فوصفَهُ لهُ، فقالَ: نعَمْ، ومَا تسألُ عنْ ذلِكَ يا أميرَ المؤمِنينَ، واللهِ ما فينَا أحمقُ منهُ، ولَا أجنُّ منهُ، ولا أحوجُ منهُ، ولَا أدْنَىٰ منهُ، فبكَىٰ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثمَّ قالَ عمرُ: مَا قلتُ ذلكَ إلَّا أنِّي سمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ[(١)]: «يَدْخُلُ فِي شَفَاعَتِهِ الجَنَّةَ مِثْلُ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ».

قالَ هرمُ بنُ حيَّانَ[(٢)]: فلمَّا سمِعْتُ هذَا القولَ مِنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدِمْتُ الكوفةَ فلَمْ يكُنْ لِي هَمٌّ إلَّا أنْ أطلبَ أُويسًا وأسألَ عنهُ، حتَّىٰ سقطْتُ عليهِ جالسًا علَىٰ شاطئِ الفُرَاتِ نصفَ النَّهارِ يتوضَّأُ ويغسلُ ثوبَهُ، فعرَفتُهُ بالنَّعتِ الَّذِي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/٣٩٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٩/٤٣٨، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢/٨٨٤.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٩/٤٢٢.

نُعِتَ لِي ، فإذَا رجلٌ لحيمٌ شديدُ السُّمرةِ ، محلوقُ الرَّأسِ ، كَثُّ اللِّحيَةِ[١] ، متغيِّرٌ جدًّا ، كرِيهُ الوجهِ ، مهيبُ المنظرِ ، قالَ: فسلَّمْتُ عليهِ فردَّ عليَّ ، فقلتُ: حيَّاكَ اللهُ مِنْ رجُلٍ ، فمدَدْتُ يدِي لأصافِحَهُ فأبَىٰ أنْ يصافحَنِي ، فقلتُ: رحِمَكَ اللهُ يَا أويسُ وغفرَ لكَ ، كيفَ أنتَ رحِمَكَ اللهُ؟ وخنقَتْنِي العَبْرَةُ مِنْ حبِّي إيَّاهُ وَرِقَّتِي عليهِ ، إذْ رأيتُ منْ حالِهِ مَا رأيتُ [٢٠/٣ب] حتَّىٰ بكيتُ وبكَىٰ ، قالَ: وأنتَ فحيَّاكَ اللهُ يا هرمُ بنُ حيَّان ، كيفَ أنتَ يا أخِي ؟ ومَنْ دلَّكَ علَيَّ ؟ قالَ: فقلتُ: اللهُ ، قالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ ، سبحانَ اللهِ ، ﴿ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٨] ، قالَ: فعجبتُ حينَ عرَفَنِي ، وَلَا[٢] واللهِ مَا رأيتُهُ قبلَ ذلكَ ولَا رآنِي ، فقلتُ: مِنْ أينَ عرَفْتَ اسمِي واسمَ أبِي ومَا رأيتُكَ قبلَ اليومِ ؟ قالَ: نبَّأَنِي العليمُ الخبيرُ ، وعرفَتْ رُوحِي رُوحَكَ حينَ كلَّمَتْ نفسِي نفسَكَ ، إنَّ الأرواحَ لهَا أنفسٌ كأنفُسِ الأجسادِ ، وإنَّ المؤمنِينَ ليعرفُ بعضُهُمْ بعضًا ويتحابُّونَ بروحِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ[٣] ، وإنْ لمْ يلتَقُوا يتعارفُونَ ويتكلَّمُونَ ، وإنْ نأَتْ بهِمُ الدَّارُ وتفرَّقَتْ بهِمُ المَنَازِلُ ، قالَ: قلتُ: حدِّثْنِي ـ رحمَكَ اللهُ ـ عنْ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحديثٍ أسمعُهُ منكَ ، قالَ: لمْ أدرِكْ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولمْ يكُنْ لِي معَهُ صحبةٌ ، بأبِي وأمِّي رسول اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ولكنِّي رأيتُ رجالًا قَدْ صحبُوهُ ، وبلغَنِي مِنْ حديثِهِ نحوُ مَا بلغَكَ ، ولستُ أحبُّ أنْ أفتحَ هذَا البابَ علَىٰ نفسِي أنْ أكونَ محدِّثًا أوْ مفتيًا أوْ قاصًّا ، فِي نفسِي شغلٌ عنِ النَّاسِ يا هرمُ بنُ حيَّان ، فقلتُ: يا أخِي اقرَأْ عليَّ آيةً منَ القرآنِ أسمعُهَا منكَ ، وادْعُ لِي بدعواتٍ ، وأوصِنِي بوصيَّةٍ أحفظُهَا عنكَ ، فإنِّي أحبُّكَ فِي اللهِ حُبًّا شَدِيدًا ، قالَ: فقامَ وأخذَ بيدِي ، ثمَّ قالَ: أعوذُ باللهِ السَّميعِ العليمِ منَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ ، ثمَّ بكَىٰ ،

---

(١) في النهاية لابن الأثير ١٥٢/٤: «الكثاثة في اللحية: أن تكون غير رقيقة ولا طويلة ، ولكن فيها كثافة ، يقال: رجل كث اللحية ـ بالفتح ، وقوم كث ـ بالضم».

(٢) الأصح: وأنا.

(٣) لأن الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف.

ثمَّ قالَ: قالَ ربِّي، وأصدقُ الحديثِ حديثُ ربِّي، وأصدقُ الكلامِ كلامُهُ، ثمَّ قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩] حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٢]، فصعقَ صعقةً ظننتُ أنَّهُ قدْ غُشِيَ عليهِ، ثمَّ قالَ: يا ابنَ حيَّان: ماتَ أبوكَ حيَّانُ، ويوشكُ(١) أنْ تموتَ [أنتَ](٢)، فإمَّا إلىٰ جنَّةٍ وإمَّا إلىٰ نارٍ، وماتَ أبوكَ آدمُ، وماتَتْ أمُّكَ حوَّاءُ، وماتَ نوحٌ، وماتَ إبراهيمُ خليلُ الرَّحمنِ، وماتَ موسىٰ نجيُّ الرَّحمنِ، يا ابنَ حيَّان، وماتَ داودُ خليفةُ الرَّحمنِ، وماتَ محمَّدٌ رسولُ ربِّ العالمِينَ ـ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعليهِمْ أجمعِينَ ـ، وماتَ أبو بكرٍ خليفةُ المسلمِينَ، وماتَ أخِي وصَفِيِّي عمرُ بنُ الخطَّابِ، ثمَّ قالَ: وَا عُمَرَاهُ وا عُمَرَاهُ [٢١/٣أ]، قالَ: فقلتُ: يرحمُكَ اللهُ إنَّ عمرَ لَمْ يَمُتْ، فقالَ: قَدْ نَعَاهُ إليَّ ربِّي ونَعَىٰ إليَّ نفسِي.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَ فِي بَعْضِ الأَسْفَارِ، فَلَقِيَ جَمَاعَةً وَقَفُوا عَلَىٰ الطَّرِيقِ مِنْ خَوْفِ السَّبعِ، فَطَرَدَ السَّبعَ مِن طَرِيقِهِم، وَقَالَ(٤): إِنَّمَا يُسَلَّطُ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ مَا يَخَافُهُ، وَلَوْ أَنَّهُ لَمْ يَخَفْ غَيْرَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لَمَا سُلِّطَ عَلَيهِ شَيْءٌ، وَهَذَا خَبَرٌ مَعْرُوفٌ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومثلُهُ ما جرَىٰ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ لمَّا كانَ فِي قفلٍ وتعرَّضَ السَّبُعُ للنَّاسِ علىٰ الطَّريقِ، تقدَّمَ إليهِ إبراهيمُ بنُ أدهمَ وقالَ(٥): يا أبَا

---

(١) في الأصل: وأوشك، والتصويب من مصدر تخريج قوله.

(٢) تتمة من مصدر تخريج قوله.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٩.

(٤) رواه الترمذي في: نوادر الأصول ١/١٧٦، وابن حجر في: لسان الميزان ٢/٤٩. وورد في اللمع للطوسي ص٣٩٧.

(٥) ورد في: حلية الأولياء ٨/٤، وتاريخ دمشق ٦/٣١٩، وكرامات الأولياء ص٢٤٣، والزهد والرقائق للخطيب البغدادي ص١٢٦، والمجالسة وجواهر العلم ص٤٠.

الحارثِ ، إنْ كنتَ أُمِرْتَ فينا بشيءٍ وإلَّا فتنحَّ عَنْ طريقِنَا ، فهَمْهَمَ السَّبعُ وتنحَّىٰ عنِ الطَّريقِ ، فلمَّا تعجَّبُوا منْ ذلِكَ قالَ لهُمْ إبراهيمُ: ما علَىٰ أحدِكُمْ أنْ يقولَ إذا أصبحَ وأمسَىٰ: اللَّهُمَّ احرُسْنَا بعينِكَ الَّتِي لَا تنامُ، واحفَظْنَا برُكْنِكَ الَّذِي لا يُرامُ، وارحَمْنَا بقدرتِكَ علينَا ، فلَا نهلَكُ وأنتَ الرَّجاءُ.

وإنَّمَا ذَكَرْنَا قصَّةَ إبراهيمَ هاهُنَا معَ السَّبعِ ؛ ليُعْلَمَ صحَّةُ ذلِكَ سَلَفًا وخَلَفًا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**وَرُوِيَ**[(٢)] **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بَعَثَ العَلَاءَ بْنَ الحَضْرَمِيِّ فِي غَزَاةٍ ، فَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المَوْضِعِ قِطْعَةٌ مِنَ البَحْرِ ، فَدَعَا اللهَ ـ تعالىٰ ـ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ وَمَشَوا عَلَىٰ المَاءِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا دعَا بهِ العلاءُ ابنُ الحضرمِيِّ مُبيَّنٌ فِي حديثٍ آخرَ[(٣)]: «يا عليُّ يا عظيمُ ، يا عليمُ يا حكيمُ ، إنَّا عبيدُكَ ، نقاتِلُ فِي سبيلِكَ ، فاجعَلْ لنَا إليهِم سبيلًا ، ثمَّ ضَرَبَ فَرَسَهُ فخَاضَ البحرَ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَرُوِيَ**[(٥)] **أَنَّ عَبَّادَ**[(٦)] **بْنَ بَشِيرٍ ، وَأُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٩.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في: مجابو الدعوة ص٤١ ، والقرطبي في الإعلام ص٣٨٣ ، والرازي في مفاتيح الغيب ٢١/٧٦ ، والسبكي في طبقات الشافعية الكبرىٰ ٢/٣٣٣.

(٣) رواه ابن فضيل في الدعاء ص٢٥٢ ، وابن حنبل في الزهد ص١٦٩ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/٥٣ ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/٧ ، وابن الجوزي في الحدائق في علم الحديث ٣/٣٣٠ ، وابن كثير في البداية والنهاية ٦/١٥٥.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٩.

(٥) رواه أحمد في مسنده ٣/١٩٠ ، وابن حبان في صحيحه ٥/٣٧٨ ، والنسائي في سننه الكبرىٰ ٥/٦٨ ، وفضائل الصحابة ص٤٢ ، والحاكم في المستدرك ٣/٣٢٦.

(٦) أثبت في الأصل: عتَّاب ، وذكر المثبت في الحاشية عن نسخةٍ ، وهو الصواب كما في مظان تخريجه ، وورد كما في المتن في: اللمع للطوسي ص٣٩٧. وانظر ترجمة عتاب في: الثقات ٨/٥٢٢.

خَرَجَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَضَاءَ لَهُمَا [رَأْسَ][١] عَصَا، أَحَدِهِمَا كَالسِّرَاجِ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنهما قَصْعَةٌ، فَسَبَّحَتْ حَتَّى سَمِعَا التَّسْبِيحَ.

وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ[٢]: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ، [لَا يُؤْبَهُ لَهُ][٣]، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»، وَلَمْ يُفَرِّقْ ﷺ بَيْنَ شَيْءٍ وَشَيْءٍ فِيمَا يُقْسِمُ بِهِ عَلَى اللهِ - تعالى -[٤].

وَهَذِهِ الأَخْبَارُ لِشُهْرَتِهَا أَضْرَبْنَا[٥] [٣/٢١ب] عَنْ ذِكْرِ أَسَانِيدِهَا».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رضي الله عنه: وأمَّا إضاءَةُ طَرَفِ العَصاةِ وطَرَفِ السَّوطِ مشهورٌ في الصَّحابةِ وغيرِهِم منَ التَّابعينَ، منهُمْ هذانِ المذكورَانِ[٦]، ومطرفُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ قالَ أحدُهُمَا لصاحبِهِ لوْ أخبرْنَا النَّاسَ بهذَا لكذَّبُونَا؛ لمَّا كانَا في ليلةٍ مظلمةٍ، فظهرَ عندَ طرفِ سَوطِ أحدِهِمَا كالقنديلِ منَ النُّورِ يستضيئَانِ، فقالَ صاحبُهُ[٧]: «لوْ حدَّثنَا النَّاسَ بهذَا لكذَّبونَا، قالَ لهُ مطرفُ: المُكَذِّبُ أكذبُ»، وكانَ مطرفٌ إذَا دخلَ بيتَهُ سبَّحَتْ معَهُ آنيةُ بيتِهِ.

---

(١) زيادة من (ف).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.

(٤) سواء الاسم الأعظم أم غيره. انظر: إحكام الدلالة ٢/٩٨٣.

(٥) أي: أعرضنا.

(٦) في الأصل: «هذين المذكورين»، والصواب المثبت.

(٧) رواه عبد الرزاق في مصنفه ١١/٢٨١، وأبو نعيم في الحلية ٢/٢٠٥، والبيهقي في الاعتقاد ص٣١١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٨/٣٢١.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَحُكِيَ عَنْ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ قَالَ[٢]: مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ مُخْلِصًا فِي ذَلِكَ، ظَهَرَتْ لَهُ الكَرَامَاتُ، وَمَنْ لَمْ تَظْهَرْ فَإِنَّهُ عُدِمَ الصِّدْقَ فِي زُهْدِهِ، فَقِيلَ لِسَهْلٍ: كَيْفَ تَظْهَرُ لَهُ الكَرَامَةُ؟ فَقَالَ: يَأْخُذُ مَا يَشَاءُ كَمَا يَشَاءُ مِنْ حَيْثُ يَشَاءُ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا لا يلزمُ مِنْ صدقِهِ أنْ يظهَرَ عليهِ خوارقُ العاداتِ.

وَقَوْلُهُ: «يأخذُ ما يشاءُ كيفَ يشاءُ مِنْ حيثُ شاءَ» معناهُ: أنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يلطفُ بهِ ويُيَسِّرُ لهُ الخيراتِ، ويزيلُ عنهُ المشغلاتِ، ويُجرِي سائِرَ تصرُّفاتِهِ علىٰ وجْهِ السَّدادِ والاستقامةِ فِي الطُّرُقِ الواضِحَاتِ[٣]، يَدُلُّ عليهِ الخَبَرُ الصَّحِيحُ وَهُوَ[٤]: «مَا تقرَّبَ المتقرِّبُونَ إلَيَّ».. إلىٰ آخرِهِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ الصَّفَّارُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو مُسْلِمٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ مَرْزُوقٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ المَاجِشُون قَالَ: أَخْبَرَنَا وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ، عَنِ ابْنِ[٦] عُمَيرٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ[٧]: «بَيْنَما رَجُلٌ ذَكَرَ كَلِمَةً إِذْ سَمِعَ رَعْدًا فِي سَحَابٍ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي السَّحَابِ: أَنِ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَجَاءَ ذَلِكَ السَّحَابُ إِلَىٰ شَرْجَةٍ[٨]، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِيهَا، فَاتَّبَعَ السَّحَابَ،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٩.

(٢) ورد في: اللمع ص٣٩٠، وجامع كرامات الأولياء ١/٢٩.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٨٣.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٢٩ ـ ٥٣٠.

(٦) في (ف): أبي.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٨٨ ـ حديث رقم (٢٩٨٤).

(٨) هي: مسيل الماء.

فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَةٍ قَالَ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِاسْمِهِ، قَالَ: فَمَا تَصْنَعُ بِحَدِيقَتِكَ هَذِهِ إِذَا صَرَمْتَهَا؟ قَالَ: وَلِمَ تَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِنَّنِي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ أَنِ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، قَالَ: أَمَا إِذْ قُلْتَ فَإِنِّي أَجْعَلُهَا أَثْلَاثًا، فَأَجْعَلُ لِنَفْسِي وَلِأَهْلِي [٣/١٢٢أ] ثُلُثًا، وَأَرُدُّ عَلَيْهَا ثُلُثًا، وَأَجْعَلُ لِلْمَسَاكِينِ ثُلُثًا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَى أنَّ اللهَ ـ تعالَى ـ أرادَ انتفاعَ هذَا السَّامعِ بكونِهِ خرقَ لهُ العادةَ، حتَّى سمعَ كلامَ الملكِ الموكَّلِ بالسَّحابِ وهوَ يقولُ للسَّحابِ: «اِسْقِ حديقةَ فلانٍ»، وكانَ هذَا السَّماعُ سببًا لمُضِيِّهِ إلى الحديقةِ، واجتماعِهِ بصاحبِهَا، وإخبارِهِ إيَّاهُ بمَا يصنعُ فيهَا؛ ليتزايدَ حرصُ هذا السَّامعِ للصَّوتِ منَ السَّحابِ فِي السَّاعاتِ، ويهوِّنَ عليهِ إخراجَ مالِهِ فِي جهةِ الخيراتِ، فإنَّ اللهَ ـ تعالَى ـ يعوِّضُهُ ويحلُّ لهُ فِي مالِهِ البركاتِ، فموضعُ خرقِ العادةِ استماعُ الصَّوتِ، وموضعُ الكرَامةِ انتفاعُهُ بمَا سمعَ مِنْ صاحبِ الحديقةِ وعملُهُ عليهَا(١).

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ يَقُولُ(٣): دَخَلْنَا (تُسْتَرَ) وَرَأَيْنَا فِي قَصْرِ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بَيْتًا كَانَ النَّاسُ يُسَمُّونَهُ بَيْتَ السَّبُعِ، فَسَأَلْنَا النَّاسَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالُوا: كَانَ السِّبَاعُ تَجِيءُ إِلَى سَهْلٍ، فَكَانَ يُدْخِلُهُمْ فِي هَذَا البَيْتِ وَيُضِيفُهُمْ وَيُطْعِمُهُمُ اللَّحْمَ ثُمَّ يُخَلِّيهِم.

قَالَ أَبُو نَصْرٍ: وَرَأَيْتُ أَهْلَ (تُسْتَرَ) كُلَّهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى هَذَا لَا يُنْكِرُونَهُ، وَهُمُ الجَمْعُ الكَثِيرُ».

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٨٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٠.

(٣) ورد في: اللمع ص٣٩١. وورد أيضا في: المختار من مناقب الأخيار ٢/١٤٤، وجامع كرامات الأولياء ٢/٩٢.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ومِمَّا ذُكِرَ عنْ سهلٍ أنَّهُ تكلَّمَ يومًا فِي الذَّاكرِ فقالَ[١]: «إنَّ الذَّاكرَ للهِ ـ تعالَىٰ ـ علَىٰ الحقيقةِ لوْ همَّ أنْ يحيِيَ الموتَىٰ لَفعلَ، ثمَّ مسحَ بيدِهِ علَىٰ عليلٍ كانَ بينَ يدَيهِ فقامَ»، وهذَا مِنْ صحَّةِ القصدِ والإخلاصِ والالتجاءِ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي الدُّعاءِ.

وكانَ سهلٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أصابَتْهُ زمانَةٌ فِي آخرِ عمرِهِ، فإذَا حضرَتِ الصَّلاةُ انتشرَتْ يدَاهُ ورِجْلَاهُ، فإذَا فرغَ منَ الفرضِ عادَ إلىٰ حالِ الزَّمانةِ، وهذَا مِنْ جُملةِ الكرامةِ والحفظِ لهُ ليأتِيَ بالفَرِيضَةِ علىٰ أكملِ وُجُوهِهَا، وهوَ مِنْ خوارقِ العاداتِ[٢].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ اللهِ العَلَوِيَّ يَقُولُ[٤]: دَخَلْتُ عَلَىٰ أَبِي الخَيْرِ التِّينَاتِيِّ وَكُنْتُ اعْتَقَدْتُ[٥] فِي نَفْسِي أَنْ أُسَلِّمَ عَلَيهِ وَأَخْرُجَ وَلا آكُلَ عِنْدَهُ طَعَامًا، فَلَمَّا خَرَجْتُ مِن عِنْدِهِ وَمَشَيْتُ قَدْرًا، فَإِذَا بِهِ [٣/٢٢ب] يَأْتِي خَلْفِي وَقَدْ حَمَلَ طَبَقًا عَلَيهِ طَعَامٌ، فَقَالَ: يَا فَتَىٰ، كُلْ هَذَا، فَقَدْ خَرَجْتَ السَّاعَةَ مِنِ اعْتِقَادِكَ.

وَأَبُو الخَيرِ التِّينَاتِيُّ مَشْهُورٌ بِالكَرَامَاتِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ دليلٌ علىٰ مُكَاشَفتِهِ بمَا أضمرَ عليهِ هذَا الفتَىٰ من أنَّهُ لا يأكلُ فِي منزلِهِ شيئًا، وأرادَ هوَ أنْ يطعمَهُ وصبرَ عليهِ حتَّىٰ

---

(١) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ٢/١٥٢، ونشر المحاسن الغالية ص١٨.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٨٤.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٠.

(٤) ورد قوله في: اللمع ص٣٩٢، وتاريخ دمشق ٦٦/١٦٩، وإحياء علوم الدين ٣/٢٥، وبغية الطلب ٦/٢٩٤٥.

(٥) أي: قصدت.

خرجَ منْ عندِهِ وبَعُدَ عنِ الموضعِ ، فدعاهُ إلى الأكلِ وقالَ لهُ: «كُلْ ، فقدْ خَرجْتَ مِنْ عَقْدِكَ».

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «حُكِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرقِّيِّ أَنَّهُ قَالَ[(٢)]: قَصدْتُهُ مُسْلِمًا[(٣)] ، فَصلَّى صَلاةَ المغْرِبِ فَلَمْ يَقْرَأِ الفَاتِحَةَ مُسْتَوِيًا ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: ضَاعَتْ سَفْرَتِي ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ خَرَجْتُ لِلطَّهَارَةِ ، فَقَصدَنِي السَّبْعُ فَعُدْتُ إِلَيهِ وَقُلْتُ: إِنَّ الأَسَدَ قَدْ صَدَّنِي[(٤)] ، فَخَرَجَ وَصَاحَ عَلَى الأَسَدِ وَقَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لكَ لا تَتعَرَّضْ لِضِيفَانِي ؟! فَتنحَّى ، وَتطَهَّرْتُ ، فَلَمَّا رَجعْتُ قَالَ: اشْتَغَلْتُمْ بِتَقْوِيمِ الظَّوَاهِرِ فَخِفْتُمُ الأَسَدَ ، وَاشْتَغَلْنَا بِتَقْوِيمِ القَلْبِ فَخَافَنَا الأَسَدُ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ على أنَّ الخللَ الَّذِي كانَ فِي فاتحةِ الكتابِ شيءٌ لا يضرُّهُ في صلاتِهِ ؛ إمَّا لكونِهِ لمْ يغيِّرِ المعنَى ، أوْ لعجمةٍ في لسانِهِ منعتْهُ منَ التَّعلُّمِ ، وقد قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبلالٍ[(٥)]: «إنَّ سينكَ عندَ اللهِ شينٌ» ، لمَّا كانَ يقولُ في أذانِهِ: «أشهدُ أنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ».

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَقِيلَ[(٧)]: كَانَ لِجَعْفَرٍ الخُلْدِيِّ فَصٌّ ، فَوَقَعَ يَوْمًا

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٠.
(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦٦/١٦٧ ، وإحياء علوم الدين ٣/٢٥.
(٣) أي: أبا الخير الأقطع.
(٤) في (ف): قصدني ، والصواب المثبت.
(٥) رواه الشعراني في: البدر المنير في غريب أحاديث البشير النذير ص١١٧ ، وأعقبه بقوله: «اشتهر على ألسنة العوام ، ولم نره في شيء من الأصول». وللاستزادة انظر: جزء في عدم صحة ما نقل عن بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من إبداله الشين في الأذان سينًا للخيضري ـ ضمن لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام عدد (٤٤).
(٦) الرسالة القشيرية ٢/٥٣١.
(٧) ورد قوله في: عوارف المعارف ص١٣ ـ ط/العلمية ، والمستطرف ١/٣١١.

فِي الدِّجْلَةِ، وَكَانَ عِنْدَهُ دُعَاءٌ مُجَرَّبٌ لِلضَّالَّةِ تُرَدُّ، فَدَعَا بِهَا، فَوَجَدَ الفَصَّ فِي وَسَطِ أَوْرَاقٍ كَانَ يَتَصَفَّحُهَا.

سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ يَقُولُ(١): إِنَّ ذَلِكَ الدُّعَاءَ هُوَ: يَا جَامِعَ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، اجْمَعْ عَلَيَّ ضَالَّتِي.

قَالَ أَبُو نَصْرٍ: أَرَانِي أَبُو الطَّيِّبِ العَكِّيُّ جُزْءًا ذَكَرَ فِيهِ مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ عَلَى ضَالَّتِهِ فَوَجَدَهَا، فَكَانَ الجُزْءُ أَوْرَاقًا كَثِيرَةً».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وموضعُ الخارقِ كونُهُ وجدَ الفصَّ الَّذِي سقطَ لهُ في البحرِ بينَ أوراقٍ كانَ يتصفَّحُهَا ولا يعرفُ مَنْ أتَى بهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «سَأَلْتُ أَحْمَدَ الطَّابَرَانِيَّ السَّرْخَسِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ ظَهَرَ لَكَ شَيْءٌ مِنَ الكَرَامَاتِ؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ وَقْتِ [٣/١٢٣أ] إِرَادَتِي وَابْتِدَاءِ أَمْرِي رُبَّمَا كُنْتُ أَطْلُبُ حَجَرًا أَسْتَنْجِي بِهِ فَلَمْ أَجِدْهُ، فَتَنَاوَلْتُ شَيْئًا مِنَ الهَوَاءِ وَكَانَ جَوْهَرًا، فَاسْتَنْجَيْتُ بِهِ وَطَرَحْتُهُ.

ثُمَّ قَالَ: وَأَيُّ خَطَرٍ لِلكَرَامَاتِ؟ إِنَّمَا المَقْصُودُ مِنْهُ زِيَادَةُ اليَقِينِ فِي التَّوْحِيدِ، فَمَنْ لَا يَشْهَدُ غَيْرَهُ مَوْجُودًا فِي الكَوْنِ.. فَسَوَاءٌ أَبْصَرَ فِعْلًا مُعْتَادًا، أَوْ نَاقِضًا(٣) لِلْعَادَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذهِ الحكايةِ ـ وفَّقكَ اللهُ ـ أنَّهُ لمَّا دعَتْهُ حاجةٌ إلى الاستجمارِ ولمْ يجِدْ حجرًا أخذَ منَ الهواءِ شيئًا فوجدَهُ جوهرًا، ويبقَى النَّظرُ فِي استجمارِهِ بهِ؛ لأنَّهُ صقيلٌ لَا يزيلُ الأذَى، وشريفٌ لَا ينبغِي الاستجمارُ بهِ

---

(١) اللمع ص٣٩١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣١.

(٣) أي: خارقًا.

كالحبرِ والذَّهبِ والفضَّةِ، وإنَّمَا ذكرَهُ لكونِهِ خارقًا لَا غيرَ، وكونِهِ أخذَهُ منَ الهواءِ، وكونِ الكراماتِ لَا يغترُّ بهَا العمَّالُ، ولذلِكَ قالَ فِي حكايتِهِ: «**وأيُّ قَدْرٍ للكرامةِ**»، ولعلَّهُ شُبِّهَ عليهِ أنَّهُ جوهرٌ، وإنَّمَا كانَ حجرًا يضيءُ، ولذلِكَ رمَاهُ(١).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَينِ البَصْرِيَّ يَقُولُ(٣): كَانَ بِـ(عَبَّادَانَ) رَجُلٌ أَسْوَدُ فَقِيرٌ، يَأْوِي إِلَى الخَرَابَاتِ، فَحَمَلْتُ مَعِي شَيْئًا(٤)، وَطَلَبْتُهُ، فَلَمَّا وَقَعَ عَيْنُهُ عَلَيَّ تَبَسَّمَ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الأَرْضِ، فَرَأَيْتُ الأَرْضَ كُلَّهَا ذَهَبًا يَلْمَعُ! ، ثُمَّ قَالَ: هَاتِ مَا مَعَكَ، فَنَاوَلْتُهُ، وَهَالَنِي(٥) أَمْرُهُ، وَهَرَبْتُ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علَى أنَّ هذا الأسودَ كُوشِفَ بمَا فِي نفسِ أبِي الحسين البَصْريِّ بمَا أتَى بهِ، فأرادَ أنْ يعرِّفَهُ أنَّهُ بفضْلِ اللهِ غنيٌّ عمَّا جاءَ بهِ، ولذلِكَ أشارَ إلى الأرضِ فرآهَا أبو الحسين ذهبًا بعدَ تبسُّمِهِ لهُ، ثمَّ قالَ: «**هاتِ ما معَكَ**»، فيهِ مكاشفةٌ لمَا معَهُ، وأرادَ أنْ يسرَّهُ بقبولِ ما جاءَ بهِ معَ استغنائِهِ عنهُ(٦).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٧): «**سَمِعْتُ مَنْصُورًا المَغْرِبِيَّ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ عَطَاءٍ الرُّوذْبَارِيَّ يَقُولُ(٨): كَانَ بِي اسْتِقْصَاءٌ فِي أَمْرِ الطَّهَارَةِ، فَضَاقَ صَدْرِي لَيْلَةً لِكَثْرَةِ مَا صَبَبْتُ مِنَ المَاءِ وَلَمْ يَسْكُنْ قَلْبِي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، عَفْوَكَ،**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٨٦.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣١.
(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٣٩١.
(٤) أي: شفقة عليه.
(٥) أي: أفزعني.
(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٨٦.
(٧) الرسالة القشيرية ٢/٥٣١.
(٨) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٣٩١.

فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَقُولُ: العَفْوُ فِي العِلْمِ، فَزَالَ عَنِّي ذَلِكَ.

سَمِعْتُ مَنْصُورًا المَغْرِبِيَّ يَقُولُ[١]: وَرَأَيْتُهُ يَوْمًا يَقْعُدُ [٣/٢٣ب] عَلَى الأَرْضِ فِي الصَّحْرَاءِ، وَكَانَ عَلَيْهَا آثَارُ الغَنَمِ بِلَا سِجَّادَةٍ، فَقُلْتُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ؛ هَذِهِ آثَارُ الغَنَمِ! فَقَالَ: اِخْتَلَفَ الفُقَهَاءُ فِيهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا منهُ يدلُّ علىٰ أنَّ بعرَ الغنمِ ليسَ بطاهرٍ، كمَا نُقِلَ عنِ الشَّافعيِّ أنَّ الأبوالَ كلَّهَا نجسةٌ ما أُكِلَ لحمُهُ وما لمْ يُؤْكَلْ[٢].

وموضعُ الاستشهادِ بالكرامةِ: أنَّ اللهَ استجابَ لهُ دعاءَهُ، وزالَ عنهُ ما كانَ فيهِ منَ الوسوسةِ في الطَّهارةِ حتَّىٰ كانَ في آخرِ عمرِهِ يجلسُ بلا سجَّادةٍ علىٰ بعرِ الغنمِ المختلَفِ في طهارتِهِ ونجاستِهِ، ولذلِكَ قيلَ لهُ: «العَفْوُ فِي العِلْمِ»، يعنِي: فِي اتِّباعِ العِلْمِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ يَقُولُ[٤]: سَمِعْتُ الحُسَينَ بْنَ أَحْمَدَ الرَّازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ الخَوَّاصَ يَقُولُ: كُنْتُ رَاكِبًا حِمَارًا يَوْمًا، وَكَانَ الذُّبَابُ يُؤْذِيهِ، فَيُطَأْطِئُ رَأْسَهُ، فَكُنْتُ أَضْرِبُ رَأْسَهُ بِخَشَبَةٍ فِي يَدِي، فَرَفَعَ الحِمَارُ رَأْسَهُ وَقَالَ: اِضْرِبْ؛ فَإِنَّكَ عَلَى رَأْسِكَ هُوَ ذَا تُضْرَبُ، فَقُلْتُ لِأَبِي سُلَيْمَانَ: لَكَ وَقَعَ هَذَا؟! فَقَالَ: نَعَمْ، كَمَا تَسْمَعُنِي».

---

(١) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٣٩١.

(٢) انظر: الأم ١/٩٣. وفي بداية المجتهد ١/٥٨: «اتفق العلماء علىٰ نجاسة بول ابن آدم ورجيعه إلا بول الصبي الرضيع، واختلفوا فيما سواه من الحيوان؛ فذهب الشافعي وأبو حنيفة إلىٰ أنها كلها نجسة، وذهب قوم إلىٰ طهارتها بإطلاق». وانظر: مختصر اختلاف العلماء ١/١٣٠، وتحفة الفقهاء ١/٦٥.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٣١ ـ ٥٣٢.

(٤) اللمع للطوسي ص٣٩١. وورد أيضا في: جامع كرامات الأولياء ١/٣٧٣.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وموضعُ الخارقِ كلامُ الحمارِ لهُ وقولُهُ: «اضرِبْ، فإنَّمَا علىٰ رأسِكَ تُضْرَبُ»، معناهُ: فإنَّكَ تجازَىٰ بمَا تعملُ، ومِنْ هَذا الوَجْهِ كانَ كَرَامةً؛ لأنَّهُ أدبٌ لهُ وتَنْبِيهٌ[١]، وسَمَاعُهُ لكلامِ الحمارِ يصحُّ أنْ يكونَ علىٰ وجهَينِ:

يصحُّ أنْ يكونَ فهِمَ كلامَ الحمارِ بلفظِ الحمارِ.

ويصحُّ أنْ يكونَ اللهُ أنطقَ الحمارَ بلفظِ بنِي آدمَ، وقَدْ أُوتِيَ داودُ مَنْطِقَ الطَّيرِ، وكذلِكَ سليمانُ، وسمِعَ سليمانُ كلامَ النَّملِ، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]، وأخبَرَهُ الهدهدُ بقصَّةِ بلقيسَ[٢]، وكلُّ ذلِكَ سائغٌ جائزٌ عقلًا.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَذُكِرَ[٤] عَنِ ابْنِ عَطَاءٍ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَيْنِ النُّورِيَّ يَقُولُ: كَانَتْ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الكَرَامَاتِ، فَأَخَذْتُ قَصَبَةً مِنَ الصِّبْيَانِ، وَقُمْتُ بَيْنَ زَوْرَقَينِ، ثُمَّ قُلْتُ: وَعِزَّتِكَ؛ لَئِنْ لَمْ تُخْرِجْ لِي سَمَكَةً فِيهَا ثَلاثَةُ أَرْطَالٍ لأُغْرِقَنَّ نَفْسِي، قَالَ: فَأَخْرَجَ لَهُ سَمَكَةً فِيهَا ثَلاثَةُ أَرْطَالٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الجُنَيْدَ، فَقَالَ[٥]: حُكْمُهُ أَنْ يُخْرِجَ لَهُ أَفْعَىٰ تَلْدَغُهُ[٦]».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [٢٤/٣أ] وإخراجُ السَّمكةِ لهُ أمرٌ معتادٌ، وإنَّمَا موضعُ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٨٧.
وقال العروسي: «وفيه لطف من الحق حيث لا يتركه ونفسه بل ينبهه دائما إلىٰ طريق سداده» نتائج الأفكار ٤/٢٨٣.

(٢) كما في سورة النمل آية: ٢٠ ـ ٢٥.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٢.

(٤) أي: الطوسي في اللمع ص٤٠٣، وورد أيضا في مظان الحاشية الآتية.

(٥) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٥١، وتاريخ الإسلام ٢٢/٦٨، وسير أعلام النبلاء ١٤/٧٢، وتلبيس إبليس ص٤٢١.

(٦) قال الطوسي: «يعني: أنه لو لدغته حيةٌ كان أنفعَ له في دينه من ذلك؛ لأن في ذلك فتنة، وفي لدغ الحية تطهير وكفارة» اللمع ص٤٠٣.

تحتيمِهِ أنْ يكونَ وزنُهَا ثلاثةَ أرطالٍ.

وقولُهُ: «لأُغْرِقَنَّ نفسِي» فاستجابَ اللهُ لهُ ذلكَ، فلمَّا بلغَ الجُنيدَ ذلكَ قالَ: «كانَ حقُّهُ أنْ يخرجَ لهُ أفعَى تلدغُهُ»، وذلكَ لتألِّيهِ علَى اللهِ وإدلالِهِ عليهِ، وقدْ جاءَ في الخبرِ[١]: «إنَّ مِنْ عبادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»، وَلَمْ يعيِّنْ مُقْسَمًا بهِ، والإقسامُ علَى اللهِ لَيَفْعَلَنَّ لهُ جائزٌ، وإنَّمَا هذَا التَّحتيمُ الَّذِي حتَّمَهُ في الثَّلاثةِ الأرطالِ، وإنْ لَمْ يفعلْ لَيُغْرِقَنَّ نفسَهُ، وهذَا فيهِ شيءٌ، ويكونُ الحقُّ ـ سبحانه ـ عالِمًا بأنَّ عندَهُ منَ العزمِ مَا لوْ لمْ يفعلْ ليغرقَنَّ نفسَهُ، فرحمَهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ وسلَّمَهُ ممَّا وقعَ فيهِ إكرامًا لهُ.

وقَدْ حتَّمَ سعيدُ بنُ زيدٍ الصَّحابيُّ في دعائِهِ علَى أروَى[٢]؛ امرأةٌ استعدَتْ عليهِ مروانَ بنَ الحكَمِ وقالَتْ: «غصبَنِي أرضِي، وهوَ منَ المشهورِينَ العشرةِ المشهودِ لهُمْ بالجنَّةِ»، ونسبَتْهُ للغصْبِ والظُّلْمِ، فلمْ يحتمِلْ مَا قالَتْهُ فقالَ[٣]: «اللَّهُمَّ إنْ كانَتْ كاذبةً فأَعْمِ بصرَهَا، واقتُلْهَا فِي أرضِهَا، وأظهِرِ الحقَّ للمسلمِينَ، وبيِّنْ لهُمْ أنِّي لمْ أظلِمْهَا، قالَ: «فسالَ الوادِي بسيلٍ لم يَسلْ قبلَهُ قطُّ فكشفَ الأرضَ، فإذَا هوَ قَدْ تركَ لهَا منْ حقِّهِ سبعمائةِ ذراعٍ، وعمِيَتْ ومشَتْ في أرضِهَا، فوقعَتْ فِي بئرٍ لهَا فماتَتْ»، وهذَا يدلُّ علَى تعيُّنِ المدعوِّ فيهِ للحاجةِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: **«سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الفَتْحِ يُوسُفَ بْنَ عُمَرَ الزَّاهِدَ القَوَّاسَ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: حَدَّثَنَا**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أي: أروى بنت أُويس. انظر: تكملة الإكمال ١/١٥٤.

(٣) رواه مسلم في صحيحه ٣/١٢٣٠ ـ حديث رقم (١٦١٠)، وورد أيضا في: حلية الأولياء ١/٩٧، والاستيعاب ٢/٦١٨، والأذكار للنووي ص٢٤٢.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٢.

مُحَمَّدُ بْنُ عَطِيَّةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الكَبِيرِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصَّائِغَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الحَدَّادَ ـ أُسْتَاذَ الجُنَيْدِ ـ قَالَ: كُنْتُ بِمَكَّةَ، فَطَالَ شَعْرِي، وَلَمْ يَكُنْ مَعِي قِطْعَةٌ آخُذُ شَعرِي، فَتَقَدَّمْتُ إِلَىٰ مُزَيِّنٍ تَوَسَّمْتُ فِيهِ الخَيْرَ، وَقُلْتُ: تَأْخُذُ شَعْرِي للهِ ـ تعالىٰ ـ؟ قَالَ: نَعَمْ وَكَرَامَةً، وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَصَرَفَهُ وَأَجْلَسَنِي، وَحلَقَ شَعْرِي، ثُمَّ دَفَعَ إِلَيَّ قِرْطَاسًا فِيهِ دَرَاهِمُ، وَقَالَ: اِسْتَعِنْ بِهَا عَلَىٰ بَعْضِ [٣/٢٤ب] حَوَائِجِكَ، فَأَخَذْتُهَا وَاعْتَقَدْتُ[1] أَنْ أَدْفَعَ إِلَيهِ أَوَّلَ شَيْءٍ يُفْتَحُ عَلَيَّ بِهِ.

قَالَ: فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَاسْتَقْبَلَنِي بَعْضُ أَصْحَابِي، وَقَالَ: جَاءَ بَعْضُ إِخْوَانِكَ بِصُرَّةٍ مِنَ البَصْرَةِ مِنْ بَعْضِ إِخْوَانِكَ، فِيهَا ثَلاثمَائَةِ دِيْنَارٍ، قَالَ: فَأَخَذْتُ الصُّرَّةَ وَجِئْتُ لِلْمُزَيِّنِ وَقُلْتُ: هَذِهِ ثَلاثمَائَةِ دِيْنَارٍ تَصْرِفُهَا فِي بَعْضِ أُمُورِكَ، فَقَالَ لِي: أَلا تَسْتَحِ يَا شَيْخُ؟! تَقُولُ لِي: اِحْلِقْ شَعرِي للهِ ـ تعالىٰ ـ، ثُمَّ آخُذُ عَلَيهِ شَيْئًا، اِنْصَرِفْ عَافَاكَ اللهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ ظهَرَتْ فيهِ منَ الكراماتِ والهِمَمِ الشَّريفةِ والإعراضِ عنِ الدُّنيَا مَا تضمَّنَتْهُ الحكايةُ؛ وذلِكَ أنَّ المزيِّنَ لمَّا سمعَ للهِ قلَّ صبرُهُ عنِ الفعلِ، وصرف مَنْ كانَ بينَ يَدَيهِ ممَّنْ كانَ يرجُو فائدَتَهُ الدُّنيويَّةَ، وحلَقَ لهذَا الفقيرِ وأعطَاهُ كَاغدةً[2] فيهَا دراهمُ، وقالَ: «**استعِنْ بهَا علَىٰ أمرِكَ**»، فأخذَهَا هذَا الفقيرُ ونوَىٰ أنْ يعاوضَهُ عَنْ فعلِهِ بأوَّلِ شيءٍ يُفتَحُ عليهِ بهِ، قالَ: فلمَّا دخلَ الفقيرُ الحرمَ فإذَا برجُلٍ لقيَهُ فقالَ لهُ: معِي هذِهِ الرِّسالةُ أُرْسِلَتْ إليكَ، قالَ: فأخذتُ الرِّسالةَ فإذَا فيهَا ثلاثمائةِ دينارٍ، فأتيتُ بهَا إلىٰ المُزيِّنِ وفاءً بمَا عزَمْتُ عليهِ للهِ، فلمَّا سلَّمْتُهَا لهُ قالَ: ما هذِهِ؟ فأخبَرْتُهُ الخبَرَ، قالَ: «**أمَا تستحِي يا شيخُ**،

---

(١) أي: عزمت.

(٢) أي: قرطاسًا ونحوه.

تقولُ: احلِقْ لِي للهِ ثمَّ تأتيني عليهِ بأجرةٍ! انصرِفْ عَافَاكَ اللهُ».

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ يَقُولُ[2]: سَمِعْتُ ابْنَ سَالِمٍ يَقُولُ: لَمَّا مَاتَ إِسْحَاقُ بْنُ أَحْمَدَ دَخَلَ عَلَيْهِ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ صَوْمَعَتَهُ، فَوَجَدَ فِيهَا سَفَطًا فِيهِ قَارُورَتَانِ؛ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا شَيْءٌ أَحْمَرُ، وَفِي الْأُخْرَى شَيْءٌ أَبْيَضُ، وَوَجَدَ شَوْشَقَةً[3] ذَهَبٍ وَشَوْشَقَةَ فِضَّةٍ، قَالَ: فَرَمَى بِالشَّوْشَقَتَيْنِ فِي الدِّجْلَةِ، وَخَلَطَ مَا فِي الْقَارُورَتَيْنِ بِالتُّرَابِ، وَكَانَ عَلَى إِسْحَاقَ دَيْنٌ.

قَالَ ابْنُ سَالِمٍ: قَالَ أَبِي: قُلْتُ لِسَهْلٍ: أَيْشٍ كَانَ فِي الْقَارُورَتَيْنِ؟ فَقَالَ: أَحَدُهُمَا[4] لَوْ طُرِحَ مِنْهُ وَزْنُ دِرْهَمٍ عَلَى مَثَاقِيلَ مِنَ النِّحَاسِ صَارَ ذَهَبًا، وَالآخَرُ[5] لَوْ طُرِحَ مِنْهُ مِثْقَالٌ عَلَى مَثَاقِيلَ نحاسٍ صَارَ فِضَّةً، فَقُلْتُ: وَأَيْشٍ عَلَيْهِ لَوْ قَضَى مِنْهُ دَيْنَهُ؟ فَقَالَ: يَا دُوسْت[6]، خَافَ عَلَى إِيْمَانِهِ [٣/١٢٥أ]».

۞ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَى أنَّ إسحاقَ كانَ يعلمُ أصولَ الكيمياءِ التِي يذكرُ النَّاسُ أنَّهَا تقلبُ النِّحاسَ فضَّةً، والفضَّةَ ذهبًا، فوجدَ سهيلٌ هاتَينِ القارُورتَينِ، وكرِهَ أنْ يُظهرَهُمَا للنَّاسِ، فسترَهُمَا كمَا سترَهُمَا إسحاقُ، فقِيلَ: «ومَا منعَ إسحاقَ أنْ يقضِيَ منهُمَا دينَهُ؟»، قالَ سهلٌ: «خَشِيَ علَى إيمانِهِ».

وهذَا يدلُّ علَى أنَّهُ لمْ يعملْ بهمَا شيئًا قطُّ، وإنَّمَا جمعَ عقاقيرَهُمَا فِي هاتَينِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٢ ـ ٥٣٣.

(٢) اللمع ص٤٠٢.

(٣) أي: قطعة.

(٤) وهو الأحمر.

(٥) وهو الأبيض.

(٦) أي: يا صاحبي.

القارُورتَينِ، ولذلِكَ قالَ سهلٌ: «خشِيَ علىٰ إيمانِهِ»، ومعنَاهُ: خشِيَ إنْ جرَّبَ هذَا الأمرَ العظيمَ سكنَتْ نفسُهُ إليهِ دونَ ربِّهِ، فيكونُ ذلكَ نقصًا في إيمانِهِ، وحطًّا من درجتِهِ، وكونُهُ سكنَ إلىٰ غيرِ اللهِ فِي حَاجَاتِهِ[1].

ويقرُبُ مِنْ هذَا ما حُكِيَ أنَّ إبراهيمَ الخوَّاصَ قيلَ لهُ: أخبرْنَا بأعجبِ ما جرَىٰ لكَ فِي أسفارِكَ، فقالَ: أمرٌ لا تطيقُونَهُ، فقيلَ لهُ: أخبرْنَا بأيسرِهِ، قالَ: «لقِيَنِي الخَضِرُ، وطلبَ منِّي الصُّحبةَ، فامتنعتُ، وخشِيتُ أنَّهُ يفسدُ عليَّ توَكُّلِي»؛ وذلِكَ أنْ يعتمدَ بقلبِهِ في سَائِرِ مَا يحتاجُهُ إلىٰ غيرِ ربِّهِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[2]: «وَحُكِيَ عَنِ النُّورِيِّ أَنَّهُ خَرَجَ لَيْلَةً إِلَىٰ شَطِّ الدِّجْلَةِ، فَوَجَدَهَا وَقَدِ التَزَقَتِ[3] الشَّطَّانِ، فَانْصَرَفَ، وَقَالَ[4]: وَعِزَّتِكَ لَا أَجُوزُهَا إِلَّا فِي زَوْرَقٍ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ غايةٌ فِي الأدبِ، واعترافٌ بِتَوالِي نعمِهِ عليهِ فِي كلِّ خارقٍ كانَ بسببٍ وبغيرِ سببٍ، فلمَّا أتَىٰ إلىٰ الدِّجلةِ قَاصِدًا للتَّعديةِ، فاجتمعَ لهُ الشَّطَّانِ بحيثُ لَوْ مدَّ رِجلَهُ لكانَ علىٰ الجهةِ الأُخرَىٰ، فأقسمَ بِعِزَّةِ ربِّهِ وجَلالِهِ وكَرَمِهِ وامتنانِهِ لا أُعَدِّي إلىٰ الجهةِ الأخرَىٰ إلَّا كمَا يُعدِّي سائِرُ النَّاسِ، ولَمْ يفعلْ ذلِكَ مخالفةً وقلَّةَ أدبٍ، بَلْ إقرارًا واعترافًا لربِّهِ بأنَّ نِعمَهُ تَتَوالَىٰ عليهِ فِي كُلِّ حِيْنٍ بسببٍ معروفٍ وبغيرِ سَبَبٍ.

وعلَىٰ الجُملةِ فهوَ أعلمُ بالحَالِ الَّذِي وقعَ فِي نَفْسِهِ حتَّىٰ أقسمَ بعزَّةِ ربِّهِ؛ هَلْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٨٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٣.

(٣) في (ف): التزق.

(٤) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٠١، والموافقات ١/٣٥٧، وحل الرموز ص٣٧٨، وجامع كرامات الأولياء ١/٣٩٣.

خَوْفًا مِنْ عَطَبٍ، أو إقرارًا بفضْلِهِ وكَمَالِ الأدبِ؟!

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ يَقُولُ(٢) [٣/٢٥ب]: أَمْلَىٰ عَلَيْنَا الوَجِيهِيُّ حِكَايَةً عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ، قَالَ: كَانَ أَبُو تُرَابٍ النَّخْشَبِيُّ صَاحِبَ كَرَامَاتٍ، فَسَافَرْتُ مَعَهُ سَنَةً، وَكَانَ مَعَهُ أَرْبَعُونَ نَفْسًا، ثُمَّ أَصَابَتْنَا مَرَّةً فَاقَةٌ، فَعَدَلَ أَبُو تُرَابٍ عَنِ الطَّرِيقِ، وَجَاءَ بِعَذْقِ مَوْزٍ، فَتَنَاوَلْنَا وَفِينَا شَابٌّ فَلَمْ يَأْكُلْ، فَقَالَ لَهُ أَبُو تُرَابٍ: كُلْ، فَقَالَ: الحَالُ الَّتِي أَعْتَقِدُهَا تَرْكُ المَعْلُومَاتِ، وَصِرْتَ أَنْتَ مَعْلُومِي(٣)، فَلَا أَصْحَبُكَ بَعْدَ هَذَا، فَقَالَ أَبُو تُرَابٍ: كُنْ مَعَ مَا وَقَعَ لَكَ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا قريبٌ ممَّا جرَىٰ للخوَّاصِ لمَّا لقِيَ الخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأبَىٰ أنْ يصحبَهُ؛ خوفًا منْ سكونِ نفسِهِ إلىٰ غيرِ اللهِ واعتمادِهِ عليهِ، وهذَا الشَّابُّ لمَّا كانَ معَ الأربعينَ نفسًا أصحابِ أبِي ترابِ النَّخشبيِّ، ولحقَهُمْ فاقةٌ في سفرِهِم، فمالَ أبو ترابٍ عنِ الطَّريقِ يسيرًا، ثمَّ رجعَ إليهِم بعرجونٍ مِنْ موزٍ، وقالَ: كُلُوا، فأكلُوا إلَّا هذَا الشَّابَّ، فإنَّهُ أبَىٰ أنْ يأكلَ، فسألَهُ أبُو ترابٍ لِمَ لَمْ تأكُلْ؟ فقالَ: عقدِي ألَّا أسكنَ لمعلومٍ منَ الخَلقِ، وقدْ خشيتُ أنْ تكونَ صِرْتَ معلومًا لِي فلا أصحبُكَ بعدَهَا، فحذرَ هذَا الشَّابُّ أنْ يكونَ اعتمادُهُ وقتَ حاجتِهِ علَىٰ غيرِ ربِّهِ، فقالَ لهُ أبُو ترابٍ: «**كُنْ معَ مَا وقعَ لكَ**»، معناهُ: ابقَ معَ ما عزمْتَ عليهِ ولَا تأكُلْ، وعلِمَ أنَّ معَهُ زيادةَ قوَّةٍ ويقينٍ.

ومِنْ هذا القبيلِ ما جرَىٰ لأبِي ترابٍ منَ الكرامةِ أنَّهُ كانَ مسافرًا معَ أصحابِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٣.

(٢) اللمع ص٤٠١ ـ ٤٠٢. وورد أيضا في: تاريخ دمشق ٤٠/٣٤٦.

(٣) أي: لسكون نفسي إليك في حاجتي.

إلىٰ مكَّةَ ، فلحِقَهُمْ عطشٌ ، فأخبَرُوا أبا ترابٍ بذلكَ ، فعدلَ عنِ الطَّريقِ وركضَ برِجْلِهِ الأرضَ ، فإذَا عينُ ماءٍ قالَ لهُ بعضُ أصحابِهِ: يا سيِّدِي ، نريدُ أنْ نشربَهُ في قدَحٍ ، فتناولَ شيئًا مِنَ الأرضِ وناوَلَهُ قدحَ زجاجٍ أبيضَ قالَ: فشرِبْنَا بهِ ، ومَا زالَ القدحُ معنا إلىٰ مكَّةَ ، ثمَّ قالَ أبو ترابٍ لذلِكَ الشَّابِّ: ما الَّذِي يقولُ أصحابُكَ فِي هذهِ الكراماتِ الَّتِي يكرمُ اللهُ بهَا أولياءَهُ؟ ، فقالَ لهُ: ما أعرفُ أحدًا يُنْكِرُهَا ، قالَ لهُ أبو تُرابٍ: مَنْ أنكرَهَا فهوَ كافرٌ ، ولكنْ إنَّ أصحابَكَ يزعمُونَ أنَّهَا خُدعٌ منَ الحقِّ ، وليسَ الأمرُ كمَا ذكرُوهُ ، وإنَّمَا يكونُ خُدعًا ممَّنِ اقترَحَهَا وسكَنَ بقلبِهِ إليهَا ، ولكِنْ مَنْ أُعْطِيهَا ولمْ [٣/٢٢٦أ] يسكُنْ إليهَا ، فتلكَ مَرْتَبَةُ الرَّبَّانيِّينَ[١] .

۞ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: **«وَحَكَىٰ أَبُو نَصرٍ السَّرَّاجُ[٣] عَنْ أَبِي يَزِيدَ قَالَ: دَخَلَ عَلَيَّ أَبُو السِّنْدِيِّ ـ وَكَانَ أُسْتَاذَهُ ـ وَبِيَدِهِ جِرَابٌ ، فَصَبَّهُ فَإِذَا هِيَ جَوَاهِرُ ، فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ فَقَالَ: وَافَيْتُ وَادِيًا هَاهُنَا ، فَإِذَا هُوَ يُضِيءُ كَالسِّرَاجِ ، فَحَمَلْتُ هَذَا.**

فَقُلْتُ: فَكَيْفَ كَانَ وَقْتُكَ الَّذِي وَرَدْتَ الوَادِي؟ فَقَالَ: وَقْتَ فَتْرَتِي[٤] عَنِ الحَالِ الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا[٥]».

۞ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ أنَّ حالَهُ الَّتِي كانَ فيهَا معَ اللهِ حالةُ استغراقٍ وشُغْلٍ بهِ ، حتَّىٰ لمْ يبقَ فيهِ وسعٌ لإدراكِ نفسِهِ ، فضْلًا عمَّا كانَ يمشِي عليهِ منَ الأرضِ ، وربَّمَا امتُحِنَ بأنْ جعلَ اللهُ لهُ حصَىٰ الوادِي جميعَهُ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٩٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٣.

(٣) اللمع ص٤٠١.

(٤) في (ف): فترة.

(٥) في (ف): فيها.

مِنْ تلكَ الجَوَاهرِ ، وربَّمَا مَشَىٰ عليهِ ولمْ يشعرْ بهِ ، فلمَّا سُرِّيَ عنهُ ورجعَ إلىٰ إحساسِهِ أدركَ مَا فِي الأرضِ واستحسَنَهُ وحملَهُ فِي جرابِهِ ، فلمَّا أفرَغَهُ في بيتِ أبِي يزيدَ فسألَهُ مِنْ أينَ هوَ ؟ فأخبَرَهُ أنَّهُ رأىٰ الوادِيَ يضِيءُ مِنْ هذا الجنسِ ، فأخذَهُ فِي جرابِهِ ، فسألَهُ أبو يزيدَ عنْ حالِهِ الَّذِي كانَ فيهِ حينَ رأىٰ هذَا ، قالَ لهُ: «**حالُ فترةٍ عمَّا كانَ فيهِ منَ الشُّغلِ باللهِ**»[1].

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقِيلَ لِأَبِي يَزِيدَ[3]: فُلَانٌ يَمْشِي فِي لَيْلَةٍ إِلَىٰ مَكَّةَ! ، فَقَالَ: الشَّيْطَانُ يَمْشِي فِي سَاعَةٍ مِنَ المَشْرِقِ إِلَىٰ المَغْرِبِ فِي لَعْنَةِ اللهِ.**

وَقِيلَ لَهُ: فُلَانٌ يَمْشِي عَلَىٰ المَاءِ! فَقَالَ: الطَّيْرُ يَطِيرُ فِي الهَوَاءِ ، وَالسَّمَكُ يَمُرُّ عَلَىٰ المَاءِ».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ مِنْ أبِي يزيدَ كَمَالٌ فِي المَعْرِفةِ ، وتعليمٌ لعدمِ الالتفاتِ إلىٰ الكراماتِ والسُّكونِ إليهَا في خالصِ الحالاتِ ، بلِ الكرامةُ الحقيقيَّةُ هيَ الاستقامةُ[4] علَىٰ سُلُوكِ الطَّرِيقِ[5] المُثْلَىٰ بالقلبِ والجَوارحِ[6] ، فلمَّا قيلَ لهُ: فلانٌ يمشِي فِي ليلةٍ إلَىٰ مكَّةَ وهيَ كرامةُ طيِّ الأرضِ ، فحقَّرَ هذهِ الكرامةَ بقولِهِ: «**إبليسُ ـ لعنَهُ اللهُ ـ يمرُّ منَ المشرقِ إلىٰ المغربِ فِي لحظةٍ**» وليسَ هوَ فِي كرامةٍ ، بَلْ هوَ في لَعْنَةٍ.

وقِيلَ لهُ: «**فلانٌ يطيرُ فِي الهواءِ ويمشِي علَىٰ الماءِ**» ، فقالَ: وأيُّ عجبٍ في

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٩٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٣.

(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٠٠ ، وحل الرموز ص٤١٧.

(٤) المصحوبة بالدوام عليها وعدم الفتور عنها. انظر: نتائج الأفكار ٤/٢٨٧.

(٥) الطريق يذكر ويؤنث. انظر: المذكر والمؤنث للفراء ص٧٨.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٩١.

ذلكَ، «الطَّيرُ يطيرُ فِي الهواءِ، والسَّمكُ يمرُّ على الماءِ»، وأينَ هُمَا مِنْ بنِي آدمَ، فَضْلًا عنِ الأولياءِ، قالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ [٣/٢٦ب]: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فبَنُو آدمَ مُفَضَّلُونَ(١) عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ غيرِهم، وسخَّرَ لهُمْ مَا في السَّماواتِ وما فِي الأرضِ جميعًا منهُ، وممَّا سخَّرَ لهُمُ الطَّيرُ والسَّمكُ وغيرُ ذلِكَ منَ المخلوقاتِ، فكيفَ بإكرامِهِ لمَنِ اختصَّهُ واصطفاهُ، ودامَ ذِكْرُهُ لهُ وتقواهُ، واشتغلَ بهِ عمَّنْ سِوَاهُ!، فإكرامُهُ لهُ ومنزلتُهُ عندَهُ أفضلُ ممَّا يسمَعُهُ العبدُ ويراهُ، دليلُهُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

۞ قالَ الإمامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ(٣): أكبرُ الكراماتِ: أنْ تُبدِّلَ خُلقًا مذمُومًا مِنْ أخلاقِكَ».

❊ قالَ الشَّارحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا هوَ الَّذِي أشرْنَا إليهِ فِي كلامِ أبِي يزيدَ؛ وهوَ أنَّ الاستقامةَ هيَ أفضلُ الكَرامةِ، ولَا يستقيمُ العبدُ علَىٰ الصِّراطِ المستقيمِ حتَّىٰ تتغيَّرَ أخلاقُهُ المذمومةُ الَّتِي هيَ مِنْ علاماتِ أهلِ الجحيمِ بأخلاقِهِ المحمودةِ؛ منَ الزُّهدِ والصَّبرِ والورعِ والصِّدقِ والتَّوكُّلِ والرِّضَىٰ والتَّسليمِ(٤)، فإذَا تغيَّرتْ أخلاقُهُ المذمومةُ وتبدَّلَتْ بالمحمودةِ سارَ إلىٰ ربِّهِ علَىٰ الصِّراطِ المستقيمِ سَيْرًا حثيثًا مِنْ غيرِ قاطعٍ يقطعُهُ عنهُ، بَلْ بكمالِ الصِّدقِ فِي الأحوالِ الشَّريفَةِ علَىٰ التَّعميمِ.

---

(١) في الأصل: مفضلين، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٤.

(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٠٠، وحدائق الحقائق ص١٦٨، والأنس في شرح عيوب النفس ص٣٣٧.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٩١.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ سَالِمًا يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَحْمَدَ يَصْحَبُ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ يَوْمًا: رُبَّمَا أَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ فَيَسِيلُ المَاءُ بَيْنَ يَدَيَّ قُضْبَانَ[(٢)] ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، فَقَالَ سَهْلٌ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الصِّبْيَانَ إِذَا بَكَوا أُعْطُوا خُشْخَاشَةً[(٣)] لِيُشْغَلُوا بِهَا؟!»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ أحسنُ تأديبٍ منَ الشَّيخِ لتلامذتِهِ، وذلكَ أنَّ المريدَ فِي أوَّلِ مرَّةٍ يكونُ كثيرَ الاجتهادِ، دائمَ الذِّكرِ للهِ ـ تعالىٰ ـ، حسنَ الإخلاصِ فِي كُلِّ أفعالِهِ؛ مِنْ طهارتِهِ وصلاتِهِ وصيامِهِ، فيُريهِ اللهُ ـ تعالىٰ ـ في أثناءِ عبادتِهِ [٣/٢٧أ] مَا يدلُّ علَىٰ حُسْنِ حالتِهِ، فإذَا ذكرَ شيئًا مِنْ ذلِكَ لشيخِهِ أدَّبَهُ الشَّيخُ بأنْ يأمرَهُ بالإعراضِ عَنْ ذلِكَ ولَا يقفَ معَهُ؛ خوفًا مِنْ أنْ يكونَ سببَ عُجْبِهِ بهِ، ووقوفِهِ معَهُ، فيفترَ عَنْ جدِّهِ في طلبِهِ.

ولقَدْ أعرفُ شخصًا كانَ معَ شيخٍ لهُ في بعضِ اللَّيَالِي، فكانَ الشَّيخُ يُصلِّي جهْرًا، وكانَتْ قراءَتُهُ حسنةً، فطرَأَ علَىٰ بعضِ التَّلامذةِ أحوالٌ غالبةٌ وصياحٌ وبكاءٌ، فرأَىٰ التِّلميذُ نورًا دخلَ مِنْ طواقِي البيتِ حتَّىٰ رأَىٰ القومُ بعضُهُم بعضًا، ثمَّ ذهبَ ثمَّ دخلَ كرَّةً أخرَىٰ وهُمْ فِي حَالِهِمْ، حتَّىٰ رأَىٰ بعضُهُمْ بَعْضًا، ثمَّ ذهبَ، فلمَّا فرغُوا منَ الصَّلاةِ قالَ لشيخِهِ: «يا سيِّدِي رأيتُ كَيتَ وكَيتَ وكَيتَ»، فقالَ لهُ الشَّيخُ: «أنتَ رأيتَ النُّورَ، وغيرُكَ رأَىٰ ربَّ النُّورِ».

وذلكَ مِنْ هذَا القبيلِ حتَّىٰ لا يقفَ معَ شيءٍ منَ الخَوارقِ، ولا يسكنَ إليهَا، ويكونَ قلبُهُ مُعلَّقًا مَشْغُولًا باللهِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسبابِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٤.

(٢) أي: أغصان.

(٣) في المعجم الوسيط ١/٢٣٥: «الخشخاش... كل شيء يابس إذا حك بعضه ببعض صوَّت».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا نَصْرٍ السَّرَّاجَ يَقُولُ[(٢)]: أَخْبَرَنِي جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ؛ حَدَّثَنِي الْجُنَيْدُ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى السَّرِيِّ يَوْمًا فَقَالَ لِي: عُصْفُورٌ كَانَ يَجِيءُ كُلَّ يَوْمٍ، وَأَفُتُّ لَهُ الْخُبْزَ فَيَأْكُلُ بَيْنَ يَدَيَّ، فَنَزَلَ وَقْتًا مِنَ الأَوْقَاتِ فَلَمْ يَسْقُطْ عَلَى يَدَيَّ، فَتَذَكَّرْتُ فِي نَفْسِي: أَيش السَّبَبُ؟ فَذَكَرْتُ أَنِّي أَكَلْتُ مِلْحًا بِأَبْزَارٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا آكُلُ بَعْدَهَا، وَأَنَا تَائِبٌ مِنْهُ، فَسَقَطَ عَلَى يَدَيَّ وَأَكَلَ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ مِنَ التَّأديبِ اللَّطيفِ الَّذِي يدركُهُ العبدُ مِنْ تَنْبيهِ مَولَاهُ لهُ علَى بعضِ نقصِهِ فيمَا عزَمَ لهُ علَى الوفاءِ بهِ، وربَّمَا كانَ السَّرِيُّ وهوَ اللَّائقُ بمنصبِهِ لَا يأكلُ طعامًا بشهوةٍ فِي عُمُومِ أَحْوَالِهِ، وربَّمَا خطَرَ لهُ فِي بعضِ الأوقاتِ خلطُ الملحِ ببعضِ الأبازِيرِ؛ مِنْ شمَّارٍ أَوْ كمُّونٍ، أَوْ مَا يجرِي مجرَاهُ، وغفلَ عَنْ كونِهِ ممَّا دخلَ تحتَ نيَّتِهِ وعزمِهِ ليسارَتِهِ وقلَّتِهِ، وكانَ وقتَ غذائِهِ يرسلُ اللهُ لهُ عصفورًا ينزلُ علَى يدِهِ ولا ينفرُ عنهُ، كمَا تنفرُ العصافيرُ عنْ بنِي آدمَ، ويأكلُ معَهُ، فلمَّا جاءَ مثلُ ذلكَ الوقتِ فرأَى العصفورَ بعيدًا لمْ يأتِهِ ففكَّرَ فِي نفسِهِ وفِي السَّببِ فِي تغيُّرِ حالِهِ [٣/٢٧ب]، فوجدَ ذلكَ فِي كَوْنِهِ خلطَ معَ المِلحِ أبزارًا[(٣)].

وهذَا يدلُّ علَى أنَّ أحوالَهُ مُرَتَّبَةٌ فِي ليلِهِ ونهارِهِ فيمَا يتعلَّقُ بأمرِ دينِهِ ودنيَاهُ، لَمْ يتغيَّرْ عليهِ منهَا شيءٌ حتَّى أدركَ هذَا التَّغيُّرَ اليسيرَ، ولوْ كانَتْ أحوالُهُ متغيِّرةً وأوقاتُهُ مختلفةً لمَا أدركَ هذَا السَّببَ، فلمَّا أعرضَ عنهُ وتابَ بقلبِهِ فيمَا بينَهُ وبينَ

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٤.

(٢) اللمع ص٤٠٤. وورد أيضًا في: الزهد الكبير ص١٧٨، وحلية الأولياء ١٠/١٢٣، وتاريخ بغداد ٥/٢٢٩، وتهذيب الأسرار ص٣٥٨، وتاريخ دمشق ٢٠/١٨٤، وصفة الصفة ٢/٣٧٩.

(٣) أي: التوابل. وفي ذلك التفات إلى تحسين الأطعمة بما يطيبها، ومثله مما لا يليق بمقامه.

ربِّهِ سَقطَ العُصْفُورُ علىٰ يَدِهِ، ومثلُ هذَا كثيرٌ.

ومنهُ[١] الشَّيخُ الواسطِيُّ الَّذِي مضَىٰ إلىٰ الجمعةِ ولمْ يغتسِلْ، وانقطعَ شسعُ نعلِهِ، فأخذَ يصلحُهُ، فرآهُ شابٌّ قالَ لهُ: يا عَمِّ، نصلحُهُ لكَ؟ قالَ لهُ: اِفْعَلْ، ثمَّ قالَ لهُ: يا ابنَ أخِي، تدرِي لِمَ انقطعَ شسعُ نَعْلِي؟ فقالَ لهُ: إنِّي لمْ أغتسِلْ للجمعةِ، فقالَ لهُ الشَّابُّ: هاهُنَا موضعٌ يمكنُكَ الغُسْلُ فيهِ، فدخلَ واغتسلَ، وذلكَ أنَّ البكورَ إلَىٰ الجمعةِ فيهِ فضيلةُ التَّبكيرِ، وفِي غسلِ الجمعةِ أيضًا أجرٌ كبيرٌ، فلمَّا قصَّرَ فِي الغسلِ قصَّرَ بهِ عنِ البكورِ بقطعِ شسعِ النَّعلِ وتأخَّرَ لإصلاحِهِ، فلمَّا قلَّتْ تصرُّفَاتُهُم عرَفُوا مِنْ أينَ جاءَتْهُمْ آفاتُهُم.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَحَكَىٰ أَبُو عَمْرٍو الأَنْمَاطِيُّ قَالَ[٣]: كُنْتُ مَعَ أُسْتَاذِي فِي البَادِيَةِ، فَأَخَذَنَا المَطَرُ، فَدَخَلْنَا مَسْجِدًا نَسْتَكِنُّ فِيهِ، فَكَانَ السَّقْفُ يَكِفُّ[٤]، فَصَعَدْنَا السَّطْحَ وَمَعَنَا خَشَبَةٌ نُرِيدُ إِصْلَاحَ السَّقْفِ، فَقَصُرَ الخَشَبُ عَنِ الجِدَارِ، فَقَالَ أُسْتَاذِي: مُدَّهَا، فَمَدَدْتُهَا فَرَكِبَتِ الحَائِطَ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا!**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ خرقُ العادةِ فِي تطويلِ اليابساتِ والجماداتِ بحُسْنِ النِّيَّاتِ، والمقاصدِ الصَّحيحةِ فِي حصولِ الخيراتِ، وذلِكَ أنَّ هذَا الشَّيخَ لمَّا دخلَ إلىٰ هذَا المسجدِ ليستكِنَّ مِنَ المطرِ هوَ ورفيقُهُ فوجدَ المسجدَ قدْ وقعَ سَقْفُهُ وخشبُهُ، فرأَىٰ الشَّيخُ منَ المَصلَحَةِ أنْ يصلحَ جانبًا منهُ بمَا وجدَهُ منْ خشبِهِ ليحصلَ بهِ بعضُ الانتفاعِ لمَنْ يقصدُهُ منَ المسلمينَ، فصعدَ هوَ وتلميذُهُ ليصلِحَا ذلِكَ، فأخذَا خشبةً فلَمْ يصِلْ حتَّىٰ تركبَ علىٰ الجدارَينِ؛ لمَا تلفَ منهَا،

---

(١) سبق تخريج ذلك.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٤.

(٣) ورد قوله في: اللمع ص٤٠٥.

(٤) أي: قطر وسال. في القاموس ص١١١٣: «وكف البيت يكف وكفًا ووكيفًا وتوكافًا: قطر».

وقصُرَتْ، فجعلَ الشَّيخُ طرفَهَا الواجدَ فِي جهتِهِ، وأمرَ التِّلميذَ أنْ يجبذَهَا[١] مِنَ الجهةِ الأخرَىٰ، فجبذَهَا وامتدَّتْ بإذنِ اللهِ حتَّىٰ ركبَتْ علَىٰ الجدارِ، وهذَا ليسَ بعجيبٍ [٣/١٢٨أ].

ولقَدْ أخبرَنِي مَنْ أثقُ بهِ أنَّهُ كانَ يعرفُ شيخًا صالحًا بمصرَ خيَّاطًا، فأتَتْهُ المرأةُ بخِرْقَةٍ ومعَهَا أولادُهَا، وربَّمَا تكفيهَا خاصَّةً أوْ بعضَ أولادِهَا، فيُفصِّلُ لكلِّ مَنْ يأتِي منهُمْ مِنْ تلكَ الخرقةِ حتَّىٰ يكتفُوا بأجمعِهِم.

وأعرفُ مَنْ كانَ ينفقُ علَىٰ بعضِ المشايخِ والطَّلبةِ، فيكونُ معَهُ دراهمُ محصورةٌ فينفقُ منهَا ويجدُ الإنفاقَ قَدْ زادَ علىٰ الحاصلِ زيادةً ظاهرةً، يتحقَّقُ أنَّ ذلكَ فعلُ اللهِ وبركتُهُ، وهذَا غيرُ منكرٍ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ النَّجَّارَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الرَّقِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الدَّقَّاقَ يَقُولُ[٣]: كُنْتُ مَارًّا فِي تِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَخَطَرَ بِبَالِي أَنَّ عِلْمَ الحَقِيقَةِ مُبَايِنٌ لِلشَّرِيعَةِ، فَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ مِنْ تَحْتِ شَجَرَةٍ: كُلُّ حَقِيقَةٍ لَا تَتْبَعُهَا الشَّرِيعَةُ فَهِيَ كُفْرٌ**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الحقيقةَ عبارةٌ عمَّا يهَبُهُ اللهُ ـ سبحانه ـ للعبدِ فِي قلبِهِ ويتحقَّقُ معَهُ فيهِ مِنْ أحوالِهِ، فمتَىٰ لمْ تسلَمِ الحقيقةُ مِنْ أنْ يعتقدَ المتحقِّقُ فِي اللهِ ـ تعالىٰ ـ وصِفَاتِهِ مَا لا يليقُ بهِ أوْ فِي رسولِهِ أوْ فِي شيءٍ ممَّا جاءَ بهِ فليسَ هوَ صاحبَ حقيقةٍ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمْ يُرتِّبِ الحقيقةَ إلَّا علَىٰ الحقِّ فِي حديثِ حارثةَ لمَّا قالَ[٤]: «كيفَ أصبحتَ؟ قالَ لهُ: أصبحتُ مؤمنًا

---

(١) أي: جذبها، والجبذ والجذب بمعنىً واحد.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٤.

(٣) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٣٤٤، وشعب الإيمان ٢/٣٠١.

(٤) سبق تخريجه.

حقًّا، قالَ لهُ: إنَّ لكلِّ قولٍ حقيقةً»، فجعَلَ الحقيقةَ مترتِّبَةً علىٰ الحقِّ[(١)]، والحقُّ مَا شهدَتْ بهِ الشَّريعةُ[(٢)]، [وكُلُّ حَقِيقَةٍ لَا تَتْبَعُهَا الشَّرِيعَةُ] فهِيَ باطلٌ كفرًا وبدعةً، أوْ ضلالٌ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَقَالَ بَعْضُهُمْ[(٤)]: كُنْتُ عِنْدَ خَيْرِ النَّسَّاجِ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ وَقَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ؛ رَأَيْتُكَ يومَ أَمْسِ وَقَدْ بِعْتَ الغَزْلَ بِدِرْهَمَينِ، فَجِئْتُ خَلْفَكَ، فَحَلَلْتُهُمَا مِنْ طَرْفِ إِزَارِكَ وَقَدْ صَارَتْ يَدَيَّ مُنْقَبِضَةً عَلَىٰ كَفِّي، قَالَ: فَضَحِكَ خَيْرٌ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَىٰ يَدِهِ، فَفَتَحَهَا ثُمَّ قَالَ لَهُ: اِمْضِ وَاشْتَرِ بِهِمَا لِعِيَالِكَ شَيْئًا، وَلَا تَعُدْ لِمِثْلِهِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ كثيرًا ما يحفظُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ للأولياءِ ما هُمْ فيهِ ممَّا يحتاجونَ إليهِ، وأنواعُ حفظِهِ لهُمْ شتَّىٰ لا تنحصرُ؛ فتارةً يحفظُ مالَهُمْ [٢٨/٣ب] حتَّىٰ لا يعصِي أحدٌ بسببِهِمْ، وتارةً يحفظُ أيديَهُمْ وأفواهَهُمْ عمَّا لا يرضَاهُ مِنْ طعامِ غيرِهِم، وهذَا الرَّجلُ كانَ فقيرًا، ورأَىٰ خيرًا النَّسَّاجَ الرَّجُلَ الصَّالِحَ باعَ كِتَّانًا وربَّمَا كانَ لأهلِهِ بدرهمَينِ وصرَّهُمَا فِي بعضِ طرفِ ثوبِهِ، واكتفَىٰ فِي الحفظِ بذلِكَ، ولمْ يقوَ حرصُهُ حتَّىٰ قبضَ علَىٰ العقدةِ بكفِّهِ حتَّىٰ لا يمكنَ أحدٌ حلَّهَا، واعتمدَ علىٰ اللهِ فِي حفظِهَا، فلمَّا حلَّهَا هذَا الفقيرُ مِنْ ثوبِهِ وحصلَتْ فِي كفِّهِ يبَّسَ اللهُ يدَهُ علىٰ الدِّرهمَينِ، فلمْ يقدِرْ يفتحهَا ليشتَرِيَ بهَا شيئًا، فصارَتْ يدُ السَّارقِ صندوقًا لخيرِ النَّسَّاجِ حفظَتْ مالَهُ، فلمَّا أحسَّ مِنْ نفسِهِ ذلكَ علِمَ أنَّ ذلكَ مِنْ فِعْلِ ربِّهِ بهِ فأتَىٰ إلىٰ خيرٍ وأعلَمَهُ بذلِكَ، فتبسَّمَ فَرحًا بصنيعِ مولاهُ وحفظِهَا لهُ

---

(١) القصد: جعل الحقيقة ثمرة الشريعة، فالحقيقة من نتائج الشريعة ومن ثمراتها.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٩٩٢/٢.

(٣) الرسالة القشيرية ٥٣٤/٢ ـ ٥٣٥.

(٤) ورد قوله في: اللمع ص٤٠٥، وجامع كرامات الأولياء ١٤٢/١.

فِي جميعِ مَا يتعاطَاهُ، ومدَّ يدَهُ علَىٰ وجهِ الشَّفقةِ والرَّحمةِ والدُّعاءِ لهُ، فانفتحَتْ يدُهُ، فقالَ لهُ: خذْهُمَا وأنفِقْهُمَا ولَا تعُدْ لمِثْلِ ما فعلتَ، فسمحَ لهُ ونهاهُ عنِ العَوْدِ إلىٰ فِعْلِ المُنْكَرِ(١).

وأمَّا حفظُ أيديهِمْ عنِ الطَّعامِ الَّذِي لَا يرضَىٰ فكمَا فعلَهُ للمحاسبِيِّ، وبشرِ بنِ الحارثِ وغيرِهِ(٢)، فهوَ يحفظُهُمْ عمَّا لا يرضَىٰ، ويحفظُ عليهِمْ ما يحبُّ ويَرْضَىٰ، فلَهُ الحمدُ فيمَا قدَّرَ وقضَىٰ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣): «**وَحُكِيَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ السُّلَمِيِّ قَالَ(٤): دَخَلْتُ عَلَىٰ ذِي النُّونِ المِصْرِيِّ يَوْمًا، فَرَأَيْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ طَسْتًا مِنْ ذَهَبٍ، وَحَوْلَهُ النَّدُّ(٥) وَالعَنْبَرُ يُسْجَرُ(٦)، فَقَالَ لِي: أَنْتَ مِمَّنْ تَدْخُلُ عَلَى المُلُوكِ فِي حَالِ بَسْطِهِمْ، ثُمَّ أَعْطَانِي دِرْهَمًا، فَأَنْفَقْتُ مِنْهُ إِلَىٰ (بَلْخَ)**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ دليلٌ علىٰ أنَّ اللهَ أكرمَهُ فِي هذِهِ الحالةِ بمَا جعلَ بينَ يدَيهِ وحواليَهِ ممَّا يتبخَّرُ بهِ منَ العُودِ والنَّدِّ وغيرِهِ، وقدْ يكونُ فِي المجلسِ منَ الملائكةِ والأولياءِ ممَّنْ لمْ يطَّلِعْ عليهِ هذَا الدَّاخلُ.

ويدلُّ أيضًا علىٰ فضلِ الدَّاخلِ بكونِ ذِي النُّونِ أذنَ لهُ فِي الدُّخولِ وهوَ علىٰ هذِهِ الحالةِ؛ ليطلعَهُ علَىٰ إكرامِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للفقراءِ الزُّهَّادِ المعرضِينَ عنِ الدُّنيَا فِي دنياهُمْ قبلَ أُخراهُمْ، وفعلَ معَهُ ما دلَّهُ بهِ علَىٰ أنَّ كلَّ مَا هوَ فيهِ منَ الخَوارقِ بأنْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٩٣.

(٢) كما سبق في الدلالة ١/٢٣٩.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٥.

(٤) ورد قوله في: اللمع ص٤٠٥.

(٥) أي: ما خلط من مسكٍ وكافور.

(٦) أي: يوقد في النار.

نَاوَلَهُ درهمًا فصارَ ينفقُ منهُ إلى (بلخَ)، وذلِكَ إمَّا أنْ يشترِيَ بهِ ويخلقَ اللهُ عِوَضَهُ إلَى أنْ وصلَ إلى (بلخ) بغيرِ سَبَبٍ، بَلْ إذَا أخرَجَهُ فِي نفقتِهِ [٢٩/٣أ] وجدَ مكانَهُ درهمًا آخرَ خرقًا للعادةِ، وهذَا التَّأويلُ فيهِ قلقٌ فِي اللَّفظِ مِنْ حيثُ قالَ: «**أنفقتُ منهُ إلَى (بلخَ)**».

ويحتملُ أنْ جعلَ اللهُ البركةَ فيمَا اشترَاهُ بهِ مرَّةً واحدةً وإنْ كانَ يسيرًا، فقوَّاهُ بهِ بمَا لَمْ ينلْهُ ممَّا اشترَاهُ إلى (بلخ)، وكلُّ ذلكَ جائزٌ وكَرَامَةٌ؛ لكونِهِ خارِقًا أَعَانَ علَى طَاعةٍ، وزادَ قُوَّةَ يقينٍ ومعرفَةٍ.

❁ **قالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَحُكِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخرَّازِ قالَ[٢]: كُنْتُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِي، وَكَانَ يَظْهَرُ لِي كُلَّ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ شَيْءٌ، وَكُنْتُ آكُلُهُ وَأَسْتَقِلُّ[٣]، فَمَضَى ثَلاثَةُ أَيَّامٍ وَقْتًا مِنَ الأَوْقَاتِ وَلَمْ يَظْهَرْ شَيْءٌ، فَضَعُفْتُ وَجَلَسْتُ، فَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ: أَيُّهما أَحَبُّ إِلَيْكَ: سَبَبٌ أَوْ قُوَّةٌ؟ فَقُلْتُ: القُوَّةُ، فَقُمْتُ مِنْ وَقْتِي وَمَشَيْتُ اثْنَي عَشَرَ يَوْمًا لَمْ أَذُقْ شَيْئًا وَلَمْ أَضْعُفْ**».

❁ **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ فيهَا كرامةٌ منْ ثلاثةِ أوجهٍ:

أوَّلُهَا: مَا كانَ يظهرُ لهُ منَ الرِّزقِ مِنْ ثلاثةِ أيَّامٍ إلى ثلاثةِ أيَّامٍ منْ حيثُ لا يحتسبُ، فهذَا خرقُ عادةٍ، وفيهِ تربيةٌ لهُ وتدريجٌ على اعتيادِ الخَيْرِ.

الكرامَةُ الثَّانيةُ: بعدَ تغيُّرِ المعتادِ سمِعَ الهاتفَ بالتَّخييرِ فِي سببٍ أوْ قوَّةٍ، فاختارَ القوَّةَ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٥٣٥/٢.

(٢) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٠٥، وتاريخ دمشق ١٣٤/٥، وتهذيب الأسرار ص٣٥٨، والمختار من مناقب الأخيار ١٩٣/١.

(٣) أي: أكتفي به.

والخارقُ الثَّالثُ: بقاءُ اثني عشرَ يومًا لمْ يأكُلْ ولمْ يضْعُفْ، وهذا هوَ فضلُ مَنْ يتكرَّمُ على عبادِهِ ويلطُفُ(١).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): «وَعَنِ المُرْتَعِشِ قَالَ: سَمِعْتُ الخَوَّاصَ يَقُولُ(٣): تُهْتُ فِي البَادِيَةِ أَيَّامًا، فَجَاءَنِي شَخْصٌ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، وَقَالَ لِي: تُهْتَ؟، فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى الطَّرِيقِ؟ وَمَشَى بَيْنَ يَدَيَّ خُطُوَاتٍ ثُمَّ غَابَ عَنْ عَيْنَيَّ، وَإِذَا أَنَا عَلَى الجَادَّةِ، فَبَعْدَ ذَلِكَ مَا تُهْتُ وَلَا أَصَابَنِي فِي سَفَرِي جُوعٌ وَلَا عَطَشٌ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ واللهُ أعلَمُ ـ يدلُّ علَى كمالِ التجاءِ الخوَّاصِ لربِّهِ في افتقارِهِ إليهِ فِي حالِ تِيْهِهِ وخَوفِهِ على نفسِهِ مِنْ فَواتِ مَطْلُوبِهِ مِنْ ربِّهِ، فلمَّا علِمَ الحقُّ ذلكَ مِنْ قلبِهِ يسَّرَ لهُ مَلكًا أوْ وليًّا أو جِنيًّا كلُّ ذلكَ جائزٌ، فسكَّنَهُ بسؤالِهِ لهُ: «تُهْتَ؟»، ثُمَّ مَشَى بينَ يدَيهِ؛ ليدلَّهُ على الجادَّةِ، فكانَ فِي هذِهِ الخطواتِ اليسيرةِ طيُّ الأرضِ لهُ ولمَنِ اتَّبعَهُ، فلمَّا صارَ علَى الجادَّةِ أتاهُ اللهُ بركةَ الافتقارِ [٣/٢٩ب] إليهِ، وعرَّفَهُ تَوالِي نِعَمِهِ لربِّهِ حتَّى لَمْ يَتِهْ فِي سَفَرٍ، ولا احتاجَ إلَى طعامٍ ولا إلى شَرَابٍ، ولا إلى مَخْلُوقٍ، كلُّ ذلكَ ـ واللهُ أعلَمُ ـ بصِدْقِ الالتجاءِ إلى مَنْ يعلمُ السِّرَّ وأخفَى(٤).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٥): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ يَحْيَى الأَرْدَبِيلِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الرَّقِّيَّ؛ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ الجَلَّا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٩٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٥.

(٣) ورد قوله في: اللمع للطوسي ص٤٠٤، وتهذيب الأسرار ص٣٥٨، والمختار من مناقب الأخيار ١/١٢٧.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٩٤.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٥.

يَقُولُ: لَمَّا مَاتَ أَبِي ضَحِكَ عَلَى الْمُغْتَسَلِ، فَلَمْ يَجْسُرْ[١] أَحَدٌ يُغَسِّلُهُ، وَقَالُوا: إِنَّهُ حَيٌّ، حَتَّىٰ جَاءَ وَاحِدٌ مِنْ أَتْرَابِهِ[٢] وَغَسَّلَهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ علىٰ أنَّ هذا الميِّتَ رأىٰ مِنْ صُورِ الملائكةِ الَّذِينَ يباشرُونَ خروجَ روحِهِ، ومِنْ صُورةِ ملكِ الموتِ ما استبشَرَ بذلِكَ قلبُهُ، وسُرَّ بقُدُومِهِ علىٰ ربِّهِ، وظهرَ ذلكَ فِي وجهِهِ وقبضَ عليهِ، فبقيَتْ صورةُ تبسُّمِهِ فِي وجهِهِ، فمَنْ رآهُ ظنَّهُ حيًّا لَمْ يَمُتْ، فلَمْ يُقْدِمْ عليهِ مَنْ يلِي غسلَهُ ودفنَهُ كلُّ أحدٍ منَ النَّاسِ، وأماراتُ الموتِ لا تخفَىٰ في سائرِ بدنِهِ حتَّىٰ قَدِمَ عليهِ بعضُ إخوانِهِ فغسَّلَهُ، وموضعُ الكرامةِ فِي هذِهِ الحكايةِ قولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، وقَدْ سأَلَ الخليلُ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنا وعليهِ ـ ملكَ الموتِ أنْ يريَهُ الصُّورةَ الَّتِي يقبضُ فيهَا رُوحَ المؤمنِ قالَ لهُ[٣]: «أعرِضْ عنِّي فأعرضَ عنهُ، ثمَّ التفتَ فإذَا هوَ شابٌّ جميلُ الصُّورةِ حسنُ الثِّيابِ، طيِّبُ الرِّيحِ، فقالَ لهُ: لَوْ لَمْ يلقَ المؤمنُ عندَ خروجِ روحِهِ إلَّا هذِهِ لكانَتْ كافيةً، فقالَ لهُ: وهلْ تستطيعُ أنْ ترِيَنِي الصُّورةَ الَّتِي تقبضُ فيهَا روحَ الكافرِ؟ فقالَ: أعرِضْ عنِّي، فلمَّا التفتَ إليهِ فإذَا هوَ أسودُ اللَّونِ، أسودُ الثِّيابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، يخرجُ مِنْ فمِهِ لهبُ النَّارِ والدُّخانُ، فغشِيَ علىٰ إبراهيمَ، فلمَّا أفاقَ قالَ: لَوْ لمْ يلقَ الكافرُ أوِ الفاجرُ إلَّا صورتَكَ هذِهِ لكانَتْ كافيةً».

وفِي قولِهِ: «**أعرِضْ عنِّي**» فِي الموضعَينِ سِرٌّ؛ وذلِكَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ جعلَ للملائكةِ والجنِّ أنْ يتصوَّرُوا فِي أيِّ صُورةٍ أحبُّوا جريَ القَدَرِ علىٰ مُوافقةِ ما يخلقُهُ لهُمْ، والآدَمِيُّ ـ واللهُ أعلَمُ ـ فِي هذِهِ الدَّارِ لا قدرةَ لهُ علىٰ رؤيةِ التَّغييرِ

---

(١) أي: يُقدم.

(٢) أي: أقاربه أو أقرانه.

(٣) ورد في: إحياء علوم الدين ٤/٤٦٤، والعاقبة في ذكر الموت ص١٤٠.

والتَّبديلِ ؛ لضَعْفِهِ عَنْ رُؤيةِ ذلِكَ ، فلهذَا ـ واللهُ أعلَمُ ـ كانَ ملكُ الموتِ يقولُ لإبراهيمَ: «أعرِضْ عنِّي» ، أي: التفتْ بوجهِكَ [٣/١٣٠أ] حتَّىٰ لا يطَّلِعَ العبدُ علىٰ كمالِ الاقتدارِ فِي حالةِ التَّبديلِ والتَّغييرِ فيُصْعَقَ.

وهذَا الَّذِي سَألَهُ ـ واللهُ أعلمُ ـ إبراهيمُ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ فِي قولِهِ: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ، فدلَّ علىٰ أنَّهُ مُؤمنٌ مُصَدِّقٌ ، قالَ أهلُ التَّفسيرِ: إنَّ إبراهيمَ الخليلَ ـ صلواتُ اللهِ علَىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ مرَّ بمَيتةٍ ملقاةٍ علىٰ ساحلِ بحرٍ ودوابُّ البحرِ تأكلُ منهَا وتذهبُ إلىٰ البحرِ ، وكذلِكَ دوَابُّ البَرِّ مِنَ الوحوشِ وغيرِهَا ، وكذلِكَ الطَّيرُ علىٰ اختلافِ أنواعِهَا ، فأحبَّ بقلبِهِ أنْ يسألَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أنْ يُرِيَهُ كيفَ يُحْيِي هذهِ الميتةَ بعدَ أنْ تفرَّقَتْ أجزاؤُهَا فِي بطونِ هذهِ الحيواناتِ ، فصارَتْ غذاءً لهُمْ وتلِفَتْ ، فلمَّا سألَ اللهَ ذلكَ أخبَرَهُ فقالَ: ألستَ مصدِّقًا بذلكَ فكيفَ تطلبُ مَا تعلمُهُ؟ ؛ لأنَّهُ ـ تعالىٰ ـ يعلمُ منهُ أنَّهُ يعلمُ ذلكَ ويؤمنُ بهِ ، فقالَ: بلىٰ يا رَبِّ ، ولكِنْ ليطمئِنَّ قلبِي ، أيْ بهذَا مِنْ قلقِهِ فِي تمنِّي رؤيةِ هذِهِ القُدْرةِ العظيمةِ ، فأمَرَهُ اللهُ ـ سبحانه ـ أنْ يأخذَ أربعةً مِنَ الطَّيرِ مِنْ أربعةِ أجناسٍ ويذبحَهُنَّ ويخلطَهُنَّ تخليطًا اللَّحمَ والعظامَ والدَّمَ حتَّىٰ يصيرَ شيئًا واحدًا ، ثمَّ يُجزِّئَهُ أربعةَ أجزاءٍ ، ويجعلَ علَىٰ كلِّ جبَلٍ جزءًا ، ثمَّ يَدْعُهُنَّ ، ففعلَ إبراهيمُ كذلكَ ، فدعاهُنَّ فأتَيْنَهُ سعيًا ، فقالَ: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

قالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ طَلْحَةَ العَضَائِرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ المَنِيحِيَّ ـ صَاحِبَ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ـ يَقُولُ**[(٢)]: **كَانَ سَهْلٌ يَصْبِرُ عَنِ الطَّعَامِ**

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٥.

(٢) ورد قوله في: اللمع ص٤٠٦ ، وإتحاف السادة المتقين ٩/٢٢ ، وجامع كرامات الأولياء ٢/٩٢.

سَبْعِينَ يَوْمًا، وَكَانَ إِذَا أَكَلَ ضَعُفَ، وَإِذَا جَاعَ قَوِيَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فموضعُ الكرامةِ خرقُ العادةِ لهُ فِي استغنائِهِ عنِ الطَّعامِ سبعينَ يومًا، وأمَّا ضعْفُهُ إذَا أكلَ فإنَّ معدتَهُ يبعدُ عنهَا الاستئناسُ بالطَّعامِ هذهِ المدَّةَ الطويلةَ، فإذَا أكلَ ثقُلَ عليهَا مَا تأكلُهُ منَ الطَّعامِ وإنْ كانَ يسيرًا؛ لضعْفِهَا عنْ حملِهِ مدَّةً يسيرةً، ثمَّ يرجعُ إلىٰ حالتِهِ الَّتِي يعرفُهَا منْ عونِ اللهِ لهُ وإكرامِهِ، وليتَ شِعرِي هَلْ يكونُ الأفضلَ لمَنْ هذهِ حالتُهُ حملُ الزَّادِ أوْ [٣/٣٠ب] تركُهُ؟ وإنْ كانَتِ السُّنَّةُ حملَ الزَّاد، وهوَ ـ واللهُ أعلمُ ـ فِي حقِّ الباقِي علىٰ الاعتياد، فإنَّ في ذلكَ صونَ وجهِهِ عنِ السُّؤال، أوْ حاجَته لمَنْ لَا يملكُ ذرَّةً مِنْ مثقال، وإلَّا مَنْ خُرِقَتْ لهُ العادةُ فِي الصَّبرِ والاستغناءِ هذهِ المدَّةَ، أوْ أيِّ وقتٍ احتاجَ إليهِ وحدَهُ، ولَا حاجةَ إلىٰ حملِ الزَّادِ، ولَا خلطةِ أحدٍ منَ العبادِ، وإنَّمَا جرىٰ التَّفضيلُ بينَ العلماءِ فِي حملِ الزَّاد، مجرىٰ الغالبِ علَىٰ وجهِ الرِّفقِ والسَّدادِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ البُسْرِيُّ إِذَا كَانَ أَوَّلُ رَمَضَانَ يَدْخُلُ بَيْتًا وَيَقُولُ لِامْرَأَتِهِ[2]: طَبِّقِي[3] عَلَيَّ البَابَ، وَأَلْقِي إِلَيَّ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنَ الكَوَّةِ[4] رَغِيفًا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ العِيدِ فُتِحَ البَابُ، وَدَخَلَتْ امْرَأَتُهُ البَيْتَ، فَإِذَا بِثَلَاثِينَ رَغِيْفًا فِي زَاوِيَةِ البَيْتِ، فَلَا أَكَلَ وَلَا شَرِبَ[5] وَلَا نَامَ، وَمَا فَاتَتْهُ رَكْعَةٌ مِنَ الصَّلَاةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يَدُلُّ علَىٰ كَمَالِ شُغلِهِ بربِّهِ، وسترِهِ لأعمالِهِ حتَّى زوجتِهِ، ويدلُّ على أنَّهُ كانَ يُصلِّي معَ المسلمِينَ الجُمُعَ وربَّمَا الجماعاتِ،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٥.

(٢) ورد قوله في: اللمع ص٤٠٦، وتاريخ دمشق ٥٢/٢٨١.

(٣) في (ف) والرسالة القشيرية المطبوع: طيني.

(٤) وهي الطاقة.

(٥) بل كان غذاؤه الذكر ونومه الفكر.

أخذَ ذلكَ مِنْ قَولِ الحَاكِي: «ومَا فاتَتْهُ ركعةٌ قطُّ»، ولا يحملُ ذلكَ إلَّا علىٰ أنَّهُ كانَ يحضرُ الجُمُعَ والجماعاتِ، وكذلِكَ كانَ يشفقُ علىٰ زوجتِهِ؛ لأنَّ الزَّوجةَ إذا علِمَتْ أنَّ بعلَهَا يصومُ ولا يأكلُ تقلَّقَتْ عليهِ وتنكَّدَتْ وتعذَّرَ عليهَا أكلُهَا بسببِ جُوعِهِ، فأمَرَهَا أنْ تأتيَهُ كلَّ يومٍ برغيفٍ يسكنُ قلبَهَا وتظنُّ أنَّهُ أكلَهُ، فإذَا جاءَ يومُ العيدِ ووجدَتِ الرَّغيفَ وهوَ صحيحٌ سالمٌ لمْ تُبَالِ، ففِي هذَا خرقُ العادةِ فِي صبْرِهِ ثلاثِينَ يومًا.

وكونُهُ يخرجُ مِنْ بيتِهِ ولا تشعرُ بهِ زوجتُهُ ويصلِّي الجُمعَ والجَماعَاتِ، وهيَ تظنُّ أنَّهُ فِي البيتِ لَمْ يُفَارِقْ، وهذَا يحاشِي عنهُ مَنْ جلَّتْ رتبتُهُ أنْ يَتْرُكَ الجمعةَ الواجبةَ أوِ الجماعاتِ الفاضِلَةَ، اللَّهمَّ إلَّا أنْ يكونَ فِي موضعٍ لا تجبُ فيهِ الجمعةُ، ولَوْ كانَ كذلِكَ لمْ يتركْ فضيلةَ الجماعةِ، ولَقَدْ كانَ النَّاسُ الجُهَّالُ يظنُّونَ أنَّ المغاورَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يصلِّي جمعةً، يفهمُونَ ذلِكَ مِنْ حالِهِ وكثرةِ إقامتِهِ فِي موضعِهِ حتَّىٰ يقربَ وقتُ الصَّلاةِ ويدخلَ مَنْ عندَهُ ويدَعُونَهُ، وأُجيبَ مَنْ يزعمُ ذلكَ بأنَّ النَّاقلَ عنهُ كونَهُ [٣/١٣١أ] لا يصلِّي لا يخلُو مِنْ أنْ يقيمَ عندَهُ، حتَّىٰ يتركَ الجمعةَ معَهُ أمْ لَا، فإنْ تركَهَا ولَمْ يصلِّهَا فهوَ فاسقٌ لا يُقبَلُ لهُ قولٌ، وإنْ دخلَ قبلَهُ بيسيرٍ وأدركَ فهوَ أسرعُ منهُ فِي الوصولِ لمَا عرَفَ مِنْ كرامتِهِ ومضيِّهِ إلىٰ مكَّةَ فِي الأمدِ اليسيرِ علىٰ ما تقدَّمَتِ الحكايةُ عنهُ، وقدْ سَلَّطَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ هذَا النَّوعَ منَ النَّاسِ علىٰ إساءةِ الظَّنِّ، ثمَّ بمَنْ لا يعرفونَ حالَهُ ولَا مَا هوَ عليهِ، ويجعلُونَ أنفسَهُم أصلًا تأسِّيًا بمَنْ قالَ: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

وتأخيرُهُ الأرغفةَ إلىٰ آخرِ الشَّهرِ معَ إمكانِهِ أنْ يتصدَّقَ بكلِّ رغيفٍ وتظنُّ زوجتُهُ أنَّهُ أكلَهُ وليسْكنُ قلبهَا يحتملُ أنْ يكونَ ذلكَ لإظهارِ هذِهِ الكرامةِ؛ وهوَ كونُهُ يَصْبِر ثلاثِينَ يومًا لَا يأكلُ ليقتدِيَ بهِ المُصدِّقُ، ويكونَ حجَّةً علَىٰ المُنْكِرِ (١).

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٩٥.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَقَالَ أَبُو الحَارِثِ الأَوْلَاسِيُّ(٢): مَكَثْتُ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَا يَسْمَعُ(٣) لِسَانِي إِلَّا مِنْ سِرِّي، ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الحَالُ، فَمَكَثْتُ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَا يَسْمَعُ سِرِّي إِلَّا مِنْ قَلْبِي».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ فيهِ مِنْ خرقِ العادةِ أنَّهُ لا يزالُ متثبِّتًا، لَا ينطقُ لسانُهُ إلَّا بمَا تحقَّقَهُ فِي سرِّهِ(٤)، ويعنِي سماعَ اللِّسانِ: نُطقَهُ بمَا حقَّقَهُ القلبُ فِي سِرِّهِ.

وهذَا يدلُّ علىٰ كمالِ مراقبتِهِ لربِّهِ فِي أعمالِ جَوارحِهِ وقَلْبِهِ، فلمَّا استقامَتْ أحوالُهُ فِي هذهِ الثَّلاثِينَ سنةً علَىٰ السَّدادِ، وبعُدَتْ عنِ المعتادِ، صارَ متحسِّسًا لمَا يحدثُهُ فِي قلبِهِ، فصارَ متحسِّسًا للدَّواعِي والمواعظِ والهواتفِ الَّتِي تَرِدُ عليهِ منَ الحقِّ ـ سبحانه ـ، فلمَّا استقامَ فِي جوارحِهِ بمَا تفضَّلَ عليهِ بهِ ربُّهُ فِي إصلاحِ قلبِهِ وبدنِهِ وفرغَ منْ ذلكَ صارَ شغلُهُ بربِّهِ.

ولقدْ تُشْبِهُ هذهِ الحَالةُ ما تقدَّمَ منَ الحكايةِ معَ الخوَّاصِ والحلَّاجِ؛ وذلكَ أنَّ الحلَّاجَ سألَ الخوَّاصَ عَنْ أَسْفَارِهِ ومَا الَّذِي حصلَ لهُ فِي تقطُّعِهِ فِي أسفارِهِ؟ فأجابَهُ الخوَّاصُ: بأنَّهُ كانَ يصحِّحُ توَكُّلَهُ واعتمادَهُ علَىٰ ربِّهِ فِي سائرِ سُكُونِهِ وتقلُّبِهِ، فأجابَهُ الحُسينُ بنُ منصورٍ(٤): أفنيتَ عمرَكَ فِي تعميرِ باطنِكَ، فأينَ الفناءُ في التَّوحيدِ؟ [٣١/٣ب] والثَّلاثِينَ سنةً الأُولَىٰ كانَتْ فِي عمارةِ الباطنِ بالأخلاقِ الحميدةِ(٥)،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٦.

(٢) ورد قوله في: اللمع ص٤٠٦، وتاريخ دمشق ٤٩/٣٠.
والأولاسي: نسبة إلىٰ أولاس؛ وهي بلدة علىٰ ساحل بحر الشام من نواحي طَرسوس. انظر: اللباب في تهذيب الأنساب ١/٩٤، ومعجم البلدان ١/٢٨٢.

(٣) من أحكام الشريعة المطهرة.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) من توكُّله وتفويضه ونحوهما.

وكذلِكَ إعمارُ الظَّاهِرِ، فلمَّا استقامَتْ أحوالُهُ صارَ شغلُهُ بربِّهِ، وصارَ سرُّهُ لا يسمعُ إلَّا مِنْ ربِّهِ، فهذَا بابُ الفناءِ في التَّوحيدِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو الحَسَنِ غُلَامُ شَعْوَانَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ سَالِمٍ يَقُولُ[٢]: كَانَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ أَصَابَتْهُ زَمَانَةٌ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، فَكَانَ إِذَا حَضَرَ وَقْتُ الصَّلَاةِ انْتَشَرَتْ يَدَاهُ وَرِجْلَاهُ، فَإِذَا فَرَغَ مِنَ الفَرْضِ [عَادَ][٣] إِلَى حَالِ الزَّمَانَةِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ مِنْ أكبرِ الكراماتِ، وأشرفُ الحالاتِ شفاؤُهُ مِنْ مرضِهِ ليأتِيَ الوَاجِبَاتِ، على أكملِ وجُوهِهَا المحبوبةِ لخالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، وقدْ تقدَّمَتْ هذهِ الحكايةُ[٤].

وفِي هذهِ المسألةِ نظرٌ؛ وهو أنَّ الحكايةَ إنَّمَا يسوقُهَا الإمامُ لبيانِ كرامتِهِ في أنْ يأتِيَ بالصَّلاةِ قائمًا، فيكونَ قد حُفِظَ من نقصِ الصَّلاةِ جالسًا، وقد جاءَ الخبرُ[٥]: «إنَّ صلاةَ الجالسِ على النِّصفِ مِنْ صلاةِ القائمِ»، فحملَهُ بعضُ العلماءِ على الاختيارِ في النَّوافلِ، فإنَّ الإنسانَ لهُ أنْ يصلِّيَ النَّافلةَ جالسًا معَ القُدرةِ على القيامِ، ولكنَّ صلاتَهُ قائمًا أفضلُ، هذا معَ السَّلامةِ والعافيةِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٦.

(٢) ورد قوله في: المختار من مناقب الأبرار ٢/١٤٥، وجامع كرامات الأولياء ٢/٩٢.

(٣) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.

(٤) الدلالة ٣/٤٩٩.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه ١/٣٨٨ بلفظ: «عن عبد الله بن عَمْرٍو أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِهِ وهو يُصَلِّي جَالِسًا، فقال: صَلَاةُ الجَالِسِ على النِّصْفِ من صَلَاةِ القَائِمِ».

وأخرجه الترمذي في سننه ٢/٢٠٧ بلفظ: «عن عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ قال: سَأَلْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صَلَاةِ الرَّجُلِ وهو قَاعِدٌ، فقال: من صلى قَائِمًا فَهُوَ أَفْضَلُ، وَمَنْ صلى قَاعِدًا فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ القَائِمِ...».

فأمَّا إذا عجزَ العبدُ عنِ الصَّلاةِ قائمًا ولَمْ يقدِرْ إلَّا على الصَّلاةِ جالسًا فهل يكونُ أجرُ صلاتِهِ جالسًا لعجزِهِ مساويًا[١] لأجْرِ صلاتِهِ قائمًا أمْ لَا ؟ والتَّمسُّكُ بعمومِ الخبرِ معَ إمكانِ التَّفصيلِ يدلُّ على فضيلةِ القيامِ على الجلوسِ مطلقًا فِي كُلِّ الأحوالِ.

ونقلَ لِي أنَّ فِي مذهبِنَا قولَينِ في حقِّ العاجزِ عنِ القيامِ: هَلْ يُسَاوِي فَضْلُهُ فضلَ مَنْ يصلِّي قائمًا أمْ لَا ؟ والظَّاهرُ مِنْ هذهِ الحكايةِ أنَّ أجرَ القائمِ أعظمُ وأفضلُ[٢].

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَحُكِيَ عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الوَاسِطِيِّ قَالَ[٤]: انْكَسرَتِ السَّفِينَةُ، وَبَقِيتُ أَنَا وَامْرَأَتِي عَلَى لَوْحٍ، وَقَدْ وَلَدتْ فِي تِلْكَ الحَالَةِ صَبِيَّةً، فَصَاحَتْ بِي وَقَالَتْ: يَقْتُلُنِي العَطَشُ، فَقُلْتُ: هَوَ ذَا[٥] تَرَيْنَ حَالَنَا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا رَجُلٌ فِي الهَوَاءِ جَالِسٌ وَفِي يَدِهِ سِلْسِلَةٌ [٣/١٣٢أ] مِنْ ذَهَبٍ، وَفِيهَا كُوزٌ مِنْ يَاقُوتٍ أَحْمَرَ، وَقَالَ: هَاكَ، اشْرَبَا، قَالَ: فَأَخَذْتُ الكُوزَ وَشَرِبْنَا مِنْهُ، وَإِذَا هُوَ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ فَقَالَ: عَبْدٌ لِمَوْلَاكَ، فَقُلْتُ: بِمَ وَصَلْتَ إِلَى هَذَا؟ فَقَالَ: تَرَكْتُ هَوَايَ لِمَرْضَاتِهِ، فَأَجْلَسَنِي فِي الهَوَاءِ، ثُمَّ غَابَ عَنِّي وَلَمْ أَرَهُ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَجْهُ الكَرَامَةِ فِي هذهِ الحِكَايَةِ: إغاثةُ اللهِ ـ تعالى ـ لهُ ولزوجتِهِ النُّفساءِ المحتاجةِ إلى الشُّربِ، وسألَتْهُ فعرَّفَهَا بقلَّةِ حيلتِهِ، وانصرفَ رجاؤُهُ إلى ربِّهِ فِي حالتِه، فقيَّضَ اللهُ لهُ هذَا الملكَ ـ واللهُ أعلَمُ ـ ليكونَ معَهُ سلسلةٌ

---

(١) في الأصل: مساو، والصواب المثبت.

(٢) انظر: الحاوي الكبير ٢/٢٩٠.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٦.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٥٧، وجامع كرامات الأولياء ١/٣٨١.

(٥) أي: ربنا يرى.

مِنْ ذهبٍ وكوزٌ مِنْ ياقوتٍ، وهذَا مِنْ أوانِي الجنَّةِ ـ واللهُ أعلمُ ـ، وكذلِكَ مَا وصفَ مِنَ الشَّرابِ بالبرودةِ والحلاوةِ والطِّيبِ.

وأمَّا قولُ هذا الشَّخصِ لهُ: «**بِمَ نلْتَ هذهِ المنزلةَ؟**»، وجوابُهُ: «**لمَّا تركْتُ الهوَىٰ**»، فيهِ موعظةٌ لأبِي عمرانَ الواسطيِّ أنَّكَ لَو تركتَ الهوَىٰ لَرُفِعْتَ فِي الهَواءِ[1]، واللهُ أعلَمُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «**أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا بَكْرَانُ بْنُ أَحْمَدَ الجِيلِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ يَقُولُ[3]: رَأَيْتُ شَابًّا عِنْدَ الكَعْبَةِ يُكْثِرُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، وَقُلْتُ: إِنَّكَ تُكْثِرُ الصَّلَاةَ، فَقَالَ: الآنَ أَنْتَظِرُ الإِذْنَ مِنْ رَبِّي فِي الانْصِرَافِ، قَالَ: فَرَأَيْتُ رُقْعَةً سَقَطَتْ عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ فِيهَا: مِنَ العَزِيزِ الغَفُورِ إِلَىٰ عَبْدِي الصَّادِقِ، انْصَرِفْ مَغْفُورًا لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علىٰ أحوالٍ بينَ هذَا العبدِ وبينَ ربِّهِ جرَّبَهَا، فإذَا دخلَ في عبادةٍ اضطَّربَ قَلْبُهُ فِي مُلازمتِهَا دامَ عليهَا ما لمْ يمنعْهُ واجبٌ أوْ يأتيَهُ مِنْ ربِّهِ إذنٌ، فلمَّا رآهُ ذو النُّونِ يُكثِرُ الصَّلاةَ بخلافِ عَادةِ غيرِهِ منَ الطَّائفِينَ بالبيتِ والزَّائرِينَ لهُ أرادَ أنْ يعرِفَ حالَهُ، ومَا الحاملُ لهُ علىٰ ذلكَ، قالَ لهُ: «**أراكَ تُكثِرُ الصَّلاةَ**».

ويحتملُ أنْ يكونَ الأَولَىٰ عندَ ذِي النُّونِ فِي حقِّ الزَّائرينَ إلَىٰ البيتِ الطَّوافَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٩٦.
وقد تقدم علىٰ الجنيد: إذا خالفت النفس هواها، صار داؤها دواها. انظر: الزهد الكبير ص١٥٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٦.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٨٠، والكوكب الدري في مناقب ذي النن المصري ص١٣٧، والروض الفائق في المواعظ والرقائق ص١٣٠.

[٣٢/٣ب] كمَا عندَنا، فلمَّا رآهُ يصلِّي وتركَ الطَّوافَ سألَهُ عن ذلكَ ليسمعَ جوابَهُ، فقالَ لهُ الشَّابُّ: «**أنتظرُ الإذنَ مِن ربِّي**»، قالَ ذو النُّونِ: «**فرأيتُ رقعةً سقطَتْ عليهِ فيهَا مكتوبُ: انصرِفْ عَبْدِي**»، وما تقدَّمَ ذِكرُهُ.

وهذِهِ الرُّقعةُ يحتملُ أنْ يأتِيَ بهَا ملكٌ، ويحتملُ أنْ يخلقَهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ مكتوبةً علىٰ ما هيَ عليهِ، ويحتملُ أنْ يأتِيَ بهَا وليٌّ مِن بنِي آدمَ لا يراهُ هذا الشَّابُّ، أوْ جِنِّيٌّ، وكلُّ ذلكَ تطمينٌ لقلبِ هذا العبدِ بالإذْنِ.

وقولُهُ: «**مغفورًا لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ ومَا تأخَّرَ**»، يحتملُ أنْ يكونَ مِنْ ذنوبٍ مخصوصةٍ كانَ الشَّابُّ يسألُ اللهَ فيهَا ويتضرَّعُ لمَا عظُمَ في قلبِهِ مِنْ ضررِهَا، فأعلَمَهُ الحقُّ أنَّهُ غفرَهَا لهُ، واللهُ أعلَمُ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَقَالَ بَعْضُهُم[٢]: كُنْتُ بِمَدِينَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَتَجَارَىٰ الآيَاتِ[٣] وَرَجُلٌ ضَرِيرٌ بِالقُرْبِ مِنَّا يَسْمَعُ، [فَـ]ـتَقَدَّمَ إِلَيْنَا، وَقَالَ: أَنِستُ بِكَلَامِكُمْ، اِعْلَمُوا أَنَّهُ كَانَ لِي صِبْيَةٌ وَعِيَالٌ، وَكُنْتُ أَخْرُجُ إِلَىٰ البَقِيعِ أَحْتَطِبُ، فَخَرَجْتُ يَوْمًا فَرَأَيْتُ شَابًّا عَلَيهِ قَمِيصُ كِتَّانٍ وَنعلُهُ فِي أُصْبعِهِ، فَتَوَهَّمْتُ أَنَّهُ تَائِهٌ، فَقَصَدْتُهُ أَسْلُبُ ثَوْبَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: اِنزَعْ مَا عَلَيْكَ، فَقَالَ: مُرَّ فِي حِفْظِ اللهِ، فَقُلْتُ الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ، فَقَالَ: لَا بُدَّ؟ فَقُلْتُ: لَا بُدَّ، فَأَشَارَ بِأُصْبعِهِ مِنْ بَعِيدٍ إِلَىٰ عَيْنَيَّ فَسَقَطَتَا، فَقُلْتُ: بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ عَلَيْكَ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ فيهِ تحذيرُ العبدِ [مِنْ] أنْ يطلبَ مَا تشتهيهِ نفسُهُ مِنْ كلِّ أحدٍ منَ النَّاسِ[٤]، ولا يخالفُ أحدًا منَ النَّاسِ فيمَا يريدُهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٥٣٦/٢.

(٢) ورد في: مناقب الأبرار ٥٤٩/٢، ومسالك الأبصار ١٠٠/٨.

(٣) أي: نتحاكىٰ كرامات الأولياء، وفي (ف): «نتجارىٰ في الكرامات».

(٤) لأن الأسرار قد تخفىٰ في بعض العبيد.

مخالفةً تؤدِّيهِ إلىٰ ضررِهِ، فربَّمَا جازَاهُ الحقُّ بفِعْلِه مِنْ حيثُ لا يشعرُ، وربَّمَا كانَ بسببٍ مِنْ خَصْمِهِ وبغيرِ سببٍ منهُ، وذلِكَ أنَّ هؤلاءِ الجماعةَ منَ الصَّالحينَ كانُوا فِي مسجدِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتحدَّثُونَ فِي الكراماتِ الَّتِي أجرَاها اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ الأولياءِ فِي الدُّنيَا، وبقُربِهِمْ رجلٌ ضريرٌ، يظهرُ أنَّهُ منْ أهلِ المدينةِ، فتقدَّمَ إليهِمْ وقالَ: «**أَنِستُ بحديثِكُم، وأنَا أخبرُكُمْ بمَا جرَىٰ** [٣/١٣٣أ] **لِي، كانَتْ عندِي زوجةٌ وأولادٌ**»، وكنتُ أخرجُ ظواهرَ المدينةِ أحتطِبُ لأبيعَهُ وأنفقَ عليهِمْ، فبينَا أنَا فِي الباديةِ إذْ رأيتُ شابًّا عليهِ قميصٌ ونعلَاهُ معلَّقانِ فِي يدِهِ، فظننتُ أنَّهُ ضائعٌ عنِ الطَّريقِ، وطمعْتُ فِي أخْذِ قميصِهِ منهُ، فأتيتُ إليهِ فقلتُ: «**انزَعْ هذَا القميصَ**»، وربَّمَا كانَتْ معَهُ آلةُ الاحتطابِ، فقالَ لِي الشَّابُّ: «**مُرَّ فِي حِفْظِ اللهِ**»، فكَرَّرْتُ عَلَيهِ: «**انزعِ الثَّوبَ**»، فقالَ: مُرَّ فِي داعةِ اللهِ، فلمَّا كرَّرْتُ عليهِ الثَّالثةَ، فقالَ: «**ولا بُدَّ؟**»، وربَّمَا لمْ يكُنْ علىٰ إبراهيمَ قميصٌ سِوَاهُ، فلَوْ نزعَهُ انكشفَتْ عورتُهُ، فقالَ لهُ: «**ولا بُدَّ مِنْ أنْ تأخذَ القميصَ؟، فقالَ: ولا بُدَّ**»، قالَ: «**فأشارَ بأصبعَيهِ إلىٰ عينَيَّ فسقطتَا**»، ولمْ يوفَّقْ هذا الرَّجلُ لمَّا سألَهُ باللهِ مَنْ هوَ؟ أنْ يسألَهُ باللهِ أنْ يدعوَ لهُ ليردَّ اللهُ عليهِ بصرَهُ، فلمَّا قالَ لهُ: مَنْ أنتَ؟ قالَ: إبراهيمُ الخوَّاصُ.

وفائدةُ هذهِ الحكايةِ: سماعُ هذَا الخارقِ والكرامةِ ممَّنْ وقعَتْ لهُ معَ إبراهيمَ(١).

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(٢): «**وَقَالَ ذُو النُّونِ المصْرِيُّ(٣): كُنْتُ وَاقِفًا بِالسَّفِينَةِ، فَسُرِقَتْ قَطِيفَةٌ، فَاتَّهَمُوا رَجُلًا، فَقُلْتُ: دَعُوهُ حَتَّىٰ أَرْفُقَ بِهِ، وَإِذَا الشَّابُّ نَائِمٌ فِي عَبَاءَةٍ، فَأَخْرَجَ رَأْسَهُ مِنَ العَبَاءَةِ، فَقَالَ لَهُ ذُو النُّونِ فِي ذَلِكَ المَعْنَىٰ، فَقَالَ:**

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٩٧.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٧.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٦٩، ومنتقىٰ مناقب الأخيار ص٤٥، وحدائق الحقائق ص١٦٨.

إِلَيَّ تَقُولُ ؟! أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ أَلَّا تَدَعَ وَاحِدًا مِنَ الحِيتَانِ إِلَّا جَاءَ بِجَوْهَرَةٍ، قَالَ: فَرَأَيْنَا وَجْهَ المَاءِ حِيْتَانًا فِي أَفْوَاهِهِمُ الجَوَاهِرُ، ثُمَّ أَلْقَىٰ نَفْسَهُ فِي البَحْرِ[1]، وَمَرَّ إِلَىٰ السَّاحِلِ».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ونُقلَتْ هذهِ الحكايةُ علىٰ أصرَحَ مِنْ هذَا؛ وهوَ أنَّهُ سُرِقَتْ جوهرةٌ، وفتَّشُوا جميعَ مَنْ كانَ فِي المركبِ، وبقِيَ هذا الشَّابُّ وكانَتْ عليهِ أماراتُ الخيرِ، فأرادُوا أنْ يفتِّشُوهُ، فقالَ لهُمْ: «دعُونِي أَرْفُقْ بهِ»، فأتَىٰ إليهِ وتحدَّثَ معَهُ، فقالَ: «إليَّ تقولُونَ ذلكَ؟»، ثمَّ قالَ: «أقسمتُ عليكَ يا ربِّ أنْ تأتِيَ الحيتانُ بالجواهِرِ، ومدَّ يدَهُ وأخذَ جوهرةً مِنْ فمِ حوتٍ وألقاهَا إليهِمْ ومشَىٰ علىٰ الماءِ حتَّىٰ غابَ عنهُم».

ولقد بلغَنِي أنَّ القلادةَ الَّتِي تكونُ جَوْهرًا وتُعَلَّقُ فِي الأعناقِ تسمَّىٰ قطيفةً، فتجتمعُ الحكايتَانِ [٣/٣٣ب] وتكونُ القطيفةُ قلادةً فيهَا الجوهرةُ وغيرُهُ، فيكونُ المَسْرُوقُ منَ القلادةِ جوهرةً نفيسةً، فلذلِكَ أعطاهُم أجَلَّ منهَا ثَمَنًا، واللهُ أعلمُ.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَحُكِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الخَوَّاصِ قَالَ[3]: دَخَلْتُ البَادِيَةَ مَرَّةً، فَرَأَيْتُ نَصْرَانِيًّا عَلَىٰ وَسَطِهِ زُنَّارٌ، فَسَأَلَنِي الصُّحْبَةَ، [فَأَجَبْتُهُ][4] فَمَشَيْنَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ، فَقَالَ لِي: يَا رَاهِبَ الحَنِيفِيَّةِ[5]؛ هَاتِ مَا عِنْدَكَ مِنَ الانْبِسَاطِ، فَقَدْ جُعْنَا.

فَقُلْتُ: إِلَهِي لَا تَفْضَحْنِي مَعَ هَذَا الكَافِرِ، فَرَأَيْتُ طَبَقًا عَلَيهِ خُبْزٌ وَشِوَاءٌ،

---

(١) بقصد الفرار من أسباب الاشتهار، وأن تحدق به الأبصار.

(٢) الرسالة القشيرية ٥٣٧/٢.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٥٤٩/٢، وتهذيب الأسرار ص٣٦٩، وروض الرياحين ص١٣٩، وجامع كرامات الأولياء ٣١٥/١.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) أي: المسلمين.

وَرُطَبٌ وَكُوزَ مَاءٍ، فَأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا وَمَشَيْنَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ بَادَرْتُهُ وَقُلْتُ: يَا رَاهِبَ النَّصَارَىٰ، هَاتِ مَا عِنْدَكَ [فَقَدِ](١) انْتَهَتِ النَّوْبَةُ إِلَيْكَ، فَاتَّكَأَ عَلَىٰ عَصَاهُ وَدَعَا، وَإِذَا بِطَبَقَيْنِ عَلَيْهِمَا أَضْعَافُ مَا كَانَ عَلَىٰ طَبَقِي، قَالَ: فَتَحَيَّرْتُ وَتَغَيَّرْتُ وَأَبَيْتُ أَنْ آكُلَ فَلَحَّ(٢) عَلَيَّ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقَالَ: كُلْ فَإِنِّي مُبَشِّرُكَ بِبِشَارَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَحَلَّ الزُّنَّارَ(٣)، وَالأُخْرَىٰ: أَنِّي قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ لِهَٰذَا العَبْدِ خَطَرٌ(٤) عِنْدَكَ فَافْتَحْ عَلَيَّ بِهَٰذَا، فَفُتِحَ، قَالَ: فَأَكَلْنَا وَمَشَيْنَا، وَحَجَّ، فَأَقَمْنَا بِمَكَّةَ سَنَةً ثُمَّ إِنَّهُ مَاتَ فَدُفِنَ بِـ(البَطْحَاءِ)».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذهِ الحكايةِ ـ وفَّقكَ اللهُ ـ دلالةٌ علىٰ أنَّ هذا النَّصرانِيَّ كانَتْ تُخْرَقُ لهُ العادةُ فِي أسبابِ الدُّنيا، فإنَّ الدُّنيا لا تَزِنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ، وقد أسبغَهَا علىٰ عبادِهِ(٥)، ومنعَهَا مِنْ أنبيائِهِ وأوليائِهِ(٦)، وقالَ ـ تعالىٰ ـ فِي كتابِهِ الكريمِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥]، والزُّخرفُ: الذَّهبُ، فلولَا رحمةُ اللهِ بالمؤمنِينَ ولُطفِهِ بهِم لئلَّا يعتقدُوا أنَّ ذلِكَ إكرامٌ للكفَّارِ لأَعْطَاهُمْ أكثرَ ممَّا هُمْ فيهِ اليومَ، وجعلَ أبوابَهُمْ وسُقُفَهُمْ وأسِرَّتَهُمْ وسَلالِيمهمْ ذهبًا وفضَّةً، وما لهُمْ فِي الآخرةِ مِنْ نَصِيبٍ.

ولمَّا كانَ الحقُّ ـ سبحانه ـ يُجرِي علىٰ يَدَيْ هذَا القِسِّيسِ [٣/٣٤أ] بعضَ هذهِ

(١) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.
(٢) في (ف): فألحّ.
(٣) من وسطه.
(٤) أي: قَدْرٌ.
(٥) ممن أراد امتحانه غالبًا. انظر: نتائج الأفكار ٤/٢٩٣.
(٦) تطهيرًا لهم من دنسها.

الألطافِ الدُّنيويَّةِ اغترَّ بذلِكَ، فلمَّا لقِيَ الخوَّاصَ فِي الصَّحراءِ وسألَهُ الصُّحبةَ، فاصطحَبَا أيَّامًا جِياعًا، فقالَ لهُ النَّصرانِيُّ: «**يا رَاهِبَ الحَنِيفيَّةِ، قد جُعْنَا فهاتِ ما عندَكَ منَ الانبساطِ**»، يعنِي: ما تقدرُ عليهِ وتسألُ اللهَ فيهِ، فدعَا إبراهيمُ ربَّهُ فجاءَ بالطَّبقِ مقارِنًا لدعوَاهُ، فلمَّا رآهُ النَّصرانِيُّ تحقَّقَ أنَّ ذلكَ كرامةٌ لهذَا المسلمِ، وأنَّ ذلكَ مخالِفٌ لمَا كانَ يُجرِيهِ الحقُّ لهُ فِي بعضِ أوقاتِهِ؛ لمقارنتِهِ لدعائِهِ أوْ سؤالِهِ، فأكلَا ومشَيَا أيَّامًا سبعةً، قالَ إبراهيمُ: «**فبادَرْتُ وقلتُ للنَّصرانِيِّ: يا راهبَ النَّصارَىٰ، هاتِ ما عندَكَ، قالَ: فدعَا اللهَ ـ تعالىٰ ـ فإذَا بطبَقَينِ عليهِمَا أضعافُ مَا كانَ علَىٰ الأوَّلِ، قالَ: فتحيَّرْتُ فِي نفسِي**»، وتحيُّرُهُ ليسَ شكًّا فيمَا هوَ فيهِ مِنْ دينِهِ، ولكنَّهُ تحيَّرَ في حالِ هذا النَّصرانِيِّ، وبأيِّ وجهٍ وسببٍ أجرَىٰ اللهُ علىٰ يدَيهِ هذَينِ الطَّبقَينِ! وهلْ هوَ زيادةُ مكرٍ فِي حقِّهِ، أوْ أمرٌ آخرُ تجدَّدَ لهُ؟، فلمَّا رأَىٰ تحيُّرِي وامتناعِي مِنَ الأكلِ قالَ لِي: «**كُلْ، وأبشِّرُكَ ببشارَتَينِ؛ إحْدَاهُمَا: أنِّي أشهدُ أنَّ لَا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، والثَّانِي[ـةُ]: أنِّي سألتُ اللهَ بكَ**»، وفِي كونِهِمْ طبَقَينِ إكرامٌ لإبراهيمَ؛ حتَّىٰ يكونَ الطَّبقُ الواحدُ لهُ، والثَّاني لرفيقِهِ الَّذِي تجدَّدَ إسلامُهُ، ولَوْ كانَ طبقًا واحدًا لمْ يتوقَّفْ إبراهيمُ ولَمْ يتعجَّبْ، ولَمْ يتأكَّدِ الأمرُ عندَ النَّصرانِيِّ حتَّىٰ أسلمَ، معنَىٰ كونِهِمَا طبقَينِ مَا أشرْنَا إليهِ منَ الفوائِدِ، وكلاهُمَا خرقُ عادةٍ، وكرامةُ مَا جرَىٰ لإبراهيمَ ومَا جرَىٰ لرفيقِهِ بعدَ إسلامِهِ[1].

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنهُ[2]: «**وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ المُبَارَكِ الصُّورِيُّ[3]: كُنْتُ مَعَ إبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ فِي طَرِيقِ بَيْتِ المَقْدِسِ، فَنَزَلْنَا وَقْتَ القَائِلَةِ تَحْتَ شَجَرَةِ رُمَّانٍ، فَصَلَّيْنَا رَكَعَاتٍ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ أَصْلِ الرُّمَّانِ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ أَكْرِمْنَا بِأَنْ تَأْكُلَ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/٩٩٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٧.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٧٠، ومناقب الأبرار ١/٤٧، وجامع كرامات الأولياء ١/٣١٣.

مِنَّا شَيْئًا، فَطَأْطَأَ إِبْرَاهِيمُ رَأْسَهُ، فَقَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ كُنْ شَفِيعَنَا إِلَيْهِ لِيَتَنَاوَلَ مِنَّا شَيْئًا، فَقُلْتُ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، لَقَدْ سَمِعْتَ!!، فَقَامَ وَأَخَذَ مِنْهَا رُمَّانَتَيْنِ، فَأَكَلَ وَاحِدَةً وَنَاوَلَنِي الأُخْرَىٰ فَأَكَلْتُهَا وَهِيَ حَامِضَةٌ، وَكَانَتْ شَجَرَةً قَصِيرَةً، فَلَمَّا رَجَعْنَا مَرَرْنَا بِهَا [٣/٣٤ب]، فَإِذَا هِيَ شَجَرَةٌ عَالِيَةٌ وَرُمَّانُهَا حُلْوٌ، وَهِيَ تُثْمِرُ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّتَيْنِ، وَسَمَّوْهَا: رُمَّانَ الْعَابِدِينَ، وَيَأْوِي إِلَىٰ ظِلِّهَا الْعَابِدُونَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ مقصودٌ بمَا نُقِلَ أنَّ الشَّجرَ فِي الجنَّةِ إذا مرَّ بهَا الأولياءُ فِي ملكِهِ ومساكنِهِ تناديهِ الشَّجرةُ[١]: «هلْ لنا فيكَ مِن دُولةٍ يا وليَّ اللهِ؟»، وذلكَ أنَّ البركةَ تحصلُ فِي جميعِ ما لَمَسُوهُ فِي الدُّنيا والآخرةِ بمَا جعلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فيهِمْ منَ البركةِ كمَا تقدَّمَ[٢] أنَّ السَّرِيَّ قالَ: «لَوْ أنَّ ذاكرًا ذكَرَ اللهَ علىٰ الحقيقةِ وهَمَّ أنْ يحييَ الموتَىٰ لفعَلَ، ومسحَ بيدِهِ علىٰ عليلٍ كانَ بينَ يدَيهِ فبَرِئَ».

ومِنْ هذَا القبيلِ كانَ بعضُهُمْ يقولُ: «لَوْ أنَّ صادِقًا قالَ: يا هذَا العمودُ كُنْ ذهبًا لكَانَ»، قالَ الرَّاوِي: «فالتفتُّ إلىٰ العمودِ فرأيتُهُ ذهبًا»، ويجوزُ أنْ يصيرَ ذهبًا ويتغيَّرَ؛ لأنَّهَا أعراضٌ يوالِيهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ الجواهِرِ وهوَ يفعلُ ما يشاءُ، وسماعُ الكلامِ منَ الشَّجرِ، ومِنْ سائرِ الجمادَاتِ جائز، وقدْ سُمِعَ حنينُ الجِذْعِ مستفاضًا، وتسبيحُ الحصَىٰ فِي كفِّ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصَّحابةِ ـ رضِيَ اللهُ عنهُمْ أجمعِينَ ـ[٣].

وموضعُ الكرامةِ: كلامُهَا وسؤالُهَا وتشفُّعُهَا لإبراهيمَ أنْ يتناولَ منهَا، ولذلِكَ استحيَا مِنْ ربِّهِ حتَّىٰ تشفَّعَتْ لهُ بصاحبِهِ، فأخذَ منهَا لهُ ولصاحبِهِ وأكَلا، فيكونُ

---

(١) انظر: إحكام الدلالة ٢/٩٩٩.

(٢) هذا القول سيرد في (باب المعرفة بالله)، من (ملاحق التتميم).

(٣) انظر: مواهب المجيب في نظم خصائص الحبيب ـ بتحقيقي ـ ص٦١ ـ ٦٣.

الأمرُ مشتركًا وحصلَتْ لهَا البركةُ الَّتِي رغبَتْ إليهِ فيهَا ؛ بأنْ علَتْ وطابَ رمَّانُهَا، واشتهرَتْ بشجرةِ العابدِينَ، وأنْ يقصدَهَا العابدُونَ مِنْ كلِّ وجهٍ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ الفَرَّخانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الخَصَّافَ يَقُولُ: حَدَّثَنِي جَابِرٌ الرَّحْبِيُّ قَالَ[(٢)]: أَكْثَرَ أَهْلُ الرُّحْبَةِ عَلَيَّ الإِنْكَارَ فِي بَابِ الكَرَامَاتِ، فَرَكِبْتُ السَّبُعَ يَوْمًا وَدَخَلْتُ الرُّحْبَةَ وَقُلْتُ: أَيْنَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ أَوْلِيَاءَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؟ قَالَ: فَكَفُّوا بَعْدَ ذَلِكَ عَنِّي».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الوليَّ إنَّمَا يُظهِرُ الكرامةَ لأحدِ مَعْنَيَيْنِ ؛ إمَّا لمُريدٍ يقتدِي بهِ ويقوِّي [٣/٣٥أ] حسنَ ظنِّهِ فِي الاتِّباعِ لهُ، أوْ لمُنْكِرٍ للكراماتِ يكونُ ذلكَ حجَّةً عليهِ وتكذيبًا لهُ، ومِنْ ذلكَ مَا حُكِيَ أنَّ ربيعًا الشَّامِيَّ تكلَّمَ معَ بعضِ القَدَرِيَّةِ، وأنَّهُ يفعلُ بنفسِهِ مَا يشاءُ، فقالَ لهُ ربيعٌ: «قُمْ فقامَ»، ثمَّ قالَ لهُ: «اجلِسْ»، فسألَ اللهَ فيهِ، فردَّهُ اللهُ خشبةً لَمْ يَقْدِرْ علَىٰ جُلُوسٍ، فاعترَفَ بعدمِ قُدْرَتِهِ وعَجْزِهِ وكَذبِهِ فِي مُعْتَقدِهِ[(٣)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٤)]: «سَمِعْتُ مَنْصُورًا المَغْرِبِيَّ يَقُولُ[(٥)]: رَأَىٰ بَعْضُهُمُ الخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ فَوْقَكَ أَحَدًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، كَانَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ يَرْوِي الأَحَادِيثَ بِالمَدِينَةِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُ يَسْمَعُونَ، فَرَأَيْتُ شَابًّا بِالبُعْدِ مِنْهُم رَأْسُهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٨.

(٢) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٣٢٢، وصفة الصفوة ٤/٢٤١، وجامع كرامات الأولياء ٢/٣.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/٩٩٩.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٨.

(٥) ورد قوله في: البريقة المحمودية في شرح الطريقة المحمدية ص٢٠٢.

عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ يَرْوِي أَحَادِيثَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلِمَ لَا تَسْمَعُ مِنْهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ يَرْوِي عَنْ مَيِّتٍ، وَأَنَا لَسْتُ بِغَائِبٍ عَنِ اللهِ - تعالىٰ -، فَقُلْتُ لَهُ: إِنْ كُنْتَ كَمَا تَقُولُ فَمَنْ أَنَا؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَخِي أَبُو العَبَّاسِ الخَضِرُ، فَعَلِمْتُ أَنَّ للهِ عِبَادًا لَمْ أَعْرِفْهُم».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا - وفَّقَكَ اللهُ - يدلُّ علىٰ أمورٍ؛ منهَا: أنَّ الخَضِرَ وليٌّ، ومنهَا: أنَّهُ حيٌّ، ومنهَا: أنَّ الولِيَّ إنَّمَا يَعرِفُ مَنْ فِي طَبَقَتِهِ أَوْ دونَهُ، لَا مَنْ هوَ أعلىٰ منهُ.

وروحُ هذهِ الحكايةِ: أنَّ هذَا الَّذِي رأىٰ الخضِرَ يحتملُ أنْ يكونَ منصورًا، وهوَ الَّذِي حَكَىٰ هذَا التَّفصيلَ، فلمَّا عَرَفَ أنَّهُ الخَضِرُ فسألَهُ هلْ رأىٰ فوقَهُ أحدًا؟ فقالَ لهُ الخضِرُ: «رأيتُ شابًّا جالسًا ورأسُهُ بينَ ركبتَيهِ»، وعبدُ الرَّزَّاقِ هذَا - واللهُ أعلمُ - هوَ عبدُ الرَّزَّاقِ بنُ همَّامِ بْنِ نافعٍ، وهو مِن علماءِ الحديثِ[١]، ذكَرَ أبُو عيسَىٰ أنَّهُ توفِّيَ سنةَ إحدَىٰ عَشرةَ ومائتَينِ.

وقَدِ اخْتُلِفَ فِي الخَضِرِ هَلْ هوَ حيٌّ أَوْ ميِّتٌ؟[٢]، وزعمَ بعضُ المحدِّثِينَ أنَّهُ ميِّتٌ، وتمسَّكُوا بخبرٍ عنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ قالَ[٣]: «لَا يأتِي رأسُ مائةِ سنةٍ وعلَىٰ وجهِ الأرضِ نفسٌ منفوسةٌ ممَّنْ هيَ عليهَا الآنَ»، وهذَا عامٌّ يمكنُ تخصيصُهُ ببعضِ الخَلْقِ ليسَ بكلِّهِمْ، وهذَا عبدُ الرَّزَّاقِ توفِّيَ بعدَ المائتَينِ منَ الهجرةِ، وقَوْلُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنفعُ التَّقديرِ لأهلِ هذَا المذهبِ فيهِ أنْ يكونَ هذا القولُ قالَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [٣/٣٥ب] فِي العامِ الَّذِي توفِّيَ فيهِ، فقدْ مضَتْ بعدَهُ مائةٌ وتسعونَ سنةً

---

(١) انظر في ترجمته: التاريخ الكبير ٦/١٣٠، والجرح والتعديل ٦/٣٨، وطبقات الحفاظ ص١٥٨.

(٢) تأمل في ذلك: الحذر في أمر الخضر ص٩٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٩٦٦ - حديث رقم (٢٥٣٨).

وأكثرُ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقامَ بالمدينةِ بعدَ الهجرةِ ثلاثَ[١] عشرةَ سنةً.

فَدَلَّ مجموعُ ذلِكَ علَىٰ أنَّ الخضِرَ غيرُ داخلٍ في عمومِ هذا الخبَرِ، ولقد كثُرَتِ الرِّواياتُ عنهُ منَ العُدُولِ الصَّالحِينَ أنَّهُمْ رأَوهُ فِي هذهِ الأزمنَةِ المُتأخِّرَةِ، بلغنِي ذلكَ عمَّنْ نثِقُ بصِدْقِهِ ودِيْنِهِ وأَمَانَتِهِ؛ منهُمُ الشَّيخُ أبو إسحاق إبراهيمُ المغيلِي أخبَرَنِي عنْ عمِّهِ؛ أيْ زكريَّا المغيلِي الَّذِي كانَ بناحيةِ (تَنَس)[٢] ببلادِ المغربِ وأخذَهُ المشركونَ أسيرًا، وحصلَ معَهُمْ فِي الشَّوانِي هوَ وأصحابُهُ ولمْ يقدرُوا أنْ يخرجُوا بِهِ منَ البَرِّ، وسألوهُ النُّزولَ عنهُمْ هوَ وأصحابَهُ، فأبَىٰ إلىٰ أنْ أطلقُوا مَنْ كانَ معَهُمْ منَ المسلمِينَ ممَّنْ أسرُوهُ منْ بلدةٍ أخرَىٰ نزلُوا عليهَا، وأخذُوا جميعَ ما فيهَا، فلمَّا لمْ يبقَ معَهُمْ فِي شوانيْهِم شخصٌ مسلمٌ ولَا مالٌ نزلَ هوَ منَ الشَّوانِي وحصلَ فِي البَرِّ، فحينئذٍ قدرَ العُدُولُ أنْ يخرجُوا منَ البَرِّ فأخبَرَنِي إبراهيمُ المذكورُ عنِ الشَّيخِ أبِي زكريَّا قالَ: خرجتُ منَ المدينةِ سائحًا قاصِدًا نحوَ العراقِ، فبينَا أنَا فِي الصَّحراءِ وقدْ أخذَنِي بعضُ الجوعِ والعطشِ فوقعَ فِي نفسِي أكلُ رقاقٍ مِنْ رقاقِ العراقِ فيهِ شواءٌ سخنٌ، قالَ: فعاتَبْتُ نفسِي فِي خطورِ هذهِ الشَّهوةِ وهيَ فِي الصَّحراءِ والجوعِ والعطشِ، ومعَ ذلِكَ يخطرُ لهَا الشَّهواتُ، ثمَّ قدِمْتُ علىٰ ماءٍ حُلوٍ، فجلستُ عليهِ أتوضَّأُ للصَّلاةِ، ونفسِي تكلبُ علَىٰ الشُّربِ وأنا أمنعُهَا حتَّىٰ يزولَ شرَهُهَا وتشربَ بأدبٍ، قالَ: فبينَا أنَا كذلِكَ وإذَا بظلِّ شخصٍ وقفَ علىٰ رأسِي رأيتُ خيالَهُ في الماءِ، فرفعْتُ رأسِي أنظرُهُ فإذَا جاريةٌ معَهَا شيءٌ سخنٌ ملفوفٌ فِي مِنديلٍ، فوقعَ لِي أنَّهَا شَهوَتِي، امْتُحِنْتُ بهَا فصِحْتُ عليهَا، فذهبَتْ ولمْ أجِدْ منهَا شيئًا، قالَ: فلمَّا توضَّأْتُ رأيتُ أشخاصًا يقومُونَ ويقعدونَ فقصدْتُهُمْ،

---

(١) في الأصل: ثلاثة، والصواب المثبت.

(٢) هي: مدينة بقرب مليانة، بينها وبين البحر ميلان، وهي آخر إفريقية مما يلي المغرب. انظر: الروض المعطار ص١٣٨، ومعجم البلدان ٢/ ٤٨.

فإذَا هُمْ جماعةٌ منَ الأبدالِ، فبعدَ ساعةٍ أتانَا الخضِرُ وجلسَ معنَا وقالَ لِي: كَمْ تعذِّبُ هذهِ المسكينةَ! وملأَ كفَّيهِ منَ الماءِ [٣/١٣٦أ] وسقانِي مرَّتَينِ.

وربَّمَا جرَىٰ لِي معَ بعضِ أصحابِنَا؛ وهوَ الشَّيخُ الأجلُّ المالقِيُّ، كانَ يسكنُ قريبًا منَ الجامعِ الغربِيِّ بالإسكندريَّةِ، وكانَ زاهدًا، ليسَ عندَهُ أحدٌ سِوَىٰ ساقيةٍ فيهَا شُجَيْرَاتُ تِينٍ، وكتبُ علمٍ، ومُرقَّعةٌ عليهِ، فإذَا خرَجَ إلىٰ الجمعةِ لبِسَ ثوبًا وعمِلَ علىٰ رأسِهِ عرضيًّا علَىٰ الشَّعرِ منْ غيرِ عمامةٍ، فيصلِّي الجمعةَ ويعودُ إلىٰ موضعِهِ، وكنتُ كلَّ جمعةٍ أمضِي إليهِ أنَا والفقيهُ أبو الفتوحِ الصِّقلِّي وعبدُ اللهِ المنيجي ـ رحمَهُمُ اللهُ ـ، وأقيمُ عندَهُ حتَّىٰ أصلِّي الجمعةَ، فبينَا نحنُ عندَهُ ذاتَ يومٍ، قالَ لِي الشَّيخُ أبو الفتوحِ الصَّقلِّيُّ: سَلِ الشَّيخَ يسألُ هذَا، وأشارَ إلىٰ رجلٍ آخرَ مُصْفرِّ اللَّونِ، أتَىٰ عندَ الشَّيخِ فِي ذلكَ الوقتِ يُحَدِّثُكَ كيفَ رأَىٰ الخَضِرَ؟، فَسألتُ الشَّيخَ أبا زيدٍ المالقِيَّ أنْ يسألَهُ ليحدِّثَنِي، فقالَ الرَّجلُ: قَدْ حَدَّثتُ أصحابَهُ، فقالَ لِي: نحبُّ أنْ نسمعَ منكَ، قالَ لِي: كنتُ شابًّا تاجرًا، أسافرُ منَ الغُدْوةِ إلىٰ الأندلسِ، فغرقتُ فِي البحرِ، فطلعْتُ علىٰ لوحٍ، وليسَ عليَّ شيءٌ ألبسُهُ سِوَىٰ سراويلَ فِي وسطِي، فيهِ شلامةٌ فيهَا أحدَ عشرَ دينارًا يوسفيَّةً، وبقيتُ علَىٰ الخشبةِ يومَينِ وليلتَينِ وكانَ زمنَ الشِّتاءِ، فقاسيتُ شدَّةً عظيمةً وبقيتُ كيفَ مَا راحَتِ الخشبةُ تركتُهَا، ولَا أقدرُ علىٰ نفسِي شيئًا، فبينَا أنَا ذاتَ ليلةٍ وإذَا بالخشبةِ تحكُّ شيئًا معَ المَوجِ فقلتُ علَىٰ ظنِّي: إنَّهُ البرُّ، فمَا زلتُ أزحفُ شيئًا فشيئًا حتَىٰ حصلَتْ يدِي فِي الرَّملِ، وما زلتُ مكانِي حتَّىٰ طلعَتِ الشَّمسُ وسخنَتْ وأمكنَنِي القيامُ، فدُرْتُ بالجزيرةِ دَورةً لأجِدَ متسلَّقًا، وهلْ ثمَّ ما آكلُهُ أوْ شَيءٌ أنتفعُ بهِ، فدُرْتُ ساعةً ثمَّ رجعتُ إلىٰ الخشبةِ، وتَسَلَّتُ لطلوعِ الجبلِ، فإذَا هيَ جزيرةٌ فِي وسطِ البحرِ، وليسَ فيهَا أحدٌ، وصِرْتُ أكسرُ اللياطمش ـ وهوَ الحَلَزُونُ[١] ـ منْ علىٰ الحشفِ

---

(١) هي: دويبة تكون في الرمث وحيوان بحري رخو، يعيش في صدفه وبعضه يؤكل، يوجد في سواحل=

وأُجَفِّفُهُ وآكلُهُ، وأبولُ فِي موضعٍ منَ الجبلِ، ثمَّ نشربُهُ فِي بعضِ الأوقاتِ لعجزِي عنْ شربِ ماءِ البحرِ، ووجدتُ في أطرافِ الجبَلِ مغارةً إذَا مُلِئَ البحرُ [٣/٣٦ب] دخلَ فيهَا، وإذَا خَصِرَ بَعُدَ عنهَا، فدخلتُ فيهَا فإذَا هيَ مغارةٌ، وفِي جنبِهَا ماءٌ وكانَتْ فوهةٌ إلىٰ السَّماءِ ينزلُ منهَا الطَّيرُ إلىٰ ذلِكَ الجنبِ، فصِرْتُ أشربُ منْ ذلِكَ الماءِ وأنامُ في المغارةِ، وذكرَ أنَّ فيهَا عظامَ مَوْتَىٰ جوافَّ فِي الخِلْقَةِ، قالَ: وأقمتُ علَىٰ ذلكَ شهرًا منَ الزَّمانِ، لا أذكُرُ والدَتِي ولَا إخوَتِي ولَا أهلِي شُغْلًا بمَا أنَا فيهِ، فلمَّا كانَ فِي الشَّهرِ الثَّانِي أخطرَهُمُ اللهُ ببالِي، وصِرْتُ أبكِي ولَا أدخلُ المغارةَ إلَّا إذا دعَتْنِي الحاجةُ إلىٰ شُرْبِ الماءِ، وبنيتُ فوقَ الجبلِ حصيرةً تسترُ أجنابِي منَ الهواءِ، وصِرْتُ أنامُ فيهَا، فبينَمَا أنَا كذلِكَ فِي ليلةٍ مقمرةٍ إذْ سمِعْتُ قائلًا يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لَا شريكَ لهُ، فرجوتُ أنْ تكونَ مركبًا فِي البحرِ أناديهِمْ، فجلستُ ونظرْتُ إلىٰ البحرِ فلَمْ أرَ شيئًا، فسمِعْتُ الذِّكْرَ قَرُبَ منِّي حتَىٰ وصلَ إلىٰ الجبلِ الَّذِي أنَا عليهِ، ففزِعْتُ، فلَمْ يزَلْ يقرُبُ منِّي حتَّىٰ وضعَ يدَهُ عليَّ، وصِرْتُ أضطَّرِبُ فزعًا، فسكَّنَنِي وزالَ روعِي وقالَ لِي: ما اسمُكَ؟ فقلتُ: أحمدُ، فقالَ: وأنَا أيضًا اسمِي أحمدُ، ونزعَ قميصًا مِنْ قُمُصِهِ الَّتِي علىٰ بدنِهِ فأكسانِيهِ، وكنتُ أظنُّهُ حريرًا، فمَا عرَفْتُ أنَّهُ خزٌّ حتَّىٰ رأيتُهُ بالشَّامِ، ثمَّ قالَ لِي: مَا سمعتُكَ تؤذِّنُ، قُمْ فأذِّنْ، الصُّبحُ قريبٌ، قالَ: فأذَّنْتُ وصلَّىٰ بِيَ الصُّبحَ بـ(كَهيَعَصَ)، ثمَّ سألَنِي عنْ دارِنَا وحالِي، فأعلمْتُهُ، فقالَ: نَمِ السَّاعةَ واسترِحْ[1]، قالَ: فوضعْتُ رأسِي علَىٰ ركبتِهِ ونمتُ لحظةً فمَا شعرتُ بنفسِي إلَّا وأنَا علَىٰ رابطةٍ بالأندلسِ بينَ المسلمِينَ والرُّومِ يعظِّمُهَا كلٌّ منهُمْ، ثمَّ دارَ بِي جماعةٌ صلُّوا بهَا صلاةَ الصُّبحِ فسألُونِي عنْ أمرِي، فأخبَرْتُهُمُ الخبرَ فقالُوا: هوَ الخضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسألُونِي في

= البحار وشطوط الأنهار. انظر: حياة الحيوان ١/٣٣٧، والمعجم الوسيط ١/١٩٢.

(١) في الأصل: واستريح، والأصح المثبت.

ثَوبِي أنْ أعطيَهُمْ إيَّاهُ وأعطُونِي عوضَهُ وقالُوا لشيخِهِمْ: نُوصلُهُ إلىٰ بلدِهِ، فقالَ: دعُوهُ، فالَّذِي جاءَ بهِ إلىٰ هاهُنَا يُوصلُهُ، وذهبُوا، فلمَّا تعالَىٰ النَّهارُ جاءَنِي الخضِرُ وعرفتُهُ وقالَ لِي: أخذُوا ثوبَكَ؟ قلتُ: نعَمْ، قالَ: فمشَىٰ معِي علىٰ ساحلِ البحرِ ساعةً، ثمَّ قالَ: امْشِ إلىٰ أنْ تلقَىٰ شخصًا راكبًا علىٰ دابَّةٍ وعلىٰ بدنِهِ شيءٌ منْ قماشِ البحرِ، فإذَا قالَ: اركَبْ معِي فاركَبْ معَهُ [٣/١٣٧أ]، فإنَّهُ يوصلُكَ إلىٰ موضعِكَ، قالَ: فلقيتُهُ فركبتُ معَهُ، ووصَّلَنِي إلىٰ محلَّةِ عبدِ المؤمنِ، وكانَ أخوالِي منَ الأجنادِ، فشاعَ خبَرِي، فاجتمعَ بِي أخوالِي ورفعُونِي إلىٰ عبدِ المؤمنِ وأخبَرْتُهُ الخبَرَ، وسمِعْتُ أبا(١) زيدٍ يصدِّقُهُ في جميعِ ما جرَىٰ عليه، فإنَّهُ شاعَ خبَرُهُ بالمغربِ علىٰ ما ذكرَ.

ولقَدْ أخبَرَنِي الأخُ في اللهِ ـ تعالىٰ ـ الرَّجلُ الصَّالحُ أبو الطَّاهرِ إسماعيلُ الإشبيلِيّ قالَ لِي يومًا: رأيتُ البارحةَ فِي النَّومِ كأنِّي بـ(إشبيليَّة)، واجتمعْتُ بشخصٍ، وعرَفْتُ أنَّهُ الخَضِرُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ووجدْتُ معَهُ راحةً، فلمَّا أرادَ الانصرافَ قلتُ: يا سيِّدِي، أينَ أجتمعُ بكَ؟ فقالَ: موعدِي وموعدُكَ مسجدُ الحجرِ، والأمارةُ بينَنَا أنِّي أمسكُ علىٰ يدِكَ اليمنَىٰ، وهذَا آخرُ الرُّؤيَا، ولَمْ يقَعْ لِي فِي تفسيرِهَا شيءٌ ذلكَ الوقتَ سِوَىٰ أنِّي قلتُ لهُ: الأندلسُ مبنيَّةٌ بالطِّينِ أوِ بالحجارةِ لا غيرَ، واتَّفقَ أنَّهُ في ذلِكَ العامِ سافرَ إلىٰ مكَّةَ ـ حرسَهَا اللهُ ـ ثمَّ عادَ واجتمعَ بِي، فقالَ لِي: نخبِرُكَ بقضيَّةٍ، فقلتُ لهُ: ما هِيَ؟ قالَ: بينَمَا أنَا أطوفُ بالبيتِ قَدْ فارقْتُ الحجَرَ فإذَا أنَا بشيخٍ ربعِ القامةِ، يميلُ إلىٰ الشُّقرةِ، قَدْ وضعَ يدَهُ اليسرَىٰ علىٰ يدِي اليُمْنَىٰ ولمْ يكلِّمْنِي حتَّىٰ وصلْنَا الرُّكنَ اليمانِيَّ، ويدُهُ علَىٰ يدِي حتَّىٰ وصلْنَا الحجرَ الأسودَ، فلمَّا وصلْنَا الحجرَ الأسودَ رفعَ يدَهُ عنْ يدِي قالَ لِي أبو الطَّاهِرِ المذكورُ: واللهِ ما رفعَ يدَهُ عنْ يدِي حتَّىٰ أذكرَنِي اللهُ الرُّؤيَا، وأنَّ مرادَهُ بمسجدِ الحَجَرِ:

---

(١) في الأصل: أبو، والصواب المثبت.

الحَجَرُ الأسودُ، فاجتهدْتُ في طلبِهِ، فلمْ أقدِرْ عليهِ.

وأخبرَنِي الشَّيخُ الفقيهُ الزَّاهدُ أبو محمدٍ عبدُ الكافِي الدَّكالِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قالَ: رأيتُ في المنامِ كأنِّي أمشِي علىٰ ساحلِ بحرٍ، ووجدتُ شيخًا يتوضَّأُ، وكنتُ قبلَ أنْ أراهُ رأيتُ شخصًا فِي وسطِ البحرِ علىٰ جبلٍ شبَّهْتُهُ بالأميرِ يحيَىٰ صاحبِ (تونسَ) الآنَ، فلمَّا اجتمعْتُ بالرَّجلِ الَّذِي توضَّأَ ومشَىٰ معِي سألتُهُ [٣٧/٣ب] هلْ بقِيَ أحدٌ منَ الولاةِ فِي هذا الزَّمانِ يشبهُ المتقدِّمينَ؟! فاستنكَرَ هذَا السُّؤالَ منِّي، وقالَ: قلتُ: لعلَّهُ بقِيَ مَنْ عندَهُ شيءٌ ممَّا كانَ عندَهُمْ، فقلتُ لهُ: نعَمْ، فقالَ: الأميرُ يحيَىٰ الَّذِي في (تونسَ) وأكثَرِ ممَّنْ ينتفعُ بهِ أهلُ الأندلسِ، ومشَىٰ معَيَ ساعةً، وكأنَّهُ دخلَ مغارةً علىٰ يسارِنَا، وبقيتُ متعجِّبًا منْ حديثِهِ، فإذَا شابٌّ خرجَ منَ المغارةِ، فسألْتُهُ عنِ الشَّيخِ الَّذِي دخلَ السَّاعةَ، فقالَ: مَا جرَىٰ لكَ معَهُ؟ قلتُ لهُ: سألْتُكَ عنهُ هلْ تعرفُهُ؟ فقالَ لِي: هوَ الَّذِي خرقَ السَّفينةَ، وقتلَ الغلامَ، وبعدَ ساعةٍ خرجَ، فأقبلْتُ عليهِ إقبالَ مَنْ يعرفُهُ، فسلَّمْتُ عليهِ، فقلْتُ: يا سيِّدِي يراكَ أحدٌ وهوَ يقظانٌ ويعرفُكَ؟ قالَ: منهُمْ مَنْ يرانِي ويعرفُنِي، ومنهُمْ مَنْ يرانِي ولَا يعرفُنِي؛ كالفقيهِ الرَّشيدِ ابنِ عَوْفٍ.

وأخبرَنِي رجلٌ صالحٌ قالَ: رأيتُ كأنِّي فِي مسجدٍ، وأنَا متَّكِئٌ علىٰ يمينِ الجالسِ فِي المحرابِ، وقدْ دخلَ المسجدَ الَّذِي أنَا فيهِ جماعةٌ معَهُمُ الخضِرُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ورأيتُ صفةَ وجهِهِ وهوَ أنَّهُ وجهٌ حسَنٌ مستديرٌ ولحيةٌ خفيفةٌ، قالَ: وكأنَّهُ تكلَّمَ بكلامٍ صاحَ واحدٌ منَ الجماعةِ صيحةً عظيمةً فغُشِيَ عليَّ أنَا فِي موضعِي، قالَ: فلمَّا أَفَقْتُ رأيتُ موسَىٰ بنَ عمرانَ وكنتُ أعرفُهُ قبلَ ذلكَ فِي المنامِ، فسألْتُهُ عنِ الشَّخصِ الَّذِي رأيتُهُ معَ الجماعةِ فقالَ لِي: هوَ الخضِرُ.

وقالَ لِي الشَّيخُ أبو محمَّدٍ عبدُ الكافِي المذكورُ: وكأنِّي أمشِي بينَ جبلَينِ

وعليهِمَا خُضرةٌ حسنةٌ صادفَنِي ماءٌ حلوٌ، فخضْتُهُ إلَىٰ الجانبِ الآخرِ، فإذَا أنَا بمسجدٍ مردودٍ، ففتحتُهُ فإذَا هوَ الخضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعَهُ شخصٌ آخرُ، فسلَّمْتُ وركعْتُ إلىٰ جانبِهِ، ثمَّ سَأَلتُهُ عمَّنْ هذا معَهُ؟ فقالَ لِي: هوَ القُرْآنُ.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهذِهِ المَرَائِي منَ الصَّالحينَ فِي اليقظةِ والنَّومِ دالَّةٌ علىٰ وجودِهِ، وقَدْ رآهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وغلامُهُ رباحٌ، قالَ: صلَّىٰ بنَا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يومًا، فلمَّا خرجَ [٣/١٣٨أ] مِنَ المسجدِ رأيتُ رجلًا متَّكِئًا عليهِ يحدِّثُهُ، فقلتُ فِي نفسِي: ما هذَا إلَّا رجلٌ جافٍ يتَّكِئُ علىٰ يدِ الأميرِ، فقلتُ لهُ بعدَ ذلكَ: مَنِ الرَّجلُ الَّذِي رأيتُهُ متَّكِئًا عليكَ؟ فقالَ: أرأيتَهُ يا رباحُ؟ قالَ: فقلتُ: نعَمْ، قالَ: أظنُّكَ رجلًا صالحًا، ذلِكَ الخضِرُ أتانِي، وأخبرَنِي أنِّي سَألِي هذَا الأمرَ وأعدلُ فيهِ(١).

ولقَدْ أخبرَنِي رجلٌ أعرفُهُ قالَ لِي: كنتُ أطوفُ بالكعبةِ، وأريدُ أنْ أسألَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ بأنْ يريَنِي الخضِرَ؛ لأنَّهُ بلغنِي أنَّهُ يكونُ ليلةَ الجمعةِ فِي الحِجرِ، ثمَّ كنتُ أتوقَّفُ عندَ الدُّعاءِ في ذلِكَ؛ لأنِّي لَا أدرِي مَا عاقبتُهُ، فبينَمَا أنَا ذاتَ ليلةٍ وقدْ فارقْتُ الحِجرَ بينَ المُلتزمِ والبابِ، فإذَا بشخصٍ عنْ يسارِي عليهِ كبَّةُ صُوفٍ، برأسٍ وأكمامٍ زيِّ أهلِ المغربِ بيضاءُ مخطَّطةٌ بالأسودِ، فمدَّ يدَهُ ليصافِحَنِي فصافحْتُهُ، وقلتُ: حاشاكَ، ومشَىٰ قدَّامِي حتَّىٰ دخلَ الحِجْرَ، فوقفَ إلىٰ جانبِ الجدارِ يصلِّي، فطفْتُ أسبوعًا أو أكثرَ وهوَ يصلِّي في ذلكَ الموضعِ، ولمْ أعرِفْ مَنْ هوَ، فلمَّا كانَ بعدَ ذلكَ بليلتَينِ اجتمعَ بِي شخصٌ شابٌّ رجلٌ صالحٌ فسألَنِي قالَ: يا سيِّدِي، يرىٰ أحدٌ الخضِرَ هنَا وعليهِ كبَّةُ صوفٍ بالأبيضِ والأسودِ، فقلتُ لهُ: ومَنْ أعلمَكَ بهذَا؟ فقالَ: نحنُ مِنْ أصحابِ رضوانَ الَّذِي في (أبيار)، ونحنُ نجلسُ عندَكَ فِي الميعادِ، وقدِ اجتمعَ بهِ سفيانُ السَّبرباوِيُّ وقالَ: أنَا الخضِرُ وأنتَ

---

(١) ورد في: أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز للآجري ص ٥٢، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص٣٢.

سفيانُ، فقالَ لِي: وقعَ فِي نفسِي أنَّهُ الخضِرُ، وبقيتُ أطلبُهُ فِي ليالِي، فرأيتُهُ ليلةً علىٰ الصِّفةِ المذكورةِ يطوفُ فِي أطرافِ المطافِ بسرعةٍ لمْ أقدِرْ علىٰ إدراكِهِ، ثمَّ وجدتُهُ ليلةً أخرَىٰ فِي وسطِ النَّاسِ عرفتُهُ بصفتِهِ وطولِهِ، ولكنَّهُ ليسَ فِي ذلكَ الزِّيِّ عليهِ، ثوبٌ وكَرٌّ، فأخذَ يصافحُنِي كالعادةِ، فقلتُ: يا سيِّدِي إنَّمَا نحبُّكَ تدعُو لِي، قالَ: صرفَ اللهُ عنكَ كلَّ شرٍّ أو دفعَ، لَا أدرِي أيَّ الكلمتَينِ، قالَ: هذَا هوَ الَّذِي ذكرَ أنَّهُ وقعَ لهُ بمكَّةَ، فلمَّا وصلَ إلىٰ (ثغرِ الإسكندريَّةِ) كانَ بهَا رجلٌ منَ المكاشفِينَ وأربابِ [٣٨/٣ب] الفراسةِ الصَّادقةِ، مضَىٰ إليهِ ليزورَهُ ويسلِّمَ عليهِ، وكانَ مريضًا فِي دَارِهِ، فلمَّا دقَّ البابَ قالَ: مَنْ؟ فأخبَرَهُ باسمِهِ، فقالَ: هذَا عجبٌ منذُ سافرتُ ما رأيتُكَ فِي النَّومِ إلَّا البارحةَ، فقلتُ لكَ: اجتمعتَ بالخضِرِ، وبقيتَ تطوفُ عليهِ بعدَ ذلكَ، قالَ: فضحكتُ، قالَ: لمَّا أخبَرَنِي بهذَا الخبَرِ ضحكتُ، ثمَّ بعثَ خلفِي يومًا آخرَ وسألَنِي هلْ تحدَّثْتَ بهذَا الحديثِ معَ غيرِي حتَّىٰ نقلَهُ لِي، قالَ: فقلتُ: أنتَ تذكرُ لِي رؤيَا ومنامًا، قالَ لِي: قيلَ لِي: قلْ لهُ، وهذِهِ عادتُهُ إذَا كوشِفَ بشيءٍ يقولُ: قيلَ لِي: قُلْ لهُ: كيتَ وكيتَ، عُرِفَ ذلكَ مِنْ عادتِهِ وصدقَ ما كوشِفَ بهِ، ثمَّ قالَ لِي: وهذا عجبٌ وأنا رأيتُهُ، قالَ: قلتُ لهُ: وأينَ رأيتَهُ؟ قالَ: بتُّ ليلةً فِي مسجدِ (الرَّدَانِ) الَّذِي بقربِ كنيسةِ الأرضِ، وقبرُ الرَّدانِ عندَ مسجدِهِ مدفونٌ منْ بحريِّهِ معروفٌ، قالَ: بتُّ عندَهُ ليلةً وليسَ معنَا غيرُنَا، فلمَّا كانَ قربُ الفجرِ أردْتُ أنْ أؤذِّنَ علىٰ المسجدِ، فَسَبَقَنِي إنسانٌ متوسِّطُ الطُّولِ وعلىٰ رأسِهِ شعرُهُ ليؤذِّنَ، فتركتُهُ ليؤذِّنَ، فلمْ يؤذِّنْ أحدٌ شيئًا، فأتيتُ للشَّيخِ الرَّدانِ فسألتُهُ: هلْ باتَ معنَا أحدٌ فِي المسجدِ؟، قالَ لِي: ولمَ ذلكَ؟ قلتُ لهُ: كيتَ وكيتَ، قالَ: هوَ الخضِرُ، عَادتُهُ يجِيءُ يزورُنِي.

ثُمَّ توفِّيَ بـ(ثغْرِ الإسكندريَّةَ) رجلٌ صالحٌ يُعرَفُ بالفقيهِ مالكِ بنِ يَدُّو، فبلغَنِي أنَّ بعضَ الصَّالحِينَ رأَىٰ الخضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صلَّىٰ عليهِ معَ جُملةِ النَّاسِ وعرَفَهُ،

فلمْ أزلْ أبحثُ عنِ الرَّائِي لهُ فِي اليقظةِ وهوَ يصلِّي علَىٰ الفقيهِ مالكٍ حتَّىٰ عرفتُهُ.

وذكرَ لِي بعضُ إخوانِنَا ممَّنْ كانَ ينقطعُ بالجزيرةِ، وكانَ يعتمدُ الصَّمتَ ليديمَ الذِّكرَ، ولا يكلِّمُ أحدًا منَ النَّاسِ، قالَ: كنتُ فِي اللَّيلِ أمشِي علَىٰ الرَّصيفِ وأصلُ إلىٰ المنارةِ، وأجلسُ منْ بحريِّهَا فِي المحرابِ الَّذِي فِي الجبلِ الَّذِي تحتَهَا قبالةَ الفاروسِ أذكرُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ، قالَ: فبينَمَا أنَا ليلةً جالسٌ إذْ أتانِي إنسانٌ فسلَّمَ عليَّ، فقالَ: ما قعودُكَ هاهُنَا؟ فلَمْ أكلِّمْهُ، قالَ لِي: ما ذكرَ اللهَ إلَّا جيِّدٌ، لكِنْ سلِّمْ لِي علىٰ فلانٍ، وذكرَ لي شخصًا فِي الثَّغرِ ومضَىٰ، قالَ: فأنَا [٣/١٣٩أ] ليلةً أخرَىٰ جالسٌ فِي الموضعِ المذكورِ وإذَا بهِ قدْ وقفَ عليَّ وقالَ: ما أنتَ إلَّا تؤدِّي الأمانةَ، أقولُ لكَ: سلِّمْ لِي علىٰ فلانٍ ما فعلتَ، قالَ: فاحتجتُ إلىٰ كلامِهِ ما الَّذِي أقولُ لهُ؟! جاءَ رجلٌ فسلَّمَ عليكَ، فقالَ: صدقْتَ، قلْ لهُ: الصَّلاةُ علىٰ الفقيهِ مالكٍ ومسجدِ الرَّدانِ، فقالَ لِي: هذَا الرَّجلُ المنقطعُ المذكورُ ـ ويعرفُ بأبِي عبدِ اللهِ محمَّدٍ المالقِيِّ ـ فلَمْ يمكننِي إلَّا أنْ دخلتُ الثَّغرَ، واجتمعتُ بالرَّجلِ الَّذِي أمرَنِي بالسَّلامِ عليهِ، وحكيتُ لهُ الحكايةَ، وأنَّهُ قالَ لِي: كيتَ وكيتَ، قالَ لِي: هذهِ الأمارتَانِ تدلُّ علَىٰ أنَّهُ الخضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فسررتُ بذلِكَ.

وأنَا ليلةً أخرَىٰ في الموضعِ جالسٌ وإذَا بهِ قَدْ أتَىٰ يسلِّمُ علَيَّ، فقمتُ إجلالًا لهُ، فلمَّا رآنِي قمتُ ولَّىٰ، فطلعْتُ منَ الموضعِ وتبعتُهُ حتَّىٰ مشَىٰ علَىٰ الرَّصيفِ وخاضَ الماءَ وأنَا وراءَهُ، وسلكَ الجزيرةَ وأنا أتبعُهُ، وكلَّمَا هَمَمْتُ أَنْ أسلِّمَ عليهِ لمَّا بلغنِي أنَّهُ الخضِرُ هِبْتُهُ، فلَمْ أَزَلْ كذلِكَ إلىٰ مسجدِ الخَضِرِ إلَىٰ الياقوتِيِّ إلَىٰ جانبِ الجزيرةِ الأخرَىٰ منَ الجهةِ الأُخرَىٰ علىٰ بحرِ السِّلسلةِ، هوَ يمشِي وأنَا خلفَهُ، إلَىٰ أنْ وصلْنَا قربَ البابِ الأخضرِ، فلمَّا رآنِي بعضُ الحرَّاسِ صاحُوا عليَّ وهوَ قدَّامِي، لمْ يرَوهُ غابَ عنِّي.

ولقَدْ ذكرَ لِي أبُو عبدِ اللهِ محمَّدٌ المَالقِيُّ المذكورُ أنَّهُ كانَ فِي تلكَ الأيَّامِ مُقِيمًا[1] بالمسجدِ الَّذِي أنشأَهُ سِرًّا (سُنْقُر)، وأنَّهُ أكلَ طعامًا وجدَ ألمَهُ فِي بطنِهِ، فخرجَ إلىٰ ساحلِ البحرِ، فجلسَ هنالِكَ ليجدَ راحةً فِي اللَّيلِ، فلمْ أشعرْ إلَّا برجلٍ صَافحَنِي، فقلتُ فِي نفسِي: هذَا يعتقدُ أنِّي رجلٌ صالحٌ، ثمَّ مسحَ بيدِهِ علَىٰ وجْهِي ومضَىٰ، فزالَ عنِّي ذلكَ الألمُ، وأصبحتُ وكلُّ مَنْ رآنِي يتعجَّبُ مِنَ النُّورِ الَّذِي علَىٰ وجْهِي ذلكَ اليومَ بخلافِ العَادَةِ.

فقدْ تَضَافرَتْ هذِهِ الأخبارُ فِي اليقظةِ والنَّومِ علىٰ حياتِهِ، ومَنْ لقِيَهُ منَ الرِّجالِ المذكورِينَ فِي كتبِ الصَّالحينَ؛ كإبراهيمَ الخوَّاصِ، وإبراهيمَ بنِ أدهمَ، وغيرِهِ منَ السَّادةِ فِي الصَّحارِي وغيرِهَا.

ولقَدْ أخبرَنِي رجلٌ صالحٌ كانَ لا يأكلُ الخبزَ، ويكتفِي [٣٩/٣ب] بمَا عداهُ في سائرِ أيَّامِهِ، وكانَ شديدَ السُّمرةِ، وكانَ قدْ سكنَ معَ الشَّيخِ الأجلِّ أبِي عليٍّ النَّاسخِ في (دارِ بَوَعْلاءَ)، فأخبرَنِي أنَّ الخضِرَ كانَ عندَهُ البارحةَ، ثمَّ سألْتُهُ أينَ أكثرُ ما يوجَدُ؟ فقالَ لِي: مِنْ (دمياطَ) إلَىٰ (رشيدَ) إلىٰ ساحلِ (الإسكندريَّةِ)، ويُسمَّىٰ المُخبرُ بأبِي مُوسَىٰ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«وَقِيلَ[3]: كَانَ لِإبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ صَاحِبٌ يُقَالُ لَهُ: يَحْيَىٰ[4]، يَتَعَبَّدُ فِي غُرْفَةٍ لَيْسَ لَهَا سُلَّمٌ وَلَا دَرَجٌ، فَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَطَهَّرَ يَجِيءُ إِلَىٰ بَابِ الغُرْفَةِ وَيَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَيَمُرُّ فِي الهَوَاءِ كَأَنَّهُ يَطِيرُ، ثُمَّ يَتَطَهَّرُ، فَإِذَا فَرَغَ يَقُولُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَيَعُودُ إِلَىٰ غُرْفَتِهِ».**

---

(١) في الأصل: مقيم، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٨.

(٣) ورد في: تهذيب الأسرار ص٣٥٨.

(٤) في إحكام الدلالة ٢/١٠٠٠: يحيىٰ بن سعيد.

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ كرامةُ الطَّيَرانِ فِي الهواءِ، وقدْ تقدَّمتِ الحكايةُ[(١)] الَّتي أخبرَني بها الفقيهُ الأجلُّ أبُو بكرٍ البهاويُّ فِي الرَّجُلِ الَّذي صحبَهُ فِي القرافةِ ورآهُ طائرًا إلىٰ أنْ عدَّىٰ منارةَ (جامعِ ابنِ طولُونَ).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «أَخبرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الشِّيرَازِيَّ بِالبَصْرَةِ يَقُولُ[(٣)]: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ جَعْفَرًا الحَذَّاءَ بـ(شِيرَازَ) قَالَ: كُنْتُ أَتَأَدَّبُ بِأَبِي عُمَرَ الإِصْطَخْرِيِّ، فَكَانَ إِذَا خَطَرَ لِي خَاطِرٌ أَخْرُجُ إِلَىٰ (إِصْطَخْرَ)[(٤)]، فَرُبَّمَا أَجَابَنِي عَمَّا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَسْأَلَهُ، وَرُبَّمَا سَأَلْتُهُ فَأَجَابَنِي، ثُمَّ شُغِلْتُ عَنِ الذَّهَابِ، فَكَانَ إِذَا خَطَرَ عَلَىٰ سِرِّي مَسْأَلَةٌ أَجَابَنِي مِنْ (إِصْطَخْرَ)، وَيُخَاطِبُنِي بِمَا يَرِدُ عَلَيَّ».

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ دليلٌ علىٰ صحَّةِ الخواطرِ الَّتي يُنشِئُها الحقُّ فِي قلوبِ الأولياءِ جوابًا عمَّا سألُوهُ عنهُ، أوْ علَّقوا هِمَمَهُمْ بهِ[(٥)]، وكثيرًا ما رأيتُ الأجلَّ أبا محمَّدٍ عبدَ اللهِ الدَّكاليَّ ـ المعروفَ بأبِي الكُوَّطِ ـ إذا سُئِلَ عنْ شيءٍ سكتَ ساعةً ينتظرُ الجوابَ فِي قلبِهِ ويذكُرُهُ لسائلِهِ، وكثيرًا ما كانَ سيِّدُهُمُ الإسكندرانِيُّ يقولُ لِي: قِيلَ لِي: قُلْ لهُ، وما ذاكَ إلَّا للخواطرِ الإلهاميَّةِ المُعْتادَةِ لهُ خاصَّةً.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٦)]: «وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ[(٧)]: مَاتَ فَقِيرٌ فِي

---

(١) لم يتقدم ذكر لها، فلعلها في الجزء المفقود.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٨.
(٣) ورد قوله في: جامع كرامات الأولياء ١/٣٨٠.
(٤) بلدة بفارس. انظر: معجم البلدان ١/٢١١.
(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٠٠.
(٦) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٨.
(٧) ورد في: تهذيب الأسرار ص٣٥٩، والفقير هو: خليل المحلمي.

بَيْتٍ مُظْلِمٍ، فَلَمَّا أَرَدْنَا غَسْلَهُ تَكَلَّفْنَا طَلَبَ سِرَاجٍ، فَوَقَعَ مِنْ كَوَّتِهِ ضَوْءٌ [٣/١٤٠أ] **فَأَضَاءَ البَيْتَ، فَغَسَّلْنَاهُ، فَلَمَّا فَرَغْنَا ذَهَبَ الضَّوْءُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ».**

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ جُملةِ ألطافِ اللهِ ـ تعالى ـ بالجماعةِ الَّذِينَ يغسِّلُونَهُ، ويدلُّ ذلكَ على كرامتِهِ عندَ اللهِ بكونِهِ أَرَاهُم منَ النُّورِ ما يستكملُونَ بِهِ تنظيفَهُ وحُسنَ تجهيزِهِ(١).

ولقَدْ جرَىٰ لِي قريبًا مِنْ ذلكَ؛ وذلكَ أنِّي كنتُ فِي أوَّلِ أمرِي فِي أوَّلِ صُحبَتِي للشَّيخِ الفقيهِ أبِي عبدِ اللهِ محمَّدٍ الغزالِ بـ(ثَغْرِ الإسكندريَّةِ)، وكانَ يُصَلِّي بينَ العشاءَينِ ويصلِّي معَهُ جماعةٌ، وكانَتْ قراءتُهُ طيِّبةً، وكانَ معَنَا الشَّيخُ الفقيهُ: أبو عبدِ اللهِ محمَّدٌ الدَّبَّاغُ الأسمرُ الَّذِي كانَ يُصَلِّي بمسجدِ (الكباريِّينَ) اللَّطيفِ بالثَّغرِ علَىٰ رأسِ الحدَّادينَ، فأخذَهُ حالٌ عظيمٌ، فدخلَ نورٌ مِنْ طَوَاقِي البيتِ ولَمْ يكنْ عندَنَا سراجٌ حتَّىٰ رأيتُ الجماعةَ كلَّهُمْ، ثمَّ ذهبَ، ثمَّ دخلَ كَرَّةً أُخرَىٰ، فلمَّا فرَغْنَا منَ الصَّلاةِ أخبَرْتُ الشَّيخَ أبَا عبدِ اللهِ الغزالَ بذلِكَ، فقالَ: «أنتَ ترَىٰ النُّورَ، وغيرُكَ يرَىٰ ربَّ النُّورِ».

ومقصودُهُ بذلِكَ ـ **واللهُ أعلَمُ** ـ: ألَّا يسكنَ المُريدُ لشيءٍ مِنْ هذِهِ الخوارقِ، ولَا يَسْكُنُ معهَا تأديبًا لهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«وَعَنْ آدَمَ بْنِ أَبِي إِيَاسٍ قَالَ(٣): كُنَّا بِـ(عَسْقَلَانَ) وَشَابٌّ يَغْشَانَا وَيُجَالِسُنَا وَيَتَحَدَّثُ مَعَنَا، فَإِذَا فَرَغْنَا قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ يُصَلِّي، قَالَ فَوَدَّعَنِي يَوْمًا وَقَالَ: أُرِيدُ الإِسْكَنْدَرِيَّةَ، فَخَرَجْتُ مَعَهُ وَنَاوَلْتُهُ دُرَيْهِمَاتٍ، فَأَبَىٰ أَنْ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٠٠١/٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٥٣٩/٢.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٥٩، والروض الفائق في المواعظ والرقائق ص١٣١.

يَأْخُذَ، فَأَلْحَحْتُ عَلَيْهِ، فَأَلْقَىٰ كَفًّا مِنَ الرَّمْلِ فِي رَكْوَتِهِ(١)، وَاسْتَقَىٰ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ وَقَالَ: كُلْهُ، [فَنَظَرْتُ](٢) فَإِذَا هُوَ سَوِيقٌ بِسُكَّرٍ كَثِيرٍ، فَقَالَ: مَنْ كَانَ حَالُهُ مَعَهُ مِثْلَ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ دَرَاهِمِكَ؟! ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ(٣):

لَيْسَ فِي الْقَلْبِ وَالْفُؤَادِ جَمِيعًا ❊ مَوْضِعٌ فَارِغٌ لِغَيْرِ الْحَبِيبِ
هُوَ سُؤْلِي وَهِمَّتِي وَحَنِينِي ❊ وَبِهِ مَا حَيِيتُ عَيْشِي وَطِيبِ
وَإِذَا مَا السَّقَامُ حَلَّ بِقَلْبِي ❊ لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ لِسُقْمِي طَبِيبِ

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الخارقُ وهيَ كرامةُ [٣/٤٠ب] قلبِ الأعيانِ.

أخبَرَنِي الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ عيسَىٰ بنِ أبِي شامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ الشَّيخِ الفقيهِ التادِلِيِّ بنِ إبراهيمَ قالَ: كنتُ فِي الصَّحارِي فِي سِيَاحَتِي جالسًا تحتَ شجرةٍ، فإذَا برجُلٍ أتَىٰ علىٰ وجْهِ الماءِ ونزلَ إلَىٰ ساحلِ البحرِ، وأخرجَ فيهَا بُرْمَةً وركَّبَهَا علىٰ حجارةٍ بعدَ أنْ ملأَهَا منْ ماءِ البحرِ، وأوقدَ تحتَهَا نارًا، وأخذَ يُعَضِّدُهَا بالرَّمْلِ، فلمَّا طابَتْ وأنزلَهَا أتيتُ عندَهُ فإذَا هوَ سميدٌ أطيبُ مَا يكونُ، وأيُّ فرقٍ بينَ أنْ يخلقَ اللهُ - تعالىٰ - للعبدِ طعامًا فِي الصَّحراءِ بغيرِ سببٍ، أوْ يُجرِيَهُ بهذَا السَّببِ، وربَّمَا كانَ جريانُهُ بهذَا السَّببِ ليعرفَ الرَّائِي أنَّ الأسبابَ لا تناقضُ التَّوكُّلَ ولَا الكراماتِ(٤).

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «وَحُكِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الآجُرِّيِّ قَالَ(٦): جَاءَنِي

---

(١) الركوة: الدلو الصغير من الجلد، يشرب فيه الماء.

(٢) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية.

(٣) من الخفيف، ووردت بلا نسبة في مظان تخريج هذا القول.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٠١.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٩.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٦٠، وجامع كرامات الأولياء ١/٣١٨.

يَهُودِيٌّ يَتَقَاضَانِي بِدَيْنٍ كَانَ لَهُ عَلَيَّ، وَأَنَا قَاعِدٌ عِنْدَ الأَتُونِ[١] أُوقِدُ تَحْتَ الآجرِّ، فَقَالَ لِي الْيَهُودِيُّ: يَا إِبْرَاهِيمُ؛ أَرِنِي آيَةً[٢] أُسْلِمُ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: تَفْعَلُ؟، فَقَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: انْزَعْ ثَوْبَكَ، فَنَزَعَ، فَلَفَفْتُهُ وَلَفَفْتُ عَلَىٰ ثَوْبِهِ ثَوْبِي وَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ، ثُمَّ دَخَلْتُ الأَتُونَ وَأَخْرَجْتُ الثَّوْبَ مِنْ وَسَطِ النَّارِ، وَخَرَجْتُ مِنَ البَابِ الآخَرِ، وَإِذَا ثِيَابِي بِحَالِهَا لَمْ يُصِبْهَا شَيْءٌ، وَثِيَابُهُ فِي وَسَطِهَا صَارَتْ حَرَاقَةً[٣]، فَأَسْلَمَ الْيَهُودِيُّ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ مِنْ بابِ استجابةِ الدُّعاءِ، وصحَّةِ القَصْدِ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي أنْ يرىٰ هذَا اليهوديُّ آيةً، والآجرِيُّ: هوَ الَّذِي يطبخُ الآجرَ، فلمَّا أنْ جاءَ اليهودِيُّ وتحدَّثَ معَهُ فِي قضيَّةِ الإسلامِ قالَ لهُ: «**إنْ أَرَيْتُكَ آيةً أسلَمْتَ؟، فقالَ: نعَمْ، فقالَ: انزعْ ثوبَكَ**»، فنزَعَ اليهودِيُّ ثوبَهُ، ونزعَ الآجرِيُّ ثوبَهُ، وجعلَ ثَوْبَ اليهُودِيِّ في وَسطِ ثَوبِهِ ولفَّهُ عليهِ وسجَّرَ[٤] بهمَا التَّنُّورَ[٥]، وتركَهُمَا ساعةً، ثمَّ دخلَ الآجُرِيُّ مِنْ بابِ التَّنُّورِ وأخذَ ثوبَهُ وأخرجَهُ سالمًا، وثَوْبُ اليهودِيِّ مِنْ داخلِهِ محروقٌ لَا ينتفعُ بهِ، فأسلمَ اليهودِيُّ.

وهذِهِ كرامةٌ أكرمَ اللهُ بهَا الآجرِيَّ، وخارقٌ أجرَاهُ علىٰ يدَيهِ؛ ليحصلَ لهُ إسلامُ اليهودِيِّ بسببِهِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ تقدَّمَ لهُ خارقٌ بأنَّ النَّارَ [٣/١٤١أ] لا تُؤثِّرُ فيهِ ولا فِي ثِيَابِهِ لُطْفًا منَ اللهِ بهِ؛ لكثرةِ مُمَارستِهِ لهَا فِي شُغْلِهِ، ولذلِكَ أقدمَ علىٰ مَا فعلَهُ.

---

(١) أي: التنُّور، كما سيذكر المؤلف.

(٢) أي: كرامة.

(٣) في (ف): «وسطه صار حراقًا».

(٤) أي: أوقد.

(٥) أي: الفرن الذي يخبز فيه. انظر: المعجم الوسيط ٨٩/١.

ويحتملُ أنْ يكونَ سألَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ وتضرَّعَ إليهِ بأنْ يُرِيَ اليهوديَّ هذهِ الآيةَ، فاستجابَ دعاءَهُ، كلُّ ذلكَ جائزٌ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ[٢]: كَانَ حَبِيبٌ العَجَمِيُّ[٣] يُرَىٰ بِالبَصْرَةِ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ وَيَوْمَ عَرَفَةَ بِعَرَفَاتٍ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا كرامةُ طيِّ الأرضِ، وقدْ نقلْنَا مثلَهَا للمغاورِ رَحِمَهُ اللَّهُ ولغيرِهِ ممَّنْ ذكرَهُ لنا البهاوِيُّ[٤].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ[٦]: تَزَوَّجَ عَبَّاسُ بْنُ المُهْتَدِي[٧] اِمْرَأَةً، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الدُّخُولِ وَقَعَ عَلَيهِ نَدَامَةٌ، فَلَمَّا أَرَادَ الدُّنُوَّ مِنْهَا زُجِرَ عَنْهَا، فَامْتَنَعَ مِنْ وَطْئِهَا وَخَرَجَ، فَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ظَهَرَ لَهَا زَوْجٌ.

قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيهِ ـ: هَذَا هُوَ الكَرَامَةُ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ؛ حَيْثُ حُفِظَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٩.

(٢) ورد في: كرامات الأولياء ص٢٢١، وتاريخ دمشق ١٢/٥٦، وتهذيب الكمال ٥/٢٩٣، وميزان الاعتدال ٢/١٩٦، وسير أعلام النبلاء ٦/١٤٤.

(٣) هو: أبو محمد حبيب الفارسي العجمي، كان من أبناء الملوك، وهو أحد الزهاد الذي يضرب بزهده المثل، وكان صاحب كرامات.
انظر في ترجمته: حلية الأولياء ٦/١٤٩، والنجوم الزاهرة ١/٢٨٣.

(٤) الدلالة ٣/٥٤٦.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٣٩ ـ ٥٤٠.

(٦) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٢٦/٤٣٣، وصفة الصفوة ٢/٤٦٦، والموافقات ٢/٢٦٩، وجامع كرامات الأولياء ٢/١١٥.

(٧) هو: عباس بن المهتدي، أبو الفضل البغدادي الصوفي، يرجع إلىٰ فترة ظاهرة، وفراسة حادة، وحب للفقراء وميل إليهم، دخل مصر، وصحب بها أبا سعيد الخراز.
انظر في ترجمته: تاريخ دمشق ٢٦/٤٣٤، وصفة الصفوة ٢/٤٦٦.

عَلَيْهِ العِلْمُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا إنَّمَا كانَتْ كرامةُ حفظِهِ عنْ أنْ يطأَ امرأةً لا سبيلَ لهُ إلىٰ وطْئِهَا، وحُفِظَ مِن ذلكَ؛ لكونِهَا في عصمةِ الغيرِ، وإنْ كانَ هوَ لمْ يعلَمْ؛ لأنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ لمَّا عَلِمَ ذلكَ منعَهُ مِنْ ذلكَ وزجرَهُ عنهَا(١).

وهذِهِ الكرامةُ تُشْبِهُ ما جرَىٰ للمحاسبيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كونِهِ إذا مدَّ يدَهُ إلىٰ طعامٍ فيهِ شُبهةٌ ضَرَبَ علىٰ يدِهِ عِرْقٌ أوْ لمْ ينسَغْ لهُ(٢).

وكذلِكَ بشرُ بنُ الحارثِ وإنْ كانَ لا علمَ عندَهُمْ بِهِ قبلَ ذلكَ قبلَ التَّنبيهِ، وغيرُهُمْ ممَّنْ لا يُنبَّهُ لا شيءَ عليهِ شرْعًا؛ لعدمِ عِلمِهِ، ولوْ نبَّهَهُ الشَّرعُ وحفِظَهُ لكانَ خيرًا لهُ.

وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الطَّعامَ الَّذِي هوَ فِي ملكِ الغيرِ، [وَ]قَدْ غصبَ منهُ فيهِ ضررٌ فِي القلوبِ والأبدانِ، يحفظُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ مَنْ يخصُّهُ، وكذلِكَ الزَّوجةُ الَّتِي هيَ فِي ملكِ الغيرِ لمْ يتحقَّقْ فراقُهَا منهُ لو عقدَ عليهَا مَنْ شهدَ لهُ أنَّهَا خاليةٌ وكانَ كذَّابًا أوْ مزوِّرًا لمْ يكنْ عليهِ شيءٌ، وحفظُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ مِنْ نكاحِهَا أحسنُ فِي حقِّهِ وأفضلُ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): **«وَقِيلَ(٤): كَانَ الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ عَلَىٰ جَبَلٍ مِنْ جِبَالِ (مِنًىٰ)** [٤١/٣ب]**، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ وَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أَمَرَ هَذَا الجَبَلَ أَنْ يَمِيدَ لَمَادَ؛ قَالَ: فَتَحَرَّكَ الجَبَلُ، فَقَالَ: اسْكُنْ، لَمْ أُرِدْكَ بِهَذَا فَسَكَنَ الجَبَلُ»**.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٠٢.

(٢) كما مرَّ في الدلالة ١/٢٣٩.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٠.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٦٣، وتاريخ دمشق ٣٩٩/٤٨، وحل الرموز ص٣٨٤.

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ إشارةٌ إلَى كمالِ الولايةِ للفُضَيلِ ؛ فإنَّهُ قالَ: «لَوْ أنَّ وَلِيًّا قالَ لِهَذا الجبَلِ: تَحرَّكْ» فقدْ أوردَ صيغةَ (تحرَّكْ) علىٰ وجْهِ الحكايةِ(١) ، ولمْ يردْهَا علىٰ جهةِ الأمرِ ، فتحرَّكَ الجبلُ ، وفِي تحرُّكِهِ دلالةٌ عظيمةٌ علىٰ أنَّهُ مِنْ كبارِ الأولياءِ ، وقدْ كانَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ جبلِ (حراءٍ) ، فتحرَّكَ الجبلُ ، فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢): «اسْكُنْ حِرَاءَ ، فَإِنَّمَا عَلَيكَ نَبِيٌّ ، وَصِدِّيقٌ ، وَشَهِيدَانِ» ، فدلَّ علىٰ أنَّ حركةَ الجبلِ كرامةٌ ، وذلكَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرَّكَ فِي السَّببِ بينَهُ وبينَ غيرِهِ منَ الأولياءِ.

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَقَالَ عَبْدُ الوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ لِأَبِي عَاصِمٍ البَصْرِيِّ(٤): كَيْفَ صَنَعْتَ حِينَ طَلَبَكَ الحَجَّاجُ؟ قَالَ: كُنْتُ فِي غُرْفَتِي فَدَقُّوا عَلَيَّ البَابَ ، فَدَخَلُوا ، فَدُفِعْتُ فِي(٥) دفْعَةٍ ، فَإِذَا أَنَا عَلَىٰ (أَبِي قُبَيْسٍ)(٦) بِمَكَّةَ.

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الوَاحِدِ: مِنْ أَيْنَ كُنْتَ تَأْكُلُ؟ ، قَالَ: كَانَتْ تَصْعَدُ إِلَيَّ عَجُوزٌ كُلَّ وَقْتِ إِفْطَارِي بِالرَّغِيفَينِ اللَّذَينِ كُنْتُ آكُلُهُمَا بِالبَصْرَةِ.

فَقَالَ عَبْدُ الوَاحِدِ: تِلْكَ الدُّنْيَا ، أَمَرَهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ أَنْ تَخْدِمَ أَبَا عَاصِمٍ».

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانَ الحجَّاجُ بنُ يوسفَ قدِ ابتلاهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بطلبِ أهلِ الخيرِ ، فكلُّ مَنْ توهَّمَ أنَّهُ يخالفُ الخليفةَ الَّذي هوَ مِنْ سببِهِ طلبَهُ ، وقتلَ منهُمْ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٠٠٢/٢ ، وورد فيه بلفظ: «أورد صنيعه علىٰ وجه الحكاية».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٨٨٠/٤ ـ حديث رقم (٢٤١٧).

وفي الآحاد والمثاني ٤٧٧/١: «وعلى الجبل يومئذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ». وانظر: تاريخ دمشق ٨٠/٢١.

(٣) الرسالة القشيرية ٥٤٠/٢.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٦٣ ، وروض الرياحين ص١٣٧.

(٥) لفظ الرسالة القشيرية: فَدَفَعْتُ بِي ، والقصد: بنفسي دفعة في الهواء ، والمثبت موافق لتفسير المؤلف.

(٦) جبل مشهور بمكة.

خلقًا كثيرًا منْ أهلِ الخيرِ، وآخرُ مَنْ قتلَهُ سعيدُ بنُ جُبَيرٍ كانَ صاحبَ كراماتٍ، فبعثَ خلفَهُ رسلًا قالَ لهُمْ: «حيثُ مَا وجدتُّموهُ فأتُونِي بهِ»، وحلَّفَهُمُ الأيمانَ المغلَّظَةَ، فوجدُوهُ فِي بعضِ الصَّحارِي، فأتَوا بهِ، فأواهُمُ اللَّيلُ إلَى ديرٍ من ديورِ النَّصارَىٰ، فطلبُوا سعيدًا أنْ يدخلَ معَهُمْ فأبَىٰ، فقالَ لهُمُ الرَّاهبُ: «إنَّ سَبُعًا ولبوَةً يأتيَانِ كلَّ ليلةٍ إلىٰ هاهُنَا، وأخافُ أنْ يقتلَاهُ فاطلَعَا إلىٰ فوقِ الدِّيرِ وأوْتِرَا قِسِيَّكُمَا[(١)] فإذَا جاءَ السَّبُعُ واللَّبُوةُ فرميتمُوهُمَا فيذهبانِ[(٢)] عنهُ»، فتركَا سعيدًا وصعَدَا إلىٰ الدِّيرِ، فلَمْ يشعرَا إلَّا والسَّبعُ يلحسُ قدمَيهِ، وهوَ واللَّبوةُ يحرسَانِهِ [١٤٢/٣أ] وهوَ يصلِّي، فلمَّا أَصْبَحَ نزلَا إليهِ، وقبَّلَا قدمَيهِ، وقالَا لهُ: «اعذُرْنَا إلَىٰ ربِّكَ، فإنَّا حلفْنَا لهُ، فقالَ: ما أعذرَنِي لكُمَا وأرضَانِي لحُكْمِ اللهِ فِيَّ»، ثمَّ أتيَا بهِ إلىٰ الحَجَّاجِ، فاغتسلَ وغسلَ ثيابَهُ، وتطهَّرَ قبلَ أنْ يدخلَ، قالَ لهُ الحجَّاجُ: مَا اسمُكَ؟ قالَ: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، قالَ: بلْ أنتَ شقيُّ بنُ كُسَيرٍ، قالَ: أمِّي أعلمُ باسمِي الَّتِي سمَّتْنِي منكَ، ولمْ يزَلْ يسألُهُ عنِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعنْ أبِي بكرٍ وعمرَ والخلفاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهوَ يُثْنِي عليهِمْ، حتَّىٰ وصلَ إلىٰ زمانِهِ، فقالَ فيهِمْ ما يعرفُ، فقالَ: «واللهِ لأقتلنَّكَ قِتلَةً ما قتلتُ بها أحدًا قبلَكَ»، فقالَ: اخترْ لنفسِكَ، ثمَّ دعَا بنطعٍ، وقالَ: اطرحُوهُ بالأرضِ، فقالَ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، فقالَ: حوِّلُوهُ إلىٰ غيرِ القبلَةِ، فقالَ سعيدٌ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، فقالَ: اذبحُوا عدوَّ اللهِ، فقالَ سعيدٌ: اللَّهمَّ لَا تسلِّطْهُ علىٰ أحدٍ بَعْدِي[(٣)]، فمِنْ ذلكَ

---

(١) في تحرير ألفاظ التنبيه ص١٨٨: «القسي ـ بكسر القاف والسين وتشديد الياء ـ: جمع قوس، ويجمع أيضا علىٰ: أقواس».
وفي دستور العلماء ٥١/٣: «القِسِي: المنسوب إلىٰ القوس التي هي قطعة من محيطة الدائرة».

(٢) في الأصل: فيذهبا، والصواب المثبت.

(٣) قال الطبري: «فلم يلبث بعده إلا نحوًا من أربعين يومًا، فكان إذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع ثوبه، فيقول: يا عدو الله لم قتلتني؟» تاريخه ٢٥/٤.

الوقتِ صارَ يُغْشَىٰ عليهِ، وكلَّمَا غلقَ عينَيه رأىٰ سعيدًا يطعنُهُ برمحٍ فيقولُ: «ما لِي ولسعيدِ بنِ جُبيرٍ»[١].

فطُلِبَ هذَا الشَّخصُ، وهوَ أبو عاصمٍ وكانَ صاحبَ كرامةٍ، وكانَ مستخفيًا فِي بيتِهِ بالبصرةِ، فلمَّا دخلَ الرُّسلُ لبيتِهِ يطلبونَهُ علِمَ اللهُ كراهتَهُ لذلِكَ وضرورتَهُ، فأحسَّ بدفعةٍ فِي ظهرِهِ، وإذَا هوَ بـ(أبِي قُبيسٍ) بمكَّةَ، وهذِهِ كَرَامَةُ الطَّيرانِ فِي الهَوَاءِ، وقدْ تقدَّمَ ذكرُنا[٢] لهَا وأنَّ أبَا بكرٍ البهاوِيَّ الرَّجلَ الصَّالحَ رأَىٰ مَنْ طارَ فِي الهواءِ فِي قرافةِ مصرَ حتَّىٰ عدَّىٰ مِئذَنةَ (جامعِ ابنِ طولُونَ).

فقِيلَ لأبِي عاصمٍ: «**ماذَا كنتَ تأكلُ طولَ إقامتِكَ فِي جبلِ أبِي قُبَيْسٍ، فقالَ: كانَتْ عجوزٌ تأتِينِي وقتَ إفطارِي بالرَّغيفَينِ اللَّذَينِ كنتُ آكلُهُمَا بالبصرةِ**»، وهذِهِ كرامةٌ أخرَىٰ؛ لأنَّ ظاهرَ حالِهِ وهذَا الكلامَ يدلُّ علىٰ أنَّ الرَّغيفينِ اللَّذينِ كانَا يأكلُهُمَا فِي دارِهِ، ويكونُ خرقَ عادةٍ فِي وصولِهِمَا كلَّ ليلةٍ علَىٰ يدِ ولِيٍّ أوْ وليَّةٍ، فقالَ عبدُ الواحدِ عنِ العجوزِ الَّتِي كانَتْ تأتيهِ: «**هِيَ الدُّنيَا**».

وقَدْ يكونُ غلبَ علَىٰ قلبِ عبدِ الواحدِ أنَّهُمَا رغيفَانِ [٣/٤٢ب] يأتيهِ اللهُ بهِمَا وقتَ حاجتِهِ، وليسَ هُمَا الرَّغيفانِ اللَّذانِ[٣] فِي دارِهِ، ويكونُ حظُّهُ منَ الدُّنيَا كلَّ يومٍ رغيفانِ، فلذلِكَ قالَ: «الدُّنيَا»، والظَّاهرُ ما تقدَّمَ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقِيلَ**[٥]**: كَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ يَأْخُذُ عَطَاءَهُ، وَلَا يَسْتَقْبِلُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَعْطَاهُ شَيْئًا، فَكَانَ إِذَا أَتَىٰ مَنْزِلَهُ رَمَىٰ إِلَيْهِ بِالدَّرَاهِمِ، وَيَكُونُ**

---

(١) انظر: الإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢/٢٢٠، والمحن ص٢٤١، وتهذيب الكمال ١٠/٣٧٤.

(٢) الدلالة ٣/٥٤٦.

(٣) في الأصل: اللذين، والصواب المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٠.

(٥) ورد في: تهذيب الأسرار ص٣٦٤، وحدائق الحقائق ص١٦٩.

بِمِقْدَارِ مَا أَخَذَهُ لَمْ يَنْقُصْ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وهكذَا عَنْ مطرِّفِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ، وذلكَ أنَّهُمَا كانَا يأخذانِ عطاءَهُمَا مِنْ بيتِ المالِ فِي كلِّ شهرٍ، ويأتِي كلُّ واحدٍ منهُمَا إلىٰ منزِلِهِ، فلَا يلقاهُمَا فقيرٌ إلَّا أعْطيَاهُ ممَّا معَهُمَا، فإذَا وصلَا إلىٰ منزلِهِمَا رميَاهَا إلَىٰ أهلِهِمَا، فيعدُّونَهُ فلَا ينقصُ شيئًا، أَوْ يزنونَهُ فلا ينقصُ شيئًا.

قالَ الرَّاوِي: «فلا أدْرِي كانَتِ الدَّراهمُ يومئذٍ وزْنًا أوْ عددًا؟»، وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ كرامةُ نزولِ البركةِ فِي المالِ الحلالِ الَّذِي معَ الصَّالحِينَ، وأنَّهُ لا ينقصُ بالصَّدقةِ، كمَا جاءَ فِي الخبَرِ.

وقَدْ تقدَّمَ أنَّا رأيْنَا مَنْ كانَ ينفقُ علىٰ بعضِ الصَّالحينَ ويحسبُ الدَّراهمَ الَّتِي كانَ ينفقُهَا بالنِّسبةِ إلَىٰ ما كانَ معَهُ فيجدُهَا زادَتْ زيادةً بيِّنَةً.

وقَدْ يطرحُ اللهُ البركَةَ فِي الطَّعامِ وغيرِهِ، كمَا قالَتْ عائشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا[(١)]: «تُوفِّيَ رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليسَ فِي بيتِي إلَّا شطرُ شَعَيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فأكلتُ منهُ زمانًا ولمْ يفرغْ حتَّىٰ طالَ عليَّ، فكِلتُهُ ففنِيَ».

وكذلِكَ العُكَّةُ[(٢)] الَّتِي دفعَهَا النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعضِ النِّساءِ وأمرَهَا ألَّا تفرغَهَا، وتأخذَ منهَا وتُطعمَ أولادَهَا، فمكثَ عندَهَا سنينَ حتَّىٰ تلِفَتْ فِي بعضِ الغزواتِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **«سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الشِّيْرَازِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا أَحْمَدَ الكَبِيرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ ابْنَ خَفِيفٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرٍو**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١١٢٩ ـ حديث رقم (٢٩٣٠).

(٢) في مختار الصحاح ص١٨٨: «العكة ـ بالضم ـ: آنية السَّمن». وانظر: العين ١/٦٦.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٠.

الزَّجَّاجِيَّ يَقُولُ(١): دَخَلْتُ عَلَى الجُنَيْدِ وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ إِلَى الحَجِّ، فَأَعْطَانِي دِرْهَمًا صَحِيحًا، فَشَدَدْتُهُ عَلَى مِئْزَرِي، فَلَمْ أَدْخُلْ مَنْزِلًا إِلَّا وَجَدْتُ رُفَقَاءَ، وَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى الدَّرَاهِمِ، فَلَمَّا حَجَجْتُ وَرَجَعْتُ إِلَى بَغْدَادَ دَخَلْتُ عَلَى الجُنَيْدِ فَمَدَّ يَدَهُ، وَقَالَ: هَاتِ [٣/١٤٣أ]، فَنَاوَلْتُهُ الدِّرْهَمَ، فَقَالَ: كَيْفَ كَانَ؟ فَقُلْتُ كَانَ الحَتْمُ نَافِذًا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علَى أنَّ الجُنيدَ لمَّا سمعَ أنَّهُ يمضِي إلَى الحجِّ وليسَ معَهُ شيءٌ دعَا لهُ بأنْ يلطفَ اللهُ بهِ ولَا يحوجَهُ إلَى أحدٍ، ثمَّ ناولَهُ درهمًا كانَ عندَهُ، ففعلَ ما يمكنُهُ، ودعَا لهُ بقريحةٍ، قالَ أبو عمروٍ: «ما دخلتُ موضِعًا ولا قريةً ولا منزِلًا إلَّا وجدْتُ فيهِ رفقاءَ، ولَا أحتاجُ إلَى الدِّرهمِ، فلمَّا حججْتُ ورجعْتُ إلى بغدادَ دخلتُ علَى الجُنيدِ لأسلِّمَ عليهِ، فلمَّا رآنِي مدَّ يدَهُ إليَّ وقالَ: هاتِ، فَناولْتُهُ الدِّرهمَ الَّذِي أَعْطَانيهِ، ثمَّ قالَ لِي: كيفَ وجدتَ الحالَ؟ أيْ: ما الَّذِي جرَى لكَ؟ فقلتُ: كانَ الحتمُ(٢) نافذًا»، يعنِي: حُسْنَ همَّتِكَ(٣)، وبركةَ دعائِكَ.

وهذا يدلُّ علَى مكاشفةِ الجُنيدِ مِنْ أنَّ الدِّرهمَ لمْ يحتجْ إليهِ، وأنَّهُ معَهُ حتَّى أتَى، ولذلِكَ مدَّ يدَهُ إليهِ وقالَ: «هاتِ الدِّرهمَ».

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «وَحُكِيَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الأَعْوَرِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ذِي النُّونِ المِصْرِيِّ، فَتَذَاكَرْنَا حَدِيثَ طَاعَةِ الأَشْيَاءِ لِلأَوْلِيَاءِ، فَقَالَ ذُو النُّونِ(٥): مِنَ الطَّاعَةِ أَنْ تَقُولَ لِهَذَا السَّرِيرِ يَدُورُ فِي أَرْبَعِ زَوَايَا البَيْتِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ

(١) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٣٣٦، وجامع كرامات الأولياء ٢/١٠.

(٢) أي: الأمر.

(٣) أي: ماضيًا بحسن همتك.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٠.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٧١.

فَيَفْعَلُ، قَالَ: فَدَارَ السَّرِيرُ فِي أَرْبَعِ زَوَايَا الْبَيْتِ وَعَادَ إِلَىٰ مَكَانِهِ، وَكَانَ هُنَاكَ شَابٌّ فَأَخَذَ يَبْكِي حَتَّىٰ مَاتَ فِي الْوَقْتِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ إنَّمَا قالَهُ ذُو النُّونِ لوجودِ منكرٍ لذلكَ ومخالِفٍ فيهِ، فأرادَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ أنْ يبيِّنَ لذلِكَ المنكِرِ صحَّةَ هذِهِ القصَّةِ، وكانَتْ أيضًا سببَ موتِ هذَا الشَّابِّ الَّذِي رآهَا لمْ يَحْتَملْهَا قلبُهُ، ودورانُ السَّريرِ فِي أركانِ البيتِ مِنْ غيرِ أنْ يُرَىٰ مَنْ يُديرُهُ قَدْ يديرُهُ[1] وليٌّ أوْ جنيٌّ ولا يراهُ أحدٌ منَ الحاضرِينَ.

وقدْ يخلقُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي الجمادِ حَرَكَاتٍ وانتقالًا؛ لأنَّهَا أعراضٌ تنتقلُ بهَا كمَا تنتقلُ الجَواهرُ، وهذَا كلُّهُ جائزٌ.

وموضعُ الكرامةِ جريانُهُ علَىٰ وفقِ ما ادَّعَىٰ، والفاعلُ ذلكَ علىٰ الحقيقةِ هوَ اللهُ، فإنَّهُ القادرُ علىٰ مَا يشاءُ[2].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَقِيلَ: إِنَّ وَاصِلًا الأَحْدَبَ[4] قَرَأَ: [٣/٤٣ب] ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فَقَالَ[5]: رِزْقِي فِي السَّمَاءِ وَأَنَا أَطْلُبُهُ فِي الأَرْضِ! وَاللهِ لَا طَلَبْتُهُ أَبَدًا، فَدَخَلَ خَرِبَةً وَمَكَثَ يَوْمَيْنِ فَلَمْ يَظْهَرْ لَهُ شَيْءٌ، فَاشْتَدَّ

---

(١) في الأصل: يدير، والأصح المثبت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٠٤.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٤١.

(٤) هو: واصل بن حيان الأحدب الأسدي الكوفي، روىٰ عن أبي وائل، والمعرور بن سويد، وثقة ابن معين، وتوفي سنة عشرين ومائة.
انظر في ترجمته: الوافي بالوفيات ٢٧/٢٤٥، والعبر ١/١٥٢.

(٥) ورد قوله في: تفسير الطبري ٢٦/٢٠٥، والثعلبي ٩/١١٤، والقرطبي ١٧/٤١، وتهذيب الأسرار ص٣٧٠.

عَلَيهِ ، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الثَّالِثُ إِذَا بِدَوْخَلَّةٍ[١] مِنْ رُطَبٍ ، وَكَانَ لَهُ أَخٌ أَحْسَنُ مِنْهُ نِيَّةً فَصَارَ مَعَهُ ، فَإِذَا قَدْ صَارَ دَوْخَلَّتَيْنِ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ حَالَهُمَا حَتَّىٰ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا المَوْتُ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الشَّخصَ لمَّا سمِعَ الآيةَ أثَّرتْ فِي قلبِهِ أثرًا عظيمًا حتَّىٰ فعلَ مَا فعلَ ، وإلَّا فلَا فرقَ بينَ السَّماءِ والأرضِ مِنْ تيسيرِ الرِّزقِ ؛ إذْ لا فاعلَ غيرُ اللهِ ، وقدْ قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: **«ما أعرفُ فِي السَّماءِ رِزْقًا إلَّا المطرَ»**[٢] .

ودخولُ هذَا الشَّخصِ فِي خربةٍ وانتظارُ الفرجِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وإنْ كانَ غيرُهُ أكملَ[٣] ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عنْ ناقةٍ: هَلْ يعقلُهَا ويتوكَّلُ علىٰ اللهِ أوْ يتركُهَا ويتوكلُ ؟ فأخبَرَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـ«أنْ يعقلَهَا ويتوكَّلَ»[٤] .

وفيهِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ الكسبَ لا يناقضُ التَّوكُّلَ ، وقدْ تقدَّمَتِ الحكايةُ[٥] فِي القومِ الَّذينَ أتَوا إلَىٰ الجُنيدِ وسألُوهُ أيطلبونَ[٦] الرِّزقَ؟ فقالَ لهُمْ: «إنْ عرفتُمْ موضعَهُ فاطلبُوهُ» ، قالُوا: فندخلُ البيتَ ونتوكَّلُ ، فقالَ: «التَّجربةُ شكٌّ» .

ويكونُ هذَا الشَّخصُ لمَّا علِمَ اللهُ صِدْقَ نيَّتِهِ ، وانقطاعَ قلبِهِ إليهِ ، وإعراضَهُ

---

(١) هي الخوص المنسوج الذي يوضع فيه الرطب .

(٢) يعني: المطر فيه أرزاق العباد. انظر: تفسير ابن زمنيين ٤/١٢٧ ، وزاد المسير ٧/٢١٠ ، وتنوير المقباس ص٣٩٣ .

(٣) أي: دخوله لينتظر الفرج من الله دلالة علىٰ توكله من غير تعاطي كسب ، وأكمل منه ذلك مع تعاطي الكسب . انظر: إحكام الدلالة ٢/١٠٠٥ .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٦٦٨ ، وابن حبان في صحيحه ٢/٥١٠ .

(٥) الدلالة ٢/٤٨٨ .

(٦) في الأصل: أيطلبوا ، والصواب المثبت .

عَنْ غيرِهِ لطُفَ بهِ، وسخَّرَ لهُ مَنْ يُعينُهُ علىٰ مقصودِهِ؛ وهوَ أخوهُ، ومَجِيءُ الرُّطبِ هوَ سُنَّةُ اللهِ فِي الرِّزقِ الَّذِي يأتِي بغيرِ سببٍ، كمَا جرَىٰ لمريمَ وللرَّاكبِ الَّذِي كانَ يسيرُ علَىٰ نَهْرٍ (تيرٍ) فِي أيَّامِ غيوضِ الماءِ، وجاعَ جوعًا شَدِيدًا، فَبينَمَا هوَ يدعُو اللهَ، فإذَا بهفيفِ شيءٍ خَلْفَهُ، فالتفَتَ فإذَا هوَ بَسَبتٍ مَلْفُوف فيهِ دَوْخَلَّةٌ فيهَا رطبٌ، فأكلَ منهُ وأتَىٰ بالسَّبتِ إلىٰ أهلِهِ، فكانَتْ تُوريهِ للنَّاسِ إلىٰ أَنْ يُشْرِقَ[1] بعدَ زَمَانٍ، وكانَ فِي الرُّطبِ فائدةٌ وسرٌّ من حيثُ الاغتذاءِ بهِ والفضيلةِ.

وقيلَ: لَوْ كانَ شيءٌ أفضلَ منهُ لأطعَمَهُ اللهُ مريمَ، وهو عندَ أهلِ المدينةِ، وقَدْ قالَتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي روايةِ عروةَ عنهَا[2]: «كُنَّا نَمْكُثُ مِنَ الهِلَالِ إِلَىٰ الهِلَالِ إِلَىٰ الهِلَالِ شَهْرَينِ فِي ثَلَاثِ [٣/٤٤أ] أَهِلَّةٍ مَا يُوقَدُ فِي أَبْيَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارًا، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ، مَا كَانَ يُعَيِّشُكُم[3]؟ قَالَتْ: الأَسْوَدَانِ: المَاءُ وَالتَّمْرُ».

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: **«وَقَالَ بَعْضُهُمْ[5]: أَشْرَفْتُ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَهُوَ فِي بُسْتَانٍ يَحْفَظُهُ وَقَدْ أَخَذَهُ النَّوْمُ، وَإِذَا حَيَّةٌ فِي فِيهَا طَاقَةُ نَرْجِسٍ تُرَوِّحُهُ بِهَا».**

۞ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ أعظمُ دليلٍ علَىٰ أنَّ الوَلِيَّ تَخدمُهُ سائِرُ الحيواناتِ، ويُسَخِّرُ اللهُ لهُ كثيرًا منَ المخلوقاتِ، ويصرفُ عنهُ جميعَ مَا يُؤذِيهِ منَ الحيواناتِ المُؤذِيَاتِ، وذلكَ أنَّ الحيَّةَ يقتلُهَا المُحْرِمُ؛ لكثرةِ أذيَّتِهَا للنَّاسِ،

---

(١) أي: يأتي أوان الرطب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٩٠٧ ـ حديث رقم (٢٤٢٨)، ومسلم في صحيحه ٤/٢٢٨٤ ـ حديث رقم (٢٩٧٢).

(٣) قال العيني: «.. (يعيشكم) ـ بضم الياء ـ؛ من أعاشه الله تعالىٰ عيشة. وقال النووي: بفتح العين وكسر الياء المشددة» عمدة القاري ١٣/١٢٧.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٤١.

(٥) ورد في: الزهد والرقائق للخطيب البغدادي ص١٢٨، وتهذيب الأسرار ص٣٧٠، وتاريخ دمشق ٦/٣١٨، وصفة الصفوة ٤/١٥٧.

فرآهَا هذَا الرَّجلُ فِي فمِهَا طاقةُ نرجسٍ تروحُ بهَا علَىٰ وجهِ إبراهيمَ وهوَ نائمٌ، وما عسَىٰ يحصلُ منَ الطَّاقةِ منَ الرِّيحِ، ولكنْ يحصلُ لهُ مِنْ رائحتِهَا بعضُ ما ينتفعُ.

والفائدةُ العظيمةُ: تسخيرُ هذَا الحيوانِ المُؤذِي لخدمةِ هذا الوليِّ؛ ليعرفَ النَّاظرُ شَرفَ الأولياءِ عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ويَجِدَّ فِي سُلُوكِ طريقِهِم، ويتخلَّقَ بأخلاقِهِم[(١)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «**وَقِيلَ**[(٣)]: **كَانَ جَمَاعَةٌ مَعَ أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيِّ فِي السَّفَرِ، فَأَعْيَاهُمْ طَلَبُ المَاءِ، فَقَالَ أَيُّوبُ: أَتَسْتُرُونَ عَلَيَّ مَا عِشْتُ؟! فَقَالُوا: نَعَمْ، فَدَوَّرَ دَائِرَةً، فَنَبَعَ المَاءُ، قَالَ: فَشَرِبْنَا، فَلَمَّا دَخَلْنَا البَصْرَةَ أَخْبَرَ بِهِ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، فَقَالَ عَبْدُ الوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ: شَهِدْتُ [مَعَهُ]**[(٤)] **ذَلِكَ اليَوْمَ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ يدلُّ علَىٰ أنَّ الأولياءَ يستُرُونَ ما بينَهُمْ وبينَ اللهِ منَ الكراماتِ، ولَا يُظهرونَهَا إلَّا لدعاءِ الحاجةِ إليهَا، وبعدَ ذلكَ يؤكِّدُونَ فِي سترِهَا[(٥)]، وقدْ يظهرُونَهَا لمَنِ الغالبُ علَىٰ ظنِّهِمْ أنَّهُ ينتفعُ بهَا، ويسلكُ طريقَهُمْ ويقتدِي بآثارِهِمْ، ولذلِكَ قالَ أيُّوبُ للجماعةِ: «**تسترونَ عليَّ ما عِشْتُ، فلمَّا قالُوا: نعَمْ**»، فعلَ ذلكَ، فهوَ منَ العلماءِ العُدُولِ مِنْ رجالِ (مسلمٍ[(٦)]، والبخاريِّ[(٧)])، وممَّنْ روَىٰ عنهُ مالكُ بنُ أنسٍ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٠٥.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٤١.

(٣) ورد في: تهذيب الأسرار ص٣٧٠، والروض الفائق في المواعظ والرقائق ص١٣٠، وجامع كرامات الأولياء ١/٤٩٠.

(٤) زيادة من (ف)، وتتمة من الرسالة القشيرية ٢/٥٤١.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٠٦.

(٦) انظر: رجال مسلم ١/٦٢.

(٧) انظر: رجال صحيح البخاري ١/٨١، ١٩٩.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ(٢): كُنَّا مَعَ ذِي النُّونِ المِصْرِيِّ فِي البَادِيَةِ، فَنَزَلْنَا تَحْتَ شَجَرَةٍ [٣/٤٤ب] مِنْ (أُمِّ غَيلَانَ)(٣)، فَقُلْنَا: مَا أَطْيَبَ هَذَا المَوْضِعَ لَوْ كَانَ فِيهِ رُطَبٌ! فَتَبَسَّمَ ذُو النُّونِ وَقَالَ: تَشْتَهُونَ الرُّطَبَ؟ وَحَرَّكَ شَجَرَةً وَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكِ بِالَّذِي ابْتَدَأَكِ وَخَلَقَكِ شَجَرَةً إِلَّا نَثَرْتِ عَلَيْنَا رُطَبًا جَنِيًّا، ثُمَّ حَرَّكَهَا فَنَثَرَتْ رُطَبًا، فَأَكَلْنَا وَشَبِعْنَا، ثُمَّ نِمْنَا فَانْتَبَهْنَا وَحَرَّكْنَا الشَّجَرَةَ، فَنَثَرَتْ عَلَيْنَا شَوْكًا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَوضِعُ الكَرَامةِ: خلقُ الرُّطبِ مِنْ شجرةٍ ليسَتْ بنخلةٍ، وإنَّمَا ألقَاهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ إكرامًا للطَّائفةِ الَّتِي كانَتْ معَ ذِي النُّونِ، وإظهارًا لكرامتِهِ عندَ اللهِ، واستجابةً لدعائِهِ(٤)، لا جرَمَ أنَّهُمْ لمَّا استيقظُوا فحرَّكُوهَا نثَرَتْ شَوْكًا(٥).

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٦): «وَحُكِيَ عَنْ أَبِي القَاسِمِ بْنِ مَرْوَانَ النَّهَاوَنْدِيِّ قَالَ(٧): كُنْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ الوَرَّاقُ مَعَ أَبِي سَعِيدٍ الخَرَّازِ نَمْشِي عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ نَحْوَ (صَيْدَاءَ)(٨)، فَرَأَىٰ شَخْصًا مِنْ بَعِيدٍ، فَقَالَ: اجْلِسُوا لَا يَخْلُو هَذَا مِنْ أَنْ يَكُونَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٤١.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٦٩.

(٣) أم غيلان: شجرة من عضاة البادية، كثيرة الشّول. انظر: العين ٣/١٦٩، والنهاية لابن الأثير ٣/٢٥٥.

(٤) في الأصل: دعائه، والصواب المثبت.

(٥) من شوكها المتَّصفة به.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٥٤١.

(٧) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٦٨، وتتمته فيه: «ثم التفت إلينا، فقال إخواني: لا تُنْكِرُوا شيئًا وارجعوا إلىٰ قريتكم»، وجامع كرامات الأولياء ٢/٤٥١.

(٨) هي: مدينة علىٰ ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور، تُمَد وتُقْصَر. انظر: معجم البلدان ٣/٤٣٧.

وَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ.

قَالَ: فَمَا لَبِثْنَا أَنْ جَاءَ شَابٌّ حَسَنُ الوَجْهِ وَمَعَهُ رَكْوَةٌ، وَمَعَهُ مِحْبَرَةٌ، وَعَلَيْهِ مُرَقَّعَةٌ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ أَبُو سَعِيدٍ مُنْكِرًا عَلَيْهِ لِحَمْلِهِ المِحْبَرَةَ مَعَ الرَّكْوَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا فَتَىٰ، كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَعْرِفُ إِلَىٰ اللهِ طَرِيقَيْنِ؛ طَرِيقًا خَاصًّا وَطَرِيقًا عَامًّا، فَأَمَّا الطَّرِيقُ العَامُّ فَالَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الطَّرِيقُ الخَاصُّ فَهَلُمَّ، ثُمَّ مَشَىٰ عَلَىٰ المَاءِ حَتَّىٰ غَابَ عَنْ أَعْيُنِنَا، فَبَقِيَ أَبُو سَعِيدٍ حَيْرَانَ مِمَّا رَأَىٰ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ سُنَّةُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ مع أوليائِهِ أَنْ يُؤَدِّبَهُمْ مِمَّنْ هوَ دونَهُمْ فِي السِّنِّ، أَوْ فِي الذُّكورةِ والأنوثةِ، كما تقدَّمَ(١) فِي المرأةِ الَّتي أخذَتِ الدَّنانيرَ منَ الغيبِ، والشَّخصِ الآخرِ الَّذِي قالَ(٢): «هَلْ عندَكُمْ مكانٌ نظيفٌ يموتُ الإنسانُ فيهِ؟»، والمرأةِ الَّتِي مشَتْ خطواتٍ وقالَتْ: «هَا أَنَا متُّ».

وأبُو سعيدٍ هذَا لمَّا كانَ معَ أصحابِهِ فِي الصَّحراءِ رأَىٰ شخصًا مِنْ بعيدٍ قالَ لأصحابِهِ: «**اجلسُوا قَدْ يكونُ هذَا منَ الأولياءِ، فجلسُوا فَمَا كانَ إلَّا قليلًا حتَّىٰ وصلَ إليهِمُ الشَّخصُ فإذَا هوَ شابٌّ، جميلُ** [٣/١٤٥أ] **الصُّورةِ، ومعَهُ محبرةٌ وركوةٌ**»، كأنَّ أبا سعيدٍ وجدَ فِي نفسِهِ مِنْ حمْلِ المحبَرَةِ مَا يجدُهُ المُريدُونَ مِنْ بعضِ الفقهاءِ، وكونِهُمْ لمْ ينالُوا منَ الحقائقِ مَا نالَهُ المُريدُونَ، فسأَلَهُ علَىٰ وجهِ الامتحانِ ـ واللهُ أعلمُ ـ ليعلمَ ما عندَهُ، فقالَ لهُ: «**كيفَ الطَّريقُ إلىٰ اللهِ؟**»، فأجرَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ لسانِ الشَّابِّ كلامًا فيهِ أكملُ الأدبِ، ثمَّ أردفَهُ بمشيهِ علىٰ المَاءِ، فكانَ لأبِي سعيدٍ مِنْ ذلِكَ العجبُ، فقالَ لهُ: «**أعرفُ طَرِيقَينِ، طَرِيقًا للعَامَّةِ، وطَرِيقًا للخَاصَّةِ**».

(١) الدلالة ٢/٤٨٤. وانظر: الروض الفائق ص١٩٦.

(٢) هو قول ممشاذ الدينوري. انظر: مناقب الأبرار ٢/٦١٧.

ويعنِي بالعَامَّةِ: عامَّةَ الصَّالحين والمريدِينَ الَّذينَ هُمْ معَ الأسفارِ، وتعلُّمِ الأخلاقِ، وإصلاحِ القُلُوبِ، وتحقيقِ التَّوكُّلِ والإخلاصِ والرِّضَا والتَّسليمِ.

وطريقًا خَاصًّا: وهُمْ قومٌ فرغُوا مِنْ إصلاحِ أنفسِهِمْ واشتغالِهِمْ بإصلاحِ أخلاقِهِمْ، والتَّمكُّنِ فِي مقامتِهِم، فصارَ شغلُهُمْ بمولاهُمْ لا شُغْلَ لهُمْ سِوَاهُ، قَدْ أعرضُوا عن حُظُوظِ أنفسِهِمْ فِي الدُّنيَا والآخرةِ سِوَاهُ، فحيثُ مَا شاءَ كانَ ما يَشَاءُونَ.

ولقَدْ أخبَرَنِي الشَّيخُ الفقيهُ أبو بكرٍ البهَاوِيُّ أنَّهُ اجتمعَ بالَّذِي رآهُ طائرًا فِي الهواءِ بعدَ ذلكَ بمدَّةٍ[١]، قالَ لِي وسألتُهُ: بأيِّ شيءٍ طارَ النَّاسُ فِي الهواءِ؟! فأبَىٰ عليَّ، فكرَّرْتُ عليهِ السُّؤالَ، فقلتُ: ما يضرُّكَ أنْ تعلِمَنِي فإنْ فتحَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بخيرٍ فكانَ لكَ فيهِ نصيبٌ، فقالَ لِي: إذَا اطَّلَعَ الرَّبُّ علىٰ القلبِ فلَمْ يجِدْ فيهِ التفاتًا للدُّنيَا ولا للآخرةِ وَدَّاكَ حيثُ ما شِئْتَ ـ يعنِي لِشَهَواتِهَا ـ، وإنَّمَا يكونُ هَمُّهُ اللهَ خاصَّةً، والطَّيرانُ فِي الهواءِ أتمُّ منَ المَشْيِ علىٰ الماءِ، فقدْ رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيلَ لهُ[٢]: «إنَّ عيسَىٰ بنَ مريمَ مشَىٰ علىٰ الماءِ فقالَ: لَوِ ازْدَادَ يَقِينًا لَمَشَىٰ عَلَىٰ الهَوَاءِ».

قالَ بعضُ النَّاسِ: أَشَارَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ حالتِهِ ليلةَ المعراجِ لمَّا فارقَهُ جبريلُ، وقالَ لهُ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤][٣].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: **«وَقَالَ الجُنَيْدُ[٥]: جِئْتُ مَسْجِدَ الشَّونِيزِيَّةِ، فَرَأَيْتُ**

---

(١) لم أقف عليه فيما مر، فلعله ورد فيما فقد.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٠٦ ـ ١٠٠٧.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٢.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٦٧، والمقصد الأسنىٰ في شرح الأسماء الحسنىٰ للدريني ص١١٢.

فِيهِ جَمَاعَةً مِنَ الفُقَرَاءِ يَتَكَلَّمُونَ فِي الآيَاتِ(١)، فَقَالَ فَقِيرٌ مِنْهُمْ: أَعْرِفُ رَجُلًا لَوْ قَالَ [٣/٤٥ب] **لِهَذِهِ الأُسْطُوَانَةِ: كُونِي ذَهَبًا نِصْفَكِ، وَفِضَّةً نِصْفَكِ كَانَتْ، قَالَ الجُنَيْدُ: فَنَظَرْتُ فَإِذَا الأُسْطُوَانَةُ نِصْفُهَا ذَهَبٌ وَنِصْفُهَا فِضَّةٌ»**.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الكرامةُ في حقِّ القائلِ فإنَّهُ الَّذِي قالَ: «**كُونِي نصفَكِ**» ورآهَا الجُنيدُ، قالَ وإنَّمَا سترَ نفسَهُ بقولِهِ: «**أعرفُ رجلًا لَوْ قالَ لهذهِ الأسطوانةِ**»، وهوَ يعرفُ نفسَهُ علىٰ التَّحقيقِ.

وفيهَا إظهارُ هذهِ الكرامةِ للجُنيدِ حتَّىٰ نقلَهَا عنهُ، ولا يلزمُ أنْ تبقَىٰ الأسطوانةُ نصفُهَا ذهبًا ونصفُهَا فضَّةً أبدًا، بَلْ تكونُ وقتَ سُؤالِهِ وقولِهِ خاصَّةً، ويعيدُهَا اللهُ - تعالىٰ - علَىٰ ما كانَتْ، فإنَّهَا أعراضٌ يُوالِيهَا اللهُ - تعالىٰ - علىٰ الجواهِرِ متَىٰ شَاءَ، وهيَ لا تبقَىٰ زَمَنَينِ، وإنْ أرادَ اللهُ بقاءَهَا والَاهَا، وإنْ لمْ يُرِدْ لمْ يخلُقْ شيئًا أوْ خلقَ الضدَّ، وهذَا كلُّهُ جائزٌ، وهوَ يفعلُ ما يشاءُ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«وَقِيلَ(٣): حَجَّ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ مَعَ شَيْبَانَ الرَّاعِي، فَعَرَضَ لَهُ سَبُعٌ، فَقَالَ سُفْيَانُ لِشَيْبَانَ: أَمَا تَرَىٰ هَذَا السَّبُعَ؟ فَقَالَ: لَا تَخَفْ، فَأَخَذَ شَيْبَانُ أُذُنَهُ فَعَرَكَهَا، فَبَصْبَصَ وَحَرَّكَ ذَنَبَهُ، فَقَالَ سُفْيَانُ: مَا هَذِهِ الشُّهْرَةُ؟ فَقَالَ: لَوْلَا مَخَافَةُ الشُّهْرَةِ لَمَا وَضَعْتُ زَادِي إِلَّا عَلَىٰ ظَهْرِهِ حَتَّىٰ آتِيَ مَكَّةَ»**.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أدلُّ دليلٍ علَىٰ أنَّ الكراماتِ إنَّما يُظهرُهَا الصَّالحونَ لأقرانِهِم وأصحابِهِم ومَنْ قاربَ درجتَهُم؛ ليقوَىٰ يقينُهُم، وتَرْتَفِعَ هِمَمُهُم، ولَا يكونُ فِي ذلكَ شُهْرَةٌ، وإنَّمَا الشُّهرةُ أنْ يُظهِرَ العبدُ الكراماتِ لمَنْ لا

---

(١) أي: الكرامات.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٢.

(٣) ورد في: تهذيب الأسرار ص٣٦٧، والمنتظم ٨/٢١٩، وصفة الصفوة ٤/٣٧٧، وحل الرموز ص٣٨٤.

يقتدِي بهِ، فيعرِّضَهُم إلىٰ الإنكارِ فيهلكُوا(١).

وقَدْ كَرِهَ العلماءُ أنْ يُظهِرَ العبدُ مِنْ أعمالِهِ ما يمكنُهُ أنْ يعملَهُ سِرًّا لغيرِ مَنْ لا يقتدِي بهِ، فإنَّ عملَ السِّرِّ يزيدُ علىٰ عَمَلِ العلانيةِ سبعينَ ضِعْفًا(٢)؛ إلَّا إذا أظهَرَهُ لمَنْ يقتدِي بهِ.

وقولُ شيبانَ: «لولا مَخافةُ الشُّهرةِ، وكَرَاهَتِي لهَا لحملتُ عليهِ زادِي إلىٰ مكَّةَ» يقرِّرُ ما قلنَاهُ، فإنَّهُ أظهرَهَا لسفيانَ [١٤٦/٣أ] ولمْ يُظهِرْهَا لغيرِهِ، فإنَّ غيرَهُ قدْ لا ينتفعُ ويتضرَّرُ بالإنكارِ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ(٣): «وَحُكِيَ(٤) أَنَّ السَّرِيَّ لَمَّا تَرَكَ التِّجَارَةَ كَانَتْ أُخْتُهُ تُنْفِقُ عَلَيهِ مِنْ ثَمَنِ غزْلِهَا، فَأَبْطَأَتْ يَوْمًا فَقَالَ لَهَا السَّرِيُّ: لِمَ أَبْطَأْتِ؟ فَقَالَتْ: لِأَنَّ غَزْلِي لَمْ يُشْتَرَ(٥)، وَذَكَرُوا أَنَّهُ مُخَلَّطٌ، فَامْتَنَعَ السَّرِيُّ عن طَعَامِهَا.

ثُمَّ إِنَّ أُخْتَهُ دَخلَتْ عَلَيهِ يَوْمًا فَرَأَتْ عَجُوزًا تَكْنُسُ بَيْتَهُ، وَتَحْمِلُ [إِلَيهِ](٦) كُلَّ يَوْمٍ رَغِيفَينِ، فَخَرَجَتْ(٧) أُخْتُهُ وَشَكَتْ إِلَىٰ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، فَقَالَ أَحْمَدُ لِلسَّرِيِّ فِيهِ(٨)، فَقَالَ: لَمَّا امْتَنَعْتُ مِنْ أَكْلِ طَعَامِهَا قَيَّضَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لِيَ الدُّنْيَا(٩) لِتُنْفِقَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٠٠٧/٢.

(٢) في حلية الأولياء ٢٦٤/١٠: «رویٰ في الخبر: من فضل عمل السر علىٰ عمل العلانية، وأن عمل السر يزيد علىٰ عمل العلانية سبعين ضعفًا»، وانظر: في تفضيل عمل السر علىٰ عمل العلانية: مقاصد الرعاية لحقوق الله ص١٠١.

(٣) الرسالة القشيرية ٥٤٢/٢.

(٤) وردت حكايته في: تهذيب الأسرار ص٣٦٧، وجامع كرامات الأولياء ٧٤/٢.

(٥) في الأصل: يشترىٰ، والصواب المثبت.

(٦) زيادة من (ف).

(٧) في (ف): «فحزنت».

(٨) أي: تكلَّم معه بسببه.

(٩) لأن الله لا يضيع عباده المحبين له، بل يرزقهم من حيث لا يحتسبون.

عَلَيَّ وَتَخْدِمَنِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ يدلُّ على كمالِ ورعِ السَّرِيِّ، وأنَّهُ يُراعِي فِي طعامِهِ أدنى خيالٍ(١)؛ لأنَّ قولَ أختِهِ: «مُخَلَّطٌ» لا يلزمُ أنْ يكونَ فيهِ تدليسٌ، ولا بُدَّ قَدْ يكونُ غليظًا ورقيقًا، فقلَّةُ رغبةِ المُشترِينَ فيهِ وهوَ كانَ يقصدُ غزْلَهَا لمعرفتِهِ بحلِّهِ، فلمَّا سمعَ (مخلَّطًا) توقَّفَ فيهِ وامتنعَ مِنْ أكْلِهِ، فتألَّمَتْ أختُهُ لذلكَ، وجاءَتْ إليهِ يومًا تسلِّمُ عليهِ فوجدَتْ عندَهُ «**عجوزًا تكنسُ بيتَهُ وقدْ جاءَتْ لهُ برغيفَينِ**»، فازدادَ ألمُهَا لذلِكَ، وذكرَتْ ما فِي نفسِهَا لأحمدَ بنِ حنبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فكلَّمَ أحمدُ السَّرِيَّ، فقالَ لهُ: «**لمَّا تركْتُ طعامَهَا آتانِي اللهُ بمَا يُحتاجُ إليهِ منْ حيثُ لا أحتسِبُ**».

وقولُهُ: «**الدُّنيَا تخدمُنِي، وتأتينِي برغيفَينِ**» سَتْرٌ للحالِ، فإنَّ الدُّنيَا عبارةٌ عَنْ هذهِ الدَّارِ، ورزقُهُ فيهَا هوَ الرغيفانِ، فآتاهُ اللهُ ـ تعالى ـ مِنْ مالِ الدُّنيَا برغيفَينِ، وهيَ خدمةٌ لهُ سخَّرَ لهُ فيهِمَا مَنْ شاءَ مِنْ أوليائِهِ، ويكونُ إظهارُ اللهِ ـ تعالى ـ ذلكَ لأُختِهِ في صُورةِ امرأةٍ؛ ليسكنَ قلبُهَا، وتعلَمَ أنَّ اللهَ لَمْ يضيِّعْ أخاهَا، وتأكَّدَ ذلكَ عندَهَا بجوابِهِ لأحمدَ ـ رضِيَ اللهُ عنهُمْ أجمعينَ ـ.

۞ **قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ هَارُونَ قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ القَاسِمِ الخَوَّاصُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الطُّوسِيُّ قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَنْصُورٍ الطُّوسِيُّ قَالَ(٣): كُنْتُ عِنْدَ أَبِي مَحْفُوظٍ مَعْرُوفٍ الكَرْخِيِّ، فَدَعَا لِي، وَرَجَعْتُ إِلَيْهِ مِنَ الغَدِ وَفِي وَجْهِهِ أَثَرٌ، فَقَالَ لَهُ إِنْسَانٌ: يَا أَبَا مَحْفُوظٍ،** [٣/٤٦ب] **كُنَّا**

---

(١) أي: لتخيله من ذلك أن فيه غشًّا.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٢.

(٣) ورد قوله في: تاريخ بغداد ١٣/٢٠٢، ومنتقى مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار ص٥٩.

عِنْدَكَ بِالأَمْسِ وَلَمْ يَكُنْ بِوَجْهِكَ هَذَا الأَثَرُ، فَمَا هَذَا؟ فَقَالَ: سَلْ عَمَّا يَعْنِيكَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: بِمَعْبُودِكَ أَنْ تَقُولَ، فَقَالَ: صَلَّيْتُ البَارِحَةَ هَاهُنَا، وَاشْتَهَيْتُ أَنْ أَطُوفَ بِالبَيْتِ، فَمَضَيْتُ إِلَىٰ مَكَّةَ وَطُفْتُ، ثُمَّ مِلْتُ إِلَىٰ زَمْزَمَ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَزَلَقْتُ عَلَىٰ البَابِ فَأَصَابَ وَجْهِي مَا تَرَاهُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ كرامةُ طيِّ الأرضِ، وكانَ سببُ إظهارِهَا هذَا الجرحَ الَّذِي بوجهِهِ وإلَّا فمعروفٌ الكرخيُّ كانَ مِنْ أعظمِ النَّاسِ كراماتٍ وأكثرِهِم بركاتٍ، حتَّىٰ كانَ قبرُهُ تِرْيَاقَ مجرَّبٍ، مَنْ أخذَ منهُ شيئًا عُوفِيَ[(١)]، وهذَا الرَّاوِي قالَ: «كنتُ عندَهُ بالأمسِ» فسلَّمْتُ عليهِ ورجعْتُ إلىٰ دارِي وعُدْتُ إليهِ ثانِي يومٍ، وإذَا بالأثرِ في وجهِهِ، فسألَهُ عنهُ بعضُ الحاضرِينَ فقالَ لهُ: «**سَلْ عمَّا يَعْنِيكَ**».

وفِي هذَا إشارةٌ إلىٰ مَا قدَّمْنَا مِنْ أنَّهُمْ لا يحبُّونَ إظهارَ الكراماتِ إلَّا لمَنْ ينتفعُ بهَا، أوْ يكونُ منكِرًا علَىٰ أربابِهَا، ولمَّا أقسمَ عليهِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ ليُخبِرَنَّهُ، فراعَىٰ قَسَمَ اللهِ وأخبَرَهُ بالسَّببِ علىٰ وجهِهِ، وإلَّا كانَ يمكنُهُ ألَّا يجيبَهُ، ولكنَّهُ لمَّا أقسمَ عليهِ أجَلَّ المُقْسَمَ بهِ.

❊ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: «وَقِيلَ: كَانَ عُتْبَةُ الغُلَامُ يَقْعُدُ فَيَقُولُ: يَا وَرَشَانُ[(٣)]، إِنْ كُنْتَ أَطْوَعَ للهِ ـ تعالىٰ ـ مِنِّي فَتَعَالَ اقعُدْ عَلَىٰ كَتِفِي[(٤)]، فَيَجِيءُ الوَرَشَانُ وَيَقْعُدُ عَلَىٰ كَتِفِهِ[(٥)]».

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٠٨ ـ ١٠٠٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٢.

(٣) هو طائر يشبه الحمامة. انظر: المحكم «ورش»، وحياة الحيوان ٢/٥٣٨.

(٤) في (ف): كفي.

(٥) في (ف): كفه.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا فيهِ إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ مِنْ أنَّ الأشياءَ يجعلُها الحقُّ تطيعُ الوليَّ فيمَا أشارَ إليهِ.

وقولُهُ: «**يا ورشانُ، إنْ كنتَ أطوعَ للهِ ـ تعالى ـ منِّي، فتعالَ فاجلِسْ على كَتِفِي**» سترًا لحالِهِ، فكانَ الورشانُ إنَّمَا أتَى لكونِهِ أقسمَ عليهِ ليسَ لكرامتِهِ هوَ، وهيَ كرامةٌ لهُ فِي كونِهِ يدعُو بعضَ الحيوانِ فيجيبُهُ لمَا طلبَهُ منهُ، وهذا هوَ موضعُ خَرْقِ العادةِ أنْ يكونَ الطَّيرُ يُجِيبُ السُّؤالَ، وإنَّمَا يُجرِي اللهُ ـ تعالى ـ ذلكَ أمارةً ليُعْرَفَ قدرُ الدَّاعِي ومنزلتُهُ عندَ اللهِ، وقدْ سخَّرَ اللهُ الطَّيرَ لسليمانَ بنِ داودَ ـ صلواتُ اللهِ [٣/١٤٧أ] على نبيِّنا وعليهِما ـ وقضيَّتُهُ معَ الهدهدِ وسؤالُهُ وجَوابُهُ في قولِهِ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ﴾ [النمل: ٢٣] الآية.

هذا كلُّهُ مِنْ بَابِ خَوارقِ العَادَاتِ مِنْ فَهْمِ الكَلامِ، واستخدامِ الحيوانِ بالأمرِ والنَّهيِ، هذَا جميعُهُ مِنْ بابِ خَرْقِ العَادَاتِ، بخلافِ استخدامِهِم وتسخيرِهِم بالقَهْرِ فإنَّهُ يكونُ منَ الوليِّ وغَيْرِهِ.

وقَدْ أخبرَنِي مَنْ أثقُ بهِ أنَّهُ رأى الفقيهَ مالكًا رَحِمَهُ اللَّهُ في غَرْبِيِّ الثَّغْرِ وعصفورًا نزلَ علَى يدِهِ، وجلسَ ساعةً ولمْ ينفرْ، فتعجَّبَ منهُ الرَّائِي، قالَ لهُ: هذِهِ عادتُهُ ربَّمَا رأى ملكًا لا يتحرَّكُ، فيجلسُ على يدِهِ كمَا يجلسُ على الحجرِ وغيرِهِ منَ الجَمَادَاتِ.

❊ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «**وَحُكِيَ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ الرَّازِي أَنَّهُ قَالَ(٢): مَرَرْتُ يَوْمًا عَلَى (الفُرَاتِ)، فَعَرَضَتْ فِي نَفْسِي شَهْوَةُ السَّمكِ الطَّرِيِّ، فَإِذَا المَاءُ قَدْ قَذَفَ سَمَكَةً نَحْوِي(٣)، وَإِذَا رَجُلٌ يَعْدُو وَيَقُولُ: نَشْوِيهَا لَكَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَشَوَاهَا،**

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٣.
(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ١/٣٦٦ ـ ٣٦٧، وجامع كرامات الأولياء ١/٣٧٩.
(٣) أي: جهتي.

فَقَعَدْتُ وَأَكَلْتُهَا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا إنَّمَا كانَ كرامةً لكونِ الحُوْتِ قَفَزَ منَ الماءِ إلىٰ البَرِّ عندَ خطورِ هذا الخاطِرِ، وإلَّا فأكثرُ الأوقاتِ يَقفزُ السَّمكُ منَ الماءِ ويتعالَىٰ، وربَّمَا مسكَهُ النَّاسُ كثيرًا علَىٰ البَرِّ بأيديهِم، والَّذِي يعضدُ كونَهُ كرامةً كونُ هذا الرَّجلِ أتاهُ يجرِي ليشوِيَهَا لهُ وشوَاهَا.

فهذا وجهُ كونِهَا كرامةً لَا مِنْ حيثُ كونُهَا شَهْوةً، ودلَّ أنَّهُ كانَ محتاجًا إلىٰ الأكلِ علىٰ الجُملةِ وأرادَ أنْ يطعمَهُ حلالًا بلَا سببٍ مِنْ جهتِهِ ولَا اصطيادٍ، فحرَّكَ السَّمكةَ إلىٰ أنْ قفزَتْ إلىٰ البَرِّ، فسخَّرَ مَنْ شَوَاهَا لهُ، هذَا كلُّهُ إكرامٌ ولُطفٌ منَ اللهِ - تعالىٰ - بأوليائِهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَقِيلَ(٢): كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ فِي رُفْقَةٍ، فَعَرَضَ لَهُمُ السَّبُعُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، قَدْ عَرَضَ لَنَا السَّبُعُ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: يَا أَسَدُ، إِنْ كُنْتَ أُمِرْتَ فِينَا بِشَيْءٍ فَامْضِ، وَإِلَّا فَارْجِعْ، فَرَجَعَ الأَسَدُ وَمَضَوْا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أيضًا مِنْ جِنْسِ ما جرَىٰ لسفيانَ الثَّوريِّ معَ شيبانَ، واللهُ - تعالىٰ - هوَ الَّذِي يُذلِّلُ السِّباعَ ويشلِّيهَا، وهوَ الَّذِي يحرِّكُهَا [٣/٤٧ب] ويؤدِّبُهَا إذْ لا فعلَ لغيرِهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَقَالَ حَامِدٌ الأَسْوَدُ(٤): كُنْتُ مَعَ الخَوَّاصِ فِي البَرِّيَّةِ، فَبِتْنَا عِنْدَ شَجَرَةٍ، وَجَاءَ السَّبُعُ، فَصَعَدْتُ الشَّجَرَةَ(٥) إِلَىٰ الصَّبَاحِ لَا يَأْخُذُنِي

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٣.

(٢) سبق تخريجه، وانظر: تهذيب الأسرار ص٣٦٦.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٣.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٦٦.

(٥) أي: خوفًا منه.

النَّوْمُ ، وَنَامَ إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ وَالسَّبُعُ يَشُمُّهُ مِنْ رَأْسِهِ إِلَىٰ قَدَمِهِ ، ثُمَّ مَضَىٰ.

فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ بِتْنَا فِي مَسْجِدٍ فِي قَرْيَةٍ ، فَوَقَعَتْ بَقَّةٌ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، فَضَرَبْتُهُ ، فَأَنَّ أَنَّةً[١] ، فَقُلْتُ: هَذَا عَجَبٌ! البَارِحَةَ لَمْ تَفْزَعْ مِنَ الأَسَدِ ، وَاللَّيْلَةَ تَضِجُّ مِنَ البَقِّ ؟ فَقَالَ: أَمَّا البَارِحَةُ فَتِلْكَ حَالَةٌ كُنْتُ فِيهَا بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ ، وَأَمَّا اللَّيْلَةُ فَهَذِهِ حَالَةٌ أَنَا فِيهَا بِنَفْسِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «كُنْتُ فيهَا باللهِ» ، أيْ: كاملَ الشُّغلِ بهِ ، والذِّكرِ والمُناجاةِ حتَّىٰ لَمْ ألتفتْ لغيرِهِ بالكليَّةِ ، وفِي اللَّيلةِ الثَّانيةِ كانَ فاقدًا للحالِ الَّذِي كانَ فيهِ ، أَوْ لا يرجعُ إلىٰ نفسِهِ وأحسَّ بأدنَىٰ أَلَمٍ[٢].

وأمَّا نَومُهُ مع معرفتِهِ بالسَّبعِ ، فيدلُّ علَىٰ كَمَالِ يقينِهِ وعدمِ خوفِهِ من غيرِ ربِّهِ ، فإنَّهُ لو خافَ منَ السَّبعِ تعذَّرَ عليهِ نومُهُ ، كمَا جرَىٰ لِصَاحبِهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَحُكِيَ[٤] عَنْ عَطَاءٍ الأَزْرَقِ أَنَّهُ دَفَعَتِ امْرَأَتُهُ إِلَيهِ دِرْهَمَينِ مِنْ ثَمَنِ غَزْلِهَا لِيَشْتَرِيَ الدَّقِيقَ لَهُمْ ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فَلَقِيَ خَادِمَةً[٥] تَبْكِي ، فَقَالَ: مَا بَالُكِ ؟ فَقَالَتْ: دَفَعَ إِلَيَّ مَوْلَايَ دِرْهَمَينِ أَشْتَرِي لَهُ شَيْئًا فَسَقَطَتْ مِنِّي ، فَأَخَافُ أَنْ يَضْرِبَنِي ، فَدَفَعَ عَطَاءٌ الدِّرْهَمَينِ إِلَيهَا ، وَمَرَّ وَقَعَدَ عَلَىٰ حَانُوتِ صَدِيقٍ لَهُ مِمَّنْ يَشُقُّ السَّاجَ ، وَذَكَرَ لَهُ الحَالَ وَمَا يَخَافُ مِنْ سُوءِ خُلُقِ امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: خُذْ مِنْ هَذِهِ النِّشَارَةِ فِي هَذَا الجِرَابِ لَعَلَّكُمْ تَنْتَفِعُونَ فِيهَا فِي سَجْرِ التَّنُّورِ[٦] ؛ إِذْ لَيسَ

---

(١) أي: ضج من قرصتها ضجةً.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠١٠.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٣.

(٤) وردت في: تهذيب الأسرار ص٣٦٦.

(٥) في الأصل: خادمًا ، والأصح المثبت.

(٦) أي: في حَميه.

يُسَاعِدُنِي الإِمْكَانُ فِي شَيْءٍ آخَرَ، فَحَمَلَ النِّشَارَةَ [فِي جِرَابِهِ][(١)]، وَفَتَحَ بَابَ دَارِهِ، وَرَمَىٰ بِالجِرَابِ، وَرَدَّ البَابَ، وَدَخَلَ المَسْجِدَ إِلَىٰ مَا بَعْدَ العَتَمَةِ[(٢)]؛ لِيَكُونَ النَّوْمُ [قَدْ][(٣)] أَخَذَهُمْ وَلَا تَسْتَطِيلَ عَلَيهِ المَرْأَةُ، فَلَمَّا فَتَحَ البَابَ وَجَدَهُمْ يَخْبِزُونَ الخُبْزَ، فَقَالَ لَهُمْ: مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا الخُبْزُ؟ فَقَالُوا: مِنَ الدَّقِيقِ الَّذِي [كان][(٤)] فِي الجِرَابِ، لَا تَشْتَرِ مِنْ غَيرِ هَذَا الدَّقِيقِ، فَقَالَ: أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٣/١٤٨أ]: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ ممَّا تقدَّمَ مِنْ قلبِ الأعيانِ للأولياءِ، وصيرورةِ السَّاريةِ ذهبًا وفضَّةً، وكذلِكَ هذهِ النِّشارةُ عادَتْ دقيقًا طيِّبًا، وقدْ تقدَّمَتِ الحكايةُ[(٥)] عنِ الشَّخصِ الَّذِي ملأَ بُرمَتَهُ منَ البحرِ وعضَّدَهَا بالرَّملِ، الذي نقلَهَا أبُو الحسنِ عليُّ بْنُ إبراهيمَ، وجاءَ إليهِ وهوَ يأكلُ، فأكَلَ معَهُ سميدًا طيِّبًا.

وقدْ ذكرَ أنَّ بعضَهُمْ قالَ: كنتُ في زمانِ الحرِّ أدخُلُ إلىٰ زمزمَ وأستريحُ فِي بعضِ الزَّوايَا، فلمَّا كانَ فِي ذهابِ زمانٍ كثيرٍ منَ اللَّيلِ دخلَ رجلٌ ملفوفٌ بعباءةٍ، فرفعَ الدَّلوَ وشرِبَ، فقمتُ لأشربَ فِي أثَرِهِ، فإذَا هوَ سويقٌ بِسُكَّرٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، فتعجَّبْتُ ورقبتُهُ ليلةً أُخرَىٰ، فرأيتُهُ دخلَ فِي الوقتِ ورمَىٰ الدَّلوَ فِي البئرِ ورفعَهُ وشربَ وتركَهُ، فَذُقْتُهُ فَوجَدْتُّهُ كذلِكَ، فلحقتُهُ فسألتُهُ بالَّذِي أعطاهُ هذهِ المنزلةَ مَنْ هوَ؟ فقالَ: تستُرُهُ؟ فقلتُ: نعَمْ، فقالَ: سفيانُ بنُ سعيدٍ الثَّوْرِيُّ، فاللهُ ـ تعالىٰ ـ هوَ الخَالِقُ لِكُلِّ شَيءٍ مِنْ سَائرِ الجَوَاهِرِ والأَعْرَاضِ.

(١) زيادة من (ف).
(٢) أي: العشاء.
(٣) زيادة من (ف).
(٤) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية.
(٥) الدلالة ٣/٥٤٨.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرِ بْنَ بَرَكَاتٍ يَقُولُ(٢): كُنْتُ أُجَالِسُ الفُقَرَاءَ، فَفُتِحَ عَلَيَّ بِدِينَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْفَعَهُ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي: لَعَلِّي أَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَهَاجَ بِي وَجَعُ الضِّرْسِ، فَقَلَعْتُ سِنًّا، فَوُجِعَتِ الأُخْرَىٰ حَتَّىٰ قَلَعْتُهَا، فَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ إِنْ لَمْ تَدْفَعْ إِلَيْهِمُ الدِّينَارَ لَا يَبْقَىٰ فِي فِيكَ سِنٌّ وَاحِدَةٌ.

قَالَ الأُسْتَاذُ: وَهَذَا فِي بَابِ الكَرَامَةِ أَتَمُّ مِنْ أَنْ كَانَ يُفْتَحُ إِلَيْهِ دَنَانِيرُ كَثِيرَةٌ بِنَقْضِ العَادَةِ».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ السَّلامةَ مِنَ الآثامِ في نظَرِ الشَّرعِ آكدُ مِنْ فعْلِ الطَّاعةِ، وهذا قد جلَسَ معَ الفقراءِ وتوالَتْ صحبتُهُمْ لهُ، وربَّمَا فُتحَ عليهِ بالدُّنيَا فإنَّهُ مِنْ جِهَتِهِم وشأنُهُمْ مَا فُتحَ لبعضِهِمْ كانَ للجماعةِ، فإذَا عزمَ علَىٰ ألَّا يعطيَهُمْ مَا تعلَّقَ بهِ حقُّهُمْ وقعَ فِي الإثمِ بالعَزْمِ، فنبَّهَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ وأكرَمَهُ حتَّىٰ تخلَّصَ مِنْ إثمِ الفعلِ، ولذلِكَ قلعَ لهُ بعضَ مَا [٣/٤٨ب] ينتفعُ بهِ، وبقِيَ لهُ البعضُ مِنْ أسنانِهِ لمَّا أخَلَّ بتقوَاهُ في العزمِ، وذهبَ لهُ بعضُ أسنانِهِ، فقيلَ لهُ: إنَّهُ [إنْ](٣) لمْ يقُمْ بهِ ذهبَ الكلُّ، ولهذَا قَالَ الإِمَامُ القُشيرِيُّ: «**كرامةُ الحفظِ منَ الزَّللِ أحسنُ مِنْ كثيرٍ منَ العَمَلِ**».

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٤): «وَحَكَىٰ أَبُو سُلَيْمَانَ قَالَ(٥): خَرَجَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ إِلَىٰ الشَّامِ وَمَعَهُ رَكْوَةٌ، إِذَا شَاءَ صَبَّ مِنْهَا مَاءً يَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ، وَإِذَا شَاءَ صَبَّ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٤.
(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٢١/٣٦.
(٣) تتمة يقتضيها المقام.
(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٤.
(٥) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص١٧١، وجامع كرامات الأولياء ٢/١١٤.

مِنْهَا لَبَنًا يَشْرَبُهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ممَّا تقدَّمَ ذكرُهُ لسفيانَ، والَّذِي يطلعُ مِنْ زمزمَ يشربُهُ بعضُ النَّاسِ ماءً، وبعضُهُمْ سويقًا بسُكَّرٍ، واللهُ الفاعِلُ لمَا يشاءُ، وعامرُ بنُ عبدِ قيسٍ مِنْ كبارِ المسلِمينَ وأشدِّهِمْ مراقبةً لمولَاهُ، وأبعدِهِمْ خوْفًا ممَّنْ سوَاهُ.

ولقدْ حُكِيَ أنَّهُ نزلَ واديًا يُعرَفُ بوادِي السِّباعِ، فوجدَ فيهِ رجلًا يُسمَّى حَمَمةَ، فبقِيَا يعبدانِ اللهَ ـ تعالىٰ ـ شهرًا، كلُّ واحدٍ فِي جهةٍ منَ الوادِي لا يكلِّمُ صاحِبَهُ، وإنَّمَا يجتمعانِ لأداءِ الفريضَةِ، ثمَّ سألَ عامرُ بنُ عبدِ قيسٍ حَمَمَةَ عنِ اسمِهِ فأخبَرَهُ، ثمَّ سألَهُ عمَّا أفادَتْهُ هذهِ العبادةُ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فقالَ حممةُ: رزقنِي اللهُ مِنْ لذَّةِ السُّجُودِ بينَ يدَيهِ بحيثُ إنَّهُ لولَا الفرائضُ ما رفَعْتُ وجهِي منَ الأرضِ، ثمَّ سألَ حممةُ عامرًا عنِ اسمِهِ فأخبَرَهُ، وقالَ لهُ: ما الَّذِي أفادَتْكَ هذهِ العبادةُ؟ قالَ عامرٌ: قد هِبْتُ اللهَ مهابةً حتَّىٰ لا أهابُ غيرَهُ، قالَ: فمَا استتَمَّ كلامَهُ إلَّا وسبُعٌ جاءَ مِنْ خلفِهِ، ووضعَ يدَيهِ علىٰ كتفَيهِ وهوَ ينفخُ فِي قَفَاهُ، وعامرٌ يقرأُ القُرآنَ، فمَا التفتَ إليهِ، ولا تغيَّرَتْ قِرَاءتُهُ، وبَقِيَ مستمِرًّا علىٰ حَالِهِ، ثمَّ نزعَ السَّبُعُ يدَيهِ ومَضىٰ.

فأرادَ الحقُّ ـ سبحانه ـ أَنْ يُرِيَ حممةَ حالَ عامرٍ، وأنَّهُ لا يهابُ غيرَهُ، وهذَا عامرٌ هوَ صاحبُ الرِّكوةِ الَّتِي كانَ يشربُ منهَا ماءً، وتارةً لبنًا، وتارةً يتوضَّأُ، كلُّ ذلكَ بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «وَرَوَىٰ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي العَاتِكَةِ قَالَ[2]: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فِي الرُّومِ، فَبَعَثَ الوَالِي سَرِيَّةً إِلَىٰ مَوْضِعٍ، وَجَعَلَ المِيعَادَ فِي يَوْمِ كَذَا، قَالَ: فَجَاءَ المِيعَادُ وَلَمْ تُقْبِلِ السَّرِيَّةُ، فَبَيْنَا أَبُو مُسْلِمٍ يُصَلِّي إِلَىٰ رُمْحِهِ الَّذِي رَكَزَهُ فِي

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٤.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٦٥، وتاريخ دمشق ٢٧/٢١٧.

الأَرْضِ جَاءَ طَيْرٌ إِلَىٰ رَأْسِ السِّنَانِ [١٤٩/٣أ] وَقَالَ: إِنَّ السَّرِيَّةَ قَدْ سَلِمَتْ وَغَنِمَتْ، وَسَيَرِدُونَ عَلَيكُمْ يَوْمَ كَذَا فِي وَقْتِ كَذَا.

فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ لِلطَّيْرِ: مَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللهُ؟ فَقَالَ: مُذْهِبُ الحُزْنِ عَنْ قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ، فَجَاءَ أَبُو مُسْلِمٍ إِلَىٰ الوَالِي وَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي قَالَ أَتَتِ السَّرِيَّةُ عَلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي قَالَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ ملكٌ منَ الملائكةِ، وأبو مسلمٍ ـ أظنُّهُ الخولانِيَّ؛ إنْ كانَ هوَ فهوَ صاحبُ كراماتٍ؛ حَرَقَهُ بِالنَّارِ العَنَسِيُّ كَمَا فُعِلَ بِإِبْرَاهِيمَ الخليلِ فلَمْ تضُرَّهُ(١)، فلمَّا لم تضرَّهُ النَّارُ نفَاهُ مِنْ أرضِهِ؛ لئلَّا يفسدَ عليهِ مَنِ اتَّبَعَهُ فِي الضَّلالِ، فوصلَ إلىٰ المدينةِ بعدَ مَوْتِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستخلافِ أبِي بكرٍ، فربطَ دابَّتَهُ، ودخلَ يُصلِّي فِي مسجدِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَصُرَ بِهِ عُمرُ بنُ الخطَّابِ فسلَّمَ عليهِ وقالَ: مَنِ الرَّجلُ؟ قالَ لهُ: مِنْ أهلِ اليمنِ، فقالَ: ما فعلَ الَّذِي حَرَقَهُ الكذَّابُ؟! قالَ: ذلكَ عبدُ اللهِ بنُ ثُوَبٍ، قالَ لهُ عمرُ: أنشدتُكَ باللهِ أأنتَ هوَ؟ قالَ: اللَّهُمَّ نعَمْ، وهذِهِ مِنْ فراسةِ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاعتنقَهُ وقبَّلَ بينَ عينَيهِ، وأتَىٰ بهِ أبَا بكرٍ الصِّدِّيقَ، وأجلسَهُ بينَهُ وبينَهُ وقالَ: «الحمدُ للهِ الَّذِي لمْ يُمِتْنَا حتَّىٰ أرانَا فِي أمَّةِ محمَّدٍ مَنْ فُعِلَ بهِ كمَا فُعِلَ بإبراهيمَ خليلِ الرَّحمنِ»، وسَافَرَ معَ أصحابِهِ في غُزاةٍ حالَ بينَهُ وبينَ الكفَّارِ البحرُ، فضرَبَ فرسَهُ وخاضَ البحرَ هوَ والعسكرُ علىٰ وجهِ الماءِ، فهذِهِ كرامةٌ أخرَىٰ(٢).

وكانَ إذَا أتَىٰ بيتَهُ كبَّرَ علَىٰ بابِ دَارِهِ، فتُكبِّرُ زوجتُهُ معَهُ، وإذَا وصلَ إلىٰ وسطِ دارِهِ كبَّرَ فتجيبُهُ زوجتُهُ، فإذَا وصلَ إلىٰ بابِ بيتِهِ كبَّرَ فتجيبُهُ زوجتُهُ، فدخلَ يومًا فكبَّرَ ولمْ تكبِّرْ، فإذَا هيَ مُنكَّسةُ الرَّأسِ حزينةٌ، فسألَهَا عَنْ حالِهَا قالَتْ: «أنتَ

---

(١) سبق تخريج ذلك.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٠١٢/٢.

قريبٌ منَ السُّلطانِ ولكَ جاهٌ، فلَوْ قبلْتَ منهُمْ وأخذتَ اتَّسعْنَا»، فقالَ: «اللَّهُمَّ مَنْ خبَّبَ امرأتِي فأعمِ بصرَهُ»(١)، وكانَتْ دخلَتْ عندَهَا امرأةٌ فتحدَّثَتْ معَهَا فِي شيءٍ مِنْ هذَا، فبينَمَا المرأةُ فِي بيتِهَا فِي اللَّيلِ وسراجُهَا يزهرُ عميَتْ، فسألَتْهُمْ هلِ انطفأَ السِّراجُ؟ فقالُوا: لَا، فقالَتْ: ما أُبصِرُ شيئًا فقالُوا: العمَىٰ ما يكونُ علىٰ هذا الوجْهِ إلَّا مِنْ سببٍ، انظُرِي ما الَّذِي [٤٩/٣ب] عملْتِ؟ فتفكَّرَتْ أنَّهَا تحدَّثَتْ معَ زوجتِهِ، فقالُوا: دعَا عليكِ فأدركِيهِ، فأتَتْ إليهِ ودخلَتْ وقالَتْ: تُبْتُ ولَا أعودُ إلىٰ هذَا أبدًا، فدعَا لهَا فأبصرَتْ(٢).

ومَنْ هذِهِ كراماتُهُ لَا يبعدُ أنْ يكلِّمَهُ الملَكُ في صُورةِ طيرٍ.

ولقَدْ أخبَرَنِي شيخٌ كبيرٌ مِنْ أصحابِ ابنِ حرازمٍ، وهوَ قريبٌ للشَّيخِ أبِي الحسنِ عليِّ بنِ إبراهيمَ البادلِيِّ أتَىٰ إلَىٰ (ثغرِ الإسكندريَّةِ) منَ (الحجازِ) وهوَ يريدُ السَّفرَ فِي المراكبِ، فتحدَّثْتُ معَهُ حتَّىٰ لا يسافرَ فِي الشِّتاءِ وفِي الوَسقِ الكثيرِ، فقالَ: ما يترُكنِي اللهُ أنْ أقعَ فِي شيءٍ مِنْ هذَا، بَلْ يحفظُنِي، وأخبرُكَ عن قضيَّةٍ جرَتْ لِي بأنْ خرجْتُ مرَّةً إلىٰ (ثَغرِ الإسكندريَّةِ) إلىٰ الشَّيخِ أبِي الحسنِ بنِ إبراهيمَ، وأعلَمْتُهُ أنِّي أريدُ السَّفرَ فِي مراكبِ المغربِ، فبينَمَا هوَ وأنَا عندَهُ إذْ أتاهُ إنسانٌ منَ المتموِّلِينَ وأصحابِ المراكبِ، فقالَ لهُ: لِي إليكَ حاجةٌ تحملُ لِي عشرةَ أنفسٍ إلىٰ المغربِ؟ فقالَ: نعَمْ وكرامةً، فلمَّا جاءَ وقتُ السَّفرِ أتاهُ ذلكَ الرَّجلُ فقالَ: أينَ النَّفرُ العشرةُ؟ قالَ: فقالَ لهُ الشَّيخُ أبو الحسنِ: هذَا الشَّخصُ الواحدُ أكرِمْهُ لِي إكرامَ العشرةِ، قالَ: فأخذَنِي وهوَ فرِحٌ مَسْرُورٌ، فخرجْنَا إلَىٰ البحرِ والمركبُ موسوقٌ(٣) بالنَّاسِ، فأخذَ ذلكَ الرَّجلُ مركبًا صغيرًا، وطلعْتُ أنَا وهوَ

---

(١) انظر: ذم الهوىٰ ص٢٨٨.

(٢) انظر: كرامات الأولياء ص١٨٦.

(٣) أي: مشحون. انظر: عمدة القاري ٢٨٤/١٩.

إلىٰ المركبِ، وسبقَنِي فِي الطُّلوعِ ليُهَيِّئَ موضعًا، وكانَ المركبُ للرُّومِ، قالَ: فمسكْتُ بالحبلِ، وجعلتُ أطلعُ، قالَ: فضربَنِي الرُّومِيُّ الحارسُ، وقالَ لِي: إلىٰ أينَ؟ فلمَّا رأيتُ أنَّهُ كافرٌ ما احتملْتُ مَا فعلَهُ بِي، وقلتُ لصاحبِ القاربِ: ردَّنِي إلىٰ البرِّ، فقالَ: أخافُ مِنْ هذَا الَّذِي كانَ معَكَ، فقلتُ لهُ: إنْ لمْ تفعلْ وإلَّا رميتُ نفسِي فِي البحرِ، فمَا أَمْكَنَهُ إلَّا أنْ رجعَ بِي.

قالَ: فجئتُ للشَّيخِ ابنِ إبراهيمَ فأخبَرْتُهُ ذلكَ، وجاءَ الرَّجلُ ورائِي واعتذرَ أنَّهُ ما طلعَ للمركبِ إلَّا ليهيِّئَ لِي مكانًا، قالَ: فحفظَنِي اللهُ ـ تعالىٰ ـ منَ السَّفرِ معَ العدوِّ، وأنَا عندَ ابنِ إبراهيمَ جالسٌ بعدَ ذلكَ بيومٍ أوْ يومينِ وكانَ مركبٌ للمسلمِينَ قد سافَرَ للمغربِ، واختلفَ عليهِ الرِّيحُ، فرجعَ إلىٰ الثَّغرِ، فجاءَ رئيسُهُ ليُسلِّمَ علىٰ الشَّيخِ، وكانَ مسعودًا الحربِيَّ، فأوصاهُ الشَّيخُ علَيَّ وطلعْتُ معَهُ المركبَ وكنتُ معَهُ في الفرشةِ، قالَ: فخلَّىٰ عنهَا [٣/١٥٠أ] الرِّيح فِي بعضِ المَرَاسِي، فبقِيَ الرِّيحُ علينَا اثنَي عشرَ يومًا وقلقَ النَّاسُ، فبينَا أنَا نائمٌ في الفرشةِ، ومسعودٌ الحربيُّ إلىٰ جانِبِي نائمٌ إذْ رأيتُ فِي النَّومِ طائرًا قد وقفَ علىٰ رأسِ الصَّارِي[١]، وعيناهُ منْ ياقوتٍ، وأجنحتُهُ مِنْ ذهبٍ فِي صورةٍ ما رأيتُ أجملَ منهَا، فقالَ لِي: قُلْ لهؤلاءِ: أصحابِ المركبِ يرفعونَ مَرَاسِيهِم ويهيئونهَا فإنَّهُمْ مَا يحطُّونَ[٢] قلوعَهُمْ إلَّا بـ(المِنَسْتِيرِ)[٣]، والأمارةُ أنَّ هذَا الرِّيحَ يسكنُ عندَ طلوعِ الفجْرِ، ويخرجُ الرِّيحُ الموافقُ فِي طلوعِ الشَّمسِ، فقمتُ مُزعَجًا منَ النَّومِ، فقالَ لِي مسعودٌ: ما لكَ؟ فأخبَرْتُهُ، فقالَ للنواتيةِ[٤]: شَيلُوا المَراسِي، فلَمْ يسمعُوا، واستهزَأُوا بالرُّؤيَا، فلمَّا كانَ عندَ الفجرِ سكنَ الرِّيحُ، فلمَّا رأَوا بعضَ العلاماتِ قامُوا لشيلِ المراسِي فمَا

(١) عمود رأسي طويل يدعم الشراع.

(٢) في الأصل: يحطوا، والصواب المثبت.

(٣) المنستير: رباط مشهور علىٰ ساحل البحر بين القيروان وتونس. انظر: توضيح المشتبه ٨/٢٨٤.

(٤) أي: البحّارة.

قدرُوا على شيلِهَا إلَّا قرب طلوعِ الشَّمسِ، وجاءَ الرِّيحُ والفرجُ فمَا حطُّوا قُلُوعَهُمْ إلَّا بـ(المِنَستِيرِ).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَعَنْ بَعْضِهِمْ قَالَ(٢): كُنَّا فِي مَرْكِبٍ، فَمَاتَ رَجُلٌ كَانَ مَعَنَا عَلِيلٌ، فَأَخَذْنَا فِي جِهَازِهِ، وَأَرَدْنَا أَنْ نُلْقِيَهُ فِي البَحْرِ، فَصَارَ البَحْرُ جَافًّا، وَنَزَلَتِ(٣) السَّفِينَةُ، فَخَرَجْنَا فَحَفَرْنَا لَهُ قَبْرًا وَدَفَنَّاهُ، فَلَمَّا فَرَغْنَا اِسْتَوَى المَاءُ، وَارْتَفَعَ المَرْكِبُ، وَسِرْنَا(٤)».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ دلالةٌ على أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ أرادَ دفنَهُ فِي هذا المَوضعِ منَ الأرضِ، ولَمْ يُرِدْ أنْ تأكلَهُ دوابُّ البحرِ، فأجرَى هذَا الخارقَ بذهابِ الماءِ وحبْسِ السَّفينةِ علَى الأرضِ، فلمَّا حفرُوا لهُ ودفنُوهُ جاءَ الماءُ وارتفعَتِ السَّفينةُ، وسافرُوا، وهذَا كلُّهُ فِي وسطِ البحرِ، وإلَّا لَوْ كانَ في البرِّ بحيثُ يُوصَلُ إلى البَرِّ بغيرِ هذا الخارقِ لَمْ يكنْ في نقلِهِ أعجوبةٌ ـ واللهُ أعلمُ ـ.

وما أدرِي مَا وجهُ الكرامةِ في هذهِ القضيَّةِ لمَنْ؟ لأنِّي لا أدرِي أَلِدَفْنِهِ فضيلةٌ على رمْيِهِ فِي البحرِ؟! اللَّهمَّ إلَّا أنْ يكونَ المدفونُ فِي الأرضِ هوَ الَّذِي يوسَّعُ لهُ في قبْرِهِ سبعونَ ذراعًا، ويرَى الجنَّةَ والنَّارَ؛ ليعرِفَ ما صُرِفَ عنهُ وما أُعِدَّ لهُ، فيكونَ هذَا مَخْصُوصًا بالقبْرِ دونَ البَحْرِ، فيكونَ فيهِ كَرَامَةٌ.

وأيضًا: فإنَّ السُّنَّةَ الدَّفنُ لمَنْ قدرَ عليهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «وَقِيلَ(٦): إِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ بِالبَصْرَةِ،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٤.
(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٦٤، ونشر المحاسن الغالية ص٢٤.
(٣) في (ف): وتركت.
(٤) أي: إلى مقصدنا.
(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٥.
(٦) ورد في: تهذيب الأسرار ص٣٦٣، وبعضه في: حلية الأولياء ٦/١٥١، وتاريخ دمشق ١٢/٥٤.

فَاشْتَرَىٰ حَبِيبٌ العَجَمِيُّ طَعَامًا [٣/٥٠ب] بِالنَّسِيئَةِ، وَفَرَّقَهُ عَلَى المَسَاكِينِ، وَخَاطَ كِيسَهُ[١] تَحْتَ رَأْسِهِ، فَلَمَّا جَاءُوا يَتَقَاضَونَهُ أَخَذَهُ، وَإِذَا هُوَ مَمْلُوءٌ دَرَاهِمَ، فَقَضَىٰ مِنْهَا دُيُونَهُ[٢]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا فتحٌ من اللهِ ـ تعالىٰ ـ وقضاءُ ما اقترضَ لوجهِهِ؛ لأنَّهُ ـ تعالىٰ ـ ضَمِنَ لمَنِ اقترضَ شيئًا لوجهِهِ أنْ يقضِيَ عنهُ فِي الآخرةِ لِغُرَمَائِهِ، وقَدْ تقدَّمَتِ الحكايةُ[٣] عن مُمْشاذ الدِّينورِيِّ أنَّهُ قيلَ لهُ: «يا بخيلُ، عليكَ الأخذُ وعلينَا القَضاءُ» لمَّا اهتمَّ بمَا عليهِ منَ الدَّينِ لمَّا أخذُوهُ لوجوهِ البِرِّ.

وكانَ بعضُهُمْ مريضًا وعليهِ دَينٌ كثيرٌ سبعمائةِ دينارٍ وغرماؤُهُ عندَهُ؛ وهوَ أحمدُ بنُ خضرويهِ، فَفَتَحَ عَيْنَيهِ مِنْ بعضِ غشياتِهِ، وقالَ[٤]: «اللَّهُمَّ إنَّكَ جعلتَ الرُّهونَ وثائقَ لأربابِ الأموالِ، وأنَا وثيقتُهُم، فأنتَ تأخذُ الوثيقةَ، فاقضِ ديونَهُم»، فمَا استتَمَّ كلامَهُ إلَّا وداقٌّ يدقُّ البابَ وقالَ: «أينَ غرماءُ أحمدَ؟»، وقضاهُم ديونَهُم.

وهذا كلُّهُ راجعٌ إلىٰ صحَّةِ القَصْدِ، وحُسْنِ المُعَاملةِ بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقِيلَ[٦]: أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ أَنْ يَرْكَبَ السَّفِينَةَ، فَأَبَوا إِلَّا أَنْ يُعْطِيَهُمْ دِينَارًا، فَصَلَّىٰ عَلَى الشَّطِّ رَكْعَتَينِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ قَدْ سَأَلُونِي مَا لَيسَ عِنْدِي، فَصَارَ الرَّمْلُ دَنَانِيرَ بَيْنَ يَدَيهِ».

---

(١) في (ف): كيسًا وجعله.

(٢) في (ف)، والرسالة القشيرية: ديونهم.

(٣) الدلالة ٢/٤٩٥.

(٤) الدلالة ١/٣٠٠. وانظر: مناقب الأبرار ٢/٢٩١، وتهذيب الأسرار ص٥٤٧.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٥.

(٦) ورد في: تهذيب الأسرار ص٣٦٤.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ إجابةِ الدُّعاءِ عندَ الاضْطِرَارِ والحاجةِ.

وقد كانَ عندِي شابٌّ مِنْ أهلِ المغربِ، وكانَ يُسمَّىٰ موسَىٰ، كانَ مِنْ أهلِ الخيرِ، وكانَتْ تطرقُهُ أحوالٌ خارجةٌ، وربَّمَا أُدْخِلَ المارستَانَ فِي بعضِ الأوقاتِ؛ لِمَا غلبَ عليهِ منَ الحالِ وصحَّ واستقامَ حالُهُ، فأرادَ فِي شرقِيِّ الثَّغرِ أنْ يتزوَّجَ بامرأةٍ، ورغبُوا فيهِ لدينِهِ، ورغبَ فيهِم، واستقَرَّ بينَهُمْ أربعةُ دنانيرَ مصريَّةٍ، فلَا أدرِي عُقِدَ العَقْدُ علىٰ ذلِكَ أوْ لمْ يُعْقَدْ بعدُ؟

قالَ لِي: بقيتُ مهموماً فِي الجهةِ الَّتِي أتسبَّبُ منهَا فِي الأربعةِ دنانيرَ، فبينَمَا أنَا جالسٌ قيلَ لِي: اُخرُجْ مِنْ بابِ (رَشِيد) واعطفْ لجهةِ (القمشةِ) ـ كنيسةِ النَّصارَىٰ ـ.

قالَ: وتكرَّرَ ذلكَ علَيَّ مرَّةً أُخرَىٰ، فخرجتُ وعطفْتُ إلىٰ جهةِ (القمشةِ)، فوجدْتُ دنانيرَ مطروحةً فِي الطَّريقِ كثيرةً، فأخذْتُ منهَا أربعةَ دنانيرَ لَا غيرَ.

وهذَا ـ واللهُ أعلَمُ ـ خرقُ عادةٍ؛ لأنَّهُ بِتَنْبيهٍ منَ الحقِّ، وإنِ احتملَ أنْ [٣/١٥١أ] يكونَ سقطَ مِنْ أحَدٍ، والدَّليلُ علىٰ صِدْقِهِ كونُهُ لمْ يأخُذْ إلَّا مقدارَ حاجتِهِ خَاصَّةً.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ الصُّوفِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ الفُضَيْلِ**[٢]**، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ المَرْوَزِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو حَمْزَةَ نُصَيرُ بْنُ الفَرَجِ ـ خَادِمُ أَبِي مُعَاوِيَةَ الأَسْوَدِ ـ، قَالَ**[٣]**: كَانَ أَبُو مُعَاوِيَةَ ذَهَبَ بَصَرُهُ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ [فِي المُصْحَفِ]**[٤]

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٥.

(٢) في (ف): الفضل، والصواب المثبت.

(٣) ورد قوله في: كرامات الأولياء ص٢٣٥، وتاريخ دمشق ٦٧/٢٤٣، وجامع كرامات الأولياء ١/٣٨٩.

(٤) زيادة من (ف).

نَشَرَ المُصْحَفَ، فَيَرُدُّ اللهُ عَلَيهِ بَصَرَهُ، فَإِذَا أَطْبَقَ المُصْحَفَ ذَهَبَ بَصَرُهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ كرامةٌ؛ فإنَّ القراءةَ فِي المصحفِ فيهَا زيادةُ أجرٍ على القراءةِ منَ الصَّدرِ خاصَّةً؛ لاستعمالِ أكثرِ الأعضاءِ.

ولقدْ أدركْتُ رجُلًا بـ(قِنَا) كانَ يُعلِّمُ الصِّبيانَ، وكانَ فِي أُذُنيهِ ثِقَلٌ، إذَا حُدِّثَ الحديثَ استعادَهُ مِرارًا منَ المحدِّثِ لكيَ يفهمَهُ، فيقرأُ عليهِ الصِّبيانُ اثنانِ اثنانِ أحزابَهُمَا، وهوَ يصحِّحُ فِي الألواحِ ولا يغلطُ أحدٌ منهُمَا إلَّا يردُّ عليهِ، وهذَا عونٌ منَ اللهِ ـ تعالى ـ وحِفظٌ لهُ.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ الهَيْثَمِ المُتَطَبِّبُ[٢]: قَالَ لِي بِشْرٌ الحَافِي: قُلْ لِمَعْرُوفٍ الكَرْخِيِّ: إِذَا صَلَّيْتُ جِئْتُكَ، قَالَ: فَأَدَّيْتُ الرِّسَالَةَ، وَانْتَظَرْتُ، فَصَلَّيْنَا الظُّهْرَ وَلَمْ يَجِئْ، ثُمَّ صَلَّيْنَا العَصْرَ وَلَمْ يَجِئْ، ثُمَّ المَغْرِبَ، ثُمَّ العِشَاءَ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: سُبْحَانَ اللهِ! مِثْلُ بِشْرٍ يَقُولُ شَيْئًا ثُمَّ لَا يَفْعَلُ؟! لَا يَجُوزُ أَلَّا يَفْعَلَ، فَانْتَظَرْتُهُ وَأَنَا عَلَى سَطْحِ المَسْجِدِ عَلَى مَشْرَعَةٍ[٣]، فَجَاءَ بِشْرٌ بَعْدَ هُوِيٍّ مِنَ اللَّيْلِ وَعَلَى رَأْسِهِ سِجَّادَةٌ، فَتَقَدَّمَ إِلَى (الدِّجْلَةِ) وَمَشَى عَلَى المَاءِ، وَعَبَرَ، وَتَحدَّثَ[٤]، ثُمَّ جَاءَ وَقْتُ السَّحَرِ وَعَبَرَ عَلَى وَجْهِ المَاءِ، فَرَمَيْتُ بِنَفْسِي مِنَ السَّطْحِ، وَقَبَّلْتُ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَقُلْتُ: اُدْعُ اللهَ لِي، فَدَعَا، وَقَالَ: اسْتُرْهُ عَلَيَّ، قَالَ: فَلَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَذَا حَتَّى مَاتَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ كرامةُ المَشْيِ على الماءِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٥.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٣٧٧.

(٣) أي: موردَة الشاربة.

(٤) في (ف): وتحدثنا.

وقولُهُ: «**إذَا صلَّيتُ أتيتُكَ**»، وكانَتْ نيَّتُهُ العشاءَ الآخرةَ ومَا بعدَهَا ومَا عادتُهُ أنْ يصلِّيَهُ، وظنَّ الرَّسولُ إلىٰ معروفٍ أنَّهُ أرادَ أوَّلَ صلاةٍ تجِبُ عليهِ وهيَ الظُّهرُ [٣/٥١ب]، فلذلِكَ لمَّا صلَّاهَا ومَا بعدَهَا منَ الصَّلواتِ بقِيَ متعجِّبًا مِنْ كونِ بِشْرٍ يخلفُ الوعدَ ولَا يُوَفِّي(١)، فلمَّا جاءَ بعدَ هَوِيٍّ منَ اللَّيلِ(٢)، ومشَىٰ علَىٰ الماءِ إلىٰ معروفٍ، وتحدَّثَ معَهُ، ورجعَ علَىٰ الماءِ، فرمَىٰ هذَا بنفسِهِ إلىٰ بشرٍ، وقبَّلَ رِجْلَيهِ ويدَيهِ، وسألَهُ أنْ يدعوَ لهُ لمَّا أساءَ بهِ الظَّنَّ فدعَا لهُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الشِّيرَازِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو الفَرَجِ الوَرَثَانِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ يَعْقُوبَ بِدِمَشْقَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ قَالَ: سَمِعْتُ قَاسِمًا الجُوعِيَّ(٤) قَالَ(٥): رَأَيْتُ رَجُلًا فِي الطَّوَافِ لَا يَزِيدُ عَلَىٰ قَوْلِهِ: إِلَهِي، قَضَيْتَ حَوَائِجَ الكُلِّ وَلَمْ تَقْضِ حَاجَتِي، فَقُلْتُ: مَا لَكَ لَا تَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا الدُّعَاءِ؟!**

فَقَالَ: أُحَدِّثُكَ، اِعْلَمْ أَنَّا كُنَّا سَبْعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ بلْدَانٍ شَتَّىٰ، فَخَرَجْنَا إِلَىٰ الغَزَاةِ، فَأَسَرَنَا(٦) الرُّومُ وَمَضَوا بِنَا لِنُقْتَلَ، فَرَأَيْتُ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ [فُتِحَتْ](٧) مِنَ السَّمَاءِ، وَعَلَىٰ كُلِّ بَابٍ جَارِيَةٌ حَسْنَاءُ مِنَ الحُورِ العِينِ، فَقُدِّمَ وَاحِدٌ مِنَّا فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠١٤.

(٢) في الجمهرة ١/٢٥١: «مرَّ هَوِي من الليل، أي: قطعة منه».

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٥ ـ ٥٤٦.

(٤) في الأصل: الخزاعي، وكذا اللفظ الذي يليه، والصواب المثبت كما في مظان تخريج قوله، وهو: القاسم بن عثمان الجُوعي الدمشقي، شيخ الصوفية ورفيق أحمد بن أبي الحواري.
انظر في ترجمته: حلية الأولياء ٩/٣٢٢، وسير أعلام النبلاء ١٢/٧٧، واللباب في تهذيب الأنساب ١/٣١١.

(٥) ورد قوله في: شعب الإيمان ٤/٥٧، وتاريخ دمشق ٣٧/٢٠٨، وصفة الصفوة ٤/٤١٢.

(٦) في (ف): فأسرتنا.

(٧) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية المطبوع.

فَرَأَيْتُ جَارِيَةً مِنهُنَّ هَبطَتْ إِلَى الأَرْضِ مَعَهَا مِنْدِيلٌ فَقَبَضَتْ رُوحَهُ، حَتَّى ضُرِبَتْ أَعْنَاقُ سِتَّةٍ مِنَّا، فَاسْتَوْهَبَنِي بَعْضُ رِجَالِهِمْ، فَقَالَتِ الجَارِيَةُ: أَيُّ شَيْءٍ فَاتَكَ يَا مَحْرُومُ(١)! وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ، فَأَنَا يَا أَخِي مُتَحَسِّرٌ عَلَى مَا فَاتَنِي.

قَالَ قَاسِمُ الجُوعِيُّ: أَرَاهُ أَفْضَلَهُمْ؛ لِأَنَّهُ رَأَى مَا لَمْ يَرَوا، وَعَمِلَ عَلَى الشَّوْقِ بَعْدَهُمْ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ محطُّ الخارقِ فيهِ رؤيةُ هذَا الرَّائي للأبوابِ والحورِ العينِ الَّتي عليهَا، فإنَّ هذَا خارقٌ للعادةِ.

ووجهُ الكرامةِ لهُ حملُ هذهِ القضيَّةِ على الجدِّ فِي العملِ، وداومِ السُّؤالِ والتَّضرُّعِ، وقوَّةِ اليقينِ بمَا أعدَّهُ اللهُ للمتَّقِينَ(٢).

وقولُهُ: «مَا قَضَيْتَ حَاجَتِي» ليسَ كلامًا بالغًا فِي الأدبِ، بَلْ نُهِي عنهُ، كمَا جاءَ فِي (المُوطَّأ)(٣) أنَّهُ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»، ومَا يُدرِيهِ أَنَّهُ لم يُسْتَجَبْ لهُ، بلِ الَّذي فعلَهُ بهِ فِي كُلِّ دعوةٍ دعاهَا وحَسَرَةٍ تحسَّرَهَا أفضلُ لهُ مِنْ مَوتِهِ وقتَ مَوتِ أصحابِهِ، فإنَّهُ زادَ عملًا لمْ يعملُوهُ بالقلبِ والجَوارحِ، ومِنْ هذِهِ الجهةِ كانَ خَرْقُ العَادَةِ كَرامةً إذَا حُمِلَ علَى قوَّةِ اليقينِ والجدِّ فِي أعمالِ الصَّالحينَ، وإلَّا مَنْ جرَى عليهِ خارقٌ وأُعجِبَ بنفسِهِ دلَّ علَى أنَّهُ سقطَ عن منزلتِهِ وزلَّ [٣/٥٢أ].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا النَّجْمِ أَحْمَدَ بْنَ الحُسَيْنِ بِـ(خُورِسْتَانَ) يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الكَتَّانِيَّ يَقُولُ(٥): كُنْتُ فِي طَرِيقِ

(١) أي: بسبب تخلفك عن أصحابك.
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠١٤.
(٣) ١/٢١٣.
(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٦.

(مَكَّةَ) فِي وَسَطِ السَّنه[(١)]، فَإِذَا أَنَا بِهِميَانَ مَمْلُوءٍ يَلْمَعُ دَنَانِيرَ، فَهَمَمْتُ لِأَحْمِلَهُ لِأُفَرِّقَهُ بِمَكَّةَ عَلَى الفُقَرَاءِ، فَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ: إِنْ أَخَذْتَهُ سَلَبْنَاكَ فَقْرَكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ كرامةُ التَّحذيرِ منَ الدُّخولِ فِي الدُّنيَا ليفعلَ بهَا الخيرَ، وإرشادٌ بأنَّ بقاءَهُ معَ فقرِهِ وتقلُّلِهِ أفضلُ لهُ عندَ ربِّهِ، وهذَا هوَ المعهودُ مِنْ نفسِ الشَّريعةِ أنَّهُ لَا يُؤمَرُ فِي الدُّخولِ بينَ النَّاسِ فِي الخِلافةِ والإمرةِ والقضاءِ ووعظِ النَّاسِ وشُبَهِهِمْ والإصلاحِ بينَهُمْ إلَّا مَنْ زهدَ فِي دُنياهُ، وقويَتْ معرفتُهُ بمولَاهُ، وهانَ أمرُ المخلوقِينَ عندَهُ، ولَمْ تغرَّهُ الدُّنيَا ولَوْ كثُرَتْ فِي يدَيهِ؛ لكمالِ دينِهِ وحقارةِ الدُّنيَا فِي عينَيهِ، فلمَّا وجدَ هذَا الرَّجلُ الصَّالحُ كانَ الكيسُ مرميًّا، فيهِ شيءٌ كثيرٌ، فأرادَ أنْ يأخذَهُ لينتفعَ بهِ الفقراءُ فِي مكَّةَ، وكانَ فِي معلومِ اللهِ - تعالىٰ - أنَّهُ إذا أخذَهُ ركنَتْ نفسُهُ إليهِ، واستغنَىٰ فِي نفسِهِ، ونسيَ فقرَهُ إلىٰ ربِّهِ فِي سائرِ أحوالِهِ وحالاتِهِ، ولذلِكَ وقعَ التَّنبيهُ فِي قلبِهِ: «إنْ أخذْتَهُ سلبنَاكَ فقرَكَ» الَّذِي أنتَ فيهِ، والفقرُ عندَهُ أعزُّ منَ المَالِ؛ لأنَّهُ أصلَحُ لهُ فِي حالِهِ معَ مولَاهُ، كمَا قِيلَ[(٢)]:

إِذَا افْتَقَرُوا عَضُّوا عَلَىٰ الفَقْرِ ضِنَّةً ❊ وَإِنْ أَيْسَرُوا عَادُوا سِرَاعًا إِلَىٰ الفَقْرِ

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيُّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ الخَيَّاطُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيَّ يَقُولُ[(٤)]: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ الشَّرْقِيَّ يَقُولُ: كُنَّا مَعَ أَبِي تُرَابٍ النَّخْشَبِيِّ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَعَدَلَ عَنِ الطَّرِيقِ إِلَىٰ نَاحِيَةٍ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: أَنَا عَطْشَانُ، فَضَرَبَ بِرِجْلِهِ، فَإِذَا عَيْنٌ بِمَاءٍ زُلَالٍ،

= وجامع كرامات الأولياء ١/١٤٢.

(١) في الأصل: التيه، والتصويب من الرسالة القشيرية، ومظان تخريجه.

(٢) من الطويل، وورد بلا نسبة في: عيون الأخبار ١/٣٥٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص٤٧٣، ٦٨٣، وافتقروا: أصابهم الفقر، وعضوا على الفقر ضنَّة: أحبوا الدوام على حالة العدم.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٦.

(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤٠/٣٤٧، وصفة الصفوة ٤/١٧٣، وطبقات الشافعية الكبرى ٢/٣١٤.

فَقَالَ الفَتَىٰ: أُحِبُّ أَنْ أَشْرَبَهُ فِي قَدَحٍ، فَضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَىٰ الأَرْضِ فَناوَلَهُ قَدَحًا مِنْ زُجَاجٍ أَبْيَضَ كَأَحْسَنِ مَا رَأَيْتُ، فَشَرِبَ وَسَقَانَا، وَمَا زَالَ القَدَحُ مَعَنَا إِلَىٰ مَكَّةَ.

فَقَالَ لِي أَبُو تُرَابٍ يَوْمًا: مَا يَقُولُ أَصْحَابُكَ فِي هَذِهِ الأُمُورِ الَّتِي يُكْرِمُ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ؟ فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا إِلَّا [٣/٥٢ب] وَهُوَ يُؤْمِنُ بِهَا، فَقَالَ: مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَا فَقَدْ كَفَرَ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ مِنْ طَرِيقِ الأَحْوَالِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَعْرِفُ لَهُمْ قَوْلًا[١] [فيه][٢].

فَقَالَ: بَلَىٰ قَدْ زَعَمَ أَصْحَابُكَ أَنَّهَا خُدَعٌ مِنَ الحَقِّ، وَلَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ[٣]، إِنَّمَا الخُدَعُ فِي حَالِ السُّكُونِ إِلَيْهَا، فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَقْتَرِحْ ذَلِكَ وَلَمْ يُسَاكِنْهَا قَلْبُهُ فَتِلْكَ مَرْتَبَةُ الرَّبَّانِيِّينَ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايةُ قَدْ تقدَّمَتْ[٤]، وتقدَّمَ الكلامُ عليهَا، وفائدتُهَا كرامةُ نبعِ الماءِ وقلبِ الأجناسِ؛ وذلِكَ أنَّ الشَّابَّ طلبَ أنْ يشربَهُ فِي قدحٍ، فتناولَ بيدِهِ الأرضَ فأخذَ منهَا قدحًا وشربَ الجماعةُ بهِ، ولمْ يزَلْ معَهُمْ إلىٰ مكَّةَ.

وفائدةُ هذِهِ الحكايةِ: أنَّ هذَا النَّاقلَ كانَ أصحابُهُ ينكرُونَ الكراماتِ وفَوَائدَهَا، ولأجْلِ ذلكَ سَأَلَهُ أبو تُرَابٍ: «**مَا يقولُ أصحابُهُ فِي هذهِ الكراماتِ الَّتِي يُكرِمُ اللهُ بهَا أولياءَهُ؟**»، فأجابَهُ بأنِّي ما رأيتُ أحدًا ينكرُهَا، قالَ أبو ترابٍ: «**مَنْ أنكرَهَا فهوَ كافرٌ**»[٥]، يعنِي: عجزَ القدرةِ الأزليَّةِ عَنْ فعلِ الأمورِ وما سألْتُكَ عنْ هذَا، وإنَّمَا بلغَنِي أنَّ أصحابَكَ يقولُونَ: «**إنَّهَا خُدَعٌ منَ الحقِّ**»، وإنَّهَا ليسَتْ كَرَامةً،

(١) أي: في إنكارها.

(٢) زيادة من (ف).

(٣) أي: على الإطلاق.

(٤) الدلالة ٣/٥١٠.

(٥) في العلو للعلي الغفار ١/٦٩: «فما ينكر كرامات الأولياء إلا جاهل».

وإنَّمَا الحقُّ - تعالىٰ - يوقِفُ معَهَا بعضَ النَّاسِ إذا أرادَ فتورَهُم عنِ الطَّريقِ، وهذَا معنىٰ كونِهَا خُدَعًا ينخدعُونَ بهَا، ولكنْ ليسَ الأمرُ كمَا تظنُّونَ!، وإنَّمَا تكونُ خُدَعًا لمَنْ يساكِنُهَا ويطمئنُّ إليهَا، وإلَّا مَنْ رآهَا فضْلًا منَ اللهِ وَعَوْنًا وزادَتْهُ قوَّةَ يقينٍ، «فتلكَ مرتبةُ الرَّبَّانِيِّينَ» يعنِي: أنَّ الرَّبَّ - سبحانه - إذَا أوصلَ عَبْدَهُ إلىٰ هذِهِ الحالةِ أيُّ شَيءٍ طلَبَهُ مِنْهُ فعَلَهُ له[١].

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «**حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيُّ** رَحِمَهُ اللهُ **قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الفَرَجِ الوَرَثَانِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ الجَلَنديَّ بِـ(طَرَسُوسَ) قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ الجَلَّا يَقُولُ[٣]: كُنَّا فِي غُرْفَةِ سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ بِبَغْدَادَ، فَلَمَّا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ شَيْءٌ لَبِسَ قَمِيصًا نَظِيفًا وَسَرَاوِيلَ، وَلَبِسَ رِدَاءً وَنَعْلًا، فَقَامَ لِيَخْرُجَ، فَقُلْتُ: إِلَىٰ أَيْنَ فِي هَذَا الوَقْتِ؟ فَقَالَ: أَعُودُ فَتْحًا المَوْصِلِيَّ، فَلَمَّا مَشَىٰ فِي طُرُقَاتِ بَغْدَادَ أَخَذَهُ العَسَسُ[٤] وَحَبَسُوهُ** [٣/١٥٣أ]**، فَلَمَّا كَانَ بِالغَدِ أُمِرَ بِضَرْبِهِ مَعَ المَحْبُوسِينَ، فَلَمَّا رَفَعَ الجَلَّادُ يَدَهُ وَقَفَتْ يَدُهُ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُحَرِّكَهَا، فَقِيلَ لِلجَلَّادِ: اِضْرِبْ، فَقَالَ: بِحِذَائِي شَيْخٌ وَاقِفٌ يَقُولُ: لَا تَضْرِبْهُ، فَتَقِفُ يَدِي لَا تَتَحَرَّكُ، فَنَظَرُوا مَنِ الرَّجُلُ، فَإِذَا هُوَ فَتْحٌ المَوْصِلِيُّ، فَلَمْ يَضْرِبُوهُ**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ القصَّةُ فائدتُهَا أنَّ الشَّخصَ إذَا صحَّتْ زيارتُهُ لأحدٍ منَ الأولياءِ وكانَتْ نيَّتُهُ فيهِ حميدةً انتفعَ بهِ، سواءٌ وصلَ إليهِ أوْ لمْ يصِلْ، ومِنْ هذَا الوجهِ انتفعَ السَّريُّ بنيَّتِهِ فِي زيارةِ فتحٍ الموصليِّ، وإنْ لمْ يصِلْ إليهِ ببركةِ فتحٍ وحُسْنِ نيَّةِ السَّريِّ وقَّفَ الحقُّ يدَ الجلَّادِ حتَّىٰ عجزَ أنْ يلينَهَا فِي ضربِ

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠١٥.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٦ ـ ٥٤٧.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٢٥٢، ومسالك الأبصار ٨/٥١.

(٤) وهو الذي يطوف ليلا للخيانة. انظر: إحكام الدلالة ٢/١٠١٦.

السَّريِّ، فلمَّا قالَ لهُ مَنْ لهُ الأمرُ: «اضرِبْ، قالَ: بجانِبي شيخٌ واقفٌ كلَّما أردْتُ أنْ أضربَ قالَ: لا تضرِبْ»، فيبسَتْ يدِي، فلمَّا سمِعُوا هذا الخارقَ بحثُوا[١] عنِ القضيَّةِ، فعرفُوا أنَّ المضروبَ هوَ السَّرِيُّ، وأنَّ الشَّافعَ فيهِ هوَ فتحٌ الموصلِيُّ، لمَا صحَّ عندَهُمْ مِنْ خروجِهِ مِنْ موضعِهِ لزيارتِهِ، ولعلَّ السَّرِيَّ أخبَرَهُمْ بذلِكَ، وأنَّهُ إنَّمَا خرجَ ليزورَ فتحًا، فمُسِكَ معَ جُمْلَةِ النَّاسِ ظُلْمًا، وربَّمَا كُوشِفَ السَّرِيُّ بفتحٍ الموصلِيِّ، وهوَ الَّذِي أعلَمَهُمْ بأنَّهُ الشَّيخُ.

وروحُ هذهِ القصَّةِ: هيَ مَا قدَّمْنَاهُ مِنْ أنَّ الشَّخصَ إذا صدقَتْ نيَّتُهُ فِي الزِّيارةِ لبعضِ الصَّالِحينَ انتفعَ بهِ علَىٰ أيِّ وجهٍ كانَ فِي الدُّنيَا والآخرةِ.

قالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢]: «أَخبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا الحَارِثُ الخَطَّابِيُّ، حَدَّثنَا مُحَمَّدُ بْنُ الفَضْلِ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ يَحْيَىٰ البَصْرِيُّ قَالَ[٣]: كَانَ أُنَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَجْلِسُونَ إِلَىٰ عَبْدِ الوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ، فَأَتَوهُ يَوْمًا، فَقَالُوا: إِنَّا نَخَافُ مِنَ الضِّيقِ وَالحَاجَةِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ المُرْتَفِعِ، الَّذِي تُكْرِمُ بِهِ مَنْ شِئْتَ مِنْ أَوْلِيَائِكَ، وَتُلْهِمُهُ الصَّفْوَةَ مِنْ أَحْبَابِكَ أَنْ تَأْتِيَنَا بِرِزْقٍ مِنْ لَدُنْكَ تَقْطَعُ بِهِ عَلَائِقَ الشَّيْطَانِ مِنْ قُلُوبِنَا وَقُلُوبِ أَصْحَابِنَا هَؤُلَاءِ، فَأَنْتَ الحَنَّانُ المَنَّانُ، القَدِيمُ الإِحْسَانِ، اللَّهُمَّ السَّاعَةَ السَّاعَةَ.

قَالَ: فَسَمِعْتُ وَاللهِ قَعْقَعَةً لِلسَّقْفِ، ثُمَّ تَنَاثَرَتْ عَلَيْنَا دَنَانِيرُ وَدَرَاهِمُ، فَقَالَ عَبْدُ الوَاحِدِ [٣/٥٣ب] ابْنُ زَيْدٍ: اِسْتَغْنُوا بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ عَنْ غَيْرِهِ، فَأَخَذُوا ذَلِكَ وَلَمْ يَأْخُذْ عَبْدُ الوَاحِدِ شَيْئًا».

---

(١) في الأصل: بحث، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٧.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٣٧/٢٢٩، وحل الرموز ص٣٨٥.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا الاسمُ الَّذِي دعَا بِهِ عبدُ الواحدِ إنَّمَا أرادَ اسمَ اللهِ الأعظمَ، وإنْ لمْ يُعَيِّنْهُ، ولكنَّهُ دعَاهُ بِهِ وميَّزَهُ بأنَّهُ يخصُّ بهِ أفضلَ أوليائِكَ، وأخصَّ عبادِكَ علَىٰ ما تقدَّمَ الشَّرحُ فيهِ، ثمَّ سألَ رزقًا يُسكنُهُ ويُسَكنُ قلوبَ أصحابِهِ، ولا يجعلُ للشَّيطانِ عليهِم سبيلًا بالوسوسةِ فِي تأخيرِ الرِّزقِ.

فقولُهُ: «**يا حنَّانُ، يا منَّانُ**» قدِ اختلفَ النَّاسُ فِي الدُّعاءِ بهذَينِ الاسمَينِ، وسببُهُ ـ واللهُ أعلَمُ ـ أنَّهُ لمْ يَرِدْ فِي أسماءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بهذِهِ الصِّيغةِ فِي الكتابِ، وإنْ كانَ وردَ فِي السُّنَّةِ[١]، وقدْ لَا يصحُّ الخبَرُ عندَ مَنْ تركَهُ[٢]، وإنْ كانَ فِي كتابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٣]، وَ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٧]، وكلاهُمَا راجعٌ إلىٰ إرادتِهِ وقدرتِهِ ـ تعالىٰ ـ، وهذَا الإمامُ عبدُ الواحدِ قدْ دعَا بهِمَا فِي وقتِ الضَّرورةِ والطَّلبِ علىٰ الفورِ.

وخرقُ العادةِ كونُ الدَّراهمِ والدَّنانيرِ سقطَتْ عليهِم مِنَ السَّقفِ الَّذِي كانُوا تحتَهُ، هذَا هوَ خرقُ العادةِ، والكرامةُ لعبدِ الواحدِ واستجابةُ الدُّعاءِ واللُّطفُ بهِمْ، وفيهِ أنَّ العبدَ متَىٰ كانَتْ نيَّتُهُ ودعوتُهُ وضرورتُهُ في حقِّ الغيرِ كانَ أقربَ للإجابةِ، ولبُعدِهِ مِنْ هوَىٰ نفسهِ ونَيلِ حظِّهِ، ولذلِكَ لمْ يأخُذْ منَ الدَّنانيرِ والدَّراهِمِ شيئًا؛ لأنَّهُ دعَا لهُمْ خاصَّةً[٣].

---

(١) ففي مسند أحمد ٣/٢٣٠: «عن أَنَسِ بن مَالِكٍ عَنِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إِنَّ عَبْدًا في جَهَنَّمَ لينادي أَلْفَ سَنَةٍ يا حَنَّانُ يا مَنَّانُ، قال: فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اذْهَبْ فائتني بعبدي هذا....»، وأخرجه أبو يعلىٰ في مسنده ٧/٢١٤، والطبراني في المعجم الأوسط ٤/٢٦٥. وقال الهيثمي: «رواه أحمد وأبو يعلىٰ ورجالهما رجال الصحيح، غير أبي ظلال، وضعفه الجمهور، ووثقه ابن حبان» مجمع الزوائد ١٠/٣٨٤.

(٢) انظر: الأمد الأقصىٰ ٢/١١٩، والإنباء في شرح حقائق الصفات والأسماء للأقليشي ١/٤٥٣ - بتحقيقي.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٤/٢٥٨.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الشِّيرَازِي رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الخُوزِيَّ بِـ(جُنْدَيسَابُورَ)(٢) قَالَ: سَمِعْتُ الكَتَّانِيَّ يَقُولُ(٣): رَأَيْتُ بَعْضَ الصُّوفِيَّةِ ـ وَكَانَ غَرِيبًا مَا كُنْتُ أُثْبِتُهُ(٤) ـ تَقَدَّمَ إِلَى الكَعْبَةِ، وَقَالَ: يَا رَبِّ، مَا أَدْرِي مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ ـ أَعْنِي الطَّائِفِينَ، [فَقِيلَ لَهُ]: انْظُرْ مَا فِي هَذِهِ الرُّقْعَةِ، قَالَ: فَطَارَتِ الرُّقْعَةُ فِي الهَوَاءِ وَغَابَتْ(٥).

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الوَاحِدِ بْنَ بَكْرٍ الوَرْثَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ المُقْرِي بِـ(طَرَسُوسَ) يَقُولُ [٣/١٥٤أ]: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ الجَلَّا يَقُولُ(٦): اشْتَهَتْ وَالِدَتِي عَلَى وَالِدِي يَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ سَمَكًا، فَمَضَى وَالِدِي إِلَى السُّوقِ وَأَنَا مَعَهُ فَاشْتَرَى سَمَكَةً وَوَقَفَ يَنْتَظِرُ مَنْ يَحْمِلُهُ، فَرَأَى صَبِيًّا وَقَفَ بِحِذَائِهِ مَعَهُ صَبِيٌّ، فَقَالَ: يَا عَمِّ؛ تُرِيدُ مَنْ يَحْمِلُهَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَحَمَلَهَا وَمَشَى مَعَنَا، فَسَمِعْنَا الأَذَانَ، فَقَالَ الصَّبِيُّ: أَذَّنَ المُؤَذِّنُ، وَأَحْتَاجُ أَنْ أَتَطَهَّرَ وَأُصَلِّي، فَإِنْ رَضِيتَ وَإِلَّا فَاحْمِلِ السَّمَكَةَ، فَوَضَعَ الصَّبِيُّ [السَّمَكَ](٧) وَمَرَّ.

قَالَ: فَقَالَ أَبِي: فَنَحْنُ أَوْلَى أَنْ نَتَوَكَّلَ فِي السَّمَكِ، فَدَخَلْنَا المَسْجِدَ وَصَلَّيْنَا، وَجَاءَ الصَّبِيُّ وَصَلَّى، فَلَمَّا خَرَجْنَا فَإِذَا بِالسَّمَكِ مَوْضُوعٌ مَكَانَهُ، فَحَمَلَهُ وَمَضَى مَعَنَا إِلَى دَارِنَا، فَذَكَرَ وَالِدِي ذَلِكَ لِوَالِدَتِي، فَقَالَتْ: قُلْ لَهُ حَتَّى يُقِيمَ عِنْدَنَا وَيَأْكُلَ مَعَنَا،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٧ ـ ٥٤٨.

(٢) مدينة مشهورة بالأهواز. انظر: الأنساب ٢/٩٤.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٧/٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٤) أي: أعرفه.

(٥) فعرفتُ أن حاجتي قُضيتْ، والكرامة في ذلك تيسر من أعلمه بذلك حالا، وطيرانُ الرقعة مع غيبتها. انظر: إحكام الدلالة ٢/١٠١٧.

(٦) ورد قوله في: جامع كرامات الأولياء ٢/٤٦٣.

(٧) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.

فَقُلْنا لَهُ فَقَالَ: إِنِّي صَائِمٌ، فَقَالَ: فَتعُودُ إِلَيْنَا بِالْعَشِيِّ، فَقَالَ: إِذَا حَمَلْتُ مَرَّةً فِي الْيَوْمِ لا أَحْمِلُ ثَانِيًا، فَأَدْخُلُ الْمَسْجِدَ إِلَى الْمَسَاءِ، ثُمَّ أَدْخُلُ عَلَيْكُمْ، فَمَضَى، فَلَمَّا أَمْسَيْنَا دَخَلَ الصَّبِيُّ وَأَكَلْنَا، فَلَمَّا فَرَغْنَا دَلَلْنَاهُ عَلَى مَوْضِعِ الطَّهَارَةِ، وَرَأَيْنَا فِيهِ أَنَّهُ يُؤْثِرُ الْخُلْوَةَ، فَتَرَكْنَاهُ فِي بَيْتٍ(١)، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ كَانَ لِقَرِيبٍ لَنَا ابْنَةٌ زَمِنَةٌ، فَجَاءَتْ تَمْشِي، فَسَأَلْنَاهَا عَنْ حَالِهَا! فَقَالَتْ، قُلْتُ: يَا رَبِّ، بِحُرْمَةِ ضَيْفِنَا أَنْ تُعَافِيَنِي فَقُمْتُ.

قَالَ: فَمَضَيْنَا لِنَطْلُبَ الصَّبِيَّ، فَإِذَا بِالأَبْوَابِ مُغْلَقَةٌ كَمَا كَانَتْ، وَلَمْ نَجِدِ الصَّبِيَّ، فَقَالَ أَبِي: فَمِنْهُمْ صَغِيرٌ، وَمِنْهُمْ كَبِيرٌ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **وفائدةُ هذهِ الحكايةِ**: ما ذكرَهُ في آخرِهَا؛ وهوَ «**أنَّ منهُمْ صغارًا ومنهُمْ كبارًا**»، وأنَّ الَّذي حملَ السَّمكةَ كانَ وليًّا للهِ ـ تعالىٰ ـ يأكلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ، ولذلكَ كانَ إذا حملَ مرَّةً لمْ يحْمِلْ ثانيةً، ودخلَ المسجدَ حتَّىٰ اللَّيلِ، فلمَّا أذَّنَ المُؤذِّنُ وزهدَ فِي أُجرتِهِ وهانَ عليهِ تركُهَا أثَّرَ صِدْقُهُ فِي أصحابِ السَّمكِ حتَّىٰ تَركُوهُ ودخلُوا معَهُ فِي الصَّلاةِ، والسَّمكُ موضعهُ لمْ يأخذْهُ أحدٌ ولَمْ يَعْدُ عليهِ سفيهٌ، فلمَّا وجدوهُ علَىٰ ما هوَ عليهِ وحملَهُ الصَّبيُّ معَهُمْ إلىٰ الدَّارِ سألُوهُ أنْ يمضِيَ لشُغلِهِ، ويعودَ لهُمْ بمقدارِ مَا [٣/٥٤ب] يصنعونَهُ، فأخبرَهُمْ أنَّهُ إنَّمَا يحملُ مرَّةً واحدةً فِي اليومِ، فمضَىٰ إلىٰ المسجدِ، ودخلَ إليهِمْ وقتَ الفِطرِ، فأكلَ معَهُمْ وسمِعُوا مِنْ حديثِهِ أنَّهُ يحبُّ الخُلوةَ، فأرَوهُ بيتًا وموضعَ الطَّهارةِ ليَبيتَ عندَهُمْ.

فكانَتْ عندَهُمْ شابَّةٌ مريضةٌ مُقعَدَةٌ، فقالَتْ: «**يا ربِّ، بحُرمةِ ضيفِنَا إلَّا عافيتَنِي**»، وهذَا خارقٌ آخرُ فِي استجابةِ الدُّعاءِ بمنزلةِ الصَّالحِينَ معَ الاضْطِرَارِ، فعافاهَا اللهُ، فجاءَتْ ودقَّتْ عليهِمُ البابَ بخلافِ عادتِهَا، وأخبرَتْهُمْ بدعائِهَا،

(١) أي: بيت خالٍ.

فطلبُوا الشَّابَّ فلمْ يجدوهُ.

قالَ: فقالَ أبِي: «فمنهُمُ الصِّغارُ ومنهُمْ كبارٌ»، وهذهِ كرامةٌ أخرَىٰ فِي كونِهِ ما عرَّفَهُ أينَ ذهبَ وأبوابُهُمْ مغلقةٌ كمَا كانَتْ، وتدلُّ علَىٰ أنَّ الطَّيرانَ فِي الهواءِ والاختفاءَ عنهُمْ والسَّترَ حتَّىٰ لا يَرَوْهُ[١].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَبُو الحَارِثِ الخَطَّابِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الفَضْلِ قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ يَحْيَىٰ البَصْرِيُّ قَالَ[٣]: أَتَيْتُ عَبْدَ الوَاحِدِ بْنَ زَيْدٍ وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلٍّ، فَقُلْتُ لَهُ: لَوْ سَأَلْتَ اللهَ أَنْ يُوَسِّعَ عَلَيْكَ الرِّزْقَ لَرَجَوْتُ أَنْ يَفْعَلَ، فَقَالَ: رَبِّي أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، ثُمَّ أَخَذَ حَصًى مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَجْعَلَهَا ذَهَبًا فَعَلْتَ، فَإِذَا هِيَ وَاللهِ فِي يَدِهِ ذَهَبٌ، فَأَلْقَاهَا إِلَيَّ وَقَالَ: أَنْفِقْهَا أَنْتَ، فَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِلْآخِرَةِ[٤]**».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ممَّا تقدَّمَ، وأنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ أسقطَ الذَّهبَ مِنَ السَّقفِ، وكذلِكَ جعلَ الحصَىٰ ذهبًا خرْقَ عادةٍ ودفعَهُ لهذَا المحتاجِ؛ ليعرِّفَهُ أنَّ اللهَ علَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ.

وقولُ هذَا السَّائلِ لعبدِ الواحدِ: «**لَوْ سألتَ اللهَ أنْ يوسِّعَ عليهِ دخولٌ فيمَا لَا يعنِيهِ**»، ولكنَّ كرمَ عبدِ الواحدِ وحُسنَ خلقِهِ حملَهُ علَىٰ ألَّا يؤاخذَهُ، وأجابَهُ بأنَّ اللهَ عالمٌ بمَا يُصلِحُ عبادَهُ، ثمَّ لمْ يكتفِ بذلِكَ حتَّىٰ عرَّفَهُ الغِنَىٰ حقيقةً، وأنَّ الغنِيَ

---

(١) في الأصل: يرونه، والصواب المثبت.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٨.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٣٧/٢٢٩، والموافقات ١/٣٥٧، وروض الرياحين ص٢٢٨ وجامع كرامات الأولياء ٢/٢٢٤.

(٤) أي: للعون عليها.

علىٰ الحقيقةِ مَنِ استغنَىٰ باللهِ لَا بالمَالِ ، فإنَّ مَنِ استغنَىٰ باللهِ فعَلَ اللهُ لهُ ما يحبُّهُ ، ولذلِكَ صارَتِ الحصباءُ في يدِهِ ذهبًا ؛ تصديقًا [٣/١٥٥أ] للمقالِ بالحالِ ، وسلَّمَهُ إليهِ[١] لينفقَهُ ؛ لفَقْرِهِ وحَاجتِهِ إليهِ[٢] .

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣] : «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ أَحْمَدَ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الدُّقِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ مَنْصُورٍ يَقُولُ: قَالَ أُسْتَاذِي أَبُو يَعْقُوبَ السُّوسِيُّ[٤] : غَسَّلْتُ مُرِيدًا ، فَأَمْسَكَ إِبْهَامِي وَهُوَ عَلَىٰ المُغْتَسَلِ ، فَقُلْتُ: يَا بُنَيَّ خَلِّ يَدِي ، أَنَا أَدْرِي أَنَّكَ لَسْتَ بِمَيِّتٍ وَإِنَّمَا هِيَ نُقْلَةٌ مِنْ دَارٍ إِلَىٰ دَارٍ فَخَلَّىٰ يَدِي» .

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَوَجْهُ هذهِ الحكايةِ: مَسْكُ الميِّتِ ليَدِ السُّوسِيِّ ، وإرسالُهَا بعدَ كلامِهِ لهُ ، وهذَا هوَ الخارقُ للعَادةِ .

وقولُهُ: «إِنِّي أَدْرِي أَنَّكَ لَسْتَ بِمَيِّتٍ» لم يغيِّرْ مفارقَةَ روحِهِ لجسمِهِ ، فإنَّهُ لو علِمَ أنَّهَا لمْ تُفارِقْ لمْ يجزْ لهُ غسلُهُ ولا دَفْنُهُ ، وإنَّمَا علِمَ أنَّ الأرواحَ باقيةٌ ، وهذَا مذهبُ أهلِ الحقِّ أنَّ الأرواحَ كلَّهَا باقيةٌ ، وهيَ فِي منازلِهَا فِي الخيرِ والشَّرِّ فِي البرزَخِ إلَىٰ أنْ يُعيدَهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ إلىٰ الأجسامِ يومَ القيامةِ[٥] ، والميِّتُ سيحْيَىٰ

---

(١) أي: للسائل .

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠١٩ .

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٨ .

(٤) ورد قوله في: سير السلف الصالحين لقوام السنة ص١٢٤٧ ، وروض الرياحين ص١٨٥ ، والروض الفائق ص١٣٠ .

(٥) قرَّر ذلك القاري بقوله: «الأرواح باقية لا تفنىٰ ، فيتنعم المحسن ويعذب المسيء ، وهو مذهب أهل السنة ، وبه نطق التنزيل والآثار خلافًا لطائفة من المبتدعة» مرقاة المفاتيح ٧/٣٣٩ .
وقال السيوطي: «وحكي عن طائفة من المتكلمين أن الأرواح تموت بموت الأجساد ، ونسب إلىٰ المعتزلة ، وقال به جماعة من فقهاء الأندلس قديمًا . وقد اشتد نكير العلماء لهذه المقالة حتىٰ=

في قبْرِهِ بعدَ موتِهِ لسؤالِ مُنكرٍ ونكيرٍ ويسمعُ خفقَ نعالِ المُنصرِفِينَ عن قَبْرِهِ(١)، وإنْ كانَ منَ السُّعداءِ فُسِحَ لهُ [في] قبْرِهُ سبعونَ ذراعًا(٢)، وإنْ كانَ منَ الأشقياءِ ضُيِّقَ عليهِ كالزَّجِّ في القَنَا، ثمَّ بعدَ ذلكَ يصيرُ تُرابًا، وروحُهُ باقيةٌ لا تَفْنَىٰ، وقدْ قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، كانوا موتَىٰ وقتْلَىٰ علىٰ تحقيقٍ، إلَّا أنَّ أرواحَهُمْ في سعادةٍ عندَ ربِّهِمْ...(٣)، كمَا جاءَ فِي حواصِلِ طيرٍ خُضْرٍ(٤)، فلَهُمْ زيادةُ إكرامٍ علىٰ غيرِهِمْ، ومَا كانَ ذلكَ إلَّا لِبَذْلِهِم نفوسَهُمْ للهِ، وجهادِهِمْ أعداءَ اللهِ، فالمريدُ الصَّادقُ لهُ مِنْ هذَا حظٌّ ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): **«وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ الطَّرَسُوسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ شَيْبَانَ يَقُولُ(٦): صَحِبَنِي شَابٌّ حَسَنُ الإِرَادَةِ، فَمَاتَ، فَاشْتَغَلَ بِهِ قَلْبِي جِدًّا، وَتَوَلَّيْتُ غُسْلَهُ، فَلَمَّا أَرَدْتُ غَسْلَ يَدِهِ بَدَأْتُ بِشِمَالِهِ مِنَ الدَّهْشَةِ، فَأَخَذَهَا مِنِّي وَنَاوَلَنِي يَمِينَهُ، فَقُلْتُ: صَدَقْتَ يَا بُنَيَّ أَنَا غَلِطْتُ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [٣/٥٥ب] وفِي هذهِ الحكايةِ مَا فِي الَّتِي قبلَهَا؛ وهوَ

= قال سحنون بن سعيد وغيره: هذا قول أهل البدع، والنصوص الكثيرة الدالة علىٰ بقاء الأرواح بعد مفارقتها للأبدان ترد ذلك وتبطله» شرح الصدور بشرح حال الموتىٰ والقبور ص٢٤٩.

(١) كما في صحيح مسلم ٤/٢٢٠١ ـ حديث رقم (٢٨٧٠): «عن أَنَسِ بن مَالِكٍ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّ المَيِّتَ إذا وُضِعَ في قَبْرِهِ إنه لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إذا انْصَرَفُوا».

(٢) في مسند أحمد ٤/٢٨٧: «وَيُفْسَحُ له في قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ».

(٣) موضع كلمة طمست في الأصل، ولعلها: ونعيم.

(٤) كما في سنن الدارمي ٢/٢٧١: «أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ يوم القِيَامَةِ في حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ لها قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تَسْرَحُ في الجَنَّةِ حيث شاءت».

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٨ ـ ٥٤٩.

(٦) ورد قوله في: جامع كرامات الأولياء ٢/٤٤٥.

أَنَّهُ أخذَ يُقدِّمُ يدَهُ اليُسرَىٰ فِي الغُسْلِ علَىٰ اليُمْنَىٰ ، ففيهِ حفظُ اللهِ - تعالىٰ - للغاسلِ والمغسولِ جميعًا ، فإنَّ الابتداءَ بالمَيامِنِ أفضلُ ، وتحريكَ يدِ الميِّتِ بحركةٍ يخلُقُهَا اللهُ - تعالىٰ - فيهَا ليسَ ببدعٍ ، وهوَ موضعُ خرقِ العادةِ والكرامةِ ، كمَا نبَّهْنَا عليهِ ؛ لأنَّهُمَا جميعًا يتبعانِ السُّنَّةَ فِي غُسلِ الميِّتِ ، وقَدْ جاءَ فِي الخبرِ[١] لمَّا نادىٰ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهلَ بدرٍ مِنْ كفَّارِ قريشٍ بأسمائِهِمْ: «يا فلانَ بنَ فلانٍ ، ويَا فلانَ بنَ فلانٍ ، قدْ وجدتُ ما وعدَ ربِّي حقًّا ، فهلْ وجدْتُمْ ما وعدَ ربُّكُمْ حقًّا ، فقِيلَ: يا رسولَ اللهِ ، تُنَادِي أقوامًا وقد جيَّفُوا ؟ قالَ: والَّذِي نفسِي بيدِهِ ما أنتُمْ بأسمعَ منهُمْ ، ولكنْ مُنِعُوا الجوابَ» .

وَقَدْ يعودُ السَّماعُ إلىٰ أرواحِهِمْ خاصَّةً أوْ إلىٰ أرواحِهِمْ وأجسادِهِم ، وتكونُ أرواحُهُمْ قدْ أُعيدَتْ لأجسامِهِمْ فِي وقتِ رمْيِهِمْ فِي القليبِ ، كمَا تُعادُ للميِّتِ فِي قبْرِهِ ، ولكنَّهُمْ مُنِعُوا الجوابَ ، وإنَّمَا تعادُ لهُمْ أرواحُهُم ؛ ليعرفُوا محلَّهُمْ منَ العذابِ ، وسُوءِ المنقلَبِ والمَآبِ .

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا النَّجْمِ المُقْرِي البَرْذِعِيَّ بِـ(شِيْرَازَ) يَقُولُ: سَمِعْتُ الدُّقِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ مَنْصُورٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا يَعْقُوبَ السُّوسِيَّ يَقُولُ[٣]: جَاءَنِي مُرِيدٌ بِمَكَّةَ فَقَالَ: يَا أُسْتَاذُ ، أَنَا غَدًا أَمُوتُ وَقْتَ الظُّهْرِ ، فَخُذْ هَذَا الدِّيْنَارَ ، وَاحْفُرْ لِي بِنِصْفِهِ ، وَكَفِّنِّي بِنِصْفِهِ الآخَرِ ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ الغَدُ جَاءَ وَطَافَ ، ثُمَّ تَبَاعَدَ وَمَاتَ ، فَغَسَّلْتُهُ وَكَفَّنْتُهُ وَوَضَعْتُهُ فِي اللَّحْدِ ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ ، فَقُلْتُ: أَحَيَاةٌ بَعْدَ مَوْتٍ ؟! فَقَالَ: أَنَا حَيٌّ ، وَكُلُّ مُحِبٍّ للهِ - تعالىٰ - حَيٌّ**» .

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذهِ الحكايةِ منَ الخَوارقِ إعلامُ اللهِ - تعالىٰ -

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٤٦١/٤ - حديث رقم (٣٧٥٧)، ومسلم في صحيح ٢٢٠٢/٤ - حديث رقم (٢٨٧٣) بلفظ قريب منه.

(٢) الرسالة القشيرية ٥٤٩/٢ .

(٣) ورد قوله في: التعريف لمذهب أهل التصوف ص١٥٨ ، وجامع كرامات الأولياء ٤٤٥/٢ .

لهُ وقتَ موتِهِ، والثَّانِي: فتحُ عينيهِ بعدَ اللَّحدِ، والثَّالثُ: كلامُهُ، وقولُهُ: «**أنا حَيٌّ**، وكلُّ محبٍّ للهِ حيٌّ»، والمحبُّونَ للهِ هُمُ الَّذينَ جاهدُوا أنفسَهُمْ فِي قُربِهِ، وهانَ عليهِم بذلُهَا لنيلِ حُبِّهِ، فأشبَهُوا المُجاهدِينَ المقتولِينَ بالسَّيفِ فِي سبيلِهِ، وهُم أحياءٌ بعمومِ شهادةِ أقرانِهِ بأنَّهُمْ قُتلُوا في سبيلِ اللهِ(١) [٣/١٥٦أ].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَلِيِّ بْنَ وَصِيفٍ المُؤَدِّبَ يَقُولُ**(٣)**: تَكَلَّمَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ يَوْمًا فِي الذِّكْرِ، فَقَالَ: إِنَّ الذَّاكِرَ للهِ عَلَى الحَقِيقَةِ لَوْ هَمَّ أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى لَفَعَلَ، وَمَسَحَ يَدَهُ عَلَى عَلِيلٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَبَرأَ وَقَامَ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد تقدَّمَتْ هذهِ الحكايةُ، وفيهَا كرامةُ إبراءِ(٤) الأسقامِ والآلامِ، ولَوْ أرادَ إحياءَ المَوْتَى لكانَ، وقَدْ نُقِلَ إحياءُ المَوْتَى فِي الصَّحيحِ فِي قضيَّةِ الَّذِي مَاتَ حِمَارُهُ فِي الجِهَادِ، فأحيَا اللهُ لهُ حمارَهُ بدعائِهِ للهِ - تعالى -، قالَ الرَّاوِي: «لقد رأيتُهُ يُبَاعُ فِي السُّوقِ بعدَ ذلكَ لَا بأسَ بهِ»(٥)، وهذَا جائزٌ، فقد أحيَا اللهُ - تعالى - العُزَيْرَ وحِمارَهُ، والَّذِي ضُرِبَ ببعضِ البقرةِ وجرَى علَى يدَي نبيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعيسَى بنِ مريمَ - صلواتُ اللهِ علَى نبيِّنَا وعليهِ - مِنْ إحياءِ المَوتَى كثيرٌ، وهوَ جائزٌ لا استحالةَ فيهِ.

وقد قَدَّمْنَا أنَّ ما وقعَ على يدِ الأنبياءِ يجوزُ أنْ يقعَ للأولياءِ، ولا يلزمُ أنْ يكونُوا أنبياءً؛ لأنَّ خاصيَّةَ النُّبوَّةِ دَعْوَى الرِّسالةِ، وأنْ يأتِيَ بالخَارقِ مصدِّقًا،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠٢٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٩.

(٣) ورد قوله: نشر المحاسن الغالية ص١٨.

(٤) في الأصل: اجراء، والصواب المثبت كما في: إحكام الدلالة ٢/١٠٢٠.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٢٠.

والولِيُّ لا يدَّعِي ذلكَ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الشِّيرَازِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ، حَدَّثَنَا الحُسَيْنُ بْنُ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ بِشْرَ بْنَ الحَارِثِ يَقُولُ[(٢)]: كَانَ عَمْرُو بْنُ عُتْبَةَ يُصَلِّي وَالغَمَامُ فَوْقَ رَأْسِهِ، وَالسِّبَاعُ حَوْلَهُ تُحَرِّكُ أَذْنَابَهَا».

❁ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا بالغٌ فِي الكرامةِ فِي كونِهَا تحرسُهُ، وتحرِّكُ أذنابَهَا أُنسًا بهِ، فضْلًا عَنْ أنْ تُؤذِيَهُ، وقَدْ تقدَّمَ حديثُ السَّبعِ معَ شيبانَ وإبراهيمَ بنِ أدهمَ[(٣)]، وغيرِ ذلِكَ مِنَ السَّادةِ، ومعَ سفينةَ[(٤)] خادمِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٥)]، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ، وعامرِ بنِ عبدِ قيسٍ.

وإذَا كانَتِ السِّباعُ والذِّئابُ لا تُؤذِي الغنمَ ببركةِ الصَّالحينَ، فكيفَ تُؤذِيهِمْ أنفسَهُمْ!، كمَا نُقِلَ أنَّ الذِّئابَ فِي زمانِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ كانَتْ لا تعدُو علَىٰ الأغنامِ [٣/٥٦ب] ولا تُؤذِيهَا، فلمَّا ماتَ عَدَتْ عليهَا، فعلِمَ الرُّعاةُ بموتِهِ، وهُمْ فِي أماكنِهِم.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ مُفْلِحٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ المَغَازِلِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[(٦)]: كَانَ مَعِي أَرْبَعَةُ دَرَاهِمَ، فَدَخَلْتُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٤٩.

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ٤/١٥٧، وتهذيب الكمال ٢٢/١٣٦، وصفة الصفوة ٣/٦٩.

(٣) الدلالة ٣/٥٦٤.

(٤) هو: سفينة مولىٰ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقال: كان مولىٰ أم سلمة، فوهبته للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يكنىٰ أبا عبد الرحمن، روىٰ عنه ابنه عمر بن سفينة، وسعيد بن جمهان، ومحمد بن المنكدر وغيرهم. انظر في ترجمته: أسد الغابة ٢/٤٨١، والإكمال ٤/٣٠٨.

(٥) في تاريخ دمشق ٤/٢٦٩: «حدثني أبو ريحانة عن سفينة مولىٰ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لقيني الأسد، فقلت: أنا سفينة مولىٰ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فضرب بذنبه الأرض وقعد».

(٦) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٧٠، وتاريخ دمشق ٤٠/٣٢، وجامع كرامات الأولياء ٢/٧٤.

عَلَىٰ السَّرِيِّ وَقُلْتُ: هَذِهِ أَرْبَعَةُ دَرَاهِمَ حَمَلْتُهَا إِلَيْكَ، فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا غُلَامُ، فَإِنَّكَ تَفْلَحُ، كُنْتُ أَحْتَاجُ[١] إِلَىٰ أَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ ابْعَثْهَا عَلَىٰ يَدَيْ مَنْ يَفْلَحُ عِنْدَكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ دليلٌ على كرامةِ السَّرِيِّ فِي استجابةِ دعائِهِ علَىٰ الفورِ، وفيهِ شهادةٌ للجُنَيدِ بأنَّهُ ممَّنْ يفلحُ؛ لكونِ اللهِ حرَّكَ قلبَهُ بأنْ أتَىٰ بالأربعةِ الدَّراهمِ إلىٰ السَّرِيِّ، وكثيرٌ ما يطرأُ منَ الخوارقِ فِي إجابةِ الدُّعاءِ والإخبارِ عنِ المُغيَّباتِ.

ولقَدْ أخبَرَنِي الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ القاسمِ الدَّكاليُّ قالَ: سافَرْتُ مِنْ عندِ الشَّيخِ أبِي محمَّدٍ صالحٍ شيخِ (دَكَّالَةَ)[٢] ومَعِي جماعةٌ منَ الفقراءِ قاصدِينَ ديارَ (مصرَ)، وكانَ فيهِمْ ضعفاءُ صغارٌ، وكنتُ أتأخَّرُ معَ الصِّغارِ أمشِي رِفقًا بهِمْ، فلحقْنَا بقيَّةَ أصحابِنَا، وقد جلسُوا فِي موضعٍ، وكانَ معَهُمْ شيخٌ متقدِّمٌ فِي السِّنِّ، والصَّرحِ يُعرَفُ بأبِي وكيلٍ ميمونٍ، فسألتُهُم عنْ جلوسِهِم، فقالُوا: قلنَا لأبِي وكيلٍ ميمونٍ: ادعُ اللهَ أنْ يفتحَ علينَا بشاةٍ نأكلُهَا فِي هذهِ الصَّحراءِ، قالَ: فقلتُ: جيِّدٌ، قالَ: فسكَتَ الشَّيخُ ميمونٌ ساعةً، ثمَّ رفعَ رأسَهُ فقالَ: تأتيكُمْ نعجةٌ مِنْ صفتِهَا كيتُ وكيتُ، قالَ: وقُمْنَا مِنْ ذلكِ الموضعِ فسِرْنَا حتَّىٰ أتينَا ماءً فنزلْنَا عليهِ نتوضَّأُ، فإذَا ببدويٍّ جاءَ علَىٰ راحلةٍ ليأخذَ منَ الماءِ، فقالَ: يا حُجَّاجُ، عندِي نعجةٌ هيَ حقُّ اللهِ ـ تعالىٰ ـ يجيءُ واحدٌ منكُمْ يأخذُهَا.

قالَ: فمضَىٰ معَهُ بعضُ أصحابِنَا وأتَىٰ بالنَّعجةِ الَّتِي ذكرَهَا الشَّيخُ ميمونٌ، فذبحْنَاهَا وأقمْنَا عليهَا يومَنَا، وكانَ الَّذِي أتَىٰ بهَا رجلٌ صالحٌ أعرفُهُ، ويسمَّىٰ ياسينُ، وهوَ بـ(ثغرِ الإسكندريَّةِ) اليومَ.

---

(١) في (ف): محتاجًا.

(٢) دكالة ـ بفتح أوله وتشديد ثانيه ـ: بلد بالمغرب يسكنه البربر. انظر: معجم البلدان ٢/ ٤٥٩.

وقالَ لِي ياسينُ المذكورُ: كنتُ مع هذا الشَّيخِ ميمونٍ المذكورِ يومًا فِي بعضِ المساجدِ الَّتِي بظواهرِ البلادِ المنقطِعِينَ، وكنَّا جماعةً [١٥٧/٣أ] فجُعْنَا، فقالُوا لهُ: يا أبَا وكيلٍ، ادعُ اللهَ لنَا أنْ يأتيَنَا بالخبزِ، فقالَ لهُم: ها هوَ قدْ جاءَ وهوَ داخلٌ المسجدَ، قالَ لِي ياسينُ المذكورُ: فخرجتُ إلى بابِ المسجدِ ونظرتُ الطَّريقَ، فإذَا شخصٌ مِنْ بعيدٍ جاءَ إلى المسجدِ ومعَهُ الخبزُ، وكثيرٌ مِنْ هذهِ المُكاشَفَاتِ، وحُصُولِ الإجاباتِ بدعاءٍ وبغيرِ دعاءٍ يُكرِمُ اللهُ بهِ أولياءَهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَحْمَدَ الطَّبَرِيُّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَحْيَى، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو إِبْرَاهِيمَ اليَمَانِيُّ قَالَ[٢]: خَرَجْنَا نَسِيرُ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى غَيْضَةٍ فِيهَا حَطَبٌ يَابِسٌ كَثِيرٌ، وَبِالقُرْبِ مِنْهُ حِصْنٌ، فَقُلْنَا لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ: لَوْ أَقَمْنَا اللَّيْلَةَ هاهُنَا وَأَوْقَدْنَا مِنْ هَذَا الحَطَبِ فَقَالَ: اِفْعَلُوا، فَطَلَبْنَا النَّارَ مِنَ الحِصْنِ، وَأَوْقَدْنَا، وَكَانَ مَعَنَا الخُبْزُ، فَأَخْرَجْنَاهُ نَأْكُلُ، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنَّا: مَا أَحْسَنَ هَذَا الجَمْرَ لَوْ كَانَ لَنَا لَحْمٌ نَشْوِيهِ عَلَيهِ! فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: إِنَّ اللهَ ـ تعالى ـ لَقَادِرٌ عَلَى أَنْ يُطْعِمَكُمُوهُ.

قَالَ: فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا بِأَسَدٍ يَطْرُدُ أَيِّلًا[٣]، فَلَمَّا قَرُبَ مِنَّا وَقَعَ وَانْدَقَّ عُنُقُهُ، وَقَامَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ وَقَالَ: اِذْبَحُوهُ، فَقَدْ أَطْعَمَكُمُ[٤] اللهُ ـ تعالى ـ، فَذَبَحْنَاهُ وَشَوَيْنَا مِنْ لَحْمِهِ، وَالأَسَدُ وَاقِفٌ يَنْظُرُ إِلَيْنَا».

---

(١) الرسالة القشيرية ٥٤٩/٢ ـ ٥٥٠.

(٢) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٣٢٨/٦، والمقفى الكبير ٥٣/١.

(٣) في المصباح المنير ٣٣/١: «الأيل ـ بضم الهمزة وكسرها والياء فيهما مشددة مفتوحة ـ: ذكر الأوعال؛ وهو التيس الجبلي».

(٤) في الأصل: «هذا طعمكم»، والمثبت من القشيرية.

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وموضعُ الكرامةِ أنَّهُمْ سألُوا وتمنَّوْا مِنَ اللهِ أنْ يأتيَهُمْ بشيءٍ مِنَ اللَّحمِ يَشوُونَهُ ويأكلُونَهُ، فأتَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهذَا السَّبعِ، وطردَ أيِّلًا، ولَمْ يَزَلْ يتبعُهُ حتَّىٰ وقعَ بينَ أيديهِمْ ومدَّ عُنقَهُ فذبحُوهُ، وفِي روايةٍ: «وقعَ واندقَّ عنقُهُ»، ويحملُ عليهِ أنَّهُ تضرَّرَ ولَمْ يصِلْ إلَىٰ الموتِ بحيثُ لَا يُؤثِّرُ فيهِ الذَّبحُ سِرْعًا[١]، وقد قالَ لهُمْ: «اذبحُوهُ».

۞ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «سَمِعْتُ مُحمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا القَاسِمِ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَلِيٍّ الشَّجَرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ حَامِدًا الأَسْوَدَ يَقُولُ[٣]: كُنْتُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الخَوَّاصِ فِي البَادِيَةِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ عَلَىٰ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ السَّابِعُ ضَعُفْتُ، فَجَلَسْتُ فَالْتَفتَ إِلَيَّ وَقَالَ: مَا لَكَ؟ فَقُلْتُ: ضَعُفْتُ، فَقَالَ: أَيُّهما أَغْلَبُ إِلَيْكَ: المَاءُ أَوِ الطَّعَامُ؟ فَقُلْتُ: المَاءُ، فَقَالَ: المَاءُ وَرَاءَكَ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا عَيْنُ [٣/٥٧ب] مَاءٍ كَاللَّبَنِ الحَلِيبِ، فَشَرِبْتُ وَتَطَهَّرْتُ، وَإِبْرَاهِيمُ يَنْظُرُ وَلَمْ يَقْرَبْهُ، فَلَمَّا أَرَدْتُ القِيَامَ هَمَمْتُ أَنْ أَحْمِلَ مِنْهُ، فَقَالَ: أَمْسِكْ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُتَزَوَّدُ مِنْهُ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ كرامةُ خروجِ الماءِ بدُعاءِ أهلِ الخيرِ، ولكنَّهُ فيهِ سترٌ لحالِهِ، فإنَّهُ لمْ يدعُ ولمْ يضرِبْ برِجْلِهِ إلَىٰ الأرضِ، وإنَّمَا دعَا فِي نفسِهِ، ثمَّ قالَ لصاحبِهِ: «الماءُ وراءَكَ»، فالتفَتَ فوجدَ عَيْنًا تَجرِي، فشرِبَ منهَا واغتسلَ، وأرادَ أنْ يتزَوَّدَ فمنعَهُ[٤].

ويدلُّ ذلكَ علَىٰ أنَّهُ ليسَ مِنْ ماءِ الدُّنيَا[٥]، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا أجرَىٰ

---

(١) أي: سريعًا. انظر: الجمهرة ٢/٧١٥. والقصد: بل كانت فيه حياة مستقرة وإلا لما حلَّ أكله؛ لكونه ميتة.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٠.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٥٥٠.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٢٢.

(٥) فوجوده من نواقض العادة كرامة له.

فِي مسيرِهِ فِي بعضِ الغزواتِ قالَ لبعضِ الصَّحابةِ[١]: «إنْ طالَتْ بكَ حياةٌ سترَىٰ ماءً هُنَا قدْ مُلِئَ جِنانًا[٢]».

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الدَّبَّاسَ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ فَاطِمَةَ أُخْتَ أَبِي عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيِّ تَقُولُ[٤]: سَمِعْتُ زَيْتُونَةَ خَادِمَةَ أَبِي الحُسَيْنِ النُّورِيِّ، وَكَانَتْ تَخْدُمُهُ وَخَدَمَتْ أَبَا حَمْزَةَ وَالجُنَيْدَ، قَالَتْ: كَانَ يَوْمٌ بَارِدٌ، فَقُلْتُ لِلنُّورِيِّ: أَحْمِلُ إِلَيْكَ شَيْئًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: أَيْشٍ تُرِيدُ؟ فَقَالَ: خُبْزٌ وَلَبَنٌ، فَحَمَلْتُ وَكَانَ بَيْنَ يَدَيهِ فَحْمٌ، وَكَانَ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ وَقَدِ اشْتَعَلَتْ، فَأَخَذَ يَأْكُلُ الخُبْزَ وَاللَّبَنُ يَسِيلُ عَلَىٰ يَدِهِ، وَعَلَيْهَا سَوَادُ الفَحْمِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا أَقْذَرَ أَوْلِيَاءَكَ يَا رَبِّ! مَا فِيهِمْ أَحَدٌ نَظِيفٌ!

قَالَتْ: فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ، فَتَعَلَّقَتْ بِي امْرَأَةٌ وَقَالَتْ: سَرَقْتِ رُزْمَةَ ثِيَابٍ، وَجَرُّونِي إِلَىٰ الشُّرْطِيِّ، فَأُخْبِرَ النُّورِيُّ بِذَلِكَ، فَخَرَجَ وَقَالَ لِلشُّرْطِيِّ: لَا تَتَعَرَّضُوا لَهَا، فَإِنَّهَا وَلِيَّةٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فَقَالَ الشُّرْطِيُّ: كَيْفَ أَصْنَعُ وَالمَرْأَةُ تَدَّعِي عَلَيْهَا؟ قَالَ: فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ وَمَعَهَا الرُّزْمَةُ المَطْلُوبَةُ، فَاسْتَرَدَّ النُّورِيُّ المَرْأَةَ وَقَالَ لَهَا: تَقُولِينَ بَعْدَهَا: مَا أَقْذَرَ أَوْلِيَاءَكَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: قَدْ تُبْتُ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وموضعُ الكرامةِ لَهَا: تعجيلُ أدبِهَا فِي الدُّنيَا علَىٰ ما قالَتْ.

وموضعُ الكرامةِ للشَّيخِ: مكاشفتُهُ لمَا قالَتْ[٥]، وأنَّ مَا أصابَهَا منَ الأدبِ

---

(١) وهو معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٧٨٤ ـ حديث رقم (٧٠٦).
(٢) أي: بساتين وعمرانًا. انظر: شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/٤١.
(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٠ ـ ٥٥١.
(٤) ورد قولها في: طبقات الصوفية ص٤٠٤.
(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٢٢.

بسببِ ذلكَ، بحيثُ قالَ لهَا: «تقولِينَ بعدَهَا: مَا أقدَرَ أولياءَكَ؟!».

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «وَسَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الشِّيرَازِيَّ [٣/١٥٨أ] رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ فَارِسٍ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الحَسَنِ خَيْرًا النَّسَّاجَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الخَوَّاصَ يَقُولُ[2]: عَطِشْتُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِي، وَسَقَطْتُ مِنَ العَطَشِ، فَإِذَا أَنَا بِمَاءٍ رُشَّ عَلَىٰ وَجْهِي، فَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ فَإِذَا بِرَجُلٍ حَسَنِ الوَجْهِ، رَاكِبِ دَابَّةً شَهْبَاءَ، فَسَقَانِي المَاءَ، وَقَالَ: كُنْ رَدِيفِي، وَكُنْتُ بِالحِجَازِ، فَمَا لَبِثْتُ إِلَّا يَسِيرًا، فَقَالَ لِي: مَا تَرَىٰ؟ فَقَالَ: قُلْتُ: أَرَىٰ المَدِينَةَ! فَقَالَ: انْزِلْ وَأَقْرِئْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنِّي السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: أَخُوكَ الخَضِرُ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وجهُ هذهِ الكرامةِ: كونُ اللهِ خلَّصَهُ ممَّا كانَ فيهِ؛ مِنْ شدَّةِ العطشِ الَّذي غُشِيَ عليهِ بسببِهِ بالخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكونُهُ رشَّ الماءَ علىٰ وجهِهِ حتَّىٰ أفاقَ، ثمَّ سقاهُ بعدَ ذلكَ وأردفَهُ خلْفَهُ.

وفيهِ كرامةُ طيِّ الأرضِ، وهذِهِ كلُّهَا كراماتٌ، وإنْ كانَ معَهُ الخَضِرُ فقد باشرَهَا هوَ ونالَ بركتَهَا فِي الرُّكوبِ وغيرِهِ، بَلْ نفسُ اجتماعِهِ بهِ ورؤيتِهِ لهُ تدلُّ علىٰ صَلاحِهِ.

ولقَدْ أخبرَنِي الشَّيخُ الأجَلُّ الكبيرُ العارفُ تقِيُّ الدِّينِ أبو محمَّدٍ عبدُ المُنْعِمِ الخيمِيُّ السَّاكنُ بالقاهرةِ ـ حُرِسَتْ ـ عَنْ قَضِيَّةٍ بلغَتْهُ عنِ العدولِ، وباشَرَ بعضَهَا علَىٰ مَا سيأتِي، قالَ لِي فقيرٌ: كنَّا جماعةً منَ الفقراءِ قاصدِينَ مِنْ مكَّةَ إلَىٰ المدينةِ، ومعنَا شخصٌ زيلعِيٌّ، فلسعَهُ حَنَشٌ[3] فِي الطَّريقِ، فانتفخَتْ رِجْلُهُ وورِكُهُ، وغُشِيَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٥١.

(٢) ورد قوله في: روض الرياحين ص١٢٦، ومسالك الأبصار ٨/١٠٢.

(٣) أي: حية عظيمة.

عليهِ، فبقينَا ساعةً عندَهُ، وطمعْنَا فِي سيرِهِ معنَا، فعجزَ، وتَرَكْنَاهُ وحدَهُ، قالَ: فاجتمعَ بنَا بعدَ ذلِكَ، فقالَ: بينَا أنَا مغشِيٌّ، وإذَا بطائرٍ جاءَ إلى الماءِ، وبَلَّ أجنحَتَهُ ونفضَهُم علىٰ وجْهِي حتَّىٰ استفَقْتُ، ثمَّ اتَّكأَ علَىٰ وركِي وساقِي المنفوخِ فانفجرَ، فإذَا غُشِيَ عليَّ مِنِ اتِّكائِهِ رشَّنِي بالماءِ وتركَنِي ساعةً، ثمَّ اتَّكأَ علَىٰ رِجْلِي حتَّىٰ أَخرجَ جميعَ ما كانَ فيهَا منَ القيحِ، ثمَّ وجدَ الرَّاحةَ ولحقَهُمْ بالمدينةِ.

قالَ لِي الشَّيخُ عبدُ المُنعِمِ ـ وفَّقَهُ اللهُ ـ: فَدَلُّونِي علىٰ هذَا الشَّخصِ بالمَدِينَةِ، واتَّفقَ أنِّي سألتُهُ عنهَا، فذكرَهَا لِي، ثمَّ قالَ: ونزيدُكَ زيادةً، أنَا يومٌ داخِلٌ منْ بابِ جبريلَ وشخصٌ سلَّمَ عليَّ، فسلَّمتُ عليهِ، فقالَ لِي: تَعْرِفُنِي؟ فقلتُ: لَا [٣/٥٨ب]، فقالَ: أنَا طَيْرُكَ، فيكونُ علَىٰ هذَا منَ الملائكةِ الَّذينَ جعلَ اللهُ لهُمْ أنْ يتصوَّرُوا كيفَ شَاءُوا.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «**سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: قَالَ أَبُو الحَدِيدِ: سَمِعْتُ المُظَفَّرَ الجَصَّاصَ يَقُولُ**[(٢)]: **كُنْتُ أَنَا وَنَصْرٌ الخَرَائِطِيُّ**[(٣)] **لَيْلَةً فِي مَوْضِعٍ، فَتَذَاكَرْنَا شَيْئًا مِنَ العِلْمِ، فَقَالَ الخَرَائِطِيُّ: إِنَّ الذَّاكِرَ للهِ ـ تعالى ـ فَائِدَتُهُ فِي أَوَّلِ ذِكْرِهِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ ذَكَرَهُ، فَبِذِكْرِ اللهِ ذَكَرَهُ.**

قَالَ: فَخَالَفْتُهُ فَقَالَ: لَوْ كَانَ الخَضِرُ هَاهُنَا لَشَهِدَ بِصِحَّتِهِ، قَالَ: فَإِذَا نَحْنُ بِشَيْخٍ يَجِيْءُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، حَتَّىٰ بَلَغَ إِلَيْنَا وَسَلَّمَ، وَقَالَ: صَدَقَ، الذَّاكِرُ للهِ بِفَضْلِ ذِكْرِ اللهِ لَهُ ذَكَرَهُ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ الخَضِرُ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٥١.

(٢) ورد قوله في: جامع كرامات الأولياء ٢/٤١٥.

(٣) في الرسالة القشيرية: الخراط.

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذانِ الرَّجلانِ كانَ الخرائِطِيُّ أعلَمَ منَ الثَّاني، فقالَ: أقلُّ فوائِدِ الذِّكْرِ أنْ يعلمَ الذَّاكرُ أنَّ اللهَ ذكَرَهُ قبلَ أنْ يذكرَهُ هوَ، فإنَّ كلَّ مَا هوَ فيهِ قدِ اختصَّهُ الحقُّ بهِ، فذِكْرُ اللهِ لهُ متقدِّمٌ علىٰ سائِرِ ما هوَ فيهِ، فأُشْكِلَ الكلامُ علىٰ صاحِبِهِ، فقالَ لهُ الخرائطِيُّ: «**لَوْ كانَ الخَضِرُ هاهُنَا لصحَّحَ ما قلتُهُ، قالَ: فبينَمَا هُمْ كذلِكَ إذْ رأَوا شخصًا طائرًا في الهواءِ، فسلَّمَ وقالَ: الحقُّ ما قالَ**»، فعلِمَا مِنْ وقوعِ الأمْرِ علىٰ ما تمنَّاهُ أنَّهُ الخضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ففِي هذَا كرامةُ رُؤيةِ الخَضرِ لهمَا، وفيهِ تحقيقُ المسألةِ لهُمَا جَمِيْعًا، ورجوعُ صَاحِبِهِ إليهِ.

❁ **قالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يَقُولُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَقَالَ: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: إِنَّكَ تَمْشِي عَلَىٰ المَاءِ، فَقَالَ: سَلْ مُؤَذِّنَ المحلَّةِ؛ فَإِنَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ لَا يَكْذِبُ، قَالَ: فَسَأَلَهُ، فَقَالَ المُؤَذِّنُ: لَا أَدْرِي هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ هَذِهِ الأَيَّامِ نَزَلَ الحَوْضَ لِيَتَطَهَّرَ، فَوَقَعَ فِي المَاءِ، فَلَوْ لَمْ أَكُنْ أَنَا لَبَقِيَ فِيهِ.**

قَالَ الأُسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ: إِنَّ سَهْلًا كَانَ بِتِلْكَ الحَالَةِ الَّتِي وَصَفَ، وَلَكِنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ يُحِبُّ أَنْ يَسْتُرَ أَوْلِيَاءَهُ، فَأَجْرَىٰ مَا وَقَعَ مِنْ حَدِيثِ المُؤَذِّنِ وَالحَوْضِ سَتْرًا لِحَالِ سَهْلٍ، وَسَهْلٌ كَانَ صَاحِبَ الكَرَامَاتِ.

وَفِي قَرِيبٍ مِنْ هَذَا المَعْنَىٰ مَا حُكِيَ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ المَغْرِبِيِّ رَأَيْتُهُ بِخَطِّ أَبِي الحُسَينِ الجُرْجَانِيِّ عَنْهُ [٣/١٥٩أ] **قَالَ: أَرَدْتُ مَرَّةً أَنْ أَمْضِيَ إِلَىٰ (مِصْرَ) أَرْكَبُ السَّفِينَةَ، ثُمَّ خَطَرَ بِبَالِي أَنِّي أُعْرَفُ هُنَاكَ، فَخِفْتُ الشُّهْرَةَ، فَمَرَّ مَرْكِبٌ، فَبَدَا لِي، فَمَشَيْتُ عَلَىٰ المَاءِ وَلَحِقْتُ المَرْكِبَ، وَدَخَلْتُ السَّفِينَةَ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ، وَلَمْ يَقُلْ**

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٥١ ـ ٥٥٢.

أَحَدٌ: إِنَّ هَذَا نَاقِضٌ لِلعَادَةِ أَوْ غَيْرُ نَاقِضٍ، فَعَرَفْتُ أَنَّ الْوَلِيَّ مَسْتُورٌ وَإِنْ كَانَ مَشْهُورًا».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففِي الحكايةِ الأُولَىٰ أنَّ سهلَ بنَ عبدِ اللهِ كانَتْ لهُ كرامةٌ يمشِي علَىٰ الماءِ، فلمَّا سألَهُ سائلٌ عَنْ ذلكَ وأرادَ أنْ يستُرَ القضيَّةَ عنهُ قالَ لهُ: «**اسألْ مؤذِّنَ المحلَّةِ، فإنَّهُ رجلٌ صالحٌ يَصْدُقُكَ**»، قالَ: فمضيتُ إليهِ وسألتُهُ عنْ مشيهِ علَىٰ الماءِ، قالَ: «**ما أعرفُ هذَا**»، ولكنِّي أذكرُ أنَّهُ جاءَ مِنْ مُدَّةٍ يتطهَّرُ مِنْ حَوضٍ فزَلَقَ فيهِ، فلولَا أنْ أكونَ حاضرًا لبقِيَ فيهِ، فكانَ فِي هذِهِ الحكايةِ سترٌ لحالِهِ(١).

ومنهُ ما يقربُ لأبِي عثمانَ المغربِيِّ، قالَ: نويتُ أنْ أعدِّيَ إلَىٰ مصرَ فِي مركبٍ لحاجةٍ لِي، وكانَ المركبُ فِي الجهةِ الَّتِي كنتُ فيهَا منَ النِّيلِ، ثمَّ تغيَّرَتْ نيَّتِي فلمَّا انحدَرَتِ المركبُ تجدَّدَتْ لِي نيَّةٌ فمشيتُ علىٰ وجْهِ الماءِ وطلعتُ فِي المركبِ والنَّاسُ ينظرونَ إليَّ، ومَا سمِعْتُ أحدًا منهُمْ يذكُرُ فِي مشْيِي علَىٰ الماءِ شيئًا، ولَا تحسَّسَ لهُ، فعلِمْتُ أنَّ اللهَ - تعالىٰ - يستُرُ أولياءَهُ.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولقَدْ سألَنِي بعضُ إخوانِنَا أنْ أسألَ الشَّيخَ الفقيهَ أبا عبدِ اللهِ محمَّدَ بنَ قاسمٍ الدكَّاليَّ عن قضيَّةٍ باشرَهَا؛ وهوَ أنَّهُ رأىٰ مَنْ مشَىٰ علىٰ الماءِ، فسألتُهُ أنْ يحدِّثَهُ عنهَا، فحدَّثَهُ وأنَا أسمعُ، قالَ: كنَّا في معدِّيةٍ مِنْ معدِّيَاتِ (نيلِ مصرَ) التي يُعدَّىٰ بهَا مِنْ أحدِ الشَّطَّينِ إلىٰ الثَّانِي، قالَ: وكنَّا جماعةً منْ (دَكالَةَ) وكانَ معنَا فِي المعدِّيةِ رجلٌ منْ نصارَىٰ البلادِ وأعيانِهِمْ، فأخذَ يستهزِئُ بـ(دَكالَةَ) ويقولُ: هؤلاءِ عُبَّادُ المُسلِمينَ، قالَ: فَفَهِمَ بعضُ الفقراءِ منهُ ذلكَ، فقالَ: اذكُرُوا اللهَ، قالَ: فذكرَ الجماعةُ اللهَ ساعةً وهُمْ في وسطِ النِّيلِ، فقوِيَ علَىٰ الفقيرِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٢٤.

حالُهُ، فوقعَ فِي البحرِ، ثمَّ مشَىٰ إلىٰ السَّاحلِ، فسألتُ أبا عبدِ اللهِ محمَّدًا: كيفَ كانَ مشيُهُ؟ قالَ لِي: لمَّا رمَىٰ نفسَهُ غرقَ ثمَّ صعدَ وبقِيَ يخوضُ الماءَ خوضًا، ثمَّ ذهبَ علَىٰ وجهِهِ [٣/٥٩ب]، فمَا اجتمعْنَا بهِ إلىٰ آخرِ النَّهارِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَمِمَّا شَاهَدْنَا مِنْ أَحْوَالِ الأُسْتَاذِ أَبِي عَلِيٍّ الدَّقَّاقِ رَحِمَهُ اللَّهُ مُعَايَنَةً[٢]: أَنَّهُ كَانَتْ بِهِ عِلَّةُ حَرْقَةِ البَوْلِ، وَكَانَ يَقُومُ فِي سَاعَةٍ غَيْرَ مَرَّةٍ، حَتَّىٰ كَانَ يُجَدِّدُ الوُضُوءَ غَيْرَ مَرَّةٍ لِرَكْعَتَي فَرْضٍ، وَكَانَ يَحْمِلُ مَعَهُ قَارُورَةً فِي طَرِيقِ المَجْلِسِ، فَرُبَّمَا كَانَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي الطَّرِيقِ مَرَّاتٍ ذَاهِبًا وَجَائِيًا، وَكَانَ إِذَا قَعَدَ عَلَىٰ رَأْسِ الكُرْسِيِّ يَتَكَلَّمُ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ الطَّهَارَةِ، وَلَوِ امْتَدَّ بِهِ المَجْلِسُ زَمَانًا طَوِيلًا، وَكُنَّا نُعَايِنُ ذَلِكَ مِنْهُ سِنِينَ، وَلَمْ يَقَعْ لَنَا فِي حَيَاتِهِ أَنَّ هَذَا نَاقِضٌ لِعَادَتِهِ، وَإِنَّمَا وَقَعَ لِي هَذَا وَفُتِحَ عَلَيَّ عِلْمُهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا يُحْكَىٰ عَنْ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ كَانَ قَدْ أَصَابَتْهُ زَمَانَةٌ فِي آخِرِ عُمْرِهِ، فَكَانَتْ تُرَدُّ عَلَيهِ القُوَّةُ فِي أَوْقَاتِ الفَرْضِ، فَيُصَلِّي قَائِمًا[٣].

وَمِنَ المَشْهُورِ أَنَّ عَبْدَ اللهِ الوَزَّانَ[٤] كَانَ مُقْعَدًا، وَكَانَ فِي السَّمَاعِ إِذَا ظَهَرَ بِهِ وَجْدٌ يَقُومُ»[٥].

❁ **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذهِ الحكاياتُ الثَّلاثةُ إحداهَا عنِ الشَّيخِ أبِي عليٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ الَّذِي كانَ بهِ سَلَسُ البولِ، وكانَ إذا جلسَ علَىٰ كُرسيِّهِ للوعظِ يرتفعُ عنهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٢.

(٢) ورد ذلك في: جامع كرامات الأولياء ١/٣٧٩.

(٣) سبق تخريج ذلك.

(٤) في (ف): الوراق.

(٥) ورد ذلك في: جامع كرامات الأولياء ٢/١٨٧.

عونًا لهُ علىٰ مطلوبهِ ووعظِهِ وتنبيهِهِ، فهذهِ كرامةٌ.

وسهلٌ كانَ بهِ زمانةٌ، فتزولُ عندَ قيامِهِ للفرضِ، فهذهِ [أيضًا كرامة](١).

وكذلكَ هذَا الشَّخصُ الَّذي هوَ الوزَّانُ المقعَدُ فِي سائرِ أحوالِهِ، فإذَا أخذَهُ السَّماعُ قامَ علىٰ نفسِهِ، وزالَ عنهُ مرضُهُ.

وهذهِ كلُّهَا آثارٌ تَدُلُّ علىٰ صِدْقِهِمْ في طَاعةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وعَونِ اللهِ لهُمْ علىٰ طَاعتِهِ، ومِنْ هذا الوَجْهِ كَانَتْ كَرَامةً؛ وهيَ خلوقَةٌ لعادةِ كلِّ واحدٍ منهُم.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ المَالِكِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ أَحْمَدَ البَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الحَوَارِيِّ، قَالَ(٣): حَجَجْتُ أَنَا وَأَبُو سُلَيْمَانَ [الدّارانيّ](٤)، فَبَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِذْ سَقَطَتِ السَّطِيحَةُ(٥) مِنِّي، فَقُلْتُ لِأَبِي سُلَيْمَانَ: فُقِدَتِ السَّطِيحَةُ وَبَقِينَا بِلَا مَاءٍ، وَكَانَ بَرْدٌ شَدِيدٌ، فَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: يَا رَادَّ الضَّالَّةِ، وَيَا هَادِيًا مِنَ الضَّلَالَةِ اُرْدُدْ عَلَيْنَا الضَّالَّةَ، فَإِذَا وَاحِدٌ يُنَادِي: مَنْ ذَهَبَتْ لَهُ سَطِيحَةٌ؟

قَالَ: فَقُلْتُ: أَنَا، فَأَخَذْتُهَا، فَبَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ وَقَدْ تَدَرَّعْنَا بِالفِرَاءِ [٣/٦٠أ] مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ، فَإِذَا نَحْنُ بِإِنْسَانٍ عَلَيهِ طِمْرَانِ، وَهُوَ يَتَرَشَّحُ عَرَقًا! فَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: تَعَالَ حَتَّىٰ نَدْفَعَ إِلَيْكَ شَيْئًا مِمَّا عَلَيْنَا مِنَ الثِّيَابِ، فَقَالَ: يَا أَبَا سُلَيْمَانَ: تُشِيرُ إِلَىٰ الزُّهْدِ وَتَجِدُ البَرْدَ؟! أَنَا أَسِيحُ فِي هَذِهِ البَرِّيَّةِ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً مَا انْتَفَضْتُ وَلَا

---

(١) تتمة يقتضيها المقام.

(٢) ورد قوله في: تاريخ مدينة دمشق ١٥٥/٣٤.

(٣) الرسالة القشيرية ٥٥٢/٢.

(٤) زيادة من (ف).

(٥) أي: القربة.

ارْتَعَدْتُ، يُلبِسُنِي فِي الْبَرْدِ فَيْحًا(١) مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَيُلْبِسُنِي فِي الصَّيْفِ مَذَاقَ بَرْدِ مَحَبَّتِهِ(٢)، وَمَرَّ(٣)».

※ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأوَّلُ الكرامةِ لأبِي سليمانَ إجابةُ دعائِهِ فِي السَّطيحةِ.

وثانِي كرامةٍ لهذَا الفقيرِ الَّذِي لَا يجدُ حَرًّا ولا بَرْدًا؛ وذلكَ لكمالِ اشتغالِهِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ، والحرُّ والقرُّ عارضَانِ علىٰ الأجسامِ، إذَا أرادَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ أنْ يخلقَهُمَا خلقَهُمَا، وإذَا أرادَ أنْ يصرفَهُمَا صَرَفَهُمَا، وهذَا وجهُ الإنسانِ قدِ استوَىٰ عليهِ الحرُّ والقرُّ، ومكشوفٌ فِي أحدِهِمَا ولَا يجدُ ألمَ الحرِّ ولَا ألمَ البردِ القويِّ، بلْ يتأنَّسُ بهِمَا، وكذلكَ جسمُ الإنسانِ بجُملتِهِ إذا تعوَّدَهُ الإنسانُ وعوَّدَ نفسَهُ لبْسَ قميصٍ واحدٍ استوَىٰ حالُهُ فِي الصَّيفِ والشِّتاءِ، واللهُ لطيفٌ بمَنْ يشاءُ فيمَا يشاءُ(٤).

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ التِّكْرِيتِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الكتَّانِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَكَّةَ ـ حَرَسَهَا اللهُ تعالىٰ ـ يَقُولُ: سَمِعْتُ الخَوَّاصَ يَقُولُ(٦): كُنْتُ فِي البَادِيَةِ مَرَّةً، فَسِرْتُ فِي وَسَطِ النَّهَارِ، فَوَصَلْتُ إِلَىٰ شَجَرَةٍ، وَبِالقُرْبِ [منها](٧) مَاءٌ، فَنَزَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِسَبُعٍ عَظِيمٍ

(١) أي: ريحًا.

(٢) قال العروسي: «محصله: أنه يجد بعوارض محبته لله تعالىٰ ما يشغله عن البرد والحر بتدبير إلهي، فلا يتأثر بغير ما هو بصدده؛ لطفا به وفضلا، وحفظا لوقته» نتائج الأفكار ٤/٣١٤ ـ ٣١٥.

(٣) أي: إلىٰ سبيله.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: ٢/١٠٢٥.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٣.

(٦) ورد قوله في: روض الرياحين ص٢٣٦، والنطق المفهوم من أهل الصمت المعلوم ص٢٣٠، والإشارة والتطريز ص٩١، ومسالك الأبصار ٨/١٠٣.

(٧) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية.

[قَدْ](١) أَقْبَلَ، فَاسْتَسْلَمْتُ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنِّي إِذَا هُوَ يَعْرُجُ، فَحَمْحَمَ وَبَرَكَ بَيْنَ يَدَيَّ، وَوَضَعَ يَدَهُ فِي حِجْرِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا يَدُهُ مُنْتَفِخَةٌ فِيْهَا قَيْحٌ وَدَمٌ، فَأَخَذْتُ خَشَبَةً وَشَقَقْتُ المَوْضِعَ الَّذِي فِيهِ القَيْحُ، وَشَدَدْتُ عَلَىٰ يَدِهِ خِرْقَةً، فَمَضَىٰ فَإِذَا أَنَا بِهِ بَعْدَ سَاعَةٍ مَعَهُ شِبْلَانِ فَيُبَصْبِصَانِ لِي، وَحَمَلَا إِلَيَّ رَغِيفًا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الحيواناتِ تعرفُ المصالحَ والمفاسدَ، ومَنْ يُؤذِيهَا ويُرْدِيهَا(٢)، [ومَن يُكْرِمُها](٣)، إلَّا أنَّهَا لَمْ تُكَلَّفْ فيمَا هيَ فيهِ، فلمَّا جاءَ السَّبعُ لإبراهيمَ وضعَ يدَهُ فِي حجرِهِ، كأنَّهُ يشتكِي ما بهِ، فرأىٰ موضِعًا مقيحًا، فأخرجَ منهُ مَا كانَ فيهِ، ووجدَ [٣/٦٠ب] السَّبعُ الرَّاحةَ، فمضَىٰ وأتَىٰ بعدَ ذلكَ معَهُ شِبلانِ مِنْ أولادِهِ، ومعَهُمَا رغيفٌ مِنْ خُبزٍ، فكأنَّهُ أتَىٰ بالرَّغيفِ عِوَضًا، وأتَىٰ بالشِّبلَينِ يرجُو البركةَ مِنْ هذَا الرَّجلِ الصَّالحِ، وهوَ إبراهيمُ.

والرَّغيفُ يمكنُ أنْ يكونَ سقطَ مِنْ بعضِ النَّاسِ، ويمكنُ أنْ يأتِيَ بهِ وليٌّ مِنَ الأولياءِ، ويمكنُ أنْ ينشئَهُ اللهُ إنشاءً، كلُّ ذلكَ عبرةٌ لإبراهيمَ وآيةٌ؛ لِيُرِيَهُ مِنْ أفعالِهِ لِيَرَىٰ العجائبَ(٤).

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٥): «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ المَيَانِجِي قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبدِ اللهِ بْنِ مُطَرِّفٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ العَسْقَلَانِيُّ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الحَوَارِيّ قَالَ(٦): اِشْتَكَىٰ مُحَمَّدُ بْنُ السَّمَّاكِ، فَأَخَذْنَا مَاءَهُ،

---

(١) زيادة من (ف).

(٢) الردىٰ: الهلاك.

(٣) تتمة من إحكام الدلالة ٢/١٠٢٦، وقد أفاد ذلك من المؤلف.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: ٢/١٠٢٥.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٣.

(٦) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/١٨١.

وَانطَلَقْنَا بِهِ إِلَىٰ طَبِيبٍ نَصْرَانِيٍّ، فَبَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ بَيْنَ (الحيرَةِ) وَ(الكُوفَةِ) اِسْتَقْبَلَنَا رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ، طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، نَقِيُّ الثَّوْبِ، فَقَالَ لَنَا: إِلَىٰ أَيْنَ تَمُرُّونَ؟ قُلْنَا: نُرِيدُ فُلَانًا الطَّبِيبَ، نُرِيهُ مَاءَ ابْنِ السَّمَّاكِ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، تَسْتَعِينُونَ عَلَىٰ وَلِيِّ اللهِ بِعَدُوِّ اللهِ؟! اِضْرِبُوا بِهِ الأَرْضَ، وَارْجِعُوا إِلَىٰ ابْنِ السَّمَّاكِ، وَقُولُوا لَهُ: ضَعْ يَدَكَ عَلَىٰ مَوْضِعِ الوَجَعِ وَقُلْ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، ثُمَّ غَابَ عَنَّا، فَلَمْ نَرَهُ.

فَرَجَعْنَا إِلَىٰ ابْنِ السَّمَّاكِ، فَأَخْبَرْنَاهُ بِذَلِكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ مَوْضِعِ الوَجَعِ، وَقَالَ مَا قَالَ الرَّجُلُ، فَعُوفِيَ فِي الوَقْتِ، وَقَالَ: ذَلِكَ الخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ الحكايَةُ تدلُّ علىٰ جوازِ رؤيةِ الخَضِرِ، وتدلُّ علىٰ أنَّ العبدَ الصَّالحَ ينبغِي أنْ يتداوىٰ أوَّلًا بما ذكرَ اللهُ فيهِ الشِّفاءَ، كما قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿هُوَ[1] شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقولِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]: «شِفَاءُ أُمَّتِي فِي ثَلَاثٍ: آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وَلَعْقَةٌ مِنْ عَسَلٍ، وَشَرْطَةٌ مِنْ حَجَّامٍ»، فلمَّا أخذُوا ماءَ ابنِ السَّمَّاكِ ليوصلُوهُ إلىٰ طبيبٍ نصرانِيٍّ، فلمْ يرضَ اللهُ ذلكَ، وأراهُمُ الخضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأمرَهُمْ بالدَّواءِ النَّافعِ؛ وهوَ أنْ يضعَ يدَهُ علىٰ موضعِ الوجعِ ويقولُ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾... الآيةَ.

وفائدةُ الحكايةِ: ظهورُ الخضِرِ للنَّاسِ، وأنَّهُ حيٌّ. وفيهِ كراهةُ أنْ يتداوىٰ

---

(١) في الأصل: فيه، والصواب المثبت.

(٢) وورد في صحيح البخاري ٥/٢١٥٢ ـ حديث رقم (٥٣٥٧) بلفظ: «الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أو شَرْبَةِ عَسَلٍ، أو كَيَّةٍ بِنَارٍ وأنا أَنْهَىٰ أُمَّتِي عن الكَيِّ». وورد بلفظ المؤلف في: الإشارات في علم العبارات ص٦٧١.
وله شاهد في المستدرك ١/٢٢٢، ولفظه: «عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال: قال عبد الله: الشفاء شفاءان: قراءة القرآن، وشرب العسل».

المؤمنُ بمَا يعرفُهُ الكافرُ لمَا فيهِ منَ الحاجةِ إليهِ، وهوَ عدوٌّ للهِ، أوْ محبَّتُهُ إنْ وُجِدَتِ العافيةُ علىٰ يدَيهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)] [٣/١٦١أ]: **«سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الحُسَيْنِ** رَحِمَهُ اللَّهُ **يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مُحَمَّدٍ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ البِسْطَامِيَّ يَقُولُ[(٢)]: كُنَّا قُعُودًا فِي مَسْجِدِ أَبِي يَزِيدَ، فَقَالَ: قُومُوا نَسْتَقْبِلْ وَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ - تعالىٰ -، فَقُمْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا بَلَغْنَا الدَّرْبَ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سِتْنَبَةَ الهَرَوِيُّ، فَقَالَ لَهُ أَبُو يَزِيدَ: وَقَعَ فِي خَاطِرِي أَنْ أَسْتَقْبِلَكَ وَأَشْفَعَ لَكَ إِلَىٰ رَبِّي، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سِتْنَبَةَ: وَلَوْ شَفَعْتَ فِي جَمِيعِ الخَلْقِ لَمْ يَكُنْ كَثِيرًا، إِنَّمَا هُمْ قِطْعَةُ طِينٍ، فَتَحَيَّرَ أَبُو يَزِيدَ مِنْ جَوَابِهِ.**

وَكَرَامَةُ إِبْرَاهِيمَ فِي اسْتِصْغَارِ ذَلِكَ أَتَمُّ[(٣)] مِنْ كَرَامَةِ أَبِي يَزِيدَ فِيمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الفِرَاسَةِ وَصَدَقَ لَهُ مَنْ فِي الحَالِ فِي بَابِ الشَّفَاعَةِ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأبُو يزيدَ كُوشِفَ بمجيءِ إبراهيمَ الهرويِّ، وأنَّهُ آتٍ، ولذلِكَ قالَ لأصحابِهِ: «**قُومُوا بنَا نستقبلْ وليًّا منْ أولياءِ اللهِ - تعالىٰ -**»، فلمَّا وجدَهُ وسلَّمَ عليهِ، قالَ أبو يزيدَ: «**وقعَ لِي أنْ أستقبلَكَ وأستغفرَ لكَ**».

وفِي هذَا إظهارُ مكاشفتِهِ، وأنَّهُ أهلٌ لأنْ يسألَ اللهَ فِي إبراهيمَ، وهوَ معنَىٰ الشَّفاعةِ، فقالَ إبراهيمُ: «**ومَا الَّذي حصلَ لكَ مِنْ ذلكَ، ولَوْ شفَّعَكَ فِي الخلقِ كلِّهِمْ ما شفَّعَكَ إلَّا في قطعةِ طينٍ**»، فهذا إذَا أرادَ بهِ استصغارَ قَدْرِ نفسِهِ وأدَّبَ صاحبَهُ؛ لكَي لا يدلَّ بعملِهِ كانَ حسنًا وإلَّا ففضيلةُ الشَّفاعةِ فِي النَّاسِ أجمعِينَ مرتبتُهَا عندَ اللهِ لا تخفَىٰ، وهيَ مرتبةُ نبيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ القيامةِ، للفَصلِ بينَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٣.

(٢) ورد قوله في: التدوين في أخبار قزوين ٢/١٣٣.

(٣) قال العروسي: «لأنها من النفس المحمدي، والقدم الأحمدي» نتائج الأفكار ٤/٣١٦.

العبَّادِ، حيثُ يأتُونَ نبيًّا نبيًّا، فهوَ يقولُ: نفسِي نفسِي، حتى يأتُوا محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيشفعُ[1]، وهذهِ مرتبةٌ عاليةٌ عندَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهوَ المقامُ المحمودُ الَّذِي وعدَهُ بهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وعلى هذَا التَّقريرِ فحالُ أبِي يزيدَ أثبتُ فيمَا ذكرَ وقصَدَ، وحالُ إبراهيمَ وإنْ كانَ رفيعًا ففيهِ ما ذكرْناهُ، وإنَّمَا يصحُّ على بعضِ الوُجُوهِ.

❁ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ الحُسَيْنِ يَقُولُ[3]: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ يَقُولُ ـ وَقَدْ سَأَلَهُ سَالِمٌ المَغْرِبِيُّ عَنْ أَصْلِ تَوْبَتِهِ ـ فَقَالَ: خَرَجْتُ مِنْ (مِصْرَ) إِلَى بَعْضِ القُرَى، فَنِمْتُ فِي الطَّرِيقِ، فَانْتَبَهْتُ وَفَتَحْتُ عَيْنِي، فَإِذَا أَنَا بِقُنْبُرَةٍ[4] عَمْيَاءَ، سَقَطَتْ مِنْ شَجَرَةٍ عَلَى الأَرْضِ، فَانْشَقَّتِ الأَرْضُ [٣/٦١ب] وَخَرَجَ مِنْهَا سُكُرُّجَتَانِ[5]؛ إِحْدَاهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالأُخْرَى مِنْ فِضَّةٍ، فِي إِحْدَاهُمَا سِمْسِمٌ، وَفِي الأُخْرَى مَاءُ وَرْدٍ، فَأَكَلَتْ مِنْ هَذِهِ وَشَرِبَتْ مِنْ هَذِهِ، قُلْتُ: حَسْبِي! ، تُبْتُ، وَلَزِمْتُ البَابَ إِلَى أَنْ قَبِلَنِي».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الخوارقُ أطلعَ اللهُ عليهَا ذا النُّونِ؛ تقويةً ليقينِهِ وتوكُّلِهِ، وكمالًا لشُغلِهِ بربِّهِ، وإعراضًا عَنْ سَائِرِ مَا يحتاجُ إليهِ مِنْ دنياهُ لقيامِ بِنْيَتِه، والعَوْنِ على عبادَتِهِ وذلكَ أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ أراهُ قنبرةً عمياءَ لا تستطيعُ حيلةً فِي رزقِهَا، وانشقَّتْ لهَا الأرضُ عن سُكُرّجتَينِ؛ إحداهُمَا ذهبٌ والأُخرَى فضَّةٌ، فِي

(١) حديث الشفاعة أخرجه مسلم في صحيحه ١/١٨٢ ـ حديث رقم (١٩٣).
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٤.
(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٧/٤٠٣، ووفيات الأعيان ١/٣١٦، والوافي بالوفيات ١١/١٨.
(٤) ضرب من الطير يشبه الحمرة. انظر: اللسان «ق ب ر».
(٥) السكرجة: إناء صغير.

إحداهُمَا سِمْسِمٌ والأخرىٰ ماءُ وَرْدٍ، وهذَا مِن أعظمِ الخوارقِ وأجلِّ اللُّطفِ.

وهذهِ كرامةٌ فِي حقِّهِ؛ لحملِهَا لهُ علىٰ الخيراتِ، وشُغلِهِ بمالكِ الأرضِ والسَّمَاواتِ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ[٢]: أَصَابَ عَبْدَ الوَاحِدِ بْنَ زَيْدٍ فَالِجٌ[٣]، فَدَخَلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، وَاحْتَاجَ إِلَىٰ الوُضُوءِ، فَقَالَ: مَنْ هَاهُنَا؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، فَخَافَ فَوْتَ الوَقْتِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ؛ أَلَا أَحْلَلْتَنِي مِنْ وِثَاقِي حَتَّىٰ أَقْضِيَ طَهَارَتِي، ثُمَّ شَأْنُكَ بِأَمْرِكَ، قَالَ: فَصَحَّ حَتَّىٰ أَكْمَلَ طَهَارَتَهُ، ثُمَّ عَادَ إِلَىٰ فِرَاشِهِ وَصَارَ كَمَا كَانَ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ مِنَ الخَوارقِ الَّتِي لَا إشكالَ في كونِهَا كَرَامَاتٍ؛ لأنَّهَا مُتعلِّقةٌ بالعباداتِ والعَونِ عليهَا، ولَوْ لَمْ يَكُنْ فيهَا فضيلةٌ لَمْ تَدْخُلْ في بَابِ الكَرَامَاتِ؛ لأنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ هوَ الَّذِي يكرمُ عِبادَهُ بمَا يقوِّي بهِ يقينَهُم، ويعظِّمُ بهِ أجورَهُم.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ أَيُّوبُ الحَمَّالُ[٥]: كَانَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الدَّيْلَمِيُّ[٦] إِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا فِي سَفَرٍ عَمَدَ إِلَىٰ حِمَارِهِ وَقَالَ فِي أُذُنِهِ: كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَشُدَّكَ، وَالآنَ لَا أَشُدُّكَ، وَأُرْسِلُكَ فِي هَذِهِ الصَّحْرَاءِ لِتَأْكُلَ الكَلَأَ، فَإِذَا أَذِنَ الرَّحِيلُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٤.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤١٣، وتاريخ دمشق ٣٧/٢٢٨.

(٣) الفالج: مرض يحدث في أحد شقي البدن طولا فيبطل إحساسه وحركته، وربما كان في الشقين. انظر: المصباح المنير ٢/٤٨٠.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٤.

(٥) ورد قوله في: الروض الفائق في المواعظ والرقائق ص١٣١.

(٦) في الأصل: الديلي، والصواب المثبت.

فتعالَ، فإذا هُوَ وقتَ الرَّحِيلِ يأتِيهِ الحِمارُ».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ فيهِ مِنْ خَرْقِ العَادةِ فَهْمُ الحمارِ لمَا يقولُ لهُ في أُذُنِهِ، وإلهامُ اللهِ لهُ بالعملِ بمَا قالَ، ومجيئُهُ إليهِ وقتَ الحاجةِ، وفيهِ راحتُهُ هوَ لوْ ربطَهُ؛ مِنْ تكلُّفِ الحشِّ لهُ، وتيسيرِ طعامِهِ لهُ، فإذا أرسلَهُ ليَرْعَى بنفسِهِ تفَرَّغَ هوَ لطاعةِ ربِّهِ، ومَا لابُدَّ لهُ منهُ فِي خاصَّةِ نفسِهِ.

وهذَا يدلُّ علىٰ صِدْقِ همَّتِهِ، وتعلُّقِ قلبِهِ بمولَاهُ [٣/١٦٢أ] فِي إصلاحِ دابَّتِهِ، ورَفْعِ الشُّغلِ عَنْ قلبِهِ بتكلُّفِ مُؤْنَتِهِ(١)، وهذِهِ كلُّهَا كراماتٌ وعونٌ علىٰ الطَّاعاتِ، وتسخيرُ مولاهُمْ للحيواناتِ؛ كأخْذِ شيبانَ بأُذُنِ السَّبعِ، وقولِ إبراهيمَ بنِ أدهمَ(٢): «تنحَّ عَنْ طريقِنَا»، كلُّ ذلكَ عونٌ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُمْ عندَ دعاءِ الحاجاتِ.

۞ قالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَقِيلَ: زَوَّجَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الدَّيْلَمِيُّ ابْنَتَهُ وَاحْتَاجَ إِلَىٰ مَا يُجَهِّزُهَا بِهِ، وَكَانَ لَهُ ثَوْبٌ يَخْرُجُ كُلَّ وَقْتٍ فَيُشْتَرَىٰ بِدِينَارٍ، فَخَرَجَ لَهُ ثَوْبٌ، فَقَالَ: لَا يُبَاعُ(٤)؛ إِنَّهُ يُسَاوِي أَكْثَرَ مِنْ دِينَارٍ، فَلَمْ يَزَلْ يَزْدَادُ فِي ثَمَنِهِ إِلَىٰ أَنْ بَلَغَ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجَهَّزَهَا [بِثَمَنِهِ](٥)».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ هوَ الَّذِي أشَرْنَا إليهِ بأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ يجعلُ البركةَ فِي الدَّنانيرِ والدَّراهمِ والدَّقيقِ والزَّيتِ وغيرِ ذلكَ، تارةً فِي زيادةِ الأجرامِ، وتارةً في زيادةِ الأثمَانِ، ولقد جرىٰ لمَنْ أعرفُهُ بعضُ ذلكَ، وكانَ يعملُ بعضَ السَّواسِي فِي بعضِ الأوقاتِ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يدَّعِي الخسارةَ فيمَا يعملُهُ

---

(١) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٢٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٤.

(٤) في (ف) والرسالة القشيرية: «فقال له البياع: إنه..». والقصد بالبياع: السمسار لمريدي الشراء.

(٥) زيادة من (ف).

وربَّما ربحَ هوَ فِي السُّوسيَّةِ[١] الواحدةِ خمسينَ درهمًا، وربَّما كانَتْ هذهِ الزِّيادةُ عونًا لهُ علىٰ أمرٍ دينيٍّ، كمَا كانَتِ المائةُ دينارٍ عَوْنًا لذلِكَ فِي تَزْويجِ ابنتِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: اِبْتَعْتُ إِزَارًا، فَوَجَدْتُهُ قَصِيرًا، فَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَمْغَطَ لِي فِيهِ ذِرَاعًا فَفَعَلَ؛ أَيْ: يَمُدُّهُ، مِنْ مَغْطِ الفَرَسِ؛ وَهُوَ مَدُّهُ.

قَالَ النَّضْرُ: وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ[٣] لَزَادَنِي».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ مِنَ الزِّيادةِ فِي الأَجْرامِ وما تقدَّمَهُ مِنَ الزِّيادةِ فِي الأَثْمانِ، وَذَلِكَ عِنْدَ دُعَاءِ الحاجةِ يُكرِمُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهِ مَنْ شاءَ[٤].

ومثلُ هذَا ما تقدَّمَ[٥] للَّذِي دخلَ هو ورفيقُهُ إلىٰ مسجدٍ خَرَابٍ؛ لِيَستَظِلَّا بهِ، فوجدَا سقفَهُ متهدِّمًا فرغبَا فِي أنْ يُصلِحَاهُ، وصَعدَا أعلاهُ، وأخذَا خشبةً، فجعلَ الشَّيخُ طَرَفَهَا فِي أحدِ الجدارَينِ، وأخذَ التِّلميذُ الخَشَبَةَ ليضعَهَا علىٰ الجدارِ الثَّانِي فقصُرَتْ، فأمرَهُ الشَّيخُ بأنْ يسمِّي اللهَ ويمدَّهَا، ففعلَ ذلكَ، فامتدَّتْ حتَّىٰ وصلَتْ إلىٰ الجدارِ الثَّانِي ورُكِّبَتْ عليهِ.

وهذَا كلُّهُ منْ خوارقِ العاداتِ، يُكرِمُ اللهُ بهِ أولياءَهُ عندَ الحَاجَاتِ، ومَنْ أنكرَ جوازَ ذلكَ خُشِيَ عليهِ رَدُّ النُّبوَّاتِ؛ لأنَّ الدَّلالةَ علىٰ صِحَّتِهَا [٦٢/٣ب] خَوَارِقُ العَاداتِ، وَجَرَيانُ المُعْجِزَاتِ، وكلُّهَا أفعالٌ لمَالكِ الأرضِ والسَّمَاواتِ.

(١) نسبة إلىٰ مدينة «سوسة»، تصنع من الخز وغيره. انظر: العقد الفريد ٢٦٩/٦.

(٢) الرسالة القشيرية ٥٥٤/٢.

(٣) أي: في المد علىٰ ذراع.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٠٢٨/٢ ـ ١٠٢٩.

(٥) الدلالة ٥١٥/٣.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ [(٢)]: كَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ سَأَلَ أَنْ يُهَوِّنَ عَلَيهِ طَهُورَهُ فِي الشِّتَاءِ، فَكَانَ يُؤْتَىٰ بِهِ وَلَهُ بُخَارٌ، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَنْزِعَ شَهْوَةَ النِّسَاءِ مِنْ قَلْبِهِ، فَكَانَ لَا يُبَالِي بِهِنَّ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَمْنَعَ الشَّيْطَانَ مِنْ قَلْبِهِ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَيْهِ».

❋ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذِهِ الأمورُ الَّتِي سألَ ربَّهُ فيهَا وأجرَاهَا لهُ عونًا علَىٰ الطَّاعةِ؛ وهوَ: أنْ يأتيَهُ الماءُ فِي الشِّتاءِ سخنًا لهُ بخارٌ مِنْ غَيْرِ تَسْخِيْنِهِ بِنَارٍ، والثَّانِي: أنْ ينزعَ مِنْ قلبهِ شهوةَ النِّساءِ، وأنْ لا يبالِي بهنَّ، وهاتَانِ نعمتانِ وكرامتَانِ؛ إحداهُمَا: راحتُهُ منَ المُشغلاتِ، والثَّانيةُ: عَوْنٌ علَىٰ الطَّاعاتِ، ولمَّا سألَهُ ـ تعالىٰ ـ أنْ يزيلَ مِنْ قلبهِ الوسوسةَ فِي الصَّلاةِ منعَهُ ذلكَ؛ لأنَّ الحقَّ جعلَ ذلكَ للشَّيطانِ الرَّجيمِ، وأخبرَ أنَّهُ ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥ ـ ٦].

وإنَّمَا حِفْظُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ لعبادِهِ منهُ بأنْ لَا يقبلُوا وَسَاوسَهُ، فقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، يعنِي: سلطانَ القبولِ، وقد قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)]: «مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ»، قيلَ: حتَّىٰ أنتَ يا رسولَ اللهِ، قالَ: حتَّىٰ أنَا إلَّا أنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيهِ فَأَسْلَمَ»، وفِي روايةٍ: «فَأَسْلَمَ مِنْهُ»، معناهُ: يقولُ ولا أقبلُ منهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الحَارِثِ[(٥)]: دَخَلْتُ الدَّارَ، فَإِذَا أَنَا

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٤.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد ص٢٩٥، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٥٣٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٦/٢٢، وابن الجوزي في صفة الصفوة ٣/٢٠٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢١٦٧ ـ حديث رقم (٢٨١٤)، بلفظ قريب منه.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٤.

(٥) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٢٧٩، وحل الرموز ص٣٨٩، وجامع كرامات الأولياء ١/٤٩٤.

بِرَجُلٍ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ دَخلتَ بِغَيْرِ إِذْنِي! فَقَالَ: أَخُوكَ الخَضِرُ، [فَقُلْتُ: ادعُ اللهَ لِي](١)، فَقَالَ: هَوَّنَ اللهُ عَلَيْكَ طَاعَتَهُ، فَقُلْتُ: زِدْنِي، فَقَالَ: وَسَتَرَها عَلَيْكَ(٢)».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تكرَّرَ مِرارًا أنَّ الخضِرَ موجودٌ، وأنَّ النَّاسَ يرونَهُ فِي اليقظةِ وفِي النَّومِ، وقدِ اجتمعَ بمَنْ أعرفُهُ، وكانَ مِنْ دعائِهِ لهُ أنْ قالَ: «صرفَ اللهُ عنكَ كلَّ شرٍّ أو دفعَ عنكَ»، وهوَ فِي بركةِ دعائِهِ ودعاءِ غيرِهِ مِنْ أهلِ الخيرِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الخَوَّاصُ(٤): دَخَلْتُ خَرِبَةً فِي بَعْضِ أَسْفَارِي فِي طَرِيقِ مَكَّةَ بِاللَّيْلِ، وَإِذَا فِيهَا سَبُعٌ عَظِيمٌ، فَخِفْتُ، فَهَتَفَ بِي هَاتِفٌ: اثْبُتْ، فَإِنَّ حَوْلَكَ سَبْعِينَ(٥) أَلْفَ مَلَكٍ يَحْفَظُونَكَ [٣/١٦٣أ]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يحفظُ أولياءَهُ(٦) بصَرْفِ السُّوءِ عنهُم، وبالملائكةِ يحرسونَهُمْ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١٠ ـ ١١]، ولذلِكَ «هَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ: لَا تَخَفْ»؛ لئلَّا يتغيَّرَ قلبُكَ فتخافَ غيرَ اللهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٧): «أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو الفَرَجِ

---

(١) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.

(٢) خشية من الرياء في إظهارها.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٤ ـ ٥٥٥.

(٤) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٥٥١، والاعتصام ص٢١٢، والروض الفائق ص١٣١.

(٥) في (ف): سبعون.

(٦) أي: زيادة عن غيرهم، وإلا فحفظه عَزَّوَجَلَّ شاملٌ لكافة خَلْقه.

(٧) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٥.

الورَثَانِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الحُسَينِ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرًا الدُّبَيْلِيَّ يَقُولُ[١]: دَخَلَ النُّورِيُّ المَاءَ، فَجَاءَ لِصٌّ فَأَخَذَ ثِيَابَهُ، ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَ وَمَعَهُ الثِّيَابُ وَقَدْ جَفَّتْ يَدُهُ[٢]، فَقَالَ النُّورِيُّ: قَدْ رَدَّ عَلَيْنَا الثِّيَابَ، فَرُدَّ عَلَيْهِ يَدَهُ، فَعُوفِيَ».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ مِنْ جملةِ حفظِ اللهِ للأولياءِ وإكرامِهِ لهُم؛ وذلكَ أنَّ النُّوريَّ نزلَ الماءَ ليتطهَّرَ، وتركَ قماشَهُ الَّذِي يدفعُ عنهُ الحَرَّ والبردَ، فجاءَ لصٌّ وهوَ مشغولٌ عن حراسةِ قماشِهِ بغُسْلِهِ فأخذَ القماشَ، فلمَّا حملَ القماشَ وسَعَىٰ يبسَتْ يدُهُ فتفطَّنَ للسَّببِ، فرجعَ علىٰ العقبِ، وحطَّهُ فِي موضعِهِ، وبقِيَ حائرًا، فألهَمَ اللهُ النُّوريَّ وكُوشِفَ بمَا أصابَهُ، فقالَ: يَا ربِّ، قَدْ ردَّ القماشَ، فَرُدَّ عليهِ يدَهُ، فردَّهَا، وكثيرًا ما يلطفُ الحقُّ بنَا بسببٍ وبغيرِ سببٍ، ولَوْ تحسَّسَ عبادُهُ لأفعالِهِ بهِم لأدركُوا منهُ العَجَبَ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ الشِّبْلِيُّ[٤]: اعْتَقَدْتُ وَقْتًا أَلَّا آكُلَ إِلَّا مِنَ الحَلَالِ، فَكُنْتُ أَدُورُ فِي البَرَارِي، فَرَأَيْتُ شَجَرَةَ تِينٍ، فَمَدَدْتُ يَدَيَّ إِلَيْهَا لِآكُلَ، فَنَادَتْنِي الشَّجَرَةُ: اِحْفَظْ عَلَيكَ عَقْدَكَ، لَا تَأْكُلْ [مِنِّي][٥]؛ فَإِنِّي لِيَهُودِيٍّ**».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ معَ أنَّ الشَّجرةَ إذَا كانَتْ فِي الصَّحارِي غلبَ علىٰ الظَّنِّ أنَّهُ لَا مالكَ لهَا، وأنَّهَا ربَّمَا نبَتَتْ مِنْ ذرقِ طيرٍ أكلَ مِنْ

---

(١) ورد قوله في: حلية الأولياء ١٠/٢٥١، وتاريخ بغداد ٥/١٣٣، وصفة الصفوة ٢/٤٣٩.

(٢) أي: يبست.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٥.

(٤) ورد قوله في: نشر المحاسن الغالية ص٣٠، والنطق المفهوم من أهل الصمت المعلوم ص٨٤، والروض الفائق ص١٣٠.

(٥) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية.

حبِّ تِيْنٍ ، وكثيرًا ما يجرِي ذلكَ ، فلمَّا مدَّ يدَهُ إليهَا ليأكلَ خرقَ اللهُ لهُ العادةَ فِي كلامِهَا أنَّهَا مملوكةٌ لمَنْ لا يحبُّكَ ، ولَوْ كانَ حيًّا لمَا أكرمَكَ لفراقِكَ لدِينِه.

فهذهِ [٦٣/٣ب] الكرامةُ مِنْ جِنْسِ ما جرَىٰ للمحاسبيِّ مِنْ ضربانِ العِرْقِ ، وبِشْرِ بنِ الحارثِ(١) وغيرِهِمَا منَ الصَّالحِينَ ، فإمَّا يدلُّهُمْ علَىٰ أنَّ ما مدُّوا إليهِ أيديَهُمْ فيهِ الورعُ ، فيكونُ كفُّهُمْ زيادةَ فضلٍ لهُمْ ، ولَوْ أكلُوا ولمْ يعلَمُوا لمْ يكنْ عليهِمْ إثْمٌ لظاهرِ الأمْرِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ خَفِيفٍ(٣): دَخَلْتُ بَغْدَادَ قَاصِدًا إِلَىٰ الحَجِّ ، وَفِي نَفْسِي نَخْوَةُ الصُّوفِيَّةِ ، وَلَمْ آكُلِ الخُبْزَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَلَمْ أَدْخُلْ عَلَىٰ الجُنَيْدِ ، وَخَرَجْتُ وَلَمْ أَشْرَبْ إِلَىٰ (زبَالَة)(٤) ، وَكُنْتُ عَلَىٰ طَهَارَتِي ، فَرَأَيْتُ ظَبْيًا عَلَىٰ رَأْسِ البِئْرِ وَهُوَ يَشْرَبُ ، وَكُنْتُ عَطْشَانَ ، فَلَمَّا دَنَوْتُ إِلَىٰ البِئْرِ وَلَّىٰ الظَّبْيُ ، وَإِذَا المَاءُ فِي أَسْفَلِهِ ، فَمَشَيْتُ وَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي ، مَا لِي مَحَلُّ هَذَا الظَّبْيِ؟ فَسَمِعْتُ هَاتِفًا مِنْ خَلْفِي: جَرَّبْنَاكَ مَا تَصْبِرُ؟! ، ارْجِعْ وَخُذِ المَاءَ ، فَرَجَعْتُ ، فَإِذَا البِئْرُ مَلْأَىٰ مَاءً ، فَمَدَدْتُ رَكْوَتِي ، وَكُنْتُ أَشْرَبُ فِيهَا وَأَتَطَهَّرُ إِلَىٰ المَدِينَةِ ، وَلَمْ يَنْفَدْ.

وَلَمَّا اسْتَقَيْتُ سَمِعْتُ هَاتِفًا يَقُولُ: إِنَّ الظَّبْيَ جَاءَ بِلَا رَكْوَةٍ وَلَا حَبْلٍ ، وَأَنْتَ جِئْتَ مَعَ الحَبْلِ وَالرَّكْوَةِ ، [فَلَمَّا رَجَعْتُ مِنَ الحَجِّ دَخَلْتُ الجَامِعَ](٥) ، فَلَمَّا وَقَعَ

---

(١) انظر: الدلالة ٢٣٩/١.

(٢) الرسالة القشيرية ٥٥٥/٢.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤١٣/٥٢ ، والمختار من مناقب الأخيار ١١٠/٣ ، ونشر المحاسن الغالية ص١٥٦.

(٤) موضع بين مكة والمدينة.

(٥) زيادة من (ف) ، والرسالة القشيرية المطبوع.

بصرُ الجُنَيْدِ عَلَيَّ قَالَ: لَوْ صَبَرْتَ لَنَبعَ المَاءُ مِنْ تَحْتِ رِجْلَيْكَ، لَوْ صَبرْتَ صَبْرَ سَاعَةٍ، صَبْرَ سَاعَةٍ!».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ أدبٌ لابنِ خفيفٍ، لمَّا دخلَ بغدادَ بعدَ أنْ جاعَ أربعينَ يومًا، وذكَرَ أنَّ فِي نفسِهِ نخوةَ الصُّوفيَّةِ ـ أيْ: هزَّةَ ـ لمَا أُقْدِرَ عليهِ منَ الوِصَالِ، فلَمْ يَرْضَ أنْ يدخلَ علَىٰ الجُنيدِ زائرًا بغدادَ، فخرجَ كمَا هوَ مسافرًا، فبينَمَا هوَ فِي الطَّريقِ وصلَ إلىٰ بئرٍ ووجدَ عليهِ ظبيًا يشربُ مِنْ فمِ البئْرِ، فلمَّا وصلَ إلىٰ البئْرِ نفرَ الظَّبيُ ونزلَ الماءُ إلىٰ أسفلِ البئرِ، فمشَىٰ فِي الطَّريقِ وهوَ يقولُ: «**ما لِي محلُّ هذا الظَّبي؟**»، أيْ: ما لِي عندَكَ منزلةُ هذا الظَّبيِ أنْ أشربَ الماءَ مِنْ أعلَىٰ البئرِ، وأشرَبَهُ كمَا شرِبَ.

وهذَا الكلامُ فيهِ إدلالٌ والتفاتٌ إلىٰ رؤيةِ مقامٍ، فسمعَ هاتفًا: «**جرَّبْنَاكَ فَلَمْ تصبِرْ**»، أيْ: جرَّبنَاكَ بهذَا البئرِ وهذَا الغزالِ، فلمَّا رجعَ الماءُ إلىٰ محلِّهِ لمْ تصبِرْ أنتَ وطلبتَ، ارجعْ إلىٰ مَا سألتَ، فرجعَ إلىٰ البئْرِ فوجدَ الماءَ قدْ طفَّ إلَىٰ أعلَىٰ البئْرِ، فمدَّ يدَهُ بِركوتِهِ ليملأَهَا فوقعَ فِي سرِّهِ: «**الظَّبيُ جاءَ بلا رَكوةٍ ولا حَبْلٍ**»، وأنتَ جئتَ معَ الرَّكوةِ[١]، وفِي [٣/١٦٤أ] هذا إشارةٌ أنَّا نفعلُ عندَ الحاجةِ، وانتفعَ ببركةِ ذلكَ الماءِ الَّذِي أخذَهُ فِي ركوتِهِ فِي شُربِهِ وطهارتِهِ إلىٰ أنْ بلغَ المدينةَ؛ مدينةَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا رجعَ مِنْ حجِّهِ ودخلَ بغدادَ فمضَىٰ إلىٰ الجُنيدِ، فلمَّا وقعَ نظرُ الجُنيدِ عليهِ ذكرَ الجنيدُ ما جرَىٰ لهُ معَ الظَّبي علَىٰ البئْرِ وحالَهُ الَّذِي كانَ فيهِ، ثمَّ قالَ لهُ: «**لَوْ صبرْتَ لنبعَ الماءُ مِنْ تحتِ رجْليكَ**»، مكرَّرًا[٢]، معنَاهُ: لو صَبَرْتَ ولمْ تطلبْ ما فعلَهُ اللهُ بالظَّبي لنبعَ الماءُ مِنْ تحتِ رجليكَ.

وفِي هذَا أدبٌ لهُ وتعريفُكَ لقدرِ الجُنيدِ، وكونُهُ دخلَ البلدةَ ولمْ يسلِّمْ عليهِ

(١) ليس المراد ذم الأخذ بالأسباب، حيث هو لازم، بل ذم التعلق بها والسكون إليها.

(٢) أي: مكررا هذه العبارة.

ولمْ يزُرْهُ ليتأدَّبَ فِي زيارةِ المشايخِ كرَّةً أُخرَىٰ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «سَمِعْتُ حَمْزَةَ بْنَ يُوسُفَ السُّهَمِيَّ الجُرْجَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا أَحْمَدَ بْنَ عَدِيٍّ الحَافِظَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَمْزَةَ بِمِصْرَ يَقُولُ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الوَهَّابِ وَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ البَصْرِيُّ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي طُرُقِ البَصْرَةِ إِذْ رَأَيْتُ أَعْرَابِيًّا يَسُوقُ جَمَلًا، فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا الجَمَلُ وَقَعَ مَيِّتًا وَوَقَعَ الرَّحْلُ وَالقَتَبُ، فَمَشَيْتُ ثُمَّ التَفَتُّ فَإِذَا الأَعْرَابِيُّ يَقُولُ: يَا مُسَبِّبَ[٢] كُلِّ سَبَبٍ، وَيَا مَأْمُولَ مَنْ طَلَبَ، رُدَّ عَلَيَّ مَا ذَهَبَ بِحِمْلِ الرَّحْلِ وَالقَتَبِ، وَإِذَا الجَمَلُ قَائِمٌ وَالرَّحْلُ وَالقَتَبُ فَوْقَهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ كرامةُ إحياءِ المَوتَىٰ، وقدْ تقدَّمَ ذلكَ فِي الحمارِ الَّذِي كانَ معَ الرَّجلِ فِي الجهادِ فماتَ ثمَّ دعَا اللهَ فأحياهُ لهُ ورُؤِيَ يباعُ فِي السُّوقِ بعدَ ذلكَ حيًّا، وذلكَ فِي كثيرٍ منَ الكتابِ والسُّنَّةِ وأخبارِ الصَّالحِينَ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ[٤]: إِنَّ شِبْلًا المَرْوَزِيَّ اشْتَهَىٰ لَحْمًا، فَأَخَذَهُ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ، فَاسْتَلَبَتْهُ مِنْهُ حِدَأَةٌ، فَدَخَلَ شِبْلٌ مَسْجِدًا يُصَلِّي، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ قَدَّمَتِ امْرَأَتُهُ إِلَيْهِ لَحْمًا، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ فَقَالَتْ: تَنَازَعَ حِدَأَتَانِ، فَسَقَطَ هَذَا مِنْهُمَا، فَقَالَ شِبْلٌ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَنْسَ شِبْلًا وَإِنْ كَانَ شِبْلٌ يَنْسَاهُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ موضعَ أخذِ الحدأَةِ اللَّحمَ ودارَ شبلٍ قريبٌ، فلمَّا أخذَتْهُ في رجلَيهَا وطارَتْ بهِ، فرأَتْهُ حدأةٌ أخرَىٰ فنازَعَتْهَا، فسقطَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٥ ـ ٥٥٦.
(٢) في الأصل: يا سبب.
(٣) ورد في: حلية الأولياء ١٠/١٦٢، والمختار من مناقب الأخيار ٢/١٦٦، وحياة الحيوان ١/٣٢٧، وجامع كرامات الأولياء ٢/٩٤.
(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٦.

اللَّحمُ منهُمَا في دارِ شِبْلٍ، وربَّمَا كانَ [٣/٦٤ب] يعرفُ مقدارَهُ، وصَفَتْهُ لهُ امرأتُهُ قبلَ الطَّبخِ فعرفَ أنَّهُ لحمُهُ، وإلَّا لَوْ لمْ يعرفْ ذلكَ لكانَ لُقطةً ينبغِي ألَّا يؤكلَ حتَّىٰ يُسألَ عنهُ(١).

وهذَا أيضًا كرامةٌ مِنْ حيثُ إنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ حفظَ عليهِ قُوتَهُ وقُوتَ عيالِهِ عندَ الحاجةِ إليهِ، ولذلِكَ قالَ: «**الحمدُ للهِ الَّذِي لمْ ينسَ شِبلًا وإنْ كانَ شبلٌ ينسَاهُ**».

ولقدْ رُوِيَ أنَّ جاريةً كانَتْ عندَ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كثيرًا مَا تنشدُ(٢):

وَيَــومُ الوِشَــاحِ مِــنْ تَعَاجِيــبِ رَبِّنَــا ❊ إِلَّا إِنَّــهُ مِــنْ بَلْــدَةِ الكُفْــرِ نَجَّــانِي

فسألَتْهَا عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عنْ ذلكَ، فقالَتْ: كنتُ معَ قومٍ لِي أسيادٍ، وكانَ صغيرٌ عليهِ وشاحٌ منْ جارٍ أحمرَ، وكانَ بيدِ الصَّغيرِ يلعبُ بهِ، فجاءَتْ حدأةٌ فخطفَتْهُ وذهبَتْ بهِ، فاتَّهمُونِي بهِ، وفتَّشُوا كلَّ شيءٍ حتَّىٰ فَرْجِي، فبينَا أنَا معَهُمْ فِي ذلكَ متحيِّرةٌ؛ إذْ جاءَ اللهُ بالحدأةِ، فألقَتْهُ علينا، فَنَجَّانِي اللهُ ـ تعالىٰ ـ بذلكَ السَّببِ ممَّا كنتُ فيهِ.

❊ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «**وَحدَّثنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبدِ اللهِ الصُّوفِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَاحِدِ بْنُ بَكْرٍ الورَثَانِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ دَاوُدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ مَعْمَرٍ يَقُولُ(٤): سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي عُبَيْدٍ البُسْرِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ غَزَا سَنَةً مِنَ السِّنِينَ، فَخَرَجَ فِي السَّرِيَّةِ، فَمَاتَ المُهْرُ الَّذِي كَانَ تَحْتَهُ وَهُوَ فِي السَّرِيَّةِ، فَقَالَ:**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٣١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٦.

(٣) من الطويل، وورد في: صحيح البخاري ٣/١٣٩٤، وحلية الأولياء ٢/٧١، وشعب الإيمان ٢/٣٤، وصفة الصفوة ٢/٧٥، وتنوير الغبش ص١٥١، وانظر في هذه المظان القصة التي تليه.

(٤) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٥٢/٢٨٦، والمنتظم ١١/٢٦٤، وصفة الصفوة ٤/٢٤٢، ونشر المحاسن الغالية ص١٨.

يَا رَبِّ، أَعِرْنَاهُ حَتَّىٰ نَرْجِعَ إِلَىٰ (بُسْرَىٰ) ـ يَعْنِي قَرْيَتَهُ ـ، فَإِذَا الْمُهْرُ قَائِمٌ، فَلَمَّا غَزَا وَرَجَعَ إِلَىٰ (بُسْرَىٰ) قَالَ: يَا بُنَيَّ، خُذِ السَّرْجَ عَنِ الْمُهْرِ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ عرق، فَإِنْ أَخَذْتُ السَّرْجَ دَاخَلَهُ الرِّيحُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ؛ إِنَّهُ عَارِيَةٌ، قَالَ: فَلَمَّا أَخَذْتُ السَّرْجَ وَقَعَ الْمُهْرُ مَيِّتًا».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ أيضًا مِنْ قضيَّةِ إحياءِ اللهِ المَوتَىٰ بالدُّعاءِ الصَّادقِ عندَ الضَّرورةِ، فأحيَا اللهُ لهُ مُهْرَهُ؛ ليصلَ بهِ سالمًا إلىٰ بيتِهِ[1]، فكذلِكَ يعملُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «وَقِيلَ: كَانَ بَعْضُهُمْ نَبَّاشًا، فَتُوُفِّيَتِ امْرَأَةٌ، فَصَلَّىٰ النَّاسُ عَلَيْهَا، وَصَلَّىٰ عَلَيْهَا [هَذَا][3] النَّبَّاشُ لِيَتَعَرَّفَ الْقَبْرَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيهِ اللَّيْلُ نَبَشَ قَبْرَهَا، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ! رَجُلٌ مَغْفُورٌ [لَهُ][4] يَأْخُذُ كَفَنَ مَغْفُورَةٍ! فَقُلْتُ: هَبْ أَنَّهُ غَفَرَ لَكِ، فَأَنَا مَغْفُورٌ [لِي][5]؟! فَقَالَتْ: إِنَّ اللهَ غَفَرَ لِي وَلِجَمِيعِ مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ، وَأَنْتَ قَدْ [٣/٦٥أ] صَلَّيْتَ عَلَيَّ، [قَالَ][6] فَتَرَكْتُهَا وَرَدَدْتُ التُّرَابَ عَلَيهَا، ثُمَّ تَابَ الرَّجُلُ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ كرامةٌ فِي حقِّهِ؛ لكونِ اللهِ جعلَهُ سببَ توبتِهِ وسلَّمَهُ بهِ ممَّا قصدَهُ مِنْ حَوْبَتِهِ، وكشفِ الميِّتِ ورفعِهِ عَنْ حُفْرتِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[7]: «سَمِعْتُ حَمْزَةَ بْنَ يُوسُفَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٣٢.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٦.
(٣) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.
(٤) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.
(٥) زيادة من (ف).
(٦) زيادة من (ف).
(٧) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٦.

الحَسَنِ إِسْمَاعِيلَ بْنَ عَمْرِو بْنِ كَامِلٍ بِـ(مِصْرَ) يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ نُعْمَانَ بْنَ مُوسَىٰ الحِيرِيَّ بِـ(الحِيرَةِ) يَقُولُ(١): رَأَيْتُ ذَا النُّونِ المِصْرِيَّ وَقَدْ تَقَابَلَ اثْنَانِ؛ أَحَدُهُمَا مِنْ أَوْلِيَاءِ السُّلْطَانِ، [والآخَرُ مِنَ الرَّعِيَّةِ](٢)، فَعَدَا الَّذِي مِنَ الرَّعِيَّةِ عَلَيهِ، فَكَسَرَ ثَنِيَّتَهُ، فَتَعَلَّقَ الجُنْدِيُّ بِالرَّجُلِ وَقَالَ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ الأَمِيرُ.

فَجَازُوا بِذِي النُّونِ فَقَالَ لَهُمُ النَّاسُ: اصْعَدُوا إِلَىٰ الشَّيخِ، فَصَعَدُوا إِلَيْهِ، فَعَرَّفُوهُ مَا جَرَىٰ، فَأَخَذَ السِّنَّ ثُمَّ بَلَّهَا بِرِيقِهِ وَرَدَّهَا إِلَىٰ فَمِ الرَّجُلِ فِي المَوْضِعِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ، وَحَرَّكَ شَفَتَيهِ، فَتَعَلَّقَتْ بِإِذْنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فَبَقِيَ الرَّجُلُ يُفَتِّشُ فَاهُ، فَلَمْ يَجِدِ الأَسْنَانَ إِلَّا سَوَاءً».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ببركةِ ذِي النُّونِ المِصريِّ، وحُسْنِ دُعَائِهِ، وكَمَالِ هِمَّتِهِ أمسكَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ السِّنَّ موضِعَهُ حتَّىٰ بقِيَ صاحبُهَا ومَنْ حضرَ لَا يفرِّقُ بينَهَا وبينَ غيرِهَا منَ الأسنانِ، هذَا ببركةِ المَشَايخِ، فإنَّهُ لو مَضَىٰ العَامِّيُّ مع صَاحبِ الأميرِ وقدْ قلعَ العَامِّيُّ سِنَّهُ لنالَهُ أبلغُ نكَالٍ، ولكنْ برحمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وبركةِ أهلِ الخيرِ صرفَ الشَّرَّ عنهُمَا جميعًا.

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «أَخبَرَنَا أَبُو الحُسَينِ(٤) مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ القَطَّانُ بِبَغْدَادَ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا الحُسَيْنُ بْنُ عَرَفَةَ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ إِدْرِيسَ الأَوْدِيُّ(٥)، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ أَبِي سَبْرَةَ النَّخَعِيِّ قَالَ(٦): أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ اليَمَنِ، فَلَمَّا

(١) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٤٠٦/١٧، والمختار من مناقب الأبرار ٤٩٠/١.
(٢) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.
(٣) الرسالة القشيرية ٥٥٧/٢.
(٤) في الأصل: الحسن، والتصويب من الرسالة القشيرية.
(٥) في (ف): الأزدي.
(٦) ورد قوله في: مجابو الدعوة ص٤٦، ودلائل النبوة ٤٨/٦، وحياة الحيوان ٣٤٢/١،=

كَانَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ نَفَقَ حِمَارُهُ[(١)] ، فَقَامَ وَتَوَضَّأَ ، وَصَلَّىٰ رَكْعَتَينِ ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي جِئْتُ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ تُحْيِي المَوْتَىٰ وَتَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ ، لَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ عَلَيَّ مِنَّةً اليَوْمَ ، أَطْلُبُ إِلَيْكَ أَنْ تَبْعَثَ حِمَارِي ، فَقَامَ الحِمَارُ يَنْفُضُ أُذُنَيْهِ [٣/٦٥ب]» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ مُمَاثِلٌ لمَا تقدَّمَ[(٢)] فِي المُهْرِ وغيرِهِ مِنْ إحياءِ الموتَىٰ ، وهذَا دليلٌ واضحٌ علىٰ البَعْثِ ، وأنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يبعثُ مَنْ فِي القبورِ ، وعلَىٰ الحياةِ بعدَ الموتِ لسؤالِ مُنكرٍ ونكيرٍ ، وأنَّهُ يُبْعَثُ صحيحًا سوِيًّا كمَا كانَ ، وأمَّا يومَ الحشرِ فإنَّهُ يُنْشأُ نشأةً أُخرَىٰ بعدَ مَا تتفرَّقُ أجزاؤُهُ ، تَصيرُ تُرابًا وَدُودًا ، وغيرَ ذلكَ منَ الهَوامِّ ، وهوَ فِي بطونِ الطَّيرِ والوَحْشِ ، وَكَذلِكَ بُطُونُ السَّمكِ ودَوابِّ المَاءِ ، كُلُّ ذلكَ ينشئُهُ اللهُ نشأةً أُخْرَىٰ ، كَمَا قالَ لإبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠][(٣)] ؛ عزيزٌ فِي سلطانِهِ ، وحكيمٌ فِي أفعالِهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «سَمِعْتُ حَمْزَةَ بْنَ يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ النَّابُلْسِيَّ يَقُولُ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ الهَمَدَانِيُّ يَقُولُ[(٥)]: بَقِيتُ فِي بَرِّيَّةِ (الحِجَازِ) أَيَّامًا لَمْ آكُلْ شَيْئًا ، فَاشْتَهَيْتُ بَاقِلَّىٰ[(٦)] حَارًّا وَخُبْزًا مِنْ (بَابِ الطَّاقِ)[(٧)] ، فَقُلْتُ:

= والبداية والنهاية ٦/٢٩٢ ، والخصائص الكبرىٰ ٢/١١٤.

(١) أي: مات.

(٢) الدلالة ٣/٦٢١.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٣٣.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٧.

(٥) ورد قوله في: روض الرياحين ص١١٩ ، والروض الفائق ص١٣١ ، وجامع كرامات الأولياء ١/٣٤٤.

(٦) أي: الفول.

(٧) محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي ، تُعرف بطاق أسماء. انظر: معجم البلدان ١/٣٠٨.

أَنَا فِي البَرِّيَّةِ وَبَيْنِي وَبَيْنَ (العِرَاقِ) مَسَافَةٌ، فَلَمْ أُتِمَّ خَاطِرِي، إِذَا أَنَا بِأَعْرَابِيٍّ مِنْ بَعِيدٍ يُنَادِي: بَاقِلَّى حَارًّا وَخُبْزًا، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيهِ وَقُلْتُ: عِنْدَكَ بَاقِلَّى حَارٌّ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَبَسَطَ مِئْزَرًا كَانَ عَلَيهِ، وَأَخْرَجَ خُبْزًا وَبَاقِلَّى، وَقَالَ لِي: كُلْ، فَأَكَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: كُلْ فَأَكَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: كُلْ فَأَكَلْتُ، فَلَمَّا كَانَ فِي الرَّابِعَةِ قُلْتُ: بِحَقِّ الَّذِي بَعَثَكَ إِلَيَّ إِلَّا قُلْتَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: فَقَالَ: أَنَا الخَضِرُ، فَقَامَ عَنِّي وَلَمْ أَرَهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ فيهِ كرامتَانِ: إِحْدَاهُمَا: رؤيةُ الخضرِ والاجتماعُ بهِ، والثَّانِيـ[ـة]: إتيانُهُ بمَا يحتاجُهُ؛ خارقًا للعادةِ فِي موضعٍ لا سُوقَ فيهِ ولا خبزَ حارّ ولا باقلَّى(١).

❊ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٢): «سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا العَبَّاسِ بْنَ الخَشَّابِ البَغْدَادِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الفَرغَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الحَدَّادَ يَقُولُ(٣): جِئْتُ (الثَّعْلَبِيَّةَ)(٤) وَهِيَ خَرَابٌ، وَلِي سَبْعَةُ أَيَّامٍ لَمْ آكُلْ، فَدَخَلْتُ [القُبَّةَ](٥)، وَجَاءَ قَوْمٌ خُرَاسَانِيُّونَ أَصَابَهُمْ جَهْدٌ(٦)، فَطَرَحُوا أَنْفُسَهُمْ [٣/٦٦أ] عَلَى بَابِ القُبَّةِ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى رَاحِلَةٍ، وَصَبَّ تَمْرًا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَاشْتَغَلُوا بِالأَكْلِ وَلَمْ يَقُولُوا لِي شَيْئًا، وَلَمْ يَرَنِي الأَعْرَابِيُّ.

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَاعَةٍ فَإِذَا بِالأَعْرَابِيِّ جَاءَ وَقَالَ لَهُمْ: مَعَكُمْ غَيْرُكُمْ؟ فَقَالُوا:

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٣٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٧.

(٣) تاريخ دمشق ٦٦/١١٧.

(٤) موضع على طريق مكة من الكوفة. انظر: معجم البلدان ٢/٧٨.

(٥) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية المطبوع.

(٦) أي: مشقة من الجوع.

نَعَمْ، هَذَا الرَّجُلُ دَاخِلَ القُبَّةِ، قَالَ: فَدَخَلَ الأَعْرَابِيُّ وَقَالَ: أَيشٍ أَنْتَ؟! لِمَ لَمْ تَتَكَلَّمْ؟ مَضَيْتُ فَعَارَضَنِي إِنْسَانٌ فَقَالَ لِي: أَنْ قَدْ خَلَّفْتَ إِنْسَانًا لَمْ تُطْعِمْهُ، وَلَمْ يُمْكِنِّي أَنْ أَمْضِيَ، فَطَوَّلْتَ عَلَيَّ الطَّرِيقَ؛ لِأَنِّي رَجَعْتُ عَنْ أَمْيَالٍ، وَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيهِ تَمْرًا كَثِيرًا وَمَضَىٰ، فَدَعَوْتُهُمْ فَأَكَلُوا وَأَكَلْتُ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ووجهُ الكرامةِ لهذَا الرَّجلِ الَّذي فِي القُبَّةِ ـ وهوَ أبو جعفرٍ الحدَّادُ ـ أنَّ هذَا العربيَّ ردَّهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بعدَ أميالٍ بخارقٍ للعادةِ؛ وهوَ أنَّ شخصًا أخبَرَهُ أنَّهُ تركَ فِي الموضعِ مَنْ لمْ يطعمْهُ شيئًا، فرجعَ بسببِهِ، وكانَ هذَا البدوِيُّ رجلًا وليًا، أرادَ أنْ يُطْعِمَ مِنْ هذَا التَّمرِ الَّذي عندَهُ سائرَ مَنْ وجدَ مِنَ المنقطعِينَ وأهلِ الخيرِ، فلمَّا رجعَ إلىٰ أبِي جعفرٍ سألَ الجماعةَ عنهُ: «**هَلْ معَكُمْ غيرُكُمْ؟ فقالُوا: نعَمْ، شخصٌ في القُبَّةِ**»، فصعدَ إليهِ وقالَ لهُ: «**لِمَ لَمْ تتكلَّمْ أوَّلًا**»، فإنَّكَ أتعبتَنِي، رددْتُ إليكَ مِنْ مَسَافةٍ، فطوَّلْتَ عليَّ الطَّريقَ بسببِ رجوعِي إليكَ، فهذَا كرامةٌ أكرمَهُ اللهُ بهَا.

والثَّانيةُ: أنَّهُ لمَّا جعلَ بينَ يدَيهِ التَّمرَ دعاهُمْ فأكلُوا معَهُ، ولَمْ يأكُلْهُ وحدَهُ كمَا فعلُوا بهِ، فهذِهِ كرامةٌ أخرَىٰ، ومزيَّةٌ خصَّهُ اللهُ بهَا؛ وهوَ الإيثارُ معَ الحاجةِ[1].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «سَمِعْتُ حَمْزَةَ بْنَ يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا طَاهِرٍ الرَّقِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ ابْنَ عَطَاءٍ يَقُولُ[3]: كَلَّمَنِي جَمَلٌ[4] فِي طَرِيقِ مَكَّةَ: رَأَيْتُ الجِمَالَ وَالمَحَامِلُ عَلَيْهَا، وَقَدْ مَدَّتْ أَعْنَاقَهَا فِي اللَّيْلِ[5]؟! فَقُلْتُ:

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٣٤.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٧.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ١٩/٥، وحياة الحيوان ١/٢٨٨.

(٤) في الأصل: رجل، والمثبت من الرسالة القشيرية، وإحكام الدلالة، ومظان تخريج القول.

(٥) أي: للسير في الليل.

سُبْحَانَ مَنْ يَحْمِلُ عَنْهَا مَا هِيَ فِيهِ! فَالْتَفَتَ إِلَيَّ جَمَلٌ وَقَالَ لِي: قُلْ: جَلَّ اللهُ، فَقُلْتُ: جَلَّ اللهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أيضًا مِنْ كلامِ الحيوانِ للإنْسِ، وقدْ تقدَّمَ في الهدهدِ والنَّملِ وغيرِهِ، والذِّئبِ معَ الرَّاعِي[١]، والبقرةِ الَّتِي قالَتْ لصاحبِهَا: «لمْ أُخْلَقْ لهذَا ـ لمَّا حملَ عليهَا ـ، إنَّمَا خُلِقْتُ للحرْثِ» [٣/٦٦ب]، فبلغَ ذلكَ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ[٢]: «أَنَا أُؤْمِنُ بِهَذَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»، وهمَا غائبانِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الحُسَيْنَ بْنَ أَحْمَدَ الفَارِسِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الدُّقِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ مَعْمَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا زَرْعَةَ الجَنْبِيَّ[٤] يَقُولُ[٥]: مَكَرَتْ بِي امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: أَلَا تَدْخُلُ الدَّارَ فَتَعُودَ مَرِيضًا، فَدَخَلْتُ، فَأَغْلَقَتِ البَابَ وَلَمْ أَرَ أَحَدًا، فَعَلِمْتُ مَا فَعَلَتْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ سَوِّدْهَا، فَاسْوَدَّتْ، فَتَحَيَّرَتْ وَفَتَحْتُ البَابَ، فَخَرَجْتُ وَقُلْتُ: اللَّهُمَّ رُدَّهَا إِلَى حَالِهَا، فَرَدَّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا شبيهٌ بمَا جرَىٰ لامرأةِ العزيزِ معَ يوسفَ الصِّدِّيقِ، فعصمَهُ اللهُ عنهَا بمَا شاءَ منْ فضْلِهِ، ورؤيتِهِ البرهانَ منْ ربِّهِ، وسوادُهَا برهانٌ آخرُ عصمَهُ[٦] اللهُ وعصمَهَا بهِ.

---

(١) الدلالة ٣/٥٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٢٨٠ ـ حديث رقم (٣٢٨٤).

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٨.

(٤) هو: أبو زرعة الجنبي، صحب أبا عبيد محمد بن حسان البسري والقاسم بن عثمان الجوعي، روىٰ عنه: أبو بكر بن معمر الطبراني. انظر في ترجمته: تاريخ دمشق ٦٦/٢٤٨.

(٥) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٦٦/٢٤٨، وجامع كرامات الأولياء ١/٣٦٩.

(٦) في الأصل: عصمها، والصواب المثبت. وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٣٥.

وأمَّا مسلمُ بنُ يسارٍ فسارَ هوَ ورفيقٌ لهُ، فنزلَا بالصَّحراءِ، وذهبَ رفيقٌ ليشترِيَ لهُمَا قُوتًا، وكانَ مسلمُ بنُ يسارٍ جميلَ الصُّورةِ، فبَصُرَتْ بهِ امرأةٌ بدويَّةٌ فِي خيمةٍ لهَا بأعلَىٰ الجبلِ، فنزلَتْ إليهِ، وكشفَتْ وجهَهَا، فإذَا هيَ كالبدرِ، فظنَّ مسلمٌ أنَّهَا تطلبُ شيئًا، فناولَهَا مَا يقدرُ عليهِ، فقالَتْ: إنَّمَا أريدُ غيرَ هذَا.

فلمَّا علِمَ مسلمُ بنُ يسارٍ وفهِمَ مرادَهَا أخذَهُ منَ البكاءِ والنَّحيبِ شيءٌ عظيمٌ، فلمَّا أرادَتْ ذلكَ منهُ ارتفعَتْ عنهُ إلىٰ موضِعِهَا وخيمتِهَا، فلمَّا جاءَ رفيقُهُ بالطَّعامِ وجدَ بهِ آثارَ البكاءِ وعيناهُ منتفختَانِ، فسألَهُ عنْ حالِهِ، فقالَ: ذَكَرْتُ الصِّبْيَةَ، يعنِي أولادَهُ، قالَ: ليسَ كَذَا؛ لأنَّ عَهدَنَا بهِمْ قريبٌ، ولمْ يزَلْ معَهُ حتَّىٰ أخبرَهُ الخبَرَ.

فلمَّا أخبرَهُ الخبَرَ أخذَ صاحبُهُ فِي البكاءِ والنَّحيبِ أشدَّ مِنْ مسلمِ بنِ يسارٍ، فلمَّا أفاقَ سألَهُ عَنْ سَببِ بُكَائِهِ فقالَ لهُ: الَّذِي أبكانِي أنِّي لوْ كنتُ مكانَكَ وابتُلِيتُ بمَا ابْتُلِيتَ بهِ ما أعرفُ حالِي كيفَ يكونُ؟! فلمَّا كانَ بعدَ مدَّةٍ رأَىٰ مسلمُ بنُ يسارٍ يوسفَ الصِّدِّيقَ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ فِي النَّومِ، فقالَ لهُ مسلمٌ: إنَّ فِي شأنِكَ وشأنِ امرأةِ العزيزِ [٣/١٦٧أ] لعجبًا، فقالَ لهُ يوسفُ الصِّدِّيقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: شأنُكَ وشأنُ ذاتِ الأبواءِ أعجَبُ.

وهذَا صحيحٌ، فإنَّ عصمةَ الضَّعيفِ معَ الابتلاءِ، أعجبُ مِنْ حِفْظِ القَوِيِّ منَ البَلاءِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: **«سَمِعْتُ حَمْزَةَ بْنَ يُوسُفَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ الغَطْرِيفِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ السَّرَّاجَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ الرُّومِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ خَلِيلًا الصَّيَّادَ يَقُولُ[٢]: غَابَ ابْنِي مُحَمَّدٌ، فَوَجِدْنَا عَلَيهِ وَجْدًا شَدِيدًا،**

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٨.
(٢) ورد قوله في: تاريخ بغداد ١٣/٢٠٧، وروض الرياحين ص٢٦٥، وجامع كرامات الأولياء ٢/٤٠٣.

فَأَتَيْتُ مَعْرُوفًا الكَرْخِيَّ فَقُلْتُ: يَا أَبَا مَحْفُوظٍ غَابَ ابْنِي وَأُمُّهُ وَاجِدَةٌ [عَلَيهِ](١)، فَقَالَ: مَا تَشَاءُ؟ فَقُلْتُ: اُدْعُ اللهَ - تعالى - أَنْ يَرُدَّهُ.

فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّ السَّمَاءَ سَمَاؤُكَ، وَإِنَّ الأَرْضَ أَرْضُكَ، وَمَا بَيْنَهُمَا لَكَ، اِئْتِ بِمُحَمَّدٍ.

قَالَ خَلِيلٌ: فَأَتَيْتُ بَابَ الشَّامِ، فَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ، فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: يَا أَبَتِ كُنْتُ السَّاعَةَ بِـ(الأَنْبَارِ).

قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وَاعْلَمْ أَنَّ الحِكَايَاتِ فِي هَذَا البَابِ تَرْبَى(٢) عَلَى الحَصْرِ، وَالزِّيَادَةُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ تُخْرِجُنَا عَنِ المَقْصُودِ مِنَ الإِيجَازِ، وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ مَقْنَعٌ فِي هَذَا البَابِ - إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى -».

❊ قالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وحكايةُ معروفٍ فِي دعائِهِ لولدِ الصَّيَّادِ أنْ يردَّهُ عليهِ كمَا فعلَهُ الجُنيدُ معَ المرأةِ الَّتِي قالَتْ ضاعَ ولدُهَا، فأمَرَهَا بالصَّبْرِ، فسألَتْهُ الدُّعاءَ، فأمَرَهَا بالصَّبْرِ، وتكرَّرَتْ لهُ، وقالَتْ لهُ فِي آخرِ مرَّةٍ(٣): «عِيلَ صَبْرِي وعجزْتُ»، فقالَ: «إنْ صدقْتِ فقدْ جاءَ ولدُكِ»، فمضَتْ فوجدَتْ ابنَهَا قَدْ جاءَ، فجاءَتْ تشكرُ الجُنيدَ، فقيلَ لهُ: «مِنْ أينَ علِمْتَ بمجيئِهِ، فتلَا قولَهُ - تعالى -: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]»، فلمَّا تحقَّقَ اضطرارُهَا دعَا لهَا الجُنيدُ، واللهُ أعلَمُ.

واستجابةُ الدُّعاءِ فِي عينِ المدعُوِّ فيهِ كثيرٌ، ويشهدُ لذلكَ فِي الصَّحابةِ دعاءُ سعيدِ بنِ زيدٍ منَ العشرةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ علَى أرْوَى بالعمَى، والموتِ فِي أرضِهَا(٤)،

(١) زيادة من (ف).

(٢) أي: تزيد.

(٣) مر تخريجه في الدلالة ٢/ ٢٧٧.

(٤) مر تخريجه في الدلالة ٣/ ٥٠٥.

فكانَ كذلِكَ، ودعاءُ أبِي مسلمٍ الخَولانِيِّ عَلَىٰ الَّذِي خبَّبَتْ[1] زوجتَهُ بالعمَىٰ ثمَّ بالإبصارِ[2]، ودعاءُ النُّورِيِّ صحيحٌ لآخِذِ قماشِهِ حتَّىٰ أُطْلِقَتْ يدُهُ[3]، ودعاءُ هذا الشَّابِّ الَّذِي غرَتْهُ المرأةُ حتَّىٰ دخلَ الدَّارَ، وغلَّقَتْ [٣/٦٧ب] عليهِ، فردَّهَا أَمَةً سَودَاءَ، فلمَّا خرجَ دعَا لهَا فرجعَتْ إلَىٰ ما كانَتْ عليهِ منَ اللَّونِ.

وقد حصلَ ـ والحمدُ للهِ ـ فِي هذَا الفصْلِ مِنْ خَوَارقِ العَادَاتِ للصَّحابةِ والتَّابعِينَ وتابعِ التَّابعينَ وتابعِيهِمْ إلَىٰ زمانِنَا منْ خَوارقِ العَادَاتِ علَىٰ وجْهِ الكرَامَاتِ بالأولياءِ ما يُفِيدُ العِلْمَ بوقوعِهَا بعدَ جَوَازِهَا عَقْلًا، ولَا يُنْكِرُ وقوعَهَا إلَّا أهلُ الأهواءِ، وأمَّا إنكارُ جوازِهَا فَمِنْ بابِ الضَّلالِ والعَمَىٰ، ونسألُهُ كمالَ النَّعماءِ والرَّحمةِ بنَا فِي الآخرةِ والأُولَىٰ.

(١) حيث دعا فيما سبق بقوله: «اللَّهُمَّ مَنْ خبَّبَ امرأتِي فأعمِ بصرَهُ».

(٢) مر تخريجه في الدلالة ٣/٥٧٥.

(٣) مر تخريجه في الدلالة ٣/٦١٦.

قَالَ الشَّيخ - رَحمَةُ اللهِ عَلَيهِ -[(١)]:

«بَابُ رُؤْيا القَوْم

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

قِيلَ[(٢)]: هِيَ الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ، يَرَاهَا المُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ.

أَخْبَرَنَا أَبُو الحَسَنِ الأَهْوَازِيُّ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيدٍ البَصْرِيُّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ المُنْقَرِي، حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ أَبِي مُزَاحِمٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، قَالَ[(٣)]: «مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، هِيَ الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ، يَرَاهَا المُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ».

أَخْبَرَنَا السَّيِّدُ أَبُو الحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَينِ العَلَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زَيدٍ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الحُسَينِ[(٤)]، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ الوَلِيدِ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٥)]: «الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ - تعالى -، وَالحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُم رُؤْيَا يَكْرَهُهَا فَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ، وَلْيَتَعَوَّذْ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٥٩ ـ ٥٦٠.

(٢) انظر: تفسيرالطبري ١١/١٣٣، والسمرقندي ٢/١٢٣، والبغوي ٢/٣٦٠، وزاد المسير ٤/٤٤، وتأمل فيه بقية الأقوال في ذلك.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٧٧٤ ـ حديث رقم (٢٢٦٣)، والترمذي في سننه ٤/٥٣٤.

(٤) في الأصل: الحسن، والمثبت من الرسالة القشيرية.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١١٩٨ ـ حديث رقم (٣١١٨)، ومسلم في صحيحه ٤/١٧٧١ ـ حديث رقم (٢٢٦١).

أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدُوسٍ المُزَكِّي، أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ حَمْزَةُ بْنُ العَبَّاسِ البَزَّارُ، حَدَّثَنَا عَبَّاسُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا عُبيدُ اللهِ بْنُ مُوسَىٰ، أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الأَحْوَصِ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]: «مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي»[2].

وَمَعْنَىٰ الخَبَرِ: أَنَّ تِلْكَ الرُّؤْيَا صِدْقٌ، وَتَأْوِيلُها حَقٌّ، وَأَنَّ الرُّؤْيَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الكَرَامَاتِ.

وَتَحْقِيقُ الرُّؤْيَا: خَوَاطِرُ تَرِدُ عَلَىٰ القَلْبِ [٣/١٦٨أ]، وَأَحْوَالٌ تُتَصَوَّرُ فِي الوَهْمِ إِذَا لَمْ يَسْتَغْرِقِ النَّوْمُ جَمِيعَ الاسْتِشْعَارِ، فَيَتَوَهَّمُ الإِنْسَانُ عِنْدَ اليَقَظَةِ أَنَّهُ كَانَ رُؤْيَةً فِي الحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ تَصَوُّرًا وَأَوْهَامًا تَقَرَّرَتْ فِي قُلُوبِهِمْ، وَحِينَ زَالَ عَنْهُمُ الإِحْسَاسُ الظَّاهِرُ تَجَرَّدَتْ تِلْكَ الأَوْهَامُ عَنِ المَعْلُومَاتِ بِالحِسِّ وَالضَّرُورَةِ، فَقَوِيَتْ تِلْكَ الحَالَةُ عِنْدَ صَاحِبِهَا، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ ضَعُفَتْ تِلْكَ الأَحْوَالُ الَّتِي تَصَوَّرَهَا بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ حَالِ إِحْسَاسِهِ بِالمُشَاهَدَاتِ وَحُصُولِ العُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ.

وَمِثَالُهُ: كَالَّذِي يَكُونُ فِي ضَوْءِ السِّرَاجِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الظُّلْمَةِ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيهِ غَلَبَتْ ضَوْءَ السِّرَاجِ، فَيَتَقَاصَرُ ضَوْءُ السِّرَاجِ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ ضِيَاءِ الشَّمْسِ.

فَمِثَالُ حَالِ النَّوْمِ كَمَنْ هُوَ فِي ضَوْءِ السِّرَاجِ، وَمِثَالُ المُتَيَقِّظِ كَمَنْ تَعَالَىٰ عَلَيهِ ضَوْءُ النَّهَارِ، وَإِنَّ المُتَيَقِّظَ يَتَذَكَّرُ مَا كَانَ مُتَصَوَّرًا لَهُ فِي حَالِ نَوْمِهِ.

ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ الأَحَادِيثَ وَالخَوَاطِرَ الَّتِي كَانَتْ تَرِدُ عَلَىٰ قَلْبِهِ فِي حَالِ نَوْمِهِ مَرَّةً

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/٥٢ ـ حديث رقم (١١٠)، ومسلم في صحيحه ٤/١٧٧٥ ـ حديث رقم (٢٢٦٦)، وابن ماجه في سننه ٢/١٢٨٤.

(٢) أي: إكرامًا وتشريفًا له عَلَيْهِ السَّلَامُ.

تَكُونُ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطَانِ، وَمَرَّةً مِنْ هَوَاجِسِ النَّفسِ، وَمَرَّةً بِخَوَاطِرِ المَلَكِ، وَمَرَّةً تَكُونُ تَعْرِيفًا مِنَ اللهِ ـ سبحانه ـ بِخَلْقِ تِلْكَ الأَحْوَالِ فِي قَلْبِهِ ابْتِدَاءً.

وَفِي الخَبَرِ(١): أَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا».

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما ذكرَهُ الإمامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إثباتِ الرُّؤيَا يكفِي فيهِ ما نَصَّهُ اللهُ ـ سبحانه ـ فِي كتابِهِ في قصَّةِ يُوسُفَ الصِّديقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قولِهِ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦]، وفِي قولِ الملكِ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف: ٤٣]... الآية، وتفسيرُ يُوسُفَ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ الَّذِي رآهُ يعصرُ الخمرَ بأنَّهُ يَسْقِي ﴿رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]، وبالَّذِي رأىٰ نفسَهُ يحملُ فوقَ رأسِهِ خبزًا تأكلُ الطَّيرُ منهُ بأنَّهُ يُصْلَبُ ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾.

وكذلِكَ تفسيرُ البقرِ بالسِّنينِ الجَدبَةِ والخصْبَةِ، وعددُهَا كالسَّبْعِ بالسَّبْعِ، وأنَّهُمْ يحفظُونَ زرعَهُمْ فِي سُنْبُلِهِ، ولمَّا عرضَ الملكُ [٣/٦٨ب] رؤيَاهُ علىٰ أهلِ دولتِهِ قبلَ أنْ يُؤْتَىٰ بهَا ليوسفَ قالُوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف: ٤٤].

ومَا رآهُ يُوسُفُ ـ صلواتُ اللهِ علىٰ نبيِّنَا وعليهِ ـ فِي صِغَرِهِ مِنْ ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [يوسف: ٤]، وتفسيرُ الشَّمسِ: بوالدِهِ، والقمرِ: بخالتِهِ، والنُّجومِ: بإخوتِهِ(٢)، ووقعَ ذلكَ كمَا كانَ صريحًا.

فدلَّ جميعُ ذلكَ علىٰ صحَّةِ الرُّؤيَا، وأنَّهَا تكونُ تارةً بإنشاءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي قلبِ العبدِ بغيرِ واسطةٍ، كمَا جاءَ: «واعظُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي قلبِ كلِّ امرئٍ مسلمٍ»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٥٣٢، وابن ماجه في سننه ٢/١٢٨٩، والطبراني في الأوسط ١/١٢٣.
(٢) انظر: تفسير الطبري ١٢/١٥٢، والسمرقندي ٢/١٧٩، ومعاني النحاس ٣/٣٩٧.
(٣) في مسند أحمد ٤/١٨٢: «.. الداعي عَلىٰ رأس الصِّراطِ كِتَابُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والداعي فَوْقَ الصِّرَاطِ=

فالمناماتُ تكونُ تارةً مُبَشِّراتٍ، وتارةً مُحذِّرَاتٍ، وتارةً يُنشِئُهَا اللهُ ـ تعالىٰ ـ بواسطةٍ، فإنْ كانَتْ بواسطةِ الملَكِ سُمِّيَتْ رُؤْيَا، وإنْ كانَتْ بواسطةِ الشَّيطانِ سُمِّيَتْ أَحْلامًا، وإنْ كانَتْ بواسطةِ النَّفسِ رجعَ ذلكَ إلىٰ ما يتحدَّثُ الإنسانُ بهِ فِي نفسِهِ فيرَاهُ في نَومِهِ، والَّذِي يراهُ فِي النَّومِ ليسَ هوَ حقيقةَ المَرْئِي ولَا ذاتَهُ ولا مَاهيَّتَهُ، وإنَّمَا الملَكُ يمثِّلُهُ علىٰ أيِّ وجهٍ أرادَ اللهُ، ويكونُ ذلكَ المثلُ لهُ تأويلٌ يُفْهَمُ منهُ المُرادُ، وقَدْ يكونُ المَرئِيُّ نفسُهُ منَ المثَلِ يقعُ فِي الوجودِ ما يُطابِقُهُ علَىٰ التَّحقيقِ، وتُخَرَّجُ الرُّؤيَا عليهِ، وليسَ هوَ نفسَ المَرئِيِّ.

وقولُ الإمامِ: «**إنَّهَا خواطرُ ترِدُ فِي القُلُوبِ**» لَا يكفِي، فإنَّ الخواطِرَ كلَّهَا راجعةٌ إلىٰ الأقوالِ؛ إمَّا أمرٌ أوْ نهيٌ، أوْ إخبارٌ أوِ استخبارٌ علىٰ حسبِ ما يردُ للإنسانِ في قلبِهِ وهوَ يقظانُ لمْ ينَمْ، فهذِهِ هيَ الخواطرُ(١).

وأمَّا ما يَرَاهُ فِي المَنَامِ فهيَ صُورٌ وأشكالٌ(٢)، فإنْ تكلَّمَتْ وسُمِعَ مِنْهَا شيءٌ حسُنَ أنْ يكونَ خواطِرَ، وإنَّمَا نفسُ المَرئِيِّ ليسَ خاطرًا مَحضًا، فإنَّ الخاطِرَ يرجعُ إلىٰ القولِ، والمرئِيُّ أمثلةٌ لا أشخاصًا مِنْ بنِي آدمَ، والأشجارِ والجبالِ وغيرِ ذلكَ ممَّا يَرَاهُ النَّائمُ في المَنَامِ.

وقَدْ يرَىٰ العبدُ اللهَ فِي النَّومِ وهوَ منزَّهٌ عنِ الصُّورةِ، نصَّ العلماءُ علىٰ ذلِكَ، قالُوا: «مَنْ قبِلَهُ الحقُّ فِي المنامِ فذلِكَ خيرٌ ينالُهُ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وإقبالٌ عليهِ»(٣).

وَقَدْ يَرَىٰ النَّبيَّ ﷺ جماعةٌ منَ النَّاسِ في وقتٍ واحدٍ، يراهُ بعضُهُمْ

= وَاعِظُ اللهِ في قَلْبِ كل مُسْلِمٍ».

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٣٧.

(٢) فهي أعم من الخواطر.

(٣) انظر: تنبيه الأفهام بتأويل الأحلام ص١٩. وانظر في مسألة رؤية الله في المنام: شرح السنة للبغوي ١٢/٢٢٧، وإكمال المعلم بفوائد مسلم ٧/٢٢٠، والمفهم للقرطبي ٦/٢٦.

شابًّا، وبعضُهُمْ شيخًا وبعضُهُمْ كهْلًا، ويرَاهُ بعضُهُمْ بالمغربِ وآخرُ بالمشرقِ، وآخرُ في الجنوبِ، وآخرُ فِي القِبلةِ، وفِي سائِرِ البلادِ المختلفةِ فِي وقتٍ واحدٍ، ومحالٌ أنْ يكونَ ذاتُه [١٦٩/٣أ] الواحدةُ وجسمُهُ فِي أماكنَ مختلفةٍ في حالةٍ واحدةٍ(١)، ودلَّ علَىٰ أنَّ ملكَ الرُّؤيَا جعلَ اللهُ أنْ يمثِّلَ لكلِّ شخصٍ بالنَّبيِّ ﷺ ما يليقُ بهِ، إمَّا أنْ يَرَاهُ مُقبلًا عليهِ أو يَرَاهُ مُتَّبعًا لهُ أوْ مُعْرِضًا عنهُ، وكلُّ ذلكَ تَنْبِيهٌ لهُ فِي حَالِهِ.

وروحُ **النَّبيِّ** ﷺ **إنَّمَا هِيَ شَرِيعَتُهُ**، فمَنْ رأىٰ النَّبيَّ ﷺ أمامَهُ وهوَ مقتدٍ بهِ متَّبعٌ آثارَهُ دلَّ علَىٰ استقامتِهِ فِي حَالتِهِ، ومَنْ رآهُ خلفَهُ وهوَ متقدِّمٌ عليهِ أوْ معرِضٌ عنهُ دلَّ علىٰ ابتداعِهِ ومخالفتِهِ، وقلَّةِ استقامتِهِ فِي سُنَّتِهِ، ولكلِّ رؤيَا أسبابٌ يعتدُّ بهَا وألفاظٌ.

ومِنْ أعجَبِ مَا رأيتُ أنَّ الشَّخصَ إذَا رأىٰ رُؤيَا ونسِيَهَا وأتىٰ إلىٰ المعبِّرِ ويقولُ لهُ: «رأيتُ رؤيَا ونسيتُهَا» أمكنَ المُعبِّرُ أنْ يذكرَهَا لهُ ثمَّ يُعبِّرَهَا، وهذَا يدلُّ علىٰ كَمَالِ أَسْبَابِ الرُّؤيَا وكثرتِهَا واختلافِ وجُوهِهَا، فقالَ: ينظرُ إليهِ وقتَ حديثِهِ لهُ أينَ يضَعُ يدَهُ، فإنْ وضعَ يدَهُ علَىٰ رأسِهِ قالَ لهُ: رأيتَ كأنَّكَ صَعَدْتَ جبلًا، وفيهِ نباتٌ كثيرٌ وأعينٌ تجرِي ماءً وأصواتٌ، فأخذَ روحَ الرَّأسِ وما فيهَا، وأخذَ جميعَ ذلكَ مِنْ حَطِّ يدِهِ عليهِ.

وإذَا تقرَّرَ مَا ذكرْنَاهُ، وأنَّ الرُّؤيَا إنَّمَا هِيَ أمثلةٌ يحذِّرُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بهَا بعضَ عِبَادِهِ، ويبشِّرُ مَنْ شاءَ، وأنَّهُ عِلْمٌ مِنَ العلومِ، فلا ينبغِي أنْ يتعرَّضَ لهُ إلَّا مَنْ لهُ عِلْمٌ بهِ، ولذلِكَ لمَّا سُئِلَ مالكٌ(٢) عمَّنْ يعبِّرُ الرُّؤيَا ولا عِلْمَ لهُ بهَا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٠٣٨/٢.

(٢) ورد قوله في: التمهيد لابن عبد البر ٢٨٨/١، وتفسير القرطبي ١٢٦/٩، وطرح التثريب ٢٠٤/٨، وجمع الوسائل في شرح الشمائل ٢٣٩/٢.

قالَ: «أَبالنُّبوَّةِ تلعبُ!»[١].

وكانَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوحَىٰ إليهِ ستَّةَ أشهرٍ في المَنامِ[٢]، وبعدَ ذلِكَ رأىٰ جبريلَ فِي اليقظةِ وحملَ عليهِ بعضُ النَّاسِ قولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٣]: «الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ».

وبَيَانُ ذلكَ: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيٌّ وهوَ ابنُ أربعينَ سنةً، وتُوفِّيَ وهوَ ابنُ ثلاثٍ وسِتِّينَ سنةً، فكانَتْ مدَّةُ الوحْيِ ثلاثةً وعشرِينَ سنةً، فإذَا قُسِّمَتْ قسمَينِ صارَتِ الثَّلاثةُ وعشرونَ ستَّةً وأربعِينَ ويكونُ أمدُ الرُّؤيَا فِي النَّومِ منهَا ستَّةَ أشهرٍ، فيكونُ الخبَرُ إشارةً إلىٰ المدَّةِ الَّتِي كانَ يُوحَىٰ إليهِ فِي النَّومِ، وهيَ الرُّؤيَا الصَّادقةُ، وذلِكَ [٦٩/٣ب] ستَّةُ أشهرٍ.

وإذَا علِمْتَ الرُّؤيَا وأنَّهَا لا ترجعُ إلىٰ نفسِ الخواطرِ خاصَّةً؛ لأنَّ الخَواطرَ أَقْوالٌ يدركُهَا العبدُ مِنْ نفسِهِ وهوَ يقظانُ، ولا يرَىٰ أشخاصًا، والمناماتُ أمثلةٌ بحيواناتٍ وبغيرِ حيواناتٍ، والنَّخلُ قَومٌ مُؤمنونَ صَالحُونَ، وكذلِكَ الأشجارُ تختلفُ باختلافِ منافِعِهَا، وكذلِكَ البلادُ والمَواضعُ تختلفُ باختلافِ شَرَفِهَا، وتزولُ درجاتُهَا، ويقعُ التَّعبيرُ لكلِّ شخصٍ بعدَ معرفةِ حالِهِ فِي نفسِهِ وينسبُهُ إلىٰ مَا راَهُ، ويكونُ لرؤيتِهِ عشرةُ أوجُهٍ منَ التَّأويلِ يليقُ بحالِهِ منهَا وجهٌ واحدٌ، وَلَوْ رآهَا غيرُهُ لاختلفَ التَّفسيرُ لهُ.

وقدْ أتَىٰ رجلٌ لابنِ سيرِينَ وقالَ لهُ: «رأيتُ كأنَّ بيدِي خاتمًا وأنَا أختمُ بهِ

---

(١) لأن الرُّؤيَا جزء من النُّبوة، فلا يتلاعب بالنبوة. وانظر: فتح الباري ٣٦٣/١٢.

(٢) انظر: الذخيرة ٦١/٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٥٦٢/٦ ـ حديث رقم (٦٥٨٢) بلفظ: «عن أَنَسِ بن مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ من الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ من سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا من النُّبُوَّةِ». ومسلم في صحيحه ١٧٧٣/٤ ـ حديث رقم (٢٢٦٣).

علىٰ أفواهِ الرِّجالِ وفروجِ النِّساءِ» ، فقالَ لهُ ابنُ سيرينَ[١]: «أنتَ مؤذِّنٌ تؤذِّنُ قبلَ الفجرِ فِي رمضانَ ، فتمنعُ النَّاسَ مِنْ أكلِهِم ونِكَاحِهِم».

ومِنْ أعجَبِ مَا جرَىٰ فِي هذهِ الأيَّامِ: رأىٰ بعضُ أصحابِنَا كأنَّ الشَّيخَ أبَا عبدِ اللهِ محمَّدَ ابنَ أبِي شامةَ أعطَاهُ حجرًا ، فجاءَ لبعضِ أهلِ التَّعبيرِ الصَّالِحِينَ لهُ فِي زمانِنَا وعرَضَ عليهِ الرُّؤيَا ، فتثبَّتَ ، ولَمْ يجِدْ لهَا وجهًا ، فألهَمَهُ اللهُ ـ سبحانه ـ ؛ لأنَّ الصَّالحينَ لا يعطُونَ إلَّا خيرًا يُنتفعُ بهِ ، فقالَ لهُ: «انظُرْ هَلْ حنثْتَ فِي زوجتِكَ ، أوْ كانَ وقعَ منكَ يمينٌ ؟!» ؛ لأنَّ ﷺ يقولُ[٢]: «وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ» ، فتفكَّرَ ، فوجدَ الأمرَ كمَا ذكَرَ أنَّهُ حنثَ بزوجتِهِ وهوَ لا يشعرُ ، فكانَتِ الرُّؤيَا تحذيرًا وتنبيهًا لهُ ليصلِحَ شأنَهُ قبلَ الاستمرارِ ، وهذَا هوَ شأنُ الصَّالحينَ أنْ يعظُوا النَّاسَ وينبِّهُوهُم.

وإذَا تقرَّرَتْ هذهِ القواعدُ ذكَرْنَا رُؤيَا القومِ ؛ ليُعْرَفَ منهَا فضيلَتُهُمْ ، واشتغالُهُمْ بمَا هوَ الأهمُّ ؛ بأنَّ مرائيَهِمْ لمَا غلبَ علىٰ قلوبِهِم ، ومَا هوَ بُشْرَىٰ لهُمْ أوْ إنذارٌ ، ومَا هوَ كشفٌ واستبصارٌ ، كمَا جرَىٰ ليوسفَ فِي الأحدَ عشرَ كوكبًا.

۞ قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «واعلَمْ أَنَّ النَّوْمَ عَلَىٰ أَقْسَامٍ[٤]: نَوْمُ غَفْلَةٍ ، وَ[نَوْمُ] عَادَةٍ ، وَذَلِكَ غَيْرُ مَحْمُودٍ ، بَلْ هُوَ مَعْلُولٌ ؛ لِأَنَّهُ أَخُو المَوْتِ ، وَفِي بَعْضِ الأَخْبَارِ[٥]: (النَّوْمُ أَخُو المَوْتِ) ، وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ

---

(١) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/ ٢٣ ، والكشكول ٢/ ٢٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ٧٢٤ ـ حديث رقم (١٩٤٨) ، ومسلم في صحيحه ٢/ ١٠٨٠ ـ حديث رقم (١٤٥٧).

(٣) الرسالة القشيرية ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦١.

(٤) في حاشية الجمل علىٰ شرح المنهج ١/ ٤٢٩: «(فَائِدَةٌ: النَّوْمُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَقْسَامٍ: نَوْمُ الغَفْلَةِ ، وَنَوْمُ الشَّقَاوَةِ ، وَنَوْمُ اللَّعْنَةِ ، وَنَوْمُ العُقُوبَةِ ، وَنَوْمُ الرَّاحَةِ ، وَنَوْمُ الرَّحْمَةِ ، وَنَوْمُ الحَسَرَاتِ. . . .)».

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد ٢/ ٧٩ ، والطبراني في الأوسط ١/ ٢٨٢ ، ٨/ ٣٤٢ ، والبيهقي في البعث والنشور ص٦٥٠ ، وشعب الإيمان ٤/ ١٨٣.

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا/ وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]: [٣/١٧٠أ].

وَقِيلَ: لَوْ كَانَ فِي النَّوْمِ خَيْرٌ لَكَانَ فِي الجَنَّةِ نَوْمٌ.

وَقِيلَ: لَمَّا أَلْقَىٰ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عَلَىٰ آدَمَ النَّوْمَ فِي الجَنَّةِ أَخْرَجَ مِنْهُ حَوَّاءَ، وَكُلُّ بَلَائِهِ إِنَّمَا حَصَلَ حِينَ حَصَلَتْ حَوَّاءُ.

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُولُ: لَمَّا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لِإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، قَالَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، هَذَا جَزَاءُ مَنْ نَامَ عَنْ حَبِيبِهِ، لَوْ لَمْ تَنَمْ لَمَا أُمِرْتَ بِذَبْحِ الوَلَدِ(١).

وَقِيلَ(٢): أَوْحَىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَىٰ دَاوُدَ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: يَا دَاوُدُ، كَذَبَ مَنِ ادَّعَىٰ مَحَبَّتِي، فَإِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي.

وَالنَّوْمُ ضِدُّ العِلْمِ، وَلِهَذَا قَالَ الشِّبْلِيُّ(٣): نَعْسَةٌ فِي أَلْفِ سَنَةٍ فَضِيحَةٌ.

وَقَالَ الشِّبْلِيُّ: اطَّلَعَ الحَقُّ ـ سبحانه ـ عَلَىٰ الخَلْقِ فَقَالَ: مَنْ نَامَ غَفَلَ، وَمَنْ غَفَلَ حُجِبَ، فَكَانَ الشِّبْلِيُّ يَكْتَحِلُ بِالمِلْحِ بَعْدَهُ؛ حَتَّىٰ لَا يَأْخُذَهُ النَّوْمُ.

وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا(٤):

عَجَبًا لِلْمُحِبِّ كَيْفَ يَنَامُ ❊ كُلُّ نَوْمٍ عَلَىٰ المُحِبِّ حَرَامُ!

---

(١) ورد في: ألف باء للبلوي ٢/٨٦.

(٢) ورد في: إحياء علوم الدين ٤/٣٣٣، والمجالسة وجواهر العلم ص٢٨، وسير أعلام النبلاء ١٤/٤٢٤.

(٣) ورد في: ألف باء للبلوي ٢/٨٦، وحدائق الحقائق ص١٧٥.

(٤) من الخفيف، وورد بلا نسبة في: الروض الفائق ص٣٠٧.

وَقِيلَ[١]: المُرِيدُ أَكْلُهُ فَاقَةٌ[٢]، وَنَوْمُهُ غَلَبَةٌ[٣]، وَكَلامُهُ ضَرُورَةٌ.

وَقِيلَ: لَمَّا نَامَ آدَمُ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيهِ ـ بِالحَضْرَةِ[٤] قِيلَ لَهُ: هَذِهِ حَوَّاءُ لِتَسْكُنَ إِلَيْهَا[٥]، هَذَا جَزَاءُ مَنْ نَامَ بِالحَضْرَةِ.

وَقِيلَ[٦]: إِنْ كُنْتَ حَاضِرًا[٧] فَلَا تَنَمْ؛ فَإِنَّ النَّوْمَ فِي الحَضْرَةِ سُوءُ أَدَبٍ، وَإِنْ كُنْتَ غَائِبًا فَأَنْتَ [مِنْ][٨] أَهْلِ الحَسْرَةِ وَالمُصِيبَةِ، وَالمُصَابُ لَا يَأْخُذُهُ النَّوْمُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: مَا ذكرَهُ الإمامُ منْ أنَّ النَّومَ علىٰ أقسامٍ، وسرَدَ ما سَرَدَهُ منَ الأقوالِ والأمثالِ تنضبطُ؛ لأنَّ النَّومَ ينقسمُ إلىٰ: محمودٍ ومذمومٍ، كسائرِ ما تحتاجُ إليهِ الأبدانُ منَ الطَّعامِ والشَّرابِ، فمَا أخذَ منَ النَّومِ علىٰ وجْهِ التَّنعُّمِ والتَّلذُّذِ معَ الغفلةِ عمَّا خُلِقَ الإنسانُ لهُ فهوَ منْ أقسامِ الدُّنيَا المذمومِ، ومَا وقعَ منهُ حاجةً وطبعًا فهوَ كمَا أخذَهُ منَ الطَّعامِ لإقامةِ البِنْيَةِ، ومَا لا بُدَّ لهُ منهُ فهوَ ليسَ بمذمومٍ، ومَا وقعَ منهُ ليستعينَ بهِ علىٰ فِعْلٍ هوَ أفضلُ منهُ كيَ ينامَ أوَّلَ اللَّيلِ؛ ليقومَ آخرَهُ وهوَ متمكِّنٌ منَ القيامِ أوَّلَه، فنومُهُ بهذِهِ النِّيَّةِ أفضلُ مِنْ سهرِهِ.

فَبِهَذَا الاعتبارِ كانَ نَوْمُ العَالمِ عِبادةً، ومَنْ نامَ ووجدَ فِي نومِهِ مِنَ المَنَامَاتِ

---

(١) ورد قوله في: شعب الإيمان ٥/٤٧، وتاريخ دمشق ٥٤/٢٥٦، وحدائق الحقائق ص١٢٣، وسير أعلام النبلاء ١٤/٥٣٤.

(٢) أي: لا يأكل إلا عند الحاجة.

(٣) لدوام اشتغاله بما طُلب منه.

(٤) قال العروسي: «أي: في حالة كان ينبغي له فيها جمع قلبه على الحق، ودوام اشتغاله فيها بأحوال الصدق» نتائج الأفكار ٤/٣٢٨.

(٥) أي: خلقت لتسكن إليها.

(٦) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص١٢٣.

(٧) أي: مجموع الهمة على الله عَزَّ وَجَلَّ.

(٨) زيادة من (ف).

وَالمَرَائِي مَا يحملُهُ علَىٰ الخيراتِ، وَيَنْبَسِطُ [بِهِ] قلبُهُ وجَسَدُهُ علىٰ الأعمالِ الصَّالحاتِ [٣/٧٠ب]، فهلْ يكونُ نومُهُ بهذَا القصدِ أحسنَ مِنْ يقظتِهِ، أوِ اشتغالُهُ بالذِّكْرِ والفِكْرِ معَ مجاهدتِهِ فِي ترْكِ منامِهِ أفضلَ لهُ؟ فهذَا فِي محطِّ النَّظرِ، وقدْ يختلفُ باختلافِ الأشخاصِ وأعمالِهِمُ الَّتِي يعملُونَهَا فِي يقظتِهِمْ، وشهدَتِ الشَّريعةُ بفضيلتِهَا، فمجاهدتُهُم فيهَا أفضلُ مِنْ مَنَامِهُمْ، وإنْ وجدُوا فيهِ مَا يُقَوِّيهِمْ علَىٰ الخيرِ ويعينُهُمْ، فإنَّ هذَا متحقِّقٌ، والَّذِي يَجِدُونَهُ مَوهُومٌ، وعلَىٰ هذَا تجرِي الأقسامُ الَّتِي ذكرَهَا الإمامُ.

فالقِسْمُ الأوَّلُ: الَّذِي يكونُ بقَصْدِ التَّنعُّمِ والتَّلذُّذِ، ووجودِ راحةِ المنامِ للأبدانِ هوَ الَّذِي يُشَبِّهُهُ بالمَوتِ، وقَدْ سَمَّاهُ اللهُ - تعالىٰ - مَوتًا، وسَمَّىٰ الانتباهَ بَعْثًا، فقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

ومتَىٰ كانَ النَّومُ بهذَا القصدِ كانَ ذنبًا محضًا، ولذَّةً عاجلةً، وتلافًا منَ العُمرِ ونَقْصًا، وعلَىٰ هذَا حملَ بعضُ النَّاسِ قولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(١)]: «صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي العُمُرِ»، وأنَّ اللهَ - سبحانه - يوفِّقُ مَنْ وصلَ رَحِمَهُ للخيراتِ، ويوقظُهُ لفعلِ الصَّالحاتِ، فإذَا قلَّ نَومُهُ لاشتغالِهِ بالخيراتِ، طالَ عمرُهُ؛ لأنَّ عُمْرَهُ هوَ الحَيَاةُ، فيكونُ زيادةُ عُمُرِهِ على هذَا باعتبارِ يَقَظَتِهِ، ونقصُ عُمُرِهِ بنَوْمِهِ.

ووجْهٌ آخرُ: أنَّ اللهَ - تعالىٰ - يُكثِرُ الجزاءَ لمَنْ وصلَ رَحِمَهُ، فيضاعفُ لهُ أجرَهُ، فإذَا عاشَ مقدارًا مِنْ عمرِهِ ضعَّفَ لهُ أجرَ مَا لَوْ عاشَ مثلَ ذلِكَ مرَّتَينِ، فتكونُ الزِّيادةُ فِي العمرِ بمعنَىٰ كثرةِ الأجرِ علَىٰ تقديرِ العمَلِ.

وأمَّا مَنْ جاهدَ نفسَهُ فِي الخيراتِ، ولَمْ يقصدِ النَّومَ، وإنَّمَا وقعَ بهِ غلبةً؛

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ١/٢٨٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/٢٤٥.

لِضَرُورةِ طَبْعِهِ وَحَاجتِهِ، إذْ خشِيَ فِي مُكَابَدَتِهِ النَّومَ أنْ يجرِيَ علىٰ لِسَانِهِ فِي قِرَاءَتِهِ ومُنَاجَاتِهِ لربِّهِ مَا لا يليقُ بشريعتِهِ، كمَا نهىٰ عَنْ فِعْلِ ذلكَ، وأمَرَ الإنسانَ بأنَّهُ إذَا وصلَ إلىٰ ذلِكَ نَامَ، ولعلَّهُ أنْ يدعوَ فيسُبَّ نفسَهُ أوْ ربَّهُ، فالنَّومُ لهذَا أولَىٰ بهِ، ويكونُ بمنزلةِ مَنْ جاعَ وخشِيَ التَّشويشَ علىٰ نفسِهِ مِنْ جوعِهِ، فيأخذُ مِنَ الطَّعامِ مقدارَ الضَّرورةِ والحاجةِ، وكذَا يفعلُ هذَا إذَا وجدَ مِنْ نفسِهِ ما ذكرْنَاهُ، فإذَا نامَ وكُسرَ عنهُ التَّشويشُ واستيقظَ فلَا يعودُ إلىٰ النَّومِ اختيارًا، ويشتغلُ بالخيرِ الَّذِي فيهِ [٧١/٣أ]، إلَّا أنْ يغلبَهُ النَّومُ تارةً أُخرَىٰ، كمَا تقدَّمَ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يفعلُ ذلكَ، ومَنْ أحبَّ أنْ يرَاهُ نائمًا رآهُ، ومَنْ أحبَّ أنْ يرَاهُ قائمًا مصلِّيًا رآهُ[(١)]، وإنَّمَا ذلكَ لاختلافِ حالَيهِ فِي القيامِ والمنامِ، كلُّ ذلكَ يسيرٌ.

وهذَا هوَ شأنُ ابنِ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كانَ يفعلُ هذَا، كانَ عندَهُ مهراسُ ماءٍ فيتوضَّأُ ويصلِّي، فإذَا غلبَهُ النَّومُ أخذَ شيئًا يسيرًا، فإذَا استيقظَ توضَّأَ مرَّةً أُخرَىٰ، فلَا يزالُ كذلِكَ، ويسألُ نافعًا فيقولُ[(٢)]: «يا نافعُ، أسحَرْنَا؟ فإنْ قالَ لهُ: نعَمْ جلسَ يستغفرُ؛ عملًا بقولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وإنْ قالَ لهُ: لَا، صَلَّىٰ».

وأمَّا مَنْ وجدَ الرَّاحةَ معَ مولَاهُ، وكمُلَ شغلُهُ بهِ، ووجدَ اللَّذَّةَ فِي مناجاتِهِ، وذهبَ عنهُ النَّومُ لمَا هوَ فيهِ مِنْ حَبْسِ حَالاتِهِ، ثمَّ تركَ ما هوَ فيهِ لينامَ، فَقَدْ أَعْرَضَ عَنِ الأفضلِ ومالَ إلىٰ أدونِ مَرامٍ، وآثرَ المَنَامَ علىٰ أشرفِ مَقَامٍ، وَبِهَذَا قالَ الشِّبْلِيُّ: «**نعسةٌ في ألفِ سنةٍ فضيحةٌ**»، يعنِي: لمَنْ هذِهِ حالُهُ، وكيفَ يليقُ بالمحبِّ إذَا

---

(١) كما في حديث مسلم في صحيحه ٢/١٠٢٠: «... لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

(٢) رواه عنه الطبراني في: المعجم الكبير ١٢/٢٦٠، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/٣٠٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣١/١٢٨.

كمُلَتْ محبَّتُهُ لمحبوبِهِ أنْ يشتغلَ بغيرِهِ اختيارًا؟! بَلْ هوَ خسارةٌ إذا وقعَ اضطِّرارًا.

وأمَّا مَنْ وجدَ راحةً فِي المَنَامِ، ورأىٰ في منامِهِ ما يقوِّيهِ علىٰ سلوكِهِ، ويجمعُ همَّهُ لنَيلِ مطلوبِهِ، فنومُهُ جيِّدٌ؛ لكونِهِ سَبَبًا للخيراتِ، وَعَوْنًا علَىٰ تحصيلِ الباقياتِ الصَّالحَاتِ، كَمَا قالَ بعضُهُمْ[1]:

رَأَيْتُ سُرُورَ قَلْبِي فِي مَنَامِي ❁ فَأَحْبَبْتُ التَّنَعُّسَ وَالمَنَامَا

وهاهُنَا يقعُ التَّفضيلُ بينَ شُغْلِهِ فِي اليقظةِ؛ لنيلِ مطلوبِهِ بالمجاهدةِ، أوْ مَنَامِهِ؛ ليجدَ مَا يحملُهُ ويقوِّيهِ علَىٰ مَقْصُودِهِ بالمُشَاهَدَةِ، فَمَتَىٰ شَهِدَتِ الشَّريعةُ بأنَّ أَعْمَالَهُ فِي الظَّاهرِ علىٰ الاستقامَةِ، فلَا يعدلُ عنهَا إلىٰ غَيْرِهَا، فَإِنْ أخذَهُ نَومُ غلبةٍ وأمدَّهُ اللهُ فِي نومِهِ ببركةِ مُجَاهَدَتِهِ فِي يَقَظَتِهِ، كانَ حَالُهُ نورًا علَىٰ نورٍ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «**وَأَمَّا أَهْلُ المُجَاهَدَاتِ فَنَوْمُهُمْ صَدَقَةٌ مِنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عَلَيْهِم، وَأَنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يُبَاهِي[3] بِالعَبْدِ إِذَا نَامَ فِي سُجُودِهِ[4]، يَقُولُ: انظُرُوا إِلَىٰ عَبْدِي [رُوحُهُ عِنْدِي، وَجَسَدُهُ بَيْنَ يَدَيَّ[5]».**

قَالَ الأستاذُ: يَعْنِي][6]: رُوحُهُ فِي مَحَلِّ النَّجْوَىٰ[7] [٣/٧١ب]، **وَبَدَنُهُ عَلَىٰ**

---

(١) من الوافر، ونسب لشاة الكرماني في: الرسالة القشيرية ٢/٥٦١، وورد بلا نسبة في: روح البيان ٦/٢٢٣.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦١.

(٣) أي: يفاخر.

(٤) وهذا نوم الضرورة.

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص٤٢٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤١/٢٩٢، والديلمي في الفردوس ١/٢٩١، والمعافى بن زكريا في: أنس المنقطعين ص٥١١.

(٦) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية المطبوع.

(٧) أي: في أشرف حال يناجي فيه العبد ربه.

بِسَاطِ العِبَادَةِ[١].

وَقِيلَ[٢]: كُلُّ مَنْ نَامَ[٣] عَلَىٰ طَهَارَةٍ يُؤْذَنُ لِرُوحِهِ أَنْ تَطُوفَ بِالعَرْشِ، وَتَسْجُدَ للهِ ـ تَعَالَىٰ ـ.

قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩].

سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ يَقُولُ: شَكَا رَجُلٌ إِلَىٰ بَعْضِ المَشَايِخِ مِنْ كَثْرَةِ النَّوْمِ[٤]، فَقَالَ: اذْهَبْ فَاشْكُرِ اللهَ عَلَىٰ العَافِيَةِ؛ فَكَمْ مِنْ مَرِيضٍ فِي شَهْوَةِ غَمْضَةٍ مِنَ النَّوْمِ الَّذِي تَشْكُو مِنْهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ الشَّيخُ مِنْ نومِ أربابِ المُجاهدَاتِ أَنَّهُ صدقةٌ تصدَّقَ اللهُ عليهِمْ بهَا؛ لتستريحَ أبدانُهُم، وتستجمَّ الأعمالَ فيمَا يستقبلُ، فهوَ مشهودٌ لهُ بالشَّريعةِ، مأمورٌ بهِ بأنْ يُرَوِّحُوا القلوبَ ساعةً بعدَ ساعةٍ، وقد رأىٰ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حنظلةَ وهوَ يبكِي ويصيحُ يقولُ: «نافقَ حنظلةُ، فقالَ لهُ: ما لكَ يا حنظلةُ؟ قالَ لهُ: يا أبَا بكرٍ، نكونُ عندَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهوَ يُذَكِّرُنا للآخرةِ ويعظُنَا، فكأنَّهَا رأيُ العينِ، فإذَا فارقنَاهُ عَافسنَا الأهلَ والضَّيعةَ، فنسِينَا وتغيَّرَتْ أحوالُنَا، فأخذَهُ أبو بكرٍ وأتيَا إلَىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهوَ يقولُ: نافقَ حنظلةُ، فقالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٥]: «مَا لَكَ يَا حَنْظَلَةُ؟ فَقَالَ لَهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كيتَ وَكيتَ، قَالَ: يَا حَنْظَلَةُ، لَوْ دُمْتُمْ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ، لَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً».

---

(١) وهو ما يُفرش لِيُصَلَّىٰ عليه.

(٢) ورد قوله في: ألف باء للبلوي ٢/٨٦، وحدائق الحقائق ص١٧٦.

(٣) هذا نوم المتطهر.

(٤) هذا نوم العافية.

(٥) سبق تخريجه.

هذا فيه إشارةٌ إلىٰ تعليم طُرُقِ المجاهدةِ والرِّفقِ بالنَّفسِ، ويعضِّدُهُ قولُهُ(١): «إِنَّ المُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَىٰ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَىٰ نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ»، «وَاكْلُفُوا مِنَ العَمَلِ مَا تُطِيقُونَ، إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا»(٢).

فمتىٰ وجدَ العبدُ من نفسِهِ الكسلَ والفتورَ فلينَمْ، فإنَّهَا رحمةٌ منَ اللهِ فلا يكابدْ، وإنْ وجدَ النَّشاطَ وطِيبَ العَيشِ ووجودَ اللَّذَّةِ فليستغنِمْ، ويعضِّدُهُ قولُهُ ﷺ(٣): «إِذَا فُتِحَ عَلَىٰ أَحَدِكُمْ بَابُ خَيْرٍ فَلْيَنْتَهِزْهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَىٰ يُغْلَقُ».

وقولُهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، قالَ أهلُ التَّفسيرِ(٤): راحة لأبدانِكُم.

وكَونُ مَنْ نامَ علىٰ طهارةٍ كانَتْ روحُهُ تحتَ العرشِ يتبعُ فيهِ الآيَةَ وصحَّةَ الخبَرِ، ولا خفاءَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمَرَ الجُنُبَ [١٧٢/٣أ] أنْ يتوضَّأَ وينامَ(٥).

وقَدْ حضَّ علىٰ الطَّهارةِ الصُّغرَىٰ قبلَ النَّومِ؛ لينامَ علىٰ إحدَىٰ الطَّهارتَينِ، وقيلَ: لينشطَ فيكملَ غسلَهُ(٦)، وقَدْ قالَ النَّبيُّ ﷺ لعمرَ بنِ الخطَّابِ(٧):

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرىٰ ١٨/٣، وشعب الإيمان ٤٠٢/٣.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص٣٨، والقضاعي في مسند الشهاب ٢٦٨/١، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢١١/٥.

(٤) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة ص٥٠٨، وتفسير الطبري ٣٣٢/١، والبغوي ٤٣٧/٤، والسمرقندي ٤٧٤/١.

(٥) كما في مسند أحمد ٢٤/١: «عن عُمَرَ أَنَّهُ سَأَلَ النبي ﷺ أَيَنَامُ أَحَدُنَا وهو جُنُبٌ؟ قال: يَتَوَضَّأُ وَيَنَامُ»، ومسند الشاميين ٤٠٨/١، ومصنف ابن أبي شيبة ٦٣/١.

(٦) انظر: زاد المعاد ٢٦٥/٤.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ١١٠/١ ـ حديث رقم (٢٨٦)، ومسلم في صحيحه ٢٤٩/١ ـ حديث رقم (٣٠٦).

«تَوَضَّأْ وَاغْسِلْ ذَكَرَكَ، ثُمَّ نَمْ»، وإذَا كانَ الوضوءُ مستحبًّا والإنسانُ جنُبٌ، فهوَ غيرَ جنُبٍ أَوْلَىٰ(١).

وأمَّا ذلكَ الَّذِي شكَىٰ لشيخِهِ كثرةَ النَّومِ قالَ لهُ: «**اشكُرِ اللهَ علَىٰ العَافيةِ**»، فليسَ فيهِ دليلٌ علىٰ مقصودِ البابِ إلَّا منْ حيثُ كونُهُ مغلوبًا لَا قدرةَ لهُ علَىٰ السَّهرِ، فيكونُ منَ المجاهدِينَ إلَّا أنَّ النومَ يغلبُهُ، فأرادَ الشَّيخُ أنْ يعرِّفَهُ أنَّ نومَكَ نعمةٌ منَ اللهِ عليكَ، ونيَّتكَ المجاهدةُ والقيامُ، ثمَّ يتفضَّلُ اللهُ عليكَ بالمَنَامِ، فكَمْ مِنْ شخصٍ يتمنَّىٰ أنْ يَنَامَ ولا يقدرُ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): **«وَقِيلَ: لَا شَيْءَ أَشَدُّ عَلَىٰ إِبْلِيسَ مِنْ نَوْمِ العَاصِي، يقُولُ: مَتَىٰ يَنْتَبِهُ وَيَقُومُ حَتَّىٰ يَعْصِيَ اللهَ - تعالىٰ -؟!**

وَقِيلَ: أَحْسَنُ أَحْوَالِ العَاصِي: أَنْ يَنَامَ إِنْ لَمْ يَكُنِ الوَقْتُ لَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيهِ».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: النَّائمُ ليسَ مكلَّفًا؛ لِعَدَمِ العَقْلِ، فَنومُهُ بالنَّظرِ إليهِ رحمةٌ إنْ كانَ مُخلِّطًا وضياعُ وقتٍ وَخَسَارَةٌ إنْ كانَ صالحًا.

وأمَّا بالنَّظرِ إلىٰ غيرِهِ فلَا يخلُو ذلكَ الغيرُ؛ إمَّا أنْ يكونَ حبيبًا لهُ، أَوْ عَدُوًّا؛ فالحبيبُ تحبُّ لهُ الخيرَ، والعدوُّ يكرهُهُ لهُ، بَلْ يحبُّ لهُ الشَّرَّ، فالنَّائمُ سَالِمٌ، فمَنْ يحبُّ النَّائمَ يكرهُ زوالَ الخيرِ عنهُ إذَا كانَتْ يقظتُهُ فِي خَيْرٍ، ويُحِبُّ رَاحَتَهُ.

وأمَّا الشَّيطانُ فإنَّهُ يكرهُ نَومَهُ باعتبارٍ ويحبُّهُ باعتبارٍ، فإنْ كانَ إذَا استيقظَ فعلَ خيرًا مَا وإنْ قلَّ، فالشَّيطانُ يحبُّ نومَهُ لفواتِ هذَا الخيرِ، ويكرهُ نومَهُ إذَا كانَ شرِّيرًا، فإنَّهُ في نومِهِ سالمٌ، وفِي يقظتِهِ مِنْ حِزْبِهِ، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

---

(١) انظر: بداية المجتهد ١/٣٠، ونيل الأوطار ١/٢٦٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦١.

فعلَىٰ هذَا الوجهِ الواحدِ يكونُ نومُ العَاصِي شديدًا عليهِ؛ لسلامتِهِ منَ الشَّرِّ، وكونُ نومِهِ أحسنَ، فهوَ لسلامتِهِ منَ المَعَاصِي، فإنَّهُ لوِ استيقظَ لمْ يعملْ خيرًا، فبهذَا الاعتبارِ إذَا لمْ يكنْ لهُ[١] بحيثُ لمْ يعملْ فيهِ خيرًا فليسَ عليهِ إذَا لَمْ يعملْ فيهِ شرًّا[٢].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣] [٣/٧٢ب]: **وَسَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ[٤]: تَعَوَّدَ شَاهُ الكِرْمَانِيُّ السَّهَرَ، فَغَلَبَهُ النَّوْمُ مَرَّةً فَرَأَىٰ الحَقَّ - سبحانه - فِي النَّوْمِ، وَكَانَ يَتَكَلَّفُ النَّوْمَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ:**

رَأَيْتُ سُرُورَ قَلْبِي فِي مَنَامِي ❁ فَأَحْبَبْتُ التَّنَعُّسَ وَالمَنَامَا».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهذَا يدلُّ علَىٰ جوازِ رؤيةِ اللهِ - تعالىٰ - فِي النَّومِ[٥]، وهَلْ يجوزُ أنْ يراهُ العبدُ جِسمًا فِي المنامِ أوْ لَا يجوزُ لاستحالةِ ذلكَ عليهِ فِي الحقيقةِ؟!

فإنْ نظَرْنَا إلَىٰ أنَّ الملكَ هوَ الَّذِي يمثِّلُ فِي الرُّؤيَا، وأنَّ المرئِيَّ ليسَ هوَ حقيقتَهُ أنْ يمثِّلَ بهِ الملكُ فيجوزُ، وقَدْ قالَ أهلُ التَّفسيرِ للرُّؤيَا ممَّنْ رأَىٰ أنَّ اللهَ - سبحانه - يقبلُهُ فِي النَّومِ دلَّ ذلكَ علَىٰ خيرٍ يصلُهُ منَ اللهِ وإكرامٍ يكرمُهُ بهِ، وزعمَ بعضُ النَّاسِ أنَّهُ لا يرَىٰ فِي النَّومِ جسمًا، فإنَّ الملكَ لا يمثِّلُ جسمًا، وإنْ رآهُ الرَّائِي جسمًا يَدُلُّ ذلكَ علَىٰ اعتقادِ الرَّائِي الجسميَّةَ، وإلَّا مَنْ نزَّهَ اللهَ - سبحانه - عنِ الجسميَّةِ والجهةِ يستحيلُ أنْ يراهُ جِسمًا، وهذَا الَّذِي قالَهُ إنَّمَا يتمُّ لَوْ كانَ

---

(١) أي: الوقت.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤٠.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦١.

(٤) ورد قوله في: طبقات الأولياء ص٣٦١.

(٥) سبق تخريجه.

المَرْئِيُّ فِي النَّومِ هيَ ذاتُ الشَّيءِ وحقيقتُهُ، وإلَّا قَدْ يَرَىٰ الشَّخصُ الواحدُ رسولَ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شابًّا بالإسكندريَّةِ، ويرَاهُ آخرُ بالعراقِ كَهْلًا، ويرَاهُ آخرُ فِي المغربِ طالبًا نحوَ المشرقِ وعكسِهِ، ولَوْ كانَ المرئِيُّ حقيقةً لاستحالَ ذلكَ؛ لأنَّ الشَّخصَ الواحدَ يستحيلُ أنْ يكونَ فِي مكانَينِ فِي سَاعةٍ واحدةٍ.

وقولُ النَّبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١): «مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَآنِي حَقًّا؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي»، معناهُ: أنَّهَا رُؤيَا صحيحةٌ منَ الملَكِ، وليسَتْ منَ الشَّيطانِ، ويدلُّ ذلكَ علىٰ صحَّةِ الرُّؤيَا وإنْ كانَ المرئِيُّ ليسَ حقيقةَ النَّبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنْ معناهُ الشَّرعُ، مَنْ رأَىٰ نفسَهُ مُتَّبِعًا للنَّبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَلَّ ذلكَ علىٰ اتِّباعِهِ للسُّنَّةِ والشَّريعةِ فِي اليقظةِ، ومَنْ رأَىٰ نفسَهُ قَدْ نَزَلَ النَّبيُّ صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَ ظَهرِهِ وَمَشَىٰ مُعرِضًا عنهُ دلَّ ذلكَ علىٰ ابتداعِهِ وضَلالِهِ، ومَنْ رآهُ [١٧٣/٣أ] يَمْشِي بَعِيدًا مِنْهُ دَلَّ ذلكَ علىٰ نقصٍ فِي حَالِهِ، وعلَىٰ هذَا النَّحوِ تكونُ الرُّؤيَا ـ واللهُ أعلمُ ـ.

فمَنْ رأَىٰ اللهَ ـ سبحانه ـ فِي النَّومِ ووجدَ منهُ خيرًا ازدادَ يقينًا وبركةً ونشاطًا فِي العبادةِ كانَتِ الرُّؤيَا صحيحةً صالحةً، ولذلِكَ قالَ شاهُ الكرمانِيُّ لمَّا رأَىٰ اللهَ فِي النَّومِ:

رَأَيْتُ سُرُورَ قَلْبِي فِي مَنَامِي ❁ فَأَحْبَبْتُ التَّنَعُّسَ وَالمَنَامَا

فمحبَّتُهُ للنَّومِ واختيارُهُ لهُ علَىٰ اليقظةِ لهذَا المقصودِ الصَّحيحِ الَّذِي يزيدُهُ يَقِيْنًا واشتغالًا باللهِ ـ تعالىٰ ـ محمودٌ وليسَ بِمَذمُومٍ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ ٱللَّٰهُ عَنْهُ(٢): «**وَقِيلَ(٣): كَانَ رَجُلٌ لَهُ تِلْمِيذَانِ فَاخْتَلَفَا فِيمَا بَيْنَهُمَا؛ فقَالَ أَحَدُهُمَا: النَّوْمُ خَيْرٌ؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَعْصِي اللهَ فِي تِلْكَ الحَالَةِ، وَقَالَ**

---

(١) سبق التعليق علىٰ ذلك.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦١ ـ ٥٦٢.

(٣) ورد في: روح البيان ١/٤٠١.

الآخرُ: اليَقظَةُ خيرٌ؛ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ اللهَ فِي تِلْكَ الحَالَةِ، فَتحَاكَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ الشَّيخ، فَقَالَ: أَمَّا أَنْتَ الَّذِي قُلْتَ بِتَفْضِيلِ النَّوْمِ، فَالمَوْتُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الحَيَاةِ، وَأَمَّا أَنْتَ الَّذِي قُلْتَ بِتَفْضِيلِ اليَقْظَةِ فَالحَيَاةُ خَيْرٌ لَكَ.

وَقِيلَ: اِشْتَرَىٰ رَجُلٌ مَمْلُوكَةً، فَلَمَّا دَخَلَ اللَّيْلُ قَالَ: اِفْرِشي الفِرَاشَ، فَقَالَتِ المَمْلُوكَةُ: يَا مَوْلَايَ؛ أَلَكَ مَوْلَىٰ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَتْ: يَنَامُ مَوْلَاكَ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالَتْ: أَلَا تَسْتَحِي أَنْ تَنَامَ وَمَوْلَاكَ لَا يَنَامُ؟!».

※ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَّا اختلافُ التِّلميذَينِ عندَ الشَّيخِ فِي أَيِّهِمَا أَوْلَىٰ: النَّومُ أوِ اليقظةُ؟ فلا خلافَ أنَّ اليقظةَ أفضلُ منَ النَّومِ للعملِ الصَّالحِ، ولكنْ لمَّا ضعُفَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخشِيَ علىٰ نفسِهِ منَ الخللِ فيمَا كُلِّفَهُ تمنَّىٰ الموتَ، فتمنِّي المَوتِ خَوفًا منَ الخللِ أَوْلَىٰ منَ الحياةِ معَ ضَعْفِ العَمَلِ(١)، والتِّلميذَانِ إنَّمَا مَالَ أحدُهُمَا للنَّومِ ورجَّحَهُ لمحبَّتِهِ للسَّلامةِ وغلبتِهَا علَىٰ قلبِهِ، ومالَ الآخرُ لليقظةِ لوجودِ الغَنيمةِ فيهَا معَ السَّلامةِ، هذَا وجهُ الاختلافِ.

وأمَّا قضيَّةُ الجاريةِ الَّتِي اشترَاهَا ذلكَ التَّاجرُ، ثمَّ أمرَهَا أنْ تفرشَ لينامَ، وكانَتِ الجاريةُ صالحةً ممَّنْ يقومُ اللَّيلَ، فقالَتْ لسيِّدِهَا: «**يا سيِّدِي، ألكَ مَوْلَىٰ؟ قالَ لهَا: نعَمْ، هوَ اللهُ، فقالَتْ لهُ: أينامُ مولَاكَ؟ فقالَ لهَا: لَا، فقالَتْ لهُ: أيستحِي العبدُ أنْ ينامَ وسيِّدُهُ لا ينامُ؟!**»، [٣/٧٣ب] وهذَا فيهِ تحريضٌ علىٰ النَّومِ، لا يكونُ منَ العبدِ إلَّا علىٰ وجهِ الغَلَبَةِ، وأنْ يكونُ مشتغِلًا فيما يَرْضَاهُ مَالِكُهُ، فإنْ غُلِبَ كانَ مَعْذُورًا.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «**وَقِيلَ(٣): قَالَتْ بُنَيَّةٌ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: لِمَ لَا تَنَامُ؟**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤١.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٢.

(٣) ورد عن ابنة الربيع بن خثيم في: صفة الصفوة ٣/٦٣، وبغية الطلب ٨/٣٥٧٢، وعن مالك بن دينار في: صفة النار ص١٢٤.

فَقَالَ: إِنَّ جَهَنَّمَ لَا تَدَعُنِي أَنْ أَنَامَ.

وَقِيلَ[١]: قَالَتْ بُنَيَّةٌ لِمَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: لِمَ لَا تَنَامُ؟ فَقَالَ: إِنَّ أَبَاكِ يَخَافُ البَيَاتَ[٢]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا يدلُّ على أنَّ اللهَ ـ تعالى ـ سخَّرَ بُنَيَّةَ سعيدٍ حتَّى ذكرَ سببَ يقظتِهِ، وأخبرَها أنَّ خوفَهُ لا يدعُهُ أنْ ينامَ، فعُلِمَ ذلكَ مِنْ حالِهِ وكَرامتِهِ.

وأمَّا مالكُ بنُ دينارٍ فإنَّهُ أخبرَ ابنتَهُ الَّذي منعَهُ منَ النَّومِ خوفَ أنْ يموتَ في نومِهِ غافلًا؛ وهوَ البياتُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَقِيلَ[٤]: لَمَّا مَاتَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيمٍ قَالَتْ بُنَيَّةٌ لِأَبِيهَا: الأُسْطُوَانَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي دَارِ جَارِنَا[٥] أَيْنَ ذَهَبَتْ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ جَارُنَا الصَّالِحُ يَقُومُ مِنَ اللَّيلِ إِلَى آخِرِهِ، فَتَوَهَّمَتِ البُنَيَّةُ أَنَّهُ كَانَ سَارِيَةً؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ لَا تَصْعَدُ السَّطْحَ إِلَّا بِاللَّيْلِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا يدلُّ على دوامِ صلاتِهِ باللَّيلِ، فإنَّ الصَّغيرةَ أيَّ وقتٍ طلعَتْ منَ اللَّيلِ رأَتْهُ حتَّى ظنَّتْهُ أُسطوانةً.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]: «وَقَالَ بَعْضُهُمْ[٧]: فِي النَّوْمِ مَعَانٍ لَيْسَتْ فِي

---

(١) رواه البيهقي في: شعب الإيمان ١/٥٤٣.
(٢) يعني: الموت في نومه غافلا.
(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٢.
(٤) ورد قوله في: تاريخ الإسلام ٨/٥٤٧.
(٥) هو: منصور بن المعتمر بن عبد الله بن رُبيعة ـ بضم الراء وتشديد الباء المفتوحة ـ، أبو عتاب السلمي الكوفي، وهو من كبار تابعي التابعين. انظر: تهذيب الأسماء ٢/٤١٦.
(٦) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٢.
(٧) ورد في: إتحاف السادة المتقين ١٤/٤١١.

اليَقظَةِ ؛ مِنهَا: أَنَّهُ يَرىٰ المُصطفَىٰ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وَالصَّحابَةَ وَالسَّلَفَ المَاضِينَ فِي النَّومِ ، ولا يَرَاهُم فِي اليَقَظَةِ ، وَكَذٰلِكَ يَرىٰ الحَقَّ ـ سبحانه ـ فِي النَّوْمِ ، وَهَذِهِ مَزِيَّةٌ عَظِيمَةٌ .

وَقِيلَ: رَأَىٰ أَبُو بَكرٍ الآجُرِّيُّ الحَقَّ فِي المَنَامِ ، فَقَالَ لَهُ: سَلْ حَاجَتَكَ ، فَقَالَ: اللّهُمَّ اغفِرْ لِعُصَاةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ، فَقَالَ: أَنَا أَوْلَىٰ بِهَذَا مِنكَ ، سَلْ حَاجَتَكَ» .

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: مَا ذكرَهُ مِنْ فضيلةِ النَّومِ علىٰ اليقظةِ أنَّهُ يرىٰ فِي نومِهِ النَّبيَّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والصَّحابةَ والتَّابعِينَ ، والَّذِينَ تقدَّمَ زمانُهُمْ عَنْ زمانِهِ ولا يمكنُهُ أنْ يراهُمْ فِي يقظتِهِ .

وأشرفُ مِنْ ذلكَ أنْ يرىٰ اللهَ فِي نومِهِ الَّذي لا يمكنُهُ أنْ يراهُ فِي يقظتِهِ فِي الدُّنيا ؛ لمَا سبقَ فِي علمِهِ وقدرِهِ ، فيقولُ الَّذِي رآهُ فِي نومِهِ: ليسَتْ هيَ حقائقَ [١٧٤/٣أ] مَنْ تقدَّمَ عنهُ منَ الأنبياءِ والصَّالحينَ ، بَلْ ملكُ الرُّؤيَا يمثِّلُ بمَنْ شاءَ اللهُ أنْ يريَهُ فِي دُنْيَاهُ فِي نَومِهِ ، وكذلِكَ لَا يرىٰ الحقَّ ـ سبحانه ـ نفسَهُ وذاتَهُ ، وإنَّمَا هوَ الملكُ تمثَّلَ بهِ ، وإنْ كانَ الحقُّ ـ سبحانه ـ منزَّهًا عنِ الجهاتِ والأقطارِ والجسميَّةِ ، فالَّذِي يراهُ في موضعٍ وعلَىٰ هيئتِهِ وهوَ منزَّهٌ عنهَا .

والمقصودُ منَ المناماتِ: كونُهَا مبشراتٍ أَوْ مُنْذِرَاتٍ محذِّراتٍ ، فإذَا رأىٰ فِي نومِهِ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهوَ معرضٌ عنهُ ، أَوْ حالَ النَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ متغيِّرًا عندَهُ ، دلَّ ذلكَ علَىٰ فَسادٍ في حَالِهِ أَوْ بدعةٍ وقعَ فيهَا ، أَوْ حيثُ إعراضُهُ عنهُ يدلُّ عليهِ التَّغييرُ ، وإذَا رأَىٰ نفسَهُ متَّبعًا للنَّبيِّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ، مُقْتَدِيًا بآثارِهِ دلَّ علَىٰ حُسْنِ حَالِهِ واستقامتِهِ فِي شَرِيعَتِهِ .

وكذلِكَ إذَا رأىٰ عمرَ بنَ الخطَّابِ معَ زهدِهِ وتقشُّفِهِ وكمالِ استقامتِهِ فِي نفسِهِ ورعيَّتِهِ ، ثمَّ قالَ لهُ: «السَّاعةَ كمَا تخلَّصْتُ منَ الحِسَابِ» ، كانَ ذلكَ تحذيرًا للرَّائِي ، إذَا كانَ مهمِلًا لأمْرِهِ ، وَمُفَرِّطًا فِي دِيْنِهِ ، فيقولُ: إذَا كانَ مثلُ عمرَ بنِ الخطَّابِ كمَا

تخلَّصَ فكيفَ حالِي معَ تفريطِي ؟! ، فيكونُ ذلكَ سببًا لجدِّهِ فِي تَوبتِهِ .

وكذلِكَ إذَا كانَ خائفًا منْ ذنبِهِ ، وتائبًا باكيًا متضرِّعًا لربِّهِ ، حتَّىٰ غلبَ علَىٰ قلبِهِ القنوطُ واليأسُ مِنْ صَلاحِهِ فِي دينِهِ ، ومَحْوِ أثَرِ زلَّتِهِ منْ صحيفتِهِ ، فرأَىٰ فِي النَّوم رجلًا كانَ يعرفُ تخليطَهُ في دُنياهُ ، وكثرةَ إهمالِهِ وتضييعِهِ لمَا كلَّفَهُ مولَاهُ ، فيسأَلُهُ عن حالِهِ ، فيقولُ لهُ : «لَقَدْ لقيتُ ربًّا غفورًا رحيمًا ، غفرَ لِي ولمْ يؤاخذْنِي» ، تكونُ هذِهِ الرُّؤيَا سببًا لسلامةِ الرَّائِي منْ قنوطِهِ ويأسِهِ مِنْ رحمةِ ربِّهِ ، واعتدالِ خوفِهِ ورجائِهِ واستقامتِهِ علىٰ حُسْنِ حالتِهِ .

فإذَا تقرَّرَ هذَا فَقَدْ صَارَ ما يرَىٰ فِي النَّومِ إنَّمَا هوَ لإصلاحِ الظَّاهِرِ ، ومَا يعلمُهُ الإنسانُ فِي يقظتِهِ بالشَّريعةِ ، وتحقُّقُهُ مِنْ صِفَاتِ ربِّهِ ونبيِّهِ وصَحَابتِهِ ، وكيفَ كانَ حالُهُمْ واجتهادُهُمْ فِي طاعتِهِ ، وبذلُهُمْ أنفسَهُمْ لهُ فضْلًا عنْ أموالِهِمْ [٣/٧٤ب] ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ : ﴿أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: ٨] .

فاليقظةُ : الفكرةُ فِي هذِهِ الأمورِ المحقَّقةِ المشهودِ لصحَّتِهَا عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ورسولِهِ ، والصَّحابةِ والتَّابعينَ ومَنْ تبعَهُمْ ممَّنْ يجوزُ أنْ يُمثَّلَ بهِ الملَكُ فِي النَّومِ بالأدلَّةِ العقليَّةِ والنَّقليَّةِ أنفعُ وأبلغُ فِي الدِّينِ والدُّنيَا جميعًا ممَّا يرَىٰ فِي المنامِ الَّذِي يحتاجُ إلىٰ التَّعبيرِ ، وقَدْ يُصيبُ وقَدْ يُخْطِئُ ، وَشَتَّانَ بينَ النَّومِ واليقظةِ(١) ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ مَوتًا ، وسمَّىٰ اليقظةَ حياةً ؛ لمَا ذكرْنَاهُ ، قالَ : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] إشارةً إلىٰ مَنْ نامَ نومَ الغفلةِ ولمْ يحيَا بعِلمِ اليقظةِ .

فخرجَ مِنْ ذلِكَ أنَّ اليقظةَ علَىٰ كلِّ حالٍ لمَنْ وُفِّقَ للصَّالحاتِ أنفعُ منَ النَّومِ ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠٤٢ .

ولكنْ لمَّا كانَ النَّومُ جاريًا[١] على خِلافِ المُعْتادِ لكثيرٍ منَ النَّاسِ، تحرَّكَتِ النُّفوسُ لهُ والفهمُ منهُ بالتَّعبيرِ، وأينَ هوَ مِنَ النَّقلِ المُتواترِ عنِ البَشيرِ النَّذيرِ، فطُوبَى لمَنِ اشتغلَ فِي طَلَبِ الحقِّ في يَقظَتِه بالجِدِّ والتَّشهيرِ.

وأمَّا الآجُرِيُّ الَّذِي رأى الحقَّ ـ سبحانه ـ فِي المنامِ، «**وسَألَهُ الحقُّ ما حَاجتُهُ؟ قالَ: يَا ربِّ، حاجتِي أنْ تغفرَ لأمَّةِ محمَّدٍ**»، وهذا مِنْ كياسةِ الآجُرِيِّ وكَمَالِ فِطْنتِهِ، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبيبُ اللهِ، وما يحبُّهُ المحبُّونَ محبوبٌ، وأمَّتُهُ كلُّ مَنِ انتسبَ إليهِ، واقتدَى بهِ، واتَّبَعَ آثارَهُ، فالنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبُّهُمْ، وهوَ حريصٌ على نجاتِهِم، ويعزُّ عليهِ عنَتُهُمْ، كمَا قالَ ـ تعالى ـ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فالحقُّ ـ سبحانه ـ يحبُّهُ ويحبُّ مَنْ يحبُّهُ، فمِنْ كياسةِ الآجريِّ قالَ: «**يا ربِّ، اغفرْ لأمَّةِ محمَّدٍ**»، قالَ ذلِكَ تحبُّبًا للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقرُّبًا، ولذلِكَ أجابَهُ ـ تعالى ـ: «**أنَا أحقُّ بذلكَ**»؛ لأنَّهُمْ أمَّةُ حبيبِي، فليتَ شِعرِي ما هذَا الخطابُ والجوابُ فِي المنامِ؟! وهلِ اختصَّ بخطابِ الحقِّ ـ سبحانه ـ حقيقةً سِوَى مُوسَى الكليمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟[٢]

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «**وَقَالَ الكِتَّانِيُّ[٤]: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المَنَامِ فَقَالَ لِي: مَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِشَيْءٍ [٣/١٧٥أ] فَعَلِمَ اللهُ مِنْهُ خِلَافَهُ شَانَهُ اللهُ[٥]**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ورؤيةُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المنامِ رؤيةُ حقٍّ، فإنَّ الشَّيطانَ لا قُدْرَةَ لهُ على التَّمثيلِ بهِ؛ إكرامًا لنبيِّهِ وتشريفًا لهُ، فمَنْ رآهُ فِي المنامِ

---

(١) في الأصل: جارٍ، والأصح المثبت.

(٢) كما هو وارد في سورة (الأعراف)، الآية: ١٤٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٢.

(٤) ورد في: مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي ١/١٨٤.

(٥) أي: عاتبه وقبّحه.

فرؤيتُهُ رؤيةُ حقٍّ ليسَتْ منَ الشَّيطانِ، ولاسيَّمَا إذَا سمعَ منهُ في المنامِ ما دلَّ عليهِ قولُهُ فِي اليقظةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وثبتَ بالأدلَّةِ الواضحةِ مِنْ جُملةِ الأحكامِ.

فقولُهُ: «مَنْ تزيَّنَ للنَّاسِ بما يعلمُ اللهُ خلافَهُ مِنْ قلبِهِ شانَهُ اللهُ»، هذَا هوَ المُرئِيُّ بالأدلَّةِ الفَاضِحَةِ، والدَّليلُ علىٰ صحَّةِ رؤيَا النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ مَنْ رآهُ لا يسمعُ منهُ ما يخالفُ ما جاءَتْ بهِ الشَّريعةُ أبدًا، ولَا بدَّ لهُ منْ تأويلٍ يرجعُ إليهِ، علِمَهُ العالمُونَ بذلكَ الفنِّ.

ولقَدْ أخبرَنِي الشَّيخُ أبو بكرٍ البهاوِيُّ عنْ قضيَّةٍ جرَتْ لهُ معَ أولادِ إبليسَ؛ وذلِكَ أنِّي سألتُهُ يومًا قلتُ: يا أبَا بكرٍ، إذَا طابَ عيشُ الإنسانِ يومًا مَا، وانشرَحَ صدرُهُ، فَلَمَعَ لهُ نورٌ فِي نواحِي البيتِ يُبْصِرُهُ بعينِهِ مَا هذَا؟ فقالَ: لَا تغترَّ بهِ، هذَا ولدُ الشَّيطانِ يُسمَّىٰ: البيضاوِيَّ، يغرُّ النَّاسَ بهذَا[1].

قالَ أبو بكرٍ: ولقَدْ جرَتْ لِي معَهُ قضيَّةٌ عجيبةٌ؛ كنتُ يومًا أذكرُ اللهَ ورأسِي تحتِي، فَصَارَ تحتِي كلُّهُ نُورًا، فأخرجْتُ رأسِي مِنْ طوقِي، فرأيتُ البيتَ الَّذِي أنَا فيهِ كلَّهُ نورًا، فَرَفَعْتُ رأسِي للسَّقفِ، فإذَا شخصٌ مصوَّرٌ فِي السَّقفِ، فقالَ لِي: أنَا الَّذِي خلقتُكَ وهديتُكَ وكلامًا نحوَ هذَا، فعلِمْتُ أنَّ اللهَ ليسَ فِي جهةٍ وليسَ بجسمٍ، فصِحْتُ عليهِ، فَذَهبَ هوَ والنُّورُ بالكلِّيَّةِ.

❁ **قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «وَقَالَ الكتَّانِيُّ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المَنَامِ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللهَ أَلَّا يُمِيتَ قَلْبِي، فَقَالَ: قُلْ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَرْبَعِينَ مَرَّةً: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ».**

❋ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ممَّا بيَّنَّاهُ؛ وهوَ أنَّهُ لمَّا رأىٰ النَّبيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ دلَّهُ

(١) نقل ذلك عنه تلميذه القرطبي في تفسيره ١٠/٤٢٢.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٢.

علىٰ ما دلَّتِ الشَّريعةُ علَىٰ أنَّهُ منفعةٌ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، كمَا قالَ(١): «أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وقولُهُ: «الحيُّ القيُّومُ» مِنْ كَمَالِ اسمِ اللهِ الأعظمِ، كمَا أشارَ إليهِ الحديثُ أَنَّهُ في «آيةِ الكرسِيِّ [٣/٧٥ب] وأوَّلِ (آلِ عمرانَ)»(٢).

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٣): «**وَرَأَىٰ الحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **عِيْسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فِي المَنَامِ، فَقَالَ لَهُ(٤): إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَّخِذَ خَاتمًا، فَمَا الَّذِي أَكْتُبُ عَلَيهِ؟ فَقَالَ: أُكْتُبْ عَلَيهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبِينُ فَإِنَّهُ آخِرُ الإِنْجِيلِ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا أيضًا يدلُّ علىٰ جوازِ رؤيةِ الأنبياءِ، وأمرَهُ بمَا يكتُبُ علىٰ خاتمِهِ بمَا شهِدَتِ الشَّرائعُ كلُّهَا بمنفعتِهِ وبركتِهِ؛ وهوَ «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، كمَا قالَ(٥): «أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(٦): «**وَرُوِيَ عَنْ أَبِي يَزِيدَ أَنَّهُ قَالَ(٧): رَأَيْتُ رَبِّي فِي**

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء ص٢٧٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٩/٢٧٤، وابن كثير في تفسيره ١/٢٤، والعجلوني في كشف الخفاء ١/١٧٢.

(٢) في سنن ابن ماجه ٢/١٢٦٧: «.. اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ في سُوَرٍ ثَلَاثٍ: البَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطه».

وفي تاريخ دمشق ٣٨/٣٢١: «عن أبي أمامة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: اسم الله الأعظم في سور ثلاث من القرآن؛ في (البقرة، وآل عمران، وطه). ح: قال القاسم أبو عبدالرحمن فالتمست في البقرة فإذا هو في (آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، وفي (آل عمران)، فاتحتها: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، وفي (طه): ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾»، وكذا في تفسير ابن كثير ١/٣٠٨.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٢.

(٤) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص١٧٦.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٢ ـ ٥٦٣.

(٧) ورد قوله في: الاعتصام ص٢٦٠، وإتحاف السادة المتقين ٢/١٩٨.

المَنَامِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: اتْرُكْ نَفْسَكَ وَتَعَالَ[(١)].

وَقِيلَ[(٢)]: رَأَىٰ أَحْمَدُ بْنُ خِضْرَوَيْهِ رَبَّهُ فِي المَنَامِ، فَقَالَ: يَا أَحْمَدُ، كُلُّ النَّاسِ يَطْلُبُونَ مِنِّي إِلَّا أَبَا يَزِيدَ فَإِنَّهُ يَطْلُبُنِي».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهاتَانِ الحكايتَانِ ـ وفَّقكَ اللهُ ـ يدلَّانِ علىٰ وُقُوعِ رُؤيةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ فِي النَّومِ.

فأمَّا أبو زيدٍ: فسألَ ربَّهُ: «كيفَ الطَّريقُ إليهِ؟ فقالَ لهُ: اترُكْ نفسكَ وتعَالَ»، وهذَا مِنْ بابِ حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ، معناهُ: اتركِ العملَ لحظِّ نفسِكَ، واعمَلْ لِي خاصَّةً، فإذَا كنتَ كذلِكَ وصلتَ.

وأمَّا ابنُ خضروَيهِ: فإنَّ رؤيتَهُ فيهَا مدحٌ لأبِي يزيدَ، وبيانٌ لشرفيَّةِ مقامِهِ، وحضٌّ لابنِ خضروَيهِ علىٰ التَّأسِّي بهِ، وذلكَ أنَّهُ قالَ لهُ: «كُلُّ النَّاسِ يطلبُونَ منِّي»، أيْ: يطلبونَ أفعالِي، خلَا أبِي يزيدَ، فإنَّهُ يطلبُنِي.

وشتَّانَ بينَ مَنْ يكْفِيهِ العَطَاء، وبينَ مَنْ لا يُرضِيهِ إلَّا كشفُ الغطَاء.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَقَالَ يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ القَطَّانُ[(٤)]: رَأَيْتُ رَبِّي فِي المَنَامِ فَقُلْتُ: يَا رَبِّ؛ كَمْ أَدْعُوكَ فَلَا تَسْتَجِيبُ لِي! فَقَالَ: يَا يَحْيَىٰ؛ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَكَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ أنَّ الاستجابةَ تختلفُ

---

(١) لأن الداء الأعظم في طريق الوصول مخالفة هوىٰ النفس والشيطان.

(٢) ورد في: طبقات الأولياء ص٤٠١، وإتحاف السادة المتقين ٢/١٩٨، ١٣/٦٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٣.

(٤) ورد قوله في: الغنية لطالبي طريق الحق ٢/٧٤، والزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح ص٣٥.

علىٰ حسبِ ما يحبُّهُ الحقُّ ويرضَاهُ للعبدِ، وقَدْ يكونُ دعاؤُهُ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أنفعَ لهُ فِي دُنياهُ وأُخرَاهُ مِنْ حصولِ طلبتِهِ، فيتأخَّرُ عنهُ مطلوبُهُ ليتكرَّرَ منهُ ما هوَ أنفعُ لهُ عندَ ربِّهِ، وهذَا هوَ المرادُ بقولِهِ: «يَا يحيَىٰ، إنِّي أريدُ أنْ أسمعَ صوتَكَ»؛ يَعْنِي الَّذِي [١٧٦/٣أ] أريدُهُ لكَ خيرٌ ممَّا تريدُهُ لنفسِكَ.

وقولُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فَيَقُولُ: أَدْعُو وَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»، وما يَدْرِي العبدُ أنَّ الحقَّ مَا استجابَ لهُ فهوَ عيبٌ، وإذا حَصَلَ لهُ عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ما هوَ أفضلُ مِنْ مطلوبِهِ الَّذِي سألَ فيهِ فَقَدْ حَصَلَتْ لهُ الإجابةُ علىٰ وَجْهٍ أفضلَ ممَّا طلبَ، وإنَّمَا المقصودُ مِنَ الإجابةِ: حصولُ المنفعةِ الَّتِي اختارَهَا لنفسِهِ، ومَا اختارَهُ الحقُّ لهُ أفضلُ ممَّا اختارَهُ لنفسِهِ[(٢)].

۞ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٣)]: **«وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الحَارِثِ[(٤)]: رَأَيْتُ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **فِي المَنَامِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عِظْنِي، فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ عَطْفَ الأَغْنِيَاءِ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ طَلَبًا لِثَوَابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وَأَحْسَنُ مِنْ ذَلِكَ تِيهُ الفُقَرَاءِ عَلَىٰ الأَغْنِيَاءِ ثِقَةً بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ.**

فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ زِدْنِي، فَقَالَ[(٥)]:

قَدْ كُنْتَ مَيْتًا فَصِرْتَ حَيًّا ۞ وَعَنْ قَرِيبٍ تَصِيرُ مَيْتَا

عَزَّ بِدَارِ الفَنَاءِ بَيْتٌ ۞ فَابْنِ بِدَارِ البَقَاءِ بَيْتَا».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤٣ ـ ١٠٤٤.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٣.

(٤) ورد قوله في: تفسير الثعلبي ٢/٢٦١، والتدوين في أخبار قزوين ١/٣٠٣، والمختار من مناقب الأخيار ١/٢٨١.

(٥) من البسيط، للإمام علي في ديوانه ص٤٩، ومظان توثيق القول السابق.

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وعلِيُّ بنُ أبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أزهَدِ النَّاسِ وأقنَعِهِم، حتَّىٰ كانَ بالعراقِ معَ سعةِ أرزاقِهَا وهوَ خليفةٌ لا يأكلُ إلَّا مِنْ شيءٍ أُتِيَ بهِ منَ المدينةِ يعرفُهُ مختومًا عليهِ، وكانَ يفرغُ بينَ المالِ إذَا امتلأَ ويقولُ[1]: «يا صفراءُ، غرِّي غيرِي، ويا بيضاءُ غرِّي غيرِي»، وربَّمَا نضحَهُ وصلَّىٰ ركعتَينِ رجاءَ أنْ يشهدَ لهُ يومَ القيامةِ، فلمَّا قالَ لهُ: «عِظْنِي، **قالَ: ما أحسنَ عطفَ الأغنياءِ علىٰ الفقراءِ**» طلبًا لثوابِ اللهِ؛ لأنَّ هذَا هوَ الَّذِي حسَّنَهُ ربُّ الأربابِ، وأوجبَ للغنِيِّ أنْ يُساعدَ الفقيرَ تارةً بالزَّكاةِ، وتارةً بغيرِهَا عندَ وجوهِ الفاقاتِ، وأحسنُ مِنْ هذَا تيهُ الفقيرِ علىٰ الغَنِيِّ؛ استغناءً باللهِ وبقُربِهِ وعطاياهُ، فلا يذلُّ لأحدٍ لأجْلِ مالِهِ، ولَا يخضعُ لهُ طمعًا فِي نوالِهِ، وإنَّمَا كانَ هذَا أحسنَ؛ لأنَّ الأوَّلَ إعراضٌ معَ السَّعةِ فِي بعضِ ما يملكُ، وهذَا إعراضٌ معَ العُدْمِ عمَّا هوَ محتاجٌ إليهِ ثقةً باللهِ أنْ يأتيَهُ بهِ عندَ دعاءِ [٣/٧٦ب] الضَّرورةِ إليهِ.

فلمَّا أعجبَهُ هذَا الكلامُ قالَ لهُ: «**زِدْنِي**»[2]، فَدَلَّهُ علىٰ ما يُصغِّرُ الدُّنيَا فِي عينِهِ ويحقِّرُهَا بجُملتِهَا فِي قلبِهِ، فأخبَرَهُ أنَّ أصلَهُ منَ التُّرابِ، وأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ أحيَاهُ وكلَّفُهُ بمَا يترتَّبُ عليهِ الحسابُ، وسيُميتُهُ ويردُّهُ إلىٰ ما كانَ عليهِ، ثُمَّ يُحْيِيهِ كرَّةً أُخرَىٰ[3] للوقوفِ والعتابِ والحسابِ، والمصيرِ إلىٰ الجنَّةِ وحسنِ المآبِ، أوْ إلىٰ النَّارِ ـ والعياذُ باللهِ ـ أشدِّ عذابٍ وأسوأِ طعامٍ وشَرَابٍ، تضمَّنَ ذلكَ هذهِ الأبياتُ؛ وهيَ قولُهُ:

قَـدْ كُنْـتَ مَيْتًـا فَصِـرْتَ حَيًّـا ❊ وَعَـنْ قَرِيـبٍ تَصِـيرُ مَيْتَـا

عَـزَّ بِـدَارِ الفَنَـاءِ بَيْـتٌ ❊ فَـابْنِ بِـدَارِ البَقَـاءِ بَيْتَـا

---

(١) ورد قوله في: صبح الأعشىٰ ٩/٣٢٥.

(٢) أي: في الموعظة.

(٣) أي: حياة النشأة الثانية.

أيْ: إذَا لمْ يمكنِ الشَّخصُ فِي هذهِ الدَّارِ الإقامةَ فِي بيتٍ فإنَّ اللهَ كتبَ عليهَا الفناءَ، فابْنِ بناءً بِدَارٍ كتبَ الحقُّ لهَا البقاءَ والنَّعماءَ[١].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَقِيلَ[٣]: رُئِيَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا صَنَعَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: رَحِمَنِي، فَقِيلَ: مَا حَالُ عَبْدِ اللهِ بْنِ المُبَارَكِ؟ فَقَالَ: هُوَ مِمَّنْ يَلِجُ عَلَىٰ رَبِّهِ[٤] كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ الأرواحَ ـ أرواحَ السُّعداءِ ـ ترَىٰ اللهَ ـ تعالىٰ ـ في البَرْزَخِ، وتتنعَّمُ بقُربِهِ فيمَا أعدَّ لهَا منَ النَّعِيمِ، ويكملُ لهَا ذلكَ يومَ القيامةِ إذَا حُشِرَتْ بأجسَادِهَا، كمَا أنَّ نعيمَهَا وطعامَهَا يتمُّ فيتكملُ، كذلكَ رُؤيتُهَا لربِّهَا يومَ القيامةِ يكونُ أتمَّ وأكملَ، وقَدْ جاءَ[٥]: «إنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلَقُ فِي ثِمَارِ الجَنَّةِ»[٦]، وجاءَ فِي أرواحِ آلِ فرعونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر: ٤٦]، ويومَ القيامةِ يدخلُونَ أشدَّ العذابِ إذا أُعيدَتْ أرواحُهُم لأجسادِهِمْ اشتدَّ عذابُهُم، كمَا يتكاملُ نعيمُ الطائفةِ الأُخرَىٰ، والعياذُ باللهِ منَ النَّارِ الكُبْرَىٰ.

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٧]: «سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[٨]: رَأَىٰ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٣.

(٢) أفاده بلفظه: الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤٤.

(٣) ورد قوله في: تاريخ دمشق ٣٢/٤٨١، وتاريخ الإسلام ١٢/٢٤٧، والوافي بالوفيات ١٧/٢٢٦، وبغية الطلب ٤/١٦١٤.

(٤) قال العروسي: «المراد: إفادة زيادة تنعمه في عالم البرزخ، وإلا فما يظهر منه لا يصح أن يُراد» نتائج الأفكار ٤/٣٣٣.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤٥.

(٧) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٣.

(٨) سبق تخريجه.

الأُسْتاذُ أَبُو سَهْلٍ الصُّعْلُوكِيُّ أَبَا سَهْلٍ الزَّجَّاجِيَّ فِي المَنَامِ، وَكَانَ الزَّجَّاجِيُّ يَقُولُ بِوَعِيدِ الأَبَدِ[١]، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ الزَّجَّاجِيُّ: الأَمْرُ هَاهُنَا أَسْهَلُ مِمَّا كُنَّا نَظُنُّهُ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ممَّا تقدَّمَ شرحُهُ مِنْ أنَّ المناماتِ مبشِّراتٌ ومنذِراتٌ، وكانَ [١٧٧/٣أ] أبو سهلٍ الصُّعلوكِيُّ صاحِبَ هذَا الزَّجَّاجِيِّ، وكانَ يقولُ بوعيدِ الأبدِ؛ وهوَ أنَّ كلَّ مَنْ توعَّدَهُ اللهُ علَىٰ معصيةٍ وفعلَهَا لَا يغفرُهَا لهُ؛ لأنَّ تعوُّدَهُ مِنْ بابِ الخبَرِ، وخبَرُهُ صدقٌ، والحقُّ خلافُهُ، لأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وكانَ قلبُ الصُّعْلُوكِيِّ ـ وهوَ منَ الأئمَّةِ العلماءِ ـ متعلِّقًا بحالِ الزَّجَّاجيِّ بعدَ موتِهِ، ومَا الَّذِي لقِيَهُ مِنْ ربِّهِ؟ فلمَّا رآهُ بعدَ موتِهِ قالَ لهُ: «**وَجَدْنَا الأمرَ أيسرَ ممَّا نظُنُّ**».

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «وَرُئِيَ الحَسَنُ بْنُ عِصَامٍ الشَّيْبَانِيُّ فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ[٣]: وَأَيْشٍ يَكُونُ مِنَ الكَرِيمِ إِلَّا الكَرَمُ؟!

وَرُئِيَ بَعْضُهُمْ فِي المَنَامِ[٤]، فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ، فَقَالَ[٥]:

---

(١) أي: أن الكبائر لا يتعلق بها غفران.

(٢) الرسالة القشيرية ٥٦٣/٢.

(٣) نسب ليزيد بن هاون الواسطي في: اعتقاد أهل السنة ١١٣٨/٦، وتاريخ دمشق ٣٥١/١٢، وصفة الصفوة ١٩/٣.

(٤) نسب للشبلي في: محاضرات الأدباء ٤٢١/٢، ومفاتيح الغيب ١٥٤/٢٢، وفيض القدير ٤١١/٥، وغزوان الضرير في: البصائر والذخائر ٩٢/٣، وربيع الأبرار ٢٩٣/٥، وورد بلا نسبة في: إحياء علوم الدين ٥٠٩/٤، والزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح ص٥٣، وإتحاف السادة المتقين ٤٠٥/١٤.

(٥) من الخفيف، ونسب لغزاون الضرير في: البصائر والذخائر ٩٢/٣، وربيع الأبرار ٢٩٣/٥، وللشبلي في محاضرات الأدباء ٤٢١/٢، ووردت بلا نسبة في: الكشكول ٤/١، والصلة=

حَاسَبُونَا فَدَقَّقُوا ❁ ثُمَّ مَنُّوا فَأَعْتَقُوا

وَرُئِيَ حَبِيبٌ العَجَمِيُّ فِي المَنَام فَقِيلَ لَهُ(١): حَبِيبٌ العَجَمِيُّ؟! فَقَالَ: هَيْهَاتَ! ، ذَهَبَتِ العُجْمَةُ ، وَبَقِيتُ فِي النِّعْمَةِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ المَرَائِي كلُّهَا تدلُّ علىٰ رحمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ولُطفِهِ بالمَرْئِيِّ المُمَثَّلِ بهِ ، وتقويةِ رجاءِ الرَّائِي وحُسْنِ ظنِّهِ بربِّهِ(٢).

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَقِيلَ(٤): دَخَلَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ مَسْجِدًا لِيُصَلِّيَ المَغْرِبَ ، فَوَجَدَ إِمَامَهُمْ حَبِيبًا العَجَمِيَّ ، فَلَمْ يُصَلِّ خَلْفَهُ ؛ لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَلْحَنَ لِعُجْمَةٍ فِي لِسَانِهِ ، فَرَأَىٰ فِي المَنَامِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَائِلًا يَقُولُ لَهُ: لَوْ صَلَّيْتَ خَلْفَهُ لَغُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ»(٥).

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الرُّؤيَا يحتملُ أنْ يكونَ الحسنُ البصرِيُّ لم يسمَعْ قراءَتَهُ قبلَ ذلِكَ ، ونُقِلَ لهُ أنَّهُ يلحنُ ، فخشِيَ أنْ يكونَ لحنُهُ ممَّا يغيِّرُ المَعْنَىٰ ، فيختلَّ بسببِهِ أمُّ الكتابِ ، فترَكَ الصَّلاةَ خوفًا مِنْ هذَا ، وخرجَ قبلَ أنْ يسمَعَهُ ، ويكونُ احترازُهُ دِينًا وفَضْلًا.

وأمَّا العجميُّ فإنَّهُ كانَ اللَّحنُ الَّذِي فِي لفظِهِ أمرٌ خفيفٌ لا يغيِّرُ المعنىٰ ،

= لابن بشكوال ١/٥٦٩ ، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٧/١٥٧ ، والزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح ص٥٣ ، وإتحاف السادة المتقين ١٤/٤٠٥.

(١) ورد قوله في: الكواكب الدرية ١/٥٩٣.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤٦.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٣.

(٤) ورد في: الكواكب الدرية ١/٥٩٣.

(٥) في ذلك إشارة إلىٰ أن عيب الظاهر لا يضرّ ، إذا تحلّى الباطن بما يسرّ ، فلا تقف مع المظاهر ؛ لأن المعتبر حسن السرائر.

وكانَ معذورًا لعُجمَتِهِ، فكانَتْ صلاتُهُ صحيحةً، وكانَ فيهَا منَ الحضورِ والخشوعِ والتَّذلُّلِ بينَ يدَيِ اللهِ - تعالىٰ - ما يزيدُ فضيلتَهُ علَىٰ فضيلةِ ذلكَ اللَّحنِ اليسيرِ، الَّذِي لَا يغيِّرُ المعنَىٰ علىٰ تقديرِ الحصولِ، ففاتَهُ فضيلةٌ لفظيَّةٌ، وامتازَ بفضيلةٍ [٣/٧٧ب] قلبيَّةٍ، هيَ أفضلُ عندَ اللهِ - تعالىٰ -[١]، فيكونُ تنبيهُ الحسنِ البصريِّ معَ كمالِ فَضْلِهِ، علَىٰ أنَّكَ لو تَثَبَّتَ حتَّىٰ تسمعَ قراءَتَهُ لمْ تخرجْ ودخلتَ فيهَا لنالَتْكَ فضيلةٌ أخرَىٰ هوَ مختصٌّ بهَا علىٰ غيرِهِ منَ الأئمَّةِ، وهذَا كلُّهُ معَ كمالِ الحسَنِ فِي دينِهِ وورَعِهِ، وشدَّةِ حِرصِهِ علَىٰ الفضائلِ.

وربَّمَا فهِمَ بعضُ مَنْ لا عِلمَ عندَهُ مِنْ هذهِ الحكايةِ أنَّ اللَّحنَ كيفَ مَا كانَ لا يُلْتَفَتُ إليهِ معَ صحَّةِ القلبِ وكمالِ الحضورِ، وهذَا خطأٌ إذَا أمكنَ العجميُّ أنْ يتعلَّمَ ولمْ يُفَرِّطْ واجتهدَ فِي التَّعلُّمِ ولمْ يقدِرْ، ومعَ هذَا كلِّهِ لا ينبغِي لهُ أنْ يكونَ إمامًا، بَلْ يدعُ الإمامةَ لمَنْ هوَ أقرأُ منهُ.

وعلَىٰ الجملةِ فمحملُ هذهِ الصُّورةِ علَىٰ مَا قرَّرْنَاهُ أوَّلًا إنْ كانَتِ الرُّؤيَا مِنْ ملكِ الرُّؤيَا تنبيهًا منَ اللهِ - تعالىٰ - للحسَنِ علَىٰ زيادةِ الفضيلةِ، واللهُ أعلَمُ.

❁ **قَالَ الإمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: **«وَرُئِيَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ[٣]: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي بِكَلِمَةٍ كَانَ يَقُولُهَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **عِنْدَ رُؤْيَةِ الجَنَازَةِ: سُبْحَانَ الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ»**.

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علَىٰ أنَّ مالِكًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقِيَ مِنْ ربِّهِ كلَّ خيرٍ، فغفرَ لهُ كلَّ زللٍ، وذكَرَ السَّببَ وهوَ قولُهُ عندَ رؤيةِ الميِّتِ: «**سبحانَ الحيِّ**

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤٦.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٤.

(٣) ورد في: إحياء علوم الدين ٤/٥٠٩، ونزهة المجالس منتخب النفائس ص٨٩، وإتحاف السادة المتقين ١٢/٤٠٥.

الَّذِي لَا يموتُ»؛ لينتفعَ بهِ الرَّائِي فيعملَ عليهِ.

وَقَدْ نقلَ أنَّهُ حضرَ عندَ موتِ مالكِ بنِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فغُشِيَ عليهِ ثمَّ أفاقَ، فسُئِلَ عَنْ حالِهِ فقالَ(١): «ما أدرِي مَا أقولُ لكُمْ؟ ولكنَّكُمْ ستعاينُونَ مِنْ لُطفِ اللهِ مَا لمْ يكُنْ لكُمْ في حِسَابٍ».

وهذَا أدلُّ وأصرحُ على فضيلتِهِ عندَ ربِّهِ منَ المنامِ؛ لأنَّهُ رأى مِنْ صورِ الملائكةِ والبُشْرَى بمَا لهُ عندَ اللهِ مَا أوجبَ لهُ الإجمالَ فِي الجوابِ، وقالَ: «ستعايِنُونَ مِنْ لُطفِ اللهِ مَا لمْ يكُنْ لكُمْ فِي حِسَابٍ».

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَرُئِيَ اللَّيْلَةَ الَّتِي مَاتَ فِيهَا الحَسَنُ البَصْرِيُّ كَأَنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ مُفَتَّحَةٌ، وَكَأَنَّ مُنَادِيًا يُنَادِي(٣): أَلَا إِنَّ الحَسَنَ البَصْرِيَّ قَدِمَ عَلَى اللهِ ـ تعالى ـ وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

سَمِعْتُ [٣/١٧٨أ] أَبَا بَكْرِ بْنِ إِشْكِيبٍ يَقُولُ: رَأَيْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا سَهْلٍ الصُّعْلُوكِيَّ فِي النَّوْمِ عَلَى حَالَةٍ حَسَنَةٍ، فَقُلْتُ: يَا أُسْتَاذُ؛ بِمَ وَجَدْتَ هَذَا؟ فَقَالَ(٤): بِحُسْنِ ظَنِّي بِرَبِّي، بِحُسْنِ ظَنِّي بِرَبِّي».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهاتَانِ الحكايتَانِ والمنامانِ يدلَّانِ على فضيلةِ الحسَنِ والصُّعلُوكِيِّ عندَ اللهِ، وهذَا معلومٌ مِنْ حالِهِمَا فِي الدُّنيَا مستغنٍ عنِ المناماتِ، فإنَّهُمَا مِنَ العلماءِ العارفِينَ باللهِ، المُفْرِغِينَ جهدَهُمْ فِي القيامِ بحقوقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) ورد قوله في: حسن الظن بالله ص٩٦، وإحياء علوم الدين ٤/١٥٣، والديباج المذهب ١/٢٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٤.

(٣) ورد في: المنامات ص٣٩، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٩، والعاقبة في ذكر الموت ص٢٢٩، وجامع كرامات الأولياء ٢/١٨.

(٤) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/١٥٤، وتبيين كذب المفتري ص١٨٨.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَقِيلَ[٢]: رُئِيَ الجَاحِظُ فِي المَنَامِ فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ[٣]:

فَـلَا تَكْتُـبْ بِكَفِّـكَ غَيْـرَ شَـيْءٍ ❁ يَسُـرُّكَ فِـي القِيَامَـةِ أَنْ تَـرَاهُ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ تخويفٌ وتحذيرٌ ممَّا يكتبُهُ الإنسانُ بيدِهِ، فإنَّهُ يُسْأَلُ عنهُ[٤] كمَا يُسأَلُ عمَّا ينطقُ بلسانِهِ؛ فإنْ كانَ خيرًا سُرَّ بهِ، وإنْ كانَ شرًّا نَدِمَ عليهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥]: «وَقِيلَ[٦]: رَأَى الجُنَيْدُ إِبْلِيسَ فِي مَنَامِهِ عُرْيَانًا، فَقَالَ لَهُ: أَلَا تَسْتَحِي مِنَ النَّاسِ؟! فَقَالَ: هَؤُلَاءِ نَاسٌ؟، النَّاسُ أَقْوَامٌ فِي مَسْجِدِ (الشُّونِيزِيَّةِ)، أَضْنَوا جِسْمِي، وَأَحْرَقُوا كَبِدِي.

قَالَ الجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَلَمَّا انْتَبَهْتُ غَدَوْتُ إِلَى المَسْجِدِ، فَرَأَيْتُ جَمَاعَةً وَضَعُوا رُؤُوسَهُمْ عَلَى رُكَبِهِمْ يَتَفَكَّرُونَ، فَلَمَّا رَأَوْنِي قَالُوا: لَا يَغُرَّنَّكَ حَدِيثُ الخَبِيثِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذَا صحَّةُ الرُّؤيةِ للجُنيدِ لإبليسَ علَى التَّحقيقِ، وفيهِ أنَّ إبليسَ يتظاهَرُ بكشْفِ العورةِ عندَ أهلِ الشَّرِّ، يُحَسِّنُ لهُمْ ذلكَ ويقتدُونَ بهِ، فلمَّا رأَوهُ عريانًا قالَ لهُ: **«أمَا تستحِي منَ النَّاسِ؟ فأخبَرَهُ أنَّ هؤلاءِ ليسُوا ممَّنْ يُسْتَحْيَا منهُم، وإنَّمَا يُسْتَحْيَا مِنْ قومٍ أهلِ دينٍ بمسجدِ (الشُّونيزيَّةِ)»**، فلمَّا أصبحَ

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٤.

(٢) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٥٠٩.

(٣) من الوافر، وورد في: تأويل مختلف الحديث ص٥٩، والتدوين في أخبار قزوين ١/٣٩٨، ومعجم الأدباء ٤/٣٩٢، والعقد الفريد ٢/٧١.

(٤) أي: عن الكتابة.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٤.

(٦) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٥٠٩، وإتحاف السادة المتقين ١٤/٤٠٦.

الجنيدُ مضىٰ إلَىٰ المسجدِ، فوجدَ قومًا مِنْ أهلِ الخيرِ مستقبِلِينَ القِبلَةَ، واضِعِي رؤوسِهِمْ بينَ رُكَبِهِمْ ويتفكَّرُونَ، فلمَّا أحسُّوا بهِ رفعُوا رؤوسَهُمْ وقالُوا: «**لَا يَغُرَّنَّكَ حَدِيثُ الخَبِيثِ**»، يَعْنُونَ الشَّيطانَ [٣/٧٨ب].

هذَا يدلُّ علىٰ مُكَاشفتِهِمْ بمَا رآهُ الجُنيدُ فِي النَّومِ، وقولُهُم: «لا يغرَّنَّكَ حديثُ الشَّيطانِ» إزراءٌ علىٰ أنفسِهِم، وقلَّةُ التفاتٍ بقولِ إبليسَ: «**إنَّهُم أضنَوا جسدَهُ، وأحرَقُوا كبدَهُ**» لِيغُرَّنَا بذلكَ، ونحنُ وأنتَ، لا نغترُّ بحديثِهِ؛ لأنَّ كُلَّ ما يقولُهُ شَرٌّ لا خَيْرَ فيهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**وَرُئِيَ النَّصْرَابَاذِيُّ بِمَكَّةَ بَعْدَ وَفَاتِهِ فِي النَّوْمِ، فَقِيلَ لَهُ[٢]: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ قَالَ: عُوتِبْتُ عِتَابَ الأَشْرَافِ، ثُمَّ نُودِيتُ: يَا أَبَا القَاسِمِ؛ أَبَعْدَ الاتِّصَالِ انْفِصَالٌ؟ فَقُلْتُ: لَا يَا ذَا الجَلَالِ، فَمَا وُضِعْتُ فِي اللَّحْدِ حَتَّىٰ لَحِقْتُ بِالأَحَدِ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الرُّؤيَا تدلُّ علىٰ فضيلةِ النَّصراباذِيِّ، وأنَّهُ حُوسِبَ حسابًا يسيرًا، عُرِضَتْ عليهِ أعمالُهُ، ثمَّ قيلَ لهُ: «**يا أبَا القَاسِمِ**»، ونودِيَ بكُنيتِهِ زيادةً فِي فضيلتِهِ، «**أبعدَ الاتِّصالِ انفصالٌ؟**»، أيليقُ بكَ بعدَ أنْ واصلنَاكَ الالتفاتُ إلىٰ غيرِنَا؟ قلتُ: لَا يا ربِّ.

وقولُهُ: «**فمَا وُضِعْتُ فِي اللَّحدِ حتَّىٰ لحقتُ بالأَحَدِ**»، يعنِي: صِرْتُ عندَ اللهِ فِي منزلةٍ رفيعةٍ فِي التَّقريبِ والإكرامِ، إخبارًا للرَّائِي بمنزلةٍ خاصَّةٍ جوابًا لقولِهِ: «**ما فعلَ اللهُ بكَ؟**»[٣].

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٤.

(٢) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/١٧١، وإتحاف السادة المتقين ١٤/٤٠٦.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤٧.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: **«وَرُئِيَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ ثَلاثَ حَوَائِجَ فِي الدُّنْيَا، فَأَعْطَانِي البَعْضَ، وَأَرْجُو أَنْ يُعْطِيَنِي البَاقِي، كُنْتُ أَسْأَلُهُ أَنْ يُعْطِيَنِي مِنَ العَشَرَةِ الَّتِي عَلَىٰ يَدِ رِضْوَانَ وَاحِدًا، وَيُعْطِيَنِي بِنَفْسِهِ، وَأَنْ يُعَذِّبَنِي عَنِ الوَاحِدِ الَّذِي بِيَدِ مَالِكٍ[(٢)] بِعَشَرَةٍ، فَيَتَوَلَّنِي هُوَ، وَأَنْ يَرْزُقَنِي أَنْ أَذْكُرَهُ بِلِسَانِ الأَبَدِ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمَّا العشرةُ الَّتِي تمنَّىٰ بهَا واحدةً ممَّا علىٰ يدِ رضوانَ كلُّهَا كراماتٌ؛ لأنَّهُ ليسَ فِي الجنَّةِ شيءٌ يُكْرَهُ، ويعذِّبُهُ عمَّا بيدِ مالكٍ عنِ الواحدةِ بعشرةٍ، ويتولَّىٰ الحقُّ ذلكَ بنفسِهِ.

وروحُ هذهِ الرُّؤيَا أنَّ النَّعيمَ والعذابَ إذَا كانَ الحقُّ هوَ معذِّبَهُ ومنعِّمَهُ كمُلَ سُرُورُهُ في جَانبِ النَّعيمِ، وَلَمْ يَجِدْ كَمَالَ الألمِ فِي جَانِبِ العَذَابِ؛ لأنَّ كلَّ مَا يكونُ منَ [٣/١٧٩أ] المَحْبُوبِ مَحْبُوبٌ، وكذلِكَ قالَ: وأكونُ ذاكرًا لهُ لا أزالُ، هذَا معنَىٰ «**بلسانِ الأبدِ**»، لَا يحجبُنِي نعيمُهُ عنهُ ولا عذابُهُ[(٣)].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: **«وَقِيلَ[(٥)]: رُئِيَ الشِّبْلِيُّ فِي المَنَامِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ قَالَ: لَمْ يُطَالِبْنِي بِالبَرَاهِينِ عَلَىٰ الدَّعَاوَىٰ إِلَّا عَلَىٰ شَيْءٍ وَاحِدٍ؛ قُلْتُ يَوْمًا: لَا خَسَارَةَ[(٦)] أَعْظَمُ مِنْ خُسْرَانِ الجَنَّةِ وَدُخُولِ النَّارِ، فَقَالَ: وَأَيُّ خَسَارَةٍ أَعْظَمُ مِنْ خُسْرَانِ لِقَائِي؟!»**.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٤.

(٢) أي: خازن النار.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤٨.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٤.

(٥) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٣٧٥، ومفتاح الفضائل والنعم ص١٥٩، وغيث المواهب العلية ص٣٥٧، ومسالك الأبصار ٨/١٥٤.

(٦) في (ف): خسران.

* **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذهِ الرُّؤيا تفسِّرُ ما أشرْنا إليهِ فِي الرُّؤيا قبلُ، وذلكَ أنَّ العذابَ وإنْ عظُمَ والنَّعيمَ وإنْ شرُفَ صَغيرانِ بالنَّظرِ إلىٰ رؤيةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ والحجبِ عنهُ، قالَ: النَّعيمُ جميعُهُ مجموعٌ فِي الجنَّةِ، وأشرفُهُ رؤيةُ اللهِ وأجلُّهُ، والعذابُ كلُّهُ فِي النَّارِ، وأشدُّهُ الحجبُ عنِ اللهِ[1]، فقالَ: هذَا الشِّبْلِيُّ لمَّا قيلَ لهُ: «**ما فعلَ اللهُ بكَ؟ قالَ: لمْ يطالِبْنِي بالبراهينِ علَىٰ شيءٍ ممَّا كنتُ أتكلَّمُ بهِ إلَّا علَىٰ قولِي: أيُّ خَسَارةٍ أعظمُ مِنْ خَسَارةِ الجنَّةِ ودُخُولِ النَّارِ**»، فقالَ لهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ: «**لا خَسَارةَ أعظمُ مِنْ خُسْرَانِ لِقَائِي**».

وهذَا هوَ الصَّحيحُ الَّذِي لا يفتقرُ إلىٰ برهانٍ، فإنَّهُ لا خسارةَ أتمُّ مِنْ خُسْرَانِ النَّظرِ إلىٰ اللهِ، وأهلُ النَّارِ هُمْ محجوبُونَ عنِ اللهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفسَهُمْ والآخِرَةَ، وما ذكَرَهُ الشِّبلِيُّ يحتاجُ إلىٰ برهانٍ علىٰ صحَّتِهِ ولَا يحدُّهُ، ولولَا أنَّ الحقَّ بيَّنَ لهُ أنَّ دعوَاهُ ليسَتْ صحيحةً بقولِهِ: «**لا خُسرانَ أعظمُ مِنْ خُسْرَانِ لِقَائِي**» لانقطعَ وخجلَ؛ لأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ جبرَهُ.

* **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «**سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ** رَحِمَهُ اللهُ **يَقُولُ**[3]: **رَأَىٰ الجُرَيْرِيُّ الجُنَيْدَ فِي المَنَامِ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ حَالُكَ يَا أَبَا القَاسِمِ؟ فَقَالَ: طَاحَتْ تِلْكَ الإِشَارَاتُ، وَبَادَتْ تِلْكَ العِبَارَاتُ، وَمَا نَفَعَنَا إِلَّا تَسْبِيحَاتٌ كُنَّا نَقُولُهَا بِالغَدَوَاتِ**».

* **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علىٰ أنَّ أكثَرَ العباداتِ منفعةً عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ الذِّكْرُ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥][4].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٥.

(٣) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٢٤٨، والإرشاد والتطريز ص٢١٠، ومدارج السالكين ٢/٤٠.

(٤) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤٨.

وقولُهُ: «**طَاحَتْ**»: ذهبَتْ[(١)]، يحتملُ أنْ يكونَ لَا أجرَ فيهَا؛ لكونِهَا لمْ تقارِنْهَا النِّيَّاتُ.

ويحتملُ أنْ يكونَ أجرُهَا قليلًا [٣/٧٩ب] بالنِّسبةِ لأجرِ[(٢)] الذِّكْرِ فِي الغَدَوَاتِ، فيكونُ «**طَاحَتْ**» بمعنَى: [«خَفَّتْ»][(٣)] أجورها بالنِّسبةِ لمَا هوَ أثقلُ منهَا وأكثرُ أجْرًا، وهذَا هوَ الأليقُ بحالِ الجُنيدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٤)]: «**وَقَالَ النِّبَاجِيُّ** رَحِمَهُ اللهُ[(٥)]: **تَشَهَّيْتُ شَيْئًا**[(٦)]، **فَرَأَيْتُ فِي المَنَامِ كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ: أَيَجْمُلُ بِالحُرِّ المُرِيدِ: أَنْ يَتَذَلَّلَ لِلعَبِيدِ، وَهُوَ يَجِدُ مِنْ مَوْلَاهُ مَا يُرِيدُ؟!**».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وفِي هذَا إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ مَنْ كثُرتْ شَهَواتُهُ ذلَّ فِي طلبِهَا للعبيدِ حتَّى تحصلَ لهُ، ولذلِكَ قيلَ لهُ فِي الرُّؤيَا: «**أيجمُلُ بالحُرِّ المُرِيدِ**» وهوَ يجدُ عندَ مولاهُ ما يريدُ «**أنْ يتذلَّلَ للعبيدِ**»، وإنَّمَا يُذِلُّه طَلَبُ شَهْوَتِهِ مِنْ غَيْرِ ربِّهِ.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٧)]: «**وَقَالَ ابْنُ الجَلَّا** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٨)]: **دَخَلْتُ المَدِينَةَ وَبِي فَاقَةٌ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَى القَبْرِ وَقُلْتُ: أَنَا ضَيْفُكَ يَا نَبِيَّ اللهِ، فَغَفَوْتُ**[(٩)]، **فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ**

---

(١) في الأصل: وذهبت، والأصح المثبت.

(٢) في الأصل: لأجل، والصواب المثبت.

(٣) تتمة من إحكام الدلالة؛ لطمسها في الأصل.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٥.

(٥) ورد قوله في: حلية الأولياء ٨/٣٦، وتاريخ دمشق ٢١/١٥، وصفة الصفوة ٤/٢٧٩، وفوات الوفيات ١/٦٠.

(٦) أي: شيئا لا يتيسر إلا بسؤال الغير.

(٧) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٥.

(٨) ورد قوله في: التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٥٤، وتاريخ دمشق ٦٦/١٦١، وجامع كرامات الأولياء ١/٣٩٣، ودفع شبه من تشبه وتمرد ص٨٣.

(٩) أي: نمتُ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَدْ أَعْطَانِي رَغِيفًا، فَأَكَلْتُ نِصْفَهُ فَانْتَبَهْتُ وَبِيَدِي النِّصْفُ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ دليلٌ علىٰ صِدْقِهِ في حاجتِهِ، وأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أراهُ نبيَّهُ فِي النَّومِ، وخلَقَ لهُ رغيفًا فِي يدِهِ، إمَّا أَنْشَأَهُ لهُ إنشاءً، أوْ أتاهُ بهِ ملكٌ أوْ وليٌّ، فأكلَ نصفَهُ، وبقِيَ فِي يدِهِ نصفُهُ، ورأىٰ فِي النَّومِ تسلُّمَهُ مِنْ يدِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأكرمَهُ اللهُ بهذِهِ الكرامةِ؛ لشرفِ نبيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكونِهِ استضافَ بهِ صَادِقًا[1].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: **«وَقَالَ بَعْضُهُم[3]: رَأَيْتُ النَّبِيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِي المَنَامِ يَقُولُ: زُورُوا ابْنَ عَوْنٍ[4]، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ففِي هذَا كرامةٌ لابنِ عَوْنٍ بِرُؤيةِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْهَدُ لهُ؛ لأنَّهُ يحبُّ اللهَ ورسُولَهُ، ورؤيةُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقٌّ لَا يتمثَّلُ بهَا شَيطَانٌ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[5]: **«وَقِيلَ[6]: رَأَىٰ عُتْبَةُ حَوْرَاءَ فِي المَنَامِ عَلَىٰ صُورَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا عُتْبَةُ، أَنَا لَكَ عَاشِقَةٌ، فَانْظُرْ أَلَّا تَعْمَلَ مِنَ الأَعْمَالِ شَيْئًا يُحَالُ بِهِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَقَالَ عُتْبَةُ: طَلَّقْتُ الدُّنْيَا ثَلَاثًا، لَا رَجْعَةَ لِي عَلَيْهَا حَتَّىٰ أَلْقَاكِ».**

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ فضيلةِ عُتبةَ الغلامِ؛ وذلكَ لكمالِ زُهدِهِ فِي الدُّنيَا واشتغالِهِ بالآخرةِ، فلمَّا رأىٰ فِي النَّومِ هذهِ الحُوريَّةَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٤٩.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٥.

(٣) ورد قوله في: المنامات ص٦٧، وحلية الأولياء ٣/٣٩، وتاريخ دمشق ٣١/٣٦٦، وسير أعلام النبلاء ٦/٣٧١.

(٤) في (ف): عوف.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٥.

(٦) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٥٠٩، والكواكب الدرية ١/٣٦٥.

وقالَتْ لهُ: «**أنَا لكَ عاشقةٌ**» أخبرَهَا أنَّهُ ليسَ عندَهُ [٣/١٨٠أ] شيءٌ يمنعُهُ مِنْ وَصْلِهَا، فإنَّ الَّذِي يصدُّهُ عمَّا فِي الآخرةِ هيَ الدُّنيَا؛ مالُهَا وجاهُهَا، ومَا احتوَتْ عليهِ مِنْ مشتهياتِهَا، فقالَ لهَا: «**طلَّقْتُ الدُّنيَا ثلاثًا لَا رجعةَ لِي إليهَا**»؛ ليطمئنَ قَلْبُ الحُوريَّةِ، وأنَّ ما بينَهُ وبينَهَا إلَّا خروجُ روحِهِ منْ جسدِهِ ويلقاهَا.

ولقدْ حُكِيَ عنهُ مِنْ كَمَالِ اشتغالِهِ بنفسِهِ أنَّهُ كانَ يجلسُ فِي المقابرِ فِي أكثرِ أوقاتِهِ متفكِّرًا، فسمِعَ خبَرَهُ خليفةُ ذلكَ الزَّمانِ، ومَا هوَ عليهِ منَ العبادةِ، فقالَ لوزيرِهِ: «أحبُّ أنْ تجمعَ بينِي وبينَهُ»، فركبَ الوزيرُ والخليفةُ فِي خلوةٍ حتَّىٰ أتيَا إلَىٰ المقابرِ، فوجدَاهُ جَالِسًا عندَ القبورِ، مُطأطِأً رأسَهُ ينكتُ بعودٍ فِي الأرضِ، فلمَّا سلَّمَا عليهِ فردَّ عليهِمَا السَّلامَ، فقالَ لهُ الخليفةُ: ما جلوسُكَ هاهُنَا؟ فقالَ: بينَ الجنَّةِ والنَّارِ، لا أدرِي إلىٰ أيَّتِهِمَا أصيرُ، فتعجَّبَ الخليفةُ مِنْ حالِهِ، وأرادَ أنْ يخصَّهُ بمالٍ يستعينُ بهِ علىٰ ما هوَ بصددِهِ، فقالَ لهُ الوزيرُ: هذا أميرُ المؤمنينَ، وقَدْ أذِنَ لكَ بخمسمائةِ دينارٍ منْ وجْهٍ طيِّبٍ تقبلُهَا منهُ؟ فقالَ: نعَمْ، أقبلُهَا بشرطٍ، قالَ: ففرحَ أميرُ المؤمنِينَ بقولِهِ: أقبلُهَا، ثمَّ قالَ: وما الشَّرطُ؟ فقالَ: أنْ يَعْفِيَنِي أميرُ المؤمنِينَ مِنْ قبولِهَا، قالَ: فقالَ أميرُ المؤمنِينَ لوزيرِهِ: حقَّرَ إلينا دُنْيَانَا غايةَ التَّحقيرِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «**سَمِعْتُ مَنْصُورًا المَغْرِبِيَّ يَقُولُ: رَأَيْتُ شَيْخًا فِي بِلَادِ الشَّامِ كَبِيرَ الشَّأْنِ، وَكَانَ الغَالِبَ عَلَيهِ الانْقِبَاضُ، فَقِيلَ لِي: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَنْبَسِطَ هَذَا الشَّيْخُ مَعَكَ فَسَلِّمْ عَلَيهِ وَقُلْ لَهُ: رَزَقَكَ اللهُ الحُورَ العِينَ، فَإِنَّهُ يَرْضَىٰ مِنْكَ بِهَذَا الدُّعَاءِ، فَسَأَلْتُ عَنْ سَبَبِهِ؟ فَقِيلَ: إِنَّهُ رَأَىٰ شَيْئًا مِنَ الحُورِ فِي مَنَامِهِ، فَبَقِيَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَمَضَيْتُ وَسَلَّمْتُ عَلَيهِ وَقُلْتُ: رَزَقَكَ اللهُ الحُورَ العِينَ، فَانْبَسَطَ الشَّيْخُ مَعِي [لِذَلِكَ]**[٢]».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٥.

(٢) زيادة من (ف).

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وفِي هذهِ الرُّؤيَا دليلٌ علىٰ وُقُوعِ رُؤْيَا الحُورِ العَيْنِ فِي المَنَامِ، وهيَ تعضِّدُ ما تقدَّمَ لعتبةَ الغلامِ، وكانَ هذا الشَّيخُ كلَّمَا ذكرَ ما رآهُ فِي النَّومِ منَ الحورِ العينِ استبشَرَ [٣/٨٠ب] بلقائِهِم، فلا يزالُ أكثرَ أوقاتِهِ مهمومًا بأمرِ الآخرةِ حتَّىٰ يُذْكَرَ لهُ الحُورُ العينُ فينبسطَ وينشرحَ، فلذلِكَ شاعَ خبَرُهُ فِي النَّاسِ وعُرِفَ بهِ، فلذلِكَ دلَّ منصورٌ المغربِيُّ علَىٰ هذا الشَّيخِ لمَّا رآهُ مُنْقَبِضًا وتعجَّبَ مِنْ حالِهِ وانقباضِهِ، فقالَ لهُ قائلٌ: «إِنْ أردْتَ انبسَاطَهُ فقُلْ لهُ: رزقكَ اللهُ الحُورَ العينَ».

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ[(٢)]: رَأَىٰ [أَبُو][(٣)] أَيُّوبُ السِّخْتِيَانِيُّ جَنَازَةَ عَاصٍ، فَدَخَلَ دِهْلِيزًا[(٤)] لِئَلَّا يَحْتَاجَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ عَلَيهَا، فَرَأَىٰ بَعْضُهُمُ المَيِّتَ فِي المَنَامِ، فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي، وَقَالَ: قُلْ لِأَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيِّ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ فيهِ تَنْبِيهٌ علىٰ سَعَةِ رحمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وجوازِ مغفرتِهِ للكبائرِ منَ الذُّنوبِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦][(٥)].

وكانَ أيُّوبُ السِّختيانِيُّ رأَىٰ فِي دِينِهِ أنَّ هذا الشَّخصَ ممَّنْ ينبغِي لأهْلِ الدِّينِ والفَضلِ أنْ يتجنَّبُوا الصَّلاةَ عليهِ؛ زجْرًا لأمثالِهِ عنِ المعصيةِ، كمَا يُفْعَلُ فِي قاتلِ نفسِهِ، ولكنَّ السِّختيانِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمْ يوقعِ القضيَّةَ علىٰ وجهِهَا؛ لأنَّهُ ما كانَ ينبغِي لهُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٥.

(٢) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٥٠٩.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) الدهليز: المدخل إلىٰ الدار، ففي مختار الصحاح ص٨٩: «الدهليز ـ بالكسر ـ: ما بين الباب والدار، فارسي معرَّب، والجمع: الدهاليز».

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٥٠.

أنْ يدخلَ الدِّهليزَ استخفاءً مِنْ أهلِ الجنازةِ، بَلْ يُظْهِرُ السُّنَّةَ أنَّ أهلَ الخيرِ لا يُصلُّونَ علىٰ مَنْ هذهِ سَبيلُهُ استحبابًا، فلذلِكَ رأىٰ صَاحِبُهُ الرُّؤيا فِي النَّومِ، وقيلَ لهُ: «قُلْ لأيُّوبَ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾[1]»، فصارَ كأنَّهُ أَمسكَ عنِ الصَّلاةِ عليهِ لا لفائدةٍ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[2]: «وَقِيلَ[3]: رُئِيَ اللَّيْلَةَ الَّتِي مَاتَ فِيهَا مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ كَأَنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ فُتِحَتْ وَقَائِلًا يَقُولُ: أَلَا إِنَّ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ أَصْبَحَ مِنْ سُكَّانِ الجَنَّةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُم[4]: رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ الَّتِي مَاتَ فِيهَا دَاوُدُ الطَّائِيُّ نُورًا، وَمَلَائِكَةً صُعُودًا، وَمَلَائِكَةً نُزُولًا، فَقُلْتُ: أَيُّ لَيْلَةٍ هَذِهِ؟ فَقَالُوا: لَيْلَةٌ مَاتَ فِيهَا دَاوُدُ الطَّائِيُّ، وَقَدْ زُخْرِفَتِ الجَنَّةُ لِقُدُومِ رُوحِهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: [٣/٨١أ] وهذانِ المنامانِ يدلَّانِ علىٰ أنَّهُمَا مِنْ أهلِ الجنَّةِ، وفيهِ بُشْرَىٰ لأهلِهِمَا ومَنْ يقتَدِي بهِمَا فِي أعمالِهِمَا.

قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ـ[5]:

«رَأَيْتُ الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللهُ فِي المَنَامِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بِكَ؟ فَقَالَ: لَيْسَ لِلْمَغْفِرَةِ[6] هَاهُنَا كَبِيرُ خَطَرٍ[7]، أَقَلُّ مَنْ حَضَرَ هَاهُنَا

---

(١) أي: خزائن رزقه التي أفاضت علىٰ كافة الموجودات.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٥.

(٣) ورد قوله في: المنامات ص٦٤، وتاريخ دمشق ٥٦/٤٤١، والمنتظم ٧/٢٧٩. والرائي هو: مهدي بن ميمون.

(٤) ورد قوله في: إحياء علوم الدين ٤/٥١٠، ومنتقىٰ مناقب الأخيار ص٧٨.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٦.

(٦) في (ف): للمعرفة.

(٧) أي: قَدْر عند الله.

خَطرًا فُلانٌ ، أُعْطِيَ كَذا وَكَذا ، وَوَقَعَ لِي فِي المَنامِ أَنَّ ذَلِكَ الإِنْسانَ الَّذِي عَناهُ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ حَقٍّ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذهِ الحكايةُ أيضًا تدلُّ على سعَةِ رحمةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بالعُصاةِ ، وإنْ وقعُوا فِي الكبائرِ أيضًا ، وأنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ بعدَ أنْ يغفرَ ويعفوَ يعطِي الجزيلَ مِنْ فضْلِهِ وإحسانِهِ ، فإنَّهُ ـ سبحانه ـ تكرَّمَ علىٰ مَنْ كانَ أكثرَ إثمًا ، ولذلِكَ قالَ: «ليسَ للمغفرةِ هاهُنا كبيرُ خطَرٍ» ، يعنِي: عندَ اللهِ ، بَلْ يغفرُ ويُكرِمُ .

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ[(٢)]: لَمَّا مَاتَ كُرْزُ بْنُ وَبَرَةَ[(٣)] رُئِيَ فِي المَنامِ كَأَنَّ أَهْلَ القُبُورِ خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ وَعَلَيْهِمْ ثِيابٌ جُدُدٌ بِيضٌ ، فَقِيلَ: مَا هَذا؟ فَقالُوا: إِنَّ أَهْلَ القُبُورِ لَبِسُوا ثِيابًا جُدُدًا لِقُدُومِ كُرْزٍ عَلَيْهِم» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومِنْ هذَا القبيلِ مَا حُكِيَ أنَّ كُرْزَ بنَ وبَرَةَ لمَّا تُوفِّيَ رُئِيَ فِي النَّومِ وقدِ اكتسَىٰ أهلُ القبورِ ثيابًا جُدُدًا ، وأنَّ اللهَ أكرمَ أهلَ القبورِ بسببِ كَرامتِهِ عليهِ .

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: «وَرُئِيَ يُوسُفُ بْنُ الحُسَيْنِ فِي المَنامِ ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقالَ[(٥)]: غَفَرَ لِي ، فَقالَ لَهُ: بِماذَا؟ فَقالَ: لِأَنِّي مَا خَلَطْتُ جِدًّا بِهَزْلٍ» .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ كَمالِ وَرَعِهِ ، وأكثرُ أحوالِهِ في الجدِّ ،

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٦ .

(٢) ورد قوله في: حلية الأولياء ٥/٨١ ، وصفة الصفوة ٣/١٢٢ ، وشرح الصدور للسيوطي ص١٩٧ .

(٣) هو: أبو عبد الله كرز بن وبرة الحارثي الكوفي العابد القدوة ، نزيل جرجان وكبيرها ف ، حدَّث عن أنس بن مالك ، والربيع بن خثيم ، ونعيم بن أبي هند ، وطاووس ، وغيرهم .
انظر في ترجمته: صفة الصفوة ٣/١٢٠ ، وسير أعلام النبلاء ٦/٨٤ .

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٦ .

(٥) ورد قوله في: مناقب الأبرار ١/٤٥٨ ، وتهذيب الأسرار ص٥٥١ ، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٧ .

وإنْ مزحَ يومًا فبنيَّةٍ حسنةٍ ووجهٍ مستقيمٍ، كمَا قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «إِنِّي لَأَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا»، ويقولُ للصَّغيرِ الَّذِي ماتَ عصفورُهُ[(٢)]: «يَا عُمَيرُ مَا فَعَلَ النُّغَيرُ»، ويقولُ للعجوزِ[(٣)]: «فِي عَينِ زَوْجِكِ بَيَاضٌ»، وهوَ يريدُ البياضَ الَّذِي يحدِّقُ بهِ، فأنكرَتْ ذلكَ؛ لأنَّهَا ظنَّتْ أنَّهُ على موضعِ النَّاظرِ، وهوَ يريدُ البياضَ الَّذِي يحدِّقُ بهِ، «وَلَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَجُوزٌ»[(٤)] تظنُّ أنَّهَا لا تدخلُ، ويخبرُهَا أنَّ اللهَ يُنْشِئُهُنَّ إِنْشَاءً، كمَا قالَ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٨] [٣/٨١ب].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٥)]: **«وَرُئِيَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الزَّرَادُ فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ[(٦)]: وَفَّقَنِي وَغَفَرَ لِي كُلَّ ذَنْبٍ أَقْرَرْتُ بِهِ فِي الدُّنْيَا، إِلَّا وَاحِدًا اِسْتَحْيَيْتُ أَنْ أُقِرَّ بِهِ، فَأَوقَفَنِي[(٧)] فِي العَرَقِ حَتَّى سَقَطَ لَحْمُ وَجْهِي، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟ فَقَالَ: نَظَرْتُ إِلَى شَخْصٍ جَمِيلٍ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَذْكُرَهُ»**.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ على [أنَّ] النَّظرَ بشهوةٍ لِمَنْ لا يجوزُ النَّظرُ إليهِ بهَا حرامٌ، وكونُهُ استحيَا يومَ القيامةِ مِنْ ذِكرِهِ لا يفيدُهُ استحياؤُهُ يومَ القيامةِ؛ لأنَّهُ ليسَ يومَ عملٍ، وإنَّمَا هوَ يومُ جزاءٍ[(٨)]، ويكونُ هذَا الذَّنبُ ـ واللهُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه أيضا.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في: أخلاق النبي وآدابه ص٤٨٩.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٦.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥١، والتبصرة لابن الجوزي ص١٦٢، وذم الهوى ص١٢٩، وتلبيس إبليس ص٣٤٠.

(٧) من (ف)، وفي الأصل: فوقفني.

(٨) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠٥١.

أعلمُ ـ أعظمَ ذنوبِهِ، منعهُ اللهُ مِنْ إقرارِهِ بهِ على نفسِهِ بينَ يدَيهِ، حتَّىٰ عاقبَهُ بأنْ سقطَتْ فَرْوةُ وجهِهِ منَ العرَقِ، وكلُّ ما كانَ مِنْ ذنوبِهِ خفيفًا أجرَاهُ اللهُ علىٰ لسانِهِ ويقولُ: نعَمْ يا ربِّ نعَمْ، وكانَ ذلكَ سببًا للعفوِ عنهُ.

وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ الإنسانَ بعدَ الموتِ يعرفُ كيفَ يكونُ حالُهُ يومَ القيامةِ، وإنْ لمْ يعرِفْ هوَ فاللهُ ـ تعالىٰ ـ يُعْلِمُهُ، ويتركُ مَلَكَ الرُّؤيَا يُمَثِّلُ بذلِكَ للرَّائِي ويكلِّمُهُ بهِ؛ ليكونَ فيهِ زجْرًا لمَنْ يسمعُهُ، وتحذيرًا مِنْ مِثْلِ فِعْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الشَّحَّامَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: رَأَيْتُ الشَّيْخَ الإِمَامَ أَبَا الطَّيِّبِ سَهْلًا الصُّعْلُوكِيَّ فِي المَنَامِ فَقُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، فَقَالَ[2]: دَعِ الشَّيْخَ، فَقُلْتُ: وَتِلْكَ الأَحْوَالُ الَّتِي شَاهَدْتَهَا؟ فَقَالَ: لَمْ تُغْنِ عَنَّا، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بِكَ؟ قَالَ: غَفَرَ لِي بِمَسَائِلَ كَانَتْ تَسْأَلُ عَنْهَا العُجُزُ[3]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علىٰ أنَّ رحمةَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ واسعةٌ، وأنَّ الفُتْيَا للعَوامِّ المحتاجِينَ الَّذِينَ تحقَّقَ اضطرارُهُمْ خوفًا مِنْ ربِّهِم، وسألُوا العلماءَ ليتخلَّصُوا مِنْ عذابِهِ مهمٌّ فِي الدِّينِ ونافعٌ عندَ اللهِ، فإنَّ العَالِمَ يتنزَّلُ فِي هذهِ الحالةِ منزلةَ النَّبيِّ بينَ اللهِ وبينَ عبادِهِ، فإنَّهُ يُعرِّفُهُمْ مَحابَّهُ مِنْ مَسَاخِطِهِ، وبهذَا كانَ العلماءُ ورثةَ الأنبياءِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]: «سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّشِيدِيَّ الفَقِيهَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: رَأَيْتُ مُحَمَّدًا الطُّوسِيَّ المُعَلِّمَ فِي المَنَامِ، فَقَالَ [لِي][5]: قُلْ لِأَبِي سَعِيدٍ الصَّفَّارِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٦.

(٢) ورد قوله في: الفقيه والمتفقه ص١٥٧، والتدوين في أخبار قزوين ٢/١٠٦، وطبقات الشافعية الكبرىٰ ٤/٣٩٧.

(٣) في (ف): العجوز.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٦ ـ ٥٦٧.

(٥) زيادة من (ف).

المُؤَدِّب [٣/٨١ب](١):

وَكُنَّا عَلَى أَلَّا نَحُولَ عَنِ الهَوَى(٢) ❁ فَقَدْ وَحَيَاةِ الحُبِّ حُلْتُمْ وَمَا حُلْنَا
لَعَلَّ الَّذِي يَقْضِي الأُمُورَ بِعِلْمِهِ ❁ سَيَجْمَعُنَا بَعْدَ المَمَاتِ كَمَا كُنَّا(٣)

قَالَ: فَانْتَبَهْتُ، وَقُلْتُ ذَلِكَ لِأَبِي سَعِيدٍ الصَّفَّارِ، فَقَالَ: كُنْتُ أَزُورُ قَبْرَهُ كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ، فَلَمْ أَزُرْهُ هَذِهِ الجُمُعَةَ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ حالَهُ كانَ مجموعًا معَ اللهِ هوَ وصاحبُهُ يتساعدَانِ علَىٰ الخيرِ، ففرَّقَتْ بينَهُمَا أسبابٌ، فسألَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أنْ يجمعَ الشَّملَ كمَا كانَ، هذَا مضمونُ الشِّعْرِ.

وفيهِ التَّنبيهُ علىٰ أنَّهُ انقطعَ عَنْ زِيَارَتِه بعدَ مَوْتِهِ، وكانَ البيتُ الأوَّلُ تَنْبِيهًا علىٰ عَوْدَتِهِ لِمَا قصَّرَ فيهِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤): **«وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ(٥): رَأَيْتُ فِي المَنَامِ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الفُقَرَاءِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَانِ، وَبِيَدِ أَحَدِهِمَا طَسْتٌ، وَبِيَدِ الآخَرِ إِبْرِيقٌ، فَوَضَعَ الطَّسْتَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَغَسَلَ يَدَهُ الكَرِيمَةَ، ثُمَّ أَمَرَ حَتَّى غَسَلُوا أَيْدِيَهُمْ، ثُمَّ وَضَعَ الطَّسْتَ بَيْنَ يَدَيَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلآخَرِ: لَا تَصُبَّ عَلَى يَدِهِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ،**

---

(١) من الطويل، ونسبت للطوسي أيضا في: إحياء علوم الدين ٤/٥١٠، والكشكول ١/١٩٠.

(٢) أي: الحبُّ.

(٣) أثبت الناسخ في حاشية الأصل: «أن البيت الثاني ليس في أصل المؤلف». وهو ثابت في بعض النسخ الخطية للرسالة القشيرية، وكذا ذكر الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٥١.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٧.

(٥) هو أبو جعفر الصيدلاني كما في: تهذيب الأسرار ص٥٥١ ـ ٥٥٢، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٨، وإتحاف السادة المتقين ١٤/٣٩٨.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَيْسَ قَدْ رُوِيَ عَنْكَ أَنَّكَ قُلْتَ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»(١)؟ فَقَالَ: بَلَىٰ، فَقُلْتُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ وَأُحِبُّ هَؤُلَاءِ الفُقَرَاءَ، فَقَالَ ﷺ: صُبَّ عَلَىٰ يَدِهِ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا يدلُّ علىٰ أنَّ صحبةَ الصَّالحينَ المُتَّبِعينَ النَّبيَّ ﷺ المُقْتَدِينَ بآثارِهِ تَنْفَعُ وإنْ لمْ يكُنْ معَهُمْ فِي المنزلةِ، يُشركُهُمْ فِي الخيرِ الَّذِي همْ فيهِ، وإنْ لمْ ينَلْ جميعَ ما نالُوهُ(٢)، وهذا معنىٰ قولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ أَبَدًا(٤): العَافِيَةَ العَافِيَةَ، فَقِيلَ لَهُ: مَا مَعْنَىٰ هَذَا الدُّعَاءِ؟ فَقَالَ: كُنْتُ حَمَّالًا فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِي، وَكُنْتُ حَمَلْتُ يَوْمًا صَدْرًا مِنَ الدَّقِيقِ، فَوَضَعْتُهُ لِأَسْتَرِيحَ، فَكُنْتُ أَقُولُ: يَا رَبِّ، لَوْ أَعْطَيْتَنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ رَغِيفَيْنِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ لَكُنْتُ أَكْتَفِي بِهِمَا، فَإِذَا رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ، فَتَقَدَّمْتُ أُصْلِحُ بَيْنَهُمَا، فَضَرَبَ أَحَدُهُمَا رَأْسِي بِشَيْءٍ أَرَادَ أَنْ يَضْرِبَ بِهِ خَصْمَهُ، فَدَمِيَ وَجْهِي [٣/٨٢ب].

فَجَاءَ صَاحِبُ الرَّبْعِ(٥) فَأَخَذَهُمْ، فَلَمَّا رَآنِي مُلَوَّثًا بِالدَّمِ أَخَذَنِي فَظَنَّ أَنِّي مِمَّنْ يُشَاجِرُ، فَأَدْخَلَنِي السِّجْنَ وَبَقِيتُ فِي السِّجْنِ مُدَّةً أُوتَىٰ كُلَّ يَوْمٍ بِرَغِيفَيْنِ، فَرَأَيْتُ لَيْلَةً فِي المَنَامِ: إِنَّكَ سَأَلْتَ الرَّغِيفَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَمْ تَسْأَلِ العَافِيَةَ، فَانْتَبَهْتُ وَقُلْتُ: العَافِيَةَ العَافِيَةَ، فَرَأَيْتُ بَابَ السِّجْنِ يُقْرَعُ، وَقِيلَ: أَيْنَ عُمَرُ الحَمَّالُ؟ فَخَلَّوا سَبِيلِي».

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٥٢.
(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٧.
(٤) ورد في: تهذيب الأسرار ص٥٥٢.
(٥) أي: المحلة.

❊قالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **وروحُ هذهِ الرُّؤيَا**: أنَّ العبدَ إذَا أقامَهُ الحقُّ فِي مقامٍ، وكانَتْ سلامتُهُ فِي دينِهِ فليرْضَ، وإنْ كانَ غيرُ هذا المقامِ أحسنَ منهُ فليَدْعُ اللهَ فيهِ ويرضَ بمَا أعطاهُ، فهذا عمرُ الحمَّالُ كانَ يحملُ ويأكلُ مِنْ كسْبِهِ وهوَ أطيبُ كسبٍ؛ لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ[١]: «أَحَلُّ مَا أَكَلَ المَرْءُ مِنْ كَسْبِهِ»، فحملَ يومًا دقيقًا ثقيلًا، فحطَّهُ ليستريحَ، وقالَ: «**لَوْ أعطانِي اللهُ كلَّ يومٍ رغيفَينِ لقنعْتُ بهِمَا ولمْ أعذِّبْ نفسِي بهذَا العملِ**».

وهذا يدلُّ على كَراهيتِهِ لمَا هوَ فيهِ منَ التَّعَبِ، فبينَمَا هوَ كذلِكَ إذْ رأى رجلَينِ تشاجرَا وتضارَبَا، فمضَى ليفصلَ بينَهُمَا، فوقعَتْ ضربةٌ مِنْ أحدِهِمَا عليهِ فأَدْمَتْ وجهَهُ، فلمَّا جاءَ أصحابُ السُّلطانِ ـ وهُمُ المعروفُونَ بأصحابِ الرَّبعِ ـ مسكُوا المتضارِبَينِ، ورأَوُا الدَّمَ فِي وجهِ هذَا، فحملُوهُ معَهُمْ؛ بناءً منهُمْ علَى أنَّهُ منَ المتشاجِرينَ، ولمْ يُقْبَلْ قولُهُ: «**إنِّي لستُ منهُمْ**»، فوُضِعَ فِي السِّجنِ أدبًا لهُ ولهُمْ، فأقامَ فِي السِّجنِ مدَّةً يُؤتَى برغيفَينِ كُلَّ يومٍ، وطالَتْ مدَّتُهُ وأيَّامُ سجنِهِ، فرأى فِي المنامِ «**إنَّكَ سألْتَ اللهَ فِي رغيفَينِ مِنْ غيرِ تعبٍ ولمْ تسألْهُ العافيةَ فأعطاكَ ما سألْتَ**»، وعلِمَ خطأَهُ فِي سُؤالِهِ، فدعَا اللهَ ـ تعالى ـ بالعافيةِ، فلمَّا دعَا اللهَ ـ تعالى ـ بالعافيةِ نادَى منادٍ بإخراجِهِ، فأُخرِجَ منَ السِّجنِ.

فَفِي هذهِ الرُّؤيَا تنبيهٌ على أنَّ العبدَ لا يختارُ لنفسِهِ شيئًا، ويرضَى بكلِّ ما يُجريهِ اللهُ عليهِ، وإنْ سألَ فليسألِ العافيةَ فِي الدِّينِ والدُّنيَا والآخرةِ[٢].

❂ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: **«وَحُكِيَ عَنِ الكتَّانِيِّ أَنَّهُ قَالَ[٤]: كَانَ عِنْدَنا رَجُلٌ**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٣/٢٨٨، وابن ماجه في سننه ٢/٧٢٣، والبيهقي في سننه الكبرى ٧/٤٧٩.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٥٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٧.

(٤) ورد في: تهذيب الأسرار ص٥٥٢.

مِنْ أَصْحَابِنَا هَاجَتْ عَيْنُهُ[(١)]، فَقِيلَ لَهُ: أَلَا تُعَالِجُهَا؟ فَقَالَ: عَزَمْتُ عَلَىٰ أَلَّا أُعَالِجَهَا حَتَّىٰ تَبْرَأَ، قَالَ: فَرَأَيْتُ فِي المَنَامِ كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ: لَوْ كَانَ هَذَا العَزْمُ عَلَىٰ أَهْلِ النَّارِ كُلِّهِمْ لَأَخْرَجْنَاهُمْ [٣/١٨٣أ] [من النَّارِ][(٢)]».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ التَّحريضِ علىٰ الوفاءِ بما عزمَ العبدُ عليهِ إذا كانَ محمودًا، فهذَا لمَّا نَفَرَتْ عينُهُ خطرَ ببالِهِ أنْ يداويَهَا، ثمَّ علِمَ أنَّ المداوِي والمعافِي هوَ اللهُ، فعزمَ علىٰ تَرْكِ التَّداوِي حتَّىٰ يُعافيَهُ اللهُ ويفعلَ بهِ ما يشاءُ، فنُبِّهَ فِي المنامِ علىٰ صحَّةِ عَزْمِهِ، وأنَّ مِثْلَ هَذَا العَزْمِ لَوْ كانَ فِي أيِّ حالٍ كانَ نفعَ اللهُ بهِ صاحبَهُ.

❁ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَحُكِيَ عَنِ الجُنَيْدِ أَنَّهُ قَالَ[(٤)]: رَأَيْتُ فِي المَنَامِ كَأَنِّي أَتَكَلَّمُ عَلَىٰ النَّاسِ، فَوَقَفَ عَلَيَّ مَلَكٌ فَقَالَ: أَقْرَبُ مَا تَقَرَّبَ بِهِ المُتَقَرِّبُونَ إِلَىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ مَاذَا؟ فَقُلْتُ: عَمَلٌ خَفِيٌّ بِمِيزَانٍ وَفِيٍّ، قَالَ: فَوَلَّىٰ المَلَكُ عَنِّي وَهُوَ يَقُولُ: كَلَامٌ مُوَفَّقٌ وَاللهِ».

❊ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذِهِ الرُّؤيَا تدلُّ علىٰ فضيلةِ الجُنيدِ في العِلْمِ والعَمَلِ جميعًا؛ وذلِكَ أنَّهُ رأىٰ في مَنَامِهِ أنَّهُ يعظُ النَّاسَ ويتكلَّمُ عليهِمْ ويقودُهُمْ إلىٰ اللهِ، فجاءَهُ ملكٌ فِي صُورةِ آدميٍّ، فَعَلِمَ فِي النَّومِ أنَّهُ ملكٌ وسألَهُ: «**ما أقربُ ما يتقرَّبُ بهِ المتقرِّبونَ إلىٰ اللهِ؟**»، وروحُ هذا السُّؤالِ: ما أفضلُ كلِّ فاضلٍ منَ الأعمالِ عندَ اللهِ؟ فأطلقَ اللهُ علىٰ لسانِهِ فِي النَّومِ: «**عَمَلٌ خفِيٌّ بِميزَانٍ وفيٍّ**»،

---

(١) أي: ثار وجعها.

(٢) تتمة من الرسالة القشيرية، ومصدر توثيق قوله.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٧.

(٤) ورد في: تهذيب الأسرار ص٥٥٢، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٨، والتدوين في أخبار قزوين ٢/٤١، وصريح الإشارة وباهر العبارة ص٢٠٢، وإتحاف السادة المتقين ١٤/٣٩٨.

وعملُ السِّرِّ قدِ استقرَّ شرعًا أنَّهُ يزيدُ علىٰ عملِ العلانيةِ سَبْعِينَ ضِعْفًا[١].

وقولُهُ: «بميزانٍ وَفِيٍّ» يعني: أنَّ العملَ الَّذِي هوَ فِي السِّرِّ يوقعُ علىٰ وجهِهِ شَرْعًا علىٰ أكملِ صِفَاتِهِ منَ الخشوعِ والتَّذلُّلِ والحضورِ والخشوعِ بينَ يدَيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالبكاءِ، وغيرُهُ يكونُ كاملًا في نفسِهِ سِرًّا بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ، فلمَّا سمِعَهُ الملكُ قالَ: «كلامٌ موفَّقٌ» يعنِي: محفوظًا مُعَانًا.

ومثلُهُ ما رُوِيَ أنَّ الحسَنَ البصرِيَّ[٢] لمَّا دخلَ مكَّةَ رأىٰ شابًّا مِنْ أولادِ الحَسَنِ بنِ عليٍّ قَدْ أسندَ ظَهْرَهُ إلىٰ الكعبةِ يَعِظُ النَّاسَ، فأرادَ أنْ يَمتحنَهُ فقالَ: «يا فتىٰ: ما ملَاكُ الدِّينِ؟ فقالَ لهُ: الورعُ، فقالَ: وما آفتُهُ؟ فقالَ: الطَّمعُ، فقالَ: مثلُكَ يصلُحُ أنْ يعظَ النَّاسَ»[٣].

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «وَقَالَ رَجُلٌ لِلْعَلَاءِ بْنِ زِيَادٍ[٥]: رَأَيْتُ فِي المَنَامِ كَأَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَقَالَ: لَعَلَّ الشَّيْطَانَ [٣/٨٣ب] **أَرَادَ أَمْرًا فَعُصِمْتُ مِنْهُ، فَأَشْخَصَ[٦] إِلَيَّ رَجُلًا يُعِينُهُ[٧]».**

❊ قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ دليلٌ علىٰ التَّحفُّظِ مِنْ تلبُّسِ إبليسَ ومعرفةِ الإنسانِ بنفسِهِ، وعدمِ الانخداعِ بالثَّناءِ فِي اليقظةِ والمَنَامِ؛ وذلكَ

---

(١) سبق تخريج ذلك. وقال العروسي: «قوله: يزيد علىٰ عمل العلانية: أي بالنسبة لغير من يُرجىٰ الاقتداء به فيه، وإلا فعمل العلانية لمثله أفضل» نتائج الأفكار ٤/٣٤٠.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أفاد ذلك الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠٥٣.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٨.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٣، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٨، وإتحاف السادة المتقين ١٤/٣٩٨، ونصهم: «فأشخص رجلا يقتلني».

(٦) أي: أرسل.

(٧) أي: يعينه علىٰ مقصوده من إضلالي.

أنَّهُ لمَّا آتاهُ هذا الرَّائي قالَ لهُ: «رأيتُكَ فِي الجنَّةِ» ، فأجابَهُ أظنُّ أنَّ الشَّيطانَ ـ لعنَهُ اللهُ ـ أرادَ أنْ يخدعَنِي بحالٍ فِي أعمالِي ، فحفظَنِي اللهُ منهُ ، فأرسلَ إلَيَّ هذهِ الرُّؤيَا ليغُرَّنِي بهَا ويستعينَ بهَا علىٰ مقصودِهِ منْ إهلاكِي .

وهكذَا ينبغِي أنْ يكونَ حالُ المؤمنينَ[1] إذا جرَتْ علىٰ أيديهِمْ خوارقُ العاداتِ أنَّهُمْ لا يعُدُّونَهَا كراماتٍ إلَّا بعدَ النَّظرِ لمَا تثمرُهُ ، فيترتَّبُ عليهَا مِنْ زيادةِ اليقينِ بالحملِ علىٰ الأعمالِ الصَّالحاتِ[2] ، وإلَّا إذا أعقبَهَا الإذلالُ أوِ العُجبُ أوِ الكِبْرُ أوْ ما يجرِي مجراهُ مِنْ آثارِ النَّفسِ دلَّ علىٰ أنَّهَا ليسَتْ بكرامةٍ ، وإنَّمَا هيَ استدراجٌ وبليَّةٌ .

❁ قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «وَقِيلَ[4]: رُؤِيَ عَطَاءٌ السُّلَمِيُّ فِي المَنَامِ ، فَقِيلَ لَهُ: لَقَدْ كُنْتَ طَوِيلَ الحُزْنِ فَمَا فَعَلَ اللهُ بِكَ ؟ فَقَالَ: أَمَا وَاللهِ لَقَدْ أَعْقَبَنِي ذَلِكَ رَاحَةً طَوِيلَةً وَفَرَحًا دَائِمًا ، فَقِيلَ لَهُ: فَفِي أَيِّ الدَّرَجَاتِ أَنْتَ ؟ فَقَالَ: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩] . . الآية .

وَقِيلَ[5]: رُؤِيَ الأَوْزَاعِيُّ فِي المَنَامِ ، فَسُئِلَ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ هَاهُنَا دَرَجَةً أَرْفَعَ مِنْ دَرَجَةِ العُلَمَاءِ[6] ، ثُمَّ دَرَجَةِ المَحْزُونِينَ» .

---

(١) في الأصل: المؤمن ، والأصحُّ المثبت ؛ ليناسب ما بعده .

(٢) أفاد ذلك الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠٥٤ .

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٨ .

(٤) ورد قوله في: الهم والحزن لابن أبي الدنيا ص٨٣ ، وحلية الأولياء ٦/١٧٢ ، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٨ ، والمجالسة وجواهر العلم ص٦٠٣ ، والعاقبة في ذكر الموت ص٢٢٢ ، وفي بعضها: «عطاء السُّليمي» .

(٥) ورد قوله في: الهم والحزن ص٩٥ ، والثقات ٩/٢٧٣ ، وتاريخ دمشق ٣٥/٢٢٩ ، وصفة الصفوة ٤/٢٥٩ ، وسير أعلام النبلاء ٧/١٢٨ ، والرائي له هو: يزيد بن مذكور .

(٦) أي: العلماء العاملين بعلمهم ، وإلا كان علمهم شاهداً عليهم .

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمَّا الحُزْنُ على التَّقصيرِ فِي حَقِّ اللهِ ـ تعالى ـ فلَا تُعْلَمُ درجةُ أهلِه، وإنَّمَا يعلمُ التَّقْصِيرِ إذا كمُلَتْ معرفتُه بعظمةِ اللهِ ـ تعالى ـ وجلالِه، فكلُّ عملٍ عملَهُ بعدَ ذلكَ وإنْ أحكَمَهُ وأتقنَهُ يَراهُ[1] قليلًا حقيرًا بالنِّسبةِ إلى جلالِ الحقِّ ـ سبحانه ـ وعظمتِه، فدلَّ على أنَّ الحزنَ على التَّقصيرِ فِي الأعمالِ وإنْ كمُلَتْ وشرُفَتْ إنَّمَا هيَ ثمرةُ كمالِ المعرفةِ باللهِ ـ تعالى ـ وجلالِه وعظمتِه، ولذلكَ قالَ بعضُهُم: «نظرْتُ في معرفةِ اللهِ ـ تعالى ـ فإذَا هيَ أنْ يعرفَ العبدُ قدرَهُ»، يعنِي: قدرَ اللهِ ـ تعالى ـ وجلالَهُ وعظمتَهُ، فلكمالِ معرفتِهِ بجلالِ ربِّهِ يصغرُ فِي قَلْبِهِ مَا أتَى بهِ مِنْ طَاعَةٍ.

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَقَالَ النِّبَاجِيُّ[3]: قِيلَ لِي فِي المَنَامِ: مَنْ وَثِقَ باللهِ ـ تعالى ـ فِي رِزْقِهِ زِيدَ فِي حُسْنِ خُلُقِهِ، وَسَخَتْ نَفْسُهُ فِي نَفَقَتِهِ، وَقَلَّتْ وَسَاوِسُهُ فِي صَلَاتِهِ**».

❊ قَالَ الشَّارِحُ [٣/١٨٤أ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وما ذكرَهُ فِي الرُّؤيَا مِنْ هذهِ الحِكَمِ صحيحٌ مَعْضُودٌ بالشَّريعةِ؛ وذلكَ أنَّ مَنْ وثقَ باللهِ ـ تعالى ـ فِي رزقِهِ قَلَّ حِرصُهُ على الحاصلِ، وقلَّ تعبُهُ فِي تحصيلِ المُمكنِ، وسهُلَ عليهِ بذلُهُ فِي الواجبِ والنَّدبِ، وحسُنَ فِي معاملتِهِ في سائرِ مبايعاتِهِ وتصرُّفاتِهِ، وسلِمَ منَ التَّلبيسِ فِي العُيُوبِ، ومنَ الوقوعِ فِي كثيرٍ منَ الآفاتِ والذُّنوبِ، فقولُهُ: «**زِيدَ فِي حُسنِ خُلُقِهِ**»، فهوَ راجعٌ إلى ما قلنَاهُ مِنْ حُسنِ المعاملاتِ والمُعاشراتِ، وقولُهُ: «**وَسَخَتْ نفسُهُ فِي نفقتِهِ**» هوَ ما قرَّرْنَاهُ مِنْ سُهُولةِ البَذْلِ عليهِ فِي الواجبِ والمَنْدُوبِ، وقولُهُ: «**وقلَّتْ**

---

(١) في الأصل: رآه، والأصح المثبت كما في: إحكام الدلالة ٢/١٠٥٤، وقد أفاد الشيخ زكريا ذلك من المؤلف.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٨.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٤. ورُوي عن أبي سليمان الداراني في: حلية الأولياء ٩/٢٥٧، وطبقات المحدثين بأصبهان ٣/٦١٢، وسير أعلام النبلاء ١٠/١٨٥.

وساوسُهُ فِي صلاتِهِ» هو داخلٌ تحتَ ما قرَّرْنَاهُ منَ الفِكرةِ والحِيلةِ فِي أسبابِ تحصيلِ ما يمكنُ منَ الأرزاقِ، فلَا يراهُ إلَّا باردَ الفُؤادِ، حسنَ التَّوكُّلِ على ربِّهِ والاعتمادِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَقِيلَ[(٢)]: رُئِيَتْ زُبَيْدَةُ[(٣)] فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهَا: مَا فَعَلَ اللهُ بِكِ؟ فَقَالَتْ: غَفَرَ لِي، فَقِيلَ: بِكَثْرَةِ نَفَقَتِكِ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ؟ فَقَالَتْ: لَا، أَمَا إِنَّ أَجْرَهَا عَادَ إِلَى أَرْبَابِهَا، وَلَكِنْ غَفَرَ لِي بِنِيَّتِي[(٤)]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ على أنَّ الأموالَ السُّلطانيَّةَ الغالبُ على أكثرِهَا أنَّهُ لمْ تُوجَدْ بِوجْهٍ شَرْعيٍّ، وأنَّهُ باقٍ على ملكِ أربابِهِ، ولذلِكَ لمَّا قيلَ لزبيدةَ: «ما فعلَ اللهُ بكِ؟ فقالَتْ: غفرَ لِي، فقيلَ لهَا: بكثرةِ نفقتِكِ فِي طريقِ مكَّةَ؟ قالَتْ: لَا، تلكَ الأموالُ رجعَ ثوابُهَا لأربابِهَا، ولكنْ غفرَ لِي بنيَّتِي» يعنِي: بتيسيرِهَا المياهَ والمنازلَ للحاجِّ والمسافرِينَ.

هذا يدلُّ على أنَّ الأموالَ إذا أُخِذَتْ مِنْ غيرِ وجهِهَا وتابَ آخِذُهَا ولمْ يعرِفْ أربابَهَا ليردَّهَا إليهِم كانَ حكمُهَا الصَّرفَ فِي جهاتِ البرِّ، ويكونُ أجرُهَا لمُلَّاكِهَا، وللصَّارِفِ أجرُ طاعتِهِ ونيَّتِهِ، وذلكَ بعدَ توبتِهِ وصِدْقِ نيَّتِهِ في أنَّهُ ما قدرَ على ردِّهَا لأربابِهَا[(٥)]، وما يعرفُ منهُمْ أحدًا ولا ورثَتَهُ أصرفَ فِي جهاتِ البرِّ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٨.

(٢) ورد قولها في: تهذيب الأسرار ص٥٥٤، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٨، والرائي: هو إبراهيم بن إسحاق الحربي.

(٣) هي: زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، وتكنى أم جعفر وأمة العزيز، زوجة هارون الرشيد، وأم ولده الأمين، كانت معروفة بالخير والأفضال على أهل العلم والبر للفقراء والمساكين، ولها آثار كثيرة في طريق مكة من مصانع حفرتها، وبرك أحدثتها.
انظر في ترجمتها: تاريخ بغداد ١٤/٤٣٣، والمنتظم ١٠/٢٧٦.

(٤) لما ورد: «نية المرء خير من عمله».

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٥٥.

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «وَرُئِيَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فِي المَنَامِ فَقِيلَ لَهُ[٢]: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: وَضَعْتُ أَوَّلَ قَدَمِي عَلَىٰ الصِّرَاطِ، وَالثَّانِي فِي الجَنَّةِ.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الحَوَارِيِّ[٣]: رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ جَارِيَةً مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْهَا، يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهَا [٣/٨٤ب]، فَقُلْتُ: مَا أَنْوَرَ وَجْهَكِ! فَقَالَتْ: تَذْكُرُ اللَّيْلَةَ الَّتِي بَكَيْتَ فِيهَا؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَتْ: حُمِلَتْ إِلَيَّ دَمْعَتُكَ، فَمَسَحْتُ بِهَا وَجْهِي، فَصَارَ ضَوْءُ وَجْهِي هَكَذَا».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَّا قضيَّةُ سفيانَ الثَّوريِّ وقولُهُ: «وضعْتُ أوَّلَ قدمٍ لِي على الصِّراطِ والثَّاني فِي الجنَّةِ»، فهذا هوَ التَّسهيلُ فِي الجوَازِ، فإنَّ منهُمْ مَنْ يمرُّ عليهِ كالرِّيحِ، ومنهُمْ كالطَّيرِ، ومنهُمْ كشديدِ الرِّجالِ، ومنهُمْ مَنْ يمشِي، ومنهُمْ مَنْ يتعثَّرُ والعياذُ باللهِ منَ النَّارِ، فدلَّ علىٰ أنَّ سفيانَ ممَّنْ يمرُّ عليهَا كالبَرْقِ.

وأمَّا قضيَّةُ أحمدَ بنِ أبِي الحوارِيِّ فإنَّهَا تدلُّ علىٰ فضيلةِ البُكاءِ مِنْ خشيةِ اللهِ، وأنَّ أجرَهَا عندَ اللهِ عظيمٌ، كمَا فضَّلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ قطرةَ دمٍ فِي سبيلِ اللهِ أوْ دمعةَ حزنٍ منْ خشيةِ اللهِ، فلمَّا رأىٰ جمالَ وجهِ الحورِ العينِ الَّتِي رآهَا فقالَتْ لهُ: «أتذكرُ ليلةَ بكائِكَ؟» وذكَرَتْ لهُ اللَّيلةَ، جاءَتْنِي قطرةٌ مِنْ دموعِكَ فمسحتُ بهَا وجْهِي، وهوَ تصديقٌ لقولِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤]: «إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٨.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٥، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٨، والعاقبة في ذكر الموت ص٢٢٢.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٥، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٨، والمختار من مناقب الأخيار ١/١٧٩.

(٤) سبق تخريجه.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وَقِيلَ(٢): رأى يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المَنَامِ، فَقَرَأَ عَلَيهِ، فَقَالَ: هَذِهِ القِرَاءَة، فَأَيْنَ البُكَاءُ؟!».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ على أنَّ القراءةَ إذَا أصابَ صاحبَهَا الخشوعُ والبكاءُ كانَتْ أفضلَ، ولذلِكَ نُبِّهَ فِي المَنَامِ عليهِ ليأتِيَ بعبادتِهِ علَى وجهٍ أكملَ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «وَقَالَ الجُنَيْدُ(٤): رَأَيْتُ فِي المَنَامِ وَكَأَنَّ مَلَكَيْنِ نَزَلَا مِنَ السَّمَاءِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: مَا الصِّدْقُ؟ فَقُلْتُ: الوَفَاءُ بِالعَهْدِ(٥)، فَقَالَ الآخَرُ: صَدَقَ، ثُمَّ صَعِدَا».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والصِّدقُ تارةً: يكونُ فِي الأقوالِ؛ فيكونُ الإخبارَ عنِ الشَّيءِ علَى ما هوَ عليهِ، وَقَدْ يكونُ صِدقَ النِّيَّةِ؛ وهوَ قوَّةُ العَزْمِ حتَّى يقعَ الفِعْلُ المَعْزُومُ عليهِ، وقَدْ يكونُ فِي صِدقِ الوَفَاءِ فيمَا عَاهَدَ عليهِ، كما مدَحَ - سبحانه - قومًا بكونِهِمْ وَفَوْا بالعهدِ فقالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فقولُ الجُنيدِ يعمُّ سائرَ [١٨٥/٣أ] الأقسامِ الَّتِي يقعُ فيهَا الوفاءُ، ولذلِكَ قالَ الملَكُ الثَّانِي: «صَدَقَ»، وهذَا يدلُّ علَى تسديدِ الجُنيدِ، كمَا تقدَّمَ فِي الرُّؤيَا الأُولَى(٦).

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٨.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٥، وتاريخ دمشق ٦٥/٨٤، وتهذيب الكمال ٣٢/٧٠، ورويت عن صالح المري في: إحياء علوم الدين ١/٢٧٧، والمستطرف ١/٤٤.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٨.

(٤) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٥.

(٥) قال العروسي: «إنما حمل الصدق عليه؛ لكونه أعم متعلقًا؛ لشموله جميع ما كلف به الإنسان، وعوهد على القيام به» نتائج الأفكار ٤/٣٤٢.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٥٦.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]: **«رُئِيَ بِشْرٌ الحَافِي فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ[(٢)]: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي، وقَالَ[(٣)]: أَمَا اسْتَحْيَيْتَ يَا بِشْرُ مِنِّي، كُنْتَ تَخَافُنِي ذَلِكَ الخَوْفَ؟!»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ فيهِ زيادةُ رفقٍ وتأييدٍ لبِشْرٍ الحافِي، فإنَّهُ لمَّا قِيلَ لهُ: **«ما فعلَ اللهُ بكَ؟ فقالَ: غفرَ لِي»** بعدَ أنْ عاتبَنِي، فقالَ لِي: **«أمَا استحيَيْتَ منِّي يَا بِشْرُ؟ تخافُنِي كلَّ ذلكَ الخَوفِ»**، فأرادَ اللهُ ـ سبحانه ـ مِنْ بشرٍ أنْ يكونَ خَوْفُهُ مُعْتَدِلًا بِرجائِهِ فِي الدُّنيَا، فيكونَ أكملَ فِي حقِّهِ، ولذلِكَ قالَ لهُ: **«أمَا استحيَيْتَ منِّي!»** فتخافَ ذلكَ الخوفَ الَّذِي يُخشَىٰ أنْ يكونَ قريبًا منَ القنُوطِ.

وقولُهُ: **«أمَا استحيَيْتَ!»** فيهِ عتبٌ لطيفٌ؛ وهوَ أنَّهُ نظرَ إلىٰ ذُنُوبِهِ ولمْ ينظرْ إلىٰ أعمالِهِ الصَّالحةِ، ونظرَ إلَىٰ بطشِ ربِّهِ وأَخْذِهِ ولَمْ ينظرْ إلىٰ سَعةِ فضلِهِ ورحمتِهِ، فكأنَّهُ لو نظرَ كمالَ النَّظرِ اعتدلَ خَوْفُهُ ورَجَاؤُهُ[(٤)].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(٥)]: **«وَقِيلَ[(٦)]: رُئِيَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بِكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي، وَمَا كَانَ شَيْءٌ أَضَرَّ عَلَيَّ مِنْ إِشَارَاتِ القَوْمِ»**.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يحتملُ قولُهُ: **«مَا كَانَ شَيْءٌ أَضَرَّ عَلَيَّ مِنْ إِشَارَاتِ**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٩.
(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٧، والمختار من مناقب الأخيار ١/٢٨٣، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٨، ومرآة الجنان ١٤/٣٥٩، وتمامه: «ثم قال: مرحبًا بك، قد توفيتُك يوم توفيتك وما على وجه الأرض أحب إليَّ منك».
(٣) في الأصل: فقال، والأصح المثبت.
(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٥٦.
(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٩.
(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٧، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٨، ومدارج السالكين ٢/٤٠.

القَوْمِ» أَوْجُهًا ؛ منهَا : أنْ يكونَ مَا تكلَّمَ فيهِ منَ الإشاراتِ أَوْهَمَ غيرَهُ تخلُّقَهُ بهَا واتِّصَافَهُ بأحكامِهَا ، ويكونَ لمْ يبلُغْ لهَا بعدُ ولا تمكَّنَ فيهَا .

ويحتملُ أنْ يكونَ فَهِمَ مِنْ إشاراتِهِم شيئًا ليسَ علىٰ حقيقتِهِ ، فيكونُوا أرادُوا غيرَ ما فهِمَهُ ، ـ واللهُ أعلَمُ ـ ، فيكونَ أضيرَ عليهِ أيْ : فِي السُّؤالِ عنهُ ، ثمَّ تخلَّصَ وغفرَ لهُ ما كانَ منهُ مِنْ نَقْصٍ فِي ذلكَ(١) .

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢) : **«وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ المُوَفَّقِ(٣) : كُنْتُ أُفَكِّرُ يَوْمًا فِي سَبَبِ عِيَالِي وَالفَقْرِ الَّذِي بِهِم ، فَرَأَيْتُ فِي المَنَامِ رُقْعَةً فِيهَا مَكْتُوبٌ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، يَا ابْنَ المُوَفَّقِ ، أَتَخْشَىٰ الفَقْرَ وَأَنَا رَبُّكَ ؟! فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الغَلَسِ أَتَانِي [٣/٨٥ب] رَجُلٌ بِكِيسٍ فِيهِ خَمْسَةُ آلَافِ دِيْنَارٍ وَقَالَ : خُذْهَا إِلَيْكَ يَا ضَعِيفَ اليَقِينِ»** .

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : هذَا يدلُّ علَىٰ هلَعِ ابنِ الموفَّقِ وجزعِهِ عندَ تغيُّرِ بعضِ الأسبابِ ؛ كقطْرِ السَّماءِ ، وتغيُّرِ أمرِ النِّيلِ فِي الماءِ ، فإنَّ القلوبَ فِي مِثْلِ هذِهِ المواطنِ تَخَافُ وتَقْلَقُ عندَ تغيُّرِ الأَحْوالِ وتضييقِ الأرزاقِ ، وأحسنُ القلوبِ ما اعتمدَ فِي مِثْلِ هذهِ الأوقاتِ علىٰ الواحِدِ الخَلَّاقِ ، ولذلِكَ رأىٰ فِي المنامِ رُقعةً فيهَا مكتوبٌ : **«بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ : يا ابنَ الموفَّقِ ، أتخشَىٰ الفقرَ وأنا ربُّكَ ؟»** .

هذا دليلٌ علىٰ تقدُّمِ خَوْفِ الفَقْرِ فِي قَلْبِهِ ، ثُمَّ امتحنَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ بالَّذِي أَتَاهُ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في : إحكام الدلالة ٢/١٠٥٦ .

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٩ .

(٣) ورد قوله في : تهذيب الأسرار ص٥٥٧ .

وعلي بن الموفق هو : علي بن الموفق العابد ، أبو الحسن العابد ، صاحب الكرامات والمقامات ، توفي سنة خمس وستين ومائتين .

انظر في ترجمته : حلية الأولياء ١٠/٣١٢ ، وطبقات الحنابلة ١/٢٣٠ ، والوافي بالوفيات ٢٢/١٦٥ .

بِذلكَ المَالِ، وهيَ خمسةُ آلافِ دينارٍ، وقالَ: «**خُذْهَا إليكَ يا ضَعِيفَ اليَقِينِ**».

وفِي هذا تعريفٌ بأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ إنْ شاءَ آتاهُ منَ المالِ بمَا لا يخطرُ ببالِهِ حُصُولُهُ لهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ، وهذَا الواقعُ خرقُ عادةٍ بأنْ يأتِيَ رجلٌ لفقيرٍ بخمسةِ آلافِ دينارٍ ولكنَّ اللهَ قوَّىٰ يَقِينَهُ، وأزالَ عَنْ قَلْبِهِ خَوْفَ الفَقْرِ بالكلِّيَّةِ[١].

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «**وَقَالَ الجُنَيْدُ**[٣]: **رَأَيْتُ فِي المَنَامِ كَأَنِّي وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَي اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا القَاسِمِ؛ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الكَلَامُ الَّذِي تَقُولُ؟ فَقُلْتُ: لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا، فَقَالَ: صَدَقْتَ**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ كلامَ الجُنيدِ جَمِيعَهُ فِي مواعظِهِ وإشاراتِهِ وسائرِ ما يقعُ بهِ التَّفهيمُ عمَّا فِي القلبِ كانَ حقيقةً عنهُ، ولذلكَ قالَ لهُ الحقُّ ـ سبحانه ـ «**صَدَقْتَ**»، وهذَا شرفٌ عظيمٌ شرَّفَهُ اللهُ بهِ صَدَّقَهُ، كأَنَّهُ قالَ لهُ: أنتَ أعلَمُ.

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤]: «**وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الكَتَّانِيُّ**[٥]: **رَأَيْتُ فِي المَنَامِ شَابًّا لَمْ أَرَ أَحْسَنَ مِنْهُ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: التَّقْوىٰ، فَقُلْتُ: وَأَيْنَ تَسْكُنُ؟ قَالَ: فِي كلِّ قَلْبٍ حَزِينٍ، ثُمَّ التفتُّ، فَإِذَا امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ كَأَوْحَشِ مَا يَكُونُ مِنَ النِّسَاءِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: الضَّحِكُ، فَقُلْتُ: وَأَيْنَ تَسْكُنِينَ؟ فَقَالَتْ: فِي كُلِّ قَلْبٍ فَرِحٍ مَرِحٍ، قَالَ: فَانْتَبَهْتُ، وَاعْتَقَدْتُ أَلَّا أَضْحَكَ إِلَّا غَلَبَةً**».

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا أدلُّ دَلِيْلٍ علىٰ أنَّ المَرئِيَّ فِي النَّومِ ليسَ ذاتَ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٥٦.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٩.

(٣) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٨، والمختار من مناقب الأخيار ١/٣٣٧.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٩.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٨، ومناقب الأبرار ٢/٧١٧، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٨.

المَرئِيِّ [١٨٦/٣أ] علىٰ الحقيقةِ، وإنَّمَا هوَ مثالٌ لأحسنِ العملِ الَّذِي يُطاعُ بهِ الحقُّ ـ سبحانه ـ.

و«**التَّقوَىٰ**»: اسمٌ جامعٌ لأعمالِ القلوبِ والجَوارحِ ممَّا قارنَهُ الخوفُ والرَّجاءُ؛ لأنَّ حقيقةَ التَّقوَىٰ الخَوفُ بالمُجَانبةِ، فمَنْ حذرَ فَوَاتَ الطَّاعاتِ جَانبَ تَرْكَهَا، ومَنْ حَذرَ الوقوعَ فِي المُحرَّماتِ جَانَبَ فِعْلَهَا، وهذَا مطَّرِدٌ في القَلْبِ والبَدَنِ جميعًا فِي الواجِبَاتِ والمندوباتِ، المحرَّماتِ والمكروهاتِ، وإنْ تعالَىٰ كلُّ قسمٍ منهَا فِي الدَّرجاتِ، ولذلِكَ رآهُ فِي أكملِ صورةٍ، فسألَهُ مَنْ هوَ؟ فأخبَرَهُ أنَّهُ التَّقوىٰ، فقالَ لهُ: «**أَيْنَ تسْكُنُ؟ فقالَ: فِي كُلِّ قَلْبٍ حَزِينٍ**».

وإنَّمَا كانَ حَزِينًا معَ كَمَالِ هذَا الاجتهادِ علىٰ تقصيرِهِ فِي القيامِ بمَا ينبغِي لِربِّ العِبَادِ، وقَبَالتُهُ فِي البُعْدِ عنِ اللهِ والغَفْلَةِ عنهُ والإعراضِ عن طاعتِهِ القهقهةُ في الضَّحِكِ، فإنَّهُ دليلٌ على كمالِ الغفلةِ، وتمكُّنِ القَسْوَةِ، وإنَّمَا كانَ ضحكُ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ التَّبسُّمَ[١]، كذلِكَ أكثرُ أهلِ الخَيْرِ والصَّلاحِ إنَّمَا ضحكُهُمْ استبشارُ وجوهِهِمْ بالتَّبسُّمِ والبشرِ عندَمَا يفرحُونَ بنعَمِ مولاهُم عليهِم، والقلبُ الفَرِحُ المَرِحُ هوَ الَّذِي يتوالَىٰ عليهِ هذَا الضَّحكُ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، يعنِي: الفَرِحِينَ بالدُّنيَا حيثُ كانَتْ، ومِنْ حيثُ ورَدَتْ وجاءَتْ، حقًّا أوْ باطلًا.

وأمَّا الفرحُ بنعَمِ اللهِ وما يردُ منهُ منَ اللُّطفِ والبِرِّ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، فهوَ مَحْمُودٌ[٢].

---

(١) في سنن الترمذي ٥/٦٠١: «ما كان ضَحِكُ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إلا تبسُّمًا».

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٥٧.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: **«وَحُكِيَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ خَفِيفٍ قَالَ[(٢)]: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِي المَنَامِ كَأَنَّهُ قَالَ لِي: مَنْ عَرَفَ طَرِيقًا إِلَىٰ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ **يَسْلُكُهُ ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ عَذَّبَهُ اللهُ عَذَابًا لَمْ يُعَذِّبْهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ»**.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا يدلُّ علىٰ أنَّ عذابَ العَالِمِ بمَا عَصَىٰ أشدُّ مِنْ عذابِ الجاهلِ علىٰ تلكَ المعصيةِ نفسِهَا[(٣)]، وذلِكَ أنَّ قولَهُ: **«مَنْ عرَفَ طريقًا إلىٰ اللهِ - تعالىٰ -»**، يعنِي: طريقًا مِنْ طُرُقِ عبادتِهِ؛ مِنْ أعمالِ قلبِهِ أوْ جوارحِهِ، ثمَّ أعرضَ عنهَا علىٰ عِلْمٍ بعدَ أنْ لزمَهُ العملُ بهَا؛ إمَّا أنْ يكونَ تركَهَا، أوْ عملَهَا علىٰ غيرِ الطَّرِيقِ الَّتِي عرفَهَا كانَ عذابُهُ أبلغَ ممَّنْ لمْ يعلَمْ ذاكَ [٣/٨٦ب].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٤)]: **«وَقِيلَ[(٥)]: رُؤِيَ الشِّبْلِيُّ فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ: نَاقَشَنِي حَتَّىٰ يَئِسْتُ، فَلَمَّا رَأَىٰ يَأْسِي تَغَمَّدَنِي بِرَحْمَتِهِ»**.

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذَا يدلُّ علىٰ صحَّةِ قولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٦)]: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ»، ولولَا أنَّ اللهَ - سبحانه - تغمَّدَهُ بفضْلِهِ وعفَا عنهُ لعذَّبَهُ، وذلكَ أنَّ حقوقَ اللهِ - سبحانه - شرطُ صحَّتِهَا القيامُ بهَا مخلصًا لوجهِ اللهِ وَحْدَهُ، وهذا الشَّرطُ فيهِ عُسْرٌ معَ كثرةِ الاشتغالِ والحظوظِ العاجلةِ، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١] بفضْلِهِ وعفوِهِ فِي الدُّنيَا والآخرةِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٩.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٨.

(٣) لأن العالِم لا عذر له بعد علمه.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٩.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٩، والكشكول ١/٤.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/٢٣٩٤ ـ حديث رقم (٦١٧١)، ومسلم في صحيحه ٤/٢٢٠٤ ـ حديث رقم (٢٨٧٦).

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ المَغْرِبِيُّ[2]: رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ [لِي][3]: يَا أَبَا عُثْمَانَ، اِتَّقِ اللهَ فِي الفَقْرِ، وَلَوْ بِقَدْرِ سِمْسِمَةٍ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذَا يحتملُ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: الفقرُ منَ المالِ، فيكونُ متَّقِيًا فِي حالِ فقرِهِ وضرورتِهِ منَ الحرامِ، والشُّبَهِ أيسرَ شيءٍ معَ الحاجةِ إليهِ.

الوجْهُ الثَّانِي ـ وهوَ أكملُ ـ: الفقرُ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ دونَ غيرِهِ منَ الأسبابِ، فمَنِ ادَّعَىٰ أنَّهُ فقيرٌ إلىٰ اللهِ فليحذَرْ أنْ يطَّلِعَ الحقُّ علىٰ قلبِهِ وهوَ مفتقرٌ إلىٰ غيرِهِ طرفَةَ عَيْنٍ، أوْ أقلَّ مِنْ ذلكَ، فيكونَ كذَّابًا مدَّعِيًا كذَّابًا[4].

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[5]: «وَقِيلَ[6]: كَانَ لِأَبِي سَعِيدٍ الخَرَّازِ ابْنٌ فَمَاتَ قُبْلَهُ، فَرَآهُ فِي المَنَامِ، فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ أَوْصِنِي، فَقَالَ: يَا أَبَتِ، لَا تَعَامِلِ اللهَ ـ تعالىٰ ـ عَلَىٰ الجُبْنِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ زِدْنِي، فَقَالَ: لَا تُخَالِفِ اللهَ ـ تعالىٰ ـ فِيمَا يُطَالِبُكَ بِهِ، فَقَالَ: زِدْنِي، فَقَالَ: لَا تَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ قَمِيصًا، [قَالَ][7]: فَمَا لَبِسَ القَمِيصَ ثَلَاثِينَ سَنَةً[8]».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ يدلُّ علىٰ أنَّهُ أوصَاهُ أوَّلًا بمقامِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٩.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٩، ومسالك الأبصار ٨/٣١٥.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) أي: كذابا مدعيًا لما ليس فيك.

(٥) الرسالة القشيرية ٢/٥٦٩.

(٦) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٨٤، ومناقب الأبرار ١/٤٨٥.

(٧) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية، ومناقب الأبرار.

(٨) لئلا يشغله ويُحجبه عن الطاعات. وقال العروسي: «لعل مراده: ما لبس قميصًا يزيد علىٰ قدر الحاجة بشاهد العلم» نتائج الأفكار ٤/٣٤٥.

شريفٍ، فلمَّا عسُرَ عليهِ القيامُ أوِ الفهمُ قالَ لهُ: «زدْنِي»، فنزلَ لهُ درجةً، ثمَّ لمَّا كرَّرَ عليهِ السُّؤالَ نزَلَ درجةً أُخرَىٰ، فأجابَهُ أوَّلًا بقولِهِ: «**لا تعاملِ اللهَ علىٰ الجُبْنِ**»؛ والجُبْنُ: هوَ قلَّةُ الشَّجاعةِ فِي أعمالِ الطَّاعةِ، ومَنْ لمْ يكُنْ شجاعًا كانَ جبانًا متأخِّرًا عن كلِّ مَقَامٍ شَرِيفٍ [٣/٨٧أ]، فإذَا كانَ كذلكَ قارنَ أفعالَهُ الفتورُ والكَسَلُ، ولمْ يبلُغْ بشيءٍ منهَا نهايةَ الأملِ، فلمَّا قالَ لهُ: «زدْنِي» نزلَ لهُ قليلًا، وأمرَهُ بإتقانِ الواجباتِ، والبُعدِ عنِ المحرَّماتِ.

ثمَّ قالَ لهُ: «زِدْنِي، قالَ: **لَا تجعلْ بينكَ وبينَهُ قمِيصًا**»، معناهُ: لا تقِفْ معَ شيءٍ يحجبُكَ عَنْ طاعتِهِ منَ الدُّنيَا، فإنَّ حبَّكَ الشَّيءَ يُعمِي ويصِمُّ، فمتَىٰ أحببْتَ شيئًا منَ الدُّنيَا منعَكَ حبُّهُ عنِ القيامِ بالواجباتِ، وأوقعَكَ فِي بعضِ المُحرَّماتِ، وإنْ تمكَّنَ ذلكَ فيهِ كسَّلَكَ عنِ الطَّاعاتِ المندوباتِ وجنَّبكَ عَنْ فراقِ الشَّهواتِ المُحيِّراتِ المُشْغِلاتِ، وفاتَتْكَ أعالِي الدَّرجاتِ والمَقَامَاتِ، واللهُ المُوفِّقُ للصَّالحاتِ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: **«وَقِيلَ: كَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ[٢]: اللَّهُمَّ الشَّيءُ الَّذِي لَا يَضُرُّكَ وَيَنْفَعُنَا لَا تَمْنَعْهُ عَنَّا، فَرَأَىٰ فِي المَنَامِ كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: وَأَنْتَ فَالشَّيءُ الَّذِي يَضُرُّكَ وَلَا يَنْفَعُكَ فَدَعْهُ»**.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الكلامُ مِنْ هذا الدَّاعِي ليسَ بصافٍ ولا كاملِ الأدبِ، ولذلكَ قُوبِلَ بنقيضِ قولِهِ، وذلكَ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ لا شيءَ يضرُّهُ ولا ينفعُهُ، وقولُهُ: «**الشَّيءُ الَّذِي لا يضرُّكَ**» مُؤْذِنٌ بأنَّ ثَمَّ شيئًا[٣] يضرُّ وشيئًا ينفعُ، وهذا ليسَ بجيِّدٍ، ولا أدَبَ، ولذلكَ قيلَ لهُ: اشتغالُكَ بمَا أُمِرْتَ بهِ، وتركُكَ لمَا

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٠.

(٢) هو غالب القطان كما في: تهذيب الأسرار ص٥٥٤.

(٣) في الأصل: شيء، وكذا اللفظ الذي يليه، والصواب المثبت؛ لأنه اسم (إن) مؤخر.

نُهيتَ عنهُ أحسنُ لكَ مِنْ هذا الدُّعاءِ، وقُوبِلَ بمَا يماثلُ اللَّفظَ فقِيلَ لهُ: «**الشَّيءُ الَّذِي يضرُّكَ**» وهيَ المعاصِي «**ولا ينفعُكَ**» اتركْهُ.

وغايةُ هذهِ الرُّؤيَا: تنبيهٌ لهُ علىٰ ما ينتفعُ بهِ؛ وهوَ امتثالُ أوامرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ واجتنابُ نَواهِيهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]: «**وَحُكِيَ عَنْ أَبِي الفَضْلِ الأَصْبَهَانِيِّ** رَحِمَهُ اللهُ **أَنَّهُ قَالَ**[2]: **رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فِي المَنَامِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ سَلِ اللهَ ـ تعالىٰ ـ أَلَّا يَسْلُبَنِي الإِيمَانَ، فَقَالَ: ذَلِكَ شَيْءٌ قَدْ فَرَغَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ مِنْهُ**».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا السُّؤالُ مِنْ هذَا الرَّجلِ صحيحٌ، ومعناهُ: أنْ يختمَ لهُ بخاتمةِ خيْرٍ، ولمْ يزَلِ العلماءُ الصَّالحُونَ يدعُونَ بخاتمةِ الخيرِ، وأنْ يموتُوا علىٰ الإيمانِ والإسلامِ.

وقولُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذَا فِي الرُّؤيَا: «**ذلكَ شيءٌ فرغَ اللهُ** [٣/٨٧ب] **منهُ**[3]»، قَدْ يكونُ لهُ مذهبٌ يميلُ إلىٰ القَدرِ، أوْ ما يجرِي مجرَاهُ، فأرادَ ملكُ الرُّؤيَا بإذنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أنْ يريَهُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويعرِّفَهُ بشيءٍ يَرَاهُ مِنْ نفسِهِ؛ ليرجعَ عمَّا هوَ فيهِ، فيخافَ مِنَ السَّوابقِ الَّتِي هيَ الخواتيمُ، فيكونَ عاملاً بمَا أُمِرَ بهِ، خائفًا ممَّا سبقَ لهُ؛ ليستقيمَ بينَ الخوفِ والرَّجاءِ، واللهُ أعلَمُ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[4]: «**وَحُكِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخَرَّازِ أَنَّهُ قَالَ**[5]: **رَأَيْتُ**

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٠.

(٢) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٥٥٥.

(٣) قال العروسي: «فالعبرة بما سبق به القضاء الأزلي، ومع ذلك لا ينبغي الاشتغال بذلك، بل بمقتضيات الأوامر والنواهي» نتائج الأفكار ٤/٣٤٥.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٠.

(٥) ورد قوله في: تهذيب الأسرار ص٤٨٥، وإحياء علوم الدين ٤/٥٠٩.

إِبْلِيسَ فِي المَنَامِ، فَأَخَذْتُ عَصَايَ لِأَضْرِبَهُ، فَقِيلَ لِي: إِنَّهُ لَا يَفْزَعُ مِنْ هَذَا، إِنَّمَا يَخَافُ مِنْ نُورٍ يَكُونُ فِي القَلْبِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويعني بـ«النُّورِ»: كمالَ معرفةِ اللهِ، وكمالَ مناجاةٍ معَهُ، وحسنَ سريرةٍ بينَ العبدِ وبينَهُ، فإذَا قَرُبَ الشَّيطانُ هذَا الشَّخصَ المنعوتَ بهذِهِ النُّعوتِ، وأَثَّرَ فيهِ بعضَ الأثرِ خشِيَ أنْ يرجعَ إلى اللهِ ـ تعالى ـ بصِدْقٍ وُجِدَ فيهِ، فيكونَ ذلكَ سَبَبَ هَلاكِهِ ودَمَارِهِ، زيادةً عمَّا هوَ فيهِ، ولذلِكَ كانَ الشَّيطانُ إذا سلكَ عمرُ فجًّا سلكَ فجًّا غيرَ فجِّهِ[(١)]، فلمَّا رأى هذا الشَّيطانَ فِي النَّومِ وهوَ يكرهُهُ ويبغضُهُ على ما دلَّتْ عليهِ الشَّريعةُ أخذَ عصاهُ ليضربَهُ ليهربَ منهُ، فسمِعَ هاتفًا يقولُ لهُ: «**إنَّهُ لا يفزَعُ منَ العصَا، إنَّمَا يفزعُ منْ نُورٍ فِي القَلْبِ**»، فإنْ كمُلَ نُورُ قلبِكَ بَعُدَ منكَ.

ففيهِ تحريضٌ للرَّائِي على كمالِ الشُّغلِ باللهِ، والإعراضِ عمَّنْ سِواه[(٢)].

۞ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: **«وَقَالَ بَعْضُهُمْ[(٤)]: كُنْتُ أَدْعُو لِرَابِعَةَ العَدَوِيَّةِ، فَرَأَيْتُهَا فِي المَنَامِ تَقُولُ: هَدَايَاكَ تَأْتِينَا عَلَى أَطْبَاقٍ مِنْ نُورٍ مُخَمَّرَةً بِمَنَادِيلَ مِنْ نُورٍ».**

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الدُّعاءَ للميِّتِ خيرٌ فعلَهُ العبدُ لربِّهِ، تعودُ بركتُهُ على الميِّتِ بعدَ وفاتِهِ، ولهذَا المعنى شرعَ الشَّرعُ الصَّلاةَ على المَوْتَى، فإنَّهُ دعاءٌ لهُمْ بعدَ موتِهِمْ وانقطاعِ أعمالِهِم، فجعلَ ذلكَ زيادةً لهُمْ فِي أسبابِ المحْوِ عنهُمْ، ما فعلُوهُ فِي دنياهُمْ، كرَمًا منهُ وفضلًا على عبادِهِ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠٥٩.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٠.

(٤) ورد في: شعب الإيمان ٧/١٧، وإحياء علوم الدين ٤/٤٩١، والروح ص٩٠، وفيات الأعيان ٢/٢٨٥، والوافي بالوفيات ١٤/٣٧، ومرآة الجنان ١/٢٨٢، والرائي هو: بشار بن غالب.

وكلَّمَا كانَ الدُّعاءُ باضطرارٍ وكمالِ رغبةٍ فِي السُّؤالِ وصلَتْ بركتُهُ إلىٰ المدعُوِّ لهُ علىٰ أحسنِ حالٍ، ولذلكَ رأتْهُ علىٰ طبقٍ مِنْ نورٍ مخمَّرًا بمنديلٍ مِنْ نورٍ[1] فيهِ تعريفٌ [٣/١٨٨أ] للدَّاعِي[2] أنَّ دعاءَكَ لنَا بإخلاصٍ وجدٍّ تأتينَا بركتُهُ علىٰ أحسنِ وجهٍ وأصحِّ قَصْدٍ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3]: «**وَرُوِيَ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ أَنَّهُ قَالَ[4]: كُفَّ بَصَرِي فَرَأَيْتُ فِي المَنَامِ كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ لِي: اِئْتِ الفُرَاتَ فَاغْتَمِسْ فِيهِ، وَافْتَحْ عَيْنَيْكَ، قَالَ: فَفَعَلْتُ، فَأَبْصَرْتُ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا مِنْ جُملةِ المُداواةِ للأبصَارِ، إذا كانَ الَّذِي يمنعُهَا البَصَرُ بعضَ الغِشَاءِ اللَّطيفِ، وذلكَ أنَّ الماءَ الصَّافِي إذا نزلَ الإنسانُ فيهِ وفتحَ عينَيهِ تصرَّفَ مِنْ عينَيهِ منَ البخارِ ما كانَ يتوالَىٰ خُرُوجُهُ منهُ علىٰ محلِّ الإبصارِ أوْ محلِّ الإدراكِ[5].

فَنُبِّهَ هذَا فِي المنامِ علَىٰ دواءٍ كانَ سببَ زوالِ مَرضِهِ الَّذِي حدثَ بعينَيهِ، واللهُ ـ تعالىٰ ـ قادرٌ علىٰ أنْ يزيلَهُ بهذَا السَّببِ وبغيرِهِ، وبلَا سَبَبٍ، وبالدُّعاء.

وقدْ أتَىٰ رجلٌ ضريرُ البصَرِ إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ[6]: «يا رسولَ اللهِ ادعُ اللهَ أنْ يرُدَّ علَيَّ بصرِي، قالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أوْ تصْبِر فهوَ خيرٌ لكَ، قالَ: يا

---

(١) أي: مغطاة.

(٢) قال العروسي: «وفيه أن الميت ينتفع بدعاء الحي» نتائج الأفكار ٤/٣٤٦.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٠.

(٤) روي عنه في: العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل ص٢٧٠، وتهذيب الأسرار ص٥٥٧.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠٥٩.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٧٠٧، والبيهقي في سننه الكبرىٰ ٦/١٦٩، ودلائل النبوة ٦/١٦٨، وبلفظ قريب الترمذي في سننه ٥/٥٦٩.

رسولَ اللهِ، ادعُ اللهَ أنْ يرُدَّ عليَّ بصَري، فأمَرَهُ أنْ يتوضَّأَ ويصلِّي ويسألَ اللهَ ويتشفَّعَ إليهِ بنبيِّهِ، ويقولَ فِي أثناءِ دعائِهِ: اللَّهمَّ إنِّي أتشفَّعُ إليكَ بنبيِّكَ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ ترُدَّ عليَّ بصَرِي، اللَّهمَّ شفِّعْهُ فِيَّ، قالَ: ففعلَ ذلكَ فردَّ اللهُ عليهِ بَصَرَهُ».

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: «**وَرُئِيَ بِشْرٌ الحَافِي فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ**[٢]: **لَمَّا رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ قَالَ لِي: مَرْحَبًا يَا بِشْرُ؛ لَقَدْ تَوَفَّيْتُكَ يَوْمَ تَوَفَّيْتُكَ وَمَا عَلَى الأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ**».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ فيهِ مَدْحٌ لبِشْرٍ وبيانُ مَرْتَبَتِهِ عندَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ومزِيَّتِهِ علَىٰ العبادِ، فإنَّهُ أعلمَهُ أنَّهُ يحبُّهُ ولَمْ يكنْ فِي زمانِهِ أحبُّ إليهِ منهُ، فإذَا فهِمَ بشرٌ ذلكَ ازدادَ عملًا فِي الأسبابِ الَّتِي يتعاطَاهَا.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٠.

(٢) ورد قوله في: المختار من مناقب الأخيار ١/٢٨٣، وطهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب ص٥٨.

قال الشَّيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«باب الوصيَّة للمريدين

قالَ الأُستاذُ أبو القاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَمَّا أَثْبَتْنا طَرَفًا مِنْ سِيَرِ [٣/٨٨ب] القَوْمِ، وَضَمَمْنا إلى ذلِكَ أَبْوابًا مِنَ المَقاماتِ، أَرَدْنا أَنْ نَخْتِمَ هذهِ الرِّسالَةَ بِوَصِيَّةٍ لِلمُرِيدِينَ، نَرْجُو مِنَ اللهِ ـ سبحانه ـ حُسْنَ تَوْفِيقِهِم في اسْتِعْمالِها، وأَلَّا يَحْرِمَنا القِيامَ بِها، ولا يَجْعَلَها حُجَّةً عَلَيْنا.

فَأَوَّلُ قَدَمٍ لِلمُرِيدِ في هذهِ الطَّرِيقَةِ(٢): يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ عَلى الصِّدْقِ(٣)؛ لِيَصِحَّ لَهُ البِناءُ عَلى أَصْلٍ صَحِيحٍ، فَإنَّ الشُّيُوخَ قالُوا(٤): إنَّما حُرِمُوا الوُصُولَ(٥)؛ لِتَضْيِيعِهِم الأُصُولَ.

كَذلِكَ سَمِعْتُ الأُسْتاذَ أَبا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: فَتَجِبُ البِدايَةُ بِتَصْحِيحِ الاعْتِقادِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ـ تعالى ـ، صافِيًا عَنِ الظُّنُونِ والشُّبَهِ، خالِيًا مِنَ الضَّلالَةِ والبِدَعِ(٦)، صادِرًا عَنِ البَراهِينِ والحُجَجِ(٧).

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧١ ـ ٥٧٢.

(٢) أي: طريقة الصوفية.

(٣) أي: يبني أمره على الصدق.

(٤) نُسب لسفيان الثوري في: قوت القلوب ١/١٦٣، وورد بلا نسبة في الاعتصام ص٢٠٨، ومرقاة المفاتيح ٤/٣٢٤.

(٥) أي: الوصول إلى درجات الكمال.

(٦) أي: كاعتقاد القدرية والجبرية والجهمية والمجسمة وغيرهم من الفرق. انظر: نتائج الأفكار ٤/٣٤٨.

(٧) لحديث: «إنما الأعمال بالنيات». انظر: نتائج الأفكار ٤/٣٤٨.

وَيَقْبُحُ بالمُرِيدِ أَنْ يَنْتَسِبَ إِلَىٰ مَذْهَبٍ مِنْ مَذَاهِبِ مَنْ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَلَيْسَ انْتِسَابُ الصُّوفِيِّ إِلَىٰ مَذْهَبٍ مِن مَذَاهِبِ المُخْتَلِفِينَ سِوَىٰ طَرِيقَةِ الصُّوفِيَّةِ إِلَّا نَتِيجَةَ جَهْلِهِمْ بِمَذَاهِبِ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ حُجَجُهُمْ فِي مَسَائِلِهِمْ أَظْهَرُ مِنْ حُجَجِ كُلِّ وَاحِدٍ، وَقَوَاعِدُ مَذْهَبِهِمْ أَقْوَىٰ مِنْ قَوَاعِدِ كُلِّ مَذْهَبٍ.

وَالنَّاسُ إِمَّا أَصْحَابُ النَّقْلِ وَالأَثَرِ، وَإِمَّا أَرْبَابُ العَقْلِ وَالفِكْرِ.

وَشُيُوخُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ ارْتَقَوا عَنْ هَذِهِ الجُمْلَةِ، فَالَّذِي لِلنَّاسِ غَيْبٌ فَهُوَ لَهُمْ ظُهُورٌ، وَالَّذِي لِلْخَلْقِ مِنَ المَعَارِفِ مَقْصُودٌ فَلَهُمْ مِنَ الحَقِّ ـ سبحانه ـ مَوْجُودٌ، فَهُمْ أَهْلُ الوِصَالِ[(١)]، وَالنَّاسُ أَهْلُ الاسْتِدْلَالِ[(٢)].

وَهُمْ كَمَا قَالَ القَائِلُ[(٣)]:

لَيْلِي بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ ❁ وَظَلَامُهُ فِي النَّاسِ سَارِ
وَالنَّاسُ فِي سُدَفِ الظَّلَا ❁ مِ، وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ

وَلَمْ يَكُنْ عَصْرٌ مِنَ الأَعْصَارِ فِي مُدَّةِ الإِسْلَامِ إِلَّا وَفِيهِ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، مِمَّنْ لَهُ عُلُومُ التَّوْحِيدِ، وَإِمَامَةُ القَوْمِ إِلَّا وَأَئِمَّةُ ذَلِكَ الوَقْتِ مِنَ العُلَمَاءِ[(٤)] اسْتَسْلَمُوا لِذَلِكَ الشَّيْخِ، وَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَتَبَرَّكُوا بِهِ، فَلَوْلَا مَزِيَّةٌ وَخُصُوصِيَّةٌ لَهُمْ، وَإِلَّا كَانَ الأَمْرُ بِالعَكْسِ[(٥)] [مِنْ هَذَا][(٦)].

---

(١) أي: أهل المواصلة؛ لأنهم وصلوا بزيادة النور القلبي إلىٰ مقام المشاهدات دون غيرهم من بقية الخلق. انظر: نتائج الأفكار ٤/٣٤٩.

(٢) لأنهم وقفوا مع الظواهر بسبب عدم تمكنهم من أحكام السرائر.

(٣) من الكامل، وسبق تخريجه.

(٤) أي: المقدمون في علوم الشريعة.

(٥) يعني: كانوا مستسلمين لأئمة ذلك الوقت. انظر: نتائج الأفكار ٢/١٠٦١.

(٦) زيادة من (ف).

هَذَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [٣/١٨٩أ]، فَجَاءَ شَيْبَانُ الرَّاعِي فَقَالَ أَحْمَدُ: أُرِيدُ يَا [أَبَا](١) عَبْدِ اللهِ أَنْ أُنَبِّهَ هَذَا عَلَىٰ نُقْصَانِ عِلْمِهِ؛ لِيَشْتَغِلَ بِتَحْصِيلِ بَعْضِ العُلُومِ.

فَقَالَ لَهُ الشَّافِعِيُّ: لَا تَفْعَلْ(٢)، فَلَمْ يَقْنَعْ.

فَقَالَ لِشَيْبَانَ: مَا تَقُولُ فِيمَنْ نَسِيَ صَلَاةً مِنْ خَمْسِ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَلَا يَدْرِي أَيَّ صَلَاةٍ نَسِيَهَا، مَا الوَاجِبُ عَلَيْهِ يَا شَيْبَانُ؟

فَقَالَ شَيْبَانُ: يَا أَحْمَدُ، هَذَا قَلْبٌ غَفَلَ عَنْ مَوْلَاهُ، فَالوَاجِبُ أَنْ يُؤَدَّبَ حَتَّىٰ لَا يَغْفَلَ عَنْ مَوْلَاهُ بَعْدُ.

فَغُشِيَ عَلَىٰ أَحْمَدَ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ لَهُ الشَّافِعِيُّ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تُحَرِّكْ هَذَا؟! وَشَيْبَانُ الرَّاعِي كَانَ أُمِّيًّا مِنْهُمْ، فَإِذَا كَانَ حَالُ الأُمِّيِّ مِنْهُمْ هَكَذَا، فَمَا الظَّنُّ بِأَئِمَّتِهِمْ؟!».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الوصيَّةُ بعدَ فراغِ ما ذكرَهُ منَ الرِّسالةِ إلىٰ سائرِ الصُّوفيَّةِ ببلدانِ الإسلامِ مهمٌّ، وذلكَ أنَّ الوصيَّةَ ينبغِي أنْ تعمَّ المبتدئَ والمُنْتَهِي، والمُريدَ والعَارِفَ، فإنَّ كُلًّا منهُمْ لهُ أدبٌ يَخُصُّهُ فِي حَالِهِ، وربَّمَا احتاجَ الكلُّ إلىٰ قضيَّةٍ كليَّةٍ تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الاحتمَاءِ فِي حقِّ الأصحَّاءِ؛ خوفًا منْ حدوثِ مرضٍ لمْ يكنْ، وهوَ فيمَا نحنُ فيهِ يتنزَّلُ منزلةَ تركِ الفضولِ.

والفضُولُ: عبارةٌ عن كلِّ فضلةٍ وزيادةٍ يستغنِي الإنسانُ عنهَا فِي حالِهِ علَىٰ

---

(١) زيادة من (ف)، ومن الرسالة القشيرية.

(٢) لمعرفته به وبعلمه، ففي قوت القلوب ١/٢٧٠: «كان يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يجلس الصبي بين يدي المكتب، ويسأله كيف يفعل في كذا؟ وكيف يصنع في كذا؟ فيقال له: مثلك يا أبا عبد الله في علمك وفقهك تسأل هذا البدوي، فيقول: إن هذا وفق لما علمناه». وانظر: حياة الحيوان الكبرىٰ ٢/١٩.

أيِّ رتبةٍ كانَ، فكلُّ زيادةٍ لَا يحتاجُ إليهَا فيمَا هوَ فيهِ فهيَ فضلةٌ يستغنِي عنهَا إلىٰ أنْ يحوجَهُ الحقُّ إليهَا.

ويدلُّ علىٰ هذهِ القاعدةِ الَّتِي أصَّلنَاهَا الخبرُ الصَّحيحُ، وهوَ قولُهُ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ(١): «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»، فالَّذِي لا يعنيهِ: هوَ الَّذِي لمْ تدْعُ حاجتُهُ إليهِ فِي الوقتِ الَّذِي هوَ فيهِ.

فهذَا الأصلُ وهوَ تركُ كلِّ فضولٍ منَ الطَّعامِ والمنامِ والكلامِ، ومَا عدَاهُ منَ الأمورِ العاديَّةِ الدُّنيويَّةِ، وربَّمَا استرسلَ ذلكَ فِي بعضِ الأمورِ الدِّينيَّةِ الشَّرعيَّةِ، فرُبَّ شخصٍ يكونُ بعضُ مَا يشتغلُ بهِ منَ العلمِ والعمَلِ فضولًا بالنِّسبةِ إلىٰ حالِهِ؛ إمَّا لإهمالِهِ مَا هوَ أوجبُ أوْ لزيادةٍ فيمَا هوَ محتاجٌ إليهِ، أخذَهَا فِي غيرِ وقتِهَا، واشتغلَ بهَا علىٰ غيرِ وجهِهَا [٨٩/٣ب].

فأوَّلُ الوصيَّةِ لسائرِ الخلقِ إعراضُهُمْ عنِ الفُضُولِ، وإذَا أعرَضُوا عنِ الفضولِ وأخذُوا المهمَّ فلَهُمْ مَا يحتاجُونَ إليهِ صحَّةُ اعتقادِهِمْ فِي اللهِ وفِي رسولِهِ، اعتقادًا جازمًا مبرَّءًا منَ الشَّكِّ والظَّنِّ، ومَا يجرِي مجرَاهُ ممَّا يتطرَّقُ إليهِ الاحتمالُ.

فهذَا بالنَّظرِ للشَّخصِ الواحدِ فِي نفسِهِ بعدَ أنْ يقومَ الخلقُ؛ أعنِي ما وجبَ علَىٰ كلِّ الأمَّةِ مِنْ تحصيلِهِ بالأدلَّةِ القطعيَّةِ ففرضُ كفايةٍ علَىٰ النَّاسِ أنْ يقومُوا بالشَّريعةِ كلِّهَا؛ أصولِهَا وفروعِهَا.

فإذَا حصلَ هذَا الفَرْضُ وقُيِّمَ بهِ فالَّذِي يحتاجُهُ كلُّ شخصٍ فِي خاصَّتِهِ أنْ يعتقدَ مَا ثبتَ بالأدلَّةِ القاطعةِ عندَ العلماءِ، فمتَىٰ اعتقدَ دينَ شخصٍ وعلمَهُ جازًا فِي الاعتمادِ علَىٰ قولِهِ فِي الأصولِ والفروعِ جميعًا، فمتَىٰ قالَ لهُ: «اعتَقِدْ فِي اللهِ ـ تعالىٰ ـ

---

(١) سبق تخريجه.

وفِي رسولِهِ كيتَ وكيتَ وقلَّدَهُ نجَا»، كمَا لَوْ قالَ لهُ: «اعتقِدْ فِي صَلاتِكَ وطَهارتِكَ وبيعِكَ وشرائِكَ أنْ تفعلَ وقلَّدَهُ نَجَا».

فيحملُ كلامُ الإمامِ بعدَ أنْ قرَّرَ الاعتقادَ، فقالَ: المعلومُ بالأدلَّةِ القطعيَّةِ وهوَ الصَّادرُ عنِ البراهينِ إنَّمَا أرادَ بهِ المعلومَ للعلماءِ بأدلَّتِهِ، ولمْ يُرِدْ أنَّ كلَّ عاميٍّ إنْ لمْ يُعلِمْهُ مَا يعتقدُهُ بالدَّليلِ فلا ينجِّيهِ ذلكَ عندَ اللهِ، وهذِهِ القاعدةُ إنَّمَا مأخذُهَا الشَّرعُ خاصَّةً، وكلُّ ما بيَّنَ الشَّرعُ أنَّهُ إيمانٌ وحقٌّ اتَّبَعْنَاهُ، وقَدْ وردَ فِي الأخبارِ والآثارِ الصَّحيحةِ الاكتفاءُ بالاعتقادِ الصَّحيحِ(١)، وهذَا أمرٌ معلومٌ مِنْ دِينِ الأمَّةِ أنَّ العوامَّ لمْ يطالَبُوا بالنَّظرِ فِي الأدلَّةِ العقليَّةِ حتَّىٰ يصحَّ إسلامُهُمْ، بلْ اكْتُفِيَ منهُمْ بالاعتقادِ الصَّحيحِ، ولَا معنَىٰ لكونِ اعتقادِهِمْ صحيحًا إلَّا موافقتُهُ لمَا عُرِفَ بالأدلَّةِ القطعيَّةِ والآياتِ النَّاصَّةِ الشَّرعيَّةِ، وَقَدْ رُوِيَ فِي الصَّحيحِ(٢) أنَّ المِقْدَادَ سألَ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّهُ يقاتلُ بعضَ الكفَّارِ ويقاتلُهُ، فيقطعُ الكافرُ يدَهُ ثمَّ يلوذُ منهُ بشجرةٍ ويقولُ: أسلمتُ، أفأقتُلُهُ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تقتلْهُ»، فقالَ: إنَّمَا قالَهَا بعدَ أنْ قطعَ يدِي، أفأقاتِلُهُ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ: «لَا تقتلْهُ، فإنَّكَ [٣/٩٠أ] إنْ قتلْتَهُ كنتَ بمنزلتِهِ قبلَ أنْ يقولَهَا، وهوَ بمنزلتِكَ بعدَ أنْ قالَهَا».

ففِي هذَا الخبرِ الصَّحيحِ الحكمُ لهُ بالإسلامِ لمَّا تلفَّظَ بقولِهِ: «أسلمتُ»، معناهُ: دخلتُ فِي دينِكُمْ، وأعلمَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّكَ إنْ قتلْتَهُ بعدَ أنْ قالَهَا مستحِلًّا لذلكَ كنتَ كافرًا، فإنَّ حرمتَهُ بعدَ أنْ قالَهَا كحرمتِكَ؛ لأنَّ استحلالَ قتلِ

---

(١) قال ابن حجر: «... والاكتفاء في قبول الإيمان بالاعتقاد الجازم، خلافا لمن أوجب تعلم الأدلة» فتح الباري ١/٧٧، وانظر في ذلك: مقالات الإسلاميين ص١٣٥، والفرق بين الفرق ص١٩٣، ودرء التعارض ٧/٤٠٥، وفتح الباري ١/٧٠ ـ ٧١، ١٣/٣٤٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/١٤٧٤ ـ حديث رقم (٣٧٩٤)، ومسلم في صحيحه ١/٩٥ ـ حديث رقم (٩٥).

المسلمِ كفرٌ(١).

وهذَا مستغنٍ عنِ الاستدلالِ بوضوحِهِ فِي زمنِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَّ الأعرابَ الأجلافَ الَّذينَ لمْ ينظرُوا في الأدلَّةِ العقليَّةِ، وإنَّمَا سمِعُوا كلامَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصدَّقوهُ فيمَا أتَىٰ بهِ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ حكمَ لهُمْ بالإسلامِ، وهلمَّ جرًّا فِي كلِّ عصرٍ إلىٰ زمانِنَا، أيْ: مَنْ أتَىٰ منَ الكفَّارِ وأسلمَ ونطقَ بالشّهادتَينِ واعتقدَ معناهُمَا حُكِمَ لهُ بالإسلامِ، وحَرُمَ نسبتُهُ إلىٰ شيءٍ منَ الضَّلالِ في أَصْلِ دينِهِ.

ونرجعُ إلىٰ مَا قالَهُ الإمامُ: «**مِنْ أنَّهُ لا ينبغِي لأحدٍ ممَّنِ انتسبَ إلىٰ التَّصوُّفِ أنْ يميلَ إلىٰ مذهبٍ غيرِ مذهبِهِم، ولَا يقلِّدَ غيرَ أئمَّتِهِم**»، وهذَا بظاهرِهِ يدلُّ علىٰ أنَّ مذهبَهُمْ مخالفٌ لمذاهبِ النَّاسِ، وأنَّ لهُمْ طريقةً خاصَّةً، ولا سيِّمَا وقدْ عضَّدَهُ بيانُ مذاهبِ النَّاسِ؛ أنَّ منهُمْ مشتغلٌ بالنَّقلِ، ومنهُمْ مشتغلٌ بالعقلِ، وهؤلاءِ الأئمَّةُ قدِ ارتفعُوا عنْ هذَا، فليتَ شِعرِي! هلِ ارتفعُوا عَنْ هذَا بعدَ تحصيلِهِ، أوْ أعرضُوا عنهُ وتركُوهُ؟ فإعراضُهُمْ عنهُ محالٌ قطعًا؛ لأنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ إنَّمَا عُرِفَ بالأدلَّةِ العقليَّةِ، وثُبُوتِ الرِّسالةِ والمُعْجزَةِ لذلكَ، وإذَا ثبتَ بالأدلَّةِ العقليَّةِ حدوثُ العالمِ، وأنَّ محدِثَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ، وأنَّهُ لا فاعلَ سواهُ، وأنَّ المعجزةَ الدَّالَّةَ علىٰ صدقِ الأنبياءِ فعلُهُ الخارقُ للعادةِ، وثبتَ صدقُهُمْ فِي جميعِ مَا يخبرونَ بهِ عنِ اللهِ، ونقلِ النَّقلةِ عنهُمْ كتابَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وسنَّةَ رسولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصارَ ذلِكَ معلومًا عندَ العلماءِ، وأنَّهُ الدِّينُ لا شكَّ فيهِ لا غيرُهُ، فليسَ للهِ ـ تعالىٰ ـ طرُقٌ(٢) متعدِّدةٌ امتازَ بهَا بعضُ النَّاسِ دونَ بعضٍ، بلِ للهِ ـ تعالىٰ ـ طريقٌ(٣) واحدةٌ، وهيَ الَّتِي أوجبَ علَىٰ عبادِهِ أنْ يسألُوهُ [٣/٩٠ب] إيَّاهَا فِي صلواتِهِم، وهوَ قولُهُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

---

(١) انظر: شرح النووي علىٰ صحيح مسلم ٢/١٠٦، ومرقاة المفاتيح ٧/٨.

(٢) في الأصل: طريق، والصواب المثبت.

(٣) الطريق: يذكر ويؤنث. انظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ص٨٥.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقولُهُ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقواعدُ المسلمِينَ كلِّهُمْ ـ أعنِي أهلَ الحقِّ قواعدُهُمْ ـ واحدةٌ، وقَدْ صُدِّرَ مِنْ ذلِكَ فِي أوَّلِ الرِّسالةِ، ونُقِلَ مِنْ أقوالِهِمْ مَا فيهِ كفايةٌ[1].

وإِذَا اتَّفَقَ النَّاسُ أجمعونَ فِي الأُصولِ يدلُّ علَىٰ أنَّ اختلافَهُمْ بعدَ اتِّفاقِهِمْ علىٰ الأُصولِ الواجبةِ إِنَّمَا اختلفُوا فِي الفروعِ الَّتِي يصحُّ الاختلافُ فيهَا:

فطائفةٌ جعلُوا همَمَهُمْ حفظَ الشَّريعةِ؛ لصحَّةِ الأعمالِ فِي سائرِ مَا كلَّفَ الشَّرعُ النَّاسَ بهِ؛ مِنْ صومِهِمْ وصَلاتِهِم، وبَيْعِهِم وشرائِهِم وَسَائِرِ ما تضمَّنَتْهُ الشَّريعةُ، ورأَوا أنَّ ذلكَ أهمَّ أمورِهِم، وهوَ آكدُ مِنْ تفرُّغِهِم لنوافلِ العباداتِ.

وطائفةٌ اشتغلُوا بحفظِ قواعدِ الدِّينِ وأصولِهِ العقليَّةِ حفظًا لقواعدِ دينِ الإسلامِ، وردًّا علىٰ أهلِ الشُّبهِ والضَّلالِ أعداءِ الدِّينِ، ورأَوا أنَّ هذَا أهمُّ أمورِهِم.

وطائفةٌ اشتغلُوا بالإقبالِ علَىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ودوامِ الذِّكرِ والفِكْرِ والمناجاةِ معَهُ، والتَّحسُّسِ لمَا يطرقُ قلوبَهُم منَ الخَواطِرِ الرَّديئةِ؛ كالرِّياءِ والعُجْبِ والكِبْرِ والحسدِ وغيرِ ذلِكَ؛ ليتخلَّصُوا مِنْ شرِّهَا، وما يردُ علىٰ قلوبِهِمْ منَ الصِّدقِ والإخلاصِ والورعِ والزُّهدِ والتَّوكُّلِ والتَّسليمِ والرِّضَىٰ والمحبَّةِ، وغيرِ ذلكَ منَ الأخلاقِ المحمودةِ، فاشتغلَ به هؤلاءِ، فلمَّا قلَّ اشتغالُهُمْ بغيرِ مَا هُمْ فيهِ، وقلَّتْ غفلتُهُم عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وعنِ الخواطرِ الواردةِ علىٰ قلوبِهم علَىٰ ما ذكرْنَاهُ منَ التَّفصيلِ، فكلُّ مَنْ قصدَ مَقصدَهُمْ ولم يكنْ أهلًا لحفظِ فروعِ الشَّريعةِ الَّتِي قامَ بهَا العلماءُ، ولا أَهْلًا للنَّظرِ فِي دقائقِ الأمورِ العقليَّةِ، فاشتغالُهُ بمَا يختصُّ بالعلومِ القلبيَّةِ والبدنيَّةِ الخاصَّةِ بهِ وقلَّةُ غفلتِهِ عنهَا، واستشعارُهُ نظرَ الحقِّ إليهِ فيهَا أولَىٰ بهِ، ولا يلزمُ إذَا كانَ هذَا هوَ الأَوْلَىٰ بهِ أنْ يكونَ ما اشتغلَ بهِ أفضلَ ممَّا اشتغلَ بهِ

(١) الدلالة ١/١٢٦.

الفقهاءُ والأصوليُّونَ.

وإنَّمَا قلنَا: إنَّهُ الأَوْلَىٰ به؛ لعجزِهِ عنِ القيامِ بمَا قامَ بهِ العلماءُ الكاملُونَ؛ الَّذينَ قامُوا بأصولِ الشَّريعةِ وفروعِهَا كلِّهَا، وليسُوا خالين منَ الاشتغالِ [١٩١/٣أ] بعمارةِ بواطنِهِم؛ من تحصيلِ الأخلاقِ المحمودةِ، والبُعدِ عنِ الأخلاقِ المذمومةِ، ومُرَاقَبَةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عندَ أفعالِهم، بَلْ بمرَاقبةِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ عندَ أقوالِهِمْ وحركاتِهِمْ وسكونِهِمْ فِي جميعِ ما هُمْ فيهِ، وإنَّمَا يكثُرُ بحثُهُمْ فِي الفنِّ الَّذي احتاجَ النَّاسُ إليهِ وتعَالَوا هُمْ عنهُ.

ومَنْ بحثَ فِي كتبِ العلماءِ وأَسئلتِهِم؛ كمالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ والشَّافعيِّ وأحمدَ وسفيانَ وغيرِهِمْ منَ العلماءِ، واطَّلعَ علىٰ أخبارِهِمْ وجدَهُمْ قَدْ قامُوا بجملةِ الشَّريعةِ؛ أُصُولِهَا وفروعِهَا، ورَاعَوا بواطِنَهُمْ وظواهِرَهُمْ معَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أكملَ مراعاةٍ، وما جعلَ العلماءُ مِنْ أهلِ هذهِ الطَّائفةِ لأحدٍ منَ العوامِّ أنْ يقتدِيَ إلَّا لمَنْ صَارَ أهْلًا للاقتداءِ، ولذلِكَ قالُوا[١]: «اقتدَوا بخمسةٍ منْ شيوخِنَا، والباقُونَ سلِّمُوا إليهِمْ أحوالَهُمْ»، فذكرُوا: الحارثَ بنَ أسدٍ المحاسبِيَّ، والجُنيدَ، وابنَ عطاءٍ، ورُوَيمًا، وعَمرَو بنَ عثمانَ المكِّيَّ؛ لأنَّهُمْ جمعُوا بينَ العلومِ والحقائقِ.

فيُحملُ كلامُ هذَا الإمامِ فِي وصيَّتِهِ علَىٰ أنَّهُ متَىٰ وجدَ المريدُ مَنْ كمُلَ فِي سائرِ العلومِ فِي الباطنِ والظَّاهرِ، وجازَ الاعتمادُ علَىٰ قولِهِ فلَا يُقلِّدُ غيرَهُ، ولذلِكَ قالَ: وإنَّمَا يتركُ تقليدَهُمْ ويرجعُ إلىٰ مَنْ سِوَاهُمْ مَنْ جهلَ ما هُمْ فيهِ ومراتِبَهُمْ فِي العلمِ والتَّحقيقِ، هذَا معنَىٰ كلامِهِ دونَ لفظِهِ.

ومَا أوردَهُ الإمامُ مِنْ قضيَّةِ شيبانَ الرَّاعِي معَ أحمدَ بنِ حنبلٍ والشَّافعيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فالَّذي أرادَهُ أحمدُ أنْ ينبِّهَ بشيبانَ الرَّاعِي علَىٰ الاشتغالِ بمَا يلزمُهُ تحصيلُهُ

(١) سبق تخريجه في الدلالة ١/٢٣٣.

منَ العلمِ فِي فرضِ عينِهِ، فأخبَرَهُ الشَّافعيُّ أنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يحفظُهُمْ مِنْ أنْ يخلُوا بمَا لا بُدَّ لهُمْ منهُ، فلمَّا سألَهُ أحمدُ عمَّنْ نسِيَ صلاةً منْ خمسِ صلواتٍ فِي يومٍ وليلةٍ لمْ يدرِ أيَّهَا، فأرادَ أنْ يفهمَ ما عندَ شيبانَ، فقالَ لهُ شيبانُ: القلوبُ إذَا كانَتْ مشتغلَةً باللهِ ـ تعالىٰ ـ وبمَا يلزمُهَا مِنْ عباداتِهِ بعُدَ منها الوقوعُ فِي مثلِ هذهِ المسائلِ، وعبَّرَ عنهُ بعبارةٍ غيرِ هذَا وهوَ أنَّهُ قالَ: «**هذَا قلبٌ غفلَ عن اللهِ ـ تعالىٰ ـ فيستحقُّ الأدبَ**»، فوجدَ أحمدُ لكلامِ [٩١/٣ب] شيبانَ أثرًا حتَّىٰ غشِيَ عليهِ.

فخرجَ مِنْ مجموعِ هذهِ الحكايةِ أنَّ شيبانَ ـ وإنْ كانَ منَ الصَّالحينَ وعوامِّ أهلِ هذِهِ الطَّائفةِ ـ أجرَىٰ اللهُ علىٰ لسانِهِ الحقَّ حتَّىٰ انتفعَ العلماءُ، فكيفَ بالعلماءِ مِنْ أهلِ هذِهِ الطَّائفةِ ؟!

وهذَا لا إشكالَ فيهِ أنَّ مَنْ دامَ شغلُهُ باللهِ ـ تعالىٰ ـ، ومراعاةِ أحكامِهِ، واستشعارِ نَظَرِ الحقِّ إليهِ في سَائرِ تصرُّفاته؛ مِنْ حركتِهِ وسُكُونِهِ ـ، فضْلًا عَنْ كَلامِهِ ـ أنَّهُ أفضلُ مِنْ غيرِهِ وإنْ تساوَيَا فِي العِلمِ بالأصولِ والفروعِ[(١)]، إلَّا أنَّ أحدَ الرَّجلَينِ اشتغلَ بالعملِ بسائِرِ ما علِمَهُ منَ الفضائلِ والآدابِ، والآخرَ علِمَ ذلكَ، وإنَّمَا عمِلَ بمَا يجبُ عليهِ ولمْ يشتغِلْ بمراعاةِ حركاتِهِ وسكناتِهِ، وطلبِ الأفضَلِ والأَوْلَىٰ فِي ذلِكَ واستشعارِ نظرِ الحقِّ إليهِ.

وقَدْ صَرَّحَ الخبَرُ الصَّحيحُ فِي (**مسلم**)[(٢)] ببيانِ درجاتِ المؤمنِ، فذكَرَ الإسلامَ والإيمانَ والإحْسَان، وجعلَهُ أعلَىٰ الدَّرجاتِ، فمتَىٰ كانَ الإنسانُ مسلمًا منقادًا لأوامرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وكذلِكَ مؤمنًا باللهِ ـ تعالىٰ ـ وملائكتِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ، والقدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ، وَقَدْ حصلَ فِي هاتَينِ المنزلتَينِ: الإيمانِ والإسلامِ

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٠٦٢/٢.

(٢) ٣٦/١، ٣٩ ـ حديث (٨، ٩).

جملةُ الشَّريعةِ المتعلِّقةِ بالقلوبِ والجوارحِ، ثمَّ قالَ فِي الرُّتبةِ الثَّالثةِ: «أنْ يعبدَ اللهَ العبدُ كأنَّهُ يرَاهُ وإنْ لمْ يكنِ العبدُ يرَاهُ فالحقُّ يرَاهُ».

فَقَدْ جعَلَ الشَّرْعُ مَا تقدَّمَ منَ العبادةِ فِي درجاتِ الإسلامِ والإيمانِ معَ استشعارِ نظَرِ الحقِّ أفضلَ منَ العملِ بمجرَّدِ النِّيَّةِ خاصَّةً، فبهذَا الاعتبارِ امتازَ أهلُ هذِهِ الطَّائفةِ بشرطِ أنْ يساوُوا النَّاسَ فيمَا هُمْ فيهِ، وامتازُوا عنهُمْ بهذَا الوَصْفِ، وإلَّا متَى اشتغلَ قومٌ بحفظِ الفروعِ، وهوَ فرضُ كفايةٍ، واشتغلَ غيرُهُمْ بالنَّوافلِ، كانَ مَنِ اشتغلَ بفرضِ الكفايةِ أفضلَ.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١]: **«وَقَدْ حُكِيَ[٢] أَنَّ فَقِيهًا مِنْ أَكَابِرِ الْفُقَهَاءِ كَانَتْ حَلْقَتُهُ بِجَنْبِ حَلْقَةِ الشِّبْلِيِّ بِجَامِعِ الْمَنْصُورِ، وَكَانَ يُقَالُ لِذَلِكَ الفَقِيهِ: أَبُو عِمْرَانَ، فَكَانَ تَتَعَطَّلُ عَلَيْهِمْ حَلْقَتُهُمْ لِكَلَامِ الشِّبْلِيِّ[٣].**

فَسَأَلَ أَصْحَابُ أَبِي عِمْرَانَ يَوْمًا [٣/١٩٢أ] الشِّبْلِيَّ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِي الحَيْضِ ـ وَقَصَدُوا إِخْجَالَهُ ـ، فَذَكَرَ مَقَالَاتِ النَّاسِ فِي تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ وَالخِلَافَ فِيهَا، فَقَامَ أَبُو عِمْرَانَ وَقَبَّلَ رَأْسَ الشِّبْلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، **وَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ؛ اسْتَفَدْتُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَشْرَ مَقَالَاتٍ[٤] لَمْ أَسْمَعْهَا، وَكَانَ عِنْدِي مِنْ جُمْلَةِ مَا قُلْتَ ثَلَاثَةُ أَقَاوِيلَ».**

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وهذَا الَّذِي أشرْنَا إليهِ فِي قصَّةِ شيبانَ الرَّاعِي مِنْ أنَّ الصَّالحينَ منهُمْ ـ سواءٌ كانُوا عُلَمَاءَ أوْ عوامَّ ـ لا يهملُونَ ما يجبُ عليهِم معرفتُهُ؛ إمَّا بالاستفتاءِ والسُّؤالِ، أوْ بالبحثِ والعِلمِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٢.

(٢) وردت هذه الحكاية في: تاريخ بغداد ١٤/٣٩٥، وروض الرياحين ص٣٢، ومسالك الأبصار ٥/١٥٢.

(٣) برفع صوته.

(٤) أي: في بيان حكمها.

وأمَّا كونُ أصحابِ الفقيهِ أبِي عمرانَ سألُوا أبَا بكرٍ الشِّبْلِيَّ فِي مسألةٍ ليُخجلُوهُ، فهذَا مِنْ أينَ يَدْرِي أنَّهُمْ قصدُوا إخجالَهُ، ولعلَّهُمْ سألُوهُ ليعلَمُوا ما عندَهُ، ولا سيَّمَا إذا كانَ بارعًا فِي فنونٍ أُخرَ، أدركُوا ذلكَ منهُ، وشدَّةَ ذكائِهِ وملاحظتَهُ لجهاتٍ كثيرةٍ ممَّا يتكلَّمُ فيهِ منَ المسائلِ في فنِّهِ، ويكونُ سُؤالُهُمْ ليعرفُوا ما عندَهُ فِي هذَا الفنِّ منَ الفروعِ، فلمَّا أجابَهُمْ بمَا ذكرَ منَ الجوابِ عرف فضلَهُ شيخُهُمْ، وقبَّلَ رأسَهُ، وبيَّنَ لهُ ما استفادَ منهُ زيادةً علىٰ مَا عندَهُ.

وهذَا هوَ المعهودُ فِي كلِّ زمانٍ، وفِي زمانِنَا لمْ يزلِ العلماءُ بالشَّريعةِ يعرفُ بعضُهُمْ فضيلةَ الزَّاهدِ منهُم، والمُعْرِضِ عنِ الدُّنيَا، والمُشتغلِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وبذِكْرِهِ، وقلَّةَ الفضولِ فيمَا ليسَ هوَ محتاجًا إليهِ، بَلْ فِي المُحْتَاجِ إليهِ، ويعرفُونَ فضْلَهُ ويُعظمونَهُ، هذَا لا إِشْكَالَ فيهِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: **«وَقِيلَ[(٢)]: اجْتَازَ أَبُو العَبَّاسِ بْنُ شُرَيْحٍ الفَقِيهُ** رَحِمَهُ اللَّهُ **بِمَجْلِسِ الجُنَيْدِ، فَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَقِيلَ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا؟ فَقَالَ: لَا أَدْرِي مَا أَقُولُ[(٣)]، وَلَكِنْ أَرَىٰ لِهَذَا الكَلَامِ صَوْلَةً لَيْسَتْ بِصَوْلَةِ مُبْطِلٍ»**.

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **وروحُ هذهِ الحكايةِ**: أنَّهُ سمِعَهُ يتكلَّمُ فِي الأحوالِ والمَقَامَاتِ وَمَوَاجِيدِ القُلُوبِ واختلافِهَا فيمَا يفتحُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهَا فيهِ، فَسَمِعَ [٩٢/٣ب] كلامًا لمْ يعرِفْهُ ولا اشتغلَ بهِ، فأقرَّ بالحقِّ إلَّا أنَّهُ قالَ: «**أَرَىٰ لَهُ صَوْلَةً**[(٤)]» وقوَّةَ نفسٍ واستدلالًا يبيِّنُ أنَّهُ صادقٌ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٢.

(٢) ورد في: الإرشاد والتطريز ص١٠٣، وروض الرياحين ص٣٢، وإعلام الموقعين ١/١٧٧، والأمثال في القرآن ص٤٢، وتشنيف المسامع بجمع الجوامع ٢/٣٥٨.

(٣) في (ف): يقول.

(٤) أي: وثبة.

وروحُ هذهِ **الحكايةِ**: أنَّ هذَا العالِمَ الَّذِي هوَ ابنُ شُريحٍ اعترفَ بكونِهِ سمعَ كلامًا غلبَ على ظنِّهِ صحَّتُهُ وصِدْقُهُ ولمْ يعتَرِضْ عليهِ، وهذَا لمْ يمكنْهُ الاعتراضُ علَىٰ مَا لمْ يفهَمْهُ، فليسَ فِي هذهِ الحكايةِ دليلٌ علىٰ تصحيحِ ما سمِعَهُ، وإنَّمَا لمْ يعتَرِضْ ولمْ يفهَمْ ما قالَ.

وفيهِ تسليمُهُ خاصَّةً للحالةِ الَّتِي رأىٰ الجُنيدَ عليهَا مِنَ الصِّدقِ، ودلَّ ذلكَ علىٰ فضيلةِ ابنِ شُرَيحٍ لتسليمِهِ الحقَّ لأهلِهِ علَىٰ ظَنِّهِ[(١)].

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: **«وَقِيلَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كُلَّابٍ: أَنْتَ تَتَكَلَّمُ عَلَىٰ كَلَامِ كُلِّ وَاحِدٍ، وَهاهُنَا رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: الجُنَيْدُ فَانْظُرْ هَلَ تَعْتَرِضُ عَلَيْهِ أَمْ لَا؟**

فَحَضَرَ حَلْقَتَهُ، فَسَأَلَ الجُنَيْدَ عَنِ التَّوْحِيدِ فَأَجَابَهُ، فَتَحَيَّرَ عَبْدُ اللهِ وَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ مَا قُلْتَ، فَأَعَادَ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِتِلْكَ العِبَارَةِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: هَذَا شَيْءٌ آخَرُ لَمْ أَحْفَظْهُ! تُعِيدُ عَلَيَّ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَأَعَادَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَىٰ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: لَيْسَ يُمْكِنُنِي حِفْظُ مَا تَقُولُ، أَمْلِهِ عَلَيْنَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ اخْتَرْتَهُ[(٣)] فَأَنَا أُمْلِيهِ، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ وَقَالَ بِفَضْلِهِ، وَاعْتَرَفَ بِعُلُوِّ شَأْنِهِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا فيهِ روحٌ؛ فإنَّ عبدَ اللهِ بنَ كُلَّابٍ مِنَ المتكلِّمينَ فِي عِلم [الأصُول][(٤)]، فسألَ الجُنيدَ عنِ التَّوحيدِ وهوَ عينُ المقصودِ، وقدْ

---

(١) أي: بحسب ما غلب علىٰ ظنه، وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٦٢.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٢ ـ ٥٧٣.

(٣) في (ف): أجريه، وفي إحكام الدلالة ٢/١٠٦٣: «أجزته».

(٤) طمس موضعها في الأصل، وكتب الناسخ في الحاشية: «لعله: الأصول، صح»، وهو صواب، ويقرره قوله بعده: «أنَّهُ أحاطَ مِنْ عِلمِ الأصولِ بمَا علِمَهُ ابنُ كُلَّابٍ»، والقصد: علم أصول الدين، ويطلق أيضًا علىٰ علم الكلام، وقد نص المؤلف علىٰ ذلك فيما يأتي بقوله: «ومَنْ غلبَ عليهِ الاشتغالُ بفنِّ الكلامِ؛ وهوَ أصولُ الدِّينِ».

تقدَّمَ[1] أنَّ علمَ التَّوحيدِ مباينٌ لوجودِهِ، ووجودَهُ مباينٌ لعِلْمِهِ، والَّذِي يفهمُهُ المتكلِّمُ علمُ التَّوحيدِ والَّذِي يغمُضُ عليهِ الكلامُ فِي حالِ التَّوحيدِ، كمَا قالَ بعضُهُمْ[2]: «ما رأيتُ شيئًا حتَّىٰ رأيتُ اللهَ قبلَهُ»، وبعضُهُمْ: «ما رأيتُ شيئًا حتَّىٰ رأيتُ اللهَ معَهُ»، فإذَا تكلَّمَ الجُنيدُ فِي التَّوحيدِ بالنِّسبةِ إلىٰ حالِ المُوحِّدِ كمَا قالَ غيرُهُ[3]:

مَا وَحَّدَ الوَاحِدَ مِنْ وَاحِدِ ❁ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ
تَوْحِيدُ[4] مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ ❁ عَارِيَةٌ أَبْطَلَهَا الوَاحِدُ [٣/١٩٣أ]
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ ❁ وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لَاحِدُ

فروحُ هذهِ الأبياتِ تُشِيرُ إلىٰ أنَّ كلَّ مَنْ وحَّدَ الحقَّ فهوَ ملتفتٌ لنفسِهِ، فهوَ بهذَا الاعتبارِ جاحدٌ لكونِهِ أثبتَ غَيْرًا، وكمالُ التَّوحيدِ أنْ يشتغلَ بهِ حتَّىٰ يغيبَ مَنْ سِواهُ عنِ القلبِ، هذَا حالُ التَّوحيدِ، فإذَا تكلَّمَ الجُنيدُ فِي حالِ التَّوحيدِ عسُرَ فهمُهُ علىٰ مَنْ يتأنَّسُ بهِ، فإنْ طلبَ منهُ الإعادةَ تغيَّرَتِ العبارةُ عنِ المعنَىٰ المذكورِ أوَّلًا، والمقصودُ منَ العبارةِ فهمُ المعنَىٰ، وإذَا لمْ يفهمِ المعنَىٰ مِنَ العبارةِ الأُولَىٰ كذلِكَ إذَا طابقتْهَا العبارةُ الثَّانيةُ، فاعترَفَ ابنُ كُلَّابٍ بفضيلةِ الجُنيدِ، وأنَّهُ أحاطَ مِنْ عِلمِ الأصولِ بمَا علِمَهُ ابنُ كُلَّابٍ وزادَ عليهِ زيادةً أُخرَىٰ، وهكذَا شأنُ العلماءِ الفضلاءِ أنْ يرجعُوا إلىٰ الحقِّ، ويقرُّوا بفضيلةِ مَنِ امتازَ عنهُم[5].

---

(١) الدلالة ١/١٤٠.

(٢) سبق تخريج هذا القول والذي يليه.

(٣) من البسيط، وورد في: منازل السائرين ص١٣٩، ومدارج السالكين ١/١٤٧، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٩٨، ومرقاة المفاتيح ١/١١٣.

(٤) في الأصل: توحيده، والصواب المثبت؛ كما في مظان تخريجه، وحتىٰ لا ينكسر وزن البيت.

(٥) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٦٣.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «فَإِذَا كَانَتْ أُصُولُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ أَصَحَّ الأُصُولِ، وَمَشَايِخُهُمْ أَكْبَرَ النَّاسِ، وَعُلَمَاؤُهُمْ أَعْلَمَ النَّاسِ، فَالمُرِيدُ الَّذِي لَهُ إِيمَانٌ لَهُمْ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السُّلُوكِ وَالتَّدَرُّجِ[٢] إِلَى مَقَاصِدِهِمْ، فَهُوَ يُسَاهِمُهُمْ فِيمَا خُصُّوا بِهِ مِنْ مُكَاشَفَاتِ الغَيْبِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّطَفُّلِ عَلَى مَنْ هُوَ خَارِجٌ عَنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَإِنْ كَانَ مُرِيدًا طَرِيقَةَ الاتِّبَاعِ، وَلَيْسَ بِمُسْتَقِلٍّ بِحَالِهِ، وَيُرِيدُ أَنْ يَعْرُجَ فِي أَوْطَانِ التَّقْلِيدِ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى التَّحْقِيقِ، فَلْيُقَلِّدْ سَلَفَهُ، وَلْيَجْرِ[٣] عَلَى طَرِيقَةِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ؛ فَإِنَّهُمْ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِهِم.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيَّ[٤] رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: [سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ][٥]: سَمِعْتُ الشِّبْلِيَّ يَقُولُ: مَا ظَنُّكَ بِعِلْمٍ عِلْمُ العُلَمَاءِ[٦] فِيهِ تُهَمَةٌ؟!

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ المَخْرَمِيَّ[٧] يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الفَرْغَانِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُولُ[٨]: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ للهِ ـ تعالى ـ عِلْمًا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ[٩] أَشْرَفَ مِنْ هَذَا العِلْمِ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ مَعَ أَصْحَابِنَا وَإِخْوَانِنَا[١٠] لَسَعَيْتُ إِلَيْهِ وَلَقَصَدْتُهُ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٣.

(٢) في الأصل: والتدريج، والتصويب من الرسالة القشيرية.

(٣) في الأصل: والإجراء، والتصويب من الرسالة القشيرية.

(٤) طبقات الصوفية ص٢٥٨، وورد أيضا في: اللمع للطوسي ص٢٤١، ومناقب الأبرار ٢/٦٣٦.

(٥) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية، ومظان توثيق قوله.

(٦) أي: الذين لم يبلغوا درجة أهله سماعهم له فيه تهمة؛ لأنهم لم يفهموا مقاصد أهله، فيقعوا فيما لا ينبغي فيتهمهم غيرهم.

(٧) في الأصل: المخزومي، والتصويب من القشيرية.

(٨) ورد قوله في: تاريخ بغداد ٧/٢٤٣، والأنساب ٤/٥٥٦، والمختار من مناقب الأخيار ١/٣٣٣.

(٩) أي: وجهها.

(١٠) أي: الصوفية.

* قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تقسيمُ الإمامِ حالَ السَّالكِ الطَّالبِ طريقةَ هؤلاءِ الأئمَّةِ إلىٰ قسمَينِ: إمَّا أنْ يكونَ قاصدًا لنَيلِ أحوالِهِم [٣/٩٣ب]، ومنازلاتِهِم فِي مقاماتِهِم، ومَا نالُوهُ مِنْ ربِّهِمْ مِنْ تفاوتِ درجاتِ قربِهِم، فهوَ لأجلِ هذَا المعنَىٰ عندَ غيرِهِمْ، فهُمْ أحقُّ النَّاسِ بهِ؛ لأنَّهُمْ قدْ نازلُوهُ منازلَهُ، وعرَفُوا درجاتِهِ تفصيلًا وجُملةً.

وإنْ كانَ هذَا الطَّالبُ مِنْ أهلِ التَّقليدِ المشتغلِ بالأورادِ، وعمارةِ الأوقاتِ، والانتقالِ عنِ الأخلاقِ الذَّميمةِ، والاشتغالِ بتحصيلِ الأخلاقِ الحميدةِ، فأجدُ ذلكَ عنهُمْ والرجوعَ فيهِ إليهِمْ أحقَّ منْ غيرِهِمْ وأولَىٰ.

فخرجَ مِنْ مجموعِ ذلكَ أنَّ رجوعَ المريدِ إلىٰ غيرِ علماءِ هذهِ الطَّائفةِ جهلٌ وتفريطٌ، وَحَيْدٌ عَنْ مقصدِهِ الَّذي يَبْتَغِيهِ، وهذَا الَّذِي ذكرَهُ الإمامُ صحيحٌ إذَا استكملَتِ المشايخُ الشُّروطَ المُعْتَبَرَةَ فِي التَّقليدِ؛ منْ كمالِ العلمِ والعدالةِ، ونعنِي بالعلمِ: قواعدَ الأحكامِ وأصولَهُ، ومعرفةَ الكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ، ومَا استندَ إلىٰ هذهِ الأصولِ، فإنَّهُ لا يوصَفُ مقامٌ ولا حالٌ ولَا مكاشفةٌ ولَا إلهامٌ بالصِّحَّةِ ولا بالكمالِ إلَّا إذَا عاضدَهُ وشهدَ له دليلٌ منْ أدلَّةِ الأحكامِ، فإنَّهُ لا فاضلَ ولا حسَنَ إلَّا ما حسَّنَتْهُ الشَّريعةُ وفضَّلَتْهُ، ولوْ وقعَ الاعتمادُ علَىٰ ما يُنَازِلُهُ العبدُ ويدركُهُ بنفسِهِ وبمجاهدَتِهِ وكانَتِ الفضيلةُ لهُ؛ لكونِهِ نالَهُ بنفسِهِ، ووهبَهُ لهُ ربُّهُ خاصَّةً لمْ يلتفِتْ إلَىٰ ما يعضِّدُهُ منَ الأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ لاطَّردَ ذلكَ عندَ أهلِ كلِّ بدعةٍ وضلالٍ؛ منَ الحلوليَّةِ والمُرجئةِ والقدريَّةِ والجبريَّةِ والحَشَويَّةِ، وأهلِ كلِّ فنٍّ ممَّا أدركُوهُ بعقولِهِمْ كسْبًا، أوْ فُتِحَ لهُمْ بهِ إلهَامًا، ووجدُوهُ ذوقًا ومنازلةً، هذَا لا يلتفتُ إليهِ أصلًا، بلْ لا فاضلَ مِنْ مقامٍ ولَا حالٍ ولا مُكَاشَفَةٍ ولا إلهامٍ إلَّا ما شهِدَتِ الشَّريعةُ لهُ بالصِّحَّةِ والفضْلِ عندَ اللهِ، وقدْ قدَّمْنَا أنَّ خوارقَ العاداتِ لا تكونُ كرامةً إلَّا إذَا شهِدَتْ لهَا الاستقامةُ، وحملَتْ علَىٰ قوَّةِ اليقينِ وأعمالِ المتَّقينَ.

فخرجَ مِنْ مجموعِ ما نحنُ فيهِ أنَّ الكاملَ مَنْ شهِدَتِ الشَّريعةُ بكمالِهِ؛ وهوَ الَّذِي يجبُ أنْ يقلَّدَ، ويُرجَعُ [١٩٤/٣ا] إليهِ، ولا يُنْكَرُ أنَّ كلَّ مَنِ اشتغلَ بفنٍّ مِنْ فُنُونِ الشَّريعةِ وأخذَهُ مِنْ أصولِهِ، وفرَّعَهُ علَىٰ حسبِ ما جرَتْ عليهِ فروعُهُ ممَّا تَقْتَضِيهِ أدلَّتُهُ أَعْلَمُ بهذَا الفنِّ ممَّنْ قلَّتْ ممارستُهُ لهُ، وبحثُهُ فِي تفاصيلِ فروعِهِ، وهذَا موجودٌ معلومٌ منْ أحوالِ الفقهاءِ.

ومَنْ غلبَ عليهِ الاشتغالُ بفنِّ الكلامِ ـ وهوَ أصولُ الدِّينِ ـ، وتكرَّرَ بحثُهُ فيهِ، ومجاراةُ أهلِ فنِّهِ، كانَ أبصَرَ بالخطأِ والصَّوابِ فيهِ مِنْ غيرِهِ.

وكذلِكَ القولُ فِي أصولِ الفقهِ؛ معرفةُ صحيحِ الأقيسةِ وفاسدِهَا، وما يُقْبَلُ منْ أخبارِ الآحادِ ومَا لا يُقْبَلُ، وغيرُ ذلكَ ممَّا يتعلَّقُ بأصولِ الفقهِ.

وكذلِكَ القولُ فِي الفُرُوعِ؛ فمنهَا ما هوَ متعلِّقٌ بأفعالِ القلوبِ؛ وهيَ الصِّفاتُ المحمودةُ والمذمومةُ؛ كالتَّوبةِ والخوفِ والصَّبْرِ والصِّدقِ والورَعِ والزُّهدِ والتَّوكُّلِ والرِّضَا والتَّسليمِ، وغيرِ ذلكَ منَ الصِّفاتِ المحمودةِ، وكذلِكَ الرِّياءُ والعُجْبُ والكِبْرُ والحَسَدُ والشَّماتةُ وسُوءُ الظَّنِّ، وغيرُ ذلكَ منَ الصِّفاتِ المذموماتِ، والبحثُ فِي تفاصيلِ فروعِ كلِّ بابٍ منْ هذِهِ الأبوابِ فهوَ أفقهُ النَّاسِ فيهَا، وأعلمُهُمْ بخلافِ مَنْ لمْ يمارِسْهَا، وعدمَهَا علَىٰ الجُملةِ، ولَمْ يشتغِلْ بهَا دهرَهُ، كذلِكَ القولُ فِي غيرِهَا منَ الفروعِ المتعلِّقةِ بالمعاملاتِ والمُناكَحَاتِ والسّلمِ والقِرَاضِ وغيرِ ذلِكَ.

فمَنِ اشتغلَ بفنٍّ ودامَ شغلُهُ بهِ كانَ أبصَرَ النَّاسِ فيهِ، وأحقَّهُمْ بالرُّجوعِ إليهِ، وإنْ وُجِدَ كاملٌ منَ النَّاسِ فِي كلِّ فنٍّ فهوَ الغايةُ القُصْوَىٰ، ولا سيَّمَا إذَا اجتمعَ لهُ كمالُ الدِّينِ والعلمُ، والإعراضُ عنِ الدُّنيَا، ودوامُ اشتغالِهِ بذِكْرِ المَولَىٰ، فحفظُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ لهُ بتوالِي نعمِهِ عليهِ المُتوارِدَةِ، فإنَّهُ قامَ بواجباتِهِ عليهِ، وتراقَىٰ في

درجاتِ مندوباتِهِ حتَّىٰ أحبَّهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ، ومَنْ أحبَّهُ حفظَهُ فِي سَائِرِ أعضائِهِ، كمَا قالَ فِي الخبَرِ الصَّحيحِ[(١)]: «كنتُ سمعَهُ وبصرَهُ ومؤيِّدَهُ».

❁ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]: **«وَإِذَا أَحْكَمَ المُرِيدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ عَقْدَهُ، فَيَجِبُ أَنْ يُحَصِّلَ مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ ـ إِمَّا [٣/٩٤ب] بِالتَّحْقِيقِ، وَإِمَّا بِالسُّؤَالِ عَنِ الأَئِمَّةِ ـ مَا يُؤَدِّي فَرْضَهُ، فَإِنِ اخْتَلَفَ عَلَيْهِ فَتَاوَىٰ الفُقَهَاءِ يَأْخُذُ بِالأَحْوَطِ، وَيَقْصِدُ أَبَدًا الخُرُوجَ مِنَ الخِلَافِ؛ فَإِنَّ الرُّخَصَ فِي الشَّرِيعَةِ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَصْحَابِ الحَوَائِجِ وَالأَشْغَالِ، وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ لَيْسَ لَهُمْ شُغْلٌ سِوَىٰ القِيَامِ بِحَقِّهِ ـ سبحانه ـ، وَلِهَذَا قِيلَ: إِذَا انْحَطَّ الفَقِيرُ عَنْ دَرَجَةِ الحَقِيقَةِ إِلَىٰ رُخْصَةِ الشَّرِيعَةِ فَقَدْ فَسَخَ عَقْدَهُ مَعَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ[(٣)]، وَنَقَضَ عَهْدَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ[(٤)]»**.

❁ **قَالَ الشَّـارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما ذكرَهُ الشَّيخُ هاهُنَا مِن أنَّ المريدَ بعدَ أنْ يحصِّلَ اعتقادًا صحيحًا فِي اللهِ وفِي رسولِهِ يحتاجُ أنْ يعرفَ ما يلزمُهُ مِنْ فَرْضِ عينِهِ؛ ممَّا يتعلَّقُ بصلاتِهِ وصومِهِ وطعامِهِ، وما يقربُ لهُ وقوعُهُ علىٰ اختلافِ أحوالِهِ؛ إمَّا بالتَّقليدِ، أوْ بالتَّحصيلِ.

ويعنِي بالتَّحصيلِ: أَنْ يكونَ طالبًا للعلمِ يأخذُهُ مِنَ العلماءِ بالبحثِ وأدلَّتِهِ، أوْ بالتَّقليدِ لهُم إنْ لمْ يكُنْ أهلًا لذلِكَ، فإنِ اختلفُوا عليهِ[(٥)] أخذَ بالأحوطِ، وهذَا الَّذِي فيهِ تفصيلٌ؛ وذلكَ أنَّ أهلَ الأصولِ اختلفُوا: هَلْ علىٰ العامِيِّ أنْ يطلبَ الأرجحَ والأعلمَ والأدينَ فيمَنْ يقلِّدُهُ؟ ويتنزَّلُ العلماءُ عندَهُ بمنزلةِ الأدلَّةِ، فإذَا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٣.

(٣) أي: عزمه وتصميمه.

(٤) انظر: رياضة النفس للترمذي ص١٠ ـ ط/العلمية.

(٥) أي: اختلفت عليه في جواب السؤال فتاوىٰ الفقهاء.

عِلمَ أنَّ شخصًا أفقهُ وأديَنُ لمْ يجزْ لهُ تركُهُ والرُّجوعُ إلىٰ مَنْ هوَ دونَهُ(١).

والقولُ الثَّانِي: أنَّ نصبَ العلماءِ والحكماءِ والمفتِينَ راجعٌ إلىٰ السُّلطانِ، ولا يلزمُ العامِيُّ أنْ يرجِّحَ بَلْ متىٰ وجدَ مَنْ نُصِّبَ للفُتْيَا جازَ لهُ تقليدُهُ والرُّجوعُ إلىٰ ما أفتَاهُ.

وإذَا بنىٰ علىٰ هذَا القولِ الأخيرِ فليسَ للعامِيِّ نظرٌ ولا ترجيحٌ، ولكنَّهُ يقلِّدُ مَنْ وجدَهُ منَ العلماءِ، وَهَلْ يختصُّ تقليدُهُ بعلماءِ مذهبِهِ خاصَّةً، أوْ أيِّ عالمٍ وجدَ مِنْ أهلِ كلِّ مذهبٍ(٢)؟

فمِنَ النَّاسِ مَنْ يقولُ: لا بُدَّ أنْ يترجَّحَ عندَهُ مذهبٌ منَ المذاهبِ فيصيرَ إليهِ، فإنَّ هذَا يمكنُهُ معرفتهُ بالشُّيوعِ مِنْ أهلِ بلدِهِ منَ العلماءِ، وأهلِ بلدِهِ وغيرِهِمْ مِنْ ترجيحِ مذهبٍ علىٰ مذهبٍ، فيمكنُ العامِيُّ معرفتَهُ متَىٰ وقعَتْ لهُ واقعةٌ قلَّدَ أيَّ فقيهٍ وجدَهُ [٣/٩٥أ] فِي مذهبِهِ، ولَا يفتقرُ إلىٰ تفتيشٍ وترجيحٍ، ويلزمُ علىٰ هذَا القولِ القولُ بالتَّرجيحِ بينَ علماءِ مذهبِهِ؛ لأنَّهُ كمَا أمكنَهُ أنْ يعرفَ بالشُّيوعِ أنَّ مذهبَ مالكٍ أولَىٰ المذاهبِ مثلًا أوِ الشَّافعيِّ أمكنَهُ فِي بلدِهِ أنْ يعرفَ أيَّ فقهاءِ مذهبِهِ أديَنُ وأعلَمُ، فلَا يقلِّدُ إلَّا الأعلمَ.

وعلَىٰ كلِّ قولٍ مِن هذِهِ المسائلِ فلَا يصحُّ للعامِّيِّ إذَا اختلفَ عليهِ عالمانِ [أنْ] يَحْتَاطَ ويأخذَ بأحدِ القولَينِ؛ لأنَّ هذَا يؤدِّي إلىٰ أنْ يكونَ عَالِمًا بمستندِ كلِّ فقيهٍ فِي القولِ الَّذِي أفتاهُ بهِ، ويكونَ علىٰ هذَا أعلمَ منهُمَا، والنَّظر فِي مستندِ كلِّ واحدٍ منهُمَا وأيِّهِمَا أرجحُ.

وإذَا انقطعَ نظرُ العامِيِّ عنِ الأدلَّةِ بالكلِّيَّةِ واقتصرَ نظرُهُ علَىٰ الأشخاصِ فلَا

---

(١) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه ٤/٥٩٢، والإنصاف للمرداوي ٢/١٥.

(٢) تأمل تفصيل ذلك في: الفقه الإسلامي وأدلته ١/٩٤ ـ ٩٥.

ترجيحَ لهُ ولا عندَهُ في أحدِ القولَينِ بالكلِّيَّةِ، وإنَّمَا عليهِ النَّظرُ والتَّرجيحُ أيَّ الرَّجلَينِ أفقهُ وأعلَمُ، فيقتصرُ علَىٰ ما قالَ لا غيرَ، وإنْ خرجَ عنْ هذَا لمْ يكنْ مقلِّدًا ولَا مجتهدًا، وكانَ متمسِّكًا بغيرِ شيءٍ، مختارًا لهُ فِي دينِهِ، كمَا يزعمُ مَا لَمْ يجعلِ الشَّرعُ لهُ اختيارَهُ، ويجزمُ علَىٰ نفسِهِ وقتًا بغيرِ دليلٍ، وكذلِكَ يكرهُهُ وقتًا ويبيحُهُ وقتًا، هذَا لا سبيلَ إلىٰ القولِ بهِ، فهوَ عملٌ بغيرِ الأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ.

وَقَدْ نَصَّ العلماءُ علىٰ أنَّ مَنْ عرفَ أقوالَ أربابِ المذاهبِ فِي المسائلِ، ويجرِي في كلِّ واقعةٍ علىٰ القولِ الَّذِي يُوافقُ هَوَاهُ، فقدْ جَعَلُوهُ منحلًّا عنِ الدِّينِ، وإنْ كانَ قَدْ قلَّدَ، وهذَا الَّذِي جعلَ لهُ أنْ يرجِّحَ ويأخذَ الأحوَطِ منَ القولَينِ، ولا نظرَ لهُ في مستندِهِمَا، وليسَ أهلًا للنَّظرِ بالكلِّيَّةِ، فلمْ يقلِّدْ أحدًا، وإنْ قيلَ: إذَا دارَ الأمرُ بينَ أنْ يقولَ أحدُهُمَا فِي طعامٍ يأكلُهُ: هوَ حلالٌ، وقالَ الثَّانِي: هوَ مكروهٌ، مالَ إلىٰ الكراهةِ وتركَهُ، فإنْ تركَهُ ومالَ إلىٰ قائلِهِ منَ العلماءِ فقدْ قلَّدَهُ، فلمْ يكنْ هوَ مرجِّحًا بينَ الأحكامِ، وقدْ رجعَ إلىٰ التَّقليدِ، فلَا بُدَّ لهُ منَ التَّقليدِ علَىٰ كلِّ حالٍ، والعبدُ إمَّا أنْ يكونَ مقلِّدًا فِي دينِهِ أوْ مجتهدًا لا غيرَ، واللهُ المستعانُ.

وقولُهُ: «**ولَا يتَّبعِ الرُّخصَ أصلًا، ومتَىٰ اتَّبعَ الرُّخصَ فقدْ نقضَ عهدَهُ**»، فمَا الَّذِي يعنِيهِ [٣/٩٥ب] بالرُّخَصِ[(١)]: ما هوَ سهلٌ عليهِ بالطَّبيعةِ، أوْ مَا هوَ أخفُّ شرْعًا وأسهلُ، وإنْ كانَ الأجرُ فيهِ أكثرَ؛ كالقَصْرِ فِي السَّفرِ وأكْلِ الميتةِ عندَ الضَّرورةِ؟ فإنَّ هذِهِ الرُّخصَ الَّتِي أباحهَا الشَّرعُ معَ قيامِ السَّببِ الخاصِّ مِنْ غَيْرِ ضَرُورةٍ، فهذَا اتِّباعُهُ أَوْلَىٰ، وربَّمَا وجدَ فِي بعضِ الأحيانِ، فلَا يمكنُ لِلمُريد أنْ يتركَ كلَّ رخصةٍ إلَّا وينحلَّ عَقدُهُ، فإنَّ عَقدَهُ ملازمةُ الأفضلِ شَرْعًا حيثُ كانَ؛ إمَّا بترتيبِ أورادِهِ، والإعراضِ عَنْ شَهواتِهِ، فالمحمودُ منهُ أنْ يُلازِمَ مِنْ ذلكَ ما يحسُّ مِنْ نفسِهِ القدرةَ علَىٰ الدَّوامِ عليهِ وإنْ كانَ عليهِ فيهِ بعضُ المشقَّةِ، فإنَّ أعمالَ الطَّاعاتِ لا بُدَّ فيهَا

---

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته ١٧/٥٢١٣.

مِنْ مخالفةِ الهَوَىٰ ، ولكنَّهُ لا يكلِّفُ نفسَهُ منَ الأعمالِ ما يثقُلُ عليهِ جدًّا ؛ خَوفًا مِنْ نُفُورِ نفسِهِ عنِ الطَّاعاتِ ، ومِنْ مخالفةِ ما أشارَ الشَّرعُ إليهِ مِنْ قولِهِ[١] : «اكلفُوا منَ العملِ ما تطيقُونَ ، فإنَّ اللهَ لا يمَلُّ حتَّىٰ تملُّوا» ، أيْ : لَا ينقطعُ عنكُمُ الجزاءُ حتَّىٰ تتركُوا الأعمالَ ، وإذَا فُتِحَ لهُ بابٌ منَ الخيرِ فلينتهزْهُ ، كمَا جاءَ فِي الخبرِ[٢] : «إذَا فُتِحَ لِأَحَدِكُمْ بَابٌ مِنَ الخَيْرِ فَلْيَنْتَهِزْهُ» .

فشأنُ المُريدِ الصَّادقِ تعلُّقُ همَّتِهِ بالمنازلِ الرَّفيعةِ ، ولا يخلُّ بشيءٍ ممَّا أمكنَهُ منهَا علىٰ حسبِ وسعِهِ وطاقتِهِ ، والمنزلةُ الَّتِي أنزلَهُ الحقُّ فيهَا ، فإذَا أعرضَ عَنْ ذلكَ ومالَ إلىٰ شَهَواتِهِ فَقَدْ فترَ عمَّا كانَ فيهِ وسقطَ عن مَنْزِلتِهِ ، وإلَّا مَا دامَ مستقيمًا علىٰ مَا التزمَهُ أوْ رُتْبَتِه ، وإنْ زلَّ ندمَ وتابَ ورجعَ[٣] فهوَ مستقيمٌ علىٰ الخيرِ ، وعاملٌ في تحصيلِهِ ، وَلَمْ يَزلِ العلماءُ والأولياءُ يَترخَّصُونَ فِي أسفارِهِم ، ويتَّبعُونَ ما شرعَ لهُم ، وبعضُ العلماءِ يَرَىٰ أنَّ القَصْرَ أفضلُ مِنَ الإتمامِ ، وبعضُهُم يَرَىٰ التَّخييرَ[٤] .

وعلىٰ الجُملةِ: فمتَىٰ كانَتْ همَّةُ المُريدِ متعلِّقةً بتحصيلِ الأفضَلِ فهوَ عاملٌ في ذلكَ علىٰ حسبِ طاقتِهِ ومنزلتِهِ ، فهو مستقيمٌ لم يسقطْ عن درجتِهِ[٥] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) في الأصل : وراجع .

(٤) قال النووي : «اختلف العلماء في القصر في السفر ؛ فقال الشافعي ومالك بن أنس وأكثر العلماء يجوز القصر والاتمام والقصر أفضل . . . وقال أبو حنيفة وكثيرون : القصر واجب ولا يجوز الاتمام» شرح صحيح مسلم ٥/١٩٤ .
وقال القرطبي : «الصحيح في مذهب مالك التخيير للمسافر في الإتمام والقصر» تفسيره ٥/٣٥٢ .
وللاستزادة راجع : الحاوي الكبير ٢/٣٦٦ ، والمجموع ٤/٢٨٢ ، واختلاف الأئمة العلماء ١/١٤٧ .

(٥) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠٦٤ ـ ١٠٦٥ .

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «ثُمَّ يَجِبُ عَلَى المُرِيدِ أَنْ يَتَأَدَّبَ بِشَيْخٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُسْتَاذٌ لَا يُفْلِحُ أَبَدًا[(٢)].

هَذَا أَبُو يَزِيدَ يَقُولُ[(٣)]: مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أُسْتَاذٌ[(٤)]، فَإِمَامُهُ الشَّيْطَانُ[(٥)].

سَمِعْتُ [٣/١٩٦أ] الأُسْتَاذَ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاق رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٦)]: الشَّجَرَةُ إِذَا نَبَتَتْ بِنَفْسِهَا مِنْ غَيْرِ غَارِسٍ فَإِنَّهَا تُورِقُ، وَلَكِنْ لَا تُثْمِرُ، كَذَلِكَ المُرِيدُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أُسْتَاذٌ يَأْخُذُ مِنْهُ طَرِيقَتَهُ نَفَسًا فَنَفَسًا[(٧)] فَهُوَ عَابِدُ هَوَاهُ، لَا يَجِدُ [مِنْهُ][(٨)] نَفَاذًا».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «مَنْ لمْ يتأدَّبْ بشيخٍ لَا يجِيءُ منهُ شيءٌ»، أمَّا فِي التَّقليدِ ومعرفةِ الحلالِ والحرامِ فهوَ صحيحٌ، وأمَّا فِي جعلِهِ نفسَهُ بحكمِ الشَّيخِ؛ بحيثُ لا يأكُلُ ولا يشربُ، ولَا يذكرُ ولَا يصمتُ، ولا ينكحُ ولا يفرحُ، كلُّ ذلكَ إلَّا بإذنِهِ، ومتَى لمْ يكنْ بهذِهِ المثابةِ لا يجيءُ منهُ شيءٌ، فهذَا فيهِ نظرٌ، ولا ينكرُ أنَّ مَنْ جعلَ حكمَهُ بيدِ غيرِهِ وتصرَّفَ علَى مقتضَى أمرِ الشَّيخِ ونَهْيِهِ ضعُفَ تصرُّفُهُ بهواهُ، واعتادَ الانقيادَ فِي تقوَاهُ.

وأمَّا ألَّا يجيءَ منهُ شيءٌ وإنْ عملَ على مقتضَى العلمِ وطلبِ الأفضلِ جُهْدَهُ وإنْ لمْ يجعلْ أمرَهُ بيدِ شيخٍ يسوسُهُ وإنْ كانَ لا يعملُ إلَّا بعدَ استفتائِهِ، فلَا يظهرُ لنفيِهِ الخيرَ عنهُ وجهٌ قويٌّ، بَلْ فيهِ عونٌ للمريدِ الضَّعيفِ العاميِّ بالكلِّيَّةِ، وإلَّا مَنْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٣ ـ ٥٧٤.

(٢) لعدم معرفته الأحكام.

(٣) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص١٨٢، والفتوحات الإلّهية في المباحث الأصلية ص٩٣.

(٤) أي: يأتم به.

(٥) يوسوس له بما يهواه.

(٦) ورد قوله في: حدائق الحقائق ص١٨٢.

(٧) أي: درجة فدرجة، ومقاما فمقامًا على حسب ما يراه شيخه في استعداده.

(٨) زيادة من (ف).

كانَ منفعلًا للأحكامِ، مُنْقَادًا لمَا يشيرُ إليهِ بهِ مِنْ تقلُّدِهِ فلَا شكَّ فِي فَلاحِهِ واستقامتِهِ، بَلْ فِي سَلامَتِهِ مِنْ أنْ يرَىٰ شيخَهُ ويُظْهِرَ لهُ مِنْ بواطنِ حالِهِ مَا هوَ مستغنٍ عنْ إظهارِهِ لعِلمِهِ بحكمِهِ، فيكونَ عاملًا فِي تحصيلِ الأفضَلِ بزعْمِهِ، وهوَ عاصٍ بمَا أظهرَهُ مِنِ استغنائِهِ عنْ إظهارِهِ.

وإنَّمَا حملَهُ علَىٰ ذلكَ أنْ يُطْلِعَ شيخَهُ علىٰ ما هوَ عليهِ مِنْ عِمَارةِ باطنِهِ، فيُعظِّمَهُ ويُجِلَّهُ ويقدِّمَهُ علىٰ مَنْ سِواهُ، فإنْ سلِمَ مِنْ هذهِ الآفةِ وكانَ مقلِّدًا لهُ فيمَا يأمرُهُ بهِ، أوْ يسلِّمُ إليهِ قِيادَهُ فيهِ، فهوَ حسنٌ فِي تسهيلِ السُّلوكِ ومخالفةِ النَّفسِ فِي سُوءِ الاعتيادِ.

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١): «ثُمَّ إذَا أَرَادَ السُّلُوكَ فَبَعْدَ هَذهِ الجُمْلَةِ يَجِبُ أَنْ يَتُوبَ إِلَىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ مِنْ كُلِّ زَلَّةٍ، فَيَدَعَ جَمِيعَ الزَّلَّاتِ؛ سِرَّهَا وَجَهْرَهَا، صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا، وَيَجْتَهِدَ فِي إِرْضَاءِ الخُصُومِ أَوَّلًا، وَمَنْ لَمْ يُرْضِ خَصْمَهُ لَا يُفْتَحْ لَهُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ بِشَيْءٍ(٢)، وَعَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ جرَوا.

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يَعْمَلُ فِي حَذْفِ العَلَائِقِ وَالشَّوَاغِلِ [٣/٩٦ب]؛ فَإِنَّ بِنَاءَ هَذِهِ الطَّرِيقِ عَلَىٰ فَرَاغِ القَلْبِ.

وَكَانَ الشِّبْلِيُّ يَقُولُ لِلحُصْرِيِّ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ(٣): إِنْ خَطَرَ بِبَالِكَ مِنَ الجُمُعَةِ إِلَىٰ الجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي تَأْتِينا غَيْرُ اللهِ(٤) فَحَرَامٌ عَلَيْكَ أَنْ تَحْضُرَنِي».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أمَّا قولُهُ: «ثمَّ إذَا أرادَ السُّلوكَ بعدَ هذِهِ الجملةِ يتوبُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٤.

(٢) لعدم تخلصه من حقوقهم، فيجب ردُّها لهم.

(٣) ورد قوله في: مناقب الأبرار ٢/٦٥٤.

(٤) أي: سكن قلبك إلىٰ غير الله، كما سيذكر المؤلف.

إلى اللهِ - تعالى - مِنْ كلِّ زلَّةٍ؛ صغيرِهَا وكبيرِهَا، خيرِهَا وشرِّهَا، ثمَّ يُرْضِي الخصومَ» إنْ كانَ بمالٍ لهُمْ أوْ لورثَتِهِمْ مِنْ بعدِهِمْ، وإنْ كانَ فِي العِرضِ فيستحِلُّهُمْ أنفسَهُمْ، اللَّهُمَّ إلَّا أنْ يكونَ ما نسبَهُمْ إليهِ يَلحقُهُمْ منهُ مَعَرَّةٌ على قرابتِهِمْ أوْ أهلِهِمْ أوْ أذيَّةٌ ممَّا قالَهُ فيستحلُّ أيضًا منَ القريبِ، فإنْ عجزَ عنْ ذلِكَ كثَّرَ الحسناتِ، فإنَّهُ لا يُؤْخَذُ فِي الآخرةِ إلَّا الحسناتُ.

وهاهُنَا مسألةٌ في توبتِهِ: هَلْ لا بُدَّ أنْ يتوبَ مِنْ كلِّ ذنبٍ عمِلَهُ، أو يتوبَ مِنَ الذُّنوبِ علَى الجُملةِ؛ ما علِمَ منهَا وما لمْ يعلَمْ؟ وإذَا كانَ مِنْ شرطِ التَّوبةِ النَّدمُ علَى الذَّنبِ فلَا يتندَّمُ إلَّا على ما علِمَهُ أوِ ارتكبَهُ منَ الإخلالِ بواجبٍ أوِ ارتكابٍ لمحرَّمٍ، وأمَّا ما كانَ مخلًّا بهِ أوْ مرتكبًا لهُ ولمْ يعرِفْ حكمَهُ فلا يصحُّ التَّوبةُ منهُ، لَا علَى الجملةِ، ولا على التَّفصيلِ، وإنَّمَا عليهِ البحثُ والفكرةُ فِي أيَّامِهِ الَّتِي مضَتْ حتَّى يعرفَ مَا كانَ مضيِّعًا لهُ منَ الواجباتِ، أوْ مرتكِبًا لهُ منَ المحرَّماتِ.

فإنْ تكرَّرَ ذلكَ منهُ فِي كثيرٍ منَ الأوقاتِ هذَا يجزئُهُ النَّدمُ علَى جُملتِهِ، ولَا يلزمُهُ أنْ يذكرَ آحادَهُ فِي التَّوبةِ، فإنَّهُ قدْ عرفَ أنَّهُ وقعَ فيهِ، وتفاصيلُ أعدادِهِ؛ مِنْ جرعةِ خمرٍ، وحركةٍ فِي نكاحٍ حرامٍ، وضربةٍ في ظُلمٍ، وخطوةٍ إلى معصيةٍ، كلُّ ذلكَ لا يلزمُهُ التَّفصيلُ فيهِ، وإنَّمَا يتوبُ على الجُملةِ ممَّا علمهُ منَ الذُّنوبِ مِنْ حيثُ الجملةُ، وأمَّا مَا لمْ يعلَمْهُ فلَا يمكِنُهُ التَّوبة منهُ.

وقَدْ نقلَ من كلامِ الإمامِ المحاسبيِّ فِي كتابِهِ **(الرِّعايةِ)**(١) لمَّا سُئِلَ: هلِ النَّدمُ علَى جملتِهَا يُجْزِئُهُ أوْ لا بُدَّ مِنْ معرفتِهَا بأعيانِهَا؟ فأجابَ: بأنَّهُ لا يُجزئُهُ، وهوَ محمولٌ علَى مَا لمْ يعرفْ جملتَهُ مِنَ المعاصِي، فتفصيلُهُ هناكَ يدلُّ عليهِ(٢)، فاستغفارُ

---

(١) ص٢٤٢.

(٢) زيد حاشية الأصل: «صوابه: ليس»، دون أن يحدد المكان الذي توضع فيه، فلعله: ليس يدل.

العبدِ ممَّا علِمَ وممَّا لمْ يعلَمْ كثيرٌ منْ هذَا القبيلِ ؛ لأنَّ [١٩٧/٣] هذَا سؤالُ للهِ ـ تعالىٰ ـ أنْ يغفرَ لهُ مَا علِمَهُ اللهُ وإنْ لمْ يعلَمْهُ هوَ ، بخلافِ الرُّجوعِ عنِ الذَّنبِ والنَّدمِ علىٰ ما مضىٰ منهُ ، والعَزْمِ علىٰ ألَّا يعودَ إليهِ ، فشرطُ ذلكَ أنْ يعرفَ كونَهُ ذنبًا ؛ ليتحقَّقَ فراقُهُ لهُ ، وندمُهُ علَىٰ ما مضَىٰ منهُ ، وعزمُهُ علَىٰ ألَّا يعودَ إليهِ أوْ إلىٰ مثْلِهِ فِي الاستقبالِ .

وكذلِكَ قولُهُ : «مَنْ لمْ يُرْضِ خصومَهُ لمْ يُفْتَحْ لهُ فِي هذِهِ الطَّرِيقةِ بشيءٍ» مَا الَّذي يعنيهِ بالفتحِ علَىٰ صحَّةِ المناماتِ والمكاشفاتِ وما جرَىٰ مجراهُمَا ؟ ، أوْ يكونُ مرادُهُ أنَّهْ لمْ يتخلَّصْ منْ حقوقِهِمْ بَعْدُ ، فهوَ صحيحٌ ، وهوَ مطالبٌ ولَا سيَّمَا إذَا كانَتْ حقوقُهُمْ تحتَ أيدِيهِ فيجبُ ردُّهَا لهُمْ ، أوْ لورثتِهِمْ ، فيدُهُ يدُ عُدْوانٍ بعدُ ، إلَّا إذَا لمْ يجدْ مَنْ يُسلِّمْ ذلكَ إليهِ ، ولا أمكنَتْهُ الصَّدقةُ .

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يزعمُ أنَّ العبدَ إنْ لمْ يتُبْ منْ جميعِ ذنوبِهِ وإلَّا لمْ يكُنْ تائبًا ، فيكونُ شرطُ توبتِهِ عندَهُمْ أنْ يتخلَّصَ مِنْ سَائرِ ذُنُوبِهِ .

وهذَا ليسَ بشيءٍ ؛ بلِ الصَّحيحُ أنَّ العبدَ يتوبُ مِنْ بعضِ ذنوبِهِ دونَ بعضٍ ، ويكونُ محقًّا فِي توبتِهِ .

وقولُهُ : «**ثُمَّ بعدَ ذلكَ يعملُ فِي قطعِ العلائقِ والمُشغلاتِ منَ الدُّنيَا**» يبعدُ عنِ الدُّنيَا وشهواتِهَا بالكلِّيَّةِ إلَّا ما دعَتِ الضَّرورةُ إلىٰ أخْذِهِ منهَا ، سواءٌ كانَتِ الضَّرورةُ دينيَّةً أوْ دنيويَّةً ، وكذلِكَ يُخالِفُ أبناءَ جنسِهِ ولَا يخالطُهُمْ بالكلِّيَّةِ ، فإنَّهُ ضعيفٌ في حالِهِ وهُمْ أقوياءُ ، فيخافُ عليهِ أنْ يُحدِّثُوهُ لأنفسِهِم ، ويردُّوهُ إلىٰ ما منهُ خرجَ .

فإذَا قطعَ هذهِ الأسبابَ المشغلاتِ ، رتَّبَ أورادَهُ ، وعمَّرَ أوقاتَهُ ، وخالطَ أبناءَ جنسِهِ الَّذي يعملُ علىٰ رؤيتِهِم ، ويقوِّي همَّتَهُ لمَا هوَ فيهِ بمشاهدَتِهِمْ ، فإنَّ الاقتداءَ

بالأحوالِ آكدُ وأسرعُ نُجْحًا منَ الاقتداءِ بالأقوالِ، ولا سيَّمَا إذَا كانَتْ أفعالُهُ بعدَ الاقتداءِ بشيخِهِ، وكانَا جميعًا فِي السُّلوكِ علَىٰ مقصدٍ واحدٍ، فيتساعدُ بعضُهُمْ برؤيةِ البعضِ فيمَا يتحمَّلُونَهُ منَ الجوعِ، ومخالفةِ الهوَىٰ، والقيامِ بالأورادِ، وملازمةِ الخُلوةِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يؤمَرُونَ، فهذَا جيِّدٌ نافعٌ.

وقولُ الشِّبْلِيِّ للحُصرِيِّ: «**إنْ خطرَ ببالِكَ منَ الجمعةِ إلىٰ الجمعةِ غيرُ اللهِ فلَا تصحَبْنِي**» [٩٧/٣ب] يحتملُ أمرَينِ:

أحدُهُمَا: أنَّكَ لا تسكُنُ لمَا خطرَ ببالِكَ ممَّا هوَ لغيرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، فإنَّ الخطورَ بالقلبِ ليسَ منَ المُمكنِ ألَّا يقعَ، ولَا للعبدِ قدرةٌ عليهِ، ولهُ قدرةٌ بعدَ فهمِهِ أنْ ينفيَهُ عنْ نفسِهِ، فيكونَ قولُهُ: «**خَطَرَ بِبَالِكَ**»، أيْ: قبلْتَ مَا خطرَ ببالِكَ، فيكونَ منْ بابِ حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ.

فإنْ قلتَ: منَ الخواطرِ مَا لا يرضَاهُ اللهُ منَ الجمعةِ إلىٰ الجمعةِ فلَا تصحَبْنِي، ويكونُ فائدة تقييدِهِ «**مِنَ الجُمْعَةِ إلىٰ الجُمْعَةِ**» تعليمُهُ دوامَ الرَّدِّ لهُ كلَّ مَا خطرَ، فإنَّ بعضَ النَّاسِ يخطرُ لهُ خاطرٌ رديءٌ فيقبلُهُ تارةً ويردُّهُ أخرَىٰ، فيكونُ مقصودُ هذَا الشَّيخِ تَوَالِي الرَّدِّ لهُ، فإنَّهُ إذَا توالَىٰ الرَّدُّ ولمْ يقبلْ انكفَّ الشَّيطانُ وانخسأَ، وَقَوِيَ القلبُ بمَا يتوالَىٰ عليهِ منَ اليقظةِ والرَّدِّ لخواطرِ السُّوءِ.

الوجْهُ الثَّانِي: أنْ يكونَ الشَّيخُ رتَّبَ لهُ ذِكرًا، أوْ أمرَهُ بالملازمةِ لهُ حتَّىٰ لا يَشْتَغِلَ بغيرِهِ بالكلِّيَّةِ، فيكونَ كمالُ اشتغالِهِ بهِ ووجودُ لذَّتِهِ فيهِ مانِعًا منْ ورودِ خواطرِ الشَّيطانِ علَىٰ قلبِهِ، كمَا قيلَ[(١)]: «إذا رآكَ الشَّيطانُ متردِّدًا طمعَ فيكَ، وإذَا رآكَ مداومًا مَلَّكَ وقَلَاكَ».

---

(١) نسب لإبراهيم التيمي في: الرعاية للمحاسبي ص١٩٥، وإحياء علوم الدين ٣١٥/٣.

وأيضًا فإنَّ عمارةَ القلبِ بدوامِ الذِّكْرِ والإقبالِ علىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وحُسْنِ المناجاةِ مِنْ أعظمِ الأسبابِ فِي حفظِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ للعبدِ الَّذِي اختصَّهُ بقولِهِ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، فإذَا داوَمَ العبدُ علىٰ هذَا الأمرِ مِنَ الذِّكْرِ معَ الحضورِ أحبَّهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ، وصرَفَ عنهُ سائرَ الشُّرورِ فِي سائرِ أعضائِهِ، بَلْ فِي قلبِهِ، فإنَّهُ أصلٌ في صلاحِ ما هوَ فيهِ منْ سائرِ الأمورِ كمَا جاءَ(١): «إنَّ فِي البدَنِ بضعةً إذَا صَلحَتْ صَلحَ سائرُ الجسدِ، وإذَا فسدَتْ فسدَ سائرُ الجسدِ ألَا وهيَ القلبُ»، فمتىٰ نعِمَ القلبُ بالذِّكْرِ هَرِبَ منهُ الشَّيطانُ، كمَا كانَ يفرقُ مِنْ ظلِّ عمرَ بنِ الخطَّابِ(٢).

فحصلَ مِنْ مجموعِ كلامِ هذَا الشَّيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمرٌ بكمالِ الاشتغالِ للهِ ـ تعالىٰ ـ حتَّىٰ ينقطعَ عنهُ الشَّيطانُ، والثَّانِي أنَّهُ إذا وردَ بخواطرِهِ لمْ يجِدْ محلًّا قابلًا، ونَفَاهُ عنْ قلبِهِ وأعرَضَ عنهُ، واللهُ المستعانُ.

۞ **قَالَ الإِمَـامُ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٣): «[٣/١٩٨أ] **فَإِذَا أَرَادَ الخُرُوجَ مِنَ العَلَائِقِ، فَأَوَّلُهَا: الخُرُوجُ عَنِ المَالِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ الَّذِي يَمِيلُ بِهِ عَنِ الحَقِّ، وَلَمْ يُوجَدْ مُرِيدٌ دَخَلَ فِي هَذَا الأَمْرِ وَمَعَهُ عَلَاقَةٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا جَرَّتْهُ تِلْكَ العَلَاقَةُ عَنْ قَرِيبٍ إِلَىٰ مَا مِنْهُ خَرَجَ.**

فَإِذَا خَرَجَ مِنَ المَالِ، فَالوَاجِبُ عَلَيهِ الخُرُوجُ عَنِ الجَاهِ(٤)، فَإِنَّ مُلَاحَظَةَ الجَاهِ مَقْطَعَةٌ عَظِيمَةٌ.

وَمَا لَمْ يَسْتَوِ عِنْدَ المُرِيدِ قَبُولُ الخَلْقِ وَرَدُّهُمْ لَا يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ، بَلْ أَضَرُّ الأَشْيَاءِ لَهُ مُلَاحَظَةُ النَّاسِ إِيَّاهُ بِعَيْنِ الإِثْبَاتِ(٥) وَالتَّبَرُّكُ بِهِ؛ لِإِفْلَاسِ النَّاسِ عَنْ هَذَا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) فما سلك عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فجًّا إلا سلك الشيطان فجًّا غيره، كما مرَّ.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٤.

(٤) أي: الرياسة.

(٥) في (ف): الإيثار.

الحَدِيثِ، وَهُوَ بَعْدُ لَمْ يُصَحِّحِ الإِرَادَةَ، فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يُتَبَرَّكَ بِهِ؟! فَخُرُوجُهُمْ عَنِ الجَاهِ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ سُمٌّ قَاتِلٌ لَهُمْ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأمَّا الخروجُ عنِ العَلائقِ؛ والعَلائقُ: عبارةٌ عمَّا يتعلَّقُ القلبُ بهِ، فإذا تعلَّقَ القلبُ بشيءٍ محبَّةً لهُ عمَّا سُواهُ؛ فإذا أعرضَ عنِ المالِ فالمرادُ فضولُ المالِ، وكذلِكَ فُضُولُ الجاهِ، ومتَى كانَ عندَهُ مِنَ المالِ والجاهِ ما يزيلُ اللهُ بهِ عنهُ الضَّررَ والتَّشويشَ، ويستقيمُ حالُهُ فِي دينِهِ معَ القناعةِ وعدمِ الغلطِ في قدرِ الكفايةِ فهذَا جيِّدٌ.

وإذا تخلَّصَ مِنْ آفةِ المَالِ والجَاهِ، وبعُدَ عنهُمَا بقِيَتْ عليهِ محبَّةُ الرِّئاسةِ فِي كونِهِ زهدَ فِي الدُّنيَا؛ جاهِهَا ومالِهَا، فيكونُ قدْ زهدَ فِي جاهٍ دنيويٍّ، واستعوضَ عنهُ ما هوَ أفضلُ منهُ فِي الدِّينِ، فإنَّ الزُّهَّادَ جاهُهُمْ أكملُ مِنْ جاهِ أبناءِ الدُّنيَا، فإنَّهُمْ يذلُّ لهُمْ أبناءُ الدُّنيَا والسَّلاطينُ، وأربابُ الثَّروةِ، ويُقَبِّلُونَ أيديهم، ويتبرَّكُونَ بهِمْ، فمتَى شربَتِ النَّفسُ منْ هذا الغِذَاءِ جُرْعةً خُشِيَ عليهَا التَّلافُ منهَا، فإنَّ فيهَا منَ اللَّذَّةِ مَا يدعُو إلَى الزِّيادةِ لطِيبِهَا حتَّى المماتِ والعياذُ باللهِ ـ سبحانه ـ مِنْ جميعِ الآفاتِ[1].

ودخولُ التِّلميذِ تحتَ حُكمِ المشايخِ وكونُهُ تبعًا غيرَ مشتهرٍ وإنْ بلغَ منَ الخيرِ مَبْلَغًا عظيمًا أسلَمُ لهُ وأحسَنُ فِي دينِهِ وأبعَدُ مِنْ تعرُّضِهِ لتلافِهِ وَهَلاكِهِ، فإذَا كانَ تبعًا سلِمَ مِنْ داءِ الرِّئاسةِ الَّذِي قيلَ فيهِ[2]: «آخرُ ما يخرُجُ مِنْ رؤوسِ الصِّدِّيقِينَ حبُّ الرِّئاسةِ»، وابنُ الصِّدِّيقِ منَ الرِّئاسةِ! ولكنَّ [٣/٩٨ب] الصِّدِّيقيَّةَ علَى درجاتٍ مبالغةً فِي الصِّدقِ.

وفِي الرِّئاسةِ دقائقُ وآفاتٌ يحسُّهَا العبدُ مِنْ نفسِهِ ويسلَمُ منهَا بفضلِ خالقِ

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٦٦.

(٢) ورد في: إحياء علوم الدين ٣/٢٧٥، ومرقاة المفاتيح ٩/٥١١.

الأرضِ والسَّماواتِ ، فالتفاتُ الصِّدِّيقِ إلىٰ حُسْنِ حالتِهِ ورويَّةِ مزيَّتِهِ نوعٌ مِنْ أنواعِ الرِّئاسةِ ، فآخرُ ما يخرجُ منَ الكاملِ فِي الصِّدِّيقيَّةِ مثلُ هذا النَّوعِ منَ الرِّئاسةِ ، والصِّدِّيقيَّةُ لهَا أوائلُ ؛ وهوَ أوَّلُ الصِّدقِ ، ولهَا أواخرُ ؛ وهوَ كمالُهُ ، وعلىٰ حسبِهِ تكونُ الرِّئاسةُ ، فإنَّ الرِّئاسةَ مشتقَّةٌ مِنْ كونِهِ رأسًا ولهُ مزيَّةٌ ودرجةٌ ورفعةٌ علىٰ غيرِهِ ، فإنْ أضافَ ذلكَ إلىٰ نفسِهِ وحَمِدَهَا كانَ عُجْبًا ، وإنْ رآهُ منَّةً منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ورفعةً فِي درجاتِهِ عَنْ غيرِهِ وسكنَ إلىٰ ذلكَ كانَ سُكُونًا إلىٰ غيرِ اللهِ ، ونَقْصًا في هَدْيِهِ ، وافتقارِهِ إلىٰ اللهِ ـ تعالىٰ ـ .

۞ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1] : «فَإِذَا خَرَجَ عَنْ مَالِهِ وَجَاهِهِ فَيَجِبُ أَنْ يُصَحِّحَ عَقْدَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ أَلَّا يُخَالِفَ شَيْخَهُ فِي كُلِّ مَا يُشِيرُ عَلَيهِ ، فَإِنَّ الخِلَافَ لِلْمُرِيدِ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ عَظِيمُ الضَّرَرِ ؛ لِأَنَّ ابْتِدَاءَ حَالِهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ جَمِيعِ عُمُرِهِ.

وَمِنْ شَرْطِهِ: أَلَّا يَكُونَ [لَهُ][2] بِقَلْبِهِ اعْتِرَاضٌ عَلَىٰ شَيْخِهِ ، وَإِذَا خَطَرَ بِبَالِ المُرِيدِ أَنَّ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ قَدْرًا وَقِيمَةً ، أَوْ عَلَىٰ بَسِيطِ الأَرْضِ أَحَدٌ دُونَهُ لَمْ يَصِحَّ لَهُ فِي الإِرَادَةِ قَدَمٌ ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَجْتَهِدَ لِيَعْرِفَ رَبَّهُ ، لَا لِيُحَصِّلَ لِنَفْسِهِ قَدْرًا ، وَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يُرِيدُ [اللهَ ـ تعالىٰ ـ ، وبينَ مَنْ يُرِيدُ][3] جَاهَ نَفْسِهِ ؛ إِمَّا فِي عَاجِلِهِ ، وَإِمَّا فِي آجِلِهِ.

ثُمَّ يَجِبُ عَلَيهِ حِفْظُ سِرِّهِ حَتَّىٰ عَنْ زِرِّهِ ، إِلَّا عَنْ شَيْخِهِ ، وَلَوْ كَتَمَ نَفَسًا[4] مِنْ أَنْفَاسِهِ عَنْ شَيْخِهِ فَقَدْ خَانَهُ فِي حَقِّ صُحْبَتِهِ.

وَلَوْ وَقَعَتْ لَهُ مُخَالَفَةٌ فِيمَا أَشَارَ إِلَيهِ شَيْخُهُ فَيَجِبُ أَنْ يَعْتَرِفَ بَيْنَ يَدَيهِ فِي

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٤ ـ ٥٧٥.
(٢) زيادة من (ف).
(٣) زيادة من (ف)، والرسالة القشيرية.
(٤) المراد: ما يشمل خواطر قلبه.

الْوَقْتِ، ثُمَّ يَسْتَسْلِمَ لِمَا يَحْكُمُ بِهِ عَلَيهِ شَيْخُهُ عُقُوبَةً لَهُ عَلَىٰ جِنَايَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ؛ إِمَّا بِسَفَرٍ يُكَلِّفُهُ، أَوْ أَمْرٍ مَا يَرَاهُ.

وَلَا يَصِحُّ لِلشُّيُوخِ التَّجَاوُزُ عَنْ زَلَّاتِ المُرِيدِينَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ تَضْيِيعٌ لِحُقُوقِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدْ تقرَّرَ أنَّهُ لا معنىٰ للشَّيخِ علىٰ التَّحقيقِ إلَّا أنْ يكونَ ممَّنْ يصحُّ تقليدُهُ فِي الدِّينِ؛ وهوَ أنْ يكونَ كاملَ العلمِ والصِّيانةِ جميعًا، وإذَا كانَ بهذِهِ الصِّفةِ وعزمَ مريدٌ علَىٰ أنْ يختارَهُ فجعلَهُ سببًا بينَهُ وبينَ ربِّهِ [٣/١٩٩أ]، ووسيلةً فِي نيلِ مرغوبِهِ منهُ ومطلبِهِ فليعزمِ العزمَ الكلِّيَّ علَىٰ أنَّهُ لا يتحرَّكُ ولا يسكنُ ولا يتصرَّفُ تصرُّفًا فِي سائرِ أفعالِهِ حتَّىٰ يأذنَ لهُ فيهِ، سواءٌ كانَ ممَّا يعلمُ حكمَهُ أوْ لَا، فإنَّهُ وإنْ علِمَ أنَّ الفعلَ الَّذي يفعلُهُ مُباحٌ فقد يَرَىٰ شيخُهُ أنَّ تَرْكَهُ لذلِكَ الفعلِ وبُعْدَهُ منهُ أعونُ لهُ علىٰ مقصدِهِ[1]، وأسرعُ في تعوُّدِهِ، فإذَا عزمَ علىٰ ذلكَ وعقدَهُ بينَهُ وبينَهُ، فهذَا عقدٌ دينيٌّ لا يجوزُ مخالفتُهُ، وعهدُ اللهِ ـ تعالىٰ ـ يحرُمُ علَىٰ المتعاقدَينِ حلُّهُ.

فإذَا تقرَّرَ ذلكَ، فلَا يخلُو: إمَّا أنْ يُعِينَ الحقُّ ـ سبحانه ـ المريدَ علىٰ الوفاءِ بمَا التزمَهُ وعاهدَ اللهَ علىٰ الوفاءِ بهِ معَ شيخِهِ أمْ لَا، فإنْ وفَّىٰ وأعانَهُ الحقُّ عليهِ فهيَ أمارةُ سَعَادتِهِ، ودليلُ حفظِهِ منَ اللهِ وكلاءَتِهِ.

وإنْ زلَّ فعليهِ الرُّجوعُ إلَىٰ الوفاءِ بمَا عزمَ عليهِ، والنَّدمُ علىٰ مَا كانَ منهُ، والاستغفارُ للهِ ـ تعالىٰ ـ وإعلامُ شيخِهِ لمخالفتِهِ لهُ.

ووجهُ إعلامِهِ لهُ أنَّهُ حقٌّ تعلَّقَ لشيخِهِ بهِ، فإنَّ الشَّيخَ قَدْ تركَ مَنْ شغلَهُ بمَا هوَ فيهِ معَ مولَاهُ فِي خاصَّتِهِ، وعاهدَ اللهَ علَىٰ أنْ يفرِّغَ بالَهُ فِي صلاحِ هذَا التِّلميذِ ولا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٦٦ ـ ١٠٦٧.

يغفلَ عنهُ، فإذَا فعلَ ذلكَ التِّلميذُ ونقضَ ما بينَهُ وبينَ الشَّيخِ، والشَّيخُ علىٰ ما هوَ عليهِ فِي حقِّهِ منَ الالتزامِ، فإنْ أطلَعَ اللهُ الشَّيخَ علَىٰ حالِ التِّلميذِ بمكاشفةٍ أوْ غيرِهَا استغنَىٰ التِّلميذُ عنْ إظهارِ ذلكَ وإلَّا فليظهِرْهُ لشيخِهِ؛ ليقيمَ عليهِ الأدبَ الَّذِي يَرَاهُ صلاحًا فِي حقِّهِ؛ إمَّا أنْ يكلِّفَهُ جوعًا، أوْ سهرًا فِي صلاةٍ، أوْ خدمةً لغيرِهِ منَ الصَّالحِينَ، أوْ سفرًا مُشِقًّا فِي قضاءِ حوائجِ بعضِ الإخوانِ، أوْ مَا يجرِي مجرَاهُ.

وَهَلْ يَنْبَغِي للشَّيخِ أنْ يعفوَ عن زلَّاتِ المريدِينَ ونقضِهِمْ لعهودِهِمْ معَ أشياخِهِم؟ الَّذِي ذكرَهُ الإمامُ أنَّهُ لا ينبغِي للمشايخِ العفوُ عنْ زلَّاتِ المريدينَ، فإنَّ ذلكَ خروجٌ عمَّا التزمُوهُ لهُم؛ منَ القيامِ بحقوقِهِم، والنَّظرِ فيمَا يصلحُهُم فِي سُلُوكِهِم، ولَا سيَّمَا فِي أوَّلِ أمورِهِمْ، فإنَّ التِّلميذَ إذَا كانَ فِي أوَّلِ عهدِهِ وقُرْبَ عقدُهُ معَ شيخِهِ زلَّ فيمَا التزمَهُ وأخلَّ وأهملَهُ شيخُهُ ولمْ يؤدِّبْهُ خفَّ فِي قلبِهِ أمرُ التزامِهِ معَ شيخِهِ وقلَّ [٣/٩٩ب]، فالصَّوابُ علَىٰ هذَا عدمُ العفوِ، وإقامةُ الأدبِ، فإنَّهُ أولَىٰ وأصوبُ.

وقولُهُ: «**وإذَا خطرَ ببَالِ المُريدِ أنَّ لهُ قدرًا فِي الدُّنيَا والآخرةِ**» فَلا تَثْبُتُ لهُ فِي هذهِ الطَّريقةِ قدَمٌ، فهذَا فيهِ تفصيلٌ، وآخرُ كَلامِهِ يعكِّرُ علىٰ أوَّلِهِ؛ فإنَّ أوَّلَهُ متىٰ اعتقدَ أنَّ لهُ فضْلًا أوْ مزيَّةً علىٰ أحدٍ فهذَا يدلُّ مِنْ أوَّلِ حَالِهِ علىٰ أنَّ عندَهُ كِبْرًا ومزيَّةً علَىٰ النَّاسِ، وأنَّهُ أفضلُ منهُمْ[١]، وهذَا صحيحٌ، فإنَّ الشَّخصَ لا ينبغِي لهُ أنْ يرَىٰ هذا لنفسِهِ، فإنَّ النَّاسَ عندَهُ مختلفونَ فِي أحوالِهِمْ، وعواقبُ أمرِهِمْ وأمرِهِ مغيَّبةٌ عنهُ، وإنْ كانَ هوَ فِي خيرٍ فِي الحالِ فكيفَ يعتقدُ أنَّ لهُ فضلًا مطلقًا علىٰ غيرِهِ فِي الحالِ والمآلِ؟! هذَا معَ خفاءِ بواطِنِ النَّاسِ عنهُ، ولعلَّ غيرَهُ ممَّنْ هوَ أقلُّ عملًا فِي الصَّلاحِ والدِّينِ بظواهرِ البدنِ يكونُ فِي قلبِهِ منَ المعاملةِ بينَهُ وبينَ ربِّهِ مَا يُوافِي ويوازنُ جميعَ أعمالِهِ هوَ؛ الظَّاهرةِ والباطنةِ.

---

(١) في الأصل: منه، والصواب المثبت.

فعلَىٰ هذَا التَّقديرِ لا ينبغِي لأحَدٍ منَ الصَّالحينَ أنْ يرَىٰ نفسَهُ خيرًا منْ غيرِهِ، ويحكُمَ بهِ علَىٰ الإطلاقِ.

وأمَّا قولُهُ: «لَا فِي الدُّنيَا ولَا فِي الآخرةِ» فهوَ صحيحٌ لِغَيبُوبَةِ العَاقِبَةِ عَنْهُ.

وأمَّا مَا ختَمَ بهِ الكتابَ(١) مِنْ أنَّ المُريدَ عاملٌ فِي أنْ يعرفَ ربَّهُ، ويكونَ لهُ حرمةٌ عندَهُ، لَا لأنْ يعملَ ليكونَ لهُ حرمةٌ عندَ النَّاسِ، هذَا ضدُّ الأوَّلِ، فنحنُ أوَّلًا وإنْ كانَ فاضِلًا منعْنَاهُ أنْ يرَىٰ فضلَ نفسِهِ؛ لخفاءِ بواطنِ الخلقِ عنهُ وأمْرِ العاقبةِ، فكيفَ يؤمَرُ بأنْ يعملَ ليسألَ الجاهَ عندَ النَّاسِ فِي الدُّنيَا، بَلْ لو كمُلَتْ معرفتُهُ بمولَاهُ، وعمِلَ لوجهِهِ خاصَّةً ولطلبِ قربِهِ منهُ ودوامِ نجوَاهُ، والأُنسِ بهِ وشَرُفَ مَا يواليهِ عليهِ مِنْ فضْلِهِ أوْ عطايَاهُ، لم يخطرْ ببالِهِ الجزاءُ علىٰ عملِهِ فِي آخرتِهِ فضْلًا عنْ دُنيَاهُ، فإنَّهُ يرَىٰ نفسَهُ عبدًا مُستحقًّا لمالِكِهِ فِي سائِرِ ما هوَ فيهِ منْ سائِرِ أعمالِهِ وأحوالِهِ ومقاماتِهِ، غريقًا في بحرِ فضْلِهِ عليهِ، فكيفَ يطلبُ الجزاءَ منهُ علىٰ ما تفضَّلَ بهِ عليهِ وخلَقَهُ لهُ؟! هذَا بعيدٌ عندَ العقلاءِ، فكيفَ بمَنْ تحقَّقَ فِي ذلكَ منَ الأولياءِ.

ومقصودُ هذَا البابِ الَّذِي سبقَ بهِ المريدُ إذَا عقدَ معَ شيخِهِ عقدًا فليكُنْ [٣/١٠٠أ] مشغولًا بحفظِ عقدِهِ؛ حتَّىٰ لا يُخَالِفَ ربَّهُ فيمَا عقدَهُ معَهُ فِي جميعِ ما يأمُرُهُ بهِ، وإنْ كانَ هذَا روحَ البابِ، فكيفَ يجوزُ للتِّلميذِ الاعتراضُ علىٰ شيخِهِ فيمَا يأمُرُهُ بهِ، أو يرَاهُ من أحوالِهِ؟! فإنَّ الشَّيخَ يتصرَّفُ فِي نفسِهِ بعلْمِهِ ومَا يليقُ بهِ في نفسِهِ، ويكلِّفُ المريدَ ما يَرَاهُ صلاحًا فِي حقِّهِ، فمتَىٰ طلبَ منَ الشَّيخِ أنْ يفعلَ بنفسِهِ مَا يأمُرُهُ بهِ أخطأَ فِي نظرِهِ، وأعرضَ عنْ موضعٍ لا يجوزُ لهُ الاعتراضُ فيهِ، وإنَّمَا وظيفتُهُ معَهُ أنْ يكونَ كالعَلِيلِ معَ الطَّبيبِ، لَا يخرجُ عمَّا يأمُرُهُ بهِ منَ الأدويةِ

---

(١) يحمل علىٰ أن الكتاب بمعنىٰ المكتوب، والقصد: المكتوب في آخر الفقرة التي يتناولها بالشرح، وهو قوله: «يجب أن يجتهد ليعرف ربه»، أو كان في الأصل: الكلام، وحرفه الناسخ.

والأغذيةِ والحِمْيَةِ[(١)] بالكليَّةِ[(٢)].

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «وَمَا لَمْ يَتَجَرَّدِ المُرِيدُ عَنْ كُلِّ عَلَاقَةٍ لَا يَجُوزُ لِشَيْخِهِ أَنْ يُلَقِّنَهُ شَيْئًا مِنَ الأَذْكَارِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُقَدِّمَ التَّجْرِبَةَ لَهُ، فَإِذَا شَهِدَ قَلْبُهُ لِلْمُرِيدِ بِصِحَّةِ العَزْمِ فَحِينَئِذٍ يَشْتَرِطُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْضَىٰ بِمَا يَسْتَقْبِلُهُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِن فُنُونِ تَصَارِيفِ القَضَاءِ، فَيَأْخُذُ عَلَيْهِ العَهْدَ بِأَنْ لَا يَنصَرِفَ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ بِمَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ الضَّرَرِ وَالذُّلِّ، وَالفَقْرِ وَالأَسْقَامِ وَالآلَامِ، وَأَلَّا يَجْنَحَ بِقَلْبِهِ إِلَى السُّهُولَةِ، وَلَا يَتَرَخَّصَ[(٤)] عِنْدَ هُجُومِ الفَاقَاتِ، وَحُصُولِ الضَّرُورَاتِ، وَلَا يُؤْثِرَ الدَّعَةَ، وَلَا يَسْتَشْعِرَ الكَسَلَ[(٥)]، فَإِنَّ وَقْفَةَ الْمُرِيدِ شَرٌّ مِن فَتْرَتِهِ.

وَالفَرْقُ بَيْنَ الفَتْرَةِ وَالوَقْفَةِ: أَنَّ الفَتْرَةَ رُجُوعٌ عَنِ الإِرَادَةِ وَخُرُوجٌ عَنْهَا، وَالوَقْفَةُ سُكُونٌ عَنِ السَّيْرِ بِاسْتِجْلَاءِ حَالَاتِ الكَسَلِ.

وَكُلُّ مُرِيدٍ وَقَفَ فِي ابْتِدَاءِ إِرَادَتِهِ لَا يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «ولا ينبغِي للشَّيخِ أَنْ يلقِّنَ المُريدَ شيئًا من الأذكارِ حتَّىٰ يَمْتَحِنَهُ» يعني: بالأعمالِ وترتيبِ الأورادِ، والتزامِ المشاقِّ، والصَّبْرِ علىٰ الجوعِ، وأنَّهُ لا يتركُ ما عزمَ عليهِ ولوْ عرَّضتهُ منَ الأعمالِ الشَّاقَّةِ ما لا قدرةَ لهُ علىٰ حَمْلِهِ منَ الأمورِ المخوِّفَةِ ما يفزعُهُ ويعجزُ عنْ حملِهِ صبْرُهُ وقوَّتُهُ، فإنَّهُ يتعرَّضُ فِي سُلُوكِهِ لهذَا الطَّرِيقِ لأمْرٍ عظيمٍ مُشِقٍّ يعترضُهُ فيهِ آلامٌ وأسقامٌ في بدنِهِ، وثقلٌ وكسلٌ علىٰ قلبِهِ، وإنْ لمْ يكنْ شديدَ العزمِ علىٰ تحمُّلِهِ وإلَّا رجعَ مِنْ حيثُ

---

(١) أي: الاحتماء، ففي الكليات ص٤٠٩: «والحمية كالقنية الاحتماء». وانظر: القاموس ص١٦٤٧.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٦٧.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٥.

(٤) أي: لا يترخص بدون شاهد المتابعة.

(٥) أي: لا يخطر بباله، بل يداوم علىٰ الجد والاجتهاد.

جاءَ، أوْ وقفَ عَنْ سَيْرِهِ وَسُلوكِهِ.

وَقَوْلُ الإِمَامِ: «**الوقفةُ شَرٌّ من الفَتْرةِ**» وبيَّنَ ذلكَ بأنَّ الفتورَ إعراضٌ عنِ السُّلوكِ بالكلِّيَّةِ وتَرْكٌ لمَا هوَ عليهِ، والوقوفَ استجلاءٌ واستلذاذٌ لمَا هوَ [٣/١٠٠ب] عليهِ، فإذَا استلذَّ مَا هوَ عليهِ منَ الوقوفِ مِنْ حالِهِ لمْ ينتقلْ عمَّا هوَ فيهِ إلىٰ مَا هوَ أعلَىٰ منهُ؛ لمحبَّتِهِ لمَا هوَ عليهِ بخلافِ الفَتْرَةِ، فإنَّ العَبْدَ يحسُّ مِنْ نفسِهِ خَطَأَهُ وحَيدَهُ عنِ الطَّريقِ، فيُرجَىٰ لهُ الرُّجُوعُ إليهِ وردُّ نفسِهِ إلىٰ مَا كانَتْ عليهِ، بخلافِ مَنِ استحسنَ حالَهُ، واعتقدَ كمالَ نفسِهِ وأنَّهُ مستقيمٌ فِي حالِهِ، فإنَّهُ يقفُ معَ ما هوَ فيهِ، ويمنعُهُ ذلكَ منَ التَّرقِّي والانتقالِ إلىٰ مَا هوَ أعلَىٰ منهُ ممَّا يريدُهُ ويَبْغِيهِ، ولذلِكَ قالَ الإمامُ: «**فكلُّ مريدٍ وقفَ فِي ابتداءِ إرادتِهِ لا يجيءُ منهُ شيءٌ**»، والسِّرُّ فيهِ: أنَّهُ يعتقدُ كمالَ نفسِهِ[١]، واستحسانَ حالِهِ، فيبعدُ منهُ الانتقالُ إلىٰ ما هوَ أعلَىٰ[٢].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٣]: «**فَإِذَا جَرَّبَهُ شَيْخُهُ[٤] فَيَجِبُ أَنْ يُلَقِّنَهُ ذِكْرًا مِنَ الأَذْكَارِ عَلَىٰ مَا يَرَاهُ شَيْخُهُ، فَيَأْمُرُهُ أَنْ يَذْكُرَ ذَلِكَ الاِسْمَ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يُسَوِّيَ قَلْبَهُ مَعَ لِسَانِهِ، فَيَقُولَ لَهُ: اُثْبُتْ عَلَىٰ اسْتِدَامَةِ هَذَا الذِّكْرِ كَأَنَّكَ مَعَ رَبِّكَ [أبدًا][٥] بِقَلْبِكَ، وَلَا يَجْرِي عَلَىٰ لِسَانِكَ غَيْرُ هَذَا الاِسْمِ مَا أَمْكَنَكَ.**

ثُمَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَكُونَ أَبَدًا فِي الظَّاهِرِ عَلَىٰ الطَّهَارَةِ[٦]، وَأَلَّا يَكُونَ نَوْمُهُ إِلَّا غَلَبَةً، وَأَنْ يُقَلِّلَ مِنْ غِذَائِهِ بِالتَّدْرِيجِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّىٰ يَقْوَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا يَأْمُرُهُ أَنْ يَتْرُكَ

---

(١) أي: بزعمه أنه وصل، وما دري بجهله أنه قد انفصل.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٦٨.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٤.

(٤) وعلم صِدْقهُ بعد التجربة.

(٥) زيادة من (ف).

(٦) أي: الحسية والمعنوية.

عَادَتَهُ بِمَرَّةٍ[١]، فَإِنَّ فِي الخَبَرِ[٢]: «إِنَّ المُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَىٰ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «أنْ يلقِّنَهُ شيخُهُ ذِكْرًا منَ الأذكارِ يراهُ مصلحةً في حقِّهِ»، وهذَا إنَّمَا يسألُهُ شيخُهُ أيَّ الأذكارِ منْ أسماءِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ يجدُ أثرَهُ فِي قلبِهِ أتَمَّ وأرهبَ وأشدَّ خشيةً، ويجدُ قلبَهُ فيهِ أثبتَ وأرغبَ؟ فإذَا لقَّنَهُ ذلكَ الاسمَ أمرَهُ أنْ يذكُرَهُ بلسانِهِ مدَّةً منَ الزَّمانِ، ولَا يشتغلَ بغيرِهِ، وتكونَ نيَّتُهُ فيهِ امتثالَ أمرِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بالذِّكْرِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

فإذَا دامَ علىٰ ذِكْرِ اللِّسانِ مدَّةً أمرَهُ بإحضارِ قَلْبِهِ معَ لسانِهِ، ويستشعرُ فِي حالِ ذِكْرِهِ سماعَ ربِّهِ لهُ، وأنَّهُ يراهُ ويسمعُ ذِكْرَهُ ويدومُ علىٰ ذلكَ، ولَا يشتغلُ بغيرِهِ منَ الأذكارِ إلَّا فِي أوقاتِ الصَّلواتِ وأوقاتِ [٣/١٠١أ] قضاءِ الحاجاتِ، ويأمرُهُ بتقليلِ الطَّعامِ والمنامِ، «فلَا ينامُ إلَّا غلبةً، ويقلِّلُ طعامَهُ شيئًا فشيئًا» حتَّىٰ تتغيَّرَ عادتُهُ فِي الأكلِ، ويخفَّ عليهِ التَّقلُّلُ[٣]، ولَا يأمرُهُ بمخالفةِ عادتِهِ دفعةً، فإنَّ ذلكَ يُغيِّرُ مزاجَهُ، وتختلفُ عليهِ أحوالُهُ، وربَّمَا كانَ سببَ مرضِهِ، ولا سيَّمَا معَ دوامِ ذِكْرِهِ وقلَّةِ غذائِهِ.

فإذَا أرادَ أنْ ينقصَ طعامَهُ قدْ تقدَّمَ[٤] أنَّ بعضَهُمْ كانَ ينقصُ قدرَ أُذُنِ السِّنَّورِ؛ وهوَ قدرُ لقمةٍ، ولَا ينقصُ كلَّ ليلةٍ لقمةً لقمةً؛ لئلَّا يُسْرِعَ النَّقصَ بلْ يُنقصُ لقمَةً، ويستمرُّ عليهَا ثلاثَ ليالٍ تقديرًا، وينقصُ أُخْرَىٰ ويستمرُّ عليهَا، فإذَا وصلَ إلىٰ الحدِّ الَّذِي أشارَ إليهِ الخبرُ الصَّحيحُ وهوَ[٥]: «ثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ

---

(١) أي: بالكلية.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) فينشط للعبادة.

(٤) الدلالة ٢/٢٩٠.

(٥) سبق تخريجه.

لِنَفسِهِ» ، فليمتَثِلْ وليدِمْ عليهِ ، فهيَ عادةٌ جيِّدةٌ وحدٌّ شَرْعيٌّ بعيدٌ منَ الضَّررِ ، كثيرُ النَّفعِ لمَنْ أعانَهُ اللهُ عليهِ ، ولهذَا قالَ : «**إِنَّ المُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَىٰ**» ؛ والمنبتُّ : هوَ المنقطعُ فِي الطَّريقِ الَّذِي حمَّلَ دابَّتَهُ مَا لا تطيقُهُ ، فلَا وصلَتْ إلىٰ المقصودِ الَّذِي يريدُهُ ، ولَا دامَتْ حياتُهَا لينتفعَ بهَا .

وأمَّا نومُهُ فهوَ تابعٌ لقلَّةِ أكلِهِ وشُرْبِهِ ، فمتىٰ قلَّ أكلُهُ وشربُهُ خفَّ نَوْمُهُ فِي الغالبِ ، وإذَا كانَ كذلكَ ودامَ علىٰ الذِّكرِ ومُلازمَةِ الاسمِ الَّذِي لقَّنهُ إيَّاهُ شيخُهُ رزقَهُ اللهُ اللَّذَّةَ فيهِ ، وصارَتْ لذَّتُهُ تمنعُهُ منَ المنامِ والطَّعامِ ، وصارَ لهُ حاملٌ غيرُ خارجٍ عَنْ أمورِهِ المُعتَادةِ ، ذلكَ فضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَنْ يشاءُ .

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1] : «**ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِإِيْثَارِ الخُلْوَةِ وَالعُزْلَةِ ، وَيَجْعَلُ اجْتِهَادَهُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ لَا مَحَالَةَ فِي نَفْيِ الخَوَاطِرِ الدَّنِيَّةِ ، وَالهَوَاجِسِ[2] الشَّاغِلَةِ عَنِ القَلْبِ .**

وَاعْلَمْ أَنَّ فِي هَذِهِ الحَالَةِ قَلَّمَا يَخْلُو المُرِيدُ فِي أَوَانِ خُلْوَتِهِ فِي ابْتِدَاءِ إِرَادَتِهِ مِنَ الوَسَاوِسِ فِي الاعْتِقَادِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي المُرِيدِ كِيَاسَةُ قَلْبٍ ، وَقَلَّ مُرِيدٌ لَا تَسْتَقْبِلُهُ هَذِهِ الحَالَةُ فِي ابْتِدَاءِ إِرَادَتِهِ ، وَهَذَا مِنَ الامْتِحَانَاتِ الَّتِي تَسْتَقْبِلُ المُرِيدِينَ .

فَالوَاجِبُ عَلَىٰ شَيْخِهِ إِذَا رَأَىٰ فِيهِ كِيَاسَةً : أَنْ يَحْمِلَهُ [٣/١٠١ب] **عَلَىٰ الحُجَجِ[3] العَقْلِيَّةِ ؛ فَإِنَّ بِالعِلْمِ يَتَخَلَّصُ ـ لَا مَحَالَةَ ـ المُتَعَرِّفُ مِمَّا يَعْتَرِيهِ مِنَ الوَسَاوِسِ .**

وَإِنْ تَفَرَّسَ شَيْخُهُ فِيهِ القُوَّةَ وَالثَّبَاتَ فِي الطَّرِيقَةِ أَمَرَهُ بِالصَّبْرِ وَاسْتِدَامَةِ الذِّكْرِ حَتَّىٰ تَسْطَعَ فِي قَلْبِهِ أَنْوَارُ القَبُولِ ، وَتَطْلُعَ فِي سِرِّهِ شَمْسُ الوُصَالِ ، وَعَنْ قَرِيبٍ يَكُونُ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا لِأَفْرَادِ المُرِيدِينَ[4] ، فَأَمَّا الغَالِبُ أَنْ يَكُونَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٥ ـ ٥٧٦ .

(٢) أي : خواطر النفس .

(٣) في (ف) : يحيله بالحجج .

(٤) أي : ممن تفرس فيهم الشيخ الثبات والقوة في سلوك الطريقة .

مُعَالَجَتُهُمْ بِالبِرِّ وَإِلَى النَّظَرِ(١)، وَتَأَمُّلِ الآيَاتِ بِشَرْطِ تَحْصِيلِ عِلْمِ الأُصُولِ(٢) عَلَى قَدْرِ الحَاجَةِ الدَّاعِيَةِ لِلْمُرِيدِينَ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ يَكُونُ لِلْمُرِيدِينَ عَلَى الخُصُوصِ بَلَايَا مِنْ هَذَا البَابِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا خَلَوا فِي مَوَاضِعِ ذِكْرِهِمْ، أَوْ كَانُوا فِي مَجَالِسِ سَمَاعٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ يَهْجِسُ فِي نُفُوسِهِمْ وَيَخْطُرُ بِبَالِهِمْ أَشْيَاءُ مُنْكَرَةٌ يَتَحَقَّقُونَ أَنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَعْتَرِيهِمْ شُبْهَةٌ فِي أَنَّ ذَلِكَ بَاطِلٌ، وَلَكِنْ يَدُومُ ذَلِكَ فَيَشْتَدُّ تَأَذِّيهِمْ بِهِ، حَتَّى يَبْلُغَ ذَلِكَ حَدًّا يَكُونُ أَصْعَبَ شَتْمٍ وَأَقْبَحَ قَوْلٍ وَأَشْنَعَ خَاطِرٍ؛ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ لِلْمُرِيدِ إِجْرَاءُ ذَلِكَ عَلَى اللِّسَانِ وَإِبْدَاؤُهُ لِأَحَدٍ، وَهَذَا أَشَدُّ شَيْءٍ يَقَعُ لَهُم.

فَالوَاجِبُ عِنْدَ هَذَا تَرْكُ مُبَالَاتِهِمْ بِتِلْكَ الخَوَاطِرِ، وَاسْتِدَامَةُ الذِّكْرِ وَالابْتِهَالِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِاسْتِدْفَاعِ ذَلِكَ(٣).

وَتِلْكَ الخَوَاطِرُ لَيْسَتْ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ هَوَاجِسِ النَّفْسِ، فَإِذَا قَابَلَهَا العَبْدُ بِتَرْكِ المُبَالَاةِ بِهَا يَنْقَطِعُ ذَلِكَ عَنْهُ(٤)».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَولُهُ: «ثمَّ يأمرُهُ شيخُهُ بالخلوةِ والانقطاعِ عنِ النَّاسِ»، وتوالَى على قلبِهِ ولسانِهِ إقامةُ ذلكَ الذِّكرِ، وأيُّ شيءٍ خطرَ لهُ فِي أثناءِ ذِكرِهِ فِي خلوتِهِ عرضَهُ(٥) علَى شيخِهِ، فإنَّ الشَّيطانَ ـ لعنَهُ اللهُ ـ إنَّما يشتدُّ حِرْصُهُ وإهلاكُهُ لمَنْ رآهُ عزمَ علَى محاربتِهِ، والخلاصِ مِنْ شرِّهِ، ونيلِ أرفعِ الدَّرجاتِ فِي معرفةِ ربِّهِ، فإنَّ المريدَ يُبلَى فِي هذهِ الأوقاتِ بإيرادِ الشُّبَهِ والتَّشكيكِ بمَا يعتقدُهُ

(١) أي: بالرد إلى النظر.

(٢) أي: علم أصول الدين. انظر: نتائج الأفكار ٤/٣٦٤.

(٣) أي: بطلب دفعه.

(٤) في الأصل: عنهم، والأصح المثبت.

(٥) في الأصل: أعرضه، والصواب المثبت.

في اللهِ - تعالىٰ - وفِي رسولِهِ، فإنَّ العدوَّ يعلمُ إنْ صحَّ لهُ شَكٌّ فِي شَيءٍ مِنْ ذلِكَ صارَ المريدُ مِنْ حِزْبِهِ، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، فإنْ كانَتْ وساوسُهُ الَّتِي تعترِيهِ فِي خلوتِهِ مِن التفاتِ قلبِهِ للعَاداتِ، وذِكْرِ بعضِ المُشْتَهياتِ بحضورِ أنواعِ الكسلِ والرَّاحاتِ، فيأمرُهُ شيخُهُ بالإعراضِ عن ذلكَ ومُلازمةِ الذِّكْرِ، وجمعِ همَّتِهِ عليهِ وإفراغِ قلبِهِ لهُ [١٠٢/٣أ](١)، [فلا يَبْقَىٰ](٢) لِغَيرِهِ فيهِ متَّسعٌ، فتنقطعُ عنهُ تلكَ الوسَاوسُ.

وأمَّا إنْ كانَ الَّذِي [يَرِدُ](٣) لهُ من التَّشكيك فِي أُصُولِ الدِّياناتِ، فلَا يخلِّصُهُ إلَّا أنْ يكونَ شَيْخُهُ بصيرًا بهذا الفَنِ، فيبيِّنَ لهُ وجهَ الشُّبهةِ ويحلَّهَا مِنْ قلبِهِ بواضحِ الدَّلالات؛ [لأنَّ مُجَرَّدَ](٤) الذِّكر والشّغل بهِ لا يريحُهُ ممَّا هوَ فيهِ منَ الشُّبُهاتِ، فَإِنْ لَم يَكُنْ شَيْخُهُ بصيرًا بفنِ الأصُول، لَمْ يحصلْ للتَّلميذِ منهُ مقصودٌ ولَا مَأمُول، فَلا يَنْفَعُ الشَّيخُ إذَا لَمْ يكنْ بصيرًا بهذا الفنِّ وكانَ معتقدًا للحقِّ -، [وعليه فَلا بُدَّ](٥) أنَّ يُعرِّضَ المريدَ إلَىٰ الخلوةِ؛ لئلَّا تقوىٰ عليهِ هذهِ الشُّرورُ، فيقطعَ المريدُ بذلكَ شُبْهَةً لا قدرةَ لشيخِهِ علَىٰ حلِّهَا، فيكونَ هلاكُهُ، [والأمرُ كَذَلِكَ](٦) اللَّهمَّ إلَّا أنْ يكونَ المريدُ حَسَنَ الاعتقادِ لمذهبٍ أوْ [مُطَّلِعٍ](٧) علىٰ تفاصيلِهِ، فيأمرُهُ شيخهُ بنفْيِ مَا يخالفُ اعتقادَهُ، ويستمرُّ علَىٰ ما [مَضادَّةِ](٨) هَوَاهُ، ويدومُ التجاؤُهُ

---

(١) هذه اللوحة اعتراها طمس كثير، وقد وفَّق الله للتغلب علىٰ معظمه.

(٢) طمس بمقدار كلمتين في الأصل، ولعلها كذلك.

(٣) طمس موضعها في الأصل.

(٤) طمس بمقدار كلمتين في الأصل، ولعلها كذلك.

(٥) طمس بمقدار كلمتين في الأصل، ولعلها كذلك.

(٦) طمس بمقدار كلمتين في الأصل، والأثر المتبقي منهما يقربُ من ذلك.

(٧) طمس بقدر كلمة في الأصل، ولعلها كذلك.

(٨) طمس بقدر كلمة، وأثرها المتبقي يقربُ من ذلك.

إلى اللهِ ـ تعالى ـ فِي سلامتِهِ ونجاتِهِ منْ كلِّ ما يُؤذِيهِ، ويُعِينُهُ شيخُهُ بهمَّتِهِ ودعائِهِ، فيزيلُ اللهُ ـ تعالى ـ عنْ قلبِهِ كلَّ شبهةٍ، ويخلقُ لهُ العِلمَ الحقَّ، وذلكَ أنَّ كلَّ عِلمٍ نظريٍّ يجوزُ أنْ يخلقَهُ اللهُ ـ تعالى ـ ضَرُوريًّا للعبدِ، ولا سيَّمَا إنْ كانَ مقبلًا عليهِ مضطرًّا فِي نجاتِهِ ممَّا يضرُّهُ، سائلًا منهُ هدايَتَهُ وعَونَهُ.

هذَا هوَ الَّذِي عبَّرَ الشَّيخُ عنهُ بأنْ «تَسْطَعَ[1] فِي قلبِهِ أنوارُ القبولِ» وينشرحَ صَدرُهُ بمعرفةِ اللهِ ـ تعالى ـ بمَا يخلقُهُ لهُ منْ أفعالِهِ فِي قلبِهِ، ممَّا يُكملُ معرفتَهُ بهِ، ويقوِّي يقينَهُ، ويضعِفُ خواطِرَ الشَّيطانِ عندَهُ.

وعلى الجُمْلَةِ: فالخلوةُ للذِّكْرِ واستدامتِهِ معَ الجُوعِ والسَّهَرِ محلٌّ فيهِ غررٌ، فَإنْ لَمْ يكنِ الشَّيخُ يُراعِي هذَا التِّلميذَ فِي زمنِ خُلوتِهِ بالنَّظرِ لغذائِهِ، ويُغيِّرُ حَالتَهُ رُبَّمَا يقعُ فِي قلبِهِ مِنْ نَزْغِ الشَّيطانِ ووسوستِهِ وهواجسِ نفسِهِ، وقَدْ جاءَ بعضُ الصَّحابةِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالُوا[2]: «يقعُ فِي أنفسِنَا أمورٌ يودُّ أحدُنَا أنْ يخرَّ منَ السَّماءِ فتخطفَهُ الطَّيرُ ولَا يقعَ لهُ ذلكَ، فقالَ: أَوَجَدْتُمُوهُ؟، قالُوا: نعَمْ، قالَ: ذَلِكَ صَرِيحُ الإيمانِ»، يعنِي: ردُّهُمْ وكراهتُهُمْ وتألُّمُهُمْ وتمنِّيهِمُ الموتَ لمَا وقعَ لهُمْ ممَّا يخالفُ اعتقادَهُمْ [٣/١٠٢ب] فِي اللهِ ورسولِهِ هوَ صريحُ الإيمانِ لا نفسُ الوسوسةِ، بَلْ مُرادُهُم هنَا هوَ صريحُ الإيمانِ ولوْ لمْ يكنْ فِي أنفسِهِمِ اعتقادٌ صحيحٌ يَرُدُّ ما تُثْبِتُهُ خَواطِرُ الشَّيطانِ لقبلُوا منهُ ووافقُوهُ.

وفِي بَعْضِ طُرُقِ الحديثِ[3]: «فيقولُ: مَنْ خلقَ كذَا؟ مَنْ خَلَقَ كذَا؟ مَنْ خلقَ كذَا؟ مَنْ خلقَ ربَّكَ؟ فإذَا كانَ كذلِكَ فليستعِذِ العبدُ باللهِ ولينْتَهِ[4]».

---

(١) أي: يرتفع ويظهر.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١١٩ ـ حديث رقم (١٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١١٩٤ ـ حديث رقم (٣١٠٢)، ومسلم في صحيحه ١/١٢٠ ـ حديث رقم (١٣٤).

(٤) أي: ينكف عن الاسترسال في ذلك.

وهذا دليلٌ على أنَّ الأمرَ إذا ضاقَ على المريدِ فِي الشُّبْهَةِ [شيءٌ وأرادَ](١) حَلَّهَا بسرعةٍ فليلجأْ إِلى اللهِ - تعالى - فِي ذلكَ، وليَنْتَهِ، وليُعْرِضْ عن الفكرةِ فيها، فإنَّ اللهَ - تعالى - يزيلُهَا عنْ قلبِهِ، ويبيِّنُ لهُ حَلَّهَا، ويقوِّي يقينَهُ فيمَا يلهمُهُ إيَّاهُ منَ الحقِّ المخالفِ لهَا، كلُّ ذلكَ [بِمَنِّهِ] وكرَمِهِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢): «وَمِنْ آدابِ المُرِيدِ، بَلْ مِنْ فَرَائِضِ حَالِهِ: أَنْ يُلَازِمَ مَوْضِعَ إِرَادَتِهِ(٣)، وَأَلَّا يُسَافِرَ قَبْلَ أَنْ تَقْبَلَهُ الطَّرِيقُ(٤)، وَقَبْلَ الوُصُولِ بِالقَلْبِ إِلى الرَّبِّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -؛ فَإِنَّ السَّفَرَ لِلمُرِيدِ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ سُمٌّ قَاتِلٌ، وَلَا يَصِلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلى مَا كَانَ يُرْجَى لَهُ إِذَا سَافَرَ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ.

فَإِذَا أَرَادَ اللهُ - تعالى - بِمُرِيدٍ خَيْرًا ثَبَّتَهُ فِي أَوَّلِ إِرَادَتِهِ، وَإِذَا أَرَادَ بِمُرِيدٍ سُوْءًا رَدَّهُ إِلى مَا خَرَجَ عَنْهُ مِنْ حِرْفَتِهِ أَوْ حَالَتِهِ، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِمُرِيدٍ مِحْنَةً شَرَّدَهُ فِي مَطَارِحِ غُرْبَتِهِ، هَذَا إِذَا كَانَ المُرِيدُ يَصْلُحُ لِلوُصُولِ.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ شَابٌّ(٥) طَرِيقَتُهُ الخِدْمَةُ فِي الظَّاهِرِ بِنَفْسِهِ لِلْفُقَرَاءِ، وَهُوَ أَدْوَنُهُمْ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ رُتْبَةً، فَهُوَ وَأَمْثَالُهُ يَكْتَفُونَ بِالتَّرَسُّمِ(٦) فِي الظَّاهِرِ، فَيَنْقَطِعُونَ فِي الأَسْفَارِ، وَغَايَةُ نَصِيبِهِمْ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ حِكَايَاتٌ(٧) يُحَصِّلُونَهَا، وَزِيَادَةٌ لِمَوَاضِعَ يُرْتَحَلُ إِلَيْهَا، وَلِقَاءُ شُيُوخٍ بِظَاهِرِ سَلَامٍ، فَيُشَاهِدُونَ الظَّوَاهِرَ، وَيَكْتَفُونَ بِمَا فِي هَذَا

---

(١) طمس بالأصل قدر كلمتين، وقد أفدتُ مضمونهما مما أفاده الشيخ زكريا من المؤلف في: إحكام الدلالة ٢/١٠٧٠.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٦ - ٥٧٧.

(٣) وهو موضع الخلوة.

(٤) أي: طريق الصوفية، قبل أن يتمكن فيها.

(٥) في الرسالة القشيرية المطبوع: شابًّا، و(كان) تامة على رواية الرفع، أي: وُجد شابٌّ.

(٦) أي: برسم أهل هذه الطريقة.

(٧) في الرسالة القشيرية: حاجات.

البَابِ مِنَ السَّيْرِ، فَهَؤُلَاءِ الوَاجِبُ لَهُمْ دَوَامُ السَّفَرِ حَتَّىٰ لَا تُؤَدِّيهِمُ الدَّعَةُ(١) إِلَىٰ ارْتِكَابِ مَحْظُورٍ، فَإِنَّ الشَّابَّ إِذَا وَجَدَ الرَّاحَةَ وَالدَّعَةَ كَانَ فِي مَعْرِضِ الفِتْنَةِ(٢).

وَإِذَا تَوَسَّطَ المُرِيدُ جَمْعَ الفُقَرَاءِ وَالأَصْحَابِ فِي بِدَايَتِهِ فَهُوَ مُضِرٌّ لَهُ جِدًّا، فَإِنِ امْتُحِنَ وَاحِدٌ بِذَلِكَ فَلْيَكُنْ سَبِيلَهُ احْتِرَامُ [٣/١٠٣أ] الشُّيُوخِ، وَالخِدْمَةُ لِلأَصْحَابِ، وَتَرْكُ الخِلَافِ عَلَيْهِمْ، وَالقِيَامُ بِمَا فِيهِ رَاحَةُ فَقِيرٍ، وَالجُهْدُ فِي أَلَّا يَسْتَوْحِشَ مِنْهُ قَلْبُ شَيْخٍ.

وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي صُحْبَتِهِ مَعَ الفُقَرَاءِ أَبَدًا أَخْصَمَهُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَلَا يَكُونَ خَصْمَ نَفْسِهِ عَلَيْهِمْ، وَيَرَىٰ لِكُلِّ وَاحِدٍ عَلَيهِ حَقًّا وَاجِبًا، وَلَا يَرَىٰ لِنَفْسِهِ وَاجِبًا عَلَىٰ أَحَدٍ.

وَيَجِبُ أَلَّا يُخَالِفَ المُرِيدُ أَحَدًا وَإِنْ عَلِمَ أَنَّ الحَقَّ مَعَهُ؛ يَسْكُتُ وَيُظْهِرُ الوِفَاقَ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَكُلُّ مُرِيدٍ يَكُونُ فِيهِ ضَحِكٌ وَلِجَاجٌ وَمُمَارَاةٌ(٣) فَإِنَّهُ لَا يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذَا كانَ أسَدُّ أمورِ المُريدِ قطعَ المُشغلاتِ عنِ القلبِ، وفراغَهُ لمَا يشتغلُ بهِ منَ المهمَّاتِ، وما عزَمَ عليهِ من سُلُوكِهِ للقُرْبِ من خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، والخلوةِ ليشتغلَ فيهَا بكمالِ المُنَاجَاتِ، والحضورِ بينَ يدَيِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ ونيلِ أشرفِ الحالاتِ، فاشتغالُهُ بالأسفارِ ممَّا يشوِّشُ عليهِ هذَا المرامَ، فجلوسُهُ فِي محلِّ توبتِهِ وملازمةُ شيخِهِ والالتزامُ لمَا يأمرُهُ بهِ أَوْلَىٰ بهِ، فإنَّهُ إذَا متىٰ سافرَ لَا يخلُو: إمَّا أنْ يكونَ بإذنِهِ، أوْ بغيرِ إذْنِهِ؛ فسفرُهُ بغيرِ إذنِهِ قَدْ تقدَّمَتْ مفاسدُهُ وآثارُ مخالفةِ المشايخِ، وإنْ كانَ بإذنِهِ فذلكَ أدلُّ دليلٍ علَىٰ أنَّهُ عندَهُ لا يصلحُ لهذَا الشَّأنِ، وقدِ امتحنَهُ فلمْ يَرْضَهُ، ولمْ يرَهُ أهلًا لمَا رغبَ فيهِ، فأعرضَ

---

(١) أي: السكون والإقامة.

(٢) في (ف) والأصل: بعرض الفترة، والمثبت من الرسالة القشيرية المطبوع

(٣) أي: غضب ومجادلة.

عنهُ وتركَهُ.

أمَّا إذَا تمكَّنَ فِي حالِهِ، وحصلَتْ بينَهُ وبينَ ربِّهِ معاملةٌ بقلبِهِ، وأنِسَ معَهُ في خلوتِهِ وجلوتِهِ، فيكونُ سفرُهُ زيادةً فِي تحقيقِ أحوالِهِ، وبُعدًا عنِ الأوطانِ لاختيارِ توكُّلِهِ ورضاهُ بمَا يُجريهِ عليهِ الحقُّ ويُريهِ فِي غَيْرِهِ مِنْ آثارِهِ، فتتزايدُ معارِفُهُ، وتتكاملُ أحوالُهُ(١).

وأمَّا إذا لمْ يصلحْ لمَا ذكرْنَاهُ منَ الأحوالِ الشَّريفةِ والأعمالِ القلبيَّةِ، وإنَّمَا كانَ اللَّائقُ بهِ خدمةَ الصَّالحينَ وزيارَتَهُم، وحصولَ البركةِ بقُربِهِم، والاقتداءَ ببعضِ أعمالِهِمْ وآدابِهِمْ، فالسَّفرُ لهذا النَّوعِ منَ النَّاسِ لا يضرُّهُ، بَلْ ينتفعُ بهِ فإنَّهُ يباشرُ فِي كلِّ وقتٍ منْ أحوالِ المشايخ ـ علىٰ اختلافِ آدابِهِمْ وعلومِهِمْ ومعاملاتِهِمْ لربِّهِم ـ مَا ينتفعُ بهِ، ولَوْ أخذَ مِنْ كُلِّ شيخٍ خُلُقًا واحدًا أو صِفَةً وَاحِدَةً أو أدبًا واحدًا لحصلَ لهُ خيرٌ كثيرٌ علىٰ حسبِ مَنْ يزورُهُ ويلقاهُ منَ المشايخِ، [٣/١٠٣ب] ويحصلُ لهُ في سياحتِهِ أنواعٌ منَ الزِّياراتِ وحجَّاتٌ وبركاتٌ علىٰ حسبِ جدِّهِ وقوَّتِهِ ومقاساةِ المشقَّاتِ فِي الأسفارِ، ويحملُ ما يعارضُهُ فِي سُلُوكِهِ وأَسْفَارِهِ منَ البلِيَّاتِ، وما ينتفعُ بهِ مِنْ رُؤيةِ المشايخِ وحُصُولِ البركاتِ.

وهوَ أيضًا إذَا اشتغلَ بالأسفارِ شغلَهُ ذلكَ عَنْ حركاتِ النَّفسِ وميلِهَا إلىٰ راحةِ التَّزويجِ، فيشتغلُ الشُّغلَ العظيمَ الَّذِي تنقطعُ فيهِ الأعمارُ، ويشتغلُ قلبُهُ فِي معاناةِ الأهلِ والولدِ اللَّيلَ والنَّهارَ، فإذا توالَىٰ عليهِ ذلكَ توالَتْ عليهِ الغفلاتُ، وتراكَمَتْ عليهِ قَسَوَاتٌ، فالسَّفرُ وزيارةُ المشايخِ شُغْلًا عَنْ هذهِ البليَّاتِ، والآفاتِ أولَىٰ بهِ وأقربُ حتَّىٰ يقوَىٰ قلبُهُ ويزهدَ ببركاتِ مَنْ يلقاهُ منَ المشايخِ ودعائِهِمْ فِي كثيرٍ منَ المشتهياتِ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٧١.

وقولُهُ: «**وإذَا توسَّطَ الفقيرُ جمْعًا منَ الفقراءِ فِي بدايتِهِ فهوَ مضرٌّ لهُ جدًّا**»، وهذَا الَّذِي ذكرَهُ الشَّيخُ هوَ ضدُّ ما أمَرَ بهِ المريدَ أوَّلًا؛ مِنْ جمْعِ الهمِّ، وقوَّةِ الصِّدقِ والخلوةِ، وملازمةِ العملِ الشَّديدِ، فإذَا لَمْ يمتثلْ مَا ذكرَ أنَّهُ مِنْ شروطِ فلاحِهِ أوَّلًا، فكيفَ يخالطُ الجماعاتِ ويسترسلُ معَهُمْ فِي أنواعِ الكلامِ وصنوفِ الشَّهواتِ؟! فهذَا بعيدٌ عمَّا عزمَ عليهِ منَ الخيراتِ، فالأَوْلَىٰ بهِ ابتداءُ أمرِهِ كمَا أنَّهُ لا يُسافرُ، فكذلِكَ لا يخالطُ النَّاسَ، وإنْ لمْ يكنْ فِي خُلْوَةٍ كانَ مشغولًا بنفسِهِ، ذاكِرًا لربِّهِ في سائرِ تصرُّفاتِهِ فيمَا لا بُدَّ لهُ منهُ، فهوَ أقربُ لاستقامتِهِ وَنَيْلِ بَعْضِ رَاحَتِهِ.

فإنْ دعَتْهُ ضرورةٌ إلىٰ الخلطةِ ـ ولا بُدَّ ـ فليحترِمِ المشايخَ، ويُنزِلْهُمْ منزلتَهُمْ فِي الحُرمةِ والأدبِ، وليعاشِرِ الأمثالَ والأقرانَ، معَ دوامِ حذرِهِ منهُم، والخوفِ مِنْ فَوَاتِ المطلبِ والأربِ، فإنْ لمْ يكنْ كذلكَ ثارَتْ منهُ أخلاقٌ مُوجبُهَا الخلطةُ، واحتاجَ إلىٰ مقابلةِ مَنْ يؤذيهِ، وإلىٰ العفوِ عمَّنْ يظلمُهُ، وهذَا أمرٌ شقَّ عليهِ؛ لقلَّةِ اعتيادِهِ لهُ وقُربِهِ مِنْ سوءِ الأخلاقِ ولا مؤدِّبَ لهُ يجري علىٰ مقتضَىٰ أوامِرِهِ فيكونَ [١٠٤/٣أ] سببَ حفظِهِ وصيانَتِهِ، فتكونَ الخلطةُ مضرَّةً لهُ جدًّا[١]، فيجتهدُ علىٰ هذَا أنْ يوافقَ الجماعةَ بغايةِ إمكانِهِ، ويجتهدَ ألَّا يتغيَّرَ عليهِ قلبُ شيخِهِ؛ لمَا يرَىٰ منْ سُوءِ أفعالِهِ، ويتحمَّلَ بعضَ ما يلقاهُ منَ الأذَىٰ مِنْ أقرانِهِ وأمثالِهِ، ويكونَ خصمًا لهُمْ علىٰ نفسِهِ بتقديرِ المَعَاذِيرِ لهُمْ، وعدمِ قبولِ المعذرةِ منْ نفسِهِ؛ لمَا يعرفُ منْ سُوءِ أَدَبِه، وقُربِهِ مِنْ صَبوَتِهِ وجَهْلِه.

وأمَّا قولُهُ: «**ولا يخالفُ أحدًا وإنْ علِمَ أنَّ الحقَّ معَهُ فيسكتُ ويظهرُ الوفاقَ لكلِّ أحدٍ**»، فهذَا فيهِ نظرٌ، وأحسنُ الأحوالِ أنَّهُ إذا تكلَّمَ فِي حقٍّ ولَمْ يُقبلْ منهُ وكرَّرَ ذلكَ برفقٍ فلَمْ يُرجعْ إليهِ سكتَ، ولا يُمَارِي عليهِ ولا يُجَادلُ إلَّا بالَّتِي هيَ أحسنُ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٠٧٢/٢.

وأمَّا إذَا سمعَ الباطلَ مِنْ غيرِهِ فسكوتُهُ لهُ وإظهارُهُ منْ نفسِهِ أنَّهُ قَبِلَهُ حتَّىٰ لا يسوغَ أصلًا، فإنَّهُ تركَ التَّغييرَ بفعلِهِ ولسانِهِ وقلبِهِ، نعَمْ إنْ كانَ لا يمكنُهُ التَّغيير بالكلِّيَّةِ وخشِيَ ضررًا علَىٰ نفسِهِ إنْ غيَّرَ فليُمْسِكْ وليقمْ إذَا أمكنَهُ القيامُ.

وأمَّا إظهارُهُ الرِّضَا بالباطلِ فلا سبيلَ إليهِ ما لمْ يُكْرَهْ عليهِ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، والموافقةُ إنَّمَا تكونُ فيمَا يجوزُ الموافقةُ فيهِ، لا فِي حرامٍ ولا مكروهٍ.

وأمَّا إسقاطُهُ حقَّهُ عنِ النَّاسِ ولَا يطالبُ أحدًا منهُمْ بحقٍّ هوَ لهُ ويقومُ هوَ بحقوقِ النَّاسِ، فهذِهِ صفةٌ محمودةٌ، وخُلُقٌ جيِّدٌ شريفٌ، ولا يلزمُ مِنْ كونِهِ لَا يطلبُ أحدًا بحقٍّ أنَّهُ لا يرَىٰ لهُ علىٰ أحدٍ حقًّا، بَلْ يجوزُ أنْ يرَىٰ لنفسِهِ الحقَّ ولا يطلبُهُ، ومتَىٰ رأَىٰ لنفسِهِ حقًّا وطلبَ أنْ يُكَافَأَ عليهِ ولزِمَهُمْ ذلكَ منهُ خاصَمَهُمْ عليهِ، والصُّوفِيُّ لَا يُخَاصِمُ ولا يُخَاصَمُ.

وكذلِكَ إذَا كانَتْ عندَهُ صَبوةٌ وبسطٌ وضَحِكٌ وكثرةُ كلامٍ ولمْ ينكفَّ عنْ ذلكَ؛ إمَّا بنفسِهِ، أوْ يدخلَ تحتَ حكمِ شيخٍ يُغَيِّرُ عليهِ هذهِ الصِّفاتِ والأخلاقَ الذَّميمةَ لا يجيءُ منهُ شيءٌ في هذَا الشَّأنِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: «وَإِذَا كَانَ المُرِيدُ فِي جَمْعٍ مِنَ الفُقَرَاءِ؛ إِمَّا فِي سَفَرٍ أَوْ حَضَرٍ، فَيَنْبَغِي أَلَّا يُخَالِفَهُمْ فِي الظَّاهِرِ فِي أَكْلٍ وَلَا فِي صَوْمٍ، وَلَا فِي سُكُونٍ وَلَا حَرَكَةٍ [٣/١٠٤ب]**، بَلْ يُخَالِفُهُمْ بِسِرِّهِ وَقَلْبِهِ، فَيَحْفَظُ قَلْبَهُ مَعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، وَإِذَا أَشَارُوا عَلَيهِ بِالأَكْلِ يَأْكُلُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَينِ، وَلَا يُعْطِي لِلنَّفْسِ شَهْوَتَهَا.**

وَلَيْسَ مِنْ آدَابِ المُرِيدِينَ: كَثْرَةُ الأَوْرَادِ فِي الظَّاهِرِ، فَإِنَّ القَوْمَ فِي مُكَابَدَةِ

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٧.

خَوَاطِرِهِمْ، وَمُعَالَجَةِ أَخْلَاقِهِمْ، وَنَفْيِ الغَفْلَةِ عَنْ قُلُوبِهِمْ، لَا فِي تَكْثِيرِ أَعْمَالِ البِرِّ.

وَالَّذِي لَا بُدَّ لَهُمْ [مِنْهُ](١) إِقَامَةُ الفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ الرَّاتِبَةِ، فَأَمَّا الزِّيَادَةُ مِنَ الصَّلَوَاتِ النَّافِلَةِ فَاسْتِدَامَةُ الذِّكْرِ بِالقَلْبِ أَتَمُّ لَهُمْ.

وَرَأْسُ مَالِ المُرِيدِ: الاِحْتِمَالُ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ بِطِيبَةِ النَّفْسِ، وَتَلَقِّي مَا يَسْتَقْبِلُهُ بِالرِّضَا، وَالصَّبْرُ عَلَىٰ الضُّرِّ وَالفَقْرِ، وَتَرْكُ السُّؤَالِ وَالمُعَارَضَةِ فِي القَلِيلِ وَالكَثِيرِ فِيمَا هُوَ حَظٌّ لَهُ.

وَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَىٰ ذَلِكَ فَلْيَدْخُلِ السُّوقَ، فَإِنَّ مَنِ اشْتَهَىٰ مَا يَشْتَهِيهِ النَّاسُ، فَالوَاجِبُ أَنْ يُحَصِّلَ شَهْوَتَهُ مِنْ حَيْثُ يُحَصِّلُهَا النَّاسُ؛ مِنْ كَدِّ اليَمِينِ، وَعَرَقِ الجَبِينِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُه: «لَا يخالِفُهُمْ فِي الظَّاهِرِ لَا فِي أكلٍ ولا شُربٍ ولا نومٍ ولا حركةٍ، بَلْ يُخَالِفُهُمْ فِي الباطِنِ» ويكونُ قلبُهُ حاضِرًا مُراقبًا، فليتَ شِعري إذَا راقبَ حَرَكَاتِهِ وَلَمْ يَجِدْهَا مُوافِقَةً لِمَا تحرَّكُوا فيهِ كيفَ يُمْكِنُهُ مُوافقتُهُمْ!!.

ووجهُ هذهِ القضيَّةِ: أنَّ هذهِ الجماعةَ الَّذِين يكونُ معَهُمْ قدِ اتَّفقَتْ مقاصدُهُمْ، فإِذَا اتَّحدَتْ مقاصدُهُمْ لا يمكنُ بينَهُمُ الخلافُ، فكلٌّ منهُمْ مقصدُهُ مقصدُ صاحِبِهِ، وربَّمَا كانُوا مرتبطِينَ بإذنِ شيخٍ واحدٍ، أوْ مؤدِّبُهُمْ واحدٌ، وإلَّا متَىٰ كانَ كلُّ واحدٍ منهُمْ يُرَاقِبُ حالَهُ ويزنُهُ بالشَّريعةِ ويعرفُ الأصلحَ فِي حقِّهِ لا يمكنُهُ الموافقةُ بظاهرِهِ مطلقًا.

وإنَّمَا أرادُ الشَّيخُ أنَّهُ إذا خالطَ قومًا كلَّفَ نفسَهُ الجريانَ علىٰ مقاصدِهِمْ، ولَا يخالِفُهُمْ خوْفًا مِنْ ظهورِ أسبابٍ تؤدِّي إلىٰ المقاطعةِ بالكلِّيَّةِ والمُنافرةِ، وإنْ كانَ

(١) تتمة من الرسالة القشيرية.

مَقْصُودُهُ ومَنْفَعتُهُ فِي الجُوعِ وحَضَرَ طَعَامًا ودَعَوْهُ إلىٰ الأكْلِ فليوافِقْ شيئًا يسيرًا ويَأكُلْ قليلًا، ولَا يعطِي نفسَهُ شهوتَهَا، ويحلُّ عزمَهُ في منفعتِهِ فِي الجوعِ قصدًا للموافقةِ(١)، فيكونُ [٣/١٠٥أ] قدْ جمعَ بينَ حفظِ حالِهِ والقيامِ بمَا عزمَ عليهِ ممَّا يُصْلِحُ قلبَهُ، ووافقَهُمْ فِي الأكلِ اليسيرِ ولَمْ يُخَالِفْهُمْ بالكُلِّيَّةِ.

وقولُهُ: «**وليسَ مِنَ شأنِ المُريدِ ترتيبُ الأورادِ فِي الصَّلواتِ، ولا فِي قيامِ اللَّيلِ، وإنَّمَا الَّذِي لا بُدَّ لهُ منهُ منَ الصَّلاةِ الإتيانُ بالفرائِضِ والسُّننِ الرَّاتبةِ**»؛ كركعتَيْنِ بعدَ المغربِ وقبلَ العصرِ وقبلَ الظُّهرِ وبعدَهُ، وركعتَيِ الفجرِ، ومَا يجرِي مجرَاهُ منَ النَّوافلِ الَّتِي تفعلُ معَ الفرائِضِ.

فأمَّا الأورادُ فِي كثرةِ الضُّحَىٰ وعمارةِ ما بينَ العشاءَينِ وآخرِ اللَّيلِ فلَا، ويكونُ أكثرُ شغلِهِ ذِكْرَهُ بلسانِهِ وقلبِهِ، وملازمتَهُ للاسمِ الَّذِي لقَّنَهُ شيخُهُ، فإنْ قدرَ علىٰ ذلكَ معَ التَّصرُّفِ وقضاءِ حوائجِهِ وإلَّا فيلزَمِ الخُلوةَ، ويكرِّرْ ذلكَ علىٰ قلبِهِ ولسانِهِ حتَّىٰ يصيرَ ذلكَ محبوبًا لهُ وقرَّةَ عينِهِ، فلَا يهونُ عليهِ مُفَارقتُهُ، وليفتحْ لهُ الحقُّ - سبحانه - فِيهِ منَ اللَّذَّةِ والبركاتِ والزَّوائدِ وأنواعِ الرَّواتبِ، ويعيشُ قلبُهُ بحيثُ تكونُ الرَّكعةُ الواحدةُ منهُ أفضلَ منَ الرَّكعاتِ الكثيرةِ ممَّنْ لمْ ينصلِحْ قلبُهُ كصلاحِهِ.

وقولُهُ: «**وينبغِي لهُ أنْ يكونَ شديدَ الاحتمالِ، قويَّ الصَّبْرِ**» لما يلقَاهُ مِنِ اختلافِ أحوالِ مَنْ يخالطُهُ، بالغَ الحِمْلِ فيمَا يردُ عليهِ مِنْ جفائِهِم وسوءِ الأدبِ معَهُ، قليلَ المكافأةِ لهُمْ علَىٰ أفعالِهِمْ، حاملًا علىٰ نفسِهِ مخالفاتِ هواهَا بالنِّسبةِ إلىٰ إعراضِهِمْ، قليلَ الطَّمعِ لمَا بأيديهِمْ، ضعيفَ الشَّهوةِ فيمَا يقوِّيهِ مِنْ أعراضِهِ الَّتِي يرَىٰ غيرَهُ ينالُهَا.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠٧٢.

ومَنْ لمْ يكنْ بهذهِ المثابةِ فليدخُلْ معَ النَّاسِ فِي الأسواقِ، ويكتسبِ الشَّهواتِ[١] بالطَّريقِ الَّتِي يدخلُ على العوامِّ منهَا الأرزاقُ، وإذَا كانَ كذلِكَ خرجَ عن مقصودِهِ بالكلِّيَّةِ، وأعرضَ عن طريقِهِ بالجُملةِ، والعياذُ باللهِ[٢].

❁ قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «وَإِذَا التزَمَ المُرِيدُ اسْتِدَامَةَ الذِّكْرِ وَآثَرَ الخُلْوَةَ؛ فَإِنَّ مَنْ وَجدَ[٤] فِي خُلْوَتِهِ مَا لَمْ يَجِدْهُ قَبْلَهُ؛ إِمَّا فِي النَّوْمِ، وَإِمَّا فِي اليَقَظَةِ، أَوْ بَيْنَ اليَقَظَةِ وَالنَّوْمِ؛ مِنْ خِطَابٍ يَسْمَعُ، أَوْ مَعْنًى يُشَاهِدُ مِمَّا يَكُونُ نَقْضًا لِلْعَادَةِ، فَيَنْبَغِي أَلَّا يَشْتَغِلَ بِذَلِكَ البَتَّةَ [٣/١٠٥ب]، وَلَا يَسْكُنَ إِلَيهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْتَظِرَ حُصُولَ أَمْثَالِ ذَلِكَ، فَإِنَّ تِلْكَ كُلَّهَا شَوَاغِلُ عَنِ الحَقِّ ـ سبحانه ـ، وَلَا بُدَّ لَهُ فِي هَذِهِ الأَحْوَالِ مِن وَصْفِ ذَلِكَ لِشَيْخِهِ حَتَّى يَصِيرَ قَلْبُهُ فَارِغًا عَنْ ذَلِكَ.

وَيَجِبُ عَلَى شَيْخِهِ أَنْ يَحْفَظَ عَلَيهِ سِرَّهُ، وَيَكْتُمَ عَنْ غَيْرِهِ أَمْرَهُ، وَيُصَغِّرَ ذَلِكَ فِي عَيْنِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ اخْتِبَارَاتٌ، وَالمُسَاكَنَةُ إِلَيْهَا مَكْرٌ، فَلْيَحْذَرِ المُرِيدُ عَنْ ذَلِكَ[٥]، وَعَنْ مُلَاحَظَتِهَا، وَلْيَجْعَلْ هِمَّتَهُ فَوْقَ ذَلِكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَضَرَّ الأَشْيَاءِ بِالمُرِيدِ: اسْتِئْنَاسُهُ لِمَا يُلْقَى إِلَيْهِ فِي سِرِّهِ مِنْ تَقْرِيبَاتِ الحَقِّ ـ سبحانه ـ لَهُ وَمِنَّتِهِ[٦] عَلَيهِ؛ بِأَنِّي خَصَصْتُكَ بِهَذَا، وَأَفْرَدْتُكَ عَنْ أَشْكَالِكَ، فَإِنَّهُ لَوْ قَامَ بِتَرْكِ هَذَا فَعَنْ قَرِيبٍ سَيَخْتَطِفُهُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا يَبْدُو لَهُ مِنْ مُكَاشَفَاتِ الحَقِيقَةِ[٧]، وَشَرْحُ هَذِهِ الجُمْلَةِ بِإِثْبَاتِهِ فِي الكُتُبِ مُتَعَذِّرٌ».

---

(١) أي: ككسبهم.

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٧٣.

(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٧ ـ ٥٧٨.

(٤) في (ف): فإن وجد.

(٥) أي: عن سكونه إليها.

(٦) في الأصل: وَمَنِّه، وكل صواب.

(٧) بتكرر واردات أهل الحقيقة.

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**وإذَا التزمَ المُرِيدُ الخُلْوةَ**»، والتزمَ الاسمَ الَّذِي لقَّنَهُ إيَّاهُ شيخُهُ، ودامَ علىٰ ذِكْرِهِ بلسانِهِ وقلبِهِ، فلَا بُدَّ أنْ يظهرَ لهُ أمورٌ؛ إمَّا زيادةٌ فِي قلبِهِ، وإمَّا مَا يشاهدُهُ بحسِّهِ، فالأَوْلَىٰ به ألَّا يقفَ معَ شيءٍ ممَّا يبدُو لهُ، وليكُنْ شغلُهُ بالدَّوامِ علَىٰ ما هوَ فيهِ وقصْدُهُ اللهَ بذلِكَ وحدَهُ، فإنَّهُ متىٰ سكنَ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذلكَ ووقفَ معَهُ كانَ حِجَابًا لهُ عمَّا يَرْجُوهُ مِنْ فضْلِ اللهِ ـ سبحانه ـ فِي الاستقبالِ، ولا بُدَّ لهُ أنْ يَعرضَ كلَّ ما يقعُ لهُ فِي قلبِهِ، أَوْ يشاهدُهُ ببصرِهِ، أوْ يسمعُهُ مِنْ خطابٍ بأُذُنِهِ علىٰ شَيْخِهِ، ولَا يكتمَ عنهُ شيئًا مِنْ ذلكَ، فإنَّ كَتْمَهُ لهُ ربَّمَا ضَرَّهُ.

وإذَا اطَّلعَ عليهِ شَيْخُهُ وَكَانَ حَسَنًا وَنَافِعًا ودليلًا علىٰ استقامةِ المُرِيدِ، فلا يحسِّنُ لهُ شيئًا منْ ذلِكَ، وليزهِّدْهُ فيهِ ويأمرْهُ بالإعراضِ عنهُ، وأنَّ مَا يرجوهُ منْ فضْلِ اللهِ أكثرُ مِن ذلكَ، وإنْ لمْ يفعلْ بهِ الشَّيخُ ذلكَ خُشِيَ عليهِ الوقوفُ معَ ما يبدُو لهُ والاغترارُ بهِ، فيختلُّ عليهِ سلوكُهُ.

وشيخُهُ ينبغِي أنْ يحفظَ ما بينَهُ وبينَ التِّلميذِ ممَّا يُطلِعُهُ عليهِ، فإنَّ الشَّيخَ إذَا تحدَّثَ معَ غيرِهِ بمَا أخبَرَهُ التِّلميذُ بهِ وكانَ حَسَنًا فِي حقِّهِ، ربَّمَا بلغَ التِّلميذَ ذلكَ مِنْ جهةٍ أُخرَىٰ، وعلِمَ أنَّ شيخَهُ [١٠٦/٣أ] استحسَنَهُ منهُ ورآهُ حقًّا وَلَمْ يُنَاصِحْهُ فيهِ إنْ لمْ يغتَرَّ بهِ، فربَّمَا فسدَ ظنُّهُ بشيخِهِ، وأنَّهُ لا يبالغُ فِي نُصحِهِ وإرشَادِهِ، ومِنْ هذَا الوجْهِ قالَ الإمامُ: «**ويجبُ علىٰ الشَّيخِ كتمُ سرِّهِ فيمَا بينَهُ وبينَ التِّلميذِ**».

وقولُ الإمامِ: «**وأضرُّ شيءٍ بالمُريدِ سكونُهُ لمَا يبدُو فِي سرِّهِ منْ تقريباتِ الحقِّ ـ سبحانه ـ**» وكلامٍ يفهمُهُ، وخواطرَ صادقةٍ تظهرُهُ لهُ، وإلهاماتٍ بالغةٍ تقعُ سريعًا، وما يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنْ ألطافِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ بهِ وإكرامِهِ لهُ وهدايتِهِ إيَّاهُ، كمَا قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ولكنَّهُ لا ينبغِي لهُ أنْ يقفَ معَ شيءٍ منْ ذلكَ، والأَوْلَىٰ بهِ الإعراضُ عنهُ؛ لأنَّهُ إذَا أعرضَ

عنهُ فعَنْ قريبٍ يفتحِ اللهُ ـ تعالىٰ ـ عليهِ بمَا هوَ أحْلَىٰ مِنْ ذلكَ وأبينُ ، وأدلُّ علىٰ استقامتِهِ لربِّهِ وأوضحُ ، وإنَّمَا عليهِ الصَّبرُ والدَّوامُ والإعراضُ عَنْ أوائلِ الأمورِ حتَّىٰ يقوىٰ ويتمكَّنَ ، فإذَا ظهَرَ لهُ مَا هوَ أشرفُ مِنْ ذلكَ لمْ يلتفتْ إليهِ ، وتصيرُ خوارقُ العاداتِ واستجابةُ الدَّعواتِ عندَهُ بعونِ ربِّهِ كأنَّهَا ممَّا تَجْرِي بهِ العَادَاتُ لا يقفُ معَهَا ، ولَا يلتفتُ إليهَا.

وقولُهُ: «**وشرحُ ذلكَ فِي الكتُبِ متعذِّرٌ**» ؛ لأنَّ مَوَاجِيدَ القُلُوبِ[١] لا تَنْحَصِرُ بالعِبَارةِ ، وإنَّمَا يشارُ إليهَا إشارةً ، وكلُّ مَا يكونُ فِي الكتُبِ لا بُدَّ أنْ يَحصُرَهُ التَّعبيرُ لكَي يفهمَ[٢] ، ووضعُ مَا لا يفهمُ بعبارةٍ تدلُّ عليهِ لا فائدةَ فِي وضعِهِ ، وفِي المحسوساتِ معانٍ متقاربةٌ يعسُرُ الفرقُ بينهَا بالعبارةِ وإنْ كانَ العبدُ يقطعُ بالفرقِ بينهَا ؛ كحلاوةِ العَسَلِ وحَلاوةِ السُّكَّرِ ، وحُمُوضةِ النَّارنجِ وحُمُوضةِ الليمُونِ[٣] ، أو ما أشبهَ ذلكَ.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤] : «**وَمِن أَحكَامِ المُرِيدِ إذَا لَمْ يَجِدْ مَنْ يَتَأَدَّبُ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ: أَنْ يُهَاجِرَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ مَنْصُوبٌ فِي وَقْتِهِ لِإِرْشَادِ المُرِيدِينَ ، ثُمَّ يُقِيمَ عَلَيهِ وَلَا يَبْرَحَ سُدَّتَهُ[٥] إِلَىٰ وَقْتِ الإِذْنِ.**

وَاعلَمْ أَنَّ تَقْدِيمَ مَعْرِفَةِ رَبِّ البَيْتِ عَلَىٰ زِيَارَةِ البَيْتِ وَاجِبٌ[٦] ؛ فَلَوْلَا مَعْرِفَةُ رَبِّ البَيْتِ مَا وَجَبَتْ زِيَارَةُ البَيْتِ ، وَالشُّبَّانُ الَّذِين يَخرُجُونَ إِلَىٰ الحَجِّ مِنْ هَؤُلَاءِ

---

(١) أي: ما تجده القلوب القدسية من المواهب الإلٓهية لا تنحصر.

(٢) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٧٤.

(٣) في الأصل: الليمو، والصواب المثبت.

(٤) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٨ ـ ٥٧٩.

(٥) أي: باب داره.

(٦) لأن تعظيم البيت إنما هو لتعظيم ربِّه.

[٣/١٠٦ب] القَوْم[١] مِنْ غَيرِ إِشَارَاتِ الشُّيُوخِ، فَهِيَ بدَلالَاتِ[٢] نَشَاطِ النَّفْس[٣]، فَهُمْ مُتَرَسِّمُونَ[٤] بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَلَيْسَ سَفرُهُمْ عَلَىٰ أَصْلٍ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَزْدَادُ سَفَرُهُمْ إِلَّا وَتَزْدَادُ تَفرِقَةُ قُلُوبِهِمْ، وَلَوْ أَنَّهُمْ ارْتَحَلُوا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ بِخُطْوَةٍ لَكَانَ أَحْظَىٰ[٥] لَهُمْ مِنْ أَلْفِ سَفْرَةٍ.

وَمِنْ شَرْطِ المُرِيدِ إِذَا زَارَ شَيْخًا: أَنْ يَدْخُلَ [عَلَيهِ] بِالحُرْمَةِ[٦]، وَيَنْظُرَ إِلَيهِ بِالحِشْمَةِ، فَإِنْ أَهَّلَهُ الشَّيْخُ بِشَيْءٍ مِنَ الخِدْمَةِ عَدَّ ذَلِكَ مِنْ جَزِيلِ النِّعْمَةِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَمَّا مَا ذكرَ مِنْ مهاجرةِ المريدِ إلىٰ بلدٍ آخرَ غيرِ بلدِهِ، والاجتماعِ بمَنْ يقتدِي بهِ فلازمٌ؛ إذْ لا بُدَّ للمبتدِئِ مِنْ شيخٍ يهتدِي بهِ؛ إمَّا فِي بلدِهِ أَوْ غيرِهِ، فإنْ وجدَهُ ببلدِهِ فقدْ رفعَ اللهُ عنهُ الكُلْفَةَ، ويسَّرَ لهُ الحاجةَ، ومكَّنَهُ مِنْ بُلُوغِهَا بِسُرْعَةٍ، هذَا هوَ الشَّأنُ فِي أنَّ المُقلِّدَ إذَا لَمْ يجِدْ مَنْ يقلِّدُهُ فِي بلدِهِ وجبَ عليهِ السَّفرُ لِمَنْ يقلِّدُهُ.

وقَدِ اختلفَ العلماءُ: هَلْ يجبُ علَىٰ العلماءِ أنْ ينتقلُوا إلىٰ البلادِ حتَّىٰ يتيسَّرَ علَىٰ العوامِّ استفتاؤُهُمْ، كلُّ شخصٍ فِي بلدةٍ، ويكونُ علىٰ السُّلطانِ تفريقُ العلماءِ فِي البلادِ أوْ لا يجبُ ذلكَ؟

وإنَّمَا يجبُ علىٰ العالِمِ أنْ يُظهِرَ نفسَهُ، ويُشِيعَ خبَرَهُ، وعلَىٰ العامِيِّ أنْ يقصدَهُ إذَا طَرَأَتْ لَهُ حَاجةٌ، وأينَ المريدُ الَّذِي عليهِ أنْ يرتبطَ بالشَّيخِ ارتباطًا كُلِّيًّا ولا

---

(١) يعني الفقراء حيث يخرجون.

(٢) في (ف): من دلالات.

(٣) أي: من حظوظها ومطلوباتها.

(٤) أي: فهم فقراء في الرسم. انظر: نتائج الأفكار ٤/٣٧٠.

(٥) أي: أعلىٰ منزلة لهم.

(٦) أي: بالاحترام.

يتصرَّفُ إلَّا بإذنِهِ منَ المستفتِي إذا طرأَتْ لهُ حاجةٌ! فاحتياجُ المريدِ إلىٰ الشَّيخِ أهمُّ؛ فإنَّهُ أصلٌ فِي صحَّةِ مطلبِهِ، وَنَيْلِ مَرْغُوبِهِ، فإذا وجدَهُ فِي أيِّ موضعٍ اتَّفقَ لهُ فليعقِدْ معَهُ عقدَهُ كمَا تقدَّمَ، وإذَا كانَ لا يتحرَّكُ إلَّا بإذنِهِ فكيفَ يسافرُ بغيرِ إذنِهِ؟ فإذَا عقدَ معَهُ عقدَهُ فعليهِ ملازمتُهُ إلَىٰ أنْ يَأذنَ لَهُ فِي السَّفرِ والسِّياحةِ ويراهُ أهْلًا لذلِكَ، فإذَا سافَرَ بغيرِ إذنِهِ نقضَ عَزْمَهُ، وأفسدَ علىٰ نفسِهِ ما أرادَهُ منَ السُّلوكِ إلىٰ نيلِ أرفَعِ الدَّرجاتِ، وخرجَ عنْ هذِهِ المَرتبَةِ، والتحقَ بالعوامِّ الَّذينَ ليسَ لهُمْ فِي الطَّريقِ سِوَىٰ زيارةِ أماكنَ، ولقاءِ مشايخَ، واستماعِ كلامِهِم، وحصولِ بركةٍ مِنْ أقوالِهِمْ، وهؤلاءِ معَ نُفُوسِهِمْ وأغراضِهِم [٣/١٠٧أ]، وهؤلاءِ الَّذينَ شأْنُهُمُ الزِّيارةُ إلىٰ المشايخِ وقصدُ الأماكنِ الشَّريفةِ؛ كمكَّةَ والمدينةِ وبيتِ المقدسِ، فإذَا أتَوا إلىٰ شيخٍ بقصدِ الزِّيارةِ فليأتُوهُ بالأدبِ والاحترامِ لهُ، فإنْ أهَّلَهُ أحدٌ منَ الشُّيوخِ لخدمةٍ، أوْ عِبادةٍ رآهَا مصلحةً فِي حقِّهِ فَليغْتَنِمْ ذلكَ، فإنَّهُ أتاهُ علىٰ وجهِ الفتْحِ منَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ(١)، وهوَ داخلٌ فِي قولِهِ ـ تعالىٰ ـ علىٰ لسانِ رسولِهِ ﷺ(٢): «إِذَا فُتِحَ عَلَىٰ أَحَدِكُمْ بَابٌ مِنَ الخَيْرِ فَلْيَنْتَهِزْهُ».

وهذهِ نعمةٌ سِيقَتْ لهذَا الزَّائرِ ينالُهَا فِي مدَّةٍ يسيرةٍ، وعافاهُ اللهُ مِنْ مُلازَمَةِ الارتباطِ بالشَّيخِ، ثمَّ يطرأُ لهُ جنايةٌ ومُخالفةٌ فيُخشَىٰ عليهِ الهلاكُ، فإذَا وجدَ مِنْ أحدِ المشايخِ تنبيهًا أوِ استصلاحًا بخيرٍ أوْ خدمةً فليقبَلْ ذلكَ، وليدخُلْ فيهِ ويعدَّهُ مِنَ النِّعمِ عليهِ، وكذلِكَ إذا دخلَ المساجدَ المشرَّفةَ المعظَّمةَ فليدخُلْهَا باحترامٍ وتعظيمٍ؛ ليُنيلَهُ الحقُّ بركتَهَا، ويُطلِعَهُ علَىٰ ما فيهَا منَ الأولياءِ ممَّنْ يَعمُرُهَا، فالأدبُ لا يزالُ مُلازمًا لهُ فِي كلِّ حَالٍ؛ سَهُلَ أوْ صَعُبَ.

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٧٤ ـ ١٠٧٥.

(٢) سبق تخريجه.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(١):

«فَصْلٌ(٢)

وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُرِيدِ أَنْ يَعْتَقِدَ فِي المَشَايِخِ العِصْمَةَ، بَلِ الوَاجِبُ أَنْ يَذَرَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ، فَيُحْسِنَ بِهِمُ الظَّنَّ(٣)، وَيُرَاعِي مَعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ حَدَّهُ فِيمَا يَتَوَجَّهُ عَلَيهِ مِنَ الأَمْرِ، وَالعِلْمُ كَافِيهِ فِي التَّفْرِقَةِ بَيْنَ مَا هُوَ مَحْمُودٌ وَمَا هُوَ مَعْلُولٌ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قولُهُ: «**وَيَنْبَغِي للمُرِيدِ أَلَّا يعتقدَ فِي المَشَايِخِ العِصْمَةَ**» وإنْ كانُوا محفوظِينَ(٤).

والفَرقُ بينَ الحِفظِ والعِصْمةِ: أنَّ العصمةَ تَمْنَعُ مِنْ جوازِ الوقوعِ، والحفظُ لا يمنعُ منهُ، ولكنَّ اللهَ ـ سبحانه ـ يحفظُ مَنْ شاءَ ويتركُ مَنْ شاءَ؛ لأنَّ الأولياءَ لا يقدحُ زللُهُمْ فِي قواعدِ الدِّينِ، بخلافِ الأنبياءِ فإنَّ المعجزةَ دلَّتْ علىٰ عصمتِهِمْ فِي جميعِ مَا يُخبِرُونَ بهِ عنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وفِي كلِّ أفعالِهِمُ الَّتِي هيَ بيانُ التَّكاليفِ(٥).

فإذَا كانَ المريدُ يُجَوِّزُ الخطأَ علىٰ الشَّيخِ فلَا يكونُ تَجْوِيزُهُ سَبَبًا لاعتقادِ الخطأِ فيهِ وُقُوعًا، وإنْ رأىٰ منهُ شيئًا ظنَّهُ خطأً فلَا يحقِّقُ ظنَّهُ بهِ؛ لجهلِهِ وقلَّةِ علمِهِ بوجوهِ الأحكامِ [٣/١٠٧ب]، والفرقِ بينَ الحلالِ والحرام، فرُبَّ شخصٍ يجوزُ لهُ فعلٌ وهوَ علىٰ غيرِهِ حرامٌ، ويتركُ شيئًا ويجوزُ لهُ تركُهُ وتركُهُ حرامٌ علىٰ غيرِهِ، فوظيفتُهُ حسنُ الظَّنِّ فيمَا يراهُ صوابًا، والإمساكُ عمَّا ظنَّهُ خطأً.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٩.

(٢) في عصمة الشيوخ.

(٣) ولو بارتكاب طريق التأويل.

(٤) لأن ذلك يخالف الواقع؛ لأن هذا المقام مختص بالأنبياء والمرسلين.

(٥) أفاده بلفظه الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠٧٦.

وإذَا أرادَ أنْ يزيلَ هذَا الأمرَ مِنْ صَدْرِهِ فليسألْهُ عنهُ، ويوردْهُ علَىٰ وجهِ السُّؤالِ لا علىٰ وجْهِ الاعتراضِ، فإنَّ إيرادَهُ علىٰ وجهِ الاعتراضِ ربَّمَا منعَهُ الجوابَ، وكذلِكَ إذَا أجابَهُ بجوابٍ لمْ يشفِهِ فلَا يوردِ السُّؤالَ بوجهِ الاعتراضِ، بَلْ يقُلْ: ما فهِمْتُ، فإنَّهُ يكرِّرُهُ لهُ إنْ شاءَ اللهُ بعبارةٍ أقربَ مِنْ ذلكَ(١).

وهذِهِ آدابُ المتعلِّمِ معَ العالِمِ(٢)، فكيفَ بالشَّيخِ الَّذِي يتنزَّلُ لهُ أعظمَ مِنْ منزلةِ الوالدِ، ويُمَلِّكُهُ أمرَهُ بالكلِّيَّةِ!.

(١) أفاده الشيخ زكريا في إحكام الدلالة ٢/١٠٧٦.

(٢) للاستزادة انظر: آداب العالم والمتعلم للنووي ص٢٩، ٤٤.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[(١)]:

«فَصْلٌ[(٢)]

وَكُلُّ مُرِيدٍ بَقِيَ فِي قَلْبِهِ لِشَيْءٍ مِنْ عُرُوضِ الدُّنْيَا مِقْدَارٌ أَوْ خَطَرٌ فَاسْمُ الإِرَادَةِ لَهُ مَجَازٌ، وَإِذَا بَقِيَ فِي قَلْبِهِ اخْتِيَارٌ فِيمَا يَخْرُجُ عَنْهُ مِنْ مَعْلُومِهِ، وَيُرِيدُ أَنْ يَخُصَّ بِهِ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ البِرِّ، أَوْ شَخْصًا دُونَ شَخْصٍ فَهُوَ مُتَكَلِّفٌ فِي حَالِهِ، وَبِالخَطَرِ أَنْ يَعُودَ سَرِيعًا إِلَى الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ قَصْدَ المُرِيدِ فِي حَذْفِ العَلَائِقِ الخُرُوجُ عَنْهَا، لَا السَّعْيُ فِي أَعْمَالِ البِرِّ.

وَقَبِيحٌ بِالمُرِيدِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مَعْلُومِهِ؛ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ وقُنْيَته[(٣)]، ثُمَّ يَصِيرَ أَسِيرَ حِرْفَةٍ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَوِيَ عِنْدَهُ وُجُودُ ذَلِكَ وَعَدَمُهُ، حَتَّى لَا يُنَافِرَ لِأَجْلِهِ فَقِيرًا، وَلَا يُضَايِقَ بِهِ أَحَدًا وَلَوْ مَجُوسِيًّا[(٤)]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «**فكلُّ مُريدٍ بقِيَ فِي قَلْبِهِ لشيءٍ من الدُّنيا؛ عينِهَا أوْ عرَضِهَا وزنٌ، أوْ قدرٌ، أوْ خطرٌ فلا يتمُّ لهُ أمرٌ**»، وكذلِكَ إذا خطَرَ عنهَا لا يخصُّ بها جهةً منَ الخيرِ دونَ جِهَةٍ، فلا يَبْنِي بهَا مسجدًا، ولَا يعمُرُ رباطًا[(٥)]، ولا يخصُّ بها فقيرًا مِنْ أهلِهِ أوْ غيرِهِمْ، فإنَّ المقصودَ منهُ زوالُ المُشْغلاتِ عنْ قلبِهِ؛ ليتفرَّغَ لمَا هوَ بصددِهِ؛ مِنْ خُلُوصِ قَلْبِهِ لربِّهِ، وكَمَالِ شُغلِهِ بهِ عنْ غيرِهِ، فإذًا كانَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/ ٥٧٩.

(٢) في المريد والدنيا.

(٣) أي: ما يقتنيه لحوائجه الضرورية أو الكمالية.

(٤) قال العروسي: «وذلك لأجل أن تنتفي عنه الحظوظ، لا من أجل احترام المجوسي» نتائج الأفكار ٤/ ٣٧٤.

(٥) انظر: إحياء علوم الدين ٤/ ٢٤٢.

مقصودُهُ زوالَ المُشغلاتِ عنْ قلبِهِ لا تَحْصِيل الحَسَنَاتِ، ولهذَا قالَ بعضُهُمْ(١): «إذَا أخرجَ الفقيرُ الدُّنيَا لَا يبالِي مَنْ أخذَهَا»، فإنَّ مقصودَهُ فراغُ قلبِهِ منهَا خاصَّةً.

ومتىٰ يُمَكَّنُ منَ الزُّهدِ وزالَتْ عنْ قلبِهِ المُشغلاتُ [١٠٨/٣أ]، فلا يضرُّهُ إذا فُتِحَ عليهِ بشيءٍ أنْ يخصَّ بهِ ذوِي الحاجاتِ، ومَنْ يرجُو انتفاعَهُ بهِ وعونَهُ علىٰ ما هوَ عليهِ مِنْ سُلُوكِ طريقِ الصَّالحاتِ، وقَدْ قالَ بعضُهُمْ(٢): «لا تأكُلْ إلَّا طعامَ تقِيٍّ، ولا يأكُلْ طعامَكَ إلَّا تقِيٌّ».

والفرقُ بينَ مَنْ يستعينُ بمَا يأخذُهُ علَىٰ الصَّلاحِ فِي الطَّاعاتِ، وبينَ مَنْ يصرفُ ما ينالُهُ منكَ منَ المحرَّماتِ فكأنَّكَ تصيرُ مُعِينًا لهُ إذَا علِمْتَ مِنْ حالِهِ ذلكَ، وهذَا الأصلُ لا شكَّ فِي فضيلتِهِ فِي الشَّريعةِ ومعرفةِ قدرِهِ.

وإنَّمَا مُرادُ الشَّيخِ الإمامِ هاهُنَا: دواءُ هذَا المُريدِ؛ وهوَ أنَّهُ إذا أخرجَ ما بيدِهِ منَ الدُّنيَا وأعرضَ عنهَا فليُعرِضْ عنهَا إعراضًا كلِّيًّا حتَّىٰ لا يبقَىٰ لنفسِهِ بهِ تعلُّقٌ ولا اختيارٌ، فإنَّ ذلكَ أفرغُ لقلبِهِ وأعوَنُ لهُ علىٰ مقصودِهِ(٣).

وكذلِكَ إذَا خرجَ منهَا علىٰ هذا الوجْهِ فليحفَظْ قلبَهُ ونفسَهُ أنْ يلتفتَ إلىٰ شيءٍ مِنَ الدُّنيَا، أوْ يعودَ فِي شيءٍ أحسنَ ممَّا خرجَ عنهُ، فكيفَ يليقُ بمَنْ خرجَ عنِ الدُّنيَا زهدًا واختيارًا، لَا قهرًا واضطرَارًا، معَ كونِ ما خرجَ عنهُ حلالًا يُعْرَفُ جِهتُهُ أنْ يرجعَ إلىٰ الدُّنيَا ويأخذَهَا مِنْ أيِّ جهةٍ جاءَتْ أوْ يكتسبَهَا بوجهٍ يشغلُ قلبَهُ ويصدُّهُ عنْ نيلِ أربِهِ؟! والأَوْلَىٰ بهِ تعوُّدُ الصَّبرِ والهروبُ مِنْ جهاتِ السَّعةِ، ووجودِ الفتوحاتِ ما أمكنَهُ، ويكونُ فقرُهُ وصبرُهُ رأسَ مالِهِ، وإنْ فُتِحَ عليهِ بشيءٍ طيِّبٍ أخذَ

---

(١) ورد في: البرهان المؤيد ص٤٢، وإحياء علوم الدين ٤/٢٤٢، وإتحاف السادة المتقين ١١/٧٣٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٧٧.

منهُ مَا يدفعُ بهِ ضَرُورَةَ وقتِهِ، وأعرضَ عمَّا سِوَاهُ، فيكونُ حَالُهُ كمَا قِيلَ[١]:

إِذَا افْتَقَرُوا عَضُّوا عَلَىٰ الفَقْرِ ضِنَّةً ✿ وَإِنْ أَيْسَرُوا عَادُوا سِرَاعًا إِلَىٰ الفَقْرِ

(١) سبق تخريجه.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«فَصْلٌ[(٢)]

وَقَبُولُ قُلُوبِ الْمَشَايِخِ لِلْمُرِيدِ أَصْدَقُ شَاهِدٍ لِسَعَادَتِهِ، وَمَنْ رَدَّهُ قَلْبُ شَيْخٍ مِنَ الشُّيُوخِ فَلَا مَحَالَةَ أَنَّهُ يَرَىٰ غِبَّ[(٣)] ذَلِكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

وَمَنْ خُذِلَ لِتَرْكِ حُرْمَةِ الشُّيُوخِ فَقَدْ أَظْهَرَ رَقْمَ شَقَاوَتِهِ، وَذَلِكَ لَا يُخْطِئُ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «وأصدقُ شاهدٍ فِي فَلاحِ المُرِيدِ قبولُ قلبِ الشَّيخِ لهُ» صحيحٌ، وذلكَ [٣/١٠٨ب] أنَّ الشَّيخَ لا يَزِنُ المريدَ بهوَاهُ؛ لأنَّهُ فارغٌ منهُ، وإنَّمَا يشتغلُ بهِ وبالنَّظرِ فِي أمْرِهِ طاعةً للهِ ـ تعالىٰ ـ ومساعدةً لهُ على أربِهِ، وَجَذْبًا لهُ إلىٰ ربِّهِ، فهوَ يزنُهُ أوَّلًا بميزانِ الشَّريعةِ، فإنْ وجدَهُ صالحًا بأنْ يدخلَ معَهُ فِي عقدٍ، ويلتزمَ لهُ ما يلتزمُ الأستاذُ لتلميذِهِ، فإنْ فعلَ ذلكَ بهِ وقبِلَهُ قلبُهُ ورآهُ أهْلًا لهُ كانَ ذلكَ مِنْ أدلِّ العلاماتِ علىٰ سَعَادتِهِ وعلاماتِ توفِيقِهِ وَبَرَكَتِهِ.

ومتىٰ نفرَ عنهُ قلبُ الشَّيخِ فلَا يخلُو نُفُورُهُ؛ إمَّا أنْ يكونَ قبلَ العقدِ معَهُ أوْ بعدَ[هُ]، أمَّا بعدَ العقدِ فقدْ تقدَّمَ ما فيهِ منَ الخلفِ، والضَّررُ نقضُ عهدِهِ معَ اللهِ، وإذَا كانَ قبلَ العقدِ معَهُ فهيَ علامةٌ رديئةٌ فِي حقِّ التِّلميذِ، فإنَّهُ قدْ وزَنَهُ بميزانِ التَّحقيقِ، وصبَرَ علىٰ امتحانِهِ؛ ليظهرَ لهُ مِنْ أمرِهِ [التَّقليد][(٤)] أوِ التَّحقيق ممَّا نفرَ عنهُ قلبُهُ إلَّا وهوَ بعيدٌ عمَّا يَرُومُهُ ويرغبُ فيهِ مِنْ سُلُوكِ الطَّريقِ.

فحقُّهُ إذا رأىٰ إعراضَ الشَّيخِ عنهُ بعدَ رغبتِهِ هوَ فيهِ أنْ يتذلَّلَ لربِّهِ[(٥)]، ويستغيثَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٧٩.

(٢) في شاهد السعادة للمريد.

(٣) أي: عاقبة.

(٤) قدر كلمة طمست بالأصل، فلعلها هكذا.

(٥) لأنه المنفرد بالأحكام في سائر الكائنات. انظر: نتائج الأفكار ٤/٣٧٤.

ويديمَ البكاءَ على نفسِهِ، ويتسبَّبَ بكلِّ وجهٍ يرجُو فيهِ رحمةَ ربِّهِ؛ لينقلَهُ الحقُّ عمَّا هوَ عليهِ منَ الفسادِ، ويسلكَ بهِ طريقَ التَّوفيقِ والسَّدادِ(١).

وقولُهُ: «**وَمَنْ خُذِلَ لِتَرْكِ حُرْمَةِ الشُّيُوخِ**» فهذَا رجوعٌ إلى ما تقدَّمَ مِنْ أنَّهُ إذا دخلَ معَ شيخٍ فليحفَظْ حُرْمَتَهُ؛ ليدومَ لهُ صُحبتُهُ، وإلَّا فمتى قلَّ احترامُهُ لهُ وظهَرَتْ عليهِ أماراتُ الخذلَانِ والإعراضِ عنِ السَّدادِ، هذَا هوَ الَّذِي قالَ: «**أظهَرَ رقْمَ شقاوتِهِ**»، يعنِي: العلامةَ الدَّالَّةَ على عدمِ فَلاحِهِ وبُعْدِهِ عمَّا يرجوهُ مِنْ قُرْبِ الشَّيخِ ونَيلِ بركَتِهِ.

و«الشَّقاوةُ» قد تختلفُ، فلَا يلزمُ أنْ يكونَ عذابًا، بلْ مَنْ تمكَّنَ مِنْ خيرٍ وقصَّرَ فِي تحصيلِهِ صحَّ أنْ يُسمَّى شقِيًّا؛ لفواتِهِ السَّعادةَ؛ لأنَّ الشَّخصَ إمَّا شقِيٌّ وإمَّا سعيدٌ(٢).

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٧٨.

(٢) مصداقًا لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ٥٥].

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«فَصْلٌ»[(٢)]

وَمِنْ أَصْعَبِ الآفَاتِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ: صُحْبَةُ الأَحْدَاثِ، وَمَنِ ابْتَلَاهُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَبِإِجْمَاعٍ مِنَ الشُّيُوخِ أَنَّ ذَلِكَ عَبْدٌ أَهَانَهُ اللهُ ـ تعالىٰ ـ وَخَذَلَهُ، بَلْ عَنْ نَفْسِهِ شَغَلَهُ، وَلَوْ بِأَلْفِ أَلْفِ كَرَامَةٍ[(٣)] أَهَّلَهُ.

وَهَبْ أَنَّهُ بَلَغَ رُتْبَةَ الشُّهَدَاءِ[(٤)]، لِمَا فِي الخَبَرِ تَلْوِيحٌ بِذَلِكَ، أَلَيْسَ قَدْ شُغِلَ ذَلِكَ القَلْبُ [٣/١٠٩أ] بِمَخْلُوقٍ؟! وَأَصْعَبُ مِنْ ذَلِكَ تَهْوِينُ ذَلِكَ عَلَىٰ القَلْبِ، حَتَّىٰ يَعُدَّ ذَلِكَ يَسِيرًا[(٥)]، قَالَ اللهُ ـ سبحانه ـ ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]

وَهَذَا الوَاسِطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ[(٦)]: إِذَا أَرَادَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ هَوَانَ عَبْدِهِ أَلْقَاهُ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ الأَنْتَانِ وَالجِيَفِ.

سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الصُّوفِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ النَّجَّارَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الحُصْرِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ فَتْحًا المَوْصِلِيَّ يَقُولُ[(٧)]: صَحِبْتُ ثَلَاثِينَ شَيْخًا كَانُوا يُعَدُّونَ مِنَ الأَبْدَالِ، كُلُّهُمْ أَوْصَوْنِي عِنْدَ فِرَاقِي لَهُمْ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٠.

(٢) في أصعب الآفات.

(٣) قال العروسي: «أي: كونها كرامة بحسب ظاهر الحال، وإلا فذلك من نوع الاستدراج» نتائج الأفكار ٤/٣٧٥.

(٤) قال العروسي: «وذلك لأن حكم الظاهر مقدَّم علىٰ أحوال الباطن، مع أن ذلك قبيح في النظر الصحيح» نتائج الافكار ٤/٣٧٥.

(٥) مع أنه عظيمٌ، وذلك اغترارًا بحاله ومقامه علىٰ ما يظنه.

(٦) سبق تخريجه، ويريد به: صحبة الأحداث.

(٧) ورد قوله في: ذم الهوىٰ ص١١٢، وتلبيس إبليس ص٣٣٧، والأنوار القدسية ص٤٦، وإتحاف السادة المتقين ٩/١٠٣.

وَقَالُوا: اتَّقِ مُعَاشَرَةَ الأَحْدَاثِ.

وَمَنِ ارْتَقَىٰ فِي هَذَا البَابِ عَنْ حَالَةِ الفِسْقِ، وَأَشَارَ إِلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَلَاءِ[١] الأَرْوَاحِ، وَأَنَّهُ لَا يَضُرُّ، وَمَا قَالُوهُ مِنْ وَسَاوِسِ القَائِلِينَ بِالشَّاهِدِ، وَإِيرَادِ حِكَايَاتٍ عَنِ الشُّيُوخِ؛ لِمَا كَانَ الأَوْلَىٰ بِهِمْ إِسْبَالُ السِّتْرِ عَلَىٰ هَنَاتِهِمْ وَآفَاتِهِمْ، فَذَلِكَ نَظِيرُ الشِّرْكِ وَقَرِينُ الكُفْرِ.

فَلْيَحْذَرِ المُرِيدُ مِنْ مُجَالَسَةِ الأَحْدَاثِ وَمُخَالَطَتِهِمْ، فَإِنَّ اليَسِيرَ مِنْهُ فَتْحُ بَابِ الخِذْلَانِ، وَبَدْءُ حَالِ الهِجْرَانِ، وَنَعُوذُ بِاللهِ ـ تعالىٰ ـ مِنْ قَضَاءِ السُّوءِ».

❊ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قوله: «**صُحْبَةُ الأحداثِ**» لمْ يزَلِ المشايخُ ينهونَ عنهَا، وإذَا كانَ الحَدثُ؛ وهوَ الشَّابُّ الجاهلُ المحتاجُ إلىٰ مَنْ يعلِّمُهُ أمرَ دينِهِ لا يجدُ الصَّالحينَ وأهلَ الخيرِ يعلِّمونَهُ وينفرونَ عنهُ ويبعدونَهُ بمَنْ يقتدِي بهِمْ وبمَنْ يهتدِي؟!

وإذَا كانَ ذلكَ، فدلَّ علىٰ تحذيرِهِمْ منْ صحبةِ الشَّبابِ ليسَ علىٰ وجهِ التَّعليمِ والاقتداءِ بهِم، ولا سيَّمَا إذَا جعلُوا ذلكَ مِنْ أعظمِ الفتَنِ والابتلاءِ، فقالُوا: «**وَمَنِ ابْتُلِيَ بشيءٍ مِنْ ذلكَ فبإجماعٍ منَ الشُّيوخِ أنَّ ذلكَ عبدٌ أهانَهُ اللهُ وخذَلَهُ، بَلْ عَنْ نَفْسِهِ شَغَلَهُ، ولوْ بألفِ ألفِ كَرَامةٍ أهلَّهُ**».

فهذَا التَّصريحُ دليلٌ علىٰ أنَّهُمْ إنَّمَا نُهُوا عنْ صحبةِ الأحداثِ فِي غيرِ اللهِ، وهذا إنْ صحَّ فهذَا خروجٌ عنِ الدِّينِ بالكلِّيَّةِ، ولَا يليقُ أنْ يَنْهَىٰ عنهُ المشايخُ إلَّا كمَا يقعُ النَّهيُ عنِ الزِّنَا وشربِ الخمرِ وسائرِ المحرَّماتِ، وهذَا ليسَ بصحبةٍ، وإنَّمَا الصُّحبةُ الاجتماعُ، وإنَّمَا يجتمعُ أهلُ الخيرِ علىٰ الدِّينِ والتَّعلُّمِ أوِ التَّعليمِ،

---

(١) في الأصل: بلايا، والأصح المثبت؛ كما في الرسالة القشيرية، ولأنه المؤلف سيذكره هكذا بصدد شرحه له.

ويكونُ النَّهيُ متعلِّقًا بكثرةِ الخلطةِ والمبيتِ فِي الأماكنِ [١٠٩/٣ب] وكثرةِ الخدمةِ وإنْ لمْ يكنْ هناكَ شرٌّ، وإنَّمَا يكونُ نهيُهُمْ خوفًا منَ سُمُومِ اللَّحظاتِ إلىٰ الوجوهِ المُستحسناتِ، وقبولِ أسوأِ الخطراتِ.

وَلَوْ كانَتْ صحبتُهُمْ فِي مجالسِ العلمِ، أوِ التَّذكيرِ والوعظِ، والجوابِ عنِ السُّؤالِ، ولمْ يكنْ هنالِكَ خلطةٌ وعِشْرةٌ ومُدَاوَمَةٌ يُخشَىٰ منهَا فِي حقِّ الرَّجلِ العَزبِ وحَالِ الشَّابِّ ممَّا ذكرْنَاهُ مِنْ سُوءِ الأسبابِ الدَّاعيةِ إلىٰ المحرَّماتِ، والوقوعِ فِي أقبحِ السَّيِّئاتِ، وعلىٰ هذَا يحملُ تحذيرُهُمْ خاصَّةً.

وإذَا كانَ هذَا هوَ المنهيَّ عنهُ فيكونُ قولُهُمْ: «**مَنِ ابْتُلِيَ بشيءٍ منْ هذهِ الأنتانِ والجِيَفِ، فقدْ أرادَ اللهُ بهِ الهَوانَ**» معناهُ: إذَا لمْ يسمعِ النُّصحَ والتَّحذيرَ خُشِيَ عليهِ الوقوعُ فِي هذهِ الأنتانِ والجيفِ، ولذلِكَ قالَ الواسطِيُّ: «**إذَا أرادَ اللهُ هوانَ عبدٍ ألقاهُ إلىٰ هؤلاءِ الأنتانِ والجِيَفِ**»، وما أظنُّ هذهِ المصيبةَ أعلَىٰ مصيبةٍ [مِنَ] الشَّاهدِ الَّذي(١) جعلوهُ شاهدًا لهُمْ وعليهِمْ إلَّا لغلبةِ هذا الفنِّ فيهِم، فجعلُوا الشَّاهدَ امتحانًا لنفوسِهِم؛ لئلَّا تقطعَ تعلُّقَهَا عنْ سوءِ الاعتيادِ فِي هذا النَّوعِ منَ الفسادِ، أوْ بقيَتْ فيهِمْ بقيَّةٌ فيأخذُونَ الشَّابَّ الجميلَ علىٰ ما بلغَنِي، ويُكْسَىٰ أجملَ قماشٍ وأحسنَ الزِّيِّ والشَّعرِ، ويأخُذُ بيدِهِ شمعةً يجلُو بهَا جمالَهُ، وتكونُ في يدِهِ في وسطِ السَّماعِ، فيقومُ هؤلاءِ الَّذينَ يزعمُونَ أنَّ هذَا امتحانٌ لموتِ شهواتِهِمْ، أوْ هيَ باقيةٌ لمْ تمُتْ، فيأخذُهُمْ الغناءُ المَمزوجُ بالآلاتِ المناسبةِ لحُسنِ الصُّورةِ والوجَناتِ معَ مشاهدتِهِمْ لذلِكَ، ويدورُونَ حولَهُ إذا غلبَتْهُمُ الأحوالُ، فيمَا يزعمُونَ مِنْ سُوءِ الفِعَالِ، والاختلافِ عندَ العقلاءِ فضلًا عنْ أهلِ الأديانِ، فإذَا لاحظُوا بأعينِهِمْ جمالَ هذا الشَّابِّ ولمْ يجدُوا فِي أنفسِهِمْ حَرَكةً شهوانيَّةً موصلةً إلىٰ سوءِ العذابِ كانَ ذلكَ شاهدًا لهُمْ بموتِ الشَّهواتِ، والخلاصِ منْ هذهِ الآفاتِ، وإنْ أحسُّوا

---

(١) في الأصل: التي، والصواب ما أثبته.

منْ أنفسِهِمْ ميلًا إلىٰ هذا الجمالِ وتَوقانًا ومحبَّةً لسوءِ الفعالِ كانَ ذلكَ شاهدًا عليهِمْ لا لهُمْ.

وقولُ الإمامِ: «**وَهَبْ أنَّهُ بلغَ رتبةَ الشُّهداءِ**»، يعني: مَنْ يشاهدُ الصَّانعَ فِي الصَّنعَةِ [٣/١١٠أ]، ولا يغفلُ عنِ اللهِ أليسَ هوَ مُلْتَفِتًا لمخلُوقٍ، مُسْتَحْسِنًا لهُ؟! وفِي هذا كَمَالُ الشُّغلِ عنِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ[1].

وقالَ فتحٌ الموصليُّ: «**لقيتُ ثلاثينَ شيخًا كلُّهُمْ ممَّنْ يعدُّ منَ الأبدالِ، كلُّهُمْ يحذِّرُنِي عندَ الانفصالِ عنهُ عنْ صُحْبَةِ الأحداثِ**»، وهذا يدلُّ علَىٰ أنَّهُ كانَ الغالبَ علَىٰ أهلِ ذلكَ الزَّمانِ، حتَّىٰ ظهرَ وبلغَ فسادُهُ إلىٰ أهلِ الخيرِ والصَّلاحِ، وأنَّهُ قلَّ مَنْ يصحبُ شابًّا للهِ ـ تعالىٰ ـ ليُعلِّمَهُ وينتفعَ بهِ فِي دينِهِ، ولولَا ذلكَ لمَا تأكَّدَ هذا التَّحذيرُ كلَّ هذَا التَّأكيدِ.

وقَالَ الإِمَامُ «**وَمَنِ ارْتَقَىٰ فِي هذَا البابِ**[2] **عَنْ حالةِ الفِسق، وأشارَ إلىٰ أنَّ ذلكَ مِنْ بَلاءِ الأرواحِ، ومَا قالوهُ مِنْ وَسَاوسِ القائلِينَ بالشَّاهدِ، وإيرادِ حكاياتٍ عنِ الشُّيوخِ لمَا كانَ الأَوْلَىٰ بهِمْ إسبالُ السِّترِ علىٰ هنَاتِهِمْ وآفاتِهِم، فذلِكَ نَظِيرُ الشِّرْكِ وَقَرِينُ الكُفْرِ**»، فبيَّنَ الإمامُ أنَّ مَنْ خالطَ الشَّبابَ[3] لَا للفسقِ، وارتفعَ عنْ هذا المذهبِ إلىٰ مذهبِ القائلِينَ بالشَّاهدِ[4]، وأنَّهُمْ إنَّمَا يخالطُونَ الشَّبابَ ويقيمُونَ الشَّاهدَ فِي السَّماعِ؛ اختبارًا لأرواحِهِمْ وبلاءً لهَا، وهلِ ارتفعَتْ عنْ هذا العالَمِ الشَّهوانِيِّ والأحوالِ الخسيسةِ أمْ لَا؟ واستشهدُوا علىٰ هذَا المذهبِ الخسيسِ بأقوالٍ عَنْ بعضِ المشايخِ، كانَ[5] الأَوْلَىٰ بهِمْ أنْ يستُرُوا نقصَهُم، ولَا

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٧٩.

(٢) أي: باب صحبة الأحداث.

(٣) في الأصل: السبات، والصواب المثبت.

(٤) أي: من القائلين بوحدة الشهود.

(٥) كُرِّر هذا اللفظ في الأصل.

يستدلُّوا عليهِ وعلَىٰ صحَّتِهِ؛ لأنَّهُ قريبٌ منَ الشِّركِ والكفرِ، فإنَّهُ يُؤدِّي إلَىٰ استحلالِ ما عُلِمَ بالإجماعِ تَحريمُهُ، وجَعْلِ ما ليسَ بطاعةٍ طاعةً، والتَّقرُّبِ إلىٰ اللهِ - تعالىٰ - بِمَا يُبْعِدُ عنهُ.

وإنَّمَا حذَّرَ المَشايخُ مِنْ خُلطةِ الشَّبابِ، ودوامِ الصُّحبةِ لهُم، والمبيتِ والخِدْمةِ خَوفًا مِنْ سُمُومِ اللَّحظاتِ، وخواطرِ السُّوءِ الدَّاعيةِ للمُحرَّماتِ، فليحذَرْ مِنْ ذلِكَ، ويكونُ الاجتماعُ بمَنْ أرادَ منهُم الانتفاعَ فِي مجالسِ الذِّكْرِ والتَّذكيرِ وسماعَ أقوالِ الصَّالحينَ، ويُوصَوْنَ ويؤدَّبُونَ بمَا يُؤمَرُونَ بهِ، ويُبعَدُ عنْ مخالطتِهِمْ وعِشْرَتِهِم.

فيحصلُ مِنْ هذا الوجهِ إرشادُ السَّالكينَ مِنَ الشَّبابِ المُريدينَ، وانتفاعُهُم بأهلِ الدِّينِ، والسَّلامةُ منَ الخُلطةِ والمُعاشرةِ الدَّاعيةِ لمَا حذَّرَ منهُ المشايخُ مِنْ سمومِ اللَّحظاتِ، وخَواطِرِ الشَّيطانِ اللَّعينِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

« فَصْلٌ[(٢)]

[٣/١١٠ب] وَمِنْ آفَاتِ المُرِيدِ: مَا يَتَدَاخَلُ النَّفْسَ مِنْ خَفِيِّ الحَسَدِ لِلْإِخْوَانِ، وَالتَّأَثُّرِ بِمَا يُفْرِدُ اللهُ ـ سبحانه ـ بِهِ أَشْكَالَهُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَحِرْمَانِهِ إِيَّاهُ ذَلِكَ.

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الأَمْرَ قِسَمٌ، وَإِنَّمَا يَتَخَلَّصُ العَبْدُ عَنْ هَذِهِ بِاكْتِفَائِهِ بِوُجُودِ الحَقِّ وَقِدَمِهِ عَنْ مُقْتَضَى جُودِهِ وَنِعَمِهِ.

فَكُلُّ مَنْ رَأَيْتَ ـ أَيُّهَا المُرِيدُ ـ قَدَّمَ الحَقُّ ـ سبحانه ـ رُتْبَتَهُ فَاحْمِلْ أَنْتَ غَاشِيَتَهُ، فَإِنَّ الظُّرَفَاءَ مِنَ القَاصِدِينَ[(٣)] عَلَى ذَلِكَ اسْتَمَرَّتْ سُنَّتُهُمْ[(٤)]».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا الفَصْلُ ـ وفَّقَكَ اللهُ ـ قانِعٌ جدًّا، وذلكَ [أنَّ] المريدِينَ إذا اجتمعُوا عندَ شيخٍ على الشُّروطِ الَّتِي ذكرْنَاهَا، والتزمُوا الأدبَ معَهُ، والقيامَ بمَا ألزمَهُمْ إيَّاهُ؛ منَ الخُلوةِ والأذكارِ وغيرِ ذلكَ منْ آدابِ السُّلوكِ إلى قُربِ الواحدِ القهَّارِ، وأحوالُهُمْ مختلفةٌ في الحدِّ والفتورِ والصَّبرِ والجزعِ، ولُطفُ اللهِ ـ تعالى ـ بهِمْ وإكرامُهُ لهُمْ مختلفٌ، فإيَّاكَ أنْ ترى واحدًا منَ الجماعةِ قدْ رفعَ الحقُّ درجتَهُ تتمنَّى زوالَهُ عنْ منزلتِهِ، وتكرَهُ رفعتَهُ عليكَ فِي درجتِهِ، فتقعَ فِي أعظمِ آفةٍ وبليةٍ؛ وهيَ الحسدُ الَّذي هلكَ بهِ إبليسُ ـ لعنَهُ اللهُ ـ لمَّا رأى ما فتحَ اللهُ بهِ على آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسعدَهُ، وكذلِكَ ابْنَي آدمَ لمَّا تُقُبِّلَ مِنْ أحدِهِمَا ولَمْ يُتقبَّلْ مِنَ الآخرِ[(٥)]، وذلكَ إخوةُ يوسفَ ـ صلواتُ اللهِ على نبيِّنَا وعليهِ ـ لمَّا وقعُوا فِي

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٠ ـ ٥٨١.

(٢) آفة الحسد وأثرها على المريد.

(٣) أي: الوصول إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

(٤) أي: طريقتهم.

(٥) كما هو وارد في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ=

الحسدِ، نالَهُمْ منَ المشقَّةِ والعناءِ والتَّعبِ والتَّذلُّلِ ما لمْ ينلْهُ أحدٌ(١).

وقدْ نصَّ اللهُ ـ تعالىٰ ـ علىٰ الحسدِ فِي كتابِهِ(٢)، وبيَّنَ أنَّ اليهودَ إنَّمَا منعَهُمْ مِنِ اتِّباعِ نبيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حسدُهُمْ؛ لكونِهِ جاءَ منَ العربِ ولَمْ يأتِ منْ بنِي إسرائيلَ، قالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

والحَسَدُ: تمنِّي زوالِ النِّعمةِ الحاصلةِ، وكراهةُ وقوعِ النِّعمةِ المُمْكنةِ، وبعضُ المنافسةِ أيضًا يكونُ حسدًا مُحرَّمًا؛ وهوَ إذَا تمنَّيتَ أنْ يكونَ لكَ مثلُ مَا هوَ فيهِ منَ الشَّرِّ والاقتدارِ علىٰ المعاصِي.

وَقَدْ يَتَمَنَّىٰ أنْ يكونَ لهُ مثلُهُ ولمْ يُرِدْ زوالَهُ عنهُ(٣)، وقدْ سمَّىٰ الشَّرْعُ المنافسةَ فِي الخيرِ حسدًا(٤)، فقالَ [صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ](٥): «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ [١١١/٣أ] عِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ مِنْهُ وَيَصْرِفُهُ فِي وُجُوهِ الخَيْرِ».

فهذا النَّوعُ منَ الحسدِ ينقسمُ خمسةَ أقسامٍ؛ وهوَ أنْ يتمنَّىٰ العبدُ أنْ يكونَ لهُ

= يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

(١) كما هو وارد في سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) انظر مواضعه في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص٢٠١.

(٣) وهو ما يسمَّىٰ بالغِبْطَة. انظر: التعريفات ص٢٠٧، والكليات ص٦٧٢.

(٤) أي: تسمية مجازية، والحقيقة أن تسمىٰ غبطًا. انظر: نتائج الأفكار ٤/٣٧٧.

(٥) سبق تخريجه.

مثلُ مَا لفلانٍ، فهوَ ينقسمُ إلى المحمودِ والمَذْمُومِ والمُبَاحِ، وذلكَ على حسبِ المُتَمَنَّى، فَتَمَنِّي الحَرَامِ حَرَامٌ، وأمَّا تمنِّي زوالِ النِّعمةِ الحاصلةِ أوِ المُمْكنةِ الحصولِ فكلُّهُ حرامٌ منَ الحسدِ.

وإيَّاكَ أيُّهَا المريدُ ثمَّ إيَّاكَ إذَا رأيتَ بعضَ إخوانِكَ قَدْ مَنَّ اللهُ عليهِ بِمَا لمْ يمُنَّ عليكَ، أوْ قدَّمَهُ شيخُكَ واستأذنَكَ عليكَ أنْ يدبَّ إلى قلبِكَ داءُ الحسدِ الَّذِي أهلكَ الأُمَمَ قبلَكَ، وهوَ يأكلُ الحسناتِ كمَا تأكلُ النَّارُ الحطبَ[١]، بلْ إذَا رأيتَهُ قدِ ارتفعَتْ منزلتُهُ عندَ اللهِ عليكَ، فاجعَلْهُ وسيلةً تتقرَّبُ بهَا إلى اللهِ، ولذلكَ قالَ الشَّيخُ: «**فَمَنْ رأيتَ أيُّهَا المريدُ قدَّمَ رتبتَهُ ورفعَ درجتَهُ فاحمِلْ أنتَ غاشيتَهُ**»، معناهُ: كُنْ لهُ خادمًا لتنالَ بهِ مَا نالَهُ[٢]، وإيَّاكَ أنْ تحسدَهُ فيرجعَ ضَرَرُ حَسَدِكَ إليكَ، ولا يتضرَّرُ هوَ بمَا جنيتَ عليكَ.

---

(١) كما في سنن أبي داود ٤/٢٧٦: «عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إِيَّاكُمْ وَالحَسَدَ فإن الحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ، كما تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ».

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٨١.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«فَصْـلٌ[(٢)]

وَاعْلَمْ أَنَّ[(٣)] مِنْ حَقِّ المُرِيدِ إِذَا اتَّفَقَ وُقُوعُهُ فِي جَمْعٍ[(٤)]: إِيْثَارَ الكُلِّ بِالكُلِّ؛ فَيُقَدِّمُ الجَائِعُ[(٥)] الشَّبْعَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَيُتَلْمِذُ لِكُلِّ مَنْ أَظْهَرَ عَلَيهِ التَّشَيُّخ وَإِنْ كَانَ هُوَ أَعْلَمَ مِنْهُ، وَلَا يَصِلُ ذَلِكَ إِلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا بِتَبْرِيَةٍ عَنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَتَوَصُّلِهِ إِلَىٰ ذَلِكَ بِطَوْلِ الحَقِّ وَمِنَّتِهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهذا الفصلُ يتضمَّنُهُ ما تقدَّمَ منْ وجوبِ انقيادِهِ إلىٰ شيخِهِ، وامتثالِهِ بالمبادرةِ لمَا أشارَ إليهِ، وذلكَ أنَّهُ إذا وقعَ في جماعةٍ وشيخُهُمْ واحدٌ كانَ حقُّهُ التَّعظيمَ لهُم، وإيثارَ غيرِهِ علىٰ نفسِهِ بمَا يأكلُهُ، وإنْ كانَ هوَ محتاجًا إليهِ وغيرُهُ شبعانَ إذَا رأَىٰ لهُ تشوُّفًا إليهِ، وكذلِكَ إذَا رأَىٰ مَنْ يتشيَّخُ[(٦)] عليهِ وإنْ كانَ هوَ فِي نفسِهِ أعلمَ منهُ وأسلكَ، فليتواضَعْ لهُ، ويتفهَّمْ منهُ مَا يشيرُ إليهِ، ويكونُ فِي صورةِ التِّلميذِ[(٧)].

فإنَّ جميعَ ما ذكرْنَاهُ أثبتُ [٣/١١١ب] لحالِهِ، وأمكنُ فِي مقامِهِ، فإنَّهُ فِي هذا الموضعِ يتعلَّمُ ويتخلَّقُ، فلا يناسبُهُ الرِّفعةُ علىٰ أحدٍ منَ النَّاسِ حِفْظًا لحالِهِ، وتمكُّنًا

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨١.

(٢) في إيثار المريد.

(٣) في الأصل: أنه، والأصح المثبت.

(٤) في (ف): جميع.

(٥) أي: المريد الجائع.

(٦) فيه إشارة إلىٰ التظاهر بالمشيخة، وكأنها تفعُّل أو افتعال بدليل قوله بعدها.

(٧) ليس مراده: أنه يتكلف ذلك وباطنه بخلافه، بل المراد حقيقة التبعية الظاهرة والباطنة. انظر: نتائج الأفكار ٤/٣٧٨.

فِي مقامِهِ، فإنَّهُ إنِ ارتفعَ علىٰ مَنْ زعمَ أنَّهُ أرفعُ منهُ فقدِ انتقلَ عَنْ محلِّهِ الَّذِي هوَ يسعَىٰ فِي التَّأدُّبِ فيهِ والتَّخلُّقِ بهِ، وارتفعَ إلىٰ طورٍ لا يليقُ بحالِهِ، وكذلِكَ إذَا كانَ بيدِهِ ما هوَ محتاجٌ إليهِ مِنْ غذائِهِ، ورأىٰ مِنْ إخوانِهِ مَنْ لهُ تشوُّفٌ إليهِ آثرَهُ بهِ، وإنْ كانَ هوَ أحوجَ إليهِ.

كلُّ ذلكَ ليتعوَّدَ الأخلاقَ الحميدةَ، ويرتفعَ فِي الدَّرجاتِ العليَّةِ[1]، ولَا يصلُ إلىٰ ما أشرْنَا إليهِ مِنْ هذهِ الخيراتِ إلَّا بالتَّبرِّي مِنْ حَوْلِهِ وقوَّتِهِ، والاعتمادِ فِي ذلكَ علَىٰ كاشفِ البليَّاتِ، وَمَولِي الصَّالحاتِ بمنِّهِ وكرَمِهِ.

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٨٢.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«فَصْلٌ [(٢)]

وَأَمَّا آدَابُ المُرِيدِ فِي السَّمَاعِ[(٣)]: فَالمُرِيدُ لَا نُسَلِّمُ لَهُ الحَرَكَةَ فِي السَّمَاعِ بالاخْتِيَارِ البَتَّةَ[(٤)]، فَإِنْ وَرَدَ عَلَيهِ وَارِدُ حَرَكَةٍ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ فَضْلُ قُوَّةٍ فَبِمِقْدَارِ الغَلَبَةِ[(٥)] يُعْذَرُ، فَإِذَا زَالَتِ الغَلَبَةُ يَجِبُ عَلَيهِ القُعُودُ وَالسُّكُونُ، فَإِنِ اسْتَدَامَ الحَرَكَةَ مُسْتَجْلِبًا لِلْوَجْدِ مِنْ غَيْرِ غَلَبَةٍ وَضَرُورَةٍ لَمْ يَصِحَّ، فَإِنْ تَعَوَّدَ ذَلِكَ بَقِيَ مُتَخَلِّفًا[(٦)] لَا يُكَاشَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الحَقَائِقِ، فَغَايَةُ أَحْوَالِهِ حِينَئِذٍ أَنْ يُطَيِّبَ قَلْبَهُ.

وَفِي الجُمْلَةِ: إِنَّ الحَرَكَةَ تَأْخُذُ عَنْ كُلِّ مُتَحَرِّكٍ وَتُنْقِصُ مِنْ حَالِهِ، مُرِيدًا كَانَ أَوْ شَيْخًا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِإِشَارَةٍ مِنَ الوَقْتِ، أَوْ غَلَبَةً تَأْخُذُ عَنِ التَّمْيِيزِ، فَإِنَّ كُلَّ مُرِيدٍ أَشَارَ عَلَيهِ شَيْخٌ بِالحَرَكَةِ فَتَحَرَّكَ عَلَى إِشَارَتِهِ فَلَا بَأْسَ إِذَا كَانَ الشَّيْخُ مِمَّنْ لَهُ حُكْمٌ عَلَى أَمْثَالِهِ.

وَأَمَّا إِذَا أَشَارَ إِلَيهِ الفُقَرَاءُ بِالمُسَاعَدَةِ فِي الحَرَكَةِ فَيُسَاعِدُهُمْ فِي القِيَامِ، وَفِي أَدْنَى مَا لَا يَجِدُ مِنْهُ بُدًّا مِمَّا يُرَاعِي عَنِ الاسْتِيحَاشِ[(٧)] قُلُوبَهُم.

ثُمَّ إِنَّ صِدْقَهُ فِي حَالِهِ يَمْنَعُ قُلُوبَ الفُقَرَاءِ مِنْ سُؤَالِهِمْ عِنْدَ المُسَاعَدَةِ مَعَهُمْ[(٨)]».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨١.

(٢) في سماع المريد وآدابه.

(٣) الخالي عن المحرمات.

(٤) لما فيها من الرياء والعجب.

(٥) أي: غلبة الوارد عليه.

(٦) أي: متأخرا عن أصحابه.

(٧) أي: في طريق البعد عنه.

(٨) بل يساعدهم بغير سؤال منهم.

❊ **قالَ الشَّارِحُ** رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: وممَّا هوَ مِنْ شأنِ المريدينَ السَّماعُ إذَا وقعَ علىٰ شروطِهِ الجائزةِ، وذلكَ بعدَ السَّلامةِ مِنْ أنْ يكونَ فيمَا يَسمعُ شيءٌ تكرهُهُ الشَّريعةُ: مِنْ قولٍ، أو آلةٍ، وحضورِ غيرِ الجنسِ، ويكونُ السَّماعُ قدْ تقدَّمَتْ لأربابِهِ مجاهداتٌ، وتحصيلُ معارفَ باللهِ ـ تعالىٰ ـ وأحوالٍ زائدةٍ علىٰ [١١١٢/٣] الأحوالِ يحرِّكُهَا وينشِئُهَا ويحدِّدُهَا مجالسُ السَّماعِ.

فإذَا كانَ علىٰ هذا الوجهِ سماعُهُمْ فأحوالُهُمْ منقسمةٌ؛ فمنهُمْ مبتدئٌ، ومُنْتَهٍ، ومتوسِّطٌ.

فالمُبتدِئُ لا يُسَلَّمُ لهُ القيامُ ليتواجدَ ويحصلَ لهُ الوجدُ، فيُمنعَ منهُ بالكلِّيَّةِ إلَّا أنْ يقومَ عليهِ أَوْ يشيرَ شيخٌ بالقيامِ ممَّنْ لهُ علىٰ باطنِهِ اطِّلاعٌ وحُكمٌ وإشرافٌ، ويكونُ قيامُهُ زيادةً في حالِهِ، وكذلكَ إذا قامَ شيخُهُ وكانَتِ العادةُ الأدبَ معَهُ أنْ تقومَ الجماعةُ لقيامِهِ قامَ إجلالًا لهُ، وهوَ يمسكُ علىٰ نفسِهِ حالَهُ، فلا يزيدُ علىٰ ذلكَ زيادةً إلَّا أنْ يكونَ مغلوبًا، فإنَّهُ يعرِّضُ نفسَهُ لدخولِ آفةِ الرِّياءِ أوِ العُجبِ، وأيسرُهَا استحسانُ الحالةِ والسُّكونُ إليهَا ورؤيتُهُ كمالَ نفسِهِ فيهَا، وكذلِكَ إذا قامَ أبناءُ جنسِهِ ومَنْ هوَ فِي مقامِهِ وكانَتِ العادةُ مساعدةَ بعضِهِمْ بعضًا فِي استجلابِ الأحوالِ الصَّحيحةِ فيساعدُهُمْ، فإنَّ أحوالَهُمْ تتزايدُ برؤيةِ بعضِهِمْ بعضًا، وهذَا شرطُ السَّلامةِ مِنْ آفةِ الرِّياءِ(١)، وإنَّمَا يكونُ الحاملَ لهُ استجلابُ حالِهِ وإعانَةُ غيرِهِ، فيكونُ قيامُهُ بهذِهِ النِّيَّةِ طاعةً.

وعلَىٰ الجُملةِ: فالسَّماعُ سببٌ لحصولِ راحةٍ فِي القلبِ دينيَّةٍ، ونيلِ مقامٍ شريفٍ، فلا يتوصَّلُ العبدُ إليهِ إلَّا بالأمورِ الجائزةِ منَ السَّماعِ والآلاتِ، وصحَّةِ المقاصدِ والنِّيَّاتِ، وإنْ كنَّا نرىٰ غيرَهُ أحسنَ منهُ؛ لكونِهِ لَمْ يكنْ فِي الصَّدرِ الأوَّلِ،

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٨٣.

ولا درجَ عليهِ المتقدِّمونَ منَ الصَّحابةِ والتَّابعينِ، وإنَّمَا حدثَ ذلكَ عندَ بعضِ السَّادةِ المتأخِّرينَ، فأمَّا اليومَ فالبُعدُ منهُ وممَّا حدثَ فيهِ منَ الآلاتِ المُحرَّماتِ، وخلطةِ مَنْ لا يُرضَىٰ خلطتُهُ منَ السُّوقَةِ وأربابِ الغفَلاتِ، ومَنْ لا يُعرفُ قلْبُهُ ولا يُستحسنُ لهُ وإنَّمَا هوَ معَ أصنافِ الشَّهواتِ والمُشتهياتِ.

وقولُهُ: «**والحركةُ تأخذُ**[1] **مِنْ كلِّ متحرِّكٍ، وتُنْقِصُ مِنْ حالِهِ، مريدًا كانَ أوْ شيخًا**» إذَا لَمْ يكنْ مغلوبًا علىٰ حالِهِ، «**أوْ بإشارةٍ منَ الوقتِ**»، هوَ أنْ يكونَ فِي المجلسِ منَ الصَّادقينَ مَنْ غلبَ عليهِ حالُهُ، واقتضَىٰ الوقتُ القيامَ؛ إجلالًا لهُ وعونًا لهُ علَىٰ [٣/١١٢ب] حالِهِ، وإلَّا إذَا لمْ يكنْ شيءٌ منْ ذلكَ فلا يتحرَّكْ وليجلِسْ ويتعوَّدِ القوَّةَ.

وقَدْ سُئِلَ سيِّدُ هذهِ الطَّائفةِ ـ وهوَ الجُنيدُ ـ عنْ قلَّةِ حركتِهِ في السَّماعِ فقيلَ لهُ: «يا سيِّدِي، أما لكَ حظٌّ فِي هذا؟ فقالَ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨]» إشارةً إلىٰ أنَّ القوَّةَ والكمالَ فِي أنْ يكونَ العبدُ مالكًا لحالِهِ، غالبًا عليهِ إلَىٰ أنْ يُغلبَ فيكونَ مَعْذُورًا.

۞ **قَالَ الإمَـامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: «**وَأَمَّا طَرْحُ الخِرْقَةِ فَحَقُّ المُرِيدِ أَنْ لَا يَرْجِعَ فِي شَيْءٍ خَرَجَ مِنْهُ البَتَّةَ**[3]**، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُشِيرَ عَلَيهِ شَيْخٌ بِالرُّجُوعِ فِيهِ، فَيَأْخُذَهُ عَلَىٰ نِيَّةِ العَارِيَةِ بِقَلْبِهِ، ثُمَّ يَخْرُجَ عَنْهُ بَعْدَهُ مِنْ غَيرِ أَنْ يَسْتَوْحِشَ قَلْبُ ذَلِكَ الشَّيخ.**

وَإِذَا وَقَعَ بَيْنَ قَوْمٍ عَادَتُهُمْ طَرْحُ الخِرَقِ، وَعُلِمَ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ فِيهِ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ شَيْخٌ تَجِبُ حِشْمَتُهُ وَحُرْمَتُهُ، وَكَانَ طَرِيقُ هَذَا المُرِيدِ أَلَّا يَعُودَ فِي الخِرَقِ

---

(١) أي: تأخذ قوة.

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٢.

(٣) للحديث الوارد في سنن النسائي الكبرىٰ ٤/١٢٤: «الراجع في هبته كالكلب في قَيْئِه».

فَالأَحْسَنُ أَنْ يُسَاعِدَهُمْ فِي الطَّرْحِ، ثُمَّ يُؤْثِرُ بِهِ القَوَّالَ إِذَا رَجَعُوا هُمْ فِيهَا[١].

وَلَوْ لَمْ يَطْرَحْ فَإِنَّهُ يَجُوزُ إِذَا عَلِمَ مِنْ عَادَةِ القَوْمِ أَنَّهُمْ يَعُودُونَ فِيمَا طَرَحُوا، فَإِنَّ القَبِيحَ إِنَّمَا هُوَ سُنَّتُهُمْ فِي العَوْدِ إِلَى الخِرْقَةِ لَا مُخَالَفَةَ[٢] لَهُمْ، عَلَى أَنَّ الأَوْلَى لَهُ الطَّرْحُ عَلَى المُوَافَقَةِ، ثُمَّ يَتْرُكُ الرُّجُوعَ فِيهِ[٣].

وَلَا يُسَلَّمُ لِلْمُرِيدِ البَتَّةَ التَّقَاضِي عَلَى القَوَّالِ؛ لِأَنَّ صِدْقَ حَالِهِ يَحْمِلُ القَوَّالَ عَلَى التَّكْرَارِ، أَوْ يَحْمِلُ غَيْرَهُ عَلَى الاقْتِضَاءِ[٤].

وَمَنْ تَبَرَّكَ بِمُرِيدٍ فَقَدْ جَارَ عَلَيهِ؛ لِأَنَّهُ يَضُرُّهُ؛ لِقِلَّةِ قُوَّتِهِ، فَالوَاجِبُ عَلَى المُرِيدِ تَرْكُ تَرْبِيَةِ الجَاهِ عِنْدَ مَنْ قَالَ بِتَرْكِهِ[٥] وَإِثْبَاتِهِ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ مِنَ الخِرقَةِ لا يخلُو: إمَّا أنْ يقعَ منَ القائمِ غلبةً، أَوْ يَطْرحَهُ اختيارًا، فإذَا قامَ فقد غلبَهُ حالُهُ، وسقطَ مِنْ لِباسِهِ شَيءٌ، فلَا يَنْبَغِي لَهُ أنْ يأخذَهُ، فإنَّهُ أمارةُ غلبتِهِ وصدقُ قيامِهِ.

وكلَّمَا ظهرَ فيهِ منَ الحركاتِ، وسقطَ عنهُ مِنَ الخرقِ، فكلُّهُ فِي حالةِ الصِّدقِ والقيامِ للهِ، فلَا ينبغِي لهُ أنْ يرجعَ فِي شيءٍ أخرجَهُ اللهُ منهُ على هذا الوجهِ منَ الصِّدقِ والغلبةِ، إلَّا أنْ يشيرَ عليهِ شيخُهُ أوْ مَنْ هوَ شيخُ ذلكَ الموضعِ بأخذِهِ، ويوافقُهُ [٣/١١٣أ] فِي[٦] الظَّاهرِ؛ حِفْظًا لقلبِهِ ونيَّتِهِ فِي الباطنِ أنْ يخرجَهُ فِي وقتٍ آخرَ.

---

(١) في الأصل: فيه، والتصويب من الرسالة القشيرية، والقصد: في خرقتهم.

(٢) في (ف): مخالفته.

(٣) في الأصل: فيها، والتصويب من الرسالة القشيرية.

(٤) أي: الطلب من القوَّال، وفي (ف): الاقتصار.

(٥) في (ف): بتبركه.

(٦) كرر هذا اللفظ في الأصل.

ويشبهُ هذَا ما جرَىٰ لكعبِ بنِ مالكٍ الَّذِي خرجَ عَنْ ثوبَيهِ بشارةً لَمَّا فتحَ اللهُ بالتَّوبةِ واستعارَ ثوبَينِ آخرَينِ ولبسَهُمَا، وأتَىٰ إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمَّ قالَ لهُ: إنَّ مِنْ توبةِ اللهِ عليَّ أنْ أنخلعَ مِن مالِي للهِ، قالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]: «أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خيرٌ لَكَ»؛ فأخرَجَ بعضَ مالِهِ وأمسَكَ الباقِي.

فكلُّ مَنْ غلبَ عليهِ حالُهُ الصَّحيحُ، وسقطَ منهُ شيءٌ فِي هذهِ الحالةِ فقدِ انفصلَ منهُ علَىٰ وجهٍ محمودٍ، فليدَعْهُ للهِ ولا يرجعْ فيهِ، وإنْ أمرَهُ مَنْ لهُ حكمٌ بأخذِهِ ولباسِهِ فليفعَلْ ولَا يخالِفْ، ويأخذُهُ علَىٰ وجْهِ العاريةِ، يَنْويهِ بقلبِهِ ويخرجُهُ فِي وقتٍ آخرَ.

وأمَّا إذَا كانَ عادةُ هؤلاءِ أصحابِ السَّماعِ أنَّهُمْ يرمُونَ الخرقَ اختيارًا إذا طابَ عيشُ أحدٍ منهُمْ ووجدَ وجْدًا أرمَىٰ بعضَ ثيابِهِ، فمَنْ وافقَهُ فِي الرَّمْيِ فكلُّ ذلكَ لا ينبغِي أنْ يرجعَ فيهِ أحدٌ، فكأنَّهُ خرجَ عنهُ للهِ يفعلُ فيهِ مَنْ لهُ الحكمُ فِي المجلسِ ما شاءَ، وإنْ كانَ عادتُهُمُ الرُّجوعَ فيمَا طرحوهُ للهِ، فليسَ ذلكَ بحسَنٍ، والأحسنُ ألَّا يطرحُوا أوَّلًا شيئًا ثمَّ يرجعُوا فيهِ، فإنَّهُ لا فائدةَ فِي الطَّرحِ لا للقوَّالِ ولَا ليحكمَ فيهِ مَنْ لهُ الحكمُ.

وإنْ طَرَحُوا شَيئًا للقوَّالِ؛ لكونِهِ كانَ سببًا لِمَا حصلَ لهُمْ منَ الوجْدِ الصَّحيحِ فليتركْ لهُ، ولا يعادُ إلىٰ مَنْ طرحَهُ؛ لمَا جاءَ فِي الرَّاجعِ فِي هبتِهِ منَ الذَّمِّ، وذلكَ أنَّ القبيحَ رجوعُهُمْ فيمَا طَرَحُوهُ، فإذَا كانَ عادتُهُمُ الطَّرحَ فليوافِقْهُم فِي الطَّرحِ ولَا يتخلَّقْ بالشُّحِّ، وإذَا رجعُوا لمْ يرجعْ وآثَرَ بهِ القوَّالَ أوْ تركَهُ، فإنَّ تركَهُ ليسَ بقبيحٍ بعدَ الخروجِ عنهُ، وإنَّمَا القبيحُ الرُّجوعُ فيهِ[(٢)].

وينبغِي لمَنْ حضرَ سَمَاعًا أوْ غيرَهُ، وطرأَتْ علىٰ مريدٍ أحوالٌ غالبةٌ، أوْ وجَدَ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/١٠١٣ ـ حديث رقم (٢٦٠٦)، ومسلم في صحيحه ٤/٢١٢٧ ـ حديث رقم (٢٧٦٩).

(٢) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٨٤.

وجْدًا صحيحًا ألَّا يتبرَّكَ بِهِ أحدٌ ولَا يعظِّمَهُ؛ خَوْفًا مِنْ دُخُولِ الآفاتِ عليهِ [٣/١١٣ب]، وإفسادِ حالِهِ برؤيتِهِ لنفسِهِ ورفعةِ مقامِهِ، فحقُّ الشَّيخِ أنْ يزجرَ مَنْ يراهُ يفعلُ بهِ ذلكَ، وإنْ كانَ مَا يقعُ منهُمْ غلبةً وعادَتُهُمُ الرُّجوعَ فيهِ، فهذَا لا قُبْحَ فيهِ فمَا وقعَ مِنْ كلِّ قائمٍ فِي السَّماعِ عليهِ وكانَتِ العادةُ ردَّهُ علىٰ صاحبِهِ فليَقبَلْ ولا يتركْهُ، فإنَّ هذَا لا قُبْحَ فيهِ لمَنْ يتركُهُ مختارًا ولا للقوَّالِ.

ولا ينبغِي لأحدٍ منَ المريدِينَ أنْ يقتضِيَ منَ القوَّالِ إعادةَ ما جرَىٰ علىٰ لسانِهِ، وليمسِكْ عن ذلكَ، فإنْ قوِيَ عليهِ حالُهُ فحالُهُ يستدعِي منَ القوَّالِ الإعادةَ، ويستغنِي هوَ عنِ الاستدعاءِ، فإنَّ الاستدعاءَ مضرٌّ لهُ جدًّا، يُفرِّقُ عليه[١] ما حَصَلَ لَهُ مِن أوائلِ الوَجْدِ، ويُخْشَىٰ عليه دُخُولُ آفةِ الرِّياءِ معَ بقايَا الاختيارِ وعدمِ الغلبةِ، فَمَسْكُهُ وصبرُهُ إلىٰ أنْ يظهَرَ عليهِ ما يُوجِبُ للقوَّالِ الاقتضاءَ أولَىٰ بهِ، وربَّمَا قوِيَ حالُهُ حتَّىٰ يكسوَ مَنْ فِي المجلسِ ويؤثِّرَ فيهِم أجمعِينَ، فَضْلًا عن القوَّالِ، وربَّمَا حرَّكَ حالُهُ وصبرُهُ بعضَ مَنْ فِي المجلسِ ممَّنْ يصلحُ لهُ الاقتضاءُ علىٰ أنْ تقتضِيَ الإعادةَ، ويحصل لهُ مقصودُهُ معَ السَّلامةِ[٢].

(١) قال العروسي: «لأنه التفات مما غلب عليه من الأهم في حقه» نتائج الأفكار ٤/٣٨٠.

(٢) أي: من ضرر طلب الإعادة من القوَّال، وقد أفاد ذلك الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٨٤.

قَالَ الإمَـامُ (١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«فَصْـلٌ (٢)

وَإِنِ ابْتُلِيَ مُرِيدٌ بِجَاهٍ، أَوْ مَعْلُومٍ، أَوْ صُحْبَةِ حَدَثٍ، أَوْ مَيْلٍ إِلَىٰ امْرَأَةٍ، أَوِ اسْتِنَامَةٍ(٣) إِلَىٰ مَعْلُومٍ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْخٌ يَدُلُّهُ عَلَىٰ حِيْلَةٍ يَتَخَلَّصُ [بِهَا](٤) مِنْ ذَلِكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ حَلَّ لَهُ السَّفَرُ وَالتَّحَوُّلُ عَنْ ذَلِكَ المَوْضِعِ؛ لِيُشَوِّشَ عَلَىٰ نَفْسِهِ تِلْكَ الحَالَةَ.

وَلَا شَيْءَ أَضَرُّ لِقُلُوبِ المُرِيدِينَ مِنْ حُصُولِ الجَاهِ لَهُمْ قَبْلَ خُمُودِ بَشَرِيَّتِهِمْ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قولُهُ: «**وإنِ ابتُلِيَ مريدٌ بجاهٍ، أَوْ معلومٍ، أَوْ صحبةِ حدثٍ، أَوْ ميلٍ إلىٰ امرأةٍ، أَوِ استنامةٍ إلىٰ معلومٍ، ولمْ يَكُنْ فِي البلدِ شيخٌ يُقتدَىٰ بِهِ ليخلِّصَهُ مِنْ هذهِ الأسبابِ فليسافرْ**»، فإنَّهُ أولَىٰ بهِ، ومَا ذكرَهُ مِنْ هذهِ الأسبابِ مختلفةُ العوائِقِ والضَّررِ، وذلكَ أنَّ الجاهَ مختلفٌ، فتارةً يكونُ لهُ حُرْمَةٌ بحيثُ يدفعُ عنهُ الأذيَّةَ وتشويشَ الحالِ [٣/١١٤أ] في المحلِّ الَّذي هوَ مستقِرٌّ فيهِ، فهذا النَّوعُ منَ الجاهِ لا ينبغِي الهُرُوبُ منهُ، فإنَّهُ لا يحملُ علىٰ ظلمٍ، ولا ازديادِ مالٍ، ولَا وقوعٍ فِي كِبْرٍ، وإنَّمَا غايتُهُ أنْ يندفعَ عنهُ بسببِ هذا الجاهِ ما يُشَوِّشُ عليهِ الإقامةَ، ويستمرُّ حالُهُ علىٰ الطَّاعةِ، وهذَا لوِ اكتسبَهُ وَسَعَىٰ فيهِ لمْ يكنْ مَذْمُومًا، وهوَ يتنزَّلُ منزلةَ ما لا بُدَّ لهُ منهُ منَ القوتِ فِي إقامةِ بِنْيَتِهِ والاستعانةِ علىٰ طاعتِهِ.

كمَا أنَّ فُضُولَ المالِ مذمومٌ، وكذلِكَ فُضُولُ الجَاهِ، ولذلِكَ جاءَ الخبَرُ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٢.

(٢) في تقلب منازل المريدين.

(٣) أي: سكون إلىٰ معلوم دنيوي.

(٤) زيادة من (ف).

الصَّحيحُ أنَّ اللهَ جعلَ هذا لابنِ آدمَ، ولَمْ يجعلْ عليه فيهِ حسابًا فقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[١]: «لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ؛ بيتٍ يكِنُّهُ»، وهوَ إشارةٌ إلىٰ ما ذكرْنَاهُ مِنْ موضعٍ يتأتَّىٰ فيهِ استقرارُهُ، سواءٌ كانَ بيتًا أوْ مسجدًا أو غيرَهُ، «وَثَوبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَجِلْفِ الخُبْزِ والمَاءِ».

فهذا قدْ جعلَهُ اللهُ حقَّ ابنِ آدمَ، وإذَا حصَّلَهُ لا ضررَ عليهِ فيهِ، وإنَّمَا يُكْرَهُ سُكُونُهُ إليهِ بالقلبِ دونَ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ ـ تعالىٰ ـ هوَ الَّذِي يُؤَمِّنُ ويُدْفِئُ ويُشْبِعُ بهذهِ الأسبابِ وبغيرِهَا، وإنْ كانَ الحقُّ جعلَهَا لابنِ آدمَ فهوَ ـ تعالىٰ ـ لمْ يحبَّ مِنْ أحدٍ أنْ يسكنَ لغيرِهِ سببًا كانَ أوْ كسْبًا أو فتوحًا.

وكذلِكَ ما ذكرَهُ منَ المعلومِ لَا يخلُو: إمَّا أنْ يكونَ فضولًا، أو محتاجًا إليهِ، فإنْ كانَ محتاجًا إليهِ فإنَّمَا يضرُّ السُّكونُ إليهِ، وإنْ كانَ فضولًا فالاستغناءُ عنهُ أَوْلَىٰ.

وأمَّا ما ذكرَهُ منَ الابتلاءِ بالشَّابِّ، أوِ المرأةِ؛ فإنْ أرادَ بالابتلاءِ خطورَ الخواطرِ، وتكرارَ ذلكَ عليهِ حتَّىٰ يتشوَّشَ منهُ ولمْ يكنْ فِي نفسِهِ قوَّةُ الاشتغالِ بالذِّكْرِ والإقبالِ علىٰ اللهِ حتَّىٰ يُعْرِضَ عَنْ هذهِ الخواطرِ الرَّديئةِ، وإلَّا فخروجُهُ عنِ البلدِ[٢]؛ لِتَشْغَلَهُ الأسفارُ، ويتحرَّكَ ويتحوَّلَ مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ، فيسلمَ منَ الوقوعِ فِي أسبابِ دخولِ النَّارِ والعياذُ باللهِ السَّتَّارِ الغفَّارِ.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «**وَمِنْ آدَابِ المُرِيدِ: أَلَّا يَسْبِقَ عِلْمُهُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مُنَازَلَتَهُ**[٤]، **فَإِنَّهُ إِذَا تَعَلَّمَ [سيرَ]**[٥] **هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَتَكَلَّفَ الوُقُوفَ عَلَىٰ**

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) فذلك أولىٰ به من الإقامة.
(٣) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٢.
(٤) أي: منزلته.
(٥) زيادة من (ف).

مَعْرِفَةِ مَسَائِلِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ [٣/١١٤ب] قَبلَ تَحقُّقِهُ بِهَا بِالمُنَازَلَةِ وَالمُعَامَلَةِ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَىٰ هَذِهِ المَعَانِي، وَلِهَذَا قَالَ المَشَايِخُ: إِذَا حَدَّثَ العَارِفُ عَنِ المَعَارِفِ فَجَهِّلُوهُ؛ فَإِنَّ الإِخْبَارَ عَنِ المَنَازِلَ دُونَ المَعَارِفِ.

وَمَنْ غَلَبَ عِلْمُهُ مُنَازَلَتَهُ فَهُوَ صَاحِبُ عِلْمٍ[١]، لَا صَاحِبُ سُلُوكٍ[٢]».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: قَدْ تقرَّرَ وعُلِمَ بالشَّرعِ والعقْلِ أنَّ كلَّ عملٍ وكلَّ منازلةٍ لا بُدَّ أنْ يتقدَّمَ العلمُ بهَا إنْ كانَتْ مكتسَبةً، وأمَّا إنْ كانَتِ المنازلةُ إلهامًا وخُبْرًا وفتْحًا منَ الحقِّ فإنَّ العلمَ بهَا مساوقٌ لحلولِهَا والفتحِ بها، فمَا كانَ مِنْ هذا القبيلِ لا يتأتَّىٰ أنْ يسبقَ العلمُ المنازلةَ، فإنَّ العلمَ بالمنازلةِ تبعٌ لهَا، فخرجَ مِنْ مجموعِ ذلكَ أنَّ كلَّ مقامٍ مكتسبٍ وحالٍ شَريفٍ مطلوبٍ لا بدَّ أنْ يقدِّمَ المعلمُ بهِ تحصيلَهُ، وكيفَ يمكنُ أنْ يقالَ بعدَ هذا التَّقريرِ: ينبغِي للمريدِ ألَّا يسبقَ علمُهُ منازلتَهُ، وتقدُّمُ العلمِ ضروريٌّ فِي المُنازلاتِ المُكتسَبةِ؟!

وإنَّمَا مَحْمَلُ هذَا القَولِ الصَّحيحِ أنَّ المُريدَ لا يعلِّقُ همَّتَهُ بعِلمِ مقامٍ فوقَ مقامِهِ؛ حتَّىٰ يتيَّقَنَ ما هوَ فيهِ ويُحْكِمَهُ، فإنَّ شُغْلَهُ وتعلُّقَ همَّتِهِ بمَا هوَ أرفعُ منهُ يمنعُهُ استحسانَ الأعلَىٰ منَ المقاماتِ عَنْ إحكامِ ما هوَ فيهِ، فلهذَا ينبغِي أنْ يقالَ: «لا يسبقُ علمُهُ بالمقامِ الأعلَىٰ إتقانَهُ لمَا هوَ فيهِ حتَّىٰ يُتقنَهُ».

ويحتملُ كلامُهُ وَجهًا آخرَ: وهوَ أنَّ العبدَ لا يتكلَّمُ فِي المقاماتِ العاليةِ ويتحدَّثُ فيهَا وتفاصيلِهَا بمحضِ العِلمِ حَتَّىٰ يبلغَهَا أو يُنازِلَهَا، فإنَّ نفسَهُ إذا تكلَّمَ فيها وتَفاصيلهَا بمحضِ العِلْمِ تَوهَّمَتْ نفسُهُ أنَّ منازلتَهُ حصلَتْ، وإنَّمَا منعَهَا علمُهُ

(١) قال العروسي: «أي: فيكون ممن تخلق بالقال والقيل، واستند إلىٰ ما لا يصح عليه التعويل» نتائج الأفكار ٤/٣٨١.

(٢) إذ لا يلزم من تصور الشيء حصوله، والعكس.

لا منازلته، فيكونُ قنوعُ النفسِ بالعِلْمِ سببًا لمنْعِهَا المعنَىٰ المعلومَ، ولذلِكَ قالَ سيِّدُ هذِهِ الطَّائفةِ الجُنيدُ(١): «علمُ التَّوحيدِ مباينٌ لوجودِهِ، ووجودُهُ مباينٌ لعِلمِهِ، وذلِكَ أنَّ علمَ التَّوحيدِ: معرفتُكَ بالدَّليلِ أنَّ الحقَّ ـ سبحانه ـ واحدٌ، وأمَّا التَّوحيدُ: فهوَ أنْ يشتغلَ باللهِ ـ تعالىٰ ـ شغلًا بكمالِهِ وجَمَالِهِ ودوامِ ذِكْرِهِ ومراقبتِهِ حتَّىٰ يغفلَ عن غيرِهِ بَلْ عن ذِكْرِ نفسِكَ شُغلًا [٣/١١٥أ] بهِ»، وهذَا هوَ التَّوحيدُ.

وكذلِكَ علمُ الإنسانِ بأنَّ حقيقةَ الزُّهدِ: عُزُوفُ النَّفسِ عنِ الدُّنيَا، وقلَّةُ الوزنِ والقدرِ لهَا، فهذَا علمُ الزُّهدِ، وحقيقةُ الزُّهدِ: أنْ يصيرَ وجودُ الدُّنيَا كوجودِ التُّرابِ عندَ الزَّاهدِ، سَواءً بالنَّظرِ لعدمِ محبَّتِهِ لهَا، وتمنِّي ملكِهِ لهَا، لَا بالنَّظرِ للفَرْقِ بينَ الذَّهبِ والتُّرابِ؛ لأنَّ شرفيَّةَ أحدِهِمَا علَىٰ الثَّانِي معلومةٌ، وإنَّمَا استوَيَا لقلَّةِ الرَّغبةِ فيهِمَا، فإنَّ الزُّهدَ ضدُّ الرَّغبةِ، فهذَا هوَ الزُّهدُ، ومَا تقدَّمَهُ عِلمُ الزُّهدِ لا عينُ الزُّهدِ.

وكذلِكَ يعلمُ العبدُ أنَّ التَّوكُّلَ: اعتمادُ القلبِ علىٰ اللهِ لا علَىٰ غيرِهِ منَ الأسبابِ، فإنَّهُ لا ضارَّ ولا نافعَ غَيْرُهُ، ولَا مُعْطِي ولا مانِعَ سِوَاهُ، فهذَا علمُ التَّوكُّلِ، وأمَّا حقيقتُهُ: فهوَ أنَّهُ لوْ لمْ تمطرِ السَّماءُ فِي بعضِ الأعوامِ، ولمْ يطلعِ النِّيلُ، ولمْ يسكنِ العبدُ إلىٰ ربِّهِ في رزقِهِ واضطَّربَتْ أحوالُهُ وتغيَّرَتْ صفاتُهُ دلَّ علَىٰ أنَّهُ غيرُ معتمدٍ علىٰ ربِّهِ حالًا، وإنَّمَا هوَ يعلمُ ذلكَ عِلْمًا، ولَوْ كَانَ حَالُ التَّوكُّلِ قَدْ حَصَلَ لهُ لسَكَنَ ولمْ يضطَرِبْ بتغيُّرِ الأسبابِ والأصحابِ، فإنَّ مَنِ اعتمدَ عليهِ لم يتغيَّرْ، ولَمْ يزَلْ تعالَىٰ وتقدَّسَ عنْ ذلِكَ علوًّا كبيرًا.

---

(١) سبق تخريج قوله.

قَالَ الإمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«فَصْـلٌ[(٢)]

وَمِنْ آدَابِ المُرِيدِينَ: أَلَّا يَتَعَرَّضُوا لِلتَّصَدُّرِ، وَأَلَّا يَكُونَ لَهُمْ تِلْمِيذٌ أَوْ مُرِيدٌ، فَإِنَّ المُرِيدَ إِذَا صَارَ مُرَادًا[(٣)] قَبْلَ خُمُودِ بَشَرِيَّتِهِ[(٤)] وَسُقُوطِ آفَتِهِ[(٥)] فَهُوَ مَحْجُوبٌ عَنِ الحَقِيقَةِ، لَا تَنْفَعُ أَحَدًا إِشَارَتُهُ وَتَعْلِيمُهُ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأمَّا نهيُهُ المريدَ عنِ التَّصدُّرِ للتَّعليمِ وجذبِ القاصدِينَ إلى اللهِ ـ تعالى ـ بالحبلِ المتينِ، فلا يتعرَّضُ لهُ معَ ضَعْفِهِ وعدمِ قوَّتِهِ، فإنَّهُ إذا تعرَّضَ لهُ معَ ضَعْفِهِ خُشِيَ عليهِ الدَّمارُ والهلاكُ، ودخلَتْ عليهِ الآفاتُ لجَهْلِهِ بطُرُقِ الرِّياضةِ وأسبابِ المعاملةِ، فهوَ فِي حدِّ مَنْ يتعلَّمُ لا فِي حدِّ مَنْ يُعَلِّمُ[(٦)].

وقولُهُ: «مُرَادًا» يعنِي: منَ الخَلْقِ، وحقُّهُ أنْ يكونَ مُرِيدًا للحقِّ، وإذَا كانَ مُرَادًا للحقِّ فهوَ في هذِهِ الحالةِ إذا تصدَّرَ صَارَ مَطلُوبًا للخلقِ [٣/١١٥ب]؛ ليحصلَ لهُمُ الانتفاعُ بهِ، وحقُّهُ أنْ يكونَ مُرِيدًا لَا مُرَادًا؛ فإنَّهُ إذَا كانَ مُرِيدًا للهِ صحَّ أنْ يقتدِيَ بمَنْ يُوصِّلُهُ إليهِ ويعرِّفُهُ بهِ، وإذَا كانَ مُرَادًا للخلقِ لينتفعُوا بهِ وهوَ بَعْدُ لمْ يَكْمُلْ كونُهُ مُرِيدًا دخلَتْ عليهِ آفات، وتعرَّضَ لمهلكات؛ لعدمِ العلمِ والحالِ والصِّدقِ والكمالِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٣.

(٢) في تصدُّر المريدين.

(٣) أي: تكلَّف هذا الخلق في غير إبانة.

(٤) أي: قبل موت نفسه الحيوانية.

(٥) أي: ما يعرض لها من الخواطر الدنية، وفي (ف): آفاته.

(٦) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٨٦.

وإذَا كانَ كذلكَ لمْ ينتفعْ أحَدٌ بإشارتِهِ ولَا تعليمِهِ؛ لعدم أهليَّتِهِ لمَا دخلَ فيهِ، وضَعْفِ نيَّتِهِ ومرَامِهِ، وهوَ محجوبٌ عن حقيقةِ ما هوَ فيهِ، فإنَّ حقَّهُ أنْ يكونَ مُرِيدًا لا مُرَادًا، فكيفَ بأنْ ينالَ حقيقةَ كونِهِ مُرَادًا؟!

❁ قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«فَصْلٌ(٢)

وَإِذَا خَدَمَ المُرِيدُ الفُقَرَاءَ فَخَوَاطِرُ الفُقَرَاءِ رُسُلُهُمْ إِلَيْهِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَالِفَ المُرِيدُ مَا حَكَمَ بَاطِنُهُ عَلَيهِ مِنَ الخُلُوصِ فِي الخِدْمَةِ، وَبَذْلِ الوُسْعِ وَالطَّاقَةِ».

فَصْلٌ(٣)

وَمِنْ شَأْنِ المُرِيدِ إِذَا كَانَتْ طَرِيقَتُهُ خِدْمَةَ الفُقَرَاءِ: الصَّبْرُ عَلَىٰ جَفَاءِ القَوْمِ مَعَهُ، وَأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّهُ يَبْذُلُ رُوحَهُ فِي خِدْمَتِهِم ثُمَّ لَا يَحْمَدُونَ لَهُ أَثَرًا، فَيَعْتَذِرَ إِلَيْهِم مِنْ تَقْصِيرِهِ، وَيُقِرَّ بِالجِنَايَةِ عَلَىٰ نَفْسِهِ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِم وَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ بَرِيءُ السَّاحَةِ.

سَمِعْتُ الإِمَامَ أَبَا بَكْرِ بْنَ فُورَكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: إِنَّ فِي المَثَلِ: إِذَا لَمْ تَصْبِرْ عَلَى المِطْرَقَةِ فَلِمَاذَا كُنْتَ سِنْدَانًا؟! وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدُوا(٤):

رُبَّمَا جِئْتُهُ لِأُسْلِفَهُ العُذْ ❁ رَ لِبَعْضِ الذُّنُوبِ قَبْلَ التَّجَنِّي».

❁ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقولُهُ: «وإذا خدمَ المُريدُ جماعةً منَ الفقراءِ» فليعملْ فِي خِدمتِهِم ما وقعَ فِي باطنِهِ منَ الصَّلاحِ فإنَّ بواطنَهُمْ رُسُلٌ إليهِ، والحقُّ ـ سبحانه ـ إنَّمَا يُجْرِي عليهِم ما يُوافقُهُم ويوافقُ ما هُمْ عليهِ، فأيُّ شيءٍ وقعَ فِي نفسِ المُريدِ وكانَ عازمًا علىٰ أنْ يخدمَ الفقراءَ بأنْ يخدمَهُمْ بمَا وقعَ لهُ فِي قلبِهِ، فإنَّ ذلكَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٣.

(٢) في خواطر الفقراء.

(٣) في خدمة الفقراء.

(٤) من الخفيف، لابن أبي أمية في: المحب والمحبوب ٢/١٤، وورد بلا نسبة في: الزهرة ١/٢١٤، والدر الفريد وبيت القصيد ٦/٣١١.

مرادُهُم، وهوَ مرادُ اللهِ منهُ، وهوَ الَّذِي يخلقُ لهُ مَا أحبُّوهُ واختارُوهُ[١]، فالَّذِي يقعُ فِي قلبِهِ يكونُ موافقًا لهُمْ إنْ شاءَ اللهُ.

والفصلُ الثَّانِي: خدمتُهُمْ وإنْ أفرغَ فيهَا جهدَهُ وعمِلَ علىٰ ما يقعُ، فليستحقِرْ نفسَهُ، ويعلَمْ أنَّ كلَّ ما هوَ فيهِ منْ [١١٦/٣أ] بركةِ خِدْمَتِهِمْ، وانقيادِهِمْ لهُ، وإنْ وقعَ فيهِ كلامٌ فليكُنْ فِي نفسِهِ معَهُمْ عليهِ، ويَنْسِبِ التَّقصيرَ إلىٰ نفسِهِ دونَهُمْ، وإنْ لمْ يكُنْ عندَهُ صبرٌ وحملَ علىٰ نفسِهِ لمْ ينَلْ سيادةَ الخادِمِينَ، كمَا قِيلَ[٢]: «سيِّدُ القَومِ خادمُهُم»[٣]، وكمَا قِيلَ فِي المثَلِ: «إذَا لمْ تصبِرْ علىٰ ضَرْبِ المِطرَقَةِ فلِمَ صِرْتَ سِنْدَانًا؟!»، وتكونُ مِمَّنْ[٤] لا ترَىٰ نفسَكَ أهْلًا لخدمتِهِمْ، ولَا تصلحُ للقيامِ بحقوقِ الخدمةِ وإنْ كنتَ كاملًا فيهَا، كمَا قيلَ:

رُبَّمَا جِئْتُهُ لِأُسْلِفَهُ العُذْ ... رَ لِبَعْضِ الذُّنُوبِ قَبْلَ التَّجَنِّي

يعنِي: أنَّ المريدَ إذَا قرَّرَ فِي نفسِهِ أنَّهُ لا يصلحُ لخدمةِ الفقراءِ، فإذَا وقعَ منهُ زللٌ أوْ تقصيرٌ كانَ اعتذارُهُ سابقًا لجنايتِهِ وتقصيرِهِ، ولذلكَ قالَ: «أُسلِفُهُ العذرَ علىٰ الجنايةِ قبلَ أنْ تقعَ».

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٠٨٦/٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٠٨٦/٢.

(٤) في الأصل: من، والأصح المثبت.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

« فَصْلٌ (٢)

بِنَاءُ هَذَا الأَمْرِ وَمَلَاكُهُ(٣): عَلَىٰ حِفْظِ آدَابِ الشَّرِيعَةِ، وَصَوْنِ اليَدِ عَنِ المَدِّ إِلَىٰ الحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ، وَحِفْظِ الحَوَاسِّ عَنِ المَحْظُورَاتِ(٤)، وَعَدِّ الأَنْفَاسِ مَعَ اللهِ(٥) ـ سبحانه ـ عَنِ الغَفَلَاتِ، وَأَلَّا يَسْتَحِلَّ مَثَلًا سِمْسِمَةً فِيهَا شُبْهَةٌ فِي أَوَانِ الضَّرُورَاتِ، فَكَيْفَ عِنْدَ الاِخْتِيَارِ وَوَقْتَ الرَّاحَاتِ؟!

وَمِنْ شَأْنِ المُرِيدِ: دَوَامُ المُجَاهَدَةِ فِي تَرْكِ الشَّهَوَاتِ؛ فَإِنَّ مَنْ وَافَقَ شَهْوَتَهُ عُدِمَ صَفْوَتَهِ(٦).

وَأَقْبَحُ الخِصَالِ بِالمُرِيدِ: رُجُوعُهُ إِلَىٰ شَهْوَةٍ تَرَكَهَا للهِ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جميعُ ما ذكرَهُ فِي هذا الفصلِ معضودٌ بالخبرِ الصَّحيحِ، وهوَ قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكايةً عنْ ربِّهِ(٧): «مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِم»، وهذا يشملُ القيامَ بسائرِ الواجباتِ منَ الصَّلواتِ المفروضَاتِ، والصَّومِ والزَّكاةِ وحقوقِ الوالدَينِ والقَرَاباتِ، ويشملُ أيضًا سائرَ المحرَّمَاتِ، وإنْ تفاوَتَتْ فِي الدَّركاتِ، ويدخلُ فيهَا الظُّلْمُ ولوْ بيسيرٍ منَ المَمْلُوكَاتِ، وفِي بقيَّةِ الخبرِ الصَّحيحِ: «وَلَا يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ».

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٣ ـ ٥٨٤.

(٢) في أسس التصوف.

(٣) أي: ما يُبنىٰ عليه التصوف ويُأسس عليه. وملاكه: ما تتحقق به حقيقته.

(٤) من الحظر؛ وهو المنع.

(٥) كناية عن التفرغ لعبادة ربه مع دوام مراقبته.

(٦) أي: خالصه؛ لاشتغاله بغير ربه.

(٧) سبق تخريجه.

وهذَا يشملُ القيامَ بسائرِ المَنْدُوباتِ، وَإِنْ تَعَالَتْ فِي الدَّرجاتِ، والانكفافَ [١١٦/٣ب] عَنْ سَائِرِ المنهيَّاتِ؛ منَ المكروهاتِ والشُّبُهَاتِ، وإنْ بعُدَتْ فِي الشُّبهةِ عنِ المحرَّماتِ، ويشملُ الانتهاءَ عنِ الغفلاتِ، والاشتغالَ بالشَّهواتِ بدلًا منَ الطَّاعاتِ، فإنَّ العبدَ متَىٰ تركَ شهوةً وإنْ كانَتْ منَ المباحاتِ؛ لكونِهَا مُشْغِلَةً لهُ عنِ الطَّاعاتِ، وصحَّ تركُهُ لهَا للهِ مِنْ هذهِ الجهاتِ، فرجوعُهُ عمَّا تركَهُ للهِ منْ أقبحِ الحالاتِ، ونقضٌ لمَا عزمَ علىٰ تَرْكِهِ لخالقِ الأرضِ والسَّماواتِ.

وكلُّ ما ذكرْنَاهُ منْ هذهِ المراتبِ المحرَّماتِ والواجباتِ والمندوباتِ والمكروهاتِ، والإعراضِ عنِ الشَّهواتِ وحفظِ القلبِ عنْ طُرُقٍ منَ الغَفَلاتِ؛ لكمالِ شُغْلِهِ بالمناجاةِ، لا يُنَالُ منهُ شيءٌ إلَّا بكمالِ المجاهدةِ فِي عمومِ الأوقاتِ، واستشعارِ نظرِ الحقِّ إليهِ فِي الحركاتِ والسَّكنَاتِ، بَلْ فِي الأنفاسِ واللَّحظاتِ، وأنْ يعبدَ العبدُ الحقَّ كأنَّهُ يراهُ ـ وهوَ مقامُ ـ الإحسانِ بواضحِ الدَّلالاتِ.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

فَصْلٌ (٢)

«وَمِنْ شَأْنِ المُرِيدِ: حِفْظُ عُهُودِهِ مَعَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ؛ فَإِنَّ نَقْضَ العَهْدِ فِي طَرِيقِ الإِرَادَةِ كَالرِّدَّةِ عَنِ الدِّينِ فِي أَهْلِ الظَّاهِرِ(٣).

وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُرِيدِ أَنْ يُعَاهِدَ اللهَ ـ تعالىٰ ـ عَلَىٰ شَيْءٍ بِاخْتِيَارِهِ مَا أَمْكَنَهُ(٤)؛ فَإِنَّ فِي لَوَازِمِ الشَّرْعِ مَا يَسْتَوْفِي مِنْهُ كُلَّ وُسْعٍ، قَالَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي صِفَةِ قَوْمٍ ابْتَدَعُوهَا: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧]، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذا الفصلُ جميعُهُ مندرجٌ في آيةٍ مِنْ كتابِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ، ومَا جرىٰ لثعلبَةَ بنِ حاطبٍ، وكانَ رجلًا فقيرًا فأتىٰ إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالَ: يا نبيَّ اللهِ، ادعُ اللهَ أنْ يرزقَنِي مالًا، فإنْ آتانِي اللهُ مالًا لأتصدقَنَّ ولأفعلَنَّ ولأصنعَنَّ، فقالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٥): «يا ثعلبةُ، أما لكَ فِيَّ أسوةٌ حسنةٌ»، أيِ: اقنعْ بمَا رزقَكَ اللهُ، ولا تلتزِمْ مَا لا تطيقُهُ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، واللهِ لئِنْ آتانِي اللهُ لأتصدقَنَّ، فلمْ يزلْ بالنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّىٰ قالَ: «اللَّهُمَّ ائتِ ثعلبةَ مالًا»، فاتَّخذَ غنمًا، فنمَتْ كما ينمُو الدُّودُ حتَّىٰ كثُرَتْ، ونزلَ بهَا واديًا [٣/١١٧أ] مِنْ أوديةِ المدينةِ، واشتغلَ بهَا حتَّىٰ صارَ يُصَلِّي بعضَ الصَّلواتِ الفرضَ معَ النَّبيِّ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٤.
(٢) في عهود المريدين.
(٣) في (ف): لأهل الظاهر.
(٤) لعلم كل عبد بأنه لا طاقة له علىٰ شيء إلا بإعانة ربه علىٰ نفسه التي لا يُوثَقُ بوفائها.
(٥) سبق تخريجه.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعضَهَا فيهَا، ثمَّ كثُرتْ ونمتْ وتباعَدَ بهَا منَ المدينةِ حتَّىٰ صارَ يصلِّي معَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجمعةَ خاصَّةً دونَ غيرِهَا منَ المفروضاتِ، فأنزلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ آيةَ الصَّدقةِ، فقالَ ـ تعالىٰ ـ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وبيَّنَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسنانَ الصَّدقةِ، وأرسلَ مُصدِّقيهِ، وقالَ لهُمَا: مُرَّا بثعلبةَ بنِ حاطبٍ وبفلانٍ السُّلميِّ خُذَا منهُمَا صدقاتِهِمَا، فمرَّا بثعلبةَ بنِ حاطبٍ وأخبَرَاهُ، فقالَ: أَرِيَانِي كتابَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوقفَ عليهِ، وقالَ: ما هذهِ إلَّا جزيةٌ، ما هذهِ إلَّا أُخيَّةُ الجزيةِ!، انطلقَا ثمَّ عُودَا إليَّ، ومرَّا بالسُّلمِيِّ، فاستقبلَهُمَا بأفضلِ أسنانِهِ، وقالَا لهُ: لا يلزمُكَ هذَا بلْ دونَهُ، قالَ: خُذاهُ فإنَّ نفسِي بهِ طيِّبةٌ، ثمَّ رجعَا إلىٰ ثعلبةَ فِي رجوعِهِمَا، فقالَ لهُمَا: أَرِيَانِي كتابَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرآهُ مرَّةً أُخرىٰ، فقالَ: ما هذِهِ إلَّا جزيةٌ، أخِّرَانِي حتَّىٰ أنظرَ فِي أمرِي، فأتَيَا إلىٰ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقدْ أنزلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧]، فأوَّلَ مَا رأىٰ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصدِّقيهِ قالَ: يا ويحَ ثعلبةَ!، ودعَا للسُّلميِّ بخيرٍ، وتلَا ما أنزلَ اللهُ ـ تعالىٰ ـ فِي ثعلبةَ، وكانَ عندَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنُ عمٍ لثعلبةَ، فمضَىٰ إلىٰ ثعلبةَ وأعلمَهُ بمَا أنزلَ اللهُ فيهِ، فأتَىٰ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأرادَ أنْ يأتِيَ بصدقتِهِ، فقالَ لهُ: منعَنِي اللهُ مِنْ أنْ أقبلَ صَدَقتَكَ، ونزَّلَ فيكَ كيتَ وكيتَ، فأخذَ يرفعُ التُّرابَ علَىٰ رأسِهِ ويبكِي، فقالَ لهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هذا عملُكَ أَمرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي».

وكفَىٰ بهذهِ الآيةِ دليلًا في أنَّ العبدَ يرضَىٰ بمَا قسمَهُ اللهُ وقدَّرَهُ وكلَّفَهُ بهِ، ولا يلتزمُ شيئًا آخرَ ممَّا لمْ يُلزِمْهُ اللهُ [١١٨/٣أ]، ففِي مَا ألزمَهُ اللهُ كفايةٌ، فليتَهُ يقومُ بمَا

عليهِ منَ الواجباتِ فِي قلبِهِ وجوارحِهِ وأهلِهِ وولدِهِ والدَّانِي (١) منَ القَرابَاتِ، فضْلًا عنْ حقوقِ المسلِمينَ الَّتِي تختلفُ عليهِ باختلافِ الأوقاتِ، منْ تغييرِ المنكرَاتِ وصلةِ ذَوِي الحاجاتِ، ودفعِ الظُّلمِ عمَّنْ يمكنُهُ دفعهُ ولَوْ بالإشاراتِ.

هذَا حالُنَا فِي الواجباتِ، فكيفَ بسَعةِ اللهِ فِي المندوباتِ، وإسباغِ رحمتِهِ علينَا لكثرةِ الفضْلِ فِي أعالِي الدَّرجاتِ؟!، فلا يلتزمُ العبدُ شيئًا ويكفِيهِ ما هوَ فيهِ منَ التَّكليفاتِ، وقدْ كرِهَ العلماءُ النَّذرَ وإنْ كانَ منَ الطَّاعاتِ، فإنَّهُ إذا دخلَ فيهِ تزايدَ عليهِ منَ الواجباتِ، مَا ربَّما يعجزُ عنِ الوفاءِ للهِ بهِ فِي كلِّ الحالاتِ.

فروحُ هذَا الفصلِ الَّذِي استدلَلْنَا عليهِ أنَّ المريدَ لا يُلزِمُ شيئًا معَ ربِّهِ، ولَا يعقدُ عقدًا علىٰ فِعْلٍ منَ الطَّاعاتِ، ثمَّ يخلُّ بهِ وإنْ كانَتِ النِّيَّةُ فِي الدَّوامِ علىٰ الخيراتِ، لا يضرُّهُ إذَا قارنَهَا إضافةُ العونِ لهُ فيمَا نواهُ مِنْ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، فهذَا قدْ نوىٰ خيرًا واعتمدَ علىٰ ربِّهِ في العونِ عليهِ، فهوَ متوكِّلٌ علىٰ فضْلِ مولاهُ فِي سائِرِ الحَرَكَاتِ والسَّكَنَات، بعيدٌ مِنْ لُحُوقِ الآفَاتِ.

وما ذكرَهُ منَ الآيةِ فِي قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ [إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] نقلَ المحاسبِيُّ(٢) عنْ [المُفَسِّرينَ](٣) فِي قولِهِ ـ تعالىٰ ـ: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ قولَينِ:

أحدُهُمَا: أنَّهُ كتبَهَا عليهِمْ ابتغاءَ رضوانِ اللهِ.

والثَّانِي: مَا كتبَهَا عليهِمْ، يعنِي: افترَضَهَا، ولكِنِ ابتدَعُوهَا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ، فكيفَ تكونُ البدعةُ نافلةً، يُقْصَدُ بهَا رضوانُ اللهِ؟!

---

(١) في الأصل: والدالي، والصواب المثبت.

(٢) في الرعاية لحقوق الله ص٣٣، ونسب القول الأول فيه لمجاهد، والثاني لأبي أمامة.

(٣) طمست هذه اللفظة من أثر الترميم في الأصل.

قالَ المحاسبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «وهذَا أولَىٰ التَّفسيرَينِ بالحقِّ، وعليهِ أكثرُ العلماءِ، وأنَّهُ ذمَّهُمْ علَىٰ تضييعِ النَّافلةِ الَّتِي ابتدَعُوهَا ولمْ يقومُوا بهَا حقَّ القيامِ»، وجعلَهُمْ فاسقِينَ(٢)، أيْ: خارجِينَ عنِ الحقِّ.

وأمَّا وجهُ كونِهَا بدعةً: أنَّهُمْ أوَّلُ مَنْ قامَ بهذِهِ النَّافلةِ؛ لصعوبَتِهَا، فيكونُ ابتداعُهُمُ الدُّخولَ فيهَا للقيامِ بهَا، وإلَّا لابُدَّ أنْ يكونَ مطلوبَهُ، ولَوْ لمْ يكُنْ مطلوبه لمْ يكُنْ نفْلًا ولا فرْضًا.

ومثالُهُ: أنَّ الاعتكافَ طاعةٌ، ولكنَّهُ [٣/١١٨أ] مُشِقٌّ، ما دخلَ فيهِ إلَّا آحادُ النَّاسِ مِنَ الأقوياءِ، وكذلِكَ الوصالُ طاعةٌ ولَوْ لَمْ يكنْ طاعةً مَا فعلَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنَّمَا قصدَ التَّخفيفَ عنْ أمَّتِهِ، ولهذَا سمَّىٰ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قيامَ رمضانَ علَىٰ إمامٍ واحدٍ بدعةً، فقالَ(٣): «نِعْمَتِ البدعةُ هذِهِ، والَّتِي ينامُونَ عنهَا أفضلُ(٤)»، فقدْ ذمَّهُمُ اللهُ فِي هذِهِ الآيةِ وسمَّاهُمْ فاسقِينَ؛ لكونِهِمْ لَمْ يقومُوا بمَا دخلُوا فيهِ منَ النَّافلةِ.

قولُهُ: «**نَقْضُ العَهْدِ فِي طريقِ الإرادةِ لمَا التزَمَهُ المريدُ معَ شَيْخِهِ أوْ لِرَبِّهِ كَالرِّدَّةِ**»، لمْ يردِ المشابهةَ مِنْ كلِّ وجهٍ حتَّىٰ يكونَ كُفْرًا، وإنَّمَا أرادَ بهِ أنَّهُ يختلُّ عليهِ ما تقدَّمَ مِنْ أحوالِهِ ومعاملاتِهِ معَ ربِّهِ حتَّىٰ يحتاجَ إذَا تَابَ أنْ يرجعَ يبتدِئُ مرَّةً أُخْرَىٰ، ويلزمُ توبةً جديدةً وأعمالًا أُخرَ، ومقصودُ هذَا التَّحذيرِ مِنْ نقْضِ العهدِ فيمَا التزمَهُ العبدُ، فإنَّ المُخوَّفَ منهُ المحذورَ شديدٌ، وقَدْ لا يرجعُ العبدُ إلىٰ مَا كانَ عليهِ والعياذُ باللهِ الغَنِيِّ الحَمِيدِ.

---

(١) الرعاية ص٣٣، بتصرف يسير.

(٢) كما في ختام هذه الآية: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١/١١٤، والبيهقي في سننه الصغرىٰ ١/٤٨١.

(٤) فسره العيني بقوله: «أي: الفرقة التي ينامون عن صلاة التراويح أفضل من الفرقة التي يقومون يريد آخر الليل» عمدة القاري ١١/١٢٦.

قَالَ الإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١):

«فَصْلٌ(٢)

وَمِنْ شَأْنِ المُرِيدِ: قِصَرُ الأَمَلِ(٣)؛ فَإِنَّ الفَقِيرَ ابْنُ وَقْتِهِ، فَإِذَا كَانَ لَهُ تَدْبِيرٌ فِي المُسْتَقْبَلِ، وَتَطَلُّعٌ لِغَيرِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الوَقْتِ، وَأَمَّلَ فِيمَا يَسْتَأْنِفُهُ لَا يَجِيءُ مِنْهُ شَيْءٌ».

قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا صحيحٌ، فإنَّ قِصَرَ الأمَلِ ينفعُ المطيعَ والعاصِي جميعًا؛ أَمَّا العاصِي: فإنَّهُ متَىٰ استشعرَ هجومَ الموتِ تخلَّصَ ممَّا هوَ فيهِ منَ الآثامِ، وتطهَّرَ قبلَ لقاءِ ربِّهِ وندمَ علىٰ ما كانَ منهُ منَ الإِجْرَامِ(٤).

وأَمَّا المطيعُ: فإنَّهُ متَىٰ كانَتْ همَّتُهُ متعلِّقَةً بنَيْلِ شيءٍ منَ المقاماتِ ورفيعِ الدَّرجاتِ، فإذَا توهَّمَ هجومَ المَوتِ عليهِ وخافَ أنْ يقطعَهُ عمَّا كانَ يُؤمِّلُهُ منَ الخيراتِ، جدَّ في الطَّلَب، وأعرَضَ عنْ كلِّ سَببٍ وأَرَب، وعمَّرَ وقتَهُ الَّذِي هوَ فيهِ بأحسنِ عمارةٍ علىٰ حسبِ الإمكانِ، وأعرضَ قلبُهُ عمَّا يكونُ فِي الاستقبالِ، فضْلًا عمَّا كانَ، ولهذَا قالُوا: «الصُّوفِيُّ ابنُ وقْتِهِ، لَا التفاتَ لهُ إلىٰ ماضٍ ولَا مستقبلٍ»(٥)، وذلِكَ أنَّ نَظَرَهُ فيمَا يستقبلُهُ منَ الزَّمانِ تَوديرٌ(٦) لِوَقتِهِ الَّذِي هوَ عليهِ الآنَ، فعِمارةُ وقتِهِ هذَا [٣/١١٨ب] بأفضلِ مَا يمكنُهُ أهمُّ الأمورِ عليهِ، وَآكدُ ما يتقرَّبُ بهِ لمَنْ يَرْجُو القُرْبَةَ لديهِ.

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٤.

(٢) في قصر أمل المريد.

(٣) وقصر الأمل هو جماع الخيرات.

(٤) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ٢/١٠٩٠.

(٥) قال العروسي: «لأنه يرىٰ أن الماضي قد مضىٰ بما فيه، والمستأنف أمره لا يدريه، فهو إذا نظر إليهما فقد ضيَّع الوقت الحال بما هو أولىٰ به فيه» نتائج الأفكار ٢/٣٨٥.

(٦) في الأصل: توذير، هو تصحيف، والصواب المثبت، أي: ضيَّع. وقد سبق التعليق علىٰ ذلك في الدلالة ١/٢٩٦.

❁ **قَالَ الإِمَامُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

« فَصْلٌ »[(٢)]

وَمِنْ شَأْنِ المُرِيدِ: أَلَّا يَكُونَ لَهُ مَعْلُومٌ[(٣)] وَإِنْ قَلَّ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ بَيْنَ الفُقَرَاءِ؛ فَإِنَّ ظُلْمَةَ المَعْلُومِ[(٤)] تُطْفِئُ نُورَ القَلْبِ».

❁ **قَالَ الشَّارِحُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذَا «المعلومُ» الَّذِي أشارَ إليهِ لا يخلُو مِنْ أنْ يكونَ: مالًا حاصلًا، أوْ سببًا معتادًا جاريًا، وإذَا كانَ كذلِكَ لا يخلُو مِنْ أنْ يكونَ: قدرَ كفايتِهِ أوْ فيهِ فضولٌ؛ فأمَّا قدرُ كفايتِهِ فلا يضرُّهُ حصولُهُ، ولَا الالتفاتُ لحصولِهِ، إذا كانَ مُمْكِنًا واعتمدَ علىٰ ربِّهِ فِي تيسيرِهِ، ولمْ يحضرْ عندَهُ، ولمْ يعرِفْ مَنْ هوَ أَوْلَىٰ بهِ فِي احتياجِهِ إليهِ، ولمْ يُمْكِنْهُ الصَّبْرُ عنهُ، فهذهِ قيودٌ تخلِّصُ مقدارَ الحاجةِ، وتُجوِّزُ حفظَهُ وطلبَهُ.

وإذَا تقرَّرَ هذَا قلنَا: قَدْ يريدُ بـ«المعلومِ» شيئًا آخرَ، وإنْ كانَ راجعًا إلىٰ مقدارِ الحاجةِ؛ وهوَ سُكُونُ القلبِ إليهِ، والاعتمادُ علىٰ حُصُولِهِ حِسًّا أوِ اعتيادًا، وهذَا مُضِرٌّ فِي الطَّرِيقِ جدًّا؛ لأنَّهُ اعتمادٌ علىٰ غيرِ اللهِ، وفَواتٌ لمقامِ التَّوكُّلِ علىٰ اللهِ، فإنَّ التَّوكُّلَ علىٰ اللهِ جارٍ فِي كلِّ سببٍ، سواءٌ كانَ السَّببُ مُحتَاجًا إليهِ أوْ غيرَ محتاجٍ، مطلوبًا كانَ أوْ مباحًا.

فمَنْ دخلَ فِي عبادةٍ وجبَ عليهِ أنْ يأتِيَ بشروطِهَا، ويعتمدَ علىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ فِي العَونِ عليهَا، وكذلِكَ إذا جُوِّزَ لهُ أَخْذُ قُوتِه مِنْ جهتِهِ فلهُ كسْبُهُ مِنَ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٤.

(٢) في عدم الركون للمعلوم.

(٣) أي: معلوم دنيوي فاضل عن كفايته.

(٤) أي: ظلمة مساكنة النفس إليه.

وجهِهِ، أوْ حفظُهُ لضرورتِهِ، ولكنْ يكونُ واثقًا بمَا فِي يدِ اللهِ أتمَّ ممَّا فِي يدَيهِ، وهذا هوَ التَّوكُّلُ واليقينُ الَّذِي يتعلَّمُ.

وليسَ التَّوكُّلُ تَرْكَ الكسبِ والتَّخلِّي منَ الشُّغلِ، بلِ التَّوكُّلُ ثمرةٌ مِنْ ثَمَراتِ الإيمانِ، دائرٌ علىٰ ركنٍ منْ أركانِ المعرفةِ باللهِ؛ وهوَ أنَّهُ لا ضارَّ ولا نافعَ، ولا معطِي ولا مانعَ سِوَاهُ.

فإذَا تمكَّنَ هذَا المعنىٰ فِي قلبِ العبدِ، وأعانَهُ الحقُّ علىٰ كسْبِهِ والتَّخلُّقِ بهِ لمْ يلتفِتْ لسِوَاهُ، فإنْ كانَ هذا هوَ المعلومَ الَّذِي حُذِّرُوا منَ الوقوعِ فيهِ، الَّذِي بسببِهِ يفوتُ التَّوكُّلُ علىٰ اللهِ، ويسكنُ إلىٰ غيرِ اللهِ، فهذَا صحيحٌ، ويلزمُ عنهُ [١١٩/٣أ] الحِرصُ علىٰ الحاصلِ، والبُخلُ بهِ علىٰ مستحقِّهِ، وأخذُهُ مِنْ غيرِ وجْهِهِ، فقدِ ارتبطَ بهذا الرُّكنِ الرَّديءِ شرورٌ عديدةٌ، ولا سيَّمَا إذَا كانَ العبدُ معَ فقراءَ وقَدْ تَجَرَّدُوا للهِ، وزعمُوا أنَّهُمْ قَصدُوا اللهَ، فَإنْ خَالفَهُمْ فيمَا هُمْ عليهِ وَقَعَ الشَّرُّ والفَسَادُ، وزاغُوا عنِ السَّدَادِ، والعياذُ باللهِ ربِّ العبادِ.

قَالَ الإِمَـامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]:

«فَصْـلٌ[٢]

وَمِنْ شَأْنِ المُرِيدِ ـ بَلْ مِنْ طَرِيقَةِ سَالِكِي هَذَا المَذْهَبِ[٣] ـ: تَرْكُ قَبُولِ رِفْقِ النِّسْوَانِ، فَكَيْفَ التَّعَرُّضُ لِاسْتِجْلَابِ ذَلِكَ؟!

عَلَىٰ هَذَا دَرَجَ شُيُوخُهُم، وَبِذَلِكَ نُقِلَتْ[٤] وَصَايَاهُمْ، وَمَنِ اسْتَصْغَرَ هَذَا[٥] فَعَنْ قَرِيبٍ يَلْقَىٰ مَا يُفْتَضَحُ فِيهِ».

قَالَ الشَّـارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومَا ذكرَهُ مِنْ قبولِ الارتفاقِ مِنَ النِّسوانِ مضِرٌّ جدًّا مِنْ وجهَينِ:

أحدُهُمَا: أنَّ الإكرامَ والصِّلةَ سببٌ عظيمٌ فِي المحبَّةِ، وللشَّرعِ التفاتٌ إلىٰ المباعدةِ بينَ أنفاسِ الرِّجالِ والنِّساءِ.

والثَّانِي: النِّساءُ عندَهُنَّ مِنْ ضَعْفِ العقولِ وقلَّةِ المعرفةِ بالدِّينِ ما يعتقدُونَ فِي الإنسانِ ما ليسَ فيهِ، وَيَصِلُونَهُ علىٰ ظنٍّ منهُنَّ أنَّهُ كيتٌ وكيتٌ، وهوَ بخلافِ ذلكَ، فيكونُ ما يأخذُهُ فيهِ إشكالٌ، لوِ اطَّلعَ عليهِ النِّساءُ وعلِمُوا حقيقتَهُ لمَا بذلُوهُ، وربَّمَا قصَّرَ هوَ فِي بيانِ حالِهِ، وتحدَّثَ بأحوالِ الصَّالحِينَ وحكاياتِ الأولياءِ وصحَّةِ المناماتِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا ينخدعُ بهِ النّسوانُ.

هذَا إنْ سَلِمَ ما يأتِينَهُ[٦] بهِ أنْ يكونَ مِلْكًا لغيرِهِنَّ مِنَ الأزواجِ، ومَنْ فِي

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/٥٨٤.

(٢) في ترك صحبة النسوان.

(٣) أي: مذهب الصوفية، وإن لم يكن مريدًا.

(٤) في (ف)، والرسالة القشيرية: نفذَتْ.

(٥) أي: عدَّهُ صغيرًا؛ وهو قبول رفق النسوان.

(٦) في الأصل: يأتونه، والأصح المثبت.

حِجْرِهِنَّ منَ الأيتامِ، وغيرِ ذلكَ مِنْ جهاتِ الحرامِ[١].

وأمَّا فِي زمانِنَا فَقَدْ زادَ الأمرُ زيادةً فيمَا بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ الصَّالحِينَ علَىٰ زعْمِهِم؛ مِنَ المؤاخاةِ، والاجتماعِ فِي الخلواتِ، وحصولِ المحادثةِ والمباسطةِ وغيرِ ذلكَ منَ الأسبابِ غيرِ المعهوداتِ.

وعلىٰ الجُملةِ: فَأَصْلُ[٢] هذهِ الشُّرورِ هوَ علىٰ ما تقدَّمَ التَّحذيرُ منهُ مِنْ قبولِ الارتفاقِ منهُنَّ معَ وجودِ الحاجاتِ؛ منَ المتجرِّدِينَ ذوِي الفاقاتِ، فِي أكثرِ الأوقاتِ، فإذَا قطعَ المريدُ عنهُ هذَا السَّببَ العظيمَ استراحَ مِنْ قربِهِنَّ وما بعدَهُ ممَّا هلكَ بهِ كثيرٌ ممَّنْ يزعمُ أنَّهُ منَ المتَّقينَ [١١٩/٣ب].

---

(١) أفاده الشيخ زكريا في: إحكام الدلالة ١٠٩١/٢.

(٢) في الأصل: فأهل، والأصح المثبت.

قَالَ الإمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]:

«فَصْـلٌ[(٢)]

وَمِنْ شَأْنِ المُرِيدِ: التَّبَاعُدُ عَنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ صُحْبَتَهُمْ سُمٌّ مُجَرَّبٌ؛ لِأَنَّهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِهِ وَهُوَ يَنْتَقِصُ بِهِم، قَالَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨].. الآية.

وَأَنَّ الزُّهَّادَ يُخرِجُونَ المَالَ عَنِ الكِيسِ تَقَرُّبًا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَأَهْلُ الصَّفَا يُخْرِجُونَ الخَلْقَ وَالمَعَارِفَ مِنَ القَلْبِ تَحَقُّقًا بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[قَالَ الأستاذُ الإمامُ جمالُ الإسلام أبو القاسِم عبد الكريم بن هوازن القُشَيريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدَّس رُوحَهُ ونَوَّر ضَرِيحَهُ][(٣)]: فَهَذِهِ وَصِيَّتُنَا لِلْمُرِيدِينَ، نَسْأَلُ اللهَ الكَرِيمَ لَهُمُ التَّوْفِيقَ، وَأَلَّا يَجْعَلَهَا وَبَالًا عَلَيْنَا.

وَقَدْ نُجِزَ إِمْلَاءُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ فِي أَوَائِلِ سَنَةِ ثَمانٍ وَثَلَاثِين وَأَرْبَعمائَةٍ، نَسْأَلُ اللهَ الكَرِيمَ أَلَّا يَجْعَلَهَا عَلَيْنَا حُجَّةً وَلَا وَبَالًا، إِنَّ الفَضْلَ مِنْهُ مَأْلُوفٌ، وَهُوَ بِالعَفْوِ مَوْصُوفٌ[(٤)]، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ».

❊ قَالَ الشَّارِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأمَّا بُعْدُ المُرِيدِ منْ أبناءِ الدُّنيا فمهمٌّ في حالِهِ أكيدٌ، فإنَّ خُلْطَتَهُمْ كالسُّمِّ القويِّ الشَّديدِ؛ وذلكَ أنَّهُ إنَّما يَسْمَعُ ضدَّ مقصودِهِ، ويرىٰ ما يُضادُّ مُرادَهُ، وهوَ معَ ضعفِهِ وقلَّةِ زُهْدِهِ مائلٌ إلىٰ ما يسمَعُ ويرىٰ، ويُخشَىٰ عليهِ أنْ يرجعَ عمَّا عزمَ عليهِ منَ الخيرِ، ويملكُ قلبَهُ حبُّ الدُّنيا بالكلِّيَّةِ، فيحصلَ فِي قلبِهِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٢/ ٥٨٥.

(٢) في صحبة المريد ووجوب الابتعاد عن أهل الغفلة.

(٣) زيادة من (ف).

(٤) إلىٰ هنا انتهت النسخة (ف).

أصلُ كلِّ شرٍّ ، وهذا هوَ البلاءُ المبينُ ، و«لَوْ كانَتِ الدُّنيَا تزِنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقَىٰ منهَا كافرًا شَرْبَةً»[(١)].

فبُعْدُهُ منهَا ومِنْ خُلطةِ أهلِهَا أسلَمُ لهُ فِي دينِهِ ، وأقربُ لربِّهِ علَىٰ كلِّ حالٍ ما دامَ ضعِيفًا ، فإذَا تمكَّنَ الزُّهدُ فِي قلبِهِ ، وقوِيَتْ رغبتُهُ فِي الخيرِ لا يُبالِي بالدُّخولِ معَهُمْ ، فإنَّ زهدَهُ يحفظُهُ منَ المَيلِ لمَا هُمْ عليهِ ، فإنْ مَنَّ اللهُ عليهِ بكمالِ معرفتِهِ ، والتَّلَذُّذِ بمناجاتِهِ ومراقبتِهِ فِي كلِّ حركةٍ وسكنَةٍ قلَّتْ رغبتُهُ فِي الدُّنيَا بالكلِّيَّةِ ، ولمْ يتضرَّرْ بأحدٍ فيهَا ، وانتفعَ النَّاسُ بهِ ، وكانَ رحمةً للعالمِينَ.

وإنَّمَا أمرْنَاهُ بالبُعدِ عَنْ أبناءِ الدُّنيَا ؛ لمَا هوَ عليهِ منَ الضَّعفِ ، وقُرْبِهِ مِنِ اعتيادِهَا ، والتَّنعُّمِ بلذائذِهَا ، فإذَا وصلَ إلىٰ مقامِ المعرفةِ باللهِ ـ تعالىٰ ـ ، وصارَ شُغْلُهُ بهِ قرَّةَ عينٍ ربَّمَا أعرضَ عَنْ جَمَالِ الآخرةِ وشهواتِهَا ، فضْلًا [٣/١٢٠أ] عنِ الدُّنيَا وجميعِ لذَّاتِهَا ؛ وذلِكَ أنَّ الزُّهَّادَ يُخْرِجُونَ مَا بأيدِيهِمْ منَ الكيسِ ، والعارفونَ يُخرجُونَ الكلَّ منَ القلبِ ، ولا يبقَىٰ لقلوبِهِمْ تعلُّقٌ بغيرِ اللهِ ، فهذَا هوَ الكمالُ ، وحصولُ المرادِ ألَّا يبقَىٰ فِي القلبِ غيرُ اللهِ والشُّغلُ بهِ وبمَا أمرَ.

فهذَا هوَ مَا أردْنَا شرْحَهُ مِنْ كلامِ هذَا الإمامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ؛ ليسهلَ دركُهُ علَىٰ الرَّاغبِ فيه ، ويتيَسَّرَ العملُ بهِ علَىٰ طَالِبِيه ، فنسألُ اللهَ ـ سبحانه ـ أنْ يجعلَ ذلكَ لوجهِهِ وينفعَ بهِ ، وبمَنْ سَاعدَ عليهِ ، وأنْ يجعلَ لنَا معَ الصَّالحِينَ أفضلَ نصيبٍ ، إنَّهُ قريبٌ مجيبٌ.

---

(١) سبق تخريجه.

[وَصِيَّةُ الشَّارِحِ فِي الخِتَامِ]

وَقَدْ رأيتُ بعدَ ذلكَ أنْ أذكُرَ وصيَّةً لطيفةً محتوِيَةً علَىٰ ما نرومُهُ منَ السُّلوكِ، والتَّبَرِّيءِ منَ الحولِ والقوَّةِ، وإضافةَ ذلكَ إلَىٰ ملكِ الملوكِ، ونقرِّبُهَا فِي الشَّبَهِ بأدويةِ الأبدانِ؛ لقُرْبِ ذلكَ منَ الشَّبَهِ بالأديانِ، فإنَّ البدنَ إذا تعذَّرَتْ صحَّتُهُ أسرعَ إليهِ الهَلاكُ، وكذلِكَ الدِّينُ إذَا اختلَّتْ قواعدُهُ لمْ ينتفِعْ بهِ أحَدٌ منَ السُّلَّاكِ، فنقولُ واللهُ المستعانُ:

يَا أُخوَتَاهُ، عليكُمْ بحُسْنِ النِّيَّةِ أوَّلًا للهِ ـ تعالىٰ ـ؛ فإنَّهَا أصلٌ فِي جميعِ الطَّاعاتِ، وعليكُمْ بالبُعْدِ منَ الفضولِ ما أمكَنَكُمْ علَىٰ الجُملةِ منْ غيرِ تفصيلٍ فِي وجهٍ منَ الوجوهِ ولا حالةٍ منَ الحالاتِ، والفضولُ هوَ ما يُسْتَغْنَىٰ عنهُ دِينًا، وكلُّ شيءٍ استغنَىٰ الإنسانُ عنهُ دِينًا فراحتُهُ منهُ أسلَمُ منَ المُشوِّشَاتِ والمُشغِلَاتِ، فإنَّ القلبَ إذا اقتصَرَ علَىٰ ما لا بُدَّ منهُ، وأعرَضَ عنِ الفُضُولِ سلِمَتْ لهُ طاعاتُهُ الَّتِي نواهَا لربِّهِ فيمَا يفعلُ ويقولُ.

وإنَّمَا قلنَا: «**علَىٰ التَّعميمِ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ**» حتَّىٰ يشملَ أسبابَ الدُّنيَا والدِّينِ؛ منَ الطَّعامِ والشَّرابِ والمَنَامِ، وكذلِكَ الاستماعُ والنَّظرُ والكلامُ، وكذلِكَ الجلوسُ والتَّصرُّفُ بالأبدانِ، بالأيدِي وعلَىٰ الأقدامِ.

ففِي كُلٍّ مِنْ هذِهِ الأقسامِ نوعٌ منَ الفضولِ، يعرفُهُ مَنِ استقامَ، والَّذِي يدلُّ علىٰ كمالِ هذا الأصلِ وفضْلِهِ فِي الدِّينِ والدُّنيَا كلامُ سيِّدِ المرسلِينَ، العالِمِ بمَا هوَ أفضلُ عندَ ربِّهِ باليقينِ، قالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ [٣/١٢٠ب] المَرْءِ تَرْكُهُ

---

(١) سبق تخريجه.

مَا لَا يَعْنِيهِ»، كلمةٌ جامعةٌ للإعراضِ عَنْ كلِّ فُضُولٍ، وتحصيلِ كلِّ محتاجٍ إليهِ، ومدحٍ لأفضلِ الحالاتِ.

فإذَا نوىٰ للهِ الطَّاعاتِ، وعزمَ علىٰ تركِهَا كمَا يشغلُهُ عنهَا أوْ يشوِّشُهَا عليهِ استقامَتْ لهُ السَّبيلُ إلىٰ نَيلِ أعالِي الدَّرجاتِ، ويتعرَّفُ الفضلةَ المستغنىٰ عنهَا منَ المحتاجِ إليهِ في دينِهِ ودُنياهُ بتحسُّسِهِ لحالِهِ والاستدلالِ علىٰ كلِّ فعلٍ وحركةٍ بالأدلَّةِ الواضحاتِ، فإنْ كانَ منَ العلماءِ أُولِي البصائرِ فِي الدِّينِ استغنىٰ عَنْ غيرِهِ منَ المُقلِّدينَ، وإنْ كانَ بخلافِ ذلكَ فلا بُدَّ لهُ منَ التَّقليدِ للعلماءِ، وليختَرْ منهُمْ مَنْ يقلِّدُهُ علَىٰ حسبِ إمكانِهِ بالسُّؤالِ منَ الفُضلاءِ الأذكياءِ، فإذَا عرَفَ فضلَ النَّاسِ في دينِهِ وعِلْمِهِ علَىٰ حسبِ إمكانِهِ وفَهْمِهِ اعتمدَ علىٰ قولِهِ، وكانَ حجَّةً لهُ عندَ ربِّهِ، وإيَّاهُ وقولَ بعضِ المُريدِينَ الجاهلِينَ بتَرْكِ التَّقليدِ للعلماءِ، فإنَّهُ زيادةُ ضلالٍ وعمًىٰ، فإنَّهُ إنْ لَمْ يَكُنْ عالِمًا ولا متعلِّمًا فهوَ منَ الَّذينَ قالَ ـ تعالىٰ ـ فيهِمْ: ﴿ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

فإذَا حصلَ لكَ هذَا المقصودُ؛ مِنْ حُسنِ النِّيَّةِ والبُعدِ عنِ الفضولِ، وأخْذِ المحتاجِ إليهِ فِي الأفعالِ والأقوالِ، فعليكَ بِأُسِّ الخيرِ فِي الدِّينِ؛ وهوَ طلبُ اللُّقمةِ الحلالِ، وإيَّاكَ أنْ تكونَ منَ الغافلينَ، وتقولَ[1]: «لَوْ كانَتِ الدُّنيَا دمًا عبيطًا كانَ قوتُ المؤمنِ منهَا حلالًا»، وهذَا التَّقديرُ ما كانَ ولَا يكونُ، ولمْ يزَلِ الخيرُ ومعرفةُ الحلالِ والحرامِ، وعليهِ طائفةٌ منَ الحقِّ ظاهرِينَ لا يضرُّهُمْ مَنْ خالَفَهُمْ إلىٰ يومِ القيامةِ.

وإيَّاكَ والتَّغالِيَ والقولَ: «**كلُّ مَا بأيدِي النَّاسِ حرامٌ، ولا يمكنُنِي الاحترازُ عنهُ**»، فليسَ بصحيحٍ، والعلمُ يبيِّنُ لكَ ما تفعلُ وتتركُ؛ إمَّا بنفسِكَ أوْ بالتَّقليدِ،

---

(١) سبق تخريجه.

يُفتِيكَ العالِمُ فِي أيِّ مقامٍ شئْتَ ؛ إنْ شئْتَ فِي الجائِزِ ، وإنْ شئْتَ فِي الورعِ ، وإنْ شئْتَ فِي أفضلِ المندوبِينَ علىٰ حسبِ مقامِكَ ودرجتِكَ .

فإذَا امتَثَلْتَ ما أُمِرْتَ بهِ فِي نفسِكَ وفيمَنْ تعاملُهُ ، فهذَا هوَ الحلالُ ؛ لأنَّ الحرامَ ما منعَ الشَّرعُ منهُ ، والحلالَ مَا أباحَهُ وجوَّزَهُ ، فإذَا لمْ [۱۲۱/۳أ] يكنْ فِي أفعالِكَ وعقودِكِ المتعلِّقَةِ بمَا تحتاجُ إليهِ فِي طعامِكَ وشرابِكَ ، ولباسِكَ ونكاحِكَ ، وبيعِكَ وشرابِكَ ما يكرهُهُ الشَّرعُ لا بالنِّسبةِ إليكَ ، ولا لمَنْ تعاملُهُ ، فهذَا القدْرُ كافيكَ ، وأعرِضْ عمَّا سِوَىٰ ذلِكَ فهوَ وَسْوَسةٌ ، يُلبِّسُ عليكَ الشَّيطانُ حتَّىٰ يصدَّكَ عنْ طلبِ الحلالِ بالكلِّيَّةِ .

فإذَا يسَّرَ اللهُ لكَ هذَا المقامَ ، فاقتصِرْ منهُ علىٰ ما دلَلْتُكَ عليهِ أوَّلًا ، وهوَ المحتاجُ إليهِ ، وأعرِضْ عَنْ فُضُولِهِ ، فإنَّ الفضولَ فِي الحلالِ يؤثِّرُ الإعراضُ عنهُ في فراغِ القلوبِ عنِ المُشغلاتِ ، والتَّفرُّغِ لإيقاعِ الطَّاعاتِ ، علىٰ أكمَلِ الجهاتِ .

وإذا يسَّرَ اللهُ لكَ الاشتغالَ بالطَّاعاتِ ؛ الواجباتِ والمندوباتِ ، وأوقعْتَهَا علىٰ أكملِ الجهاتِ ، في التَّقرُّبِ لخالقِ الأرضِ والسَّماواتِ ، فإيَّاكَ أنْ تغفلَ عنِ الاستعانةِ بربِّكَ عليهَا ، أوْ ترىٰ نفسَكَ ساكنةً مائلةً إليهَا ، بَلْ تَبَرَّأْ مِنْ حولِكَ وقوَّتِكِ ، واشكرْ ربَّكَ علىٰ ما يسَّرَهُ لكَ مِنْ طاعتِكَ ، فإنَّ هذَا المحلَّ زلَّ فيهِ الأعيانُ ، فكيفَ بمَنْ دونَهُمْ معَ ضعْفِ العقولِ ونَقْصِ الأديانِ ؟!

فإذَا تبرَّأْتَ منْ إضافةِ الأفعالِ لنفسِكَ ، ومدحِكَ لهَا وسلِمْتَ مِنْ عُجْبِكَ ، وإدلالِكَ وكِبْرِكَ بإذْنِ ربِّكَ ، فأكْثِرْ شُكرَهُ وذِكْرَهُ علىٰ هذهِ النِّعمِ الَّتِي لا قدرةَ لكَ معَ ضَعفِكَ علَىٰ القيامِ بشيءٍ منهَا إلَّا بإعانتِهِ وفضْلِهِ وكرامتِهِ ، فإذَا يسَّرَكَ اللهُ ـ يا أخِي ـ لهذِهِ الخيراتِ ، رَتِّبْ أوقاتَكَ فِي ليلِكَ ونهارِكَ علىٰ أَصْنافِ العِبَاداتِ .

وإيَّاكَ أنْ يَسْتَزِلَّكَ اللَّعِينُ ، وَتَتْرُكَ ما دَرَجَ عليهِ الصَّدرُ الأوَّلُ منَ الصَّحابةِ

والتَّابعين ؛ مِنَ الشُّغلِ بالصَّلاةِ والصِّيامِ ودوامِ الذِّكْرِ للهِ ـ تعالىٰ ـ ، والخَلْقُ فِي غفلةٍ عنهُ نيامٌ.

وإيَّاكَ أنْ يُخطِرَ لكَ اللَّعينُ ما أخطَرَهُ لأهلِ الفسادِ ، حتَّىٰ ضلُّوا عنِ التَّوفيقِ والسَّدادِ ، وزعمُوا أنَّ هذِهِ العباداتِ والأورادَ إنَّمَا جُعِلَتْ أسبابًا للوصولِ للمطلوبِ والمرادِ ؛ وهوَ أنْ يعرفُوا اللهَ ـ تعالىٰ ـ ويُعظِّمُوهُ[1] ، فإذَا وصلُوا إلىٰ ذلِكَ تركُوا ما كانُوا فيهِ منَ العبادةِ وأهملَوهُ ، فتزلَّ بكَ القَدَمُ ، وَتَنْدَمَ حيثُ لا يَنْفَعُ النَّدمُ ، فإنَّ معرفةَ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وحدَهَا لَا تُنْجِي ، وإنَّمَا ينجُو العبدُ مِنْ مولَاهُ بعدَ معرفتِهِ إيَّاه ؛ بفِعْلِ ما أَمَرَهُ بهِ واجتنابِ ما عنهُ نَهاه.

وابعدْ [١٢١/٣ب] ـ وفَّقكَ اللهُ ـ منَ النَّاسِ ما أمكنَ ، وكُفَّ نَظَرَكَ عَنْ رُؤيةِ الأشخاصِ والاقتداءِ بالأحوالِ فِي هذَا الزَّمانِ فيمَا بينَ النَّاسِ ، وليَكُنِ اعتمادُكَ علىٰ مَا علِمْتَهُ بالتَّحقيقِ ، أوْ صِرْتَ إليهِ بالتَّقليدِ والتَّصديقِ ، جعلَنِي اللهُ وإيَّاكَ وجميعَ المسلِمينَ ممَّنْ سبقَتْ لهُ منهُ السَّعادةُ فِي الأزَل ، وجنَّبَنِي وإيَّاكَ والمسلمِينَ التَّقصيرَ فِي حقِّهِ والكَسْلَ.

وصلَّىٰ اللهُ علىٰ سيِّدِ العَرَبِ والعَجَمِ ؛ محمَّدٍ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلَىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ وأتباعِهِ وسلَّمَ.

---

(١) في الأصل: ويعظمونه ، والأصح المثبت ؛ لأنه معطوف علىٰ الفعل المنصوب قبله ، وليناسب السجع بعده في لفظة: «وأهملوه».

خواتمُ النسخ المعتمَدة في التحقيق

أولا: نسخ (الدلالة على فوائد الرسالة):

١ ـ ختام النسخة (أ)

«كمُلَ كتابُ: «**الدَّلالةِ على فَوائدِ الرِّسالةِ**»، بحمدِ اللهِ ـ تعالىٰ ـ وَعَوْنِهِ.

نُسِخَ فِي سنةِ ثلاثٍ وأربعِينَ وسبعمائةٍ، منْ نُسْخَةٍ قُوبِلَتْ علَى الشَّارحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكَتَبَ المُقابِلُ لهَا على شارِحِهَا فِي آخرِهَا: «وكانَ الفراغُ مِنْ إملاءِ هذَا الشَّرحِ المباركِ فِي سنةِ ثمانٍ وثلاثِينَ وستِّمائةٍ».

غفرَ اللهُ لناسخِهِ ولمالِكِهِ، وللنَّاظِرِ فيهِ، ولوالديهِم، ولجميعِ المسلمِين».

وجاء بحاشيتها: «قابل هذه النسخة المباركة، نفع [الله] بها مالكها، من أولها إلىٰ آخرها مقابلةَ [إحكامٍ] واتقان حسب الطاقة والإمكان فقير رحمة ربه، المعترف بذنبه.. لطفَ الله به، وصارت هذه النسخة يُعتمد عليها إن شاء الله ويرجع فيما خالفه.. ولله الحمد أولا وآخرًا.. وصلاته وسلامه على الأتمان على سيدنا محمد وآله وصحبه سلامًا دائمًا أبدًا إلىٰ يوم الدين».

٢ ـ ختام النسخة (ب)

«نجز الجزء الأول، يتلوه ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ فِي الثاني: (قال الإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: باب الاستقامة).... والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم، بمنه وكرمه، تعليق فقير رحمة ربه: محمد بن

محمد بن علي الزيدي الحنفي، بتاريخ سادس عشري شهر شوال، سنة ثلاث وستين وثمانمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

٣ ـ ختام النسخة (ج)

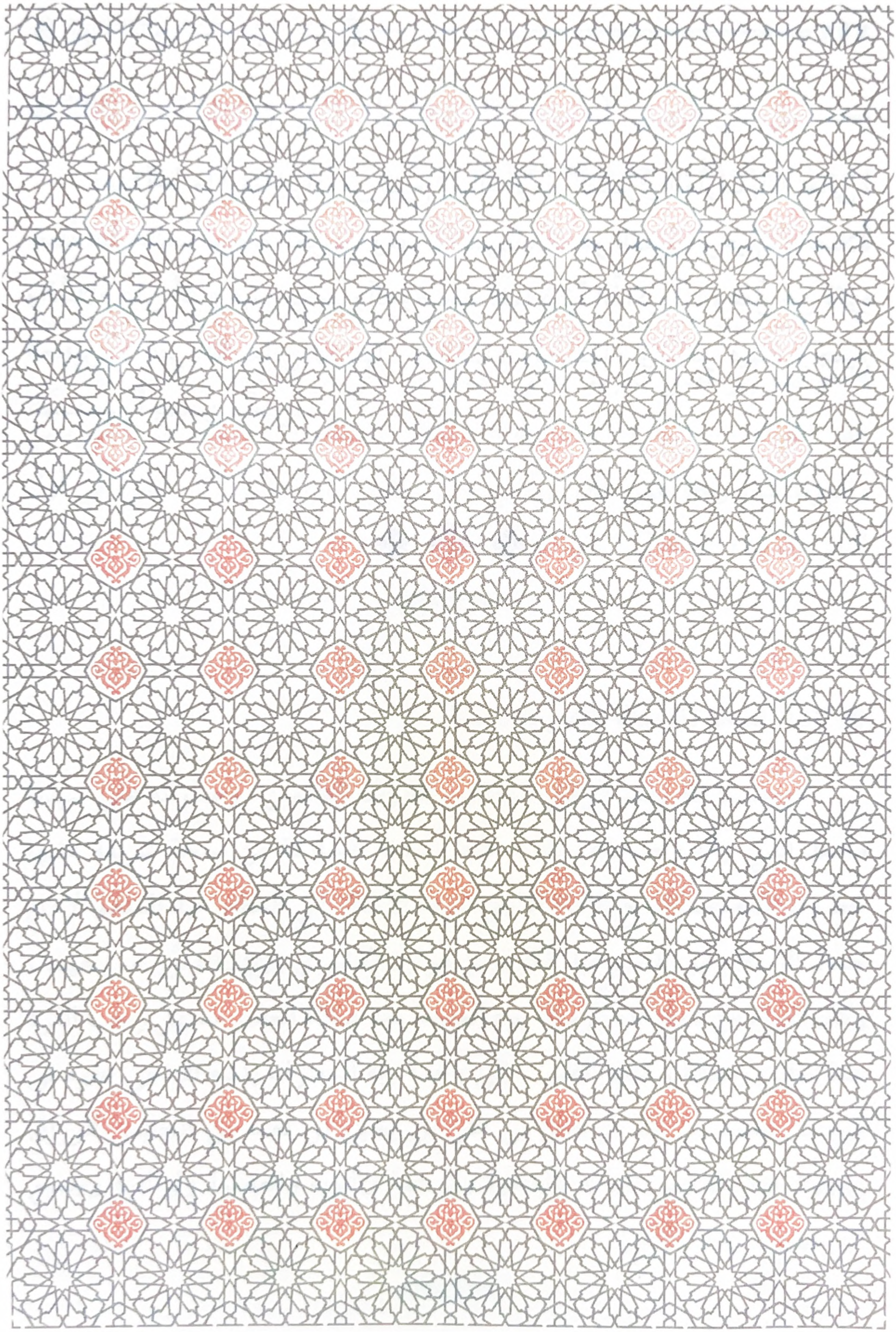
«تم استنساخ المجلد الأول من كتاب (الدلالة) بيد الخادم أقل العبيد وأحوجهم إلىٰ فضل الكريم العالي: عيسىٰ بن علي بن إبراهيم بن عمير الهلالي، غفر الله له ولوالديه وأولاده وذويه ولسائر المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، وعفا عمن كان سببًا في ذلك وكفاه السوء والمهالك. يتلوه في أول الثاني إن شاء الله تعالىٰ: باب الورع».

ثانيًا: نسخة (الرسالة القشيرية ـ ف):

«وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين، وصلواته علىٰ سيدنا محمد النبي وآله وأصحابه، نقلت هذه النسخة المباركة من نسخة شريفة عليها خط ولد المصنف الشيخ الإمام الأجل شرف الأئمة: أبي المظفر عبد المنعم الإمام جمال الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري رضي الله عنهما ونوَّر ضريحهما، وكان الفراغ من نسخ هذه الرسالة يوم الجمعة بعد صلاة العصر مستهل رجب الفرد سنة ثمان وستمائة، كتبها الفقير ـ إلىٰ رحمة ربه المعترف بذنبه الراجي عفوه في قبره ـ: محمد بن عبد الرحمن بن علي بن يحيىٰ بن نعمه بن الجليس الوراق بمصر، غفر الله لمن دعا له بالمغفرة والرحمة والتوبة والعصمة ولوالديه وجميع المسلمين، وقال: آمين».

ثالثًا: نسخة (إحكام الدلالة على تحرير الرسالة ـ ر):

«هذا آخرُ ما أردنَا إيرادهُ من شرح رسالة الإمام القشيري العارف بالله تعالىٰ، جعلهُ اللهُ خالصًا لوجهه الكريم، وغفر لنا ذنوبنَا، إنه هو الغفورُ الرحيمُ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ أكرمِ عبدِهِ محمدٍ وآلهِ وصحبهِ كُلَّمَا ذكرَهُ الذَّاكرونَ، وغفلَ عن ذكرِهِ الغافلون، غفرَ اللهُ تعالىٰ لكاتِبهَا، ومَالكهَا، ومُصَنِّفهَا، والنَّاظرِ فيها، وجميعِ المسلمين أجمعين، آمين».



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضُوع	الصَّفْحَة

الموضوع	الصفحة